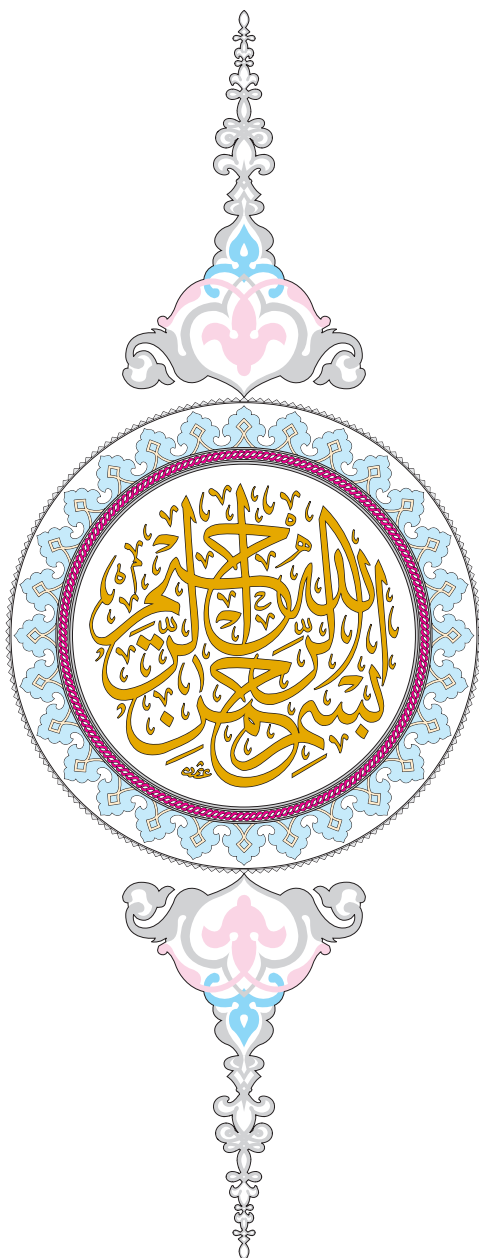
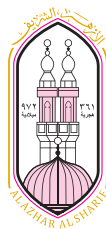






مَجْلَّةُ الْإِسْلَامِ

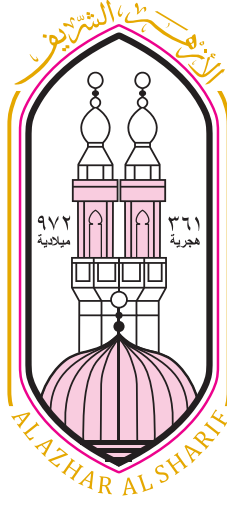
مَجْلَّةُ شَرْعِيَّةِ جَامِعَةِ

تَصَدَّرَ عَنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ فِي أَوَّلِ كُلِّ شَهْرِ عَرَبِي

٢١

المجلد الحادي والعشرون

السنة ١٣٦٩ هـ



مشيخة الأزهر الشريف

تليفون : 25907497 / 25899823

فاكس : 25903974 / المحمول : 01114242123

www.azhar.eg

جميع الحقوق محفوظة للأزهر الشريف

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

سقيفة الصفا العلمية

SAQIFAT AL-SAFATRUST

لبوان - ماليزيا

www.saqifat-alsafa.org

E-mail : info@saqifat-alsafa.org

مَجَلَّةُ الْأَزْهَرِ

المجلد الحادى والعشرون

۱۰
۲۵۵۵۵

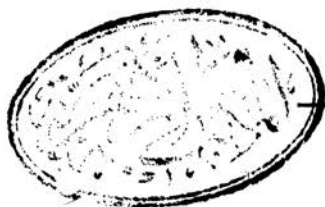
مدير المجلة
ورئيس تحريرها
مجاهد بن صالح بلي

الاشترك السنوى

٤٠	لمصر والسودان
٥٠	لمخارج القطر المصرى

ثمن العدد • ٤ مليا

الإدارة المسجلة : بديوان الإدارة العامة للأزهر والمعاهد الدينية بالقاهرة



مطبعة الأزهر

1949

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة السنة الحادية والعشرين

لمجلة الأزهر

نحمدك اللهم على ما أسديت إلينا من سداد فيما نحن بسبيله من خدمة دينك الحق ، الذى شرعته هداية للخلق ، ونصلى ونسلم على رسولك محمد خاتم النبيين ، المبعوث الى الناس أجمعين ، وعلى آله وصحبه ومتبعيه الى يوم الدين .

أما بعد : فإننا بهذا العدد من مجلة الأزهر نفتتح السنة الحادية والعشرين لوجودها عاملة على خدمة الإسلام ، ماضية فى سبيلها قد ما لا تنى ولا تقتر ، رافعة علمه عاليا فى الخافقين ، ملاقية من المسلمين فى جميع بقاع الأرض تأهيلا وترحيبا . فمن كان من أهل تلك البقاع يفهم العربية و يقرؤها فقمده حظى منها بأمنية كان يتشهاها من قبل ولا يحدها ، فلما تحققت أقبل عليها لإقبال الهيم على المورد العذب . ومن كان منهم لا يفهم العربية ولا يقرؤها ، يترقب ما يترجمه بعض كتابهم منها وينشرونه فى مجلاتهم . فكانت هذه المجلة من أسباب إيقاظ القلوب فى العالم الإسلامى كله .

ويرى القراء مما تنوخاه هذه المجلة من الإكثار من نشر مقالات لنبغاء الأزهرين ، أن الأزهر أصبح لا يقل عن أية جامعة أخرى فى تنشئته كبار المفكرين الذين يستطيعون أن يؤدوا واجبهم الدينى على أتم ما يجب أن يكون عليه من بلاغة وتدليل .

وقد زدنا فى عنايتنا باللغة العربية التى خصص لها الأزهر كلية خاصة حفظاً لها من الضعف الذى كانت تنيت به ، فعطينا بنشر مواضع شتى لكثير من نبغائها ، ويرى القراء أنهم قد تفوقوا فى هذا المجال على سواهم ، وفى حفظ مكانة اللغة العربية حفظ للدين .

ولم في هذا المتنام أرى من واجبي أن أنوه بما لجلالة الملك فاروق الاول من الفضل في هذه النهضة الأزهرية ؛ فقد حاطها بجلالته بعنايته ، وتعهدها برعايته ، ورفع من شأنها بتوجيهاته ، فكانت ثمرة هذه العناية الملكية ما هي فيه اليوم من تقدم وارتقاء . ولما لئرجو أن يبلغ الأزهر الشأو الذي يريده له بفضل الله وكرمه .

ولما لا أنسى أن ننوه بما لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر من العناية بإبلاغ الأزهر الى الغاية المرجوة له ، بما أوتي من الكياسة النادرة ، والرعاية القويمة .

ولا يجوز أن ننفل هنا التنويه بذكر حضرات أصحاب الفضيلة العلماء الاعلام الذين يساهمون في تحرير مجلة الأزهر ، فإنهم يبذلون أحسن ما عندهم من المواهب العقلية والعلمية للإشادة بذكر الإسلام وبيان فضائله وبيئاته ؛ ويسرنا أن نخبرهم أن ما يكتبونه يقدر قدره في البلاد الإسلامية كافة ، وينقل بعضه الى لغات أهلها وينتفع به ، وينشر بين ظهرانهم محوطا بالتقدير العظيم والعناية التامة .

فالله نسأل أن يسدد خطواتنا ، وأن يهبنا من فضله قوة على القيام بحقها ، فإنها وأيم الحق لمهمة يجب أن يبذل فيها كل جهد ، وأن توقف عليها كل قوة منا ومن الذين يعملون معنا ، والله يهدينا الى سواء السبيل ؟

محمد فريد ومحمد

احتفال الازهر بالعام الهجرى

احتفل الازهر فى يوم الاحد الثالث والعشرين من شهر اكتوبر الجارى بأول العام الهجرى لسنة ١٣٩٦ ، فاحتشد ألوف من المحتفلين يتقدمهم سعادة المحافظ ، وكان يستقبلهم صاحباً الفضيلة الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الازهر ، والشيخ محمود أبو العيون السكرتير العام . فألقى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الاكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى كلمة جامعة ، تجلت فى ثوب من البيان الرفيع ، فذكر الهجرة النبوية وما دعا إليها وما آلت إليه . فوقعت من الحاضرين أجمل موقع ، وهتفوا بحياة جلالة الملك المحبوب ، ثم انصرفوا شاكرين . وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم :

الحمد لله الذى هدانا الى صراطه المستقيم ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، الذى بَلَغَ رسالات ربه فكان رحمةً للعالمين .

أما بعد : فيستقبل المسلمون اليوم فى جميع بقاع الأرض عامهم الهجرى الجديد فرحين مستبشرين ؛ لأنهم إذ يحتفلون به إنما يحتفلون بذكرى مجيدة عزيزة على المؤمنين ؛ ذكرى الهجرة النبوية المباركة التى جعلها الله فاتحة خير للإنسانية . فقد خرجت بالإنسانية من ظلمات الجهل الى نور الهداية ، وقضت على الشرك وأهله ، فعمّت المعرفة ، وعزّ الحق ، وتحررت النفوس من ذل العبودية .

وهم إذ يذكرون الهجرة المباركة يذكرون حادثاً من أهم الحوادث خطراً فى مغزاه وفى أثره ؛ حادثاً تجلت فيه البطولة الخالدة للنبي الأمين ، وتجلت صفات الإيثار والصبر والإيمان ، فغلب شعباً بأكماله على أمره ، وردّه عن زيف معتقداته الى الحق واليقين .

ظلت الجزيرة العربية تسودها الأوهام والضلالات ، وتتخبط فى دياجير الشرك والجهالة ، الى أن أراد الله بها خيراً ، فبعث فيها سيدنا محمداً صلى الله عليه

وسلم بدين الهدى ودين الحق ، يدعو الناس الى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، فألقدها من ضلالها ، وأقالها من عثارها ، وهداها سواء السبيل . ولكن على ما جلبه لها من خير ، لم يبق من قومه وعشيرته إلا جحودا ونكرانا ، فجاهدواهم على غيهم ، وكافهم في سبيل تحقيق دعوته ، واحتمل أذاهم بصبر جميل .

ولقد بدأ عليه الصلاة والسلام يدعو من الناس من يتوسم فيه الخير سرآ ، حتى إذا أمر بالجهر بدعوته ؛ وقد استجاب لها نفر قليل بمن أنار الله بصائرهم وشرح صدورهم للإيمان ، فآمنوا بما أنزل إليه ، ووقفوا إلى جانبه يشدون أزره . أما سواد الناس من قريش فقد عميت بصائرهم ، وران على قلوبهم غيهم ، فاشتدوا في الحملة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكادوا له ، وأسرفوا في إيذائه . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقابل كيد الكائدين ، واعتداء المعتدين وظلم الباغين ، بإيمان قوى مكين ، فلم يزد أذاهم إلا استمساكا بدعوته ، ومناخفة عن عقيدته ، حتى إذا عدل المشركون عن الشدة إلى الملاينة ، وعن العداوة إلى المصانعة ، وبذلوا له الوعود ، ومنوه بالأموال والجاه والملك والشرف ، أجاهم صلوات الله وسلامه عليه بقوله المأثور والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه ، ! فزاد ذلك الموقف الكريم المشركين عنادا ، وغيا على غيهم ، وضلالا على ضلالهم ، ونالوا المسلمين بأذاهم ، غير متورعين ولا متعففين .

فلما اشتد بالمسلمين الكرب ، وعظمت عليهم البلية ، أمرهم بالهجرة من إيذاء قريش وغيرها . ولكن قريشا أبى عليها شيطانها إلا أن تزداد أذىً لمحمد ، حتى بلغ بهم الكيد أن ائتمروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتلوه ، فيطفئوا نورا أراد الله له الإشراق ، ويقضوا على دعوة قضى الله لها القيام والانتشار .

دبروا وأحكموا التدبير ، وانتهى رأيهم على أن يقتلوه — صلى الله عليه وسلم — واتفقوا على أن يقوم بالقتل جماعة من فتيانهم الأشداء من جميع القبائل ، فينقضوا عليه فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل ،

ولا يقدر بنو عبد المطلب على الثأر له ، فأطلع الله تعالى على ما بيّتوا له ، وأمره بالهجرة في الليلة التي حدّدها المشركون لقتله ؛ فدبر الرسول صلى الله عليه وسلم أمر خروجه ، وبصحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وأعاناه الله على من اتهموا به ، فغشّى على أبصارهم فلم يروه . واتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه طريقه الذي رسم حتى بلغا غار ثور ، فأقاما فيه أياما ، جدت قريش في طلبه والبحث عنه ، وبذلت غاية جهدها للتّحقيق به ؛ ولكن الله أبى إلا أن يتم نوره ، إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانيّ اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بخمود لم تروها ، وجعل كلمة الدين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم .

ثم اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيله الى المدينة تحفّفه عناية الرحمن ، حتى إذا وصل اليها استقبله أهلها مؤمنين بدعوته ، ناصرين لدين الله . وبهذا تمت هجرة الرسول الى المدينة ، ودخلت الدعوة الإسلامية في دور جديد ، أساسه المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، فربط الله بين قلوبهم ، وتضامت صفوفهم في عزة ومنعة ، عزت على قوة قريش وصولتها ، وعم نور الله الآفاق ، وفاض على الجزيرة العربية حتى ملأ البقاع ، ودّكت معالم الشرك ، وانمحت الوثنية ، وأصبحت كلمة الله هي العليا . وهكذا تمت الهجرة المحمدية التي حفظ الله بها دينه ، وانتشر على أعقابها نور الإسلام .

وهذا هو المثل الرفيع الذي ضربه النبي الكريم في التضحية والإيثار ، والمثابرة والاحتمال ، والصبر على الأذى .

وإني إذ أهنئ المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بهذه الذكرى المباركة ، أرجو مخلصاً أن يتخذ إخواني وأبنائي المسلمون منها عظة تنفعنا ، وتقوى إيماننا ، وتربط بين قلوبنا ، وتوحد صفوفنا ، حتى نستطيع أن نستعيد مجدنا ، ونحیی آثار أسلافنا ؛ ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز .

وتتوجه الى الله تعالى بقلوبنا ، وبصدق نياتنا ، أن يجعل عامنا الجديد ، سعيد الطالع ، مبارك النقيية ، مهيئاً للعالم فيه رخاء عظيم ، وسلام مقيم ،

وأن يتفياً فيه المسلمون وحدة تجمع بين قلوبهم ، وتقوى عُرى روابطهم ،
فيستعيدوا في حاضرهم مجدهم الغابر ، وعزهم التالد .

ونضرع اليه سبحانه أن يكلأ وادينا بعين رعايته ، وأن يوفق أبنائه ويؤلف
بين قلوبهم الى ما فيه صالح البلاد ومجد الوطن ، في ظل حضرة صاحب الجلالة
مولانا الملك المعظم « فاروق الاول » أعز الله ملكه ، وأيده بروح من عنده .
اللهم اشرح صدره ، ويسر أمره ، وأحيه حياة طيبة مباركة تهم بنفعها العباد
والبلاد .

ونسألك اللهم يا واسع الفضل والإحسان ، أن تتنعم برحمتك ورضوانك
الراحل الكريم ، مولاي الملك العظيم ، المغفور له « الملك فؤاد الأول » .
اللهم اجعله في أعلى علمين ، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين .

اللهم وفق حكومة جلالة الملك الى ما فيه الخير العميم ، إنك نعم المولى ونعم
النصير . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الناموس الأدبي العام

يرى المتأمل في الوجود أن الشؤون العالمية تجري كلها متبعة سندا ثابتة لا يعثرها أقل انحراف . فالشموس في السماء تحيط بها الكواكب تخترق مواكبها الفضاء بسرعة لا يدركها العقل ؛ وفيها من الكائنات ما لا يدخل تحت حصر ؛ وجميعها محكوم بنواميس طبيعية لا تتخلف عن عملها بأى مؤثر من المؤثرات . ويرى الرائي رأى العين أنها من النظام والإحكام والاستمرار بحيث يقف العقل حياها دهشا ، ولا يرى بدا من الاعتراف بأنها من وضع بارئ الكون الذى وسع كل شيء علما .

هذه النواميس قد أحس بوجودها الإنسان من أول عهده بالنظر والتفكير ، واعتبر ما تحدثه أعمالا صادرة من خالق الوجود ، وهى كذلك عند المحققين ، ولكن الطائفة التى حاولت أن تنكر وجوده جل وعز ، من قدماء الفلاسفة ومحدثهم ، اعتبروها نواميس طبيعية ، وجدت مع الكون من أزل للأزال ، وهو وهم خطير استنكره كبار المتأملين .

لسنا هنا بصدد البحث فى حقيقة النواميس ، ولا فى إثبات وجودها ، فهى ماثلة أمام أعيننا تدبر الوجود ، وتهمين عليه ، وتحفظه من الخطب والتخاذل ؛ وإنما نحن بصدد إثبات وجود ناموس أدبي عام ، الى جانب النواميس المادية ، يقود الأعمال الإنسانية ويربها ويرقيها ، ويدأب على توجيهها الى المثل الأعلى من الوجود الإنسانى .

وجد الإنسان على هذه الأرض عاريا وبغير سلاح ، فكان همه الأول أن يقي نفسه من غوائل الوحوش الضارية ، والتقلبات الجوية المهلكة ، وأن يحصل ما يقيم أوده من ثمرات الأرض . هذه الأمور كانت شغله الشاغل أمدأ حتى هداه عقله الى بناء الأكواخ ، وعمل بعض ضروب السلاح من الأحجار . كل هذا كان تحت هداية مواهبه الذاتية ، وتديره المحدود ، وعلى طريقة التدرج

خلافًا للحيوانات ، فقد خلقت في أجسادها القوى والأسلحة التي تكفيها مؤنة الإنشاء والتدبير .

لسنا بسبيل الكلام في هذا الموضوع ، ولكن بصدد الرقي الأدبي الذي حصله الإنسان في مدى بضعة ألوف من السنين التي عاشها على الأرض . فقد وجد على الأرض وليس لديه أثر من أدب أو مجاملة أو حياء أو سياسة أو نزوع الى تكمّل في الأخلاق والتقاليد الخ ، مما شغل العقل الإنساني واستوعب تفكيره آماداً طويلة ، حتى أصبح بعد أن كان على نحو ما عليه الى الآن متوحشو استراليا وأفريقيا من العرى المطلق والحيوانية الباحتة ، والبهيمية الصرفة ، متجملا بأدب راق ، وتقاليد سامية ، ومعاملة مبنية على التعاطف الأخوى ، وترفع عن إتيان المنكرات علانية ، وتعال عن ركوب الخنا جهرية . وقد وصل كثير من آحاده الى درجة الإيثار ، فيجيعون أنفسهم ليشبعوا الجائع المحتاج ، ويعرضون أنفسهم للخطر ليدفعوا الأذى عن ضعيف لا جريرة له ، بل ويلقون بأنفسهم للهلاك صيانة لعرضهم أن يدنس .

هنا نتساءل : ما الذي أدى بالإنسان الى هذه الدرجة من التصون والعفاف والورع ، إن لم يكن يوجد ناموس طبيعي يدعى بالناموس الأدبي ، حاصل على جميع مميزات النواميس الطبيعية وتبعاتها ؟

نما يدلّك على أنه ناموس طبيعي ، تأثيره العام على جميع النوع البشري في جميع قارات العالم . فالصفات الأدبية من الحلم والوداعة والكرم والإيثار والنجدة والقناعة والترفع والحياء والتصون وحسن المعاملة والاستقامة الخ ، كلها صفات معتبرة في جميع كتب الأخلاق عند جميع الأمم ، شرقيها وغربيها شماليها وجنوبيها أبيضها وأسودها ، وليس بعد هذا دليل على أن هذه الآداب البشرية صادرة عن ناموس طبيعي عام ، مثله كمثّل جميع النواميس الطبيعية .

وإذا كان الأمر كما ذكرنا فإن على مخالفة مقتضيات هذا الناموس الطبيعي العام ، نتائج سيئة تقع على الهيئات التي تنحرف عنها .

إذا تقرر هذا كله فإن ما نراه من حيد الناس عن الآداب الموروثة ، وميلهم

الى التحلل منها ، يفضى الى حدوث فتن اجتماعية تمتد الى الجماعات على صور شتى ، وفي نواح متعددة من مقومات حياتها .

وإذا كان هذا كله حقاً لا مرية فيه ، فلا يجوز لامة من الامم أن تترك هذه الناحية الخطيرة من وجودها الاجتماعى لذوى الميول الحيوانية ، والنزغات الشهوانية ، فيسئروا للناس فى ألبستهم واجتماعاتهم وعاداتهم وعلاقاتهم ببعضهم ببعض ، سنفا تملها عليهم الإباحة المطلقة ؛ فان هذه الإباحة المطلقة لا تستند إلا على أصل واحد ، وهو إشباع الشهوات البهيمية الى أقصى حد ، وفى أسلوب تمويهى مفضوح ، أو ذهاباً مع مبادئ إلحادية وقعوا فى فخها ولم يفتنوا لمغبتها .

على أن المسألة ليست مسألة إيمان أو كفر ، فهى مسألة اجتماعية باحتة . فإن الأمم التى تريد أن تبقى وأن تزداد قوة وفتوة ، وأن تبلغ أقصى غايات المدنية ، يجب أن تتجنب ما يمدو على كيانها ، وما يؤثر على سرعة تقدمها ، وخاصة إذا كانت متخلفة عن غيرها فى ميدان الحضارة والعلم .

فإذا ظلت تنخيل أن الناموس الأدبى استعارة بياانية ، لا حقيقة عالمية ، وأن ليس وراء مخالفته من تبعه مادية ، وألقت بنفسها فى تيار التقليد لمن سبقها فى الوجود ، واعتبرت ما هى عليه من الامور المنافية لهذا الناموس من لوازم المدنية ، فإن هذه بتسكعها فى أهوائها ، وتماديها فى باطلها ، إن حصلت على شئ فلن يكون إلا مظهراً خداعاً من الملبس والمأكل والعادات التى تقتبسها من الأمم التى تحتك بها ؛ أما فى الواقع فإنها بهذا التقليد الأعمى إنما تعمل لهلاكها ، وتهافت على مياداتها .

إنى أرى أول ما يجب على المصلحين فى مثل هذا الدور الذى تسكون فيه الجماعات ، أن يعملوا على تجنبها فى دور نهوضها ، ناحية اللهو والترف والإباحة الشائعة فى الأمم المتقدمة . وذلك بالتدليل لها على أن هذه الامم لما بدأت ترتقى لم تكن على ما هى عليه اليوم من هذه الموبقات الاجتماعية ، وإلا لما وصلت الى هذه الدرجة من المدنية والعلم ، ولهلكت قبل أن تصل الى شئ منها .

وإنها حقيقة يمكن التدليل عليها؛ فإن الدولة الرومانية كانت إبان نهوضها على أخلاق وفضائل ووطنية لم تكن لها حين اعتراها الهرم، واعتراها الضعف، فانتشرت فيها الرذائل، وفشت الفحشاء، وسادت حكمها الرشوة، واعوجاج السيرة، وانحطاط النفس، فأضاعت هذه السفالات دولتهم، وجعلتهم أحاديث لمن بعدهم.

وبعد هذا الاستطراد أقول: إن مارميت إلية بمقالى هذا، ولعل أول قائل به، من الناحية العلمية، هو: وجود ناموس على مثال جميع النواميس، يدعى بالناموس الأدبي، ينظم العلاقات بين بنى الإنسان على قواعد العقل والحكمة والأدب العالى، وإن الدليل على وجوده نشوء آثاره فى جميع الشعوب والجماعات البشرية بعد أن لم تكن، وأن السعى لقلب أوضاعه فى الجماعات يقابل بعقاب يعم الجماعة التى تقر هذا القلب وتعمل به، وهذا العقاب مشاهد محسوس من يدرس المآسى البيئية، والخسائر المالية، والمفاسد الاجتماعية، التى تنخر عظام كل هيئة اجتماعية فى جميع العصور الإنسانية، وهى فى هذا العصر أشد منها فى جميع العصور السابقة، وقد وصلت إلى درجة احتمال تلاشى النوع الإنسانى كله بتأثير الفلاقل الموجودة فى جماعاته، والأضغان المتأججة بين حكوماته. فالذين يدفعون منا الرجال للإباحة الحيوانية، والنساء للتجرد من الحفر والتعدى على الآداب النسوية، ويربون أطفالهم على عدم احترام أبويهم الخ الخ، سيلاقون وبال أمرهم فى نشوء أجيال لا تقف من الطغيان عند حد، وتجد من العقوبات الطبيعية على تعدى حدود الناموس الأدبي، مثل ما تجده من التعدى على أى ناموس طبيعى. والفعال فى هذا كله مدبر الوجود الأعظم، فإنه سبحانه أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

محمد فريد وهبى

حكم الشريعة

في استبدال النقد بالهدى

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت
عضو جماعة كبار العلماء

قال الله تعالى : **وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا ، أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۖ** (١) .

وقال تعالى : **وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ،** (٢) .

وقال تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ، يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ، هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ، أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ سَاكِينٍ ، أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ،** (٣) .

وقال تعالى : «وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ، لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ، فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ ، فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَسَكُوتًا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ، كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (١) .

وقال تعالى : « ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظَّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ . لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ » (٢) .

وقال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ ، وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ ، وَلَا الْهُدَى ، وَلَا الْفَلَائِدَ ، وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ » (٣) .

بهذه الآيات الكريمة ، وبما صح من أحاديث الأئمة ، تقرر في الإسلام أن إراقة الدم نوع من أنواع القربى إلى الله ، وأن هذه القربة لا تقوم إلا بذبح الحيوان وإراقة دمه ، وأن التصديق بشمته لا يغنى ولا يقع عند الله موقع القبول في القيام بهذا المطلوب .

وقد تضمنت الآيات الكريمة النص على الهدى تارة على سبيل التعيين دون أن يكون له بدل ، وتارة على سبيل التعيين مع الالتجاء إلى البدل عند العجز عن الهدى ، وثالثة على سبيل التخيير بينه وبين غيره

كما تضمنت أن مكان الذبح فيما وجب ذبحه هو الحرم : « حتى يبلغ الهدى محله » ، ثم محلها إلى البيت العتيق ، « هدياً بالغ الكعبة » ، وكذلك تضمنت اعتبار البدن والذباح في هذه الأما كن من شعائر الله التي تجب المحافظة عليها ، ولا يصح التهاون فيها أو إغفالها . وحسبنا « لا تحلوا شعائر الله » . والشعائر هي العلامات الواضحة الظاهرة التي اعتبرها الدين مظهرًا من المظاهر العامة ، وهذا لا يتحقق إلا بعمل ظاهر يراه الناس في مناسبات خاصة ، وإذا أردت زيادة في الإيضاح

فانظر الى موقف الشريعة من الأذان : إذ اعتبرته شعيرة من شعائر الدين ، يمتثل أهل القرية أو المدينة على تركها وإن لم تكن من الفرائض .

ألا وإن للشعائر في نظر الإسلام مكانة الفروض المقدسة . وعلى هذا اتفقت كلمة الفقهاء في ذبائح الحج ، ولم نر لواحد منهم خلافاً في ذلك ، نزولاً على حكم هذه الآيات الصريحة الواضحة ، وتحقيقاً للغرض المقصود ، وهو التقرب الى الله بإراقة الدم ؛ والله سبحانه وتعالى أن يتعبد عباده بما يشاء : بما يدركون حكمته ، وبما لا يدركون . وما كان اختلاف الفرائض في عدد الركعات والكيفيات ، وتحديد الأوقات ، واختلاف مقادير الزكاة ، والكفارات ، وسائر ما دخله العد ، أو اعتبرت فيه الكيفية - إلا نوعاً من هذا التعبد الذي يتجلى فيه بوضوح مقتضى العبودية الحقة ، وهو الامتثال لأمر الرب الحكيم ، عقل معناه أو لم يعقل .

والعلماء يذكرون في هذا المقام أن هذه القرية تذكر بجداث الفداء الذي حصل لإبراهيم الخليل وولده عليهما السلام ، وتنبه النفوس المؤمنة إلى مبدأ التضحية في سبيل الله وطاعته بأعز شيء لديها : « وفديناه بذبح عظيم » .

على أن في العمل بهذه القرية سرّاً اقتصادياً يرجع إلى سكان البادية ، ولعله من مصداق دعوة أبيهم إبراهيم حين قال : « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » . ذلك أن الماشية رأس مال أهل البادية ، وموسم الحج هو السوق التي تنفق فيه هذه السلعة ، عن رغبة لا مشقة فيها ، وبذا يحصلون على أرزاقهم من أعمالهم ، ومن ثمن أموالهم ، دون أن يتعرضوا لذل السؤال ، أو يترقبوا المن والعطاء .

من هذا يتضح جلياً أنه لا يجوز للمسلمين أن يفكروا في استبدال النقود بالهدى أو الاضاحى التي طلبها الشارع بذاتها ، إقامة للتصدق بشئها مقامها ؛ إذ ليس القصد هو التصديق ، وإنما القصد - كما قلنا - التقرب بها نفسها . وإننا لو أبجنا لأنفسنا هذا النحو من التفكير - بناء على ما نظن من حكم التشريع - لانتفتح علينا باب التفكير في التخلي عن الأعداد والكيفيات التي طلبت في كثير من العبادات ، ولأمكن لقائل أن

يقول : إن الغرض من الصلاة هو الخضوع ومراقبة الله ، وهما معنيان يحصلان بالقلب ، وبأى مظهر من مظاهر الخضوع والمراقبة ! فليست هناك حاجة إلى ركوع أو سجود أو غيرهما من كفايات الصلاة الخاصة ؛ وبذلك يفتح باب الشر على مصراعيه ، ولا يقف ضرره عند حد الأضاحى وفدية الحج .

أما ما يبررون به مثل هذا التفكير من أن لحوم الذبائح تتكدر في منى ، وتترك للتعفن المفسد للجو ، أو للنار المذهبة للأهوال : فهذه الحالة - إن صحت - ليست ناشئة عن أصل التشريع الذى هو خير كله ، وإنما نشأت عن عدم التنظيم ، وعدم الإلزام بأحكام الشرع ؛ فإن الشرع لم يطلب من كل حاج أن يذبح ، ولم يوجب أن يكون الذبح - فيما يطلب فيه الذبح - فى خصوص منى ولا بمجزرتها ، ولا فى اليوم الأول من أيام النحر ، فأيام النحر كلها زمن للذبح ، والحرم كله مكان للذبح ، والذبح لم يطلب عينا إلا فى حالات مخصوصة ، وما عداها فالحاج مخير بينه وبين غيره : من صدقة أو صيام .

فلو عرف الحجاج أحكام الله على هذا الوجه فيما يختص بالدماء ، فتصدق من لم يطلب منه الذبح ، وذبح من طلب منه الذبح ، وفرقوا الذبح على الأماكن والأيام ، ثم تخيروا الذبيحة من غير العجاف والمرضى ، وهيموها بالسبخ والتقطيع - لما كان لهذه الشكوى موضع ؛ ولكن جرت سنتنا فى التفكير أن نعد الوضع الذى جرت إليه العادات - وإن كانت فاسدة - صورة للتشريع ، فنحكم عليه بالقبح ، ثم نحاول التخلي عنه بالفضاء على أصله ، وبذلك ندخل فى باب من التغيير والتبديل فى أحكام الله ، ولا نلبث بعد ذلك أن نترك الشريعة كلها جانبا ، باستحساننا الفاسد المبني على واقع جرت إليه الجهل وعدم التنظيم .

وبعد : فإن الكلام فى هذا الموضوع ليس وليد اليوم ، بل سبق أن تحدث فيه المرحوم الهلباوى بك مع فضيلة المغفور له أستاذنا الأكبر الشيخ المراغى ، فأحال على فضيلته بحثه من الوجهة الفقهية الشرعية ، فعدت إلى فضيلته بعد البحث الطويل بأن الفقهاء جميعا يعتبرون التعبد فى هذه المسألة بإراقة الدماء ، دون أن أرى فى كلام واحد منهم ما يشير - ولو من بعيد - إلى جواز استبدال النقود بها ؛ فاطمأن فضيلته إلى هذا وأقره ، وقد عرضت على فضيلته اقتراحا هو :

أنه على فرض تكديس اللحوم — كما يقولون ، بعد مراعاة الأحكام الشرعية في زمان الذبح ومكانه ، وطلبه وعدم طلبه — يجب على المسلمين — وفيهم والحمد لله موسرون كثير — أن يعملوا على استخدام إحدى الوسائل الحديثة لحفظ هذه اللحوم وادخارها طيبة ، ثم توزيعها على الفقراء المحتاجين في جميع الأقطار الإسلامية إن ضاق عنها القطر الحجازي ، أو يبيعها بأثمان تصرف فيما ينفع الفقراء والمساكين ، أو في سبيل الله العامة . وإنى أعتقد أن هذا المشروع متى كفله العاهلان العظميان المؤمنان : عاهل مصر ، وعاهل الحجاز ، رأينا آثاره ، وانتفع الناس بشمراته ، في الموسم المقبل ، إن شاء الله .

هذا ما يجب أن ينزل عليه المسلمون في فهم أحكام دينهم ، وفي تنظيم العمل بها ، والمحافظة عليها ، والسلام على من اتبع الهدى .

(مجلة الأزهر) الدين اعتقادات وتكاليف . فناحية الاعتقادات يشترط فيها عندنا تحكيم العقل ، فهو الرادع القوي للخيالات أن تسيطر على المعتقدات ، وما سمح لزعماء الأديان السابقة على الإسلام أن يدخلوا فيها ما شامت لهم الأهواء إلا لغفلهم تحكيم العقل ، بل زعم هؤلاء الرؤساء أن الدين لا يصح أن يخضع لحكم العقل . وما علموا أن هذا يفتح لهم باب الخيالات على مصراعيه فيحملهم رؤسائهم ما يروق لهم أن يحملوه من الخرافات ليقنطادوهم لطاعتهم كما يقنطادون العجاوات . ولكن التكاليف لا يمكن أن يشترط فيها هذا الشرط ؛ لأن من المتدينين جهالا وأنصاف متعلمين لا يتجاوز تعقلهم ما ألقوه في محاولاتهم المحدودة ؛ بل المتعلمون لم يصلوا من العلم إلى نهايته ليدركوا حكم جميع التكاليف الدينية ، فاسنته الشريعة الإسلامية من هذه التكاليف يجب قبولها بدون مناقشة فيها ؛ ألا ترى أن الطفل لا يعقل حتى فائدة الدواء فيهرب من تعاطيه ؛ بل ربما استنكر بعض القيود الصحية وعدّها من أبويه تحكما ، فلما يكبر يدرك أن أبويه كانا على حق فيما ألزماه به منها .

وقد رأينا أن نذيل هذه المقالة القيمة لفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت تأييدا لقوله : والله سبحانه وتعالى أن يتعبد عباده بما يشاء ، بما يدركون حكمته وبما لا يدركون ، .

من ذخائر السنة

أهداف الهجرة

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ فسكرى ياسين

أخرج الشيخان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله ، فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يُصيدها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته الى ما هاجر إليه ، .

تواتر النقل عن الأئمة في فضل هذا الحديث ، وتعظيم قدره ، وكثرة فوائده ، وقد صدر به الإمام البخارى كتابه الصحيح اتباعاً لما كان يستحبه السلف الصالح من تقديمه أمام كل شيء يبتدأ من أمور الدين ، لعموم الحاجة اليه ، وللتنبية على مزيد الاعتناء بحسن النية ، والاهتمام بالإخلاص في الأعمال ، وللإشارة الى أن كل عمل لا يُراد به وجه الله ، لا ثمرة له في الدنيا ولا في الآخرة .

واتفق كثير من الأئمة على أنه أحد الأحاديث التي يدور الدين عليها ، وأنه أصل عظيم من أصول الإسلام .

وقال عنه الحافظ ابن مہدی : لو صَنَّفْتُ كتاباً في الابواب ، لجعلت حديث عمر بن الخطاب في الأعمال بالنيات رأس كل باب ، وينبغي لمن أراد أن يصنف كتاباً أن يبدأ بهذا الحديث .

وقد قيل في سببه ومورده : إنه لما أمر بالهجرة من مكة الى المدينة ، تخلف جماعة عنها ، فذمهم الله بقوله : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم ، وساءت مصيرا ، » ولم يهاجر جماعة آخرون لفقد استطاعتهم ، فعذرهم الله ، واستثناهم بقوله : « إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا ، » وهاجرت جماعة ثالثة ، فدحها الله في غير موضع من كتابه . واشتهر أنه كان بين المهاجرين رجل أراد أن يتزوج امرأة يقال لها : أم قيس ، فأبت أن تزوجه حتى يهاجر ، فهاجر لأجلها ، وتزوج بها ، وكانوا يسمونه مهاجر أم قيس ، فعُرض به ، تنفيراً عن مثل قصده .

وهذا السبب ، وإن كان خاص المورد ، لكن العبرة بعموم اللفظ . وذكر الدنيا مع المرأة من باب زيادة النص على السبب .

صدر الحديث بكلمتين جامعيتين ، وقاعدتين شاملتين ، هما : إنما الأعمال بالنيات ، و : إنما لكل امرئ ما نوى ، ويُراد من الجملة الأولى الإخبار عن الأعمال الاختيارية بأنها لا تقع من العامل إلا عن قصد هو سبب عملها ووجودها ، وبأن صلاح العمل وفساده إنما هو بحسب النية المقتضية لإيجاده ؛ ويُراد من الجملة الثانية الإخبار عن المرء بأنه لا يحصل له من عمله إلا ما نواه به ، فإن نوى خيراً ، حصل له خير ، وإن نوى شراً ، حصل له شر ؛ وبأن ثواب العامل على عمله بحسب نيته الصالحة ، وعقابه عليه بحسب نيته الفاسدة .

وليس المراد في الجملة الأولى نفي ذات العمل ، لأن الذوات غير منفية ، إذ تقدير إنما الأعمال بالنيات : لا عمل إلا بالنية ، ولأن ذات العمل الخالي عن النية موجودة ، وإنما المراد نفي أحكامها المتعلقة بوجودها كالصحة والكمال على اختلاف التقدير فيها ، فقد قال الأئمة الثلاثة بأن التقدير فيها : إنما صحة الأعمال

بالنيات ، وأدخلوا جميع الأعمال من الصلاة والصوم والزكاة والحج والوضوء ، وغير ذلك مما تطلب فيه النية ، عملاً بقضية العموم . وذهب أبو حنيفة وأصحابه الثلاثة ، والثوري ، والأوزاعي وغيرهم ؛ إلى أن التقدير : إنما كمال الأعمال ، أو ثوابها ، أو نحو ذلك بالنيات ، لأنه هو الذى يَطرَد ؛ فإن كثيراً من الأعمال يوجد ويعتبر شرعاً بدونها .

وجعل بعضهم المقدور فى الجملة هو القبول ، فقال : إنما قبول الأعمال بالنيات ، لكنه تردد فى أن القبول هل ينفك عن الصحة أولاً ؟ فعلى أنه ينفك هو كـتقدير السكال ، وعلى أنه لا ينفك هو كـتقدير الصحة .

وقال بعضهم : لا حاجة إلى إضمار محذوف من الصحة أو السكال ، أو نحوهما ، إذ الإضمار خلاف الأصل ، وإنما المراد حقيقة العمل الشرعى ، فلا يحتاج حينئذ إلى إضمار .

وعلى هذه التقادير جميعها ، فإن الخلاف ليس فى اشتراط النية فى المقاصد ، وإنما الخلاف فى اشتراطها فى الوسائل ، ومن شَمَّ لم يشترطها الحنفية فى الوضوء مثلاً ، لأنه مقصود لغيره لا لذاته ، فكيفما حصل ، حصل المقصود ، وصار كستر العورة ، وباقي شروط الصلاة التى لا تفتقر إلى النية .

وليس هناك تكرار بين الجملتين ؛ فإن الحكم قد ذكر بالأولى ، وأكـد بالثانية ، تنبيهاً على شرف الإخلاص ، وتحذيراً من الرياء المانع من الخلاص ؛ وإن الجملة الثانية دلت على أن الأعمال العادية التى لا تتوقف على النية ، قد تفيد الثواب إذا نوى بها فاعلها القربة ، كما دلت على أن من نوى شيئاً يحصل له ثوابه ، وإن لم يعمل له مانع شرعى كـريض تخلف عن الجماعة .

ولما كان فى تينك الجملتين نوع إجمال ، ساق الحديث عقبهما مفرعاً عليهما تفصيل بعض ما تضمنته زيادة للإيضاح ، ونصاً على صورة السبب الباعث على هذا الحديث ، فذكر مثلاً من الأمثال والأعمال المتحدة فى الصورة ، المختلفة صلاحاً وفساداً باختلاف المقاصد والأهداف ؛ وقد بين فيه أن من هاجر إلى دار الإسلام حباً لله ورسوله ، ورغبة فى تعلم دين الإسلام وإظهاره حيث كان

يعجز عنه في دار الشرك، فهذا هو المهاجر حقاً إلى الله ورسوله، وأن من كانت هجرته من دار الشرك إلى دار الإسلام، ليطلب دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها في دار الإسلام، فهجرته إلى ما هاجر إليه من ذلك؛ فالأول تاجر، والثاني خاطب، وليس واحد منهما بمهاجر.

والأهداف المنشودة من الهجرة كثيرة، وهي تتنوع بتنوع الغرض منها، فالهدف في الهجرة إلى الله ورسوله هو اتباع أمرهما، وامتنال حكمهما، وابتغاء مرضاتهما، وهو كما ترى هدف واحد، يتناول سائر أقسام الهجرة: من هجرة إلى الحبشة والمدينة، وهجرة القبائل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وهجرة مانهى الله عنه؛ ومن ثم اقتصر في جواب الشرط على إعادته بلفظه. أما الأهداف في الهجرة لأموال الدنيا، فكثيرة لا تنحصر ومتعددة لا تقف عند حد، ولا يجمعها غرض واحد؛ فقد يهاجر الإنسان من أجل تجارة، أو إمارة، أو زيجة، أو تراث، أو ثأر، أو أى شأن آخر غير ذلك من شئون الدنيا ومطالب الحياة؛ ولهذا عبّر في الجواب بقوله: فهجرته إلى ما هاجر إليه، إشارة إلى تحقير ما طلبه من أمور الدنيا، واستهانة به، كما أشار بالأول إلى تعظيم الهجرة والمهاجر إليه.

وليس كل هجرة لأموال الدنيا مذمومة مطلقاً، فإن من نوى بهجرته مفارقة دار الكفر، وتزوج المرأة معاً، لا تكون هجرته قبيحة، ولا غير صحيحة، بل هي ناقصة بالنسبة إلى من كانت هجرته خالصة، وإنما المذموم هو طلب المرأة في صورة الهجرة الخالصة، فأما من طلبها مضمومة إلى الهجرة، فإنه يثاب على قصد الهجرة، لكن دون ثواب من أخلص، وكذا من طلب الزوج فقط لا على صورة الهجرة إلى الله، لأنه من الأمور المباحة التي قد يثاب فاعلها إذا قصد بها القربة كالإعفاف.

* * *

إنما: هي تقوية الحكم الذي في حيزها اتفاقاً، وإفادة الحصر عند المحققين، وهو إثبات الحكم للذكور، وصرفه عما عداه؛ واختلفوا في إفادتها الحصر،

هل هو بالمنطوق، أو بالمفهوم، أو بالوضع، أو بالعرف، أو بالحقيقة، أو بالمجاز، ورجح بعضهم أنها بسيطة، ورجح آخرون أنها مركبة من إن التوكيدية، وما الكافة، وهي حرف زائد.

والأعمال: جمع عمل، وهو حركة البدن ب كله أو بعضه، وربما أطلق على حركة النفس، وآثر ذكر الأعمال على ذكر الأفعال، لأن لفظ العمل أخص من لفظ الفعل، فالفعل ينسب إلى البهائم والجمادات، كما ينسب إلى ذوى العقول، بخلاف العمل، فإنه يعتبر فيه القصد؛ وأما الصنع فهو أخص من العمل، لأنه لا يقال إلا لما كان من الإنسان بقصد واختيار بعد فسر وتحرر.

والنيات: جمع نية، وهي لغة القصد، وشرعا: قصد الشيء مقترنا بفعله، فإن تراخى عنه كان عزما، أو يقال: قصد الفعل ابتغاء وجه الله، وامتثالا لأمره؛ وهي هنا محمولة على معناها اللغوي، ليطابق ما بعده من التقسيم. وجمعت باعتبار تنوعها، لأن المصدر إذا اختلفت أنواعه جمع كالعلوم، أو باعتبار مقاصد النوايا كقصده تعالى، أو تحصيل موعوده، أو اتقائه وعيده.

والنية في كلام العلماء تقع بمعنيين: أحدهما: تمييز العبادة بعضها عن بعض، كتمييز صلاة الظهر من صلاة العصر، وتمييز صيام رمضان من صيام غيره، أو تمييز العبادات من العادات، كتمييز الغسل من الجنابة من غسل التبريد والتنظيف، وهذه النية هي التي ترد كثيرا في كتب الفقهاء؛ والمعنى الثاني تمييز المقصود بالعمل، وهل هو لله وحده، أو لله وغيره؟، وهذه النية هي التي يتكلم فيها العارفون، وتوجد كثيرا في كلام السلف.

والامرؤ: الرجل خاصة، وخصه بالذكر لشرفه وأصالته، وغلبة دوران الأحكام عليه؛ وقيل: يشترك فيه الرجل والمرأة، وفيه لغتان: امرئ، كزبرج، ومرء، كفلس، ولا جمع له من لفظه، وعينه تابعة للامه في الحركات الثلاث، قال تعالى: «إن امرؤ هلك»، وقال: «ما كان أبوك امرأ سوء»، وقال: «لكل امرئ»، وفي مؤنثه أيضا لغات: امرأة، ومراءة، ومرة؛

وفي الحديث استعملت اللغة الأولى منهما من كلا النوعين ، حيث قال : « لكل امرئ » ، و : « الى امرأة » .

والهجرة : الانتقال من محل الى محل ، وأصلها هجران دار الشرك الى دار الإسلام ، كما كان يفعل المهاجرون قبيل فتح مكة ، حيث كانوا يهاجرون الى الحبشة ، والى مدينة الرسول ؛ والمراد بها هنا مطلق الانتقال والتجاوز من شيء الى شيء صورياً أو معنوياً . والهجرة انى الله معناها فى حقه تعالى ، إما على التشبيه البليغ ، أى كأنه هاجر إليه ، أو على حذف مضاف ، أى هاجر إلى محل رضاه وثوابه ورحمته ، أو يقال : إن الانتقال إلى الشيء عبارة عن الانتقال الى محل يحده فيه ، ووجدان كل أحد على ما يليق به ، فالمراد الانتقال الى محل قربه المعنوى وما يليق به .

والدنيا : هى ما على الأرض من الجو والهواء ، وأهى كل المخلوقات من الجواهر والأعراض الموجودة قبل الدار الآخرة ؛ وهى بضم الدال مقصورة غير منونة ، وقد تكسر وتنون ، وأنكر التنوين على القائل به ، وقيل : إنه لا يعرف فى اللغة ، والصحيح جوازه ؛ قال فى القاموس : والدنيا نقيض الآخرة ، وقد تنون ، وجمعها دُنَى .

وسميت بذلك ، لدنوها إلى الزوال ، أو لسبقها الآخرة ، أو لدنائتها وخستها .

وقد ذكرت المرأة فى الحديث مع الدنيا ، وجعلت قسماً قائماً بذاته مقابلها مع أنها داخلة فى مسماها باعتبارها من أفضل متعتها ؛ إشارة إلى سبب ورود الحديث من الهجرة إلى المدينة للتزوج بها ، وإيذاناً بشدة فتنة المرأة ، وزيادة فى الحث على اتقاء ضررها ؛ روى البخارى ومسلم وغيرهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما تركت فى الناس بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء » .

بين الشريعة والقانون

نظرات في توثيق المعاملات المالية

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبكي
المفتش بالأزهر

التوثيق بالكتابة :

قلنا فيما سلف : إن علماءنا — أحسن الله إليهم — وقفوا من آية التوثيق في الدين عند رأيين ؛ ففريق يرى وجوب التوثيق على وجه الإطلاق ، وفريق يرى ندب التوثيق كذلك .

وقلنا : إن كلا من الرأيين مع ما استند إليه من أدلة ، لم يسلم من التوهين ، وإن المسألة لم تنزل بحاجة إلى الاجتهاد والترجيح لأحد الرأيين ، أو لما يبدى من رأى ثالث .

ونحن إذا لم نتأثر بنزعة التعصب لفريق أو التحيز لأحد المذاهب ، وإذا وقفنا أمام النصوص وجها لوجه ، واستأنسنا بروح التشريع ، وما يقصد إليه من الخير للناس ، فجائز أن نهتدى إلى رأى تستريح إليه النفس .

وقد تحدثنا في مطلع هذه البحوث عن شأن المعاملة المالية في حياة الناس ، ونحن نعلم إلى جانب ذلك أن الشريعة نهت عن التبذير ، وعن تعريض المال للضياع في مثل قوله تعالى « وكلاوا واشربوا ولا تسرفوا » وفي مثل قوله عليه السلام : « إن الله حرم عليكم عقوق الامهات - إلى قوله - وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة الاموال » (ص ٣١٣ ج ٤ تيسير الوصول) . فإذا جاءت آية الدين صريحة في الامر بالكتابة والإشهاد ، محافظة على المال ، ومنعاً من التنازع ، وجب أن نسايرها فيما وجهتنا إليه صراحة ، وأن ننزل بها عند ما قصدت إليه من الأغراض ، وأن نبعد بها عما يوهن مغزاها .

بدأ الله سبحانه آية الدين بصيغة النداء « يا أيها » التي يستعملها العرب في مناداة البعيد حقيقة ، أو المنزل منزلة البعيد ، لزيادة التنبيه إلى المقصود ، ثم وصف الله عباده في النداء بوصف الإيمان ، وفي هذا الوصف استنهاض لهم أن يحرسوا على ما وجه اليهم من التكليف ؛ فإن الإيمان الصحيح يقضى عليهم بذلك ؛ وكان ممكناً أن يخاطبهم بوصف غير ذلك مثل « يا بني آدم » ، « يا عبادي » ، « يا أيها الناس » ، الخ ، ولكنه عدل إلى خطابهم بوصف الإيمان لإيقاظ شعورهم ، وإزالة الغفلة عن مداركهم ، ليزدادوا إقبالا على ما وراء النداء .

ثم ساق الله تعالى بعد النداء في عرض الآية نحو اثنتي عشرة صيغة من صيغ الأمر والنهي في صدد كتابة الدين ، ومن الذي يكتب ، ومن يشهد ، ومن يمل على الكاتب من المدين أو وليه إذا كان هو ضعيفا الخ ، وكل هذه الصيغ واضحة بين في مدلوله ، فلا إجمال ، ولا تشابه ، ولا سوى هذين مما قد يخفى معه المراد .

ثم ختم الله الآية بثلاث صيغ يعتبر كل منها توجيهها لما ساق من أمر ونهي ، وهي قوله تعالى « ذلكم أقسط عند الله » ، « وأقوم للشهادة » ، « وأدنى ألا ترتابوا » .

ومن هذا الأسلوب يتجه ذهن اتجاهها أوليا إلى أن الاستيثاق الكتابي في الدين واجب شرعا وإن لم يكن شرطا في صحة التعامل . وليس في الآية نص له من القوة ما لهذه النصوص أو ما يقرب من ذلك يصرفها عن الوجوب ، فإذا رأيت فقهاء المذاهب أو كثيرا من المفسرين يتجهون بعد ذلك إلى القول بالندب كان قولهم - عندي - موضع الكثير من التردد ، وإن كان من بينهم علماء مذهبي - مع إجلالي لهم جميعا - وقد أسلفنا ما استند إليه القائلون بالندب . وما زاده الحنابلة عن سواهم في التخلص من القول بالوجوب أن عللوا بالندب بقولهم : إنه أقطع للنزاع ، وأبعد من التجاحد ، ثم زادوا ثانيا فقالوا : إن الندب في الكتابة والإشهاد خاص بماله خطر ، فأما الأشياء القابلة للخطر كحوائج البقال والعتار وشبهها فلا يستحب فيها ذلك ؛ لأن العقود فيها تكثر ، فيشق الإشهاد عليها ، وتقبح إقامة البينة عليها ، والترفيع إلى الحاكم من أجلها ، بخلاف الكثير . انتهى (ص ٣١١ ج ٤ مغني) .

وليست هذه التوجهات عندي بكافية في التغلب على ما تعطيه الآية في قوة من الدلالة على الوجوب .

وتوضيح ما أقول من وجهين يطول فيهما السياق .

(الوجه الأول ، وفيه استطراد) : أن قوله تعالى « فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي أؤتمن أمانته » جزء أخير من الآية : إذ الآية ذات شقين : أحدهما في المكتابة ، والثاني في الرهن .

والجزء الذى معنا من الشق الثانى ، جاء بعد ذكر الرهن ، فهو بعيد نوعا عن سياق الأمر بالمكتابة ، وهو من أجل موقعه هذا مؤد - فيما أفهم - لاحتتمالات ثلاثة : (١) أن يكون كما قال الجمهور نسخنا للوجوب أو بيانا من أول الأمر لأن المراد التدب ، ومع أن هذا ملتبس نظر السكثيرين ، فيبعده أن هذا الجزء جىء به بعد الانتقال من صدر آية فسيحة إلى عجزها ، وبعد استثناء التجارة الحاضرة مما يكتب ، وبعد الأمر بالاستشهاد على المكتابة ، والأمر كذلك بالإشهاد على البيع ، أى بعد الانتقال من هذا كله الى الكلام على الرهن ؛ والرهن طريق آخر من طرق الوثيق ، وذلك مما يبعد عن الذهن ارتباط هذا الجزء بما سبق أولا ؛ لا على جهة النسخ ، ولا على جهة البيان للبراد .

(ب) الاحتمال الثانى ، وهو أوجه من سابقه : أنه للحض على الامانة فى الرهن بخصوصه إذا وقع به الاستيثاق ، إذ المفروض أن الرهن عين مالية كفيلة بسداد الدين ، وقد ترتفع قيمتها عن مقدار الدين يوما ما فيطمع فيها المرتهن ويحجدها مؤثرا حظ نفسه على مصلحة صاحبها .

وقديهبط ثمنها عند الحلول عن مقدار الدين ، فيتخلى عنها صاحبها منكرا أنه مدين وأنها مرهونة من قبله . ولا يمنع من هذا الغرض تقدير وجود الشهود ، فإن الجمهور الذين تتجه إليهم بتلك الاحتمالات لا يرون الاستشهاد واجبا ، وعلى أصلهم هذا يجوز ألا يكون مع الرهن شهود ، أو كانوا وانعدموا ؛ فالتوثيق بالرهن مع كونه تأمينا لا يمنع احتمال التجاحد على ما صورته من جانب أحد المتعاملين ، ولا يكون الرهن كافيا فى حسن القضاء من المدين ، ولا فى حسن الاقتضاء من الدائن ، فكلاهما بحاجة إلى التذكير بالامانة التى فى عهده ؛ وهى الدين عند الأول ، والرهن عند الثانى ؛ وكل منهما مؤتمن من جانب صاحبه ، ومقصود بقوله تعالى « فليؤد الذى أؤتمن أمانته وليتق الله ربه » فلا يخيف الواحد بالآخر . ويساعدنى

على هذا التوجيه أن الله عبر بالموصول وهو صفة لغير مذكور ، ويصح تفسيره بكل منهما أو بما يشملهما جميعاً بأن يقال : فليؤد المدين الذى أؤتمن على الدين أمانته ، أو فليؤد الدائن الذى أؤتمن على الرهن أمانته ، أو فليؤد المؤتمن أمانته ، وكلاهما مؤتمن ولا ريب ؛ فتكون صلة الموصول وهى جملة « أؤتمن » موصوفاً بها كل منهما ، وحيث كان الوصف الذى نيط به الأمر وتعلق به الحكم عالقاً بكل منهما ، يكون التعميم مقصوداً ؛ ولولم يكن كذلك لقال : فليؤد المدين - مثلاً - أمانته . وعلى هذا الاحتمال يكون ذلك الجزء من الآية قاصراً على الرهن المقرره به فى الذكر ، ولا شأن له بفسخ الأمر أولاً ، ولا ببيان أنه للندب كما يريد القائلون فى تكلف .

الاحتمال الثالث : أن تتوسع فى توجيه ذلك الجزء من الآية ، فلا نجعله خاصاً بالكتابة كما ذهب القائلون بالندب ، ولا نجعله خاصاً بالرهن كما قلت فى الاحتمال الثانى ، ولنا فى هذا التوسع أفهام ثلاثة :

الفهم الأول - وقد قال به ابن جرير والضحاك ، واختاره الشيخ محمد عبده - أن نجعل هذا الجزء محمولاً على حالة الضرورة التى لا يتيسر فيها كتابة ولا رهن ، فتكون المدائنة مستندة إلى مجرد الأمانة للضرورة التى أباحت عدم الاستيثاق .

الفهم الثانى : أن الآية اشتملت على الأمر بالاستيثاق وجوباً بالكتابة أو بالرهن بدلاً منها ، ولم يقف التكليف عند هذا الحد ، بل أمر كل من المتعاملين فى الجزء الذى نتحدث عنه أن يؤدى الأمانة التى ارتبط بها التعاقد على وجه السكال ، وأن يتقى الله ربه فى الوفاء بها كذلك ؛ والمعنى : إذا تم بينكم التعاقد والاستيثاق الواجب بالكتابة أو بالرهن أو بهما معاً ، فعليكم واجب آخر بعد هذا ، وهو أن يرضى كل منكم حق الأمانة فيؤدى المدين دينه ، ولا يماطل ولا يتنصل من الوثيقة بتزييفها أو الطعن عليها بأن صاحبه تلاعب فيها أو عبث بها ، ولا يتركها إن كانت عيناً ، ويجحد ما عليه منكراً أصل التعامل .

وكذلك الدائن ، عليه أن يؤدى الأمانة التى عنده ، وهى الوثيقة الكتابية أو العين المرهونة ، فلا يحرف الكتابة ، ولا ينقص العين المرهونة ، ولا يخون باستعمالها استعمالاً غير مسموح به ، ولا يتلصك فى تسليم الوثيقة إلى صاحبها حين

الوفاء ، مخافة أن يثير التللكو نزاعا بينهما ، أو مخافة أن تبقى حتى تنتقل إلى ورثة الدائن ، فيعودوا إلى المطالبة بالدين ، أو يدعوا ملكها إن كانت عينا .

ذلك كله ، لأن المعاملة وإن كانت موثقة بكتابة أو رهن ، مبنية على فرض الأمانة في الجانبين ابتداء ودواماً ؛ فإن الله تعالى يأمر المتعاملين أن يؤدوا الأمانة ويتقيا الله ربهما .

الفهم الثالث ، الذى يصح أن نأخذ به وهو يتفق نوعاً مع توجيه حسن للشيخ رشيد رضا : أن يكون هذا الجزء من الآية مراداً منه عموم الأمانات التى تشمل ما نحن فيه وغيره ، فكأن الله عز شأنه بعد أن بين حكم الاستيثاق بالكتابة والإشهاد والرهن ، عزم فى أمره بالأمانة فى المعاملة ليشمل ما كان موثقاً وما لم يتيسر توثيقه ، وما كان مؤجلاً وما كان حالاً ، وما كان معاوضة ، وما لم يكن معاوضة .

وفى هذا العموم تدخل الوديعة والعارية واللقطة ، وكل ما تناولته اليد بغير تعاقد ، كما دخل القرض والبيع المؤجل والناجز لما فيه من ضمان الدرك ، فكل واحد من هذه الأنواع بحاجة إلى الصدق حتى يؤدى المدين دينه فى كرم ووفاء ، ويتقاضى المستحق حقه فى رفق وحسن اقتضاء ؛ وحتى لا يكون فى البيع خلافة - غش - ولا تدليس ، ولا يتقدم أحد المتبايعين إلى صاحبه بشيء مستحق لغيره ليكون كلاهما ضامناً لعهدة ما بذله من ثمن أو مئنه ضماناً صحيحاً .

وإلى هذا كله أرشدنا النبى صلوات الله عليه بما فعل فى الوثيقة التى كتبها للعداء بن خالد ، وقد باع النبى عليه السلام عبداً ، أو أمة ، على ما تقدم نقله عن الترمذى ، فكانت الوثيقة لضمان العهد فى المبيع ؛ وأرشدنا كذلك عليه السلام بقوله فى حديث جابر « رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى ، وإذا اقتضى ، وبقوله « إذا تبايعت فقل لا خلافة ، أى اشترط عدم الغش ، وهكذا فى غير حديث .

وبذلك كله أمرنا الله سبحانه وتعالى أمراً عاماً فى قوله « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، ولهذا الإسهاب خلاصة سنعرض لها إن شاء الله وكان فى الأجل بقية .

عبرة وعظة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ الطيب النجار
المدرس بكلية أصول الدين

تلك الحوادث والقوارع التي تنزل بالافراد والجماعات ، ممن زاغت قلوبهم وعميت بصائرهم ، وانحدروا عن جادة الصواب ، وابتعدوا عن الحق ، جزاء وفاقا لما اكتسبت أيديهم ، وزينته لهم نفوسهم الخبيثة ، وأهواؤهم الفاسدة - عبرة لذوى الألباب وعظة ، لأنها تترك في نفوس من يعلمونها مشاهدة أو سمعا أثرا يوقظهم من سباتهم ، وينبهمهم من غفلتهم ، ونورا يسعى بين أيديهم وأرجلهم ، ومرشدا يصرفهم عن المثالب والمهالك ، ويهديهم للتي هي أقوم وأجدى عليهم وأنفع .

من أجل ذلك ترى المزعجات والكوارث ، والآفات التي تصيب الأنفس والثرات ، لا تكاد تعدو جيلا من الأجيال ، ولا عصرا من العصور ، ولا تكون من ساحته بمنجاة ، بل أصبحت متأخية مع الزمن ومتحالفه معه ، لا يتباعد عنه ولا يبتعد عنها ، نذيرا لأهله ، وآية لهم زاجرة ، علمهم يعتبرون ويتعظون .

وترى كتاب الله الذي لا ينطق إلا بالحق ، يحدث كل العصور بما كانت عليه بعض الأمم السابقة : من حضارة وعمران ، وتطاول في البنيان ، وجنات معروشات وغير معروشات ؛ وما أجمل هذا الحديث وأحلاه ! فهو حديث مستطاب ، يلقي السامع له بالآذان صاغية ، وقلب واع ، وشعور مرهف ، لأنه حديث تعلق بمحبوبه وقرّة عينه وأشهى مرغوب فيه ؛ تعلق بما هو زينة الحياة الدنيا وبهجتها ، وأشرب في كل قلب حبه والحرص عليه ، والتماس كل الطرق في سبيل الوصول إليه ، مهما كلفه ذلك من جهد ونصب وإعياء وكل ؛ لذلك تراه ينطبع في نفسه ، ويستقر في ذهنه ، ويحسب أنه بين أحضانهم يعاصرهم ويعيش معهم ، وكأنه ينعم بما ينعمون ، يستنشق طيب الهواء ، ويشرب من نيمر الماء ، ويأكل فاكهة تم نضجها

وطاب مذاقها ، وبينما هو معهم في نعمة فاكهين إذ يقرع سمعه أنهم بُدّلوا بنعيمهم
بؤسا وشقاء ، وبخبرهم شرا وضرا وطاماما غير مستساغ ، جزاء لهم على كفرهم
وعدم شكرهم لمن أنعم عليهم بتلك النعم الجزيلة .

إذ ذاك يفيق من سباته ، ويدرك أن الحديث بشأن قوم سابقين ببطروا النعمة
وجحدوها ، فأزالها عنهم وأذاقهم لباس الجوع والخوف ، وحالفتهم صروف
الليالي وقوارعها ، ونوائب الأيام ونوازلها ، وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة
مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس
الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

إذ ذاك يعلم علم يقين أن كفر النعمة يوجب زوالها ، وما أحرص
الناس عليها ! ويترك في النفس أسى ولوعة ، وما أشد ذلك على النفس وأمره ! .

وإنك لتجد هذا يتجلى بصورة واضحة في مثل قول الله تعالى : لقد كان لسبأ
في مسكنهم آية : جنتان عن يمين وشمال ، كلا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة
ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي
أكل خبط وأثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناكم بما كفروا ، وهل نجازي
إلا الكفور ^(١) .

جعلهم الله أحدىة سائرة ، وعظلة زاجرة ، ومثلا مضروبا ، ولسانا للحق ،
وحجة على الباطل ، وهداية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ولذلك لما ذكر الله سبحانه وتعالى قبائح المشركين من الإعراض والتكذيب
والاستهزاء ، في الآيات الرابعة والخامسة والسادسة من سورة الأنعام ، وعظمهم
بالقرون الماضية ، فقال عز من قائل : ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن
مكنناهم في الأرض ما لم نمسكن لهم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار
تجري من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين .

(١) سبأ : اسم قبيلة . ومسكنهم مأرب باليمن . جنتان : جماعتان من البساتين . العرم : المطر
الشديد . والأكل : المسأ كول . والخبط : ثمر مر ؛ أي ذواتي أكل مر بشع . والأثل : شجر يشبه شجر
الطرفاء لا ثمر له ، وهو معطوف على أكل لا على خبط لأن الأثل لا أكل له .

ومن ذا الذى لا يعتبر ولا يتعظ ، ولا يرعوى عن غيه وضلاله ، حينما يسمع قول الله فى شأن فرعون وقومه : « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض ، وما كانوا منظرين » .

ولم كان العبرة فى ذلك وجلالها وعظيم أمرها ، جاء هذا النوع فى كتاب الله مستفيضا ، وجاء فيه الحث على الضرب فى مناكب الأرض والسير فيها ، والنظر فى آثار الهالكين ، ليشاهدوا بأنفسهم الدليل المادى على سوء مغبة الزائغين كيف كان مصرعهم وهلاكهم ، فقال « قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ، قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » .

وكما يرشدنا القصص القرآنى الى أن كفر النعمة يوجب زوالها ، فضلا عما أعد من العذاب الشديد ، كذلك يرشدنا الى أن طاعة الله وشكره على نعمه يوجبان حفظها والمزيد منها ، فها هو ذا داود عليه الصلاة والسلام أطاع ربه وأتاب إليه وشكره على نعمه ، فألآن له الحديد ، وعلمه صنعة الدروع ، وأنعم عليه بآبائه سليمان الذى ورثه ملكه وعلمه وحكمته ، ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير ^(١) ، « لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » .

وعلى الجملة فالقصص القرآنى يقطع نياط قلوب المستهزئين ، ويخلع أفتدة العتاة المستكبرين ؛ شهر سيف التخويف والوعيد فى وجوههم ، ولوح بغصن الزيتون ولين العيش للمعتبرين المتعظين .

(١) أوبي معه : أى رجعى معه التسييح . ونصب العليز بالعطف على فضلا . ألنا له الحديد أى جعلناه لنا كالشمع يصرفه فى يده كيف يشاء من غير إحساء بنار ولا ضرب بمطرقة . سابغات : دروعا واسعات . وهو أول من اتخذها على ما قيل . وقدر فى السرد : أى قدر فى مساميرها فلا تعملها دقاقا ولا غلاظا .

فهو يعلم دماثة الأخلاق، ويعصى النفوس، ويهذب الطباع، ويحشد سورة الغضب، ويلين العريكة، وهو المثل الأعلى في نشر مطارف الحكمة والآداب العالية، وإنارة طريق الخير لمن أراد سلوكا .

هذا وإن القصة الواحدة لتذكر غير مرة في مواطن كثيرة وفي غير سورة واحدة، ولا يحملنك هذا على أن يأخذك العجب من تكرار في كتاب أحسكت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، لأن ذلك لمزايا وحكم سامية قصدتها محكم الآيات مدبر الكائنات، العالم بيواطن الأمور وخفيات الأسرار .

قد تذكر القصة مشتملة على زيادة في سورة ومكان لاقتضاء الحال والمقام ذلك، وتأتي في سورة أخرى أو في مكان آخر من غير هذه الزيادة لاقتضاء الحال عدم ذكرها . وقد تذكر القصة في موطن على طريق الإطناب، وفي موطن آخر على طريق الإيجاز، ليتجلى إعجاز القرآن ومبلغ فصاحته، ورصانة لفظه، وجودة نظمه على كلتا الطريقتين . وإنك لتقرأ القصة في موضع، ثم تقرؤها في آخر وآخر، وفي كل هذا تشعر كأنك تنتقل من روضة إلى روضة، تشاهد زهورا ذات ألوان تأخذ بالابصار، تشاهد تفسيمات بديعة تسحر العيون وتملك الألباب، تقتطف من يافع الثمار، وتجنح من كل مآلذ وطاب، وفي كل هذا لا يعمل القارئ ولا يسأم السامع، بل تزداد الحلاوة وتظهر الطلاوة، وتنشع غشاوات الابصار، وتستدير القلوب، وتصفو النفوس، وتذعن العقول الجبارة، بأن هذا كلام خلاق القوى والقدر، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد .

رفض النصيحة

قال سبيع لاهل اليمامة بعد إيقاع خالد بهم :

يا بني حنيفة : بُعِدَا لَكُمْ كَمَا بَعِدَتْ عَادُ وَثَمُودُ، وَاللَّهِ لَقَدْ أَنْبَأْتُمْ بِالْأَمْرِ قَبْلَ وَقْعِهِ، كَأَنِّي أَسْمَعُ جَرَسَهُ، وَأَبْصُرُ غَبَهُ، وَلَسْكَنْكُمْ أَيْتَمُ النَّصِيحَةِ، فَاجْتَنَيْتُمْ النَّدَامَةَ. وَإِنِّي لَمَّا رَأَيْتُكُمْ تَتَمَهَوْنَ النَّصِيحَ، وَتَسْفَهَوْنَ الْحَلِيمَ، اسْتَشَعَرْتُ بِكُمْ الْبَاسَ، وَخَفْتُ عَلَيْكُمْ الْبَلَاءَ. وَاللَّهِ مَا مَنَعَكُمْ التَّوْبَةَ، وَلَا أَخَذَكُمْ عَلَى غَرَةٍ. وَلَقَدْ أَمَهَلْتُكُمْ حَتَّى مَلَ الْوَاعِظُ، وَهَزَى الْمَوْعُوظُ.

دين

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
مدرس الفلسفة بكلية أصول الدين

أولا — في الفرنسية :

١ — قد يراد بهذا الاصطلاح نظام اجتماعي تأخذ به أنفسها طائفة من الناس يوحد بينها :

أولاً — القيام بأنواع خاصة من الشعائر والأعمال المطردة .

ثانياً — الاعتقاد في قوة أو قيمة مطلقة ، أى حقيقة بمعنى الكلمة حتى لا يمكن أن يوازن شيء مّا بها ، ويكون هذا الاعتقاد هو الغرض الذي تعمل الطائفة على تمكينه دائماً في القلوب .

ثالثاً — الاتصال بقوة روحية يراها المرء أعلى منه ، قوة تمثلها منتشرة في الكون [وهذا مذهب الحلول] ، أو ذات كثرة ، أو متوحدة وهي حينئذ : الله .

ب — وقد يراد به نظام يصطنعه الفرد لنفسه ، أو بعبارة أوجز : نظام فردي : من العواطف والاعتقادات والأعمال التي تتخذ الله موضوعاً لها . وفي هذا المعنى يقول إميل بُوترو E. Boutroux في كتابه « العلم والدين » ص ٣٩٢ : الدين على التحقيق هو أن يتخذ المرء ، بجانب وجهة نظر العلم ، وجهة نظر العاطفة والإيمان La foi .

وتعبر « الدين الطبيعي » (وكان يستعمل خاصة في القرن الثامن عشر) يراد به الاعتقاد في وجود الله وروحانية النفس وخلودها ، وطابع الالتزام للعمل

الأخلاقي ، على أن يكون مصدر ذلك كله وحى الضمير والنور الداخلى الذى يثير كل إنسان . ولهذا ينقد جان جاك روسو فى كتابه « إميل » المسيحيين الذين يتكفون أن يخلطوا بين هذا الاعتقاد ، أو الدين الطبيعى ، وبين الإلحاد أو عدم الدينية .

(ج) وأخيرا ، قد يراد بكلمة « دين » احترام يمنح الى المبالغة لمبدأ أو عادة أو عاطفة أو نحو ذلك ؛ ومن ثم يقال : « دين الكلمة المعطاة » . وهذا المعنى الذى هو أقدم معانى كلمة « دين » ، على الاحتمال الغالب ، كان فى الماضى أكثر استعمالا منه اليوم .

(د) وإذا تركنا د لالاند ، وقاموسه الضخم فى المقدمات الفلسفية ، نجد القسيس إيلي بلان Elie Blanc ، فى معجمه الفلسفى يذكر أن الدين مجموع مذاهب وعقائد تتعلق بعلاقة الإنسان بالله . وهذه المذاهب اختلفت باختلاف الأزمان والشعوب ، بل تعارضت فيما بينها فى مسائل هامة ، ومن ثم كان ما تعرف من ديانات عديدة : الوثنية ، اليهودية ، المسيحية ، والإسلام . ثم يعقب المؤلف على هذا بقوله بأنه لا يوجد فى الحق بين هذه الأديان إلا دين حق واحد ؛ وهذا الدين لم يولد كاملا ، بل كمل مع الزمن ، مثله فى ذلك مثل كثير من المذاهب المختلفة .

تعليقات :

١ — اشتقاق كلمة « دين » مختلف فيه ؛ فأغلب القدامى ، ومنهم القديس أغسطينوس المتوفى عام ٤٣٠ م ، يرجعون هذه الكلمة إلى كلمة « ربط » ، ومن ثم يرون فيها معنى الصلة . والرباط سواء كان رباطاً فيه معنى الإلزام ببعض الشعائر ، أو فيه معنى الصلة بين الناس بعضهم ببعض ، أو بين الناس والآلهة أو الإله .

وفى اللغة اللاتينية ، قد تدل كلمة « دين » ، بصفة عامة ، على عاطفة الخوف والخشية فيما يحس به الإنسان من التزام نحو الآلهة ، والقول فى ذلك العصر بآله متعددين جعل عندهم كثرة فى الأديان ؛ وحين وصل الإنسان الى الاعتقاد فى إله واحد ، جرّه حتماً إلى القول بدين واحد هو وحده فى نظر أصحابه الدين الحق .

ومنذ هذا اليوم صارت كلمة « دين » تدل على هذه النواحي الثلاث : مجموعة الحقائق التي يؤكدُها الدين ، مجموعة الأعمال الشعائرية ، العلاقة المباشرة بين الروح والله . وهذا المعنى صار ، في أيامنا هذه يعدل المعنى الأول والثاني . ج . لاشيليه J. Lachelier عن « لاند » .

٢ — إن الذي يكونُ حقاً ماهية الدين هو التمييز بين نوعين من الوجود بين عالمين يختلف الواحد منهما عن الآخر . وهذا على ما يلوح ، هو فكرة إيكين Eucken حينما يذهب إلى أن ما هو أساس أو ذاتي في الدين ، في كل صوره وأشكاله ، هو أن نرى في مقابل العالم الذي يحيط بنا نوعاً آخر من الوجود . ومن الممكن - كما يقول - أن يكون دين بغير العقيدة في إله ، كما يثبت هذا الدينُ البوذي القديم ، ولكن كلمة « دين » تكون كلمة لا معنى لها إذا لم نقر بوجود عالمين ، وبوجود نوع آخر من الوجود أسمي ، بما لا يقدر ، من الوجود الذي نحسه . ج . بنرubi J. Benrubi عن « لاند » أيضاً .

ثانياً — في اللغة العربية :

- ١ — في لسان العرب : أن الدين هو الجزاء والطاعة والعادة والإسلام .
- ٢ — وفي مفردات الاصفهاني : أن الدين يقال للطاعة والجزاء واستعير للشرعة ، والدين كالملة .
- ٣ — ويرى الشهرستاني (ح : ٤٦ - ٤٧) أن الدين الطاعة والانقياد ، وأنه قد يرد بمعنى الجزاء والحساب ، وأن الملة والشرعة يتفرعان عن اجتماع الناس وحاجتهم في سبيل خيرهم للتمتع والتعاون .
- ٤ — والجرجاني في التعريفات (ص ٧٢ - ٧٣ طبع استانبول) يذهب إلى أن الدين والملة متحدان بالذات ، مختلفان بالاعتبار ؛ فالشرعة من حيث إنها تطاع تسمى ديناً ، ومن حيث إنها تجمع (أي تجمع الناس على الأخذ بها) تسمى ملة . وقيل بينهما فرق ، وهو أن الدين من الله والملة من الرسول .

٥ — وبعد هؤلاء جميعا نجد التهانوى (الكشاف - مادة دين) بعد ما بين معاني الدين اللغوية ، يقول بأن الدين وضع إلهي سائق لذوى العقول باختيارهم إياه إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل . ويطلق على ملة كل نبي ، وقد يختص بالإسلام . ويضاف إلى الله لصدوره عنه ، وإلى النبي لظهوره منه ، وإلى الأمة لتدينهم به وانقيادهم له .

هذا ، والدين إذا لم يقيد بأنه وضع إلهي ، أى إذا لوحظ من الناحية اللغوية وحدها ، يطلق على الدين الحق وعلى الأديان الباطلة أيضا ، ما عدا ما لا يقر بالبعث والجزاء منها ، لأن معنى الجزاء ملاحظ في أصل اشتقاق كلمة « دين » من « دان » ، على ما هو معروف . والقرآن ، حين يقول « لكم دينكم ولي دين » ، يفيد تحول كلمة « دين » للباطل أيضا من الأديان . لكن الدين الحق ليس في رأى الشرع ، إلا ما كان وحيا من الله للمصطفين من خلقه لهداية الناس الصراط المستقيم ، بما يحى به من العقائد والأصول التي لا يختلف فيها الرسل . ويدل لذلك قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » . أى أوصيناك يا محمد وسائر الأنبياء ديننا واحدا .

وبعد : من هذا الذى رأيناه فى معنى كلمة « دين » ، عن المفكرين الغربيين والعلماء المسلمين ، نستطيع أن نؤكد أنه ليس من اليسير تحديد هذه الكلمة تحديدا جامعا مانعا كما يقولون ، تحديدا يرضاه جميع من عرض لبيان معناها . إذا ، لنا أن نكتفى بالقول بأن التحديد الذى نستخلصه مما سبق ونرضاه ، يجب أن يلاحظ فيه شعور المرء أو إحساسه بقوة عليا ، أو كائن أعلى علواً مطلقاً ؛ وعاطفة تدفعه للإيمان به وتجعل بينه وبينه صلة وثيقة حتى لتلزمه بعبادته على مظاهر مختلفة ؛ وبعد هذا وذاك ، يقين المتدين بأن هذا الكائن الأعلى ، أو الإله ، سيدينه فى اليوم الآخر بما فعل فى هذه الحياة الدنيا .

الركن الشرعى للجريمة

فى الشريعة الإسلامية وفى القوانين الوضعية

سريان القانون على المكان

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد محمد إبراهيم

القاضى بمحكمة المنيا الوطنية

القاعدة العامة فى التشريعات الحديثة ، هى : أن القوانين الجنائية إقليمية ؛ بمعنى أنها تسرى على كل من يرتكب جريمة على أرض الدولة بصرف النظر عن جنسيته ، فيستوى أن يكون من رعايا الدولة التى وقعت فيها الجريمة ، أو من رعايا دولة أخرى . وهذا المبدأ لم يسد إلا حديثاً ؛ وكانت القاعدة القديمة هى : أن القوانين الجنائية شخصية ؛ أى أن قانون الدولة يسرى على رعاياها دون سواهم ، ويسرى عليهم فى أى مكان وجدوا ؛ فهو ينطبق عليهم إذا ارتكبوا جريمتهم فى دولتهم ، كما يسرى عليهم إذا ارتكبوا الجريمة فى دولة أخرى . فإذا افترضنا أن إنجليزياً ارتكب جريمة فى مصر ، وجبت محاكمته فى مصر ، وخضوعه للقضاء المصرى وللقوانين المصرية ، ما دمنا نأخذ بقاعدة إقليمية القانون . أما إذا أخذنا بمبدأ شخصية القانون فليس من حق مصر أن تحاكمه ؛ بل تختص بمحاكمته الدولة التى يتبعها دون سواها .

ويرجع الأخذ بمبدأ إقليمية القانون الجنائى إلى أنه مفروض على كل شخص العلم بقانون الدولة المقيم على أرضها ؛ فإذا خالفه استحق العقاب ؛ كما أن الجريمة لا تخل إلا بأمن الدولة التى وقعت فيها ؛ ولـكى يكون للعقوبة أثرها الرادع لا بد من محاكمة الجانى حيث ارتكب جريمته ؛ أما إذا عوقب فى الخارج فإن هذا الأثر قد ينعدم ، فالغالب أنه لن يشعر أحد بمحاكمته أو بالعقوبة التى وقعت عليه . وفضلاً عن ذلك فإن الجريمة لا يسهل إثباتها على الجانى إلا إذا تمت المحاكمة

في مكان ارتكابها ، حيث آثار الجريمة وشهودها ، ولو جازت محاكمة الجاني في الخارج لتعذر إثبات الجريمة في كثير من الأحيان .

ويترتب على الأخذ بمبدأ إقليمية القانون الجنائي أن كل دولة تختص بالعقاب على كل الجرائم التي تقع على إقليمها مهما كانت جنسية مرتكبها ، وعلى العكس من ذلك لاسلطان لها على من يرتكب جريمة خارج حدودها ولو كان من رعاياها . ولكن هذا المبدأ بنتائجه لا يؤخذ به على إطلاقه ، فكل دولة ترى أن من الواجب على رعاياها في الخارج أن يكونوا حسنى السمعة ، وليس مما يشرفها أن يكونوا من المجرمين ؛ ولذا فإنها تعاقب رعاياها الذين يرتكبون جرائم خطيرة في الخارج متى عادوا إليها . ومن جهة أخرى فإن سهولة المواصلات بين الدول جعلت من الممكن أن يرتكب بعض الأجانب جرائم ضد دولة من الدول دون أن يدخلوا إقليمها . وقد استدعى ذلك من الدول أن تعاقب من يرتكب نوعا معينا من الجرائم المخلة بأمنها وسلامتها ، أيا كانت جنسية مرتكب الجريمة ، ولو كانت الجريمة لم ترتكب إلا خارج إقليمها .

ونذكر على سبيل المثال للقوانين الحديثة نصوص قانون العقوبات المصري في هذا الموضوع :

مادة ١ — تسرى أحكام هذا القانون على كل من يرتكب جريمة من الجرائم المنصوص عليها فيه .

مادة ٢ — تسرى أحكام هذا القانون أيضا على الأشخاص الآتي ذكرهم :

أولاً : كل من ارتكب في خارج القطر فعلا يجعله فاعلا أو شريكا في جريمة وقعت كلها أو بعضها في القطر المصري .

ثانيا : كل من ارتكب في خارج القطر جريمة من الجرائم الآتية :

(١) جنابة مخلة بأمن الحكومة مما نص عليه في البابين الأول والثاني من الكتاب الثاني من هذا القانون (١) .

(١) الباب الأول خاص بالجنايات المضرة بالحكومة من جهة الخارج - والباب الثاني خاص بالجنايات والجنح المضرة بالحكومة من جهة الداخل .

(ب) جنائية تزوير مما نص عليه فى المادة ٢٠٦ من هذا القانون .

(ج) جنائية تزيف مسكوكات مما نص عليه فى المادتين ٢٠٢ و ٢٠٣ من هذا القانون ، بشرط أن تكون المسكوكات متداولة قانونا فى القطر المصرى .

مادة ٣ — كل مصرى ارتكب وهو خارج القطر فعلا يعتبر جنائية أو جنحة فى هذا القانون ، يعاقب بمقتضى أحكامه إذا عاد الى القطر المصرى ، وكان الفعل معاقبا عليه بمقتضى قانون البلد الذى ارتكب فيه .

فالمادة الأولى : تقرر القاعدة العامة وهى إقليمية القانون الجنائى ، فتقتضى بأنه يسرى على كل من يرتكب جريمة نص عليها فيه ، ولم تفرق بين جنسية وأخرى ؛ فالجائى يعاقب مهما كانت جنسيته . وأما المادة الثانية : فحددت بعض الجرائم الخطرة وأعطت الدولة حق عقاب مرتكبها ولو ارتكب جريمته خارج مصر . والمادة الثالثة : تقتضى بخضوع المصرى لقانون دولته إذا ارتكب جريمة فى الخارج يمكن وصفها فى مصر بأنها جنائية أو جنحة ، فإذا كانت مخالفة فلا محل لعقابه ، ويشترط أن يكون الفعل الذى وقع من المصرى معتبرا جريمة فى الدولة التى وقع فيها ، أما إذا كان الفعل مباحا هناك فلا محل لعقاب المصرى ولو كان هذا الفعل معاقبا عليه فى مصر ، اللهم إلا إذا خضع المصرى بجريمته لأحكام المادة الثانية . ويشترط وفقا لأحكام المادة الثالثة ، أن المصرى لا يعاقب على فعله الذى وقع منه فى الخارج إلا إذا عاد الى مصر ، فطالما كان فى الخارج فلا شأن لدولته به .

واضح مما سبق أن أحكام القانون المصرى مزيج من مبدأى إقليمية القانون وشخصيته ؛ فهو إقليمى إذ أنه يسرى على كل القاطنين فى مصر ، وهو شخصى إذ يسرى على المصرين فى الخارج إذا توافرت الشروط التى تطلبها المادة الثالثة . بل وأكثر من ذلك فإن القانون المصرى يمد سلطانه على رعاياه وغير رعاياه الموجودين فى الخارج ، متى وقعت منهم جريمة من الجرائم المنصوص عليها فى المادة الثانية .

بقى علينا أن نبين معنى إقليم الدولة ؛ ويقصد به الأرض التى تتكون منها

بحدودها السياسية المعروفة بها لدى الدول ؛ وسيادة الدولة لا تشمل أرضها فحسب ، بل تشمل الجو الذى يطلها ، وكذلك مياهها الإقليمية إذا كانت متصلة ببحر من البحار العامة . والمياه الإقليمية مقدرة فى القانون الدولى العام بثلاثة أميال بحرية .

والسفن تعد جزءا من إقليم الدولة التابعة لها السفينة طالما لم تكن فى المياه الإقليمية لدولة أخرى ، وكل إخلال بالقانون يقع على ظهرها يعتبر إخلالا بقانون الدولة التابعة لها السفينة . والعلة فى تقرير هذه القاعدة هى أن البحار العامة لا مالك لها ، وليس لدولة دون أخرى أى سلطان عليها ، وإزاء ذلك فإن القانون الذى يمكن تطبيقه على من يرتكب جريمة فى السفينة هو قانون الدولة التابعة لها السفينة ، ولا يوجد ما يرجح تطبيق قانون آخر عليه . وقد ترتب على ذلك أنه إذا كانت السفينة وقت ارتكاب الجريمة فى المياه الإقليمية لدولة من الدول فإن قانون هذه الدولة هو الذى يسرى لا قانون الدولة التى تتبعها السفينة .

هذه هى الأحكام الوضعية فى حكم سرىان القانون على المسكان ، ذكرناها بإيجاز ، وننتقل بعد ذلك الى بيان أحكام هذا الموضوع فى فقه الشريعة .
« يتبع »

ملاحظة (١) أثناء طبع الأجزاء السابقة من هذا البحث نشر بعضها بغددي ربيع الأول ص ٢٤٣ و ربيع الثانى ص ٣٣٤ تحت عنوان مسؤولية الأطباء مع أن العنوان الصحيح هو : الركن الشرعى للجريمة فى الشريعة الإسلامية وفى القوانين الوضعية .

ملاحظة (٢) وقعت بعض أخطاء مطبعية فى بحثنا « حول ميراث القاتل » المنشور بعدد رمضان الماضى ترتب على بعضها تغيير المعنى ، ومن أهمها ما وقع بالصفحة ٨٠٠ سطر ١٢ فكتب « مع بعض محارمها » والصواب على بعض محارمها . كما أنه بالسطر العشرين كتب « المجنى عليه هذه النية » والصواب « هذه النية » بحذف كلمتى المجنى عليه .

مذهب الصرفة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ علي محمد حسن العماري
مبعوث الأزهر إلى السودان

كان العرب حين أنزل القرآن كأنما سُدوا بأمراس كتان إلى صم جندل ؛ فهم يسمعون القرآن ، ويعجبون به ، ويكادون يسجدون لفصاحته ، ويوقنون - يقين العارف الخبير - أنه ليس من قول البشر ، ولكنهم يحاولون أن يحطوا من شأنه ، وأن يهـونوا من أمره ، ويودون لو استطاعوا أن يأتوا بسورة من مثله تبهرهم روعته ، ويروعهم عجزهم عن معارضته ، والكبرياء تتسلط عليهم ، وخوف غلبة محمد صلى الله عليه وسلم عليهم تملأ نفوسهم ، وبوادر الإقرار بنبوته ، والإذعان لرسالته ، تبدو قريية من نفوسهم كل القرب ، فيحاولون أن يجعلوها بعيدة كل البعد .

والعاجز المكابر ، والمأخوذ المعاند ، لا يسلك إلا ماسلكه هؤلاء الجاحدون . وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراء وأعانه عليه قوم آخرون . فقد جاءوا ظلماً وزوراً . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً . وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ، وهكذا أخذوا يتنقصون القرآن بهذه الكلمات الفضفاضة ، فرة هو سحر ، وأخرى هو شعر ، وثالثة هو أساطير الأولين ؛ ثم كانت هذه الدعوى العريضة التي لا يصدقها العقل ، ولا تسعفها القوة ، وهي دعوى العاجز دائماً : لو نشاء لقلنا مثل هذا ، ولم لا نشاءون ؟ ! إنهم كانوا كالقعى الهزيل أمام العملاق المقتول العضلات ، القوى البنية ، يدعوه هذا إلى النزال ، فيجيب ذاك ، بصوت

يملأ فمه ، ويحرق الأسماع ، ولا شيء غير الصوت . فهم - في الحق - كانوا مدعين في قرارة أنفسهم بأنهم عاجزون ، ومدركين هذا الإعجاز في أذواقهم ، وعلى أطراف ألسنتهم ، وربما صرح بعضهم بشيء من ذلك ، فلا يعدو الكلام الواسع الفضفاض أيضا . يقول الوليد بن المغيرة لقومه ، وكانوا بعثوه ليسمع القرآن ، ويقول فيه قالة سوء ، غير أنه انساق مع فطرته ، ونسى كفره لحظة ، وقال : والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني : لا برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا ، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ماتحته ، ١ .

ومضى القرن الأول ، وتبعه القرن الثاني ، والعلماء يمسون نواحي الإعجاز مساً خفيفاً ، فلما كان القرن الثالث ، واتسعت دوائر البحوث العلمية ، وكثرت الخلافات المذهبية ، وتعددت النحل ، وتفرقت الآهواء والسبل ، احتدمت المعارك ، وقويت الخصومة ، وعنف الجدل ، حول الآراء الكلامية ، وكان إعجاز القرآن أحد الميادين الكثيرة التي تبارت فيها الفحول ، وتصارولت في رحابها الوسيعة القروم ، ونازل عقل عقلا ، وناضل لسان لسانا ، وظفرت العربية بتراث صالح من القول في القرآن ، وبطائفة من الكتب في الإعجاز .

وليس يعنيني في هذا الحديث أن أسرد الوجوه التي قال بها العلماء في الإعجاز ، وإنما يعنيني أن أرسم صورة مقربة لوجه واحد منها ، كان له أثر كبير في نشأة علوم البلاغة ، وفي تأليف كتبها .

ومنذ بدأت أقرأ في كتب الكلام وأنا أحمل البغض والحقد لهذا المذهب والقائلين به ، وكنت أعجب أشد العجب أن يقول عالم من علماء المسلمين هذه المقالة في القرآن الكريم ، وكنت أحسب أن هذه الزلة زلة إبراهيم النظام وحده ، ولكن كان عجبى يزداد : رأيت عالماً آخر يتابع النظام في رأيه ومذهبه ، وعرفت أن الجاحظ والشريف المرتضى من الشيعة ، والقاضي أبا إسحق الإسفرائيني من الاشاعرة ، والإمام محمد بن حزم الظاهري ، عرفت أن هؤلاء على رأى النظام ،

ورأيت هذا العالم الأخير يقول في كتابه (الفصل في الملل والنحل) حين يحكى هذا المذهب : « قالت طوائف ، فالتقائون به — إذن — طوائف ، لا طائفة واحدة ، ولا فرد واحد . وكنت في بادئ الأمر أظن أن أحداً من الأشاعرة لا يقول بهذا المذهب ، وإنما هو رأى اعتزالي ، حتى رأيت في كتاب الشهرستاني (الملل والنحل) هذا النص « والقرآن عنده — يريد الأشعرى — معجز من حيث البلاغة والنظم والفصاحة ، إذ خيّر العرب بين السيف وبين المعارضة فاختاروا أشد القسمين اختيار عجز عن المقابلة ، ومن أصحابه من اعتقد أن الإعجاز في القرآن من جهة صرف الدواعي ، وهو المنع من المعتاد ، ومن جهة الإخبار عن الغيب . » ورحت أبحث عن هذا الأشعرى فرأيت في المواقف لعضد الدين الألباني ، وهو يحكى الأقوال في الإعجاز « وقيل بالصرفة ، فقال الأستاذ والنظام : صرفهم الله مع قدرتهم ، وقال المرتضى : بل سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة ، ويفسر السيد الشريف الجرجاني كلمة الأستاذ بأنه أبو إسحق الإسفرائيني .

عرفت أن هؤلاء العلماء الأعلام ، وهم لا يحتاجون إلى تعريف ، يقولون بهذا القول ، ثم رأيت المرحوم مصطفى صادق الرافعي يقول في كتابه (إعجاز القرآن) عن هذا المذهب : « وهو عندنا رأى لو قال به صبية المكاتب ، وكانوا هم الذين افتتحوه وابتدعوه لكان ذلك مذهبا من تخاليطهم في بعض ما يحاولونه إذا عمدوا إلى القول فيما لا يعرفون ليؤهموا أنهم قد عرفوا . » وعلى الجملة فإن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه « إن هو إلا سحر يؤثر . » وهذا زعم رده الله على أهله وأكذبهم فيه ، وجعل القول به ضربا من العمى : « أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون . » فاعتبر ذلك بعضه ببعض فهو كالشيء الواحد . أقول : قرأت هذا فذكرت ما كنت لفتنته من بعض شيوخي في عهد الطلب ، من أن القائلين بهذا المذهب كفار ، لأنهم يجعلون القرآن في مستوى كلام البشر ، وليكني ذكرت أولئك العلماء القائلين به ، فوجدت المسألة لا تخلو من غرابة .

لذلك رأيت أن أنعرف كيف نشأ هذا المذهب ، وما حقيقته ، وكيف دافع عنه أصحابه ، وكيف فهمه العلماء ، وكيف ردوا عليه وناقشوه ؟ وقد خرجت من هذا البحث مقتنعاً بأن هذا المذهب عليه غبار كثيف ، وأن من الإنصاف أن نعرضه مفصلاً ، لا لنُدافع عنه ، ولا لنقول إنه المذهب الحق ، ولكن لنرفع شيئاً من الظلم عن القائلين به . ولا بادر القارئ فأقول : إنى لا أعتقد هذا مذهباً فى الإعجاز ، ولا أقول إنه الصواب ، وما عداه من المذاهب خطأ ، ولكنى أقول : إنه سيرى من هذا البحث أن النظام والجاحظ والإسفرائينى والمرأتضى وابن حزم كانوا بعيدين عن الكفر كل البعد ، وكانوا بعيدين عن السفه ، وإنما اعتقدوا هذا المذهب تديناً ، ومبالغة منهم فى الابتعاد بالقرآن عن أن يطمع طامع فى معارضته .

كان لهذا المذهب أثره فى نشأة البلاغة العربية ، فظهر القول به والعلماء ينظرون فى القرآن باحثين ومدققين ، يريدون أن يبينوا أسرار إعجازه ، وأن يضعوا أمام الناس دلائل إعجازه ، فكان من ذلك مؤلفات فى الإعجاز لها مكانتها ، وكان من ذلك أقوال مبسوسة فى كتب الكلام وكتب التفسير ، وهى ثروة وفيرة ، على أن أصحاب هذا المذهب لم يبق لهم فى الكتب إلا القول به ، أما أدلتهم ، وأما وجهة نظرهم فقلما تعثر على شئ . من ذلك . مرّ الجاحظ عليه فى موضع واحد من كتابه الحيوان ، وذكره ابن حزم ، ولعله الوحيد الذى أطل فيه ، أما خصومهم فلا يخلو كتاب من كتبهم من مناقشة المذهب والرد عليه ، وإنك لتعجب بعد كل هذا من قول الرافعى : « على أن القول بالصرفة هو المذهب الغاشى من لدن قال به النظام ، يصوّبه فيه قوم ، ويشايعه عليه آخرون ، ولولا احتجاج هذا البليغ لصحته ، وقيامه عليه وتقلده أمره ، لكان لنا اليوم كتب ممتعة فى بلاغة القرآن وأسلوبه وإعجازه اللغوى ، وما الى ذلك ، . وسنعرض - إن شاء الله - فى مقالاتنا الآتية إلى كل ما أوامنا إليه آنفاً ، والله الموفق للصواب .

الإمام البخارى

منزلة السنة من الدين

كيف دونت السنة — نشأة البخارى وسيرته

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمود النواوى
وكيل معهد فؤاد الاول بأسىوط

جدير بالمسلمين أن يذكروا لذلك الإمام الكبير فضله على أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ فهو كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس. لقد حفظ الله به على الأمة السنة الثابتة الصحيحة؛ والسنة المحمدية هي الهداية العظمى، والحكمة البالغة، والدين الخالص، والعلم النافع. وقد اعتبرها الأئمة الأعلام المرجع والإمام الذى لا يقبل غيره، ونوه بها الإمام الشافعى فى قوله :

كل العلوم سوى القرآن معولة إلا الحديث وعلم الفقه فى الدين
العلم ما كان فيه قال حدثنا وما سوى ذاك وسواس الشياطين
فلم يكن أحد من الأئمة يستطيع أن يتعدى حدودها فى مسألة من الدين حتى
يعدم فيها توجيهها. وقد حفظ عن كل إمام من الأربعة أنه كان يقول : إذا صح
الحديث فهو مذهبي .

فنزلاتها من الإسلام منزلة الروح من الجسد؛ لا لإسلام لمن لم يعرفها، ولا دين
لمن تنكب عنها. لقد تكفلت ببيان بحمل الكتاب، وتقييد مطلق منه، وإحكام
متشابه فيه .

وهى التى علمتنا مواقيت الصلوات، وأعداد الركعات؛ وكذلك كانت فى كثير
من الشعائر .

يقول الله سبحانه « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » . ولكن ما السرقة التي توجب القطع ؟ وكيف يكون ذلك القطع ؟

ويقول سبحانه « كتب عليكم الصيام » الخ الآيات ، ولكن ماذا يفعل من زل بالفطر ؟ وهل له كفارة ؟ وما تلك الكفارة ؟

ذلك وأمثاله بَيِّن واضح في السنة الكريمة : فهي بيان الكتاب وتفسيره . والوحي قسمان : معجز متلو وهو القرآن ، وغير معجز وهو السنة .

وفي صحيح البخارى قال عمر « لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل : لانجد الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله ؛ ألا وإن الرجم على من زنا وقد أحصن إذا قامت البينة » . وفي مسند أحمد « يوشك أحدكم أن يكذبني وهو متكئ على أريكته يحدث بحديثي فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله . ألا وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله » .

لا جرم أن تنافس رجال الدين في حفظها والذود عنها ، حتى يبني عليها الدين الخالص ، وحتى يكون بئامن من وعيد الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث المتواتر « من كذب متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

هذا وقد اعتمد الصحابة رضى الله عنهم في نقل السنة على الحفظ والضبط لجودتهما إذ ذاك ، ولا سيما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينهاهم أن يكتبوا عنه غير القرآن خوف الالتباس بالقرآن على مر الزمن .

ولما اتسع الإسلام ، وتفرق الصحابة وأتباعهم ، ومات الكثير منهم في الفتوحات ، وقل الضبط ، وكاد الباطل يتلبس بالحق في عدة عوامل مختلفة - احتيج الى تدوين الحديث ، وابتدأ التصنيف ، فكان عمر بن عبد العزيز الإمام العادل أول من أمر بتدوينه .

وفي مقدمة الفتح لابن حجر : إن أول من جمع في ذلك الربيع بن صبيح وسعد بن أبي عروبة وغيرهما ، يصنفون في كل باب على حدة ، فلما انتهى الأمر الى كبار الطبقة الثالثة ، صنف مالك الموطأ بالمدينة ، وألف ابن جريج بمكة ،

والأوزاعى بالشام . . ثم تلاهم كثير من الأئمة كل بحسب ما سنع له ، فمنهم من رتب على المسانيد كأحمد وابن راهويه ، ومنهم من رتب على العلل ، ومنهم من رتب على الأبواب الفقهية ، وهؤلاء منهم من تقييد بالصحيح كالشيخين البخارى ومسلم ، ومنهم من لم يتقييد كباقي أصحاب السنن . فالبخارى أول من صنف فى الصحيح على أبواب الفقه ، وكان معروفاً بالفقه فى الدين وقوة الاستنتاج ، كما تشهد بذلك عناوينه الدقيقة فى كتابه الجامع الصحيح .

نشأ البخارى وقد تهمد سبيل الرواية ، فدقق فى بعض الاشتراط بما لم يكن لغيره ؛ ولذلك كان جامعه هذا أصح الكتب بعد كتاب الله ، وتلقته الأمة بالقبول ، حتى وصف بأنه متواتر معنى .

ونشأ البخارى فى عهد قامت فيه الحركة العلمية على ساقها ، ونقفت أسواقها ، وتنافس الرجال على التجارة فيها على اختلاف نزعاتهم وتنوع أصنافها ، فشهد حيناً من أخريات عهد المأمون الذهبى صيباً ، إذ كانت ولادته يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة ١٩٤ ، ولا بد أن الوسط ظل متأثراً بتلك الروح العظيمة المأمونية حيناً من الدهر فى عهد المعتصم الذى بدأ البخارى يطلب فيه العلم ، وقد تغلغل فى نفسه حب العلم الدينى بالوراثة عن أبيه الصالح التقي اسماعيل بن ابراهيم ، الذى روى عن حماد ومالك ، وصحب ابن المبارك ، والذى روى عنه العراقيون ، وكانت له سمعة طيبة كريمة فى الورع والزهادة ، وكان البخارى من آيات الله فى ذكائه ، وحفظه وتحريه وشدة حرصه ، وتقلله من الدنيا ومن الإصابة منها والتنافس على جمعها ، يحدوه توفيق وتيسير عجيب ، فضلاً من الله الذى رد عليه بصره ليحفظ به سنة نبيه .

حدث البغدادى الخطيب بسنده الى السجاد قال : سمعت شيخى يقول : ذهب عينا محمد بن اسماعيل فى صغره ، فرأت والدته فى المنام ابراهيم الخليل عليه السلام يقول : يا هذه قد رد الله على ابنك بصره لكثرة بكائك أو لكثرة دعائك ... فأصبح وقد رد الله بصره !

وأظن أن فى الطب الآن متسعاً لمثل هذا الذى كان يعد من الخرافات . على أن فى قدرة الله ما لا يعلم الناس ولا يحسبون .

وقد حدث البخارى عن نفسه ببعض قصة حياته ، وقد سأله محمد بن أبى حاتم : كيف كان بدء أمرك ؟ قال : ألهمت حفظ الحديث وأنا فى المكتب ، قال : وكم أتى عليك إذ ذاك ؟ قال عشر سنين أو أقل ، ثم خرجت من المكتب بعد العشر فجعلت أختلف الى الداخلى وغيره ، وقد جرى بينى وبين الداخلى أنه قال يوما فيما كان يقرأ للناس : سفيان عن أبى الزبير عن ابراهيم ، فقلت يا أبا فلان إن أبا الزبير لم يرو عن ابراهيم ، فانتهرنى ، فقلت : ارجع الى الاصل إن كان عندك ، فدخل فنظر فيه ثم خرج وقال لى : كيف هو يا غلام ؟ فقلت هو الزبير عن عدى ابن ابراهيم ، فأخذ القلم منى فأحكم كتابه . فقال له بعض أصحابه : ابن كم كنت ؟ قال ابن إحدى عشرة سنة ، فلما طعنت فى ست عشرة سنة حفظت كتب ابن المبارك ووكيع وعرفت كلام هؤلاء ، ثم خرجت أمى بنى وبأخى أحمد الى مكة ، فلما حججت رجع أخى بها وتخلفت فى طلب الحديث ، فلما طعنت فى ثمان عشرة جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاولهم ، وصنفت كتاب التاريخ إذ ذاك عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم فى الليالى المقمرة ، وقال : قلَّ اسم فى التاريخ إلا وله عندى قصة إلا أنى كرهت التطويل .

ويظهر أن هذا الكتاب كان من آيات غزارة علم الرجل وسعة اطلاعه إلى حد جعل الناس تفتن به حتى فى وضعه وجعل البخارى يعجب به ، فهو يقول : لو نشر بعض أستاذى هؤلاء لم يفهموا كيف صنف كتاب التاريخ ولا عرفوه ؛ صنفته ثلاث مرات .

وقد حدث البخارى أن شيخه ابن راهويه دخل بالكتاب على عبد الله بن طاهر ، فقال : أيها الأمير ألا أريك سحرا ؟ فنظر فيه عبد الله بن طاهر فتعجب منه وقال : لا أفهم تصنيفه ! . وقال العباس بن سعيد : لو أن رجلا كتب ثلاثين ألف حديث لما استغنى عن تاريخ البخارى .

وأما جمعه لهذا الجامع الصحيح فيرجع إلى ما حدث به عن نفسه ، قال : كنت عند إسحاق بن راهويه فقال لنا بعض أصحابنا : لو جمعتم كتابا مختصرا لسنن النبى صلى الله عليه وسلم ! . فوقع ذلك فى قلبى ، فأخذت أجمع هذا الكتاب وجمعته من ستمائة ألف . والله هذا الإمام الحافظ الخطير ! ما كان أصنى نفسه وأقدره على

الجمع والحفظ والفقہ ، ونخل النصيحة لامة محمد صلى الله عليه وسلم ! . وحدث البخارى وهو الثقة الثبت أنه ما أدخل فى كتابه إلا ما صح ، وترك من الصحاح خوف الإطالة ، وأنه ما وضع فى هذا الصحيح حديثا إلا اغتسل قبل ذلك وصلى ركعتين ... والحديث عن هذا الجامع يطول .

وكذلك الحديث عما كان من امتحانات البخارى وتجمهر كثير من البلاد لتحديه فى الحفظ والضبط ؛ فذلك أمر قد يدخل فيما يقرب من الإعجاز . ومن شاء علم ذلك فليرجع إلى مقدمة الفتح وإلى تاريخ بغداد وغيرهما . وهنا نشير إلى أن للبخارى عدا الكتائب العظميين كتباً أخرى ، كالآداب المفرد ، وبر الوالدين ، وخلق الأفعال ، والضعفاء ، والمسند الكبير ، والتفسير الكبير ، وكتاب الفوائد .

ثم نعود بك إلى بعض صفاته العظيمة التى فتحت له ذلك الفتح المبين ، وجعلته فى ذلك الوضع النادر .

فقد قالوا : إنه كان غاية فى السخاء وبذل الدنيا ، وكان آية فى عفة اللسان ونزاهة القول ، حتى إنه قال يوما : أرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أنى اغتبت أحدا . فقال له بعض الشهود : إنك جرحت بعض الرواة ، فقال : ذلك رواية ولم يقله من عند أنفسنا وقد قال صلى الله عليه وسلم : بئس أخو العشير .

على أنه قد كان من دأبه أن يقول فى الساقط والمترك : فيه نظر أو سكتوا عنه . وكان البخارى صبورا غفورا ، حتى إن الجارية أراقت حبره يوما فلما سأها قالت : إنه فى طريقى ! فقال : أنت حرة لوجه الله ! .

فأما أحاديث الفسك والعبادة والاستمثار فى ذكر الله وتلاوة القرآن ، فقد كان فى ذلك كله المثل الأعلى للمؤمن الناسك القانت الخاشع : صلى الظهر يوما فى بستان مع جماعة من أصحابه ثم قام إلى التطوع فأطال القيام ، فلما فرغ من صلاته رفع ذيل قميصه فاذا زنبور قد أثر فى سمة عشر موضعا حتى تورم جسده ، فلما سئل فى إطالته ، قال كنت فى سورة فأحببت أن أتمها . وهنا أترك للقارىء الكريم التعليق على هذا الحادث الجسم ، وكيف أن ذلك الإمام الذكى كان يؤثر الروح

ولذتها ، ويقدر الكتاب الكريم ويقدر آياته . وقد كان في شهر رمضان يعني بالقرآن هناية خاصة مع تسميره في عبادة الله ، فكان يجمع أصحابه منذ أول ليلة منه فيصلون بهم ويقرأ في كل ركعة عشرين آية ، وكذلك الى أن يختم القرآن . وكان يقرأ في السحر ما بين نصف القرآن وثلاثة ، فيختم عند السحر في كل ثلاث ليال ، وكان يختم في كل يوم ختمة عند الإفطار ويقول : عند كل ختم دعوة مستجابة . على أن البخاري كان يتعهد العمل في ليله مع ذلك القنوت والتهجد . اللذين علمت من خبرهما ، وقد حفظ عنه ذلك وعرفه أصحابه في السفر .

قال أبو الوراق : كان أبو عبد الله (البخاري) إذا كنت معه في سفر يجمعنا في بيت واحد أحيانا فيقوم في ليلة خمس عشرة مرة الى عشرين ، في كل ذلك يأخذ القداحة ثم يورى ثم يخرج أحاديث فيعلم عليها . وكان يصلي في السفر ثلاث عشرة ركعة .

فهذا شأن من شغله التفكير في العلم وتصحيح النقل والامانة في الرواية عن نوم الغافلين السكالي ، فهذا نوم الإغفاء والتفكير لا نوم الإغماء والشخير . وكذلك النفوس الكبيرة :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الاجسام

ونقل ما يشبه ذلك تلميذه الفري ، ولم يكن ذلك في السفر ، قال : كنت عند محمد بن اسماعيل بمنزله ذات ليلة ، فأحصيت أنه قام وأسرج يستذكر أشياء ثمان عشرة مرة . فليس كثيرا على مثله أن يصنف هذا الجامع الصحيح في ست عشرة سنة ، لأنه المتحرى المحتاط الذي استطاع أن يخرج من ستمائة ألف حديث هذا الجوهر الثمين والسكنز العظيم الذي جعله حجة بين الله وبين عباده . نفع الله الأمة بإخلاصه وبجامعه الصحيح .

فأما الخوض في طريقة تصنيفه ، ودقة استنتاجه ، وقوة نظره ، وعلو كعبه ، وبعده مراميه في فهم السنة والتفريح منها ، فلذلك مجال غير هذا ، وإنما قصدت توجيه الانظار الى ذلك الذخر العظيم ، وتلك النفحات الربانية الكريمة . وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

حرية الرأي

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ إبراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

أما أن الحرية هي الحياة ، أو هي أقصى ما يتشبه الحياة أن ينالوه ، فذلك مما لا شك فيه . ولهذا نجد الأفراد والجماعات يبذلون ما يملكون ، وينفقون أثمان ما يقتنون ، للحصول على هذه الغاية ، والوصول إلى تلك الثمرة ، فإن انتهوا إليها حمدوا الشئى ، وشكروا للمقادير ما أناحت ، ولل قضاء ما وهب . وإن رجعوا من المسعى بالخيبة ، ومن الدأب بالإخفاق ، سخطوا على الزمان والمكان ، وبرموا بالسكون وما فيه من باغم وناغم ، وصاح ونائح ، وصار القضاء على سعته في نظرهم أضيّق من حباله الصياد ، وأظلم من حلك الغراب ، واعتبروا أن العيش الذى يعيشونه على هذا النمط خير منه قاع جهنم ، حيث النار ذات اللهب ، والحجارة والحطب ، والدخان الذى يكبت الانفاس ، ويؤلم الإحساس . . .

وربما كانت عبودية الأجسام على خطر شأنها ، وعظم قدرها ، وإن كانت سببنا مرذولا ، وحدأ من النشاط ممقوتا ، ليست شيئا مذكورا إلى جانب عبودية الرأي والحظر عليه ، وإقامة الأسوار والأشواك في وجه صاحبه .

والرجل ذو الهمة الآلية ، والنفس العالية ، والطموح البعيد ، قد يقبل أن يطوّح به في المنفى ، وأن يُزجّج به في الدرك الأسفل من السكوف والمغارات ، وأن يرمى به في المفازات والأدغال مع الوحوش والهوام ، ثم لا يقبل أن يحال بينه وبين الرأي الصريح ، والمنزع الصحيح ، والعقيدة التى يذعن لها قلبه ، ويطمئن إليها وجدانه ، ولو أكره على خلاف ما يرى ، أو حمل على ما يتنافى مع هواجس نفسه ، وهواف حسه ، لم يسعه إلا أن يدعو بدعوة يوسف عليه السلام ، حينما اضطربت به المسالك ، وضافت عليه المآزق : « ربّ السجن أحبّ إلىّ مما يدعونى إليه . »

ولا يكون الحبر على الآراء ، والحيلولة دون الأفكار ، ومحاربة العقول ، وإطفاء مصابيح النظر الصحيح ، إلا حين تكون طفولة الأمم ، وتخبطها في ظلمات الجهالة ، وغيابات الحيرة والعمى ، ولا يمكن أن يكون حينئذ نهوض ولا رقى ، ويقظة أو تقدم ، وإنتاج نافع ، أو إصلاح مرموق ، وإنما يكون الفناء والهدم ، والتدمير والتأخر ...

ولذا رأينا الإسلام يشيد بهذه الحرية ، ويقدها ، ويملى من قدرها الى درجة ليس بعدها ؛ وينهى على من يهمل بصره ، ويُعَسِّطِل حواسه ، ولا يستفيد من تلك المواهب التي خلقها الله له ، ليستخدمها وينتفع بها ، ويرى فيمن يهجون ذلك النهج ، ويعيشون بهذا الأسلوب ، أنهم كالأنعام بل هم أضل .. ولم تقم دعوته على العنف ، أو تستعن بالتموة ، أو تلجئ الى السيف والإرهاب ، وإنما تركت للناس حرية النظر والتفكير ، والتروى المشوب بالبحث والمقارنة ، والترجيح والتفضيل ، لتتركز العقيدة ، ويكون الدين خاليا من اللجاجة والشك ، والاضطراب والتردد ، وهو لهذا يذكر الحكم مقترنا بعلمته ، والقضية مصحوبة بدليلها ؛ والشواهد لذلك من الكتاب والسنة أكثر من أن تحصى أو تستقصى ...

وليس أصرح في حرية الاختيار ، وأبلغ في اعتبار إذعان القلب ، وميل الوجدان ، من تلك الصورة الرائعة التي تمثلها الآية « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » ، فإنها تضرب الرقم القياسي — كما يقولون — للديموقراطية الفكرية في أجلى مظاهرها ، وأحسن صورها ... ولو أن دولة من الدول ، أو جماعة من الجماعات ، وضعت يدها على من يحاربها في رأى ، أو يناقضها في عقيدة ، أو يخالفها في مبدأ ، وكان منها إليه ذلك الصنيع ، دون أن تجعل الظفر به مدعاة الامتنان ، أو وسيلة النيل منه ، لقام لها التاريخ وقعد ، وطاولت بعنقها السماء كبرا وخيلاء ...

وحسب المتحدث عن « حرية الرأى » في الإسلام ما يقرؤه في الكتاب الكريم من الآيات الداعية الى النظر ... وأن من منابع التشريع فيه الاجتهاد حتى حين كان ينزل الوحي ، وأن اختلاف الصحابة كان مع وجود النبي

صلى الله عليه وسلم ، وأن عمر كان إذا لم يطعمن الى الحكم راجع فيه الرسول ، وأبى أن يتلقنه من أول الأمر ، إلا أن ينقدح فى نفسه ، أو يتجلى لعينه ... وأظن أن تباين القضايا عند الأئمة وتضارب الفهوم فى المسائل ، برهان لاشك فيه ، ودليل لا شبهة معه ، على أن الرأى مقدس ، والنظر معتبر ...

ومن المسلم به أن الإنسان إذا عبد الله سبحانه وتعالى بما رجع دليله لديه كان من الناجين من عذابه ، البعيدين عن سخطه ، ولو كان ذلك الذى رجع لديه خطأ فى الواقع ...

إلا أن حرية الرأى هذه لا يقبلها الدين « قضية مسلمة » بل يراها أقرب الاشياء شها بما يسمونه السلاح ذا الحدين ، فالحرية للمسلمين مكفولة ، والرأى له قداسته واحترامه ، ما دام ذلك كله لا يصل بصاحب النظر الى نقيض ما أجمعوا عليه فى أصل من الاصول ، أو ما دام غير متعارض مع نص ظاهر الدلالة ... ولذلك كان المأثور عن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما أنهما إذا اشتبه عليهما أمر الكتاب والسنة ، وخفى عليهما أخذ الحكم منهما ، لم يريا الرأى من تلقاء أنفسهما ، ولكن يجمع أحدهما « أهل الذكر » فإن أجمعوا على حكم أخذ به ، وحمل الناس عليه ، وفى ذلك بُعد عن الهوى ، ومجانبة لمظنة السَّخِيف ، خصوصا إذا كانت الفتنة ، أو شاعت الضلالة ، أو شك المعاصرون فى نزاهة المفتى ، وبراهته من الغرض ...

ولأن علم المنطق من العلوم التى تنمى ملكة الرأى ، وتشجع على حرية النظر ، كان بعض العلماء لا يقول بجواز الاشتغال به ، ولا سيما إذا لم يكن عند المرء حصانة من الدين ، ومناعة من العقيدة الصحيحة . وقد رأينا صواب ذلك الرأى حينما شاهدنا أولئك الذين لم يأخذوا بقسط من الهداية السليمة يتخبطون فى النظر ، وينغفون فى الفكر ، ويسرون كما تسير العشواء ، وجعلوا من معارفهم التى درسوها معاول يهدمون بها ما أجمع المسلمون عليه . وهم وإن كانوا « كمناطح صخرة بوما ليوهنا ، إلا أنهم يستممون عقول الناشئين ، ويصيبون أحلام المبتدئين ... والشباب فى جيلنا الذى نعيش فيه يغره البريق ، ويخدعه البهرج ، وتسييه مظاهر الاشياء ، لذلك

يجب من الكلمات ما كان فيه « تجديد ، أو دعوة الى حرية ، أو اشتغال على مذهب مستحدث ، أو رأى غريب ... وعذرهم في ذلك كله واحد من أمرين : قلة محصولهم العلمي ، وكثرة الدوى الذى يطن فى آذانهم من الصحافة المستهتره ، والكتاب المائعين ، وساعد على هذا وهذا تحليل عام ، وتفكك شامل ، وانحدار خلق طاح بالاخضر واليابس ، الى حد أن صارت كلمة الجود أو التأخر أقرب ما ينال المنصف من الداعين ، والمعتدل من الهداة المرشدين » وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، ...

وإذا كان من أدب القرآن الذى أدب به أهله إذا اشتبهت عليهم معالم الطريق أن يسترشدوا بمن يعرف مسالكه ، ويدرى مهالكه ، وأن يشاوروا من يتبصر النور ، حين لا تتبين الأمور ... فإن من أدب أولئك الاغرار قوله ابن أبى ربيعة « إنما العاجز من لا يستبد ، عصمنا الله من اللجاجة ، وحفظنا من الهوى ، وجعلنا من الداعين إليه ، الذائدين عن دينه ، المتمسكين بيقينه »

مخاطرات

قام رجل إلى عمرو بن العاص وإلى مصر وهو يخطب يوم الجمعة ، وقال له : يا أيها الأمير من أمك ؟ فأجابه عمرو قائلاً : هى النابغة بنت عبد الله أصابتها رماح العرب ، فبيعت بعكاظ ، فاشتراها عبد الله بن جدعان للعاص بن وائل ، فولدت فأنجبت ! فان كانوا جعلوا لك شيئاً فخذوه !

وقام رجل إلى هرون الرشيد وهو يخطب بمكة فقال : كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ، فأمر به فضرب مائة صوت ؛ فبات هذا الرجل يئن الليل كله من ألم الضرب وهو يقول : الموت الموت ! . فأخبر بذلك أمير المؤمنين هرون وقيل له إنه رجل صالح . فأرسل اليه يعتذر اليه ويستحله ، فأحله .

من طرائف القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الغنى عوض الراجحي
مبعوث الأزهر الى كلية المقاصد الإسلامية بصيدا — لبنان

الألفاظ أوعية المعاني، ولكل معنى لفظ يدل عليه ويعبر عن طريقه الى الذهن. والألفاظ بما تحمل من المعاني ثروة بين الجميع على سواء، لا يعن لمتكلم معنى من المعاني يريد التعبير عنه إلا وفي ألفاظ اللغة ما يسعفه. وقد كان ذلك مدعاة أن لا يفضل كلام كلاماً أن لو كان الأمر في الألفاظ المجتمعة كمثلها في الألفاظ المفردة؛ لكن لما كان اجتماع الألفاظ مجالا لخصائص وزيادات تحدث في أصول المعاني، كان تفاضل الكلام بحسب تفاوته في اشتماله على هذه الخصائص والزيادات، فلا يزال الكلام يترقى بها الى أن يبلغ حد الإعجاز أو ما يقرب منه، ولا يزال يسفل بفقدائها الى أن يلتحق بأصوات العجهاوات عند البلغاء، وإن كان صحيح الإعراب عند النجاة.

لم يقتصر القرآن في حلاوته وطلاوته وبلوغه درجة الإعجاز على أدائه المعاني مشتملة على أعلى هذه الوجوه والخصائص التي بها يطابق الكلام مقتضى الحال؛ بل إنه أتى في هذا الباب بشيء عجيب طريف لا يتأتى في غيره إلا متابعة له أو اقتباساً منه: تمكين المعنى بوضع الجملة وحس الكلمة وهيئة التراكيب وأجراسها الصوتية، وفواصل الآيات ومقاطعها، حتى ليتناسب التعبير مع المعبر عنه، وتساعد الجمل والكلمات بوضعها وكيقياتها على تصوير المعاني وتجسيمها.

انظر مثلاً الى قوله تعالى في سورة الرحمن «أن لا تطغوا في الميزان، وأقيموا الوزن بالقسط، ولا تخسروا الميزان، الطغيان في الميزان: الزيادة فيه، والإخسار له:

النقص منه ؛ وبين الزيادة والنقص طريقة وسطى هي إقامته بالقسط . المجلة الأولى نهى عن الطغيان ، والمجلة الثالثة نهى عن الإخسار ، والمجلة الوسطى أمر بالقسط ، وفي جميعها وسطى في الوضع مع أمرها بالطريقة الوسطى موافقة الوضع للمعنى ، ومحاذاة في صورة التعبير لصورة المعبر عنه .

وقريب منه ما في سورة هود من قول شعيب لقومه « ولا تنقصوا المكيال والميزان ، إنى أراكم بخير ، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، حيث وقعت جملة الأمر بالقسط والمكيال والميزان وسطى بين جملة النهى عن النقص .

وانظر مثلاً آخر قول الله سبحانه في سورة الشورى « يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانا وإناثاً ، ويجعل من يشاء عقيماً » كيف جاء لفظ الإناث والذكور على التنكير في سائر الالفاظ إلا في موضع واحد وقع فيه تعريف الذكور بأل . قد يقال إنها الفاصلة . نعم ووراء الفاصلة سر آخر : حجر الأساس ، وجيب الزاوية في هذا الوجود ، هم الذكور : الرسائل ، الملك ، العلم ، قيادة القافلة الإنسانية ؛ يدور الأمر في ذلك كله على كاهل الذكور . خلق الله آدم قبل حواء ، الرجال قوامون على النساء ، للذكر في الميراث مثل حظ الأنثيين . لا بدع بعد ذلك أن يكون الذكور أعرف من الإناث ، وأن يكون تعريف هذا اللفظ خاصة للإشارة الى ما ذكر من متعلقات مدلوله .

وانظر مثلاً آخر قول الله تعالى في سورة الأنعام الآية ٩٩ « والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه » مع قوله تعالى في السورة نفسها الآية ١٤١ : « والزيتون والرمان متشابهان وغير متشابهان » ففي هاتين الآيتين دلالة على أن الزيتون والرمان متشابهان وغير متشابهان ؛ متشابهان في اللون والحجم ، غير متشابهان في المذاق والطعم ، أو ما شئت قل في مناط التشابه وعدمه ؛ فالتركيبان في الآيتين لمعنى واحد ، وألفاظهما واحدة ، إلا ما كان في الآية الأولى من الاشتباه بدل التشابه ؛ والاشتباه غير التشابه في اللفظ ونظام الحروف ، لكنه عينه في الأصل والمعنى ، بدليل المقابلة بينهما ، وهذه المعاصرة اللفظية أوجدت شهما بين اللفظين

في تركيب واحد ، وشبها بين التركيبين في الآيتين لمعنى واحد ، فكانت الكلمات الدالة على تشابه الزيتون والرمان نفسها متشابهة ، فكان ذلك من تصوير التعبير بصورة المعبر عنه ، ومحاذاة الصورة اللفظية للصورة المعنوية حذوك الشيء بالشيء .

وانظر مثلاً آخر الى الكلمات الأربع « اثاقلتم » في قوله تعالى في سورة التوبة « يأياها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض » ، « أنلزمكموها » في قوله تعالى في سورة هود « يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فـُـعِمِّيت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » ، « يصطرخون » في قوله تعالى في سورة فاطر في أهل جهنم « وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل » ، « مصيطر » في قوله تعالى في سورة الغاشية « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمصيطر » .

كيف أن اللفظة الأولى بما فيها من إدغام وإبدال واجتلاب همز الوصل للنطق بالساكن وثقلها في النطق بعد ذلك كله — كانت خير تصوير لهذا الثقل المراد تصويره : ثقل البطيء الذي لا يخف لما يؤمر به ، هذا التصوير الذي لم يكن ليكون أن لو كان التعبير بقوله : ثاقلتم ؟ .

وكيف أن الثانية بكثرة حركة الضمة فيها — وهي أثقل الحركات — وتكرر بعض حروفها ، كانت خير تصوير لما يكون من الثقل على الملزم بشيء هوله كاره لا تستجيب له نفسه ولا تخف ؛ هذا التصوير الذي لم يكن ليكون أن لو كان التعبير بقوله : أنلزمكم إياها ^(١) ؟ .

وكيف أن الثالثة بغلظ جرسها وقوة منطقتها وحروفها ، تصور قوة الصراخ المنبعث من جوف جهنم وأهلها هولاً وفزعا ؛ هذا التصوير الذي لم يكن ليكون أن لو كان التعبير بقوله : يصرخون ؟ .

وكيف أن الرابعة تصور بقوة جرسها وحروفها ، هيمنة المسيطر على المسيطر عليه ؛ هذا التصوير الذي أعان عليه إبدال السين صاداً ، والصاد أقوى من السين .

وانظر مثلاً قوله تعالى في سورة النجم « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن

(١) الفصل والوصل في هذا الضمير جائزان على سواء - ابن عقيل .

قسمة ضيزى ، فإن الكلمة الأخيرة فى أصلها غريبة ثقيلة على اللسان ، لكن مجيئها هذا المجيء جعلها من الروعة والرواق فى الذروة والسنام ، حيث كانت غرابتها أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التى أنكرت ، وكانت الجملة كلها كأنها تصور فى هيئة النطق بها الإنكار فى الأولى والتهكم فى الثانية ، وكان هذا التصوير أبلغ البلاغة وخاصة فى اللفظة الغريبة التى تمكنت فى موضعها من الفاصلة ، ووصفت حالة المتهكم فى إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدين فيها إلى أسفل وإلى أعلى ، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية ،^(١)

ومثله قوله تعالى فى سورة آل عمران : فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانقضوا من حولك ، فإن النحاة يقولون إن : ما ، زائدة أى فى الإعراب ، فيظن من لا بصر له أنها كذلك فى النظم مع أن فى هذه الزيادة لوناً من التصوير لو هو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته ، فإن المراد بالآية تصوير لين النبي صلى الله عليه وسلم لقومه ، وأن ذلك رحمة من الله ، فجاء هذا المد فى : ما ، وضعاً لفظياً يؤكد معنى اللين ويفخمه ، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية لا يبتدأ هذا المعنى بأحسن منها فى بلاغة السياق ، ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها وهو لفظ برحمة مما يلفت النظر إلى تدبر المعنى ، وينبه الفكر على قيمة الرحمة فيه ، وذلك كله طبيعى فى بلاغة الآية كما ترى ،^(٢)

وانظر مثلاً آخر الى القرآن كله نظرة إجمالية تتفحص فيها مدنيه تارة ومكبيه أخرى ، فإنك واجد أن لكل قبيل فى أغلب أمره مسحة تغلب عليه ، وظاهرة تنتظمه ؛ فالمدنى طويل السور ، طويل الآيات ، هادى الأسلوب ، رقيق العبارات ، لين الفواصل والمقاطع ، وذلك أنسب شئ بما يتضمنه من الأحكام الشرعية ، والقوانين الفقهية والجدالات العلمية مع أهل الكتاب . . . والمكبي قصير السور ، قصير الآيات ، غيف الأسلوب ، قوى الفواصل والمقاطع ، ألفاظه شديدة الجرس ، صاخب يدوى كأنه موج يهدر أو سيل ينحدر من قم الجبال ، وذلك أنسب شئ بما تضمنه من النذر القارعة ، والزواجر الرادعة ، والمواعظ الجامعة التى يقتضها

(١) راجع كتاب «التصوير الفنى فى القرآن» ، للاديب سيد قطب .

(٢) ما بين القوسين من كلام الراعى فى كتابه إعجاز القرآن .

حال أهل مكة ، أهل العناد والجحود ، وقسوة القلب وجفاء الطبع . ومن عجب أن اللفظ يكون واحداً في معنى واحد وقصة واحدة ، لكن يرد في سورة البقرة المدنية على جهة التخفيف ، ويرد في سورة طه المسكية على جهة التشديد ، فيقول تعالى في السورة الأولى - قصة آدم : « فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، ويقول في السورة الثانية في القصة نفسها « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى » .

وانظر مثلاً آخر هذه الفواصل القرآنية ^(١) التي تنوعت واختلاف الصنيع فيها بين السورة والأخرى ، وبين آيات السورة الواحدة بعضها وبعض . أما السورة الواحدة ذات الفاصلة الواحدة فإنك تجدتها وفاصلتها بمقطعيها وجرسها الصوتي أنسب شئ بمعناها وأسرع خطوراً بالبال إذا ذكرت السورة أو ذكرت بعض آياتها ، حتى لتعتقد في قرارة النفوس الحافظة عملية من التداعي والارتباط بين السورة وفواصلها ، بل بين سائر الآيات والفواصل فيها ، حتى ليسكون ذلك كله من عوامل استذكار الحافظ لما يوشك أن ينساه .

هذه سورة الناس تقرؤها فتكاد تصور لك بجرسها وفاصلتها وتكرر حرف السين فيها ، هذه الوسوسة التي سيقنت لها السورة : وسوسة الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس .

وهذه سورة القمر تقرؤها فتعطيك بجرسها وفواصلها والتزام حرف الراء الساكنة فيها وتكرر كلمة النذر ما تعطيك بمعانيها من تهديد أهل مكة وإنذارهم وقرع العصا لهم مرات ومرات ^(٢) .

وأما السورة الواحدة ذات الفواصل المتنوعة في آياتها فغالبا ما يكون هذا التنوع عند تنوع المعاني وانتقال الكلام من غرض الى غرض ومن طريقة الى أخرى ، كأنما يرمز بتغير الفاصلة الى تغير ذلك .

(١) الفاصلة كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع . وقال الداني : كلمة آخر الآية . وقال القاضى : الفواصل حروف متشابهة في المقاطع يقع بها إلهام المعاني - الاتقان ٢٣ ص ٩٦ ط الحلبي .

(٢) الكوثر ، الاخلاص ، الفيل ، العصر ، الشمس ، القدر ، التين ، الفتح ، محمد ، المرسلات ، الجن ، الانسان ، كلها سور واحدة الفواصل وقريب منها غيرها كثير كالسور : الأحزاب ، الاسراء ، الكهف ، النساء ، الفرقان .

هناك سور بدئت بتقسم ومقسم عليه ، ولا يخفى ما بين القسمين من تنوع غالبا ما تكون الفاصلة فى القسم غيرها فى المقسم عليه لاسيا إذا كان فى القسم طول والسورة أيضا طويلة كما كان عليه الحال فى السور : الذاريات ، الطور ، الصافات ، المرسلات ، النازعات ، العاديات .

أما إذا كان فى القسم قصر أو كانت السورة قصيرة ، فغالبا ما تكون الفاصلة فى القسم والمقسم عليه واحدة كما كان عليه الحال فى السور ، النجم ، الضحى ، الشمس ، التين ، العصر ، البلد .

وهذه سورة (ص) تستمر فيها الفاصلة على وتيرة متشابهة حتى الآية ٦٧ فتتغير الى وتيرة أخرى تستمر عليها حتى ختام السورة ، وفى هذا القدر الأخير من الآيات يتمحض الحديث عن قصة آدم ، وشىء من التنبيه الى ما فى القرآن . من حق وعظمة .

وهذه سورة غافر ترى الفاصلة فيها على وتيرة واحدة من الآية ٢٤ الى الآية ٥٥ وترى هذه الآيات خاصة بالحديث عن رسالة موسى الى فرعون وهامان وقارون وما أجابوه به وما آل إليه أمرهم ، وما قبل هذه الآيات وما بعدها من السورة غير متخصص لا فى موضوعه ولا فى فاصلته .

وهذه سورة نوح التى وإن كانت كلها من قصة نوح إلا أنه من الآية الخامسة فيها الى نهاية السورة خلص الكلام للحكاية رفع نوح الأمر الى ربه يشكو إليه قومه وإصرارهم واستكبارهم ، يدعوه أن لا يذر على الأرض منهم ديارا ، فكان كله ذا فاصلة واحدة فيها قوة وشدة جرس مناسبة لحال غضبه على قومه .

وهذه سورة النازعات تراها من الآية ١٥ الى الآية ٢٦ ذات فاصلة تسكد تكون واحدة متميزة عما قبلها وبعدها فى نفس السورة ، تتميز الآيات نفسها بتخصيصها للحديث عن موسى وفرعون ، وهناك سور أخرى كثيرة فيما ذكرته هنا مثال لها يحتذى ومناول يفسج عليه ، وكفى .

بَابُ الاسْتِئْذَانِ وَالْفَتْوَى

جاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

الحب العفيف للزوج

« هل الحب يعد حراما ، الحب الذي يمد لصاحبه الطريق لكي يتزوج في النهاية من التي يريد بها حتى يتم تعليمه مثلا إذا كان طالبا وبعد ذلك يتزوج بمن أراد . وفي أثناء هذا الحب لا يمسها بما يغضب الله ؛ فهل يعتبر هذا الحب حراما ؟

عبد الرحمن طلعت متولى

طالب بمدرسة النهضة الحديثة الثانوية

فاقوس — شرقية

الجواب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد : فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال ، وتفيد بأن الحب ميل قلبي لا اختيار للبر فيه ، فلا يتعلق به حكم شرعي بالحل أو الحرمة ؛ إنما الحكم يتعلق بسببه وبما يترتب عليه من الأعمال الاختيارية ، فإن كان سببه محرما أو ترتب عليه محرم كالخلوة بالمحبة قبل الزواج بها ، والسير معها في الطرقات ، والسهر معها في محل السهر ، وما إلى ذلك من الأشياء المحظورة شرعا - كان الشخصان آثمين ، يستحقان عقاب الله تعالى . وإن لم يكن سببه كذلك ولم يترتب عليه شيء من ذلك وإنما كان بينهما ارتباط قلبي بقصد الزواج في وقت مخصوص فلا شيء على واحد منهما شرعا . وبذلك علم الجواب . والله أعلم ؟

المسبحة من عظم الفيل

وجاء الى لجنة الفتوى أيضا الاستفتاء الآتى :

نرجو الإفادة عن الحكم الشرعى فى المسبحة المصنوعة من عظم الفيل (السن) ، أو من عظم الحيوانات غير مأكولة اللحم ، وذلك من حيث الطهارة والنجاسة ، وهل يؤثر حملها - إن قلنا بنجاستها - فى صحة الصلاة ؟ فإن عندنا شخصا له معرفة يسيرة ببعض المسائل العلمية يقول : إن السن والعظم يطهر بالنار ولا حرج فى حمله أثناء الصلاة ، فاعتمدنا قوله أزمانا ، ثم رأينا بعد إبراهيم للذمة أن نعرف الحكم عن طريق لجنة الفتوى . ونرجو الإجابة على وفق مذهبي الإمامين مالك والشافعى .

كفور بلشاي — عبد الحلیم حماد

الجواب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد : فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال ، وتفيد بأن مذهب المالكية أن المسبحة المصنوعة من عظم الحيوان الذى يحرم أكله كالبلغال - نجسة ، ولو ذكى الحيوان الذى أخذ منه العظم ، لأن الذكاة لا تفيد فى محرم الأكل . أما الفيل فيكره أكله ، فإن ذكى لأكل لحمه طهر بالذكاة بجميع أجزائه ومنها العظم . أما إذا ذكى للانتفاع بجذله فلا يطهر لحمه ؛ وإذا يكون عظمه نجسا ، ومتى كانت المسبحة مأخوذة من عظم حيوان محرم الأكل مطلقا ، أو مكروه الأكل إلا أنه لم يذك ، أو ذكى لاخذ جلده ، فهي نجسة ، والصلاة بها باطلة .

وأما مذهب الشافعى فهو أن المسبحة المأخوذة من عظم الحيوان الذى يحرم أكله سواء ذكى أم لا - نجسة ، ومن هذا الحيوانات المحرم أكلها كالفيل . وإذا فتكون الصلاة بهذه المسبحة باطلة ، ولا يجوز الدخول فيها شرعا بالمسبحة .

هذا ومذهب الحنفية أن سن الفيل أو عظم الحيوان غير المأكول ما عدا

الخنزير : طاهر ، لأنه لا يحل الدم . وعلى ذلك فالمسبحة المسأخوذة من سن الفيل أو عظم الميتة ، طاهرة ، والصلاة معها صحيحة . والله أعلم ؟

تبني المسيحي للطفل المسلم

وجاء الى اللجنة أيضا هذا الاستفتاء :

ذات يوم من أيام عام ١٩٢٦ ميلادية وجد رجل مسيحي على غير ملة الإسلام طفلا حديث الولادة أمام باب منزله ، وفي قبضة يد الغلام ورقة صغيرة مكتوب بها أن اسم الطفل محمد جمعه . فتهادى صاحب الدار المسيحي الى قسم البوليس وأخطره عن الحادث ، وأظهر رغبته في تربيته وأنه يود أن يتبناه ، فأرسل قسم البوليس الطفل الى مستشفى القصر العيني الذي قام بتسليم الطفل الى الرجل المسيحي بمقتضى طلب ثابت به أن اسم الطفل محمد جمعه ، ويلاحظ أنه لم يتقدم أى شخص للبحث عن هذا الطفل إطلاقا ، وأصبح مستشفى القصر العيني هو الذى يتولى من قبله السؤال دوريا في فترات منتظمة عن الطفل محمد جمعه . قام الرجل المسيحي بتعميد الغلام بعد بلوغه العام الاول وتنصيره حسب أصول قواعد الديانة المسيحية ، وسماه باسم مسيحي ، كما أنه قام بدفع الكفالة العسكرية لإعفائه في حينها . ولما كان هذا الرجل المسيحي عديم الذرية ، ولم يرزق بأولاد ، ولما كانت جنسيته يونانية ، فإنه تقدم للتجنسية اليونانية بعد بلوغ الغلام خمسة عشر عاما بإقرار يثبت به أنه تبني هذا الغلام ، وأنه منحه اسم العائلة التى ينسب اليها ، وأنه جرده من الاسم الاصلى وهو محمد جمعه ، وأنه أضفى مسيحي الديانة . ولقد مرت الأعوام وإذا بهذا الرجل المسيحي يتنكر لهذا الغلام .

١ — فهل يعتبر التبني للرجل المسيحي حسب الوقائع السابقة مع علمه بأن المتبني له نسباً هو محمد جمعه تبنياً صحيحاً شرعاً ويقره الإسلام ؟ .

٢ — وهل فى مكنة المتبني (الرجل المسيحي) أن يحسر عن نسبة هذا الغلام ويرده الى ملة الإسلام ؟

٣ — وهل من الجائز رفع دعوى حسبة بهذا الصدد ؟ .

٤ — وهل للفتى المتبني أن يطلب رده للإسلام وخلاصه من التبني ، سواء تمكن من الاهتمام الى نسبه الاصلى والتحقق منه أم لا ؟ سيد بغدادى المحامى

الجواب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

أما بعد : فقد اطلمت اللجنة على هذا السؤال ، وتفيد بأن التبني على الوجه المفهوم من السؤال لا يجوز في نظر الإسلام ، ولا تثبت به بقوة الولد المتبنى لمن تبناه ، بل لا يزال هذا الولد أجنبيا منه ليس عليه ما يجب على الولد لأبيه من الحقوق ، وليس له على من تبناه شيء من حقوق الأبناء على الآباء . قال الله تعالى : وما جعل أدياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . أدعواهم لأبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعدوا آباهم فاخوانكم في الدين ، أى فهم إخوانكم في الدين ، فادعواهم إخوانا ما دام لم يعرف لهم آباء ، والولد في نظر الإسلام مسلم من حيث نشأته ، وعليه أن يتقدم الى المحكمة الشرعية ليسجل إسلامه في سجلاتها حتى لا يكون لمن تبناه سلطان عليه .

ويجب على المسيحي الذى تبناه أن يبين الحقيقة بالنسبة لهذا الولد ، ويخلى سبيله ليسجل إسلامه كما قلنا . وأما رفع قضية حسبة في هذا الموضوع فهو أمر يرجع فيه الى نظام القضاء الشرعى . والله أعلم ؟
رئيس لجنة الفتوى
عبد المجيد سليم

العدل

دخل الزهرى على الوليد بن عبد الملك فقال له : ما حديث يحدثنا به أهل الشام ؟ قال الزهرى : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : يحدثونا أن الله إذا استرعى عبدا رعية كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات .

قال الزهرى : هذا باطل يا أمير المؤمنين ، أنبي خليفة أكرم على الله ، أم خليفة غير نبي ؟ قال : بل خليفة نبي ؛ قال الزهرى : فإن الله يقول لنبيه داود : يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب . فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبي خليفة ، فما ظنك بخليفة غير نبي ؟ ! قال أمير المؤمنين : إن الناس ليغروننا عن ديننا .

أبو تمام يصف

بقلم سيادة الأستاذ اليلعى الجليل « السيد »

صدر قصيدة من الشعر الوصفي ، لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي يصف به الروض ، ثم يمتدح بسائرها الخليفة المعتصم العباسي ، يذكرنا سحر الشاعرية فيه بطراز الأدب الغرّبي ، في صدق الوصف ، وجدة التشبيه .

يُريد أن فتور التلاحم الشعري بين أجزاء القصيدة - إلا في وحدة القصد -
باعد - فيما أحسب - بين التذوّق ، وبعض الطلاوة في الشعر !!!

بدالى من أجل هذا أن أنثر صدر قصيدة أبي تمام هذه ، وأن أخلع عليها حلة من الكتابة ، تخلع بها حلة النظم ، ليستبين المعنى في دلّ النثر ، أجمل منه في عقد الشعر !!!

قال أبو تمام :

رقت حواشي الدهر فهي تمزّمرُ	وغدا الثرى في حليّه يتكسّرُ
نزلت مقدمة الشّام حميدةٌ	ويذّ الشّام جديدةٌ لا تُكفّرُ
لولا الذى غرس الشّام بكفه	قاسى المصيفُ هشاماً لا تُثمرُ
كم ليلة آسى البلاد بنفسه	فيها ويوم وبله مُتَعَنّجِرُ
مطرٌ يذوب الصحو منه وبعده	صحوٌ يكاد من الغضارة يقطرُ
غيشانٍ ، فالأنواء غيثٌ ظاهرٌ	لك وجهه والصحو غيثٌ مضرُ
وندى إذا ذهبت به لم الثرى	خلّت السحاب أناه وهو معذّرُ

أربعينا في تسع عشرة حجة حقاً لهتك الربيع المزهر
 ما كانت الأيام تسلب بهجة لو أن حسن الروض كان يعمر
 أو لا ترى الأشياء إن هي غيرت سمجت وحسن الأرض حين تغير
 يا صاحبي تقصيا نظريكمأ تريا نهاراً مشمساً قد شابه
 دنيا معاش للورى حتى إذا زهر الربى فكأنما هو مقمر
 أضحت تصوغ بطونها لظهورها حل الربيع فإنما هي منظر !!!
 من كل زاهرة ترقق بالندى نورا تكاد له القلوب تنور !!!
 تبدو ويحجبها الجميم كأنها فكلأنها عينٌ إليك تنحدر !!!
 حتى غدت وهداتها ونجادهما عذراء تبدو تارة وتخفر !!!
 مصفرة حمرة فكلأنها فتمتين في حلل الربيع تبخر
 من فاقع غض النبات كأنه عصب تيمن تارة وتمضر
 أو ساطع في حمرة فكلأنما دُرر تشقق قبل ثم تزفر
 صنع الذى لولا بدائع لطفه يدنو إليه من الهوام معصفر
 خلق أطل من الربيع كأنه ما عاد أصفر بعد إذ هو أخضر
 خلق أطل من الربيع كأنه خلق الإمام وهديه المنتشر

هذا صدر قصيدة أبى تمام ، وقد قلت في حله ما يأتى :

رقت طلاوة الربيع ، ورفقت حواشى الدهر فهى تمرر : رفاة ، وألبس
 الثرى حليه من الحسن ، فغدا يتكسر في حلية الترف ، أو يرف .

نزلت بواكير المصيف ومقدماته ، فاتتة حميدة ، ويد الشتاء برة بعد غضة ،
 فهى تشكر ، ولا تكفر !!!

أجل ! إنه لولا الذى غرسه بكفه الشتاء من الغضارة والنضرة ، لقامى المصيف
 من الجذب ، وفرقة الخصب ، هشأئماً من الفراس ، قلما تشمر ، أو تزهو !!!

كم ليلة آسى الشتاء فيها بلاده بنفسه ، وكم يوم تسمحت فيه سماءه ، بغيث
يتفجر وبله المتعرج ، أو يقطر .

مطر سمح ، يذوب الصحو منه ، يعقب بعده صحوً يكاد يقطر نضارة ،
ويعتصر نعمة وترفاً .

هما غيثان : أما الانواء فهى غيث ظاهر ، يتسم لك ثغره ، وأما الصحو فهو
غيث مضمّر !!!

ذلك الى ندى بليل ، إذا ادهنت به لم الثرى ، خلت السحاب إنما لاقى الثرى
وهو معذّر ، كالمقصر !!!

إليه ربيعنا الغض فى تسع عشرة حجة ، أجل إنك للربيع المزهر ، والعهد الأفتخر
ما كانت الايام تسلب بهجة ، أو تشكل فتنة ، لو أن حسن الروض فيها كان
يعمر ، فلا يتغير .

إن الاشياء لتسمح كلها إذا هى تغيرت ، سوى الحسن المحض ، من الارض
فإنما ينضر حين تغير !!!

أعملا فكريكما يا صاحبي ، وتقصيا نظريكما ، فإنكما ستران وجوه الارض
كيف تصور ، فتسهر .

نهار مشمس ، ساحر الجلوة ، قد شاب إشراقته الزهر المنور ، فكأنه
ليل مقمر !!!

دنيا أيها الصاحبان معاش للورى ، حتى إذا وفد الربيع الطلق ، فإنما هى
حسن أسفر ، فى منظر !!!

هذه بطون الارض ، تصوغ لظهورها أزهير أو نوراً ، تشرق له القلوب
حتى تسكاد من حلاوة المنظر ، تنور !!!

كل زاهرة باسمه من الشُّرار ، ترقرق بالندى ، وترفُّ بالنعمة ، فكأنها عين
تغازل عينيك ، وتحذّر اليك !!!

إن الأزاهر ليجلوها الروض آونة ، ويحجبها الجيم آونة ، فكأنها حين تظهر
ثم تخفى ، خفرة عذراء تبدو مرة ، وتحجب حرة !!!

لقد غدت وهدات الروض ونجاده فمتين : تمشى كلتاها في حلال الربيع تياها
مزهوة ، تتعطر ، ثم تتخطر !!!

خمائل تلك من النبات مصفرة حمرة ، كأنها حلال تذشر ، وعصب من الوشى
تيمن تارة وتمضر ، أو تمصر .

تلك : أو أصفر فاقع غض النبات ، كأنه درر تشقق ، ثم ترعفر ، فتزهر !!!
أو ساطع من الأزاهر في حمرة ، كأنما يمشى إليه معصفر من الهواء ،
أو السماء !!!

صنع الخلاق البديع ، الذى لولا بدائع لطفه مارف الزهر في ثوبه الأصفر ،
بعد إذ هو أخضر !!!

خلق ساحر يُطل علينا من الربيع ، كأنه خاق الخليفة أو محياه الأزهر ،
وهديه المنتشر ؟

الحسد

الحسد : تمنى زوال نعمة المحسود وحصول الحاسد على مثلها . ومن أحسن
ما قيل فيه من الشعر قول الشاعر :

إن يحسدوني فإني غير لائهم
فدام لى ولهم ما بى وما بهم
وقال شاعر آخر :

اصبر على حسد الحسو د فإن صبرك قاتله
النار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

في ذكرى المولد

الكلمة التي ألقاها فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود جميلة
مبعوث الأزهر الى العراق ، بقاعة فيصل ، في ذكرى
المولد النبوي ، وأذيعت على الشعب العراقي .

سيدى رسول الله ! سلام عليك يوم ولدت ، وسلام عليك يوم بعثت ،
وسلام عليك يوم مت ، وسلام عليك يوم تبعث حيا .

سلام عليك فى الأولين ، وسلام عليك فى الآخرين ، سلام لا يحده حد ،
ولا تحتويه عبارة ، ولا يقيده زمان ، ولا يشمله مكان ... فلقد كنت يا خير خلق الله
سلاماً على الدنيا حين بزغت شمسك على الوجود فأنارت فجاجة ، وأوضحت سبله ،
وذلت مسالكه ، وسهلت أوديته ، وجعلته منة ونعمة ، وعلماً ورشاداً .

ولدت يا رسول الله والعرب أسرى خرافات وعبدة أوهام ، يدينون بالباطيل ،
ويتعلقون بالثرهات ، ويؤمنون بالخرافات ، ويقسمون فى جمالة جهلاء وضلالة عبياء ،
يا كل القوى الضعيف ، ويظلم المبطل المحق ، ويسود المفسد المصلح ، ويتحكم جهل
الجاهلين ، وإسراف المسرفين ؛ لا يعرفون عن الحق إلا ما اتصل بأنفسهم ،
ولا من الإنصاف إلا ما تعلق بذويهم ، غلاظ الآكباد ، غلف القلوب ، كأنما
شقت نفوسهم من الصخور ، أو قُدت من الحديد .

ولدت يا رسول بين قوم التاث عليهم الأمر ، واشتبهت أمانهم الحقائق ،
وأظلمت بهم الدنيا ، فلا فضيلة جامعة ، ولا عقيدة موحدة ، ولا غاية مرموقة
يدفعون عنها ويرمون من ورائها إلى مجد يرجى أو عز يراد ؛ وإنما هى عصبية
جاجة يوقظها العناد والمكابرة ، ويغريها الحقد والمهاترة ، ويذكى أوارها ، وينشر

لهيها، تنأصر بالباطل، واعتزاز بالخرافة، وإهدار للعقول، وتجاوز عن المعقول والمقبول. فضيأوك الساطع أنار الأنام، وبدد الظلام، ومحا الوثنية، ومحق الأصنام، وزلزل إيوان كسرى، وقضى على العصية الصماء، ونادى بالسلام، وثبت الفضيلة، وقرر الوحدة، وأقام دعائم الإيمان.

سيدى رسول الله ! لقد نبئت نبتك الطاهرة الزكية المحجوبة عن دنس المدنسين، والمصونة عن رجس الآثمين، منذ أن خلقت وتناقلت الظهور والبطون، إلى أن طلع فجرك الصادق على الوجود، وشع نورك الوضاء على الأصقاع، فى أرض قاحلة يعز فيها الإنبات، ويقل فيها النبات، لا ماء يروى، ولا خصب يروى. ولكن نبتك العزيزة على القدر أبت إلا أن تكون خارقة معجزة، فدت عروقتها فى الصخور، وأرسلت أفنانها على الرمال المترامية، ثم مدت طولها الباسق وظلها الوارف، ناشرة أريجها الطيب، باذلة ثمرها الشهي إلى من فى الأرض جميعا.

فيا خير نبتة نبئت فى الدنيا فى أقحل أرض عرفها الإنسان، نريد أن نطوى إليك القرون، ونستوقف من أجلك الفلك، عله يعود بنا رجعة إلى الماضى المجيد والعهد السعيد، فنستلهم المجد من المساجد، والهدى من الهادى، ونغذى النفس بوقفة عزيزة، وسط نشأة مؤمنة، وعهود موقنة، ضربت المثل العليا فى القدائية والإخلاص والعدالة والإنصاف.

سيدى رسول الله ! لقد ولدت فى خير أرومة، وانبعثت من أكرم عرق، فكنت خير مولود عرفته الأرض والسموات.

ولدت يتيما، لا ضنا من القدر بوالديك عليك، ولكن لتكون معجزة فى طفولتك كما كنت معجزة فى ولادتك، فأريتنا فى اليتيم عبقرية لم تكن معروفة فى اليتامى، واليتيم مضيفة منهبة، فلما وجدت يتيما، لم تقهر يتيما، وجاءت شريعتك معظمة لشئون اليتامى، منظمة لحقوقهم.

غذيت بلبن حليلة وثوية، ونشأت فى بنى سعد، وأدركتك العناية وأظفارك ناعمة، وعودك لدن طرى، فأزالت حظ الشيطان من نفسك، وأبدلتك به رافة ورحمة، فبقيت للؤمنين رموا فارجيا، فلما ترعرع عودك الذكى، وترعرعت معه

فضائلك : فضائلك النقية الطاهرة ، واشتد ساعدك ، واشتدت معه كآلاتك وكراماتك ، كنت ديناً قبل أن يرسلك الله بالدين ، وكنت عقيدة قبل أن تأمر الناس بالعقيدة .

لقد جفتك الهنات ، وجانبتك الهيئات ، فلم تتق نفسك إلى متابعة ما أحاط بالقوم من وزر وما حل بهم من عوج ، لم تقترف ما اقترفه الناس حولك ، ولم تغمس يدك في مآثم الجاهلية ، والجاهلية جُل ما فيها مآثم ، فلم تشرب خمرأ ، ولم تعبد صنماً ، صيانة لعقلك ، وحفظاً لنفسك ، وتحقيقاً لإنسانيتك ، وتحقيراً لشأن المقترفين والمتابعين ، وشعوراً بما ينتظرك من مهام ، وما يترقبك من إصلاح ، فسففت أحلام قومك بفعلك قبل قولك ، ونشرت الحق بصمتك قبل نطقك ، فأرغمت الجميع على تقديرك ، فأمنوا بنبلك ، وأيقنوا بصدقك ، وأجمعوا على أمانتك ، فأنت بينهم الصادق الأمين .

هذا بيت الله المحجوج تداعت أركانه ، وتصدع بنيانه ، من تطاول الأيام ، وبعد العهود ، لاهن الفيل وأصحابه ، فقد جعل الله كيدهم في تضليل ، والبيت رمز العزة العربية ، والمجد القرشي ، فتزاحمت البطون لرفع قواعده وإقامة بنيانه ورتق صدعه ، يريد كل قبيل أن يمد في مجده ، وأن يترزع لعزته ، وأن ينال شرف الدنيا في هذا الموقف الجليل . ثم ها هو ذا الحجر الأسود كريم أحجار الأرض على الله ، ترنو إليه الأنظار ، وتقف عنده الأطناع ، ويطلب كل فريق أن يكون له شرف حمله ومجد وضعه ، وتزاحمت البطون واشتعلت نار التنافس ، وتولاها هواه العصبية ، وكادت تقع الملاحم المهلكة والحروب المفضية القاطعة ، لولا أن ساق القدر محمد بن عبد الله إلى القوم ، فوضعوا قضيتهم في يده ، وانتظروا منه عدلاً وإنصافاً ، فهو بينهم الفيصل الذي لا يرتاب في نزاهته وطهره .

حسم محمد الأمر ، ووزع الشرف بين البطون ، ويمكن جميع القبائل من حمله ، فاقصأت أفراح القوم ، وانفشعت عنهم غمة الفرقة والنزاع بحسن توجيهه ويعين تصريفه .

سيدى رسول الله ! لقد كنت مثلاً من أمثلة الخير ، وصورة من صور الفضائل ، فلا أتى منك ولا أنق ، ولا أشجع منك ولا أكرم ، فأين منك الريح المرسله فى العطاء ، وأين منك الليوث فى الشجاعة والإقدام ! . نشأت سيداً وفيأ ، وجاراً مجيراً ، وقريباً رحيماً ، وعزيراً متواضعاً ، ومنصفاً حكيماً ، لا أشراً ولا بطراً ، ولا متكبراً ولا مرأئياً . فهذا عمر بن الخطاب ينهر يهودياً أخذ بتلاييك يطاب ديناً لم تطله فيه ، فتوجه إلى عمر قوالتك الخالدة « كان عليك أن تأمرنى بحسن الأداء ، وأن تأمره بحسن الطلب » .

أحببت المساكين وقربت الفقراء ، ورغبت عن الدنيا وقد راودتك جبالها أن تكون ذهباً ، واخترت الباقية الخالدة عن الرائلة الفانية ، فقرت عيون لا تحصى من الناس باصطحابك ، وهدأت نفوس لا تعد باقترابك ، فلم تشأ أن تجفف قلبك اللين السليم بالترف والنعيم ، وإنما شئت أن تكون فى صفوف المقلمين والمعدمين ، لتشعر بأحاسيس نفوسهم وظلمات قلوبهم ، فتعمل على إنقاذهم ، وترفع من شأنهم ، لتحديد موقفهم من أغنيائهم .

جاءت شريعتك اللامعة مقرررة حقوق الفقراء فى أموال الأغنياء ، وتفضل مولاك ومولانا وهو المنعم ، فجعل حق الفقير حقه ، والتزمه ديناً يوفيه مضاعفاً وهو المالك ، ليخفف لوعة الفقر على نفوس الفقراء ، ويختلج برائن الحقد والحسد من قلوبهم للأغنياء ، ويجعل من الدنيا دار تعاون وتحاب وسلام ، لا دار قطيعة وكراهة وخصام .

نظرت إلى المرأة ، وهى نصف المجموعة البشرية ، فوجدتها مهذرة الحقوق تعامل معاملة السوائم والمتاع ، ففككت قيدها وأطلقت أسرها ، وجعلت لها مثل ما عليها . ومكنتها من مالها ، وقبلت تصرفاتها وشهاداتها فيما يناسبها ، وسويتها بالرجل فى تكليفها وتبليغها خبر ربه ، ثم اخترت لها أن تكون مصنونة من العبت بعيدة عن الابتذال ، حرصاً على مكانها من المجتمع وهى أمه ، والعرف محبب والأنساب عزيزة ، تفرق بين الحيوانية الناطقة والحيوانية الناهقة .

جئت بشريعة حددت حقوق الأفراد والجماعات ، وأوضحت العلاقة بين

المتبوعين والاتباع ، كل له وكل عليه ، لا ضرر ولا ضرار ، ولا عربى ولا عجمى ، ولا مصرى ولا عراقى ، فالمسلم أخو المسلم ، إن هذه أمتكم أمة واحدة ، فلا حدود مقامة بين المسلمين ، فإن أثبت الحوادث الطبيعية إلا أن تفرق فصلة السماء بينهم موحدة وكتبه الله فيهم مجمعة ، إلههم واحد ، ونبيهم واحد ، ودينهم واحد ، ودستورهم كتاب الله . قرر عقيدة الدولة وقواعد تقويمها وتقويتها ، وأسس نظامها ومبادئ عمرائها وصيانتها من عبث العابثين وإثم الآثمين .

سيدى رسول الله :

يوسفنى أن أتجاوز القرون إلى قرنك الطاهر ، فأقف بين الأولين السابقين من المهاجرين والأنصار فأريهم صورة من صور المسلمين اليوم ، وقد انحرفوا عن سنتك ، وأهملوا تعاليمك ، فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وتحملوا من كل فضيلة ، واتبعوا كل ناعق ، وفسدت رموسهم كما فسدت أجسامهم ، فالتفت بهم حشرات الأرض من كل جانب تنهب أرضهم وتسلب أموالهم وتفسد أخلاقهم وتصدهم عن دينهم ، لا من قلة مستضعفة ، وإنما عن كثرة مهيضة وغناء كغناء السيل لا غناء به ولا نفع فيه : فاللهم وسعت رحمتك كل شيء فاكسب لنا الهداية والتوفيق ، وارزقنا السداد والرشاد ، فإنك نعم المولى ونعم النصير .

الغوغاء

نظر عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى قوم يتبعون رجلا أخذ فى ريبة ، فقال : لا مرحبا بهذه الوجوه التى لا ترى إلا فى كل شر !

وقال دعبل الشاعر :

ما أكثر الناس لا بل ما أقلهم الله يعلم أنى لم أقل فتدأ
إنى لأفتح عينى حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

السوفسطائيون في نظر العرب

نقد حملة جائرة

لفضيلة الاستاذ الشيخ أحمد شاهين

لأستاذنا الدكتور محمد غلاب مكانة بين مفكرى الشرق الحديث ، وله منزلته الملحوظة عند قراء العربية ، بفضل جهاده المشكور فى النهضة الفكرية الإسلامية الحديثة . ولا غرو فالدكتور غلاب عالم أزهرى واسع الأفق ، سيال العلم ، غزير الإنتاج ؛ كما أنه شرقى نزيه لم تفقده ثقافته فى أوروبا إيمانه بمدينة قومه وتاريخهم . ولعله أول باحث عربى معاصر جاهر لدينا بتلك الحقيقة المغمورة إذ أثبت بالبرهان القاطع فى كتابه القيم . (الفلسفة الشرقية) : أن نوع التفكير الحر المنظم الذى سماه اليونان بالفلسفة ، لم يكن خاصة للعقل الإغريق وحده كما زعم المغرضون من الباحثين الغربيين ومقلديهم فى الشرق ، بل إن هذا اللون من التفكير قد نبت وازدهر أولاً فى حضارة الشرق القديم ، وأفاد منه اليونان أنفسهم .

ولقد تشرفت بالتلمذة على الدكتور غلاب سنة دراسية كاملة إذ كان يدرس لنا مبادئ الفلسفة الشرقية والفلسفة الإغريقية . وقد بقى فى النفس شئ من بعض ما قرره عن مدى فهم العرب للنظريات والمذاهب الإغريقية . وهاك ما قاله عن السوفسطائيين فى نظر العرب وتأثيرهم فى بعض آراء المتكلمين الإسلاميين آثرنا مناقشته فيه على صفحات (مجلة الأزهر الغراء) ليكون التحقيق فيه أتم والنفع به أعم . وما زلنا على البعد تلامذة للدكتور غلاب نتلقى عليه فى الصحف وفى مصنفاته القيمة الكثيرة ، بعد أن تلقينا عليه فى مدرجات الجامعة الأزهرية .

فى الجزء الأول من كتاب الفلسفة الإغريقية عرض الأستاذ لتحقيق آراء تلك المدرسة الإغريقية التى ظهرت فى القرن الخامس قبل المسيح وسموا أنفسهم بالسوفست ، وسماهم غيرهم بالسوفسطائية ، فأثبت أنهم على اختلاف مناهجهم قد أجمعوا على حقيقة واحدة هى إنكار الحقيقة المطلقة ، وبطلان الحكم العام .

ثم قال ص ١٤٨ :

« ولقد هاجم سقراط هذا الرأي في عنف وأثبت أن المفاهيم وليدة الألفاظ وإنما هي مدركات ذهنية ثابتة لا تتغير تبعاً للكلمات، وزاد أفلاطون على ذلك أنها كائنات حقيقية لها وجود ذاتي مستقل عن الأذهان وعن المحسّات، وأنها وجدت قبلهما، ويسمى هذا المذهب (الحقيقة)؛ ولما جاء أرسطو قرر أن المفاهيم الذهنية وجودات حقيقية ولكنها تظل كامنّة في المحسّات إلى أن تقع عليها الحواس فتفتقل صورتها إلى الأذهان، وليس لها في غير هذين الموقفين وجود. ويجب أن يسبق وجودها في الموضع الأول وجودها في الثاني، ويعرف هذا المذهب (بالمفهومية). وهذا المذهب الأخير هو الذي ذاع بين فلاسفة المسلمين ومتكلميهم، فحملهم على الجزم بأن كل المفاهيم الذهنية منتزعة من المحسّات، وهو رأى خاطئ. »

« ونحن نرى بهذه المناسبة من الحق علينا للعلم أن نعلن هنا أننا إذا عذرنا الفلاسفة في اندفاعهم وراء أرسطو، فلا نعذر المتكلمين الذين كان من الطبيعي أن تحول بينهم وبين اعتناق هذا الرأي الخاطئ. عقيدتهم بتعلق علم الله وإرادته بالكائن قبل أن تتعلق به القدرة التنجيزية، وسابقيّة تعلق العلم والإرادة على تعلق القدرة التنجيزية تقتضى سابقيّة الكائن المعنوي الذي يتعلق به العلم على الكائن المحسّ، وهو على عكس رأى أرسطو. »

« وبالنسبة الأمر وقف بأولئك المتكلمين عند هذا الحد، بل إن بعضهم حين أخرجهم منكرو الصفات بأنها تقتضى في ذات الباري تركباً وتكثراً، قالوا إنها لا تقتضى ذلك لأنها أمور اعتبارية؛ ولا ريب أن القائلين بهذا قد هوى في مذهب السوفسطائيين وهم لا يشعرون، ولو كان الأمر الذي هوى فيه غير صفات الباري لكان الأمر نوعاً، ولكن هذا هو الذي كان! على أنى لأدرى كيف سوغ هؤلاء القوم منطقتهم أن يتعلّقوا صدور هذه الحقائق الكونية عن أمور اعتبارية مع انعقاد إجماع كل العقلاء في الشرق والغرب على أن العلة الفاعلة يجب أن تكون أحق وأقوى وأكمل من جميع متعلقاتها المتأثرة بها، كما هو منعقد على أن الحقائق الذاتية أسمى بكثير من الأمور الاعتبارية... » اهـ.

هكذا استطرد الدكتور غلاب في عرض المذاهب المختلفة في حقيقة الكماليات

وجودها حتى حمل بلا حق على المتكلمين القائلين بأن وجود الكليات اعتبارى، كما تحامل على مؤرخى الثقافة العربية لعددهم السوفسطائية ثلاثة مذاهب مختلفة . ولت شعري بأى المذاهب كان ينبغى على المتكلمين أن يأخذوا إذا كان اختيارهم لمذهب أرسطو الصحيح المطابق للواقع أمراً معيياً ومناقضاً لعقيدتهم بتعلق العلم والإرادة قديماً ، كما يدعى الدكتور غلاب ١ .

هنالك أربعة مذاهب فى المفاهيم الكلية ، وقد فصل القول فيها الدكتور بوضوح : فأما مذهب السوفسطائية فبديهى البطلان ، وأما سقراط فلا فرق بينه وبين أرسطو فى الموضوع ؛ لأنه لا يجعل للكليات وجوداً فى غير الأذهان والمحسوسات . لم يبق إذن سوى مذهب الحقيقة الأفلاطونية ، وهو ما أوجبه الدكتور على المتكلمين ليطابق عقيدتهم بتعلق الصفات الإلهية قديماً ، كما يتبين من قوله : « وسابقة تعلق العلم والإرادة على تعلق القدرة التنجزية تقتضى سابقة الكائن المعنوى الذى يتعلق به العلم على الكائن المحسوس . . . الخ .

وفى هذه العبارة التواء وغموض ؛ إذ كيف اقتضى علم الله وإرادته سابقة الكائن المعنوى وحده ؟ وهل لم يتعلق العلم القديم بالجزئيات المحسوسة كذلك ؟ . إن تعلق العلم والإرادة قديماً بكليات الممكنات لا يعد تعلقاً بجزئياتها ، لتجرد الأولى من الشخصيات فى الثانية ، ولأنهما عند أفلاطون الذى تابعه الأستاذ متغايران مغايرة الظلال الأشكال . وكأنى بالأستاذ يريد ترديد رأى الباطل القائل بأن علم البارى سبحانه قاصر على الكليات .

ولا مرأى فى أن المفاهيم الكلية لا تدخل الى الأذهان إلا بطريق استقراء الجزئيات المحسوسة وانتزاع ما بها من الصفات المشتركة الثابتة لتأليف الماهيا الذهنية منها ، وهذه عملية يشترك فيها العقل مع الحواس وهى أصل المعارف كلها ، والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ، .

إذن فالقول بأن كافة المفاهيم الذهنية مصدرها الجزئيات المحسوسة ، وأنها فى الحس سابقة على وجودها فى الأذهان - قضيتان صادقتان برهانهما الواقع نفسه ، ولا يرد عليها تعلق العلم والإرادة بالأشياء قديماً ، لأن ما فى علم الله لا يسمى

بالمفاهيم الذهنية؛ وإن سبق تعلق العلم والإزادة بالحوادث لا يقتضى لسكلياتها وجودا سابقا؛ لأن أثر القديم لا يلزم بالضرورة أن يكون قديما، وإنما تعلق العلم والإزادة بالسكائنات الحادثة على أنها كائنة فى مواقيت معينة، فالظرف الزمنى جزء من سبب وجودها. وبديهي أنه لا وجود للمسببات إلا بتمام أسبابها.

لو صح جدلا أن تعلق العلم والإزادة قديما بالممكنات يقتضى وجودا سابقا لسكلياتها، فإن هذا الوجود لا يخلو إما أن يكون شرطا للتعلق أو يكون أثرا له... لا جائز أن يكون الأول، لأنه لو كان لازم أحد محالين: هما انتفاء علم البارى قديما بالجزئيات الحادثة لانتفاء شرط التعلق، أو قدم تلك الجزئيات، وكلاهما باطل بالعقل والمشاهدة... ولا جائز أن يكون الثانى؛ لأنه لو صح لبطل أثر القدرة التجيزية حيث استفادت تلك المتعلقات وجودها من التعلق القديم.

أما القول بأن صفات البارى أمور اعتبارية، فإنه الحل المستقيم لمشكلة الصفات المعقدة؛ لأن الله سبحانه وصف نفسه فى القرآن بكثير من صفات التنزيه والكمال؛ وبما أن القرآن كتاب عربى غير ذى عوج، فقد وجب فهمه وتخريج نصوصه على مقتضى قوانين اللغة، ومن قوانينها الثابتة أن الوصف بالمشثقات يفيد قيام الصفات بالذوات، فقد ثبت أن الله صفات، وقد اختلف فيها المتكلمون فتعالى قوم حتى لزهم التكثرفى الذات الإلهية والقول بتعدد القدماء، وبالغ المعتزلة فى التجريد فلم يسلم مذهبهم من القدر والعيوب. لهذا قال أهل الحق بأن الصفات أمور اعتبارية. وأما دعوى الاستاذ أنهم بهذا وقعوا فى السفسطة وهم لا يشعرون فردود، لأن بين الاعتبارية عندهم والاعتبارية عند السوفسطائية فرقا كبيرا إذ اعتبارية الشئ لديهم معناها عدم زيادة الشئ على محله بوجود زائد أو منفك؛ مثاله صفة الوجود فى الوجود. وأما اعتراضه بأن العلة هاهنا تكون دون المعلول فى الوجود فردود أيضا؛ لأن القائلين باعتبارية الصفات لا يجعلونها وحدها مصدر الممكنات وعلتها، بل الممكنات لديهم صادرة عن الذات الموصوفة بها تلك الصفات الاعتبارية، والفرق بينهما كبير. قال الأمير فى حاشيته على الجوهرية عند تعريف صفة القدرة «التأثير حقيقة للذات، وقولهم القدرة فعالة مجاز لا كفر...» الخ.

وبعد فليست حملة الاستاذ على المتكلمين بأقل جورا من حملته على مؤرخى الثقافة العربية، لعدم السوفسطائية ثلاثة مذاهب مختلفة.

الحبة الخالصة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد اتواب
مفتش الوعظ والإرشاد

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : د إن من عباد الله ناساً ، ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء بمكانهم من الله . قالوا : يا رسول الله فتخبرنا من هم ؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ؛ فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، ولا يخافون إذا خاف الناس . .
يبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل طائفة من الناس ، اجتمعت قلوبهم ، وصفت نفوسهم ، وزكت أرواحهم .

اجتمعت قلوبهم تخففت بالحب البرى ، وصفت نفوسهم فأشرقت بالنور الساطع ، وزكت أرواحهم فسمت إلى ذروة الفضل ، وسبحت في عالم الأملاك . طائفة من الناس لم يرن على أفئدتهم خبث النفاق والرياء ، ولم يطس بصائرهم الهوى الزائف ، والزيف الانيم ، بل أحبوا مخلصين ، وتآلفوا مستبصرين ، واستمسكت روابطهم بعروة من الحق لا تنفصم ، وبسبب من العزم لا ينقطع ، وبوشائج من الطهر لم تشبها الأدناس ، ولم تلوثها الأكدار .

طائفة من الناس ليسو بأنبياء ولا شهداء ، ولكن مكانتهم عند الله ، ومنزلتهم في البررة الاختيار يغبطهم عليها الأنبياء والشهداء ، يغبطونهم في عجب وإعجاب ، وفي تساؤل واستشراف : بهم قال هؤلاء مكانتهم ، وبهم أظفروا غايتهم ، وبهم طابوا واستطابوا ؟ ؟

والغبطة ليست بالحمد ، في إثمه ورجسه ، فانه تمنى زوال نعمة الغير ، وإنه كما يقول سيدنا رسول الله د يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، أما الغبطة فهي أن تفرح — أيها الغابط — للنعمة يفيضها الله على المنعم عليه ، وهي دعاء وأمنية ، بأن تنال كما نال ، وتظفر كما ظفر ، وأن تظلكما نعم الله السابغة ، ففضل الله لا يحد ، وآلاؤه لا تنهى ...

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن مكانة هذه الطائفة عند الله وظفرهم بهذه الغاية، فاستفسر الصحابة رضوان الله عليهم، معجبين متمنين، قالوا يا رسول الله: فتخبرنا من هم، لنحذو حذوهم، ونبلغ شأوهم. فقال صلى الله عليه وسلم: هم قوم تحابوا بروح الله، وفي جلال الله، وعلى حب الله، ليس لبريق الذهب والفضة، ولا لمتعة من عرض زائل، أو غرض ذاهب، ولا لصلة الرحم أو القرابة، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم يشير إلى أسباب المحبة التي تكون لغاية، من كسب مال، أو رابطة نسب أو قرابة، فإن شأنها لا يصل مهمما عزت الرابطة، وقويت الأسباب، إلى هذا الأفق السامى الذى يجتمع فيه المتحابون فى الله لغير غاية من قرابة أو مال. ثم يقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الصادق والمصدق، تأكيداً لبلوغهم هذه المنزلة، وإكباراً لشأن هذه الغاية، بأن وجوههم لنور، وأنهم لعل نور، ولا يخافون إذا خاف الناس..

أما أن وجوههم نور، فهو نور الصفاء تشرق به جباههم، وتنسبط بريقته أساريرهم، وتقضي به معالمهم بشرا، ووضاءة، وبهاء.

وأما أنهم على نور، فلأنهم على هدى فى مسراهم ومسعاهم، ولأنهم على تبصرة فى سرهم ونجواهم، ولأنهم على وضوح من الحق فى أعمالهم ونواياهم. وقد روى الترمذى عن معاذ رضى الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله عز وجل: المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء..

وأما أنهم لا يخافون إذا خاف الناس، فلأنهم آمنوا الناس فأمنوا، وسالموهم فسلموا، وتولوهم بالحنو والسمو، فكانت حياتهم إحسانا، ودعاؤهم أمانا، وغايتهم سلاما، فكرمهم الناس، وأكبرهم الناس، وأحبهم الناس، ومن أحبه الناس أحبته الله. روى الإمام مالك فى الموطأ بإسناده الصحيح عن أبى إدريس الخولانى رحمه الله، قال: دخلت مسجد دمشق، فإذا فتي براق الثنايا، وإذا الناس معه، فإذا اختلفوا فى شيء أسندوه إليه، وصدروا عن رأيه، فسألت عنه، فقيل: هذا معاذ بن جبل، رضى الله عنه، فلما كان من الغد هجرت (يعنى بكرت) فوجدته قد سبقتنى بالتهجير ووجدته يصلى، فانتظرت حتى قضى صلاته، ثم جئته

من قبل وجهه ، فسلمت عليه ، ثم قلت : والله إنى لأحبك ! فقال : آله ؟ (يعنى هل حبك لله) فقلت : لله . فقال آله ؟ فقلت : لله . فأخذنى بخيوة ردائى فجذبنى إليه فقال : أبشر فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالى وجبت محبتي للمتحابين فى » ، والمتجالسين فى » ، والمتزاورين فى » ، والمتبازلين فى » . ورى أبو داود بإسناد صحيح عن أنس رضى الله عنه أن رجلا كان عند النبي صلى الله عليه وسلم فمر رجل به فقال : يا رسول الله إنى لأحب هذا ؛ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أأعلمته ؟ قال لا ؛ قال : أأعلمه . فلحقه فقال : إنى أحبك فى الله ، فقال : أحبك الله الذى أحببتنى له . . .

وبعد : فلو أن الناس صدقوا فى حبهم ، وأخلصوا فى ولائهم ، وجعلوا لله وجهتهم ، لتساموا بمكانهم من الله ، ولحفَّتْهم أنوار الله ، من فوقهم ومن تحتهم ، وعن أيانهم ، وعن شمائهم ، ولكانوا موضع الغبطة حتى من الأنبياء والشهداء . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

الحرب

قيل لعنتره : صف لنا الحرب . فقال : أولها شكوى ، وأوسطها نجوى ، وآخرها بلوى .

وقال ابن عبد ربه مؤلف العقد الفريد : هى رضى ثفالها الصبر ، وقطبها المكر ، ومدارها الاجتهاد ، ونفاقها الأناة ، وزمامها الحذر . ولكل شىء من هذه ثمرة ؛ فثمره المكر الظفر ، وثمره الصبر التأييد ، وثمره الاجتهاد التوفيق ، وثمره الأناة البين ، وثمره الحذر السلامة . ولكل مقام مقال ، ولكل زمان رجال ، والحرب بين الناس بيمال ، والرأى فيها أبلغ من القتال .

وسأل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الفارس المغوار عمرو بن معد يكرب أن يصف له الحرب ، فقال : مرة المذاق ، إذا كشفت عن ساق ، من صبر فيها عرف ، ومن نكل عنها تلف . ثم أنشد :

الحرب أول ما تكون فتية	تسعى بزيتها لكل جهول
حتى إذا حميت وشب ضرامها	عادت عجوزا غير ذات حليل
شيطاء جزت رأسها وتنكرت	مكروهة للشم والتقييل

الاسلام والمثل العليا

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجي
المدرس بكلية اللغة العربية

لا تجد ديناً يدعو الى المثل العليا في الحياة كما يدعو إليها الإسلام ؛ ولا عجب فهو دين البشرية الخالد ، وعقيدة الفسك الحر المتوثب ، وخلاصة المثل الإنسانية الكريمة ، التي ترنو إليها البشرية ، وتهدف نحوها الحياة ، وتتلاقى مع تيارات التفكير الحديث ، وتتجمع مع مبادئ الحضارة والمدنية ، الصافيتين من شوب الأهواء ، وجوح الشهوات .

ولقد جاء الإسلام والعالم يعيش في ظلام دامس ، وجهل مطبق ، ونظم عتيقة فاسدة ، وعقائد محرفة مضللة ؛ فبدل ظلام الحياة ضياء ونورا ، وجهل الناس ثقافة وعلماء وعرفانا ، ومحا هذه النظم البالية من كل نواحي الحياة ، وجاء بأصول اجتماعية إنسانية تربط الإنسان بالمجتمع والحياة ، وتسير به الى حضارة مهيبة رائعة ، وتجمع بين المسادة والروح والدين والدنيا والاولى والآخرة ؛ كما دعا الى عقيدة تجمع بين أصول العقائد والأديان السماوية الصحيحة ، وتمشى مع الفطر السليمة ، والإنسانية الكريمة ، والعقول والقلوب والوجدانات ، التي لم تضلها تقاليد موروثة ، أو عادات شائعة ، أو أهوام زائفة ، أو تفكير ينأى به الخطأ عن جادة المنطق السليم .

ولقد أنت الروح الإسلامية الأولى بالمعجزات : في الاجتماع والسياسة ،

وفي الأدب والعلم والفن ، وفي التفكير والتنظيم ، وفي شتى نواحي الحياة والحضارة . ومن أولى بذلك من الإسلام ، دين الله ، وشريعة رسوله محمد صلوات الله عليه ، ودستورُه القرآن ، ومنطقه العقل والحجة والبرهان ؛ وأساسه الفضيلة والإيثار والحق والصدق والخير وروح الجماعة والإنسانية العالية ، والتجردُ من الآواهام والرزائل والمادية القاتلة ، ومن كل ما هو منكر وقبيح ؟ .

لقد سنَّ الإسلام القوانين الصالحة لكل العصور والجماعات ، والكفيلة برقي الفرد والأسرة ، وتقدم المجتمع والأمة والإنسانية ، على نحو يرضاه العقل ، ويطمئن إليه القلب والوجدان ؛ فلم لا يكون مع ذلك الداعي إلى المثل الأعلى في النظام والتشريع ؟ .

ووجَّه الإسلام الناس جميعاً إلى عبادة إله واحد لا شريك له ، له مقاليد السموات والأرض ، يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ؛ وفي ذلك يقول الله تعالى في كتابه الحكيم : « إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض خنيقاً وما أنا من المشركين » ، « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين » ، كما دعا الإسلام الناس إلى دين واحد ، يصدق به العقل والروح ، ويجمع بين خير الدنيا والآخرة ، ويرشد إلى أمثل ما في الحياة من عدالة وخير ورحمة . وجمعهم على كتاب واحد ، ودستور خالد ، هو القرآن ، كتاب الله العظيم ؛ وعلى رسالة واحدة ، هي رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، وهي الرسالة التي تتفق مع دعوات الأنبياء وشرائع المرسلين « شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى » ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . فلم لا يكون الإسلام مع ذلك كله مثلاً أعلى في العقيدة والإيمان ؟

وحارب الإسلام العصبية وأفكار الجاهلية الأولى ، التي تفضل جنسا على جنس ؛ يقول الله عز وجل « إنما المؤمنون إخوة » ، ويقول رسوله صلوات الله عليه « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » ؛ حاربها الإسلام لأنها تنادى بالتناوب والبغضاء ، وتفرق بين الناس وقد ضمهم أصل واحد « يأبها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ومحاربة الإسلام الفروق الاجتماعية الواسعة بين الطبقات ، التي كثيرا ما تستند الى الحسب أو الجاه أو المال ؛ وجعل الفقير أخا الغني والغني أخا الفقير ، ودعا الأغنياء الى البذل والجود والصدقة والإحسان وأداء الزكاة وإنفاق المال في كل حق وخير ومعروف ؛ كما دعا الفقراء الى الأمانة والعمل والزهد والتقناعة والرضا بما قسم الله ، « أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » ، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ، فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجهه الله ، وأولئك هم المفلحون » ؛ وقرر أن المال في أيدي الأغنياء إنما هو مال الله استخلفهم عليه « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » ؛ وما ينفقونه من مال على الفقراء إنما هو قرض لهم عند الله يجازيهم عليه خيرا كثيرا « وأنفقوا خيرا لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم ، والله شكور حلیم » . فكيف لا يكون الإسلام مع ذلك دينا عاما هو المثل الأعلى في الاجتماع والروح الإنسانية العامة ؟

والأصول الأولى في الإسلام تدعو إلى الحق والخير والعدل والمساواة والحرية ، وإلى التعاون والوحدة والشورى ، وإلى الأخوة العامة والزمانة الإنسانية المشتركة ، وإلى الثقافة والمدنية والحضارة والرقى ، وإلى محاربة الأهواء والتقاليد الضارة ، وإلى المحافظة على الشرف والكرامة وروح الإنسانية في الفرد والجماعات والأمم ، كما تدعو إلى السلام ، وإلى أن يقوم هذا السلام على الحق

والعدل ، وفي سبيل خدمة المثل الإنسانية العليا التي يدعو إليها الإسلام . وهو فوق ذلك فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وصبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؛ ودين يجمع بين المادة والروح ، ومصالح الدنيا والآخرة « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين ، ؛ إلى غير ذلك من الأهداف والمثل العليا التي يجمعها ويدعو إليها الإسلام وكتابه الكريم .

وبعد : فقد حرّر الإسلام الإنسان من الوهم والتقليد والجود والجهل والفاقة والاضطهاد والاستبداد ؛ وحرر المرأة ، فجعل لها حقها في الحياة ، وسواها بالرجل في الحقوق والواجبات ، واعترف لها بأهليتها للتصرف والتلك وتدير شئون المنزل والأسرة ، والمساهمة في أعمال الخير والبر والإحسان وفي شتى النواحي الاجتماعية التي لا غنى للمجتمع عن نشاط المرأة فيها ؛ وحرر الطبقات من طغيان العصبية والثروة والحسب ؛ وحرر المجتمعات من الخرافات والأضاليل وأوهام الكهان المتزعمين ؛ وحرر الأمم فجعل أمرها شورى بينها ، وساسها بالعدل والحق والقسطاس المستقيم ، وبالرحمة والإيثار وحب الخير العام ومصلحة الجماعة المشتركة ، وقضى على الرذائل والمنكرات والشهوات التي تضعف من روحها وبنيتها ، وتفسد فيها نزعات الخير ، وتقف بها عن السير والنضال في الحياة ؛ وحرر الإنسانية عامة من ربة الجهل والوحشية والتأخر والفوضى والآثرة ، ومن جموح الشهوات وتقديس الماديات والجحوش إلى الشر والفساد في الأرض ، ومن التقليد الضار والإيمان بما كان يؤمن به الآباء والأجداد دون تحكيم للعقل أو وزن للأدور بميزان التفكير السليم ؛ ورفع مع ذلك كله الإنسان ومكانته في الحياة ، فجعله خليفة الله في الأرض ، ودعاه إلى أن يسير إلى أمثل ما في الحياة من حق وخير وسمو ، وإلى أن يعمل على تقدم الحياة والانسانية بأوسع معانيها .

فما أروع الإسلام ، وما أجل شريعة تقوم على هذه المبادئ المثلى ، وتدعو إليها ، وتدفع البشر والبشرية نحوها ! .

ذكرى شوقي:

عجالات في الشوقيات

لفضيلة الأستاذ الشيخ كامل محمد عجلان
المدرس بالازهر

لى رأى فيما يجدُّ وما ينشر من شعر الشعراء ، أو أشباه الشعراء ،
الأحياء .

فإذا تمخضت حياتنا عن موحيات القرائح ، ومُنْجِبَات لِبَنَات الشعر،
ونظرت في نتاج الناظمين من (المعاصرين) رجعت لرأى الذى أعلنته غير مرة :
وهو أننا دَفَنَّا القوافى بعد (شوقي) ! فهل يا ترى سَنَدُكُره ١٩٩

ومن حق هذا العبقري على من يقدرُون فنه حق قدره ، أن يجعلوا من ذكره
قلائد تباهى حسان الذكريات ، ويصنعوا فرائد ترصع على جبين أيامنا المشرقات .
ونحن إذ نجلى بدع (شوقي) وملهماته ، لا نستطيع إلا أن نقتبس بعض
مفاتيح القرينة ، وتحليقات النبوغ ، وسحر الصناعة ، وسمو المعنى ، ودقة الحكمة ،
وجلال التاريخ ، وتقديس الجمال ، مما (فى الشوقيات) .

وإنها لمفخرة (مصر) ومعجزة الشعر فى (الشرق) . ومن الوفاء أن نصدق
الرأى فيمن لا يكذب الإفصاح ، وأن نرى لشخصية براها الله صناعة (بيان)
وصاغها صنعة حسن وإحسان :

ولا أكذب البارى بنى الله هيكلى

صنعة إحسان ورق حسان

أدين إذا اقتاد الجمال أزممتي وأعنو إذا اقتاد الجميل عناني
وما خلفه من مصفى القريض ، ومنحول القصيد ، وبلغ النشيد ، خليق بما
قلده يلمه :

فلا حكمتى دعوى ولا منطقى هوى ولا مبدئى لؤم ولا قلبى وُغد
وأفصح ما يفصح عن ذلك العبقرى ، ويكشف عن صفاء نفسه ، وإحكام
يراعته ، وإتقان برآعته - ما جرى بين قوافيه فى رثاء (جَدِّته) .

وأحكم من تحكم فى يراع وأبلغ من تبلغ من داوة
وابراً من تبرأ من عداة وأنزه من تنزه من شمات
وأصون صائن لأخيه عرضاً وأحفظ حافظ عهد اللدات
وأمثل قائل للدهر خيراً وأصبر صابر للغاشيات
وعاطفة شوقى هى التى ساعدته على صدق الوفاء ، ورقة شوقى هى التى جودت
وخلدت (شوقيات) الرثاء .

يأبها الدمع الوفى بدار نقضى حقوق الرفقة الاخيار
أنا إن أهتسك فى تراهم فاهوى والعهد أن يُبسكوا بدمع جار
عظفا عليهم بالبيكاه وبالأسى فتعهد الموتى من الإيثار
وبذلك وأمثاله سيمظل شعره ، وسنبقى ما تخلف الشعراء عن (شوقى) نلوذ
بالشوقيات ، ونقطف من رياحينها ، إن مسنا طائف السراء ، أولفحنا هجير الضراء .
كان شعرى الغناء فى فرح الشر ق وكان العزاء فى أحزانه
واحتماؤه بالمعانى الإنسانية وتصويره للأمانى الوطنية ، لا ينسبني تفرد
وابتكاره وتقديسه للعالم التاريخي : فرعونية ، وشرقية ، وعربية ، وإسلامية .
ناهيك بالآثار العالمية .

وأنا المحتفى بتاريخ مصر من يصن مجده فقد صان عرضا
وهو السباق الذى لا يضارع ، والوصاف الذى لا يشق له غبار ، ومن يمار
فعليه أن يسمعه وهو يناجى (الهرم) أو يخاطب (أبا الهول) أو يقف معه
على القصور الغرقى ، ممسكا بعضها من الذعر بعضا .

من لى بمن يعرف البيان المصور، والأفنين المتمصّد، والسحر المتقن، والخلق
المنظوم، والنغم المنضود؟ من لى...!

ومن يطلب إجابة بعد إجابة شوقى حين يقول على أطلال المجادة الدارسة :
قف بتلك القصور فى اليم غرقى ممسكا بعضها من الذعر بعضا
ويقول فيها وفى استعصائها على البلى ، واستعلاء نقشها على توهين الأزمان :
شاب من حولها الزمان وشابت وشباب الفنون ما زال غضا
إنه شوقى الذى صنع الخلود لما ضرب به المثل فى الخلود. لقد عرف حق
(التاريخ) على من يعتز بالتاريخ ، وآمن بأن الأمم لا تحيا على هباء من الماضى ،
ولسكنها تعيش على الطارف والتالد ، فاجلّ الذاهب ، وقدس الحاضر .

هذا المقام عرفته وسبقت فيه القائلين
ووقفت فى آثاركم أذن الجلال وأستبين

وجمال الآثار تزأج مع جمال اللغة ، وفهما إيمان (شوقى) بسر (الضاد) ،
وتدله بدقائقها وإدراك خصائصها ، وتمرسه واقتناصه لشواردها .
فجاء (شعر شوقى) خاليا من الضعف الذى منى به متخلفو (التجديد) ،
مشغلة القاعدين عن التحصيل والتسديد .

وليتهم ساروا على رسم (شوقى) ولم يلهم زيف المحاسن المجلوبة ! . ليتهم
تكاثروا وتهالكوا على مائدة الجمال التى كانت — ولا تزال — مراداً للأول
والآخر :

إنها مائدة الضاد .

إن الذى ملاً اللغات محاسنا جعل الجمال وسره فى الضاد
وما ينبغى لأحد أن يتكر على القلم إطلاق العنان فى الإشادة بشوقى وفنه
الشاعرى ، لأنه أعطى موهبة ساقته وتساقط مع مفاتيح السر . وما يلقاها
إلا ذو حظ عظيم .

ونحن كلما طالعتنا ذكره تسائلنا مصر ومعها الشرق، وتلفتت البلاغة،
وتطالبنا الأحداث : أين شوقي وهذا مكانه لما يزل شاغرا ؟

ويجدُّ بنا الشوق الى الجواب ، ونتمركنا ثغنا فاذا كل ما فيها رخاوة وهزال بما
يشبه الهرم ، وإذا الذى بيننا وبين المبالغ فى التسأل تحية معذرة ورجعة الى (كرمه
ابن هانى) ، وتحنقنا على ضفاف النيل عبرات لا تجففها إلا صفحات الشوقيات من
الدواوين والمسرحيات ، وأما اللغة العربية وشاعرها وسميرها وسامرها فلعلها
إن سألت عنه حرية فى يوم ذكره أن تتلقى اصداً فى طيها ما قاله (شوقي)
يرثى به صديقاً كان يسهر على إشاعة البشر فى حياته ، والإيناس فى وحشاته ، وإنه
لنجيه فى غدواته وروحاته :

تسألنى كرمى بالنهار	وبالليل أين سميرى (حسن)
وأين النديم الشهى الحديث	وأين الطروب اللطيف الأذن
نجى البلابل فى عشمها	وما همها صنعة فى الفن
فقلت لها : مات واستشعرت	ليالى السرور عليه الحزن
وما هو ميت ولكنه	بشاشة دهر محالها الزمن

الإخوان

قال الأحنف بن قيس : خير الإخوان من إن استغنيت عنه لم يزدك فى المودة ،
وإن احتجت إليه لم ينقصك منها ، وإن كوثر عضدك ، وإن استرفدت رفدك .
وأشهد :

أخوك الذى إن تدعه للملة يجبك وإن تغضب إلى السيف يغضب
ولما صارت الخلافة إلى المنصور كتب إليه رجل من إخوانه كتاباً فيه
هذه الآيات :

إنا بطانتك الألى كنا نكابد ما تكابد
ونرى فنعرف بالعداوة والبعاد لمن تباعد
ونبيت من شفق عليك ربيمة والليل هاجد
فوقع أبو جعفر على الكتاب : صدقت ، ودعا به فألحقه بإخوانه .

الإيمان

لحضره الأستاذ عمر طلعت زهران
أستاذ في الأدب والصحافة

ليس الإيمان مقتصرًا على دين دون دين ، أو على جنس دون جنس ، ولكنه شعور يشعر به الفرد أيا كان دينه أو جنسه أو وطنه . وإن الكتب العربية لتزخر بوصف مشاهد الخشوع وقصص الإيمان ، وإننا لنرى الكتاب يقصون علينا تلك الأنبياء ، أو يخطون إحساساتهم العامة بالإيمان ، في أسلوب قوى بليغ يشع إيمانًا ، ويذوب وجدانًا . وما أبلغ البوصيري في برده ، وهو الذي لم يشتهر إلا بها ، ولم يكن شعره في غيرها من عيون القصائد . وقد وقعت في قراءتي في كتاب « في خطي المسيح » من تأليف هـ . ف . مورتون ؛ على وصف لحاج بلغاري يزور بيت المقدس ، رأيت أن أنقله إلى العربية . ولعل من نوافل القول أن أقول إن مورتون ليس من كتاب الإنجليز الممتازين ، فإن نقدتهم يرون فيه كاتبًا عاديًا ، كغيره من مئات الكتاب ، ولكنه في كتابه - الذي تنقل عنه - يمتاز بروحانية التعبير وحسن الأداء ، فهو يصف رحلة قام بها إلى بيت المقدس ليزور الأراضي المقدسة ، والأمر إن اقتصر على الوصف ، كان فجأ ، ولكنه يبت خلال السطور مشاعره ، ويبين عن إحساساته ووجدانه ، ويرجع بذكرياته القهقري ، قرونًا وقرونًا ، يذكر أو يتذكر الحوادث حين وقوعها ، فيعطينا صورة حية لعصر قد من عصور التاريخ .

أراد الكاتب أن يدخل الهيكل المقدس حيث يوجد « قبر » المسيح . وقبر المسيح : حجرة ضيقة ممرية ، طولها ستة أقدام ونصف ، وعرضها ستة أقدام ، لا يستطيع أكثر من شخصين أو ثلاثة أن يقفوا فيها معًا ، وفي شطرها الايمن

لوح من المرمر الأبيض يغطي الصخرة التي وضع عليها المسيح بعد صلبه ،
(فيما يزعمون) .

رأى مورتون حاجا يسجد داخل « القبر » ، فانتظر حتى ينتهى من صلاته
ليدخل اليه بدوره .

وطال انتظاري ونفد صبرى ، فأحنيت قامتي ونظرت خلال الباب المنخفض
فرايت أن الشخص الساجد إنما هو شيخ ، بلغ من العمر عتيا ، منحني الظهر ،
مهمل الثياب ، يقتل فعلا ضحكا من اللباد . كان حاجا بلغاريا أتى في سفينة حجاج
ولربما كان يدخر حياته كلها لهذه اللحظة .

كان يسجد أمام « القبر » الرخامى ويقبله مرارا ، تتساقط من عينيه الدموع
غزيرة ، فتتساب خلال تجاعيد وجهه متساقطة على الحجر ، وكانت يدها الخشفتان
الكبيرتان ، وأظافره الغليظة السوداء ، من أثر عمل مكد شاق ، تلمس الرخام
برفق وخشوع ، وفي عاطفة جياشة رقيقة ؛ ثم لا يلبث أن يستأنف صلاته .

وأخذ يبتهل الى الله بصوت مرتفع مرتجف ، وأنا أنظر إليه غدير مستطيع
فهم ما يقول . وأخرج من جيب سترته بضع وريقات متسخة وشريطا من القماش ،
مسح بها جميعا « القبر » ، ثم عاد فأودعها جيبه .

وظننت أنى قد أجد مكانا لى بجانبه ، فأحنيت رأسى ودخلت الهيكل ، فلانا
ثلاثتنا - الراهب الإغريقى ، والفلاح الساجد ، وأنا - المكان الضيق . وكان يمكننا
أن نظل - رغم ضيق المكان - فى راحة ودعة ، لوبقى الفلاح ساجدا ، ولكن لعل
دخولى قد أزعجه ، فنهض وما زالت دموعه تتساقط ، وهمس فى أذنى ببعض
الكلمات . ووقفنا - ثلاثتنا - وقد تلاصقت صدورنا ، وتلاقت أبصارنا ،
وأيقنت أنى أرى فى عينى هذا الفلاح سعادة حقّة .

لقد حقق حلم الحياة ، ولم أكن قد رأيت سعادة مثل سعادته من قبل ، لم أكن قد
رأيت السلام والرضا مجسمين على وجهه ، كما كنا على وجهه ، وودت لو دفعت

الحياة وما أملك ، ثمتنا لحديث أبادله إياه ، ولكننا ظللنا هكذا وقوفا في « قبر » المسيح ، يهـس - هو - في أذني بحديث لا أفقه منه شيئاً ، ولا أستطيع إلا أن أهز له رأسى نفياً .

ولعله يئس من محادثتي ، فتحول عني الى الراهب الإغريقي وهمس له بنفس الكلمات ، ولكن الراهب ، لم يفهم قوله قط ، فhez رأسه - أيضاً - نفياً . وعلا الضيق محيا الشيخ العجوز ورفع صوته قليلا ، ونظر إلى الدرج الرخامى نظرة سريعة ، ما لبث أن خفضها ، ثم أشار الى جبهته والى المصاييح المعلقة فوق « قبر » المسيح . وهنا فهم الراهب ما يريد ، فأوماً إيجاباً ، وخفض مصباحاً ، وأخذ قطعة من القطن فبللها بزيت المصباح ثم مسح بها وجه الفلاح .

وخر الشيخ العجوز راكعاً على ركبتيه محولاً وجهه نحو « القبر » ، غير راغب في مبارحة المكان ، خاشعاً من أثر الإيـمان ، تتحسس يدها الخشتان الكبيرتان « القبر » المرمرى ، كأنما تمسحان على شعر طفل بخنان .

وجلست حيناً على مقعد حجري ، مواجها الباب المنخفض المؤدى الى القبر ، وعاهدت الله - بيني وبين نفسى - أن أجلس هنا طيلة إقامتى في بيت المقدس . كان الجمع الذى حولى ساكناً ، يصعد الزفرات ، ويسجد فى خشوع ، أو يقف على أطراف أصابعه فى ضوء الكنيسة الخافت ، يتحدث فيما بينه همساً ، أو يسبح الله على حبات المسابح .

وهنا تذكرت وصف « مايتلد مراد » الرائع لهذا الجمع إذ تقول :

« كانوا يقفون كالأشباح ، لا ينظرون يميناً ولا يفتون شمالاً ، مستغرقين فى صلواتهم ، تائمى بين تأملاتهم ، غائبين فى ذكرياتهم الحزينة ، كأنما قد غاب عنهم كل شىء ، إلا الرغبة الملحة فى أن يدعوا الله ، فى قدس الأقداس هذا ، راجين العفو ، طالبين المغفرة بمن وسعت رحمته كل شىء . وإن أفكار المتعبد المتعبد ، فى هذا الضوء الخافت ، وفى هذا المكان الساكن ، لتضمحل وتتضائل إزاء هذا الشعور الروحى ، وهذا القلق المتسامى ، حتى لتفى الشخصية الفردية ، وتبدو جميع الماديات كأنما هى أشباح غير حقيقية » .

في قصر الرشيد

سيرته في ندمائه

لحضرة الأستاذ الشيخ حسن خطاب الوكيل

كان الرشيد لا يصبر عن مصاحبة ابن أبي مریم المدنی، ولا یمل محادثته؛ لادبه وطرائفه، ومعرفته أخبار أهل الحجاز وألقاب الأشراف، ومكاید التجنّان، وخفة الروح، وسرعة الخاطر؛ لذلك بوأه الرشيد مكاناً في قصره، وخلطه ببطانته ومواليه، واتخذته نديماً خاصاً له.

ففي ذات ليلة دخل الرشيد غرفة ابن أبي مریم وقت الفجر، فوجده يغط في نومه، فكشف عنه غطاءه وقال له كيف أصبحت؟ فاستيقظ ابن أبي مریم قليلاً وهو يظن أن مكلمه أحد حراس أمير المؤمنين، فأجابه من غير روية: ما أصبحت بعد، اذهب يا هذا إلى عملك!. فقال له الرشيد: ويك قم إلى الصلاة!. فأجابه ابن أبي مریم من تحت الغطاء: هذا وقت صلاة أبي الجارود^(١) وأنا من أصحاب أبي يوسف. فتركه الرشيد وأرسل إليه أحد الخدم ليوقظه، فقال له: أمير المؤمنين قد قام إلى الصلاة فقم. فقام ابن أبي مریم وتوضأ ودخل إلى المصلى فإذا الرشيد يقرأ في صلاته آية: «وما لي لأعبد الذي فطرني»، ثم أمسك عن بقية الآية. فلاحظ عليه ابن أبي مریم بقوله: لا أدري والله!. ففطن لها الرشيد فضحك وخرج من صلاته، والتفت إلى ابن أبي مریم وقال له محذراً: في الصلاة أيضاً!؟ فأجابه ابن أبي مریم مغالطاً على سبيل المزاح: يا هذا وما صنعت؟ فأجابه الرشيد: قطعت على صلاتي وأضحكتني. فقال له ابن أبي مریم معتذراً: والله ما قصدت، وإنما سمعت منك كلاماً غني حين قلت: وما لي لأعبد الذي فطرني، ثم أمسكت فقلت: لا أدري والله، ما لك لا تعبد الذي فطرك!

(١) أبو الجارود: أحد رجال الشيعة.

فضحك الرشيد وقال له منندراً ومؤدباً : إياك والقرآن والدين ، ولك ما شئت بعدهما ! .

ولما طلعت الغزالة ، وأشرقت الأرض بنور ربها ، وألحف الجو الضياء ، وغنت الأطياف ؛ أرسل الرشيد فى طلب إسحاق الموصلى فأحضر ، فقال له الرشيد : غننا يا إسحاق :

أعادل قد نهيت فما انتهيت وقد طال العتاب فما أروعيت
الخ الأيات .

فغنى إسحاق وأطنب وأجاد ما استطاع إلى ذلك سبيلا . فطرب الرشيد واستعاد الغناء ، فغاظ ذلك إبراهيم المهدي وكان حاضرا ، فقال لاسحاق : ما أصبت يا إسحاق ولا أحسنت ! . فأجابه إسحاق على الفور بقوله : ليس هذا مما تعرفه ولا تحسنه ، وإن شئت فغنّه أنت ، فإن لم أجذك أنك تخطيء فيه منذ ابتدائك إلى انتهائك فدمى حلال .. ثم وجه كلامه إلى الرشيد ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هذه صناعتى وصناعة أبى ، وهى التى قربتنا منك وأوطأتنا بساطك ، فإذا نازعنا فيها أحد بلا علم ، لم نجد بداً من الإيضاح . فقال الرشيد له مطيبا خاطره : لا لوم عليك يا إسحاق . ثم قام من المجلس كأنه قام لحاجة فى نفسه .

فانتهر هذه الفرصة إبراهيم المهدي والتفت إلى إسحاق مخاطبا ومعنفا : ويلك يا إسحاق ، أتجترى على فى حضرة أخى ، وتقول ما تقول يا

فأجابه إسحاق مغاضبا : أنت تشتمنى ولا أقدر على إجابتك ، وأنت ابن الخليفة وأخو الخليفة .

وبينا هما على هذه الحال ، وإذا بالرشيد يعود إلى المجلس على أثر هذه المشادة الخطيرة .. فتقدم إبراهيم المهدي ، وجلس بين يديه ، وقال : يا أمير المؤمنين شتمنى إسحاق ، واستخف بى ! .

فغضب الرشيد ونظر إلى إسحاق ، وقال له : ويلك يا إسحاق ، ما تقول ؟ ! .

فأجاب إسحاق خائفاً : لا أعلم ، وسل من حضر يا مولاي .

فتقدم مسرور وقص عليه كل ما حدث .

فالتفت الرشيد إلى إبراهيم وقال له : لا ذنب على إسحاق ، شتمته فعرفك أنه لا يقدر على جوابك . ارجع إلى مكانك وأعرض عن هذا حتى أنظر في أمر إسحاق . ثم التفت إليه وقال له يا إسحاق : ويحك لا تعد لمثل هذا ! أترى لو ضربك إبراهيم أكنت أضربه وهو أخى يا جاهل ؟ أتراه لو أمر غلبانه فقتلوك أكنت أقتله بك ؟

فأجاب إسحاق وقد أوجس في نفسه خيفة : والله يا أمير المؤمنين قتلتنى بهذا الكلام ، وإن بلغه ليقتلتنى ، وما أشك في أنه بلغه الآن ! .

فرق الرشيد وعطف على إسحاق ، فأراد أن يدرك الأمر وأن يعالجه بالحسنى قبل خطورته ، فقال لاسحاق : إلى منزلك حتى أدعوك بعد . وبعث في طلب إبراهيم المهدى ، فأحضره ، فابتدره الرشيد بتموله : أتستخف بخادمى وصنيعتى ، وابن صنيعتى وخادمى ، وصنيعته أبى ، وتقدم علىّ وتستخف بمجلسى وحضرتى هاه ! هاه ! وأنت مالك وللغنم . وما يدريك ما هو ؟ ومن أخذك به وطارحك إياه حتى تتوهم أنك تبلغ فيه مبلغ إسحاق الذى غذى به وعلمه وهو فى صناعته ؟ ثم تظن أنك تخطئه فيما لا تدريه ، ويدعوك إلى إقامة الحجة عليه فلا تثبت لذلك وتعتصم بشتمه ! ألا تعلم أن هذا سوء أدب ، وقلة معرفة ، وعدم مبالاة بالخطأ والرد القبيح والتكذيب . والله العظيم ، وحق رسوله ، وإلا فأنا برىء من المهدى ، إن أصابه أحد بمكره ، أو سقط عليه حجر من السماء ، أو وقع عن دابته ، أو سقطت عليه سقيفة أو باب فجأة ، لاقتلنك به . والله والله وأنت أعلم ، قم الآن فاخرج ولا تعرض له ! .

ولما كان الغد أو بعده بعث الرشيد فى طلب إسحاق ثم إبراهيم فأحضرا ، فأخذ الرشيد يمدح للصالح بينهما ، فصارت نظر إلى إبراهيم ويبتسم ، ثم ينظر إلى إسحاق ويبتسم ، ثم التفت إلى إبراهيم وقال له : إني لأعلم محبتك لإسحاق ، وميلك إليه ، وإلى الأخذ عنه ، وإن هذا لا يحى من جهته كما تريد إلا بعد أن يرضى ، والرضا لا يكون بمكره ، ولكن أحسن إليه وأكرمه ، واعرف له حقه وصله .

ثم التفت الرشيد إلى إسحاق وقال له : قم الآن إلى مولاك وابن مولاك فقبل رأسه . فامثل إسحاق وقبل رأس إبراهيم ! .

شهادة الأيام في قضية الإمام

هذا عنوان كراسة مطبوعة تبلغ صفحاتها ثمانية وأربعين صفحة تحتوى على كلمة لصاحبها الشاعر النابه البليغ مرسى شاكر أفندى الطنطاوى ، تليها قصيدة يبلغ عدد أبياتها نحو ثلاثمائة بيت بل تزيد ، وتنتهى ببضع صفحات قيمة تبحث في سيرة الإمام على عليه السلام والحوادث التى طرأت في أيامه ، لحضرة الوجيه ميرزا مشكى بك رفيع مشكى .

أما القصيدة فهى كما يدل عليه عنوانها " شهادة الأيام في قضية الإمام " ، لم تدع صغيرة ولا كبيرة من سيرته وشمائله رضى الله عنه إلا أتت بها شعراً في ألفاظ مختارة ، وصياغة معجبة ، وسبك بديع ، وعرض للحوادث الخطيرة ، في نظام متسق . فهذه القصيدة قطعة من الأدب العصرى الذى يجب أن ينشر ، ويجب أن يدخر ويقرأ .

حجة المنبر

إن سيادة حسن القياىاتى من أنجب المشتغلين باللغة من المعاصرين ، وهو عضو بمجمع فؤاد الاول للغة العربية ، اشغل بالأدب على عرق ، فبلغ فيه شأواً بعيداً . وقد أهدانا برسالة مما كتبه أخيراً تحت عنوان (حجة المنبر) نحا فيها نحواً طريفاً في الوعظ والإرشاد ، والنمى على البسوع والمبتدعين ، وأنجى بقوة على اللاهين والمتعدين ، في عبارات تلفت الذهن للفهم ، وتوقظ النفس للاتعاظ . ليست جارية على سنن الخطباء المنبريين ، ولكنها أفعل في لفت الأنظار ، وإيقاظ القلوب ، مما اعتاد الناس أن يسمعوه في كل جمعة حتى حفظوه . وإنما لآتون للقارىء بقطع منها ، لإدلالا على باقىها : قال سيادته :

أما بعد : فأين يذهب بكم أيها المسلمون عن الدين ، وسنة الهادين ؟ وكيف أنسم إلى مقتل الفضيلة ، وسطوة الرذيلة ؛ وتألفكم ضد الزمان بالإحسان ، وقعت بكم جفوة الأمل ، عن العمل .

د أين لا أين ؟ من يتقى الله حق تقاته ؟ ويعمل لمراضاته ؟ وأين من يقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة ؟ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ، والزكاة مرحلة وقوتا . أين الصائمون ينعمون بين شدة الصوم وضيق ؟ والحجاج المطهرون يأتون من كل فج عميق ؟ يمثل هؤلاء يقام الدين ، ويكبر اليقين .

كتاب النفس لأرسطو طاليس

إن كتاب النفس للفيلسوف الأشهر أرسطو الملقب بأمير الشعراء بقى مرجع لجميع الفلاسفة في هذا العلم إلى القرن التاسع عشر ، وهو في الوقت نفسه أعظم كتب أرسطو قيمة . وهو يشمل ثلاث مقالات : الأولى سرد فيها أرسطو مذاهب القدامى من الفلاسفة الذين سبقوه ، والثانية في تعريف النفس على حسب مذهبه ، والثالثة في الحس المشترك والتخيل والتفكير والنزوع

ولم يقتصر أرسطو على كتابه هذا ، فكتب في مواطن أخرى من مؤلفاته ما عني له من الأمور المتعلقة بعلم النفس . وهو يعتبر دراسة النفس جزءا من العلم الطبيعي ، لأن النفس ، كما قال : مبدأ الكائن الحي .

وعلى هذا فإن ترجمة هذا الكتاب ونشره يعتبر من الأعمال التي تستخدم بها دراسة الفلسفة أجل خدمة .

نقول هذا وبين يدينا ترجمة جلييلة القدر ، منقطعة النظير لهذا الكتاب الشهير قام بها الاستاذ الجليل الدكتور أحمد فؤاد الأهواني المدرس بالجامعة المصرية اعتمد فيه على (تريكو) الفرنسية ، ونظر الى جانبها في ترجمة (هكس) . وقد رأى إتماما للفائدة أن يكشف صديقه الأب قنواتي لمراجعة الاصل اليوناني لانه ملم بهذه اللغة ؛ فكانا يجتمعان للمراجعة والمقابلة حتى أصلحا الترجمة ، وأصبحت أقرب الى الصحة . فقامت هذه الترجمة بعد ما بذلت لها هذه العناية العظيمة جدرة بكتاب يعتبر أكبر مرجع لعلم النفس في الفلسفة القديمة . ومن الجزاء الحسن لحضرة الاستاذ الدكتور الأهواني أن يوفق الى ترجمته ليكون مكافأة له على ما بذله من العناية الفائقة بترجمة سواه من الكتب النافعة ، وإنفاق أوقاته في تمحيصها وتهذيبها .

ولسنا بحاجة لأن نقول إن الكتاب مطبوع طبعة أنيقة على ورق غاية في الجودة ، وقد وضع في ذيله معجما للمصطلحات الواردة في كتاب أرسطو بأربع لغات : الفرنسية والإنجليزية واليونانية والعربية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر

الشيخ محمد مأمون السناوى شيخ الجامع الأزهر

فى احتفال الأزهر بالذكرى المئوية

لساكن الجنان المغفور له محمد على باشا الكبير

نحمد الله ونستهديه ، ونسأله التوفيق فى القول والعمل . ونصلى ونسلم على سيدنا محمد النبى الكريم ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فإن « محمد على ، الكبير - نضر الله وجهه ، وطيب ثراه ، وأحيا ذكره - قيضه الله لمصر فى ظروف كانت أحوج ما تكون فيها الى عاىل ينتشلها من وهبتها ، ويقبيلها من عثرتها ، ويقضى على ما نشب بين أمرائها وأبنائها من خلافات وفتن أضاعت هيبة البلاد ، وقضت على ثروتها . فكان مقدمه الى مصر طالع سعد ويمن أفادت منه مصر الخير والبركات ؛ فعز سلطانها ، وقويت شوكتها ، وارتفع ذكرها ، وذاع صوتها ، وعلا نجمها ، وكثرت أموالها ، وانتظمت أحوالها ، حتى أصبحت قوية البنيان ، عظيمة السلطان ، مرهوبة الجانب .

كان محمد على عبقرىاً فذاً ، هباته العناية الإلهية لحل رسالة الإصلاح ، وتحقيق الخير للإنسانية .

نشأ - رحمه الله - فى « قوله ، نشأة إسلامية ، فاعتمد على نفسه ، وجاهد الحياة وجاهدته فى جلد وصبر ، وميزته صفاته الإنسانية ، وشجاعته النادرة ، وقوة جنانه ، فبرز من بين صفوف لداته ، واسترعى الأنظار بتقواه ، وشدة مراسه واعتداله ، وانتظم فى سلك الجنديّة ؛ فأهله احتمالاً للشدائد ، وحبّه المغامرة للرقى السريع ؛

وتوسم الناس فيه الخير والنجابة، وتقباؤا له بمستقبل زاهر؛ ولكنه - على ما انطوت عليه جوانحه من طموح - ما كان لينطلع الى أفق الملك في مصر ككنانة الله في أرضه؛ فذلك أمر خبأته العناية في لوح الغيب لتكشف عنه في وقت عينته . ولم تكن مصر تعرف محمد علي ، ولا دار بخلدها - وهي تقاسى مرارة الاستعباد ، وذل الاضطهاد - أن الله قد أراد بها خيراً ؛ فربط مصيرها بمصير ذلك البطل الذي اختصته عناية الله بالمجد والسؤدد ، وجعل خلاصها وعزها على يديه . ولم تطل بمصر فترة الانتظار ؛ فقد كشفت الأقدار عن سرها ، وأبى الله إلا أن يجمع فتى د - قوله ، الطموح بمصر المتعطشة إلى الحرية ليحقق مشيئته ، ويتم نعمته على مصر ومحمد علي .

وفي الحق كانت مصر الموطن الصالح لنماء آماله ، والمنبت الطيب لترعرع أمانيه ، واختار الله لمقدمه فرصة خليقة بالبطولة في ميدان خليق بالأبطال . ذلك أن جيشاً فرنسياً يقوده الجنرال بوناپرت ، نزل بأرض مصر في صيف سنة ١٧٩٨ ، وصممت الدولة العثمانية - التي كانت تخضع مصر لسيادتها - على إجلاء الفرنسيين عن أرضها ، فاستنفرت قواتها من جميع البلاد لرد هذا العدوان ؛ فكان أن ساق الله محمد علي إلى مصر ضمن الحملة الألبانية التي لبث داعي السلطان لإخراج المعتدين منها .

في وسط هذا الجو المضطرب المكفهر ، وصل - طيب الله ثراه - إلى مصر ، التي شامت إرادة الله أن تعز به ويمتز بها ، فوجدها نهياً للحزازات والمطامع الشخصية ، تنقسمها الأغراض ، ويكيد فيها المماليك للشعب ، وتتطاحن فيها قوى مختلفة النزعات للفوز بالسيطرة والسلطان ؛ فعز عليه أن يرى هذا البلد الطيب الآمين تنفرق وحدته ، وتضيع صولته ، وينهار بنيانه ، في إحزن لا جدوى من ورائها إلا التمسكين للمستعمرين ؛ فعمل بشاقب فكره ، ونافذ بصيرته ، على أن يخلص البلاد من هذا الذل والعار ، ويوجهها وجهة صالحة تنفعها وتنفعه . وما كادت مصر تخلص من الفرنسيين حتى شمر عن ساعد الجد ، وقرر أن يضرب على يد الفتنة بالقضاء على الأحزاب المتنافرة ليعيد للبلاد طمأنينتها وللشعب حريته ، ورأى أن يلتزم الجادة في سياسته ، وأن تقوم معاملته للشعب على أساس العدل والإنصاف ، وأن يدفع الحوادث من بعيد ، ويترقب النتائج في حذرٍ وتأهب ؛

ويمكن الله له في مصر ، فأحبه الشعب لما رأى فيه من عدل ونصفه ، ودفاع عن حقوقه ؛ وزادته الحوادث المتتابعة قربا من الشعب ، كما زادت إيمان الشعب به وبقدرته على حل ما يستعصى من الأمور .

وكان علماء الأزهر هم أهل الرأي والمشورة في البلاد ؛ إليهم يرجع الشعب كلما حزبه أمر ، أو وقعت به مظلمة . وكان العلماء عند حسن الظن بهم ، يتولون عن الشعب إبلاغ مظالمهم للوالى ، ويتوسطون لديه في رفع مايروونه من حيف وقع بالبلاد . عرف محمد على منزلة العلماء من الشعب ، فعقد معهم أواصر الصداقة والمودة ؛ وكان يرجع إليهم في كل الأمور ليستشيرهم ويشير عليهم ، حتى عظمت مكانته في نفوسهم ، ورأوا فيه مخلصهم مما هم فيه ، فعقدوا النية على أن يولوه على مصر ليخلصهم من هذه المحن والشدائد التي ما فتئت تنصب على البلاد ، وفتاحوه في الأمر ، فكان ينصح لهم بالصبر ، ويستعملهم عسى الله أن يأتي بالفرج ؛ ولكن الأمور كانت تنتقل من خطر إلى خطر .

وما كاد يذاع أن ولاية «جدة» قد عقدت لمحمد على ، وأنه على أهبة الرحيل من مصر ، حتى نفذ صبر البلاد ، وتجمهر الناس معلنين سخطهم على الوالى ومطالبين بعزله وتولية محمد على بدله ، واجتمع العلماء وعلى رأسهم شيخ الأزهر الشيخ الشرفاوى والسيد عمر مكرم وأعلنوا عزل الوالى ، وتوجهوا بجمعهم إلى قصر محمد على ، وبايعوه بالولاية ، لما توسموا فيه من العدالة والخير . فامتنع أولاً ثم رضى . فأحضروا له كركا وعليه قفطان ، وقام إليه شيخ الإسلام «الشيخ الشرفاوى» ، والسيد عمر مكرم ، وألبسوا إياه ، ونادوا به في المدينة والياً عليهم ، ولم يلبث الباب العالى أن نزل عند مشيئة علماء مصر وشعبها ، فوجه ولاية مصر إليه .

وهكذا أراد الله الخير لمصر على يد الأزهر وعلمائه ؛ فوجه قلوبهم لمحبة هذا المصلح الكبير ، حتى تمت النعمة الكبرى بولايته ، وكان لهم على الزمن نخر المشاركة فيما نالت مصر بفضل هذا العاهل العظيم من حضارة وعمران .

ومن حق الأزهر اليوم في هذه الذكرى المئوية الخالدة أن يكون له شرف التتويج بآثره . فقد عرفه الأزهر عن قرب ، واتصلت حياته بحياة علمائه الأجلاء ، وكان الأزهر وعلماءه عوناً له على تحقيق أهدافه السامية .

لم يكتف علماء الأزهر بما حققوه لبلادهم من خير باختياره والياً عليهم؛ بل آزره وأيدوه ونصروه، وظلوا على الولاء له حتى مكن الله له من ملك مصر. وحين كاد له الكائدون لدى الباب العالى، وعملوا على عزله، وقف العلماء إلى جانبه، واستنفروا الشعب لنصرته، وكتبوا للباب العالى وثيقتهم المشهورة يستمسكون فيها بولايته، ويعددون مآثره - قالوا: وإن محمد على باشا كافل الإقليم، وحافظ ثغوره، ومؤمن سبله، وقاطع المعتدين؛ وإن الكافة من الخاصة والعامة والرعية راضية بولايته وأحكامه وعدالته، والشرعية مقامة فى أيامه، ولا يرتضون خلافه، لما رأوا فيه من عدم الظلم، والرفق بالضعفاء، وأهل القرى والأرياف....

وكان أن نزل الباب العالى عند رأيهم، فجدد ولايته، لما يتمتع به من رضى الشعب والعلماء.

وثبت العلماء على ولائهم وتعاضيدهم له فى كل محنة تعرضت لها البلاد، حتى صفا له الملك، ودحر خصومه، وهزم أعداءه.

ولما انتهى له أمر مصر، وصفا له الجو، أخذ البلاد بسياسة رشيدة؛ فانتهج فى الحكم مناهج جديدة حقق بها رجاء الناس فيه، وصان أرواحهم وأعراضهم وأموالهم، ونهض بالبلاد نهضة ترتفع بها إلى درجات السكال، وتبلغها شأواً من الحضارة تنافس به أمم الأرض عزة وجاها ومنعة.

ولم يأخذ محمد على نفسه فى الإصلاح بهوادة، بل تعجل الخير وسارع فى العمل، ولم يأل فى سبيل تحقيق أهدافه جهداً ولا بذلاً. وكان يؤمن بنفسه وبقوته، واثقاً دائماً بأن الله قد جعل التوفيق حليفه فى كل أحواله. وبما يؤثر عنه قوله: لا تعجبوا إن رأيتمونى أحياناً عجولاً؛ فقد كنت فى حياتى كلها موفقاً ميمون النقيبة. لا بد أنى ولدت والطالع سعيد والنجم مبتمس، ثم لم تفارقنى بعد سعادة الطالع وابتسامة النجم.

آمن بأن البلاد لن تنهض النهضة المرجوة لها إلا إذا جمعت بين القوة والخلق والعلم والمال؛ ولذلك أخذ نفسه بالعمل على إنشاء جيش وطنى قوى مدرب مزود

بكل ما يلزمه من عدة وعتاد ، وعلى بناء أسطول بحرى عظيم يحفظ لمصر هيبتها فى البحر ويؤمن تجارتها .

وعمل على أن يكون اعتماد الجيش والأسطول فى تموينهما وعتادهما على ما تقدمه لهما مصانع البلاد ؛ فتوسع فى إنشاء المصانع ، وجلب لها الخبراء ليعلموا أبناء الوطن الصناعات المختلفة ، ويدربوهم على دقة الإنتاج .

والتفت إلى موارد البلاد فعمل على تنميتها ؛ لتواجه مطالب الوطن المتزايدة ، فعنى بالزراعة عناية كبيرة ، وأدخل زراعات مختلفة أهمها القطن ، جلبت للبلاد منتجاتها ثروة لا تقدر .

وعنى بوسائل الرى والصرف ، فأنشأ الجسور والترع ، وأمر بإنشاء القناطر ؛ لضبط مياه النيل وتحويل البلاد إلى الزراعة الدائمة .

ورأى أن نجاح هذه المشروعات ونماها لا يتم على أحسن وجه وأكمله إلا إذا قام على تعهدها وتنفيذها أبناء الوطن المثقفون ؛ فاتجه إلى العناية بالتعليم ، ففتح المدارس فى أنحاء البلاد ، وشجع أبناء الشعب على الالتحاق بها ، وكان يدفعهم - رحمه الله - إلى العلم دفعا ، تارة بالتشجيع الأدبى والمادى ، وتارة بالشدة ، حتى جعل التعليم كالجنيد لإجباريا .

وقد وفقه الله فأعد للبلاد صفوة من خير المتعلمين الحاذقين لفنون الطب والهندسة والزراعة .

ولم يقتصر « محمد على » على التعليم فى مصر ، بل بعث البعث إلى الخارج للتخصص فى الفنون الحربية والهندسية والطب والقانون والآداب ، وكان همه كله لإحياء البلاد ، والنهوض بها فى جميع المرافق .

وفى هذا المضمار العلى كان أبناء الأزهر هم النواة الأولى التى اعتمد عليها فى مدارسه الفنية وبعوثه ، وكانوا هم الصفوة التى قادت حركة الازدهار العلى فى البلاد ؛ فجمعوا بين جلال الدين وعظمة العلم .

وإن الأزهر ليفخر حين يتصفح قوائم بعوث محمد على فيجد أسماء : « رفاعة الطهطاوى » ، والدكتورين « إبراهيم بك النبراوى » ، و « أحمد بك حسن الرشيدى » ، والمهندس الشيخ « أحمد العطار » ، والطبيب الشيخ « محمد نافع الدشطوطى » ، وغيرهم من الأعلام والنابعين .

وإذا كان محمد علي قد دعت له الحاجات الفنية في المصانع والمؤسسات إلى العناية بالتعليم الفنى ، وإرسال البعث إلى أوروبا ، فإنه لم يغفل شأن الأزهر ، بل والإله برعايته ، ومدّله في رواق حريته ، وحافظ على نظامه التعليمى . إذ كان - رحمه الله - يدرك النفوذ الذى يتمتع به الأزهر في البلاد الإسلامية ، وأنه مهبط الثقافة الدينية للمسلمين الضاربين في أقطار الأرض ، ومصدر النور الذى يولون وجوههم شطره ليهدى بهم إلى الحق والخير . وكان محمد علي متدينا حريصا على أن تبقى للأزهر زعامته الدينية .

وقد لقي علماء الأزهر من محمد علي كل رعاية وتكريم ؛ فاختر صفوتهم في ديوان المشورة ، وكان يرجع اليهم في كل ما يخص الشعب من شئون ، وكان لعلماء الأزهر اليد البيضاء في إلتقان الأحكام الشرعية العملية والاعتقادية وما يجب من العلوم الآلية . وكان منهم حاذقون في كثير من العلوم الأخرى ، من أمثال شيخ الإسلام د المنهورى ، ، و الشيخ د حسن العطار .

ولم يكتف محمد علي بهذه النهضة تدب في جميع النواحي ، بل فكر في تأمين البلاد والمحافظة على سلامتها ، فقام بفتح السودان ليضم شطرى وادى النيل ، وبذل في تعمير مدائنه ، وإقامة المرافق العامة ما لا يزال يذكر له بالخير ؛ وقام بكثير من الفتوح الأخرى في سوريا وبلاد العرب ، ولم يكن يتغيا في كل ذلك إلا خدمة مصر وإعلاء كلمة الإسلام .

وكان - على ما ناله من نجاح وتوفيق - دائم الذكر لأنعم الله عليه . وبما يؤثر عنه أنه قال : « إن تبلىنا لوطن عديم النظير كهذا هو من النعم الجسيمة ؛ وعدم القيام بالسعى والاجتهاد في عمارته يكون عين المكفران بالنعمة ؛ وهذا ما لا تقبله شيم جبلى ، وتأبى نفسى أن أكون شريكا لكم في ذلك ، .

تلك كانت الروح المسيطرة عليه في كل إصلاحاته : يرى في بناء القنطرة أو إقامة المدرسة أو إنشاء المسجد أعمالا ترتفع الى مرتبة العبادة والاعتراف بأنعم الله جلّت قدرته .

قال الشيخ رفاعه رافع : إن منافع مصر العمومية قد تمكنت كل التمكن من الذات المحمدية العلوية ، وتسلطنت على قلبه ، وأخذت بمجامع لبه ؛ فكان - طيب الله ثراه - في كل اتجاهاته العمرانية يقصد الصالح العام للمسلمين .

رحم الله محمد على ! فقد كان علماً من أعلام الإسلام ، وبطلاً من أبطال التاريخ ؛ عرف كيف يخلد اسمه على مر الأيام ، وكيف يسمو بنفسه وببلاده الى الابد .

تلك بعض مآثر مؤسس الاسرة العلوية ومنشئ مصر . ولعل أعظم مآثره خلودا ذلك العقد الفريد من الاحفاد الذين نشأهم محمد على فأحسن تنشئتهم ، وأقامهم على رعاية مصر ، فكانوا لها أعظم الرعاية المنفذين لسياسته فى النهضة والحضارة . وإن ننس فلن ننسى فضل إبراهيم وإسماعيل ، ولا أيادى المغفور له الملك فؤاد ؛ فقد جدد مصر ونهض بها حتى بلغت الابد .

وهانحن أولاء نتمتع برعاية مولانا الملك المعظم فاروق الاول الذى أحيا سنة أبيه ، وسار على نهجه فى الإنشاء والتعمير والنهوض بالبلاد نهضة مباركة فى كل مرافقها .

حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم :

هذه قطرات من بحر فيوض الاسرة العلوية الملكية على الازهر ورجاله ، وصفحات من تاريخها المشرق ، الفياض بالنعم والايادى البيضاء على مصر ، المفعم بالبطولة والنجدة والشهامة والارضية فى إعلاء كلمة الله والنهوض بالوطن الى الذروة ؛ فهل لى يا مولاي أن أهديها فى هذا اليوم العظيم الخالد الذى نحتفل فيه بذكرى مرور مائة عام على وفاة المغفور له محمد على باشا الكبير رأس الاسرة العلوية الملكية ، ومؤسس مجد مصر وعظمتها - الى أبنائى طلاب الازهر المتقربين فى نعمتك ، المخلصين لسمتك ، ليتزودوا من هذه الذكرى العطرة مدداً يحفزهم ، ويملا قلوبهم الفتية بحجة هذا البيت الكريم الذى أقام مجدهم وأحيا تاريخهم ؟ حفظك الله يا مولاي ، وأدام عرشك لتقر به أعين البلاد .

بقيت بقاء الدهر يا كهف أهله

وهذا دعاء للبرية شامل

والسلام عليكم ورحمة الله

الناموس الأدبي العام

كتبنا في الجزء الماضي تحت هذا العنوان بحثاً أثبتنا فيه أنه يوجد في الكون إلى جانب النواميس الطبيعية المتصرفة في الحوادث الوجودية ، ناموس أدبي عام مجاله الشؤون الأدبية ، وهذا خاص بالنوع الإنساني وحده ، لأنه النوع الوحيد الذي خلق غير مفطور على لزوم حالة واحدة لا يبرحها في معلوماته وعاداته .

وقلنا إن الخروج على هذا الناموس بإساءة السيرة ، وإشاعة الفسوق ، والتهتك ، والإشادة بالردائل ، والجهر بالمنكرات ، يقع مرتكبها تحت طائلة عقوبات مناسبة لها ، وتصاب الأمة التي تشيع فيها هذه الخبائث بنكبات شديدة ، كالامة التي تحيد عن الخضوع للناموس الأخرى المادية سواء بسواء .

أول ما نذكره اليوم عن هذا الموضوع أن ننبه إلى أن الناموس الأدبي العام لم ينشأ في الجماعات طفرة ، ولكن رويدا رويدا ، وهذا أقوى دليل على أنه طبيعي استدعاه النمو التدريجي للحواظ الإنسانية على توالي الأجيال ، وبقدر ما وصلت إليه العقلية البشرية من الارتقاء . ولو كان نشأ فجأة لما أمكن سريانه على المجتمعات التي كانت تتألف من آحاد هم إلى الحيوانية أقرب منهم إلى الإنسانية .

ومما يدل على أن هذا التطور الأدبي للأفراد والجماعات أمر طبيعي ، دفاع أصحابه عنه بأقصى ما يمكن من حول وحيلة ، على نحو ما يبذلونه للدفاع عن شؤونهم المادية . وهذا من أقوى الأدلة على أن التسامح في الآداب المكتسبة للمجتمع ضرورة لحياته الاجتماعية ، كما يدل دلالة قاطعة على أنه قد كتب للإنسان أن يبلغ في عالم الآداب النفسية درجة تناسب درجته في الشؤون المادية . فإذا حدث ما يخل بهذا التوازن بين هاتين الدرجتين تعرضت الجماعة التي تقدم على هذا الإخلال لفتن من ضروب شتى تحل بهم عقابا على ما فرطوا في جنب آدابهم النفسية . أليس يدل ما تشهده من أحوال العالم المتقدم ، وما يحدث فيه

من صنوف المشاكل الشائكة ، على أن أولئك الأقوام الذين بلغوا مدى بعيدا في الفتوحات العلمية ، والمواهب العقلية ، قد ارتكبوا في ناحية من نواحي حوافظهم الأدبية انحرافا يتناسب وما يتعرضون له من الحروب الماحقة ، والفتن السكاسية . إن هؤلاء الأقوام بعد أن اقتتلوا أربع سنوات متتالية في حرب عامة ، عادوا قبل أن تلتئم جراحهم ، وتندمل قروحهم الى خوض غمرات حرب أخرى أشد من الأولى كان مجالها أكثر بقاع الأرض عمراناً ، فأنت على ما لا تستطيع الأمم استعاضته بعد جيل من الزمان يمضي في سلام وارف الظلال . ثم ما كادوا يلقون سلاحهم حتى عادوا للسلام في الحرب والصدام ، ولكن بسلاح لا يبقى ولا يذر ، يحتاج المدن والجماعات في مثل لمح البصر ، ألا وهو القنبلة الذرية . أليس هذا من الكوارث التي يسلطها قِيم الوجود على الأمم التي تنحرف عن صراطه وتخرج على قوانينه ؟

فإذا كان الناموس الأدبي العام قد أشعر الإنسان بالعدل والرحمة والمساواة والأخوة والفضيلة ، وفطره على أن يشعر بسموها ، وعلى أن يعتبرها مُسْئِلاً مُعْلِياً في الحياة الفردية والاجتماعية ، وقد قرر الانسان ذلك في فلسفته وعلومه الاجتماعية ، أفلا يكون من الإجرام المتعدى حدود التعقل أن لا يعمل بها ، وأن يخطط لنفسه خطة تدبرها ، وتعمل على طمس معالمها ، والتعفية على آثارها ؟ هيئات ! فإن ما كان طبيعياً لا يمكن ملامشاته صناعياً ، وما كان ثمرته القلاقل والفتن والشقاق ، لا يمكن أن يكون ثمرته السلام والهدوء والاستقرار .

فالأمم والحالة هذه بين عاقبتين : إما التآخي والتعاقد والتحاب ، وإما التصادم والتناحر والفتن !

نقول هذا ولسنا ببياتيين من أن الأمم تحت تأثير عامل حفظ الذات واستكمال أسباب البقاء ، ستأدى إلى التهدي لبواعث هذه الشرور المحتاجة ، وتستقيم على الصراط من الحياة الاجتماعية ، بنز كل ما يصد عن ذلك من نزغات وأهواء وعادات موروثه ، وقد يطول أمد ذلك التطور الخطير ، ولكنه على أية حال صائر لا محالة ، ويومئذ تكون الإنسانية قد وصلت إلى ذروة كمالها ، وغاية عظمتها .

ولا يجوز لنا هنا أن نغفل عن أن هذه الدرجة النهائية من السكال ، ما كانت لتأتى من أول عهد الإنسان بالحياة ، وهو لا يفترق عن الحيوانات العجم في كبير شيء ، وأن أمامه عقبات كأداء عليه أن يجتازها واحدة بعد أخرى في أدوار متتالية ، وتحت تأثير ثقافات من ضروب شتى . ولست أبالغ إذا قلت إن هذا المصير يخفى على الكثيرة الساحقة من الناس ، وأن من يعرفه يشك في إمكان حصوله ، ويرى أن الأرض قد تستنفد موادها الصالحة لبقاء الأحياء قبل حدوثه ؛ وأن الأمم لا تلبث بسبب حروبها المتواصلة أن ترتكس الى همجية باحتة كما حدث للأمم كثيرة من أمم التاريخ التى ملكت زمام الأرض أجيالا ، ثم آل أمرها إلى الزوال ؛ وأن هذا هو كل حظ الإنسانية من هذه الحياة .

ليكن ما يقولون صحيحا فهذا لا ينقض مهمة الدين ، ولا يعدو على القول بضروريته ، بل يزيد هذه المهمة تأييدا . فإذا كانت الحياة الدنيا أول مراتب الحياة الإنسانية ، وأن الإنسان كلف أن يبدأ أول درجات وجوده فيها ، وأن يعمل بالمثل العليا مدة إقامته بها ؛ فيكون بحاجة ماسة الى دستور أخلاقى يجرى عليه ، ويتهدى به الى الصراط السوى الذى عليه أن يجتازه دون سائر الصرط التى تلوح له فى مدة بقائه فى هذا العالم .

* * *

وبعد : فإننا بعد أن وصلنا من بحثنا الى هذه النقطة ، فلا يحسن بنا أن نهمل الإشارة إلى تلك الكارثة العقلية التى حلت بالعالم المتمدن منذ نحو مائة سنة ، ولا يزال لها السلطان القاهر على القلوب ، ألا وهى سيادة المذهب التشاؤمى Le Pessimisme . ومؤداه أن الحياة الانسانية رديئة رداءة لا تقبل الإصلاح ، فكل الأعمال التى توجه لإصلاحها لا تكون نتيجتها إلا زيادة رداءتها . فيكون الواجب الحقيقى لسكل عاقل أن يعمل على إبادة الانسانية . وقد ساعد على انتشار هذا المذهب ما يصاب به الناس من الأعراض والأمراض وأهوال الشيوخوخة ، وموت الأهل والإخوان ، وسيادة الفاقة والبؤس على أكثر الأحياء .

انتشر هذا المذهب لدى أكثر العلماء الأوروبيين ، وكاد يعم الناس هنالك ، وتخطاهم الى بلاد الشرق ونشرته كتيبه ومجلاته ، فذاع فيه ذبوعه فى الغرب ، فأصبح مشاراً لجميع ضروب الشذوذ الخلقى ، والانحراف الأدبى فى جميع بلدان

العالم، وهو أصعب ما منيت به الديانة والآداب من الصوارف عنهما، واما هذات فيهما، ثقة من أهله بأنه مادام الموت نهاية كل حي ، فلا موجب لأن يتكلف الانسان آدابا لا تتفق وأهواءه ، وقيودا لا تتناسب وميوله ، لا سيما وقد عم هذا الشذوذ الخافقين ، وأصبح المراعون لهذه الآداب قلة لا يعتد بها .

وقد تأدى بنا هذا التحليل كما ترى ، إلى أن علة هذا الانحطاط الأدبي الذي يعم الناس أجمعين هو بأسهم من البقاء بعد الموت . فهم يقولون ما دام مصير الإنسان الفناء والتلاشى ، فمن الآفن^(١) أن يضيق المرء على نفسه فيضن عليها بمشتمياتها لغير حكمة .

هذا هو السبب لكفر الإنسان بالآديان ، ولاستساغته ارتكاب جميع المنكرات ، واعتبارها من الملمات . ولو بقي الناس على ما هم عليه دون أن تأتيم من الله آية جيلا آخر ، فإن ضروب الفسوق والعصيان الموجودة الآن ستنتظر إلى أخش ما يتصوره العقل من الإباحة الحيوانية ، وعند ذاك تنشأ إلى جانب هذه الأذناس الشهوانية ، ميول حيوانية أخرى تجعل من الإنسان وحشاً ضارياً لا يفكر في غير هوى نفسه ، وتضمهر وتتلاشى جميع نزعاته العلوية ، فيحاول أن يتصل بالأرض ؛ فتتمر له لأنه ليس منها ؛ فيعمل على أن يستعيض عنها بعالم متوسط بين السماء والأرض فلا يجده يعد شدة الإحفاء في طلبه .

فإذا بقي على ما هو عليه ، وسيبقى عليه ما دام لم يجد ما يصدده عنه من مثل أعلى يرتكن إليه ، فسينتهي أمره بالتلاشى لا محالة بالعلل التي أصابته بها ميوله المادية ، وهو ما هو فيه اليوم من الحروب المجتاحة التي يشنها على مزاحميه في الخارج ، والخلافات المذهبية التي تأتي على استقراره في الداخل . فان لم يتداركه مبدعه رحمة منه بآية تعيده إلى رشده ، وتقفه عند حده ، فمصيره كما تنبأ به هو نفسه الفناء ولا كرامة ! ولمكن الذين أوتوا العلم يقولون إنه سيخرج نماذج نفسه فيه إلى حياة إنسانية طيبة ، وسلام دائم ، وقد بدت تبشير هذه الرحمة الإلهية كما سنبينه في العدد القادم ، إن شاء الله ؟

محمد فرير وجري

(١) الآفن بفتح الفاء : ضعف الرأى .

السنة التشريعية :

خضاب الشيب

لفضيلة الاستاذ الجليل للشيخ فكري ياسين

أخرج أبو داود وابن ماجه عن ابن عباس قال : مرّ على النبي صلى الله عليه وسلم رجل قد خَضِبَ بالحناء ، فقال : « ما أحسن هذا ، ! فمرّ آخر قد خَضِبَ بالحناء والكتّم ، فقال : « هذا أحسن من هذا ، . فمرّ آخر وقد خَضِبَ بالصّفرة ، فقال : « هذا أحسن من هذا كله ، !

شُغِلَ الناس بأمر الشيب من قديم الزمان ، وأكثروا من القول فيه ، والحديث عنه ، فكاتبوا فيه الفصول ، ونظموا القصائد ، ووضعوا المصنفات ، وتناولوه بالدراسة والتحليل من جميع الجوانب والنواحي .

والناس في أمر المشيب صنفان : صنف يبغضه ، وينفر منه ، ويعتبره داهية فاجعة ، ونكبة نازلة ، وطالع شؤم ، ونذير فناء ، ويعده قذى في العين ، وأذى في المنظر ، فيحاول جاهدا أن يخفيه عن الناس ، ويستتره عن العيون ، ويغيّره بشتّى أنواع الأصباغ والأدهان ، حتى يبدو لمن لا يعرف الحقيقة بشعره الملوّن ، المخضوب شابا فتيا ، وجلدا قويا ، وحتى يضم إلى هذا في زعمه حسن الصورة ، وبهاء الطلعة .

وصنف يرحب بالشعر الأبيض ، ويتمناه ، بل وقد يعمل على استعجاله ومبادرته إليه طلبا للأغراض الدنيوية المختلفة ، فقد رأينا بعض الناس يخضبون لحامهم بالصّفرة ، ويبيضونها بالكبريت وغيره تشبها بالصالحين ، وإظهارا

للزهادة ، واستعجالا للشيخوخة ، لأجل الرياسة والتعظيم ، وإيهام الناس أنهم من كبار الشيوخ .

وقد ورد في الشيب أحاديث كثيرة تفيد مدحه وفضله ، فروى أحمد وأبو داود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مسلم يشيب شيبة في الإسلام إلا كتب الله له بها حسنة ، ورفع به درجة ، وحط عنه بها خطيئة » . وروى غيرهما أنه قال « من شاب شيبة في الإسلام كانت له نورا يوم القيامة » . وذلك لأن الشيب يقارنه في الغالب حالة من التعقل والانزان ، والشعور بالمسؤولية ، وحسن التقدير للعواقب ، فتكون هذه الحالة سببا في أن يعمل صاحبه على فعل ما ينفعه ، وترك ما يضره : من الابتعاد عن المعاصي ، والإقبال على الطاعات ، والتقرب إلى الله ، والإخلاص في مرضاته ، فيجزيه الله على ذلك بزيادة حسناته ، ورفع درجاته ، ومحو خطيئاته ، وجعل أعماله الصالحة هداية له ، ونورا في الدار الآخرة

والحديث الذي معنا يدل على استعمال الخضاب بالحناء وحده ، وعلى أن انضمام السكتم إليه أحسن من انفراده ، وعلى أن الاختضاب بالصفرة أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحسن في عينه من الحناء منفردا ، ومنه مع السكتم .

خَضَبٌ : من خَضَبَ به يخضبه : لونه بالحناء ونحوه ، يقال : كف خضيب ، وبنان مخضوب وخضيب ومخضب ، والخضاب : ما يخضب به .

والسكتم : نبت يخلط بالحناء ، ويخضب به الشعر ، وهو النبت المعروف بالوسمة . وفي كتب الطب أنه نبت من نبات الجبال ، ورقه كورق الآس ، يخضب به مدقوقا ، وهو يخرج الصبغ أسود مائلا إلى الحمرة ، والحناء يخرج الصبغ أحمر ، فالصبغ بهما معا ، يجعل اللون بين السواد والحمرة .

والصفرة : هي أثر ما يصبغ به مما يتولد عنه اللون الأصفر مثل الورس والزعفران . روى أن ابن عمر كان يصبغ لحيتته بالصفرة حتى تملأ ثيابه ، فقيل

له في ذلك ، فقال : إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصبغ بها ، ولم يكن شيء أحب إليه منها ، كان يصبغ بها ثيابه حتى عمامته .

السلام في موضوع خضاب الشيب ، وتغيير لونه يقع في مقامين : المقام الأول في مشروعية الخضاب ، والمقام الثاني فيما يختص به .

فأما الخضاب ، فقد رُويت بشأنه أحاديث تفيد مشروعيته ، كالحديث الذي معنا ، فإنه صلى الله عليه وسلم لا يستحسن إلا ما كان مشروعاً ، وكقوله : « إن اليهود والنصارى لا يصبغون بخالفوهم » ، وكرواية أحمد : أن أبا بكر جاء بأبيه أبي قحافة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة يحمله ، ووضع بين يديه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : لو أقررت الشيخ في بيته لا تذاه - تكرمه لأبي بكر - فأسلم ولحيته ورأسه كالشَّعْأَةِ ^(١) بياضاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : غَيَّرُوهُمَا ، وَجَنَّبُوهُ السَّوَادَ ؛ فَذَهَبُوا بِهِ ، فغمروه . وكرواية أم سلمة أنها أخرجت من شعر النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو مخضوب بالحناء والسكتم . وكرواية ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصفر لحيته بالورس والزعفران .

ومن اختضب من الصحابة والتابعين وغيرهم أبو بكر وعمر وعثمان وعليٌّ وأبو هريرة والمغيرة وابن عمر والحسن والحسين ، وجرير البجلي ، وعطاء ، وأبو وائل ، وطاوس ، وسعيد بن المسيب . ورأى أحمد بن حنبل رجلاً قد خضب لحيته فقال : إني لأرى رجلاً يحيي ميتاً من السنة ، وفروح به .

ولكن إلى جانب هذا رويت أحاديث وآثار تفيد كراهة الاختضاب ، والنهي عن تغيير الشيب ، مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « من شاب شيبة فهي له نور إلى أن ينتفها أو يخضبها » ، وحديث ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكره خصالاً ، وذكر منها تغيير الشيب ، وحديث أنس قال : « ما خضب

(١) ثَمَاءٌ بَاءٌ مَثْلَةٌ مَفْتُوحَةٌ ، ثُمَّ غَيْنٌ مَعْجَمَةٌ مَخْفُفَةٌ : نَبَتٌ أَيْضُ الزَّهْرِ وَالثَّر ، يُشَبَّهِ بِهِ بَيَاضُ الشَّيْبِ ، وَقِيلَ هُوَ شَجَرٌ مَبْيَضٌ كَأَنَّهُ الثَّلْجُ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأنه لم يبلغ منه الشيب إلا قليلا ، ولو شئت أن أعد شملطاً (١) كن في رأسه لفعلت .

ونقل عن جماعة من السلف أنهم لم يختضبوا ، مثل أنس ، وأبي بن كعب ، وسلمة بن الأكوع ، وغيرهم .

ومن مجموع هذا نرى أننا أمام آثار متضادة في الظاهر ، ولا دليل لمن ادعى النسخ فيها ، فتعين الجمع بينها ، وقد جمعوا بأن ذلك قد اختلف عندهم بحسب اختلاف الظروف والأحوال ، فمن صبغ منهم كان اللائق به الصبغ لاستبشاع شيبه ؛ ومن ترك كان اللائق به الترك لعدم الاستبشاع ؛ فمن كان في مثل حال أبي قحافة استحب له الخضاب ، لأنه لا يحصل به الغرور لأحد ، ومن كان بخلافه لا يستحب له . قال الطبري : الصواب أن الأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم بتغيير الشيب ، وبالنهي عنه ، كلها صحيحة ، وليس فيها تناقض ، بل الأمر بالتغيير لمن شيبه كشيب أبي قحافة ، والنهي لمن له شملط فقط ، واختلاف السلف في فعل الأمرين بحسب اختلاف أحوالهم في ذلك ، مع أن الأمر والنهي في ذلك ليس للوجوب بالإجماع ، ولهذا لم ينكر بعضهم على بعض خلافه في ذلك .

وأما ما يختضب به ، فالجمهور على مشروعية الخضاب بالحرمة والصفرة ، أما السواد ، فمن العلماء من رخص فيه في الجهاد فقط ، ومنهم من مال إلى أن الأولى كراهته كراهة تنزيه ، ومنهم من جنع إلى أنها للتحريم ، ومنهم من فرق في ذلك بين الرجل والمرأة ، فأجازه لها دون الرجل .

وقد رخص فيه مطلقاً ، واختضب به جمهور من السلف ، منهم عثمان بن عفان ، وسعد بن أبي وقاص ، وعقبة بن عامر ، والحسن والحسين ، وجريز وعروة ابن الزبير ، وابن سيرين ، وغيرهم . وعن عمر بن الخطاب أنه كان يأمر بالخضاب

(١) الشملط : الشعر الذي يظهر فيمن البياض ، والشملط : بياض شعر الرأس يخالطه سواده ، وقيل : هو في الرجل شيب اللحية .

بالسواد ، ويقول : هو تسكين للزوجة وأهيب للعدو . وكان غنيسة بن سعيد يقول : إنما شعرك بمنزلة ثوبك ، فاصبغه بأى لون شئت ، وأحببه إلينا أحللكه . وقد اختار هذا الرأى جماعة من أهل العلم ، وأجابوا عن حديث ابن عباس القائل : « يكون قوم يخضبون بالسواد ، لا يجدون ريح الجنة » - بأنه لا دلالة فيه على كراهية الخضاب بالسواد ، بل فيه الإخبار عن قوم هذه صفتهم ؛ وعن حديث جابر القائل فى شأن أبى قحافة : « وجنبوه السواد » - بأن ذلك فى حق من صار شيب رأسه مستبشعا ، وهذا لا يطرد فى حق كل أحد ؛ وعن حديث أبى الدرداء القائل : « من خضب بالسواد سود الله وجهه يوم القيامة » - بأن منده لين .

وذكر ابن الكلبي أن أول من اختضب بالسواد من العرب عبد المطلب ابن هاشم ، وقال البدر العيني فى كتابه « عمدة القارى » : وأما أول من صبغ لحيته بالسواد - يعنى من الناس مطلقا - ففرعون موسى . وهذا كله فى بيان حكم تغيير لون الشعر فى الرأس واللحية بالخضاب ، فأما خضاب اليدين أو الرجلين ، أو الأظافر ، بالحناء ، أو بمادة أخرى ، كما يفعل بعض الشبان والعمامة ، فإن هذا لا يشرع للرجال إلا فى حالة التطيب والتداوى .

الاستئذان

استأذن رجل من بنى عامر على النبي صلى الله عليه وسلم وهو فى بيته ، فقال : ألع ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه : اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان وقل له : يقول : السلام عليكم أأدخل ؟ وقال جابر بن عبد الله : استأذنت على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : من أنت ؟ فقلت : أنا ، قال : أنا أنا !!

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : الاستئذان ثلاثة ، فإن أذن لك وإلا فارجع . وقال على بن أبى طالب : الأولى إذن ، والثانية مؤامرة ، والثالثة عزيمة ؛ إما أن يأذنوا وإما أن يردوا .

بين الشريعة والقانون :

نظرات في توثيق المعاملة

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبيكي
المفتش بالأزهر

مر بنا أن الجمهور يحملون على النذب ما ورد في آية الدين من الأمر بالتوثيق ، وكل ما ارتكزوا عليه أن قوله تعالى : « فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته » إما ناسخ للوجوب المستفاد من صدر الآية ، وإما لبيان أن الأمر للنذب قصداً أولاً .

وقد ناقشت رأيهم في تفصيل مسهب ، ووعدت بإجمال ما سلف في حديث اليوم ، وقد بان للقارىء من سالف الحديث أن قوله تعالى : « فإن أمن بعضكم الخ » ليس واضحاً في نسخ الوجوب ولا في توجيهه الأمر بالكتابة الى النذب ، ولا مقروناً بشيء يؤدي الى ما ذكر ، وأن احتماله لشيء من هذين لا يعدو أن يكون احتمالاً مرجوحاً ، وإذا كان كذلك فالظاهر الأقوى أن يحمل على وجه من وجوه أخرى - أحدها : إذا لم يمكن التوثيق وتحكمت الضرورة فلا مانع من التعويل على الأمانة ، وهذا ما أخذ به ابن جرير والضحاك . الوجه الثاني : أن يحمل الكلام منوطاً بالرهن وحده لشدة الحاجة فيه إلى رعاية الأمانة من جانب الدائن والمدين كما تخيرت أولاً ، أو يحمل الكلام منوطاً بالكتابة والرهن معا كما سوغتُ ثانياً ، أو بهما وبسواهما من كل تعاقد وتوثيق كما توسعت ثالثاً .

وعلى أى احتمال مما قدرته يكون الوجوب المستفاد من الأمر بالكتابة أو ما يقوم مقامها في التوثيق واضحاً مسلماً ، لا مانع منه ، ولا إشكال فيه ،

ولا وجه للعدول عنه ، وذلك أوفق لمقاصد الشريعة ، وأليق بنظم الكتاب وسياقه ، وأبعد عن التكلف في فهم الخطاب بالامر ، وحمله على غير محمله الأصلي عند جمهرة الأصوليين من غير مقتضى لذلك . فإن جنحوا إلى قول أبي سعيد الخدري بالنسخ واجهناهم بإنكار ابن عباس للنسخ وتأكيده أن الآية محكمة ، وعلى هذا عطاء وجابر والنخعي والشعبي ، وابن جرير من كبار المفسرين ، والأصل عدم النسخ ، والنسخ القرآني يألف مع ذلك أكثر مما يألف مع ما ذهب إليه الآخرون .

وإزاء هذه التوجيهات لا ينفع القائلين بالنذب على كثرتهم أن يتعللوا بأن الصحابة والتابعين لم يلزموا الاستيثاق ، فعاذ الله أن يرى الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤثق المتعاملين من نفسه بالكتابة ، والرهن ، ويوثق غيره بضمانه ؛ ثم يعدلوا عن ذلك في معاملاتهم بعد ، ولو كان للمعاملة أيامهم ما لها اليوم من السعة وخطورة الشأن لتضافرت إلينا وقائعهم المثبتة للتوثيق كما علمهم أمامهم القدوة صلى الله عليه وسلم ، وكما ثبت عن ابن عمر رضی الله عنهما .

وهل كانوا يجيزون إهمال التوثيق فيما لو جرى بينهم ما يجري بيننا الآن من ضيعات وعمارات تباع مناجزة أو نساء ، ومن صفقات ضخمة من البضائع تجتاز بجرأ إلى بحر ، وتمر من قطر إلى قطر ، أو من محاصيل زراعية يستولى عليها التاجر نسيئة ثم لا يفي إلا بعد تصريفها وقبض ثمنها ، ومن قروض باهظة تسديها حكومة أو هيئة إلى مثلها ؟

أليس إهمال التوثيق في هاتيك الحالات إذا لم نقل بوجوبه إلا مشأمة لا تطاق ومجكبة لشر مستطير ؟

إن القول بالنذب مع بعده عن ظاهر الآية لبعيد عن التبصر في شؤون الحياة الجارية بين الناس ، ولقد ذهب الحنابلة مع الذاهبين إلى القول بالنذب على إطلاقه ، ومع أن الحنابلة غالباً يعتمدون على النصوص ، وأن مذهبهم أقرب المذاهب المشهورة إلى ظاهر الحديث ، لم نجد لهم نصاً من كتاب ولا سنة يعتمدون عليه في الانصراف عن ظاهر الآية والسنة المثبتة لوجوب الاستيثاق ، وأكثر من ذلك أن ما ذكره ابن قدامة من تعليل للنذب أوفق لتعليل

الوجوب وأكثر ملاءمة له إذ يقول (ص ٣١١ ج ٤ مغني) ولأنه — أى التوثيق — أقطع للنزاع وأبعد من التجاحد فكان أولى اه وكذلك يقول الجصاص (ص ٤٨٢ ج ١) لأنه أى الأمر إرشاد وندب إلى ما فيه الحظ والمصلحة والاحتياط للدين والدنيا اه .

وعجيب أن يكون التوثيق عند ابن قدامة أدعى إلى قطع النزاع ومنع التجاحد وأن يكون الأمر عند الجصاص ومن إليه للإرشاد إلى ما فيه الحظ والمصلحة والاحتياط للدين والدنيا، ثم مع ذلك كله يعتبر التوثيق مندوبا فقط عند شيخنا هؤلاء !

فإذا كان تعليلهم بهذه القوة ثم لم يقتض الوجب فتى يقتضيه ؟ ؟

وإن ألفاظهم التي حكيناها عنهم لتؤلف قياسا منطقيا ينتج ما نقول نحن لا ما يقولون، إذ يقال التوثيق وسيله إلى ترك المحذور من النزاع والتجاحد، وما كان وسيله إلى ترك المحذور وجب الأخذ به، فالتوثيق يجب الأخذ به، أو يقال في التوثيق حظ ومصلحة واحتياط للدين والدنيا، وما كان كذلك يوجب العقل والدين، فالتوثيق يوجب العقل والدين .

ولو افترض مفترض بعد ذلك كله أن اجتهاد السلف أتاح لهم عدم التزام التوثيق، أو تخيل أن النصوص غير قاضية بوجوب التوثيق صراحة لوجب أن يقتضيه القياس استحسانا عند أولى العلم في عصرنا هذا، لأن ذم الناس اليوم على غير ما كانت من قبل، ولأن شئون التعامل قد أخذت وصفا في الحياة الاجتماعية لا يسمح بالارتكان إلى حسن الظن بالناس وإغفال التوثيق .

ذلك هو التطبيق الحق للنظم الإسلامية التي شرعت لمسيرة الحياة في أزمانها وأطوارها .

ومن قبيل التأكيد لما قررت، أسوق بعض كلمات لمن سلف ولمن خلف :
فن كلام ابن جرير الطبري في رده على القول بنسخ الوجوب للكتابة : لو وجب أن يكون قوله « وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كتابا فرهان مقبوضة » الخ ناسخا لقوله « إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » لوجب أن يكون قوله

« وإن كنتم مرضى أو على سفر - إلى أن قال - فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا ، ناسخا للوضوء بالماء في الحضر والسفر . هـ .

يرى ابن جرير أن الكتابة هي الواجب ابتداء ، وأن الرهن بدل عنها عند الضرورة ، فليس لقائل أن يرى أن تشريع الرهن ناسخ لوجوب الكتابة ، وإلا لوجب أن يكون التيمم وهو مرخص به حين الضرورة ناسخا للوضوء في الحضر والسفر ، ولم يقل قائل بذلك ، فكذا ذلك مانحن فيه من شأن الكتابة .

ومن كلام المرحوم الشيخ محمد عبده في رده على قولهم إن إيجاب الاستيثاق حرج والخرج مدفوع « إن هذا الضيق والخرج في بادية الرأي هو عين السهولة والسعة واليسر في حقيقة الأمر ، فإن التعامل الذي لا يكتب ولا يستشهد عليه يترتب عليه مفسدات كثيرة ، منها ما يكون عن عمد إذا كان أحد المتدائنين ضعيف الأمانة فيدعي بعد طول الأمد خلاف الواقع . ومنها ما يكون عن خطأ ونسيان ، فإذا ارتاب المتعاملان واختلفا ولا شيء يرجع إليه في إزالة الريبة ورفع الخلاف من كتابة أو شهود أساء كل منهما الظن بالآخر ، ولم يسهل عليه الرجوع عن اعتقاده إلى قول خصمه فالج في خصامه وعدائه ، وكان وراء ذلك من شرور المنازعات ما يرهقهما عسرا ويرميهما بأشد الحرج ، وربما ارتكبا في ذلك محارم كثيرة ، فها كل ما يتكرر يكون حرجا ، هـ .

يريد الأستاذ الشيخ عبده أنه لا حرج في كتابة الدين كما لا حرج في تكرار الوضوء على نحو ما مثل . . ثم قال :

« هبوا أن هذه الأوامر المؤكدة للنذب فهل ينبغي أن يترك المسلمون جملة ما ندب إليه كتاب الله بحجة أن فيه حرجا أو بغير ذلك من الحجج حتى صار من نراه من المسلمين يعنى بكتابة ديونه ؟ فإنما يفعل ذلك لضعف ثقته بمدينه لا عملا بهداية دينه . ألا إن الحرج في هذا كالحرج في تحريم جميع أنواع الشرك والمعاصي ، فكما لا يجوز أن تكون مشركا بنوع ما من أنواع الشرك لا يجوز أن تفرط في شيء من الحق ؛ والحق الذي لا مراة فيه أنه لا شيء من الحرج في الكتابة ، فإن البلد يكفيه كاتب واحد للديون المؤجلة ، وقد رخص الله لنا في ترك كتابة التجارة

الحاضرة .. ثم قال : « والحاصل أن ظاهر الآية وأسلوبها وطريقة تأديتها تدل على أن الأمر فيها للوجوب وإن كان الجمهور على خلافه ، ا هـ .

وقد علق الشيخ رشيد رضا رحمه الله على الحرج المذكور في هذا المقام بكلام طيب مسبوق الى بعضه من شيوخننا القدامى ، فقال : « ليس المراد بالحرج والعسر المنفيين بالنص - يشير الى قوله تعالى « وما جعل عليكم في الدين من حرج » وقوله « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » - أنه لا مشقة ولا كلفة في شيء من التكاليف الشرعية ؛ بل المراد أنه لا شيء منها للأعنات وتجشم المشاق والإيقاع في العسر والحرج ؛ وإنما لكل حكم منها فائدة أو فوائد ترفع الحرج والعسر ويصلح بها أمر الناس في أنفسهم وفي شئونهم الاجتماعية ، فهي كسائر الأعمال التي عرف الناس فوائدها بالضرورة أو الاختيار والاستدلال ، فهم يعملونها وإن كان فيها مشقة ما ، طلبا لفوائدها التي هي أرجح وأجدر بالإيثار ، ثم إن وراء هذه المصلحة الخاصة في كتابة الدين مصلحة عامة وهي جعل المسلمين أمة كتاب ونظام ، والإسلام بدأ بالعرب وهي أمة أمية ، وقد امتن الله عليها بالرسول الذي علمها الكتاب والحكمة ، ففرض كتابة الدين عليهم هو من وسائل إخراجهم من الأمية ، ا هـ .

وعلى وجه الإجمال فذلك كلام سديد يعزز قولي بوجوب التوثيق على ما تقدم إيضاحه .

وهذه مرحلة من البحث في حكم التوثيق على ما أسلفت ، وخليق بنا أن نعرض بعدها لبيان القدر الذي يتعلق به ذلك الحكم ، وموعدهنا بذلك العدد القادم إن شاء الله .

الضحك

مر الحسن البصري بقوم يضحكون في شهر رمضان ، فقال : يا قوم إن الله جعل رمضان مضمارا لخلقه يتسابقون فيه الى رحمة ، فسق أقوام ففازوا ، وتخلف أقوام فخابوا ؛ فاعجب من الضاحك اللاهي في اليوم الذي فاز فيه السابِقون ، وخاب فيه المتخلفون . أما والله لو كشف الغطاء لشغل محسنا إحسانه ، ومسيثا إساءته .

قرآنية البسملة

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ الطيب حسن النجار
المدرس بكلية أصول الدين

اختلاف الأئمة في شأن البسملة أوائل السور أهي قرآن أو ليست قرآنا مع إجماعهم على أن ما تواترت قرآنيته فهو قرآن ، وما لم تتواتر قرآنيته فليس بقرآن — يعتبر بحق من مشكلات المسائل ومعضلاتها .

حقا إنه ليتبادر إلى الذهن ، ويتسارع إلى الفهم أن مثل هذا الإجماع يسد الثلمة ويحوص الفتق ، ولا يجعل منفذاً لخلاف ينفذ منه ، ولا بابا يفتح منه ، لأن البسملة أوائل السور إن كانت قد تواترت قرآنيته فهي قرآن قطعا ، ولا يستسغ أحد لنفسه أن يخالف ذلك ، وينازع فيه ؛ لأن مخالفة ذلك مروق من الدين وضلال مبين ، وإن لم تكن قد تواترت قرآنيته فليس بقرآن قطعا ، ومن يخالف ذلك يكون مبتدعا ما ليس من الدين وخارجا عليه .

وإذن لا محل لأن يكون ذلك موضوع اجتهاد واستنباط ، وأن يكون للرأى فيه مجال حتى يكون هناك جدل وخلاف في أمر البسملة . ولكننا نجد الخلاف قائما على قدم وساق بين من يعتد بخلافهم من الأئمة الذين كرسوا حياتهم على البحث والتنقيب ، والسعى الحثيث وراء تمحيص المسائل وتنقيتها من أدران الشبه وحواجز الاشواك ، وقد ضربوا أكباد الإبل حتى أنهمكوها وأنهمكوا ، ومشوا في مناكب الارض طولا وعرضا ، وجابوا السهل منها والحزن ، والآمن منها والوعر ابتغاء العثور على درة من درر العلم وذخيرة من ذخائرها بين كنوز العلماء في الآفاق ؛ فيلتقطونها تشييدا لصروح المسائل ، وإقامة لها على أمتن الدعام وأقوى الأركان ، وإزالة لما عسى أن يكون من شبه وغواش تسد عليهم المسالك ، وتغلق أمامهم باب البحث السليم ، والهداية إلى أقوم طريق ، غير مبالين في كل ذلك

بما يلحقهم من إعنات وإرهاق ، وركوبهم المخاوف والمخاطر؛ بل يجدون سعادتهم في الحصول على ضالتهم المنشودة ، وغايتهم المرجوة ، وأملهم الباسم من النهوض بأمهم إلى التعاليم الرشيدة؛ ليقطفوا منها ما يمكن لهم في الأرض ويبسط نفوذهم، ويجعلهم في منعة وأمن من تلاعب الأهواء . . .

اختلف هؤلاء الأئمة الاعلام في شأن البسملة أوائل السور : فمن قائل إنها آية فذة أنزلت للفصل بين السور والتبرك بها ، ومن قائل إنها آية من سورة الفاتحة وغيرها للفصل ، ومن قائل إنها آية من كل سورة صدرت بها فتكون في القرآن الكريم ثلاث عشرة آية ومائة ، ومن قائل إنها في غير سورة النمل ليست قرآنا فلا تكون آية ولا بعض آية من السور التي صدرت بها .

ومن الخير أن نضيق دائرة البحث ونجعله واقفا عند الرأيين المتقابلين : إثبات القرآنية ونفيها ؛ لأن ذلك هو الجدير بالبحث والمعالجة في هـ.دوء وتريث وعدم التحامل ، كي يتيسر السبيل وينكشف الغامض ، وتزول غشاوات الشبهات التي تكتنف هذا الموضوع وتحيط بجبهاته .

نرى القائلين بالقرآنية والنافين لها متفقين على أن معيار القرآنية التواتر ، وأنه لا بد منه في ثبوت ما هو من القرآن ؛ وما نقل أحادا ولم يتواتر يقطع بعدم قرآنيته ، وأن قرآنيته تواترت بعض آية في سورة النمل ، .

ونراهم مختلفين في تحديد معنى شرطية التواتر ؛ فالإمام مالك والأوزاعي وغيرهما يرون أن التواتر شرط في ثبوت ما هو من القرآن في أصله ومحلّه وضعا وترتبا ؛ لأن القرآن الذي هو أصل الدين وهداية العالمين ، والمرشد إلى سواء السبيل ، والمعجز بأقصر سورة منه ، مما تتوافر الدواعي على نقله متواترا في جملة وتفصيله .

والشافعية وكثير من الأصوليين يرون التواتر فيه بحسب الأصل في إثبات القرآنية ، وليس بشرط في محله ووضعه وترتيبه ، بل يكفي في ذلك نقل الآحاد . ومن هنا اختلفت وجهة نظر العلماء في شأن البسملة .

فمن اشترطوا تواتر القرآنية في المحل قالوا : إن البسملة في أوائل السور ليست قرآنا ؛ لأنها لم تتواتر في أوائل السور إلا كتابة في المصحف وقراءة على الألسن

في تلك المحال ، ولم يتواتر فيها أنها قرآن . والذين لم يشترطوا التواتر في المحل قالوا : إن البسملة في أوائل السور قرآن لأنها تواترت بحسب الأصل ، وتواتر نقلها كتابة في المصحف وقراءة على الألسن في تلك المحال وذلك كاف .

وبهذا ظهر أن الخلاف في شأن البسملة مبني على الخلاف في تحديد معنى شرطية التواتر ؛ فلم يكن ذلك منافياً لإجماعهم على أن ما تواترت قرآنيته فهو قرآن ، وما لم تتواتر قرآنيته فليس بقرآن ، ولذلك لم يرم واحد منهم الآخر بما يشينه أو يحط من منزلته وقدرها ، وكان باب الخلاف مفتوحاً على مصراعيه ، وكان للاجتهاد مجال فسيح لما يترتب على ذلك من أحكام شرعية اجتهادية ؛ كوجوب قراءتها في الصلاة أو عدم الوجوب ، وكعدم جواز قراءتها للجنب أو جوازها ، وكعدم جواز مسها للمحدث أو جوازها .

وإذا ما انتهينا من هذه المشكلة فإنه تواجهنا مشكلة أخرى وهي تعارض الأحاديث الكثيرة في هذا الشأن ، وكانت مأخذاً لكل فريق وسنداً له على دعواه . فهؤلاء الأئمة : عبد الله بن المبارك والثوري والإمام الشافعي وغيرهم ممن يرون قرآنيته يعتمدون على ما روى عن أم سلمة أنها قالت : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتحة الكتاب فعد بسم الله الرحمن الرحيم آية - الحديث . وما روى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « فاتحة الكتاب سبع آيات أولاهن بسم الله الرحمن الرحيم ، وما روى عن جابر عن عبد الله « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له كيف تقول إذا قمت إلى الصلاة ؟ قال : أقول الحمد لله رب العالمين . قال : قل بسم الله الرحمن الرحيم ، وما روى عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا قرأتم أم القرآن فلا تدعوا بسم الله الرحمن الرحيم فإنها إحدى آياتها » . وما روى « أن معاوية قدم المدينة فصلى بالناس صلاة يجهر بها فقرأ أم القرآن ولم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، فلما قضى صلاته ناداه المهاجرون والانصار أنسيت ؟ أين بسم الله الرحمن الرحيم حين استفتحت القرآن ؟ فأعاد معاوية الصلاة وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم » . وغير ذلك كثير .

فهذه النصوص كلها صريحة في أن البسملة قرآن ، وأنها آية من الفاتحة ،

وإذ ثبت أنها آية من الفاتحة ؛ فيثبت أنها آية من كل سورة ، إذ لا فرق بين سورة وسورة .

وقرّاء المدينة والبصرة والإمام مالك على أنها ليست آية من الفاتحة ، ولا من غيرها ، ويستندون في ذلك الى نصوص ؛ منها ما روى عن أبي هريرة وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين يقول الله تعالى حمدي عبدي ، وإذا قال الرحمن الرحيم يقول الله تعالى أثنى على عبدي ، وإذا قال مالك يوم الدين يقول الله تعالى مجدني عبدي ، وإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين يقول الله تعالى هذا بيني وبين عبدي . » ووجه الاستدلال أنه عليه السلام لم يذكر التسمية ، ولو كانت آية من الفاتحة لذكرها ، ولأن هذا التنصيف إنما يحصل إذا قلنا إن التسمية ليست آية من الفاتحة ؛ لأنها سبع آيات ، وإذا جعلت بسم الله الرحمن الرحيم آية حصل لله أربع آيات ونصف آية وللعبدين آيتان ونصف وهذا مبطل للتنصيف . ومنها ما روى عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم « كان يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين ، وهذا يدل على أن البسملة ليست من الفاتحة . » وروى عن أنس أنه قال : صليت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلف أبي بكر وعمر وعثمان ، فكانوا يستفتحون الصلاة بالحمد لله رب العالمين .

فأنت ترى هذه الأحاديث التي اعتمد عليها الفريقان كيف يعارض بعضها بعضا ، وأنه لا سبيل الى الخروج من هذا المأزق إلا بالترجيح أو العدول عنها الى غيرها في الاستدلال .

وإذا ما ألقينا نظرة فاحصة على ما استند اليه الفريقان ؛ فإننا نجد ما اعتمد عليه الفريق الأول خليقا بالقبول ؛ لأنها بلغت في الكثرة مبلغا يجعلها تعطى التواتر المعنوي بكون البسملة قرآنا منزلا في أوائل السور ؛ وذلك بتعصيد بعضها بعضا .

أما ما ركن إليه الفريق الثاني ، وألقى إليه مقاليد من حديث « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي ، الحديث ، فإن رواية أبي هريرة « وإذا قال العبد مالك

يوم الدين يقول الله تعالى مجدني عبدي وهو بيني وبين عبدي ، فإنها تفيد أن البسملة قرآن ؛ لأن قوله في مالك يوم الدين هذا بيني وبين عبدي - أى في القسمة - إنما يكون كذلك إذا حصلت ثلاثة قبلها وثلاثة بعدها ، ويحصل ثلاثة قبلها لو كانت التسمية آية من الفاتحة . على أن لفظ النصف كما يحتمل التصنيف في عدد الآيات ، فهو أيضا يحتمل التصفيف في المعنى . والدليل متى طرقه الاحتمال سقط به الاستدلال . وما روى عن عائشة رضى الله عنها من أنه عليه الصلاة والسلام كان يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين ؛ فيحمل على أنها جعلت الحمد لله رب العالمين اسما للسورة ، والمراد أنه قرأ هذه السورة ، أو لعل الرسول صلوات الله عليه كان يسر بالبسملة فلم تسمعها . وبهذا أيضا يقال في جانب ما روى عن أنس .

فأنت ترى بعد هذا أنه قد اتضح الأمر واستبان ، وانقضت الشبهة ، وزال التعارض بين الأحاديث ، وأخذت كلها سبيلا واحدا لا ترى فيه عوجا ولا أمنا .

هذا وإن كتابة البسملة بخط السور في مصاحف الصحابة رضوان الله عليهم مع منعهم أن يكتب فيها ما ليس من القرآن ، يذهب بكل شبهة ويقتلعها من جذورها ، ولا يدع عندك شكاً في أنها قرآن .

وكيف يستجيز أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم لأنفسهم إثباتها بخط السور في مصاحفهم ، وهي لم تكن قرآناً بدون تمييز لها ولو بالمداد أو القلم ، مما يؤدي إلى التلبس والتغريب بالمسلمين ، وحملهم على اعتقاد ما ليس بقرآن قرآناً .

ثم وكيف لم يثبتوها بين الانفصال وبرائة إذا كانت للفصل بين السور ؟

ثم وكيف يجمعون على أن ما بين دفتي المصحف كلام الله ؟

على أن للشافعية أن يمنعوا دعوى عدم تواترها في الحل ، فرب متواتر عند قوم دون آخرين ، وفي وقت دون آخر ، ولا أدل على ذلك من الإجماع على أن ما بين الدفتين كلام الله ، والوافق التام على إثباتها في المصاحف .

ولم هنا قد استقام الطريق ، وأزيلت الحواجز الشائكة ، وتبددت الشبهات ، وانبجح نور الحق ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

الركن الشرعي للجريمة

في الشريعة الإسلامية وفي القوانين الوضعية

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد محمد إبراهيم

قاضى محكمة سمالوط

سريان القانون على المسكان :

ويمكن القول بصفة عامة إن القانون الجنائي إقليمي من وجهة نظر الشريعة ، فهو يسرى على كل المقيمين على أرض الدولة الإسلامية بصرف النظر عن اختلاف أديانهم ^(١) كما أنه شخصي من وجهة نظر جمهور الفقهاء ، فقد ذهب الشافعي ومالك وأحمد إلى أن المسلم يلتزم أحكام الإسلام ، حيثما كان ؛ فإذا ارتكب ما يوجب الحد أو التعزير ؛ كأن سرق أو شرب خمر أو زنى أو أكل لحم خنزير ، فإنه يقام عليه الحد متى عاد إلى دار الإسلام ، سواء وقع منه ذلك في دار حرب ، أو دار بغى ؛ ويستندون في ذلك إلى عموم الآيات والأخبار . ولأن كل موضع تجب فيه العبادات في أوقاتها ، تجب فيه الحدود عند وجود أسبابها . ثم إن الذى ارتكب الجريمة : زان أو سارق أو شارب خمر أو آكل لحم خنزير ، ولا شبهة في فعله حتى يمكن القول بسقوط الحد أو التعزير عنه ^(٢) .

ومذهب أبي حنيفة أنه إذا زنى المسلم أو قذف أو شرب خمر في دار الحرب أو في دار البغى ، لا يقام عليه الحد ؛ ويستندون في ذلك إلى ما روى من أن النبي

(١) اختلف الفقهاء في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية على غير المسلمين وسنعرض لهذا الموضوع في بحثنا القادم إن شاء الله عند الكلام عن سريان القانون على الأشخاص . نسأل الله المعونة والتوفيق .

(٢) المدونة - ١٦ ص ٩١ . المذهب - ٢ ص ٣٥٨ . المغنى - ١٠ ص ٧١ . الشرح الكبير - ١٠

صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقام الحدود في دار الحرب » . ويضيفون إلى ذلك أن الحدود لم تجب لذاتها، وإنما وجبت للمقصود منها وهو الانزجار والاستيفاء؛ فإن استحالة إمكان استيفاء الحد فلا يجب الحد، فلا يجب الحد لانعدام الفائدة من إجباها ؛ لأن الإمام لا ولاية له على دار الحرب حتى يستطيع أن يستوفي الحدود هناك ، وإذا امتنع الاستيفاء ، امتنع الإيجاب لعدم الفائدة . وإذا لم ينعقد الفعل موجبا للحد ابتداء فلا يتقلب موجبا له بالعودة إلى دار الإسلام ^(١) .

وقد ترتب على هذا الخلاف خلاف آخر فرعى ؛ ذلك أن الفقهاء اختلفوا في حكم المسلمين يخرجون غزاة في سبيل الله فيرتكب أحدهم ما يوجب الحد ؛ فذهب أبو حنيفة إلى أنه إذا غزا الخليفة أو أمير مصر ودخل دار الحرب فله أن يقيم الحد على من زنى في معسكره لأن المعسكر تحت ولايته فيقيم الحد على من زنى منهم كما يقيم في دار الإسلام . ولو زنى واحد منهم خارج المعسكر لا يقيم عليه الحد لعدم ولايته . أما إذا دخلت سرية دار الحرب فزنا رجل منهم لم يحسد ، وكذا أمير المعسكر لا يقيم الحد لأن أمير المعسكر أو السرية مفوض إليهما تدبير الحرب لا إقامة الحدود ^(٢) .

ويرى مالك وأبو ثور وابن المنذر أن الحد يقام في كل موضع ، لأن أمر الله تعالى بإقامته عام مطلق في كل مكان وزمان ^(٣) .

وعند الشافعي الحكم كذلك ، غير أنه يرى أنه إذا لم يكن أمير الجيش الإمام أو أمير إقليم فليس له إقامة الحد حتى يأتي الإمام لأن إقامة الحدود إليه ، ويؤخر كذلك إن كان بالمسلمين حاجة إلى الحدود أو قوة به أو شغل عنه آخر . ويرى أحمد أن الفعل في دار الغزو يقع موجبا للحد ولكن يؤخر الاستيفاء مطلقا حتى العودة . وحجته في ذلك ما روى بسر بن أرطاة أنه أتى برجل في الغزو قد سرق ، فقال : لولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا تقطع الأيدي في الغزاة لقطعتك . كما روى سعيد بإسناده عن الأحوص بن

(١) البدائع ٧ ص ١٣١ - ٨٠ وتبيين الحقائق ٣ ص ١٨٢ . ونلاحظ أنه جاء في هامش تبين الحقائق نقلا عن الكمال أنه قال عن الحديث « لا تقام الحدود في دار الحرب » ، لم يعلم له وجود .
(٢) البدائع ٧ ص ١٣١ و ١٣٢ . (٣) المدونة ١٦ ص ٩١ . الشرح الكبير ١٠ ص ١٥٢ .

حكيم عن أبيه أن عمر كتب إلى الناس : أن لا يجلدن أمير جيش ولا سرية ولا رجلا من المسلمين حدا وهو غاز حتى يقطع الدرب قافلا لئلا تاحقه حمية الشيطان فيلحق بالكفار^(٤) .

ولما كان أبو حنيفة هو الذى قصر إقامة الحدود على الجرائم التى تقع فى دار الإسلام دون تلك التى تحدث فى دار الحرب أو دار البغى ، تعين علينا أن نبين معنى كل دار منها فى مذهبه ، نظرا لما يترتب على اختلاف الدار من حكم .

وعما لا شك فيه أن دار الإسلام هى الدار التى تسودها أحكام الإسلام وللمسلمين فيها السلطان والقهر . ولكن من الجائز أن تتسع رقعة دار الإسلام أو أن تضيق ، فكيف تصبح دار الكفر دار الإسلام ، وكيف تصير دار الإسلام دار كفر ؟ لا خلاف بين أبى حنيفة وصاحبيه فى أن دار الكفر تصبح دار إسلام بظهور أحكام الإسلام فيها ؛ ولكنهم اختلفوا فى كيف تصير دار الإسلام دار كفر ؛ فقال أبو حنيفة إنها لا تصير دار كفر إلا بثلاثة شروط : أحدها : ظهور أحكام الكفر فيها . الثانى : أن تكون متاخمة لدار الكفر . والثالث : أن لا يبقى فيها مسلم ولا ذى آمنة بالآمان الاول وهو أمان المسلمين . وحجة أبى حنيفة أن المقصود من إضافة الدار الى الإسلام والكفر ليس هين الإسلام والكفر ، وإنما المقصود هو الأمان والخوف ، ومعناه أن الأمان إن كان للمسلمين فيها على الإطلاق والخوف للكفرة على الإطلاق فهى دار الإسلام ، وإن كان الأمان فيها للكفرة على الإطلاق والخوف للمسلمين على الإطلاق فهى دار الكفر . والأحكام مبنية على الأمان والخوف لا على الإسلام والكفر ؛ ولذا يجب أن يكون اعتبار الأمان والخوف أولى . فما لم تكن للمسلمين حاجة الى الاستئمان بقى الأمان الثابت فيها على الإطلاق ، فلا تصير دار الكفر . والأمان الثابت على الإطلاق لا يزول إلا بالمتاخمة لدار الحرب ، فتوقف صيرورتها دار الحرب على وجودهما أى المتاخمة وزوال الأمان الاول .

كما أن ظهور أحكام الكفر لا يتم إلا بالمنعة ولا منعة إلا بالمناخسة وزوال الأمان الأول.

وقال أبو يوسف ومحمد إن دار الإسلام تصير دار الكفر بظهور أحكام الكفر فيها بغير حاجة إلى شرط آخر، وحجتهما في ذلك أن قولنا دار الإسلام أو دار الكفر إضافة دار إلى الإسلام أو إلى الكفر، وإنما تضاف الدار إلى الإسلام أو إلى الكفر لظهور الإسلام أو الكفر فيها. كما تسعى اللجنة دار السلام لوجود السلامة فيها، والنار دار البوار لوجود البوار في النار، وظهور الإسلام والكفر، بظهور أحكامهما، فإذا ظهر الكفر في دار فقد صارت دار كفر فصحت الإضافة، ولهذا صارت الدار دار إسلام بظهور أحكام الإسلام من غير شرط آخر، فكذا تصير دار الكفر بظهور أحكام الكفر فيها. (١)

ودار البغي هي الدار التي يكون الأمر فيها للبغاة، والبغاة - كما عرفهم صاحب البدائع - هم الخوارج وهم قوم يرون أن كل ذنب كفر، كبيرة كانت أم صغيرة، يخرجون على إمام أهل العدل ويستحلون القتال والدماء والأموال بهذا السبيل، ولهم منعة وقوة (٢). وقد عرفوا في كتاب تبين الحقائق، بأنهم الخارجون على الإمام الحق بغير الحق (٣).

ومما يتصل بتحديد إقليم الدولة بيان حكم الجرائم التي ترتكب على السفن، ومن رأينا أنه ليس في الشريعة ما يتعارض مع إعطاء الجرائم التي ترتكب على السفن في عرض البحار نفس الحكم المدطى لها في القوانين الوضعية. أي أن السفينة تعتبر جزءاً من الدولة التابعة لها؛ فإذا فرضنا أن جريمة وقعت على سفينة تابعة للدولة الإسلامية، فتعتبر وكأنها وقعت على أرض الدولة الإسلامية، إذا كانت السفينة في البحار العامة أو في المياه الإقليمية للدولة الإسلامية؛ أما إذا كانت السفينة وقت ارتكاب الجريمة في المياه الإقليمية لدولة أخرى فإن الجريمة تعتبر واقعة على أرض الدولة الأخيرة.

(١) البدائع - ٧ ص ١٣ و ١٣١.

(٢) المرجع السابق ص ١٤٠.

(٣) تبين الحقائق - ٣ ص ٢٩٣.

هذه هي الأحكام التى ذكرها فقهاء الشريعة الغرام فى سريان القانون على المكان ، وإذا أردنا مقارنتها بالأحكام الوضعية وجدنا أن أبا حنيفة يأخذ بمبدأ إقليمية القانون دون سواه . فلا شأن له بالجرائم التى تقع خارج دار الإسلام ، ولو كان الجانى مسلماً . وأما الشافعى وأحمد ومالك فيرون — كقاعدة عامة — أن القانون الجنائى يسرى على كل المقيمين على أرض الدولة الإسلامية ، وهم بهذا يأخذون بمبدأ إقليمية القانون الجنائى ، ولكنهم يختلفون عن أبى حنيفة فى أنهم يأخذون أيضاً بمبدأ شخصية القانون الجنائى ، إذ يرون أن المسلم يلتزم أحكام الإسلام حيثما كان ، فإذا وقع منه ما يستوجب الحد أو التعزير أخذ بجريمته متى عاد إلى دار الإسلام . ومما هو جدير بالملاحظة فى هذا الصدد أن عقاب المسلم الذى يرتكب جريمة فى الخارج لا يتم إلا إذا عاد إلى دار الإسلام ، وهذا هو ما تقضى به المادة الثالثة من قانون العقوبات المصرى ، فهى تعلق العقاب على عودة المصرى إلى مصر .

بقيت مسألة أخيرة نرى يبيان حكمها ، وهى : هل يجوز أن تطبق أحكام الإسلام على غير المسلمين الذين يرتكبون خارج دار الإسلام جرائم يرى فيها ولى الأمر اعتداء على المجتمع الإسلامى ؟ إن القواعد التى سبق ذكرها لا تسمح بذلك ، فالجريمة لم تقع فى دار الإسلام ، كما أن مرتكبها غير مسلم . وقد جاء فى تفسير القرطبي « إنه لا خلاف فى إسقاط ما فعله الكافر الحربى حال كفره فى دار الحرب ^(١) . » . ولسكننا مع هذا نرى أنه ليس فى قواعد الشريعة ما يمنع من أن يمتد سلطان المسلمين إلى غير المسلمين الذين يرتكبون جرائم خطيرة تمس نظام الدولة وكيانها ، ولو ارتكبوا جريمتهم خارج دار الإسلام .

وإن الأحكام التى ذكرها الفقهاء فى سريان القانون على السكان كلها أحكام اجتهدية وليس هناك ما يمنع من الخروج عليها فى بعض الأحيان طالما كنا لا نخالف أساساً من أسس الدين . ولم نذهب بعيداً وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعاقب بعض المشركين الذين وقع منهم ما اعتبره اعتداء على الإسلام والمسلمين ، وقد ارتكب هؤلاء المشركون جرائمهم بمكة أثناء هجرته عليه السلام ووجوده بالمدينة ؛ فأهدر عليه الصلاة والسلام دمه رغم أنه لم يكن له سلطان

على مكة في ذلك الحين . وقعت الجريمة في مكة من غير المسلمين فعاقبهم عليه الصلاة والسلام . ومن ذلك ما روى أنه عند فتح مكة عهد عليه الصلاة والسلام إلى أمرائه من المسلمين ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم من قريش ، واستثنى من ذلك نفرأ أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة ، ومن هؤلاء هبار بن الأسود والخويرث بن نفيع بن وهب — وقد نسب إلى هبار أنه عرض لزينب بنت الرسول عليه السلام حين هاجرت من مكة إلى المدينة ، وكانت حاملا ، فنخس بها الجمل حتى سقطت على صخرة فأسقطت جنينها ، ولم تزل مريضة من أثر ذلك حتى ماتت ؛ وقد اشترك الخويرث في هذه الجريمة ، كما أنه ارتكب جريمة مماثلة هي نخسه الجمل الذي يحمل فاطمة وأم كلثوم بنتي النبي عليه الصلاة والسلام فرمى بهما الجمل الأرض . وعن أهدر دمهم أيضا وحشي بن حرب الذي قتل حمزة عم النبي عليه الصلاة والسلام . ومنهم هند بنت عتبة زوج أبي سفيان التي مثلت بقتلي أحد ثم بقرت عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها . وكذلك منهم كعب بن زهير بن أبي سلمى الذي كان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم في شعره . ومنهم عكرمة بن أبي جهل ، والحارث بن هشام شقيق أبي جهل ، وزهير بن أمية المخزومي ، وصفوان بن أمية بن خلف الجمحي ، وقد لقي المسلمون على أيديهم أذى كثيرا .

وبعد أن فتح الرسول عليه الصلاة والسلام مكة عفا عن هؤلاء جميعا ما عدا الخويرث فقد قتله على رضى الله عنه^(١) . وإن عفوهم عليه الصلاة والسلام عنهم لا يقلل شيئا من القاعدة الشرعية التي يمكن استخلاصها من هذه الحوادث ؛ لأنه لا يملك العفو إلا من يملك العقاب ، كما أن العفو لم يحصل إلا بعد أن أهدر الرسول عليه الصلاة والسلام دمهم . وإن ما وقع من الرسول صلى الله عليه وسلم يمكن القياس عليه وإعطاء ولى الأمر حق عقاب غير المسلمين على بعض الجرائم الخطيرة ولو ارتكبوها في غير دار الإسلام ، وليس هناك ما يدعو إلى القول بأن ما حصل في هذه القضايا كان استثناء لا يصح القياس عليه .

وهكذا نجد الشريعة مرنة لينة فيها من الأحكام ما يناسب كل عصر ومكان . ولا عجب في ذلك فهي شرع الله في هذه الدنيا إلى أن يرث الأرض ومن عليها ؟

(١) القضايا الكبرى في الإسلام ص ٤٤ وما بعدها ، وقد وضع هذه القضايا وغيرها وذكر

أن ما قضى به فيها استثناء لا يجوز القياس عليه .

فى علم الكلام ودراسة

للاستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

١ — مدخل لدراسة علم الكلام الإسلامى :

هذا الكتاب ، الذى ظهر هذا العام بباريس باللغة الفرنسية ، ثمرة ناضجة من ثمرات الاتصال بين المسيحيين والمسلمين طلاباً وأساتذة ، وهو كتاب ضخم يقع فى أكثر من ٥٠٠ صفحة ، ويعتبر بحق محاولة جادة لدراسة علم الكلام المقارن ؛ إذ يهدف إلى تنظيم جهود علماء الكلام المسلمين والمسيحيين ، فى سبيل حل مشاكل هذا العلم ، ومقارنة بعضها ببعض . وقد قدمه للقراء فى الغرب مسيو « ماسينيون » ، شيخ المستشرقين والأستاذ بالكويج دى فرانس بباريس وعضو بجمع فؤاد الأول للغة العربية بمصر .

وهذا العمل الكبير تأليف مسيو « لويس جازديه » الفرنسى المتخصص فى الدراسات الإسلامية وبما كتب عن الغزالى وابن سينا ، والأب « قناتى » الأستاذ الدومينكانى المصرى والمعروف جداً فى وسط الأزهر والجامعة العالمى والعضو « بلجنه ابن سينا » بوزارة المعارف والجامعة العربية .

وقد حرص المؤلفان على أن يحددا ، فى مقدمة الكتاب ، الأهداف التى عملا على الوصول إليها وهى ثلاث ، وإن كان جماعها فهم علم الكلام على ما هو عليه الآن :

١ — دراسة علم الكلام الإسلامى من ناحية قيمته الذاتية ، وهذا ما وصلنا إليه بعد الرجوع للراجع المعتبرة باللغة العربية ، وبعد الاتصال بكثير من رجالات هذا العلم فى الأزهر وغير الأزهر ، وفى هذه الناحية حاولنا إنجاح فهم تكون مسائل العلم الكبرى ، ونظرياته السائدة ، ونمو هذه وتلك ، مع مقارنات تاريخية زمنية فى المسيحية والإسلام .

٢ — العناية ببيان ودراسة العلاقات الهامة التي تربط بين علم الكلام (تكوينه ونموه) وبين التاريخ السياسى والدينى والثقافى للإسلام؛ ذلك بأنه إن كان من المهم معرفة تسلسل النظريات والمدارس المختلفة فى هذا العلم، فمن المهم جدا أيضا أن نعرف ما لىكل من هذه النظريات والمدارس؛ من أثر ودلالة فى تاريخ العالم الإسلامى.

٣ — تجلية الثقافة الإسلامية والثقافة المسيحية فى هذا الجانب من وجهة نظر كل منهما، وتوضيح ما يجمع بينهما من نواح مشتركة تدعو للمقارنة الموضوعية حقا، وهذا هو موضوع علم الكلام المقارن بصفة خاصة. بذلك يتعرف كل من علماء الكلام فى المسيحية والإسلام الى الآخر، وهذا ما عمل المؤلفان له فى هذا الكتاب.

ولا يمكن للقارىء إلا أن ينتهج لظهور هذا الكتاب الذى يدرس الإسلام حسب هذه الخطة، دراسة موضوعية لا تحيز فيها، وفى تبحر ومنهج علمى دقيق. ذلك خير مما كان فى الماضى من جدل عقيم، ساهم — بكل أسف — فى العمل على توتر العلاقة بين المثقفين فى المسيحية والإسلام، حتى صار كل اتصال عقلى بينهم مستحيلا أو يكاد.

حقا، ليس من الخير فى شىء للمسيحية أو الإسلام أن يتعصب كل من الجانبين على الآخر، بل الخير كل الخير فى التعاون الوثيق بينهما لمحاربة الإلحاد والملحدين الذين يموج بهم العالم موجا حتى صار شرهم باديا وخطيرا.

إننا نثنى على هذا الكتاب القيم وعلى مؤلفيه الفاضلين، وندعو الأزهر أن يكون من حظه نقلة سريعة للعربية لتعريف دارس علم الكلام عندنا بجهود علماء اللاهوت المسيحيين فى سبيل حل مشاكل هذا العلم؛ هذه المشاكل التى أحسوا بها قبلنا بحكم الزمن، وأخذوا فى علاجها ووضع حلول لها.

٢ — رأى فى دراسة علم الكلام فى الأزهر:

وهنا أرى الفرصة للتقدم برأى فى علم الكلام ودراسته حسب الأوضاع التى نعرفها اليوم بالأزهر.

علم الكلام، كما يقول ابن خلدون، «علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعين المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة». أو بعبارة أخرى، هو علم الغرض منه بيان العقائد الدينية كما ورد بها الكتاب والسنة الصحيحة، والاستدلال لها والدفاع عنها.

ومعنى هذا أن هذا العلم يجب أن يلاحظ فيه أمران :

(أ) القيام على أدلة تتناسب وعقليات من تتوجه إليهم .

(ب) الرد على الفرق المخالفة، ولكن التي لها وجود في الزمن الذي نعيش فيه .

بعد هذا نقول :

إن الأدلة التي كان يحصل بها اقتناع وتسليم فيما مضى من الأزمان، قد لا يحصل بها هذا في الزمن الحاضر بعد تقدم العلم، وبخاصة العلم الطبيعي، الذي لا يستلزم إلا بما يقع في دائرة التجربة والاختبار.

وإن الشاب اليوم الذي ضم إلى ثقافته الشرقية الإسلامية طرفاً من علم الغرب الطبيعي المادى، ليس من العقل أن نصطنع في الجدل معه ما كان أسلافنا يصطنعون من الأدلة في الجدل مع مخالفهم المعاصرين لهم في ذلك الزمن البعيد، أيام كان الإسلام قوى الأسر شديد العنفوان.

وإن كتب علم الكلام التي يشق بدراستها طلاب الأزهر، والتي ينفقون في فك غامضها قدراً كبيراً من طاقتهم العقلية، إنما تعرض لمن أصبحنا لا نحس لهم وجوداً من أرباب المقالات المخالفة للدين الحق وعقائده الصحيحة، ومن العجب أن نعكف على جدل قوم لا نكاد نحس لهم ركزاً، وأن نترك أمثال القاديانية والبهاية، ولهم من النشاط الدينى ومن الدعاوة لمذاهبهم ما هو معروف في أوروبا وأمريكا !

إن على علماء الكلام أو التوحيد، على الأزهر وكلية أصول الدين، أن يطبّوا لداء الإلحاد الذى يقوم — فى رأى أصحابه — على أساس من علم العصر، والذى نراه استشرى بين جانب كبير من الشبان المثقفين ثقافة علمية عالية. وإنى لأعرف

كثيراً من هؤلاء الشبان ؛ عرفتهم في باريس ولندن ، وعرفتهم هنا بمصر لأنهم ليقولون بأنه لم يقم لديهم دليل على وجود الله ، ويرون أن تفسير الوجود أو العالم ليسور دون اللجوء إلى فرض وجود الله . وإذا سألتهم عن الشبهات التي تحول بينهم وبين الوصول لليقين بوجود الله ، وإذا أخذت في الجدل معهم مستعينا بكل ما عرفت من كتب علم الكلام ، لم تصل منهم إلى ما تريد ، وطالبوك بأدلة تستند إلى حقائق أو مقررات العلم الحديث .

وإن على علماء الكلام ، على الأزهر وكلية أصول الدين ، أن يتركوا الفرق الدائرة التي صارت تاريخاً من التاريخ ، وأن يأخذوا في دراسة الفرق أو الطوائف التي تحيا في هذا الزمن ولها آراء لا تتفق والحق ، ولها نشاط جبار لا يقارن بما نحن عليه من ركود . فإذا استقامت لهم هذه الدراسة ، أخذوا في الرد عليهم ، والجدل معهم ، والاحتجاج لدين الله الحق وهقائقه الصحيحة بأدلة تناسب وعقلية هذا العصر .

بدون هذا ، يكون علم الكلام علماً لئمه أكبر من نفعه ؛ ونكون جناة على طلابنا الذين نفذتهم لغير زماننا ، ونعدّهم لقتال خصوم لم يعد لهم وجود ، ونسأجهم بأسلحة لا تقوى - مع هذا - على النضال .

ولعل هذا الذي نحسّه هو الذي دفع العلامة المغفور له الشيخ حسين والى إلى أن يقول ^(١) بأن هذا العلم حدث في زمن كانت الحاجة ماسة فيه إلى الرد على خصوم الإسلام من الدهريين والزنادقة والملاحدة والمبتدعة . أما الآن ، وقد ذهبت تلك الخصوم وجاء خصوم آخرون ، فلا يليق فرض الذاهب حاضراً ، وترك الحاضر الذي لا يردّه إلا كتاب الله إذا بينّه الراد على وجهه . وليس من الحزم أن يضيع الإنسان عمره في الاشتغال بخصوم موهومة ، وترك الخصم الذي ضيق عليه المسالك . فضلاً عن ذلك ، فإن تلك الكتب ، كتب علم التوحيد ، فيها حجب كثيفة تمنع النور وتحدث الظلمة ، وربما قضت على اعتقاد ثابت صحيح .

وبعد : فلننا بهذا نريد أن نقول ، كما قال زميل لنا فاضل في مجلة

رسالة الإسلام ، بأن علم الكلام ليس بدعة فحسب ، وإنما هو ضلالة ، وهو عبث ، وهو انحراف عن سواء السبيل ، : كما أننا لسنا ندعو بما قلنا إلى عدم دراسة علم الكلام . إن المراد لنا بيان أن دراسة هذا العلم في هذا الزمن على الوضع الذي كان عليه في الماضي ، كتباً ومشاكل وأدلة ، لا خير فيه ، بل ربما أدى إلى شر كثير . بينما لو جعلنا هذا العلم يسير التطور العلمي ، فحددنا في مشاكله وفي الفرق التي يرد عليها وفي الأدلة التي يستند إليها ، لكان حيثئذ - وحيثئذ فقط - أداة لا بد منها ، أداة يكون فيها خير كثير في هداية الضالين وتثبيت عقائد الدين ؟

الكفاف

قال علي بن أبي طالب أمير المؤمنين : الرزق رزقان : فرزق تطلبه ، ورزق يطلبك ، فإن لم تأته أذاك .

وجاء في كتاب الهند : لا ينبغي للملتمس أن يلتمس من العيش إلا الكفاف الذي به يدفع الحاجة عن نفسه ، وما سوى ذلك إنما هو زيادة في تعب وغمه .

وقال حكيم : أقل الدنيا يكنى ، وأكثرها لا يكنى .

وقال محمود الوراق :

يا عائب الفقير ألا تزدجر	عيب الغنى أكثر لو تعتبر
من شرف الفقر ومن فضله	على الغنى إن صح منك النظر
أنك تعصى كي تنال الغنى	وليس تعصى الله كي تفقر

الحسين بن منصور الحلاج

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود النواوى
وكيل معهد أسيوط

كان هذا الرجل أعجوبة من أعاجيب الوجود ، وكان آية من آيات الله على ما اختص به عباده المتفانين فى حبه وعلى ما ميز به أوليائه ؛ مما يقع فى حد الفتنة فى الناس حتى يهلكوا فى كثير منهم كما هلك الناس فى المسيح ابن مريم من قبل بالغلو . على أن بعض الناس يهلك فيهم كما هلك بعض الناس فى عيسى بن مريم بالقلب والضغن ؛ فالحسين بن منصور الحلاج رجل من أولئك الذين خالفوا متعارف الناس فى مألوفاتهم ، والذين خالفوا متعارف الناس فى اتجاهاتهم ، والذين خرجوا بالناس عن السنة الكونية ، بخرق العادات والوصول إلى كثير من المحالات مما تجد تفصيله فى الكتب ، وكان ذلك على أثر رياضات شهدا الخاصة ، وشهدا العامة ، وجرى الحديث بها بين أبناء العصر عامة ؛ فقد روى له من صور الجهاد والمصابرة والتحمل على النفس ما عرف فى سير المتفانين فى ذات الله ، ثم ظهرت بعد ذلك الاتهامات له بالسحر ، وظهر بعد ذلك القول عليه فيما نطن ، وظهر الدس فى كتبه ، كما ظهر فى كتب محيى الدين بن عربى وغيره .

ولست أريد بذلك أن أقطع فى شأنه بعقيدة كما ترى من احتياطى فى العبارة ولا أن أحمل القارىء الكريم على مذهب فى حكمه ؛ فإن العلم عند الله . ونحن نعلم أو نظن أن الحسين بن منصور الحلاج سلك مسلك الزهادة والجهاد ، ونعلم أو نظن أنه خالط سيد الصوفية أبا القاسم الجنيد ، وأخذ عنه كثيراً من التهذيب والسلوك ، وأنه خالط غيره من الرجال أمثال الثورى وغيره ، وشهد له كثير من أهل البصائر ، ومن المعاصرين والمتأخرين ؛ ناهيك بالإمام القشيرى صاحب الرسالة الصوفية ذات الأثر العجيب فى التهذيب ، وناهيك بالإمام المؤرخ

الميزان ابن خلدكان ، وناهيك بالشعرانى الجامع بين العلم الظاهر الغزير والمعارف الربانية والأسرار القدسية . كل هؤلاء لفد شهدوا للرجل كما شهد غيرهم من معايير الرجال ، ومن أهل النظر والاستبصار .

ومهما يكن فإننا سنعرض عليك صورة من صور المتصوفة ، وما كان لهم من مسلك واتجاه ، وما كان يجرى عليهم من محن وأحداث ، وفي كل شيء من التاريخ معتبر وفي كل شيء عظة وذكرى لمن كان له قلب أو لى السمع وهو شهيد .

شهد الحسين بن منصور الحلاج العصر الثانى العباسى ؛ فعاصر المعتضد بالله ، وعاصر المقتدر بالله ، وفي عهده قتل ، وله فيه حوادث ، وفي أيامه ازدهر التصوف وظهر فيه كثير من كلمة رجاله ، وقد صحب المترجم كثيرا منهم كما أسلفت عليك ، ويظهر من نقل كلامه ورواية آثاره أنه كان أدبيا عليما وشاعرا صوفيا معرقا فى المعانى الثرة الغزيرة ، وهو من النوع الصوفى الذى غلا بالشطح وإظهار الخبأ المستور من العلم كحجي الدين بن عربى وابن سبعين ، وهو بخلاف النوع الآخر من أمثال الغزى الى صاحب الاحياء والقشبرى صاحب الرسالة . وما نرى إلا أنه قتل ظلما ، وأنه قتل مستشهدا فى سبيل الله ، وأنه عند الموت كان يدين بخالص العبادة لله ، ويذكر مواجيد وهيامه فى ذات الله .

وقد روى أنه سئل وهو مصلوب عن التصوف فقال للسائل : أهونه ما ترى . وقد حدث خادمه عنه قال : لما كانت الليلة التى وعد فيها من الغد بالقتل ، قلت : ياسيدى أوصنى ، قال : عليك بنفسك إن لم تشغلها شغلتك ، فلما كان من الغد أخرج للقتل فقال : حسب الواحد أفراد الواحد له . ثم خرج يتبختر فى قيده ويقول :

نديمى غير منسوب	الى شىء من الحيف
سقانى مثل ما يشر	ب ؛ فعل الضيف للضيف
فلما دارت الكاسات	دعا بالنطع والسيف
كذا من يشرب الراح	مع التين فى الصيف

ثم قال : يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ثم ما نطق بعد ذلك بشىء حتى قتل . والله ذلك الثبات ، والله

ذلك الهيام في ذات الله على ما به من خلط وشطح لا يدر به أو يشاطره في مراميه إلا أمثاله ممن فتح الله أعينهم .

وبعد : فسأجل لك شيئاً من تاريخ حياته مسلسلاً ، بعد إذ تعجلت لك بحكمي مرتكزا على رموس النواحي الدائرة في كل أطواره ؛ قالوا : إنه ولد بالبصرة في موضع يقال له الطور ، وتلمذ لسهل بن عبد الله التستري ، وشقيق البلخي . ويقول الشعرا في تبعاً لابن خلكان والبغدادى الخطيب : إنه صحب الجنيد ^(١) والنودى ^(٢) وعمرو بن عثمان المسكى ^(٣) والقوطى وغيرهم .

وصرح البغدادى أن ذلك كان بعد أن دخل بغداد قادماً إليها من واسط التى نشأ فيها بعد أن بدأ حياته في مولده (الطور) .

وبغداد كان ظهور أمره ، فكان يلبس المسوح أحياناً ، ويمشى بخرقتين أحياناً ؛ شأن الزاهدين المتصوفة ؛ وقدم بغداد وعمره ثمانى عشرة سنة ، فأقام مع عمرو المسكى ثمانية عشر شهراً ، ثم تزوج بأُم الحسين بنت أبي يعقوب الاقطع .

ثم إنه خرج الى مكة ، فجاور بها سنة ، ورجع الى بغداد مع جماعة من الفقهاء الصوفية ، فقصده الجنيد بن محمد وسأله عن مسألة فلم يجبه ونسبه الى الادعاء فاستوحش ورجع الى تستر وأقام نحواً من سنة ووقع له عند الناس قبول عظيم حتى حسده - كما يقول البغدادى بروايته - جميع من في وقته ، وكان عمرو بن عثمان

المسكى لا يزال يكتب اليه ، ويتكلم فيه بالعظام ، لانه تزوج من بغداد على خلاف أمره . وتقول هذه الرواية إن ذلك التشنيع دفعه الى أن تجرد ورمى لباس الصوفية ، ولبس قباء وأخذ في صحبة أهل الدنيا ثم خرج وغاب خمس سنين انتهى فيها الى خراسان وما وراء النهر ؛ ثم رجع الى فارس ، فأخذ يتكلم على الناس ويدعو الى الله ، فلقب في فارس بأبي عبد الله الزاهد ، وقد صنف هنا لك عدة تصانيف ،

(١) اسمه الجنيد وكنيته أبو محمد ، ويعرف بسيد الطائفة ، توفي ببغداد سنة ٢٩٧ هـ

(٢) هو النودى بالنون وكان من أقران الجنيد ولم يكن في وقته أحسن منه طريقة ولا ألف كلاماً

(٣) كان من أصحاب الجنيد وانتهت إليه الإمامة في الأصول والطريق . توفي سنة ٢٩١ هـ

ولكنهم لم يذكروا ما هي؟ وهنا لك كان يتكلم على أسرار الناس، وما في قلوبهم، فسمى حلاج الأسرار، وصار الحلاج لنبه. ونحن نشك في أن ههنا قطعة مدسوسة لا تلائم جنبتي الكلام ولا تنفق مع حال رجل بلغ ذلك المقام: وهي أنه تجرد وصحب أهل الدنيا. فأى داع كان يدعو إلى ذلك؟ إن ما ذكره من الطعن عاينه، وإن زهده في طريق الله لا يصلح داعياً إلى ذلك، ولا هو منه بسبيل. بل لعله جدير في المنطق السليم أن يزيده تمسكاً. ومهما يكن فقد عطفت نهاية الحديث بما رده سيرته الأولى وكفى.

ثم قال الراوى: إنه مازال ينتقل من بلد إلى بلد حتى دخل مكة ثانية، وخرج منها ومعه خلق كثير، ولبس المرقعة والفوطة، وحسده أبو يعقوب النهرجورى^(١). وتكلم فيه بالسوء. ثم إنه خرج إلى بلاد الشرك فقصد إلى الهند ثم خراسان وغيرها، ودعا الخلق إلى الله وصنف لهم كتباً، ثم كثرت فيه الأقاويل بعد رجوعه من هذه السفرة؛ فقام وحج ثانياً وجاور سنتين ثم رجع، وتغير عما كان عليه، واقتنى العقار ببغداد وبني داراً ودعا الناس إلى معنى له، ثم خرج عليه محمد بن داود وجماعة من أهل العلم، وكثر اللغط حوله فقتل ساحر وقيل مجنون، وأصر الكثير على أنه واصل ذوكرامات وأحوال، ولكن السعاة سعوا به إلى السلطان فأخذوه وحبسوه.

وتقول رواية أخرى في سبب تسميته الحلاج إنه دخل واسط فتقدم إلى حلاج ووجهه في عمل له فقال له: إني مشغول بقطي، فقال: اذهب حتى أعينك، فذهب الرجل ورجع فإذا القطن كله مخلوج فسمى الحلاج اه.

وبما رواه البغدادى في تاريخه، وهو ذو دلالة صادقة على أن الحلاج ممن لم قدم صدق في التجاني عن دار الغرور، والإبابة إلى دار الخلود، ما حدث به على التؤزى قال: رأيت الحلاج ثلاث مرات في ثلاث سنين، فأول ما رأيته أتت عثرت به بعد محاولة طويلة على بعض جبال أصفهان، وعليه مرقعة ويده ركوة، فلما رآنى قال: على التؤزى ثم قال:

(١) اسحق بن محمد صاحب الجنييد وتصوف توفى سنة ٣٣٠ هـ.

لئن أمسيت في ثوبي عديم لقد بلياً على حر كريم
فلا يغرك إن أبصرت حالا مغيرة عن الحال القديم
فلي نفس ستتلف أو سترقى لعمرك بي إلى أمر جسم
ثم فارقتي وقال نلتقي إن شاء الله .

فلما كان بعد سنة أخرى سعت إليه وهو بالخان من بغداد فرأته وعليه
صوف أبيض ، فلما رآني قال : على التؤذي ؟ قلت نعم ، فقال : الصعبة ، ثم قال :

دنيا تغالطني كأن هي لست أعلم حالها
حظر المليك حرامها وأنا احتميت حلالها
فوجدتها محتاجة فوهبت لذتها لها

ثم أخذ يبدى وخرجت من الخان ، ثم قال : أريد أن أمضي إلى قوم
لا تحملهم ، ولا يحملونك ، ولكن نلتقي ، وملاً كفي دينيرات ، ثم غاب عني . وقيل
لي بعد سنة إنه ببغداد ؛ فجئته فقيل لي : السلطان يطلبه ، فبينما أنا في الكوخ رأته
في يوم حار ، وعليه فوطة رملية يختفي بها ، فلما رآني بكى وقال :

متى سهرت عيني لغيرك أوبكت فلا أعطيت ما منيت وتمنت
وان أضمرت نفسي سواك فلا رعت رياض المني من جنتيك وجنت
ثم قال : يا علي النجم . أرجو أن يجمع الله بيننا إن شاء الله .

وقد ذكروا أنه أول ما دخل مكة جلس في صحن المسجد سنة لا يبرح
إلا للطهارة أو للطواف ولا يبالي بالشمس ولا بالمطر ، وكان يحمل إليه كل عشيّة
كوز ماء للشرب وقرص من أقراص مكة فيأخذ القرص ويعض أربع عضات
من جوانبه ويشرب شربتين من الماء : شربة قبل الطعام وشربة بعده ، ثم يضع
باقى القرص على رأس الكوز فيحمل من عنده .

ثم صار يجلس على أبي قبيس فقصده إليه جماعة من أهل الفضل منهم
أبو عبد الله المغربي فإذا هو جالس كذلك في الشمس والعرق يسيل منه على تلك
الصخرة فرجع بأصحابه وقال لبعضهم : إن عشت ترى ما يلقى هذا لأن الله يبتليه
بلاء لا يطيقه . فقد بحمقه يتصبر مع الله .

وذكر أنه لما كان في نسكه بالبصرة وهو موضع الإعجاب من متصوفها

حملت إليه دراهم ليوزعها فسترها في المسجد ؛ فلما توافد عليه الفقراء وزعها عليهم فأشاعوا أنه يقلب التراب دراهم ، ونسبوا اليه المعجزات (كذا) فخرج من البصرة بعد أن برم بذلك ، والإشاعات لا تزال حافة من حوله . والحديث عنه من هذه الناحية يطول جداً . على أن هناك ناحية أخرى تلتطخ وجه كل هذه المحامد كما أشرت لك : ناحية تقول إنه ساحر محتال ، وإنه تعلم السحر بالهند ؛ فكان يصنع به العجائب ويشفي من الأمراض ، ويوم استحضار كل بعيد غير مقدور ، والوصول إلى كل متمنى أو مشتهى . فقد نسبوا إليه في ذلك الشيء الكثير ، وتحدثوا عنه بكل مبهشم منفر .

ونحن نكرر القول أننا نرجح صدق الرجل وإخلاصه ، وأنه كان في رياضة عميقة ، وهذه الرياضة العميقة وضعته في مقامات وأحوال كانت تنضح عليه كثيرا من الشطح وما يوم وحدة الوجود وما يوم الإشراف بالله أحيانا كالذي نسب اليه من قوله « ما في الجبة إلا الله » وما إلى ذلك . على أن في كثير من ذلك دسا وتزويرا نشأ من حسد وبغى في معاصريه من أهل الدنيا الذين كرهوا أن يسبقهم إلى إقبال الناس إنسان .

ولأنى لا أزال كلما ذكرت كلمته التي قالها ، وهو يساق إلى الموت ، وهو يخطر في مشيته ، ويتيه عند صعقته « يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق » لا أزال كلما ذكرت هذه الكلمة خشع منى القلب ، ولأن منى الجلد ، وأحننت منى الرأس ، وغشيتني غاشية من العزوف عن الدنيا والإعراض عما فيها من زخرف ؛ لأن فيها ثباتا على الحق ، ولأن فيها نورا من الحق ، ولأن فيها شهودا للحق في ساعة تضل فيها العقول ، ويطيش فيها كل حليم ؛ ولا أزال كلما ذكرتها ، دعت إلى نفسى أختها من كلمة الحسين بن على وقد أخبر بمن قتل من أصحابه فاغرورقت عيناه ثم قال « فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر » أو كلمة الذى وقف في المعركة واحتدم النزال فألقى بتمرات كان يأكلها وقال « وعجلت إليك رب لترضى » وغير هؤلاء من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه وجاهدوا في الله حق جهاده . فكل من أساء الرأى في مثل الحسين بعد هذا فعله إلى الضلال أدنى منه إلى الرشاد ، وإن له لأسوة في الانبياء والصالحين من قبله .

السيرة المحمدية

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ ابراهيم أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

السيرة المحمدية - على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم - مادة خصبة للدرس والتحليل ، والشرح والبيان ، وقد تناولها بالكتابة أدباء من العرب والعجم ، واختلف منحنى كلا الطرفين ، وتباين نظر كل من الفريقين ، والمؤرخون من غير المسلمين حينما كانوا يخوضون فيها ، لم يكونوا يقصدون من هذا الخوض تسجيل الحوادث ، وإثبات الوقائع ، وتوقيت المفاجآت التي صادفت ذلك الرجل باعتباره داعية من دعاة الإصلاح ، ودهاقين السياسة ، وأبطال التطورات الفكرية ، والاحداث الاجتماعية ، إنما كانوا يكتبون بريشة الفيلسوف ، وأقلام الحكمة ، وعلى ضوء من إشعاعات علم النفس في أحدث نظرياته ، وأجد آرائه التي لم يجد بعدها ما ينازعها ، أو يتعارض معها .

أما المسلمون - مع الأسف - إلا قليلا منهم ، فإنهم عنوا بها من ناحية شمائل صاحبها ، وبالغوا أو لم يبالغوا فيما لا يترك في ذهن القارئ سوى الندم على ضياع الوقت في هدف ما كان أجدره أن يضيّعه في غيره ، أو يوفر على نفسه راحته ونظره ، وجهده وتفكيره . ولعل السر في ذلك أن معظم ما بأيدينا من تلك المؤلفات يرجع إلى عهود تدلى اللغة ، وانحطاط أساليب البيان ، وأن النزعة التي كانت تسيطر على الكتاب - حينئذ - نزعة قصصية ، تميل إلى أن تخلع على الموضوع ثوب الرواية ، وتسكوه برداء التمثيل ، بحيث يكون له ظلال وألوان .

ولو أن تلك العناية انصرفت إلى خلق موضوعات ، وابتكار معان ، يتصيدا الأديب من تلك الزوايا ، وفي خلال السطور ، لكان منها دروس نافعة للشباب

الطامح ، والمصلحين الاجتماعيين ، من أولئك الذين يحاولون محاولة اليأس حتى إذا ما وجدوا إعراضاً ، أو صادفوا فتوراً ، ألقوا بسلاحهم ، وكفكفوا من دعوتهم ، وأخفتوا من أصواتهم ، ثم راحوا يجيلون على أسماعهم تلك النغمة ، عليكم أنفسكم لا بضركم من ضل إذا اهتديتم ، وأخذوا يتصورون أن فتح تلك القلوب المغلقة ، والعيون المغمضة ، رابع المستحيلات على من يمسى وجدانه به ، أو يطمئع نفسه فيه .

مع أنهم حينما يُمِرُّون على أدمغتهم لوحة سينمائية لما لاقاه رسولهم الكريم من العنف والإيذاء ، والعنت والمشقة ، والكيد والمكر ، والتآمر والتربص ، والمطاردة والسفه ، والتفجير والكراهية ، والمهابة والازدراء ، يعلمون حق العلم أنهم يعيشون على هامش الحياة ، أو يجاهدون جهاد الأطفال ، لاجهاد الأبطال ، وأن الزعيم أو السياسي إذا لم يجعل حياته منذ أول يوم يحس فيه بمعنى الحياة صباحاً دائباً ، وعناء دائماً ، وتعباً متواصلاً ، وتضحية مستمرة ، لا يذكره الناس بالخير ، ولا يسجل التاريخ اسمه في عداد المصلحين ، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة .

وإذا كان بعض المحدثين من المتأدبين يروضون يراعاتهم على هذا النمط من الكتابة التي ننشدها للسيرة المحمدية ، مستعينين بالزخرف البياني ، والأسلوب البلاغي ، والجرس القصصي ، فإننا نرجو أن يتولى تلك القيادة رجال الدين ، لأنهم أقدر على أن يبرزوا السيرة في معرض قشب من الجمال والروعة ، والسحر والبراعة ، والإبداع والأناق ، والخلاصة في الحسن ، والمهارة في التصوير ، لأنهم جهابذة الأدب ، وأساطين البيان ، وملوك الفصاحة ، ولكن شيئاً واحداً لا بد من توفره لمؤرخ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ربما كانوا هم أعرف به ممن عداهم من أهل اللسان والمنطق ، ذلك هو فقه الدين ، الذي انطوت عليه تلك الحقبة المباركة من السنين والأعوام ، ولا أعنى بالفقه هذا الذي تضمنته الكتب مما يعرف بالعبادات والمعاملات ، إنما أعنى به حكمة التشريع ، وأسرار هانيك التكليف .

فحمد يموت أبوه وأمه ، وينشأ تلك النشأة في رحاب الضنك والفقر

« ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى ، ثم لا يزال يدرج في مدارج الكمال فإذا هو مختار العناية الإلهية المهمة العظمى ، وعلى الرغم من إذعان قريش لفضله ونبله ، وأدبه وخلقه ، وحلمه وعقله ، تأبى عليه ذلك الاختيار ، وتستصغره أن يكون هو من دونهم صاحب هذا الشرف ، وحامل أعباء أمانة السماء إلى أهل الأرض » لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، ثم يكون ذلك فاتحة تحبطهم ، وابتداء غوايتهم ، وطلعة تمردهم ، ومطلع عنادهم الآثم ، وفجورهم الظالم ، وطغيانهم المبين . . . ويترك لهم موطنه الحبيب ، ومولده العزيز ، ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة . . ولم يكند يستوطن دار الهجرة حتى يلاقى من رحابة صدور الانصار ، واستعدادهم لتلقى دعوته بالقبول ، ما ينسيه ما تجرعه من قوم أرهقوه وكادوا له ، وحملوه على القرار ، وساقوه إلى ذل الغربة ، ومضاضة البعد . . وهو حين يستوثق من القوة ، ويتأكد من الغلبة ، ويوقن بالنصر ، يكر إلى البلد الذى لفظه ، والقوم الذين طاردوه ، لا ليتشقى بالفتح ، أو ينتقم بالغزو ، ولكن ليعلمهم درسا من العفو عند المقدرة ، والصفح عن المذنب ، والتجاوز عن هفوات المسيء ، وقد بحث حرازته ، وأذهبت حفيظته « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . .

وقد كان مع الشدائد التى تحمّلها ، والمتاعب التى صادفها ، والأهوال التى تقهّجّحّمها ، والأذى الذى استهدف له ، لا يرى إلا أنه فرد عادى يحتاج إلى رعاية الله إياه ، وحفظه له ، وعنايته به ، لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمّدنى الله برحمته . .

وما قصدت إلى التاريخ كما يقصد المؤرخون ، فإن ذلك أمر شبع منه تلامذة المدارس حتى بشمروا ؛ بل أردت ما وراء التاريخ ، وأرجو أن أكون وصلت إلى ما أهدف إليه من جعل « السيرة » وسيلة لا غاية ، وروحا لا جسما ، ولبابا لا قشورا ، والمجال فسيح ، والميسدان واسع ، والموضوعات التى يقصد إليها الكاتب أكثر من أن يأتى عليها مقال ، أو يحصيها إحصاء صحيحا حديث عابر ، وتفكير خاطف ، وكتابة عاجلة . وإذا كان الشعراء يجعلون من الحبة قُبّة ، ويخلقون من لا شيء شيئا ، فما أحوجنا بصدد هذه الدعوة الجديدة ، أن نستعين

بالتصوير الشعري ، وأن نستعيده للوصول إلى هذه الغاية النبيلة ، والمقصود الاسمي ، وقد رأينا أمثلة لذلك رائعة مما عالجها هؤلاء في قصائدهم كشوقي وغيره من فرسان القريض .. ولا علينا إذا جردنا لتلك الحملة أقلاما مسددة ، وبيانا مصّوبا ، وأدبا عالياً ، وبلاغة سامية ، فإن الأدب ينقاد له الجراح ، ويلين به الشامس ، ويخضع لإرادته الآبي ، وإلا فما بال أبي بكر وقد أدهشه بيان النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخذته سحر ألفاظه يقول : بأبي أنت وأمي لقد طوّفت في الجامع ، واستمعت إلى الخطباء والشعراء ، فلم أر أفصح بيانا ، ولا أقوم لساناً منك يا رسول الله ، فيقول « أدبني ربي فأحسن تأديبي » !!..

حكم منشورة

قال عمر بن الخطاب : ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه . وفي المأثور : خير من العجب بالطاعة أن لا تأتي طاعة .

صاحك معترف بذنبه ، خير من باك مدل على ربه .

سيئة سيئك ، خير من حسنة تعجبك .

وقال الحسن : ذم الرجل لنفسه في العلانية مدح لها في السرية .

وقال حكيم : من ذكر عيوب نفسه فقد زكاها .

وقال معاوية لرجل : من سيد قومك ؟ قال الرجل : أنا . فقال معاوية : لو كنت كذلك لم تقله .

وفي الحديث : إياكم والشرك الأصغر . قالوا : وما هو يا رسول الله ؟ قال : الرياء .

وقال لقمان لابنه : احذر واحدة وهي أهل اللذر . قال : وما هي ؟ قال : إياك أن ترى الناس أنك تحشى الله وقلبك فاجر .

وفي الحديث : من أصلح سريره ، أصلح الله علانيته .

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في القياس بديع
لو كنت تضرر حبه لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

نذير من الغرب

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغى
مدير دار الكتب الأزهرية

يعلم كثير منا ما يلقى الناصحون في مصر وبخاصة علماء الأزهر من مصاعب في سبيل دعواتهم الإصلاحية ، والتنبيه إلى الكوارث التي تنزل بالمجتمع المصرى من كثير من وسائل الترفيه واللهو ، ومن روايات السينما والتمثيل بوجه خاص ، لأنها أصبحت من مألوفات الحياة ، بل من ضرورياتها لدى بعض الناس . ويلبس كثير منا خطر هذه الروايات على أولئك الشبان والشابات ممن يحول دون تبصرهم في العواقب ووزنها بميزان المنطق والعقل شيطان العاطفة ، وفورة الشباب ، وللعاطفة شيطان قوى قاهر ، وللشباب سلطان سلط قادر .

ولا شك أن بعض ما تغمرنا به المدنية الحديثة من الأشرطة السينمائية والروايات التمثيلية له خطر على أخلاقنا وعاداتنا وتقاليدينا التي نعتز بها ، وبعترف بقدرها وحسن أثرها في سلامة الأسرة والمجتمع أهل النظر والغيرة من المصريين والأجانب .

ولا شك أيضاً في أن بعض هذه الأشرطة - وبخاصة التي تعرض للمسائل الجنسية - توجه الشباب وجهة لا يرتاح لها أهلهم ، ولا ترضى عنها أمهم ، وتعرضهم للانهيـار الخافى ، وتفتح لهم سبل الغواية ، وترشدهم إلى وسائل الحصول إلى غاياتهم الدنيئة ، وترسم لهم طرق الفرار من المسؤوليات الأدبية والقانونية .

وليس مما يحتاج إلى دليل أن كثيراً من العلاقات الآثمة بين الشبان والشابات التي انتهت بنتائج خطيرة تسببت في كثير من الأحيان عن مشاهدة الأشرطة السينمائية المـسـاجنة التي تفيض بقصص الحب الداعر والغرام الفاجر ، وتدفع إلى الانزلاق في مواطن الغواية ، بما تزين من لذائذ الحب ، وتشرح من أسباب الهيام ، وقبلها تخلو رواية من الروايات من ذكر الهوى والهيام ، والدعوة والغرام ؛ بل إنه

في الغالب لحتها وسداها ، ومبدؤها ومنتهاها . وناهيك بآثار ذلك في نفوس الشباب ، وإلهاب غرائزهم ، وإثارة عواطفهم . ولو أن ناصحا أبان عن هذا الخطر لأولئك المفتونين بوسائل اللهو وبروايات السينما والتمثيل بوجه خاص ، لهزوا أكتافهم ، وأنغضوا رموسهم ، واستهزؤا به وتضاحكوا منه ، ونسبوه إلى الأجيال السابقة والتاريخ البعيد ، واتهموه بالتزمت والتعننت والحذلقه والتفلسف وما إلى ذلك مما حفظوه ليجادلوا به عند الحاجة عذراً وإهيا وحجة داحضة .

ولكن قد يُقنع هؤلاء أن نروى لهم عن الغرب ما لمسه الغرب من أخطار هذه الاشرطة على ناشئتهم ، مما دعا عقلاءهم أن يندروا قومهم به ، وأن يحذروا ناشئتهم منه ، وقاية لمجتمعهم أن يتفكك ، ولأخلاقهم أن تتحل .

وها هو ذا نذير من نذر الغرب ، ننقله عن صحيفة من صحفهم الرشيدة ، لعل فيه لهؤلاء المفتونين ولغيرهم عبرة تستيقظ لها عقولهم ، وترشد بها نفوسهم ، وتبشهم على أن يحاسبوا أنفسهم وأبناءهم ، فيقفوا من هذه الروايات موقف المتبصر الحذر لأخلاقهم وأخلاق المجتمع .

ذكرت جريدة المصرى لمراسلها في لندن أن جريدة « افنيج استاند » نشرت مقالا طويلا حذرت فيه من عواقب الاندفاع في التربية الجنسية خصوصاً بين الاطفال الذين لم يتجاوزوا الخامسة عشرة من عمرهم ، وقالت : إن أكثر من فاجعة حلت بالشعب الانجليزى نتيجة لعدم التبصر وترك التعاليم الدينية جانبا والاندفاع وراء علماء العصر الحديث والداعين إلى التحرر .

ودلت الجريدة على صحة ما ذهبت إليه في قرية « ارثون ريفرز » ، وقالت : لقد ظلت هذه القرية تعيش في سلام إلى عهد قريب أو إلى اليوم الذى عرض فيه فلم سينائى عن التربية الجنسية ، فلم يكدهم عرض هذا الفلم على فتيات القرية وفتياتها حتى بدأت الدعائم التى شيد عليها مجتمع القرية تهتز وتكاد تسقط فوق رموس أهلها ، ولقد حدث الزلزال عند ما تردد فى أنحاء القرية أن فتاة غير متزوجة لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها قد وضعت طفلا وانتشر الخبر بسرعة فى القرية ! .

وأجرى تحقيق دقيق أسفر عن اكتشاف حقائق روعت السكان وأدخلت الذعر فى قلوبهم . فقد تبين أن ٤٧ فى تراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والسابعة

عشرة قد ارتكبوا في اليوم التالي لعرض الفلم السينمائي المذكور أعمالاً خارجة عن العرف ، مع فتيات لم يتجاوزن الخامسة عشرة من عمرهن . وقال النائب العام في تأثر ظاهر : إن هذا الفلم قد ترك أثراً في نفوس الأطفال .

هذا بعض ما نشرته جريدة المصرى نقلاً عن الجريدة المذكورة مما يسمع وقار مجلة الأزهر بنشره فقط ، نسوقه كدليل بالواقع — وليس بعد الواقع دليل — لا لنقنع به هؤلاء المفتونين بمظاهر المدنية الحديثة فحسب ، بل لتندربهم آباء الفتيات والفتيان بالخطر الذي يهدد أبنائهم من الإسراف في مشاهدة ما يعرض من الروايات دون تمييز لما لا يحسن مشاهدته منها وما يحسن ، ضناً بمستقبلهم ، واحتفاظاً بهم عدة للوطن وذخراً للأمة .

في الحروب

قيل للقائد المشهور المهلب بن أبي صفرة : ما أعجب ما رأيت في حرب الأزارقة ؟ وكان من قواد القواد على عهد عبد الملك بن مروان ، فأجاب : فتي كان يخرج إلينا منهم في كل غداة فيقف فيقول :

وسائلة بالغيب عني ولو درت مقارعتي الأبطال طال نحيبها
إذا ما التقينا كنت أول فارس يجود بنفس أنقلتها ذنوبها
ثم يحمل فلا يقوم له شيء إلا أقعده ، فإذا كان من الغد عاد لمثل ذلك .
وقال : هشام بن عبد الملك لأخيه مسلمة : هل دخلك ذعر قط لحرب أو عدو ؟
قال : ما سلمت من ذعر نبه على حيلة ، ولم يغشني ذعر سلبني رأيي .
قال هشام : هذه والله البسالة ! .

وقيل لعنبرة : كم كنتم يوم الفروق ؟ قال : كنا مائة لم نكثر فنتكل ، ولم نقل فنذل .

وكان يزيد بن المهلب يتمثل كثيراً في الحرب بقول حصين بن الحمام :
تأخرت أستبق الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أقدم
وقالت الخنساء :

يـهـنـ النفوس وبذل النفوس س يوم الكربة أبقى لها

مكانة علم الأخلاق من الفلسفة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ منصور رجب
مدرس الأخلاق بكلية أصول الدين

روى ابن أبي أصيبعة في كتابه عيون الأنباء في طبقات الأطباء أن «فلوطرخس» قال : إن فيثاغورث أول من سمي الفلسفة بهذا الاسم ^(١) . وقال «بارتلي» ساتنلير، في مقدمة كتاب الكون والفساد لأرسطوطاليس ترجمة عميد الفلسفة في الشرق أستاذنا الجليل «أحمد لطفي السيد باشا» قال : إن فيثاغورث لما سأله ليون طاغية «سيفونيا» أجاب بأنه فيلسوف ، وهو اسم لم يسمع من قبل .

وعلى ذلك يكون فيثاغورث أول من سمي الفلسفة بهذا الاسم ، وأول من أطلق كلمة فيلسوف على من يتأمل ظواهر الكون الإلهية الأبدية الأولية التي لا تتغير . وقد يكون من الحسن أن أنقل هنا كلمة فيثاغورث نفسه واضح هذا الاسم ففيها تحديد لمعنى الفلسفة والفيلسوف ، قال :

« حال الناس في الحياة يسعون فيها يشبه حال الجمهور يتقاطرون إلى الأعياد الرسمية ؛ ففي جمعيات الجمهور الفسيحة لكل واحد من الساعين إليها أغراض مختلفة ، أحدهم يقصدها ليبيع فيها بضائعه مدفوعا بحب الكسب ، وآخر لا يقوده إليها إلا حب المجد ، والرغبة في أن ينال قصب السبق في القوة أو في المهارة ، وطائفة أشرف من هؤلاء لا يظهرون فيها إلا لمشاهدة جمال محال تلك الاجتماعات ، وعجائب الصناعة المعروضة لأنظار الجميع ؛ كذلك في الحياة للناس الذين تضمهم الجمعية الإنسانية مشاغل متباعدة ؛ فمنهم المجرورون بجواذب الثروة والتمتع التي لا تقاوم ، وآخرون مملوك عليهم أمرهم بالطمع في السلطان والشرف وهما لا ينالان إلا بالحروب الحادة ، والمنافسات التي تسفك الدماء

ولكن الغرض الاسمى للرجل هو إمعان النظر فيما فى هذا الكون من الجمال المتنوع الذى يقدمه لأنظارنا ، وبذلك يستحق عنوان فيلسوف . فن الحسن أن ينظر المرء إلى أقطار السموات الفسيحة ، يتتبع سير الأفلاك التى تتحرك فيها على قدر غاية فى النظام ، ولكنه لا يستطيع فهمه جيداً إلا بالمبدأ المعقول المجرد الذى يسير الكون ، ويخصى كل شىء عدداً ومقياساً ؛ فالحكمة تنحصر فى التعرف بقدر الممكن لهذه الظواهر الإلهية الأبدية الأولية التى لا تتغير . والفلسفة ليست إلا التتبع المستمر لهذه الدراسة الشريفة التى تثير الناس وتصلحهم .

والسبب الذى دفع فيثاغورث إلى وضع هذا الاسم ، هو اعتقاده أنه لا ينبغى أن تضاف الحكمة لغير الله ؛ فالحكيم وحده هو الله ؛ ولذلك استبدل كلمة حكيم بكلمة فلسفة ، فدعا نفسه فيلسوفاً أى محباً للحكمة . وكان اليونان الأولون الذين عنوا بالبحث عن حقيقة المادة التى وجد منها هذا الكون كطاليس الملى - نسبة إلى بلدة يقال لها ملطية فى آسيا الصغرى ، وفى هذه البلدة انبثق أول شعاع من أشعة الفكر الفلسفى - و « أنكسمندر ، وأنكسمينيس ، كانوا يسمون أنفسهم « حكماء ، فأنكر ذلك عليهم فيثاغورث ، ودفعه تواضع العلماء إلى وضع هذا الاسم .

وعلى ذلك أيضاً تكون كلمة فلسفة كلمة يونانية ، وهشتقة من كلمتين اثنتين : الكلمة الأولى « فيلوس » ومعناها محبة . والثانية « سوفيا » ومعناها الحكمة . فيكون إذن معنى الفلسفة : هو محبة الحكمة . ومعنى الفيلسوف : محب الحكمة . وعرفت اللغة العربية لما ترجمت إليها كتب اليونان . وما يذكر عن فيثاغورث هذا أنه أخذ الحكمة عن أصحاب سليمان بن داود عليهما السلام بمصر حين دخلوا إليها من بلاد الشام ، وكان يدعى أنه استفاد ما استفاد من مشكاة النبوة . ويحدد بعض المؤرخين مدة إقامة فيثاغورث بمصر باثنين وعشرين عاماً اتصل فيها بكهنة مصر كما اتصل بالمجوس فى بابل لما أسره عسكر قمباز وسبق إليها . ولما رجع إلى وطنه - جزيرة ساموس ^(١) - وهو متقدم فى السن ، أى كانت سنه ستاً وخمسين سنة على قول بعض المترجمين له فتح فيه مدرسة وظل السموسيون الفخوريون

بمواطنهم ، يعقدون مداولاتهم السياسية قرونا عدة بعد ذلك في مجلس نصف حلقى مسمى باسم فيثاغورث . ويؤثر عنه أنه كان يقول : « كما أن بدء وجودنا وخلقنا من الله سبحانه هكذا ينبغي أن تكون نفوسنا منصرفة الى الله » وكان يقول : « الأقوال الكثيرة في الله علامة تقصير الإنسان عن معرفته » .

أما أين ، ومتى ، وكيف نشأت الفلسفة ؛ فأقدم ما وصل إلينا من شواهد الفكر اليونانى « الألياذة والأودسه » المنسوبتان لهوميروس الذى يقول عنه بعض المؤرخين : إنه ولد وعاش يقيناً على شطوط آسيا الصغرى ، وفي جزرها قبل الميلاد بنحو ألف عام . وإذا رجعنا إلى هاتين القصيدتين ؛ لنحكم بهما على الفكر اليونانى في ذلك الوقت استطعنا أن نقول : إنه كان يجرى وراء الخيال أكثر مما يجرى وراء العقل ؛ فهو يفسر ظواهر الكون بتشبيهات فيها سذاجة وإسراف . وإلا فكيف نفسر أن الأرض إله ، وأن هذا الإله ولد الجبال الشاهقة والسماء المزدانة بالكواكب ، ثم تزوجت الأرض من السماء المحيطة بها من كل جانب فولد لها إفيانوس والأنهار ، وأن أفيانوس هو المصدر الأول للأشياء .

وكيف نفسر أن الآلهة وكلهم في صور بشرية يؤلفون حكومة ملكية على رأسها « زيوس »^(١) ، لا يرهون من البشر إلا من يتقرب إليهم كيفما كانت أخلاقه .

نسير إلى الامام قليلا إلى القرن الثامن قبل الميلاد ؛ فتسمع « هزود » في ديوانه « الاعمال والأيام » ينطق بكلام تسوده فكرة عامة هي فكرة العدالة ، فيقول : « السمك والوحش والطير يفترس بعضها بعضاً ؛ لأن العدالة معدومة بينها ، أما الناس فقد منحهم « زيوس » العدالة وهى خير وأبقى ، ويتقدم بنا الزمن فنرى في اليونان رجالا نبغوا ، أشهرهم الحكماء السبعة ، وسواء ثبتت قصتهم أم لم تثبت ، فمنهم سولون (٦٤٠ — ٥٥٨ ق.م) ذلك المشرع العظيم ، فلقد وضع قوانين يدير الناس أفعالهم على مقتضاها . منها :

١ — كل إنسان ثبت عليه أنه لم يشتغل بحرفة ولاصناعة واتهم بذلك ثلاث مرات ؛ فإنه يفضح على رموس الأشهاد ، وكذلك كل ولد ييذر في أمواله ويحرم

أبويه من القوت إلا إذا لم يعلماه صنعة ، بخلاف الوالد إذا بخل بالإففاق على ولده فإنه لا يعاقب بهذه العقوبة .

٢ - كل من اجتمع بالنساء المتبرجات الزواني وعاشرهن لا يكون من أرباب مشورة الوعظ أصلاً ؛ لأنه لا يؤتمن على الأهل .

٣ - كل من سكر من أرباب المشورة يعاقب بالقتل .

وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا في عد الحكماء السبعة فإنهم لم يختلفوا في جعل طاليس (٦٢٤ ق م ٥٥٠ ق م) منهم ، بل اتفقوا على أنه أول فيلسوف عرفته الدنيا ، وقد حقق التاريخ وجوده في جيش أحد ملوك « ليديا » ، وهو أول من حاول تفسير الكون لا بالأساطير والخرافات ، بل على أساس علمي ، وسواء نجح في محاولته أم لم ينجح ؛ فقد وضع الأساس بمحاولته الوصول الى حقيقة المادة التي وجد منها هذا الكون وانتهى الى أنها هي الماء .

وبعده بقليل جاء فيثاغورث (٥٨٢ - ٤٩٧ ق م) فخطت به الفلسفة خطوة جديدة نحو التفكير المجرد ؛ ذلك أنه انتهى إلى أن هذه المادة هي العدد لا الماء كما قال طاليس أو كما قالت مدرسة « يونيا » . وإذا كان طاليس قد جعل حقيقة الكون شيئاً مادياً هو الماء ، وخطأ فيثاغورث في مدرسته بالفلسفة خطوة نحو التفكير المجرد بقوله : إن أصل الكون هو العدد ، ويبنى على هذا أن الواحد أصل الوجود . إذا كانت الفلسفة في يونيا بدأت مادية تعتمد على الحواس وحدها في الوصول إلى حقيقة الكون ، ودفعها بعد ذلك فيثاغورث دفعة إلى الفكر المجرد ؛ إذا كان ذلك كذلك ؛ فقد قيض الله للفلسفة من يدفعها إلى الأمام دفعة قوية في المدرسة الأيلية نحو التجريد على يد رئيسها - أكسينوفان (٥٧٠ ق م) فقد وافق الفيثاغوريين على أن الواحد هو الأصل ، غير أنه لم يعجبه ذلك الواحد الحسابي ، بل جعل هذا الواحد هو الإله الذي لا يتعدد (١) .

ترك هؤلاء الثلاثة طاليس ، وفيثاغورث ، واكسينوفان ، الذين هم من آسيا الصغرى ، والذين هم تقريباً متعاصرون في رقعة لا تتجاوز الأبعاد بينها خمسة وعشرين فرسناً ، تركهم إلى سقراط الذي يعتبره الجميع واضع علم الأخلاق

[١] قصة الفلسفة اليونانية لصاحب العزة أحمد بك أمين والأستاذ زكي نجيب محمود .

بمعناه الصحيح . جاء سقراط فألهم هذا المبدأ ، تعرف نفسك بنفسك ، وكان يفتخر في آخر حياته بأنه لا يحيد عنه ، وكان يرى من المضحك أن الإنسان يجد من الوقت ما ينفقه في الأشياء الخارجة عنه ؛ فله الفضل الأول في أنه وسع دائرة الفلسفة ؛ فجعلها بعد أن كانت قبله قاصرة على تفهم العالم أصبحت بفضلها تتجه الى تفهم الإنسان والعالم . أحس سقراط بتدهور الحياة الخلقية التي كان يحياها معاصروه ؛ فحاول أن يكشف لجيله ما حاوله جميع الأخلاقيين من بعده أن يكشفوه لأجيالهم ، أعنى المبادئ الخلقية المسلم بصحتها ، وانتهى الى أن الفضيلة أو الحياة الخلقية وليدة المعرفة ، أى أنها أمور يمكن تعليمها وتعلمها (١) .

وجه سقراط الفلسفة من البحث في أصل الكون الى البحث في الإنسان أيضا ، والبحث في الإنسان من ناحية عصمة الذهن عن الخطأ في التفكير يأتي علم المنطق ، ومن ناحية ما هو عليه يأتي علم النفس ؛ ومن ناحية ما يجب أن يكون عليه الإنسان يأتي علم الاخلاق ، الى آخر العلوم الفلسفية التي تتخذ الإنسان لها موضوعا ، فعلم الاخلاق على ذلك جزء من الفلسفة ، وجزء له خطره في هذه الحياة .

ولقد كانت الفلسفة في العصور القديمة تشمل جميع العلوم بلا استثناء . فالإلهيات ، والطبيعات وجميع العلوم بما فيها الهيئة والهندسة والحساب والموسيقى كل ذلك كان من مباحث الفلسفة وكل ذلك تبع الفسافة وناصرها ، وكذلك كان الحال أيضا في العصور الوسطى ، ولكن في الأجيال الحديثة أخذت العلوم تنمو شيئا فشيئا حتى اعتزلت الفلسفة ، وانقسمت المعارف البشرية على نفسها ، وتشعبت أقسامها إلى فروع خاصة متباينة . فهذا علم الطبيعة ، أو الرياضة ، أو الطب ، أو الفلك ، وبعد أن كانت كل هذه العلوم مباحث لشيء واحد هو الفلسفة أصبحت علوما مستقلة كما تراها اليوم . كل قد أخذ لنفسه ناحية يعالجها ويختصها بالبحث والدرس ، وتغير كل ذلك ، ولكن الفيلسوف لم يتغير ، فإنه سيبقى دائما هو الذي يتأمل في الأشياء ويلاحظها ليفهمها ويفهم نفسه والناس (٢) .

[١] المدخل الى الفلسفة تأليف د. أرفلد كوليه ، ترجمة أبو العلا عفيفي .

الهجرة النبوية

لفضيلة الأستاذ حسن جاد

المدرس بكلية اللغة العربية

سائل الأفق عن سناه المنصرّ أىّ صبح على حياه أسفر ؟
 وسل الطير عاكفات على الروض تغاديه بالنشيد المعطر
 ضجّ في سمعها الغداة هتاف الـ كون ينساب بين ناي ومزهر
 فسرت في مسارب الأفق تحتها لحنانا إلى الربيع المدثر
 نشوة تغمر الحياة وذكرى تستفز الوجود في كل مظهر
 وقف العالم المحطم حيرا نـقلوبا إلى السموات تجأر
 وعيوناً تسأل الغيب ماذا من وراء الهلال يخفي ويظهر ؟
 ربّ زأغت عقولنا فشططنا واعتزنا بنصلنا فتكسر
 وإذا جرّد الحسام ضعيف فعلى نفسه يصول ويشهر
 ربّ ضلت آمالنا فابعث النو ر نسر في هداك لا تتعثر
 ربّ ضاقت صدورنا فاكشف الكر ب ويسر من أمرنا ما تعسر
 ربّ حارت عيوننا في نواحي الـ فق فارحم غناء طرف تحير
 كم تغنى بالعبقريّة قدم يتسأى وهما إلى عرش عبقر
 وادّعى المجد والبطولة وان راح كالليث بالبطولة يزأر

ذاك صوت التاريخ فلتسمع الد
نيا لصوت من السماء تحدد
هجرة المصطفى ورجع صداها
كل مجد حيالها ليس يذكر

* * *

من ترى ذلك الغريب بأرض
هي أوطانه وبالأهل تزخر
أنكرته والحق فيها غريب
ليس بدعا أن يستباح ويُنكر
أرهف الليل سمعه لخطاه
هامسات مما يخاف ويحذر
واحتواه الظلام سراً من الله عليه عين العناية تسهر
ورمال اليبداً مستبقات
وقع أقدامه زحاما لتظفر
كاد إشراقه يدل عليه
بمحيّا في خمة الليل أقر
والفضاء الفسيح يُنبئ عنه
بأريج يفوح منه وعبر
رب أنت النصير إن عفى الأهل ومن يعتصم بجلك يُنصر
وطن الحق موطنى فلك الأمر
كما شئت والقضاء المقدر

* * *

من ترى ذلك الذى غيّر التا
ريخ فتحاً وهز كسرى وقيصر ؟
من ترى الفارس الذى أفزع الأار
ض وفى كفه اللواء المنشر
من ترى الفاتح الذى طالع الوا
دى بجيش من الشعاب مجر
ذاك أم القرى طريدك بالأمس ومن يصطبر على البأس يظفر
إن للحق ساعة يقهر البا
طل فيها مهما طغى وتجبر
اسمى يا شعاب مكة هذى
هتفة النصر للنبي المؤزر
واشهدى يا سماء قد زلزل الشر
ودوت فى الأفق : الله أكبر !

* * *

أيها الشرق هذه قصة المجد فلا يرد عليك مجد مزور
قد وعاما الإسلام عاما فعاما
عظة الدهر والمفاخر تؤثر

يا رفاق الصبا تحية ظام
قد أذاب الحنين والشوق منه
ولهذى الذكرى الشريفة فضل
جمعنا كالطير بعد شتات
في ظلال النادى الحبيب التقينا
واستعدنا بساحه ذكريات
فرقنا الحياة في سبل العيد
معهد قد وفى لنا وعقنا
وأب صادق المحبة بر
قد تجافى أبنائه وجفوه
وإذا المرء عق معده لم
للقاكم يزجى السلام المعطر
خافقاً من بعدادكم يتفطر
ويد في اجتماعنا اليوم تشكر
وأناحت لنا اللقاء الميسر
وهو أندى ورد وأكرم مصدر
في سجل الأيام تطوى وتشر
ش وكنا في ظل أيك منصر
وما زال وافياً ما تنكر
صاغه الله من حنان وصور
ومن العهد ما يسان ويخفر
يرج منه خير لقوم ومعشر

* * *

يا صحابى هذا الندى صدام
وابتنوا صرحه ليعلم عنكم
واقصدوه في كل حين ليذهى
كل قوم في مصر من غير ناد
نسب ينتمى إليه بنوه
كل الله بالنجاح مساعيه
فاجعلوه لصوتكم خير منبر
وارفعوه يكن لكم خير مظهر
بتلافيكمو جميعا ويفخر
لا ينالون أى حق مقرر
لا تضيعوا أنساب معهد جوهر
ولا زال بالشبيبة أنصر

الصَّبغُ البِدِيعِي فِي مَدَرِّ السَّكَاكِي

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أحمد موسى

المدرس بكلية اللغة العربية

كان المنحى الذى نجاه عبد القاهر الجرجاني بأصباغ البديع ، أمثل المناحى وأجلها ، وأعودها على هذا العلم بأحمد النتائج وأطيبها ، إذ سلك به كما أسلفت مسلك المباحث التى يتقوّم منها أخواه : المعانى والبيان ، وجعل الحسن فيه ذاتيا أصيلا ، يتم الغرض بوجوده وينعدم بعده ، وأبرزه فى معرض سليم العبارة مشرق الديباجة ، قوى التصوير ، ينبىء عن ذوق أدبى معدوم النظير ، وقوة فى التحليل والغوص على أسرار الأساليب ليس لها فى بابها مثيل . فلما كانت أواخر القرن السادس وأوائل السابع الهجرى أخذ البديع كزميله ينحدر رويدا رويدا الى هاوية الإسفاف والانحطاط ، ويفقد صبغته الأدبية التى أبرزته فى معرض الإشراف والإعجاب ، ويتعثر فى قيود ضيقة قدّتها له المنطق ، وصاغتها له الفلسفة ، حتى صارهمّ العلماء — مؤلفين أو دارسين — مقصورا على عدد ألوانه ، والاكتفاء بتحديددها كما تحدد الكلمات اللغوية ، ثم سوق الامثلة التقليدية التى يتوارثونها كابر عن كابر ، حتى أصبحت الكتب التى ألفت فيه بعد السكاكى كأنها كتاب واحد ، فمن وقف على أحدها استغنى به عما عداه ، وذلك ما لم يكن له ظل فى المدرسة الأولى . وقد زاده تعثرا على مرّ الزمن وقوعه فريسة للشارحين والمحشين ، والمقررين الذين يرون أن الخدق والتّمهّر إنما يظهران فى العناية بالجدل الذى لا يفيد وافتراس الاعتراضات والشّبه . ثم الاشتطاط فى الإجابة عنها ، وما الى ذلك بما قضى على البديع ، وذهب بروعته الأدبية ، وأورده موارد العقم والجود .

وكان زعيم هذه الحلبة ، وممهد هذه الطريقة - سراج الدين أبو يعقوب يوسف ابن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ، شهد له ابن فضل الله في المسالك قال : « ذو علوم سعى إليها فحصل طرائقها ، وحضر تحت جناحه طوابقها ، واهتز للبعاني اهتزاز الغصن للبارح ، ولز من تقدمه في الزمان لز الجذع الضارح ، فأضحى الفضل كله يزم بعنانه ، ويذم السيف وفصله بسنانه »^(١) ، وقال أبو حيان في الارتشاف : « كان علامة بارعا في فنون شتى خصوصا المعاني والبيان ... »^(٢) ، وقد نهل السكاكي وعلم من إملأ موارد عصره ، فتلقي الفقه عن سديد بن محمد الخياطى ، ومحمود بن صاعد الحارثى شيخ الإسلام ، وهما من علماء الفقه على مذهب أبي حنيفة ، سوى أن الذين ترجعوا له على وفرتهم لم يعرضوا لشيخه في العربية ، ولعلمهم أغفلوا الإشارة إلى اعتماداً على تصريح السكاكي به في غير موطن من المفتاح : فقد قال : « وأرى أن شيخنا الحاتمي ذلك الإمام في أنواع من الغرر الذي لم يسمع بمثله في الأولين ، ولن يسمع به في الآخرين ، كساه الله حلل الرضوان ، وأسكنه حلل الروح والريحان ، كان يرى هذا الرأي »^(٣) . ولا نعرف من أمر الحاتمي أكثر مما ذكره السكاكي ، ولم يتناولوه أحد من شارحي القسم الثالث من المفتاح سوى أن سعد الدين التفتازانى قال في شرح ذلك القسم : « إن الحاتمي يلقب شرف الدين ، وهكذا تجد السكاكي يطريه ، ويشيد بعلمه ، ويشهد له بالتفوق والتبريز في غير موضع من كتابه ؛ ولا ننسى لإفادته من كتب السابقين ولا سيما كتابا عبد القاهر الجرجاني .

وأياً ما كان فقد نبغ السكاكي في فنون شتى ، وخلف آثارا كثيرة . وكان من أخطرها شأناً ، وأبعدها صيتاً كتاب « مفتاح العلوم » الذي رزق من الشهرة والرواج واشتغال الناس به اختصاراً وشرحاً وتقريراً وفظلاً ، ما لم يرزقه كتاب كان قبله أو بعده من كتب العربية ؛ أما الباعث على تأليفه فذلك ما يحدثنا

(١) بغية الوعاة للسيوطى ٤٢٥ .

(٢) بغية الوعاة ٤٢٥ .

(٣) مفتاح العلوم ٢١٨ .

به السكاكي ؛ يقول : « واعلم أن علم الأدب متى كان الحامل على الخوض فيه مجرد الوقوف على بعض الأوضاع وشيء من الاصطلاحات فهو لديك على طرف النمام ، أما إذا خضت فيه لهمة تبعثك على الاحتراز عن الخطأ في العربية وسلوك جادة الصواب فيها ، اعترض دونك منه أنواع تلقى لأدناها عرق القرية ، ولا سيما إذا انضم إلى همتك الشغف بالتلقى لمراد الله تعالى من كلامه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهناك يستقبلك منها ما لا يبعد أن يرجعك القهقري ... وهكذا يستمر في الكشف عن الحوافز التي أيقظت همته ، وشذت عزيمته ، إلى أن يقول : « ورأيت أذكيا أهل زمان الفاضلين الكامل الفضل قد طال إلحاحهم عليّ في أن أصنف لهم مختصراً يحفظهم بأوفر حظ منه ، وأن يكون أسلوبه أقرب أسلوب من فهم كل ذكي ، صنفت هذا ، وضمنت لمن أتقنه أن يفتح عليه جميع المطالب العلمية ، وسميته مفتاح العلوم . »

وقد استودع السكاكي كتابه المفتاح من أنواع الأدب دون نوع اللغة ما رآه لا بد منه للأديب ، فضمنه علم الصرف بتمامه ، وبين أنه لا يتم إلا بعلم الاشتقاق المتنوع إلى أنواعه الثلاثة ، وقد كشف عنها القناع ؛ ثم أورد علم النحو كاملاً غير منقوص ، وبين أن تمامه بعلى المعاني والبيان ، ثم بين أن تمام علم المعاني بعلى الحد والاستدلال فأتى بهما . ولما كان التدرب في على المعاني والبيان موقوفاً على ممارسة باب النظم وباب النثر أوردتهما في كتابه ، ثم لما كان صاحب النظم يفتقر إلى على العروض والقوافي ثنى عنان القلم إلى إيرادهما ، ثم أشار إلى أنه ما ضمن كتابه كل أولئك إلا بعد تمييز بعضها عن بعض التمييز المناسب ، وتلخيص الكلام على حسب مقتضى المقام والتمهيد لكل من ذلك بأصول لا تفتة ، وإيراد الحجج المناسبة ، وتقرير ما صادف من آراء السلف بقدر ما تحتمله من التقرير ، مع الإشارة إلى ضروب مباحث قلت عناية السلف بها ، وإيراد لطائف مفتنة لم يعرض لها أحد من قبله .

هذا ، وقد قسم السكاكي كتابه إلى ثلاثة أقسام .

أما القسم الأول : ففي علم الصرف ، وأما الثاني ففي علم النحو ، وأما الثالث

ففي علمي المعاني والبيان، ولسكن الذي نال الحظ الاوفر من الشهرة، ورزق سعادة الجد وحسن الطالع، واستحوذ على موفور العناية من الناس، وكان محل الرضا، ومهوى الأنفس، وموطن القداسة والإجلال منذ ظهر إلى الوجود إلى زماننا الحاضر، بل إلى أن تقوم الساعة، هو القسم الثالث في علمي المعاني والبيان، ذلك أنه نحا بالبلاغة نحواً جديداً لم ينح على هذا الوجه من قبله، فجري على طريقة من الضبط والتقسيم، والتجديد والتدرج في توليد المسائل اللاحقة عن المسائل السابقة، والإحالة على قواعد العلوم الأخرى، والكشف عن سرّ انحصار العلم في أبوابه، أو الباب في مسائله.

واقراً إن شئت فصلاً عقده لضبط معاهد علم المعاني^(١)، واستعرض هذا القسم من الكتاب تراه قد أمعن في الغوص بقواعد البلاغة إلى أعماق بحار العلوم العقلية من منطق وفلسفة، وجري في ذلك إلى غاية بعيدة المدى، مترامية الأطراف، كانت أولى الخطوات الواسعة بعد قدامة بن جعفر في النزول بالبلاغة إلى هذا الدرك الشائن الذي نرى عليه البلاغة الآن.

واقراً للتدليل على ذلك مثلاً من أمثلة كثيرة قوله في المقدمة: «وأنت تعلم أن المفرد متقدم على أن يؤلف، وطباق المؤلف للمعنى متأخر عن نفس التأليف، لا جرم أنا قدمنا البعض على هذا الوجه وضعاً لنؤثر تقدماً استحققه، ومثلاً آخر: قال: في أول علم المعاني: «ولما كان علم البيان شعبة من علم المعاني لا يفصل عنه إلا بزيادة اعتبار جرى منه مجرى المركب من المفرد لا جرم آثرنا تأخير».. ومثلاً ثالثاً: «وأما الحالة التي تقتضى وصف المعرف وهي إذا كان الوصف مبيّناً له كاشفاً عنه كما إذا قلت الجسم الطويل العريض العميق محتاج إلى فراغ يشغله».

وهكذا إذا قرأت ما اخترعه في الجامع بين الجملتين من باب الفصل والوصل، وما ابتدعه في تقسيم وجه الشبه من باب التشبيه حيث بناء على قواعد الحس المشترك، وما قدمه بين يدي علم البيان من حديث الدلالات العجماوات، اطمأننت إلى صدق ما نقول من أن السكاكي أول جان على هذه العلوم بصلاح

المنطق والفلسفة على هذا النحو المصرف الغالى الذى رأينا بذوره الأولى عند قدامة بن جعفر فى نقد الشعر ، فأمعن فيه السكاكى ، واستضمن ورمه ، واستحلى مذاقه ، حتى ساغ لى أن أحكم مطمئنا إلى هذا الحكم — بأن البلاغة قد ودعت عصرها الذهبى الحافل بالذوق الأدبى بانطواء صفحة أستاذها الذى بز السابقين ، وأخمل اللاحقين : الشيخ عبد القاهر الجرجانى .

وقد صادفت هذه الطريقة رواجاً عند المتأخرين ، فأسرفوا فى استخدامها حتى ليخيل إليك وأنت تقرأ جمهورها أنك أمام عدة علوم قوامها المنطق ، والفلسفة ، وعلم الكلام ، وما إلى ذلك ؛ فأما البلاغة فالعفاء عليها وسط هذه الأخطا ، أو قل إن شئت : فأما البلاغة فهى كالبرق الخاطف بين هذه السحب المتركمة ، يبدو قليلاً ثم يختفى كثيراً .

كان ذلك شأن الذين خلفوا السكاكى وتملأوا من طريقته إلا قليلاً من رحم الله فى أوقات قليلة .

أقرأ قول سعد الدين التفتازانى فى المطول بعد أن أفاض بما فتح الله عليه فى شرح مقدمة علم البيان : « هذا هو الكلام فى شرح مقدمة علم البيان على ما اخترعه السكاكى ، وأنت خبير بما فيه من الاضطراب ؛ والأقرب أن يقال علم البيان علم يبحث فيه عن التشبيه ، والمجاز ، والكناية ؛ ثم يشتغل بتفصيل هذه المباحث من غير التفات إلى الأبحاث التى أوردتها فى صدر هذا الفن ^(١) . وأقرأ قوله كذلك فى التعليق على أقسام التشبيه : وأعلم أن أمثال هذه التفسيرات التى لا تتفرع على أقسامها أحكام متفاوتة ، قليلة الجدوى ، وكأن هذا ابتهاج من السكاكى باطلاعه على اصطلاحات المتكلمين ، فله در الإمام عبد القاهر ، وإحاطته بأسرار كلام العرب ، وخواص تراكيب البلغاء ، فإنه لم يزد فى هذا المقام على التكثير من أمثلة أنواع التشبيهات وتحقيق اللطائف المودعة فيها ^(٢) .

أما أسلوب السكاكى فقد كان برزخاً بين المتقدمين الذين جمعوا فى مناحم بين العلم والعمل ، وبين المتأخرين الذين أوردوا البلاغة موارد العلوم الجدلية

النظرية، واكتفوا منها بتحديد الألوان كما تحد ألوان العروض أو ألفاظ اللغة، وجروا في هذا الميدان شوطا بعيدا متسابقين في الاختصار المخل، أو الإطناب الممل، والجري وراء ما لا يجدى البلاغة أو يفيدها من قريب أو من بعيد؛ لذلك كان السكاكي كثيرا ما ينزع إلى الغموض والالتواء، ويكثر من الجمل المعترضة التي تضطر القارئ إلى الوقوف حيالها زمنا قد يطول، مستوحيا فكره في حلها باذلا جهده في الجمع بين تلك الجمل وهذه التراكيب المتناكرة المتنافرة.

ولعل ذلك هو السر في أنه أول كتاب في العربية استنفذ الجهود الكثيرة، وشغل الأقلام العديدة في الشرح والتبيين، والتوضيح والتقرير، وقد أحس السكاكي نفسه بالغموض يشيع في جنبات كتابه، فعزم على إملاء حواش على هذا الكتاب لبسط ما أجمله، وتوضيح ما أبهمه.

اقرأ قوله في مقدمة مفتاحه « وهأنأمل حواشي جارية مجرى الشرح للمواضع المشكلة، مستكشفة عن لطائف المباحث المهمة، مطلعة على مزيد تفاصيل في أما كن تمس الحاجة إليها ^(١). ذلك ما صرح به السكاكي بنفسه في كتابه، غير أن من عرضوا للكتاب بالاختصار أو الشرح لم يذكروا شيئا عن هذه الحواشي، ولعل المنية عاجلته قبل أن يبر بهذا الوعد، وينجز هذا العزم.

نقول هذا للحقيقة والتاريخ، وذلك لا ينسينا ما أفادته البلاغة على يد السكاكي من حسن التنسيق والتبويب، والدقة في التقسيم، والمهارة في التفصيل، وإتقان التمييز بين مباحث علم المعاني وعلم البيان، فإن هذا مما يحمد تاريخ البلاغة للسكاكي، ولا نكون مغالين إذا قلنا: إنه لو سلم هذا القسم من مزجه بالعلوم العقلية، ومن إخضاعه للمجادلات الافتراضية، لكان هذا من خير المؤلفات البلاغية التي تعين من حرموا السليقة الأدبية على فهم كتابي عبد القاهر الجرجاني.

أما لماذا حصر السكاكي البلاغة في علمي المعاني والبيان ولم يجعل البديع علما على حدة واستقلال، فذلك ما سنعالجه في كلة تأتي إن شاء الله ؟

الالتزامات المركبة

لفضيلة الأستاذ الجليل صالح بكير

المدرس بكلية أصول الدين

بيننا فيما سبق الالتزام في حد ذاته ، ولكن هذا الالتزام قد يقيد في بعض الأحيان بقيود من القيود ، ويسمى في مثل هذه الحالة بالالتزام المركب . وهذا القيد قد يكون شرطاً أو أجلاً أو تخييراً أو بدلاً أو تضامناً .

الشرط : هو تعليق الالتزام على أمر محتمل الوقوع . فإذا تحقق الشرط تحقق المشروط . وهو على نوعين : توقيفي أو فاسخ . فالتوقيفي ما يترتب على تحققه ووقوعه نشوء الالتزام ووجوده . والفاسخ ما يترتب على تحققه سقوط الالتزام الذي كان قائماً وزواله مع جميع آثاره .

فمثال التوقيفي أن يتعاقد شخص مع شركة تأمين الحريق ؛ لتلتزم الشركة بدفع مبلغ معين من المال إذا حصل حريق ؛ فوقوع الحريق أمر احتمالي ؛ فإذا وقع الحريق وجب على الشركة دفع المبلغ المتفق عليه . ومثال الشرط الفاسخ بيع الوفاء وهو أن يبيع زيد لعمرودارا ويشترط زيد على عمرو أن البيع يكون مفسوخا إذا رد الثمن في مدة معينة ؛ فإذا رد الثمن في المدة المتفق عليها انفسخ البيع .

والشرط قد يؤثر في صحة الالتزام فيبطله أو يجعله فاسداً غير صحيح . فمثلاً يؤثر في صحة الالتزام : الشرط المستحيل عقلاً أو عادة بأن كان غير ممكن كلبس السماء مثلاً . ومثل هذا الشرط يبطل عقود المعاوضات إذا كان شرطاً توقيفياً ، ويعتبر لغواً بالنسبة لعقود التبرعات ، فيصح العقد ويلغو الشرط . وإن كان الشرط فاسخاً فإنه يعتبر لغواً بالنسبة لجميع العقود .

وكذلك الشرط المخالف للقانون أو للنظام العام أو الآداب الفاضلة ، يبطل عقود المعاوضات ويكون لغواً بالنسبة لعقود التبرعات .

وأيضاً مما يؤثر في صحة الالتزام الشرط الإرادى، وهو الذى يוכל فيه الأمر المشروط لإرادة المدين، يعنى أن تنفيذ الالتزام مرهون بإرادة المدين واختياره إن شاء نفذ وإلا فلا، كتعهد ببيع دارى إذا أردت أنا. فمثل هذا الشرط يؤثر في صحة الالتزام ويبطله إن كان شرطاً توقيفياً ويكون لغوا إن كان شرطاً فاسخاً فيصح الالتزام ويلغو الشرط، ومع هذا إن كان الشرط الإرادى قد ترك لإرادة المدين وظروف الأحوال كتعهد شخص بعمل شئ عند القدرة عليه، أو إذا تحسنت الأحوال والظروف وما أشبه ذلك، فإن الشرط يكون صحيحاً جائزاً.

آثار الشرط : طالما أن الشرط التوقينى لم يتحقق ويحصل فحق الدائن ما زال معدوماً، وكذا لا يجوز له أن يطالب مدينه بالوفاء، كما أن للمدين حق استرداد ما دفعه خطأ قبل حلول الشرط، ومع هذا فللدائن حق اتخاذ الإجراءات اللازمة لأجل المحافظة على حقوقه.

وتنتقل حقوق الدائن لورثته إذا حصلت وفاته قبل تحقق الشرط وأما إذا تحقق الشرط فقد نشأ الالتزام ووجد، وترجع آثاره إلى يوم التعاقد. وأما إذا تخلف الشرط بأن لم يتحقق وقوعه كما إذا شرط التعهد بزواج فلان فمات فلان هذا، فإن التعهد يعتبر كأن لم يكن وكأنه لم يوجد التزام. هذا إن كان الشرط توقيفياً وإلا فالالتزام باق وقائم إن كان شرطاً فاسخاً.

الاجل : هو أمر مستقبل محتم الوقوع يترتب على تحققه وجوب تنفيذ الالتزام أو عدم تنفيذه. فهو نوعان : توقينى وفاسخ. فالتوقينى هو ما يترتب عليه تأجيل تنفيذ الالتزام، والفاسخ ما يترتب على وجوده زوال الالتزام وانعدامه. وفائدة الاجل قد ترجع إلى المدين وحده، وعلى هذا يجوز له التنازل عنه؛ فيصح له الوفاء بما تعهد به قبل حلول الاجل، وقد ترجع الفائدة للدائن والمدين معاً. وفي هذه الحالة لا يستطيع المدين التنازل عنه إلا برضا الدائن أو أن يدفع له تعويضاً.

سقوط الاجل : إذا أفلس المدين أو أضعف التأمينات المتفق عليها بينه وبين الدائن فإن الاجل يسقط ويجب الوفاء بالالتزام وتنفيذه فوراً. وهناك نوع من الاجل يُسمى بالاجل القضائى أو بالمهلة القضائية وهو ما

يمنحه القاضى للدين لأجل الوفاء بالنزاهه ، ولكن فى حدود وشروط بحيث لا يترتب على المنح ضرر بالدائن .

الفرق بين الأجل والشرط : الأجل أمر محتم الوقوع ، وأما الشرط فأمر محتمل الوقوع ، كما ان الالتزام فى الأجل موجود وقائم ، وإنما التنفيذ هو الذى يؤخر فقط إلى حلول الأجل ، وأما فى الشرط فالالتزام غير قائم فى التوقيف وعلى خطر الزوال فى الفاسخ . ومن الفروق أيضا أنه لا يجوز للدين استرداد ما دفعه خطأ قبل حلول الأجل التوقيفى بخلاف ذلك فى الشرط التوقيفى ، وأخيراً إن الشرط له أثر رجعى يرجع ليوم التعاقد ، وأما الأجل فأثره فى المستقبل .

الالتزامات التخيرية : هى التى يكون فيها محل الالتزام أموراً متعددة تبرأ ذمة المدين بالوفاء بواحد منها على حسب اختياره ورغبته ؛ كأن يتعهد بإعطاء قنطار من القطن أو ثلاثة أراذب من القمح ، فذمة المدين تبرأ بالوفاء بواحد منها . وحكم الالتزام التخيرى أن الخيار يكون للدين ، إلا إذا وجد نص قانونى أو اتفاق على أن الخيار للدائن .

وبلاحظ : أنه إذا كان أحد الأمرين الخير بينهما مخالفاً للقانون أو غير مشروع أو هلك ، وكان فى هذه الحالة الخيار للدين ، فيمتنع الوفاء بالأمر الآخر . ولكن إذا كان الخيار للدائن وهلك أحد الأمرين الخير بينهما فللدائن طلب التعويض أو الوفاء بالأمر الآخر . وأما إذا هلكت الأشياء جميعها فللدائن طلب التعويض لئلا واحد منها .

الالتزامات البدلية : هى ما كان فيها محل الالتزام شيئاً معيناً بذاته ، ولكن يُرخص للدين أن يُبرى ذمته بالوفاء بإعطاء شيء بدله ، كأن يوصى شخص لغير وارثه بعقار ، ولكن يُرخص لورثته بأن يعطوا بدلاً عنه مبلغاً معيناً من المال . وكهلاك الرهن ، فإنه يجب على المدين أن يقدم فوراً رهناً آخر بدل الهالك .

والفرق بين الالتزامين التخيرى والبدلى ، أن فيه جميع الأشياء ، بينما فى الالتزام البدلى شيء معين بذاته ، لكن تبرأ ذمة المدين بإعطاء شيء آخر بدله ، كما أنه لا يجوز للدائن أن لا يطالب إلا بالشيء الأصلى ، فلو هلك هذا الشيء بأفة سماوية برئت ذمة المدين ، وليس للدائن أن يطالب بالبدل ، كما أنه إذا كان الشيء الأصلى محظوراً بطل الالتزام كله .

الشعر في عصر اسماعيل

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد حسين الفار
المدرس بقسم البحوث الإسلامية بالأزهر

لقد شاعت النهضة في كل مرافق الحياة في ذلك العصر، وامتدت إلى جميع نواحيها، وأثمرت تلك الغراس التي بذر بذورها محمد علي، وتعهدها إسماعيل، فدنّت قطوفها، وطاب جناها، وآتت أكلها، وأخصب مرعاها، فغذت العقول ونقفت الالباب، وفسحت أمامها أفق النضوج، ومجال التفكير، واتسع نطاق العلوم الجديدة والفنون الحديثة في هذه الديار، وكانت العربية الدائرة على ألسنتهم إبان ذلك غير كافية في ترجمة هذه العلوم ونقل تلك الفنون؛ فولوا وجوههم شطر كتب الأقدمين التماساً لبعض الألفاظ الفنية، والمصطلحات العلمية، فإذا عزم ذلك فطروا هم مصطلحات وابتكروا ألفاظاً. على أن تلك الأغراض العلمية والفنية التي لفتتهم إلى كتب الأقدمين، نفخت فيهم روح التطلع إلى آثار السابقين عامة، ولا سيما ما كان منها في أبواب اللغة والأدب فراعهم نسجها وراقهم بيانها، وهالهم أسلوبها وبهرهم شأنها، فأكبوا على دراستها، وطبعوا طائفة منها، وكان في مقدمة ما طبعوه كتاب «كليلة ودمنة»، لابن المقفع. ومنذ ذلك الوقت أخذت النهضة الأدبية تسير سيراً حثيثاً نحو إحياء الأدب القديم، والتوفر على مراجعته؛ فسرت روح الحياة إلى كتب الأدب العربي العريق بما فيه من شعر جاهلي وإسلامي، وأموي وعباسي، في أنضج عصور العربية وأزهاها؛ ولكن ذلك كله لم يزحزح الشعراء الكلفين بالقديم قيد أنملة عما التزموه من أغراض ورثوها فالفوها: من مديح ورثاء ونسيب متكلف أو هجاء، ولم يصرفهم عما أسرفوا فيه من اقتناص جناس أو مقابلة، وتصيد تورية أو مشاكلة.

يقتسرون الكلام على ذلك اقتساراً ويضمنونه بعض أنواع البديع عنوة واقتدراً غير مكثفين بما يرسله الخاطر إرسالاً ، أو تدثر به قرائحهم غفواً وارتجالاً .

وإذا بالبارودي رحمه الله ينهض بالشعر نهضة أحييت دولته ، ويثب به وثبة ردت صولته ؛ فأرسله جزل العبارة ، نغم الأسلوب ؛ فأسر به الألباب ، وسحر القلوب ، وطار به في سماء المتقدمين ، وحلق في أفق الجاهليين والاسلاميين ؛ خفز حب المنافسة أو الرغبة في الاحتذاء ، بعض معاصريه من الشعراء ، الى محاولة أن يفروا فريه ، وأن يرقوا رقيه ، وكان لابد لهم لسكى يعدوا أنفسهم للجولان في تلك الحلبة والصيل في ذلك الميدان ، من استظمار أشعار الفحول السالفين : من جاهليين وإسلاميين ، فسمت مداركهم ، وثقفت ألسنتهم ، وقويت ملكاتهم ، ونبل قريضهم وقلت هناتهم ، وأخذوا يتحرزون عن التماس المحسنات البديعية والجهد في إيرادها ، وسوق بعض الآيات لمجرد اصطياها ، جرياً على ما كان مألوفاً بين إخوانهم السابقين والمعاصرين ، فتحملوا من هذا كله ، ونسجوا على منوال الأقدمين ؛ فأقن نسجهم متلاحماً ، مشرق الديباجة لحنه الجزالة والرصانة ، وسداه الرقة والإبانة .

هذا وإن البارودي مع سمو أدبه وعلو كعبه ، لم يعد أغراض السابقين ، ولم يرم إلى غير أهداف الأقدمين : من غزل ونسيب ، ومديح أو تشبيب . أو إطراء أو هجاء ، أو نثر أو رثاء ، ووصف الى حد ما ، أو بكاء ديار ، ووقوف بد من وآثار . فإذا كانت أغراض الشعر قد اتسعت بعد ذلك رقعتها ، وبسقت على مر الأيام دوحتها ، وتفرعت أفنانها ، وتشعبت أغصانها ، فلقد كان كل هذا رويداً رويداً ، وسار الشعر في تلك السبيل ويئدا فلم يستطع مجازاة النثر الذي كان أسبق تطوراً ، وأقوى منه الى مسرع الارتقاء سيراً إذ هو قوام التفاهم بين الناس تحفزه إليه ضرورة مطردة ، وتدفع إليه حاجة لازمة خالدة . وأما الشعر فهو شيء كالى ليس فيما يعرض للناس من شئون ملجئ إليه ، ولا فيما يدور بينهم من أسباب حامل عليه ، وما جنح له بعض الأدباء إلا لتسجيل عاطفة تساورهم ، أو خيال درت به خواطرهم ، أو للتسرية عن النفس بشكاة فاضت بها قلوبهم ، أو حرقة أقضت بها جنوبهم ، وقد يزورون له رداء العاطفة حتى في المدح والهجاء ، والتهنئة والرثاء ، أو غيرها من أغراض ، وليس معنى هذا أنه لا يأتى فيما تحفز إليه ضرورة

أو تدفع إليه حاجة ؛ لا فلقد تدعو إليه بعض عظامم الامور ، وقد تحمل على التماسه جلى المواقف ؛ كسأريث نار الحماسة ، واستثارة كامن الشجاعة ، وإلهاب مشاعر الناس ، وبعث روح الحمية فى نفوسهم ، واستنهاض هممهم ، وشحن عزائمهم لخوض غمار حرب أو رد عادية عدو ، أو لتثبيت دولة ، والذود عن حياضها ، والكفاح دون حرمها وأرباضها ، والإبانة عن حجتها ، والتزام محبتها أو لمناهضة دولة أخرى والخروج على سلطانها ، والتمرد عليها والإنقاص من شأنها ، أو حث الناس على المساهمة فى عمل نافع يعم خيره ، أو يخص أثره .

ولكن هذه البواعث اليسيرة التى تحمل آونةً عليه ، وتدفع أحياناً إليه ، كانت غير كافية لأن تريم به من مكانه ، أو تعدل به عن مسيدانه ؛ فترفع به فى مرتبة الاحتياج إليه الى مكانة البشر الذى لا غنى للناس عنه ، ولا بد لهم منه ؛ فكان النهوض الأدبى بالنثر تالياً للنهضة العلمية ؛ لقيام الحاجة الى ترجمة المعانى وقتل المسلولات وتحديد الألفاظ الفنية ، واستخراج المصطلحات العلمية ، فكان النثر بطبيعة الحال أسبق من الشعر ثوباً ، وأسرع منه نهوضاً ؛ إذ لبث الشعر يتعثر فى أذيال الجود والتسكف حتى أتاح الله له البارودى ، كما أسلفنا ، فرفع لواءه ، وشاد بناءه ، وتبعه قومٌ توفروا على الأدب القديم حباً فى مجاراته ، وتوسلا الى محاكاته ، فأضفى عليهم القسديم رداءه ، وأسبغ عليهم حسنه ورؤاه ، ولكنهم أسرفوا فى المحافظة على ألفاظه ومبانيه ، والتزام الجرى فى حين أغراضه ومعانيه ، برغم أن بعض هؤلاء قد اطلع على ثقافات الغربيين ونهل وعل من آداب السلاطين ، وليس ينكر فضل هؤلاء فى إنهاض الشعر بعد طول ركوده ، والدأب على انتشاله من وهدة خموده ، ولكن إخواناً لهم آخرين قد طاروا الى مثل سمائمهم ، وحلقوا فى مثل جوائهم ، إلا أنهم فاقوهم بما عُنوا به من التجديد والابتكار ، وبما نزعوا اليه من كل طريف أتاح للشعر العربى الانتعاش والازدهار ؛ فهم مع علو كعبهم فى الآداب العربية قد رَوّوا نفوسهم من الآداب الغربية والثقافة الأوروبية ؛ فزجوا على حد تعبير بعض الأدباء « بين الثقافتين ، وتخرجوا فى المدرستين ، اهـ .

فجلبوا لنا من فردوس أدب الغربيين جماً وفيراً من أزهيره ، وأجروا فى بحار آدابنا العربية فيضاً غزيراً من سلسله ونميره ، وفسحوا ما شاء الله لهم

أن يفسحوا من رقعة أغراض الشعر العربي؛ فجألوا به في كل مجال ركض فيه الشعر الأوروبي؛ فأتوا به على كل ما أتى عليه الغربيون بشعرهم من وصفٍ لآخر ما تمخض عنه العلم الحديث من ابتكار واختراع، ومنتهى ما وصل إليه العقل البشري من تفننٍ وابتداع.

فن وصف لسفينة البخار، إلى إشادة بالطيارة والقطار، ومن جولات في الحجاب والسفور، إلى تغنٍ بحكم الشورى و«الدستور»؛ ومن زهو بالبوارج التركية. إلى إعجاب بالآهرام المصرية، ومن خوض كذلك في تكليل «أنقرة» إلى حديث عن مدينة الاسكندر أو مجده القاهرة. ثم إلى تأنيب «لكرومر»، أو نقد لمشروع «ملر» إلى افتخار بالجامعة وتنويه بالآزهر. ومن تعريج على الجانِب القصصى. بهذا الفتح الجديد ابتكار الشعر التمثيلي جرى هؤلاء المجددون في تلحم الميادين، ولم يألوا جهداً في افتراع أروع المعاني من نبات أفكارهم، وأبرع الأساليب من عرائس ابتكارهم، وكان لا بد لأصحابنا هؤلاء وقد زاحوا الغربيين بمنالكهم، ونافسوهم في سرائر قريضهم وأخيلة أدبهم، من التقاط ألفاظ أعجمية، وإقحام كلمات أجنبية، كما في أسماء الأماكن والأشخاص حين لا ترجمة لها فلا يحيد عنها. والأمثلة على ذلك قائمة «في قصيد» مسجد أيا صوفيا، أو قصر «يلدز» أو جسر «البسفور»، أو غاب «بولونيا» وعلى رسم «نابليون»، وذكرى «كرنارفون»، وكذا «توت عنخ أمون». الخ..

هذا وإن أشعر أولئك المجددين غير مدافع، ذلك الذي انتهى إليه لواء إمارة القريض بلا منازع، شاعر الملوك والأمراء وأمير الشعر وسيد الشعراء أحمد شوقي بك، الذي دانت له دولة الأدباء، وعنت لعبقريته الغذة وجوه الشعراء، فبايعوه في حفل رسمي بالإمارة عليهم جميعاً في إشادة وتنويه واحتفاء، واعتزاز بتيك المعبقية النادرة وإعجاب وخيلاء.

وبمشيئة الله سبحانه سأل في مقال تال أن أعرض لجانب من شاعرية هذا الأمير الجليل: أمير شعراء هذا العصر، ومفخرة القريض في كل جيل، والله المستعان؟

الاسلام دين الامن والعمران

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ على رفاعي
مفتش الوعظ

لله سبحانه في مملكته نظامه ، وله حكمته وأحكامه ؛ أراد لها العمران تخلق فيها
بني الإنسان ، وأمرهم بالتعاون على البر والتقوى ، ونهاهم عن التعاون على الإثم
والعدوان ، ليؤدوا رسالتهم الإنسانية في هذا الكون على مقتضى ما يليق بهم
كذوى عقول وأسماع وأبصار ، يدركون بها سر الحياة ، وقيمة الوجود ، وحقيقة
العمل ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، ، وسخر لكم ما في السموات
وما في الأرض جميعاً منه ، ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله
لا تحصوها ، .

رسم للناس طريق الخير ، وهياً لهم سبيل التوفيق ، وحذروهم مما يعود على أفرادهم
ومجتمعهم بالأذى والضرر مما ينغص عليهم الحياة ، ويكدر صفو العيش ، ويباعد
ما بين القلوب ، حتى إن جميع الديانات التي نزل بها وحى السماء لتبحث كل مؤمن بها
على المحبة والرحمة ، والإيثار والعدل ، والصفح والتسامح ، وما إلى ذلك من صفات
الإنسانية الكاملة ، والاخلاق الفاضلة ، كي يسلم المجتمع من آفات التفرق
والانحلال التي تودي بالقوة ثم بالعزة والكرامة ، وتنتهي بالخذلان والفشل ،
« أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعشى ، إنما يتذكر أولو
الالباب ، الذين يوفون بعهده الله ولا ينفقون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر
الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء
وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، ويدرون بالحسنة
السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار ، .

ولقد جاءت الحنيفية السمحة بما شرع للأفراد والجماعات والامم كيف
تكون مسئولية كل إزاء أنفسهم وإزاء الغير بما لا لبس فيه ولا لإيهام ، كي يسير

العالم قُدمًا في سبيل الحياة الصحيحة ، لأمّا أطرافه ، مستجمعًا قواه ، هادفًا إلى أطيب العواقب ، وأثمرت الغايات ، وما كان للإسلام ، - ومعناه معلوم من لفظه ومفهوم من سيرة أهله - أن يحل ما حرم الله ، وينشر الفوضى بين المسلمين .

ولقد كان عقلاء الأمة المصرية الإسلامية يشفقون على أفرادنا وجماعتنا مما رمتنا به بعض الأمم من علل وأمراض ، لم تألفها الأمة ولا الأفراد ولم يقرها الإسلام ، حتى ظهرت فينا أخيراً تلك البدعة الممقوتة النكراء ، بدعة القتل والاعتقال ، فانتخلعت منها القلوب وأحسستنا الخطر الداهم ، وتوقعنا الشر المستطير ، ما لم ينفء أولئك اللاعبين بالنار ومستقبل الأمة إلى عقولهم ويرجعوا عن غيهم ، ألا إنهم ليأتون شر أنواع الاعتداء بهدم ما سَوَّى الله بيديه ، ولحاق الفناء بمن لهم حق الحياة التي هيأها الله لهم .

إن جريمة القتل جريمة لا يعدها في الذنوب سوى الشرك بالله « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب الله عليه ، ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً ، وهل يوجد مؤمن يفسكر في قتل إنسان بعد ما يسمع قول النبي الكريم « لزوال الدنيا وما فيها أهون عند الله تعالى من قتل مؤمن ، ولو أن أهل سمواته وأهل أرضه اشتروا في دم مؤمن لأدخلهم النار » ؛ وعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أعان على دم امرئ مسلم بشطر كلمة كتب بين عينيه يوم القيامة آيس من رحمة الله » وروى عن عبد الله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه سأل سائل ، فقال : يا ابن عباس هل للقاتل توبة ؟ فقال له ابن عباس ، كالمعجب من مسأله : ماذا تقول ؟! مرتين أو ثلاثاً ، ثم قال ابن عباس : ويحك ، وأنى له توبة ؟! سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول « يأتي المقتول معلقاً رأسه بإحدى يديه ، متلبياً قاتله بيده الأخرى ، فيقول الله تعالى : تعست ، ويذهب به إلى النار » .

إن أول جريمة على وجه الأرض ، اهتزت لها جنبات الكون هي قتل أحد أولاد آدم أخاه ، وقد حكى القرآن الكريم هذه الفعلة الشنعاء ، فصور اللين والتساح في جانب المقتول ، والقسوة والوحشية في جانب القاتل ، قال « لا قتلنك ،

فأجابه المقتول في وداعة المؤمن وتسامح الكريم : « لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك ؛ إني أخاف الله رب العالمين ، إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين ، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ، ولعظم شناعة جريمة القتل بين الله في كتابه أنه « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » .

إن أول حادث فتح باب الفتنة على مصراعيه في الإسلام ، وفرق بين المسلمين ومزق وحدتهم ، وأضعف قوتهم هو قتل الإمام العادل عمر بن الخطاب ، ولم يقتله مسلم ، لأن دين المسلم يمنعه من ارتكاب هذه الجريمة المنكرة ، بل قتله رجل مجوسى اسمه أبولؤلؤة غلام المغيرة ، بتدبير سيء من رجل موتور ذى سلطان مخلوع اسمه الهرمزان ، وأن عمر العظيم حين طعن سأل من حوله : هل اشترك أحد من المسلمين في قتله ؟ فأجابوه : كلا يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : الحمد لله الذى عصم أمة محمد من أن يشترك أحد منهم في قتل عمر ، وإنما سأل عمر سؤاله السابق لعلمه أن بعض صغار الاحلام قد يكون لهم رأى في الحكم ، يدخل عليهم من تأويل فاسد لا يقرهم عليه الإسلام الذى حث على استتباب الأمن والنظام ، فأراد عمر رضى الله عنه تذكير المسلمين بمثل قول النبي صلى الله عليه وسلم « من كره من أميره شيئاً فليصبر ، فإن من خرج من السلطان شبراً مات ميتة الجاهلية » ؛ وعن أبى هنيذة وائل بن حجر رضى الله عنه قال : سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ، ويمنعوننا حقنا فما تأمرنا ؟ فأعرض عنه ، ثم سأله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اسمعوا وأطيعوا ، فإنما عليهم ما حملوا ، وعليكم ما حملتم » .

هذا أيها المسلمون حكم الله ورسوله ، فلا يظلمن الإسلام ظالم بالاعتداء على الناس باسمه ، فإنما هو سلم وسلام وتسليم في حدود بينة ، وقواعد مرسومة ، فلا تعرضوا أنفسكم للضياح والفشل ، وبلادكم للفوضى والاضطراب ، وخافوا يوماً يجعل الولدان شيباً .

ما ذنب الأسر تنسكب بفقد عائلها الذى كان الأمل المرجى ، والعماد الذى عليه بعد الله تعالى المعول ؟! سلوا اليتامى والأرامل وأثامكلات تمرقوا شناء، الجرم وعظم المصيبة ؛ ليت شعرى ، كيف يكون الجواب ! ثم ماذا جنى أهل الجنة يتعرضون للنسكبات ، والهموم والاحزان على أيدى أحب الناس إليهم من صغار العقول سفهاء الأحلام ، أولئك الذين يتركون لخيالات أهلهم ، كيف تكون عقبي أولئك الأغرار ، جزاء ما أقدموا عليه من اعتداء أثم وإجرام شنيع .

وإنى لتعرفنى من الهول هزة كلما تصورت أن أولئك الأغرار الذين ينفخ الشيطان فيهم حتى يأتوا فعلتهم الشنعاء ، سيقعون فى شر الأسى والندم حين تطبق عليهم أيدى العدالة ، فتخور منهم القوى ، وتحلل العزائم والأعصاب ، وتطيش الأحلام وهم فى مستقبل العمر وزهرة الصبا ، تطفى مصابيهم وتذبل زهراهم ، وقد كانوا لدى الأهل والأمة بين الجفون وطيات الجوانح ، قضى بهم الحياة وتشرق الأيام ، فأصبحوا فى عداد المجرمين ، ينتظرون شر المعائب وأخوف العواقب ، مشيعين بالسخط والازدراء ، على حين كان أمامهم من ميادين المجد والعظمة ما يخلد لهم أطيب الذكر وأشرف الأثر .

أيها الشباب ! إليكم نصيحة خالصة لوجه الله : أنتم عدة الأمة ورجاؤها وأملها ، فتسلحوا ليومكم بالعلم والعرفان والمحبة ، كى تكونوا جنودا صالحين ، تؤدون رسالة الإصلاح والعمران ، حين يهيم لكم الوطن ميادين العمل ، ويؤنكم مقاعد الجد والنشاط ؛ هناك تتجهون بكل قواكم وتفكيركم وتجربتكم إلى ما يعلى شأن الوطن ، ويرفع صرحه ويدعم بنيانه ؛ وهنالك تكون التضحية بكل ما يطلب الوطن منكم من نفس ومال وبنين ، أما أن تقضوا على أنفسكم والعالمين لصالحكم من أهل وطنكم ؛ فذلك هو الإفلاس والانتحار ، والعمل ضد الوطن وتهيمة الجو للأعداء ، وهو ما أعينكم بالله منه ، وأرجو ألا يكون له أثر بينكم ، كى يصفو الجو وتطمئن القلوب ، وتستقيم الأمور ، ويكبت الأعداء ، وتنتهى بنا الحال إلى أشرف المقاصد وأفضل الغايات ؟

دعوة الى تعميم اللغة العربية

لحضرة الأستاذ محمد حسن الاعظمي

عميد كلية اللغة العربية ، والامين العام لمؤتمر العالم الإسلامي الدائم
والجمعية العربية العامة في باكستان

لماذا دعوت إلى اللغة العربية لتكون لغة المسلمين جميعا ؟
جهاد عشرين عاما متواصلة لا أفاخر به ، ولكني أحمد الله عليه ، وأستزيده
التوفيق منه . قال مستر غاندى يوما : إن من الخير لسكان الهند أن لا يلجأوا إلى
اللغة الاوردية ؛ لأن فيها أحرف القرآن وهو كتاب المسلمين وحدهم ، وعلينا أن
نختار اللغة المحفوظة عن الأمهات فقط وهى « سنسكرتية » ، وما كدت أطلع على
هذا فى صحف الهند العامة حتى أسرع فى اليوم التالى إلى الإجابة ، وقلت لمستر
غاندى : إن المسلمين ليس لهم أمهات سوى أزواج نبيهم عليه أفضل صلاة وسلام ؛
وهن أمهات المؤمنين ، ولغة أولئك الأمهات هى اللسان العربى المبين . ولما أذاع
المستر غاندى مرة أخرى نداء يدعو فيه إلى توحيد اللغة بين المسلمين والهنداك
أجبتة : بأن ذلك لا يمكن إلا بأن نتعلم لغتكم « سنسكرتية » مع لغتنا العربية وعليكم
أن تسلكوا إلى الوحدة هذه السبيل نفسها أيضا . ثم تكون النتيجة الحتمية لهذا هى
العودة إلى الاوردية مرة أخرى ، فهى مزيج من اللغتين معا إلا قليلا من الفارسية
والتركية . وإذا لم تصنعوا ذلك فماذا أنتم فاعلون إذا اصطدمتم بلغات تربو على
المائتين بين العشائر الهندوكية المتناثرة فى أقطار الهند ؟ النتيجة الحتمية لهذا
التعصب ضد الاوردية والعربية الاعتماد على أن تلجأوا إلى اللغة الإنجليزية
للتفاهم والمكاتبات ، وهذا هو الذى حدث فعلا ؛ فقد تخلص هؤلاء من الاستعمار
العسكرى ، ليقعوا تحت سيطرة روحية من نسيج هذه اللغة الاجنبية عنهم . فإن
كنت فى ريب من هذا أيها القارئ ؛ فامض إلى إحدى السفارات الهندية لدى أى
الحكومات شئت ؛ فإنك واجد فيما بين أفرادها سلطان اللغة الإنجليزية حاكما

على قلوب الموظفين نافذ الكلمات في أذواقهم وحديثهم ومخاطباتهم . وإنما لحي عبودية الروح في غشاء رقيق من حرية الجسد .

أما أنا فقد رأيت أن أمضى على سنن الطريق مسترشداً بيمينى وإيمانى واثقاً من أننى فيما أدعو إليه سيلاقينى النصر والفوز . تركت الجدل الكلامى وأخذت فى إنشاء الجمعية العربية العامة فى الهند ، وأتبعته بمدارس ليلية شبيهة بالمدارس والوحدات الليلية التى يعرف الجميع نشاطها بمصر ، وكنت ومن معى من المؤمنين بفكرتى مثالا من النشاط الذى لم نكن فيه أقل من الغيورين على محاربة اللغة العربية واستبدال حروفها ، وإخراج ألفاظها .

ولكى نستبعد فكرة التعصب القبلى دعونا إليها كلغة القرآن والإسلام . أما الآثار الأدبية لهذه الحركة المباركة ؛ فقد كان منها كتاب المعجم الأعظم الجامع بين اللغتين العربية والأوردية إلى جانب عشرات من الكتب المدرسية ، وكانت حيدر آباد مركزاً هاماً إلى ذلك الحين لنشر العربية ؛ إذ كان يوجد بحيدر آباد مائة ألف أو يزيدون من العرب أو من أصول عربية ؛ فلقيت الدعوة تشجيعاً وإقبالاً رائعاً ، وقام على رئاسة هذا النشاط أحد سلاطين المسكلا العرب . وما كدنا نقطع من مراحل الزمن سنة حتى انتشرت المدارس الليلية فى جميع مناطق المدينة ، وشكلت الفروع المختلفة فى الضواحي والأقاليم الماخمة ، وأنشئت كلية للغة العربية لتقوم بالتعليم على أسس دراسية قوية . ولكى يمتد هذا النشاط مدى بعيداً قررنا إلقاء محاضرات أسبوعية فى حفلات متنقلة بين مختلف أحياء المدينة ، وكنا نرى لإقبال الجمهور المتزايد يجعل الأمكنة تضيق بزوارها ، ولما كانت تلك الحفلات أدبية مشجعة على مواصلة الكشف العلمى والأدبى رأينا أن نجرى مسابقات دورية تمنح فيها المكافآت والجوائز . وما يثير العجب أن آخر الفائزين فى آخر مسابقة بلغوا مائة من بينهم خمس وسبعون من الفتيات ، وقد جرت المسابقة فى الكتابة الإنشائية ، وفن الخطابة والإلقاء . وحاولت أيضاً فى سبيل تيسير هذا التعليم أن أدعو إلى استبدال خط النسخ العربى المحض بالخط العادى الأوردى .

أما حيدر آباد ومراكز الهند الأخرى بعد التقسيم فهى فى ستار مغلق دونى الآن ؛ فقد وليت وجهى شطر الوطن الإسلامى الباكستانى ، ولقيت فيها

الدعوة مكاناً خصيصاً ؛ فلعلى أستمد هذه الروح نحو تعليم العربية من إيمان شعب الباكستان الذى تشرف فيه الحكومة نفسها على الجمعية العامة للغة العربية . وأصبح خط النسخ العربى خطأ رسمياً فى مكاتبات الدولة وأعمالها العامة .

واللغة العربية مادة إجبارية فى مواد التعليم الثانوى ، كما خصص ركن من الإذاعة للغة العربية أيضاً . وحضرات أصحاب المعالي الوزراء فى الباكستان وفى مقدمتهم صاحب المعالى وزير المعارف العمومية « فضل الرحمن » مقبلون بأنفسهم على تعلم هذه اللغة . ولعل بعض القراء يذكر أن نخامة حاكم البنجاب « السردار عبد الرب نشتر » هو الذى يرأس أكثر الحفلات العربية ويلقى فيها خطبه المرتجلة فى عبارات سليمة ، وليس هذا كل شيء ؛ فإن الخطوة المباركة الحقيقية هى وصولنا إلى ذلك القرار الحكيم الذى وافق عليه مؤتمر العالم الاسلامى الدائم : اعتبار لغة القرآن لغة عامة للمسلمين ، وكتابة جميع لغات العالم الاسلامى بخط النسخ العربى ؛ كما ألفت أكثر خطب المؤتمر فى كراتشى باللغة العربية . وإذا كنا نحن الباكستانيين قد بذلنا هذا الجهد المتواضع لتعميم العربية الفصحى وإحياء تراثها المجيد ؛ فإنى أهيب بالناطقين بالضاد فى الممالك العربية أن يجعلوا واجهم الاول تعميم اللغة العربية الفصحى فى مخاطباتهم ، وأن لا يقصروها على مكاتباتهم فى دواوين الحكومة ، وعلى أعمدة الصحف . فعلى كل من يجيد العربية أن يخاطب بها غيره فى المكتتب والطريق وفى الأندية والأسواق وفى التعامل التجارى والتبادل الثقافى . وسيقول قائل إن الطريق شاق والمطلب عسير . وأقول لهؤلاء : ليس بين العامة الدارجة والعربية الفصحى سوى تصحيح كلمات ، وإعراب جمل ، وصدق فى التوجه قبل كل شيء ، وما هو إلا قليل من التدريب يتلوه النصر القريب .

كثيراً ما رأيت طلاب البعثات الوافدة إلى مصر والأزهر ، يعودون مزودين باللغة العامية ، وما هجروا أوطانهم إلا للغة العربية السليمة الفصحى . وقد بدأنا نحصل الغرامة المفروضة فى أعضاء المؤتمر الإسلامى على كل من يلجأ إلى غير العربية الفصحى أثناء كلامه .

ويتجه نظرى الآن إلى السكبة العلمية الإسلامية ؛ أعنى (الأزهر الشريف) لبدأ هذه الخطوة من جانبه بين أساتذة المعاهد وطلابها ، فهل يتحقق أملى ؟

في الأدب المصري الحديث

تقدير للمصادر

تعريب نور الدين شريبه خريج كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر	بحث للمستشرق الانجليزي الأستاذ ج . هيووث دن J. Heyworth Dunne الأستاذ بجامعة لندن
--	--

والتييمورين : محمد ، ومحمود ، يتدلمان مادة جذابة لدراسة الحياة المصرية .
وكتاب محمد تيمور (ما تراه العيون)^(١) يشمل صوراً كثيرة عن الحياة العادية .
أما محمود — وقد درس (موباسان Maupassant)^(٢) . و (تشيكوف Chekhov)^(٣) — قد أنشأ مدرسة للأقصوصة المصرية ، احتذى حذوها غيره من
الكتاب ، في جميع الأقطار الناطقة بالضاد^(٤) . والتييمورين ، بانتمائهما إلى بيت
من البيوت العريقة ، قد جـرّا الارستقراطية إلى الميدان الأدبي ، وهو عامل

[١] محمد تيمور : ما تراه العيون ؛ القاهرة سنة ١٩٢٧ . وكتابه : المسرح المصري ، القاهرة
سنة ١٩٢٣ يشتمل على ثلاث روايات ، ووصف للحياة المسرحية .

[٢] جى دى موباسان قصاص فرنسي ، ولد في (شاتو دى ميرومزيل Chateau de Miromesnil) وهو كاتب موهوب ، صريح ، لاذع النقد ، واقعي إلى أبعد الحدود . وله مؤلفات
كثيرة ، منها : الصديق الجليل ، قوى كالموت ، قلبنا ، حياة ، بيروجان . ولد سنة ١٨٥٠ وتوفي
سنة ١٨٩٣ . [المترجم] .

[٣] أنطون بافلوفتش تشيكوف [١٨٦٠ - ١٩٠٤] ولد في ناجازوج على ساحل بحر الخزر
بروسيا ، واشتهر بمسرحياته وقصصه القصيرة ، وله مكانة ممتازة في الأدب الروسي .

[٤] محمود تيمور : أبوعلى عامل أرتست ، القاهرة سنة ١٩٣٤ ، الأطلال ، القاهرة سنة ١٩٣٤ ،
الشيخ عفا الله ، القاهرة سنة ١٩٣٦ ، قلب غائصة ، القاهرة سنة ١٩٣٧ ، نداء المجهول ، القاهرة
سنة ١٩٣٩ ، وقصص أخرى .

مهم في حياة مصر. ومؤلفات محمود لا تصور تصويراً صادقاً نواحي الحياة المصرية فحسب، بل إنها بديعة التأليف، تدل على أن كاتبها فنان مجود.

وليس في الأدب العربي الحديث كتاب أشد تأثيراً في النفس، وأصدق تعبيراً واتصالاً بالحياة، من كتاب طه حسين (الأيام)^(١)، قصة طفولته. فبناء الحياة العائلية قد وصف أبدع وصف وأدق في هذا الكتاب، وخاصة المناظر المنتزعة من الحياة المدرسية.

ووصفه الفريد لرجال الدين دقيق صحيح. وقد نقل هذا الكتاب إلى الإنجليزية نقلاً^(٢) رديئاً؛ فإن قصور المترجم وإقفاره، قد جعله يفشل فشلاً ذريعاً، في نقل السلسلة اللذيذة التي يتميز بها أسلوب طه حسين النثرى. وقد أنتج قلم طه حسين كتباً أخرى، أكثرها يعالج النقد الأدبي والتاريخ، وأخص بالذكر كتابه (مستقبل الثقافة)^(٣)، وقراءتها خير مدخل لدراسة الأدب العربي الحديث.

وتوفيق الحكيم كاتب معاصر، له أتباع كثيرون، ولا يشك أحد في لمعته. وقصته (عودة الروح)^(٤)، من خير الدراسات عن الحياة السياسية والاجتماعية المصرية، خلال سنى الثورة، التي قامت بزعامة زغلول باشا. وبموازنة هذه القصة (بحديث عيسى بن هشام) للمويلحي^(٥) - وهو من نتاج القرن التاسع عشر - يستطيع الإنسان أن يلمس التغيرات الاجتماعية الكبيرة التي حدثت خلال القرن والنصف الماضيين؛ كما فعل صلاح الدين ذهني في كتابه (مصر بين الاحتلال

[١] طه حسين : كتاب الأيام ، القاهرة سنة ١٩٢٩ .

[٢] An Egyptian Childhood : The Autobiography of Taha Hussein by E. H. Paxton - London 1932.

[٣] طه حسين : مستقبل الثقافة ، في مجلدين القاهرة سنة ١٩٣٨ .

[٤] توفيق الحكيم : عودة الروح ، في مجلدين ، القاهرة سنة ١٩٢٣ ، وانظر كذلك مسرحياته في مجلدين طبع القاهرة سنة ١٩٣٧ .

[٥] محمد المويلحي : حديث عيسى بن هشام ، القاهرة سنة ١٩٢٣ ، وطبعات أخرى .

والثورة^(١) . وتكشف لنا دراسة هذين الكتابين أيضاً عن نمو اللغة ؛ فمرونة أسلوب توفيق الحكيم ، وسهولة لغته التي يستعملها في التعبير عن أفكاره ، تتعارض أصالة مع جمود أسلوب الكتاب القديم . ومؤلف توفيق الحكيم الآخر - وما أكثر مؤلفاته - ألا وهو (يوميات نائب في الأرياف^(٢)) هو دراسة اجتماعية فذة ؛ وصف فيها ما يقابله النائب في الأرياف من شخصيات ، وما لهذه الشخصيات من خصائص ؛ كضابط الشرطة المغامر ، والخفير ، والمأمور .

ومن الكتاب البارعين المنفلوطي « أبو المقالة المصرية » . ولكتبه أهمية في دراسة المجتمع والسياسة في مصر . وقطعه مفيدة للبتاديين الناشئين ، ولكن أسلوبه سوداوي ، رصين ، قد فات أوانه^(٣) .

أما محمد أمين حسونة ، فهو على نقيضه : فكره متوثب ، وله مقدرة فائقة على تصوير الحياة المصرية في الأقصوصة^(٤) . وسهير القلماوى كاتبة ناشئة ، تبشر بمستقبل زاهر ، رغم نظرتها الصارمة الجادة ، والتزامها العربية الفصحى ، على ما في ذلك من جهد . وكتابها الذي صدر بعنوان (أحاديث جدتي^(٥)) وصف لطيف لحياة الأسرة .

ولحسن شفيق المصرى كتاب ، هو (الحاج درويش وأم اسماعيل^(٦)) ، قام على نشره ابن أخته ، عبد السلام على نور ، الذي نال شهرة فائقة في أوروبا ، لخارفه البديعة في الخشب والمعدن . واشتغل حسين شفيق المصرى رئيس تحرير لبعض المجلات التي تصدر بالعامية ؛ وكان مشهوراً بالفكاهة ، عرفه بها الخاص والعام ، كما أن له إنتاجاً هو (الناس) .

[١] صلاح الدين ذهني : مصريين الاحتلال والثورة ، القاهرة سنة ١٩٣٩ ، وكتابه رئيس التحرير القاهرة سنة ١٩٣٨ .

[٢] توفيق الحكيم : يوميات نائب في الأرياف ، القاهرة سنة ١٩٣٧ ،

[٣] مصطفى المنفلوطي : النظرات ، ثلاثة أجزاء ، القاهرة سنة ١٩١٠ ، الطبعة الثانية سنة ١٩٢٠ بالقاهرة ، العبرات ، القاهرة سنة ١٩١٥ ، للانتقام ، القاهرة سنة ١٩٢٣ .

[٤] محمد أمين حسونة : وراء البحار ، القاهرة سنة ١٩٣٦ ، الورد الأبيض ، القاهرة سنة ١٩٣٣

[٥] سهير القلماوى ، أحاديث جدتي ، القاهرة سنة ١٩٣٥ .

[٦] حسن شفيق المصرى : الحاج درويش وأم اسماعيل ، القاهرة سنة ١٩٢٩ ،

و(مذكرات فتوة^(١)) لحسنى يوسف؛ وكتاب حنفى أبو محمود (مذكرات عربى^(٢)) وكتاب عبد الله حبيب (المغفل^(٣))، صور صادقة للنواحي الشعبية فى الحياة المصرية.

وللمجلات الدورية سهم وافر، فى معاونة الكتاب المحدثين فى مصر .
و(الرسالة) التى يصدرها أحمد حسن الزيات؛ و(الثقافة) التى يصدرها أحمد أمين، هما أبرز مجلتيْن أدبيتين أسبوعيتين الآن .

وأحمد أمين كاتب واسع الثقافة، وأديب ضليع فى العربية؛ وله مؤلفات عديدة عن تاريخ الإسلام وحضارته . ونصيبه كبير فى جعل مصر مركزاً من مراكز الدراسات الفكرية فى العالم العربى . وقد اختار أحمد أمين، فى كتابه (فيض الخاطر^(٤))، خير المقالات التى نشرها فى شتى النواحي : من علم، ودين، وحضارة، وآداب سلوك، ومادية، وإصلاح، وموسيقى؛ كما تشمل كذلك على صور للحياة اليومية، مثل مقالاته عن النجار المصرى . وهو من ناحية كونه مؤرخاً قد تعلم الشيء الكثير من الغرب . وقد خطا هو وجورجى زيدان خطوات واسعة بدراسة التاريخ، فى اللغة العربية الحديثة .

أما جورجى زيدان فقد أصدر كتابه (تاريخ التمدن الإسلامى) سنة ١٩٠٢ وكتاب (تاريخ آداب اللغة العربية) سنة ١٩١١^(٥)؛ مع أن الحكومة المصرية، فى سنة ١٨٩٣ فقط، قد أرغمت على أن تطلب إلى (فان ديك Van Dyek) وهو أمريكى وإلى (فيليبس Philipides) وهو يونانى؛ أن يعدا كتاباً فى تاريخ العرب وآدابهم، ليستعمل فى المدارس المصرية^(٦).

ومن خيرة الأدباء فى العصر الحديث عبد العزيز البشرى، ابن سليم البشرى،

[١] حسنى يوسف : مذكرات فتوة ، ثلاث مجلدات ، القاهرة سنة ١٩٢٩ .

[٢] حنفى أبو محمود : مذكرات عربى ، القاهرة سنة ١٩٣١ .

[٣] عبد الله حبيب : المغفل سنة ١٩٣٠ .

[٤] أحمد أمين : فيض الخاطر ، ستة أجزاء ، القاهرة سنة ١٩٣٨ — سنة ١٩٤٦ ؛ وانظر كذلك له : جغرافيا الاسلام ، القاهرة سنة ١٩٢٩ ، وضحى الاسلام ، القاهرة سنة ١٩٣٣ .

[٥] جورجى زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامى ، القاهرة سنة ١٩١٣ ، تاريخ آداب اللغة العربية فى أربع مجلدات القاهرة سنة ١٩١١ .

[٦] أدوار فان ديك وقسطنطين فيليبس : تاريخ العرب وآدابهم ، القاهرة سنة ١٨٩٣ .

أحد شيوخ الأزهر. وكتابه (المختار^(١)) يشمل صوراً كثيرة عن الحياة المصرية. وعباس العقاد كاتب مبدع، وناقد أدبي؛ تعالج مقالاته المجموعة نمو الحياة الأدبية في مصر^(٢). وفكرى أباطة، وهو عضو في البرلمان، وناقد دقيق للحياة المصرية، وقد أصدر حديثاً سلسلة فذة من المقالات عن الشباب الحديث^(٣). وابنة الشاطئ، تنبؤاً مركز الناطق بلسان الفلاح. فقالاتها، وكتبها^(٤) عن هذا الموضوع لا غنى عنها.

ومريت بطرس غالى أصدر سنة ١٩٢٨ كتاب (سياسة الغد^(٥))، الذى يعتبر من أمتع الدراسات الاجتماعية، التى ظهرت فى أى لغة؛ ومن المؤلم ألا يكون لهذا الكتاب طبعة انجليزية حديثة، تنشر على الناس. وفى نفس السنة أصدر حافظ عفيفى باشا (على هامش السياسة^(٦))؛ وبعده بعام أصدر عبد الحميد فهمى مطر (التعليم والعاطلون^(٧))؛ وهو يعالج مشكلة من المشاكل الحيوية فى مصر.

* * *

ولعل هذا التقدير القصير للمصادر، يقدم فكرة عامة عن الجهود الأدبية، التى يبذلها المصريون؛ وعن التقدم السريع الذى تم لهم. ومن العسير أن يفهم المرء كيف أن كاتباً مثل (جورج يونج Georges Young) يمكن أن يكتب سنة ١٩٢٧ أن مصر لا لغة لها، ولا أدب، ولا أساطير نبعت من ذاتها^(٨) ١٩. وليس هو الكاتب الوحيد الذى وقع فى هذه الأحكام الخاطئة؟

[١] عبد العزيز البشرى: المختار، مجلدين، القاهرة سنة ١٩٣٥ — ١٩٣٧.

[٢] عباس العقاد: ساعات بين الكتب، القاهرة سنة ١٩٢٩، مطالعات، القاهرة سنة ١٩٢٤، وكتب أخرى.

[٣] فكرى أباطة: الضاحك الباكي، القاهرة سنة ١٩٣٣، وفكرى عدة مقالات منشورة فى الصورة.

[٤] ابنة الشاطئ: الريف المصرى، القاهرة سنة ١٩٣٥، وكتب أخرى.

[٥] مريت بطرس غالى: سياسة الغد، القاهرة سنة ١٩٣٨.

[٦] حافظ باشا عفيفى: على هامش السياسة، القاهرة سنة ١٩٣٨؛ وافتقر كذلك، الانكيز

فى بلادهم، القاهرة سنة ١٩٣٩.

[٧] عبد الحميد فهمى مطر: التعليم والعاطلون، القاهرة سنة ١٩٣٩.

[٨] Georges Young: Modern Egypt, London 1927, P.X.

حكومة الرسول بعد هجرته الى المدينة

لحضرة الأستاذ أحمد صلاح الدين عبد الرحمن

كانت بلاد العرب وما عداها من دول العالم في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للميلاد مسرحاً لحروب دامية وخلافات مذهبية شديدة تقطع أوصالها، كما كانت ترزح تحت أعباء الجهالة والضلال، وكانت بلاد العرب بصفة خاصة في فوضى شاملة: يعبد أهلها الأوثان، ويثدون البنات، ويرتكبون أخش المنكرات؛ فلما اقتضت مشيئة الله أن يصلح هذا العالم وينقذه مما كان يتخبط فيه، أرسل سيدنا محمد بن عبد الله في سن الأربعين بالهدى والفرقان الى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فعارضه أشراف مكة ومشركوها في بادئ الأمر بهوادة. فلما أحسوا أن أتباعه في ازدياد، ولما رأوه يعيب آلهتهم ويسفه أحلامهم بدؤوا يعارضونه بعنف، ويصدون الناس عن سبيل الله، يدفعهم الى ذلك خوفهم من انهيار زعامتهم الدينية، ومن ضياع الثروة التي تعود عليهم من وجود الأوثان حول الكعبة. ولما لم يحتمل أصحابه أذى قريش أمرهم بالهجرة الى الحبشة، ولكن قريشاً استمرت في إيذائها للرسول وأتباعه، ونالت من المصطفى عليه السلام بعد موت عمه أبي طالب وزوجه خديجة ما لم تنله قبل ذلك، حتى اضطر الرسول الى الطجرة بأصحابه إلى المدينة.

وكان أول أمر اتجه إليه نظر الرسول بعد أن استقر بالمدينة أن يبنى مسجداً للمسلمين ليقيموا فيه شعائر دينهم، وليكون لهم بمثابة ندى يجتمعون فيه ليقضى رسول الله بينهم، ويعلمهم أصول دينهم، ويشاورهم فيما يهمهم من شئون الدين والدنيا، وليستقبل فيه سفراء القبائل ووفود العرب، من أجل ذلك سأل الرسول عن المكان الذي بركت فيه الناقة، فأخبر أنه ليطمين في حجر معاذ بن

عفراء ، فاشتراه منه وأخذ يبني فيه مسجده ومساكنه ، وكان يشترك في عملية البناء بنفسه ، لكي يشجع المسلمين على العمل ، ولما فرغ عليه السلام من بناء مسجده ومساكنه انتقل من دار أبي أيوب إلى مساكنه بجوار المسجد .

وبوصول الرسول إلى يثرب ، صار بها أربع فئات من السكان ، كل منها تنظر إليه من وجهة نظر خاصة ، حسبما تقضى به مصلحتها ؛ فهناك المهاجرون الذين فروا بدينهم من أذى القرشيين بمكة ، وهناك الأنصار الذين اعتنقوا الإسلام من أهل يثرب ، وقد ألف الإسلام بين هاتين الفئتين ، وجعلهم أعضاء في أسرة واحدة . وأما الفئة الثالثة فهي اليهود ، وهم بقايا بني إسرائيل مع من تهود من العرب ، وقد استقبل هؤلاء الرسول استقبالا حسناً ، قصد استمالته إليهم والاستعانة به على تأليف جزيرة العرب ، كي تقف في وجه النصرانية التي أوجلتهم عن فلسطين وطهم القومى وأرض المعاد . وأما الفئة الرابعة والآخرى فهي فئة المشركين من سائر الأوس والخزرج الذين آثروا البقاء على وثنياتهم ، وإن كان نفر منهم أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر وهم المنافقون الذين نعتهم المولى جل وعلا بقوله : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم » ، وقد كان خطر هؤلاء على الرسول وصحبه جسيماً ، لكنه رضى منهم بظواهرهم ، وصبر عليهم حتى يقضى الله فيهم أمراً كان مفعولاً .

في تلك الآونة بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم طورا جديدا ، هو أخطر أطوار حياته وأبعدها أثراً في نشر الدعوة التي تلقاها من ربه ، إذ أصبح عليه أن يحكم المسلمين ، ويسوى أمورهم ، وينظم شؤونهم ، ويقود جيشهم إذا تهدد كياناتهم خطر ، أو إذا شنوا الحرب على أى عدو كائن لهم ، وقد قام بكل تلك المهام الخطيرة على وجه يدهش العقول ويحير الالباب . وقد كان أول ما اهتم له الرسول أن ينظم صفوف المسلمين ويؤكد وحدتهم كي يقضى على كل شبهة في أن ثور العداوة القديمة بينهم ؛ ولذا دعاهم إلى أن يتآخوا في الله أخوين أخوين ، وجعل يواخى بين مهاجر وأنصارى . . . وهكذا ، وأحيانا نادرة آخى بين مهاجرين ، وجعل لهذا الإخاء حكم الدم والنسب ، وبه ازدادت وحدة المسلمين توكيدا ، وقد أظهر الأنصار من كرم الضيافة لإخوانهم المهاجرين ما تلقوه منهم بالشكر ، فشاطروهم في أموالهم ،

وأفسحوا لهم في ديارهم ، فامتدحهم الله على ذلك بقوله : « والذين تبوءوا الدار
والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا
ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم
المفلحون ، وبعد ذلك أخذ بعض المهاجرين يشتغل بالتجارة ، على حين احترف
آخرون الزراعة . وأما فقراء المسلمين الذين لم تساعد أحوالهم على اكتساب
عيشهم بأنفسهم فقد أفرد لهم الرسول صفة في المسجد يبيتون فيها ، وجعل لهم
رزقا في مال المسلمين الذين آتاهم الله رزقا حسنا ، وسماهم أهل الصفة .

وبعد أن أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدة المسلمين على هذا النحو
وأصلح أمر معاشهم ، أخذ يعمل على جعل يثرب وحدة سياسية نظامية ، وعلى توفير
الطمأنينة لاتباعه وكفالة حرية العقيدة والرأى لهم ولغيرهم ؛ لأن هذه الحرية هي
وحدها الكفيلة بانتصار الحق وتقدم العالم نحو الكمال ؛ وتحقيقا لهذا سار على سياسة
تفاهم مع اليهود ، وبذلك تألف قلوبهم وتحالف معهم ، وكتب بينه وبينهم كتاب
موادعة وادعاهم فيه وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم ، واشترط عليهم وشرط لهم .
وهذا الكتاب وثيقة سياسية هامة ، تعتبر فتحا جديدا في الحياة السياسية والدينية
في تلك العصور ، كما تعتبر عملا سياسيا ودبلوماسيا رائعا يدل بأجلى بيان على عظم
مقدرة الرسول السياسية وبعد نظره وصائب رأيه .

وأم بنود هذه الوثيقة : أن الرسول عليه السلام أكد فيها أن المسلمين على
اختلاف شعوبهم وتعدد قبائلهم أمة واحدة ، وأوجب التعاون والتضامن بين
أفرادها على أساس أن الأخوة في الدين مقدمة على غيرها من الصلات حتى صلة
القربى ، وهذا هو الإخاء الإنساني في أسنى معانيه ، لا ذلك الإخاء الذي يتمشدد
به أهل الغرب الذين صرعتهم شهواتهم الدنيوية فهم يقتتلون على مذبحها في كل آن ،
كما جعل ذلك الكتاب لجماعة المسلمين ، باعتبارها جماعة ذات شخصية دينية وسياسية ،
حقوقا على أفرادها أخصها السهر على الأمن والضرب على يد المفسد الخل بالنظام
أيا كانت مكانته ومهما كانت صلته بالحاكم ، وكذلك شرط لجماعة اليهود المساواة
مع المسلمين من ناحية الحقوق العامة ، وكفل لهم حريتهم الدينية ، والتمتع بما
للمسلمين من حقوق ، كما فتح الطريق أمام الراغبين منهم في الإسلام . كما فرض ذلك

العهد على اليهود أن يشتركوا مع المسلمين في الإنفاق ما داموا محاربين ، وأن يساعدهم في دفع ديات القتلى والغرامات الخربية وما إلى ذلك . وبعد ذلك كله جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه حكما يُرجع إليه للفصل فيما قد يقع من خلافات يخشى ضررها بين المتعاقدين في هذه الوثيقة (١) .

بهذه الوثيقة وما سبقها من خطوات ، استتب لرسول الله الأمر في المدينة ، وأمن - ولو بصفة مؤقتة - كيد اليهود ، وبدأ ينشر بين أصحابه تعاليم دينه الخفيف ؛ ففرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود ، وتبين الحلال من الحرام ، ونظر الرسول في أمر الصلاة ، وكيف يجمع المسلمين لأدائها ، وأهمه ذلك كثيرا حتى وقفه الله الى اختيار الأذان وسيلة لذلك ، واستمر الرسول يقيم الحضارة الإسلامية على أسس سلمية ودعائم قوية ، أقواها بلا شك ذلك الإخاء الإنساني الذي يصل بالإنسان إلى أقصى غايات البر والرحمة من غير ضعف ولا استكانة ؛ أضف إلى ذلك العدل المطلق الذي يستوى أمامه الغنى والفقير والشريف والحقير والكبير والصغير ، ويتوج هذه الدعائم تلك المساواة الشاملة التي جاء بها الدين الخفيف والتي لا تفرق بين غنى وفقير ، ولا بين سيد وعبد ، ولا بين شريف ووضع : « يأبى الناس إيا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . يضاف الى تلك المثل العليا ما دعا إليه الإسلام من التعاطف والتراحم بين المسلمين ، وضربه لذلك الأمثلة الواضحة ، مثل المسلمين في تعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، وفوق كل ذلك كان الرسول لا يبرم أمرا إلا بعد أن يستشير فيه أصحابه ويعمل حسب رأى الأغلبية ، ولو كان معارضا لرأيه الخاص ، وهو في ذلك ياتمر بأمره تعالى : « فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمتم فتوكل على الله ، أضف إلى ذلك أن الرسول كان لا يدع فرصة تمر به إلا دعا أصحابه الى التحلى بمكارم الأخلاق والتخلي عن الدنيا وسفساف الأمور . على هذا النحو أقام المصطفى عليه السلام في المدينة المنورة حكومة ديمقراطية بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ، ووضع أسس الحرية والإخاء والمساواة في أسسها

(١) من أراد الاستزادة من نصوص هذه الوثيقة فليقرأها في سيرة ابن هشام ١ - وفي كتاب

معانها جميعا ، قبل الثورة الفرنسية بنحو اثني عشر قرنا ، في الوقت الذي كانت أوروبا فيه غارقة في بحار لجية من الضلالة والجهالة . وبهذه السياسة الحكيمة الرشيدة وضع أسس الدولة الإسلامية الناشئة التي أخذت تنمو وتزداد بأسا وقوة يوما بعد يوم ، حتى دانت الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها بالطاعة لرسول الله في حياته ، ثم رفرف العلم الإسلامى في عهد خلفائه على ربوع فسيحة وأقطار نائية ، ودانت لهم مشارق الأرض ومغاربها ، وامتد سلطانهم من حدود الهند والصين في أقصى المشرق حتى بلاد الأندلس ، وجبال البرانس في أقصى المغرب . وبعد أن استقر الأمن للنبي وأصحابه في المدينة ، وقوى مركزهم فيها على النحو السابق ، أخذ يوجه همته الى إظهار قوته وبأسه لقريش وغيرها من القبائل العربية حتى لا يستهينوا بأمر المسلمين ، ولذا بدأ بإرسال عدة سرايا لاستطلاع قوة قريش وإرهابها . ثم فرض الله بعد ذلك الجهاد على المسلمين للدفاع عن عقيدتهم ضد من يحاول الوقوف في طريقها ، وبدأ الرسول يشتبك مع قريش في سلسلة من الغزوات والحروب ، بدأت بغزوة بدر الكبرى في السنة الثانية للهجرة ، وانتهت بفتح مكة ودخول أهلها في دين الله أفواجا في السنة الثامنة للهجرة .

الحاجة

دخل محمد بن واسع على بعض الأمراء فقال : « أتيتك في حاجة فإن شئت قضيتها وكنا كريمين ، وإن شئت لم تقضها وكنا لئيمين . » أراد إن قضيتها كنت أكرم كريمًا بقضائها ، وكنت أنا كريمًا بسؤالك إياها ، لأنى وضعت الطلبة في موضعها ، فإن لم تقضها كنت أنت لئيمًا بمنعك ، وكنت أنا لئيمًا بسوء اختيارى لك . فأخذ أبو تمام هذا المعنى وقال :

عباس إنك للّئيم وإننى مذ صرتَ موضعَ مطلبى للّئيم
قال : ما حاجتك أبا عبد الله ؟ قال : أن يكتب إلى أبى موسى بن عبد الملك
في تعجيل أرزاقه . فأجابه إلى طلبه . فأنشد سوار يقول :

فبايك أيمن أبوابهم ودارك مأهولة عامره
وكفك حين ترى المجتديــــن أندى من الليلة الماطره

الشيوعية والإسلام طرفانقيض

لحضرة الأستاذ الفاضل محمد فؤاد عبد الباقي

جاء بالعدد رقم ٢٢٩٤٧ من جريدة الأهرام الصادر بتاريخ ١٩٤٩/٧/٣٠ ما يأتي :

نيويورك — لمراسل الأهرام الخاص — نشرت صحيفة نيويورك تايمز ، في عدد من قريبين أنباء تثير النفس عما يلقاه المسلمون في روسيا السوفيتية من عنف واضطهاد . فذكرت استناداً إلى مصادر شتى أنه لم يسكد يبق اليوم من السكان المسلمين في مناطق آسيا الوسطى من الاتحاد السوفيتي ، بما فيها جمهوريتا الترك والتركان ، وأن معظم مدرسي الفقه الإسلامي في الاتحاد السوفيتي قد نفوا إلى سيبيريا أو اضطروا إلى التستر والتخفي . وقد فرض على المسلمين في أثناء الحرب أن يتسلحوا ويحاربوا في الجيش الروسي دفاعاً عن الاتحاد السوفيتي ففعلوا ، فكان جزاؤهم النفي والعبودية والموت ، ونظمت الحكومة السوفيتية حملة غرضها القضاء على ما تزعمه « أسطورة » الصلة الثقافية بين آسيا الوسطى السوفيتية وشعوب إيران وتركيا والبلاد العربية ؛ وقد نشر كاتب سوفيتي يدعى كليوفيتش في « المجلة الأدبية » سلسلة من المقالات هاجم فيها العلماء الروس والمسلمين الذين اتهموا بميلهم إلى ميادى الجامعة العربية أو الجامعة الإسلامية أو الجامعة التركية أو الجامعة الإيرانية ، وذلك لأنهم حرصوا في كتاباتهم على القول بأن الثقافات القديمة والحديثة بين شعوب آسيا الوسطى السوفيتية ، قد تأثرت تأثراً كبيراً بالثقافات الإسلامية في البلاد الواقعة إلى الجنوب من الاتحاد السوفيتي .

هذا مختصر الأنباء التي نشرتها نيويورك تايمز ، وقد عقيبت عليها في افتتاحية بليغة قالت فيها : « إن الرسائل التي تنفي بالمتاعب التي يلقاها المسلمون في الاتحاد السوفيتي لا تبعث الدهشة في أحد من الذين يعرفون حقيقة الإسلام ، فطبيعة

العقيدة الإسلامية تأبى أن تؤيد مذهب الماركسية الستالينية ، فلا بد إذن من أن تضطهد الدولة الماركسية أصحابها .

« و المسلمون أهل إيمان صادق وورع صحيح ، فهم على العموم لا يكتفون بالإيمان الفاتر ، أو بالتظاهر بالإيمان ، بل قد طبعت نفوسهم بحرارة الإيمان الصادق ، ومعظم قوة الإسلام يرتد إلى هذا الإخلاص ، وهذا الصدق في نظرته الروحية . والمسلم لا يقتصر إيمانه على أن حياته في يد الله ، عز وجل ، بل يؤمن أيضاً بأنه يحيا حياته بين يدي الله ، وصلاة المسلم ليست دعاء وحسب ، بل هي شهادة . وقد قال أحد الفلاسفة : « ليس الإسلام إيماناً وحسب ، بل هو حياة أيضاً .

« وقد ظن بعض الشيوعيين أنه قد يسهل تحويل المسلمين إلى الماركسية ؛ لحرصهم حرصاً شديداً على إخاء الناس ، ولكنهم نسوا أن هذا الحرص على الإخاء ينبع من الإيمان بالله ، فالناس إخوان ؛ لا لأن هناك مذهباً اقتصادياً يجمع بينهم ، بل هم إخوان لأنهم جميعاً مؤمنون .

« وإذن فديانة كالإسلام لا يمكن أن تتفق مع مذهب الجدل المادى ، ولن تجد مسلماً حقاً يستطيع أن يكون أيضاً ماركسياً حقاً ، وما أكثر المسلمين الذين يستمكسون حقاً بإيمانهم ؛ أما وخلق المسلم هو هذا الخلق المسكين ، فلا عجب أن يراهم حكام الاتحاد السوفيتى بعين غير عين الرضى ، .

التقاضى

من أبلغ ضروب التقاضى أن ترى وجه دائئك . ولذلك قال المهلب بن أبى صفرة ، وهو من كبار قواد الدولة الاموية : يابنى إذ اغدا عليكم الرجل وراح مسئلاً ، فكفى بذلك تقاضيا . وقال الشاعر :

أروح بتسليمى عليك وأغتدى وحسبك بالتسليم منى تقاضيا
وقال آخر :

كفأك مخبراً وجهى بشأنى وحسبك أن أراك وأن ترانى
وما ظنى بأن يعنيه أمرى ويعلم حاجتى ويرى مكانى

الأدب تحت راية القرآن

لفضيلة الأستاذ أحمد شاهين

الفن على اختلاف أنواعه ما هو إلا تعبير جميل عما بين عواطف الفنان المرهف الحس وبين بيئته وظروفه من فاعل قوى وتجاوب مستمر. فإن تم هذا التعبير بالكلام الجميل (أى البليغ) فهو الأدب ، وإن تحقق من تأليف الألوان وتشخيص الاشكال فهو التصوير أو الحفر ؛ وإن وقع باستعمال آلات الطرب وتأليف الألحان وتناسق الأصوات الجميلة فهو (الموسيقى) . والاول وأعنى به الأدب من حيث تأثير القرآن فيه بتكليف أساليبه وتحديد أهدافه - هو موضوعنا اليوم .

وإذا كان الأدب صدى التجاوب بين نفس الأديب وبيئته وظروفه ، كان الأدب مرآة ترمى فيها معالم الحياة فى البيئة ، كما أنه من ناحية أخرى يشف عن مزاج الأديب ونزعاته ، ويميزات شخصيته .

فأما النفس الزكية فإن أدها دائماً يكون فيضاً من الآراء السديدة ، والفضائل السامية كالزهرة الجميلة لا تنفع إلا بالعبر الطيب والعطر الذكى . وأما النفس المريضة فهما تم لها من وسائل الصناعة الفنية ، فإن نتاجها لا يشف إلا عن ألوان من الشهوات والنزوات المستهترة : (وكل إناء بالذى فيه ينضح) .

واعتبار الأدب بالفضائل والمثل الأعلى قبل اعتباره بالجمال الفنى - هو المقياس الأدبى الذى وضعه القرآن الكريم ؛ ويقابله المقياس الجاهلى الذى لا يقيم وزناً للفضائل فى تقدير الأثر الأدبى إذا كانت الصناعة المحكمة والجمال الفنى فيه المقدمة على كل اعتبار . وقد سئل (الخطيئة) من أشعر العرب ؟ قال : الملك الضليل . قيل له : ثم من ؟ قال : الغلام القليل . قيل : ثم من ؟ قال صاحب هذه العصا ؛ يعنى نفسه . فأنت تراه يجارى جمهور الأدباء الجاهليين فى

تقديم امرئ القيس للزعامة ، على ما في شعره من الخلاعة والعبث ، ولا يرى في شعره المغذع في الهجاء والطعن على الناس بالباطل لفوات عطاء أو نيل أرب ما يغض من قيمة أدبه ، أو ينزل به عن مرتبة الصدارة والامتياز . وكذلك كان الأدب الجاهلي أكثره يدور حول أغراض شخصية أو قبلية صغيرة : كالمفاخرة بمناقب العشيرة ، والمكاثرة بعديدها ، والمدح المغالى فيه بأجر ، أو الهجاء على فواته ، أو التشبيب بجمال النساء بأساليب لا تخلو من طيش ومساس بالحرمت . فلما أشرق الإسلام في قلب الجزيرة عنى القرآن الكريم بتوجيه الأدب عامة والشعر خاصة إلى أهداف إنسانية : من الحق والخير ، والقيم السامية ، ونهى على شعراء الجاهلية لمعانيهم في الأوهام الكاذبة ، وتخطيهم في الخيال الجامح ، وإلهامهم في تحرى الصدق والحقيقة ، واستثنى منهم الشعراء المثاليين الذين استجابوا لداعى الله وآمنوا برسوله ، وجعلوا أدبهم في خدمة الحق والدفاع عن العقيدة المقدسة : « والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون مالا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . » . الآيات من سورة « الشعراء » .

وهكذا وضع القرآن الكريم للأدب مقياساً جديداً قوامه الحقيقة والفضيلة والمثل الأعلى . وفي توضيحه قال الرسول صلوات الله عليه كما نقل ابن رشيق في كتابه (العمدة) : « إنما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسن ، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه » . وليس في توجيه القرآن الشعر إلى الحقيقة والفضائل إهمال لعنصره الأساسين : الجمال الفنى ، والخيال البديع . فقد بين الرسول أن الجمال والإبداع لابد منهما ليكون للأدب تأثيره السحرى على النفوس والعواطف ، ولكنه يشترط مع عنصر الحقيقة والصواب . وهذا معنى الحديث الشريف « إن من الشعر لحكمة ، وإن من البيان لسحرا » كما أنه لا يمنع تجميل الشعر بالخيال البديع ما دام غير ضال ولا مبالغ ، ولا فيه مساس بحرمت الناس وأخلاقهم كما ترى في « بانث سعاد ، التى أنشدها كعب بن زهير بين يدي الرسول عليه السلام ، وفيها يقول :

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول

فهو لا يحرم الغزل العنيف ، والتغريد بالعواطف الزهية والحب البريء ؛ ولا يحيز المغالاة الخرقاء أو اللغو الفارغ والحشو المزدول . وفي ذلك يقول الرسول صلوات الله عليه : « ألا أخبركم بأبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة ؟ الثرثارون المتفيهقون » ، قال المبرد « وقوله عليه السلام : الثرثارون يعنى الذين يكثرون الكلام تكلفاً وتجاوزاً وخروجاً عن الحق . وأصل هذه اللفظة من العين الواسعة من عيون الماء ، يقال عين ثرثارة . وقوله عليه السلام : المتفيهقون إنما هو بمنزلة الثرثارون تأكيد له . ومتفيهق : متفيعل من قولهم فهِق الغدير يفهِق إذا امتلأ ماء فلم يكن فيه موضع مزيد . ومن التكلف الممقوت في نظر الدين مغالاة الشاعر وتجاوزة الحد ؛ وقد أنشد النابغة الجعدي بين يدي رسول الله قصيدته التي قال فيها :

علونا السماء عفة وتكرماً وإنا لنبغى فوق ذلك مظهرأ

فغضب النبي عليه السلام وقال : أين المظهر يا أبا ليلى ؟ فقال : الجنة بك يا رسول الله . فقال له النبي عليه السلام : أجل إن شاء الله . ولا يختص التكلف المزدول بأساليب الكلام ولفظه ، ولكن استهجن تكلف العواطف والمشاعر ؛ فقد حض الرسول على إهمال الشعراء المتملقين الذين لا يمدحون أو يذمون عن عقيدة . وفي الحديث « احسوا في وجه المداحين التراب » .

وإنما يمدح الإنسان أو يذم بما هو فيه فحسب ، حتى لقد أمر النبي شعراء المسلمين عند ما يردون على شعراء المشركين افتراءهم على الرسول وطعنهم على الإسلام ، أن يتحروا عن عيوبهم عند العارفين بها أمثال أبي بكر رضى الله عنه لكي لا يفتروا عليهم إذا تبادلوا معهم الهجاء و تراشقوا التهم . فعن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة « بنى رسول الله لحسان في المسجد منبرا ينشد عليه الشعر » ، وقال لحسان « اهجم (يعنى قرىشا) فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام ! اهجم ومعك جبريل روح القدس والى أبا بكر يعلمك تلك الهنات » . فأنت ترى أن هذا الهجاء ليس من نوعه عند الجاهليين كذب وافتراء على الناس ، وإنما هو نقد خالص رخص فيه القرآن للبريء المعتدى عليه في الدفاع عن نفسه ؛ قال تعالى « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما » . أما الهجاء

بلا حق فمنوع قطعاً بنص القرآن . قال سبحانه : فاجتنبوا الرجس من الاوثان
واجتنبوا قول الزور . . وعندما تفاقم شر الخطيئة في هجماء الناس والطعن عليهم
حبسه عمر وهدده بقطع لسانه ، ثم عفا عنه حين أقلع وبعث يستعطفه بقوله :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ زغب الخواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسهم فى قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر
أنت الإمام الذى من بعد صاحبه ألقى إليك مقاليد النهى البشر

وقصارى القول أن الواقعية فى الأدب هى المفضلة فى توجيه القرآن الأدبى .
وأقوم الأدباء قتيلا ، وأهداهم سبيلا ، من تحرى الصدق ، وقال الحق ، ونطق بالحكمة
والموعظة الحسنة . وكان الرسول يعجب بشعر ليبيد بن ربيعة لما فيه من الحكمة
العالية . وروى محمد بن بشار بسنده إلى أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال : « إن أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد ،

ألا كل شئ ما خلا الله باطل

أخرج الترمذى فى الشمائل ، وأخرج عن عائشة أنه عليه السلام كان يتمثل
بشعر ابن رواحة بقول طرفة : [ويأتيك بالأخبار من لم تزود]

بعد ما تبين تستطيع أن تلخص مميزات التوجيه القرآنى للأدب عموما
وللشعر خاصة فيما يأتى : (١) لا بد لسكل عمل فى وأدبى من غاية سامية ومثل
أعلى (٢) الغايات السامية والمثل العليا فى الأدب لا تختلف عنها فى كافة الأعمال
الأخرى ، وهى ما حددها الدين : من التوحيد ، والعدل ، والرحمة ، وخدمة الصالح
العام الخ (٣) الحقيقة دائما مقدمة على الخيال ، وكلما كان حظ الأثر الأدبى
من الحقيقة أكثر كانت قيمته أعلى وأثمن (٤) الجمال الفنى والخيال البديع
المعقول واستلهاهم للعواطف الخيرة والميول البريئة - مقومات أساسية فى كيان
الأدب لا بد منها (٥) لا يجوز للأدب أبدا أن يتحلل من الاعتبارات الخلقية
أو يمس الآداب والحرمان أو يخرج على القيم السامية للمجتمع .

أما قيمة هذا التوجيه الأدبى الإسلامى والموازنة بينه وبين ما هداه
من الاتجاهات والمقاييس الفنية القديمة والحديثة ، فوعدنا به غير هذا البحث
فى فرصة أخرى ، وعسى أن يكون قريبا .

الاجوبة المسكّنة

من الموضوعات ما هو طريف لا تمل قراءته ، ولا تسأم إعاداته ؛ فإذا كان فوق ذلك مفيداً بلغ الغاية من النفع . من هذا الصنف كتاب (الاجوبة المسكّنة) لصاحب العزة الاديب النابه ، أحمد صابر بك ، ، فقد أودع مؤلفه كل ما عثر عليه في كتب الادب ، من جواب مسكت . والجواب المسكت لا يتأتى كل وقت ، ولا يتسنى لكل متكلم ، فهو طراز من الكلام يحىء عفواً ، لمن استأهلوا ذلك من المستندين إلى ذخّر ثمين في قلوبهم ، من الحكمة وفصل الخطاب ؛ وقد صرح برأيه فيه إمام البلاغة الجاحظ فقال :

« إن الاجوبة المسكّنة هي أصعب الكلام مركباً ، وأعزّه مطلباً ، وأغمضه مذهباً ، وأضيقه مسلكاً ، لأن صاحبها يعجل مناجاة الفكرة ، واستعمال القريحة ، حيث يروم في بديته ، نقض ما أبرم القائل في رويته ، ويفتح ببيانه منغلق الحجة ، ويسد على خصمه واضح المحجة ، .

والخلاف بيننا أننا : نقول « يحىء عفواً للمستندين إلى ذخّر ثمين من الحكمة وفصل الخطاب ، ، وهو يقول إنه يحىء بعد مناجاة الفكرة ، واستعمال القريحة ، ولا نرى الوقت يسمح بهما أثناء التكلم .

وإننا لنشكر الاستاذ المؤلف على ما جمع من درر غوال ، لا تقوّم بمال ، وما أمد به الادب العربي من شذرات ، كانت موزعة في عشرات من الكتب ، فجمعها في كتاب . وهو يوجد بمكتبة السيد محمد الحلبي ، وثمنه أربعون قرشاً .

البيان الفاصل بين الحق والباطل

الإنسان في حياته الدنيا متنازع بين داعين : داعى الحق ، وداعى الباطل ؛ فالأول يدعو له فيه صلاحه وفلاحه ، ولما به تقدمه نحو غايته المرجوة ، ووصوله إلى مثله الأعلى ، وحفظه في أثناء حياته الأرضية من علل النكوص على عقبيه ، والنكول عن غايته ، ومن شرور الفتن الغائلة ، وسموم الآثام القاتلة ؛ والثانى يورطه في المهالك ، ويزج به في المضانك ، ويسول له ارتكاب المآثم ، وغشيان المظالم ، ولا يزال بصاحبه يصدّه عن الخير ، ويجره إلى الشر حتى يجعله عبّرة للمعتبرين . وقد بين الله في كتابه الكريم ، ما هو حق وما هو باطل من العقائد

والأعمال، وفصلها تفصيلاً، حتى لا يقع فيها من يسول له الشيطان ركوبها، فيوبقه كما يفعل بشيعته في كل حين . فجاء الفاضل النبيل ، المؤلف الثابه الجليل الاستاذ « على فكرى ، فجمع ما ورد في الحق والباطل في الكتاب والسنة ، ورتبها أحسن ترتيب ، وبوبها أكمل تبويب ، وطبعها في كتاب ، فما لبث أن نفذت طبعته الأولى ، فرأت دار إحياء الكتب التى طبعته أولاً أن تعيد طبعه ثانياً . فزجو لهذا الكتاب الذبوع والانتشار ؛ فإنه خير ما يحفظ الإنسانية لصاحبها ، ويهديه إلى طريق الفضيلة التى ينشدها ، ويرده عن الباطل الذى يهدمه ، رداً رقيقاً ، ولكن مؤثراً . فنشكر لحضرة المؤلف عنايته بنشر أمثال هذه الكتب التى تؤدى للإنسانية أجل خدمة ، وتمدها بأمرى سلاح ، للتخلص من شرور الحياة وآلامها .

مؤلفات أحمد تيمور باشا

من أحسن ما عنى به الغيورون على المؤلفات الطريفة ، مؤلفات العالم الجليل أحمد تيمور باشا رحمه الله وأجزل جزاءه ، فقد أدى اللغة العربية خدمة جلية لم يقم بها سواه ، منها كتاب (ضبط الاعلام) فقد كانوا يقرءون أسماء كثير من الشعراء ورجال التاريخ على غير حقيقتها ، كابن الزبعرى والطرامخ وغيرهما ، مما يعد بالمئات ، فعنى تيمور باشا بضبطها فسدت ، فراغاً فى المطبوعات العربية لم يملأه غيره ، ومنها كتاب (البرقيات) . قال رحمه الله فى مقدمته : « من مزايى اللغة العربية أنها تحتوى كلمات تدل فى إطلاق واحد على معان متعددة نحو (ربيع) أى رفع الحجر باليد امتحاناً للقوة . ثم قال : وإنما سميتها بذلك لما فى التعبير بها من الإيجاز المطلوب فى الرسائل البرقية ، فأتى وضعه لها مئات من الكلمات وشرحها شرحاً وافياً ، وحلاها بالشكل خشية أن يلحن القارئ لها فلا يتم له المقصود منها وهو الانتفاع .

ومن تلك المؤلفات (الأمثال العامية ، والكنايات العامية) فهى تقع فى نحو ستائة صفحة ، أتى فيها رحمه الله بما كنا لا نعرفه منها . وهى مؤلفات تحتاج لجهود متواصلة ، وتحقيقات شاقة . وبما يسر حجبى الاطلاع أن انتدب للإشراف على طبع هذه الكتب الكاتب الأملح الكبير صاحب العزة خليل ثابت بك . فجاءت على أحسن ما يمكن أن يكون طبعاً وورقاً ؛ فنشكر له هذه الخدمة الأدبية ، شكراً مضافاً إلى شكرنا له على ما قام به من خدم صحفية متميزة سنين طويلة .

تطلب هذه الكتب من مكتبة الخانجى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحاديث الاستاذ الأكبر

مع السفراء والمفوضين السياسيين

استقبل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر ظهر اليوم (١٩٤٩/٩/٢١) وزير يوغوسلافيا المفوض الجديد ، ومعه شيخ علماء يوغوسلافيا ، ووفد من العلماء ؛ وقد رحب بهم الأستاذ الأكبر وتمنى لهم طيب الإقامة ، وقد قدمهم لفضيلته الوزير المفوض قائلاً : إنه سعيد أن يزور الجامع الأزهر العتيق ذا الصوت البعيد فى جميع أنحاء العالم ، وسعيد أن يزور شيخ الأزهر ليوطد الصلات الوثيقة بين مسلمى يوغوسلافيا ممثلين فى وفد العلماء ، وبين الأزهر الشريف . ثم قال : إن المسلمين كلهم فى يوغوسلافيا يتطلعون الى الأزهر ، لأنه مصدر العلم والثقافة الدينية .

فشكره فضيلة الأستاذ الأكبر على هذه التحيات .

وسأل الأستاذ الأكبر شيخ علماء يوغوسلافيا عن حال المسلمين هناك ، فقال شيخ العلماء : إن المسلمين بخير ، وهم يتمتعون بحقوقهم الدينية والمدنية كبقية المواطنين ، ولهم مدارسهم التعليمية والدينية .

وسأل الأستاذ الأكبر عن المدارس الدينية ومستوى الثقافة فيها ، فقال شيخ العلماء : إن مدة التعليم فى المدارس ثمان سنوات ، والطلبة يدرسون فيها الفقه والأصول والحديث والبيان والبديع ، والمذهب السائد هناك هو

المذهب الحنفي... وهناك مدارس لتعليم اللغة العربية ولكنها ما تزال في حاجة إلى النهوض .

فقال الأستاذ الأكبر : إن خير ما يسره أن يعنى المسلمون بشئون دينهم ، وأن يحرصوا على تعليم أولادهم أصول الدين ، ليطلعوهم على التدين منذ نعومة أظفارهم ، وإنه يلاحظ أن مدة التعليم في المدارس الدينية قصيرة ، وهي تحتاج إلى فترة أطول ليتم نضج المتعلمين فيها ، وهو يوصى فضيلة شيخ العلماء أن يعمل على زيادة مدة الدراسة أربع سنوات أخرى ؛ لأن هذه هي أقل مدة يمكن فيها استيعاب العلوم الدينية والعربية . فوعد شيخ العلماء بأن يعمل على تنفيذ نصيحة الأستاذ الأكبر .

وسأل فضيلة الأستاذ الأكبر عن تعداد المسلمين في يوغوسلافيا ، فقال شيخ العلماء : إن عددهم يربو على المليونين .

وسأل الأستاذ الأكبر عما إذا كان في يوغوسلافيا محاكم شرعية ، فقال شيخ العلماء : كان في يوغوسلافيا محاكم شرعية تقوم بالفصل في مسائل الطلاق والزواج والموارث الخاصة بالمسلمين ، ولكنها ألغيت أخيرا بعد تعديل نظام يوغوسلافيا .

ووجه الأستاذ الأكبر السؤال عن أسباب إلغاء المحاكم الشرعية إلى الوزير المفوض . فأجاب سعادته : إن حكومة يوغوسلافيا رغبت حين عدلت دستورها أن تجعل حرية التقاضى لجميع المواطنين واحدة ، فألغت كل المحاكم الطائفية ومنها المحاكم الشرعية ، وجعلت التقاضى كله أمام محكمة الشعب الوطنية . وقد روى احترام حقوق المسلمين ، فخصص قضاة مسلمون للنظر في مسائل الأحوال الشخصية الخاصة بهم . وحكومة يوغوسلافيا الآن حكومة وطنية لا تفرق إطلاقا في المعاملات الدينية .

فقال الأستاذ الأكبر : إنه مع احترامه لوجهة نظر الحكومة اليوغوسلافية يأسف لإلغاء المحاكم الشرعية ، ويود أن تعيد الحكومة اليوغوسلافية النظر

في أمر إلغائها . واتجه الأستاذ الأكبر إلى العلماء وقال : إنى أرجو أن تعملوا على إعادة هذه المحاكم ، وأن تختاروا لها الأكفاء من القضاة ، لتكون هذه المحاكم أنموذجا يحتذى في تحرى الدقة والعدالة .

ثم قال الأستاذ الأكبر للوزير المفوض : لقد تحدثت إلى سلفك حين زارنى منذ عام عن تقارير وصلتنى عن اضطهادات وقعت على المسلمين في يوغوسلافيا ، وطلبت إليه أن يتحرى صحة هذه الوقائع ، وبودى أن أقف منك اليوم على هذه الحالة بالتفصيل ، لأطمئن على مستقبل أبنائى المسلمين في يوغوسلافيا .

فقال الوزير : إنه يشكر الأستاذ الأكبر أن أتاح له هذه الفرصة ليتحدث بصراحة عن معاملة الحكومة اليوغوسلافية للمسلمين ، وقال : إنه يريد أن يستمع الأستاذ الأكبر لرأى علماء المسلمين أولا في هذه المعاملة ، وهامهم شهود على ما يتمتع به العلماء من معاملة طيبة ، ونفى صحة ما وصل إلى الأستاذ الأكبر من تقارير عن اضطهاد للمسلمين ، وقال : إن الحكومة اليوغوسلافية لا تضطهد أحدا بسبب ديني ، فخرية الدين مكفولة للجميع ، وإذا كان بعض المسلمين قد وقعت عليهم عقوبات فليس هذا مرده إلى الدين ، وإنما لأنهم ارتكبوا مخالفات خطيرة ضد الدولة ، وشأهم في ذلك شأن غيرهم من بقية الطوائف .

وقال شيخ العلماء : إن كل ما يقال عن تعذيب المسلمين واضطهادهم لأسباب دينية هو محض افتراء ؛ فالمسلمون يتمتعون بحمد الله بكل رعاية وعناية من الحكومة اليوغوسلافية ، والحكومة تشجع الهيئات الدينية ، وتعاون على إنشاء المدارس ، وليس للمسلمين ما يشكون منه ؛ أما ما تسامع إلى الأستاذ الأكبر من عقوبات وقعت ببعض العلماء ، فسببها تأمرهم مع غيرهم على قلب نظام الحكم في الدولة ، ومع ذلك ومع عدم رضائى عن هذا المسلك ، فقد توسطت لدى الحكومة في تخفيف العقوبات عليهم ، وقبلت الحكومة رجائى .

فقال الأستاذ الأكبر : لقد أردت بذكر هذه التقارير التى وصلتنى أن أتبين وجه الحق فيها ، وأن أطمئن ويطمئن معى العالم الإسلامى على أن إخوانى وأبنائى

المسلمين في يوغوسلافيا ، لا يضطهدون بسبب عقائدهم الدينية ، وما دام الأمر كما ذكر شيخ العلماء وذكر سعادة الوزير ، من رعاية لشئون المسلمين وكفالة لحقوقهم ، فقد ارتحت لهذا البيان . ولأنى لأرجو أن يتحقق للمسلمين في يوغوسلافيا كل ما نرجوه لهم من تقدم . ونصيحته لهم أن يجمعوا كلمتهم ، ويستمسكوا بدينهم ، لتحقيق لهم كل أمانهم . ورجا الأستاذ الأكبر شيخ العلماء أن يحمل تحياته ودعواته لأبنائه المسلمين جميعا .

وقال الوزير المفوض : إنه يود أن يؤكد للأستاذ الأكبر أن المسلمين في يوغوسلافيا أحسن حالا منهم في أى وقت مضى ، وأن عناية الحكومة بذشر للتعليم في جنوب الصرب ومقدونيا عناية فائقة ، وأن المدارس في البقاع الإسلامية قد نشطت وزاد عددها ، وأن الحكومة - فضلا عن هذا وتشجيعا للتعليم الدينى تفكر في ربط الصلات بين مسلمي يوغوسلافيا والأزهر ، وسيخرج هذا التفكير إلى حين التنفيذ حين توفد الحكومة بعثة من أبناء المسلمين للتعلم في الأزهر والتخصص في العلوم الدينية والعربية ، وبذلك تكون أول بعثة تفتد إلى الأزهر من يوغوسلافيا بعد الحرب ، وبهذا تتحقق الروابط الثقافية الوثيقة بيننا وبين مصر ، ويومها يرى العالم الإسلامى ويدرك أن الشائعات المغرضة التى تكثر هنا وهناك عن سوء معاملة المسلمين لا أساس لها من الصحة إطلاقا .

فقال الأستاذ الأكبر : لى أرحب دائما بالتعاون الثقافى بين الأمم ، لانه دعامة قوية فى تحقيق التفاهم وربط الصلات الوثيقة بين الشعوب .

ويسرنى أن يعود أبناء مسلمي يوغوسلافيا إلى رحاب الأزهر ، لينهلوا من معارفه ، ويرشدوا قومهم إذا رجعوا إليهم . ولأن الأزهر بفضل التوجيه السامى لحضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول الذى يحرص على نشر نور العلم فى جميع الاقطار ، وعلى ربط المسلمين فى جميع بلاد العالم فى الشرق والغرب برباط وثيق من المحبة والتعاون - ايرحب بأى بعثة تفتد من يوغوسلافيا اطلب العلم ، وستجد البعثة القادمة ما تجده البعثات الإسلامية جميعا من عطف الفاروق العظيم ورعايته ، مما يسر لها أمورها ، ويعينها على طلب العلم ؛ فقد حرص

جلالته أدام الله ملكه ، على أن يوفر من جيبه الخاص لأبناء البعوث الإسلامية كل وسائل العيش والإقامة ، لينصرفوا مطمئنين إلى أداء رسالتهم التي وفدوا من أجلها ، وهي التزود بالعلم ، والتبحر في الدين .

وشكر الوزير للأستاذ الأكبر هذا العطف ، وأثنى على أريحية الملك العظيم ، وقال : إنني حين تشرفت بالمشول بين يدي جلالته حدثني حفظه الله عن اهتمامه بالتعاون الثقافي بين الأمم ، وعن رغبته في قيام التبادل الثقافي بين مصر ويوغوسلافيا . وقد أكدت لجلالته أن يوغوسلافيا حريصة على إنماء صلاتها بمصر وعلى التعاون معها ثقافياً ، وقد أبلغت حكومتى رغبات جلالته ، وسأبلغها مقترحات الأستاذ الأكبر ، وترحيب الأزهر بالبعثات التي تفد من أبناء مسلمي يوغوسلافيا ، وأرجو في وقت قريب أن تتخذ الترتيبات لإرسال هذه البعثة حتى تتحقق الصلة بين الأزهر ويوغوسلافيا .

واستطرد الحديث إلى الطلاب اليوغسلافيين الذين وفدوا إلى مصر قبل الحرب ، وطالب الأستاذ الأكبر سعادة الوزير أن يعنى بأمرهم ، وأن يوفر لهم من المساعدات ما يمكنهم من طلب العلم هادئة نفوسهم . وقال الوزير : إن أحداً من هؤلاء الطلاب لم يتقدم إليه ، ووعد بالنظر في شأن من يتقدم إليه منهم ، وبحث حالته .

وكرر الوزير الشكر للأستاذ الأكبر على أن أتاح لهم هذه الفرصة لزيارته ، واستأذن مع وفد العلماء منصرفين ، فودعهما الأستاذ الأكبر شاكرًا راجيًا لهم سفرا ميمونا إلى الأقطار الحجازية .

هذا وقد قدم الوفد إلى الأستاذ الأكبر هدية نفيسة من صناعة يوغوسلافيا هي طقم فاخر للقهوة بموه بالذهب . وقد تقبل الأستاذ الأكبر الهدية شاكرًا .

حديث حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

مع مراسل وكالة الأنباء الإسلامية بمناسبة احتفال حكومة باكستان
بتأسيس أربع جمعيات ثقافية

١ — تحتفل حكومة باكستان بتأسيس أربع جمعيات ثقافية لتوطيد العلاقات بينها وبين العالم العربي والإسلامي، فهل تفضلون بتوجيه كلمة في هذه المناسبة عن شعوركم نحو هذه الجماعات، وعمما توصون به لتوسيع نطاق أعمالها؟

— إن كل عمل غايته نشر الثقافة في البلاد الإسلامية والعربية، يملؤني غبطة وسرورا؛ إذ ما أحوجنا إلى أن ننير أذهان أبنائنا في العالم الإسلامي، وأن نوحّد بين ثقافتهم وأن نوجههم توجيهاً صالحاً يقوم على المحبة لدين الله، والإخلاص لتعاليم الإسلام؛ ولا ريب أن ديننا الخفيف يدعونا دائماً إلى التأمل والنظر في ملكوت الأرض والسماء، ويطلبنا بأن نتسلح بالمعرفة، وأن نتزود بالثقافة الكاملة، لنستطيع أن نواجه الحياة في قوة وعزم، ولنستعين على إدراك أسرار الكون، ومجارات الحياة، وفهم غوامضها؛ ولا شك أن العمل على توحيد الثقافة في البلاد الإسلامية والعربية، عمل جليل الشأن، لأنه يقرب بين أفكار هذه الأمم، ويربطها برباط وثيق من وحدة الفكر والشعور يزيد برباط الإيمان بينهم قوة وتوثيقاً.

والعالم الإسلامي والعربي اليوم لا بد له أن يتكامل وتجتمع كلمته على أساس من المحبة الخالصة لله، ليقف قويا بإيمانه، معتزاً بثقافته وتعاليمه في وجه كل تيارات العدوان التي تتناوش العالم الآن.

وإني إذ أهني حكومة باكستان على هذه الخطوة المباركة في سبيل التقريب الثقافي بينها وبين الشعوب الإسلامية والعربية، أرجو أن تظل هذه الروح جميع

أبنائي وإخواني المسلمين في جميع أقطار الأرض ، لنتمكن لسكلمة الله ، ونحقق هدفنا الاسمي في أن نعيد للإسلام عظمته ومجده . ونصيحتي لأبناء المسلمين في الباكستان أن يقبلوا على تشجيع هذه الجمعيات الثقافية ماديا وأديبا لتزدهر وتصبح نواة لحركة نهضة ثقافية تعم دولة الباكستان الجديدة ، وترسى لها تقاليد قوية في خدمة العلم والمعرفة . كما أنصحهم جميعاً بالإقبال على العلم والتزود من المعارف ؛ لأن الثقافة والمعرفة في عصرنا الحديث هما أداتا التقدم والسلطان ، فإذا اجتمع لنا دين قويم وعلم صحيح ، استطعنا أن نعيد مجد الإسلام والعروبة ، وأن نجعل كلمتنا هي العليا بإذن الله . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

٢ — ما هو مدى تعاون الأزهر مع الشعوب الإسلامية ، وما مظاهره ؟

— إن الأزهر منذ نشأته هو الحلقة التي تربط الشعوب الإسلامية بعضها ببعض ؛ إذ يقد إليه طالبو العلم من المسلمين من جميع بقاع الأرض ليتزودوا من معارفه وحكمته ، ويعودوا إلى بلادهم ليرشدوا قومهم وينيروا أمامهم سبل الهداية . ولا عجب في ذلك ؛ فالأزهر هو معقل الدراسات الإسلامية : من فقه ، وحديث ، وتفسير ، وعلوم الكلام ؛ بل هو المعقل الذي حفظ تراث الدين واللغة من نحو ألف سنة ، برغم كل التقلبات والحوادث التي وقعت في مدى هذه السنوات . وقد ظل علماء الأزهر عاكفين على الدراسة والتأليف في جامعاتهم العتيقة ، وتركوا للعلم والدين زادا من المعرفة لن ينفد على الأيام .

فأنت ترى معنا أن الأزهر قد أحيا علوم الدين واللغة ، ونهض بها نهضة واسعة أفاد منها المسلمون جميعاً ، وتأثروا بها في ثقافتهم وتأليفهم ؛ ولذلك فإن طابع الأزهر يميز في كل البقاع ، وتلاميذته الذين اغترفوا من منهله وانطبعوا بتماليمهم الذين يوجهون الحياة العامة في البلاد العربية والإسلامية .

للأزهر إذاً فضل جمع أبناء المسلمين في صعيد واحد بما فتح لهم من أبواب ، وما ييسر لهم من أسباب تعينهم على طلب العلم ، وتمسكهم من الجلوس جنباً إلى جنب ، سنوات طويلة في حلقات الدرس ، فتملا قلوبهم بالمحبة الصادقة والتعاون الوثيق ، وتشرب نفوسهم بروح الإخاء والالفة ، حتى إذا عادوا إلى بلادهم ذكروا معهم العتيد ، وكانوا رسل سلام وهداية وتوفيق .

وللأزهر فضل توحيد الثقافة الإسلامية ومناهج دراستها ، فإن أبنائه الذين تعلموا فيه قد انبثوا في جميع بقاع الأرض يؤدون رسالته ويعملون على نهجه ، ويذيعون آراءه وأفكاره ، وطرق بحثه ووسائل إرشاده ؛ ومن هنا تأثرت بهم الحياة العامة في الشعوب الإسلامية ، وقويت عن طريق جهودهم الدعوة الدينية . ويكفي لتقدير عظم هذا التأثير أن تعلم أن الأزهر ظل وحده مدى قرون طويلة ، هو حامل مشعل الهداية والثقافة في العالم الإسلامي ، وأن كل حركات النهضة العلمية والثقافية خرجت منه وتغذت من أبنائه .

أما الأزهر الآن فقد جرى على هذه التقاليد الطيبة ، وزاد عليها في التوسع والتنظيم للبعوث الإسلامية الوافدة إليه . وقد كان للبغفور له صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول - أسكنه الله فسيح جناته - فضل توجيه الأزهر الى هذه الناحية النافعة ، بما قدم من معونات أدبية ومادية خلدت ذكره في ثبت العاملين المصلحين ، ثم كان لحرص صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول راعى العلم والعلماء على أن يظل الأزهر مثابة الوافدين من جميع بقاع الأرض ، أكبر الأثر في تشجيع البعث الإسلامية على الوفود ؛ فقد تفضل جلالته فشمل هذه البعث برعايته ، وأمر أن تكون نفقتها من جيبه الخاص . وفي الأزهر الآن نحو ألف وسبعمئة طالب من البلاد الإسلامية : من الصين والهند وأندونيسيا وجاوه وإلبانيا ويوغوسلافيا وتركيا وروسيا والمغرب وجنوب أفريقيا والشام والعراق وإيران وغيرها ، كلهم متمتعون بفضل الفاروق ورعايته ، وكلهم يدرسون ويعملون متحاثين لخدمة العلم والدين . هذا المؤتمر الاسلامي الكبير الدائم لا شك له أثره في التقريب بين الشعوب الإسلامية في الفكر والشعور ، والتوحيد بينها في الثقافة ، وربطها جميعا برباط الوحدة والمحبة في دين الله .

وقد حرص الأزهر من ناحية أخرى - بفضل عناية جلالة الفاروق وتوجيهه - على إشاعة الثقافة الإسلامية ، بين الشعوب عامة ، فأرسل بعثات من أساتذته ومتخرجيه إلى كل البلاد العربية والإسلامية ، ليعملوا على نشر كتاب الله وسنة رسوله ، ويوجهوا الثقافة الوجهة الإسلامية الصالحة . وإنك لو اجد

اليوم في كل عواصم البلاد العربية والإسلامية بعوثاً علمية نشطة نواتها أبناء الأزهر وعلمائوه ، ينشرون علم الأزهر في الآفاق ، ويربطون بين شعوبها برباط المحبة والمعرفة .

ولم يقف جهد البعوث الأزهرية عند حدود البلاد العربية والإسلامية ، بل حرصنا على أن يكون للأزهر فضل السبق في دعوة الشعوب التي لما يصل إليها نور الهداية إلى كتاب الله وسنة رسوله ، فأرسلنا البعوث إلى جنوب وشرق إفريقيا للدعوة والإرشاد ؛ ونحن بسبيل إرسال بعوث أخرى إلى أنحاء متفرقة ، لتؤدي رسالتنا في خدمة العلم والدين كاملة ، والله يوفقنا جميعاً ويهدينا سواء السبيل : «إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقي إلا بالله ، .

هذا من الناحية الثقافية والتعليمية ، أما من الناحية العامة فإن الأزهر يؤيد من كل قلبه الشعوب الإسلامية والعربية في نهضاتها ، ويساهم في الدعوة لقضاياها والحث على معونتها ، وما موقفنا من مسألة فلسطين ببعيد ، فقد دعونا لقضيتها وجاهدنا في سبيلها ، وجمعنا المال لمعونتها ، وما زلنا إلى اليوم نرقب حركاتها في سبيل التحرر من قيود الاستعمار الصهيوني . والله المسئول أن يحقق آمال المسلمين والعرب في نصرها واستقلالها ، ويعين أصحاب الجلالة ملوك العرب ، وأصحاب الفخامة رؤساء الحكومات العربية والإسلامية في جهادهم الذي بدؤوه ضد الصهيونيين ، وأن يكتب لهم النصر والتأييد .

« إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ،

صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في التوراة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فسكرى ياسين

أخرج البخارى عن عبد الله بن عمرو ، قال : قرأت في التوراة صفة النبي صلى الله عليه وسلم ، محمد رسول الله : عبدى ، ورسولى ، سمّيته المتوكل ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخّاب فى الأسواق ، ولا يتجزى بالسّيئة السيئة ، بل يعفو ، ويصفح ، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله .

* * *

حفلت الكتب السماوية القديمة ، والنّبوات السابقة عند أهل الكتاب بالحديث عنه صلى الله عليه وسلم ، والبشارة بنبوته ، وذكره بنعته وصفته وعلاماته ، ودعوته ، وصفة أمته ، ووقت مخرجه ، وما إلى ذلك ، وأشار القرآن الكريم إلى هذا فى طرف من آياته الشريفة ، فقال : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » ، وقال : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر » .

ولما حضر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بين يدى النجاشى ، وقرءوا القرآن ، وسمعه القسيسون والرهبان ، انحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق ، فذلك قول القرآن الكريم : « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ... » الآيات .

ومن أجمع ما جاء فى التوراة خاصاً به صلى الله عليه وسلم ، ما أشار إليه الحديث الذى معنا ، فقد عرض له بذكر اسمه ووصفه ، وبعض شيمه وفضائله ، وأخلاقه وشمائله ، وبيان زمن انتقاله إلى ربه ، وأنه لن يكون إلا بعد أن تتحقق

المهمة المنوطة به ، ويكمل العمل المطلوب منه ، وهو إقامة الدين الصحيح ، وإعلام كلمة الله ، وتخليص العقيدة الدينية مما طرأ عليها من شرك ، وخالطها من عوج ، ودخل فيها من تغيير وتبديل ، وأن هذا لا يتم إلا بوجود الاعتماد الجازم ، وإظهار شعار الحق ، وإعلان أمانة الصدق ؛ والنطق بكلمة التوحيد المتضمنة للإيمان به تعالى ، والتصديق بما جاء به رسوله ، مما يؤيده قوله : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فمن قال : لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحق ، وحسابه على الله » ، فإن هذا الحديث تقرير وتعبير عن الإجابة إلى الإيمان بالله تعالى ، والتصديق بجميع ما جاء به الرسول ، كما ورد ذلك صريحاً في الرواية الأخرى القائلة : « حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، ويؤمنوا بي ، وبما جئت به » . واختصاص عصمة المال والنفس بمن قال : لا إله إلا الله ، ظاهر في مشركي العرب ، وأهل الأوثان ، ومن لا يوحد ، لأنهم كانوا أول من دعى إلى الإسلام ، وقوتل عليه ، أما غيرهم ممن يقر بالتوحيد كأهل الكتاب ، فإنه لا يُكتفى في عصمته بقوله : لا إله إلا الله ، لأنه كان يقولها في كفره ، وهي من اعتقاده ، بل لا بد فيها مع هذا من الإيمان بكل ما جاء به الرسول ، كما جاء في الحديث الآخر : « حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة » .

* * *

التوراة : هو الكتاب الذي ورثوه عن موسى ، والجمهور على أن معناه الضياء والنور ، لأن هذه اللفظة مشتقة من وَرَى الزندُ ووَرى : إذا خرجت ناره . وقيل : لفظه التوراة مأخوذة من التورية ، وهي التعريض بالشئ ، والكتان لغيره ، فكان أكثر التوراة معاريض وتلويحات من غير تصريح وإيضاح ، وهذا كله إذا جربنا على تقدير أن اللفظة عبرية ، أما إذا كانت عبرانية ، أو سريانية ، كما قيل بكل ، فلا معنى لهذا الاشتقاق على الحقيقة ، لأن الاشتقاق من ألفاظ آخر أعجمية مما لا مجال لإثباته .

ومحمد : هو أشهر أسمائه صلى الله عليه وسلم ، وهو اسم مفعول من حمّد فهو محمّد ، إذا كان كثير الخصال التي يحمد عليها ، وهو من المضاعف للمبالغة ،

لأنه هو الذى يحمد أكثر مما يحمد غيره من البشر ، وهو الاسم الذى سُمى به فى التوراة صريحاً ، على ما حققه العلامة ابن القيم فى كتابه « جلاء الأفهام » ، وبين فيه غلط أبى القاسم السهيلي ، حيث ذكر أن اسمه فى التوراة أحمد .

وذكر أصحاب السير والمغازى أنه لما ولد صلى الله عليه وسلم قيل لجده عبد المطلب : ما سميت ابنك ؟ فقال : محمداً ، فقيل له : كيف سميت باسم ليس لأحد من آبائك وقومك ؟ ، فقال : إني أرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم . وذلك لرؤيا كان قد رآها عبد المطلب فى منامه ، وعُبرت له بمولود يخرج من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ، ويحمده أهل السماء والأرض ، فلهاذا سمّاه محمداً .

وقال القاضى عياض : لم يسمّ بمحمد أحد من العرب ولا غيرهم ، إلى أن شاع قبل وجوده وميلاده أن نبياً يبعث اسمه محمد ، فسُمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو ، وهم : محمد بن أبيحة بن الجلاح الأوسى ومحمد بن سلمة الأنصارى ، ومحمد بن البراء الكندى ، ومحمد بن سفيان بن مجاشع ، ومحمد بن حران الجعفى ، ومحمد بن خزاعى السلمى ، لا سابع لهم ، ويقال : إن أول من سُمى محمداً محمد بن سفيان بن مجاشع ، والذين يقول : بل محمد بن ليحمد الأزدي . ثم إن الله حمى كل من تسمّى به أن يدعى النبوة ، أو يدعيها له أحد ، أو يظهر عليه سبب يشكل أحداً فى أمره ، حتى تحققت الشيمتان له صلى الله عليه وسلم لم يَنَازِعَ فيهما .

ورسوله : من الرُّسل ، وأصله الانبعاث ، فالرسول المنبعث ، ويقال تارة للقول المتحمّل ، وتارة لمتحمّل القول ، ورُسل الله تارة يراد بها الأنبياء كقوله « إنه لقول رسول كريم » ، وتارة يراد بها الأنبياء كقوله : « وما محمد إلا رسول » ، والإرسال يتمل فى الإنسان ، وفى الأشياء المحبوبة والمكروهة ، وقد يكون بالنسخير كإرسال الريح والمطر ، وبيعث من له اختيار كإرسال الرسل ، وبالتولية وترك المنع كإرسال الشياطين على الكافرين .

والعبد : من العباد ، وهو على جملة أضرب : عبد بحكم الشرع ، وهو الإنسان الذى يصح بيعه وابتباعه ، وعبد بالإيجاد ، وذلك ليس إلا لله تعالى ، وعبد

بالعبادة والخدمة، والناس في هذا ضربان ، عبد الله مخلصاً ، وعبد للدنيا وأغراضها . وجمع العبد الذى هو مسترق عبيد ، وجمع العبد الذى هو العابد عباد فالعبيد إذا أضيف إلى الله تعالى أعم من العباد .

والتوكل : من التوكل ، وهو اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد ، ودفع ما يضره في دينه ودنياه ، وقد كان صلى الله عليه وسلم أحق الناس باسم المتوكل ، لأنه توكل على الله في إقامة الدين توكلًا لم يشركه فيه غيره . والتوكل يقال على ضربين : توكلت لفلان بمعنى توليت له ، ووكلته فتوكل لى ، وتوكلت عليه بمعنى أعتمدته ، وواكل فلان ، إذا ضيّع أمره متكلًا على غيره ، وتواكل القوم : إذا اتكل كل على الآخر ، والتوكيل : أن تعتمد على غيرك ، وتجعله نائبًا عنك ، والوكيل : فاعيل بمعنى المفعول .

والفظ : السكرية الخلق ، مستعار من الفظ الذى هو ماء السكرش ، وذلك مكروه شربه ، لا يتناول إلا في أشد ضرورة ، قال تعالى : « ولو كنتم فظًا غليظ القلب لا نفضوا من حولك » .

والغليظ : الخشن ، والغلظة ضد الرقة ، وأصله أن يستعمل في الأجسام ، لكن قد يستعار للمعانى كالكبير والكثير ؛ قال تعالى « وليجدوا فيكم غلظة ، أى خشونة ، واستغلظ : تهيأ لذلك » .

وصخباب : من الصخب ، وهو شدة الصوت ، يقال : صخب فهو صخاب وصخب وصخب وصخبان ، وتصاخبوا : تصايحوا وتضاربوا ، واصطخباب الطير : اختلاط أصواتها .

والأسواق : جمع سوق ، وهو الموضع الذى يجلب إليه المتاع للبيع ، قال تعالى : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ، ويمشى في الأسواق » .

ويجزى : من الجزاء ، وهو ما فيه الغناء والكفاية من المقابلة إن خيرا خفيرا ، وإن شرا فشر .

والسيئة : الفعلة القبيحة ، وهى ضد الحسنة ، وتقع على ضربين : أحدهما بحسب اعتبار العقل والشرع ، نحو : « ومن جاء بالسيئة ، فلا يجزى إلا مثلها » ،

وثانيهما بحسب اعتبار الطبع ، وذلك ما يستثقله الطبع ، نحو : « وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه » .

ويعفو : من العفو ، وهو التجافي عن الذنب ، وعفوت عنه : قصدت إزالة ذنبه صارفا عنه ، فالمفعول في الحقيقة متروك ، وعن متعلق بمضمر ، وقولهم في الدعاء : أسألك العفو والعافية أى ترك العقوبة والسلامة .

ويصفح : من الصفح الذى هو ترك التثريب ، وهو أبلغ من العفو ، فإنه قد يعفو الإنسان ، ولا يصفح ، وصفحته عنه : أوليته منى صفحة جميلة ، معرضاً عن ذنبه ، أو لقيت صفحته متجافياً عنه ، أو تجاوزت الصفحة التى أثبت فيها ذنبه من الكتاب إلى غيرها ، والمصاحفة : الإفضاء بصفحة اليد .

وأقبضه : من القبض ، وهو تناول الشيء بجميع الكف ، ويستعار لتحصيل الشيء وإن لم يكن فيه مراعاة الكف ، كقولك : قبضت الدار من فلان ، أى حزنتها ، ويكنى بالقبض عن الموت ، فيقال : قبضه الله ، ومنه الذى معنا ، والانتقباض : جمع الاطراف ، ويستعمل فى ترك التبسط .

وأقيم : من الإقامة ، وهى الثبات فى المكان ، وإقامة الشيء توفيته حقه ، قال تعالى : « قل يأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل ، أى توفون حقوقهما بالعلم والعمل » .

والملة : من أملت الكتاب ، وهى كالدين اسم لما شرع الله لعباده على لسان الأنبياء ، ليتوصلوا بها إلى جوار الله ، والفرق بينها وبين الدين : أن الملة لا تضاف إلا إلى النبي الذى تسند إليه ، ولا تكاد توجد مضافة إلى الله ، ولا إلى آحاد أمة النبي ، ولا تستعمل إلا فى جملة الشرائع دون آحادها ، ويقال الملة اعتباراً بالشيء الذى شرعه الله ، ويقال الدين اعتباراً بمن يقيمه ، إذ كان معناه الطاعة ، والمراد بإقامة الملة فى الحديث توفيتها حقوقها ، والرجوع بها إلى ما يجب أن تكون عليه من استقامة واعتدال .

والعوجاء : المخالفة لحال الانتصاب والاستقامة ، والعَوَج يقال فى المنتصب

الذى يدرك بالبصر سهلاً ، كالحائط والعصا ، والعيوج يقال فيما يدرك بالفكر والبصيرة كالدين والمعاش ، والاعوج يكنى به عن سىء الخلق .

ذكر كثير من العلماء - أخذاً من قول الحديث : « بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، أن فيه دليلاً على أن الاعتقاد الجازم كاف في الإيمان ، وأنه لا يجب تعلم الأدلة ، ولا جعلها شرطاً في تحقق الإسلام ، كما ذهب إلى ذلك كثير من المعتزلة وبعض المتكلمين . قال النووي : قد تظاهرت الأحاديث الصحيحة التي يحصل من عمومها العلم القطعي بأن التصديق الجازم كاف .

وذكروا أيضاً أنه يصح أن يؤخذ من الحديث اشتراط التلفظ بكلمة الشهادة في الحكم بالإسلام ، وترك تكفير أهل البدع المقرين بالتوحيد ، الملتزمين للشرائع .

مجاهدة النفس

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » .

وقال عون بن عبد الله : إذا عصتكَ نفسك فيما كرهت ، فلا تطعمها فيما أحبت ، ولا يغرنك ثناء من جهل أمرك .

وقال الأحنف بن قيس : من ظلم نفسه كان لغيره أظلم ، ومن هدم دينه كان لمجده أهدم .

وقال بعض الحكماء : من رضى عن نفسه أسخط الناس عليه .

وقال آخر : من قوى على نفسه تناسى في القوة ، ومن صبر عن شهوته بالغ في المروءة .

عبيد الله الأهل

لفضيلة الامتاز الجليل الشيخ محمد محمد المدني
المفتش بالآزهر

يقول أهل العلم: إن من المقاصد التي جاءت لها الشرائع، إشعار الناس بأنهم عبيد لله اختياراً، كما أنهم عبيد له اضطراراً.

ومعنى هذا: أن الناس جميعاً مخلوقون لله عز وجل، وأنهم معتمدون في بقائهم مدة ما يعيشون على فضل الله ورحمته وإمداده، فإذا انقطع عنهم هذا الفضل وذلك الإمداد طرفة عين هلكوا، وأصبح عليهم وتجاربهم وما لهم من حيل أو عمل باطلا لا يغني عنهم قليلاً، ولا ينفعهم نقيراً؛ وهم لذلك عبيد لله في الواقع، لا يرجع الأمر في ذلك إلى اختيار منهم، فهم مربوطون بهذا الكون لا ينفكون عنه، مأخوذون بسنته رضوا أم أبوا.

ومن جهة أخرى هم خاضعون لإرادة الله في وجودهم وهيئاتهم، ودرجات عقولهم وحظوظهم؛ فإن أحداً لم يوجد في هذه الحياة باختيار منه، ولم يختار الهيئة التي صور عليها من طول أو قصر، أو جمال أو دمامة، أو قوة أو ضعف؛ وإن أحداً لم يختار لنفسه أن يكون على درجة كذا من العقل، أو أن يكون ذا قسط معين من حظوظ الحياة، فالحياة تجري على ما أَرَادَ الله لها، والناس يجرّون كما خلقهم الله، والكل خاضعون خضوعاً فعلياً اضطرارياً لما هم عليه، أو لما هم فيه، لا يحاولون ولا يستطيعون منه فكاً.

هذا الخضوع الواقعي الاضطراري هو عبودية الناس، بل عبودية كل شيء لله سبحانه خلقاً وتكويناً؛ أما العبودية التي قصدت الشرائع أن يشعر بها الناس:

فهى عبودية الطوع والاختيار ، وذلك إنما يكون بالنزول على حكم الله ، مع الثقة بأنه الخير والحق والرشاد .

* * *

إن النفوس البشرية نزاعة دائماً الى اتباع الهوى ، فقد فطرت على ما تسميه « بالانانية » فكل امرئ يريد أن يكون هو الفائز بأكبر قسط من متاع الدنيا ، وكل امرئ يريد أن يكون هو الناجي من جميع آلامها وصعابها ، وهو لهذا ينظر الى الأشياء بعين نفسه ، ويزن الضر والنافع بمقدار ما يعود عليه هو من النفع والضرر ، وقلما يخرج الإنسان على هذه الطبيعة ، وإن تحمل وتحمل وتهذب ولبس ثوب الإيثار ، فانه سيظل في أمر هذه الطبيعة ولو بعقله الباطن ، وتصرفاته « اللاشعورية » ؛ ولهذا لم يكن بد من أن يحال بين هذه الطبيعة السارية في جنس الإنسان ، وإفساد هذا الكون ؛ ولهذا كانت الشرائع ، وكان أهم شيء فيها هو محاربة « الهوى » لأن الانسان إذا تحرر من هواءه ، فقد تحرر من أخطر أنواع الشرك بالالوهية ، وألقى بنفسه بين أحضان الإيمان الصحيح ، والتوحيد الخالص ، وكان عبداً لله اختياراً كما هو عبد له اضطراراً .

وإنما لنجد في القرآن الكريم بياناً واضحاً لهذا المعنى ؛ فالله سبحانه وتعالى يصف « الهوى » بأنه إله إذ يقول : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » ؛ وذلك تصوير بليغ لانسياق الإنسان واندفاعه وراء ميوله ورغباته ؛ كما يندفع العابد في تحقيق أمر معبوده ، طلباً لرضاه ، وتقرباً إليه .

وقد يتصل بهذا أيضاً قوله تعالى : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » ، فإن هذه الآية إذا نُظِرَ فيها مع قوله تعالى « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » تبين أنها تشير إلى خطر الأهواء وشدة إفسادها للسموات والأرض إذا حكمت ، فإن الله لم يذكر فساد السموات والأرض على هذا النحو إلا حين تحدث عن التعدد في الالوهية ، واتباع الحق أهواء المبطلين .

وقد حذر الله من هذا الفساد نبيا ملوكا من أنبيائه الكرام ، هو داود عليه السلام إذ يقول : « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » . وإذا كان مُلك الله - جل جلاله - وهو السموات والأرض ومن فيهن وما لا يعلم إلا الله معرضا لأشد الفساد إذا اتبع الحق أهواء المبطلين ؛ فأولى بذلك ملك الناس ولو كانوا ملوكا أنبياء .

وقد صرنا إلى زمان اتبعت فيه الأهواء ، وسيطرت على الدول والأمم فيه النزعات والمذاهب البشرية ، فمن نازية إلى فاشية إلى ماركسية إلى ديمقراطية تتلون بلون الانجليز تارة ، وبلون الفرنسيين تارة ، وبلون الأمريكان أحيانا ، بل يكون لها معنى في الغرب ، ومعنى في الشرق ، ويعرفها المستعمرون على وجه ، والمستعمرون على وجه آخر ، أو على وجوه أخرى ، وهكذا ظلمات من الأهواء بعضها فوق بعض ، والشعوب تتلظى بنيران المتخاصمين عليها ، والمتعصبين لها ، فلا تفيق من حرب إلا إلى حرب ، ولا تعالج مشكلة إلا لتقع في مشكلات ، وكلما امتد الزمان بهذه الأهواء المتضاربة ، والنحل المتغالبية ، افتن أصحابها في ابتكار وسائل الهلاك والدمار ، والحرب الغازية تتلوها « القنبلة الذرية » ، ثم حروب الأمراض والأوباء تبت في الناس فتعمي بها الأبصار ، وتشوى بها الجلود والأبشار ، وينتقل بها سكان الأكوخ والقصور ، إلى الأرامس والقبور . ذلك وما يعانيه الناس من الفاقة والضيق ، والخوف والعوز ، أشد عليهم وأمكنى من هذا الموت المرتقب ؛ فإنه مامن شعب الآن إلا وقد ضوت منه الجسوم ، وخوت البطون ، وشجبت الوجوه ، واضطربت الأعصاب ، وغامت العيون ، وكأنما هي سنو يوسف غير أنها ليست سبعا ، وقد مضى منها حتى اليوم عشر ، ولا يدرى أحد إلا الله إلام تمتد ، وهل تخف حدتها أو تشتد .

لعمري ما نسكبت البشرية بذلك إلا من اتباع الأهواء ، وازورار الناس عن أن يكونوا عبيداً لله اختياراً كما هم عبيد له اضطراراً .

إن أمر الناس والأديان اليوم دأثر بين أمة خلعت ردامها ، ونبتت أحكامها وتكاليفها ، وتحملت منها علانية في غير خفاء ولا تورع ، وأمة تمسكت بها رسماً لا حقيقة ، واحتفظت بها كتقليد ورثته فأبقت على صورته ؛ ولا تكاد تجد

أمة تتمسك بدينها ، وتبنى جميع أمورها عليه ، وتدير شئونها حسب رسومه . ومن عجب أنهم يعتبرون ذلك رقياً في الحياة ، وتخلصاً من آثار القرون الأولى ، وانفلاًناً من قيود الرجعية ؛ وإذا رأوا داعياً إلى الدين ، ومنذراً ينذرهم لعلمهم يرجعون ، سخرؤا منه ، ورمؤا بأباطيلهم في وجهه ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . أفن كان على بيضة من ربه كمن زُين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ، !

لقد قلت وما زلت أقول : « إن العالم لفي حاجة الى دعوة صادقة مخلصه ترسم له سبل الحياة السعيدة ، وتضع له أسس الاستقرار والسكينة ، وتجمع في تعاليمها بين المادية والروحانية ؛ فلا تسمح لإحدهما بأن تغطى على الأخرى ، ويشعر في ظلها كل فرد بأنه لبنة في بناء المجتمع ، وتأخذ الفطرة الصافية فيها حظها الطبيعي في كل ناحية من نواحي الحياة ، فلا أثر ولا استئثار ، ولا معاندة لما طبع الله عليه العالم من التفاوت في المال ، والمواهب والاختصاص ، ولا تحكم ولا تمرد ، ولا عصبية لجنس على جنس ، ولا امتياز للون على لون ، ولا غمط لحق ، ولا انتصار لباطل ، ولا ترويج لرديلة ، ولا تنكسر لفضيلة . ولن يجد العالم هذه الدعوة الصادقة المنقذة إلا في « الإسلام » ، ولو ظل قرونا من الدهر ينظر الى « السكتلتين » ، ويرجع البصر كرتين . فليت شعري إلام يقبع المسلمون في ديارهم وأوطانهم منكشين يطرقها عليهم الطارقون ، فإما فتحوها لهم كارهين ، وإما ظلوا من ورأها خائفين يترقبون !

ألا إنهم لأرباب دعوة ، وأصحاب فكرة ، ودعوتهم هي النور المبين الذي به تُمحى ظلمات الجهل والشرك والهوى والفساد ، والعلاج الحاسم لأدواء هذا العالم التي حار فيها المتطبيون ؛ فليخوضوا بدعوتهم كل مخاض ، وليعرضوها على العقول بيضاء نقية ؛ كما جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ، وليلقوا بها في وجوه أهل الباطل وما اصطنعوا من دعوات الهوى والضلال ، فإن الحق سيزهق الباطل ، وإن عصا موسى ستلقف ما يافسكون .

فالحرك والجلو

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود النواوى

وكيل معهد أسيوط

فى كتاب الله سبحانه د يابها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، .

وفى السنة النبوية الكريمة د عدل يوم واحد أفضل من عبادة ستين سنة ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن العبادة توجيه سليم ، وتهذيب عظيم ؛ ليكون الإنسان خليفة فى الأرض ، قائماً بالقسط ، حتى يحيا الناس حياة طيبة فى دنياهم ، وحتى يسعدوا بجوار الله الكريم فى آخرتهم .

شهد بذلك الكتاب والسنة ، فإن كتاب الله سبحانه يقول : د من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون . . ويذكر أنه فرض الصيام لتهدية د كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . . ويذكر أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وأن الزكاة طهرة وزكاة للنفوس د خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ، ، والسنة وزير الكتاب ونصيره . فإنها تقول د من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه ، و د من لم تنه صلاته فلا صلاة له ، وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذى جيرانها . فقال : لا خير فيها وهى من أهل النار . وما أكثر ذلك المعنى فى الدين . وجماعه فى قول الله سبحانه د أو من كان ميتاً فأحييناه

وجعلنا له نورا يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ، « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » . ولهذا قال العلماء إن أحكام الشريعة الإسلامية دائرة حول أمرين : جلب المنافع ودرء المفاسد . ولعل أساس ذلك كله العدل ، فهو الميزان الذي وضع الله لعباده ، لا تصلح حياة إلا عليه ، ولا يقوم نظام إلا به . وهو القسطاس الذي أراد الله سبحانه لعباده ، فما عبّد الله من تنكب عنه ، ولا عرف الله من أنكره .

إن العبادة الحق خشوع في القلب ، واتصال بالرب . ولن يكون خشوع واتصال إلا ومعه ميزان واعتدال « ولقد ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمن قال إني جاعلك للناس إماما ، قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدى الظالمين » .

وما كان الله ليقبل شخصاً في ملكوت السماء حتى ينزل على حكم الحق ، ويكون هواه في كنف القسط والعدل ، لا تميل به شهوة ، ولا تستهويه نفس جاحدة .

إن العبادة الحق دين قيم ، ولا دين إلا بالعدل في القضية ، والمساواة بين الرعية ، على اختلاف جهات الرعاية ، ولو كان الراعي مالكا لما يقضى فيه . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن جاءه يشهده على هبة لأحد أبنائه : هل وهبت لأخيه ؟ قال لا ، قال : فأشهد غيري ، لا أشهد على زور ، اتقوا الله واعدلوا بين أبنائكم .

إنه لا دين حتى يكون عدل تعمم به الأرض ، ويأمن به الخائف من الخوف ، وحتى يرحم الكبير الصغير ، ويوقر الصغير الكبير ، ويتعاون الكل مع الكل ، ولذا يظهر ذلك المعنى حق الظهور في عهد النبيين والخلفاء الراشدين والأئمة الصالحين . وأخبر رسول الله أن تمام هذا الدين يتمثل في أن يسير السائر مسافة كذا وكذا لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه . فالدين الصحيح يتمثل في العدل ، والعدل يتمثل في السلام والأمن . والعدل من أمثل صفات النبيين والمصلحين ؛ ولذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم لمن شك في عدله : ويحك من يعدل إذا لم أعدل ! يشير بذلك إلى أنه أحق بالعدل ، لأنه أحق الناس بالدين .

وفي الكتاب والسنة كثير من التوجيهات ذات الدلالة على أن مرضاة الله في العدل وسخطه في البغي ، فهو ينتقم من الظالمين ، وينصف المظلومين ولو بعد حين .

لقد كان قارون من قوم موسى فبغى عليهم خسف الله به وبداره الأرض .
ولقد علا فرعون في الأرض وجعل أهلها شيعا ، واستكبر هو وجنوده فأخذهم
الله سبحانه فنبذهم في اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين .

وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، فدمرهم
الله وقومهم أجمعين ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا .

وكل أخبار الأمم السالفة في قصص القرآن تدور حول الظلم والطغيان وجزاء
الظالمين . لقد تردد هذا المعنى في الكتاب بما هو جدير أن يكون عظة وذكرة
لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وكذلك سارت السنة تساند الكتاب الكريم وتستمده ؛ فقال السيد الرسول
صلى الله عليه وسلم : إن الحية لتأرز إلى جحرها من ظلم ابن آدم . ثم تلا : ولو
يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ، الآية ؛ وقال السيد الرسول صلى
الله عليه وسلم : إن الله يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . ثم تلا : وكذلك أخذ
ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذه أليم شديد ، وفي الحديث الصحيح
: إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على
نحو ما أعلم ، فمن قضيت له بشيء من مال أخيه فإنما أقتطع له قطعة من جهنم .

وإذا كان الرضا في العدل والسخط في الظلم ، فإن العدل خير من العباداة مع
الظلم ، وعدل يوم واحد خير من عبادة ستين سنة ، لأن العباداة بدونه غير مشمرة
ولا مؤدية لما هو المقصود . وإذا كانت السنة الكريمة قد نصت على عدد معين وهو
الستون من السنين ، فإن العدد في ألفاظ الدين لا يراد به التحديد ولكنه للتأثير
والتسديد ؛ فما أكثر العدد في ألفاظه من غير قصد إلى ظاهر دلالة .

وبعد : فإن الدين ليس صورا من العبادات في صلاة وصوم ، وتحريك الشفة
بما يؤم أنك من خيرة القوم ، وإنما الدين إيمان يخالط السويداء ، ونور من الله
يقتحم في النفس إلى كل داء ، فيشفى الصدور ، ويخرج منها كل بغي وزور ،
ويبديد كل رعونة في الإنسان المسكين ، كما يبديد الفجر ظلام الليل البهيم : يهدي الله
نوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شيء عليم .

إن الدين إصلاح فى الأرض ، وسعى بين الناس بالخير ، ونصفة للمظلوم ، وأخذ بناصر كل مكوم ، ومسح برأس البائس ، وتخفيف من آلام المحروم اليائس ، وطهر وصفاء ، وصدق ووفاء ، وجهاد فى سبيل الحق ، وحمل للنفس على المذهب الاشق ، لتقف فى حيز الصراط المستقيم ، ولا تغلو أو تهبط ، فكل طريق ذميم . ذلك هو العدل الذى وضع الله لعباده .

والعدل إنما يصح فى نفس تخشى الله ، أو تخاف التلف أو الشقاء . والاول هو العدل الإسلامى الذى تعبّد الله به عباده ، والثانى هو العدل النظرى الذى قصد اليه الحكيم بقوله : الملك يبقى على الكفر ، ولا يبقى على الظلم . فكفر مع ذلك العدل النظرى أسعد للملك ، وأبقى له من إيمان لا عدل معه . وفى ذلك تعزيز للحديث الذى جاء فى صدر هذا المقال ، والذى يدور حوله . وقد ظهر للقارىء الكريم أن الحديث عن العدل الدينى الذى يكون منزعه مراقبة الله ، وخشيته . فهو من غير ريب وليد الدين ، ونتيجة التحنث^(١) . فكلها صفا القلب لله ، وتعرف إلى ساحة مولاه ، بإدمان الاستغفار ، والقيام بالاسحار ، وتلاوة كتاب الله ، وإقام الصلاة ، والإنفاق فى رضاه - كانت الاستقامة والاتزان ، والنفع والحنان ، والإصلاح والإحسان ، وذلك هو العدل والميزان ؛ وإن خبت القلب بالفسوق والعصيان . وعشا عن ذكر الرحمن ، أثمت الجوارح فلا تخرج إلا نكدًا ، ولا ترضى أحدا ، ثم تكون فتنة فى الأرض وفساد كبير .

إن العدل فى ذاته معنى واسع فسيح ، فهو يكون مع من فوقك ، ومع من دونك ، ومع من يساويك ؛ وتفصيل ذلك فى كتب الاخلاق . والعدل معنى غامض فى جزئياته محفوف بمخاطر الهوى . والهوى إله يعبد . ولذلك عز تحقيقه ، ورفع إلا من قليل الزوع إليه . غلظ الناس وخبطوا ، وغلوا واشتطوا . فليس هناك إلا فى النادر العزيز من ينصف من ابنه أو أبيه ، ومن يحكم لخصمه ومعاده ، ولكن الكتاب ينطق بالحق : « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » ، « كونوا قوامين شهداء بالقسط ، ولا يجر منكم شأن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

(١) أما المشرك باقه فهو فى الدين أظلم الظالمين . قال الله سبحانه : « إن الشرك لظلم عظيم »

وقد عرف ذلك أولو العزم ، فقال محمد صلى الله عليه وسلم : لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها ، ووضع ربا عنه العباس قبل كل الناس . وعرفه عمر فأخرج ابنه من ولاية المسلمين لئلا يكون اثنان في بيت الخطاب . يليان ذلك الجانب الخطير . رحم الله عمر . وهل يقول الله سبحانه في كتابه : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ، إلا والعدل معنى غامض ، ومرام عزيز . « وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » . أفبعد هذا يستطيع إنسان أن يستهين بالعدل ولا يضعه من الدين في السنام ، ويقر بأن عدل ساعة خير من عبادة كثير من الأعوام .

لقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم سبعة يأمنون يوم يخاف الناس ، ويستظلون بظل العرش يوم لا ظل إلا ظل الله ؛ فبدأ بالإمام العادل لأنه إمام هؤلاء ومقدمهم . ولولا خطورة العدل وبالغ أثره في إصلاح الحياة ، وغمرها بالخير والسعادة ؛ لولا ذلك لما كان ذلك الوضع من الرسول الحكيم ، والنبي الكريم . وهل كان الصديقون من المؤمنين يتخرجون من الولاية ، وينفرون من قبول القضاء ، إلا لما رأوا من خطورة ما استهدفوا له وتعرضوا لمواقفه . سجن الإمام الأعظم أبو حنيفة على أن يلى القضاء وضرب بالسياط ، فاحتمل كل ذلك في جنب الله ، لأنه رأى القضاء مظنة الظلم ، والظلم معصية ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

إن ذلك العدل الذى جعل عمر وهو الأمير الشديد فى الحق ، القاسى فى التعامل على كل مشتط ، ينام فى الطريق بلا سلاح ولا حارس ، لا يبالى فى الله أن يؤلم أى كبير ، ولا يستثنى من درته أى وال أو أمير ، الضعيف عنده قوى حتى يأخذ له بحقه ، والقوى ضعيف حتى يأخذ الحق منه .

إن كل فساد فى الأرض وشق لعصا الطاعة ، ومشاقة للجماعة ، وقتل وقتك ونقض للعهد ، وتعد للحد ، وتظاهر بالإثم والعدوان ، واضطراب فى نظام العمران - إن كل ذلك من الجور بين الناس . « وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون » . بل إن كل قحط وجذب ، وضيق وضنك ، وجوع

وخوف ، وبلاء وانتقام من الملك العلام - هو من التظالم . بين العباد ، وبما كسبت أيدي الناس لينذيتهم بعض الذي عملوا لعلمهم يرجعون .

وإن كل خير ورشد ، وصفاء وود ، وتعاون وتساند ، وهدوء سائد وإخاء وإصلاح . هو من تنسم ريح العدل الرخاء ، ووضع كل شيء في وضعه غير ناب ولا قلق .

ولم يجمع الناس على تقدير فضيلة إجماعهم على تقدير فضيلة العدل التي هي القلب النابض لجميع الفضائل ، ولا أجمعوا على إنكار رذيلة إجماعهم على إنكار الجور والمظالم . فكيف لا يكون عدل يوم يقوم فيه معوج ، ويغاث فيه ملهوف ، خيرا من كثير من العبادة التي يقصر خيرها على صاحبها ولا يتعدى الى سواه .

لقد ضرب الله سبحانه وتعالى المثل للعدل في أدق صورته حتى في أتفه شيء وأحقره عنده وهو الدنيا ، فجعلها بين الناس دولا ، لهذا زمان ولهذا زمان ، فكانت مصائب قوم عند قوم فوائد ، وكان النظام كما قال القائل :

إذا ما الدهر جر على أناس كلاكه أناخ بأخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

بل كان أدق من هذا ، فجعل الايام قسمة للشخص الواحد ، فيوم لك ويوم عليك . ذلك عدل الله وحكمه في السماء . فحتى يرضى عباد الله أن يكونوا قواوين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما . ويارحمة السماء لمن في الأرض .

المهابة

أحسن ما قيل في التهييب قول الشاعر :

بنفسى من لو مر برد بنائه على كبدي كانت شفاه أنامله
ومن هابنى في كل شيء وهبته فلا هو يعطينى ولا أنا سائله
وقال آخر :

أهاشم يافى دين ودنيا ومن هو في اللباب من اللباب
أهابك أن أبوح بذات نفسى وتركى للعتاب من العتاب

لاتعارض في آيات الكتاب الكريم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ الطيب النجار

المدرس بكلية أصول الدين

ينطق بالحق ، ويخبر بالحكمة ، ويلهم النفوس تقواها ، ويرشدها إلى خيرها وهداها ؛ كتاب أحكم آياته ، وتسامت معانيه وألفاظه ، لا تجد من بينها تعارضاً ولا اختلافاً ، ولا تهافتاً ولا اضطراباً ، بل تجد دقة في الوضع ، وجمالاً في التصوير ، وإحكاماً وإتقاناً ، وأسلوباً بهر العقول ، وتخاذل أمامه كل أسلوب . عنت له الوجوه ، وخشعت عنده القلوب ، وخرت أمامه أساطين البلاغة والفصاحة . وكيف لا يكون كذلك وهو من لدن حكيم خبير ، جاء بالآيات البينات والدلائل الواضحات ، والروعة والجلال « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

وما تمشق به الملحدون الذين لم يتذوقوا طعم الإيمان ولم يجدوا حلاوته ، من دعوى وجود اختلاف وتعارض بين بعض آياته ، فذلك يرجع إلى أحد أمرين : إما للعناد والمكابرة وتلمس أتفه الشبه التي لا تلبث أن تزول بمجرد النظر الصحيح ؛ وإما للجهل بأساليب الكتاب العزيز التي لا يعرفها إلا من مارس البلاغة والبراعة ، وعرف ضروب التفنن في أساليبها ، وتذوق مزاياها وخصائصها . وإني أسوق أقوى ما تمسكوا بخيوطه ، وتعلقوا بأهدابه ، مبيناً أنها خيوط عنكبوت لا تماسك ولا تقوى على حماية من يعتمد عليها ، ولا تحفظه من التردى في حفرة باطله .

ورد من بين آيات الكتاب آيات تنطق أن خلق الارض تقدم خلق السموات ، وأن خلقهما استغرق ثمانية أيام ؛ وآيات تنطق أن خلق السموات تقدم خلق الارض ، وأن خلقهما استغرق ستة أيام مع أنه لا يوم إذ ذاك .

ويبدو للناظر في ظاهر ذلك ما يوم الاختلاف والتعارض . لذلك كان من الخير أن نعرض لتلك الآيات بالبيان حتى تسفر الحقيقة مشرقة الوجه واضحة الجبين لا يعلوها غبار ولا يلحقها شين .

ورد قول الله تعالى من سورة النازعات « أنتم أشد خلقاً أم السماء ؛ بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها ، صريحاً في معناه واضحاً في دلالة على أن خلق السماء تقدم خلق الأرض ، حيث ذكر خلق السماء وما يتعلق بها ، ثم ذكر خلق الأرض وما يتعلق بها ، ثم أردف ذلك بقوله « والأرض بعد ذلك دحاها ، أى بعد أن خلق السماء وما يتعلق بها دحا الأرض وبسطها . بينما نجد الآيات من سورة فصلت « قل أنتم لتكفرون بالذى خلق الأرض في يومين ... إلى قوله : فقضاهن سبع سموات ، تفيد بظاهرها أن خلق الأرض تقدم خلق السموات ، خصوصاً الإتيان بكلمة (ثم) التى هى للترتيب بعد الفراغ من ذكر خلق الأرض وما يتعلق بها ، وتفيد أن خلق الأرض كان في يومين لقوله « خلق الأرض في يومين ، وأن خلق ما يتعلق بالأرض كان في أربعة أيام ، لقوله « وقدر فيها أوقاتها في أربعة أيام ، وأن خلق السماء كان في يومين ، فتكون مدة خلق الأرض والسماء ثمانية أيام لا ستة .

ومن هنا اختلف العلماء في طريق العلاج لحل هذه المشاكل ؛ فرأى بعضهم أن خلق الأرض تقدم خلق السماء كما هو منطوق قول الله تعالى « قل أنتم لتكفرون بالذى خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ، ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أيتنا طائعين . فقضاهن سبع سموات في يومين ، وأوحى في كل سماء أمرها ، .

فأنت ترى هذه الآيات قد تحدثت عن خلق الأرض وما يتعلق بها أولاً ، ثم جاءت كلمة ثم التى هى للترتيب مع التراخى الزمانى ، وتحدثت عن خلق السماء وما يتعلق بها ثانياً .

وما ورد من سورة النازعات من قوله « والأرض بعد ذلك دحاها ، بعد ذكر خلق السماء وما يتعلق بها أولاً ؛ فمعناه أنه تعالى خلق الأرض أولاً

ثم خلق السماء ، ثم قصد إلى الأرض فدحاها وبسطها . وبذلك لا يكون هناك تعارض ولا اختلاف بين الآيات . وهذا يوافق المروى عن ابن عباس ، فقد روى البخارى أن ابن عباس سئل عن التعارض الحاصل بين قول الله تعالى « والأرض بعد ذلك دحاها » وبين قول الله تعالى « أنتم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين .. إلى قوله : طائعين ، فأجاب بأنه تعالى خلق الأرض فى يومين ، ثم خلق السماء فى يومين آخرين ، ثم دحا الأرض . ودحوها أن أخرج فيها الماء والمرعى وخلق الجبال والآكام فى يومين آخرين ، فذلك قوله : « دحاها » .

ولما كان هذا لا يساعده النظم الكريم ولا تقتضيه جزالته ، بل تنافيه ، لأن الآيات ذكرت خلق الأرض فى يومين ، وذكرت خلق ما يتعلق بالأرض من خلق الجبال والأشجار والنبات والحيوان فى يومين آخرين ، وذلك لا سبيل إليه إلا بعد أن تصير الأرض مدحوة ومبسوطة ، وبعد ذلك قال « ثم استوى إلى السماء » فليس من شك فى أن ذلك يقتضى أن يكون خلق السماء بعد دحو الأرض وبسطها . وهو يطابق ما ورد من سورة البقرة « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات » ؛ إذ لا يكون خلق ما فى الأرض جميعا بدون أن تكون مدحوة ومبسوطة - لما كان الأمر كذلك رأى بعض العلماء أن خلق السماء تقدم خلق الأرض كما هو منطوق قول الله تعالى من سورة النازعات « والأرض بعد ذلك دحاها » أى بعد المتقدم ذكره « وأنتم أشد خلقا أم السماء ، بنسائها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها ، وأخرج ضحاها » .

يعضد هذا ويقويه قول الله تعالى من سورة الأعراف « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش » . وقوله من سورة هود « وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء » ومن سورة ق « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب » لأنها تتحدث عن مبدأ الفطرة . ومن حسن السبك وجودة النظم أن ما يذكر أولا يكون ظاهراً فى أنه هو المخلوق أولا ، وقد ذكر خلق السماء فى هذه الآيات قبل ذكر خلق الأرض ، وأن قول الله تعالى فى سورة فصلت

« ثم استوى إلى السماء وهي دخان » بعد أن ذكر خلق الأرض وما يتعلق بها لا يستلزم تقدم خلق الأرض على خلق السماء ، لأن كلمة (ثم) سبقت لغرض تعداد النعم لا لغرض إفادة ترتيب الخلق ، أو يقال إن التقدير ثم كان قد استوى إلى السماء ، كما في قوله تعالى « قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » ، إذ معناه إن يكن سرق . وأنت خبير بأن قصد تعداد النعم لا يمنع إفادة (ثم) الترتيب ، لأن هذا هو معناها ، كما أن تقدير كلمة كان أى ثم كان قد استوى ، يتنافى مع ما عليه القرآن من البلاغة واستقامة معانيه ، لما تقتضيه كلمة (ثم) من التأخير ، وما تقتضيه كلمة كان من التقديم ، وفي ذلك من التناهي ما لا يخفى .

وواضح أن القول بتقدم خلق السماء على الأرض ليس بالحصيف ولا بذى الرأى السديد ، وإن عُزى إلى فتادة وارتآه كثير من العلماء ، لأنه يتنافى مع جزالة النظم الكريم ، وتهاافت معه معاني الآيات . ألا ترى إلى قوله تعالى « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين » كناية عن إيجاد السماء والأرض . فلو تقدم خلق السماء خلق الأرض لكان قوله « ائتيا طوعاً أو كرها » مقتضياً لإيجاد الوجود وتحصيل الحاصل . ومثل هذا يكون بمعزل عن ساحة كتاب اختص بمزايا لا يدانيه فيها سواه .

والذى يصح أن يكون جديراً بالقبول في هذا الموضوع : أن يحمل الخلق في قوله تعالى « أنتم لتكفرون بالذى خلق الأرض في يومين . . . الآيات » على التقدير والقضاء لا على الإيجاد والحصول ، أى قدر وجود الأرض وحكم بأنها ستوجد في مقدار يومين ؛ وبذلك تتلأشى شبهة : كيف كان ذلك في أيام مع أنه لا يوم إذ ذاك ، ضرورة أن اليوم يمتاز عن الليلة بطول الشمس وغروبها ولا شمس ولا لقر . « وبارك فيها وقدر فيها أقواتها » أى قدر وقضى أن يسكثر خيرها بخلق أصناف الحيوانات وأنواع النبات على ما تقتضيه الحكمة ، وتستدعيه مصلحة العباد « في أربعة أيام » أى في تمة أربعة أيام مقدار يومين آخرين منضمين إلى مقدار يومى خلق الأرض ، فتكون مدة خلق الأرض وما يتعلق بها مقدار أربعة أيام ، وتكون مدة خلق السماء يومين ، وبذلك تتعلق آيات فصلت بالآيات الناطقة أنه تعالى خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام .

ثم شرع سبحانه وتعالى في بيان التكوين والإيجاد بقوله : « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً ، قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات ، أي ثم قصد إلى السماء فقال لها وللأرض التي قدر حصولها وحصول ما فيها كوناً وإحداثاً وفقاً لما قدرنا وأردنا فكانتا على ما اقتضته حكمته البالغة من كمال الإحكام والإتقان وجمال التصوير . وهذا تمثيل وتصوير لكمال قدرته تعالى وأنه لا يمتنع عليه تعالى شيء بما قدره وتعلقت قدرته بحصوله وإيجاده . وبهذا انحسر اللثام واتضح المقام أن (ثم) إنما هي للترتيب بين التقدير والإيجاد ، لا بين إيجاد الأرض وإيجاد السماء . ولا أدل على ذلك من أن هذه الآيات إنما سيقنت للتدليل على وحدانية الله تعالى وتنزيهه عن أن يكون له شريك ونِدْ ، لأن مبدع هذه الكائنات وهذه الأجرام العظيمة ، وتلك النعم الجزيلة ، لا يصح في العقول السليمة أن يكون له أنداد وأن يكفر ، بل هو المستحق لأن يعبد ويشكر دون سواه .

ولأنك لترى على هذا كيف تجاوزت أطراف النظم ، وتعانقت آياته ، ولمعت من بينها شواهد البيان ومخايل الأساليب العالية ، وظهرت جزائمه واستقامت معانيه مع الروعة والجلال ؟

الرفق

قال النبي صلى الله عليه وسلم : من أعطى حظه من الرفق ، فقد أعطى حظه من الخير كله ، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير كله .

قال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه وهو أمير المؤمنين : يا أبت مالك لا تنفذ الأمور فوالله لا أبالي في الحق لو غللت بي وبك القدور . فقال له عمر : لا تعجل يا بني فإن الله تعالى ذم الخمر في القرآن مرتين وحرمها في الثالثة ، وأنا أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدفعوه وتكون فتنة .

مَفْرَدَاتُ فِلْسَفِيَّة

حرية

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
الأستاذ بكلية أصول الدين

لا يحد الباحث شيئاً كثيراً عن هذا الحرف أو المصطلح ، في المعاجم العربية
للغة ، أو المعاجم الخاصة بالمصطلحات وتعريفها ، مما يجد مثله في المعاجم
الأجنبية . أعنى فيما يتصل بتحديد معنى كلمة « حرية » في نواحي استعمالها المختلفة :
النفسية ، الأخلاقية ، السياسية ، الاجتماعية ، وغيرها . بل إنى لم أجد فيما
رجعت إليه من معاجم اللغة ما يدل على أن العرب استعملوا هذا المصطلح
في بعض ما نستعمله فيه اليوم .

١ — ففي اللسان : الحر : نقيض العبد ، والحرية : نقيض الإلزام . ومنه حديث
عمر للنساء السلاتى كن يخرجن الى المسجد : لأرد كن حرائر ؛ أى لالزمكن
البيوت فلا تخرجن إلى المسجد ، لأن الحجاب إنما ضرب على الحرائر
دون الإمام .

وفيه أيضا : الحر من الناس : أختيارهم وأفاضلهم . ويقال : هو من حرية
قومه ، أى من خالصهم .

٢ — ولا يتعرض الجرجاني في تعريفاته لهذا الحرف إلا في اصطلاح
أهل الحقيقة ، أى المتصوفة . وهى فى هذه الناحية : الخروج عن رق الكائنات ،
وقطع جميع العلائق والأغيار . يريد أن يقول بأن الحرية هى عدم تعلق القلب
بغير الله ، بحيث لا يكون لغيره أى سلطان عليه .

٣ — والنهائى فى كشفه يعرف الحرية لدى الفقهاء بأنها خلوص حكمى يظهر فى حق الآدمى لا تقطاع حق الغير عنه . ومثل هذا التعريف نجده فى كتب الفقه ، كما فى درر الحكم لملا خسرو القاضى الحنفى - ٢ ص ٢ .

ثم إذا أراد أن يعرفها عند المتصوفة يذكر ، عن مجمع السلوك ، بأن الحرية عند السالكين انقطاع الخاطر من تعلق ما سوى الله تعالى بالسكينة .

فإذا تركنا المصادر العربية ، إلى المراجع الغربية ، نجد بياناً طيباً للمعنى الأول الذى كان لكلمة « حرية » ، ثم للمعاني العديدة المختلفة التى أخذتها بعد أن اتسع مدلولها وامتد مضمونها هنا وهناك . وهذا المعنى الأول هو ، على ما نرى ، المعنى الذى نجده فى كتب الفقه عندنا ، وفى المعاجم العربية المختلفة .

على هذا المعنى الأول يراد بالإنسان الحر ، الإنسان الذى ليس رقيقاً أو أسيراً . فالحرية هى حالة من يعمل ما يريد ، لا ما يراد منه ، أى أنها عدم الالتزام الأجنبى عن الإنسان .

وبعد أن اتسع مدلولها ، كما قلنا ، صارت تدل على هذه المعاني الآتية :

١ — المعنى العام :

١ — حالة الكائن (l'être) الذى لا يعانى أى إكراه أو إلزام من كائن أو موجود آخر ، والذى يعمل حسب إرادته وطبيعته . وفى هذا بقول « أوجست كُونت » ، فى كتابه التعليم المسيحى الوضعى Catéchisme positive : حينما يسقط جسم من الأجسام ، نجد حريته تظهر فى هبوطه حسب طبيعته نحو مركز الأرض ، فى سرعة تناسب والزمن ، إلا إذا اعترضه ما يغير من هذه الحركة الذاتية . وكذلك الأمر فى العالم أو النظام الحيوى l'ordre vital ؛ إذ نجد كل عمل أو وظيفة نباتية أو حيوانية توصف بالحرية إذا كانت تتم حسب ما يتعلق بها من قوانين ، دون أى عائق داخلى أو خارجى .

٢ — المعنى السياسى والاجتماعى :

٢ — فى هذه الناحية يراد بالحرية ، « فقدُ الإكراه الاجتماعى الذى يفرض على الشخص . وإذا ، فالمرء حرٌّ فى أن يعمل كل ما يحرمه القانون ،

وحر في ألا يعمل كل ما لا يأمر به . ومن هنا نجد المادة الحادية عشرة من إعلان حقوق الإنسان الذي صدر عام ١٧٨٩ م تقرر : « أن حرية التعبير عن الفكر والآراء حق من حقوق الإنسان ، حق أعلى ما يكون قيمة وخطرا ؛ فكل مواطن له أن يتكلم ويذيع بحرية كل ما يريد ، على أن يكون فحسبُ مسؤولا عما يكون من سوء استعمال هذه الحرية في الحالات المحددة بالقانون ، .

« والحريات السياسية ، هي الحقوق المعترف بها للشخص ، باعتبارها حقوقا تحد من سلطان الحكومة : حرية الضمير والعقيدة ، الحرية الشخصية ، حرية الاجتماع ، حرية وضع دستور ، الحكم بواسطة ممثلين للأمة يُختارون بالانتخاب ... الخ .

٣ - المعنى النفسى والأخلاقي

هـ — الحرية هنا ضدَّ لعدم الضمير ، للاندفاع بلا تفكير ، للمسئولية الأخلاقية أو القانونية .

إنه يراد بها حالة المرء الذى سواء كان يفعل الخير أو الشر ، يعزم بعد تفكير ، يعرف تماما ما يأتي وما يذر ؛ حالة من يعرف ما يريد ، ولماذا يريد ؛ حالة الذى لا يعمل إلا حسب ما يُقرَّر من أسباب . وفى هذا يقول ماريون Marion فى كتابه التضامن الأخلاقى De la solidarité morale : إذا كان الشخص الحر هو الذى يملك نفسه بالتفكير ، الذى يعرف ما فى قدرته من نشاط كما يعرف الوجوه التى يتفق فيها هذا النشاط أو هذه القوة ، والذى يقدر العواقب ويقارن ويحكم فى مختلف الظواهر التى يمكن أن تتحقق عن قوته ونشاطه - إذا كان الرجل الحر هو من هذا شأنه ، يسكون واضحا أن حريته تتبع ظروفًا وعوامل مختلفة ، وتختلف طبعًا لسبب هذه الظروف والعوامل .

و — وإذا أخذنا كلمة « حرية » فى مقابلة الهوى والعواطف العنيفة ، والجهل والبواعث السطحية ، يكون المراد بها حالة الإنسان الذى يحقق فى أعماله طبيعته الحققة ، هذه الطبيعة التى أهم خصائصها الذاتية العقل والأخلاقية .

بهذا المعنى تكون كلمة « حرية » مصطلحا أخلاقيا تماما ، وتدل على حالة مثالية تكون فيها الطبيعة الإنسانية محكومة بما فيها من عنصر كله خير وسمو ، كما يرى الرواقيون وسينوزا .

وفي هذا يقول لَيْبْنِيز Leibniz بأن الله وحده هو الحر تماما ، وبأن الكائنات العلوية المخلوقة les esprits لا تكون كذلك إلا بمقدار ما تكون فوق مستوى الشهوات والالهواء . كما يقول أُوجِسْت كُونْت ، في المرجع السابق : « أحسن ما يمكن أن يكون لنا من حرية ، هو أن نعمل بقدر ما في استطاعتنا على علو الميول الطيبة على السيئة » .

هـ — وأخيرا ، الحرية تقابل الجبر ، فيكون المراد بها حينئذ القدرة على العمل بدون أن يكون لذلك سبب أو علة غير هذه القدرة . وفي هذا يقول بُوسُوِيَه Boussuet ، في الفصل الثاني من رسالته في حرية الإنسان في أعماله : « كلما بحثت في نفسي عن السبب الذي يحدد ما أفعل ، كلما أحسست أنه لا شيء لدى من هذا إلا إرادتي وحدها . إنني لأحس ، من هذا ، حریتی بوضوح ، هذه الحرية التي ليست إلا الاختيار لهذا العمل دون ذاك ؛ وهذا ما جعلني أفهم أني فُطِرت على صورة الله ... » ، « للبحث بقية »

نصيحة أبرويز

قال أبرويز ملك الفرس لصاحب بيت المال : إنني لأعذرك في خيانة درهم ، ولا أحمذك على صيانة ألف ألف ، لأنك إنما تحقن دمك ، وتقيم أمانتك ، فإن خنت قليلا خنت كثيرا ، واحترس من خصلتين : النقصان فيما تأخذ ، والزيادة فيما تعطى . واعلم أني لم أجعلك على دخائر الملك وعماد المملكة ، والقوة على العدو ، إلا وأنت آمن موضعه الذي هو فيه ، وخواتمه التي هي عليك . فحقق ظني باختيارى إياك ، أحقق ظنك في رجائك إياي ، ولا تتعوض بخير شراً ، ولا برفعة ضعة ، ولا سلامة ندامة .

نظام الأسرة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ إبراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

لا أقصد في هذه الكلمة الحديث عن « نظام الأسرة » في العصور المختلفة ، ولا الحديث — كذلك — عن تطور ذلك النظام في أطواره المتنوعة ، فإن هذا البحث أجدر بالمؤرخ الاجتماعي . إنما أقصد — فقط — إلى عيوب « الأسرة » في الوقت الذي نزعم لأنفسنا فيه التدين والرقى ، والتقدم والحضارة والتوثب للحياة الصحيحة ؛ كما يجب أن تكون . وسنعرف معرفة لا يداخلها الريب ، ولا يعترها الشك ، أننا نتخبط في ليل من التقاليد ، وبحر متلاطم من ظلمات عادات ليست من الدين ، ولا من الأخلاق الفاضلة ، أو من التربية السديدة ، إنما هي مزيج من الفوضى والفساد ، والتردى والإسفاف والانحدار والتهور ، والفضول والاستهتار ، مما أدى بنا إلى أن صرنا حثالة الشعوب والجماعات .

ولو أننا التزمنا هداية القرآن الكريم ، وإرشاد السنة المطهرة ، لكان لنا شأن آخر ، من الترابط والوئام ، والأدب والسلوك ، والإباء والستر . وقد تكفل الإسلام بما يجب أن يلتزمه كل من الرجل والمرأة من الاختلاط وعدم الاختلاط ، وغض البصر أو إرساله ، وإبداء الزينة وإخفائها ، وما سوى ذلك كله مما يضمن للأفراد العفاف والطهر والنزاهة ، والشرف والائتزان والنبل ، فأبينا إلا أن نطرحه كله وراء ظهورنا ، زاعمين أن الخير فيما نأتى ، والفضيلة فيما يصدر عنا من أفعال ، ولم نلتفت إلى جانب ذلك من تفكك « الأسرة » وكثرة ما يعتورها من مشاكل ، ويصادفها من عقبات ،

ويطراً عليها من محن ، أو تتعرض له من أرزاء . . . مع أن أسباب هذا كله الانحراف عن الجادة ، والميل عن السنن الصحيح .

والحجاب منذ أن زال عما بين الذكر والأنثى ، ولعبت الغريزة الجفسية دورها المشثوم بين الأفراد والجماعات ، والإنسانية تعاني من التشرد والفرقة ، والنزاع والخصومة ، والنفور والكرهية ، والإهمال والتهاون ، الى درجة أن أفتن الناس في الآثام ، وبرعوا في الشرور ، ونبغوا في الإجرام ، وامتلأت السجون بالمقترفين ، والملاجئ بالآيتام ، والمشافي بالمرضى . . والإحصاءات للمشاكل الزوجية وقضايا الطلاق ، التي تغص بها المحاكم الشرعية الآن يدل التبع والاستقراء أن أكثر أصحابها من هؤلاء الذين أرخوا العنان لشهواتهم ، وتجاوزوا نطاق الدين فيما يلزمه من آداب ويحتمه من تقاليد وعادات .

وقد كنت إذا قرأت قوله تعالى « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها » أقول إن الفعل هنا مأخوذ من السكون بمعنى عدم الاضطراب ، فإن الرجل حينما ترميه الاحداث بمكروه ، أو تقصده الايام بنازلة أو يشتد به لفح الحر ، أو تمسه قرقرة البرد ، لا يسرى عنه إلا أن يسكن الى المرأة تمسحه ، وتخفف ما أصابه ، وهناك ينسى ما لاقى من عنث ، أو صادف من مكروه . وقد يما تغنى بذلك الشعراء ، وتحدث الفلاسفة . ولعل أبلغ ما تكون المودة والرحمة ، والميل والحب ، إذا ما أحس المجهود بالعطف ، وتأكد المكثود من الرعاية ، وأدرك المتعب شيئاً من العناية في تلك اللحظة . ولكنني بعد أن أدركت خطر انصراف البعول عن البيت ، وهجر الأزواج للننازل ، الى مقهى عام ، أو متدى جامع ، لا يعرفون من أمر الابناء والامهات بمقدار ما يعرفون عن المقهى أو المتدى ، علمت أن استقرار رب الاسرة فيما بينها يرعاها ويحفظها ، ويهديها ويرشدها ، ويؤنسها ويسليها ، لا يعوض بمال ولا يقوم بالدنيا وما فيها .

ولا يقصد الحديث الشريف بقوله « والرجل في بيته راع ومسئول عن رعيته ، والمرأة في بيها راعية ومسئولة عن رعيته » شيئاً وراء هذا المعنى ، فإن اجتماعهما للتشاور ، والتفانينما للسمر ، وتجاهبهما لأطراف الحديث ، وتبادلها للرأى ،

مع كونه ينمى الحب القائم بينهما ، ويزكى الوشيجة الحاصلة بإفضاء بعضهما إلى بعض - يعطى للأطفال دروسا نافعة من التقدير والاحترام ، والتدبر والتروى ، والسياسة والحزم ، والكياسة والبصر ، والفهم والتعقل ، بحيث ينشأ الناشئ وفيه الاستعداد لأن يسبح في محيط ذلك المجتمع الصاحب بالاصوات ، المليء بالافراد . وفيما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه دخل عليه ابن أم مكتوم وكان معه عائشة وحفصة رضى الله عنهما ، فأشار عليهما بالتنحي ، فلم يريا مفارقة المجلس لرجل أعمى لا يرى منهما ما يثير فيه رغبة إليهما ، فقال لهما : أفعميا وان أتما ، ! وكان ذلك دستورا عاليا ، وأدبا فياضا ، وسلوكا قويا .

أما الاسرة العصرية الآخذة بأسباب المدنية أو الهمجية فحدث عن سفورها ولا حرج ؛ فإنه سفور لم يقف إلى حد أن رفع من وجهها الحياء ، ونزع من قلبها الأدب ، ومن رأسها المهابة ، فهي لا تتحرج حراما ، ولا تهيب محظورا ، بل صار أهون ما عندها أن تكون كذلك . . وسرت عدوى تلك القفحة إلى أولادها الذكور ، فصارت فيهم الخنوثة والطراوة والميوعة والانحلال ، وأصبح الطفل مع أخته في البيت لا يكاد يدرك العقل بينهما فوارق الذكورة والانوثة ، لأنهما سواء في الحركة والإشارة ، والحديث والنطق ، والميل والهوى ، والرغبة والطموح ، فضلا عن أشياء وأشياء ، نسأل الله منها اللطف والرحمة .

نصيحة أبوين

لما قدم معاوية من الشام ، وكان عمر أمير المؤمنين قد ولاه عليها ، دخل على أمه هند فقالت له : يا بني : إنه قلما ولدت حرة مثلك ، وقد استعملك هذا الرجل ، فاعمل بما وافقه أحببت ذلك أم كرهته .

ثم دخل معاوية على أبيه أبي سفيان فقال له : يا بني إن هؤلاء من المهاجرين سبقونا وتأخرنا عنهم ، فرفعهم سبقهم ، وقصر بنا تأخرنا ، فصرنا أتباعا وصاروا قادة ؛ وقد قلدوك جسيما من أمرهم ، فلا تخالفن أمرهم فإنك تجرى إلى أمد لم تبلغه ولو قد بلغت لتنفست فيه .

قال معاوية : فعجبت من اتفاقهما في الممنى على اختلافهما في اللفظ .

اعلام الازهر

ابراهيم الهلباوى بك

المتوفى سنة (١٣٥٩ هـ) (١٩٤٠ م)

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد كامل الفقى

المدرس بمعهد القاهرة

نجم (الهلباوى) من إحدى أسر الغريبة العريقة فى المجد ؛ وإن كانت رقيقة الحال ، فلما يقع الحق بالازهر ، فتلقى به علوم الدين واللغة ؛ وكان معروفاً بين أقرانه بالذكاء وحدة الذهن والصبر على البحث ، والمثابرة على الاطلاع ، كما عرف بجرأة الرأى ولجاج الخصومة مع شيوخته إذا اختلف معهم فى الرأى .

ولما وفد الى مصر (السيد جمال الدين الافغانى) كان الهلباوى أحد التلامذة الذين هرعوا إليه ، فانتفع بعلمه واهتدى بتوجيهه ، وتفجرت ملكة البيان فيه بما هيا له الافغانى من الخطابة والحوار ؛ وبما جراه عليه من المجاهرة بالرأى والذود عنه .

ولم يتح للهلباوى أن يتم دراسته بالازهر ؛ ولكنه ظل على صلة بزعمائه ورجالاته ، فهو فى دروس الافغانى مع أذكياء الازهر ونابغيه (كالإمام) و (سعد زغلول) و (الشيخ عبد الكريم سليمان) .

وحين فوض للشيخ محمد عبده أن يشرف على تحرير الوقائع ، اختار الهلباوى فيمن اختارهم لمعاونته فى تحريرها ، غير أنه فصل من التحرير لأمراً (١) وقد شغل عدة وظائف ، كان من أهمها وظيفة كاتم السر لمجلس النواب والمستشار

القضائي لوزارة الأوقاف ، ووكالة الجمعية الخيرية الإسلامية التي شادها الإمام ودعما سعد وقاسم أمين وحسين عاصم .

ولما شبت الثورة العراقية ، كان من أنصارها الثائرين ، وخطبائها الفحول ، وقد حكم عليه بالنفي إلى النيل الأبيض ؛ ليقضى بقية عمره هناك ، ولكن بعضهم شفع له لدى الخديوى توفيق ، فعفا عنه بعد أن ظل في السجن بضعة شهور .

ومن ثم انضم إلى طائفة اتخذت المحاماة مهنة لها ، فظل يمارسها ويدوى صوته ، ويذيع صيته من براعته النادرة ، وقوته التي لم تتح إلا لقليل من المحامين ، وفي سنة ١٩٢٦م انتخب لعضوية مجلس النواب عن دائرة « نكلا العنب » ، ثم انتخب نقيباً للمحامين سنة ١٩٣٨م .

ولما تألف الوفد المصرى برئاسة (سعد زغلول) كان الهلباوى أحد السياسيين البارزين ، ثم لم يلبث أن اختلف مع سعد ، والتأم مع حزب الأحرار الدستوريين ، وكان يخطف في ناديه في مناسبات مختلفة .

صفاته وأخلاقه :

كان رحمه الله طويلاً فارع الطول ، عظيم الهامة ، قوى الجسم ، مفتول العضل ، أبيض الوجه فى حمرة ، عنيداً يابج فى عناده ، ويسرف فى خصومته ، ولا يبالي بمن يخاصمه ، وكان شديد العقل ، حاضر البديهة ، قوى الذاكرة حتى إنه ليقص عليك جلائل الأعمال وتوافها من سنين تقضت دون أن ينسى واقعة ، أو يحرف فى حادثة .

والهلباوى محدث نادر ، عاصر أحداثاً جساماً ، وصاحب مخنا سياسية ، كان وثيق الصلة بها ، فهو يحدثك عنها حديث مكابد ، ويرويها رواية خبير شاهد ، فكانه رهط مجتمع من الراة الثقة .

« وكنت أستمع إلى حديثه ، فتدرك أنه يحمل فى صدره تاريخ جيل لم يدون فى كتاب ،^(١) . وكان رحمه الله تعالى على جانب عظيم من البر والعطف ، وقد

(١) من مقال للأستاذ أحمد أمين بك فى العدد (٢١٤) من مجلة الثقافة .

ضرب مثلاً من بره أنه صادف ذا حاجة على بابه في يوم ما ، فشغله الحديث معه عن أن يقرأ خدمه السلام عند انصرافه فلما تذكر ذلك وكان قد بلغ بسيارته (عابدين) أمر السائق ، فقفل راجعاً ، ليقول لهم إنه نسي السلام عليهم .

خطابته :

الهللأوى خطيب فذ ، عرف بأسلوبه وطريقته ، وامتاز بطلاقة لسانه ، وقوة حجته ، حين يخطب تطالعك منه عدة شخصيات ، فهو رجل التاريخ الذى عاصر أحداثه وصنعت على عيفيه ، وهو رجل القانون الذى نشأ فى مهاده ، وصاحب أطوار التشريع حتى آخر مراحلها ، وهو رجل الأدب المتعمكن من العربية ، النافذ إلى أعماق أسرارها ، الذى يعرف سر التراكيب ، وموضع البلاغات ، وموطن الإقناع ، وهو الفكه الطريف الذى يغير على العامة متى شاء ، فيقتبس من أمثالها وفكاهاتها ما يطرب ويمتع .

كان جمهورى الصوت ، فصيح اللغة ، مشوق العبارة ، يلوح للسامعين بنسكته فيطربون لها ، ويقبلون عليها ، فيهتبل هذه الفرصة ، ليلقى بما يحب من المعانى ، وما يريد من الأغراض .

وكان فى هجوم متلاحق على سامعيه ، متدفقا فى بيانه ، لا يكاد يخلص من غاية حتى يدخل بهم فى غيرها ، ولا يوشك أن ينتهى من غرض حتى يصله بآخر ، والسامعون فى كل ذلك مشوقون مأخوذون بسحره ، مشدودون إليه شدا .

وكان متمكنا من القول ، متصرفا فى فنونه ، فرة يحلو ومرة يمر ، وطورا تسمعه هادئا كالنسيم ، وآخر يزار كالأسد الهائج .

وكان إذا خطب خطب بركة ؛ بلسانه وبقله ، وبخاعه وبِعَصْبِهِ ، وبرأسه ويديه وبرجليه أيضا ، وله صياح يقد أصفق الحناجر ، ثم تدلى عن المنبر بعد أربع ساعات كاملات فى هذا البلاء وهو أشد وأفقى من أكثر من سمعوه ، إن لم يكن أفقى من سمعوه جميعا ، (١) .

هذا إلى حضور بديته ، وقوة ذاكرته ، وصفاء ذهنه ، وشدة أسره .

(١) الشيخ عبد العزيز البشرى فى كتابه د فى المرأة ، ص ٣٨

دفاعه :

كان الهلباوي خارقاً في دفاعه ، قويا جبّاراً ، لا يكاد يلحقه في براعته إلا أقل من القليل من أقرانه ، وقد اجتمعت له أسباب الدفاع كلها ؛ فقد نشأ في الأزهري وكان أحد أدبائه القادرين على الجدل ، الراسخين في المنطق ، الذين يقهرون بالحجة الغلبة والبرهان النافذ ، لا يخفى عليه من ملابسات القضية شيء أو يخلطه بشيء آخر . وقد استمكن من مواد القانون فصرفها في كل مقام ، واتسكأ عليها في كل موطن ، على قوة في الاستشهاد بها ، وأعانت طلاقة لسانه ، وغزارة بليانه ، وفصاحة عبارته ، وحضور بديته على اتصال القول ، وفصاحة العرض ، والتصرف في المواقف ، بتفطن غريب لا يدع منفذاً إليه .

وكان في دفاعه قوة من قوى الطبيعة الغلبة ، وأقوى ما تراه في المواقف الشاذة التي تعجز المتوسطين من المحامين ؛ أرأيت إليه حين يدافع عن قاذف في حق الخديو وهو مستشار للخديو ؟ ثم أرأيت إليه حينما يلتبس شقيق منصور والورداني معونته وقد كانا يناصبانه العداء ؟

كان خارقاً في مثل هذه المواقف التي لم تألف غيره من المحامين . سأله رئيس المحكمة : كم ساعة تكفيك ؟ فقال : لا أستطيع أن أضبط زمام عبارتي ما لم أفرغ من التعبير عن أفكاري ، فلا أعدك الآن بشيء .

وكان حريصاً على النزاهة في الدفاع ، لا يحاول الدفاع عن قضية ما لم يجد لها من الحق حظاً ؛ حكى صديق عنه في دراسته قضية لم يمتنع فيها بعدل موكلته أن قال : إن من سوء حظ هذه السيدة أنها وكلتني ! فأجابته : بل من حسن حظها . قال : كيف ؟ قال : لأنها ضمننت ألا تكون عليها .

ومن عجب أنه قد يتعرض للدفاع عن قضايا ذات بال وبينه وبين الدفاع لحظات لدراسة القضية ، ثم يقف من الدفاع عنها موقف ذي الحجة الغلاب .

كان يوماً على مائدة البرنس حسين ، ثم استأذنه في الانصراف لأنه مسافر للدفاع في قضية ، فطلب إليه (البرنس) أن يتحدث فيها ، فتمال له : إنني لم أقرأها

وسأقرأها في القطار ، ثم مضت الأيام وراح المحامون الاهليون يطوفون بعرش السلطان لينثوه ، فقال لهم : ذاكروا قضاياكم ولا تنمروها كالهلباوى في القطار ! ويقول الهلباوى في ذلك : ليت (أفندينا) كان يعرف أنني قرأت هذه القضية في طريقى من د كفر الدوار ، الى قنا مرات ومرات !

وإنك ليهولك أن تسمعه حينما يقاطعه خصمه ، إذ ذاك يتفجر غضبه وتندح بالشر عيناه ، ويدوى صوته حتى يكاد يقد الآذان ، ثم يرجع الى الوراء بصدره ، ويشمخ الى السماء بهامته ، ويدق على المنصة دقات عنيفة ؛ ولخصمه الويل والثبور ! كان يعتمد الى القضية فيكسيفها ، ويتملاً من دقائقها ، فإذا انتهى من ذلك انقادت له وأصبحت ملء خواطره وفيض بيانه .

وكان جذابا الى حد غريب في دفاعه ، فهو يضم السامعين إليه ضمًا ، وينفعلون معه انفعالا ؛ وتنظر الى القاضى المعجب فيخيل إليك أنه ليس في موقف الحكم ، بل في جانب المتهم . وهو الى هذا حاضر البديهة سريع النكته ؛ عرض عليه رئيس المحكمة لطول إسهابه في الدفاع كوب ماء ؛ فقال : « أعطها للخصم الذى نشف ريقه » .

تولى الهلباوى الدفاع في أخطر القضايا المصرية في العصر الحاضر ، فكان فارس حلتها ، ودافع عن المحاماة ، التى كان شرفها ونغارها ، وعمل على تكوين نقابة لها .

موقفه من حادث دنشواى :

تبدو في تاريخ الهلباوى نقطة حالكة السواد ؛ فقد وقف من الامة المصرية موقفا غير كريم ، وتحدى شعور الشعب المصرى كله في وقت بلغ الغيظ والحزن بالامة مداه ؛ فقد رضى لنفسه أن يقف موقف المدعى العمومى في هذه القضية الدامية ، أى أنه أساغ أن يجمع الأدلة من هنا وهناك ليثبت اعتداء المصريين من (دنشواى) على الإنجليز ، وواتاه من الغلظة والقسوة ما تذوب له الأكباد ، وأمعن في خصومة المتهمين المصريين ، ونظم الشعراء في ذلك قصائدهم ، وكان بما قاله المرحوم حافظ بك ابراهيم في هذا مخاطبا د الهلباوى بك ، :

أيها المدعى العمومى مهـلا بعض هذا فقد بلغت المراد
 قد ضمنا لك القضاء بمصر وضمنا لنـجلك الإسعادا
 فإذا ما جلست للحكم فاذا كر عهد مصر ، فقد شفيت القوادا
 لاجرى النيل فى نواحيك يامصـــــر ولا جادك الحيا حيث جادا (١)
 أنت أنبت ذلك النبت يامصـــــر فأضحى عليك شوكا قتادا (٢)
 أنت أنبت ناعقما قام بالأمـــــس فأدعى القلوب والأكبادا (٣)
 إليه يامدره القضاء ويا من ساد فى غفلة الزمان وشادا (٤)
 أنت جلادنا فلا تنس أنا قد لبسنا على يدك الحدادا

كتابتـه :

أما كتابة الهلباوى فإنها دون خطابه ودفاعه شأنا ، غير أنه اتجه فيها إلى
 السهولة والوضوح ، وجانب الزخرف والصنعة ، وكان أحد الأدباء الذين حرروا
 الكتابة من السجع والتكلف ، وتوخوا بها الفكرة وأودعوها أغراضا جليلة ،
 واتخذوها وسيلة للإصلاح فى مختلف شؤنه .

(١) الحيا : المطر .

(٢) القتاد : شجر صلب له شوك كالابر ، يخاطب مصر بأنها أحسنت إلى بعض أبنائها وبرت
 بهم وأسأوا إليها ويجحدوا نعمتها .

(٣) الناعق : المدعى العمومى فى هذه القضية ، والنعيق (بالعين المهملة ، وفى كتب اللغة بالعين
 المعجمة أنصح) : صياح الغراب .

(٤) المدره : خطيب القوم والمتكلم عنهم .

علماء البلاغة

العز بن عبد السلام

٥٧٧ — ٦٦٠ هـ

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ على محمد حسن العماري
مبعوث الازهر إلى السودان

نشأته وتصرفه : هو عبد العزيز بن عبد السلام بن حسن بن محمد ابن مذهب السلي ، ولد في دمشق ، وتفقه على نحر الدين بن عساكر ، وجمال الدين الحرستاني ؛ وبعد أن درس الحديث والنحو والاصول رحل إلى بغداد فأقام بها أشهراً ، وكان له تلامذة نجباء منهم شيخ الإسلام ابن دقيق العيد ، والإمام علاء الدين أبو الحسن الباجي ، وقد ولي الخطابة والإمامة بالجامع الاموي في دمشق ، وفي هذه الفترة أزال كثيراً من البدع ، ودرس بالزوايا الغزالية بجامع دمشق ، وطار صيته في الآفاق ، وارتفعت مكانته حتى راسله بعض ملوك عصره وأحبوا لقاءه ، ثم عاد إلى مصر مغاضباً للصالح اسماعيل فقدمها سنة ٦٣٩ هـ فتلقاه أهلها ولاسيما الصالح نجم الدين أيوب أحسن لقاء ، وولاه الخطابة في جامع عمرو ، والقضاء بمصر وبالوجه القبلي ، وفوض إليه عمارة المساجد المهجورة في مصر والقاهرة ، ثم عزل نفسه عن القضاء ، وعزله الصالح عن الخطابة خوفاً من التشنيع عليه ، ثم فوض إليه السلطان تدريس الشافعية في المدرسة الصالحية حين تم بناؤها ، وقد توفي العز في عهد الظاهر بيبرس (في ١٠ جمادى الاولى سنة ٦٦٠) .

علمه وفضله : كان إمام عصره بلامنازعة ، وقد لقبه تلميذه ابن دقيق العيد بسلطان العلماء ، وحدث حين نزل مصر أن امتنع حافظ مصر عبد العظيم المنذرى من الفتيا ، وقال : كنا نفتي قبل حضوره ، أما بعد مجيئه فنصب الفتيا متعين فيه . وقد بلغ مرتبة الاجتهاد فصار يفتي بما يؤدي إليه اجتهاده . وكان جمال الدين

ابن الحاجب يقول : ابن عبد السلام أفقه من الغزالي . وهذه القصة تدلنا بأبلغ الدلالة على سعة علمه وكثرة اطلاعه : روى التاج السبكي في طبقات الشافعية قال : « وحكى أن شخصاً جاء إليه وقال له : رأيتك في النوم تنشد :

وكنتُ كذى رجلين : رجل صحيحة ورجل رعى فيها الزمان فشلت

فسكت ساعة ثم قال : أعيش من العمر ثلاثاً وثمانين سنة ؛ فإن هذا الشعر لكثير عزة ، ولا نسبة بيني وبينه غير السن ؛ أنا سُنى وهو شيعى ، وأنا لست بقصير وهو قصير ، ولست بشاعر وهو شاعر ، وأنا سلى وهو ليس بسلى ، لكننه عاش هذا القدر . قلت : فكان الأمر كما قال رحمه الله ، انتهى ما ذكره التاج . وأنا أقول : إن هذه القصة لو رويت عن رجل ممن تخصصوا في دراسة الأدب العربى لكانت دليلاً أى دليل على سعة علمه ؛ فإن معرفة هذه الدقائق في حياة هذا الشاعر تخفى على كثيرين من المعنيين بدراسة الأدب ، فما بالنا بعالم لم تكن دراسة الآداب من صناعته . وكتبته التى كتبها للسلطان موسى الأشرف في مسألة الخلاف بين الحنابلة وغيرهم في موضوع الحرف والصوت لها دلالتها على تمكن الرجل من علمه ، وثقته بنفسه .

وقد كان لعز المثل الأعلى للعالم العامل . فإننا إذا تصفحنا حياة العلماء ، ودرسنا تراجمهم ، عز علينا أن نجد له نظيراً ، وما أصدق ما قيل فيه : لم ير مثل نفسه ، ولا رأى من رآه مثله علماً وورعاً وقياماً فى الحق ، وشجاعة ، وقوة جنان ، وسلطة لسان .

نشأ فقيراً ، ولكنه كان يحمل بين جنبيه نفساً لا تعترف بالعظمة إلا لخالقها ، وكأنه كان يضع رأسه على كفه لا يبالي من اختطفها ، وبذلك هان عليه كل شيء فى سبيل دينه . وقد سأله تلميذه الباجى بعد رجوعه من عند السلطان الصالح أيوب ، وما كان من العز من الإغلاظ للسلطان والجرأة عليه ؛ سأله الباجى : كيف الحال ؟ فأجاب : يا بنى استحضرت هيبة الله فصار السلطان قدامى كالقط ! وقصصه مع سلاطين عصره وأمرائه معروفة مشهورة ، وقد قام بأمر لم يسمع بمثله ؛ وذلك أنه صح عنده أن أمراء المملكة لا يزالون على حال الرق ، فاعزم يبعثهم ورد أثمانهم إلى بيت مال المسلمين ، وما بالى بغضبهم ، ولا بغضب

السلطان ، وأصر على موقفه حتى اضطر أن يخرج من مصر . ولكن السلطان سار إليه بنفسه وترضاه حين رأى أنه لم تبق امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤبه له تخلف عن الخروج وراءه ، ولا سيما العلماء والصلحاء والتجار . وبقى العز في موقفه حتى جاءه نائب السلطنة إلى بيته ليقتله ، فأخبره ابنه الخبر . فقال يابني : أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله ! وقد انتصر ، ونفذ ما عزم عليه ، ونادى على الأمراء واحداً واحداً ، وغالى في أثمانهم ، وقبضها ، وصرفها في وجه الخير ! .

ولعل أبلغ الأحداث في حياة الشيخ ، وأدناها على عزة نفسه ، وثقته بربه ، تلك القصة المشهورة التي لا يزال يتناقلها العلماء : ذلك أن الصالح إسماعيل حين غضب من الشيخ ، وأمر بخروجه من الشام ، وصار الشيخ في نصف الطريق ، بعث إليه الصالح من يرجعه ، فأخذ الرسول يترضاه ويقول له : بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير . وهنا تعلن نفس الشيخ عن معدنها الكريم ، وتجري على لسانه تلك الكلمات الحرة الحاسمة ، فيقول : يامسكين ، والله ما أرضاه أن يقبل يدي فضلاً عن أن أقبل يده ! أتم في واد ، وأنا في واد ! والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به ! . ومع كل هذا فقد كان السلاطين يحبونه ويحبون الاجتماع به ، حتى روى أنه لما توفي في عهد الظاهر بيبرس حزن عليه حزناً شديداً ، وقال : سبحان الله ما اتفقت وفاة الشيخ إلا في دولتي ! . وشهد جنازته ، وصلى عليه ، وحمل نعشه ، وحضر دفنه .

وكان العز كريماً عفيفاً ، متساهلاً فيما يمس شخصه ، لا يغضب إلا لله ، مهيباً مقبول الصورة ؛ حكى أنه كان كثير الصدقات ، وأنه ربما قطع من عمامته وأعطى فقيراً يسأله . أما أحاديث عفته فمستفيضة ، وطالما رد هدايا الملوك . ويقال إنه لما مرض مرض الوفاة أرسل السلطان إليه ، وقال : عين مناصبك لمن تريد من أولادك . فقال عز الدين . ما فيهم من يصلح ! وهذه المدرسة الصالحة تصلح للقاضي تاج الدين فقوضت إليه . وهذا موقف شبيه بموقف سيدنا عمر بن الخطاب حين قيل له : لو أنك عهدت إلى عبد الله فإنه لها أهل في دينه وفضله وقديم إسلامه ! فقال : بحسب آل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد عن أمة محمد

صلى الله عليه وسلم ، ولو ددت أنى نجوت من هذا الأمر كفافاً لا لى ولا على ؛
وبوقف الخليفة الشاب معاوية بن يزيد بن معاوية حين ألح عليه الناس ، وقالوا
له : لو عهدت إلى رجل من أهل بيتك ، واستخلفت خليفة ! قال : لم أنتفع بها
حياً فلا أتقلدها ميتاً ، لا يذهب بنو أمية بحلاوتها ، وأتجرع مرارتها ! . هكذا كانوا
فأين نحن منهم الآن ؟ على أن أفضل ما راعى فى أخلاق الشيخ تمسكه بالحق ،
وهضمه لنفسه ، وتواضعه ؛ حكى القاضى عز الدين الهكارى ابن خطيب الأشونين
فى مصنف له ذكر فيه سيرة الشيخ أن عز الدين أفتى مرة بشىء ثم ظهر له أنه أخطأ
فنادى فى مصر والقاهرة على نفسه : من أفتى له فلان بكذا فلا يعمل به فإنه خطأ ! .
وتلك لعمرى أفضل أخلاق العلماء ، وما زلنا نؤم بتنفيج بعض العلماء وادعاءاتهم
ومجادلتهم عن الباطل ، وهم يعلمون ! ! .

جهاده : أفردت هذا الموضوع بعنوان لما رأيت صورة بارزة فى حياة
الشيخ عز الدين ، وقد كان للشيخ جهادان : جهاد بالسيف ، وجهاد باللسان ؛
شهد معركة المنصورة سنة ٦٤٨ هـ مجاهداً فى سبيل الله . أما جهاده بلسانه فحياته
كلها مثل أى مثل لذلك ، ومواقفه من سلاطين عصره أكبر دليل على هذا الجهاد
الشاق الأليم . على أنه قد ترك كلمات مدوية لمن يأتى بعده من العلماء . وقد
لاحظت أنه لا يترك فرصة يتحدث فيها عن الجهاد الواجب على العلماء إلا انتبهوا .
ذكر فى رسالته التى بعث بها إلى السلطان الأشرف موسى بن الملك العادل
هذه العبارة : « والجهاد ضربان : ضرب بالجدل والبيان ، وضرب بالسيف
والسنان ، والعلماء ورثة الأنبياء ، فيجب عليهم من البيان ما وجب على الأنبياء .
وفى رسالة أخرى : ولما كن قد أمرنا الله بالجهاد فى نصرته دينه ، إلا أن سلاح العالم
عليه ولسانه ، كما أن سلاح الملك سيفه ولسانه ؛ فكما لا يجوز للملوك إغتماد
أسلحتهم عن الملحدى والمشركى ، لا يجوز للعلماء إغتماد أسلحتهم عن الزائغى
والمبتدعى ؛ فمن ناضل عن الله وأظهر دين الله كان جديراً أن يحرسه الله ، ويحفظه
من جميع الأنام ، بعينه التى لا تنام ، ويعزه بعزه الذى لا يضام ، ولو شاء الله لانتصر
منهم ولكن ليبلى بعضكم ببعض . وفى هذه الرسالة : وعلى الجملة ينبغى لكل عالم
إذا أذل الحق ، وأهمل الصواب ، أن يبذل جهده فى نصره ، وأن يجعل نفسه

بالذل والخول أولى منهما ، وإن عز الحق فظهر الصواب أن يستظل بظلمهما ،
وأن يكتفى باليسير من رشاش غيرهما :

قليل منك ينفعني ولكن قليلك لا يقال له قليل

والمخاطرة بالنفوس مشروعة في إعزاز الدين ، ولذلك يجوز للبطل من
المسلمين أن ينغمر في صفوف المشركين ؛ وكذلك المخاطرة بالامر بالمعروف
والنهي عن المنكر ، ونصرة قواعد الدين بالحجج والبراهين مشروعة ؛ فمن خشى
على نفسه سقط عنه الوجوب ، وبقي الاستحباب ؛ ومن قال بأن التفرير بالنفوس
لا يجوز فقد بعد عن الحق ، ونأى عن الصواب . . والحق أن العز أعطى علماء
عصره درساً قاسياً ؛ فقد خذلوه في موقفه من الحنابلة أمام السلطان ، وكان كثير
منهم في مجلس السلطان ، وكلهم على مذهب العز ، ولكنهم لم يستطيعوا أن
يتلطفوا بإعلام السلطان أن ما قاله العز مذهبهم ، ومذهب أهل الحق ، بل
اكتفوا بأن طلبوا من السلطان العفو ، وذلك يوم الذنب .

وستان بين موقف هؤلاء وموقف رجل يكتب للسلطان فيبتدىء رسالته بهذه
العبارات : « بسم الله الرحمن الرحيم ، فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون .
أما بعد حمد الله الذي جلت قدرته ، وعلت كلبته ، وعمت رحمته ، وسبقت نعمته ،
فإن الله تعالى قال لأحب خلقه إليه ، وأكرمهم لديه : « وإن تطع أكثر من في
الأرض يضلوك عن سبيل الله ، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » .
وامتصر على هذا المنوال حتى استشاط السلطان غضباً ، وتيقن أعداء الشيخ أنه
مقتول لا محالة .
« يتبع »

كلمات

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم فإذا ظن
أنه قد علم فقد جهل » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الناس عالم ومتعلم وسائرهم همج » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا
بما يطلب ، ولمداد ماجرت به أقلام العلماء خير من دماء الشهداء في سبيل الله » .

أهداف الحرب في الإسلام

لحضرة الاستاذ عبد المنعم الصايف
مفتش الآداب بالأزهر

نهى الإسلام أكثر من مرة عن إثارة الحروب بين الشعوب بغية التوسع وبسط السلطان ؛ ذلك العامل الذى ظل مصدر إغراء باشعالها منذ بدأ الإنسان حياته فى هذا العالم

ولمّا لرى اليوم أن الرغبة فى اغتصاب الحقوق هى التى جعلت الأمم المتمدينة تطمع فى بسط نفوذها على غيرها من الشعوب الأخرى ، متذرة فى ذلك بما تبديه من مختلف الأسباب ، وما تأتى به من حجج تبرر بها اعتدائها . وإن الإسلام لا يرضى عن حرب هدفها الجشع والاعتصاب ، ويشترط أن يتوافر لإشعالها واحد من ثلاثة أسباب :

أولاً : أن يكون الباعث عليها منع الاضطراب ، وأن يراد بها درء ما يتعرض له البلاد من غزو الأعداء .

ثانياً : أن يلجأ إليها دفاعاً عن النفس والمال عند كل اعتداء .

ثالثاً : أن يستعان بها على أن يتمتع كل مسلم بعقيدته الدينية مهما أحاطت به عوامل الإغراء .

أما السببان الأولان ؛ فليسا فى حاجة إلى إيضاح ، لأن كلا منهما غنى عن البيان . وأما السبب الثالث ؛ فأمر يجد فيه أعداء الإسلام مساغاً لهم فى التحامل على العقيدة الإسلامية ، وفاتهم أن القرآن الكريم قد بين الحروب المرغوب فيها ، وأوضح للإنسان كثيراً من التعاليم السامية ؛ فقال تعالى : « لا إكراه فى الدين » ، وجاء القرآن يدعو إلى حرية الفكر والعمل ، وحماية العقيدة من كل عدوان ، فالمسلم ملزم بمحاربة كل من يتدخل فى حرية عقيدته الدينية ، سواء أكان من بنى جلده

أو من أقربائه ، أو كان غير مسلم . وأوجب الإسلام على أبنائه أن يمنعوا كل اعتداء يوجه إلى المعابد غير الإسلامية . وقد أخذ المسلمون بهذا المبدأ في كل ما فتحوه من بلاد وأمصار . وكان النبي (صلوات الله عليه) يخوض غمار الحروب مع أعداء الإسلام ، وبعد أن تضع الحرب أوزارها كان يعقد معهم معاهدات يحترمها ويقدرها قدرها .

ولقد ترك لنا باحترامه لما أبرم من عهود ومواثيق ، هدياً نهتدى به في حياتنا ونسترشد به في أمورنا .

قال تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير » . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » .

جاءت هذه الآية كتنبيه للمسلمين ، بأن أعداء دينهم سيسارعون إلى مهاجمتهم . ولم يسكد يمر على هجرة النبي صلى الله عليه وسلم عام ، حتى وقعت غزوة بدر الكبرى ، فتقابل الفريقان عند بدر التي تبعد عن المدينة ثلاثين ميلاً تقريباً ، وهناك قتل معظم جيش الأعداء ، وفر قليلون إلى مكة يحملون إليها أسوأ الأنباء . وكان من نتائج الفزع الذي ابتلى به الكفار ، أن نشبت بينهم وبين المسلمين حرب أخرى بلغ عدد جيش الكفار فيها ثلاثة آلاف مقاتل . وترك النبي - عليه أفضل الصلاة والسلام - المدينة للملاقاة أعداء الدين ، ومع أن المسلمين لم يكتب لهم النصر هذه المرة في موقعة أحد ، لم يظفر هؤلاء هم الآخرون بمغنم ذي قيمة . ولهذا وطدوا العزم ، وأصرروا على سحق الإسلام نهائياً ؛ فعقدوا معاهدات مع بعض القبائل ، وحاصروا المدينة بجيش كبير ، بلغ عدده عشرة آلاف مقاتل ، ولم تقع بين الفريقين حرب نظامية ، ولكن عاصفة رملية قاسية هبت ذات ليلة فزلزلت خيام الأعداء ، واقتلعتها واطفأت أنوارهم ؛ فتملكهم الذعر وولوا الأدبار .

ومع أن هؤلاء الكفار كانوا بعد حصار المدينة أضعف من أن يعقدوا حلفاً آخر بينهم ، إلا أن الاندحار الذي منوا به ، أثار روح الحرب في جميع بلاد

العرب ، وسرعان ما أحاط الكفار بالمسلمين من كل جانب ، وفي ذلك كله جاء القرآن الكريم بقوله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم ، وأنتم لا تظلمون ، وقوله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله . فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ، وقوله جل شأنه : « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، وإن تفتنوا فهو خير لكم ، وإن تعودوا نعد ، ولن تغني عنكم فئتمكم شيئاً ولو كثرت ، وأن الله مع المؤمنين . »

فكل هذه الآيات تبيح الحرب في حالة الدفاع عن النفس ، وهى تبين لنا جلياً أن واجب المسلمين ألا يستمروا في الحرب إن عدل العدو عن مواصلة القتال . قال تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ، وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ، وقال تعالى « وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين . »

وعقدت قبائل كثيرة معاهدات مع النبي - صلى الله عليه وسلم - وما كانوا يقصدون من إبرامها إلا أن يخدعوا المسلمين ؛ كما يحدثنا بذلك القرآن الكريم حيث يقول : « الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ، وبرهن الكافرون أكثر من مرة على أنهم لم يكونوا لعهدهم حافظين ؛ قال تعالى : « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ، واعلموا أنكم غير معجزي الله ، وأن الله مخزي الكافرين ، وقوله تعالى : « فإذا انسלخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة نفلوا مبيلهم ، إن الله غفور رحيم . »

وفي هذه الآيات ما يزيد الموضوع إيضاحاً ، وما يبين العقاب المعد لهؤلاء الذين لم يستطيعوا أن يحتفظوا بما قطعوه على أنفسهم من عهود ومواثيق ، وكان طبعياً أن يستأنف المسلمون مباحاتهم لهؤلاء الذين تحللوا من تعهداتهم ، ودأبوا في الكيد لهم ، ومع أن هؤلاء المشركين لم يكونوا جديرين بأن يجردوا من المسلمين فرصة لنجاتهم ، إلا أنهم منحوا هذه الفرصة ، وفي هذا يقول الله تعالى « فإن تابوا

وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم، وفي ذكر الآيات الآتية ما يبين منزلة الحرب في نظر الإسلام؛ قال تعالى «وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، وطعنوا في دينكم، فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون»، ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدوكم أول مرة، أنتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين. قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم، ويخزهم، وينصركم عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنين،.

وحمدى القول: أن العالم في ميسس الحاجة إلى توجيه صالح وآداب طيبة في حروبه. ولقد جاء الإسلام بما يحقق هذه الأمان، فحرم كل حرب يرجى من إشعالها كسب في أملاك الأمم؛ كما نهى عن إثارة الحروب التي تهدف - تحت ستار الدين - لبلوغ نفس الغرض. وجاء الإسلام لنشر السلام في العالم كما يستفاد من اسمه، ومنع أن يستل سيف من غمده بغير حق، ودون قصد، وأوصى لإشعال نار الحرب بأن يستند الراغبون في إعلانها إلى أسباب عادلة.

الحجاب

قال أبو مسهر: أتيت أبا جعفر محمد بن عبد الله بن عبد كان فحجني فكتبت إليه.
 إني أتيتك للتسليم أمس فلم تأذن عليك لي الاستار والحجب
 وقد علمت بأنني لم أرد ولا والله ما رد إلا العلم والادب
 قال فأجابني ابن عبد كان بقوله:
 لو كنت كافيت بالحسنى لقلت كما قال ابن أوس وفيما قاله أدب
 ليس الحجاب بمقص منك يا أملي إن السماء ترجى حين تحتجب
 ووقف يباب محمد بن منصور رجل من خاصته فحجب عنه فكتب إليه.
 على أي باب أطلب الإذن بعد ما حجبت على باب الذي أنا حاجبه
 ووقف أبو العتاهية الشاعر المشهور إلى باب بعض الهاشميين، فطلب الإذن
 فقيل له تكون لك عودة فقال:

لئن عدت بعد اليوم إني لظالم سأصرف وجهي حيث تبغى المكارم
 متى يظفر الغادى إليك بحاجه ونصفك محبوب ونصفك نائم

الحُكَمَاءُ السَّبْعَةُ

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأمواني

كان الإغريق القدماء يمجّدون الحكمة ويعدونّها أسمى شيء في الحياة ، كما شاع في الهند تقدّيس الآلهة ، وفي إيطاليا في عصر النهضة احترام الفن . ولم يكن أبطال اليونان قديسين أو فنانين بل حكماء . وأرفع الحكماء شأنًا ، وأفضلهم منزلة من حسنت سيرته في الناس ، وعبر عن العمل الصالح بالحكمة الصائبة والقول الذي يذهب مذهب الأمثال السائرة . ولقد جرت الحكمة من أفواه هذه الطائفة ، فأصبحت في أهل الإغريق أمثلة تحفظ وتروى ، ومواظ للقدوة والاعتبار ، بل آيات سطرت على أبواب أبولون في دلفي .

عاش الحكماء السبعة في النصف الأخير من القرن السابع وأوائل السادس قبل الميلاد ، وهم يمثلون الحكمة العملية في صدر الحضارة اليونانية . وصفهم ديكارخوس ^(١) فقال : ليس الحكماء السبعة فلاسفة أو حكماء ، بل هم قوم في غاية الذكاء ، وجهوا عنايتهم إلى تنظيم الأحوال العامة .

ولست أدري أعرفهم العرب في الإسلام أم لا ؟ نغني أسماء الحكماء السبعة وصفاتهم وأقوالهم ، وأنهم يمثلون أول ظهور الحكمة أو الفلسفة . وقد ذكر القفطي في أخبار الحكماء ، أساطين الحكمة ، تكلم عنهم عندما تعرض لأنبأ قليس فقال إنه : « حكيم كبير من حكماء اليونان ، وهو أول الحكماء الخمسة المعروفين بأساطين الحكمة ، وأقدمهم زمانا . والخمسة هم : أيذقليس هذا ثم فيثاغورس ثم سقراط ثم أفلاطون ثم أرسطاطاليس . » ولم تقع على نص

(١) ديكارخوس Dicaerchus من مسينا في صقلية ، عاش في القرن الرابع قبل الميلاد ، وهو فيلسوف وجغرافي ومؤرخ ، أخذ العلم على أرسطو وثا وفراسطس . أنفق معظم حياته في اليونان وفي بلوبونين بوجه خاص . له كتب كثيرة لم يبق منها إلا أجزاء . وأهم كتبه تاريخ اليونان .

آخر في الفهرست أو طبقات الأطباء، أو كتب فلاسفة العرب يدل على أنهم عرفوا الحكماء السبعة. نقول: وليس فيثاغورس حكيمًا بل هو متأخر عن الحكماء السبعة، وإليه يعزى القول: «لست حكيمًا ولكني مؤثر للحكمة». والمؤثر الحكمة هو الفيلسوف. كأن الفلسفة في اليونان نشأت في أحضان الحكمة العملية التي جرت على لسان الحكماء السبعة.

ويختلف المؤرخون في أسمائهم. وأقدم ثبت نعرفه هو ما سجله أفلاطون عنهم في محادثة بروتاجوراس. وهم: طاليس، وبياس، وكلوبولس، وخیلون، وبتاقوس، وسولون، وميسون.

وذكر ول ديورانت في كتابه «حضارة الإغريق»، أن هرميبوس^(١) قال: الحكماء السبعة يبلغ عددهم الحقيقي سبعة عشر، لأن كل مدينة من مدن الإغريق كانت تصطنع حكيمًا وتذكر سبعة، إلا أنهم اتفقوا على سبعة، هم: طاليس من ملطية، وسولون من أثينا، وبياس من برين، وبتاقوس من ميشيلين، وبریاندر من كورنثة، وخیلون من إسبرطة، وکلیوبوس من رودس.

وذكرهم ديوجين لايرس^(٢) فقال: طاليس، سولون، بریاندر، كلوبولس، خیلون، بیاس، بتاقوس. وهذا يشبه ما ذكره هرميبوس.

وأضاف ديوجين إلى هؤلاء السبعة المجمع عليهم عددًا من الأسماء، منهم: أناخارسس Anacharsis، ميسون، فريسيديس Pherecydes، إييمينيدس Ebimenides، بيسستراتوس Pesistratus.

وقد ذهب بعضهم إلى أسماء أخرى، إما بدافع الوطنية، أو التحزب السياسي، حتى لقد جمع ديوجين أسماءهم من شتى المصادر فبلغوا ثلاثة وعشرين. والإجماع على أربعة منهم: طاليس، وبياس، وبتاقوس، وسولون.

(١) هرميبوس Hermippus شاعر كوميدي معاصر لبركليس عاش في القرن الخامس قبل الميلاد

(٢) مؤرخ من لايرس في صقلية. عاش في القرن الثاني بعد الميلاد، له كتاب سيرة الفلاسفة

طاليس : فيلسوف طبيعي من مدينة ملطية ، وهو رأس الفلسفة الايونية . عرفه العرب ؛ ولن نطيل في الحديث عنه .

بياس Bias من مدينة برين Priene على خليج ملطية في غرب آسيا الصغرى ، وكانت مدينة مشهورة في القرن السادس ، وازدهر فيها بياس ، واشتهر حول ٥٧٠ ق . م . وكان خطيباً أمام المحاكم في أثينا . وأشار ديوجين إلى شهرته في المحاكم . وكان نظام التقاضي في أثينا على ضريين : الاحتكام إلى محكم يفصل بما يراه على هواء ، فإن لم يقبل المتخاصمان رفعاً الأمر إلى ساحة القضاء . ولم تكن المحاكم تقبل القضايا الصغيرة أو تلك التي لم يفصل فيها بالتحكيم . وتقدم القضايا مدونة مسببة ، ويعتمد الخصم على محام يقنع المحكمة بـزلاقة لسانه ، وحسن بيانه وقوة إقناعه ، وبراعته في الخطابة . ومن أشهرهم بياس . له حكم تروى ، منها قوله : « من لم يصبر على الزمان عاش بائساً » .

بتاقوس Pittacus من جزيرة أيوليا إحدى جزر لسبوس التي اشتهرت بالثروة والآداب . وفي الجزيرة خمس مدن أكبرها عدداً وأوفرها ثروة ميتلين Mytilene بسبب اشتغالها بالتجارة ، مثل : ملطية وساموس وإنسوس .

وفي آخر القرن السابع تحالفت طبقة التجار مع الشعب على الإشراف ، فانتزعوا منهم السلطة ، وسلموا زمام الحكم لبـتاقوس ، ونصبوه حاكماً مستبداً عشر سنوات ، فاجتمع له من السلطان ما يشبه ذلك الذي اجتمع في يد صديقه سولون أحد الحكماء السبعة ، والمشرع المشهور المعروف .

ونسج التاريخ حول الحكماء السبعة كثيراً من الأقاصيص ، تجمع بينهم ، وتنطق الحكمة على لسانهم .

ويقال : إنهم قابلوا مجتمعين سبسيلوس في رواية ، وبرياندر في رواية أخرى ، وكرويسس في رواية ثالثة . وتمت هذه المقابلات في دلفي .

وجعل بلوتارك من الاجتماع الذي وقع في كورنثة برئاسة برياندر موضوعاً للحوار .

ومن أشهر قصصهم تلك التي تحدثنا عن الكرسي الذهبي الذي استخرجه الصيادون من البحر، ثم تنازعوا على امتلاكه، فذهبوا إلى داني فأنبأهم السكاهنة أن يكون من نصيب « أحكم رجل ». ودار الكرسي على جميع الحكماء، ثم عاد إلى أبولون في دلفي.

وهذا ما فعله سقراط فيما بعد حين سئل : ماذا يعرف ؟ فأجاب : إنى لا أعرف شيئاً.

ويقال : إن الحكماء السبعة عند زيارتهم دلفي وهبوه أول ثمار حكمتهم « اعرف نفسك » ، و « لا تسرف » . وقد دوتنا بعد ذلك على باب المعبد .

ولا ريب في أن هاتين الحكمتين من وضع السكتهنة ، حتى إذا ما ارتفع شأن الحكماء السبعة في العصور المتأخرة ، عزا الناس إليهم كل حكمة .

وقد تنسب بعض هذه الحكم المأثورة إلى واحد بعينه ، مثل « لا تسرف » ، فإنها تنسب إلى سولون ، و« اعرف نفسك » ، إلى خيلون أو طاليس .

ويصف أفلاطون حكمهم بأنها : أقوال قصار ، وعبارات موجزة .

وجمع في القرن الخامس بعد الميلاد يوحنا ستوبايوس بعض هذه المأثورات المنسوبة إليهم ، وهي تدور حول الفضائل ، مثل ضبط النفس ، والأمانة ، والجد ، والصدق ، وطاعة القوانين ، واحترام الآباء .

ومن العسير نسبة كل حكمة إلى صاحبها .

يقال : إن برياندر صاحب القول المأثور « الشورى أفضل من الاستبداد » .

وكان الغرض من هذه الحكم هداية المواطن في الحياة .

وقد أصبح للحكمتين المسطورتين على باب معبد دلفي أثر في الفلسفة ؛ إذ أخذ سقراط « اعرف نفسك » ، وجعلها أساساً لفلسفته في الفضيلة . وأخذ أرسطو حكمة « لا تسرف » ، وجعلها أساساً لفلسفته الأخلاقية في أن الفضيلة وسط بين طرفين ؟

جَوْلَةُ مَلِكٍ فِي الدَّارِ

الكلمة التي ألقاها فضيلة الاستاذ الشيخ محمود جميلة مبعوث الأزهر إلى العراق
بقاعة فيصل بمناسبة الإسراء وأذيعت على الشعب العراقي

أيها السادة :

هذه ذكرى مجيدة نُحْيِيهَا ونُحْيِيهَا، لا مؤتسين ولا مقتدين، ولا مبتدعين ولا مخترعين؛ ولكنها تذكرة للذاكرين وتنبيه للغافلين، فإن القلوب قد تحجرت والنفوس قد نمردت؛ ولعلنا بذلك نحول الركب ونصحح الوضع، ونستميل الأفتدة اللاهية، والعقول النائية، إلى هذه المجالس النافعة، نتذاكر فيها الله، ونحدث عن رسول الله. والحديث عن رسول الله حديث شهي؛ لأنه حديث عن الحق؛ حديث عن النور؛ حديث عن العلم؛ حديث عن العدالة والمساواة؛ حديث عن العظمة الإنسانية التي لا تعتمد على منصب ولا جاه، ولا ترتكز على مال وأهل.

أيها السادة :

لقد أسرى الله بعبده ونعم العبد! أسرى به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فكانت رحلة بين حرمين، وجولة بين مسجدين، وسفرة بين قبلتين، رافق فيها أمين أميناء، وصاحب فيها كريم كريماء، سارت النورانية الملكية في ركاب البشرية القدسية، فكان من ذلك ركب الله، يتوجه إلى الله، لا في مكان محصور ولا في زمان مقدور، ولم تكن الأرض إذ ذاك قد عرفت طائرة تقطع الأجواء، أو قاطرة تنهب الغبراء، ولكنها عرفت من أبدع الأرض والسماء، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى. فيها هي يد القدرة تحمل محمدا وركبه وتطوى بهم الغياي والقفار وتمثل العير، وتعرض الصور أمام الحضرة النبوية ليرى الرسول الأمين في آيات ربه قيمة دعوته، وخطر رسالته، فيزداد رأفة على رأفته، ورحمة على رحمته،

فيلحف في دعوته ، ويمعن في حجته ، ويتفانى في إنقاذ أمته : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ، . وفي بيت المقدس ، وفي ثالث بيت من بيوت الله التي تشد إليها الرحال ، وفي القبلة الأولى التي بدأت عليها الأمة - كان استقبال محمد استقبالا باهرا معجزا ، سلم فيه العقل الحكم إلى النقل ، فهو وحده الفيصل ، ومنه نستمد الإيمان : « والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، . وهنا تجلت الكرامات ، وبرزت المعجزات ، وأحيا الله الأموات وتقدم المصطفى على المصطفين وبدأت رحلة جديدة لم تشهدها البشرية منذ هبطت البشرية ، لا من أرض إلى أرض ، ولا من شرق إلى غرب ، وإنما هي من أرض إلى سماء .

رحلة كرم الله فيها الوالد في شخص ولده ، فكانت تكميلا للنعمة وتأكيذا للتوبة ، ومظهرا من مظاهر الرضى . لقد هبط آدم من عليائه لما نسى العهد وفقد العزم ، فظمى . وجاع وعرى وشقى ، وكان له ألا يجوع ولا يعرى ، ولا يظلم ولا يضحى ؛ وصعد محمد إلى السماء ، فكان ذلك رمزا لرفعة البشرية بعد هبوطها ، وكالها بعد ترجرجها .

أيها السادة :

نزل آدم عليه السلام إلى الأرض ، وصعد محمد إلى السماء ، وكلاهما قد قطع أجواز الفضاء ، واجتازت طبقات الهواء ، وقدرة المصيطر على الوجود تولت آدم في هبوطه كما تولت محمداً في صعوده ، ولا خفة ولا كثافة أمام خالق الخفة والكثافة ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

عرج برسول الله وتدرج في مراتب الكمال ، وأخذ يفتقل في المنازل ويسمو في الدرجات ، وسط مهرجان تفضلت به العناية الإلهية ، شاركت فيه الأرض السماء ، والأموات الأحياء ؛ ولا زالت ترتفع به مكانته وتتقدم به منزلته ، حتى وقف كل مخلوق ، وتنحى كل مرموق ، ورفعت الأستار ، وتكشفت الأسرار ، وظهرت الأنوار ، وتجلي الستار ، وفنى الحبيب في الحبيب ، وكان وعى وكشف ، وصحوة ويقظة ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، وما زاغ البصر

وما طغى . وهنا رأى وسمع ؛ رأى آيات ربه الكبرى ، وسمع كلام ربه الأعلى ، رؤية وسمعا يليقان بالتنزيه والتكريم ، ويناسبان التسبيح والتعظيم . عند ذلك أوحى الله لعبده بعد أن أسرى بعبده ، فنعم العبد ، ونعم المعبود ! تكريم لم يصبه مخلوق ، وتقديس لم يصل اليه موجود ؛ فهو وحده الذى حظى بالحضرة ، وتمتع بالنظرة ، فنسى مشاق دعوته ، وخلاف أمته ، فكان ترفيها وتخفيفاً ، وتحميداً وتقديساً .

أيها السادة :

في هذا المقام الكريم ، وفي هذا الموقف الرهيب ، صدرت لإرادة كريمة ، وأمر إلهي ، بتكليف الأمة بالصلاة ، وهي الناهية عن الفحشاء والمنكر ، وهي عماد الدين ، من أقامها فقد أقامه ، ومن هدمها هدمه ، فنالت الصلاة بذلك شرفاً سبقت به غيرها من العبادات ، واعتزت به من بين سائر المأمورات . أفيليق بعبء مؤمن باقته ومصدق بمحمد بن عبد الله أن يضيع الصلوات ويتبع الشهوات ! اللهم إن ذلك هو الخسران المبين .

بعد هذا تحرك الركب آيياً بعد هذا التكريم ، وقافلا بعد هذا التعظيم ، إلى مقره من البلد الحرام . فسبحانك اللهم سبحانك ! جلّت قدرتك ، وعظم شأنك .

أيها السادة :

هذه منزلة رسولنا الكريم من رب العالمين ، فقد شرح الله صدره ، ووضع عنه وزره ، ورفع له ذكره ، وأيده بالمعجزات والخوارق ، وعلمه ما لم يكن يعلم .

سيدي رسول :

قدمتك العناية الإلهية ، والرحمة الربانية ، إلى البشرية الضالة ، والإنسانية النائية ، بين أرباب متفرقة ، ونظم متخلخلة ، وأصول متداعية ، لتقيم من أركانها وترفع من قواعدها ، وتأخذ بيدها إلى الطريق السوي ، قدمتك حراً طليقاً ترى الحق حقاً والباطل باطلاً بصفاء في نفسك ونور في قلبك ، لم يغيره فيك قتامة محيطك ، وعتامة عصرك ، فقلت حقاً ، ونطقت صدقاً ، وقد بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ورسمت للناس طريق الحق ، فلا عذر لمعتذر ، ولا حجة لجاحد ، بل لله الحجة البالغة ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة .

والآن وقد اجتمعنا لإحياء أعظم الليالي التي كانت لرسولنا الأكرم ، ونينا
الاجل - نضرع إلى الله العلي أن يوجه الأمة لإحياء سنته ، وتأيد دعوته ، ونشر
دينه ، وبث تعاليمه . عند ذلك يعود لنا عز سلبناه ، ومجد فقدناه ، وخلق جافيناه ،
ويتحقق وعد الله ، ولننصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز .

قبل أن أبرح مكاني هذا أتقدم إلى الشعب العراقي الكريم ، خصوصا
الجمعيات الدينية ، بشكري وشكر إخواني على ما حبانا به هذا الشعب من صنوف
الإكرام ، لا لأشخاصنا ، ولكن لمعهدنا العزيز الذي غالب الأيام فغلها ، وصارع
القرون فصرعها ، ثم هو يحمل مشعل الإسلام ويقوم بتبليغ الدعوة ، وهو مفتوح
الابواب لكل مسلم يريد أن يرتشف من حياضه ، وأن ينهل من موره . وسنبليغ
تحية أهل العراق إلى من بالأزهر جميعاً من المسلمين ؛ سنبليغها إلى العراقي والمصري
والسوري والأردني والحجازي والهندي والصيني والعجمي والسومالي والسوداني
والجاوي والسنگالي والمغربي ، وإلى غيرهم ممن غاب عن الذاكرة وند عن الحافظة ،
كل أولئك يحلون به مكانا سهلا ومنزلا كريماً . أمد الله في حياة من يمد في حياة
الأزهر ، ووفق المسلمين للعمل بدينهم واتباع سنة نبيهم ﷺ

جود عبيد الله بن عباس

كان من مشهورى الأجواد ، قيل : إنه أتمه رجل وهو بفناء داره ، فقام بين
يديه ، فقال : يا بن عباس إن لى عندك يداً ، وقد احتجت إليها ، فصعد فيه بصره
وصوبه فلم يعرفه ، ثم قال له : ما يدك عندنا ؟ قال : رأيتك واقفاً بزمنم وغلامك
يتمتع لك من مائها ، والشمس قد صهرتك فظلمتلك بطرف كسائي حتى شربت .
قال : إني لأذكر ذلك وأنه يتردد بين خاطري وفكري ، ثم قال لقيمه : ما عندك ؟
قال : مائتا دينار ، وعشرة آلاف درهم . قال : ادفعها إليه ، وما أراها تفي بحق يده
عندنا . قال : فأعطاه ثلاثين ألفاً . فقال له الرجل : والله لو لم يكن لإسماعيل ولد
غيرك لكان فيه ما كفاه . فكيف وقد ولد سيد الأولين والآخرين محمداً صلى الله
عليه وسلم ، ثم شفعلك به وبأبيك .

الدنيا والدين

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد التواب

مفتش الوعظ بالأزهر

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا من أحب ، فمن أعطاه الدين فقد أحبه ، والذي نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يؤمن جاره بوائقه ، قلت : يا رسول الله وما بوائقه ؟ قال « غشمة وظلمه ، ولا يكسب مالا من حرام فينفق منه فيبارك فيه ، ولا يتصدق به فيقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده الى النار ، إن الله لا يمحو السىء بالسىء ، ولكن يمحو السىء بالحسن ، إن الحديث لا يمحو الحديث . »

فى وضع هذا النور المحمدى الذى يشع من حديثه صلى الله عليه وسلم ، يحلى لنا الصادق المصدوق من جمال هذا الدين ، وسماحة تعاليمه ، وجلال توجيهه ، ألوانا صادقة من حسن الخلق ، وسلامة القلب ، وعفة اللسان ، وكف الأذى ، والتورع عن الكسب الحرام ؛ كما يحلى لنا صلى الله عليه وسلم من نواحي الافتتان بالدنيا تملك الغرور للنفس ، والشرة فى جمع المال ، والعمل على إنمائه من الكسب الخبيث ، ومرض القلب بما يكن فيه من أدواء الحقد والضغينة ، وبذاءة اللسان ، وما تجر إليه من أذى ، وتطاول ، وزور ، وبهتان . ثم يوجه النبى صلى الله عليه وسلم أمته الى ملاحقة السيئة بالحسنة ، لتذهب من ظلمتها ، وتطهر من خبيثها .

ولقد بين هذا الحديث الشريف أن الذى منحه الله نعمة الدين ، فقام فى نطاق حدوده وأحكامه ، يهذب نفسه ، ويحترم غيره ، ويرعى حرمان الناس ، فذلك هو الذى أحبه الله .

أما نعمة الدنيا من مال ، أو جاه ، أو منصب ، أو قوة ، فإن الله تعالى يعطيها من يحب ومن لا يحب .

يعطيها من يحب ؛ ليزداد المحبوب بها شكراً لله ، واستجابة لأمره ، وامثالاً لنيه ، فيبذل صاحب المال من ماله ، ويبذل صاحب الجاه من نفسه ، ويعدل صاحب المنصب فيما يقوم عليه ، ويروض صاحب القوة نفسه على لين الجانب وخفض الجناح .

ويعطي الله هذه النعم في الدنيا لمن لا يحب ؛ استدراجاً منه تعالى لهؤلاء الأئمة المستكبرين ، فيزداد جامع المال حرصاً وشرهاً ، ويطغى صاحب الجاه كبراً وصلفاً ، ويتعدى صاحب المنصب حواجز العدل والرحمة ظلماً وعدواناً ، ويبطش صاحب القوة بالضعفاء تجبراً وقسوة ؛ وكذلك كل من أوتى نعمة الله فلم يصنها ، ولمنعها فلم يشكرها ، أفسح الله له في مجال نعمته ، حتى يكون أخذه أليماً ، وعذابه شديداً . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم الله يعطي العبد ما يحب ، وهو مقيم على معصيته فذلك منه استدراج ، ثم تلا قوله تعالى : فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون .

والإبلاس : هو الحزن المفاجيء من شدة اليأس ، ثم يبين الرسول صلى الله عليه وسلم بياناً مؤكداً بالقسم بالله الذي نفسه بيده : أن الإسلام ليس بالدعوى تدعى ، ولا بالكلمة ينطق بها المسلم ؛ ولكنه سلامة القلب ، وسلامة اللسان . فالقلب الفاجر ، والنفس المظلمة ، والجوارح التي تجترح الآثام والمنكرات ، لا تكون عنواناً على الإسلام .

واللسان المندلع بنار الشر ، في الوقعة ، والزور ، والغيبة ، والنميمة ، والكذب ، والأذى ، لا يكون لسان مسلم يخشى الله ويرعى حدود الله .

كما أن من يدعى الإيمان ولا يأمنه حتى أقرب الناس إليه وهو جاره ، بل يلحقه منه الظلم والطغيان ، والغشم والسفه - لا يكون مستجيباً لأمر الله ، ولا هو سوما بعلامة المؤمنين .

والكسب الحرام يفرح به من يغتر بالعرض الزائل ، ويتخذ مغنيا ، غير متورع عن رشوة مضللة ، أو غش يغبن به الناس ، أو يمين فاجرة يروج بها سلعة ، ولا والله لا يتذوق بهذا المال الحرام إلا مرارة وحرارة ؛ مرارة من كراهية الناس ، وحرارة من عذاب الله ، ولن يجد فيه بركة الإنفاق ، ولا يتذوق منه حسن التقبل ، ولا يجمع به إلا وقود التهلكة في سخط الله وسوء المنقلب ! .
أما بعد .

فليس لهذا الدين إلا البر والمرحمة ، وليس لسعادة الدنيا إلا أن نخضعها للحق ، يرضاه الله ، وتطمئن به النفس ، ويحببه الناس .
وليس لمنع الحياة في غير هذا النطاق الذي شرعه الله جمال ، ولا حسن ، ولا بقاء ؛ ولكنه الفضل ، والجلال ، والجمال ، والعزة ، لمن استجاب لله ، واتفق وصدق بالحسن ، من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون .

حلم معاوية

قال معاوية لأبي الجهم العدوي : أنا أكبر أم أنت ؟ فأجابته لقد أكلت في عرس أمك يا أمير المؤمنين . قال معاوية : عند أي زواجها ؟ قال عند حفص بن المغيرة . فقال معاوية : يا أبا الجهم إياك والسلطان ، فإنه يغضب غضب الصبي ، ويأخذ أخذ الأسد . وأبو الجهم هذا هو الذي قال في معاوية :

نغضبه لنخبر حالته فنخبر منهما كرما ولينا
نميل على جوانبه كأننا نميل إذا نميل على أيينا
وقدم عقبة الأزدي على معاوية ودفع إليه رقعة فيها هذه الآيات :
معاوى إننا بشر فأصبح فلسنا بالجبال ولا الحديد
أكلتم أرضنا فجردتموها فهل من قائم أو من حصيد
أطعمع بالخلود إذا هلكنا وليس لنا ولا لك من خلود
فهنا أمة هلكت ضياعا يزيد أميرها وأبو يزيد

فدعا به معاوية وقال : ما جرأك على ؟ قال نصحتك إذ غشوك وصدقتك إذ كذبوك . فقال له معاوية : ما أظنك إلا صادقا وقضى حاجته .

ميساد محمد صلى الله عليه وسلم

لفضيلة الاستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجي

المدرس بكلية اللغة

في ظلمات من الجهل ، وحيرة في العقول ، وفوضى لا مثيل لها في الحياة ؛
ولد محمد صلوات الله عليه في مكة ، كما يولد الهلال الذي تسيير به دورة الايام
فيصبح بدرا منيرا .

ونشأ في بيئة جاهلية ، لاتعرف لونا من ألوان المعرفة أو النظام أو الحضارة ،
ولا تؤمن بمبادئ حق أو خير أو حرية أو مساواة أو إخاء .

وأنكر محمد في طفولته وشبابه ما تعارف عليه قومه من عقائد وأوهام ،
وتقاليد وعادات وأخلاق ونظم ؛ لأنها جميعها تنكر الله ، وتنكر المعاني الفاضلة
والمثل العليا في الحياة ، وتسير بالجماعة إلى الفوضى والهمجية ، أو قل إلى الفناء
والانهيار ، فلا تعرف دعوة حق ، ولا تؤمن بفضيلة إنسانية ، ولا تقدر
إلا العصية وحب الدماء وصدع الشمل ؛ ثم سافر الى الشام حيث رسالة المسيح
لا بد أن تكون قد عملت عملها في تهذيب شعب المسيح ، فرأى ويا لهول ما رأى :
رأى التوحيد ينقلب شركا ، والدين يستحيل عصبية حمقاء تسرف في البطش
والانتقام ، والرحمة التي دعا اليها المسيح تصير ضعفا وهوانا عند قوم ، وبغيا
وعدوانا عند آخرين .

رثى محمد لهذه الإنسانية المعذبة ، وسار في حياته على مثال رفيع في الخلق
والآداب وصلته بالمتجمع ، وأخذ يتطلع بصره في حيرة الى هداية السماء لتتقذ
البشر من حياتهم : حياة الهمجية ، والاستبداد والطغيان ، والظلم والفوضى .

وفي لحظة رهيبة خالدة في تاريخ الإنسانية نزل عليه الوحي برسالة من السماء ، ليبلغها الناس كافة ، وليستقيم بها ما اعوج من أمور البشر وحياتهم وعقائدهم .

وبعد قليل كان محمد قد وأد الوثنية في جزيرة العرب ، ونشر مكانها التوحيد والحرية والحق والأخاء والمساواة ، وبدأ يصبغهم بصبغة جديدة من ألوان الحضارة ومظاهرها ، وأخذت تنمو هذه الصبغة حتى صارت مدنية زاهرة في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة ، وشقى عواصم العالم الإسلامى التى كان يشع منها نور الحضارة والمعرفة والرقى ، وهكذا صدقت نبوءة المسيح « عندما يأخذنى الله من العالم ، سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة ، بأن يحمل عادم التقوى على الاعتناق بأنى الله وابن الله ؛ فيتنجس بسبب هذا كلامى وتعليمى ، حينئذ يرحم الله العالم ، ويرسل رسوله الذى خلق كل شئ لاجله : الذى سيأتى من الجنوب ، وسيبيد الأصنام وعبداء الأصنام ، وسينزع من الشيطان سلطته على البشر ، وسيأتى برحمة الله » (١) « ويعلم العالم بأسره لأنه هكذا وعد الله آبانا إبراهيم » (٢)

ولقد كان ميلاد محمد صلوات الله عليه بحق ميلاد الحرية والأخاء والمساواة والحضارة ، وشهد بذلك المفكرون في الغرب :
قال « كاي تيلر » : الإسلام أفاد التمدن أكثر من النصرانية ، ونشر علم الأخاء والمساواة .

وقال « يوسورث سميث » : كان محمد موفقا توفيقا فريدا في بابه ، لم يحدثنا التاريخ عن مثله ؛ فجمع بين زعامات ثلاث : هى زعامة الشعب وزعامة الدين وزعامة الدولة ، وبرغم أنه كان أميا ؛ فقد جاء بكتاب جمع بين البلاغة والتشريع والعبادات ، هو الآن موضع احترام أكثر من سدس العالم ؛ كمعجزة هى دليل العقل والحكمة أكثر من أى معجزة غيرها .

وقال اللورد « هدلى » : « رسالة محمد رسالة إلهية صادقة لا ريب ، فيها هدى

(١) الفصل السادس والتسعون من انجيل القديس برنابا أحد الحواريين وهو أقرب الأناجيل إلى الصحة .

(٢) الفصل السابع والتسعون من المرجع نفسه .

للمتقين أوحى الله بها إليه ، فجاءت مخففة لصرامة أحكام التوراة ، مكملة لكتاب المسيح . كان محمد داعياً إلى الرحمة والعدل ، والكرم والشجاعة ، والصبر على المكروه والصدق ، يعتقد أن الدين هو أقرب الأشياء إلى العقل وإلى الطبيعة ، وأن الإنسان ما هو إلا مظهر من مظاهر الله ؛ وكان محمد غيوراً متحمساً ، وكانت غيرته وتحمسه لغرض نبيل ومعنى سام .

وسوى ذلك من شهادة « توماس كارليل ، و« تولستوى ، و« جوته » وسواهم من أفاض الفكر الأوروبي الحديث .

قامت على مبادئ محمد صلوات الله عليه دولة عظيمة لم تكن الشمس تغيب عنها ، ونمت على أساسها حضارة مشرقة لا زالت محل إعجاب الباحثين والمفكرين ، وهي نواة الحضارة الأوروبية الحديثة ، ولها الفضل كل الفضل في نقل أقطار الأمم القديمة : من هنود ، وفارسيين ، وصينيين ، وإغريقين ، ورومانيين ، ومصريين إلى العالم الحديث ؛ ولولا مجهود المفكرين المسلمين ؛ لضاعت آثار المدينيات والحضارات القديمة وعلومها ومعارفها .

قامت هذه الدولة وتلك الحضارة ، على المعرفة والحرية ؛ وعلى الديمقراطية النبيلة التي بلغت على يد الفاروق عمر ، أسمى ما تبلغه الإنسانية الراقية ، وقامت على تقديس حرية الفكر والرأى والعقيدة ، حتى لقد تجاوزت الأديان الثلاثة في أملاك إمبراطورية المسلمين ، فلم نسمع إلا عدلاً ورحمة ، وتعاوناً وحباً ، وتقديساً لحرية الدين والعقيدة .

والتسامح الديني ، واحترام أهل الديانات السماوية الأخرى أمر ظاهر واضح في حياة الرسول وخلقائه ، فلقد آمن محمد صلوات الله عليه نصارى نجران على حرياتهم الدينية ، كما فعل الفاروق مع نصارى الشام ، إلى غير ذلك من الشواهد والمثل . ومبادئ محمد ودعوته ورسائله إن هي إلا صدى لهذا الدستور الخالد والكتاب الحى الباقي والقانون السماوى الأعظم ، القرآن الكريم .

وتقرأ في القرآن فتجد حرباً لا هوادة فيها على الشرك والوثنية ، وتحريراً للعقل الإنسانى من أوهام التعصب والجنود والضلال ، وإيماناً لا يشوبه شك بقيمة المعرفة والثقافة ، وغرساً للفضائل الإنسانية ، والمثل العليا في نفوس الناس

كافة ، ومحاربة للردائل والمنكرات والشُرور والآثام والفوضى الإجتماعية في كل شيء وكل ناحية .

وتجد فيه إيقاظاً للضائر ، وإحياء للنفوس ، وبعثاً للفكر البشرى من رقده ، وتجد فيه ثورة على الطغيان والاستبداد ، وعلى التعصب للأفكار الخاطئة ، والمبادئ الضالة ، والعصبيات الجائرة .

وتجد أول هدف له هو نشر التعاون بين البشر جميعاً ، فلا فرق بين جنس وجنس ، ولا فضل لامة على أمة أو قبيلة على قبيلة أو إنسان على إنسان ، إلا بالاخلاق الكريمة ، والأعمال الصالحة ، وتقوى الله وطاعته ، والناس كلهم من أصل واحد وأب واحد ، يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ؛ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ؛ وهكذا قبر الإسلام ورسوله الجود والتعصب القبلى والوطنى المحدود ، وأحل محل ذلك الإنسانية والعالمية ، بأوسع معانيها ، ولقد بدأت أوربا بعد أن ضلت الطريق تعمل لهذه الغاية التى عمل لها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً من الزمان .

ووضع القرآن صلة الإنسان بربه ، وشرع له العبادات والطاعات التى تقربه إلى الله ، كما وضع النظم المثلث التى تسير عليها الأسرة والمجتمع والامة والإنسانية لخير الحياة والحضارة والبشرية والناس كافة .

وهكذا غرس محمد صلوات الله عليه يديه الكريمتين شجرة الحرية والتعاون والزمانة الإنسانية والمساواة والأخاء ، ووضع أساس حضارة روحية من أعظم الحضارات التى شهدتها التاريخ ، وعاش فى ظلها العالم أجيالاً وقروناً ينعمون بعلمها وحكمتها ، ويُعَدُّون أنفسهم بمبادئها وأفكارها وثقافتها ، ويشاهدون آثارها الخالدة فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والآداب والفنون .

وهل الحضارة إلا آثار الرقى الإنسانى ، ومظاهر التقدم البشرى فى شتى نواحي الحياة ؟

وإذا قست ذلك بآثار محمد ورسالته فى الحياة على الناس والإنسانية كافة ، وجدت أياديه العظيمة ، لا يكاد يعيها العد ، وتنوء الحياة بدنين محمد الفادح عليها ، ويهتُ الفكر حين يجد أن هذا الإي العربى قد بَدَّلَ سَيْرَ التاريخ ،

وحول مجرى الحضارة ، ويقف العقل والبيان حائرين لا يدريان كيف يشكران فضل هذا الرسول العظيم .

إن ميلاد محمد ميلاد الحضارة ، وبحق ما أقول ؛ فلم تكن الحضارات القديمة : من صينية ، وهندية ، وفارسية ، وفرعونية ، وإغريقية ، ورومانية إلا جساماً خالياً من الروح ، وبدء نواة الحركة التقدم والرقى الإنسانى ، فالتقدم فى ناحية يقابله ضعف غريب فى نواح ، فالمرأة فى الحضارة الرومانية كالرقيق تباع وتشترى ، والحاكم فى شتى هذه الحضارات هو المالك للدولة ، ومرافقها ، ومواردها وللرعية نفسها ، حتى لقد قال ملك مصر : « أنا ربكم الأعلى » ؛ على أن هذه الحضارات مع ما قامت عليه من شتى المبادئ والاسس والنظم الخاطئة ، لم تستطع أن تحارب الجهل والفقر والهمجية والوثنية إلا فى بقع صغيرة محدودة ، أما أغلب أرجاء العالم فكانت تعيش فى ظلام دامس ، وضلال شامل ، وخوف مفرع ، وفقر مدقع ، ووحشية قاسية ، وفى ظل تقاليد وعادات ونظم شبيهة بشرعية الإنسان الأول ، الذى لم يعرف للحياة معنى ، ولا للثقافة والعدل والحرية قيمة . أما الحضارة الإسلامية التى غرسها محمد ، فقد نظمت الحياة فى كل ناحية من نواحيها ، وهذبها ، وسارت بالإنسانية إلى غاياتها النبيلة ، ومثلها الرفيعة ، وحررت الفكر الإنسانى من قيوده وأوهامه . وامتازت بروحانياتها المشرقة ، وإيمانها المطلق بمبادئ الخير ، واشترأ كيتها العادلة التى جعلت الفقير أخاً للغنى والغنى أخاً للفقير ، والتى ساوت بين شتى الطبقات والجماعات والعناصر .

فأين هذا من حضارة الغرب التى حاربت الحق والعدل ، وجعلت بعض الشعوب قواماً على الآخرين ، ونشرت أفكار الاستعمار والآثرة والانانية ، وعددت ألوان الخصومات والخلافات بين الناس ، وأشقت الإنسانية بما افتنت فيه من ابتكار وسائل التدمير والإهلاك ، وبما سارت عليه من شتى الحروب المروعة كل حين على نظام لم تر العين أفظع منه ؟

وأين هذا من حضارة الغرب بمبادئها الظالمة وتفرقتها بين الألوان والأجناس ، وقتلها للشعوب المتأخرة أدبياً ومادياً وروحياً ، لتبقى إلى الأبد مستعمرة ذليلة ؟ اللهم إن محمداً قد شرع للحياة والحضارة والإنسانية أعظم ما عرف من نظم ، وأسعى ما شوهد من تشريع ، ولكن الناس ضلوا سبيلك ، وكفروا بدينك ، وآثروا متعة اليوم على سعادة الأبد .

قوانين الفكر الضرورية

لحضرة الأستاذ سعيد زايد

الفكر هو أجل موهبة وهبنا الله إياها، والذي به يمتاز الانسان عن غيره من أنواع الحيوان، وهو الذى تتشكل به حياة الانسان فى جميع نواحيها العلمية والعملية، ولقد قال علماء النفس: إن التفكير فى الانسان طبيعى كالغريزة. ولكن ليس معنى هذا أنه متساو فى جميع الافراد والجماعات؛ فهو يختلف تبعاً لاختلاف درجة التدين والحضارة.

والفكر هو العمل العقلى الذى به نكتسب العلم. والغرض الاسمى من التفكير هو الوصول إلى الحقيقة بطريقة منطقية، والمنطق كما هو معروف عبارة عن مجموعة قواعد، مثل: قواعد الرياضات، ولذلك أفرغ علماء المنطق تلك القواعد فى مجموعة أبسط منها، وسموها بالقوانين الأساسية أو الضرورية للتفكير، وهى عبارة عن ثلاثة قوانين سنتكلم عنها فيما يلى

١ - قانون الذاتية

ويمكن وصفه فى عبارة داهى ا، أى أنه أئدام لإثبات أى برهان نستعمل كل لفظ فى معنى واحد لا يتغير، ومن هنا جاءت تسمية العرب له بقانون دالوهوية. ولكن لا توجد هناك أدنى صعوبة فى فهم قضايا مثل داهى ا، أو د ب هى ب، ومثل هذه القضايا لا يفيد حكماً على الإطلاق؛ لأنه إذا كان معنى داهى ا، عدم وجود اختلافات مطلقة بين جانبي هذا الحكم، فهذا لا يفيدنا بشيء ما، ويجب ألا نقبله بحال، فهو كما يقول العلامة هيغل - بحق - مخالف لشكل الحكم وذلك لأنه يعنى أنه يقول شيئاً، وهو فى الحقيقة لا يقول شيئاً ما. وفى الواقع أنه لا يثبت الذاتية

لأن الذاتية إذا خلت من عناصر الاختلاف ، فلا يكون لها معنى على الإطلاق ، فلا يمكن أن نقول عن شيء أنه هو شيء آخر ، فلا بد إذن من وجود عناصر تغير في نفس هذا الشيء ، أو أن نبحث فيه من ناحية اختلاف خاصة ، وبناء عليه استبدلت الصورة التي وضعها العلامة لينتز ، والتي أشرنا إليها قبلا وهي « ا هـ ا » ، بصورة أخرى هي « ا هـ ب » ، وهي التي يستعملها أغلب المناطق ، فنقول مثلا « الذهب أصفر » ، ولا نغني بهذا أن كل الأشياء التي تحمل اللون الأصفر تسمى ذهبا ، ولا نغني كذلك أن الذهب هو كل أصفر . والمراد بعبارة « ا هـ ا » هي أن ففهم « ا » على أنها قضية أو حذله مفهوم ، ويحسن أن نفس هذه العبارة باعتبار تطبيقها على حدود قضية ، فالإنسان إذا فكر في شيء ما ، إما أن يكون هذا الشيء متميزاً عن شيء آخر أو مشتركاً معه في بعض الصفات ، وفي حالة اشتراكه في جميع الصفات لابد أن يختلف عنه في صفتي الزمانية والمكانية ، فالذاتية الخاصة لا توجد إذن بل توجد هناك أشياء متشابهة في بعض الصفات أو جميعها ما عدا صفتي الزمانية والمكانية ، وهما اللتان يعول عليهما في التفرقة بين الشيئين .

والذاتية في الحكم تعني أنه إذا كانت القضية صادقة ، ظلت على الدوام صادقة ، وإذا كانت كاذبة ظلت على الدوام كاذبة ؛ فقولى مثلا إن طربوشى لونه أحر ، لا يمكن أن يأتى يوم يكون طربوشى فيه أبيضاً ، وذاتية الحكم هو المعتبر عند جمهور المناطق الحديثة . ولقد قال العلامة برادلى « إنه إذا صدق الحكم ظل على الدوام صادقا ، وإذا كذب ظل على الدوام كاذبا ، فإن الحقيقة مستقلة ليست عنى فحسب ؛ بل عن كل تغير وكل أمر عرضى ، وليس فى الإمكان أن نحدث أى تغير فى الزمان أو فى المكان تغيراً فى صدق أو كذب الحكم ،

فالحكم فى القضية يشير إلى حقيقة من الحقائق ، وهو إما أن يكون صادقا أو كاذبا ، ومحتويات هذا الحكم تكون ثابتة غير متغيرة ؛ لأنه يتضمن الحقيقة ، فيصبح بذلك تفكيرنا صحيح ، ويكون قانون الذاتية مبدأ أساسيا للنطق الذى هو علم التفكير الصحيح . وإذا داخلنا الشك فى صحة خطوة واحدة من خطوات التفكير ؛ فإن محتويات هذا الحكم تتغير ، وعليه فإنه يمكن القول إنه لا يمكن التسليم بحكم وإنكاره فى وقت واحد ، أو إنه لا يمكننا إثبات حكم ونفيه فى آن

واحد ، وإذا قلنا كذلك نكون قد عبرنا عن قانون الذاتية بقانون التناقض ، هذان القانونان المتكاملان الذى يعبر أحدهما عن الناحية الإيجابية من القضية ، والثانى عن الناحية السلبية ، الأول ينص على أنه إذا كان الحكم صادقا ، كان صادقا وإذا كان كاذبا كان كاذبا ، والثانى ينص على أنه لا يمكن أن يكون الحكم صادقا وكاذبا فى آن واحد ، فالمعنيان متكاملان إذا خطر ببال الانسان المعنى الاول ؛ خطر بباله المعنى الآخر أيضا .

ولقد قال العلامة د سيجوارت ، : إنه من الأفضل أن نعرف هذا القانون بأنه القائل بوحدة الحكم فى القضية ، أى أن الحقيقة شىء واحد ثابت لا يتغير . ويرى العالم د ميل ، أن الحقيقة الواحدة يمكن أن يعبر عنها بعبارة مختلفة ، ويقول فى ذلك عبارته المشهورة : إن الحقيقة التى تبدو فى عبارة ما ، هى نفس الحقيقة التى تبدو فى عبارة غيرها تحمل نفس المعنى ،

وميل بعبارته هذه يؤكد الناحية اللغوية من القضية ، فلا عبرة عنده بالألفاظ ، فالحقيقة الواحدة يمكن التعبير عنها بعبارات مختلفة فى لغات مختلفة .

٢ — قانون التناقض .

وهذا القانون يشرح العلاقة بين حكمين ، لا يصدقان معاً ، ولا يكذبان معاً ، أو على الأصح إن هذا القانون يقرر العلاقة بين حكمين لا يصدقان معاً ، لأن الذى يقرر العلاقة بين حكمين لا يكذبان معاً هو قانون الامتناع . وقانون التناقض فى تقريره العلاقة بين حكمين لا يصدقان معاً يكون دقيقاً وقريباً جداً من طبيعة الفكر ، لأنه لا يثبت شيئاً إلا إذا صاحب هذا الإثبات إنكار شىء آخر . أى أن الشئ لا يكون موجوداً ولا موجوداً فى آن واحد ، أو أن محمداً لا يكون موجوداً ولا موجود فى وقت واحد ، فإذا كان موجوداً فى الحجرة مثلاً ، لابد أن يكون غير موجود فى الشارع ، وقلنا فى وقت واحد ، تدل أكبر دليل على أن التناقض لا يكون تناقضاً بالمعنى الصحيح إلا إذا اتحد الموضوع والزمن فى القضيتين . ويقول العلامة د هاملتون ، إن قانون التناقض هو أساس النفي المنطقي ، وذلك لأنه استعمله ، وأراد أن يظهر به أهمية النفي ، ويجعل هذا العلامة قانون التناقض ضرورياً بجانب قانون الذاتيه ؛ لأنه يعصم الذهن من الوقوع فى الخطأ ، ويقول إن إنكار

قانون التناقض هو سبيل الوقوع في الخطأ . ويقول العلامة « سيجوارت » ، إن قانون التناقض - ولو أنه يقول إن القضيتين المتناقضتين لا تصدقان معا - يصدق في القضية الواحدة ، مثال ذلك | لا يمكن أن تكون لا | في القضية الواحدة إلا إذا نظرنا إليها من ناحية أنها تخالف | .

وقال العلامة ميل : إن هذا القانون مكتسب من التجربة لأنه يعتقد أن النفي والإثبات حالتان تتوالدان في العقل من التجارب والملاحظات ، فالإنسان مثلاً يشاهد في تجاربه الشيء ونقيضه أو ضده ، فهو يشاهد النور والظلمة أى لا يدرك النور إلا إذا أدرك الظلمة ، ولا يدرك الغنى إلا إذا أدرك الفقر ، أى أنه يدرك الأمور الإيجابية والسلبية ، وبهذا الإدراك يكون فكرة عن المتناقضات وهى ما يسميها ميل بقانون التناقض .

إلا أن الأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفى يرى أن فى رأى العلامة ميل هذا شيئاً من الضعف أو الخطأ ويوجه إليه اعتراضين .

الاول : إذا سلمنا مع ميل بأن أساس قانون التناقض قائم على طبيعة الحكم ، فبما أن غاية كل حكم هى الوصول إلى الحقيقة والصدق ، وتأيد صدق القضية يتطلب نفي نقيض لها ، يترتب على ذلك أن نكون قد خرجنا بالنفي والإثبات من عملية عقلية بسيطة دون وجود أى تعميم ألبته .

الثانى : وله ناحيتان ، أولاً كون العقل - معتمداً على الخبر - لا يدرك الشيء إلا إذا أدرك نقيضه ، هذه مسألة من مسائل علم النفس . ثانياً : أن ميل قد خلط بين قوله إن العقل لا يستطيع ادراك النور إلا إذا أدرك الظلمة ، وبين قوله إنه لا يمكن أن تكون الحجرة مضيئة ومظلمة فى وقت واحد .

٣ — قانون الامتناع :

وهو الذى يقول : إن القضيتين المتناقضتين لا تكذبان معا ، ولما كان قانون التناقض يقول : إن القضيتين المتناقضتين لا تصدقان معا ، فإنه يظهر من ذلك أن القانونين متكاملان .

وهذا القانون يمنع وجود حد وسط بين حدين متناقضين؛ فمثلا أبيض ولا أبيض لا يوجد بينهما حد وسط، فالقضية إما أن تكون صادقة أو كاذبة ولا يوجد حد وسط بينهما.

وينظر العلامة «سيجوارت» إلى قانون الامتناع، كقانون يعتمد على قانون التناقض، وقانون النفي الثنائي الذي يتحول إن نفي النفي لإثبات، فانكارنا لنفي محمول ما عن موضوع ذلك المحمول يساوى إثبات هذا المحمول نفسه لهذا الموضوع نفسه والاستنتاج يتبع كالاتي :

١. التي تساوى ب هي ح، آ التي تساوى ب هي ح.

فقانون التناقض يقول: بكذب إحدى هاتين القضيتين، لاننا نرى أنه في حالة إثبات القضية الأولى إنكار للثانية، وفي حالة إثبات الثانية إنكار للأولى. وحسب قانون الامتناع نرى أنه في حالة إنكار القضية الأولى إثبات للثانية، وفي حالة إنكار الثانية إثبات للأولى. وهذه الحالة الأخيرة تتبع قانون النفي المزدوج. وهنا يظهر مبدأ العلامة «سيجوارت» للنفي المزدوج بوضوح هذا المبدأ الذي يبدو أثره واضحا في استنتاج قانون الامتناع.

ولكن بعد كل الذي ذكرنا، نريد أن نتساءل، هل من ضرورة لقانون الامتناع؟ ادعى بعض المناطقة عدم ضرورة هذا القانون للأسباب الآتية :

١ — إنهم خلطوا بين النقيضين والضدين، فقالوا: إن هناك حد وسط بين أكبر وأصغر، وهذا مسلم به في قانون الامتناع ولكن الذي لا يمكن أن نسلم به هو وجود حد وسط بين أكبر ولا أكبر، فهم لم يدركوا العلاقة بين أكبر وأصغر، هل هي علاقة تضاد أم هي علاقة تناقض. ولهذا السبب ينهب العلاقة «هاملتون» إلى أن القضيتين المتناقضتين يجب أن تتقابل في الكم والكيف معا، وليس في الكم فقط حتى تتلافى الأخطاء والاختلاط الذي طالمنا يوقعنا فيه قانون الامتناع.

٢ — بلغ بهم أنهم توهموا وجود حد وسط بين النقيضين، كأن نقول مثلا في حالة طالب، إنه راسب أو غير راسب قبل ظهور النتيجة وحكمها على الطالب

بالرسوب أو غير الرسوب ، ولكن ظهور النتيجة ليس له أى علاقة ، فراسب وغير راسب لا يوجد بينهما حد وسط .

٣ — قد يقع لبهام فى اللغة نفسها ، فيخيل أن لفظين من الالفاظ متناقضين فى حين أنهما غير متناقضين ؛ فثلا أبيض ، ولا أبيض أحيانا نفهم أن لا أبيض معناها أسود ، فيوجد حد وسط بينهما ، أما أبيض ولا أبيض فلا يوجد بينهما حد وسط مطلقا .

يتبين إذن أنه يجب أن تفرق بين المتضادات والمتناقضات لمنع الوقوع فى الخطأ . بقى أن نقول : إن العلامة ميل يقول : إن قانون الامتناع لا يتحقق إلا فى حالة واحدة ، وهى الحالة التى يكون فيها الحمل معقولا ، فاذا لم يكن معقولا ؛ كقولى الفضيلة تتمدد بالحرارة مثلا فان قانون الامتناع لا يسرى .

وبعد فهذا عرض مختصر لقوانين الفكر الأساسية أو الضرورية ، يظهر منه أنها مترابطة تمام الترابط ، أى لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر بأى حال من الاحوال ، فقانون الذاتية ، وقانون التناقض متكاملان ، لا يفهم أحدهما بدون الآخر ، ويمكن النظر إليهما باعتبارهما حالتى الإثبات والنفي لقضية واحدة ، وقانون التناقض والامتناع ، يكمل أحدهما الآخر أيضاً أى أن هذه القوانين الثلاثة متكاملة .

وأخيراً يتبين من عرضنا أن هذه القوانين أساسية لدرجة أننا لا نستطيع أن نخطو أى خطوة فى التفكير بدون افتراض صحتها ، ولقد اعتبرها بعض المناطق أساساً لكل استدلال منطقي ، وتظهر قيمتها فى الاستدلال الآتى ، وهو الحكم على الكلى بالحكم على الجزئ ، مثل قولنا : كل إنسان فان ، ومحمد إنسان إذن محمد فان . فالإنسان حد وسط نستطيع بالحكم عليه بالفناء الحكم على محمد بالفناء . وكلمة الإنسان ، يجب أن تكون هى فى كلتا الحالتين ، ولو كانت بالقضية الأولى غيرها فى الثانية لا يصح الاستدلال ، مثل قولنا : كل معدن عنصر بسيط ، والنحاس الأصفر معدن ، إذن النحاس الأصفر عنصر بسيط . فهذا خطأ لأن معدن فى المقدمة الأولى ليست معدن فى المقدمة الثانية ؟

محاضرات في الأزهري الشريف

ألقاها داعي الدعاة مناظراً أبا العلاء المعري منذ ألف عام

لحضرة الاستاذ محمد حسن الاعظمي

عميد كلية اللغة العربية

بكراتشي — الباكستان

إن المتتبع لتاريخ الفاطميين لشهره من بين الشخصيات الكبرى تلك العبقريّة الفذة، التي تصور لنا المؤيد الشيرازي داعي دعاة الفاطميين . فنحن أمام رجل أقام أكثر حياته، وأنفق زهرة شبابه بإيران، فإذا بذلك الرجل نفسه يكتب بالعربية؛ كأحسن ما جادت به قرائح أبنائها: من أدب راق، وبيان ساحر، وأسلوب ممتع .

لقد حلّق الشيرازي في أفق سام من البلاغة، ولم ينحدر عن ذلك الأفق، ولم نر له كبوة تعثر فيها جواد قلبه، بل رأيناه في كل مواقفه، قوى المراس شديد النضال، ووجدناه في كل مناظراته سليم الحجة يأخذ أفواه الطريق على خصومه فلا يترك لهم فجوة يتخلصون منها . وتجوّلنا معه في سيرته التي كتبها، فلبسنا فيه الجرأة والعزيمة والنفس القوية وأنه ليغشى مجالس الملوك والوزراء فلا تبدونه رعيّة التيهب ولا استسلام الرجل . ثم تغرب عن دياره فما راحته الغربية ولا أسلمته إلى سكينه وخشوع . وألقى محاضراته بالأزهر ودار الحكمة وسجلها فوصلت إلينا بعد أن خلصت من عبث العصور المتقلّبة، فإذا بنا نسمع في لغة الشيرازي بيان أروع الكتاب في بغداد والاندلس . وقبل أن نقدم للقارئ نموذجاً من محاضراته التي تبلغ ثمانمائة، نحب ألا يفوتنا تقديمه شاعراً، ولكن لا يسعنا اليوم الخوض في شعره وقصائده، فإن له ديواناً يأتي الكلام عنه في فرصة أخرى، ونحن نحتزم ببضعة أبيات بعث بها إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، لما عمل

بعض الحساد على احتجاج الخليفة عنه أثناء قدومه إلى مصر، وإجابة المستنصر بالله الخليفة الفاطمي بضعف عدد أبياته، وإجابة المستنصر بخطه على هذه الصورة فتبين لنا ما كان يتمتع به الشيرازي من المنزلة العالية والقدر الرفيع . وإليك الآيات وجوابها .

كتب المؤيد الشيرازي :

أقسم لو أنك توجستني	بتساج كسرى ملك المشرق
وأنتلني ^(١) كل أمور الوري	من قد مضى منهم ومن قد بقي
وقلت أن لا نلتقي ساعة	أجبت يامولاي أن نلتقي
لأن إبعادك لي ساعة	شيب فودي مع المفرق

فأجاب المستنصر بالله بخطه :

ياحجة مشهورة في الوري	وطود علم أعجز المرتقى
ما غلقت دونك أبوابنا	إلا لأمر مؤلم مقلق
ولا حجبناك ملا لافثق	بودنا وارجع إلى الأليق
خفنا على قلبك من سمعه	فصدنا صدأ أب مشفق
شيعتنا قد عدموا رشدهم	في الغرب يا صاح وفي المشرق
فانشر لهم ما شئت من علمنا	وكن لهم كالوالد المشفق
إن كنت في دعوتنا آخراً	فقد تجاوزت مدى السبق
مثلك لا يوجد فيمن مضى	من سائر الناس ولا من بقي

أما محاضراته فإننا سنقدم منها المحاضرة الأولى بنصها ، وكذلك بعض المحاضرات الأخرى بعد حذف مقدمة الحمد والثناء ومنها تبين كيف كان اعتداد الرجل بقيمة العقل ، كما نستدل على أن هذا المذهب لا يعترف بوجود الاستعارات والمجازات في القرآن . وقد أثبت هذه المسألة في عصور مختلفة تناولها أصحاب المطولات في علوم البلاغة والبيان ؛ وليس مقصدنا من نشر هذه المحاضرات إلا تقديم أمثلة للأدب والعلم في عصر من العصور التاريخية في مصر ، ويحسن بنا قبل

(١) في النسخة الخطية : ولنتني ،

ذلك التنويه ، بأن للشيرازي مؤلفات أخرى عدا سيرته وديوانه ومحاضراته ، منها : كتاب الابتداء والانتها ، وكتاب المسألة والجواب ، وكتاب نهج العبادة ، وشرح المعاد ، والمسائل السبعون ، ونهج الهداية للمهتدين ، وأساس التأويل بالفارسية ، والسبع السبع ، والإيضاح والتبصير في فضل يوم القدير - وتأويل الأرواح ، والمجالس المستنصرية . وقد لاحظنا أن هذه المحاضرات القصيرة ، إنما كانت ملخصاً لدروس طويلة فيما يظهر ؛ فلعله كان يكتبها بعد إلقاء الدرس وتفهمه على سبيل التسجيل والحفظ ؛ لنسكت هامة لينتفع القارئ ، كما استفاد السامع . ونرجو أن نوالى نشر أمثلة من محاضراته :

الحمد لله الذي نظم بين الإنسان والبهائم أن خلقهم من طين ، ثم جعل نسلهما من ماء مهين ، ثم اقتضت العناية الإلهية أن رعى في أخلاط الصورة الإنسانية من إكسير العقل بلغة أهل صنعة الكيمياء ، ما عرج به أعلا المعارج من الفضل والعلواء ، فصار بمن قال الله سبحانه فيه - ومن أصدق منه قبيلاً - ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ، فاستنزل بتدبيره الطير من الهواء واستخلص الحدث من لج الماء واستعبد أجناس الحيوان طيراً وبهائم وسباعاً ، فمنها ما انتفع بلحومها ، ومنها ما استمتع بجلودها وأصوافها وأوبارها استمتاعاً ، وجعل الفلك المحيط على عظم فضائه محصوراً في سرادق فكره ، بدل كون جسمه بالكون والفساد محصوراً في سرادق ملكته وأسره ، فهذا منقوعه الذي نفعه الله به في الدار الأولى ، ثم جعله سلماً يرتقى به إلى دائم البقاء في الدار الآخرة ، فلولاً نور استبصاره بالعقل ، لما كانت رسالة عن مرسل تقبل ، ولا أمر عن مرسل يؤخذ ويتحمل ، ولا نفس بمعرفة توحيد الله سبحانه ترتسم وتثير ، ولا لسان بمعارف الآخرة بين اللهوات يدور . وصلى الله على محمد خير رسول ؛ استنار بنور سراجته ، وسار على واضح منهاجته ، وعلى وصيه الذي عرج به من أفق المجد إلى أعلا معراجته ، وعلى آله الداعين إلى عذب المشرب وفراثة ، الناهين عن ملحه وأجاجه .

معشر المؤمنين : جعلكم الله ممن استنارت بنور العقل قلوبهم ، وتجاخت عن مضاجع الجهل جنوبهم ، إن قوماً من الآخذين الدين بالعبادات ، والجارين فيه

على آثار الوالدين والوالدات ، زعموا أن شرائع الأنبياء عليهم السلام التي هي أسباب النجاة ، والطريق إلى دائم الحياة على غير العقل موضوعها . وفي سوى موقعه وقوعها ، فلو أنهم أنعموا النظر ، وجردوا من شوب العصبية والهوى الفكر ، لعلوا أن أحدهم لو قيل له في شيء من خاصة أعماله ، وما يصدر عنه من أقواله وأفعاله ، إن فعلك هذا على غير أساس العقل موضوعه ، ولا من مطالعته طلوعه ، لاشتشاط من ذلك غضبا ، ولقام له مكذبا ، وفي مثل هذه المواجهة مستذنا ، فكيف يرضون للأنبياء الذين هم سادات دينهم ، والوسائط بينهم وبين ربهم ما لو قابلهم بمثله مقابل لكرهوه . أم كيف لا يعتبرون أن الخطاب في كتاب الله كله مع أولى الألباب بقول الله تعالى : « فاتقوا الله يا أولى الألباب ، وقوله : إن في ذلك لذكرى لأولى الألباب ، وما يجرى مجراه مما كثر وتكرر ، وليس يخلو من كون هذه الأوضاع الشرعية ، ليس لها برهان من العقل عند الرسول عليه السلام ، الآتي بها نفسه أو كون البرهان عنده ، فلم يشعر به ، فإن كان لا برهان لها عنده فهو فحش ؛ فلو أن سائلا سأله عن العلة التي اقتضت أن يجعل الصلاة خمسا ، ولا يجعلها سنا ، فكان يقول لا أدري ، لكفاه طعنا أن يأتي بشيء لا يدري العلة فيه إذا سئل عنها ، وإن كان لها برهان عند نفسه عقلي - والبرهان مما يجمل الأقوال والأفعال - ثم لم يظهره فلم يقيم إذن بحق البلاغ ، وهذا منتف عن الرسول عليه السلام ، لانه بلغ وقال في النادى : « اللهم اشهد انى بلغت ، وسوى هذا فعلوم أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكلف تكليف الشريعة إلا ذا عقل ، فكيف يكلف ذا عقل ما كان موضوعه على غير عقل ، لأن ما كان موضوعه على غير عقل ، فهو بغير ذى عقل أولى منه بذى عقل ، وما السبب في تولية العقل أولا وعزله آخرا ؟ ولما لا تكون التولية آخرا ككونها أولا ، أو العزل أولا ككونه آخرا ؟ وهذا بما لا خفاء به على منصف .

والمعلوم أن الفلاسفة يدعون العلوم العقلية والأمور الحقيقية ، وأن المسلمين يكفرونهم مع ذلك ، لانقطاعهم عن سبب الرسالة ، وقولهم أنهم غنوا عن الأنبياء في معرفة معالم نجاتهم ، وأن الحاجة اليهم لسياسة أمور الدنيا فقط ، بتحسين الدماء والأموال ، ومنع القوى عن الضعيف . واعتقاد المحققين أن العلوم كلها التي منها

العقليات التي يدعونها في علوم الانبياء اجتمعت، ومنها تشعبت وتفرعت ، وتصدىقتهم قول الله سبحانه « ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين » وقوله جل جلاله « ما فرطنا في الكتاب من شيء » فلو أن أحد الفلاسفة قدم على الرسول عليه الصلاة والسلام ، يسأله عن الملائكة ، والعرش ، والكرسى ، والجنة ، والنار ، وأوضاع شريعته : من صلاتها ، وزكاتها ، وصومها ، وحجها ، وجهادها ، من حيث يدل عليه البرهان العقلي ، أكان يقول النبي صلى الله عليه وسلم ، لا قبل لي ببرهان ذلك ! حاشا لله . وقول آخر مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم إنه قال « أول ما خلق الله تعالى العقل ، فقال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال : وعزني وجلالي ما خلقت خلقا أجل منك ، بك أثيب ، وبك أعاقب ، فإن كانت الشرائع على غير العقل موضوعها فلا ثواب لها ، ولا عقاب على مقتضى الخير » بك أثيب وبك أعاقب .

معشر المؤمنين : دعوا أهل الفرقة والخلاف ، فإنهم أشياخ غي بقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء » . وتمسكوا في دينكم بالأدلة ، واعرفوا المواقيت بالأهلة ، وأصلحوا أموالكم ، وطهروا سربالكم ، واحمدوا الله تعالى الذي فتح لكم الى الحقائق أبصارا والناس عنها عميون ، وكشف لكم حجبا فأنتم في رياضها تنعمون ، واجروا في مضمار التائبين العابدين ، واستشعروا شعار الراكعين الساجدين ، وكونوا دعاة الى أئمتكم بحسن الأفعال صامتين ، وقوموا أناء الليل قانتين . جعلكم الله من الذين اذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وأوزعكم شكر عارفه ، إذ ألف بين قلوبكم ؛ فأصبحتم بنعمته اخوانا ، والحمد لله القاهر سلطانه ، الباهر برهانه ، العظيم شأنه ، الواسع احسانه ، وصلى الله على محمد المنزل عليه فرقانه ، المزلزل للشرك بنيانه ، وعلى وصيه الذي هو مستودع علمه وترجمانه على بن أبي طالب بيده يد الحق ، والناطق بلسانه لسانه ، وعلى الأئمة من ذريته المحفوظة بهم حدود الدين وأركانه وسلم تسليما ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ؟

محمد رسول الله

لفضيلة الاستاذ الشيخ عبد العزيز السيد موسى

« محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، سيأثم في وجوههم من أثر السجود . » .
تذكرت هذه الآية ، وما توحى به من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم . مع جماعة المؤمنين بأنهم أشداء أقوياء على عدوهم ، لا يعرفون في مغالبتهم هودة ، ولا يتسرب الى قلوبهم من جراء ذلك رافة ولا رحمة ، لأن ذلك هو الحق ، ولا تأخذهم في الحق لومة لائم ، وأنهم فيما بينهم لا يعرفون غير الرحمة بأكمل معناها وأجلى مظهر لها ، وهي ضاللتهم المنشودة وغايتهم المرجوة ، وأنهم لا يعرفون فتوراً في طاعة الله ، وتنفيذ أوامر ربهم الكريم وخالقهم العظيم ؛ يتمثل لك ذلك في ركوعهم وسجودهم لله وحده ، وأنهم لا يقصدون من وراء ذلك غير الفضل والرضوان والرحمة والغفران ، وأنتك تعرفهم من غير عناء ولا تعب ، تعرفهم بما وضع الله في وجوههم من نور جسام الله به من أثر السجود الذي كان لله خالصاً . وفيهم يقول الله تعالى « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم » .

« لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم من أنفسهم رسولا ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين . » .
فهذه الآية الكريمة تصور لنا أنه من الله كريمة ، وعطية منه عظيمة ، وأشعرتنا بأنه من المؤمنين ، وأن المؤمنين منه ، وأنه جاء لهدايتهم وإرشادهم

ولإنقاذهم مما هم فيه من الشرك والوثنية « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » .

وهذه الآية تحدثنا بأنه مصدر الرأفة والرحمة لجماعة المؤمنين ، وأنه شديد الحرص على ما يهمهم ، وما يعينهم وما يعود عليهم بالنفع العام ، ويعن عليه أن ينال أحداً من المؤمنين شيئاً من العنت وما يشق عليهم من العمل .

« يأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ، ولا تقطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم ، وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلاً » .

وإن هذه الآية تعطيك صورة عن مقدار قربه من الله العلي القدير ، وأن الله يناديه بلقب يدل على سموه وعلو منزلته ، ويبين له مهمته التي أرسل لأجلها من الدعوة إلى الله والبشارة السارة التي يحملها لجماعة المؤمنين ، وأن يتجه في مهمته اتجاهها حقاً ، ولا يسمع لأعدائها قولاً ، ولا يحفل بما يكيدون له من الأذى ، وعليه أن يترك الأمر لمولاه الذي أحاطه بعنايته الربانية . والله نعم الوكيل .

« قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً » .

وبهذه الآية تذكرت رسالته العامة ودعوته الشاملة ، وأنه أرسل إلى الناس كافة صلوات الله وسلامه عليه ، وأن الله اختصه بذلك عن جميع الرسل ، فإن الرسول كان يرسل إلى قومه خاصة ، وذلك فضل عظيم وامتنياز خاص لم ينله أحد سواه . وحسبه قول الله له « وكان فضل الله عليك عظيماً » . وكان صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » فلا رسالة بعد رسالته ، ولا نبوة بعد نبوته ، ولا هداية بعد هدايته ؟

ذكرى ميلاد الرسول ﷺ

لفضيلة الاستاذ الشيخ المنشاوى عبود الخولى
المدرس بمعهد القاهرة

تعنى الامم بتكريم عظمائها لانهم اعلام هدايتها وبناء مجدها ومصدر عزها وهناءتها . وإذا نظرنا الى رسولنا الاعظم وجدناه فارس هذه الحلقة وسابقها المجلى . فقد وصل الى غاية تقصر عنها الهمم ، وتنقطع دونها العزائم . فهو فى الإصلاح أرسخ قدما ، وأرفع شأنأ ؛ وفى الهداية أنبل قصداً ، وأجل أثراً . وليس هديه مقصوراً على طائفة محدودة أو أمة معدودة ، بل أهدها إلى العالم بأسره ، وصار للإنسانية رباناً ماهراً ، وقائداً حازماً ، وراعياً رحيماً ، وملاذاً حصيناً . فلم يكن فضله عليه السلام خاصاً بمن كملت آدميته باتباعه ، بل شمل أيضاً من حرم شرف الانتساب اليه . لذا كان الواجب أن يكون الاحتفال بمولده عالمياً ، يقف الكل فيه من واهب الجليل موقف الحمد والوفاء ، ماداموا قد عجزوا عن المكافأة والجزاء .

هو النبي الذى لولا هدايته لكان أعلم من فى الارض كالهَمَج

فليس المسلمون فى حاجة إلى أن يجهدوا أنفسهم فى الاستدلال على رسالة نبيهم ، بل عليهم أن يوجهوا الأذهان فقط الى ما تركه من الهدى القيم والأثر الخالد ، حيث خلص العالم من شر مستطير وضلال بعيد ، ونشر تعالىمه فى قوم متخاذلين متناحرين ، بأسهم بينهم شديد ، حجبت عنهم أنوار المعرفة ، وغابت شمس الهداية فجعل منهم فى أقل من ربع قرن دولة متينة متماسكة البناء ، مرهوبة السلطان ، وصار رجالها قادة العالم وسادة الشعوب ، وتنافس ملوك الارض فى التزلف

لحكامها ، ومنعها القرآن وسام الشرف والخلود حيث قال تنوياً بشأنها :
« كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

إن هذا الانقلاب الفذ ، والتطور الاجتماعى الهائل هو آية كبرى ، ومعجزة باهرة ، وما كان ليحدث فى عدة قرون لو اجتمع عليه فلاسفة العالم « ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » .

تكفى نظرة عابرة للماضى القريب الذى سبق وجوده عليه السلام ؛ فقد كانت خريطة الدنيا مشوهة الصورة ، ممسوخة الخلق ، متباينة الوضع ، منطمسة المعالم ، وكان أهلها أجساماً دامية ، وأشلاء ممزقة ، وأشباحاً بالية ، وأعجازاً خاوية ؛ قبض على ناصية الحكم بينهم دولتان غاشمتان : دولة الفرس ودولة الروم ، اغتصب ملوكهما سلطان العالم ، وقتلوا مشيئة الأمم ، وسلبوا إرادتها ، وسخروها فى أغراضهم الآثمة ، وشهواتهم الدافقة ، وفرضوا عليها من الضرائب ما أثقل كاهلها ، وجعلها ترسف فى أغلا الذل والاستعباد ، تئن فلا تجد سميعاً ، وتستصرخ فلا تلقى مغيثاً ، وحجبوا عنها نور العلم مخافة أن يبصرها بحقوقها ، فقتلت فيها نار الثورة على ساداتها الذين لا يصفو عيشتهم إلا بأن يتخبط أتباعهم فى ظلام دامس ، وجهالة عيساء ، وذلك شأن المستعمرين فى جميع الأزمنة .

وليت الوازع الدينى كان قائماً حتى يحد من جبروت الطغاة ويرشد أولئك التعساء ، ولكن النصرانية فى ذلك العهد قد هان على الناس أمرها ، وتضاءل سلطانها ، وتحولت فى نفوس أصحابها إلى وثنية مرذولة هى أشبه ما تكون بالجاهلية الأولى ، فانتهكت الحرمات تحت ستارها ، وديست الأعراض بحجة الدفاع عنها ، وانخط البشر إلى هاوية صاروا فيها أخس من الأنعام ، فعبدوا غير خالقهم ، وقدسوا من الصور والرسوم ما تمججه الأذواق السليمة وتأباه الفطر الصافية .

برم الناس جميعاً بقسوة الحياة ، وغلت مراحل الغيظ من فواجعها التى تخلع القلوب ، وتذيبها حسرة وكدا ، فتأقوا إلى من يذهب عنهم رجسهم ، ويخلصهم من تلك الآصار التى قصمت ظهورهم ، وعظمت مواهبهم ، وجعلت عيشتهم جحياً مستعراً ، وشقاء مقبياً .

استجاب الله تضرعهم ، ورحم ضعفهم ، وأسبغ نعمته عليهم بميلاد نبيه في تلك الآونة العصيبة ، وتجلت قدرته في خلقه ، فبعث نوره الباهر من بلد أطفئت فيه مصابيح العلم ، وغاضت ينابيع المعرفة ، واصطفاه طيب العنصر نقي الجوهر ، وزوده بالخلق الماجد والكمال الفائق ، حتى يستطيع القيام بتلك المهمة الخطيرة التي ندبه الإله لها ، وعلم أنه وحده الذي يحسن أداءها والوفاء بحقها ، وإنما اختار الله نبيه من تلك البيئة التي هي أبعد البينات عن المدنية والحضارة ، ليكون ذلك معجزة كبرى ، وآية عظمى على صدق رسالته .

ولما بلغ أشده اصطفاه من يعلم حيث يجعل رسالته لزعامه العالم كله ، ونشر النور الإلهي بين أرجائه ، وبعث الحياة المسجدة في عروقه ، ليسمو إلى الاتصال بخالقه ، ويصلح لعبارة الكون واستثمار ما أودعه الله فيه من هبات وأسرار . صدع الرسول بأمر ربه ودعا القوم إلى الاعتصام بجلال الإيمان ، ليتخلصوا من أرجاس الشرك وأدران الوثنية ، ويترفعوا عن دنس الخضوع لغير الله ، وينعموا بعزة الملوك وطهارة الملائكة ، وأقام على ذلك من الدلائل ما يتفق والقطرة البشرية : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ، وأحالم إلى ما ركز في نفوسهم وما تدركه حواسهم . أصغى إليه أهل الحزم والرأى ، فبهروهم جلال حكمته ونفاذ عظمته ، فأسرعوا إلى الانضواء تحت لوائه ، والتفانى في سبيل نصرته ؛ وأما أهل الأهواء فأخذلوا إلى الأرض وجعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ، وسلطوا على النبي وأصحابه من صنوف الإيذاء ما تنفطر له القلوب وتخر الجبال هداً ، وجدوا في إيقاظ الفتن حوله وتأليب العرب عليه وتنفير الناس من دعوته ووضع العقبات في سبيلها ، وعاملوه مع أقاربه معاملة المنبوذين ، وحاصروهم حصار اقتصادياً كما يفعل اليوم في عصر هذه المدنية العاتية الطائشة .

أرجأ الرسول أمر هؤلاء الغافلين وانتقل بالدعوة إلى محيط أكثر اتساعاً وأجل إنتاجاً ، فأنبغ ثمر الإسلام ونما حزبه ، وانهارت جعجعة الباطل وارتفع صوت الحق ، فأصبح يدوى في الآفاق يوقظ راكد الشعور ويحيي ميت الهمم . فرح المؤمنون بنصر الله وعمرت قلوبهم ، فسخرُوا جوارحهم في مرضاته وصار

هواهم تبعاً لما جاء به نبيهم ، فتمنوا حياة كريمة يستمتعون فيها بعزة الإيمان ، ويخضعون لسلطان الدين ، فولى الرسول وجهه شطر المجتمع ، وأسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ، وصد عنه الأيدي الأنيعة التى تعبت بجباله ، وحطم معاول الهدم التى تقوض أركانه ، ونصب فيه ميزان العدالة ، وأعلنه قاعدة المساواة بين الأفراد ، قتل عروش الطغاة الذين كانوا يستغلون الضعفاء اعتماداً على شرف زائف وجاه موهوم . وعنى بمقومات المدنية الصالحة ؛ فبعث روح النهضة قويا جباراً قد اتسع أفقه ، وتنوعت مظاهره ، وانتظم جميع شئون الحياة ، ولم يمض غير قليل ، حتى أصبحت للمسلمين دولة فتيحة قاهرة ، تخشع لهيبتها الجبابرة ، وترهب سطوتها القياصرة والآكاسرة « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز ، هذا هو رسولنا الأكرم ، الذى كان أملاً باسمه للوجود كله ، فلهذه حكمة ورشداً وفضلاً وتبلاً ، وهؤلاء صحابته الأجداد الذين كانوا جنود الحق ، فسعد العالم بعزمهم ، وسجل لهم التاريخ أروع صفحات البطولة والإقدام . وهذا ماضينا الذى نباهى به الأمم فيعشاها جلاله ، ويبرها نوره فتتقف منه موقف الإعجاب والإكبار .

وما أحوجنا إلى أن نذكر ذلك كله فى تلك الظروف العصيبة ، فنعتصم بحبل الله ، ونستملك بهدى الرسول ، وتجتمع قلوبنا فنسعى جاهدين فى إرجاع سالف عزنا وغابر مجدنا ، ونكون جبهة قوية أمام أعداء العروبة والإسلام الذين يحاولون بين آن وآخر أن يوهنوا من عز منا ، ويفتوا فى عضدنا ، ويفتحوا ثغرة بين صفوفنا لينفذوا منها حيث يشاءون .

والله المسئول أن يجمع الشمل ، ويرأب الصدع ، ويمدنا بروح من عنده ، إنه نعم المولى ونعم النصير ؟

الحسن لا يترك

خرج الحسن البصرى وسعيد بن جبير يشيعان جنازة ، فسمع سعيد أصوات النوائح ، فهم بالانصراف إنكاراً لهذا المنكر . فقال له الحسن : إن كنت كلما رأيت قبيحاً تركت له حسناً ، أسرع ذلك فى دينك .

أدب الحديث

لفضيلة الاستاذ الشيخ كامل عجلان
المدرس بالأزهر

من حديث أبي هريرة في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت » . وأخرج الطبراني
عن أنس رضوان الله عليه أن النبي صلوات الله عليه قال « لا يبلغ العبد حقيقة
الإيمان حتى يخزن لسانه » . وأخرج ابن أبي الدنيا عن عمرو بن دينار أن رجلا
تكلم عند رسول الله فأكثر الكلام فقال له « كم دون لسانك من حجاب ؟ قال :
شفتاى وأسنانى ، فقال : أما كان في ذلك ما يرد كلامك ، ! »

ما جعل الدين على الناس من حرج في الكلام الخير والحديث المجدى ،
مادام في موضعه وعلى سنن الادب وطريق الاعتدال ، لا يخالط بالهزر أو يفسد
بالزور ، أو يجر الى ضرر ، أو يشيع الفساد ، أو يؤذى غائبا أو حاضرا . ولكن
أناسا وسعوا لأنفسهم في خلافة القول ، وأطلقوا ألسنتهم بمحرف الكلم ،
وراحوا يزوقون ويشيعون المغرى من الاخبار طمعا في أن يحمدا بما لا يحمدا
عند العقلاء : فإذا لقيك أحد منهم أو نزل في مجلس ، اندفع الحديث من فمه
وتهدر من أشداقه في استخفاف يزرى وإطالة تمل وهذر يقضى على جمال اللقاء
ويزهق روح الاجتماع بما يحتطب من قول وما يزين من أخبار ، حتى إذا قرأ
في وجهك استنكار الغرابة في قوله ، أو استعالتة أو بعده عن الواقع ،
أقسم بالله جهد أيمانه ليستهوئ التفاتك ويوقظ انتباهك ويقول ويطيل ، وقد
يعجبك قوله ، فإذا تولى سعى في حديث آخر وأخرجه على لون ثان في طراوة

جذابة، ونفذ به إلى المسامع والمجالس بين الأفراد والجماعات، وهو لا يرتد عن الثثرة، سواء في الطريق أو المقهى أو الترام أو البيت أو العمل، مع من يعرف ومن لا يعرف، ينساق في فضوله لا يفرق بين سامع وسامع ولا بين مكان ومكان، ومن الناس من يتفاسح ومنهم من يتعالم ويرضى حاجة نفسه من الثثرة والتشادق والتغريب بالسامع، وليسكن من أشد الناس مقتاً في نظر الرسول صلى الله عليه وسلم وهو القائل فيه «أبغضكم إلى الثرثارون المتفهمون»، أى المتكلمون. ولقد حذرهم وحذرنا منهم فقال «إياي والتشادق».

ومن ذا الذى لا يضيق بمن ينطلق في كلامه يطعمه تكلف الإصغاء ولا يصده الانصراف، بل يغالب ولا يدع لك أن تفهمه أو تفهم عنه، لا يقبل إلا أن يقول فتسمع وإن كان حديثه هراء لا غناء فيه، فإذا حاولت أن تصرفه أو تسأل غيره ممن يجالسك اقتحم سور الأدب وأجاب غير متحرز عن الزلل ولا خائف سقطات اللسان يجادل بعلم وبغير علم، ويمارى في الحق وبالباطل، ويحاول الظفر بمهوى الانظار.

وبهذا وأمثاله كثر في مجالسنا لغو القول، وسيطر المزاح الشاق واللغو المنحرف، وراجت الشائعات، وقل أن يخلو مجتمع من التهازل والتنازل وتطير البهتان، مما يعقب الضرر والخصومات، لأن اللسان لا تخزن، ومعايير الكلام طائشة.

وخير الكلام ما قل وهدف إلى غرض نافع، فحرص على الصدق، ورام أمراً معروفاً أو نهياً عن منكر، وكان مساجلة بين المتكلم والواعى، على أن يتباعدوا عن هجر الكلام، وقبيح الالفاظ، وسفساف الاخبار، ومنحرف الآراء. والخير كل الخير في أن يعقل المرء لسانه، إلا عن حق يوضحه، أو باطل يدحضه، أو حكمة ينشرها، أو نعمة يذكرها، وأن يحفظ القول إلا لداع يجعل الحديث في موضعه وحين فرصته، وإلا كان الصمت ألزم، والسكوت أجدى وأنفع، وبذلك يكسب الإنسان صفو المحبة، ويأمن سوء المغبة، ويلبس ثوب الوقار، ويكفى مؤنة الاعتذار. وصدق رسول الله إذ قال: «يا معاذ: أنت سالم ما سكت، فإذا تكلمت فعليك أولك».

وإلى المستمع جميل المأثور « لسان العاقل من وراء قلبه ، فإذا أراد الكلام رجع إلى قلبه ، فإن كان له تكلم وإن كان عليه أمسك ، وقلب الجاهل من وراء لسانه يتكلم بكل ما عرض له . . . » . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعنه العباس « يعجبني جمالك . قال : وما جمال الرجل يا رسول الله ؟ قال لسانك . » .

فإلى الذين يحرفون الكلم عن موضعه ، وإلى الذين يقولون مالا يفعلون ، ويعدون ولا يفون ، ويمنون ولا ينجحون ، ويسرفون على أنفسهم والمستمع اليهم في الأقوال بما يعلمون ومالا يعلمون ، ويمهرون في ترويح الشائعات ، ويقطعون الليل والنهار في القيل والقال ، ويؤذون المؤمنين والمؤمنات في أحاديثهم ، ويهمزون ويلبزون ، ويمشون بالغيبة والنميمة ، ويفترون على الناس زور القول - إلى هؤلاء نسوق قول المولى « وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون ، وقوله : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » وقوله : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ، وقول الله « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة . » .

وعلى الذين يستمعون إلى من يغفلون عن أدب الحديث أن يصموا آذانهم ، حتى لا يقعوا في الإثم بالاستماع إلى كل همار مشاء بنميم .

ورحم الله من أخذ نفسه بأدب الدين ، وعقد لسانه إلا في مواطن الخير ، حتى لا يتردى في بلاء المنطق ، وصدق الله « إليه يصعد الكلم الطيب » .

منطق رسول الله

قال الجاحظ يصف منطق رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« هو الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصفة ، ونزه عن التكلف ، لم ينطق إلا عن ميزان حكمة ، ولم يتكلم إلا بالكلام قد حف بالعصمة ، وشد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق . »

الْإِسْلَامُ فِي سَبْرِ الْبُؤْنِ (*)

لحضرة الأستاذ عمر طلعت زهران

أستاذ في الآداب والصحافة

من حديث ألقاه السيد د. م. س. مصطفى ،
في اجتماع كبير عقد احتفالاً بمولد الرسول عليه
السلام في مساء اليوم الثامن من شهر فبراير
سنة ١٩٤٧ ، ونشرته مجلة « المفكر الجديد » ،
لسان حال جمعية شباب الهلال : م : ٢ ، ع : ٤ .
مارس أبريل سنة ١٩٤٧ .

إن السر في تقدم الجماعات إنما يكن في صلتها بتاريخها ، فالجماعة التي تجهل
تاريخها ليس لها غرض تسعى إليه ، وروح الإحياء والنهضة فيها ضعيفة ؛ ولهذا
سأسرد تاريخ الإسلام في سيراليون ، وهو تاريخ يشمل فترة من الزمان تزيد عن
مائة وخمسين عاما :

(٥) سيراليون مستعمرة بريطانية بين غينيا الفرنسية وجمهورية ليبيريا ، تقع على خط العرض الثامن
شمال خط الاستواء في غرب أفريقية ، سكانها حوالي ثلاثة ملايين نسمة معظمهم من المسلمين .

وإن تاريخ الإسلام بها لقصة خالدة لنضال مجيد ، يعيد إلى الأذهان تاريخ الأديان كلها . وهذا
التاريخ فوق ذلك كله صرخة مدوية لقوم لم يهنوا أو يضعفوا بل ثبتوا وقاموا ، فانتصروا ، وولوا
وجوههم قبل الأمم الإسلامية .

وإن مصر أم الثقافة ، وأزهرها حصن الدين وسياج الإيمان ومقل الإسلام والمسلمين ، التي يتربع
على عرشها الفاروق العظيم ، لأولى البلاد بأن تمد يدها ، وأن تضيء بنور عليها ظلمات الجهل هناك .

كان العرب منذ أقدم العصور من أعظم تجار البحار ، وقد فتحوا الطريق إلى أفريقيا في أواخر القرن السابع ، حينما غزوا شمالها ، ثم امتد نفوذهم مع تجارتهم ورسالتهم التبشيرية عبر الصحارى ، وعلى طول الساحل الغربى لأفريقيا ، وما حل القرن الثانى عشر حتى اعتنق الشعب ، الفولانى ، — الكبير العدد ، والقاطن على أعلى نهر النيجر — الدين الإسلامى ، وما لبثت البعثات الإسلامية أن حولت ، الهوزا ، سكان نيجريا الشمالية إلى الإسلام فى القرن الثالث عشر ، وأنشأوا هنالك مبادئ مدنية جديدة تقوم على الصناعة المعدنية ، كما أوجدوا نظاما سياسيا دقيقا . ولما كانت الغابات الاستوائية الكثيفة عقبة كأداء ، فقد ساد الإسلام على العموم فى شمال نيجريا ، وما لبث أن انتشر فيما بعد نحو الجنوب بين ، اليوربيين ، على أيدي تجار العرب والهوزا المتجولين .

وجاء الإسلام إلى الأرض المعروفة الآن باسم محمية سيراليون على أيدي التجار الفولانيين والمانديجيين المتجولين القادمين من غينيا الفرنسية . وعلى الرغم من أننا لانعرف التواريخ التى تمكنتنا من تحديد الزمن الذى دخل الإسلام فيه سيراليون ، إلا أن المؤرخين غير المسلمين يعترفون بوجود عناصر إسلامية فى داخل البلاد قبل أن تبدأ جمعية التبشير الكنسية عملها فى المستعمرة عام ١٨٠٤ ، كما نجد أن أقدم مكان للعبادة هو مسجد بنتى ، ويقع على مسافة أربعة وعشرين ميلا شمالى بورت لوكو ، وهو مسجد بناه الفولانيون .

كان هؤلاء التجار الفولانيون والمانديجيون يتعاملون فى الذهب ، ويتاجرون بنشاط فى الماشية وبعض أدوات الزينة من صنع أيديهم ، يحملونها إلى المستعمرة حيث يبيعونها . أما أهم مراكز المسلمين الأوائل فى محمية سيراليون فكانت فى كابالا وماكنى وكامبيا وبورت لوكو فى الشمال ، وبندمبو وكينيا ، وبوجيهوم فى الجنوب . ويقص علينا تاريخ الجاليفيين القصير الذى يبدأ من عام ١٧٠٠ م . أخبارا عن « مورانا ، و « مومو كاي كاي ، و « الامين جبوتو ، وهم الذين بنوا مدن جورينج ، وسوليا ، وكورانكو على التوالى فى محمية سيراليون . ونلاحظ أن الاسمين الأول والثانى هما اللفظان المستعملان للاسمين الإسلاميين : « عمران ، محمد ، . أما الاسم الثالث ، الامين ، فقد ظل كما هو دون تغيير . ثم نجد أن أحد

الموقعين على المعاهدة رقم ١ بتاريخ ٢٢ أغسطس سنة ١٧٨٨ كان اسمه « دودر » ، من المستعمرة ، وهو اسم محرف عن الاسم الإسلامي « داود » . وإذا ما عرفنا أن النظامية المسيحية ^(١) قد دخلت المستعمرة عام ١٧٩٢ على أيدي بعض النازحين من نوفاسكوتشيا ^(٢) ، فإنه يتضح أشد الوضوح أن الإسلام قد جاء إلى سيراليون قبل أي دين آخر غيره .

فإذا رجعنا إلى تاريخ المستعمرة ثانية ، رأينا أن من بين الأسرى الذين أخذوا من سفن العبيد - التي اعتقلت في عرض البحار منذ ١٨١٠ وما بعدها - رجالا ونساء مسلمين من قبيلة « يوروبا » كانوا يودون استيطان سيراليون . ووجد المستوطنون المسلمون الجدد أنه يصعب عليهم أن يعيشوا بين المارون والتوفاسكتشين ؛ إذ إن هؤلاء كانوا يحتقرونهم .

واضطر المسلمون إلى الهجرة إلى حدود بلدة فرى تاون [المدينة الحرة] الغربية ، والتي يفصلها عنها نهر نيقولا ، وهكذا نشأت ضاحيتا « فورا باي » و « فولا » وصارتا من أهم مراكز المستوطنين المسلمين ، وبني هؤلاء فيها مساجد مؤقتة ، ثم انضم إليهم معتقون جدد للإسلام - من القرى المجاورة - وانتشر الإسلام وذاع بسرعة جعلت ممثلي الجمعية المسيحية الكفيسية يتقدمون في يونيو سنة ١٨٣٩ إلى الحكومة شاكين سرعة انتشار الإسلام بين سكان المستعمرة الأفريقيين المحررين ، فرفع حاكم المستعمرة « دورقي » الأمر إلى وزير المستعمرات وكتب إليه يقول :

« إن المتحولين [يريد المسلمين] قد ثبتوا أقدامهم في ضواحي فرى تاون الشمالية الشرقية وعلى الأخص في مكانين هما « فورا باي » و « فولا » وأقاموا فيهما مسجدين كبيرين مرموقين . . . »

(١) Methodism فرقة مسيحية أنشأها جون وزلي (١٧٢٩ في أكسفورد) تمتاز بصرامة النظام فيها والمراعاة الدقيقة للقواعد الأخلاقية .

(٢) اسكتلندا الجديدة : مقاطعة في كندا .

ولما كنا تنادى - الآن وفي هذا القرن العشرين - بالتعاون والتفاهم بيننا وبين أصدقائنا المسيحيين ، في سبيل تقدمنا ومنفعتنا المشتركة ، فلسمت أرى من الملائم أن أذكر بقية كتاب الحاكم « دورتي » ، إلى وزير المستعمرات ، ويكنى أن أقول إن ما أوصى به « دورتي » ، الوزير من إخراج المسلمين جميعاً من المستعمرة إلى مكان سحيق ، قد ووفق عليه . وجمع الحاكم « دورتي » هؤلاء المؤمنين في قلعة ثورتون ثم أنبأهم بمشروعه ، فرحبوا بما قال ، معلنين أنهم يفضلون النفي على أن يرتدوا عن دينهم . ومنحهم الحاكم مهلة قدرها ثلاثة أشهر يزيلون فيها ممتلكاتهم وينقلونها . ولكن : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » ، فقد نقل دورتي قبل أن تنتهي المهلة . وجاء غيره ، فنظر للمسألة كلها نظرة جديدة ، وسحبت وزارة المستعمرات اقتراح دورتي ، فكان في ذلك خزي منظمي هذا المشروع وإخفاق تديرهم .

وقبيل هذا الحادث حُرق مسجد في « فوراباي » ، وهدم آخر في « فولا » ، وسجن الآباء المسلمون لدعوتهم المؤمنين إلى الصلاة ، فهاجر بعض السكان حوالى عام ١٨٤٣ إلى أبردين .

وعلى الرغم من هذا الاضطهاد كله ، فقد سار الإسلام حثيثاً نحو التقدم والانتشار في المستعمرة ، واستطاع أتباعه أن يبنوا مساجد ومدارس دائمة ، هي تلك التي ينعمون بها الآن . وهكذا نرى أنه بينما كان المستوطنون البورييون المسلمون يبذلون جهدهم في سبيل كسب مسلمين جدد ، كان الفولانيون والمانديجيون يهدون المحمية إلى الدين الحق .

ورأى الآباء المسلمون — حوالى عام ١٨٤١ ، في فوراباي وفولا — أن يرسلوا أبناءهم إلى دنجراية في فوتا ليحصلوا على ثقافة أعلى في اللغة العربية والشريعة والأصول الإسلامية .

ولأن هذا النجاح العجيب ، الذي حققه هؤلاء المسلمون الأوائل إنما يرجع — كلية — إلى التضحيات العظيمة التي بذلوها ، فقد ضحوا بالراحة والثروة والجاه ليقوم الإسلام على أساس متين في هذه البلاد .

لقد جاء الإسلام حقاً إلى سيرايلون قبل أن تجيء المسيحية ، ولكن المسلمين لم يصلوا إلى ما تهدف إليه المثل الإسلامية علمياً أو اجتماعياً أو سياسياً ، وعلينا نحن أن نقوم بنصيبنا الكامل في النضال في سبيل نشر التعليم الإسلامي الملائم لنا .

إننا في حاجة ملحة شديدة إلى تعلم اللغة العربية والثقافة الإسلامية ؛ إذ لن نكون دونهما مسلمين صادقين ، ويجب على كل مسلم أن ييذل ما يستطيع — أديبا وماديا — في سبيل رفعة الإسلام في سيرايلون حتى نجعل « تاريخ الإسلام في سيرايلون » ، إرثا كبيرا للأجيال القادمة .

فضل الأدب

قال شبيب بن شبة : اطلبوا الادب فإنه مادة للعقل ، ودليل على المروءة ، وصاحب في الغربة ، ومؤنس في الوحشة ، وصلة في المجالس .

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه : عليكم بطلب الادب ؛ فإنكم إن احتجتم إليه كان لكم مالا ، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا .

وقال بعض الحكماء : اعلم أن جاهها بالمسال إنما يصحبك ما صحبتك المال ، وجاهها بالادب غير زائل عنك .

فَقَصُّ الشَّيْخِ

لحضرة الأستاذ حسن خطاب الوكيل

بيتنا فيما مضى كيف كانت سيرة الرشيد في ندمائه، وكيف أنها انتهت بالصلح بين أخيه إبراهيم المهدي وبين إسحاق الموصلی. فإنه لما قام إسحاق وقبل رأس إبراهيم المهدي ترضية له فيما فرط منه، التفت الرشيد إلى إسحاق وطلب منه الغناء تيمنا بالصفا، فقال يا إسحاق غننا :

قل لمن صد عاتبنا ونأى عنك جانبنا
قد بلغت الذي أردت وإن كنت لاعبنا

هل إلى نظرة إليك سبيل يروى منها الصدى ويشفي العليل
إن ما قل منك يكثر عندي وكثير ممن تحب قليل

وأمره بالبخل قلت لها أقصرى فذلك شيء ما إليه سبيل
أرى الناس خلان الكرام ولا أرى بخيلا له حتى الممات خليل
وإني رأيت البخل يذرى بأهله فأكرمت نفسي أن يقال بخيل
فعالي فعمال المسكرين تجملا ومالي كما قد تعلين قليل
وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ورأى أمير المؤمنين جميل

فلما سمع الرشيد ما نوه له إسحاق فيما غناه ابتسم وقال : لا تخف إن شاء الله، لله در أبيات تأتينا بها، ما أشد أصولها، وأحسن فصولها، وأقل فضولها. ثم نادى يا غلام أعطه خمسين ألف درهم. فسر إسحاق بمدح الرشيد لغنائه وحسن عطائه

فقال — وُصفك يا أمير المؤمنين لشعري أحسن منه ، فعلام آخذ الجائزة . فضحك الرشيد ضحكا عاليا ثم قال اجعلوها لهذا مائة ألف درهم . فانطلق إسحاق في الغناء فغنى بيتا من الشعر سبق أن غناه أبوه إبراهيم الموصلى وطرب منه الرشيد وأجازه عليه :

سلى هل قلاني من عشير صحبته وهل ذم رحلي في الرفاق رفيق

فطرب منه الرشيد واستعاده ثم قال : يا إسحاق كنأني في نفسك وقد ذكرت حديث أبيك ، وإني أعطيته ألف دينار على هذا الصوت فطمعت أنت في الجائزة . فأجابه إسحاق : والله ياسيدي ما أخطأت ما في نفسي . فأجابه الرشيد : قد أخذ أبوك ثمنه مرة فلا تطمع . فقال إسحاق : ياسيدي أخذ أبي منك أكثر من مائة ألف دينار ، ما رأيته ذكرت منها غير هذا لضعف حظي . فاستغرب الرشيد ما سمع من إسحاق ، فقال : ويحك أكثر من مائة ألف دينار ! فقال إسحاق : إني والله . فصمت الرشيد لحظة ثم قال : أستغفر الله من ذلك ، فما خلف منها ؟ فقال إسحاق : خلف على خمسة آلاف دينار دينا عليه قضيتها عنه . فقال الرشيد : ما أدري أينما أشد تفريطاً وتضييعاً ، والله المستعان .

وبينا الرشيد في مجلسه هذا إذ بالبريد يحمل اليه خطابا من سجين له شأن في الدولة وقد طال سجنه ، فإذا في الخطاب — إلى أمير المؤمنين من محمد بن الليث : يا أمير المؤمنين إن يحيى بن خالد وابنه لا يخفيان عنك من الله شيئا ، وقد جعلتهما يا أمير المؤمنين فيما بينك وبين الله ، فكيف أنت إذا أوقفت بين يديه وسألك عما عملت في عباده وبلاده ، فقلت يارب إني استسكفيت يحيى أمور عبادك ؟ أترأى تحتج بحجة يرضى بها الله ؟ .

فأرسل الرشيد في طلب يحيى بن خالد ، فلما حضر سأله الرشيد : أتعرف محمد ابن الليث ؟ فأجاب يحيى : نعم أعرفه . فقال له الرشيد : أي الرجال هو ؟ فأحس يحيى بأن تحقيقا يجري ؛ فقال : هو متهم على الإسلام . فقال له الرشيد : شددوا عليه في السجن . ولم يلبث الرشيد أن طلب محمد بن الليث ، فلما مثل بين يديه قال له : أنتحي يا محمد ؟ فقال له : لا والله يا أمير المؤمنين . فقال له الرشيد : وتقول لي هذا ؟ فأجابه ابن الليث : نعم وضعت في رجلي الاكبال ، وحلت بيني وبين

العيال ، بلا ذنب أتيت ، ولا حدث أحدثت ، سوى قول حاسد يكيد للإسلام وأهله ، ويحب الإلحاد وأهله ، فكيف أحبك ؟ فلما رأى الرشيد صدقه وصراحته قال : حلوا عنه الأغلال ، فأطلقوا سراحه ، ثم سأله مرة أخرى : أتحنى يا محمد الآن ؟ فأجابه ابن الليث : لا والله يا أمير المؤمنين ، ولكن قد ذهب ما فى قلبى . فرقّ له الرشيد ، ومنحه مائة ألف درهم ، فلما أحضرت عاد إلى سؤاله : أتحنى يا محمد ؟ فأجابه : أما الآن فنعم ، قد أنعمت علىّ وأحسنتم إلىّ . فطابت نفس الرشيد وقال : انتقم الله لك من ظلمك ، وأخذ لك بحقك من بعثنى عليك .

وبينما الحال على هذا ، إذ دخل أحد الحراس يطلب إذنا بدخول العباس ابن محمد ، فأذن له . فلما سلم بالخلافة إذا وراءه خادم له يحمل غالية (إناء من فضة به عنبر ومسك) هدية للخليفة . ثم تقدم بالكلام فقال : يا أمير المؤمنين جعلنى الله فداك ، جئتك بغالية ليس لأحد مثلها ؛ أما عنبرها فمن عنبر بحر عدن ؛ وأما بانيها فمن عند العطار المدنى المعروف بجودة عمله ؛ وأما مركبها فإنسان بالبصرة عالم بتأليفها ، حاذق بتركيبها ؛ زد على ذلك المسك والزعفران . فإن رأى أمير المؤمنين أن يمن علىّ بقبولها فعل .

هنالك التفت الرشيد إلى خاقان خادمه وقال : يا خاقان اكشف لنا عن هذه الغالية . فإذا هى برنية من فضة وبها ملعقة قد غرست فى المسك والعنبر وما الى ذلك من أجزاء الطيب .

ولما كان ابن أبى مریم مضحك الخليفة لا يفارق قصر الرشيد ، وكان حاضر الهدية ومهديها ، وقد ساءه ما سمع من المدح والإطنان فى وصفها ، قال للرشيد : هبها لى يا أمير المؤمنين ، فقال له الرشيد : هى لك ، فغاظ ذلك العباس بن محمد ، وحقد على ابن أبى مریم ، وقال له ! ويلك عمدت إلى شىء ثمين منعمته نفسى ، وآثرت به سيدى فتأخذنه أنت ! فأجابه ابن أبى مریم سترى أن لا يدهن بها إلا أنا ، وجعل يأخذ ما تصل اليه يده ، ويدلك بها أطرافه ووجهه . فلما رأى الرشيد فعله ضحك ضحكا عاليا ، وكذا الحراس ، وكان كل من لا يملك ضبط نفسه يولى هاربا ، ثم التفت ابن أبى مریم الى العباس بن محمد وقال له : أنت شيخ أحق ، تجىء الى أمير المؤمنين وتمدح عنده غالية ؟ فما كان من العباس بن محمد إلا أن استأذن وخرج .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِلاد محمد صلى الله عليه وسلم

كلمة حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى
شيخ الجامع الأزهر فى مناسبة المولد النبوى الشريف

منذ أربعة عشر قرنا واثنين وعشرين عاما تقرىبا ، ولد محمد صلى الله عليه وسلم ، والعالم إذ ذاك فى حيرة شاملة ، مما يعانیه من اضطراب شمل جميع نواحيه ، وفوضى غيرت ناموسه ، وغدت تسيطر على كل شىء فيه ، فالأمور تقاس بمقياس المنافع الذاتية ، والفضائل لم يبق منها إلا اسمها ؛ الضعيف يخضع لنداء القوى ، ويلبى ما يأمر به ، لا عدل هناك يوقف الجائرين عند حد ، ويتقصد للضعيف من القوى ، ولا إنصاف يضع حدا للمظالم والطغيان .

وهكذا كان العالم يموج فى بحر لظى ، ظلمات بعضها فوق بعض ، ينشد حياة جديدة ، ولكنه لا يدرى كيف تتم ، ويشعر بالظلم والجور ، ولكنه لا يدرى ما الفكك منهما ، ويرجو الأمن والسلام ، ولكنه لا يدرى كيف يحققهما ؛ ويتشوف إلى منقذ قوى ، يضع عنه هذه الأغلال والآصار التى عليه ، ولكنه لا يعرف كيف السبيل إلى ذلك ، ويتوق إلى مصلح يقيل الإنسانية ، مما تعانیه من امتهان ، ولكنه لا يهتدى إليه ...

وبين هذه الآلام التى تجثم على صدر العالم ، ويضيق بها ذرعا ، والآمال التى يرجو أن تتحقق بين عشية وضحاها ، ولد محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يدرى أحد من العالم أن هذا المولود سيحقق الله على يديه للبشر السعادة والمتعة ،

والعز والسؤدد، وأن الله سيصطفيه لرسالة تضيء للعالم طريقه، وتهديه إلى أقوم السبل، وأنه سيدعو إلى دين جديد، يسعد البشرية، ويسوى بين القوى والضعيف، ويخلص الناس من جبروت الطغاة، لا يدعو إلا إلى الفضائل، ويقضى على عوامل الفساد التي انتشرت.

نعم لم يكن يدرى أحد من العالم، أن هذا المولود هو الذى سيكون على يديه فسكك أسرهم، وصلاحهم.

وظل العالم كما هو؛ يبنى الإصلاح، ويتشوف إلى الخلاص، ومحمد يشب ويترعز، فنشأ على مثال خاص، لم ينعم بما نعموا به، من والد يحنو عليه ويرعاه، فقد مات أبوه هبذ الله وهو لها يزل فى بطن أمه، ولم يلبث أن فقد أمه وهو فى السادسة من عمره، وكفله بعد وفاة أمه جده عبد المطلب، ثم بعد جده عمه أبو طالب، وعمره إذ ذاك ثمانى سنوات.

وقد شاء الله، أن يحرم محمد صلى الله عليه وسلم، من حنان أبويه، حتى يحنو على المحرومين قاطبة، يحنو على المحرومين من الآباء والأمهات، ويحنو على الذين أبى عليهم مجتمعهم إلا أن يظلوا محرومين.

ومكذا كان الحنو ظاهرا فى كل تصرفاته، صلى الله عليه وسلم، فى نشأته وفى شبابه، وقبل بعثته؛ وبعدها أصبح صفة ملازمة من صفاته، صلى الله عليه وسلم؛ قال تعالى: «ألم يجدك يتيما فأوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى، فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث».

ومضى محمد إلى ميدان الرجولة، ونفسه لم تدن به يوما، أو تصرفه عن غير الجدد والعبادة، والتفكير فى الكون، والعزوف عما وجد عليه قومه، من عبادة للأوثان، وتقديس لها، وكان ينصرف عنهم إلى غار حراء متعبدا حتى جاءه الوحى.

بعث محمد صلى الله عليه وسلم وهو فى الأربعين من عمره، وظل ثلاث عشرة سنة بمكة بعد بعثته، يدعوها إلى الدين الجديد، ووجد فيها من صنوف

الإيذاء والاضطهاد ، ما لا يقوى على احتماله بشر ، ولكنته لم يهن ولم يضعف ، ولم ينصرف عن الدعوة ، برغم ما صنعتته قریش ، وما ابتكرته من ضروب الإيذاء ، وصنوف الاضطهاد ، ولم ينبج الرسول صلى الله عليه وسلم من شرهم إلا بهجرته إلى المدينة .

وهناك أذن الله للدعوة أن تنتشر في الآفاق ، وأن يدخل محمد صلى الله عليه وسلم مكة بعد ثمانية أعوام من الهجرة - قاهراً الشرك والجبروت ، متساعجاً مع الذين تأمروا على قتله بالامس .

يضيق بي المقام لو حاولت في هذه العجالة ، أن أتناول حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وما نال العالم على يديه من إصلاح في مختلف نواحي الحياة ، ما كان يقدر له أن يتمتع بها ، لولا بعثة محمد صلى الله عليه وسلم .

وحسبي في هذا المقام أن أقول : إن الإنسانية مدينة لبعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به من نظم وتعاليم ، وما وضعه من أسس في التشريع ، تقصر عنها عقول البشر ، وما حققه لها من معان سامية ، ساوت بين الناس ، ولم تجعل لمرءي فضلاً على عجمي إلا بالتقوى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

بهذه المبادئ والتشريعات الإلهية ، كفّل محمد صلى الله عليه وسلم لبني الإنسان السعادة والعزة والمنعة ، وهباً لهم حياة كريمة ، يتمتعون بها في الدنيا ، ويؤجرون عليها في الآخرة .

وحدة الأمم ووحدة الأديان

شرع الله الإسلام ليسكون ديناً عاماً للبشرية كافة بعد أن أصبح ذلك ممكناً بتواصل أممها، وتعارف جماعاتها، وتبادل تجاراتها وثقافتها، وقد اطردها التقارب واتصلت حلقاته حتى لاحت بواذر الوحدة العالمية لبعيدى النظر منذ أجيال، وصارت وحدة الدين أمراً لا بد منه، بل أضحت في حكم الأمر الواقع لدى أهل النظر البعيد في الشؤون الإنسانية. وكيف لا يكون الأمر كذلك والنفوس والعقول والعواطف البشرية تتفق في مطالبتها ووسائلها وغاياتها، فإن تخالفت في بعضها فإنما هو تخالف عرضي سببه تخالفها في درجات ثقافتها، وتباينها في أساليب تفكيرها. ولا يجوز لنا أن ننسى أن لاختلاف الأجناس واللغات والمدنيات، تأثيراً خطيراً في المباعدة بين الشعوب، ولكن السكواثر الاجتماعية، والازمات الاقتصادية، وضرورة هجرة الجماهير الفقيرة من بعض الأمم، للعيش في بلاد البعض الآخر، تحت ضغط العوامل الاقتصادية، كل ذلك أثر في عقلية الجماعات البشرية، وأضعف من شدة الروابط الجنسية، ومهد السبيل للقول بإبطال الحروب، وبضرورة إيجاد وشائج ودية بين جميع الشعوب.

فالوحدة العالمية في طريق التكوين، وقد تواترت أشراطها بتأليف جماعات دولية للنظر فيما يشجر بين الأمم من خلافات إقليمية، أو منازعات استعمارية؛ بل تكلم كبار المتصرفين في شؤون الأمم، في توزيع المواد الأولية الضرورية للصناعات، مما يكثر في بعض المستعمرات دون البعض الآخر، على الأمم التي تحتاج إليها، قطعاً لذرائع الخلافات الدولية التي تجر إلى الحروب الوحشية. بل حدث ما هو أبلغ من ذلك في موضوع الوحدة العالمية، وهو نشوء رأي جديد لم يكن له أثر في العالم الإنساني، وهو أن يكون للأمم أجمع حكومة عالمية تسوسها بروح المساواة والعدل، فتتظر في مصلحة كل منها كما تنظر الحكومة

الواحدة في مصلحة أمتها . وقد نادى بهذا المبدأ منذ سنتين جماعة في أمريكا ، وصرح رجالا من أكبر الدول بأن هذا الضرب من الحكومة الجماعية هو الدواء الوحيد لحسم الخلافات بين الأمم ، وإبطال الحروب بينها ، وإقرار السلام والإخاء فيها .

هذا الاتجاه الانساني طبعى محض ، ولا يحول دون تحقيقه إلا عوائق غير طبيعية من اختلاف الأجناس واللغات والعادات ، ولكن من يتأمل في مصائر الأحوال ، يرى أن هذه العوائق يضعف تأثيرها تدريجيا بانتشار اللغات ، وترجمة المؤلفات ، وتبادل السياحات ، وكل هذه العوامل تتوى يوما بعد يوم .

ولا يجوز أن يغيب عن الأذهان أن الانتقال بين الأقطار بواسطة الطائرات ، يعتبر من أقوى أسباب توحيد الشعوب . فالبلاد التي كان لا يمكن الوصول إليها إلا بعد نحو عشرين يوما بل أكثر ، يقيمها الإنسان على ظهر باخرة من ذوات السرعة المفرطة ، أصبح يمكن الوصول إليها في ساعات معدودة . وقد تحسن هذه الأداة إلى حد بعيد حتى تصبح المسافات الشاسعة التي تفصل بلاد العالم كأنها قسرى متجاورة ، يذهب الإنسان إليها ويعود منها في اليوم نفسه . فهل تسأل بعد هذا إلى أى مآل تقول الاتصالات بين الشعوب بهذه السرعة ، وإلى أى مدى يبلغ التعارف بينها ؟

ولا تنس أنه كلما أتقنت الأمم فنون الاجتياح والتخريب ، واستكملت وسائل إبادة أعدائها بالقوى الذرية والأشعة الكونية ، وما سيكشف عنه العلم من الذرائع التي لا تبقى ولا تذر ، قلنا لا تنس أن غريزة حفظ الذات تدفع بالأمم ، تحت قيادة الغرائز العليا للإنسانية ، إلى ما يضع حدا لمتابعة هذه المجازفات الجنونية . وهل يقوم بهذه المهمة الخطيرة غير إخاء عام ينتشر بين آحاد النوع البشرى يحميمهم غوائل أنفسهم ؟

إذا صح كل هذا فلا يحيد عن حدوث إخاء عام بين البشر ، تتبعه وحدة سياسية شاملة لا تسمح للخلافات أن تدمرب اليهم . وتجيء وحدة التربية والتعليم فتستسح من الأذهان كل ما علق بها من بقايا الخرافات القديمة ، والأوهام

العتيقة ، فنتها الفطر لقبول دين عام يكون من السمو في العقائد ، والتنزه عن الشكليات ، بحيث يتفق مع الفلسفة في أرفع معانيها ، فتتجه الافكار للإسلام لأنه آخر الأديان نزولا ، وقد صرح الناس بأنه الدين العام للعالم كافة . فلو أضفت إلى ذلك أنه شامل لجميع ما يرجو الناس أن يجدوه في الدين العام من الاصول والوسائل ، لما ساورك شك في أنه بالغ تلك المنزلة لا محالة .

هنا قد يقول قائل : إنك إذا كنت قد أحسنت في بيان الاسباب المهيئة لوحدة الأمم ، فلم تبلغ هذا الشأو في التدليل على اختيارها للإسلام ديناً لها ، فقد أغفلت أثر العلم في تجريد الناس من العقائد ، وفي اعتبارها من الصور الذهنية لشعوب لم تبلغ درجة النضج في تقديرها للوجود وقواه وعوالمه . وقد فرغ العلماء من أمر الأديان واعتبروها موضوعات خيالية ؛ تلهو بها الشعوب في أدوار طفولتها .

نقول : إن هذا القول ، انضح للعلم في هذا العهد ، أنه بعيد عن الصواب ، وأن إجماع العالمين في جميع العهود والبيئات على التدين لم يكن مظهرأ للوساوس ، ولكن تعبيرأ عن حقيقة مرتكزة على الفطرة البشرية ، لم يتحقق العلم من وجودها إلا منذ قرن ، أى حينما تحقق بعد بذل جهود مضنية في البحث من وجود روح للإنسان ، وأن هذه الروح تنزلت من عالم علوى لتبتلى في هذه الحياة الأرضية ، ثم تعود إليه بما كسبت من ثقافة وعلم ، لتتابع رقيها في عوالم علوية بعد هذه الحياة الأرضية . وقد أمضى مئات من هؤلاء العلماء في كل أمة متمدنة عشرات من السنين في تحقيق الاتصال بالروح البشرية بوساطة التنويم المغناطيسى تارة ، وبوساطة الاتصال بالأرواح التي تجردت من أجسادها تارات أخرى ، مستخدمين في تمحيص هذه البحوث الأسلوب العلوى على أكل معانيه ، حتى تحققوا من وجود عالم روحانى وراء هذا العالم تنتهى إليه كل نفس بشرية بعد أن تخلع ثوبها المادى الذى تعيش به على الأرض . وقد دونوا ما رأوه من الأدلة ، معززة بالوسائل المادية التى توسلوا بها ، فى مؤلفات قيمة لاسبيل إلى تجريحها . وقد تألفت مؤتمرات عديدة فى أمهات المدن العالمية لتقرير ما وصلت إليه جهودهم المشتركة ، ونشرت نتائج مباحثاتهم فى كتب خاصة . فهذه البحوث مجتمعة كشفت البواعث الطبيعية للتدين بما لا يدع شبهة لباحث .

وهنا يحمل بنا أن نسرده للقارىء ما يقوم عليه الإسلام من الأصول الأولية ، والمبادئ الأساسية ، ليرى بما لا يدع له شكاً أن الإسلام هو الدين الذى لا يحصى عن الأخذ به عند ما يصل الإنسان إلى هذا الحد من الرقى العقلى ، والتقدم العلمى ، وأنه سيصبح فى آخر الزمان دين العالم كافة ، فإليك بإيجاز :

- (١) الإسلام لا يضع لرقى الإنسان العقلى والمادى حداً .
 - (٢) ويعترف بحق الإنسان فى النظر والاستدلال ، بل يحثه عليهما ، ولا يعتد بما لا دليل عليه ، بل يعتبره هراء محضاً لا يصح أن يلتفت إليه .
 - (٣) ويحضه على طلب العلم ويعتبر الاجتهاد فيه خيراً من العبادة .
 - (٤) ويحرضه على التقاط الحكمة ولو كان قائلها مشركاً .
 - (٥) ولا يمنح لطائفة من الأمة من الامتيازات ما يجعل طاعتها واجبة .
 - (٦) ولا يفرق بين الأجناس والألوان واللغات فيجعل بعضها أفضل من سواها . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس لعربى على أعجمى فضل إلا بتقوى أو عمل صالح » .
- فالإسلام بهذه المبادئ الأولية أتى على جميع التقاليد التى بليت بها الأمم من وضع الحدود لنشاط العقول ، ومن الحيلولة بين المفكرين والعلماء ، وبين العمل على ترقية الجماعات ؛ أو على تغيير النظم بما هو أفضل منها ، أو على تهيشة أسباب الانتقالات الاجتماعية والفكرية التى لا يحيد عنها لدفع الأمم لبلوغ الغايات البعيدة من العلوم وتطبيقاتها . وهو بعدم منحه امتيازات لطوائف معينة من الشعوب جعل الباب مفتوحاً أمام أهله لبلوغ المثل العليا بدون قيد ولا شرط ، ومنع بذلك حدوث الانتسافات الاجتماعية التى تطوح بالشعوب إلى المذاهب المتضادة مما يضر بنشاطها الدينى والدنيوى معاً .

السنة التشريعية :

الشعر

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ فكري ياسين

أخرج البخارى ، وأبو داود ، وابن ماجه . أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن من الشعر حكمة » .

يُفهم من هذا الحديث : أن بعض الشعر حكمة ، وبعضه ليس كذلك ، كما تشير إلى هذا قضية من التبعية المذكورة في الكلام ، فإذا كان في الشعر مدح الله ورسوله ، وذكر الله وتعظيمه ، ووحدانيته وإشاد طاعته ، والاستسلام له والحث على الخير ، وفعل البر والمعروف ، والزهد والمواظ ، والدعوة إلى المحامد والمكارم ، ونحو ذلك ، فهو حكمة وهو حسن يرغب فيه ؛ وإذا كان فيه كذب وإفك ، وتلبيس وتضليل ، وغش وتمويه ، وهجر وخش ونحوها ، فهو قبيح ومذموم يرغب عنه ، ويحذر منه ، قالت عائشة : الشعر منه حسن ، ومنه قبيح ، فخذ الحسن ودع القبيح . وعن ابن عمر : الشعر بمنزلة الكلام ، فحسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام .

والشعر في الأصل : اسم للعلم الدقيق ، ومنه لبت شعري ، ثم صار يستعمل في العرف اسماً للكلام الموزون المقفى قصداً ، وما وقع منه موزوناً اتفاقاً ومصادفة لا يسمى شعراً . والشاعر : هو المختص بصناعة الشعر ، وسمى شاعراً لفطنته ودقة معرفته ، وقيل : أصل الشعر : الشَّعْر — بفتحين — يقال : شعرت : أصبت الشعر ، وشعرت بكذا : علمت علماً دقيقاً كإصابة الشعر ،

وقد يعبر بالشعر عن الكذب ، وبالشاعر عن الكاذب ، ومن ثم سموا الأدلة كاذبة شعرا ، وقالوا في الشعر : أعذبه أكذبه ، وقال بعض المغالين : لم ير متدين صادق للهجة مفلحا في شعره . ولما قال بعض الكفار عن النبي صلى الله عليه وسلم : إنه شاعر ، قيل : إنما أرادوا بذلك أنه كاذب ، لأن أكثر ما يأتي به الشاعر كذب . وقال الله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون » .

والأكثر على أن الرجز نوع من الشعر ، وقيل : لا يسمى شعرا ، لأنه يقال : راجز ، ولا يقال : شاعر ، ولما كان الحداء في الغالب إنما يكون بالرجز ، وفي القليل بغيره من الشعر ، ألحقوه به .

والحكمة : هي القول الصادق المطابق للحق ، وقيل : أصل الحكمة المنع ، فغنى الحديث : إن من الشعر كلاما نافعا ، يمنع من السفه .

ويتلخص ما قاله العلماء ، في حكم الشعر في الإسلام ، في مذهبين : فذهب قوم إلى كراهة الشعر مطلقا ، قليله وكثيره ، حسنه وقبيحه ، واحتجوا بمثل ما نسب إلى ابن مسعود من قوله : الشعر مزامير الشياطين ، وبمثل ما نسب إلى مسروق من أنه تمثل بأول بيت شعر ، ثم سكت ، فقيل له ، فقال : أخاف أن أجد في صحيفتي شعرا ؛ وبما روى عن أبي أمامة أن إبليس لما أهبط إلى الأرض قال : رب اجعل لي قرآنا ، قال : قرآنك الشعر ؛ وبما روى عن ابن عمر : من قال ثلاثة أبيات من الشعر من تلقاء نفسه لم يدخل الفردوس . وهذه كلها أخبار واهية ، وآثار ضعيفة لا يحتج بها ولا يعول عليها وأما حديث أبي سعيد الخدري القائل : بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرج ، إذ عرض شاعر ينشد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خذوا الشيطان ، أو أمسكوا الشيطان ، لأن يمتلي جوف رجل قيحاً ، خير له من أن يمتلي شعراً » - فحمول على الشعر المذموم ، أو الغالب على صاحبه ، المستولى عليه ، الشاغل له عن الطاعات ، والعبادات ، الصارف له عن العلوم النافعة ، والأعمال المفيدة ، أو المتخذ منه وسيلة للارتزاق ، والتكسب والشغب ، أو على أن هذا الشاعر كان كافراً ،

أو على أن هذه واقعة حال ، يتطرق إليها الاحتمال ولا عموم لها ، فلا حجة فيها ، أو أن الذين خوطبوا بذلك كانوا في غاية الإقبال عليه ، والانتفاع له ، فزجرهم عنه ، ليقبلوا على القرآن ، وعلى ذكر الله وعبادته ، فمن أخذ من ذلك بما أمر به لم يضره ما بقي عنده مما سوى ذلك .

وأما الكافة من العلماء ، فذهبوا إلى إباحة الشعر ، ما لم يكن فيه خش ، أو هجو ، أو إغراق في المدح ، أو كذب محض ، أو تغزل بمعين ، أو ما إلى ذلك ، فقد سمع النبي صلى الله عليه وسلم الشعر ، وأنشد بين يديه ، وقال : إن من الشعر لحكمة ، وكانت عائشة تنشد :

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر

وفي الصحيحين ، أنهم لما قدموا المدينة ، توعك أبو بكر وبلال ، وكان بها وباء ، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبَّح في أهله والموت أدنى من شراك نعل

وكان بلال إذا أقلمت عنه الحمى ، يرفع عقيرته ، ويقول :

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة بواد وحول إذ خير وجليل
وهل أردن يوماً ما ساء نجيته وهل يبدون لي شامة وطفيل

ولما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، لم يكن منه إلا أن قال : اللهم حبس إلينا المدينة ، كحبسنا مكة أو أشد .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم ، يضع لحيته منبرا في المسجد يقوم عليه ، ينافع عن رسول الله ، أو يفاخر ، وكان الرسول يقول : « إن الله يؤيد حسان بروح القدس ، ما نافع أو فاجر عن رسول الله ، ولما أنشده النابغة شعره ، قال له صلى الله عليه وسلم : لا يفضض الله فاك . » وكان أصحابه ينشدون عنده الأشعار وهو يبتسم ، وعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال : أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة قافية من قول أمية بن أبي الصلت ، كل ذلك يقول : هيه ، هيه ، ثم قال : إن كاد في شعره ليُسلم .

وقد أنشد الشعر الخلفاء ، وفضلاء السلف ، ولم ينكره أحد منهم على إطلاقه ، وإنما أنكروا المذموم منه ، وهو الفحش ونحوه . وقد نقل ابن عبد البر الإجماع على ذلك إذا كان كذلك .

ولما نزل قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاؤون » ، جاء عبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وهم ييكون ، فقالوا : يا رسول الله ، أنزل الله هذه الآية وهو يعلم أننا شعراء ، فقال : اقرءوا ما بعدها : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وانتصروا من بعد ما ظلموا » .

وحمل المفسرون الشعراء في هذه الآية على الذين يهجون الناس بغير حق ، ويمدحونهم بما ليس فيهم ، ويبالغون في ذلك ، حتى يخرجوا عن جادة الحق والإنصاف ، ويخالفوا أحكام الشريعة ، ويأتوا في أشعارهم بالأكاذيب ، والباطيل ، وبما يتنافى الأخلاق والآداب والفضائل ، وعلى شعراء المشركين الذين يتبعهم غواة الناس ، ومردة الشياطين ، وعصاة الجن ، ويروون شعرهم ، لأن الغاوى لا يتبع إلا غاويا مثله ، أما الشعر الممدوح المتفق مع أحكام الدين وقواعد الأخلاق فلا مذمة فيه .

لا خلاف في أن النبي صلى الله عليه وسلم ، لم ينشئ الشعر ولم يقرضه ، وأنه ما كان يليق به ذلك ، وقد نفى الله هذا عنه في كتابه حيث قال : « وما علنناه الشعر ، وما ينبغي له » ، وإنما الخلاف في جواز تمثله صلى الله عليه وسلم بشيء من الشعر ، وإنشاده إياه ، حاكيا له عن غيره ، فالبعض على أن ذلك لا يجوز ، حتى إنه لما تمثل صلى الله عليه وسلم بقول عبد الله بن رواحة :

هل أنتِ إلا إصبع دमित وفي سبيل الله ما لقيت

قال هذا البعض : إن التاء في « دमित ولقيت » مكسورة في الرجز ، ساكنة في الحديث ، وإن النبي صلى الله عليه وسلم أعمد إسكانها ليخرج عن الشعر ، وإن كان الإسكان لا يخرج الكلام عن الشعر ، وإنما يحوله إلى ضرب آخر منه ، من ضروب الكامل .

والصحيح أنه يجوز له صلى الله عليه وسلم أن يتمثل بالشعر ، وأن يفشده
حاكياً له عن غيره . أخرج البخارى فى الادب المفرد ، أنه قيل لعائشة : أكان
النبي صلى الله عليه وسلم ، يتمثل بشئ من الشعر ؟ فقالت : كان يتمثل
من شعر ابن رواحة :

وبأتيك بالآخبار من لم نزود

وأخرج ابن أبى شبة : أنه صلى الله عليه وسلم كان يبنى المسجد ، وعبد الله
ابن رواحة يقول : أفلح من يعالج المساجدا ، فيقولها رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فيقول ابن رواحة : يتلو القرآن قائماً وقاعداً ، فيقولها
الرسول أيضاً ؛ وكان ينقل اللّـهين مع القوم فى بناء المسجد ويقول :

هذا الجمال لا جمال خيبر هذا أبر ربنا وأطهر
وقال مرة أخرى :

لا همّ إن العيش عيش الآخرة فارحم الانصار والمهاجرة
وأخرج الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم قال : إن أصدق كلمة قاله
شاعر ، كلمة لبيد :

ألا كل شئ ما خلا الله باطل

استمدد بقول النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فى غزوة خيبر :
أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب
على جواز وقوع الكلام منه منظوماً ، من غير قصد إلى ذلك ، ولا يُسمّى
مثل ذلك شعراً ، ولا القائل به شاعراً ، وقد وقع كثير مثله فى القرآن الكريم ،
لكن أغلب ما جاء منه أشطار أبيات ، والقليل منه وقع وزن بيت تام ،
فن الأشطار مما هو من البحر الطويل قوله :

وإن شئتمو تحيوا أميتوا نفوسكم ولا تقتلوا النفس التى حرم الله

ومن السريع :

يأهل دين الله بشرا كمو أقصر مولاكم به عينكم
لما أنزل الله على المصطفى اليوم أكملت لكم دينكم

ومن المضارع :

وضارع أهل خير تلو من رب يقينا
جناناً مزخرفات وهم فيها خالدون

ومن المجتث :

اجتث قلبي بذنبي والله خيراً يريد
وكيف أخشى ذنوبي وهو الغفور الودود

ومن التام مما هو من بحر الرمل قوله :

مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات

ومن مجزؤ الرمل :

لن تسالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون

ومن الوافر :

ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين

ومن الكامل :

يأتىكم التابوت فيه سكينته من ربكم وبقية مما ترك

ومن الخفيف :

أريت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتما

وقد عني بهذا النوع كثير من المؤلفين ، وأوردوا منه فى مؤلفاتهم طائفة كبيرة مما فى القرآن ، واستخرجوا منه ما جاء فيه على أوزان البحور اتفاقاً ، فليرجع إليها من أراد .

لَا يُأْسُو مِنْ رَوْحِ اللَّهِ

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني

المفتش بالأزهر

أشد ما تصاب به الأمم والجماعات من نكبات ، هو يأمها من نفسها ، وشعورها بأن أمورها قد وصلت من السوء إلى حد لا يستطيع معه إصلاحها ، وأن كبوتها قد وصلت بها إلى الحضيض ، فلا نهوض لها من بعدها ، وأن كل يوم يمضي عليها هو شر من سابقه ، وخير من لاحقه .

شعور الأمة أو الجماعة بهذا ، وامتلاء نفوسها به ، من شأنه أن يفت في عضدها ، وأن يصوّر لها المستقبل في صورة قائمة مظلمة ، وأن يساعد على تقويض بنيانها ، ويعجل بآخرتها ، وزوالها من الوجود .

والامر في الافراد وإن كان كذلك ، لكنه أقل خطراً ، وأضعف أثراً ، وأيسر علاجاً ؛ فإن الفرد إذا يئس لم تمت بموته الأمة ، ولم تضطرب باضطرابه شئونها العامة ؛ وهانحن أولاء نرى أفراداً يأسون ؛ فيستسلمون للموت الأدبي ، أو يقدمون على الانتحار ، فيذهبون إلى حيث اختاروا لأنفسهم ، ولا تكاد الأمة أو الحياة الاجتماعية تشعر بهم .

وقد يجد الافراد من أمتهم ، أو أسرهم ، أو أصحابهم ، أو ذوى المروءة في مجتمعهم ، من يأخذ بأيديهم ، وينزعهم من بين أحضان اليأس ، ويفتح أمامهم مجال الأمل والعمل ؛ أما الأمم والجماعات ، فإنها إذا فقدت الثقة بنفسها ، ويئست من استقامة أحوالها وقدرتها على معالجة أمراضها ، لم تلبث أن تدخل في سكرات الموت ، وتعالج منها السكروب والاهوال حتى تموت ، ولن تجد من يحول بينها وبين هذا المصير ؛ ذلك بأن عجلة الإنقاذ ، لا بد أن تأتيا من غيرها ، ولم تعهد في تاريخ البشرية — إذا استثنينا عهود الفتح الإسلامي العادل — أمة تدفعها

إنسانيتها إلى التقدم لغيرها من الأمم بنية صادقة ، وباعث شريف مخلص ، هو مجرد الرغبة في إنقاذها من الخطر الذي يهددها ، وإن زعم ذلك أهل السياسة من دهاقين أوروبا وأمريكا وأشباههم من الطامعين .

لم يرتفع مستوى الإنسانية الى هذا الحد ، ولم يصل الضمير البشرى بعد إلى هذه المرتبة ، وما من أمة اليوم تمد عينها إلى غير ما من الأمم ، إلا وهي تبطن منفعتها هي ، ومصالح أبنائها أو المتسلطين فيها ، وقل مثل ذلك في الجماعات أو الهيئات ، فإن إحداها لا يمكن أن تمد يدها لإنقاذ سواها مما يعاني ، إلا إذا كان ذلك لمصلحة تعود عليها هي ، بأن تقوى من مبادئها ، أو تضعف من قوة خصومها ومنافسيها ؛ والأحزاب السياسية تمثل لذلك واضح ، فإننا لا نرى حزبا يتقدم لمؤازرة حزب آخر ، بذية تقويته وتأييده وتخليصه مما يعانيه ، إلا حيث يحسب أن ذلك قهر لخصومه ، أو تقوية له ، فيجعل ذلك قنطرة لأغراضه ، ووسيلة ينال بها ما يهدف إليه .

لا شك إذن في أن التماس الإنقاذ من الغير ، إن صح أن يؤدي الى خير في شأن الافراد ، فإنه لن يؤدي الى خير في شأن الأمم والجماعات . ولهذا كان الخطر شديداً حين تشعر الأمة والجماعة باليأس من إصلاحها ، واستقامة شئونها ، وتفقد الثقة بنفسها .

* * *

في أمم الشرق الآن غربانٌ ما تزال تنعب في كل صباح ومساء ، ونعيها مقلق للنفوس ، مميت للأمل في القلوب ، يصور للناس حياتهم في صورة كريهة ، ويخيّل إليهم أن شئون العرب والمسلمين قد فسدت فساداً لم يعد معه أمل في الإصلاح ، وأن المسلمين الأولين قد ذهبوا بالمثل الطيبة في الإيمان والخلق والتضحية والإيثار ، فلم يتركوا وراهم حظاً منها لغيرهم ، وأن العزة التي كانت للآباء قد زالت حيث لا رجعة ، وأن الموت الزؤام هو نصيب اللاحقين ، كما كانت الحياة السعيدة القوية هي نصيب السابقين .

لست أريد أن أحداً من الناس ينادي بذلك حرفياً ، ويقول له لفظاً أو معنى ، وإنما أصف شأنهم في تضخم الأمور ، وتفطيع المساوئ ، والبكاء الملح على المجد

الضائع ، والعزة المفقودة ، والكرامة الذاهبة ، والاخلاق التي دنست ، والتقاليد التي أهملت ، والرزايا التي تنابعت ، فهذه النظرة التشاؤمية بمثابة القول الصريح بأنه لا سبيل لأهل هذا الجيل أن يدركوا شأواً الاجيال قبلهم ، أو يدانوها ؛ وفيها إحياء قوى بأننا ضعفاء وعاجزون ، وأننا مهما حاولنا أن نعمل أعمالهم ، أو ننهض كما نهضوا ، فلن نصل إلى ذلك ولن نقارب .

إن هذا لن يكون داعياً إلى ملافاة النقص ، ومضاعفة الجهد ، وإنما هو دعوة إلى اليأس والإذعان والتسليم ، فيه تثبيط للعزائم ، وإرجاف على النفوس الوثابة الطلعة ، ولو أن أمراً ظل يردد على مسامع ولده أنه قاصر متخلف ، وأن عقله راكد ، وجهده ضئيل ، وأن فلاناً من إخوته أو أبناء عموته أو خوئلته خير منه عقلاً ، وأذكى قلباً ، وأحرص على أداء واجبه ، وأقرب إلى درك النجاح ، في مستقبله القريب والبعيد ؛ لو أن أحداً ظل يقول ذلك لابنه وهو يريبه ويحاول أن يبعث في نفسه الرغبة والعمل والنشاط ، لما كان إلا مسيئاً إليه ، يمتا مواهبه قاتلاً فيه المهمة والعزيمة والثقة بالنفس ، ناشراً اليأس في أقطار قلبه ، وهو يحسب أنه من الذين يحسنون صنعا



إن المسلمين بخير وإن عدت عليهم الوادى ، ونزلت بساحتهم الأحداث ، وما كان ضعفهم وتخلفهم إلا تمحيصاً وتهذيباً سيخرجون منه إن شاء الله أقوىاء ذوى عزة ومنعة ، وإن فيهم الآن لدلائل نهضة في العلم والقوة والسياسة والتضحية تبشر بمستقبل سعيد ، وحياة طيبة ، فليترفق الكتاب والخطباء والدعاة بأنفسهم وأهلهم ، وليعترفوا بنواحي القوة والحيوية والنهوض في أمهم ، وليصوّروا لهم المستقبل في صورة جميلة ، تشرح الصدور ، وتحيي ميت الآمال ، وتثير العزائم والهمم إلى التدرج في مدارج السكال ، والانبعاث في طريق التقدم .

ولا يحسبن أحد أنى أدعو إلى غض العيون ، وسد الآذان عن نواحي النقص ، فإن ذلك أيضاً من أسباب الضياع والانحلال ، ولكن علينا أن نصف الداء ، ونصف العلاج ، فإننا إذا تعامينا عن الداء سرى فينا وأهملكنا ، وإذا استسلمنا له ، وهولنا فيه ، وشغلنا أنفسنا باستفظاعه ، وتأمل وجوه الخطر فيه ،

ضعفنا عن مقاومته ، وأعانه علينا هزالٌ يصيب الهمم ، وضعفنا تسرى إلى العزائم ، وتغلغل في الأعمال ، وإجذاب في الفكر يسرى من الكبير إلى الصغير ، ومن الصغير إلى الكبير ، ويمر في كل طبقة ، ويجول في كل دائرة ، وكفى في بيان شناعة ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول : **لَهُ لَا يَأْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** .

وإذا كنت أرجو من الكتاب وأهل القيادة والتوجيه في الأمة ، أن يفتنوا إلى ذلك ، ويعملوا على إحياء الآمال في نفوس الناس ، فإنني أوجه ذلك أيضاً إلى أسانذتي وإخواني وأبنائي من الأزهريين ، فقد سرى إليهم أن ضعفاً شديداً قد استولى على العلم والدين والخلق ، وأن الأزهر لم يعد يجد مكاناً له بين أهل الرأي والقيادة ؛ فأصبح محصوراً بين كلياته ومعاهده ، يدرس ما يدرس ، ويهمل ما يهمل ، ويجرى في كل ذلك على سنن من التباطؤ والتكاسل ، لا يدفعه عنه دافع ، ولا يعبأ به عابئ ، سرى إليهم ذلك ، وظنوا أن مصلحة العلم والدرس مضیعة بين التراخي والإهمال ، فيئسوا أو كادوا ، وصار كبارهم يتحدثون بما كان من علم الماضين ودأبهم وقوة إيمانهم ، ويشكون من الشكوى من انصراف القلوب ، وإحلال العزائم ، وضعف الأخلاق ، وصار المحدثون منهم يفعلون ما يشامون ، ويأتون من الأمر ما يأتون ، ويدعون منه ما يدعون ، لا يدفعهم إلى ذلك دافع من العلم والتكمل بالدرس والمعرفة ، ولكن دافع من الرغبة في مستقبل مادي يضاهيهم به غيرهم من أهل المعاهد والجامعات الأخرى ، كأن المستقبل يضمن بالقوانين والقرارات ، لا بالتمسك من العلم ، وإقناع الأمة بكفاية الخريجين .

نعم صرنا إلى ذلك كله ، والأمر فيه خطير إذا لم يُتدارك ، ولكن لا ينبغي أن نياس ، ولا ينبغي أن ننسى أن ظروف الحياة الدراسية والفكرية في البلاد قد تطورت ، وخير لنا أن نعالج أسباب الضعف بالحزم والقوة والصبر وتوسيد كل أمر إلى من يصلح له ، ويستقيم به ، فإن أكبر الإصلاح أن يباشر الأمور أهل الإصلاح ، أما أن تندب وتستغيث وتتصور الأمور تصوراً المشدوهين المغلّسين ، ونترصد أن يصلح الله الأحوال ، بأمر من السماء يتنزل به جبريل أو سواه من ملائكة الرحمن ، فسيطول تربصنا ، وتكثر متاعبنا ، ولن يجدنا الصياح ولا الدويل .

بين الشريعة والقانون

نظرات في توثيق المعاملة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبكي
المفتش بالأزهر

القدر الذى يتعلق به التوثيق الواجب :

يقول ابن قدامة : « ويختص ذلك — أى التوثيق — بما له خطر ، فأما الأشياء القليلة الخطر ، كحوائج البتمال والعطار وشبهها ، فلا يستحب فيها ، لأن العقود فيها تكثر ، فيشق الإشهاد عليها ، وتقبح إقامة البينة عليها والترافع إلى الحاكم ، بخلاف الكثير . »

فإن قدامة ، ومن ذهب هو مذهبهم ، فى نذب الاستيثاق ، يخصون النذب بما كان كثيرا ، وأما القليل : فيقبح عندهم التوثيق فيه ، لما ذكروه من كثرة التعاقد فيه ، ومشقة التوثيق فى هذه الكثرة ، وهذه تفرقة بين الكثير والقليل من عندياتهم ، تخالف الظاهر من عموم الأمر ، وتخالف قول سعيد بن جبير : « أشهدوا على حقوقكم ، إذا كان فيها أجل ؛ ومن قوله : أشهد على حقه ، على كل حال . فلم يتعرض لتفصيل ، بين قليل وكثير ، فكان دليلا على التعميم كذلك . »

وأوضح من هذا فى الدلالة على التعميم ، قول ابن جريج : سئل عطاء : « أشهد الرجل على أن بايع بنصف درهم ؟ قال : نعم ؛ هو تأويل قوله تعالى : « وأشهدوا إذا تباعتم » ، وكذلك روى المغيرة عن إبراهيم قال : يشهد ولو على « سُفْتِجَة بقل — حزمة — وإن لم يبين فى هذا النقل من إبراهيم ؟ وذلك كله يتمشى ظاهرا مع ما روى عن ابن عمر أنه كان يشهد على البيع المنجز ، إذ لم ينقلوا عنه تفرقة بين القليل والكثير . »

فنحن الآن بين ثلاثة آراء في تقدير الدين ، أو الثمن الذى يؤخذ فيه بالتوثيق .

(١) رأى يتجه الى وجوبه فى القليل والكثير ، كما نقل عن عطاء .

(٢) ورأى يذهب الى النذب فى القليل والكثير ، وهم : أحمد والجمهور ، وقد حكاه الجصاص وسواه .

(٣) والرأى الثالث : ما نقلته عن ابن قدامة ومن يوافقه من نذب التوثيق فى الكثير ، وقبحه فى القليل لحاجة العطار والبقال .

والناظر فى هذه الآراء يلح من بينها أن للعرف دخلا فى التقدير ، وترجيح رأى على رأى ، فالقول بالوجوب لا يطرد فى كل جليل وصغير ، وإلا كان إعاناتا ، وضغطا على الناس ، فى إنجاز المصالح التى يراها الإسلام ، ويقصد إلى تيسيرها . والقول بالنذب عامة لم يستقم ، وقد توسعت فى تفنيده سابقا .

والقول بقبح الاستيثاق فى القليل على ما يرى ابن قدامة وموافقه لا يطرد فى كل قليل ، إذ القليل يختلف باختلاف العرف ، وحالة المتعاملين ، فالرغيف والليمونة والبطيخة ، وأفة من الفاكهة ، من القليل الذى لا يبلغ مبلغ الاهتمام به عند أوساط الناس ، مما يتناولونه فى حوائجهم ، كصندوق من الصابون ، وعدل من الأرز ، ووسق من التمر ، وثوب من القماش ، أو ما قارب هذا كيلا أو وزنا . فلكلام ابن قدامة مبنى على مراعاة العرف ، والموازنة بين قليل تافه ، وقليل بالإضافة الى الخطير . وإذا رجعنا الى الآية الكريمة ، وما نقل من الآثار ، مع الاستئناس بأعراف الناس ، أمكن أن نستظهر وجوبا ، وندبا ، وإباحة ؛ فالوجوب يستفاد من صيغ الامر فى أول الآية ، وهو يتعلق بما كان خطيرا عرفا ، والنذب يتعلق بما لم يكن تافها ولا خطيرا ، والإباحة تتعلق بالتجارة الحاضرة التى نص القرآن على استثنائها من الامر بالتوثيق . وبيان هذا التفصيل من وجهين :

١ — الوجه الأول : وهو يتفق فى مغزاه مع كلام الشيخ محمد عبده ، أن آية الدين جاءت بعد آيات الربا ، ولما كان فى آيات الربا نهى عن قليله وكثيره ، وفيها تحذير شديد ، وإنكار ووعيد ، وفيها تنبيه إلى الموعظة ، وأمر بإلتظار

المعسر حتى يتمكن ، وحث على التصديق بالعفو عن المعسر الذى لا يجد ، وفيها حث على التقوى وتذكير باليوم الآخر .

أقول : لما كانت آيات الربا بهذه المثابة ، وكانت حافلة بالتوجيهات الآنفة ، كان من شأنها أن تصرف الناس عن التشبث بالدين ، وترغبهم عن التعلق بالأموال ، وتوهمهم أن الشريعة تجنح بهم إلى التساهل كثيرا فى الحقوق ، وخاصة إذا راعينا أن الصحابة كانوا يستمعون القول ، فيسبق بعضهم بعضا الى المبالغة فى الطاعة أكثر مما يطلب إليهم ، ونحن لا ننسى أن ابن عمر وآخرين ، سمعوا وعظا من النبي صلى الله عليه وسلم فى فضل الصدقة والصوم والصلاة ، فاعتزم كل منهم أن يلزم عبادة تخيرها ، ويتجنب زوجه ، والاشتغال بالدنيا ، لولا أن صرفهم النبي عليه السلام عن الإفراط ، وعلمهم أن هناك حقوقا أخرى للبدن ، وللزوجة والأولاد ولمودة الناس ، وعلمهم أنها حقوق تراعيها الشريعة أكثر مما زعموا . ولا ننس كذلك أن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه رغب أن يتصدق بماله كله ، فمنعه النبي صلوات الله عليه عن السكل الى الثلث ، وقال له فى المشهور : « إنك أن تترك ورثتك أغنياء ، خير من أن تتركهم عالة يتسكفون الناس » .

أقول : لما كان فيما سبق من آيات الربا ، ما يوهم غير المقصود ، اقتضت الحكمة أن تكون آية الدين ، حجة للناس فى المال ، مشيرة الى فضله ، حائة على صيائمه ، وعدم التفريط فيه ، إذ فى التهاون مضيعة للأولاد ، وتعرض للأفلاس ومذلة الحاجة .

وقد كشف عن هذه المعانى ، حديث النبي صلى الله عليه وسلم : « نعمما المال الصالح للعبد الصالح » . رواه أحمد والطبرانى وكذلك قوله عليه السلام : « إن الله كره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة الأموال » .

لذلك كانت صيغ الأمر فى صدر الآية ، لإيجاب الاستيثاق فى الديون ، وصرفهم عما توهموا ، غير أنه لا يعقل أن تكون الديون التى جرى فيها الربا بينهم ، ولم يكونوا ينظرون المدين فيها ، والتى نزلت بسببها آية التوثيق ، لا يعقل أن تكون درهما أو دريهمات ، وإنما المعقول والمعهود أن تكون مما يتعلق به

الحرص ، ويعتد بشأنه ، ويمكن استغلاله بالربا أو بسواه ، وأن تكون ديونا يعجز عنها المدين أو يكاد ، ويكون الأنظار بها رفقاً .
وبهذا الاعتبار يترجح عندي الى شبه اليقين ، أن التوثيق المأمور به في الآية الى قوله : ولا تسأموا ، واجب في الديون التي كانوا يهتمون بها ولا يزالون ، دون التافه اليسير .

قد يقال : إن الحمل على هذا يتضح لو كانت آيات الربا والدين نزلت دفعة واحدة ، كما هي مرتبة في التلاوة ، حتى يكون بينهما ارتباط في السياق ، ويكون الوهم الناشئ من الاولى مدفوعاً بالثانية ، وتكون الثانية من الاولى بمنزلة البيان الذي اتحد مع المبين ، في وقت نزوله ، والحاجة اليه .
والجواب : أن في هذا أقوالاً ، وقد رجح السيوطي القول باتحاد هذه الآيات في وقت النزول ، وذلك في كتاب الإتيقان ، حينما عرض للروايات المختلفة في آخر ما نزل من القرآن ؛ هل آخر ما نزل هو آية الربا ، أو آية الدين ، أو ما توسط بينهما ، من قوله تعالى : « واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله ، » فقال : ولا منافاة عندي بين هذه الروايات ، لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف ، ولأنها قصة واحدة فأخبر كل من الرواة المختلفين عن بعض ما نزل ، بأنه آخر ما نزل ، وذلك صحيح . انتهى كلام السيوطي .

وإلى كلام السيوطي أطمئن ، وعليه أعتمد في الإجابة عن السؤال الذي افترضه ، وبهذا يظهر وجه التناسق بين الآيتين ، ويتضح ما قلت : من أن الصيغ الاولى ، لإيجاب التوثيق في الديون الخطيرة ، دفعاً لما ينشأ من آيات الربا .
ورب معترض على هذا الوجه يقول : إذا سلمنا لك أن آيات الربا ، وما فيها من زجر ووعيد منشأ للوهم الذي اقتضى الأمر بالتوثيق لدفعه ؛ فالمقبول أن نترك صيغ التوثيق على وتيرة واحدة في الإيجاب أو النذب ، كما صنع الاولون ؛ من غير تقسيم منك لها إلى ما يدل على وجوب ، وما يدل على نذب ، وليكنك تجاوزت هذا ؛ فملت صدر الآية على إيجاب التوثيق فيما كان ذا شأن من الديون ، وهذا تخصيص للفظ العام بخصوص السبب وهو خلاف القاعدة المسلم بها ، العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، أو تخصيص بلا تخصص .

والجواب : أولا — أن الوهم الناشئ سبب في ربط الآيتين ببعضهما ، وليس وحده سبب النزول . ولم أقل بذلك ، فلا يقال إنني خصصت العام بسبب خاص .

وأما سبب النزول : فأمر عدة : منها دفع ذلك الوهم ، وإقرار المسلمين على ما كان معمولاً به من السلم على ما أشار إليه المفسرون ، وبيان ما يلزم في الشاهد وفي الكاتب وفي المحل : من الأمانة ، والتحري وما إليهما مما تضمنته الآية . ولا مانع من مراعاة أمور عدة ، يكون مجموعها سبب النزول .

والجواب : ثانياً — أتى لم أعتبر صيغ التوثيق في صدر الآية عامة في كل دين ، كما اعتبرها السابقون ، حتى يعترض على بما سلف ؛ بل أفهم أن المقصود منها لأول وهلة هو إيجاب الاستباق فيما كان ذا بال من الديون والحقوق ، أيا كان نوعه : من قرض ، أو عرض سلع ، أو ثمن مبيع ، أو أجرة عمل ؛ فالجواب الأول : على التسليم بعموم صيغ التوثيق ، والثاني : على المنع .

أما نقد الخطير من غيره ، وتمييز هذا من ذاك ، فموكول إلى العرف بين الناس ، حسبما تقضى عوائدهم وأحوالهم ، ونحن نرى ونعلم أن خمسة ، وعشرة جنهات ، قد تعتبر دينا نافها عند الناس ، وخطيرا عند آخرين ، بمن يقع الشجار بينهم ، لاختلافهم على خمسين قرشا . وقد قدرته الشريعة في مواضع ، كنصاب الزكاة ، وقدر ما يجب فيه ، وكالدية ، والكفارات ، وكالنصاب الموجب للقطع في السرقات .

أما التعامل الذي لا يقف نظامه وتطوره عند حد ، فإلى العرف نحتكم في شأنه ، ونرجع في تقديره . كما نحتكم إليه في تقدير المهر ، والنفقات ، وقيم المتلفات ، وبالعرف نهتدى في تقدير ما يجب ، وما لا يجب الاستباق فيه ؛ وقد أقرت الشريعة العمل بالعرف الصحيح ، كأصل من أصولها ، تيسيرا على الناس ، وإفساحا لهم في مجال الحياة ، فرجوعنا إليه يعتبر عملا بأصل مشروع .

ذلك كله أحد الوجهين في تفصيل ما استظهرته ، من تقسيم التوثيق : إلى واجب ، ومندوب ، ومباح . وموهنا العدد القادم ، إن شاء الله .

القتل غير في الإسلام

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعدي
الأستاذ في كلية اللغة العربية

يحملني على الكتابة في هذا الموضوع ، أن بعض من كتب في السيرة النبوية من علماء أوروبا ، يستنكر ما حصل من النبي صلى الله عليه وسلم من الأمر باغتيال كعب بن الأشرف اليهودي وغيره ، لأنهم يدعون أن في هذا القتل شيئاً من الغدر ، فلا يصح أن تقره شريعة من الشرائع ، ولأن هذا أيضاً ليس من شأن الحكومات مع الأفراد ، بل الذي من شأنها أن تأخذهم علناً بحكم القانون ، فن يستحق القتل أخذه علناً ، أما الاغتيال فهو من شأن بعض الأفراد مع بعض ، ويجب أن يؤخذوا عليه بالعقاب ، لما فيه من الاعتداء على سلطة الحكم .

وإذا أردنا أن نعرف الحكم الحقيقي لهذا القتل في الإسلام ، وجب أن ننظر نظرة إجمالية في السيرة النبوية إلى وقوعه فيها ، لنعرف الأسباب الصحيحة التي أدت إليه ، ونعطيه الحكم الصحيح الذي يليق بهذا الدين العادل ، ويليق بما جاء به ، من إثبات النظام على الفوضى ، وكان من حسن بلائه في ذلك أن أقر حكم القانون في بلاد العرب ، خفضت له بعد أن كانت في جاهليتها لا تخضع لشيء ، وكان كل فرد فيها يأخذ حقه بنفسه من غيره ، فتضيع في ذلك حقوق الضعفاء ، ويكون الحق للقوة وحدها .

لقد قضى النبي صلى الله عليه وسلم في مكة ثلاث عشرة سنة ، كان فيها في قلة وضعف ، وقد أودى فيها أتباعه أشد أذى ، وعذبوا فيها أقسى عذاب ، وقد قتل في هذا العذاب بعضهم ، ومن قتل منهم سمية أم عمار بن ياسر ، رضى الله عنهم ، عذبها آل المغيرة على إسلامها لترجع عنه ، فكانت تأتي إلا الإسلام ، وتحمل فيه عذابهم ، حتى ماتت تحته ؛ وكذلك مات فيه زوجها ياسر .

وقد انتهت هذه المدة على طولها في مكة ، فلم يحاول أحد من المسلمين أن يثار لما حصل لهم من التعذيب والقتل باغتيال واحد من كانوا يعذبونهم أو يقتلونهم ، مع أن هذا كان سهلاً عليهم ، لأنه لم يكن في مكة حكومة منظمة ، تحمي أهلها من حوادث الاغتيال ، ولكن الإسلام دعوة سلمية بريئة ، فهو إنما يأخذ الناس علناً بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، ولا يدخل في دعوته أخذ الناس إليها بأية وسيلة من وسائل الإرهاب ، كاغتيال خصوم الدعوة ونحوه ، مما يخيفهم من مناوئتها ، ويحملهم على الانضمام إليها ، خوفاً من شر أهلها ، وهذا أيضاً إلى أن الإسلام ، دين سياسة ، ولم يكن من حسن السياسة اغتيال أحد من كان يعذب المسلمين ، ويقتلهم في مكة ، لأنهم كانوا في ضعف وقلة ، فلو اقتصوا لواحد منهم بهذه الوسيلة ، لتفاقم الخطب عليهم ، ولعمد خصومهم إلى قتلهم جميعاً ، فلا تجب دعوتهم أحداً يؤمن بها ، وهنا يكون الانتقام الإلهي بأية من آيات العذاب ، فتقتضى على خصوم هذه الدعوة ، كما قضوا على أنصارها ، ومثل هذا لم يكن مراداً لدعوة الإسلام الخالدة ، وإنما كان يراد أخذ خصومها بالوسائل السلمية ، إلى أن يؤمنوا بها ، وتبقى دعوة خالدة ، إلى ما يشاء الله أن تبقى .

ثم كان بعد ذلك أن انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فكث فيها عشر سنين إلى وفاته ، وقد انقسم أهلها عليه قسمين : قسم آمن به إيماناً صادقا ، وناصره على أعدائه بنفسه وماله ، وقد كان هذا القسم يشمل جمهور أهل المدينة ؛ وقسم نافق في الإسلام ، فأبطن الكفر وأظهر التسليم للدعوة ، ولم يخلص للمسلمين كما أخلص لأعدائهم ، فكان يحسب من المسلمين لإظهاره الإسلام ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل منه هذا الخضوع الظاهري مع علمه بما يبطنه من الكفر ، ويجرى عليه أحكام المسلمين الصادقين ، لأنه أمر أن يحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر ، ولكنه كان مع هذا يذم النفاق والمنافقين ، من غير أن يخص بهذا الذم شخصا منهم ، ليحذر المسلمون الصادقون دسائسهم ، ولا يتأثروا بشيء من مؤامراتهم في السر .

وقد كان هؤلاء المنافقون يلحقون بدسائسهم ومؤامراتهم ، كثيراً من الأذى بالمسلمين ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم ، يكتفي بإفساد هذه المؤمرات عليهم ، ولا يأخذهم بالقتال كما كان يأخذ من يجاهره بالعداء ، ويصارحه

بالقتال ؛ لأن الإسلام لا يقاتل إلا من يقاتله من أعدائه ، ولهذا يؤثر السلم مع من يسأله منهم ، ولو لم يكن مخلصاً في إظهار السلم ، كما قال تعالى في سورة الأنفال : « وَإِنْ جُنَحُوا لِلْسَّلَامِ ، فَاجْنَحْ لَهَا ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ ، فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ، هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ، الْآيَتِينَ ٦١ ، ٦٢ مِنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ .

وقد مكث هؤلاء المنافقون يناوئون الإسلام في المدينة سرّاً ، ويخدمون أعداءه بالتجسس لهم على المسلمين ، فإذا بلغ النبي صلى الله عليه وسلم شيء من مناوأتهم أتوا إليه ، فتبرأوا مما بلغه ، فيكتفي منهم بذلك ، وهو يعلم كذبهم ، ولا تحدّثه نفسه بأن يتخلص منهم بطريقة تناسب نفاقهم ، بأن يأمر باغتيالهم في السر ، فيتخلص منهم بهذه الطريقة التي يلجأ إليها من يقبل مثلها في دعوته ، وقد استأذنه عمر بن الخطاب يوماً في أن يقتل عبد الله بن أبيّ رئيس المنافقين ، فنهاه عن ذلك وقال له : فكيف ياعمّر إذا تحدّث الناس : أن محمداً يقتل أصحابه ! . وكذلك روى عدي بن الحيار : أن رجلاً سارّ النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يدروا ما ساره ، حتى جهر رسول الله ، فإذا هو يستأذنه في قتل رجل من المنافقين ، فقال له : أليس يشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال : بلى ، ولا شهادة له . فقال له : أليس يصلي ؟ قال : بلى ، ولا صلاة له . فقال له : أولئك الذين نهانى الله عنهم ، .

وإنما لم يلجأ النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذه الوسيلة مع أولئك المنافقين ، لما سبق من أنها لا تدخل في دعوته ، ولأنهم دخلوا في حكمه ظاهراً ، فيجب أن يؤخذوا على جرائمهم بما يليق بشأن الحكومات مع أفرادها بقطع النظر عن دياناتهم وعقائدهم ، فإذا ثبتت عليهم جريمة أخذوا بها علناً ، وللحاكم أن يغضى عن بعض هذه الجرائم لمصلحة توجب الإغضاء عنها ، ولا يصح أن يؤخذوا على جرائمهم بوسيلة من الوسائل السرية ، لأن مثل هذا ينشر الفساد في الوطن ، وهو سلاح ذو حدين ، فإذا لجأت إليه الحكومة في معاقبة أفراد رعيّتها ، لجؤوا إليه أيضاً في النأر من رجالها ، وفي هذا يخفق وجه الحق ، ولا يظهر كما يظهر في أخذ الناس علناً بحكم القانون .

وبهذه النظرة الإجمالية في السيرة النبوية ، يمكننا أن نحكم بأن الإسلام

لا يبيح الهجوم إلى الاغتيال بين أبناء الوطن الواحد لسبب من الأسباب ، بل يجب أن يكون الحكم بين أبناء الوطن الواحد للقانون وحده ، وأن يكون أخذ الناس به في العلن لا في السر .

والذي حدث من الاغتيال بإذن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بين أبناء الوطن الواحد ، وإنما حدث لنفرين أو ثلاثة من أعداء المسلمين ، ولم يكن للمسلمين سلطة عليهم ، حتى يمكنهم أن يأخذوهم بحكم القانون ، ويقتصوا منهم علناً ، كما يقتص من كل فرد يخضع للحكم .

ومن هؤلاء الاثنين أو الثلاثة ، كعب بن الأشرف اليهودي ، وقد كان من أشد الناس عداوة للمسلمين ، حتى بلغ من أمره أنه لما بلغه قتل أشراف قریش في غزوة بدر ، قال : أحق هذا ؟ أترون أن محمداً قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان — بشيرا النصر إلى أهل المدينة — وهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس ؟ والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء لبطن الأرض خير من ظهرها .

وكان لكعب سطوة كبيرة بين أهل الحجاز ، وكان له مال كثير ، يقاب به العرب ، وكان يقول الشعر ، فأخذ يحرض بشعره العرب على المسلمين ، ولم يكتف بهذا التحريض الذي قد يحتمل من عدو ، بل أخذ يشببُ بنساء المسلمين ، ويرميهم بالسوء ، وكان لا يخشى أمر المسلمين ، لما كان له من الحصون التي يحتجى بها ، والاتباع الذين يقاتلون عنه .

ولا شك أن مثل هذا لا يمكن أن يؤخذ بحكم القانون في سلم ، وإنما هي الحرب التي يمكن الثأر بها منه ، وللحرب وسائلها التي تؤدي إلى أغراضها ، وقد يستباح فيها من الخدعة وغيرها ما لا يستباح في السلم ؛ وقد كان جمهور اليهود ، إلى هذا الوقت ، في سلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ما عدا كعباً وأتباعه ؛ فرأى من حسن السياسة أن يأخذه بهذه الوسيلة التي لا تثير أحداً ، وآثرها على حرب قد تجمع حول كعب من العرب واليهود ما هو في غنى عنه ، وآلمهم في هذا أن كعباً كان عدواً للمسلمين ، ويستحق القتل ، وأنه لم يكن للمسلمين سلطة عليه حتى يأخذوه باسم القانون في العلن ، ولا يضر بعد هذا أن يكون قد أخذ بالقتل غيلة أو غيره ، لأن الحرب يستباح فيها قتل الأعداء ؛ فإذا قتل واحد منهم غيلة كان من الحق أخذ هذا على عدوه .

بين مالك والليث

— ١ —

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الله المراغي

مدير المساجد

يطيب لنا أن نذكر الناس اليوم بإمامين جليلين ، هما مالك بن أنس إمام دار الهجرة ، والليث بن سعد إمام مصر كنفانة الله في أرضه ؛ وقد قام بينهما قديما جدل حول مسائل دينية ، وكان نقاش وحجاج أضفيا عليه ثوبا من الاحترام المتبادل رغم ما في هذا الجدل من شدة بلغت الذروة . ولعل في هذا ما يحمل الناس على انتهاج طريق الحكمة والسداد عند تبادل الآراء ، والدفاع عن وجهات النظر المختلفة في شتى شئون الحياة ؛ فإن ذلك أدعى الى صون علاقات الود ، وأدنى الى دوام المحبة ، وأقرب الى الوصول الى الحق .

وقبل أن نسوق هذا الجدل ، نحب أن نترجم لسكلا الإمامين فيما يلي :

مالك بن أنس

أصله :

هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي المدني ، إمام دار الهجرة أحد الائمة الاربعة . وإليه تنسب المالكية ، ويكنى بأبي عبد الله . والأصبحي بفتح الهمزة وسكون الصاد وفتح الباء الموحدة ، نسبة الى ذى أصبح ، واسمه الحارث ، من أجداد مالك ، وينتهي نسبه الى يعرب بن قحطان وهي قبيلة كبيرة باليمن .

مولده ونشأته :

ولد رضى الله عنه بالمدينة سنة ٩٣ هـ ولما شب حفظ القرآن ومالت نفسه الى طلب العلم . ويحدث مالك عن ذلك فيقول : قلت لأبي : أأذهب فأكتب العلم ؟ فقالت : تعال فالبس ثياب العلم فألبستني ثياباً مشمرة ، ووضعت الطويلة على رأسي ، وعممتني فوقها ، ثم قالت : اذهب فأكتب الآن . وكانت تقول : اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه ، وكان مالك يختلف إلى ربيعة وإلى ابن هرمز يسمع منهما ويسألهما : كما أخذ القراءة عن نافع بن أبي نعيم ، وسمع الزهري ونافعاً مولى ابن أبي عمر . ولقد صبر مالك على طلب العلم ولاقي في سبيل ذلك الشدائد . قال ابن القاسم : أفضى طلب العلم بمالك إلى أن نقض سعف يده ، فباع خشبه ، ثم أقبلت عليه الدنيا بعد ذلك وقد تهر مالك في علوم شتى وخاصة الحديث والفقه . وقد روى عنه أنه قال : كتبت يدي مائة ألف حديث . وقال أيضاً : كنت آتي سعيد بن المسيب وعروة والقاسم وأبا سلمة وحميذا وسالمًا ؛ فأدور عليهم أسمع من كل واحد من الخسين حديثاً إلى المائة ثم أنصرف ، وقد حفظت كله من غير أن أخلط حديث هذا بحديث هذا . قال ابن عينة : ما رأيت أجود أخذاً للعلم من مالك ، وما كان أشد انتقامه للرجال والعلماء .

وقال أيضاً : دارت مسألة في مجلس ربيعة وتكلم فيها ربيعة ، فقال مالك : ما تقول يا أبا عثمان ؟ فرد عليه ربيعة رداً ما يسر أحداً أن يقال له ، ومالك ساكت احتراماً لشيخه ، ثم انصرف وجاء وقت الظهر ، فصلى بالمسجد وجلس وحده بعيداً عن مجلس ربيعة ، فجلس إليه قوم فحدثهم ، فلما كان الغد اجتمع إليه خلق كثير ، ثم صار يجلس إلى الناس يحدثهم ، وهو ابن سبع عشرة سنة ، وعرفت له الأمانة في النقل والرواية ، وبالناس يومئذ حياة وبقظة . قال ابن عبد الحكم : أفتى مالك مع يحيى بن سعيد وربيعة ونافع ، وهم شيوخه . وقال مصعب : كان لمالك حلقة في حياة نافع ، أكبر من حلقة نافع ، وكان مالك يقول : ما جلست للفتيا والتعليم حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم . وقال : لا خير فيمن يرى نفسه بحالة لا يراه الناس لها أهلاً .

عليه وصلاحه :

أسلفنا القول في شهادة بعض أكابر العلماء في ذكاه مالك ونبوغه ، ومنهم شيوخه ، والواقع أن مالكا عرف بالتبحر في العلم منذ صباه ، وكان عليه مقرونا بكثير من التواضع ، والصلاح والأمانة ، مع إحاطة بالكتاب والسنة ، والفقه وأصوله ، مع صدق الرواية والتثبت فيها ، وحسن التوثيق ، حتى أجمع الناس عليه في عصره ، واقتدى به الأكابر .

ولقد كان شيوخ أهل المدينة يقولون : مابق على ظهر الأرض أعلم بسنة ماضية ولا باقية منك يا مالك . ويقول ابن مهدي : ما بقى على وجه الأرض آمن على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالك عن نافع ، عن ابن عمر ، رضى الله عنهما ، ثم مالك عن الزهري عن سالم عن أبيه ، ثم مالك عن أبي الزناد الأعرج عن أبي هريرة رضى الله عنه ، ولم يذكر سلسلة أخرى عن غير مالك . وقال : مراسيل مالك أصح من مراسيل سعيد بن المسيب ، ومن مراسيل الحسن البصري ، ومالك أصح الناس مراسلا . وقال سفيان : إذا قال مالك بلغنى ، فهو إسناد قوى . وناظر محمد بن الحسن الشيباني الإمام الشافعي يوما فقال : أيهما أعلم : صاحبنا ، أم صاحبكم ؟ يعنى أبا حنيفة ، ومالك رضى الله عنهما ، قال الشافعي : قلت على الإنصاف ؟ قال : نعم ، قلت : فأشهدتك الله من أعلم بالقرآن : صاحبنا ، أم صاحبكم ؟ قال محمد : اللهم صاحبكم ، قلت : فأشهدك الله من أعلم بحديث رسول الله ، صاحبنا أم صاحبكم ؟ قال : اللهم صاحبكم ، قال الشافعي رضى الله عنه : فلم يبق إلا القياس والقياس لا يكون إلا على هذه الأشياء ، فسكت محمد . وكان مالك معروفا بالصلاح والتقوى ، يشهد الصلوات والجنائز ، ويعود المرضى ، ويقضى الحقوق ، ويجلس في المسجد فيجتمع إليه أصحابه ، فيعطى كلا مسأله ، وكان شديد التحري في حديثه وفتياه ، لا يحدث إلا عن ثقة ، ولا يفتى إلا عن يقين ، وكان مجلسه مجلس وقار وحلم ، فقد كان مهيبا نبيلًا جليلا ، لا يعتري مجلسه شيء من المراء واللاغط ، ولا رفع الصوت . وحسبك في مهابته وجلاله : أن هارون الرشيد الخليفة العباسي كتب إليه ليأتيه فيحدثه ، فقال مالك : العلم يؤتى !

فقصده الرشيد إلى منزله فجلس واستند إلى الجدار ، فقال مالك : يا أمير المؤمنين ، إن من إجلال رسول الله لإجلال العلم ، فجلس بين يديه مستويا ، فحدثه . وعرف عن مالك أنه إذا أراد أن يحدث توضأ ، وجلس على صدر فراشه ، وسرح لحيته ، وتمكن في جلسته ، فسئل عن ذلك ، فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان لا يركب في المدينة ، حتى مع تقدم سنه وضعفه ، ويقول : لا أركب في مدينة دفنت فيها جثة رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان مالك لا يتبول إلا ما يعتقد : سئل يوما عن يمين المسكره ، فقال : لا نلزم . فوشى به إلى جعفر بن سليمان وإلى المدينة عم المنصور العباسي ، وقالوا : إن مالكا لا يرى إيمان ببعثكم لازمة ، فاستدعاه وجرده ، وضربه سبعين سوطا انخلعت فيها كتفه ، وكأنما كانت هذه السياط تيجان مجد ، وأوسمة شرف ، فقد علت منزلته في نفوس الناس ، وازداد قدره .

تلاميذه :

تتلذ لمالك جبهة من أكابر العلماء ، وما عرفت عن عالم تتلذ له كثير من شيوخه وأكابر أقرانه سوى مالك . وقد عد القاضي عياض من تتلذوا له من هؤلاء وهؤلاء فنيفوا على الآلاف من مشاهير العلماء سوى من لم يشتهر ، ولم يعرف . فمن شيوخه الذين رووا عنه : محمد بن مسلم الزهري ، وقد مات قبل موت مالك بخمس وخمسين سنة ، وربيعة بن أبي عبد الرحمن ، وقد توفي قبل مالك بست وثلاثين سنة ، ويحيى بن سعيد الأنصاري ، وقد توفي قبل مالك بثلاث وأربعين سنة ، وموسى بن عقبة وهشام بن عروة ، ونافع بن أبي نعيم الأنصاري ، ومحمد بن عجلان ، وسالم بن أبي أمية ، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب ، وعبد الملك ابن جريح ، ومحمد بن إسحاق صاحب المغازي ، وسليمان بن مهران الأعمش .

ومن أقرانه : سفيان بن سعيد الثوري ، والليث بن سعد المصري ، والاوزاعي ، وحماد بن زيد ، وسفيان بن عيينة ، وحماد بن سلمة ، وأبو حنيفة وابنه حماد ، وأبو يوسف القاضي ، وشريك بن عبد الله القاضي ، والإمام الشافعي ، وبعدهم عبد الله بن المبارك ، ومحمد بن الحسن ، وموسى بن طارق القاضي ، والوليد بن سليم ، ومن أصحابه عبد الله بن وهب ، وعبد الرحمن بن القاسم ، وأشهب بن عبد

العزیز ، وزیاد بن عبد الرحمن القرطبی ، ویحیی بن یحیی بن کثیر اللیثی ، وأبو الحسن علی بن زیاد التونسی ، وأسد بن الفرات ، وعبد الملك بن عبد العزیز الماجشون .

مؤلفاته :

أشهر مؤلفات مالك : الموطأ . وسبب تأليفه أن أبا جعفر المنصور قال لمالك : ضع للناس كتاباً أحملهم عليه ، وجنبه شدائد عبد الله بن عمر ، ورخص عبد الله بن عباس ، وشواذ عبد الله بن مسعود . فقال مالك : إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا في البلاد ، فأفتى كل في مصره بما رأى . وروى : أن الذي كلبه في ذلك هو المهدي ، وأن مالكا أبي أن يحمل الناس على مذهبه ، ثم وضع الموطأ . قال أبو زرعة : لو حلف رجل بالطلاق على أحاديث مالك التي في الموطأ أنها كلها صحاح لم يحنث .

ومالك مؤلفات جليلة ، مروية عنه أكثرها بأسانيد صحيحة غير الموطأ ؛ من أشهرها رسالة في القدر ، والرد على القدرية وهي تدل على سعة علمه ، ومنها كتاب في النحو ، وحساب مدار الزمان ، ومنها رسالته في الاقضية في عشرة أجزاء ، ورسالته إلى أبي غسان محمد بن المطرف في الفتوى ، وكتابه المشهور إلى هارون الرشيد في الآداب والمواعظ ، وكتابه في تفسير غريب القرآن ، ورسالته إلى الليث بن سعد في إجماع أهل المدينة وغيرها .

أدله الاجتهادية .

يستند مالك في مذهبه على الكتاب والسنة والاجماع ، والقياس إذا لم يكن هناك نص من كتاب ، أو سنة ، ويعطى عمل أهل المدينة أهمية كبرى ، لاسيما أئمتهم ، وفي مقدمتهم أبو بكر ، وعمر . وقد يرد الحديث لأنه لم يجر عليه العمل ، ويقول : إن عدم عمل أهل المدينة به دليل على أن هناك ما ينسخه . ونازعه في ذلك كثير من فقهاء الأمصار ، ومنهم الليث بن سعد المصري . ويقول مالك بالمصالح المرسلة ، وهي أمور لم يشهد لها من الشرع دليل بطلان ، أو باعتبار ، وذلك كضرب المنهم بالسرقه للاستنطاق ؛ أجازة مالك لأن مصلحة المسروق منه تقتضيه ، ومنها طلاق المفقود زوجها إذا تضررت بالعزوبة ،

وانتظرت أربع سنين بعد انقطاع خبره ، يطلقها الحاكم عند مالك ثم تتزوج . أخذ في ذلك برأى عمر . ومن ذلك عدة المطلقة ونفقتها تدعى عدم الحيض . قال مالك : تعتد ثلاثة أشهر ، ثم تنتظر تسعة أشهر مدة الحمل ، فالجميع سنة ، ولا نفقة لها أكثر من ذلك . وله غير ذلك .

وفاته :

توفي رحمه الله ، سنة ١٧٩ هـ بالمدينة المنورة ، وصلى عليه عبد العزيز بن محمد ابن إبراهيم بن محمد بن علي بن عباس ، وكان والياً بعد أبيه على المدينة ، ومشى في جنازته وحمل نعشه .
« يتبع »

العلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم : كن عالماً أو متعلماً ، ولا تكن الثالثة فهلك .
وقال عبد الله بن عباس : منهومان لا يشبعان : طالب علم ، وطالب مال .
وقال هو أيضاً : ذلت طالباً ، فعززت مطلوباً .
وقال رجل لأبي هريرة : أريد أن أطلب العلم وأخاف أن أضيعه ، قال كففاك بترك طلب العلم إضاعته له .
وقال عبد الله بن مسعود : إن الرجل لا يولد عالماً ، وإنما العلم بالتعلم .
وقال شاعر :
تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل
وقال آخر :
تعلم فليس المرء يخلق عالماً وما عالم أمراً كمن هو جاهل

مَفْرَدَاتُ فِلْسَافِيَّة

حرية (تتمة)

نقد و تعليق

لفضيلة الاستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
الاستاذ بكلية أصول الدين

نقد :

١ — المعنى : أو المعنى العام لكلمة حرية ، وهو حالة من لا يعاني إكراها ، ومن يتصرف حسب إرادته وطبيعته ، يراد عادة فيما يختص بالأعمال الإنسانية ، ويسمى هذا النوع من الحرية بالحرية الطبيعية ، وهي التي تنقص المريض والأسير ونحوهما .

والتعريف هنا غير جامع ؛ لأن حالة من لا يستطيع فعل ما يريد لنوع أدبي أو مصلحي من الإكراه يدخل غالبا في نفس هذا النوع من الحرية . ومن مُثل ذلك الرجل الذي لا يستطيع أن ينتخب في الناحية التي يهواها مخافة أن تضع عليه فائدة ، والمريض الذي لا يستطيع عمل ما يريد مخافة ازدياد المرض ، لا بسبب عدم الاستطاعة الطبيعية أى الجسدية . إذأ يكون الاوفق التعبير عن هذا الضرب من الحرية بالحرية الخارجية ، لا الحرية الطبيعية .

٢ — الحرية بالمعنى السياسى لا يمكن أن تُعرَّف بعدم أى إكراه يمكن أن يقع على الإنسان . فإن هذا المعنى لا يتفق بحال مع وجود الجماعة التي لها من الحقوق ما يجب أن يراعه الفرد ؛ فلا يستطيع لهذا أحيانا فعل ما يريد . إن الحرية بهذا المعنى تكون إباحة وانطلاقا بلا ضابط ، لا حرية بالمعنى الصحيح .

الحرية السياسية هي إذأ عدم أى إكراه غير مشروع ، ولا يتفق مع طبائع الأمور « anormale » . وفي هذا يقول دُور كايم « Durkheim » ، في كتابه

قسمة العمل الاجتماعى ص ٤٢٩ ، « هذا الإكراه الذى يمنعنا من أن نرضى دون قيد أو حد رغباتنا ، حتى ما كان منها غير معقول ، لا يصح أن يختلط بالإكراه الحق الذى يحرمنا من وسائل نيل ما نستحقه على عملنا من جزاء عادل ، .

تعليق :

يرى الأستاذ هيمون « Hemon » ، أن الحرية بالمعنى النفسى والأخلاقي هى سيطرة المرء على نفسه ، وذلك بعمل العقل المفكر والإرادة ضد الشهوة والهوى . وفى هذا المعنى لدى الرواقين يقول إبيكتيت « Epictète » ، (فى كتابه : المختصر) : « يكون سيدا لهذا الشخص أو ذاك من يستطيع أن يعطيه أو أن يحرمه الأشياء التى يطلبها ، من يستطيع أن ينزل به ما يخاف أو أن يجعله بنجوة منه ؛ إذا فالذى يريد أن يكون حرا عليه ألا يرجو أو يخاف شيئا يملكه غيره ، وإلا فلن يكون حتما إلا رقيقا ، .

وفى هذا المعنى يحاور هذا الفيلسوف الرواقى تلميذا له فيقول :

- هل يستطيع أحد أن يكرهك على عمل ما لا تريد ؟
- نعم هذا من الممكن ؛ لأنى إذا هُذِّدت بالموت أو السجن فعلت ما لا أريد .
- ولكن إذا كنت تحتقر الموت والسجن ، هل تهتم بهذا التهديد فيجعلك تقوم على ما لا تريد ؟
- لا ، طبعاً .

— بعد هذا هل ترى احتقار الموت من الواجب عليك ؟

- نعم ، بلا ريب .
- إذا ، فأرادتك حرة دائماً .

ونحن وإن تنافى مقام تحديد معنى كلمة حرية ومدلولاتها المختلفة باختلاف الفلاسفة والنواحي التى استعملت فيها ، لا يسعنا إلا أن ندعو للتمثل بهذا الفيلسوف فى هذه الناحية .

* * *

ومهما يكن من المعانى التى اتخذتها كلمة « حرية » ، فى أول الأمر ، وبعد

أن اتسع مدلولها بتطور الزمن واختلاف الأفهام ، فإن هذه المعاني - التي رجعنا فيها إلى المعاجم العربية والاجنبية ؛ وبخاصة قاموس « لا لاند » الذي هو أساسنا دائماً - ترجع ، كما نرى إلى قدرة المرء على أن يفعل ما يريد ، غير مقيد بشئ خارج عن نفسه إلا بالقانون ، ورعاية حق غيره من الافراد ، وحق الصالح العام .

ومما يجب أن يلاحظ في رأينا أن الحرية وإن كانت حقاً طبيعياً للإنسان ، وفي هذا يقول عمر بن الخطاب القولة التي نسبت إليه : « لم تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ! الحرية وإن كان كذلك إلا أنها - بكل أسف - قد لا تتفق وسلطان الطبيعة العام ، هذا السلطان الذي يتمثل في ميل الطبيعة إلى أن يسيطر القوى على الضعيف . ومن ثم تكون الحرية نصراً كبيراً وصلت إليه الإنسانية بعد كفاح وبلاء عظيمين .

كما نلاحظ أن الإسلام اعترف منذ ظهوره بهذا الحق الطبيعي للإنسان بما هو إنسان ، وذلك حين يقول القرآن في سورة « البقرة » : « لا إكراه في الدين » فهذا تحرير لوجدان الإنسان وضميره ، ويتبع ذلك دائماً تحرير فكره وعقله ثم تحرير مظاهر ذلك من عمله .

على أن الذي يمنع المرء عادة من أن يكون حراً ليس هو السلطة القسائية وحدها ، بل هو أنه يجعل نفسه - راضياً - أسير ما يرجوه من خير ، وما يخشاه من شر ، إن أعطى لنفسه حريته ، يخالف بما يقول ويعمل ما يريد الرئيس منه ؛ ومن ثم ، نرى أن للمرء نفسه - إلى حد كبير - أن يجعل نفسه حراً أو رقيقاً .

وأخيراً ، لعل من الخير أن نختم هذا البحث بالإشارة إلى بعض ما ذكره « سبيسوزا » في رسالته السياسية عن الحرية .

إنه يرى أنه ليس للدولة أن تحدد من حرية الفرد إلا بمقدار ما تخشى من ذلك على كيانها ، وأنه بمقدار ما تقل رقابة الدولة على العقل بمقدار ما تكون عليه الدولة والرعية من صلاح ؛ ولهذا ليس أخطر من أن يمتد سلطان الحكومة إلى عقول الناس وتفكيرهم ونفوسهم ، وأن الهدف أو الغاية التي يجب أن تعمل الدولة لها أن تكفل الحرية لكل المواطنين ، فإن المرء متى ظفر بهذه الحرية لا يكثرث بعد هذا بأي ضرب من ضروب الحكومات يسود .

لِغَوَايَا رَجُلٍ

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار
الاستاذ بكلية اللغة العربية

حسناوات

يجرى هذا الجمع لحسناوات في الصحف كثيراً . ففي مجلة « الاثنين » ، الصادرة في يوم ١٩٤٨/٢/٢٣ : « هذا السكمل عاش مائة عام وعشرة » ، لترشمة هؤلاء الحسناوات . وقد جرى بحث فيه من الوجهة العربية ؛ فالمعروف أن ما كان من الصفات على فعلاء لا يجمع بالالف والتاء ، فلا يقال في حمراء : حمراوات ، ولا في سوداء سوداوات ؛ وذلك أن الجمع بالالف والتاء يتبع الجمع بالواو والنون ، فما جمع بالواو والنون جمع مؤنثه بالالف والتاء ، وما لا يجمع بالواو والنون لا يجمع مؤنثه بالالف والتاء ، فلما لم يقل أحمران ، لا يقال : حمراوات . وقد عُدَّ الحريري في درة الغواص من أوهام الخاصة وأغلاطهم قولهم : بيضاوات في جمع بيضاء وسوداوات في جمع سوداء ؛ قال (١) : « لأن العرب لم تجمع فعلاء التي هي مؤنث أفعل بالالف والتاء ، وإنما جمعتها على فُعل » . وقد رأيت أن أتوسّع في بحث هذه المسألة ، لأن الحاجة لجمع فعلاء قد تعرض للكتّاب والناطقين . ويذكر أهل اللغة ضربين لفعلاء الصفة ، وقد أعرضت هنا عن فعلاء الاسم ، كصجرام ، لأنه لا خلاف في جمعه بالالف والتاء ، وكذا لو سميت امرأة بسوداء ، لا ينازعك أحد أن تقول في جمعها : سوداوات . ففعلاء الصفة ضربان : ١ - فعلاء مذكرها أفعل ، وهذا هو

(١) انظر كشف الطرة للأوسى ص ١٥٣ .

الطريق المألوف والمهيج في فعلاء ، كحمرء وخضرء وما إلى ذلك . وهذه يرى أكثر النحاة ألا تجمع بالالف والتاء ، كما يرى أن مذكرها أفعل لا يجمع بالواو والنون ، وإنما يجمعان على فُعِّل ؛ فأحمر وأحمرء جمعهما مُحْمَرٌ ، وهكذا ما مثلهما ؛ وهؤلاء يحكمون بالشذوذ في قول الشاعر (١) :

وما وجدت بنات بنى نزار حلائل أسودين وأحمرينا

ومن النحويين فريق يميز ما حظه الآخرون ، فلا بأس عندهم في جمع حمرء على حراوات . وقد نسب الرضى (٢) في شرح الكافية هذا الرأى إلى ابن كَيْسَانَ ، وهو من خلط بين مذهبي البصريين والكوفيين ، وكان صاحب اختيارات . ونسبه المراتى في شرح التسهيل إلى الفراء وجعله قياس قول الكوفيين عامة ، إذ يميزون في مذكره الجمع بالواو والنون ؛ قال : فلا يقال حراوات كما لا يجمع مذكرها بالواو والنون . وأجاز الفراء سوداوات ، وهو قياس قول الكوفيين في جمع أسود بالواو والنون ، . وقد استند هؤلاء المميزون إلى قول الشاعر السابق : حلائل أسودين وأحمرينا ، ولم يروا شذوذه كما رآه السابقون ، وهم جمهور البصريين . وواضح أننا إذا أخذنا برأى هؤلاء المميزين فقد وجدنا مخرجا واسعا في تصحيح حسناوات .

٢ - والضرب الثانى : فعلاء صفة لا مذكر لها . وقد عقد ابن سيده فى المخصص (٣) لهذا الضرب عدة فصول . ومن هذا الضرب حسناء التى أتحدث عنها ؛ إذ لا يقال فى مذكرها أحسن ، إنما أحسن صيغة تفضيل ، ومؤنثه الحسنى ، وجمعه الأحاسن ؛ قال صاحب اللسان : قالوا امرأة حسناء ، ولم يقولوا رجل أحسن . قال ثعلب : وكان ينبغى أن يقال ؛ لأن القياس يوجب ذلك . وهو اسم أنثى من غير تذكير ؛ كما قالوا غلام أمرد ، ولم يقولوا جارية مرداء .

(١) نسبة صاحب الحزاة إلى الأعور الكلبى يرد به على الكيت الأسدى فى زرايته على القحطانيين وانتصاره لغيره ؛ انظر الحزاة ص ٨٦ ج ١ طبعة بولاق .

(٢) انظر شرح الكافية ص ١٨٧ ج ٢ .

(٣) ص ٥٣ وما بعدها ج ١٦ .

ومن هذا القبيل حلة شوكاء للجديدة ، لا يقال ثوب أشوك ، وكذلك امرأة عجزاء ، ورتقاء ، وعذراء ، وهذه لا مذكر لها من قبل الخلقة والطبع . وإن أردت استقصاء ذلك فارجع إلى المختصص .

وأقول في هذا الضرب : إن المجيز للجمع بالآلف والتاء في الضرب الأول يجيز هذا لا محالة ، وأما الممانعون في الضرب الأول فهم في هذا الضرب فريقان :

(أ) ففريق يرى المنع ، وهم الكثرة ، ويستندون في ذلك إلى الحمل على الأكثر ، وهو فعلاء التي مذكرها أفعل ، ومن سنن العرب حمل الأقل على الأكثر في الظواهر اللغوية ، ومن ذلك أن أكرم وآدر يمتعان الصرف وإن لم يرد لهما مؤنث حتى يدرى أهو مختوم بالتاء أم لا ، حملا على الأكثر في ذلك وهو غير المختوم بالتاء . فلا يقال عند هؤلاء : حسناوات ، ولا عجزاوات ، ولا عذراوات .

(ب) وفريق يرى أن منع الجمع بالآلف والتاء لمنع جمع المذكر بالواو والنون ، وهذا الضرب لما لم يكن له مذكر ، لا يتحقق هذا المانع ، فيجوز الجمع بالآلف والتاء ، وإمام هؤلاء ابن مالك .

وقد أيد ابن مالك قياسه هذا بالسماع ؛ فقد قال العرب في خيفاء : خيفاوات ، وفي دكاء ذكاوات . يقال : ناقة خيفاء ، أى واسعة جلد الضرع ، ونوق خيفاوات وخيف ؛ قال صاحب اللسان : الأولى نادرة ، لأن فعلاوات إنما هي للاسم أو الصفة الغالبة غلبة الاسم ؛ كقوله صلى الله عليه وسلم : « ليس في الخضراوات صدقة » . وترى في الحكم بندوق هذه الصيغة مغمزا في استدلال ابن مالك : على أن له أن يقول : إن النادر إذا كان له وجه من القياس صح القياس عليه ، كما قاس سيبويه على شئى ، ولم يرد من بابة غيره . والدكاء يقع وصفا للأكمة المنبسطة ، ويذكر صاحب اللسان أيضاً أن هذا نادر ، وهذا لا يجبر على ابن مالك في قياسه لما أسلفت .

ولم أبق أسوق إليك كلام ابن مالك في شرح التسهيل ؛ قال بعد أن ذكر ما يجمع بالآلف والتاء : « واستثنيت فعلى وفعلاء المقابلين لفعلان وأفعل ، فإنهما لا يجمعان بالآلف والتاء كما لم يجمع مذكرهما بالواو والنون . ولا يلزم

هذا المنع فيما كان من الصفات على فعلاء ولا مذكر لها على أفعل ؛ نحو قولهم : امرأة عجزاء ، وديمة هطلاء ، وحلة شوكة ؛ لأن منع الألف والتاء من نحو حمراء تابع لمنع الواو والنون من أحمر ، وذلك مفقود في عجزاء وأخواتها ؛ فلا منع من جمعها بالألف والتاء . على أن الجمع بالألف والتاء مسموع في خيفاء ، وهي النساق التي خيفت أى اتسع جلد ضرعها ، وكذا سمع في دكاء وهي الأكمة المنبسطة ، وكلاهما نظير ما ذكرت في عجزاء وهطلاء وشوكاء ، في أنهن صفات لا مقابل لها على أفعل . فثبت ما أشرت إليه والحمد لله .

على أن هذه المسألة لا يزال فيها بقية من البحث وفضل من النظر . فإن حسناء كلمة شائعة عند العرب ، ولم يرد عنهم في جمعها حُسُن ولا حسناوات ، وإنما يقولون : نساء حسان ؛ قال في اللسان : « وجمع الحسناء من النساء حسان ، ولا نظير لها إلا عجفاء وعجاف » . وفي الحق أن هذا ليس بجمع قياسي لفعلاء ، وإنما هو من باب الاستغناء في الباب بشيء من باب آخر . فقد جعلوا للحسناء جمع مرادفها حسنة . فقالوا : حسان ، كما جعلوا العجفاء جمع مرادفها عجف ، فقالوا عجاف . وقد دعاهم إلى ذلك أن يجعلوا عجافا مقابل سمان ونظيرها في الوزن . وهم مما يحملون الشيء على ضده ، كما قالوا : رضى عليه ، حملا على سخط عليه . فكذلك قالوا : حسان في جمع حسناء كما قالوا قباج . وفي قوله تعالى : « فيهن خيرات حسان » ، فالظاهر أن حساناً جمع حسناء ، لا حسنة .

ومن المقرر عند أصحاب هذا الشأن أن ما استغنى العرب عنه بغيره اطرح ووجب اتباعهم فيه . فهذا يقودنا إلى حظر حسناوات والتزام حسان ، وهذا هو الوجه في هذه الكلمة ، وإن كان لنا مما سلف من الآراء مخرج نتجوز به وتوسع في استعمال حسناوات .

علل لما تقول :

يجرى هذا الاستعمال كثيرا في الاسئلة التي توضع لاختبار الطلاب في

مراحل التعليم ؛ فيقال : أجب عن كذا وعلل لما تقول ، أى اذكر علته ووجهه . والمعلل فى مصطلح آداب البحث هو المدعى الذى وظيفته أن يقيم الدليل على دعواه ويستدل ويذكر علته ، ويتقابله الممانع أو السائل ، وهو الذى يطلب الدليل ، ويبحث فى العلة التى ينصبها المعلل . وقد تحدث بعض المعنيين بالعربية فى عربية هذا الأسلوب ، فأردت أن أذكر نبذة تتعلق به .

فيقال : علّل الشارب إذا سقاه مرة بعد أخرى . والأصل فى هذا العَلَل ، وهو الشرب للمرة الثانية وهو ضد السَّهْل ، وهو الشرب للمرة الأولى ، يقال : سقيته عللا بعد نهل ، ويقال : علل الصبي إذا ألهاه عن البكاء بما يقدم إليه من حلوى وغيرها ، وكذلك يقال فى كل تسليية ؛ قال جرير :

تُعلَّل — وهى ساغبة — بنها بأنفاس من الشيم القـراح
وقال خدّاش بن زهير :

كذبت عليكم أو عدوني وعلّلوا بى الأرض والاقوم قردان موظبا
يقول : هدّدوني واجهوني وأهلوا بهجاءكم لىبى الأرض والاقوام يا قردان
الموطن المسمّى موظب ، وهو مكان يسكن فيه القردان ، والقردان واحدها
قُرَاد ، وهو دويّبة يلصق بالبعير ويعصّته .
ويقول الشاعر :

خلىّ هبّا عللانى وانظرا إلى البرق ما يغرى سنا وتبسّما
يقول : عللانى أى حدثانى وألهيانى بالحديث .

وقد يعرض للباحث أن يسأل عن صلة العلة للسبب أو الدليل بالعَلَل .
وبيان ذلك : أن العلة تأتى فى معنى المرض ؛ وكان ذلك فى الأصل للحصى تعناد
الإنسان بعرقها ورُحَضائها ، فكأنما تسقيه ذلك ، ثم أطلق على كل مرض .
واستعملت العلة فى الحدث يشغل صاحبه عن حاجته كأنما هو مرض يكف
صاحبه عن مزاولته أعماله ومعالجة أسباب عيشه . واستعملت العلة أيضا فى
العذر يعتذر به الإنسان عن لوم يوجّه إليه فى التقصير فى بعض الأمر ،
والأصل فيه المرض ؛ فإن المريض يسقط عنه اللوم والمعتبة ، والله تعالى يقول :

« ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ، .
ولما كان العذر سببا يتمسك به المعتذر أطلق العلة على السبب ؛ وتقول عائشة
رضي الله عنها في حديث لها عن أخيها عبد الرحمن : كان عبد الرحمن يضرب
رجلي بعله الراحلة أى بسببها : يظهر أنه يضرب رجل الراحلة وإنما يضرب
رجل عائشة رضي الله عنها . وأطلق العلة من هذا على الدليل يستدل به المدعى
إذا كان سببا في تمكين ما يقول ويدعى .

وبعد هذا أقول : إن ذكر التعليل في معنى ذكر العلة لانراه في المعاجم
باديا سافرا ، فالذى فيها هو المعنى السابق وما يُمْتُّ إليه . ومن ثم أنكر بعض
الباحثين هذا الاستعمال الذى صدرت به البحث . غير أن صاحب اللسان أورد
في المادة هذا النص — وهو عن المحكم — : « المَعْلَلُ : دافع جابى الخراج
بالعلل ، فترى أن المَعْلَل من يذكر العِلَل ، وعلى ذلك يقال : علل أى ذكر
العِلَّة أو العِلل ، وهو ما نريد . فإن قال قائل : إن الوارد هو الوصف ،
فأما الفعل فلا نراه في عبارة ابن سيده . قلت : إن الوصف إذا ورد كان مؤذنا
بقِيَام الفعل . ويقول ابن جنى : « (١) قال لى أبو على — بالشام — : إذا صحَّت
الصفة فالفعل في السكف ، .

ومما يؤنس لما نحن فيه أنه ورد الاعتلال في معنى ذكر العلة ؛ ويقول
الفارابي — على ما في المصباح — : اعتل إذا تمسك بحجته . وقال (٢) أبو قيس
ابن الأسلت :

وتكرمها جاراتها فيزرنها وتعتل عن إتيانهم فتعذر
وليس بها أن تستهين بجارة ولكنها منهم تحيا وتخفر

فقلوه : تعتل عن إتيانهم أى تعذر بذكر وجه تخلفها عن زيارتهم .
فظهر أن التعليل في معنى ذكر العلة له وجه صحيح . والله أعلم .

(١) الخصائص ص ١٣٧

(٢) انظر لأغاني ص ١٦٦ ج ١٥

الْبَيَّانُ لِأَلِ الْمَعْجِزَةِ

لحضرة صاحب السباحة « السيد »

خليلة حميدة قديمة في علماء الدين ورجالاته ، لا المحدثه فيهم ولا المنزعة ؛ تلك أهم كلنا تلقوا أثارة من وحي السماء وحوار النبي صلوات الله عليه ، تلقوا هما باليمين والعقد المتين ، واستمسكوا منهما بالحقيقة الصلبة ، لا بالتجوّز ولا التسمّح ، حراسةً للدين وبُغْيًا اليقين ، وقد تنزلت بالاستعارة والكنائية ، آية ، وصّاح وحيّ المجاز ، أوجاز .

نضّر الله أسياننا وأسلافنا الأصوليين ، فقد كانوا ألبين أخذاً ، وأرقى تفهماً ، قالوا — على التمثيل — : إن الأمر الشرعي للوجوب ، ثم تلقّوا ناحيةً ، فأصّابوا أموراً في طلبها هواة وترفق ، فقالوا لإلّا حين تقول الشواهد والدلائل : لا وجوب . أما حلاوة الشمائل كلها ، وترّف النفوس والأفئدة بجملته ، فذاك أن الأصوليين وقد استمعوا إلى آية التفسّح في المجالس ، وهي قول الله تعالى : « يأيتها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسّحوا في المجالس ، فافسّحوا يفسّح الله لكم ، يقولون : إن الأمر للوجوب الشرعي ، أجل ، ولكنه في مثل هذه الآية للأدب الاجتماعي ، والرقه النفسية .

تجلت علينا السيرة النبوية بحديثين أو خبرين عن النبي صلوات الله عليه ، أحدهما في هجرته ، والثاني في غزاته ، أخذ علماء الدين فيهما بالأشد من جدّ القول وجوهر الحقيقة ، دون طلاوة البيان ، وبشاشة الكناية ، والتسمّح الأدبي .

إنّ بنا بعد هذا أن نعرض نبأ هذين الحديثين في حلّته وحليته ، لننظر أيّ الرأيين أمثل ؟ الحقيقة أم الكناية ؟ ، وأيهما أنبل وأرق : المعجزة أم البيان ؟ ؛ أما الخبر الأول : فذاك ما خرّجه مسلم في صحيحه ، وغير مسلم ، قال : « إن النبي صلوات الله عليه ، حين هبط المدينة في هجرته ، أنه عثبان

ابن مالك ، وعباس بن عباد ، في رجال من بنى سالم بن عوف ، وأخذ بزمام ناقته ، فقال : يا رسول الله ، أقم عندنا في العدد والعدة ، فقال : دخلوا عنها فإنها مأمورة ^(١) ، وما زالت الناقة سائرة ، حتى أتت دار بنى مالك بن النجار ، حتى بركت على باب مسجده ، والنبي لم ينزل عنها ، فقامت ثانية ، وسارت غير بعيد ، ورسول الله واضع لها زمامها لا يثنيها به ، ثم التفتت الى خلفها وبركت ! .

هذا حديث الهجرة ، يرى العلماء فيه مسحة من المعجزة ، في مقالة النبي صلوات الله عليه «دعوا فإنها مأمورة» وفي بُرُوكها حيث نزل على بنى النجار ، يرون أنها أبت البرُوك من ذات نفسها ، ثم من ذات نفسها بركت بعد ذلك ، حيث يريد الله والنبي صلوات الله عليه . ويقول البيان العربي وسحر المجاز : كلاً ، ليس في المقال شيء من هذا كله ، وأن النبوة قائمة بغير هذه من المعجزات ، وبينة الآيات .

إن البيان العربي ليشتمل على الشيء باسم متصل به ملابس له ، وما هو بسبب منه ، وعلاقات المجاز لا تعدد ، فقد عني النبي نفسه حين قال «دعوا فإنها مأمورة» ؛ ذلك أنه هو المأمور لا هي ، إما بوحي من الله ، وإما بوحي من الصالح ، ورياضة المصالح ؛ يقول الشاعر في مثل هذا ، وأعجب أن يكون في ذكر الناقة :

جاءت إليك قلقاً وضيئها مخالفا دين النصارى دينها

وإنما جاء بها صاحبها ، وإنما المخالف لدين النصارى إنما هو دينه هو ، لا دينها هي . وقال شاعر آخر ، وأكبر العجب أنه في الناقة كذلك :

سمعت الناس يذجعون غيثاً فقلت لصيدح انتجعي بلالا

وإنما انتجع هو بلالا لاناقتة . ويقول شاعر آخر في تسمية الشيء بما يدانيه ، أو يلاقيه ويلابسه :

فشككت بالريح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

قيل : ثيابه جسمه ، أجل هي كما قيل . هذا هو الحديث الأول ؛ أما الحديث الثاني فذاك حديث القليب الذي ألقيت فيه أشلاء الصناديد من قریش بعد القتل في بدر .

(١) ليست هذه الجملة في أصل الحديث .

حديث القليب :

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « إن رسول الله صلوات الله عليه كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس ، يقول : هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله ، فوالذى بعثه بالحق ما أخطأ الحدود التى حد رسول الله صلوات الله عليه حتى انتهى إليهم حسين ألقوا فى القليب ، فنادى : يا عتبة بن ربيعة ، يا شعبة بن ربيعة ، يا أمية بن خلف ، يا أبا جهل بن هشام ، يا أهل القليب : هل وجدت ما وعدكم الله ورسوله حقاً ؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى الله حقاً ، بئس العشيرة كنتم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ! فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا رسول الله كيف يسمعون ؟ وأنى يحييون وقد جيفوا ؟ قال النبى : « والذى نفسى بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يحييوا » .

تلك قصة أهل القليب ، قليب بدر ، الذى ألقى فيه صناديد قريش حين قتلوا . أما الدين فقد أرسلته السماء ، فتلقته بارتياحها الأرض ، وقامت به المعجزات حتى راعت ، شهدها الثقلان ، وغض عنها القمران ! ، أما المعجزة فلا يحمل أن نقول فيها هذا حديث معجزة ، وإنما هى خارق ، إن كثرت عادت قاعدة أو إلغا ، فلم تكن معجزة ولا آية ، وانقلبت الآية ! .

لسنا بسبيل أن نجحد حياة الموتى - معاذة الله - ولا أن نستنكر إسماع النبى لمن فى القبور أو القليب ، فإن هذا حق قائم ، وهو لب الدين ، معقد الإيمان ؛ ولكننا نستنكر أن يكون هذا - دون ما ذكرناه - مغزى السيد الرسول صلوات الله عليه فى هذا النداء لأصحاب القليب ، وإنما هو خطاب العظة والحكمة ، لا لاسرى الموت والفناء ، بل للأحياء ! .

إن النبى صلوات الله عليه حين خاطب أهل القليب فى بدر ، فقرعهم بالحجة القائمة من النضر المؤزر ، لم يعمد إلى إبانة معجزة ، ولا قصد إلى آية ، ولكن بجمية تلك فى العظام أن يتطربوا ، وترتاحهم استبانة الحق ، وتجللى الحكمة ؛ فإن هم خاطبوا الموتى ، فإنما يخاطبون فيهم الأحياء للحكمة والعظة وشفاء النفس بقومة الدعوة وتبلج اليقين ... إن حديث النافه فى الهجرة النبوية ، وخطاب أهل القليب فى بدر ، إنما هو إذن للبيان لا المعجزة والآية ، إن فى ذلك لآية .

الشرعية لا تستلزام قانون من إنكسار هذا

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغي

مدير المكتبة الأزهرية

من أين لك هذا ؟ عنوان قانون تصدره الحكومة الآن تعالج به الفساد الذى أشاعه فى الأداة الحكومية ذوو الضيائر المدخولة ، والذمم الضعيفة ؛ فضعفت ثقة الناس بها ، وسامت ظنونهم فيها ، وألجأتهم إلى أن يسلكوا فى إنجاز شئوهم مسالك الريب التى منها أولئك المجرمون ، وهى مسالك قدرة ، لا تشرف بها الحكومة ، ولا تشرف بها الأمة . وقد ابتليت مصر ببعض حكام طغى على نفوسهم سلطان المادة ، وغشى أعينهم بريقها ، فأفقدتهم الأمانة والشرف ، ومراقبة الله والواجب ؛ فاندفعوا يجمعون الأموال من طرق غير مشروعة متوسلين إلى ذلك بجواهرهم الحكومى ونفوذهم الرسمى ، وكانوا بذلك عاملا من عوامل الفساد الخلقى والاجتماعى ، فأغروا من دونهم أن يتهجس نهجهم ، ووجد دام الرشوة سبيله إلى الدواوين ، وانعقدت فى جو الموظفين سبب السمحة والحرام ، فلجأت الحكومة إلى مكافحة هذا الشر بذلك القانون ؛ لتستقيم الأداة الحكومية ، وليطمئن الجمهور إلى مصالحه وشئونه .

وضعف الخلق وفساد الذمم دام قلما سلمت منه أمة وخلا منه عصر ، إلا أن ظروف الحياة قد تضاعف من أثره وتزيد من خطره ؛ فتلجأ الحكومات إلى سن القوانين لمكافحته ، والوقاية منه ، وليس ببعيد أن يكون بعض ملوك قدماء المصريين قد ألجأته الظروف إلى سن مثل ذلك القانون ، كما قال بعض الكتّاب ؛ فقد ذكر أن هناك قانوناً يعرف بقانون «أمازيس» ، وهو يقتضى على كل مصرى أن يذهب مرة فى كل عام إلى شيخ قريته أو بلدته ، ويثبت له أنه يعيش فى حدود موارده من طريق شريف ، فإذا عجز عن إثبات ذلك ، كان قصاصه الإعدام .

وقد عرف الإسلام أصول ذلك القانون فى كتاب الله وسنة رسوله ، وعرف

تفاصيله في أعمال الرسول وأعمال الخلفاء والتابعين والصالحين من الولاة من بعدهم ، وعننى الإسلام بموضوعه أشد العناية ، فدعا إلى اختيار الحكام ممن عرف بالعدالة والنزاهة ، وسلامة الدين والخلق ، وحذر من اختيارهم لداعى القرابة والمودة ؛ فعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ولى من أمر المسلمين شيئاً ، فولى رجلاً ، وهو يحد من هو أصلح منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه « من ولى من أمر المسلمين شيئاً ، فولى رجلاً لمودة ، أو قرابة بينهما ، فقد خان الله ورسوله ، وخان المؤمنين » ، وحذر الحكام من استغلال نفوذهم ، والإفادة من جاههم الرسمى فى مصالحهم الخاصة ، وبالغ فى تحذيرهم من ذلك مبالغة صرفت كثيراً من الصالحين عن الولاية والحكم ؛ بل لقد كان بعضهم يؤثر الضرب والسجن على الحكم ؛ كما فعل أبو حنيفة ومحمد رضى الله عنهما . وفى القرآن الكريم من أصول ذلك القانون قوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعماً يعظكم به . إن الله كان سمياً بصيراً » ، فالعمل الذى وكل إلى الموظف أيا كان نوعه وجعل له فى نظيره مرتب يتقاضاه عنه ، أمانة يأمره الله بأدائها على وجه كامل ولا يحل له أن يأخذ من الأفراد شيئاً وراء مرتبه ؛ لا على سبيل الهدية أو الاكرام ، أو نحو ذلك من العناوين التى لا تغير من حقيقة موضوعه شيئاً ؛ فهو سحت ورشوة ، وحرام مهما تزين بعنوان . وقد حكم النبي صلى الله عليه وسلم بمصادرة الاموال التى جمعت من طريق استغلال النفوذ الحكومى والجاه الرسمى ، وضمها إلى مال الدولة ، كما يقضى بذلك بعض مواد القانون المراد وضعه .

فعن أبى حميد الساعدى ، رضى الله عنه ، قال : استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن اللاتبية على صدقات بنى سليم ، فلما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : هذا الذى لكم ، وهذه هدية أهديت إلى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهلا جلست فى بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيتك هديتك إن كنت صادقاً . ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناس ، وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أما بعد فأنى أستعمل رجلاً منكم على أمور مما ولانى الله ، فأتانى أحدكم فيقول : هذا لكم وهذه هدية أهديت إلى ، فهلا جلس فى بيت أبيه وبيت أمه حتى تأتية هديته إن كان صادقاً ! فوالله لا يأخذ أحدكم منها

شيئاً بغير حقه إلا جاء الله بحمّله يوم القيامة ! فلا عرفن أحداً منكم لقي الله يحمل بغير آله رغاء ، أو بقرّة لها خوار ! ثم رفع يديه إلى السماء حتى رقى بياض إبّطيه ، وهو يقول : « ألا هل بلغت ! » قال العيني شارح البخارى فى شرحه لهذا الحديث : وفيه أن ما أهدى إلى العمال وخدمة السلطان بسبب السلطة ، أنه لبّيت المال . وقيل لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : أفقرت أفواه بنيك من هذا المال ، وتركتمهم فقراء لا شئ لهم ، وكان فى مرض الموت . فقال : أدخلوهم على ، فأدخلوهم وهم بضعة عشر ذكراً ليس فيهم بالغ ، فلما رأهم ذرفت عيناه ، ثم قال : والله يابنى ، ما منعكم حقاً هو لكم ، ولم أكن بالذى آخذ أموال الناس فأدفعها إليكم ، وإنما أنتم أحد رجلين : إما صالح ، فالله يتولى الصالحين ، وإما غير صالح ، فلا أخلف له ما يستعين به على معصية الله ، فقوموا عني !

وأوجب الإسلام فصل الموظف الذى يندس شرف الوظيفة بالرشوة ، فنص الفقهاء على استحقاقه العزل بها ، وحرّموا الاستقراض والإعارة بمن لهم شئون ستعرض عليه للنظر فيها ، مبالغة فى ضمان سير العدالة فيها .

والأحاديث ونصوص الفقهاء وأعمال قضاة الإسلام حول موضوع هذا القانون كثيرة ، سواء منها ما يتعلق بناحية التشريع ، أو ناحية التطبيق ، وهى تبين بحق ، حرص الإسلام على سلامة الاداة الحكومية ، تحقيقاً للعدالة والثقة فى نفوس أرباب المصالح ؛ وتبين يقظة ولاية الأمور فى الإسلام ، وتقديرهم لخطورة استغلال النفوذ ، وسوء أثره فى أخلاق المجتمع ؛ فليس هذا القانون يبعد عن روح الإسلام وشريعته ، وأعمال قضاة ، وإن خاله بعض الناس كذلك ، والبعيد عنه إنما هى الصياغة والأسلوب فحسب ، بل ربما كانت نظرة الإسلام إلى هؤلاء الخائنين أشد صرامة من نظرة القانون الحديث .

هذا ، ولنا على عنوان القانون ملاحظة لفظية ، هى ثقل هذا العنوان اللفظى على السمع والذوق ، وربما يشركنى فيها كثير من الناس ؛ وأكبر الظن أن واضع القانون حرصوا على ترجمته من بعض اللغات الاجنبية ، ترجمة لفظية ، وكان يمكن بشئ من التنبيه اختيار عنوان يؤدى هذا المعنى ، وليس فيه ذلك الثقل فيسمى مثلاً : قانون الثروة المجهولة ، أو الثروة غير المشروعة ، أو ما يشابه هذه العناوين ، خفة على السمع والذوق ؟

سعيد المسيب

المتوفى سنة ١٩٤٤ هـ .

عصره . إلمامة بمنزلته وتقدير الناس له . أهم المؤثرات
في شخصيته . عهد التعلم . عهد التعليم . صور من ناحيته العلمية .
لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود النواوي
وكيل معهد أسيوط

عهد السلف الأولين الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفضل
المبين في قوله : « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »^(١) -
عهد كان له فضل التوفيق من الله سبحانه إلى سداد القول ، وسداد العمل ،
وإلى عمران الحياة بما هو سعادة للحياة وبر بأنفسهم وبالناس أجمعين .

كان الناس إذ ذاك ، وليس بهم حرص على عرض هذا الأدنى ، ولا بهم
طمع في نيل المناصب ، أو الإبقاء عليها ؛ وإنما تتمتع أعناق الرجال المطامع .
وكان علماءهم بمنزلة من العزة والمهابة ، تحسدهم عليها الملوك الصيد ، وإذا حاول
كبير أن ينال منها أذله الله ، وردّه خاسئاً وهو حسير .

فياليت شعري أين هؤلاء وما استنوه لنا من عز أقعس وطهر لا يتدنس !
أين هؤلاء ؟ وأيةً سلكوا ؟ لقد طارت بهم عنقاء مغرب ، وعز مطلبهم في كل
شرق ومغرب . فما بقيت إلا ذكرى قد توقظ الهاوين منا في دركات الغفلة
والتمادي في الفضول ، كما يوقظ نائم حسير منهوك قد بعد عهده بالنوم ؛ فلا يوقظ
إلا ليعاود النوم ، ولكن الإلحاح في الإبساس^(٢) ، ربما جاء بالدرة وأنقذ
من شر كبير .

(١) صحيح متفق عليه .

(٢) أبس الناقة دعاها للحلب متلطفاً . والدرة بالكسر : اللبن وأنصابه .

كان سعيد بن المسيب رضى الله عنه من أهل القرن الأول من أولئك الخيار الذين استمسكوا بحبل الله المتين ، وجمدوا على تقاليد الدين ، وأخذوا أنفسهم بما سمعوا من الرسول ومن أصحاب الرسول فاتبعوا أحسنه .

وهو من التابعين الذين يقول فيهم الله سبحانه في كتابه : والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات ، الآية . بل هو سيد التابعين ؛ كما تواترت النقول عن السلف ، وكما سترى في الشهادة له ^(١) ، وتقدير المعاصرين من الصحابة والتابعين فمن بعدهم .

كان الحبر الإسلامى العظيم عبد الله بن عمر بن الخطاب . يعجب به كثيراً ، ويحبل عليه في الفتاوى ، ويقول : سلوا هذا فإنه عالم ، فإذا نقل إليه حكمه يقول : ألم أخبركم ؟ ! بل كان يرجع إليه بنفسه يسأله عن أقضية أبيه عمر ، فلو لم تكن إلا هذه لابن المسيب ، لكففت في فضله .

شاء الله سبحانه أن يكون ابن المسيب في هذه المكانة ؛ فأنبته بالمدينة نباتا حسنا من أب وجد صحابييين ؛ فقد كان أبوه المسيب صحابياً ، وكان جده حزن صحابياً ، يقولون إنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له أنت سهل ، فقال : بل أنا حزن ثلاث مرات . قال سعيد : فما زلنا نعرف تلك الحزونة فينا . ونشأ سعيد منذ عهد العدالة الشاملة والخلق الفاضل العظيم ، عهد عمر بن الخطاب ؛ فقد ولد لسنتين من خلافته على المشهور في الرواية ، وكان عهداً يتفاضل الناس فيه بالتقوى ، ويوزنون بما عندهم من علم نافع ؛ وعمل صالح ، فأحب العلم ووهب له وقته ووكده ، وهو حافظ كانوا يتحدثون أنه لا يسمع شيئاً إلا وعاه ، واتصل بالصحابة واختلف إليهم ، يأخذ من معارفهم ، وأدبهم ويحاكيهم في تهذيبهم وتبليهم ، ويروى عنهم ما كانوا يسمعون من النبي صلى الله عليه وسلم .

فأسند - كما يقول ابن الجوزى - عن عمر وعثمان وعلى وسعد بن أبي وقاص وأبي بن كعب ، وعمار بن ياسر ، ومعاذ بن جبل ، وابن عمر ، وأبي الدرداء ،

(١) يريه من أنهم سيدهم في المعارف والفقهاء الإسلامى ، وإلا فقد ورد في الحديث الصحيح : خير التابعين أويس ، أخرجه مسلم .

وعقبة بن عامر وصهيب وجابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري وسلمان وأنس بن مالك ، وابن عباس ، وعمر بن أبي سلمة ، وعائشة ، وأم سلمة .

وقد اتصل بأبي هريرة وزوجه ابنته ، ولزمه ، فكان أعلم الناس بحديثه ، وأخذ تعبير الرؤيا عن أسماء بنت أبي بكر ؛ فكان من آيات الله وفي مثل منزلة ابن سيرين ؛ إلا أن شهرته بالفقه راحت لإتقانه في التعبير . كل هذه البيئات الصالحة والاتصالات المثمرة ، مع ذلك الاستعداد الخصب في ابن المسيب ، سميت به وارتفعت بمكانته ، ووصلت به إلى تلك المزايا ، وخلعت عليه تلك الألقاب الفخمة : سيد التابعين ، وأنبل التابعين ، وإمام الفقهاء ، ، وما إلى ذلك مما ينعت به العلماء . قال أحمد بن حنبل يوما : سعيد أفضل التابعين ، فقبل له : فسعيد عن عمر حجة ، قال : « فإذا لم يقبل سعيد عن عمر فمن يقبل ، وإنما سألت السائل أحمد هذا السؤال ؛ لأن سعيداً كان صغير السن في عهد عمر فاستبعد أن يسمع من عمر ، ولكن الثقة بسعيد جعلته في منزلة القبول ، حتى اعتبر العلماء مراسيله من الصحاح . هذا وإنك تستطيع أن تقول : إن أكبر هذه العوامل أثراً في تكوين سعيد بعد استعداده الكريم — صحبته أبا هريرة ولزومه إياه ؛ كما كان أبو هريرة يلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان أكثر الصحابة رواية ، أو من أكثرهم ، وقد كان من أثره فيه أنه اقتدى به في تزويج ابنته أحد تلامذته الفقراء وإيثاره بها على الوليد بن عبد الملك الأمير .

على أنه استطاع بالمحاولة والتتقيب أن يجمع فقه الصحابة وأقضيتهم ، يسأل عنها ويرويها حتى صار أعلم الناس بها ، وحتى قال عن نفسه : ما بقي أحد أعلم بكل قضاء قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان مني . ولعل ذلك لأنه جمع متفرقات ما عند أجلاء الصحابة في عهده ؛ فكان مرجعاً حتى للصحابة أنفسهم يأخذون عنه ، ويثقون بنقله عن إخوانهم رضى الله عنهم .

* * *

ولعلك إذا سمعت كلمة الفقه ، فهمت فيها ذلك المعنى الطارىء الذى ينصرف إلى معرفة الأحكام الشرعية على وجه يصح به نظام الحياة وتسقط به المطالبات ، وإلى دراسة الانسكحة ، وصور الطلاق والإيلاء واللعان ، والتغلغل

في التفريع على قواعد الرهن والسلم والصرف ، وهذا غير صحيح ؛ فإن الفقه عند السلف كان أسمى من هذا معنى وأنبئ مقصدا ؛ لقد كان راجعا الى فهم الدين فهما يهذب النفس ، ويوجهها الى البر والخير ، ويدل على عيوبها ومداخل الشيطان إليها وطرق محاربتها ومجاهدة النفس لتتجو من غوائله . قال الإمام الغزالي في الإحياء ^(١) ، وهو يحدث عما دخل الألفاظ من التغيير :

« إنهم تصرفوا في لفظ الفقه بالتخصيص ، فقد قصر على معرفة الفروع في الفتاوى والوقوف على دقائق علمها ، ولقد كان اسم الفقه في العهد الأول يطلق على علم طريق الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال ، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة التطلع الى نعيم الآخرة ، واستيلاء الخوف على القلب ، ويدلك عليه قوله عز وجل : « ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم » . وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعناق واللعان والسلم والإجارة ؛ بل التجرد له على الدوام يقسى القلب وينزع الخشية منه . . . » وأفاض الغزالي في هذا المعنى .

هذا هو الفقه الذي أجاده سعيد ، والذي كان سيد عصره فيه . وهذا هو الفقه الذي كان له أكبر الأثر في قنوت ابن المسيب ، وإعراضه عن الدنيا وإقباله على الآخرة ، والذي جعله يلزم المسجد النبوي ، ويواصل الخطى إليه ولا يتخلف فيه عن جماعة ، ولا ينظر في الصلاة إلى قفا أحد ؛ لأنه يصلي في الصف الأول أربعين سنة . وهو الذي جعله يتابع الصوم ، وجعله لا يقبل من أحد شيئا ، وجعله لا يقارن على كظة ظالم ^(٢) ولا سغب مظلوم ، وجعله لا يقبل أن يسام خطة ليست في مرضاة الله ولا طاعته ، وهو الذي جعل سعيد بن المسيب ينظر إلى الخليفة والامير نظرتة إلى المرذول الحقير ، لا فضل لأحد عنده إلا بطاعة الله ، ولا يسمع قول أحد لا يدعو إلى سنة رسول الله . فهو لا يبايع الوليد وهشام ابني الخليفة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن بيعتين ، وإن عرض على السيف وإن جرد وطيف به . وهو لا يزوج ابنته من الامير ولي العهد لأنه لغير وجه الله .

(١) ص ٥٤ ج ١ طبع لجنة نشر الثقافة .

(٢) الكظة بالكسر : البطنة .

ولا يلتبس به ما عند الله . لكنه يزوجها لآبى وداعة الطالب الفقير ؛ يزوجها لمن يرضى خلقه ودينه ، ويعرضها عليه بنفسه ويسلمها إليه بنفسه . بعد أن يصلى بها ركعتين ، ثم يبعث إليه بنفقته وما يحتاج إليه ، ولماذا يصاهر الخليفة والقرآن يقول : « وأنكحوا الأيأى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ، لماذا يصاهر الخليفة ، وقد أعرض عن الدنيا وطلب ما عند الله ، والخليفة يقربه من الدنيا ويأعده عما عند الله . وسأفصل لك هذه الصور بما يضع أمام عينك المثل الصالح للعالم الصالح ولرجل الدين الصحيح .

وبعد ، فإن المتابع لتاريخ هذا الإمام يستطيع أن يقسم حياته شطرين : شطر التعلم والاستفادة ، وشرط التعليم والإفادة .

أما الشطر الاول فتستطيع أن تحيط به إحاطة عابرة ، إذا علمت أنه منذ نشأته فى هذا الوسط الكريم ، ماونى فى طلب العلم يأخذه من أصوله و يصعد اليه فى قممه ممن ذكرت لك من الصحابة ، وهو الشاب المتوقد الطموح ؛ يعينه على ذلك صفاء نفس ، وطهر من كل دنس ، وقلب حافظ ، وتفرغ كان يحفره إلى الرحلة فى طلب الحديث الواحد الأيام والشهور . على أنه كان قليل الرحلة فى طلب العلم ؛ لأنه فى ذلك العهد موفور بالمدينة مقر الخلافة ومؤئل العلية من أصحاب محمد ؛ فهى تموج بالعلماء الربانيين الذى نصبوا أنفسهم لتبليغ دين محمد صلى الله عليه وسلم ، يبينون الكتاب للناس ولا يكتمونونه ، وينقلون الحديث والفقه ولا يدخرونه ، فقيم رحلته وهو بين بحار العلم المتلاطمة ، وبين أنوار الإسلام المتلاثلة من المهاجرين والأنصار . رحم الله الجميع وجعلنا لنا فيهم الأسوة الكريمة ، فزال ابن المسيب فى ذلك الجانب ، حتى صار كزرع أخرج شطأه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، وتضاعف إحسان الله سبحانه إليه ، فكان إمام التابعين ، تضرب اليه آباط الإبل ، وهو فى ذلك الحين المثل الأعلى للؤمن الصالح والمسلم المحافظ .

ثم يبتدى الطور الثانى من حياته ، وهو طور الإفتاء ونصب نفسه للتعليم إيماناً واحتساباً ، يعكف أكثر وقته على مسجد الرسول بين صلاة وتعليم ، ولا يعرف بالتحديد ذلك الوقت ولا نص عليه ، ولسكننا نرجح أن ذلك كان فى المدة

بين خلافة معاوية وابنه، ومهما يكن فقد ألقى عصا التسيار لا يعرف الطريق إلا ما بين مسجده ومشواه، مع أنه يتجر في الزيت؛ فلا تلهيه التجارة عن ذكر الله وإقام الصلاة، ويجمع من المال ما يصون به عرضه، ويكرم به نفسه عن بني مروان، ويحسن به إلى الفقراء قصداً لا إلخافاً، وإجمالاً لا تغلغلاً.

ويمكن تحديد أمره في ذلك الطور بأنه عكف على التعليم والنسك لله، وإيثار عبادته على كل ما سواه، لا يثنيه عن ذلك ثان. على أنه امتحن في دينه بما يترخص في مثله كثير من رجال الدين، فما لانت له قناة، ولا عدل عما يعرف أنه الحق ولو كان السيف على رقبته؛ إذا قال: لا لم يستطع أحد أن يقول نعم، وإذا قال نعم فما أنهاها وما ألد موقعها، قال: لا لعبد الملك بن مروان أكثر من مرة فما استطاع أن يصرفه عن مبدئه. وقال: نعم لأبي وداعة فدوت في أرجاء المدينة وهزت أركانها. وهلى الجملعة لقد ظهرت تلك النواحي الثلاث في الإمام ظهوراً جلياً لا يقبل لبساً ولا غموضاً: العلم الغزير الذي جعله مرجعاً للبلوك والرعية، والنسك لله مع الزهد في الدنيا ومظاهرها الخسابة، والصبر على الحق والجهاد في سبيله حتى يظهره الله أو يهلك دونه. وإليك صوراً من كل ناحية منها:

فأما علمه وسعة أفقه في الدين، فيتجلى فيما أشرت لك إليه من ثقة الناس به، وتهيأتهم على الاعتراف من بحره، سواء في ذلك التابعون وغيرهم من أهل العلم حتى الصحابة أنفسهم.

روى ابن سعد في طبقاته بسنده أن سعيداً كان يقول: ما بقي أحد أعلم بأقضية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان مني. وأن سعيداً كان يفتي والصحابة مشهود، وأن مكحولاً كان يقول: ما حدثتكم به فعن سعيد ابن المسيب والشعبي، وأن ميمون بن مهران قال: دخلت المدينة فسألت من أفقها؟ فدفعت إلى ابن المسيب، وأن عمر بن عبد العزيز كان لا يفتي بقضاء حتى يسأل ابن المسيب. وقال يوماً: ما من أحد إلا يأتيني بعلمه إلا سعيد بن المسيب فأني أوتي بعلمه. وأرسل إليه يوماً رسوله يسأله عن مسألة، فذهب الرسول إليه واستدعاه إلى عمر، فقال له عمر: إن الرسول لم يفهم، إنما أرسلته إليك ليسألك عن كذا!.

(يتبع)

الذوق في القرآن

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ إبراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

ورد الذوق في القرآن بمعنى الحس والإدراك ، ومن ذلك ما يقول الله عز وجل لفرعون يوم القيامة توبيخاً له على تعاليه وجبروته ، وكبريائه وعتوه ، وألوهيته وسلطانه ، وغطرسته وجهله : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » وقوله أيضاً « فذاقوا وبال أمرهم » ...

وقد اتفق العلماء على أن يقولوا « الذوق الأدبي » ، أو يقولوا الذوق بـجـردة من الوصف ، وفي كلتا الحالتين يقصدون من الذوق معنى أدق من الأدب ، وأوسع من التخلق ، وأسنى من اللباقة . وإذا صح أن يكون لكل شيء فلسفة يقصد بها إلى لبابه الخالص ، وراووقه المصفى ، ومحضه الصراح ، وصميمه الجيد ، وخياره المنتقى ، فإنهم يعمدون حين يطلقون تلك الكلمة إلى أروع معاني الأدب ، وأرقى مكارم الاخلاق ...

والذوق كالجمال لاتحدّه ضوابط ، ولا ترسمه قواعد ، ولا يكشف عن حقيقته تعريف ، يدرك الناس آثاره ولا يستطيعون تكييفه ، يشيرون إلى هذا المعنى إذ يقولون « والذوق شيء ليس في السكتب » لأنه لو كان كذلك لأمكن تحصيله وتأتى للعدم منه أن يتحلى به ... إلا أنه وإن خلا من القواعد التي يلم بها الطالب ، وعرى عن المسائل التي يكبد في فهمها المستفيد ، ففي صورته من العبر وأمثلة من الشواهد ، وألوانه من الآيات ، وجزئياته من الدلائل ، ما يجعلنا نجزم بأنه « هدى الله يهدي به من يشاء من عباده » .

وللعرب قبل نزول القرآن إليهم ، ونشر رأيه فيهم ، وسريانه إلى أفئدتهم وتغلغله في عقيدتهم ، أساليب من الخطاب ، وأنماط من الحديث كلها يدل على جفوة الطباع ، وخشونة التعبير .

ولعلنا لا ننسى أول موقف وقفه محمد صلى الله عليه وسلم يعلن فيهم دعوة السماء ، ويبلغهم رسالة الله ، ويأخذ بيدهم إلى حيث يتجهون إلى صراط العزيز الحميد ، يوم نادى على الصفا والمروة : « إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، وكان من أحد قرابته أنه قال له تَبَّالِكَ ألهذا جمعنا ؟ ! » وهو رد — كما ترى — لا يحذر به أن يصدر من إنسان عاды فضلا عن رجل تضمنه وإياه صلة ، ويربطه به نسب ، وتقضى أبسط قواعد الأدب عليه أن يحامله ويتلطف معه ، إن لم يقف إلى جانبه يناصره ويؤازره ، ويسانده ويعاضده ، ويحميه ممن يرميه .

ومن العجب الغريب أنهم مع شدة لدمهم ، وقوة حجتهم ، ووفرة منطقهم وتمام فصاحتهم ، يتخطون في الجدل ، ويتسكبون السبيل في المناظرة ويقولون : « أساطير الأولين اكتبها » ، ويقول الذين كفروا لست مرسلا ، ويرمونه بالجنون أو يتهمونهم بالسحر ، ثم لا يكتفون بذلك حتى يضيفوا إليه ما يدل على الحماسة ويسجل عليهم الطيش : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » ، وهو ترجمة لإحساسهم المتبدل ، وشعورهم الجامد ، ووجدانهم المظلم وعظمتهم الضيق ، وطريقهم الملتوى وتفكيرهم المضطرب . ولو أنك قارنته بما يرد عليهم ، ويتقدم به القرآن بين يديهم : « وإنا أولياكم على هدى أو في ضلال مبين » ، لوجدت مدى ما يسمو إليه أدب الخطاب ، ويعرج فيه أسلوب الجدل ؛ لأنه لو جابههم بالخطأ ، ورماهم بالتعسف ، ووصفهم بالغواية ، لكان زيادة على الهجاء الذي يهجوم به ، واللمز الذي يوقعهم فيه ، يهيج حفاظهم ، ويثير كامن غضبهم ، ويوقظ الجاهلية الأولى في نفوسهم . . . إلى جانب أن الحديث على صورة الشك — هكذا — ربما يبعث على التروى والظن ، والبحث والاستنباط ، وهو الهدف الذي تهدف إليه الآية : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ، وفي قصة إبراهيم عليه السلام ما يدل على أن الرسالة كلها لم تكن ترمى بالقول على عواهنه ، أو ترسل الدعوة على سجيته دون أن يكون هنالك فكر سديد ، ونظر رشيد ، ومجال من التدبر بعيد .

ونحن لا نتبين « الدوق » ، في القرآن تمام البيان إلا حين تقابل بعض عباراته بعباراتهم ، أو جملة بجملة ، ولا سيما إذا اشتدت الحاجة الخصام ، وحي وطيس المناظرة ، فرأيت ساعته هادى الأسلوب ، رزين التفكير ، سرى المنطق ،

جم الأدب ، لا تحامل فيه ، ولا تحيز معه ، يقول الحق وهو يهدي السبيل ،
مقترنا ذلك كله بالذوق واللفظ .

وما أظن التصور والإدراك ، والشعور والإحساس ، والخيال والوجدان ،
تحيط بدقة رسم وحكمة تعبير ، لما يكون بين الرجل والمرأة من مداخله وعشرة ،
ومخالطة وأنس ، ومودة وحب ، وتعاون وانتفاع ، أكثر من الآية ، وقد أفضى
بعضكم إلى بعض ، فهي تطوى معاني كان التصريح بها يتنافى مع اللياقة ، وينبو
عن الأدب ، ولا يتفق والكرامة ، وفي الوقت نفسه تستدر عطف كل من
الزوجين على الآخر ، ليغضى له ، ويتسامح معه ، ويتطابق الذوق في أفضى
بعضكم إلى بعض ، بالذوق في « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » ، فإنهما مع اختلاف
السياق ، وتباين الغرض ، يتلاقيان في جمال الكناية ، ويشتركان في حسن
الإشارة ، ودقة الأداء ولطف المرمى ، فلا يسيء كلاهما أخاه ، ولا يفشى سره ،
ولا يختلق عليه الذنوب ...

أما « عفا الله عنك لم أذنت لهم » فمعيار جديد من الذوق ، وطريقة مستحدثة
من الأدب ، ولون انفرد به الحكيم الخبير ، ولا يدعن لذلك الحكم ، أو يؤمن
معنا بتلك الدعوى إلا « من يستحضر في ذهنه غزوة تبوك التي سماها الكتاب
العزیز « ساعة العمرة » ، لما فيها من الحر والجوع ، والقيظ والجذب ، والكسل
والفتور ، والتواني والغفلة ، والنفاق والكذب ، والدهاء والمكر ، والخداع
والتويه . وأي لباقة خطاب ، وكياسة تصوير ، وبراعة إبداع ، وخلاصة منطق ،
تلك التي تلين ذلك اللين في موطن الشدة ، وترقى إلى ذلك الحد فلا تستولى عليها
حدة ؟ اللهم إنه حديث السماء ، إلى صاحب الخوض واللواء ...

وما أردت بهذه الكلمة بحثاً يُستقصى ، أو أمثلة تُحصى ؛ فإن القرآن كله
معين لا ينضب ، وبحر زاخر باللؤلؤ ، وكبير لا يفنى له ثراء ، ولكنني فقط أردت
أن أفتح حديثاً عسانى أن أوفق إلى استطراده ، أو يُسهّل الله لغيري سبيل
امتداده ، في وقت نحن أشد ما نكون حاجة إلى كتابتنا نستلهمه ونستهديه ،
ونجتلي الخير مما فيه . رزقنا الله السداد ، وكتب لنا الهداية ، وجعلنا ممن يتذوقون
بالقرآن ، وينتفعون بآياته البينات ، وعظاته البالغات ، لأنه نعم المولى ونعم النصير .

إعلام الأزهري

الشيخ على الليثي

المتوفى سنة (١٣١٣ هـ - ١٨٩٦ م)

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد كامل الفقي

المدرس بكلية اللغة العربية

نشأته وحياته :

هو الشيخ على بن حسن بن علي ، ولد في « بولاق مصر » سنة ١٢٣٦ هـ ، وتوفي والده وهو حدث يافع ، فانتقلت به أمه إلى جهة « الإمام الليث » ، فكان يطلب العلم بالأزهر ثم يعود إليها للبيت بها ، وظل على ذلك بضعة سنين ، ثم قدم إلى مصر الشيخ « السنوسي الكبير » ، قاصداً الحج ، فاتصل به وحج معه ، ولما رجع « السنوسي » إلى مصر لم يدعه بل استصحبه إلى « جنجوب » ولبت بها مدة يطلب العلم ويفيد ، حتى فارق « السنوسي » وعاد إلى مصر ، فاتصل بوالدة « عباس باشا » الوالي ، فألحقته بوظيفة متواضعة في القصر ، وازدلف إلى الأمير « أحمد باشا رفعت » بن « إبراهيم باشا » الكبير فأدناه منه ، ومكنه من تقليب النظر في خزانة كتبه ، فأفاد منها سعة أفق وخصب مادة .

ومن الطريف أن سفره إلى المغرب كان سبباً في اتهامه بمعرفة الكهانة والعرافة ، حتى إذا ولي « سعيد باشا » على مصر أمر بنفي هؤلاء الذين يحتالون على الناس إلى السودان ، فكان المترجم من بينهم ، وقد ظلّ بالسودان حتى عفا الخديو عنه ، فعاد إلى مصر .

وقد طارت شهرة الليثى وذاع صيته ، وعرف بحضور البديهة ، وحسن
المناداة ، فلما ولى د اسماعيل باشا ، على مصر قربه إليه ، واتخذ منه ومن الشيخ
د على أبي النصر المفلوطي ، نديمين له ، يستمتع بشعرهما ، ويستطيب حديثهما .

فلما عزل د اسماعيل ، وخلفه د توفيق ، درج على ما كان عليه سلفه من
إيثار د الليثى ، وإجلاله واصطفائه ، حتى إذا شبت الثورة العرابية كان د الليثى ،
بين من خاضوا غمارها ، وأججوا جاراتها ، ولكن د توفيقا ، شمله بعفوه ،
وصفح عن زلته ، وهش له ، إذ تبرأ بقصيدته التي يقول في مطلعها :

كل حال لضده يتحول ° فالزم الصبر إذ عليه المعول °

بل إنه بعد أن تبرأ من الفتنة العرابية ، وأبان عذره في مسامرة العرابيين ،
زاد قربا من نفس توفيق ، وأحلله مسكنا ترمقها الأبصار ، وترنو إليها العيون ؛
فقد شيد لنفسه قصرا « بحلوان » ، وكان يتردد عليه مرتين في كل شهر ، يركب
من حلوان سفينة بخارية تقله الى ضيعة د الليثى ، د شرق إطفيج ، فيؤاكله
ويقوم عنده ، ومن ثم عُنى الليثى بهذه الضيعة ، فغرس بها أطيب السكروم
والأشجار ، وأقام بها قصراً أنيقا يكون للامير واتباعه منزلاً .

وقد كانت هذه الضيعة مقصدا للآداب ، وكعبة للشعراء والعلماء ، يجردون
فيها غذاء للروح والجسد ، من ثمار فاكهته وطيب مفاكهته ، وقد كان مسرفا
في كرمه حتى إن ضيفائه ليقيمون عنده أياما وأشهرًا .

ولما نزل بمصر د السلطان برغش ، ملك د زنجبار ، ندبه الخديو اسماعيل
لمرافقته ومجالسته ، فارتاح السلطان لخلاته وخفة روحه وعدوبة حديثه ، حتى
لأنه لما عاد الى بلاده كان يمنحه الهدايا الفاخرة كل عام مما تمتاز به هذه البلاد
من عنبر وغيره ، فيكون لأصدقاء الليثى وخطائه من هدايا السلطان نصيب .

وإذ قضى د اسماعيل ، تقلص العطف الكريم الذي كان د الليثى ، في ظلاله ،
وانقبض د عباس ، عنه ، ولم يكن لليثى من خصب جنباه بعض ما كان له

من اسماعيل ، فعكف على ضيعته ، يستغل زرعها ، ويدمن الاطلاع في مكتبته الضخمة التي ما زال يضم إليها من الاسفار النادرة ، وأمات الكتب الادبية ما طبع منها وما استنسخ حتى كانت من أوفى الخزانات وأحفلها علماً وأدباً ، ولم يزل كذلك الى أن تآمرت عليه العلل فناء بها أثمرا حتى قضى في العاشر من شعبان سنة ١٣٩٣ هـ فانطوت به صفحة من الانس والصفاء وطول المتاع .

منادمته :

كان الليثي خفيف الروح ، عذب الحديث ، حسن المحاضرة ، سريع البديهة ، موافق الجواب ، معروفا بطيب السمر ، ورقة المنادمة ، حتى أطلق عليه « سيد الندماء » .

والمنادمة فن دقيق يعتمد على مواهب وفطر خاصة ، ويحتاج في تساوله الى لباقة وكياسة ، وتفطن الى مواطن النكتة ، وموقعها من النفوس ، وتفرض فيما يطيب من القول ، ويلذ لسامعه ؛ هذا الى سرعة البديهة ، والخذق في معرفة الطبائع ، والبصر بمختلف الأخلاق ، وتمييز كل موقف من صاحبه ، والتملؤ من أدب المفاكهة ، والإلمام بما يهش له السامع في شتى أحواله ، وما يرفه به عن نفسه إذا غشيها الملل ؛ على أن النديم قد تحاك حوله الدسائس لتصرف عن جمال نكته ، وتصد عن التبسم والبشاشة له ، وقد يرتصد له بعض الخبثاء فيفسد عليه غرضه بالتصريح أو الإيحاء ؛ فإذا لم يكن حاضر البديهة ، موافق الجواب ، لبقاً في الأخذ بالشئ والانصراف عنه ، قادراً على الانتقال من حديث الى حديث ، ومن مقام الى مقام ، فشل في جو السرور والمفاكهة الذي يهيئه ويشرق الانس منه .

وقد كان كل ذلك من مواهب الليثي في منادمته ، فإنه ليجمع الى طلاقة لسانه ، وفيض خاطره ، وحلاوة حديثه ، وحسن بصره بمواطن الحديث ، وتهديه الى ما يحسن أن يأخذه من القول وما يدع ، روائع من الأدب وأطايب من البيان ، يصرفها في كل مجلس ، ويديرها في كل مناسبة ، ويعرضها إذا استشرفت

لها الاسماع واهتزت لها العواطف والوجدانات ، فيملاً النفوس أنسا وراحة ، والقلوب بهجة ولذة .

« ولا نحسب أن في شعراء الجيل الماضى شاعراً يمثل مدرسة الندمان كما كان يمثلها الشيخ على الليثى الذى ارتقى في هذه الصناعة ، حتى نادم اسماعيل وتوفيقاً ، وبقي من نوادره ودعاباته ما يذكره المتأدبون والمعنيون بأخبار القصور حتى في أقصى الصعيد ، » (١)

وقد بلغ من شغف إسماعيل به أن أعد له ولصاحبه الشيخ على أبى النصر المنفلوطى قاعة خاصة بديوانه يجلس بها كأنه أحد رجال القصر الذين توكل اليهم أعماله ، وكما قلنا من قبل إن « توفيقاً » كان ينزل بضيعة حياً لمناذمته ، وإشاراً لمفا كفته .

ولم يؤثر فيما نقل الينا عن نوادر الليثى ونكاته أنه فرط في كرامته أو أغضى على هيئته على ما تحييفه هذه الصناعات من أقدار الناس ، فقد ظل « عالماً ، من علماء الازهر ، لم تخرج هذه الصناعة كبرياه ، ولم تتدل به إلى ما يتدلى إليه المضحكون والمهاترون .

وقد خلف الليثى من نوادره وأدبه الضاحك الباسم ما فيه أبلغ المتع والذذات ، وما هو في هذا الأدب الرقيق غرة وجمال ، ولكنه ذهب أشتاتا لم يعن بجمعه ، أو يخلد بإثاره . وكان في مثله - لو حواه كتاب - ما استروح به نفوس ، وتبهج به صدور ، وتبدد كآبة ، ويذهب ملال .

طرف من نوادره :

كان أحد الكبراء يفرغ بالمديّة تفاحة ليشرّب فيها فانقصفت المديّة خلال ذلك ، فرنا إلى الليثى كأنما يطلب القول منه ، فاذا به يرتجل البيتين :

عزت على الندماء حتى لإنهم اتخذوا لها كاسا من النفاح
ولدى اتخاذ الكأس منه بمديّة لأن الحديد كرامة للراح

وهما آية على صفاء ذهنه ، وحضور بديته ، واستجابة الشعور له .

ودخل يوما ومعه الشيخ « على أبو النصر المنفلوطي » ، على « الخديو اسماعيل » ، وهو منقبض ، وكان الرجلان طويلي القامة ، دميعة الخلفة ، فاحى السواد ، فلما أبصرهما « اسماعيل » أخذ يقاب فيهما الطرف ، وينظر إلى طولهما وعرضهما ، فما إن رآه الليثي كذلك حتى شرع يقلب كفاً على كف ، فقال له اسماعيل : « ما بالك تفعل هذا ؟ » قال « أفكر في أمر أقوله إذا صفح عنه مولاي مقدما ، قال « قد صفحت فقل ، قال : « أراني أستغرب ما الذي أعجب به مولاي في مدختين مثلي وزميلي هذا ! » فضحك الخديو وسرى عنه .

ولما أمر اسماعيل أن يكتب على حجرات موظفي القصر لافتات تشير إلى وظيفة من فيها ، أشار « المهردار » أحد كبار رجال القصر بأن يكتب على حجرة الشعراء التي كان الليثي بها « إنما نطعمكم لوجه الله » ، وإذا سأل الليثي عن أشار بذلك قيل له إنه « المهردار » ، فأراد أن ينتقم لنفسه ، فانتهن فرصة جلوسه مع الخديو وحضور المهردار وقال للخديو : إن حادثة وقعت لي اليوم ، فقال : ما هي ؟ قال صغتها زجلا ، قال : وما هو ؟ قال :

لى طاحونة في البلد غلبت منها وعقلي دار
علقت فيها الطور عصي علقت فيها المهر دار

ومرّ به كبير من رجال القصر خياه تحية الغربيين بخفض رأسه ، فلم يرقه ذلك ، فمز رأسه كمن يقول لا ، فشكا الأول للخديو زراية الليثي به ، فلما سأله الخديو عما صنع معه ، قال : يمز رأسه كأنه يقول تناطحنى ، فقلت له : لا !

« يتبع »

مآثر الشعر العربي بربيع الإسلام

أفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد محمود المسلوت

المدرس في كلية اللغة العربية

كان للشعر في نفوس العرب منزلة لا تسامىها منزلة، ومكانة لا تدانىها مكانة؛ فهو ديوان مآثرهم وسجل مفاخرهم، والسمان الناطق بمألفهم من فضل وما هم عليه من مجد أثيل وعز شاخ. ما من حرب تقوم بينهم إلا كان الذي هاج نارها وأوقد سعيرها وشب لظاها الشعر، وما من مسلم ينشر على الناس أعلامه ويشملهم وارف إظلاله إلا كان الشعر أساسه وباعثه والداعى إليه.

ولا تفتح مغاليق الأنفس، ولا تلين قساوة القلوب، ولا تنال العطايا والهبات ولا تجزل المنح إلا بالقول الفاتن والشعر الدافع، الذي يزدلف به الشاعر إلى ما يريد من رغبة، ويحتال به على ما يبغى من غرض. ولا تعمّر مجالس السمر ومحافل العلية إلا بما ينشد فيها من طرائف الشعر وروائع القصيد.

بيد أن رسالة الشعر قبل مبعث الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم، كانت قد تحرفت في غالب أمرها عن الوضع الكريم الذي يليق بالإنسانية المهذبة العاقلة، والخلق القويم الذي تصلح عليه الحياة ويستقيم به أمر المجتمع. فكان يصف المرأة أقبح وصف، ويكشفها أشنع تكشيف ويهتك الحرمات ويحرق الحجب والاستار، ويثير العصبية ويوقد الحمية، ويحرض الناس على الاقتتال والتناحر، ويعثهم على التقاطع والتدابير والتنافر.

فكان بهذا السمّ وبهذه الروح من معاول الهدم وأسباب الدمار التي منيت بها الحياة العربية، ثم جاء الإسلام بدعوة الإخاء والمساواة، دعوة العفة في القول والفعل والأدب الذي يليق بالمسلم؛ فحرم على الناس الفواحش ما ظهر

منها وما بطن، وحذرهم من باطل القول وزوره، ومن سيئ الظن وخداعه وغروره، ودعا أوليائه وأتباعه إلى أن يبتعدوا عن كل رذيلة ويمتنعوا من كل موبقة، وأن يكفوا عن القول والفعل إذا كان في ذلك ما يؤذى نفس مسلم.

أما الإسلام فيهم روح العصبية، وأخذ في نفوسهم حمية الجاهلية، وحظر عليهم أن يلبوا بما يثير النفس أو يذكر بالخصومات أو يحرك كامن الاحقاد ومستور الضغائن.

حرم عليهم شرب الخمر؛ لأنها رجس من عمل الشيطان، وأوجب عليهم حفظ الفروج وغض البصر وكف الأذى وصيانة الحرمات. من هنا وجد الشعراء الذين دخلوا في الإسلام وأشربوا روحه واهتدوا بهديه، وجدوا أدبا غير الأدب، وروحا غير الروح وأسلوبا في الخطاب غير الأساليب التي اعتادوها، وطرائق غير الطرائق التي ألفوها، ونحوا من بلاغة الكلام السمج العفیف تندق أعناقهم، وتقطع نياط قلوبهم دون أن يبلغوا مداه أو يقتربوا من حده.

وجد الشعراء أن أداتهم تعطلت، وأن سبيلهم إلى ما كانوا يتناولون من المعاني والصور قد قطعت، وأن ما كان يخوضون فيه من ألوان القول دون خوف أو تحرج، قد حظر عليهم الإسلام أن يلبوا منه إلا بما عفا لفظه وشرف معناه. من أجل ذلك تحولوا عن معانيهم التي أجادوها، وأبدعوا فيها إلى المعاني التي يقرها الدين الجديد ويرتضيها؛ بل إن من شعرائهم من امتنع عن قول الشعر في الإسلام، لأن الله أبدل به خيرا منه. فإن ليبدأ لم يؤثر عنه في الإسلام إلا قوله:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلى حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

ثم امتنع بعد ذلك عن الشعر إلى أن وفاه أجله، وقد أرسل إليه عمر يسأله ماذا أحدث من الشعر في الإسلام؛ فقال: أن أبدلني بالشعر سورة البقرة وآل عمران.

والواقع أن تحول الشعر من روحه ومشربه في الجاهلية إلى روح جديدة، وحياة جديدة ومعان ربما ضاقت بها شياطين الشعر، وتختلف فيها أخيلة الشعراء. هذا التحول قد عاد على الشعر بشيء من الضيق وانقباض الأفق، وجعل شعراء الإسلام يحفلون عن كل معنى يتسم بسمة جاهلية أو تنفر منه التعاليم الإسلامية

وفرق بين شاعر ينتهب كل معنى يعن له ، ويقتنص كل فكرة تنهياً أمامه في أى موضوع وفي أى ناحية ، وبين شاعر يستولى عليه التحرج من كل ما يخالف دينه ولا يلتزم مع عقيدته .

فهذا الخطيئة لم يرق الإسلام له طبعاً ، ولم يهذب له نفساً ، ولم يغير له من سميت ، ولم يعدل له من سلوك ؛ فبقى شعره على ما كان عليه جاهلي النزعة زائراً بكل ما يمكن أن يحمله الشعر من معنى خبيث أو هجاء . قدح ؛ حتى لقد حبسه عمر ابن الخطاب ولم يطلق سراحه إلا بعد أن هددته بقطع لسانه وأخذ عليه العهد ألا يتناول أعراض المسلمين .

وهذا حسان بن ثابت قد امتزج الإسلام بدمه ولحمه ، فترك ما كان يتعاطاه شعراء الجاهلية ، ولم نر له بعد ذلك شعراً قوياً إلا قوله في مناقبة أعداء الإسلام ومكافحة خصوم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفيما عدا ذلك فقد تحول شعره عما كان عليه في الجاهلية من القوة إلى الضعف .

على أن الإسلام لم يهجن من الشعر إلا لما يحمله من المعاني التي لا تتفق وجلاله ، ولا تناسب وقاره وكاله ، ولم يغض من شأن الشعراء إلا لما يبدو منهم من سمات وخلات لا يرضاها الدين ، ولا ترتاح إليها الأخلاق الكريمة . والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، . أما ما عدا ذلك فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ينهت للشعر ، ويستمع إلى الشعراء ويقول : « إن من الشعر لحكمة » . وكان يأمر حسناً أن يرد على خصومه ويهجو أعداءه .

ولقد وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد بني تميم - بعد فتح مكة - ودخلوا المسجد وقالوا : يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، فأذن لخطيبهم ، فقام عطار بن حاجب بن زرارة ؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قيس بن ثابت ، فرد عليه ، ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال :

نحن السكرام فلا حى يعادلنا منا الملوك وفينا يقسم الربع
ونحن نطعم عند القحط مطعمنا من الشعراء إذا لم يؤنس القزع (١)

ثم ترى الناس تأتينا سرائهم من كل أرض هويّا ثم نصطنع
فلما فرغ الزبرقان بن بدر ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حسناً بالرد
عليه فارتجل حسان قصيدته :

إن الذوائب من فخر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع فى أشيائهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البسيع
فلما فرغ حسان من قصيدته ، قال الأقرع بن حابس حد رجال الوفد :
والله إن هذا الرجل (يعنى محمداً) لمؤتى له ^(١) . لخطيبه أخطب من خطيبنا ،
ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا ، ثم أسلموا .
فنحن نرى أن الشعر حين أخلص فى وجهته ، وسلم مما كان يذنبه من هتك
الأعراض ، وكشف الاستار ، كان من أسلحة الدعوة الجديدة ، والالسنة
المجاهدة المسكخة فى سبيل تثبيت دعائمها واستقرار قوائمها ، ومن هنا نستطيع
أن ندرك رسالة الشعر فى هذه الفترة التى صلحت فيها الأخلاق ، وتطهرت
القلوب ، واستنارت الأفئدة ، وأظل الناس عهد وادع ، يجمله حسن الأدب ،
وجمال الخلق ، وعفة اللسان ، وسماحة المقال .

كانت رسالة الشعر إذ ذاك رسالة سمحة لا تعرف الفحش ، ولا تحب
الجهر بالسوء ، ولا تألف الخوض فيما حرم الله . فهى رسالة مستمدة من روح
الإسلام وتعاليمه السكرية وآدابه القويمة ، ودهوته الحققة ، إلى معاملة الناس
أكرم معاملة .

أما من بقى على عهد الجاهلية من شعراء هذا العهد فيما يقول وينشد : فقد
نعى عليه الإسلام سلوكه وحاربه المسلمون أعنف حرب ؛ لأن لسانه ظل سادراً
فى غيه ممعناً فى كفره لم يدخل فيما دخل فيه الناس أفواجا من دين رب العالمين
وشريعة أحكم الحاكمين . ولقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم محمد بن سلمه

(١) أى مسهل له فى أمره .

ورھطاً من الانصار؛ فقتلوا كعب بن الاشرف من شعراء المدينة اليهود، لانه شبب بنساء المسلمين. وهذا ضاني بن الحارث البرجي هجا بعض بني جدول بن نهشل فأخش في هجائهم، حتى رمى أمهم بالكب فاستعدوا عليه عثمان بن عفان فحبسه. وقال له: لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حي لأحسبته نزل فيك قرآن وما رأيت أحداً رمى قوماً بكذب قبلك. ولقد حبس عمر النجاشي الشاعر الذي هجا بني العجلان رھط ابن مقبل بقوله.

وما سمى العجلان إلا بقولهم خذ العقب وأحلب أيها العبد واجعل وكذلك حبس الخطيئة حين أخش في هجو الزبرقان بن بدر، وهدده بقطع لسانه لولا أنه فرغ إليه، وتلطف لديه واستشفع بأفراخ زغب الحواصل ليس لديهم ماء ولا شجر.

وهكذا أصلح الإسلام العقائد والنفوس وهذب الآلسنة، ووجه رسالة الشعر إلى أسنى الأهداف وأنبأ الغايات.

طلب الرزق

قال عمر بن الخطاب للقراء وهم أهل العلم: يا معشر القراء اتسوا الرزق ولا تكونوا عالة على الناس.

وقال عمرو بن العاص: اعمل لدنياك عمل من يعيش أبداً، واعمل لآخرتك عمل من يموت غداً.

وذكر رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم بالاجتهاد في العبادة والقوة على العمل، وقالوا: صحبتاه في سفر فما رأينا بعدك يارسول الله أعبد منه، كان لا يفتل من صلاة ولا يفطر من صيام.

فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: فمن كان يمونه ويقوم به؟ قالوا: كلنا: قال النبي عليه السلام: كلكم أعبد منه.

طاليس

زها حول ٥٨٥ ق. م

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهواني

١ - المصادر

طاليس أول فلاسفة اليونان ، ورأس الحكماء السبعة . طارت شهرته حتى حكي العرب أنه « حكيم مشهور في زمانه ، وأقاويله مذكورة وآراؤه في الفلسفة بين أهلها مشهورة ، كما يقول القفطى .

ويحتاج التحقيق العلمى لحياة طاليس وآرائه أن نبدأ بتحقيق المصادر التى كتبت عنه وبيان مرتبة صحتها وثقتها .

أقدم مصدر هو هيرودوت ، المؤرخ اليونانى الملقب بأبى التاريخ (٤٨٤ - ٤٢٥ ق. م) وهو أقرب مصدر إلى طاليس ، ولكنه عاش بعده بقرن من الزمان تقريبا ، وبذلك لا نجد مؤرخا معاصرا له يحكى لنا مذهبه . ويسجل هيرودوت فى تاريخه أن طاليس تنبأ بكسوف الشمس الذى كان حداً للحرب بين الليديين والميديين . ثم نصيحته لمدن أيونيا بتكوين حلف برئاسة تيوس . ثم النظرية القائلة بأن فيضان النيل يرجع إلى هطول الأمطار التى تنقلها الرياح الشرقية . ثم الرواية القائلة بأنه نصح كروسس أن ينقل جيشه عبر نهر هاليس بعد تغيير المجرى .

المصدر الثانى أفلاطون (٤٢٩ - ٣٤٧) وهو يروى قصة وقوعه فى بئر حين كان يتأمل النجوم ، وقوله : إن كل شئ مملوء بالآلهة .

(*) وترسم بالتاء أو التاء فيقال تاليس أو ثاليس .

المصدر الثالث، وهو الأهم من الناحية الفلسفية أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢) يقول عنه في كتاب « ما بعد الطبيعة » : إنه مؤسس الفلسفة ، ويسجل مذهبه في أن المادة الأولى هي الماء . وفي كتاب « السماء ، إن الأرض تطفو فوق الماء ؛ وفي كتاب « النفس ، إن كل شيء مملوء بالآلهة ، وإن المغناطيس فيه حياة لأنه يجذب الحديد ، وفي « السياسة ، قصة الفيلسوف الذي حصل على الثروة باحتكار معاصر الزيتون .

يأتى بعد ذلك مصادر متأخرة ، ويسمى أصحابها بالرواة Doxographers وأشهرهم ديوجين لايرس (القرن الثالث قبل الميلاد) الذى يروى لنا قصة حياته . ثم جالينوس الطبيب (١٣٠ - ٢٠٠) ولأيتوس Aetius من مؤرخي الفلسفة في القرن الرابع ، ثم سمبليقيوس من القرن السادس وهو أحد شراح أرسطو ، ثم سويداس Suidas من مؤرخي القرن العاشر الميلادى .

ويقرر هؤلاء المتأخرون أنه كان فلسكيا ورياضيا ، وأنه عرف العلة الحقيقية لكسوف الشمس ، وأنه أول من كشف الدب الأصغر ، وأنه نقل علم الهندسة عن المصريين إلى بلاد الإغريق ، وعرف بعد السفينة وهي في عرض البحر ، وارتفاع الهرم من قياس ظله ، واهتدى إلى بعض النظريات الخاصة بالمثلث والدائرة .

فنحن نرى أن جميع المصادر متأخرة عن زمن حياته بوقت طويل مما يفسح المجال للإنتحال وإلى نسبة كثير من الآراء إليه ونسج الأقاصيص حوله .

ونحن لا نعرف هل دون آراءه أو لا . ويذهب بعضهم إلى أنه لم يدون ولم يترك شيئا مسطورا ، ويذهب البعض الآخر إلى أنه ألف كتاباً بعنوان الفلك الاسود Nautical Astronomy ، ويعزو إليه بعضهم كتاباً في الاعتدالين ، والبعض الآخر كتاباً في العلل الأولى . أما كتاب الفلك فقد نظمه شعرا . ويروى جالينوس عن كتاب العلل قوله « الماء هو المادة الأولى ومنه نشأ كل شيء . ولقد أوضحنا ذلك في المقالة الأولى ، . وتحدثنا رواية أخرى أن أنكسمندر هو أول من دون في الفلسفة ، وله كتاب في الطبيعة . ولا يشير أرسطو إلى أى مرجع عند ذكر طاليس ، ولا يدري لماذا يجعل الماء مبدأ .

جملة القول إما أن طاليس لم يكتب على الإطلاق ، وهذا هو الأرجح ، وإما أن كتبه ضاعت منذ عهد بعيد .

٢ — أصله ونشأته :

ليس مولده معروفا ، وقد حدده بعض المؤرخين مثل زلر ^(١) Zeller بأنه ٦٢٤ قبل الميلاد وجعل وفاته عام ٥٤٦ . ولست أدري كيف اهتدى هؤلاء المؤرخون إلى هذا التاريخ ، وكيف حددوا مولده ووفاته . أما برنت ^(٢) Burnet فقد اهتدى إلى أنه كان يعيش عام ٥٨٥ ق . م . وهو العام الذي قلنا إنه زها فيه ، من معرفته بكسوف الشمس ، وقد حسب علماء الفلك أن ذلك الكسوف وقع في ٢٨ مايو ٥٨٥ قبل الميلاد ورجحوا إمكان رؤيته من آسيا الصغرى . وهذا التاريخ هو نفس التاريخ الذي يجعله أبولودورس ، وهو مؤرخ يوناني من القرن الثاني قبل الميلاد ، لازدهار طاليس .

نشأ في ملطية من أعمال آسيا الصغرى ، وكانت مدينة تجارية انتشر فيها الرقيق كأغلب المدن الإغريقية ، وظهر فيها صراع بين طبقة الأغنياء والفقراء . ويحدثنا التاريخ أن الشعب في ملطية انتصر في أول الأمر ووضع السيف في رقاب زوجات النبلاء وأطفالهم . ثم استولى الأشراف على الحكم وحرقوا خصوصهم أحياء فأضاموا الساحات العامة بأجساد البشر . وقد تقلبت الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في مدينة ملطية خلال القرنين السابع والسادس ، إذ كان الحكم في أول الأمر في أيدي أصحاب الأراضي من الأشراف ، ثم اغتصبه منهم الأغنياء من التجار ، إلى أن حكمها طاغية يستند إلى تأييد الشعب . وعقدت ملطية أواصر الصداقة مع جيرانها وبخاصة ليديا في حكم الملك كروسس Croesus . ونحن نذكر كيف حدثتنا الأساطير أن كروسس رعى الحكمة اليونانية في زمانه ، وأنه دعا الحكماء السبعة إلى لقائه . وأكبر الظن أن صحة طاليس وهو أول الحكماء السبعة لكروسس في حربه ضد بتريا ، نكي يشرف على الآهور الهندسية ، وإنشاء القناطر ، هي التي أذاعت القول برعاية الحكماء السبعة .

ويفسر برنت ما يذهب إليه هيرودوت من أن طاليس من أصل فينيقي بأنه

Zeller : Outlines of the Hist. of Gr. Phil. P. 26-28 (١)

Burnet : Early Gr. Phil. P. 40-50 (٢)

أدخل بعض تحسينات على الملاحة اكتسبها من الفينيقيين . ثم إن اسم والده ويدعى إكزاميس Examyas لا يدل على أصل سامي ، بل هو من كارييا Karia ، وهي من أيونيا .

طاليس في مصر :

وليس من المؤكد أن طاليس رحل إلى مصر ودرس فيها ، ولو أن الأرجح أنه فعل ذلك ، إذ ينسب إليه تفسير فيضان النيل ، وأن مرجع ذلك إلى الرياح الموسمية .^(١) ويقال إن أرسطو ألف كتاباً في فيضان النيل عرفه شراحه ، وذكر فيه نظريات ثلاث للفيضان الأولى لطاليس ، والثانية لاتيمينس ، والثالثة لانكساجوراس .

ويقال أيضاً : إنه اكتسب العلم بالهندسة من المصريين وحمله معه إلى اليونان ، ويحكى برقليس في شرحه للكتاب الأول من أوقليدس أن طاليس كان يعرف كثيراً من النظريات : منها تساوى المثلثين إذا اشتركا في ضلع وتساوت الزاويتان المتجاورتان ، وكان يستفيد من هذه النظرية في قياس بعد السفينة في عرض البحر . وأنه عرف ارتفاع الهرم بحساب رياضي ، لا بحساب عملي كما كان المأثور عند قدماء المصريين .

ويقول فريمان^(٢) Freeman : إنه تعلم الهندسة من المصريين وكان كأسلافه تليد أهل مصر وبابل ؛ لذلك كان الفضل في امتيازه في علم الفلك والهندسة إلى غيره . ولما كان علم المصريين والمكدانيين لا يتعدى جمع المشاهدات ، واستخدام العلم لأغراض دينية وعملية ، فقد تلقف طاليس هذه المشاهدات ، والتجارب ثم نظمها تنظيماً علمياً ، واستخرج منها المبادئ العامة . وليس معنى ذلك أن العلم عند طاليس كان خالصاً بريقاً عن المنفعة ، فقد نظر في الهندسة البحرية لفائدة الملاحة وذلك بدراسة الرياح والظواهر الجوية .

فلسفته :

يذهب بعض المؤرخين إلى أن طاليس أول العلماء ، كما ذهب البعض الآخر إلى أنه أول الفلاسفة أو الحكماء . ولا ينبغي أن يروغنا هذا الخلاف ؛ لأن العلم

والفلسفة كانا شيئاً واحداً في ذلك الزمن القديم . على أن ظهور « أول » للفلسفة أو العلماء فجأة أمر يدعو إلى التساؤل فلا بد أن يكون قد سبقه غيره ، وقد عنيت مدرسة أرسطو وشراحه بذكر المتقدمين على طاليس ؛ كما ذكروا طاليس متصلاً بالبحث العلمي وقدموه على سلفه .

ويقول أرسطو عنه : إنه « مؤسس هذا الضرب من الفلسفة » يريد الفلسفة التي تضع المشكلة وتحاول الجواب عنها . مثال ذلك : « ما الحقيقة الموجودة وراء الظواهر ؟ » وفي مثل هذه الأسئلة تتجلى أصالته . لقد أجاب طاليس عن هذا السؤال قائلاً : إن الحقيقة هي « الماء » ، كادة أولى ؛ لأنه كان يعتقد أن المادة واحدة وليست متعددة . وجميع فلاسفة ملطية ماديون .

لماذا أثر الماء على غيره ؟

يقول أرسطو : إنه أثر ذلك لأنه رأى الدور الهام الذي يقوم به الماء في غذاء الحياة ، حتى لقد تخرج الحرارة منه ما دام الكائن الحي حاراً . والماء كذلك جوهر البذور .

ويعترض بعض المحدثين ، مثل : برنت Burnet على أرسطو بقولهم : إن علم الحياة لم يكن متقدماً في عصر طاليس ، وإن قوله بالماء يرجع إلى النظر في الظواهر الجوية . فاختياره الماء ناشئ عن هذا النظر ، وتلك الدراسة . فقد رأى تبدل الماء ثلجاً وبخاراً وضباباً ؛ أما البخار فقد عده الطبيعيون الأولون هواء ، ووجدوا بينه وبين الرياح والنفس والحياة . ومع ذلك فقد كانت للطبيعيين الأولين نظرات صائبة في علم الحياة . فهذا أنسكسمندر تلميذ طاليس يذهب إلى أن أصل الحياة ناشئ من الرطوبة . ولا يغيب عن بالنا أن طاليس اهتم بغيضان النيل ، وأثر ذلك في الإنبات والنماء ، ولا ريب فللماء مدخل في الحياة ، ولقد قال تعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » .

ويحدثنا أرسطو أن طاليس ربما كان قد تأثر بالأساطير اليونانية القائلة بأن « أوقيانوس ، Ocean و تيثس Tethys كانا أول كل شيء . ولعله تأثر بأساطير قدماء المصريين ، الذين ساد فيهم مذهب يجعل الماء أصل الكون . وليس ذلك يبعد على من استقى علمه عنهم .

وله رأى فى السكون : فهو يقول إن الأرض تسبح فوق الماء . وهذه محاولة لتفسير علاقة الأرض بغيرها من الأجرام السماوية . ويقول أرسطو إن طاليس اختار الماء ليحمل الأرض ؛ لأن كثيراً من الأشياء كالخشب تقوم فى الماء لا فى الهواء . ويحكى «سنگا» قول طاليس إن الأرض تعوم فى الماء كالسفينة ، فإذا تقاذفتها المياه أحسننا بالزلازل . وليس يبيح أن طاليس كان يذهب الى أن الأرض تعوم فى الماء ، لأن النمو يتوقف على الرطوبة .

وأخيراً يعزو أفلاطون وأرسطو إلى طاليس قوله « كل شيء مملوء بالآلهة ، وإن فى المغناطيس روحاً تجذب الحديد . وأقام على مذهبه فى أن النفس أو الحياة هى التى تحرك الأشياء . فإذا صح قول طاليس فهو من المؤلهة الذين كانوا يعتقدون فى وحدة الوجود ، أى أن الله والعالم شيء واحد ، وأنه موجود فى كل شيء . وقد سرت هذه الفكرة عنه ، حتى عبده العرب مؤلهاً . قال القفطى « وهو أول من قال إن الوجود لا يوجد له إلا الله تعالى العظيم » .

وشاعت عن طاليس أقاصيص كثيرة ، منها ما حكاه أرسطو فى كتاب السياسة قال : « يروى أن طاليس رأى بما عنده من معرفة فى علم التنجيم والفلك أن موسم الزيتون سوف يكون موفوراً فى ذلك العام فاستأجر فى الشتاء جميع معاصر الزيتون الموجودة فى ملطية . فلما حان موسم عصر الزيتون واحتاج الناس الى المعاصر فرض عليهم ما شاء من شروط ورفع الأجر وضاعفه مبيناً أن الفلاسفة إذا شاموا جمع المال كان لهم ذلك ، ومعزى القصة أن الفيلسوف مشغول عن جمع المال بالتفكير والتأمل وطلب الحقيقة .

وقيل : إنه أول الحكماء السبعة ، ونسبوا إليه أنه راعى العزوبة والعزوف عن الولد ، فى مقابل سولون الذى كان راعى الأسرة والزواج والولد . ويقال إن سولون زاره فى ملطية . وينبغى أن ننظر بعين الشك الى الحكم التى أجراها المؤرخون على لسانه .

وقيل إنه توفى فى سن كبيرة من الحر والعطش وزحمة الناس عند مشاهدة مباراة فى البطولة الرياضية .

العز بن عبد السلام

- ٢ -

لفضيلة الأستاذ الشيخ حسن العماري
مبعوث الأزهر إلى السودان

عمله في البلاغة :

يجهل كثير من العلماء بل من دارسي البلاغة خاصة أن ابن عبد السلام من زمرة علماء البلاغة ولكننا نعهده أنموذجا وحده، وإذا كان عبد القاهر وأبو يعقوب وأضرابهما ألفوا في البلاغة على أنها قواعد ورسوم، فإن ابن عبد السلام شغلته فكرة واحدة أخذ يدافع عنها، ويناضل دونها، ويقيم البراهين عليها، تلك هي وجود المجاز في القرآن، والخصومة حول هذا الموضوع قديمة؛ فقد أنكر وقوع المجاز جماعة: منهم الظاهرية وابن القاص من الشافعية، وابن حائك، وناس من جملة الصوفية وبعض من المالكية، وشبهتهم أن المجاز أخو الكذب، وأن العدول إليه من ضيق الحقيقة، والقرآن منزّه عن الأول، والثاني محال على الله تعالى، وقد نشط العلماء من قديم للرد على تلك الشبه ودحضها، فألف موزج السدوسي في الرد على من نفى المجاز في القرآن، وسخر الجاحظ في غير موضع من كتبه من هؤلاء، وصنف فيه سلطان العلماء كتابه المسمى «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز». ولا شك أن جمهور العلماء على وقوع المجاز في القرآن وفي كلام العرب، وأما شبهة الظاهرية فنأشئة من عدم التفرقة بين المجاز والكذب، وعدم الوقوف على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، وأن الحقيقة سهلة ميسورة، وإنما

الشأن في تقريب المعنى ، وتجميل الأسلوب ، وضرب المثل ، وروعة الاستعارة .
ومن سخرية الجاحظ هؤلاء ما جاء في كتابه الحيوان ، عند الحديث عن النحل قال :
« وقد طعن ناس من الملمحين ، وبعض من لا علم له بوجود اللغة ، وتوسع العرب
في لغتها وفهم بعضها عن بعض بالإشارة والوحى ، فقالوا : قد علمنا أن الشمع شيء
ينقله النحل مما يسقط على الشجر فيبنى بيوت النحل منه ، ثم ينقل من الأشجار
العسل الساقط عليها كما يسقط الترنجيبين والمن وغير ذلك إلا أن مواضع الشمع
وآثاره أخفى وأقل ، فليس بقي . ولا رجيع ، ولا دخل للنحلة في بطن قط ،
وفي القرآن قول الله عز وجل « وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال
بيوتا ومن الشجر وما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا
يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم
يتفكرون ، .

ولو كان إنما ذهب الى أنه شيء يلتقط من الأشجار كالصموغ وما يتولد من
طبايع الانداء والامواء والأشجار إنما تمازجت لما كان في ذلك عجب إلا بقدر ما
نجده في أمور كثيرة ، قلنا فقد زعم ابن حائك وناس من جهال الصوفية أن في النحل
أنبياء لقوله عز وجل « وأوحى ربك الى النحل ، وزعموا أن الحواريين كانوا
أنبياء لقوله عز وجل « وإذ أوحيت الى الحواريين ، ، وما خالف أن يكون في النحل
أنبياء بل يجب أن تكون النحل كلها أنبياء لقوله عز وجل على المخرج العام « وأوحى
ربك الى النحل ، ولم يخص الأمهات والملوك واليعاسيب ، بل أطلق القول
إطلاقا ، وبعد فإن كتمت مسلمين فليس هذا قول أحد من المسلمين وألا تكونوا
مسلمين فلم يجعلون الحججة على نبوة النحل كلاما هو عندكم باطل ، وأما قوله عز
وجل « نخرج من بطونها شراب ، فالعسل ليس بشراب وإنما يحول بالماء شرابا
أو بالماء نبيذا فسماء كما ترى شرابا إذ كان مما يحى منه الشراب ، وقد جاز في كلام
العرب أن يقولوا جاءت السماء اليوم بأمر عظيم ، وقد قال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

فزعموا أنهم يرعون السماء ، وأن السماء تسقط ، ومتى خرج العسل من جهة

بطونها وأجوافها ، ومتى حمل اللغة على هذا المركب لم يفهم عن العرب قليلا ولا كثيرا ، وهذا الباب هو مفخر العرب في لغتهم ، وبأسبابه اتسعت ، وقد خاطب بهذا الكلام أهل تهامة وهذيل وضواحي نجد هؤلاء أصحاب العسل ، والأعراب أعرف بكل صمغة سائلة وعسلة ساقطة ، فهل سمعتم بأحد أنكر هذا البيان أو طعن عليه من هذه الجهة ^(١) ، . وهكذا يصخب الجاحظ ، ويهدر ويهزأ ويستخر ، ولعله ألف كتابه (نظم القرآن) لهذا الغرض ، وقد جاء في كتابه الحيوان فقرات عن كتاب يبدو أنه هو هذا الكتاب قال : « ولي كتاب جمعت فيه آيات من القرآن لتعرف بها ما بين الإيجاز والحذف ، وبين الزوائد والفضول والاستعارات ، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة بالالفاظ القليلة . »

أما ابن عبد السلام فهو يجرى الى غايته في هدوء وصمت ، دون أن يتعرض لمن يجادلهم ويرد عليهم ، حتى أنه ترك النص في أول الكتاب على الغرض الذي ألفه من أجله ، ومع ذلك فهو يصل إلى الغاية ، ويقرطس الهدف ، وقد أعانه على ذلك فهم عميق لمقاصد القرآن وأغراضه ، وخبرة واسعة بالتأويل وعلم جم بأساليب العرب ، وتصرفها في لغتها ، وذهنية مواتية مسعفة .

يظهر أثر كل ذلك في كتابه ، فهو يتتبع القرآن آية آية ، ويذكر ما يكون في الآي من حذف ، وما يترتب على ذلك من مجاز ، وربما عمد إلى المجاز وحده فاستخرجه من الآية ، ويعرض كثيرا للمسائل البلاغية غير المجازية ، وقد تحدث عن كل ألوان المجاز فذكر المجاز المرسل وعلاقاته ، والمجاز العقلي وعلاقاته ، وتحدث عن الاستعارة ، وذكر المجاز في الحروف والمجاز في الأفعال ، وقد ألف كتابه قبل أن تقعد البلاغة على طريقة السكاكي فتراه يجمع كل شبيه إلى شبيهه ، فهو مثلا يتحدث عن خروج حروف الاستفهام إلى معان مجازية عند الكلام على الاستعارة في الحرف ، كما يتحدث عن الالتفات في الفعل عند الكلام على الاستعارة التبعية في الأفعال ، وهذه أحسن من طريقة السكاكي وتابعيه الذين وزعوا هذه المباحث في أبواب متفرقة ، بعضها في علم المعاني ، وبعضها في علم البيان .

(١) في هذا النص كلمات غير واضحة لعلها من خطأ الطبع ، ولم اهتم الى تصحيحها .

وقد سلك ابن عبد السلام في بيان الحذف في القرآن طريقين ، فابتدأ أولاً بذكر نوع المحذوف ، فهذا فصل لحذف المبتدأ ، وذلك لحذف جواب الشرط ، وثالث لحذف المضاف إليه وهكذا . . . ثم يعود فيعرض ، فيرتب سور القرآن ويذكر ما في كل سورة من حذف ، ويتخلل هذا البحث قواعد بلاغية فيقول : مثلاً : حذف المعمولات ضربان : ما يصير الفعل فيه كاللازم الذي لا مفعول له ؛ كقوله « والله يحيي ويميت » ، والثاني ما ليس كذلك ؛ كقوله « الذي خلق فسوى » ، أما قوله تعالى : « أضحك وأبكى » ، فيحتمل الأمرين ، وهو في هذا الموضع — كعادته في كل موضع — يذكر شواهد كثيرة من القرآن ، وقد جرى على قاعدة في تقدير المحذوف عبر عنها في قوله : « تقدير ما ظهر في القرآن أولى في بابه من كل تقدير » ، وذكر أمثلة منها قوله تعالى : « فمن ينصرني من الله إن عصيته » ؟ تقديره « فمن يمنعني من بأس الله إن عصيته » ؛ لأنه قد ظهر في قوله « فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا » . ويكاد كتابه يكون استقصاء لمواضع الحذف في القرآن ، فهو من هذه الناحية ذو فائدة كبيرة لمن يتقحم مزائق التأويل ، وبتهيب مزال التفسير ، ومع ذلك فالكتاب يتضمن قواعد بلاغية ذات بال ، وقد تناولها المؤلف تناولاً سهلاً لا تعقيد فيه ، ولا لجلجة ولا اضطراب . من ذلك قوله : « وأما وصف الفاعل والمفعول بالمصدر ، فقد قيل إنه من مجاز الحذف ، وقيل إنه من مجاز المبالغة في الصفة ، ويجوز أن يكون بعض ذلك من مجاز التعبير بالمتعلق عن المتعلق به ؛ كالتعبير بالأمر عن المسأور به وبالهزم عن المهزوء به ؛ لأنهما قولان عبر بهما عن متعلقهما ، وكذلك التعبير بالسمع عن المسموع وقد يكون بين محلي الحقيقة والمجاز تعلقات متنوعة يصح التجوز بكل واحد منها على ما سنذكره في صفات الرب سبحانه وتعالى ، ومن أمثله في هذا الموضع « فاحتل السيل زبداً رابياً » ، أى الماء السائل « والسماء ذات الرجع » ، والأرض ذات الصدع ، المطر الراجع في كل عام والنبات الصاعد للأرض « إنه لقول فصل » . ومنها قول الشاعر :

ترتع ما رتعت حتى إذا أدكرت فإنما هي إقبال وإدبار

أى هي ذات إقبال وإدبار ، ثم يقول ولك أن تقدر مثل هذا في جميع ما ذكرناه .

وهنا نراه استشهد ببيت من الشعر ، وليست الشواهد من هذا النوع مستفيضة في الكتاب ، ولكنه يذكر منها جملة صالحة .

وقد يتناول الآية فيذكر ما فيها من أنواع البيان . يقول في قوله تعالى : والسر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، أى بمشيئة ربهم أو بأمر ربهم إياك بذلك ، فالإذن من مجاز الملازمة - أى المجاز المرسل - والظلمات والنور من مجاز المشابهة - يعنى الاستعارة - ونسبه الإخراج إليه صلى الله عليه وسلم من مجاز نسبة الفعل إلى سببه كما ذكرناه آنفا - يعنى المجاز العقلى - . وقد لاحظت أنه يتفق فى كثير من القواعد مع عبد القاهر ، إلا أن هناك دلائل كثيرة على أنه لم يطلع على كتابيه فى البلاغة ، وحسبنا أن عبد القاهر ذكر الاستعارة والعلاقة وما إليهما من الالفاظ الاصطلاحية ولا أثر لها فى كتاب ابن عبد السلام ، على أنه لو اطلع على دلائل الإعجاز لكان له فيما أعتقد منهج آخر فى تقدير بعض المحذوفات ، ولكان لهذا الكتاب نسيم فى كتابه على الأقل ، أما السكاكى فكان معاصرا للمؤلف على أن طريقتهما مختلفان جد الاختلاف .

وكما يذكر بعض القواعد الهامة ، يعمد إلى نوع آخر له قدره فى دراسة البيان ، ذلك أنه يذكر الكلمة ترد فى القرآن الكريم فيذكر ما استعملت فيه من أنواع المجاز ، ومن أمثلة ذلك كلمة « الركن » ، يقول : فهو حقيقة فى أركان البناء التى يعتمد عليها ، ثم يتجاوز به عن العشرة المعتمد عليها فى النصر تشبيهاً للاعتماد عليها باعتماد البناء على الأركان ، ومنه قوله تعالى « أو آوى إلى ركن شديد » ، ويتجاوز به عن القوة لأن المرء يعتمد على قوته فى مثل قوله تعالى « فتولى بركنه » ، أى بقوته ، وفى مثل قول عنتره :

فما أوهى مراس الحرب ركنى ولكن ما تقادم من زمانى

وقد يتجاوز به عن الجنود الذين يرجى نصرهم للاعتماد عليهم فى مثل قوله : « فتولى بركنه » ، على قول آخر . وناحية ثالثة فى هذا الكتاب . وذلك أنه إذا أخذ فى معنى من المجاز استقصاه ، ومن أمثلة ذلك - وهى كثيرة - حديثه عن « التهكم » ، يقول : وأنواع التهكمات كثيرة منها قوله تعالى : « هذا نزلهم يوم الدين » ، ومنها قول عمرو بن كلثوم :

قرينناكم فمجلنا قراكم قبيل الصبح مرواة طحونا

ومنها قول العرب : عتابك السيف . وقول الشاعر : « تحية بينهم ضرب وجيع ،
ومنها قوله سبحانه وتعالى : « فأثابكم غمّاً بغم » ، ومنها قوله : « هل ثوب الكفار
ما كانوا يفعلون » ، والمراد بالثواب هنا العقاب ، وقوله : « هل أنبئكم بشر من
ذلك مثوبة عند الله » ، أى عقوبة عند الله ، فإن الثواب هو الجزاء بالخير ، فإذا
أطلق لفظ الثواب على الشر كان تهكلاً واستهزاء ، ومنها قوله « وأن يستغيثوا
يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه » ، أما قوله يستغيثوا فحقيقة معناه يطلبون
الغوث من شدة العطش ، وأما قوله يغاثوا فتهكلاً واستهزاء بهم إذ لا غوث فيما
يشوى الوجوه ، ومنها قوله : « فبشرهم بعذاب أليم » ، وأما قوله : « إن هذا
القرآن يهدى للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً
كبيراً » ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً ، فإن البشارة
فيه باقية فيه على حقيقتها ؛ لأن الله بشر المؤمنين بأنه يأجرهم أجراً كبيراً ،
وبأن يعذب أعداءهم عذاباً أليماً ، ومن أخبر بعقوبة عدوه وإهانة كان
ذلك إهانة له .

ولا ينسى أن يتحدث عن التشبيه وضروبه ، وعن الكناية وتعريفها
وأمثلتها ، وكونها من الحقيقة أو من المجاز ، وعن المجاز على المجاز ، والجمع بين
الحقيقة والمجاز ، وقد رأيت العلامة الصبان استند على رأيه فى الجميع بين الحقيقة
والمجاز عند الحديث عن التضمنين فى باب تعدى الفعل ولزومه ، وفى الكتاب
بعض الفوائد النحوية والصرفية ، ولكنها قليلة ، وبحوث أخرى لا تتعلق بالبلاغة ،
كالكلام عن بيان اللغات التى نزل بها القرآن وعن مقاصد القرآن ، وعن جملة من
المواعظ ، وفى ختام القول نقول مع قاضى أسوان شمس الدين عمر بن عبد العزيز
ابن الفضل تليذ العز :

جاوزت حد المدح حتى لم يطق نظماً لفضلك للورى نظام

فعليك يا عبد العزيز تحية وعليك يا عبد العزيز سلام

قصص الفراز الحكيم

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الغنى الراجحي

مبعوث الأزهر في كلية المقاصد الإسلامية صيدا - لبنان

لأنني سأخوض في قصص القرآن على طريقتي الخاصة التي طالما نوهت بها على صفحات هذه المجلة للقرآن : المعاني واحدة أو كالواحدة ، لكنها تذكر في أكثر من موضع بعبارات تختلف إيجازا وإطنابا ، وتقديما وتأخيرا ، وذكرًا وحذفًا ونحو ذلك .

لقد تناولنا فيما مضى بالمقارنة والتحليل بعض آيات من غير القصص تتجلى فيها هذه الظاهرة ، وتناولنا كذلك فيما مضى بالمقارنة والتحليل بعض آيات من قصة واحدة تتجلى فيها هذه الظاهرة ، ونريد في هذه الجولة أن نتناول بهذه الطريقة فئات من الآيات في أكثر من قصة واحدة تتجلى فيها هذه الظاهرة .

وإذا كان ذلك كذلك ومكان قصص الرسل يحكي أقوالا قيلت من الرسل لأقوامهم ، وأقوالا قيلت من الأقوام لرسلهم ، ثم يبين ما آل إليه هذا الصراع مع التعليق عليه ^(١) ، فإننا سوف نجعل كل قبيل من هذه الفئات الثلاث مرحلة من مراحل البحث ، نقعد في كل مرحلة ما يترامى لنا من مفارقات في الآيات التي تنضوى تحت لوائها وتخضع لموضوع بحثنا ، مما يتفق ويفترق ؛ أما ما يفترق ولا يتفق أو يتفق ولا يفترق فليس لبحثنا فيه ، وليس له في بحثنا كبير مجال .

المرحلة الأولى في الآيات التي تحكي أقوال الأنبياء لأقوامهم وفيها مفارقات :

(١) راجع القصص في السور : الاعراف ، هود ، الشعراء ، المؤمنون ، وغيرها فانك واجده وهو لا يكاد يخرج بك عن ذلك .

المفارقة الاولى : قصة نوح -سورة الاعراف : ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله . قصة نوح سورة المؤمنون : ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله .

قصة هود -سورة الاعراف : وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله .
 » » هود : وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله .
 » صالح » الاعراف : وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله
 » » هود : وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله
 » شعيب » الاعراف : وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله
 » » هود : وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله
 » » العنكبوت : وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله
 » نوح » نوح : إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك
 من قبل أن يأتهم عذاب أليم ، قال يا قوم اعبدوا الله .

أقوال الرسل لأقوامهم حكيت تارة على سبيل الاستئناف ، وأخرى على سبيل العطف بحرف الفاء ، فإذا كان كل من الفصل على تقدير سؤال والوصل بالعطف بالفاء جائزاً بلاغة في أى موضع من هذه المواضع ، فهل من مرجح لوجود كل طريقة حيث وجدت ؟ الجواب : نعم ، ومرجح عظيم . فإن قصة نوح أصل لهذه القصص كلها ، خارجاً لأنه أول رسول ، وحكاية لأنها تصدّرتها في هذه السور وغيرها . ولما كان الذكر أصلاً والحذف فرعاً . كان أطراد الوصل بحرف الفاء في قصة نوح مع أطراد حذفه في غيرها ، من وقوع الأصل في الأصل والفرع في الفرع . ومن توابع ذلك أنه أطرد فيها التصريح بفعل الإرسال وتبعه أطراد التصريح بحرف الفاء لعطف القول على الإرسال دون شيء من ذلك كله في بقية القصص . ومن وجه آخر : قد كان نوح في تبليغه الرسالة أعنف وأنشط من جميع هذه الرسل ، وحرف الفاء أشد مناسبة لهذه المعاني لإفادته المسارعة . . . ومن وجه ثالث : كان تقدم قصة نوح على سائر القصص مدعاة لذهن السامع ، بعد إحاطته بما فيها من معانٍ وحين يشرف على ما بعدها من القصص ، أن يستشرف

ويتشوف لمعرفة حال ما بعد نوح فكان ذلك في معنى سؤال يناسبه الاستئناف
لإجابة عليه (١).

لم يشذ عن هذا التخريج ويخرج عن هذه القاعدة إلا قصة نوح في سورة
نوح؛ فقد حكى القول فيها بطريقة الاستئناف دون العطف؛ وقصة شعيب
في سورة العنكبوت فقد حكى القول فيها بطريقة العطف دون الاستئناف.
ولعل ذلك - والله أعلم - لأن للقصة في الموضعين نسيجا آخر جعل المدى يطول
بين فعل الإرسال والقول في قصة نوح، فكان الفصل أنسب، وجعل قصة
شعيب تضغط ويهدف فيها إلى النهاية التي حكيت بحرف الفاء المترادف في قوله
تعالى «فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين» فكان حرف الفاء
في صدرها أنسب.

المفارقة الثانية : سورة الأعراف قصة نوح : « قال يا قوم ليس بي ضلالة
ولكني رسول من رب العالمين. أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله
ما لا تعلمون. أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا
ولعلكم ترحمون ».

وفي سورة الأعراف قصة هود : « قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني
رسول من رب العالمين. أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين. أو عجبتم
أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء
من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون...
هذان القولان من نوح وهود لقوميهما، يشتد بينهما التشابه ومظاهر الاقتران
فيهما نحصرها فيما يلي مع الإجابة عليها.

أولا : يقول نوح : ليس بي ضلالة، ويقول هود : ليس بي سفاهة وجوابه
أن كلا منظور فيه إلى السابق. فقول نوح سبقه قول قومه له : إنما لنراك في ضلال

(١) تركز هذه الاجابات على مسائل لا تسوغ الافاضة فيها أثناء هذه الدراسة إنما يرجع الى تحقيقها في مظانها، وذلك ككون كل من الوصل والفصل جائزا بلاغة في هذه المواضع وكون الذكرا أصلا بالنسبة للحدث، وكون قصة نوح أصلا بالنسبة لغيرها خارجا وحكاية، وكون نوح كان أمضى في رسالته وأكثر مجادلة يدعو قومه ليلا ونهارا ومرا وجهها.

مبين ، وقول هود سبقه قول قومه له : إنا لنراك في سفاهة . فاشتغل كل نبي بنبي ما رمى به حذوك الشيء بالشيء . ولكن لماذا رمى نوح بالضلال ، وهود بالسفاهة ؟ كلام الفخر الرازي في تفسيره الكبير - سورة الأعراف أن هوداً كان يدعوهم إلى عبادة الله ، وترك عبادة الأصنام ، وبين أنها باطلة لا تملك شيئاً ، فكذبوه في دعوته ، ونسبوه إلى السفاهة والتطاول على الأصنام والقدح في ذاتها وذات من عبدها منهم ومن آبائهم . أما نوح فكان يقول ذلك لقومه ويزداد أنه يأخذ في صنع السفينة فوق البر ، فلأنهم لم يكن لهم عهد بالسفن ، أو لأنه كان يصنعها حيث لا ماء ، فلم يفقهوا سر عمله ، رموه بالضلال ، وهي كلمة منتشرة في المواقع شاملة لكل خطأ فكأنهم أرادوا أنه ضال عن الصواب في كل ما يأتي ويذر . هكذا يؤخذ من كلام الرازي . لكن الذي نعرفه ، وتدل عليه القصة في سورة هود . أن نوحاً لم يأخذ في صنع السفينة إلا بعد اليأس من قومه وانتهاء أدوار المجادلات والمقاولات ، فلا جرم قد كان رميه بالضلال قبل الأخذ في صنع السفينة . فالأظهر عندى - إذا كان لمثل عند - أن اختلاف الضلال مع السفاهة لاختلافه في ذاته عن حكي عنهم ، واختلافه في ذاته عما لا سؤال فيه لأن كل قوم كما بدا لهم تكلموا ، وبما قذف الشيطان في نفوسهم نطقوا . هذا من وجه ، ومن وجه آخر لعله أوجه : أن الرمي بالضلال أعلى في الطغيان من الرمي بالسفاهة على ما سبق بيانه في كلام الرازي ، وقوم نوح كما نطق القرآن عنهم « كانوا هم أظلم وأطغى » . لكن ما بال السفاهة بالتاء في قول قوم هود له : إنا لنراك في سفاهة ؟ والضلال بدونها في قول قوم نوح له : إنا لنراك في ضلال ؟ . هلا سوى بينهما تذكيراً أو تأنيثاً أو عكس الحال ، وكل ذلك جائز عربية ؟ الجواب أنه إن جاز عربية فإنه لا يجوز بلاغة ، فكل طريقة بموضعها أصابت المحز لا تصلح في غير موضعها ، ولا يصلح غيرها في موضعها . فالضلال أعم وأدل على المراد من الضلالة لإيهامها الوحدة ، والسفاهة أبلغ وأدل على المراد من السفه لأنها مصدر مضموم العين ، وهو مصدر مكسور العين ، ومضمومها يفيد من قوة الانصاف وملازمة الصفة للوصف ما لا يفيد مكسورها حتى لتقول كتب اللغة « وهذا

الباب للأوصاف الخلقية ، وهى التى لها مكث . ولك أن تحول كل فعل ثلاثى الى هذا الباب للدلالة على أن معناه صار كالغريزة لصاحبه ^(١) .

ثانيا : يقول نوح لقومه : وأطيعواكم ، ويقول هود لقومه : وأنا لكم ناصح . فالأولى جملة فعلية تفيد التجدد والحدوث مرة بعد أخرى ، والثانية جملة ، اسمية تفيد الثبوت ؛ وذلك لأن نوحا رمى بالضللال وهو من صفات الأفعال التى تتجدد ويتنقل صاحبها من فعل إلى فعل ، وهوداً رمى بالسفاهة وهى أشبه بالملكات الثابتة ، فكان رد كل شبهة على شاكلتها ؛ وإما لأن نوحا كان أمضى كما مضى فى تبليغ الدعوة وتجديد النصح لقومه ليلا ونهارا وسراً وجهارا .

ثالثاً : يقول نوح لقومه : أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون . ويقول هود لقومه : أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء .. الخ

فى مقالة نوح دون مقالة هود قوله : ولتتقوا ولعلكم ترحمون . ويقول الفخر الرازى فيها : إنه حيث سبق ذكرها فى قصة نوح علم أن الإنذار عاقبته التقوى والرحمة لمن انتفع به ، فحصل الاستغناء عن إعادة ذلك فى قصة هود التالية لها . وأولى منه أن نقول : إنه سبق للتقوى ذكر فى نفس قصة هود فى مقالته الأولى لقومه ، اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . فأغنى ذلك عن إعادتها وليس لها سابق ذكر فى أقوال نوح لقومه ، كما أن قول نوح لقومه : ولستم ترحمون ، قريب من قول هود لقومه : لعلكم تفلحون ، عقب تذكيره لهم بما اختصوا به دون قوم نوح من كونهم خلفاء قوم نوح فى الأرض وزادهم الله بسطة فى الخلق والآلاء .

(١) شذا العرف فى فن الصرف للشيخ الخلاوى ؛ التقسيم الثالث للفعل بحسب التجرد والزيادة .

نجاو الشّعور

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المفعم أبو سعيد

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »

حديث شريف

هذه صفة تضع الإنسانية على أقوم أوضاعها ، وتجيء منها في أهم مميزاتها ، وهي تعبّر عن أنبل ما في الإنسان من شعور ، وأدق ما فيه من حس ، وما يسمو به عن رتبة الأحياء الأخرى ، حتى قيل : « الإنسان حيوان ذو عطف » وبذلك اعتبرت خاصّة مميزة له ، رافعة للشركة ، وبما لا ريب فيه ، أن الإنسان حيوان بغيض إذا كان لا يشعر بمكان هذا الشعور ، أو تجرد منه ، فالإنسان لا يشعر بالفردية وحدها ، وإنما يجد تمامه في هذه الصفة ، ولذلك قيل : « الإنسان مدني بطبعه » . فهذا الشعور في حدوده تكتمل عليه الإنسانية في حدودها ، فلولاً المشاركة الوجدانية التي تخفف من حدة أنانيته الجارفة ؛ لكان الإنسان أسوأ أثراً من أي حيوان آخر : وهو بين الأنانية وهذا الشعور في مد وجزر : بين الشر والخير ، والباطل والحق ، إذا انتصر أحد الشعورين تبعه لازمه بدون تخلف أو انفعكك ، ولن تجد إنساناً فاضلاً إلا وعنده أوفى قسط من هذا الشعور السامي ؛ فهو روح إلهي في طبيعة بشرية ، ومعنى غيبي في حروف من أشباح الوجود ، وكذلك تعطى يدُ الله بعضَ المعالم الحية سرّاً من أسرارها ، يكون لها به ما للأحجار الكريمة من البهجة والرواء ، وتمسحه بميسم نورها ، فيبدو درة وضيئة في حدود المادة المظلمة ، وهذا بعض من إعجاز الله في الخلق ، أو جانب من دلائل القدرة الغيبية في الناس .

وهذه المعالم الحية تستق من طينة الإنسان وطبيعته ؛ لتبلغ بهم العظة ، وتم فيهم حجة الله ، وهؤلاء يكونون من النوع الإنساني كعنى الإنسانية ، فيهم حقيقة وفيهم معناه السامى ، وهذا السر فى إكبار الجماعة لأولئك الرموز البشريين ؛ لأن فيهم ما توزع فى الجماعة على مثل عدسة البلور تجمع خيوط النور وتضمها فى بؤرة ؛ لتعكس شكلا متجانسا من أشكال متفاوتة ، فهذا المعنى السامى وذلك الشعور النبيل هو مدار العظمة والشخصية ، وإن لم يتضح فى ظاهرة أو ظاهرات محدودة ، ولم يتحدد كما لو وضعت عليه اليد ، فلم يزل يغزو القلوب ، ويقتحم من النفوس مناطقها الخفية .

ولعل الإسلام هو الدين الوحيد الذى أقام كل تعاليمه الروحية والزمنية على أساس من هذا الشعور ، وزاد مبالغة فى الاعتداد به ، أن جعله قاعدة الإيمان ، فإذا كان الإسلام فى أعمال الظواهر قد بنى على خمس ، فإنه فى المنطقة الإيمانية لا يقوم إلا على تحقق هذا الشعور ؛ فآلئى صلوات الله وسلامه عليه يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » فهو يجعل تمام الإيمان وكأله موقوفا على أن يحب المؤمن للمؤمن ما يحبه المؤمن لنفسه ، والإنسان لا يحب أن يكون إلا حيث السعادة والهناء ، والطمأنينة والسكينة .

فالإسلام أقام تعاليمه على النفع ، وتبادل الحب ، والاستواء فى أسباب الإخاء ؛ ليضع التصميم الصحيح للحياة البشرية ، وقد استطاع النبى صلى الله عليه وسلم أن يقدم للعالم أجمع فى وقت وجيز هذا النموذج المحكم ، فكان فى تجانسه ونظامه شيئا مدهشاً ، وطريفاً معجباً بلغ من الإتقان غايته ، ومن السكال نهايته وحين قدر لهذا العالم أن يفتح عينيه على حقائقه سارع الناس فى دين الله أفواجا . وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لجرير بن عبد الله البجلي وقد جاء يبأيعه على شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله : « والنصح لكل مسلم » فجعل المشاركة الشعورية صنواً للكلمة الشهادة ، ولعل ديننا من الأديان لم يبالغ فى اعتبار هذا الجانب مثل دين محمد صلوات الله عليه ، وهكذا جاءت صحابته فى دقة الشعور نحو الغير كالموازن لا يفوتها منه شيء « يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » وفى قصص عمر رضى الله عنه عبرة وذكرى ، وخطة فوق مناهج الناس .

وندع الآن الحديث للرواة فيما حفظوا من آثار في هذا الجانب ، فقد روى ابن عساكر في التاريخ الكبير عن أبي هشام :

أن سائلا خرج يتخلى أزقة المدينة ، حتى أتى باب الحسين رضى الله عنه ، فصرع الباب ، وأنشأ يقول :

لم يخب اليوم من رجاك ومن حرك من خلف بابك الحلقة
أنت ذو الجود أنت معدنه أبوك قد كان قاتل الفسقه

وكان الحسين عليه السلام واقفا يصلى ؛ تخفف من صلاته ، وخرج إلى الأعرابي ، فرأى عليه أثر ضر وفاقة ، فرجع ونادى بخادمه ، فأجابه : لييك يابن رسول الله ! قال : ما تبقى معك من نفقتنا ؟ قال : مائتا درهم أمرتني بتفريقها في أهل بيتك ، فقال : هاتها ، فقد أتى من هو أحق بها منهم ، فأخذها وخرج يدفعها إلى الأعرابي وهو يقول :

خذها فإنى إليك معتذر واعلم بأنى عليك ذو شفقه
فأخذها الأعرابي وولى وهو يقول : د الله أعلم حيث يجعل رسالته ،

مطهرون نقيات جيوبهم تجرى الصلاة عليهم أينما ذكروا
أنتم أنتم الأعلون عندكم علم الكتاب وما جاءت به السور
من لم يكن علويا حين تنسبه فما له في جميع الناس مفخر

كما روى أنه عليه السلام دخل على أسامة بن زيد وهو مريض ؛ فسمعه يقول : واغشاه ! ، فقال له الحسين : وما غمك يا أخى ، قال : دينى وهو ستون ألف درهم ، فقال الحسين : هو على . قال : إني أخشى أن أموت . فقال : لن تموت حتى أقضيها عنك ، فقضاها قبل موته .

ولعل هذه أصدق صورة تعكس علينا ما نهدف إليه ، فقد تأثر إلى حد كبير بهذه العاطفة ، وشعر بشعور أسامة رضى الله عنه . فهو يشارك الناس ما يقع في وجدانهم ، ويحس بنفس الإحساس الذى يمر فى سماوة نفوسهم ، فيألم إذا تألموا ، ويسر إذا سرّوا .

وهذا أعرابي يأتى مسجد رسول الله ، فيعقل ناقته بيباب المسجد ويدخل ، وكان الحسين رضى الله عنه جالسا فيه ، كما كان عبد الله بن الزبير جالسا فى ناحية

منه ، وعتبة بن أبي سفيان في ناحية أخرى ، فوقف الأعرابي على عتبة وسلم فرد عليه السلام ، فقال الأعرابي : إني قتلت ابن عم لي وطولبت بالدية فهل لك أن تعطيني شيئاً ! فرفع رأسه الى غلامه وقال له : إُدفع اليه مائة درهم . فقال الأعرابي : ما أريد إلا الدية تماماً ، ثم تركه ووقف على عبد الله بن الزبير وقال مثل ما قال لعتبة ، فقال عبد الله لغلامه : إُدفع اليه مائتي درهم . فقال له : ما أريد إلا الدية تماماً وتركه ، وأتى الحسين ، فسلم عليه وقال : يا ابن رسول الله ! إني قتلت ابن عم لي وطولبت بالدية فهل لك أن تعطيني شيئاً ! .

وهنا يتجلى أنبل شعور ، وأجمل إحساس في سيد الناس وابن سيدهم ، فيأمر له بعشرة آلاف درهم ليقضى بها دينه ، وبأخرى مثلها ؛ ليلم بها شعثه ، ويحسن بها حاله ، وينفق منها على عياله .

فهو يعطيه لاجودا فحسب ، وإنما مواساة منه ، ومشاركة له في ملية نزلت به « وإن حقاً على المؤمنين أن يتوجع بعضهم لبعض كما يألم الجسد إذا تألم عضو منه » .

وكأنى بالمسلم الحق وله اتصالات تربطه بكل الناس ، وله في قلبه جهاز مرهف حساس يشعره بشعورهم ، فيواسي المكوم ، وينصر المظلوم ، ويعطي المحروم ، ويبذل المعروف ، ويغيث الملهوف .

وإني لأرى أن الذي لم يتمتع بهذا الشعور النبيل أصم النفس ، لم يتصل باطنه بنعمة الوجود ، فهو يعيش في عالم مهجور قفر ليس فيه حي ولا حياة ، أنكر ما يحسه الناس . فأنكر الناس ما يحسه ، وبعد عنهم فبعدوا عنه ، وعاش في وحدة قاتلة ، لا يحدد من يسليه أو ييكبه ، ونسى أو تناسى أن الشريعة الغرام بالغت في وجوب محبة بعضنا لبعض حتى جعلتها شرطاً في الإيمان « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا » .

وما أجمل أن نرجع إلى تعاليم ديننا ، وسنة نبينا « مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

عجالات في الأدب :

لمحات خالدة

بقلم الأستاذ كامل محمد عجلان
المدرس بمعهد القاهرة

في البيان المخلد والإشراق المصنع ، والتعابير الموشاة والألفاظ المتخيرة عند أدباء العرب . صور لمساحة وضاعة نابضة بالحياة تلبس في موحياتها صبغة الإنسانية ولون العالمية المجددة ما بقيت الحياة والاحياء .

وإذا عرف التراث العربي بخصائص المجائين في التنوع اللفظي والإبداع التعبيري وصوغ « القوالب » التي تجسرى على الألسنة وتعلق بالاسماع وتلبى « تداعى المناسبات » في كل موقف نفسى أو مدرج فكري إذا عرف التراث بهذا وبغيره من المميزات ، فإننا نعلم الماضين من عباقرتنا ومفتنى الخلود في أدب العرب عامة والإسلام خاصة . إذا أغفلنا حكمنا وتابعنا فيه خطوات الأقدام التي تعبر دون أن تتعمق في مسائل العبقريّة الخلاقة ، والقرينة الثرة من منابع غاصة بموارد تغذى النفس وتروى العاطفة وتلهب الحواس وتقيم وتقوم الفكر ، وأخيراً تسمح عن الكتّابين سخائب أرهقت حقول نتاجهم من جهامة الزوابع المغرضة والعواصف المحترقة بين معارك المتعصبين ضد الأدب العربي .

والأدب الصراح — يعلم الله — براء من معايير تقوم على التحيف والسبح قرب شواطئ تحتضن الضحل من المعاني والافكار ، والكدر من الاغراض الهزيلة والاهداف السطحية فيما يهم الفرد ويحزب الجماعة .

* * *

وإني لواضع أمام القارىء قدراً مقبوساً من أثر الجاحظ ، وهو معروف بغزارة الترادف ، وإطالة اللفظ في تكاثر بياني ، وتدقيق مطنب مطيل .

واخترت من براعة الجاحظ متعمداً الإصرار على أن المطلب الصناع لا ينسى ما وراء أثره من تظليل الصورة النفسية ، وإرسال أشعاع الجمال فيها إلى مدى فسيح يريح المتأمل في « الإطار » ، والمتروى في أصل الفكرة ، والمتأسى بالغرض الأول عنده ، إذا كان على بيئة مقتدرة .

وعندى وعندك أيها القارىء : إذا ضقنا بالزمان وأهله ، وأردنا ذمه لنروح عن صدرنا طوفنا مع الجاحظ ، وكتبنا بما خطه في رسالة يبث فيها شكاته : « كتبت إليك وحالي حال من كثفت غمومه ، وأشككت عليه أموره ، واشتبه عليه حال دهره ومخرج أمره ، وقل عنده من يثق بوفائه ، أو يحمد مغبة إخائه لاستحالة زماننا وفساد أيامنا . وقديماً كان من قدم الحياء على نفسه ، وحكم الصدق في قوله ، وآثر الحق في أموره ، ونبت المشتبهات عليه من شئونه تمت له السلامة ، وفاز بوفور حظ العافية ، وحمد مغبة مكروه العاقبة . فنظرنا إذ حال عندنا حكمه وتحولت دولته ، فوجدنا الحياء متصلاً بالحرمان والصدق آفة على المال والقصد في الطلب بترك استعمال القسحة ، وإخلاق العرض من طريق التوكل دليلاً على سخافة الرأي ، إذ صارت الخطوة الباسقة والنعمة السابغة في لؤم المشيئة وثناء الرزق من جهة محاشاة الرخاء ، ومُلا بَسَةِ معرة العار ، ثم نظرنا في تعقب المتعقب لقولنا والكاشر لحجتنا ، فأقننا له علماً واضحاً ، وشاهدأ قائماً ، ومنازاً بيننا ، إذ وجدنا فيه من السفولية الواضحة ، والمثالب الفاضحة ، والكذب المبرح ، والحلف المصرح ، والجهالة المفرطة ، والركاكة المستخفة ، وضعف اليقين والاستنبات ، وسرعة الغضب والجرامة ، قد استكمل سروره ، واعتدلت أموره ، وفاز بالسهم الأغلب ، والحظ الأوفر ، والتقدير الرفيع » .

وينساب الجاحظ معبراً ومصوراً حتى يعطيك من طرف ريشته ما تعيش فيه ، وما تجد في روحه وربحانه أو شواظه ونيرانه ما يكون لك منه العزاء .

ولا تستطيع أن تنسك الاشتراك معه في الدوافع وإن اختلف الزمان وبعد ما بينك وبينه من شقة العصر والأوان ، لأن النفس البشرية هي النفس ولذلك

تجددك معه ، وتجده معك ، وترددان معاً بعد الاتفاق ، فهذا دليل أن الطلاح
أجدى من الصلاح وأن الفضل قد مضى زمانه وعفت آثاره وصارت الدائرة
عليه كما كانت الدائرة ضده ، ووجدنا العقل يشقى به قرينه كما أن الجهل والحمق
يحظى به خدينه .

* * *

وكلنا ومعنا الجاحظ نرجع في تداعى المعانى ونستهدى من الشعر ما يجمع
ويجمعنا على النشيد الذى صاغه المتألم المتأمل . صاغه لنفسه وصاغه لنا فى
زمناه وزماننا :

تحامق مع الحمق إذا ما لقيتهم ولاقيم بالجهل فعل أخى الجهل
وخلط إذا لاقيت يوماً مخلطاً يخلط فى قول صحيح وفى هزل
فإني رأيت المرم يشقى بعقله كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل

* * *

وتلك شغشة المتألم كلما دخل فى واد ترحم فى جذبه على خصوبة الماضى ،
ولعن ما يراه من أشواك وما يدعى أقدامه وأنامله فى ملاعب قضت عليه الحياة
والأحياء أن يدرج فى جوانبها ، أراد أم لم يرد ناح أم غنى .

وبمثل هذا الشاهد — وما أكثر أشباهه — تجدنا فى حاجة إلى أدبنا القديم
وفى حاجة ملحة إلى أن نخلع عن أعيننا ، المنظار الأسود ، الذى شوه أمام الكاتبين
دمم الموائد المنمقة والطرائف المعتقدة حتى ولو كانت القوارير من فضة والدنان
من عسجد وكانت قرارات الكاسات من تهاويل عبقير وترتيل الحور .

* * *

والرأى عندى أن زادنا الأدبى ونشأة أبنائنا فى حاجة إلى النبع الأصيل ، وإن
كنا لاندافع محدث جداول تنصب فى محيط الحياة الجديدة التى أملت بنا فى تقارب
المسذنيات وتلاقى الحيوانات فى عصر خضع للسرعة وشد فى عجالات ، الآلة ،
وأجنحة المحلقات على بساط الريح .

* * *

وعليتنا أن نحفظ موادنا الخاتمة إذا شاكلناها بمحدث الفن مما لا يقطع عليها إصالة العلقة بالتربة الشرقية والمهد العربي والإرضاع الإسلامى : لأننا إذا قطعنا الوشائج — كما يصنع بعض الكتّاب — ضعننا فى خضم لا ساحل نأوى إليه ولا عاصم لنا إلا الاهتداء بالنجم المعجز والفلق الذى لا ينطفى ضياؤه وهو القرآن الكريم .

بذلك يعود القلم العربى المحدث إلى مائدة كانت دسما لأولنا ولا تزال غضة شهية لمن يتحلق حوالها وتطوف ليقطف من ثمارها الدانية .

ولله سر فى أن يكون أدبنا نسيج وحده مها تعددت محاسن الآداب الأخرى ، فإننا نتفرد بركانه أسستها السماء ورفعت قواعدها فطرة الرسول الذى لا ينطق عن الهوى وما خلفه من أدب إنما هو قبس من التنزيل وكل شاد لا يطرب إلا إذا ورد معين الخلود ، وسلك بعد ذلك مسلكا ذلا محدثا أو مهيعا مُعَبِّداً .

أبو الشمقمق

أبو الشمقمق شاعر أديب ، يعتبر من ظرفاء أهل الأدب ، وله فى وصف حاله وفاقته أشعار طريفة يتناقلها المعنيون بالأدب ، وكان ملازما بيته فى أطمار مسحوقة وأهدام بالية . كان يزوره كثير من العارفين بفضلله ، ويستملحون أحاديثه ويتناقلونها للتندر بها . كان من عادته إذا طرق عليه الباب أن يقف خلفه فينظر من بعض فرجه ليرى من الذى طرقه ، فإن رآه محبا له صادق المودة ، فتح له وأدخله ، وإلا أصر على الصمت حتى ينصرف الطارق يأسا من لقائه .

وقد أكثر فى شعره من وصف حاله ، فمن ذلك قوله :

أنا فى حال تعالى الله	ربى أى حال
ليس لى شيء إذا قيه	ل لمن ذا قلت ذا لى
ولقد أهزلت حتى	محت الشمس خيالى
ولقد أفلست حتى	حل أكلى لعيالى

فتح القسطنطينية

لحضرة الأستاذ أحمد صلاح الدين عبد الرحمن
المدرس بالمدارس الثانوية

إن حادث فتح القسطنطينية في أواسط القرن الخامس عشر الميلادي على يد السلطان محمد الفاتح يعتبر من الحوادث الحاسمة في التاريخ؛ لأنه كانت له آثار ونتائج بعيدة المدى. ولكي ندرك مدى خطورة ذلك الحادث ينبغي أن نعرف شيئاً عن أهمية تلك المدينة، تطل هذه المدينة العتيقة على مضيق البسفور الذي يفصل البحر الأبيض عن البحر الأسود، كما يعتبر أضيق منطقة يمكن منها الاتصال بين أوروبا وآسيا؛ ولذلك تعتبر القسطنطينية بهذا الموقع الفريد أخطر نقطة استراتيجية في منطقة الشرق الأدنى بأسرها، وقد كانت هذه المدينة تسمى بينظطة، وبدأ نجمها في الصعود عند ما جعلها الإمبراطور قسطنطين الأكبر عاصمة للدولة الرومانية في مطلع القرن الرابع الميلادي. ولما انقسمت الدولة الرومانية الكبرى في أواخر ذلك القرن إلى قسمين لكل منهما إمبراطور خاص، أصبحت القسطنطينية عاصمة الجزء الشرقي من الدولة، والذي صار يعرف بالدولة البيزنطية أو الدولة الرومانية الشرقية. وإلى هذا الموقع الممتاز يرجع الفضل في بقاء القسطنطينية عاصمة للدولة البيزنطية زهاء عشرة قرون بعد سقوط الدولة الرومانية في الغرب، وإليه أيضاً يرجع الفضل في بقائها عاصمة للدولة العلية زهاء خمسة قرون. وهذا الموقع المنيع يفسر لنا لماذا كانت سياسة روسيا طيلة العصور الحديثة سواء في عهد القيصرية أو في عهد البلشفية تعمل بكل ما أوتيت من قوة للاستيلاء على القسطنطينية لكي تصل بوساطتها إلى البحار الدفينة.

وإن هذا الحادث الخطير وإن كان قد تحقق في القرن الخامس عشر إلا أن بداية التفكير فيه ترجع إلى ما قبل ذلك بثمانية قرون عندما حاول معاوية بن

أبي سفيان سنة ٦٥٣ م غزو القسطنطينية ولم يقدحها من تلك المحاولة سوى مصرع الخليفة عثمان والفتنة التي أعقبته ، ثم قام المسلمون بعد ذلك بعدة محاولات لتحقيق ذلك الغرض كان أهمها جميعاً ما حدث في مستهل القرن الثامن في عهد سليمان ابن عبد الملك سنة ٧١٧ م . وكان إخفاق هذه المحاولة ذا آثار عميقة في الدولة الإسلامية ، وقد ساعد الدولة البيزنطية على صد هذه المحاولات جميعاً مناعة مركز القسطنطينية وثراؤها وقوة أسطولها وحماس أهلها في الدفاع عنها ، فلما قامت الدولة العثمانية جهل سلاطينها فتح القسطنطينية قبلة أنظارهم ، وما زالوا يعملون لذلك الغرض بإلحاح حتى أتى محمد الفاتح سابع سلاطينهم أن يحقق هذا الحلم ويتوج جبينه بإكليل ذلك النصر الذي هز الشرق والغرب .

العوامل التي سهلت الفتح :

إن الأحوال الواضحة في الدولة البيزنطية إبان عهد العثمانيين والظروف المحيطة ، كان لها أثر أى أثر في تسهيل فتحها ، وإن الحملة الصليبية الرابعة وما تمخض عنها من إقامة دولة لاتينية في القسطنطينية استمرت زهاء ستين عاماً (من سنة ١٢٠٤ - ١٢٦١ م) قد أثر في كيان الدولة البيزنطية فأضعف أسطولها وأفقدتها السيادة التجارية في البحر الأبيض ، فلما عادت الدولة بعد ذلك إلى عاصمتها لم تجد المال الكافي ولا القوة البحرية اللازمة لتأمين سيادتها مما مكن العثمانيين من أن يسلبوا من جسم الدولة أجزاء كبيرة بالتدريج حتى انتهى الأمر بأن أصبحت الدولة قاصرة على العاصمة العتيقة وشقة صغيرة من الأرض حولها .

الاستعداد للقتال :

بعد أن تربع محمد الثاني على عرش آل عثمان ، ووطد أركان الأمن داخل حدود دولته المترامية الأطراف ، أخذ يرنو ببصره نحو القسطنطينية العظيمة ويعد العدة للاستيلاء عليها ، وكان محمد شاباً مقدماً طموحاً بعيد النظر ينفذ إلى غايته نفاذ السهم إلى الرمية ، كما كان يعرف كيف يحتفظ بسره لنفسه ، حتى لقد أثر عنه أنه قال : لو أن شعرة من ذقنه عرفت ما تضم عليه جوانحه لبادر بانتزاعها .

وقد كان السبب الذي حدا به إلى مبادرة بيزنطة بالشر أن آخر أباطرتها قسطنطين بالبولوجوس انتهز فرصة ثورة نشبت ضد السلطان في آسيا الصغرى ،

وأرسل إليه يطلب زيادة نفقة أمير عثماني كان في أسره ، وإلا فإنه سيساعد ذلك الأمير على المطالبة بالعرش العثماني ، فحقدتها السلطان على الإمبراطور ، وبمجرد إخماده الثورة ، شرع في بناء حصن على الجانب الأوربي من البسفور في أضيق مكان منه على مبعدة من القسطنطينية بنحو خمسة أميال ، ولما احتج الإمبراطور على خرق حياد تلك المنطقة ، لم يأبه السلطان لاحتجاجه ، وبذا أصبحت الحرب بين الدولتين واقعة لا محالة ، فقضت كلتاها خريف سنة ١٤٥٣ في إعداد معدات الحرب هجوماً ودفاعاً .

حصار القسطنطينية :

بعد أن تمت استعدادات الجانبين كاشف السلطان وزراءه ومستشاريه بعزمه على اقتحام القسطنطينية ، وأمر آلاف العمال بإعداد العربات اللازمة لنقل المدافع إلى ميدان القتال وتمهيد الطرق الصالحة لسيورها . وفي فبراير سنة ١٤٥٣ سار كرادجا باشا على رأس طليعة الجيش ومعه عشرة آلاف جندي تتقدمهم المدافع الثقيلة تجرها العربات ، وفي الثالث والعشرين من هذا الشهر أقبل السلطان من عاصمته هدريانوبل على رأس جمفل جرار سار يتهادى في موكبه ، حتى وصل في السادس من إبريل إلى ضواحي القسطنطينية . وفي اليوم التالي أعلن السلطان بداية حصارها ، وتخير الأماكن الصالحة لنصب مدافعه التي بلغ عددها ٦٩ ، كما رابط أسطوله في بحر مرمرة مستعداً لشد أزر الجيش البري ، وابتدأت المدافع تصب على أسوار المدينة وأبلا من قذائفها ، حتى استطاعت أن تحدث بها بعض الثغرات . ولكن المدافعين كانوا يسرعون إلى ترميمها قبل استفحال خطرهما ، أو ساعدتهم على ذلك أن المدافع كانت تضطر إلى التوقف بعض الوقت حتى لا تنصهر فوهاتها ، وبينما المدافعون في هذا اليأس القاتل إذ وصلتهم من جزيرة خيوس إمدادات في خمس سفن حربية استطاعت أن تشق طريقها إلى القرن الذهبي تحت سمع الاسطول التركي وبصره ، وتمكنت من دخول الميناء سالمة بعد معركة طاحنة مع كثير من سفن الاسطول التركي .

وغضب السلطان لهذا الحادث ، ولكن اليأس لم يتسرب إلى نفسه الوثابة فلما أعياه اقتحام القرن الذهبي المحصن بالسلاسل المنيعه ، صمم على نقل جزء من

الاسطول برا بطريقة هندسية جريئة تشهد له بالمتدرة الفائقة والعبقرية النادرة ؛ ذلك أنه مهد طريقا ووضع عليه كتلا خشبية عظيمة ملمساء في مسافة الخمسة الاميال المحصورة بين البسفور والقرن الذهبي ، ثم أمر بدفع المراكب على ذلك الطريق وجذبها حتى وصلت سالمة إلى الخليج ، وتم ذلك كله في الليل دون إثارة ضجة أو ضوضاء ، حتى أصبح البيزنطيون في صبيحة الثالث والعشرين من إبريل فإذا هم يفاجئون برؤية السفن العثمانية داخل سلاسل القرن الذهبي ، فصعقتهم هذه المفاجأة الهائلة ، وأيقنوا بقرب نهايتهم المحتومة .

مركز المدافعين :

وأمام كل هذه الاستعدادات الجبارة كان مركز القسطنطينية المنيع وأسوارها الضخمة المتداعية في بعض أجزائها ، لا تخفى عنها شيئا أمام السلطان وجحافلها ، وخاصة إذا علمنا أن المدافعين على قلة عددهم كانوا منقسمين شيعة وأحزابا ، وأعمتهم الخلافات المذهبية إلى حد دفع الغراندوق توتارس زعيم الارثوذكس والذي أسندت إليه القيادة ، إلى أن يقول في صراحة إنه يفضل أن يرى عمامة السلطان في القسطنطينية على أن يرى فيها قلنسوة البابا . من أجل ذلك كله لم تنفع البسالة العظيمة والجرأة النادرة التي أبداها حنا غسنتياني القائد الجنوى في الدفاع عن القسطنطينية وترميم الثغرات التي تحدثها قذائف المهاجمين إلا في تأخير أمد سقوطها .

الهجوم الأخير :

بعد ذلك أخذ معسكر السلطان إلى الهدوء فترة من الزمن ، بعد أن استمر قصف مدافعه نحو ستة أسابيع ، ولكنه كان الهدوء الذي يسبق العاصفة ؛ ذلك أن السلطان أعد عدته للهجوم الحاسم على العاصمة ، واستنار حماسة جنوده إلى أقصى حد عندما أعلن إليهم أن كل ما تقع عليه أيديهم في المدينة ملك لهم ما عدا الاراضي والمباني . وفي صبيحة التاسع والعشرين من مايو بدأ الهجوم واندفع العثمانيون كالأمواج المتلاطمة صوب أسوار المدينة ، وبدأ قصف المدافع بتجاوب أصداؤه من البر والبحر ، وشرخ الجنود يتسلقون أسوار المدينة غير آبهين للبوت

الذى كان يترصدهم ، وأخيرا وبعد لآى استطاعوا أن يوسعوا الثغرة التى أحدثوها عند باب القديس رومانوس وتدافعوا إليها ، وفى تلك الاثناء خر حنا غسنتيانى جريحا كما صرع الامبراطور وهو يدافع عن أسوار عاصمته بنفسه ، فكان هذا مما فت فى أعضاد المدافعين وأدى إلى تراخيهم فى الدفاع فلم يأت الظهر حتى كانت المدينة قد استسلمت للبطل المهاجم الذى سعى منذ تلك اللحظة محمدا الفاتح ، واجتنى ثمار النصر الذى طالما اشرأبت إليه الأعناق ، وعند العصر تهادى موكبه الظافر يشق شوارع المدينة حتى وصل إلى كنيسة القديسة أيا صوفيا ، وكان أفراد حاشيته قد هيئوها ليؤدى فيها صلاة المغرب ، وعندما وصل إليها دخلها مطأطئ الرأس عارى القدمين وأدى صلاة المغرب .

وبعد ذلك أباح السلطان المدينة لجنده ثلاثة أيام برأ بوعده ، ثم أعاد إليها النظام والهدوء ، وأعلن أنه حامي الكنيسة الإغريقية ، وأن شخص الامبراطور اليونانى مصون مقدس معافى ومن معه من كبار موظفى الكنيسة ، وأن جميع اليونانيين فى حل من استعمال كنائسهم وإقامة طقوسهم الدينية من غير تعرض لهم أو تدخل فى شئونهم الدينية ، وبذلك طمأن رعاياه المسيحيين وأمنهم على أرواحهم ومنحهم الحرية الدينية ، وهذا تسامح جميل يذكر للفتح العظيم بالفخر والثناء مما جعل مؤرخى الفرنج أنفسهم يعترفون - والفضل ما شهدت به الأعداء - بأن فتح القسطنطينية على يد الأتراك لم يحدث بها من الدمار مثل ما حاق بها على يد اللاتين فى مستهل القرن الثالث عشر .

القسطنطينية : عاصمة العثمانيين : أخذ محمد الفاتح بعد ذلك يغرى أغنياء رجال دولته بالرحيل الى القسطنطينية ، ومنحهم الأرض اللازمة لبناء منازلهم ونقل مقر حكمه إليها ، وهكذا سقطت عاصمة البيزنطيين التليدة - بعد أن استمرت حاضرة لهم زهاء أحد عشر قرناً - فى يد المسلمين ولكنها لم تسقط فى يدهم لتندثر وتمحى من عالم الوجود ، بل لتبعث فى ثوب جديد وتصبح عاصمة الامبراطورية التركية العظيمة زهاء خمسة قرون ، وهكذا استأنفت حياتها كأعظم مدن الشرق قاطبة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في عيد الميلا

كلية حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى
شيخ الجامع الأزهر فى احتفال الأزهر بعيد الميلاد الملكى

فى يوم السبت الحادى عشر من شهر فبراير احتفل حضرة صاحب الفضيلة
الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر بعيد ميلاد حضرة
صاحب الجلالة الملك ، فاروق الاول ، أعزه الله وأمه بتأييده ؛ فاحتشد فى الرواق
العباسى بالأزهر المعمور عقب صلاة العصر جمهور غفير من كبار رجال الحكومة ،
وأصحاب الفضيلة العلماء وحضرات الوجهاء والأعيان وطلاب العلم ؛ فنض فضيلته
فى الساعة الثالثة والنصف خطيباً فألقى كلمة جمعت من مناقب حضرة صاحب
الجلالة ما تحدثت به الركبان ، وسرى ذكره فى الخافقين ، فى عبارات بليغة ،
وأسلوب بديع ، فكان لها أجمل وقع فى الأسماع ، وأبلغ تأثير فى النفوس ، وختمها
بالدعاء لجلالته بدوام التوفيق والسداد ، وللبغفور له والده العظيم بالرحمة
والرضوان . وانصرف المحتفلون يرجون لجلالة الملك طول البقاء ، ودوام التوفيق
لإبلاغه متمنياته العالية من إيصال بلاده إلى أرفع مكانات السؤدد والعمران .

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد
النبي الكريم ، وعلى آله وأصحابه الذين عزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى
أنزل معه .

تبارك الله أحسن الخالقين : من سبجانه وتعالى على وادى النيل السعيد ،
فى هذا اليوم المشرق الغرة ، الميمون الطالع ، بمولد الملك الكريم ، فاروق العظيم ؛

ففاض على الوادى نور ملأه لإشراقاً وبهاءً ، وبهجة وسناء ، وتوالت عليه النعم ؛ فاتحدت كلبه أبنائه ، وتوحدت صفوفهم ، وحظيت البلاد باستقلالها ، ونعمت بسيادتها . ولما تربح حفظه الله على عرش مصر ، ملك قلوب أبنائها بآثره ، ومس يده العبقريّة شئونها ، فسرى الخير واليمن فى جميع أوصالها ، ودبت الحياة الفتية فى كل أجزائها ، فهبت وثابة تستبىق المجد ، وتنافس أعلى الأمم حضارة ورقيا .

وفى الحق إن فيض الفاروق ومنته قد أحيت الوادى ونهضت به نهضة رفيعة فى كل مرافقه ومناحيه ؛ فأينا تول وجهك فشّم نعمة للفاروق العظيم . فى التعليم قطعت البلاد شوطا لم تكن لتبلغه لولا توجيه الفاروق ورعايته ؛ وفى الزراعة والصناعة وغيرهما تقدمت البلاد تقدماً عظيماً حتى أصبحت لها مكانة مرموقة بين الأمم ؛ وما كانت لتسمو إلى هذا الأوج لولا عناية الفاروق وحرصه على أن تسامى بلاده أعرق الأمم حضارة ومجدا .

أما الأزهر وهو مثابة الدين ، فقد لقي من عناية جلالته وعطفه وحده ما وطم دعائمه ، وثبت أركانه ، ووسع آفاقه ، وأعلى صوته ، وشعب معاهده ، حتى انتشر التعليم الدينى فى جميع أنحاء البلاد ، وجاوزها إلى الأقطار العربية ، والبلاد الإسلامية فى شتى بقاع الأرض ، وحتى أصبح الناس فى الخافقين ولا حديث لهم إلا أنعم الفاروق وأياديه البيضاء على العلم والدين . ولقد وسع عطف جلالته أبناء البلاد الإسلامية جميعا ، وأظلم بظله الوارف ، وأمر بأن يفتح الأزهر أبوابه لأبناء المسلمين من شتى بقاع الأرض ؛ ليتعلموا ويتفقهوا فى الدين ؛ ليرشدوا قومهم إذا رجعوا إليهم ؛ ووفر لهم معونة مالية سخية تعينهم على طلب العلم ؛ وتلك منة عظمية طوق بها الفاروق جيد الدهر ، وملك بها قلوب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، حتى أصبح اسمه الكريم بفضل هذه الرعاية السامية ، عنوانا هلى البر والرحمة والاخوة الإسلامية .

أما رعاية جلالته للدين وحرصه على نشره ، فإنه - شهد الله - قد أحيا سنن السلف الصالح فى الإقبال على العلم والدين ؛ ومصر كلها ، بل العالم الإسلامى أجمع ، يشهد أن جلالته قد فجر فيه عيون العلم والمعرفة ، وأمر بتوجيه بعوث العلماء إلى كل الأقطار للدعوة للحق ، وهداية الناس ، ونشر تعاليم الإسلام .

وفى كل يوم يطالعنا حفظه الله بمنة جديدة يطوق بها أعناقنا نحن رجال الدين ؛ فقد رأى - أعزه الله - أن يكون تعميم الدين والقرآن الكريم فى جميع المدارس مادة أساسية ؛ لينشأ الجيل كله على رعاية فضائل الدين والتمسك بأحكامه . وما كادت هذه البشرى تزف إلى الشعب الحريص على دينه المتمسك بعقائده حتى أتبع المنة بمنة عظمى خالدة : هى أمره حفظه الله بجمع الصحاح من السنة النبوية المطهرة وترتيبها وفهرستها وطبعها على نفقة جلالته ، وتيسيرهما لجميع المسلمين فى شتى بقاع العالم ، فأنتم الفاروق بهذه النعمة السامية رسالة والده العظيم المغفور له الملك فؤاد الأول ، طيب الله ثراه !

صاحب الجلالة ! إن مصر فى هذا اليوم السعيد لتباهى الامم بما حباها الله من فضل رعايتك وقيض نوالك . فقد سطرت بجليل أعمالك وعظيم ما ترك صفحة خالدة فى تاريخها ، هى فى الحق أبهى صفحاتها وأجلها قدراً . وإن أياديك الغر على الوادى السعيد ، ومنتسك على أبنائه المخلصين لسمدتك ، المتقلبين فى نعمتك الذى كرين لآلائك ، لآجل من أن يحصوها عد أو ينى بشكرها ما تردده آناء الليل وأطراف النهار قلوبهم من توسل ودعاء إلى الله أن يحفظ عرشك ويصون ملكك ، ويبقيك ركننا حصينا للدين وذخراً للوطن .

حفظك الله يا مولاي ورعاك وسدد خطاك ، ووفق حكومتك إلى ما فيه خير البلاد ، وأعاد أمثال أمثال هذا العيد على الأمة المصرية والشعوب الإسلامية فى ظل عرشك الممدود وعطفك الشامل .

ونسألك اللهم يا واسع الفضل والإحسان ، أن تتغمد برحمتك ورضوانك الراحل الكريم ، مولاي الملك المعظم ، صاحب الجلالة المغفور له الملك فؤاد الأول . اللهم اجعله فى أعلى عاين مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

الدِّينُ وَالْدُنْيَا مَعًا

ليس خيركم من ترك آخرته لدينياه ولا ديناه
لآخرته، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه

وقر في نفوس أكثر الناس، ومنهم بعض المسلمين، أن الأديان لا تؤدي إلى المدنية، وأنها تؤثر شظف العيش على رغبته، وأنها تقف جهود أهلها على العبادات وقمع الرغبات. وهذا خطأ محض، وبعد عن فهم مرامي الأديان، وخاصة الإسلام. فقد شرعت الأديان لحفظ نظام الجماعات، ونهج طرق السعادة الصحيحة لهم، وهي لا تنحصر في كثرة المال ولا في قلته كما يظنه أكثر الناس، ولكنها تتوقف على فقه معنى الحياة البشرية، وعلى معرفة الأصول التي توصل إلى إبلاغها إلى غايتها التي وضعت لها؛ فكم من غنى لم يذق للسعادة طعما، ومن مُقل وصل إلى نهايتها البعيدة، والعكس صحيح أيضا. بل التناهي في الإقلال شر على أصحابه من التناهي في الاستكثار. وقد تعوذ النبي صلى الله عليه وسلم من الفقر، ودعا ربه أن يجعل رزقه ورزق آله كفافا.

نعود إلى موضوعنا الرئيسي فنقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم على تخيره لنفسه الكفاف على الغنى لم يحتقر الثراء، كيف وقد عبر الله عنه بكلمة الخير في قوله تعالى: «إن ترك خيرا الوصية»، وقد كان في أصحابه ذوو مال وفير فلم يأمرهم بتبديده، وقد أفاده ما لهم في مواطن كثيرة، فتولى عثمان مرة تجهيز جيش برمته من ماله الخاص، وأنفق عبد الرحمن بن عوف مالا عددا في سبيل تأييد الإسلام؛ ولولا هذه الأموال الطائلة لقصرت الكتائب الإسلامية في القيام بمهامها في الدفاع عن حوزتها.

وقد عني الإسلام، في عهد حاجة جماعته للمال، بتدبير إنفاقه؛ فقد جاءه أحد

أصحابه يستأذنه في الخروج عن ماله في سبيل الله ، فقال له لا تفعل بل الثلث والثلث كثير ، إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم فقراء يتكفون الناس . وقد جعل ذلك أصلاً في شريعته ، فقرر أنه لا يجوز لأحد أن يوصى في سبيل الله بأكثر من ثلث ماله .

وقد نهى عن تبذير المال وسوء استعماله ، وجعل للكرم حداً معقولاً فقال تعالى : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفوراً . » ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ، وهذا تأنيب قارص يشعر بأن تبذير المال من الأمور الهامة في الإسلام .

لما نزل قوله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ، » ظن الناس أن كنز الأموال حرام في الإسلام ، فأفضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث بين فيه حد السكنز من هذه الآية ، فقال : « ما أدبت زكاته فليس بكنز ، فأصبح ادخار المال وحفظه ، مهما بلغ مقداره مباحاً للمسلمين ، والدليل الواقعي على ذلك أن كثيرين من الصحابة كانت لهم أموال طائلة ، وعاشوا النبي على هذه الحال ، وكانوا من خيرة صحابته .

ومن الأدلة العملية على ذلك : أن أبا ذر رضى الله عنه ، كان يرى أن ادخار المال غير جائز ، وأخذ يبت مذهب هذا في الناس ، وكان بالشام ، ووالها معاوية ابن أبي سفيان إذ ذاك ، فشكاه إلى عثمان رضى الله عنه ، فاستقدمه ونهاه عن ذلك ، فأصر على رأيه ، فنفاه إلى الربدة ، وهي قرية بقرب المدينة ، فلبث بها إلى أن توفي . هذه القصة تدل على حرص أولياء الأمر المسلمين من شيوع المذاهب المجتاحة للثروة العمومية للأمة الإسلامية . وفي نبي أبي ذر الخفارى ، وهو من كبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثال كبير الدلالة على هذا الحرص . وما ذلك إلا لأن المال أساس التعامل للجماعات ، وقوام المقاسومة في تنازع البقاء . وقد حث الكتاب الكريم على البذل في سبيل الله ، وفي إمداد الفقراء بما يمكنهم من الحياة ، فإن لم يكن للأمة مال ، وكانت منه في إقلال ، فماذا تبذل

في سبيل الله ، وبأى شيء تمد المعوزين من أبنائها ، وتبهيء لهم وسائل العمل والحياة ؟ هذه أمور بديهيّة ، لا تتقاضانا التدليل على صحتها . لذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بطلب السعة في الرزق من جميع مظاهرها ، في عبارات مؤثرة ؛ فقال : « لعثرة في كد حلال على عيّل محبوب ، أفضل عند الله من ضرب بسيف حولا كاملا ، لا يخف دما مع إمام عادل » .

وأمر بالجد في طلب الرزق وهدم التسكاسل عنه ، فقال : « إذا صليتم الفجر فلا تناموا عن أرزاقكم » ، وحث على استثمار الأرض فقال : « اطلبوا الرزق في خبايا الأرض » .

وحرص على التجارة فقال : « أوصيكم بالتجار خيرا فإنهم بُرد الآفاق ، وأمناء الله في الأرض » . هذا وكتب الحديث ملأى بأمثال هذه السكلم التوابغ مما لم يرد مثله في كتاب ديني لامة من أمم العالم .

ومما هو غاية الغايات في هذا الباب ما رواه المحدثون من أن النبي عليه الصلاة والسلام دخل عليه قوم فقالوا له : يا رسول الله لا يدانيك في العبادة إلا رجل عندنا يصوم النهار ويقوم الليل ، لا يشغله شيء غير العبادة . فقال لهم النبي : « فمن يموّنه ؟ » قالوا : يا رسول الله كلنا نموّنه ، فقال لهم النبي : كلكم أفضل منه ، فالذين يتخيلون أن الدين مقطعة عن الأعمال التي تعود بالنفع على الأفراد والجماعات ، إنما يجردون الدين من معناه الصحيح ، فإن الدين شرع ليصل بين الإنسان وبارئه ليستمد منه روحا علوية توجهه إلى ما خلق له من إنسانية كريمة وحياة شريفة ، ورتقى معنوى يصل به إلى غاية ما قدر له في وجوده الدنيوى من سمو في الخلق ، وعلو في النفس ، وكرامة في الوجود ، وإبداع فيما وكل إليه من خلافته في الأرض ، لا أنه خلقه ليعيش معطلا مواهبه الأدبية ، مكتفيا بما حسنه له الوهم من إثارة البطالة ، والرضا بالجهالة .

إن الإسلام دين المدنية الصحيحة ، والمعيشة الهنيئة ، في حدود الحكمة ، وحبز الفضيلة . فهو لا يحرم إلا ما يحرمه العلم الصحيح ، ولا يحل إلا ما يحله الطبع السليم ، فإذا كان يحرم على أهله الخمر والميسر والزنا والقتل والغيبة والنميمة والكذب والتفاق والسرقة والرشوة والخذاع الخ الخ ، فذلك لأنها مفسدة

للأفراد والجماعات ، مجلبة للشرور والآفات ، وهو يحل كل ما عدا هذه الصفات الذميمة ؛ ولا يطالب الإنسان إلا بالاعتدال فيها ؛ لذلك تأدى المسلمون في أول عهدهم إلى بلوغ جميع أغراضهم الاجتماعية بأسرع مما سجله التاريخ لكل الأمم التي آلت إليها الخلافة في الأرض ، حتى من ناحية المدنية المادية ، فقد بلغوا فيها أوجاً أدهش مؤرخي الفرنجة ، ووصفوها بأنها لا تقل عن المدنية الحالية رونقاً . وإنا لناقلون لك ذلك عن العلماء الغربيين أنفسهم ؛ ليسكون الوصف لغرابته أكثر إقناعاً للمتشككين ، وأشد وقعاً على المنكرين .

قال العلامة (دريبر) Draper المدرس بجامعة (هارفارد) بالولايات المتحدة الأمريكية في كتابه (المنازعة بين العلم والدين) قال في المقارنة بين مدينتي أوروبا في ذلك العهد ومدنية العرب :

« إن أوروبا في ذلك العهد (عهد مدنية العرب) كانت غاصة بالغابات السكيفة من إهمال الناس للزراعة . وكانت المستنقعات قد كثرت حوالى المدائن ؛ فكانت تنتشر منها روائح قتالة اجتاحت الناس وأكلتهم ولا مغيث لهم . وكانت البيوت في باريز ولوندرة تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب . ولم يكن بها نوافذ ولا أرضيات خشبية . أما الأبسطه فكانت مجهزة لديهم ، وكان يقوم مقامها القش ينشرونه على الأرض . ولم يكونوا يعرفون المداخن ، فكان الدخان يطوف البيوت ثم يتسرب من ثقب صنعوه له في السقف . فكان الناس في هذه البيوت معرضين لكل ضروب الإصابات الخطيرة . وكان الناس لا يعرفون معنى النظافة فيلقون بأحشاء الحيوانات ، وأقذاه المطابخ أمام بيوتهم أكواما وأكسادا تتصاعد منها روائح قتالة ولا رقيب ولا حسيب . وكانت الأسرة الواحدة تنام في حجرة واحدة من رجال ونساء وأطفال ، وكثيراً ما كانوا يؤوون معهم الحيوانات المنزلية .

« وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش فوقه كيس من الصوف كمخدة ، وكانت النظافة معدومة لديهم لا يعرفون لها رسماً .

« وكان الغنى منهم لا يأكل اللحم إلا كل أسبوع مرة ، ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح .

« هذه الجهالة كان أثرها على أوروبا أن عمتها الخرافات والاهوام ، فأنحصر التداوى في زيارة الأماكن المقدسة ، ومات الطب وحييت أحيال الدجالين . وقد كان إذا دهم البلاد وباء فزع رجال الدين للصلاة ، ولم يلتفتوا لأمر النظافة ، فكانت تفتك بهم الأوباء فتكا ذريعاً ، انتهى كلام الأستاذ دريبر .

هذه كانت حالة أوروبا في أعظم مدنها حضارة على عهد البعثة المحمدية ، آلت إليها بسبب ما أصابها من التدهور تحت سلطان رجال الدين فيها . ففقرن بين هذه الحالة ، وبين ما آلت إليه حالة مدن الأندلس (اسبانيا) التي استولى عليها المسلمون في القرن الأول من الهجرة وسرّوا عليها النظم الإسلامية . قال الأستاذ (دريبر) نفسه في كتابه (المنازعة بين العلم والدين) :

« لم تكن أوروبا في مدنيها العصرية بأعلى ذوقاً ، ولا أرفع مدنية ، ولا ألطف رونقاً من عواصم الأندلس على عهد حكم العرب ، فقد كانت شوارعهم مضادة بالأنوار ، ومبلطة أجمل تبليط ، والبيوت مفروشة بالبسط ، وكانت تدفأ شتاء بالموافد ، وتهوى صيفاً بالنسيمات المعطرة ، بواسطة إمرار الهواء تحت الأرض من خلال أوعية مملوءة زهراً . وكانت لهم حمامات ومكتبات ومحلات للغذاء ، وينابيع مياه عذبة .

« وكانت المدن والخلوات مألًى بالاحتفالات التي كانوا يرقصون فيها على آلات الطرب . وكانوا بدل النهم ، وإدمان السكر في المآدب الليلية ، كجيرانهم الأوربيين ، يحملون مآدبهم بالقنصاعة . وكانت الخمر محرمة عليهم ، وكانت غاية لذاتهم البدنية تنحصر في تمشيتهم في الليالي المقمرة في حدائقهم البالغة منتهى الجمال ، أو بجلسهم حول أشجار البرتقال يسمعون قصة مسلية ، أو يتجادلون في موضوع فلسفي ، متعزين عن مصائب الدنيا وآلامها ، بقولهم : إنها لو كانت منزهة عن الآلام وعن الإصابات لنسوا حياتهم الآخروية . وكانوا يوفقون بين جهودهم في هذه الحياة ، وبين آمالهم في النعيم المقيم في الآخرة .

انتهى ما قاله الأستاذ (دريبر) . فقد ربعد ذلك مبلغ ما أفاده الإسلام لذويه من نعمتى الوجود المادية والادبية ، وتحقق مما يفيد هذا الدين لأهله من خير المعاش والمعاد . أفلا يحق لنا بعد هذا أن نقول : لنا الدين والدنيا معاً ؟

محمد فريد ومحمدى

الحَمْدَاءُ

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ فكري ياسين
المفكش بالازهر

أخرج البخارى عن أنس بن مالك قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم في
مسير له ، فحدا الحادى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : د ارفق يا أنجشة —
ويحك — بالقوارير !

جرت عادة الإبل أنها إذا سمعت الحداء استهوتها أنغامه ، وهزتها ألحانه ،
وتأثرت به تأثرا تستخف معه الاحمال الثقيلة ، وتستقصر في سماعه المسافات
الطويلة ، وينبعث فيها من النشاط والقوة والشوق والحنين ما يسكرها ويولها ،
فتراها حتى ولو طالت عليها البوادي ، واعتراها الإعياء والسكلال تحت المحامل
والاحمال - تمد أعناقها ، وتنصب آذانها مصغية إلى صوت الحادى ، ومنصته إلى
نغمات الحداء ، وهى مسرعة فى خطوها وجادة فى سيرها ، وربما تتلف نفسها
من شدة السير وثقل الحمل ، وهى لا تشعر ، تأثرا بما ملأها من طرب وهيام ؛
كما أنه قد ينشأ عن كثرة اهتزازها ، وتلاحق خطواتها ما يزعج الراكب ،
ويتعبه ، وما لا يؤمن معه على النساء والضعفاء من السقوط .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره ، ومعه نساؤه وسواق يسوق
بهن ويحدو ، يقال له : أنجشة ، وكان حسن الصوت ، فقال له عليه السلام : ارفق
يا أنجشة بالقوارير . وقد سمي النساء قوارير ، لضعف عزائمن ، تشبيها لهن

بالقوارير من الزجاج في رقبتها وضعفها وإسراع الانكسار إليها ، والنساء يُشبهن بالقوارير في الرقة واللطافة وضعف البنية ، وقيل : شبهن بالقوارير لسرعة إنقلابهن عن الرضا ، وقلة دوامهن على الوفاء ؛ كالقوارير يسرع إليها الكسر ، ولا تقبل الجبر .

واختلاف في المراد من هذه التسمية على قولين : فأصحهما أن أنجشة كان حسن الصوت ، وكان يحدو بهن وينشد شيئاً من القريض والرجز ، وما فيه تشبيب ، فلم يأمن أن يفتنهن ، ويقع في قلوبهن حداثه ، فأمره بالكف عن ذلك ؛ وهذا هو الأشبه بمقصوده صلى الله عليه وسلم ، وبمقتضى اللفظ ، وبما يدل عليه كلام أبي قلابة المذكور في رواية أخرى ، إذ يقول : تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلمة لو تكلم بها بعضكم لبعثتموها عليه ، يريد قوله في تلك الرواية : سوقك بالقوارير .

والقول الثاني : أن المراد من تسمية النساء بالقوارير : الرفق في السير ؛ لأن الإبل إذا سمعت الحذاء ، اشتدت في المشي ، واستلذته ، فأزعجت الراكب وأتعبت ، فهناك عن ذلك ، وطلب إليه أن يتلطف في سوقه بهن ، كتلطفه في السوق بالقوارير لو كانت محمولة على الإبل ؛ لأن النساء يضعفن عن شدة الحركة ، ويخاف عليهن الضرر والسقوط ، ولأنه إذا تمهلت المطايا ، ومشيت رويدا ، أطمأن النساء في رحالهن ، وأمنن مما يصيبهن من أذى ومكروه . وقال أصحاب هذا القول : إن هذا من الاستعارة البديعة ، لأن القوارير أسرع شيء تكسيرا ، فأفادت الكناية بالقوارير عن النساء من الخض على الرفق بهن في السير ما لم تفده الحقيقة ، فيما لو قال : ارفق بالنساء . قال في السكواكب : هذه استعارة لطيفة بليغة ، فلم تعاب ؟ ثم قال : ولعل أبا قلابة نظر إلى أن شرط الاستعارة أن يكون وجه الشبه جليا بين الأقوام ، وليس بين القارورة والمرأة وجه شبه ظاهر عندهم . والحق أنه كلام في غاية الحسن ، والسلامة من العيوب ، ولا يلزم في الاستعارة أن يكون جلاء وجه الشبه من حيث ذاتهما ، بل يكفي الجلاء الحاصل من القرائن ، وهو هنا كذلك .

وقيل : إن أبا قلابة قال هذا لأهل العراق ، لما كان عندهم من التكلف ، ومعارضة الحق بالباطل . وقيل : إن قصده من كلامه أن هذه الاستعارة تحسن من مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم في البلاغة ، ولو صدرت من غيره ممن لا بلاغة له ، لعبتموها .

* * *

الحمداء : سوق الإبل بضرب مخصوص من الغناء ، وهو من حمدا الإبل ، وحدا بها : ساقها ، والحادى : المتغنى عند السوق . ويقال : إن أول من حدا الإبل عبد لمضر بن نزار بن معد بن عدنان ، كان في إبل لمضر ، فقصر ، فضر به مضر على يده فأوجعه ، فجعل يتألم ويقول : يا يداه ، يا يداه ! وكان حسن الصوت ، فأسرعت الإبل في السير لما سمعته ، فكان ذلك مبدأ الحمداء .

وارفق : من الرفق ، وهو اللطف وحسن الصنيع ، يقال : رفق به وعليه رفقا ، وأرفقه : رفق به ونفقه . وترفق به : رفق ، والرفيق : ضد الآخر .

وأنجشة - بفتح الهمزة ، وسكون النون ، وفتح الجيم ، ووقع في بعض الروايات أنجش بالترخيم - هو غلام أسود للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان حبشيا يكنى أبا مارية ، وذكروه في الصحابة ، وذكر أبو عمر في الاستيعاب أنه كان يسوق أو يقود بنساء النبي صلى الله عليه وسلم في عام حجة الوداع ، وكان حسن الصوت ، وكان إذا حمدا أعنقت الإبل ، وأخرج الطبراني أنه كان ممن نقام النبي صلى الله عليه وسلم من المخنثين .

ويحك : كلمة ترحم وتوجع ، وهو منصوب على المصدرية ، وقد ترفع وتضاف ، ولا تضاف ، يقال : ويح زيد ، ويحاله ، ويح له . وقال سيبويه : ويل : كلمة تقال لمن وقع في هلكة ، ويح : زجر لمن أشرف على الوقوع في هلكة . وقال الفراء : ويل ويح وويس بمعنى ، وقيل : ويح : كلمة لمن وقع في هلكة لا يستحقها ، فبرئ له ، ويترحم عليه ، وييل : ضده . وقال بعض أهل اللغة : لا يراد بهذه الألفاظ حقيقة الدعاء ، وإنما يراد بها المدح والتعجب ،

وجاء في القاموس أن ويح أصلها وى ، فوصلت بحاء مرة ، فقييل : ويح ، وبلاد مرة ، فقييل : ويل ، وبياء مرة ، فقييل : ويب ، وبسين مرة ، فقييل : ويس .
والقوارير : جمع قارورة ، وهى الزجاجية ، وسميت بذلك لاستقرار
الشراب فيها .

* * *

نقل ابن عبد البر الاتفاق على إباحة الحداء ، وفى كلام بعض الحسابلة ما يشعر بوجود خلاف فيه ، والمساندون له محجوجون بالنصوص الكثيرة المفيدة لمدح الصوت الحسن ، ومشروعية الحداء ، وذلك مثل قوله تعالى فى معرض الامتنان على عباده : « يزيد فى الخلق ما يشاء » ، فقييل إنه هو الصوت الحسن ، وقوله : « إن أنكر الأصوات لصوت الخير » ، فإنه يدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن ؛ ومثل خبر : « ما بعث الله نبياً إلا حسن الصوت » ، وخبر أبى موسى الأشعرى فى معرض المدح : « لقد أعطى مزماراً من مزامير آل داود » ، ومثل حديث أنس : « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدى له فى السفر ، وأن أنجشة كان يحذى بالنساء ، والبراء بن مالك كان يحذى بالرجال » . وقال أهل العلم : لم يزل الحداء وراء الجمال من عادة العرب فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزمان الصحابة رضى الله عنهم ، وما هو إلا أشعار تؤدى بأصوات طيبة ، وألحان موزونة ، ولم ينقل عن أحد من الصحابة إنكاره ، بل ربما كانوا يلتمسون ذلك تارة لتحريك الجمال ، وتارة للاستلذاذ ، فلا يجوز أن يحرم من حيث إنه كلام مفهوم مستلذ ، مؤدى بأصوات طيبة ، وألحان موزونة .

وألحقوا بالحداء فى الحسب غناء الحجيج ، وهو المشتمل على التشويق إلى حج بيت الله تعالى بذكر الكعبة والمقام والخطيم وزمزم وسائر المشاعر السكرية ، والمشاهد العظيمة ، ووصف البادية وغيرها ، ووصف الثواب على ذلك ، والغناء الذى يحرض به أهل الجهاد على الغزو ، إذا كان الغرض منه تشجيع النفوس ، وتحريك النشاط على القتال ، والتمسح بالبسالة والنجدة ، وإثارة الهمة والحمية ، وغناء الأم لتسكيت ولدها فى المهد ، والغناء فى أوقات السرور

إن كان ذلك السرور مباحا ، كالغناء في أيام العيد وفي العرس ، وفي وقت قدوم الغائب ، وفي وقت الوليمة والعقيقة ، وعند ولادة المولود ، وعند ختانه ، وعند حفظه القرآن العزيز .

واستدل بجواز الحدااء على جواز غناء الركبان المسمى النصب ، وهو ضرب من الذشيد بصوت فيه تمطيط ، واستدل به قوم على جواز الغناء مطلقا بالألحان التي تشتمل عليه الموسيقى . وقال الماوردي : اختلف فيه ، فأباحه قوم مطلقاً ، وكرهه قوم مطلقاً ، وكرهه مالك والشافعي في أصح القولين . ونقل عن أبي حنيفة المنع ، وكذا أكثر الحنابلة . ونقل ابن طاهر في «كتاب السماع» الجواز عن كثير من الصحابة . وقال ابن عبد البر : الغناء الممنوع ما فيه تمطيط ، وإفساد لوزن الشعر ، طلباً للطرب ، وخروجاً من مذاهب العرب ، وإنما وردت الرخصة في الضرب الأول دون ألحان العجم ، وهو الضرب الذي لم يزل يرخص فيه البعض من غير تكبير ، إلا في حالتين : أن يكسر منه جديداً ، وأن يصحبه ما يمنع منه .

واحتج المبيحون له بأن فيه ترويحاً للنفس ، فإن فعله صاحبه ليقوى على الطاعة فهو مطيع ، وإن فعله ليقوى على المعصية فهو عاص ، وإلا فهو مثل التزهد في البستان ، والتفرج على المسارة .

وقال الغزالي : الغناء اجتمعت فيه معان ينبغي أن يبحث عن أفرادها ، ثم عن مجموعها ، فإن فيه سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى ، محرك للقلب ، فالوصف الأعم أنه صوت طيب ، ثم الطيب ينقسم إلى الموزون وغيره ، والموزون ينقسم إلى المفهوم كالاشعار ، وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات ، وسائر الحيوانات ؛ أما سماع الصوت الطيب من حيث إنه طيب ، فلا ينبغي أن يحرم ، بل هو حلال بالنص والقياس . ثم أخذ في بيان ذلك ، وبيان شروط الإباحة وظروفها ، وأوقاتها ودرجاتها وملابساتها ، وأطال بما لا يتسع المجال لذكره هنا ، فلي نظر هناك .

يَا هَلَّ النَّكَابِ لَمْ تَلْبِسُونِ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد المدني
المفتش بالأزهر

من المعروف أن القرآن الكريم لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم جملة واحدة ، وإنما نزل منجما في أكثر من عشرين عاما في مكة والمدينة ، وقد عنى العلماء ببيان مكيه ومدنيه ، وكان مما ذكروه أن هناك سورا نزلت في مكة ، وألحق بها بعض آيات نزلت بالمدينة ، وأن عكس هذا حاصل أيضا ، فهناك سور نزلت في المدينة ، وألحق بها بعض آيات نزلت في مكة ؛ غير أن هذا العلم قد دخله كثير من الخلط والاضطراب ، فأدى ذلك الى تقرير أمور لا يطمئن إليها القلب ولا يثق بها ضمير الباحث العلى .

اعتمد أهل الشأن في ذلك على الروايات التي تروى ، وهى الاجتهاد المستند إلى تلك الروايات أو إلى ما هو معروف مذكور في السير والمغازى ؛ والروايات تختلف ، فهنا القوى ومنها الضعيف ؛ وتتعارض فربما أثبتت إحدى الروايات أن آية كذا مدنية ، وأثبتت أخرى أن هذه الآية بعينها مكية ؛ وقد وقع في بعض حوادث السيرة وأخبار المغازى شيء من الاضطراب تبعه اضطراب فيما يروى استنادا إليها ، أو أخذنا منها ؛ ثم الاجتهاد يختلف فترى فيه آراء مختلفة ، وترجيحات متعددة ، حتى أصبح هذا الامر في كثير من المواطن أعقد من ذنب الضب .

والسبيل إلى تبين وجه الحق في ذلك هو التحييص والموازنة بين الروايات قوة وضعفا ، ومراجعة آراء المجتهدين المستنبطين حتى يتبين ما يقبل من ذلك وما لا يقبل . ولكن هذا أمر صعب دقيق ، والميل فيه إلى ناحية بعينها يستلزم علما جما ، وبحوثا عميقا ، ولونا من ألوان المناظرة العلمية في مدى طویل من الزمان والجهد ، وقد ازداد ذلك في زماننا صعوبة ، لانصراف الهمم إلى غيره ، أو لإكداها عنه .

وقد اقتصرت اللجنة التي أشرفت على طبع المصحف الفؤادى المتداول الآن ميدانا ما كان لها أن تفتحهم ؛ ذلك أنها عنت بأن تنبه بين يدي كل سورة من سور القرآن المدنية أو المكية بذكر ما استثنى من الآيات ، فتراها مثلا تقول « سورة كذا مكية إلا آيات كذا وكذا فمدنية » ، ولا شك أن الحكم بذلك ليس قاطعا ، وإنما هو حكم فى أمر خلافى ، ولا ينبغي أن يوضع مثله هذا الموضع بين يدي السور ، فإن كثيرا من الناس يظن أن ذلك أمر مسلم ، وحكم متفق عليه ، مع أن اللجنة قد تختار مرجوحا ، وقد لا تنبه إلى ما فى بعض الروايات التي تعتمد عليها من مقال ، ونحن نورد هنا أمثلة مما جاء بين يدي السور الكريمة من ترجيحات هذه اللجنة ، ونناقشه مناقشة يسيرة :

١ — فن ذلك أنها كتبت عن سورة يونس أنها مكية إلا آيات استثنتها ، ومن هذه الآيات آية ٩٦ ، وهى قوله تعالى : « إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، فهذه الآية مدنية فى الرواية التي اعتمدت عليها اللجنة ، مع أن بعدها مباشرة آية متصلة بمعناها اتصالا يقضى بأنها نزلت معها بعدها لا قبلها ، هى قوله تعالى : « ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم » ، فظاهر أن قوله « ولو جاءتهم » ، مبالغة على قوله « لا يؤمنون » فكيف يتصور أن كل واحد منها نزل فى وقت ، ثم نتصور أن المبالغة نزلت قبل الاصل المبالغ عليه ؟

٢ — ومن ذلك أنها كتبت عن سورة مريم أنها مكية إلا آيتي ٥٨ ، ٧١ فمدنية ، وهاتان الآيتان هما :

أولا : قوله تعالى : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتيعنا إذا تنلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا »

هذه آية ٥٨ وهى تبدأ باسم الإشارة « أولئك » وقد سبق ذلك حديث السورة منذ أولها عن الانبياء والصديقين ، فقد ذكرت زكريا ويحيى ومريم وعيسى وإبراهيم وإسمحق ويعقوب وموسى وإسماعيل وإدريس ، فن الواضح

أن الإشارة لهؤلاء ، فإذا قيل إن الله ذكرهم في مكة ، ثم أشار إليهم بهذه الإشارة في المدينة كان ذلك موضع نظر .

ثانياً : قوله تعالى : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا » هذه هي الآية الواحدة والسبعون المستثناة أى أنها مدنية مع أن بعدها قوله تعالى « ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » والمعنى يقتضى أن يكون ترتيب نزولهما حسب ترتيب ورودهما في المصحف ؛ لأن الآية الثانية استثناء من حكم الآية الأولى ، فلا يستساغ القول بأن الاستثناء وقع في وقت ، والمستثنى منه وقع في وقت ، ولا سيما إذا كان المتأخر هو المستثنى منه .

٣ — ومن ذلك أنها كتبت عن سورة الفرقان أنها مكية إلا الآيات ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ وهذه الآيات قد جادت بين عدة آيات في آخر السورة وصف بها عباد الرحمن ، وذلك قوله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاما (٦٣) والذين يبیتون لربهم سجداً وقياماً (٦٤) والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً (٦٥) لأنها سمات مستقرا ومقاما (٦٦) والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما (٦٧) والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً (٦٨) يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً (٦٩) إلا من تاب وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً (٧٠) ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً (٧١) والذين لا يشهدون الزور ... الخ

فانظر كيف تحكم هذه الرواية على بعض الأوصاف التي جاءت في نسق واحد بحكم يقتضى أن الله جل جلاله قد بدا له زيادة في أوصاف عباد الرحمن التي قررهما في مكة بصورة خبرية ، فاستدركها في المدينة فأضاف إليها هذه الآيات الثلاث — تعالى الله !

٤ — ومن ذلك ما جاء عن سورة الروم من أنها مكية إلا آية ١٧ فمدنية . وآية ١٧ هي قوله تعالى « فسبحان الله حين تمشون وحين تصبحون » وقد

جاء بعدها ، وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون ، فهي أختها وقرينتها في المعنى تكمل إحداها الأخرى ، ولا ندرى ما الحكمة التي قضت بفصل هذه عن تلك في النزول كما يقولون ! .

٥ — ومن ذلك استثناء الآية ٥٤ من سورة الزخرف المسكية ، وهي قوله تعالى : فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين ،

وقد جاء ذلك في أثناء قصة موسى وفرعون إذ يقول الله عز وجل : : ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين ، إلى أن يقول : ونادى فرعون في قومه ، قال : يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون (٥١) أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين (٥٢) فلولاً ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين (٥٣) فاستخف قومه فأطاعوه أنهم كانوا قوما فاسقين (٥٤) فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين (٥٥) فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين (٥٦) ،

فتريدنا هذه الرواية على أن نأخذ الآية الرابعة والخمسين بخصوصها دون ما قبلها وما بعدها في هذه القصة الواحدة فنعدها من المدنى .

٦ — وشبهه بذلك ما كتبه عن سورة يوسف ، فهي مكية كلها إلا الآيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٧ ، فمدنية .

ومعنى ذلك أن الآيات ٤ ، ٥ ، ٦ مكية وهي قوله تعالى : : إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا ، إلى قوله : : كما أتمها على أبويك من قبل لإبراهيم وإسحق إن ربك عليم حكيم ، وإن قوله بعد ذلك مباشرة : : لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ، مدنى ، وقد جاءه بعده مباشرة أيضا آيات مكية أخرى هي : : إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إلى آخر السورة ، والضمير في قالوا ، للإخوة . فانظر كيف يحملونا على أن نفهم أن ضميرا في آية مكية يعود على مذكور في آية مدنية ! وكيف اقتطعوا جملة من قصة لها تمام الاتصال بها في المعنى ، ففرقوا بينهما في الوطن إلى هذا الحد !

يجب أن تجرد المصاحف من أمثال هذه الروايات ، فلا يوضع بجانب المتواتر المحفوظ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كلام غير محرر . وروايات كثيرا ما تضطرب معانيها ، وهى كما يقول الشاعر :

بلى شيء يوافق بعض شيء وأحيانا وباطله كثير !
فلندع كتاب الله مصونا فى المصحف ، ولنرو ما نشاء من الأقوال والآراء بعيدا عنه ، حيث يكون خاضعا للبحث والتحصيل .

إن الحكومة المصرية هى التى ألغت هذه اللجنة ، وقد اعتمدت عملها بعد أن وافقت عليه مشيخة الأزهر ، واشتهر المصحف منذ ذلك الوقت بنسبته إلى المغفور له الملك فؤاد الأول طيب الله ثراه ، فأول ما نخشاه أن يظن ظان أن هذه الأحكام المسجلة بين يدي كل سورة أحكام نهائية قد فرغ البحث منها ، وسلم العلماء بصحتها ، حتى اعتمدتها الدولة وصبغت عليها ثوب « الرسمية » ، وفى هذا من التضليل والضلال ما فيه .

الاستدلال بالضمير

كتب حكيم إلى حكيم : إذا أردت معرفة مالك عندى ، فضع يدك على صدرك ، فكما تجدنى كذلك أجدك .

وقال غيره : إياكم ومن تبغضه قلوبكم ، فإن القلوب تجازى القلوب .

وقال ذو الإصبع :

لا أسأل الناس عما فى ضمائرهم ما فى ضميرى لهم من ذاك يكفينى

وقال محمود الوراق :

لا تسألن المرء عما عنده واستمل ما فى قلبه من قلبسكا

نقول هذا قد يصح إذا كان القلب سليما من همزات الشياطين ، صافيا نقيا تنطبع فيه الأمور المعنوية كما تنطبع الصور فى المرآة . وأين مثل هذه القلوب إلا للأنبياء والصديقين والحسكاه ، أما العامة ومن فى حكمهم فقلوبهم مغشاة بالاهواء ، صدئة بالظنون والاهوام ، فلا يجوز أن يوثق بما تصوره لأصحابها ، ومن يفعل ضلته ولا كرامته .

الإصلاح الاجتماعي

بين النزعتين : المادية والروحية

لفضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ محمد محمد الفحام

الأستاذ بكلية اللغة العربية

للمصلحين الاجتماعيين — على اختلاف نزعاتهم — غاية واحدة : هي النهوض بالمجتمع البشرى ، والوصول به إلى أقصى درجات السكال الإنسانى ؛ غير أنهم سلكوا في سيرهم طريقتين مختلفتين ، فافتسموا إلى فريقين : فريق يسعى للإصلاح من ناحية الروح ، وفريق يسعى إليه من ناحية المادة .

فالروحانيون يرون أن الروح هو الجزء الأهم في الإنسان ، فهو الأجدر بالناية والرعاية والخدمة ؛ لذلك كان الدين عندهم هو الوسيلة إلى إصلاح البشرية ، ثقةً منهم بأن الإنسان لا يطمئن في الحياة ، ولا يتغلب على صعابها ، إلا إذا امتلأ قلبه إيماناً ، وعمرت نفسه بالتدين الذى يرافقه في خلوته ، فيزجره ويعصمه من الشر والإجرام ، من غير قانون يخشاه ، ويمزيه في حرمانه ، فيجعله راضياً ؛ وبذلك تحقق له السعادة التى تعجز عن تحصيلها الأموال الطائلة ، والقوى الهائلة ؛ بل العلوم والمعارف .

يرى الروحانيون أن الإصلاح الاجتماعى إنما يكون عن طريق تهذيب النفوس ، وتطهير القلوب من الأحقاد والاضغان ، وهدن الانانية والعدوان ، وبغرس المحبة والميل إلى الخير في النفوس ، وتوجيهها إلى الله تعالى ، الذى يحفظ المؤمن من كل ما يخشى ، ويحقق له كل ما يطلب .

هذا ما قام به الروحانيون في خدمة البشرية ، ولهم فضلهم ، والإنسانية مدينة لهم بما صنعوا ؛ فقد عملوا لتهذيب النفوس ، وتطهير القلوب ، وإنارة العقول ،

ولإيقاظ الضمير الإنساني ، الذي يقود إلى الخير ، ويصد عن الشر ؛ وهذا حسن من رجال الدين ، يذكر لهم دائماً مقرونا بالإعجاب والتقدير .

غير أن فريقاً من الروحيين قد غلّا في دعوته ، واندفع في طريقه حتى جاوز الغاية ، فحقر من شأن المادة ، ودعا الناس إلى الانصراف عنها ، والعزوف عن الدنيا ، والزهد فيها ، وصرف الوقت كلها : ليله ونهاره ، في تغذية روحه بالعبادة ؛ فانصرف الناس بذلك عن العمل في الدنيا .

ومنهم من عبث بالعقول ؛ فعاقبها عن التفكير ، ودعا إلى التقليد المطلق ، وقاد الافكار إلى اعتقاد الخرافات والضلال ، وهؤلاء قد أساءوا إلى البشرية بما ألحقوا بها من بالغ الضرر ، وإلى الدين بما أحدثوا فيه من تحريف وتشويه .

لقد كان ذلك سبباً في ثورة بعض المفكرين على الدين ، ومناهضة الروحيين ، وانتشار النزعة المادية ، وإعلان أهلها العصيان والتردد على الأديان ، فاتهموا الشرائع السماوية بأنها غل في عنق الإنسان ، وقيد يعوقه عن السير إلى الأمام .

وصفوا الدين بأنه مخدر ، ورموا أهله بالجور ، والاستسلام إلى الخيال والأوهام ، واتهموا زعماءه وقادته بأنهم يدعون الناس إلى الكسل والخول والتواكل ، ويقتلون فيهم روح العمل ، ويغرسون فيهم الآثرة وحب الذات ؛ لأنهم يحملونهم على طلب السعادة لأنفسهم بالعبادات ، ناسين أن عليهم حقاً للعالم الذي يعيشون فيه ، ويتمتعون فيه بكل خير ، ولا يقدمون له من الخدمة شيئاً ما ؛ وتلك هي الانانية بعينها .

ومن ثم تنكّر الماديون للأديان ، وطاردوا رجالها ، وأغلّقوا المعابد ، وفصل بعضهم الدين عن الدولة ، وأغضبوا أعينهم عن الروحانيات .

هؤلاء هم الماديون ، أصحاب المذهب الثاني ، الذي يعالج المجتمع عن طريق المادة ؛ اعتمدوا في معالجة المشاكل الاجتماعية على وسائل مادية بحتة ، فعملوا على توفير الثروة في البلاد ، وزيادة الغلة والإنتاج الزراعي والصناعي ، وتنظيم توزيعها ، وسن القوانين التي تؤدي إلى ازدهار العمران ، وإيجاد نوع من العدالة

يضمن للعامل والصانع عيشة طيبة ؛ وفى مقدمة ما يهتمون به إنشاء الملاجىء ، والمدارس والمصحات .

أسلوا للعلم قيادهم ، وجعلوه أداة استنبطوا بها مكنونات المادة من أسرار وقوى ، استخدموها لخير الإنسانية ؛ هدفهم إسعاد الإنسانية عن طريق الغنى والمعرفة والقوة . وهم بذلك يعملون للقضاء على الأعداء الثلاثة : الفقر ، والجهل ، والمرض .

ظن هؤلاء الماديون أنهم بخدمة الجانب المادى للإنسان ، يحققون للمجتمع مثله الأعلى : السعادة المنشودة ؛ وما دروا أن العلم والمال وحدهما لا يغنيان الإنسان ، ولا يحققان له شيئاً من هناءة الروح ، وأطمئنان النفس ؛ بل كثيراً ما يسببان للإنسان الشقاء بما يجلبان عليه من مهلكات التفرق المفضى إلى الحروب المدمرة التى تقضى عليه وعلى علمه وماله .

وحسبنا دليلاً على ذلك ما حدث فى هذا القرن من وقوع حربين عظيمتين ، كان العلم والمال أمضى أسلحتهما .

وضح لنا مما بيناه أن كل واحد من المذهبين لا يستقل على انفراد بإصلاح المجتمع ؛ لهذا يمكننا أن نطرح جانباً النزعة المادية المتطرفة ، كما نطرح النزعة الروحية المتطرفة . وهنا نقف بالإصلاح الاجتماعى موقفاً وسطاً ، فلا نميل به مع الغلاة من الفريقين ؛ بل الخير كل الخير فى الأخذ بالمادة إلى قدر مقدور ، والاستمسك بعرى الدين فى حدود تعاليمه الصحيحة .

نستطيع إذن أن نوافق الماديين إلى حد ما : نقرهم على ضرورة استخدام العلوم والانتفاع بشمارها من المخترعات التى تقوم فى المصانع مقام اليد العاملة ، فتزيد الإنتاج الصناعى والزراعى ، وتحمل عن الإنسان ما يتكبد من عناء ؛ ونوافقهم أيضاً على إقامة المؤسسات اللازمة لإصلاح المجتمع من المدارس ، والمصانع ، والملاجىء والمساكن الصحية ، وإنشاء القرى على نظام جديد ، وتعميم نظام التعاون فيها .

نستطيع أن نوافقهم على هذا كله ، ولكننا ننكر عليهم شططهم إلى حد الخروج

على الدين ، والثورة على القوانين السبوية التي ثبتت صلاحيتها لكل زمان ومكان كنظام الميراث ، ونظام الأسرة ، واحترام الملكية .

أما استخدام العلوم والانتفاع بشمارها ، فهو أمر نقره أيضا ، إذ لا يصادم العلم الصحيح الدين أبدا ، بل الدين يحث عليه ، ويرفع من شأنه ، ولا يقف حجر عثرة في سبيله .

ومن الأصول العامة التي جرى عليها العمل بين المسلمين ، أنه إذا أومر ظاهر النص معارضته للعقل ، أو لأصل من أصول العلم ، وجب تأويله بما يجمع بينهما . ومثال ذلك ما جاء في الكتاب العزيز من قوله تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه » ، وقوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » ، وقوله تعالى : « والارض بعد ذلك دحاها » ، أى بسطها .

لا يعقل أن يكون لله وجه أو يد ، وقد أثبت العلم أن الارض كروية . فعند المسلمون — أتباع الأصل المقرر في دينهم — إلى تأويل هذه الالفاظ : أولوا الوجه بالذات ، واليد بالقدرة . وقالوا : إن المراد بالدحو البسط فيما يراه الرائي لا في الشكل السكلى ، فلا ينافي هذا أن الارض كروية .

والاستمسك بعمرى الدين في حدود تعاليمه الدينية يحملنا على النهوض بالإصلاحات الاجتماعية ، والقيام بالمشروعات العمرانية ؛ لأن الدين الإسلامى يعمل على إصلاح شئون الناس في دينهم ودنياهم على السواء ، قال تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وفي الآثار الصحيحة : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

يحث الإسلام على العمل ، ويحارب البطالة والكسل ، ويرغب في مزاوله الصنعة والتجارة . روى عن المقداد رضى الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده » ، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده ، قال تعالى : « وعلناه صنعة لبوس لكم » . وقال : صلى الله عليه وسلم : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » . وفي الآثار الصحيحة أيضا : « إن الله يحب

التاجر الصدوق ، والصانع الناصح ، ونظر عمر إلى أبي رافع ، وهو يقرأ ويصوغ ، فقال : يا أبا رافع ! أنت خير منى : تؤدى حق الله وحق مواليك . قال الله تعالى : فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله ، وقال تعالى : فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه .

ليس الدين الإسلامى ديناً روحياً خصب ، بل هو دين جسد وعمل كذلك ؛ يدل لهذا أن الشريعة الإسلامية نظمت للناس شئون حياتهم الاجتماعية بما سنت لهم من الأحكام والقوانين الاقتصادية والزراعية والتجارية ، وقوانين الأحوال الشخصية وغيرها .

فهنالك قوانين لتنظيم البيع والشراء ، والإجارة والسلم ، والقرض والقراض ، والمزارة والشركة ، والزواج والطلاق ، والعدة والنفقات وغيرها .

لقد رسم الإسلام سياسة المجتمع البشرى ، على أحكم خطة وأحسن تقويم . جاءت الشريعة الإسلامية بمبادئ وأحكام ترمى الى تدعيم بناء المجتمع ورقابته ، والى علاج ما ينتابه من أمراض وعال ؛ مبادئ لو استمسك بها الناس لعاشوا فى أمن ودعة ، وظلوا فى رغد من العيش ، وبسطة من الهناء والنعم ، والغبطة والسعادة .

أمر الدين الإسلامى بعموم الفضائل ، ونهى عن جميع الرذائل . ودعا إلى التأخى والتواصل ، وحذر من التدابر والتقاطع ، وقرر حفظ النفس ، والدين ، والمال والعقل والنسب ، أمور خمسة قرر الدين الإسلامى حفظها والذود عنها ؛ إبقاء على كيان المجتمع ؛ لأن فى بقائها بقاءه ، وفى إهمالها انحلاله وفناءه .

وقد سمي الأصوليون هذه الأشياء الخمسة بالسكليات الخمس ؛ لأن كل الأديان السماوية اتفقت على أن نحافظ عليها . وفى سبيل المحافظة على هذه الأمور شرع الإسلام القصاص لحفظ النفس ، والجهد لحفظ الدين ، والحدود المختلفة لحفظ المال والعقل والنسب .

الدِّينُ وَالْأَخْلَاقُ

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
الأستاذ بكلية أصول الدين

كلاهما يهدف لبيان الخير ويهدى إليه ، ويُعنى ببيان الشر وتبغيضه إلينا .
والأخلاق كما تقول المعاجم ، والكتب العلمية التي تبحث في هذا الفرع من فروع
الفلسفة ، هي مجموعة القواعد التي بها نعمل الخير ، وتجنب الشر . أو مجموعة قواعد
السيرة الطيبة المعمودة ، القواعد التي يقبلها الناس عامة في كل عصر وزمان .

فإذا كان الأمر كذلك ، كان من الطبيعي أن تكون صلة قوية بين الدين
والأخلاق ، بل كان من الطبيعي أن تكون الأخلاق تابعة للدين . وهذا حقاً ،
ما يعرفه تاريخ الفكر في القديم والحديث .

نرى هذه الصلة الوثيقة فيما نعرف من تفكير قدماء المصريين والهنود
والفرس ، وفيما نعرف عن المفكرين أتباع الديانات الوحيية : اليهودية والمسيحية
والإسلام . ذلك بأن الغاية من الدين ، وبخاصة ما كان سماوياً منه ، إصلاح
الإنسان والإنسانية ؛ وليست الأخلاق إلا هذا .

كان المصريون القدماء كما نعرف ، يدينون بحياة أخرى ، يسأل فيها المرء
عما عمل في حياته الأولى ، فكان من هذا : حرصهم على أن يكونوا أخياراً ،
وفي كتاب « الموتى » على ذلك شاهد وشاهد .

ولدى الهنود ، نرى أن عقيدتهم في خلود الروح والتناسخ ، ووحدة الوجود ،
قد استتبعتهما أخلاقاً تقوم على الإعراض عن الدنيا وطيباتها ، وعلى رياضة النفس
بالزهد والتأمل في عزلة وسكون ، كما تقوم أيضاً على حب الناس والكائنات جميعاً .

وفي فارس موطن دين « زرادشت » الذي يقوم على الاعتقاد بالآلهين :
إله للخير ، وإله للشر ، نجد مذهباً في الأخلاق أساسه ، أن في الإنسان صراعاً

دائماً بين مبدئين : مبدأ النور والخير ، ومبدأ الظلام والشر . ومن ذلك أن على الإنسان أن يعمل على نصرته مبدأ الخير ، وذلك باتباعه سبيل الفضيلة ، حتى ينتصر الخير في يوم آت لا ريب فيه .

هذا في الديانات الوضعية الفلسفية ، والأمم في الديانات السماوية أوضح من أن نحتاج للحديث فيه . في كتب هذه الديانات : اليهودية والمسيحية والإسلام ، نرى صلة الأخلاق وثيقة جداً بالدين ، بل نجد الأخلاق جزءاً من الدين ، وليس في هذا شيء من العجيب .

إن الله العليم الحكيم هو الذي أرسل رسل هذه الأديان كلها مبشرين ومنذرين ، هادين بوحيه إلى الصراط المستقيم ، مرشدين الناس إلى سعادة الآخرة والأولى . وهذه السعادة تكون بالعقيدة الحقة الصالحة ، كما تكون بالأخلاق الطيبة المحمودة ، وبهذا كله نزل الوحي وجاء الشرع . وإن كان الباحث يجد في غير عناء المثل العليا للسيرة والسلوك تختلف فيما بينها في هذا الدين عن ذاك ، باختلاف عصور الوحي والرسالات .

ومن المهم أن نشير هنا إلى أن أخلاق هذه الديانات تقوم على الترغيب والترهيب ، على الترغيب في الخير بما وعدت من الثواب عليه ، وعلى الترهيب من الشر بما رتبت عليه من عقاب . ولم تر أن تدعو للخير ببيان ما فيه من حسن وجمال ولياقة بكرامة الإنسان والإنسانية ، ولا أن تبغض في الشر ببيان ما هو عليه من قبح في نفسه وتناف لكرامة الإنسان كإنسان .

كما من الضروري أيضاً الإشارة إلى ما لوحظ من أن كثيراً من الملحدن ، الذين لا يؤمنون بإله خالق ولا بحياة أخرى يكون فيها الجزاء على أخلاق فاضلة ، وخلال محمودة من الناحية الاجتماعية . بينما كثير من المؤمنين بهذا الدين السماوي أو ذلك ، لا يعرفون من الخير إلا اسمه ، ولا تتفق أعمالهم مع أقوالهم وعقيدتهم الدينية .

ولعل هذه الملاحظة وتلك ، هو ما دعا بعض الفلاسفة والمفكرين المحدثين إلى محاولة فصل الأخلاق عن الدين ؛ وذلك بتعليل أحكامها عقلياً ، والبحث عن أسباب أو مبادئ أخرى تدفع للخير وتحجب فيه وتبعد عن الشر

وتجعله بغيضاً ، دون حاجة للتجوء للدين وما يرتبه من جزاء على الخير والشر ، وبذلك يؤمن بالآخلاق المتدين والملمد على السواء .

* * *

وإن أصحاب هذا الرأي ، أو إن رجال هذه المدرسة وعلى رأسهم د إميل دوركايم ، الفيلسوف الفرنسي المعروف ، يقولون بأن من الممكن فصل الآخلاق عن الدين ، وجعلها عقلية في مبادئها ووسائلها ؛ كما يرون بأن هذا من الخير ، إذ يعين على الوصول للغرض الذى تهدف إليه الآخلاق .

إنهم يرون بأن كون هذا العمل خيراً والآخر شراً ليس إلا حقائق لها وجود ، وكل ما كان كذلك يجب أن يكون من الممكن تفسيره بالعقل وحده دون حاجة للتجوء للدين أو فلسفة ما بعد الطبيعة . ولم تعد قدرة العقل على تفسير كل حقيقة من هذا الضرب أو غيره موضع شك أو عجب ، بعد ما رأينا من تقدم علوم الطبيعة والحياة والنفس ، هذا التقدم الذى فهم به الإنسان السكون ، ودانت له عناصر الوجود أو كادت !

فإذا كان الأمر هكذا في غير الآخلاق ، فلماذا لا يكون كذلك في الآخلاق ! ولم نحتاج - فى رأى دوركايم - فى سبيل تثبيت الآخلاق فى العقول والطباع ، أن نلجأ إلى طرق يعزى على العقل إدراكها ، أن نلجأ إلى الدين أو ما بعد الطبيعة !

على أنه لا يصح فى سبيل جعل الآخلاق عقلية أن نخذف منها كل ما جاء عن الدين ، وإلا صارت أخلاقاً هزيلة ليس لها من أساس . إن الواجب أن نبحث المبادئ الأخلاقية التى جاءت عن السماء ، وأن نحدد بعد هذا طبيعتها الخاصة ، وأن نعبر عن هذه المبادئ بلغة علمية عقلية .

ثم للآخلاق طابع قدسى خاص ، طابع إلزامى لا يمكن عدم الاعتراف به أو الخروج عنه ، حتى إنه قد يُقبل أن يلحد المرء فى دائرة العلم فلا يؤمن ببعض حقائقه ، ولكن لا يُقبل بحال أن يلحد فى الآخلاق . وهذا الطابع هو ما يجعل للآخلاق قوتها وأثرها الكبير على المعلم والمتعلم معا .

هذا الطابع يجب إذا الاحتفاظ به ، — ولكن فيما يقول دوركايم — ليس من الضروري رده للدين أو لمبادئه بما فوق الطبيعة ، بل من الممكن تفسيره عقليا في سهولة ويسر . وقد يمكن هذا التفسير بإسناده إلى ما يجب للإنسان والجماعة من كرامة وتقديس ، وذلك يجعل ما يتصل بهما من الناحية العملية مقدسا كذلك . ونتيجة ذلك كله ، أن يكون في الإمكان أن نغرس في الطابع حب الخير لأنه جميل في نفسه ، وكراهة الشر لأنه قبيح بغض في نفسه ، دون ضرورة للجوء للترغيب والترهيب . ومن مثل هذا المبدأ العام أن يفهم الإنسان أن من حقه وكرامته على نفسه أن يحترم ما فيه من إنسانية فلا يكذب ولا يكون جباناً مثلاً ، وأن يفهم كذلك أن من واجبه لغيره أن يحترم ما فيه من إنسانية فلا يغشه أو يخدعه ، وهكذا يمكن بهذا المبدأ أو ذاك غرس الخير وحب الفضيلة في الطابع بعد أن يقتنع العقل تماما أن ذلك جميل وحسن ومحجوب لذاته .

* * *

وأخيرا ، فإن فصل الأخلاق عن الدين لتكون علما عقليا ، أى اللجوء إلى العقل للتجيب في الخير والتنفير من الشر ، قد يكون له تأثيره الكبير على غير المؤمن بالدين ، الدين الذي يلجأ في التجيب إلى الفضيلة والتنفير من الرذيلة إلى الترغيب بالثواب والترهيب بالعقاب .

إلا أنه قد يلاحظ مع هذا أيضا أن ربط الأخلاق بالدين لا يمنع الباحثين من جعلها علما عقليا ، وذلك بتفسير الأصول التي تستند إليها والمبادئ التي تقول بها تفسيراً عقليا ، كما هو الشأن في كل ما جاء به الدين من أحكام وتشريع .

إن القرآن كان حكيماً كل الحكمة بما أكد من ثواب وعقاب على عمل الخير والشر . ذلك ضروري أول الأمر حتى يعتاد المرء عمل الخير وحتى يذوق حلاوته ؛ وحينئذ ليحله لنفسه ، وينتهى عن الشر لنفسه ، لا للثواب ولا للعقاب .

ثم حتى هذه الأيام ، لم يصل الفلاسفة والمفكرون في هذه الناحية ، مع الرغبة وطول البحث ، إلى شيء آخر غير الدين يمكن أن تستند إليه الأخلاق ، ويكون له طابع القدسية والإلزام الذي نجده للدين ؛ هذا الطابع الذي هو جد ضروري للأخلاق ، حتى في رأى هؤلاء الفلاسفة الاجتماعيين العقليين .

العبرة في ذكريات العظماء

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد التواب
مفتش الوعظ

روى جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« العلم علان : علم في القلب ، فذلك العلم النافع ، وعلم على اللسان ، فذلك حجة
الله على ابن آدم . »

تمر بالناس الذكريات في جلالها وعظمتها ، فترتلها ألسنة الدهر ، وتسطرها
أقلام الخلود ، وتشيد بها العوالم والمعالم ، قوة لا تضعف ، وعزيمة لا تفتر ،
وسراجا لا يخبو ، وتبعا لا يغيض ، فما يزال هذا الزمان يردددها ويمجدها حتى
يقف دولابه في هذه الحياة الدنيا ، ثم يتحرك في دورة أخرى ، ولون جديد
بعد هذه الحياة يوم يقوم الناس لرب العالمين . . .

فهل يفيد الناس من هذه الذكريات . ما يتركز في القلب عبرة ، وما يتمثل
في الحياة عظة ، تسمو بالنفس إلى ذروة المجد ، وتسبح بها في آفاق العظمة بين
جلال وجمال .

* * *

ذكريات العظماء أعلام خفاقة ، تلوح للرائين إن استبصروا واستذكروا ،
وشدوا على قلوبكم برباط المعرفة ، واستلهموا وحياها الناطق بالحق ، والصادق
في الفضل ، والمعلم للسكرات ، فتكون عبرتكم ، وتكون أسوتكم ، ويطيب منكم
ما تسرون وما تعلنون .

ذكريات العظماء روضات تفوح بنشرها وتزهو بشمرها ، ويستمتع بأفنانها
النضرة نفوس المستروحين ، وقلوب المتعشقين .

طافت بنا فيما طافت من الذكريات الكريمة العظيمة ، ذكرى سيد الكائنات المصطفى المختار ، المصطفى من كدورة الشوائب ، في شبابه وفتوته ، في السن التي تسكدها نزوات الهوى الجاسح ، وتعكرها نزعات الفتنة العابثة العاتية ، فهل استخلص الشباب من هذا الطهر المذاب في قلب محمد بن عبد الله لونا من عظمة الشباب حين يسمو بنفسه عن النزق ، ويأبى بعزمه أن يخضعه اللهو ، ويشمخ بأنفه أن يسوقه السفهاء الى مساقاة ملاذهم وشهواتهم ، ثم تظالعا في ذكرى شمائله صلى الله عليه وسلم أمانته ووفاءه وصدقه ، حتى ليلقب بين أهل مكة بالصادق الأمين ، وحتى لتطلب إليه شريكته في التجارة ، السيدة خديجة بنت خويلد أن يكون شريكها في الحياة ، لتتخذ زوجا مثاليا ، تتذوق من نبله وبره جميل الاخلاق ، وكريم الصفات .

فهل يتعفف التجار في هذا الزمان ، عن الكذب ، والخيانة ، والجشع ؛ ليتذوق الناس منهم حلال الكسب ، وعدالة الربح ، والقناعة بالقليل .

وتظالعا في سيرته العاطرة صلى الله عليه وسلم شجاعته ، وثقته وقوة عزيمته ، فلقد خرج من بيته ليلة اعتزاه الهجرة من مكة الى المدينة ، وحول البيت سيوف مسلولة ، وسواعد مفتولة ، وعصبة تملكهم الحماية الجاهلية ، يريدون أن يفتكوا به ، ويضربوه ضربة رجل واحد ، فلا والله ما جبن ولا تخور ، ولا ضعف ، ولا ضعفت ثقته بربه ، بل خرج على القوم ، واليقين كفاه عزيمته ، وقوة الثقة تملأ جنبيه ، وتركهم في سخرية الساخرين ، وهزم المستهزئين ...

فهل يستيقظ جنباء العزائم ، وضعفاء الهمم ، والفاقدون الثقة بالله ، فيسترجعوا عزائمهم ويملأوا قلوبهم إيماناً وأمناً ؛ ليجعلهم الله من حزبه ، وأن حزب الله هم الغالبون .

فأما ما يملأ فم الزمان من التحدث بجوده وبذله صلى الله عليه وسلم ، وحده على الفقراء والمساكين ؛ فذلك ما لا يحمله أحد من الأولين والآخرين ، فلقد كان يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، ويبدل بما يملك حتى لا يدع لنفسه كثيراً ولا قليلاً ، ولقد طابق خبره خبره ، وهو الذي يقول : « السخي قريب من الله عز وجل ،

قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد عن النار ، والبخيل بعيد عن الله عز وجل ، بعيد عن الناس ، بعيد عن الجنة ، قريب من النار ،

ولقد أهديت إليه صلى الله عليه وسلم شاة مذبوحة فقال لعائشة : « أطمعينا منها وأعطي الفقراء » . ثم خرج لبعض شأنه ، فلما عاد قال : يا عائشة هل بقي من الشاة شيء ؟ قالت رضى الله عنها : ما بقي إلا كتفها . فقال عليه الصلاة والسلام : « كلها بقي إلا كتفها » ، يريد عليه الصلاة والسلام أن الذى أخذه الفقراء هو المدخر عند الله وإن الجزء الذى بقي منها لياأكله لا يعد فى الباقيات . وصدق الله العظيم « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » .

فهل يعتبر أصحاب الاموال فينا . فيقدمون بما ملكت أيديهم ، لغوثة الملهوف وفرجة المكروب ، ورحمة البائس المسكين .

هل يعلمون أن ما يملكون إنما هو ملك الله وأنهم ليسوا إلا خلفاء فيه . قال تعالى : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ، وأنهم هم الراجعون بما بذلوا وما عطفوا « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » .

وما أجمل قول الشاعر فى هذا المعنى :

إذا ملكك كفى منالا ولم أنل	فلا انبسطت كفى ولا نهضت رجلى
على الله لإخلاف الذى قد بذلته	فلا متانى بذلى ولا مسعدى بُخلى
أرونى بخيلا طال عمراً يبخله	وهاتوا كريماً مات من كثرة البذل

* * *

أما بعد :

فإن العبرة فى هذه الذكريات الكريمات واضحة ماثلة ، ولا نريد أن تمر بالناس هذه الذكريات ، كلاماً يردد ، أو مظاهر تتعدد . بل نريدها ذكريات تركز فى القلوب معانيها ، وتستقر فى النفوس والمشاعر مراميها ، فتنبض بها الوجدان ، وتحرك منها الحواس ، كانت الذكرى بالغة ، وكان الأثر بها قوياً ، صادقاً كريماً « أفن يمشى مكباً على وجهه أهدى ، أم من يمشى سويّاً على صراط مستقيم » .

مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ

بين الأدب والفلسفة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو بكر ذكرى
الأستاذ بكلية أصول الدين

فضيلة العدالة :

العدالة بمعناها العام ، كالعدل والاعتدال ، كلمة معناها : الاستقامة والاستواء والتساوى ، والعدل والتعديل : التسوية والتقديم .
وإلى هذا المعنى ترجع كلمة (العدالة) التي يراد بها تلك الملائكة النفسية المحدودة عند الأخلاقيين من أمهات الفضائل الإنسانية . والتناسب بين هذا المعنى الخاص المتعارف عند الأخلاقيين ، وبين المعنى اللغوي السابق واضح بين ؛ لأن الاعتدال النفسى الذى سماه الأخلاقيون عدالة - وعدلا هو أيضا صورة من الاستقامة والاستواء والتساوى . وحسبنا أن نوضح هذا بمظهر القاضى المتصف بالعدالة ؛ إذ نرى مجلسه صورة من التعادل والانسجام يسوى فيه بين الخصمين فى النظرة والإشارة وشئى ضروب المعاملة ، لا يتحامل على أحد إلا للحق وفى سبيل الحق ؛ فيبدو مجلسه صورة متناسقة منسجمة ترتاح لها كل نفس شريفة فاضلة - وفى مقابل العدالة والعدل والاعتدال - نجد الظلم والجور والجحف أو ما هو بهذا المعنى .
وهذه الفضيلة عند الأخلاقيين نوعان : عدالة كلية - وعدالة جزئية خاصة تنشأ عن سابقتها ، وهم يعنون بالعدالة الكلية اعتدال الملائكات الإنسانية فى مجموعها ما بين عقلية - وغضبية - وشهوية . بحيث لا يطغى بعضها على بعض . فالقوة العاقلة تسوس القوتين الأخرين وتمسك بزمامهما وتصرف أمرهما بقدر ، فلا تدع لقوة الغضب أن تطغى وتثور لاتفه الأسباب أو لغير سبب ؛ فيغدو صاحبها كلباً حقوراً وسبعا ضارياً يهاجم غيره لسبب ولغير سبب ؛ حتى يبلغ من العدوان غايته أو يأتى حتفه - ولا تدع كذلك لقوة الشهوة أن تثور وتطغى وتخطى القيود والحدود ؛ فيصبح صاحبها بهيمة من البهائم السائبة يتلوث بكل وضر ، ويتمرغ فى كل دنس ، ويبلغ فى كل حماة . وبعض الأخلاقيين يسمى النفس التى تحرف

هذا الانحراف بالنفس الخنزيرية ، نسبة إلى الخنزير الذى هو أفذر وأشره ما عرف من أنواع الحيوان .

كذلك لا تسمح القوة العاقلة لنفسها بأن تطغى على هاتين القوتين ؛ فتعظلهما عما أوجدتا من أجله فى الطبيعة الإنسانية ، لأن طغيان قوة العقل وإفراطها فى قمع القوة الشهوية ينحرف بالمرء إلى الرهينة والتأبل الذى هو إمامة للرغبات الجنسية وإفراط فى التقشف والحرمان . وطغيانها على قوة الغضب والإفراط فى كبجها ، ينحرف بالمرء إلى الجبانة والانكماش والمهانة . وفى هذا وذاك ما ينحرف بالشخصية الإنسانية عن سنن العدالة ، وينأى بها عن طريق المثل العليا . أما الحد الوسط من الانسجام والتناسب والتعادل بين هذه الملكات ، فهو أن تعمل كل قوة من هاتيك القوى الثلاث فى حدود ما خلقت له ، فلا يترك العقل الزمام للغضب والشهوة ولا يبالغ فى كبجها إلى حد التعطيل ، ولا تقصر هى فى الاستزادة من العلم والحكمة ؛ وبذا تبلغ الشخصية الإنسانية كمال وجودها وتحقق لها فضيلة العدالة الكبرى التى هى كنز الحكمة وأصل الفضائل السامية وسلم الوصول إلى السعادة .

ذاك هو بمجمل ما شرعته عبقرية أفلاطون وأستاذه سقراط زعيمى تعاليم الحكمة اليونانية فى القرنين الخامس والرابع ق . م . ليكون منارة هدى للإنسانية فى مهمه الحياة الطامس الأعلام .

وفوق ما تقدم ، حاول أفلاطون فى كتابيه « الجمهورية » و « القوانين » تحقيق هذا النوع من العدالة الكلية فى بناء المجتمع المثالى الذى حاول بشتى النظريات أن يضع أسسه وقواعده . وبمجل وصاياه فى ذلك أن توضع الطبقة الحاكمة فى مكانة القوة العاقلة — وطبقة الجند فى مكانة القوة الغضبية — والطبقة العاملة المنتجة مكان قوة الشهوة ، وأن يسود بين هذه الطبقات الثلاث الكبرى من التوازن والتعادل والانسجام ما عرفناه سابقا من التوازن بين هذه الملكات الإنسانية الثلاث ، فلا تجور الطبقة الحاكمة بالعسف والظلم على الطبقتين الآخرين ولا تترك الزمام للجند يعتمدون بسبب وبغير سبب ؛ بل غضبا للحق وللشرف فحسب ، ولا تجور الطبقات المنتجة : من زراع وتجار وصناع بترك الزمام لها تحصل أسباب الحياة من حلها وحرامها .

فإذا تيسر لمجتمع أن يتناسق مثل هذا التناسق ويتعادل ؛ فإنه سيحقق لنفسه أعظم ما يمكن من السعادة . وكل انحراف عن هذا التعادل يكون سببا لشقاء المجتمع واضطرابه وتدهوره ؛ وما نزن المقام يتسع هنا لبيان مدى الحفاوة التي تلقيت بها هذه التعاليم على مر أربعة وعشرين قرنا من يوم مولدها ، حتى أيامنا هذه التي ما تزال ترمقها بالإجلال والإعجاب ، وقديما شاد عليها الاخلاقيون الإسلاميون أبدع تعاليمهم الاخلاقية .

وأما العدالة الجزئية الخاصة : فهي التي تعرف عند الاخلاقيين والسياسيين باسم « العدل » تلك الكلمة التي يراد بها الإنصاف في توزيع الحقوق بين الافراد والجماعات ، وهذا هو العدل السياسى الذى يظهر لنا على الأخص فى تصرفات الحكام والمسؤولين من موظفى الدولة .

وهذه الفضيلة الجزئية العملية هى التى أثارت اهتمام أرسطو معلم الفلسفة الأول ، ولها كرس جانبا هاما من صفحات كتابه الخالد « علم الاخلاق » إلى نيقوماخوس ، وأثنى على المنصفين بها من المسؤولين عن الحقوق أفرادا وجماعات ، وخص بالإعجاب تلك الصورة السامية التى تبدو فى سلوك من ينصفون الناس من أنفسهم فوق إنصافهم الأغيار بعضهم من بعض . وما أبدع قول أرسطو فى تمجيد العدل : « فما طلوع الشمس ولا غروبها بأحق منه بالإعجاب » .

ولعل أرسطو الفيلسوف العالم المشهور بتدقيقه العلمى الجاف الذى لا يقيم للعواطف وزنا — لم يتمالك نفسه أمام جلال العدل أن ينقلب شاعرا يبدى إعجابه بالعدل بهذا التعبير البديع الرائع .

وكذلك لعل الذين لم يوهبوا رقة الذوق الأدبى ودقته ولطفه لن يتنبهوا إلى دقة اختيار أرسطو لهذه العبارة فيقولوا : وأى إعجاب فى طلوع الشمس وغروبها ؟ إن الشمس لتطلع كل يوم على الملايين من الناس دون أن تثير فيهم شيئا من الإعجاب . . . ولو علموا أن طلوع الشمس وغروبها كل يوم على هذه الدقة التى عرفت بها فى مواعيدها لتهب للعالم سر ما أودع فيها من أسباب الحياة ، بلاتمييز بين كائن وكائن ، إنما هو ضرب من العدل معدوم النظر - لعذروا أرسطوا فى تعبيره ، ولعلوا أنه هو أيضا فى إعجابه بالعدل إلى هذا الحد كان آية فى العدل . وفقنا الله أفرادا وجماعات إلى العلم بالعدل ومكانته والتحلّى به وهذا سبيل .

مراقبة الدائن أموال المدينه

لحضرة الأستاذ صالح بكير
المدرس بكلية أصول الدين

للدائن حق عام على جميع أموال مدينه الحاضرة والمستقبله . ويتمثل هذا الحق في رهن وضمين عامين لهذه الأموال . وليس هذا الضمان ضمانا خاصا يترتب عليه حرمان المدين من إدارة أمواله والتصرف فيها .

ولا يجوز للمدين أن يلحق أو يسبب ضعفا لهذا الضمان العام ، كالالتجاء إلى تهريب ماله . ولذا منح القانون المدنى الدائن وسائل لحماية حقوقه والمحافظة عليها . وتتلخص هذه الوسائل في ثلاثة أمور :

أولا — الدعوى غير المباشرة وهى دعوى يرفعها الدائن باسم مدينه نيابة عنه ، لأن المدين حينما يكون مثقلا بالديون فكثيرا ما يهمل في رفع الدعاوى التى يتوصل بها للمحافظة على أمواله ، إذ يعلم في قرارة نفسه أن مآل هذه الأموال تكون فى النهاية لدائنه فلا يهتم بها . فالدائن والحالة هذه يرى أن حقوقه تتعرض للضياع . ولذا أجاز له المشرع رفع دعاوى مدينه التى كان عليه أن يرفعها وأهمل فيها . ويلاحظ أن الدائن لا يرفع هذه الدعاوى باسمه هو وإنما باسم مدينه ، ولهذا السبب تسمى هذه الدعاوى بالدعاوى غير المباشرة .

ويشترط لرفع الدعوى غير المباشرة :

- (١) أن تكون هناك مصلحة للدائن فى رفعها .
- (٢) وأن لا تكون لهذه الدعوى صفة متعلقة بشخص المدين كدعاوى الأحوال الشخصية ، مثل دعوى إثبات أو دعوى النكاح أو الطلاق أو نحو ذلك .
- (٣) وأن لا تكون لها صفة أدبية أو معنوية متعلقة بشخص المدين كالمطالبة بتعويض للمدين بسبب إهانة لحقت به مثلا .

(٤) وأن لا تكون من الدعاوى التى موضوعها مال لا يجوز للدائن التنفيذ عليه كمنفعة المدين .

ويلاحظ أنه ليس للدائن فى رفع الدعوى غير المباشرة حقوق أكثر من حقوق مدينه . فملئخص المرفوع ضده الدعوى أن يحتج بجميع الدفوع التى كان يصح أن يحتج بها ضد المدين أن لو رفع هذا الأخير الدعوى . اللهم إلا إذا كانت هذه الدفوع مشوبة بالغش والتدليس .

فإذا رفع المدين الدعوى لا يجوز للدائن أن يرفعها حيث قد قام المدين بما يجب عليه . وإنما يجوز للدائن التدخل فى الدعوى خشية أن يلحقه ضرر . والحكم الذى يصدر فى الدعوى غير المباشرة لمصلحة الدائن يترتب عليه دخول المال فى ملكية المدين ، ويستفيد منه جميع دائئى المدين بلا فرق بين من رفع الدعوى ومن لم يرفعها .

ثانيا — دعوى إبطال التصرفات أو الدعوى البوليصة ، نسبة لوضعها بولص أحد فقهاء الرومان ، وقد نقلها المشرع الفرنسى عن القانون الرومانى ، وأخذها القانون المصرى عن القانون الفرنسى . والغرض من هذه الدعوى إبطال تصرفات المدين الضارة بالدائن . وهى دعوى شخصية للدائن أن يرفعها باسمه هو لا باسم مدينه ضد من تصرف له المدين ، ويستفيد منها الدائن وحده دون سائر الغرماء الذين لم يرفعوها . ولإذن فهى دعوى مباشرة .

ويشترط لرفع هذه الدعوى أن يكون دين الدائن سابقا على تاريخ تصرف المدين ، ودلت القرأئ والظروف على أن الغرض من هذه التصرفات هو الإضرار بالدائن ، ومع هذا يجوز رفعها بالنسبة للتصرفات السابقة على تاريخ الدين إذا تبين أن هذه التصرفات قد قصد بها الغش والتدليس والإضرار بالدائن ؛ وذلك كأن يتفاوض شخص مع آخر لإقراضه مالا فى الوقت الذى يقوم بإجراء تصرفات خفية ، حتى إذا ماتم القرض اتضح للدائن أن المدين قد تصرف فى أمواله فلا يجد المقرض ما يضمن به حقه ضد المدين . وهنا تفصيل لا يتسع المقام لذكره .

ويشترط أيضاً لقبول هذه الدعوى : أن يكون هناك تدليس أو سوء نية من جانب المدين . ويرى بعض الفقهاء أنه يجب زيادة على ذلك ، لزوم توفر الإضرار بالدائن .

ويلاحظ أن هذه الشروط خاصة بالتصرفات التي لها عوض ، أما التي ليس في مقابلها عوض فيسكتفي فيها بشرط الضرر كالمطالبة .

ويترتب على الحكم الصادر بإبطال تصرفات المدين ، أن المال يدخل في ملك المدين ، وأن الدائن رافع الدعوى هو الذي يستفيد منها وحده دون سائر الغرماء . وحق الدائن في رفع الدعوى مقيد ، فلو أدّى الدين للدائن توقف دعواه ، إذ لا مصلحة له في السير فيها .

وأثر الحكم لا يتعدى غير طرفي الخصومة ، فالعقد يبق صحيحاً بين المدين والمتصرف الذي رفعت ضده الدعوى من الدائن .

كما أن للمتصرف له الحق في طلب التعويض من المدين .

ثالثاً — دعوى الصورية : الصورية عبارة عن تصرف يخالف الحقيقة والواقع ، توصلاً لغرض مشروع أو غير مشروع كالمطالبة في صورة بيع .

والغرض من دعوى الصورية هو الحصول على الحكم بصورية التصرف وإلغائه ، وليست جميع التصرفات الصورية قابلة للحكم بصورتها إلا إذا ألحقت بالدائن الذي له في هذه الحالة رفع الدعوى .

ودعوى الصورية تشبه دعوى الإبطال من حيث إنه يتوصل بالحكم بصورية التصرف إلى إلغاء هذا التصرف ، كدعوى الإبطال وتختلف دعوى الصورية عن دعوى الإبطال من جهة أن موضوع هذه الأخيرة تصرف حقيقي وجدى ، بينما أن موضوع دعوى الصورية غير حقيقي . كما أن دعوى الصورية لا تستلزم توفر شروط دعوى الإبطال . ويرى بعض الفقهاء أنه يجب في دعوى الصورية توفر الضرر بالدائن . وأيضاً لا يشترط في دعوى الصورية أسبقية الدين على تاريخ التصرف . وأخيراً أنه لا يجوز رفع دعوى الإبطال إذا تصرف المتصرف له في المال ، اللهم إلا إذا توفرت شروط دعوى الإبطال بالنسبة للمتصرفين لها الأول والثاني .

إثبات الصورية : لا تثبت الصورية بين المتعاقدين إلا كتابة ، وهذا ما يسمى بورقة الضد . اللهم إلا إذا كان التصرف مخالفاً للقانون أو للنظام العام ، فإن

الصورية تثبت بجميع الطرق القانونية . وأما بالنسبة لغير المتعاقدين فتثبت الصورية بكافة الطرق القانونية بما فيها البيئة والشهود .

الفقة الاسلامي : إذا رجعنا الى فقه أبي حنيفة ، لا نجد فيه ما يدل صراحة على وجود مثل هذه الدعاوى ، ومع ذلك توجد وسائل لتحقيق الغاية وتشبه هذه الدعاوى في بعض الاحوال والصور ؛ فمن ذلك ما ورد بتصرفات المريض مرض الموت ؛ فإنه إذا باع المريض مرض الموت ماله لأجنبي بشمن أقل من ثمن المثل الذي هو أكثر من ثلث التركة نفذ البيع ووجب على المشتري إكمال الثمن إذا لم تجز الورثة الثمن المدفوع .

وكذلك إذا باع المريض مرض الموت ماله لأجنبي بشمن دون ثمن المثل ثم مات مديوناً ، وكانت تركته مستغرقة ، فلاصحاب الديون تكليف المشتري بإبلاغ قيمة ما اشتراه إلى ثمن المثل ، وإكاله وأدائه ، فإن لم يفعل بطل البيع . وواضح أن هذا هو عين دعوى الإبطال السابقة .

وكذلك إذا وهب المستغرق تركته بالديون أمواله لوارثه أو لغيره ثم توفي فللغرماء أن يدخلوا أمواله في قسمتهم إن لم يمضوا الهبة ، ومعنى هذا أن هذه الهبة يصح إبطالها ، ولا نزاع أن هذا هو عين دعوى الإبطال .

فمن هذه الأحكام يتبين أن هناك نوع مراقبة من الدائن لأموال مدينه ، ولكن هذه الأحكام خاصة بالمريض مرض الموت الذي تصرف فيها وهو مريض وتوفي ، ولكن مع هذا فإن الفقه الحنفي قد قرر مبدأ المراقبة لأموال المدين الضارة بالدائن .

وهناك وسيلة أخرى وهي أن للغرماء أن يطلبوا من الحاكم الحجر على مدينهم الذي يعرض ماله للضياع وبذا تضيع حقوقهم قبله ، ولكن هذا الحجر مقصور على الأموال الحاضرة دون المستقبل ، إذ له بالنسبة لهذه الآخرة حق التصرف فيها كما يشاء . وللوضوع أبحاث دقيقة لا يتسع لها هذا المقام .

لِخَوَابِ رَجُلٍ

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

انتظرني بين الظهر إلى العصر

يجرى هذا الأسلوب كثيراً . وهو يخالف ما يذكره علماء النحو ؛ أن لفظ بين لا بد أن يضاف إلى متعدد أو ما في معنى المتعدد . تقول : جلست بين زيد وعمرو ، أو بين الرجلين ، أو بين القوم . وفي شرح درة ^(١) الغواص الممزوج بها : « (بين تقتضي الاشتراك ، فلا تدخل إلا على مثنى أو مجموع) كقولك : المال بين الأخوين ، والدار بين الأخوة (أو ما يؤدي يؤدي ذلك ، كأحد الذي همزته أصلية) ويختص بالنفي وشبهه ، كما في قوله تعالى : لا نفرق بين أحد من رسله (وكذلك المشار بها إلى متعدد) كما في قوله تعالى : مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، وقوله تعالى : لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك) . . . » ، فقوله مذبذبين بين ذلك ، أى الكفر والإيمان ، وأشار إليهما بالمفرد لتأولهما بالمذكور ؛ وقوله : لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ، أى بين الفارض والبكر ، وقد لوحظ تأولهما بالمذكور كذلك . ويرى ^(٢) أبو حيان في الآية الأخيرة أن الكلام من باب الاكتفاء ، أى عوان بين ذلك وهذا ، وذلك : إشارة إلى فارض ، وهذا : إشارة إلى بكر ، ولكن في هذا الرأي مجالاً للتعقيب ؛ فإن المشار إليهما مؤنثان فكان واجباً — لو صح هذا — أن يوثق بإشارة المؤنث ، ولا مناص من التأويل . وخير من هذا ما يراه بعضهم أن ذا الإشارية يشار بها إلى المتعدد كما قال لييد :

(١) انظر شرح الدرة للأوسى ص ١٣٦ (٢) انظر البحر المحيط ص ٢٥٢ ج ١ .

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف ليد
وقال شيخ الإسلام^(١) زكريا في آية البقرة : « إن قلت بين تقتضى شيئين
فأكثر ، فكيف دخلت على (ذلك) وهو مفرد ؟ قلت (ذلك) يشار به إلى المفرد
والثنى والمجموع . ومنه قوله تعالى « قل »^(٢) بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا
« وإن تصبروا »^(٣) وتتقوا ، الآية « زين للناس »^(٤) حب الشهوات ، الآية ، فالمعنى
عوان بين الفارض والبكر ، وظاهر هذا أنه لا حاجة إلى التأويل وإن قال^(٥)
الرضى إنه يشار بهذا إلى المثنى والمجموع بتأويله بالمذكور .

وقد كان من أثر التزام إضافة بين إلى المتعدد أن أول النحاة قول امرئ القيس :
قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فقالوا : إن المعنى : بين أجزاء الدخول .

وأعود بعد هذا إلى المثال الذى صدرت به البحث فأقول : إنه فيما يبدو
لا وجه له ، ولا مسوغ يجيزه . وإنى أرى أن هذا الأسلوب صحيح وأن الغاية
والانتهاء فيه تقوم مقام العطف ، فبذلك يكون التعدد الذى تقتضيه بين . فإذا
قلت : سرت بين الظهر الى العصر ، فكأنك قلت : سرت بين الظهر والعصر ،
وقد أفادت الى معنى لا يستفاد لو أتينا بالأسلوب على وجهه ، وهو استمرار
السير الى العصر ، فأما إذا قلت : سرت بين الظهر والعصر فلا يبنى الكلام
بهذا الغرض . وقد جاء عن العرب قولهم : مُطرنا ما بين زُبالة^(٦) فالتعليية ،
فلما رأى النحاة^(٧) هذا على غير ما قننوا وأصلوا قالوا : إن المراد : مطرنا

(١) انظر كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن » المطبوع على هامش تفسير

الخطيب ص ٤٣ ج ١ .

(٢) الآية ٥٨ من سورة يونس

(٣) الآية ١٨٦ من آل عمران .

(٤) الآية ١٤ من آل عمران .

(٥) شرح الرضى على الكافية ص ٣٤ ج ٢ .

(٦) زباله والتعليية منزلان في الطريق من الكوفة إلى مكة .

(٧) انظر شرح الرضى على الكافية ص ٣٦٦ ج ٢

ما بين زُبالة إلى الثعلبية ، وهذا قاض منهم بأن الأسلوب الأخير غير منكر وغير متنافر مع قواعدهم . ومردّ هذا إلى المعنى وما يتم به من التعدد ؛ وإذا قيل ما سبق : أى مطرنا ما بين زبالة فالثعلبية أو ما بين زبالة إلى الثعلبية أفاد ذلك اتصال المطر بين هذين الوطنين ، ولا تحصل هذه الفائدة لو قيل : بين زبالة والثعلبية . وقال النابغة ^(١) الجهمدى :

أيا دار سلى بالحرورية اسلمى إلى جانب الصّمان فالمتلم
أقامت به البردين ثم تذكّرت منازلها بين الدّخول مُجرّثم
ومسكنها بين الفُرات إلى اللوى إلى مُشعب ترعى بهن فعيهم

— أراد بالبردين طرفى الشتاء — فتراه قال : بين الفرات إلى اللوى ، ولم ير فى ذلك حرجا ، لما كان ذلك يؤدى مؤدى ما بين الفرات واللوى ، ويزيد الفائدة التى ذكرها وهى تردها فى السكنى بين هذه المواطن بين الفرات واللوى . وجاء فى الحديث ^(٢) : « كان النّبي صلى الله عليه وسلم يصلى الصبح وأحدنا يعرف جايسه ، ويقرأ فيها ما بين الستين إلى المائة » فقال السكرمانى ^(٣) : « فإن قالت : لفظ بين يقتضى دخوله على متعدّد ، فكان القياس أن يقال : والمائة بدون حرف الانتهاء ؛ قلت : تقديره : ما بين الستين وفوقها إلى المائة ، وهذا تكلف لا داعى إليه ، والرأى أن التعدد حاصل فى المعنى والحكم ، وهذا مُحسب فى هذا الأمر ، وجاء أيضا فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ^(٤) : « إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، ويتكلف شراح الحديث فى هذا أيضا فيقولون : إن المعنى : كما بين أجزاء صلاة العصر إلى غروب الشمس ، وهذا بعيد عن سياق الكلام ؛ فإن المراد حصر الزمن بين العصر والغروب . وجاء أيضا فى الحديث ^(٥) : « وكانوا يصلون العشاء فيما بين أن يغيب الشفق إلى ثلث الليل ، وهذا جار على ما رأيت دون حاجة إلى تأويل . ويقول ابن القوطية فى أفعاله : « أمسينا : صرنا فى المساء ، وهو ما بين الظهر إلى المغرب » .

(١) انظر الخزاعة ص ٦٤ ج ٤ . (٢) انظر صحيح البخارى فى مواقيت الصلاة .

(٣) انظر شرح العيني على البخارى ص ٥٣٣ ج ٢ (٤) انظر صحيح البخارى فى مواقيت الصلاة

(٥) صحيح البخارى ، باب النوم قبل العشاء .

والتقارء بعد هذا — فيما أرى — يخرج باستساغة المثال الذى هو موضوع البحث .

اذهب إلى فلان، قل له كذا

يجرى هذا الأسلوب ، وينكره بعض الباحثين ، ويوجب فيه العطف بالغاء ، فيقال : اذهب إلى فلان فقل له كذا . ويذكر هؤلاء أن الوارد فى العربية هو أسلوب العطف ؛ كقوله تعالى : « اذهبوا إلى فرعون إنه طغى فقولوا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » ، وقوله تعالى « يا أيها المدرس قم فأندرس » . ويعيب هؤلاء على شوقي قوله :

قف ناج أهرام الجلال وناد هل من بُنَاتِكَ مجلس أو ناد
ويقولون : إن الأسلوب الصحيح أن يقول : قف فناد .
وفى الحق أن هذا الأسلوب يجرى على ضربين :

١ — فضرب يكون الثانى فيه بسبب من الأول ، فيجعل بدل اشتغال منه ، كما تقول : قم لايبك عظمه ، وهذا لا شىء فيه ، ومنه قول شوقي :

قم للعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا
وبما ورد قديما من هذا الضرب قول عبد يغوث بن وقاص الحارثي :
كأنى لم أركب جوادا ولم أقل لخيلى : كُرى ، نفسى عن رجاليا
وهو من قصيدته التى مطلعها :

ألا لا تلوماني ، كفى اللوم ما بيا فما لكما فى اللوم خير ولا ليا
فقوله : نفسى عن رجاليا بدل من قوله كرى ، إذ كان التنفيس عن رجاله من لوازم كرى خيله ومستتبعاته .

وبما يقرب من هذا وإن كان الفعل الثانى فى صيغة النهى قول الشاعر :
أقول له : ارحل ، لا تقيمن عندنا وإلا فكن فى السر والجهر مسلما
فقوله : لا تقيمن بدل اشتغال من قوله : ارحل ، ولهذا أتى بالجملة الثانية مفصولة غير موصولة بالعاطف ، إذ كانت فى معنى الجملة الأولى ، فكان بين الجملتين كمال الاتصال ، كما هو مقرر فى البلاغة .

ب - والضرب الثاني ألا يكون الحديث الثاني من مستلزمات الحديث الأول كما في المثال الذي صدرنا به البحث ، وهذا موضع الإنكار والنقد . وأرى أن له وجهاً ومخرجاً في العربية ؛ وذلك أن تكون الجملة الثانية واقعة موقع الاستثاف البياني ، إذ كانت في موضع الجواب عن سؤال ينشأ عن الجملة الأولى . فإذا قلت لغلامك : اذهب الى فلان ، فهنا مغننة أن يخطر بباله السؤال عما عسى أن يبلغه إياه ، فتقول له في الجواب عن هذا : قل له كذا . وعلى هذا يكون المقام أيضاً للفصل ، إذ يكون هذا من مواضع شبه كمال الاتصال .

وقد جاء من هذا الضرب قوله تعالى « تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا ، وما ورد في حديث ^(١) أم سلمة رضى الله عنها » أنها قالت : فأرسلت إليه - تريد الرسول عليه الصلاة والسلام - الجارية ، فقلت : قومى بجنبه قولى له : تقول لك أم سلمة ... » ورد قولى دون فاء في بعض الروايات واقتصر عليها الحافظ ابن حجر ، ويقول القسطلانى بعد أن أورد الرواية السابقة : « ولأبى الوقت والأصلي : فقولى » وورد الحديث أيضاً في صحيح مسلم بلفظ « فقولى » وأياً ما كان الأمر فإن رواية « قولى » رواية صحيحة لم ينكرها أحد ، وقد رجعت الى كتاب ابن مالك « شواهد التوضيح لمشكلات الجامع الصحيح » الذى يذكر فيه ما ورد في صحيح البخارى من الحديث مبيناً في ظاهر الأمر لما يقرره علماء العربية فلم أره تعرض لهذا .

ومن هذا الضرب قول محمد بن بشير الخارجى في رثاء أبى عبيدة بن عبد الله ابن ربيعة يخاطب ابنته هذا زوج عبد الله بن الحسن :

فقومى اضربى عينيك يا هند لن ترى أباً مثله تسمو إليه المفاخر

وإذا كان هذا البحث يصحح المثال الذى هو موضع البحث ، بان صحة قول شوقى :

قف ناج أهرام الجلال وناد هل من بناتك مجلس أوناد
وكان بمنجاة من اللوم والغيب بيته .

[١] انظر الحديث في أبواب السهو في آخر كتاب الصلاة من صحيح البخارى .

[٢] وانظر الأغاني ص ١٥٧ ج ١٤ .

سعيد بن المسيب

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمود النواوى
وكيل معهد أسيوط

— ٢ —

ولقد كان قتادة رضى الله عنه من أخبار التابعين ومن يرجع إليهم فى التأويل وتروى عنهم السنة ، وكان أحفظ أهل زمانه كما قالوا . و قتادة هذا كان من المولعين بابن المسيب ، يلزمه الايام والليالى يأخذ عنه . روى أبو نعيم فى الحلية أنه لزمه أربعة أيام يأخذ عنه ، ونقل أنه أقام عنده ثمانية أيام وفى الثامن قال له : ارتحل عنى فقد أترفتى .

وقال قتادة : أتيت ابن المسيب ، وقد ألبس تبان شعر ، وأقيم فى الشعر ، فقلت لقائدى : أدنى منه ، فجعلت أسأله خوفاً أن يفوتنى وهو يجيبنى والناس يتعجبون . هذا وإن له لمسانيد كثيرة عن جماعة من الصحابة ، وقد تألق اسمه فى شيوخ البخارى ومسلم وغيرهما من أئمة السنة الانبات .

وفى تاريخ ابن كثير ، كثير من الاخبار المنوّهة بناحيته العلمية ، ومن أعرقها فى التصوير قول الإمام الزهرى إمام المحدثين : جالسته سبع حجج ، وأنا لا أعلم عند أحد علما غيره . وقول مكحول : طفت الارض كلها فالتقيت أعلم من سعيد بن المسيب . وقول على المدينى : لا أعلم فى التابعين أوسع علماً منه ، وإذا قال مضت السنة لحسبك به ، وهو عندى أجل التابعين . وقول أبى حاتم : ليس فى التابعين أنبل منه ، وهو أثبتهم فى أبى هريرة . فأما علمه بتأويل الاحلام ، فإن ما روى له منه يبلغ منى العجب ، فهو يؤول الرؤيا

تأويلاً دقيقاً ، لا يتخلف مع غرابة ذلك التأويل ، وربما أول حيواناً أو شيئاً
بشخص معين فيقع كما يقول .

جاءه رجل فقال : إني رأيت حمامة وقعت على منارة المسجد ، فقال : يتزوج
الحجاج ابنة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فكان !

وروى ابن سعد عن عمر بن حبيب بن قريع : كنت جالساً عند سعيد بن المسيب ،
وقد ضاقت على الدنيا وربكتني ديون ، فجاء رجل ، فقال : رأيت رؤيا . قال : ماهي !
قال : أخذت عبد الملك بن مروان فأضجته إلى الأرض ؛ ثم بطحته فأوقدت
في ظهره أربعة أوتاد . قال : ماأنت رأيته ؟ قال : بلى . قال سعيد : مارأيته لا أخبرك
أو تخبرني . قال ابن الزبير ، رآها وهو بعثني إليك ، قال : إن صدقت قتل عبد الملك
ابن الزبير . وخرج من صلبه أربعة كلهم يكون خليفة . قال الرجل : فذهبت
إلى عبد الملك فأخبرته فسر سروراً عظيماً ، وسألني عن حال سعيد ، ثم قضى ديني
وأغدق علي . وقال رجل في مجلسه : رأيت كأن عبد الملك بن مروان يبول في قبة
مسجد النبي صلى الله عليه وسلم أربع مرات ، فقال : إن صدقت قام من صلبه
أربعة خلفاء ، وهكذا تجد الكثير مما نقل عنه في هذا الباب مما يصوره لك تصويراً
صحيحاً ، حتى لا ترى أنه أقل منزلة في ذلك من ابن سيرين الذي كان له الصيت
الذائع فيه .

بخ بخ لك يا ابن المسيب ! لقد كنا نجعل من أمرك الشيء الكثير ، فإذا أنت
من مفاخر هذه الأمة ، وإذا أنت جدير أن يقول فيك الصحابي الجليل عبد الله
ابن عمر : لو رأى هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لسه . ولقد يتصل بذلك
ما نقل عن الإمام من جمل وعبارات ومحاورات بليغات لها دلالتها على ما كان
له من بصر وصدق نظر وغزارة مادة وصفاء نفس . فمن ذلك ما روى أبو نعيم
في الحلية : أنه لما جرد ليضرب يوم أحجيم عن البيعة لولي العهد رآه امرأة
فقالت : هذا مقام الخزي فقال : من الخزي فررنا .

وحدث ابن عيينة أنه سمع سعيداً يقول : « إن الدنيا نذلة وهي إلى كل نذل
ميل ، وأنزل منها من أخذها بغير حقها ، وطلبها من غير وجهها ، ووضعها في غير

سبيلها . هذه حكم لو تدبرها الناس لرضى المقل بإقلاقه ، ولتحرى المسكتر في جمعه لماله ، ولحاسب نفسه كيف تنفق ؟ وفي أى سبيل تضع المال ؟ .
وكان يقول لا تملئوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بالإنكار عليهم في قلوبكم ، حتى لا تحبط أعمالكم .

وروى علي بن زيد عنه أنه قال : ما أيسر الشيطان من أحد إلا أتاه من قبل الفسء . ولقد بلغت ثمانين سنة وما شئ أخوف عندي من النساء ، وكان سعيد ابن المسيب يقول : يد الله فوق عباده ، فمن رفع نفسه وضعه الله . ومن وضعها رفعه الله . الناس تحت كنفه يعملون بأعمالهم ؛ فإذا أراد الله فضيحة عبد أخرجه من تحت كنفه فبدت للناس عورته .

ونقل الشعراني في طبقاته عنه : ليس من شريف ولا عالم ولا ذى فضل إلا وفيه عيب ، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه ، فمن كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله . وحكى الشعراني أنه كان يقول إذا دخل الليل لنفسه : قومي يا مأوى كل شر ، والله لادعنك ترحفين زحف البعير فكان يصبح وقدماه منتفختان ، فيقول لنفسه : بهذا أمرت ولذا خلقت . ولعل في هذا بعض ما يلقى لك ضوءاً على ما كان في ابن المسيب من تقوى ونسك ، وهو الناحية الثانية التي أشرت إليها سابقاً . والناحية الثالثة صبره على المحنة وشرأوه نفسه ابتغاء مرضاة الله . وهما ناحيتان مشرقتان في تاريخ العلم والعلماء ، تتمثلان أروع تمثلاً في سعيد ، وفيهما أعظم العظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وأما الناحية الثانية من نواحي ابن المسيب النسك والزهادة ، فإن المتتبع لتاريخه يلمس أنه منها بالحمل الأول ، والوضع الذي لا يجمل . لقد نسك حتى أعيت مجاراته ، وقتت حتى عزت مداناته ، وتحامل على نفسه فنزلت على حكم الجهاد الصادق . كان قلبه معلقاً بالمساجد ، فسللك في المحافظة على الصلوات في الجماعة مسلماً انفراد بالتوفيق له ، لقد حدث عن نفسه ، وحدث الرواة عنه أنه واظب على صلاة الجماعة أربعين سنة لا يشذ منها وقت ، يستميت في سبيل ذلك ويضحى فيه بأغلى ما عنده ، واعتلّت عينه يوماً ففعل له : لو خرجت إلى العقيق فنظرت إلى الخضرة ووجدت ريح البرية لنفعلك ذلك ، قال : فكيف أصنع بشهود العتمة والصبح

ونصح له بعض خلصائه أن يتمتع عن شهود الجماعة أيام امتنع عن البيعة للوليد؛ حتى لا يعرض نفسه للسنخ، وكان الأمير يكتبني بأن يبعث إليّ في المسجد فلا يجده، فلما قيل له ذلك، وأنا أسمع الأذان: حتى على الصلاة حتى على الفلاح لا يكون ذلك أبداً؛ بل إنه كان ينتظر الصلاة قبل وقتها عملاً بالسنة، ومصارعة إلى الخير وعمل الجنة، ويقول في ذلك: ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد، وما دخل على وقت صلاة إلا وقد أخذت أهبتها، ولا دخل على قضاء فرض إلا وأنا إليه مشتاق. يخج لك يا بن المسيب! إن من عبّد الله كأنه يراه لم يكن أحب إلى نفسه من هذه الصلاة. نسأل الله أن يحققنا بتلك المقامات، وأن يجعلنا من أهلها.

وكان لا يدع أن يقرأ القرآن في سفره وحضره، وفي رواحه وغدوته، يحل حلاله ويحرم حرامه، ويحفظ به دينه وخلقه. وبما حدث به ابن حرملة عنه قال: حفظت صلاة ابن المسيب وعمله بالنهار؛ فسألت مولاه عن عمله بالليل فقال: كان لا يدع أن يقرأ بـ(ص) فلما مر بالسجدة سجد، وسجدت الشجرة معه، فسمعتها تقول: اللهم أعطني بهذه السجدة أجراً، وضع بها غنى وزراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود!

وقد صلى الفجر كما قال الرواة بوضوء العشاء خمسين سنة. وعرف عنه أنه كان يتابع الصوم ويسرده سرداً، ولم يكن شرها ولا متشعباً، فقد كان يفطر في المسجد من شراب يؤتى له به من بيته.

وكذلك كان حجاجاً عجائزاً أشقى نفسه ليسعدها بكثرة الخروج إلى البيت العتيق، وقضاء المناسك يعاود ذلك أربعين مرة. وكان يذهب في العبادة مذهباً صحيحاً لا يحفل فيها بالظواهر والمظاهر؛ بل يعتمد بالناس إلى ما يؤسسها أساساً مدعماً وإلى ما يخرج به الخير مجسماً. قيل له، وقد رأى قوماً يصلون فيكثرون بين الظهر والعصر: ألا تعبد مع هؤلاء، هذه هي العبادة لو تقوى على ما يقوى عليه هؤلاء! فقال: إنما العبادة التفكير في أمر الله والورع عن محارم الله وأداء الفرائض. فأساس الدين عند هذا الإمام علم نافع، وخوف وازع، والتقرب إلى الله بأحب شيء إليه، وهو ما افترض على العباد. فأما هذه النوافل فإنها

لا تقبل إلا بعد تحقق تلك النواحي على أصبح الوجوه ، ولقد تستطيع أن تدرك مبلغ هذه النواحي من الإمام وتقديره لها بما كان من حرصه على المكتوبة واحتقاله بها ، مع خوفه من النساء ، واستعاذته بالله من فتنهن . لقد كان يقول : ما شيء أخوف عندي من النساء وقد بلغت السبعين . وأما تفكره في أمر الله ، فحدث عن البحر ولا حرج .

وفي هذه المناسبة أستطيع أن أنتقل بك إلى الناحية الثالثة من نواحيه ، وهي جموده على التمسك وأخذ نفسه بالعزيمة بلا رخصة ولا هوادة ، وإرخاص نفسه في ذات الله فيمن يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله . لقد كان عفاً إلى أبعد حدود العفة ، لا يقبل من أحد شيئاً لا ديناراً ولا درهماً ؛ بل كان لا يقبل الشربة إلا من بيته حتى وهو صائم عند الإفطار .

وكان لابن المسيب عظام في بيت المال ، يبلغ نيفاً وثلاثين ألفاً ، فلما دعي لأخذها قال : لا حاجة لي فيها ، ولا في بني مروان ، حتى ألقى الله تعالى فيحكم بيني وبينهم . وأتاه ابن عمه بأربعة آلاف درهم ، فأبى أن يقبلها . على أنه كان يجمع المال من حله ليصون وجهه ، ويحفظ عرضه فكان يتجر في الزيت ، ومات عن نحو ثلاثة آلاف دينار ، وكان قبل موته يقول : اللهم إنك تعلم أنني لم أجمع هذا المال إلا لأحفظ به وجهي وأصون به عرضي . وأعود به على جيراني وأهلي . على أنه كان سمحاً لا يناع أحد شيئاً ، ولا يخاصم أحداً في شيء ، فلو أن أحداً ادعى رداءه لنزعه إليه ؛ ذلك أنه كان مذهباً صديقاً وخاشعاً يدعو إلى الله ويدل على جنابه الرحيب .

ولقد كان من آثار تشدده في الدين وإرخاص نفسه في ذات الله أنه كان ينظر إلى الملوك والأمراء نظرتة إلى سائر الدماء ، فلا هو بالخاطب لودهم ولا المنهات على دنياهم . لقد صلى أمامه الحجاج يوماً صلاة فجعل لا يحسن ركوعها ولا سجودها . فأخذ كفاً من حصباء خصبه بها ، قال الحجاج : فما زلت أحسن الصلاة بعدها . ثم ما كان يبعث إليه ولا يهيجه . وذهب الخليفة هبذ الملك إلى المدينة ووقف له على باب المسجد . وأرسل إليه فرفض لقاءه مع إغلاظ الرسول له . حتى قال للرسول : إن الخليفة ليست له عندي حاجة وإن تكن له

حاجة فهي غير مقضية . ولما يئس الخليفة من لقائه ، قال : رحم الله أبا محمد
يا بى إلا صلابة !

وحدث ميمون بن مهران : إن عبد الملك قدم المدينة واستيقظ يوماً من قائلته
فقال لحاجبه : أنظر هل ترى أحداً من حدثائى فى المسجد النبوى ؟ فذهب فلم يجد
إلا هذا الشيخ الكبير ؛ فأشار إليه بأصبعه فلم يتحرك ؛ فأتاه الحاجب وأغلظ له
فقال الشيخ : وما حاجتك . قال : إن أمير المؤمنين . . . فقال الشيخ : لست من
حدث أمير المؤمنين . ولقد فعل مثل ذلك مع الوليد بن عبد الملك بمسجد المدينة
فرفض لقائه ، وهما معاً داخل المسجد ؛ فنهض الوليد به وسكنه نصيح فانتصح . ولقد
رفض البيعة لهذا الولد وأخيه هشام ، وهدد وعرض على السيف ، وضرب خمسين
سوطاً ، وطيف به فى الأسواق ما عدل به شئ من ذلك عن رأيه وعزمه . وبعد
فهل ترى أدل على صدق العزم والثبات على الحق من قصة ابنته وزواجه ؟ لقد
حاول الخليفة أن يزوجه من ابنة الوليد ، فقال : لا بلاء فيه ، ونشأ عن ذلك أن
ضرب وأهين فى ذات الله ، فأما أبو وداعة الطالب الفقير فقد عرضت عليه عرضاً
ثم زفت إليه زفاً ، ثم دفعت إليه النفقة ، وهى قصة شريفة طريفة أوردها العلماء من
المؤرخين والصوفية . قال أبو وداعة : كنت أجالس سعيد بن المسيب ، ففقدنى
أياماً فلما جئته قال : أين كنت ؟ قال : توفيت أهلى فاشتغلت بها ، فقال : ألا أخبرتنا
فشهدناها ؟ قال : ثم أردت أن أقوم ، فقال : هل استحدثت امرأة ؟ فقلت : يرحمك الله
ومن يزوجنى وما أملك ، إلا درهمين ! فقال : أنا . ثم حمد الله وأثنى عليه وصلى على
نبيه وزوجنى على درهمين ، فقمت وما أدرى ما أصنع من الفرح وكنت صائماً
فقدمت عشائى لا فطر وكان خبزاً وزيتاً فإذا بآت يقرع الباب فقلت : من هذا ؟
قال : سعيد . فأفكرت فى كل إنسان إلا سعيد بن المسيب ، فإنه لم ير منذ أربعين
سنة إلا بين بيته والمسجد ، فقمت فخرجت فإذا سعيد بن المسيب ، فقلت : يا أبا محمد
ألا أرسلت إلى فاتيك ، فقال : لانت أحق أن توتى ، قلت : فما تأمر قال : إنك كنت
رجلاً عزياً فتزوجت ففكرت أن تبين الليلة وحدك وهذه امرأتك . فإذا هى قائمة
من خلقه فدفعها وذهب ؛ فسقطت من الحياء ثم تقدمت إلى القصعة فأخفيتها ، ثم
صعدت إلى السطح فرميت الجيران فجاءونى فقالوا : ما شأنك ؟ قلت : ويحكم زوجنى

ابن المسيب ابنته اليوم وقد جاء بها على غفلة فقالوا : سعيد بن المسيب زوجك ! قلت : نعم وها هي في الدار . . . وطالت القصة ، ثم يقول أبو وداعة : إنني حين دخلت وجدت أجمل الناس ، وأحفظهم لكتاب الله ، وأعلمهم بسنة رسوله ، وأعرفهم بحق الزوج ، قال : فكنت سعيد شهرا لا يأتيني ولا آتية ثم عدت إلى مجلسه ، ولما عدت وجه إلى بعشرين ألف درهم .

رحمك الله يا أبا محمد ! ماذا يكتب القلم فيك وأية ناحية يسلك من نواحيك ؟ أعملك وعرفانك ؟ أم تقاك وإيمانك ؟ أم صلابتك في الحق وإرخاص نفسك في ذات الله . . . ؟ لقد كنت من الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها ، وإلى آجلها حين تنافسوا في عاجلها ، يهدمون الدنيا فيبنون بها آخرتهم . ويبيعونها فيشترون ما بقي لهم . قد أحبوا ذكر الموت وأماتوا ذكر الحياة . بهم قام الكتاب وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا ، فلا يرون نائلا مع ما نالوا ، ولا يرون أمانا دون ما يرجون ، ولا خوفا دون ما يحذرون . أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون .

المطل

كتب الجاحظ إلى رجل وعده : أما بعد فإن شجرة وعدك قد أوردت ، فليكن ثمرها سالما من جوائح المطل . والسلام .

وقال المهلب بن أبي صفرة القائد الإسلامي المشهور لبنيه : يا بني إذا غدا عليكم الرجل وراح مسلما ، فكفي بذلك تقاضيا .

أخذها شاعر فقال :

أروح بتسليمي عليك وأغتدى وحسبك بالتسليم مني تقاضيا
وقال شاعر آخر :

أروح مخبرا وجهي بشاني وحسبك أن أراك وأن تراني
وما ظني بأن يعييه أمرى ويعلم حاجتي ويرى مكاني

نظرات في توثيق المعاملة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبكي
المفتش بالأزهر

ذكرت أحد الوجهين مفصلاً في إيضاح ما استظهرته من تقسيم التوثيق إلى : واجب ، ومندوب ، ومباح . والوجه الثاني - وهو من قبيل الاستئناس - منطوق الآية ونسقتها اللفظي ؛ وذلك أن الله تعالى يقول : « إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » ، ولفظاً : بدين ، وإلى أجل مسمى ، لم يذكر اعتباراً بل لغرض مقصود ، فما هو ذلك الغرض ؟

يقول كثير من المفسرين : إن لفظ « تداينتم » مشترك لفظي بين معنيين : تجازيتم - أي يجازى بعضكم بعضاً أمراً بأمر ، وتعاملتم بالدين ، فلفظ « بدين » ذكر لدفع ذلك الاشتراك وتمحيض اللفظ للتعامل بالدين . هذا كلامهم ، وهو عندي غير متعين ولا قوى ؛ ذلك لأن سياق الآيات في الربا والدين واحد على ما هو الظاهر المعقول ، وهو ما رجحه السيوطي ، وأطمأننت إليه ، فالاشتراك في لفظ « تداينتم » مدفوع بالسياق ، واللفظ متمحض للتعامل بالدين في هذا المقام ، فليس بحاجة إلى ضمنية أخرى تمحضه ، ومن أجل هذا اعتبر القرطبي أن لفظ « بدين » ذكر لتوكيد ما استفيد من سابقه ، فهو معنا في أن السياق دال على المعنى المراد من هذا اللفظ ، ولم يدعّه مشتركاً . . . كما قال آخرون : إنه ذكر لبيان المراد نصاً ، ولا مانع فيما أفهم من القول بأنه ذكر للتثوية على أهمية الدين الذي يطلب التوثيق فيه على سبيل الإيجاب . . . ويساعدنا على هذا الفهم ذكره منونا لا معرفاً ؛ إذ التنوين كثيراً ما يكون للتعظيم كما هو معروف ، فكأن الآية تقول : « إذا تداينتم بدين ذي خطر فاكتبوه وجوباً ، ولولا قصر ذلك الوصف للمحوظ في تنوينه ، لكان التعريف أولى وأدل على التعميم في جنس الديون

خطيرها وصغيرها ، وحيث لم يذكر معرفا فللغرض الذى أسلفته ، وإلا كان ذكر اللفظ « بدين ، بعد دلالة السياق عليه أبعد من التأسيس وأشبه بالنافلة .. فإذا سلم لى ما قلته ، وضح أن لفظة « بدين ، مما يرجح قولى فيما أنا بسيله . وكذا قوله تعالى « إلى أجل مسمى ، فمن المفسرين من يراه ذكر لمراعاة السلم الذى هو فى رأيهم سبب النزول ، وإن كانت الآية شاملة لغير دين السلم ، ومن المفسرين من يراه ذكر لبيان أن الدين منه مؤجل ومنه غير مؤجل ، وأن الأجل ينبغى تقديره كما أقرته الآية ، وأن الأجل المجهول غير معتد به فى حجة التعامل .

وعندى — حتى مع التسليم بهذه التوجيهات — أن فى ذكر الأجل تنويعها آخر على أن الدين الذى تحثنا الشريعة على توثيقه ، هو ما كان ذا شأن فى اعتبار الناس وعرفهم ؛ وذلك أن الدين الذى يتعلق به اهتمام الدائن والمدين حتى يضربا له أجلا معينا هو فى العادة غير النافه ، فذكر الأجل المسمى للإشارة إلى ذلك الوصف المراعى ، وليس يمنع من هذا الاعتبار أن يكون لما ذكروا ، والنسكت كما يقول البلاغيون لا تتزاحم .

وعلى هذا فالمستفاد من ذكر الأجل المسمى ثلاثة أغراض :

الاول - إقرار المسلمين على السلم الذى كان معهودا من قبل ، وعلى عموم المدانة بالأجل فيما يجوز التأجيل فيه ، على ما بين الفقهاء حين كلامهم على الربويات وغيرها .
الغرض الثانى — لفقت الناس إلى أن الأجل المعتد به فى الديون هو الأجل المسمى دون المجهول حيث نيط الأمر بالكتابة بالمؤجل إلى أجل مسمى ، وهذا من قبيل الاستدلال بإشارة النص .

الغرض الثالث — إشعار الناس بأن الدين المسأور بتوثيقه وتسمية أجله هو ما يروونه فيما بينهم ويتطلعون إلى استيفائه .

هذا الوجه المفصل ، والوجه الذى يبينه فى المقال السابق ، يرجحان ما تخبرته من إيجاب التوثيق فى الدين الخطير .

وأما نذب التوثيق أو إباحته فى غير الخطير فأخذهما من قوله تعالى : « ولا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ، ومن قوله تعالى : « إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ، .

النذب — : يقول القرطبي : أولا ، لا تساموا معناه لا تملوا ، صغيراً

أو كبيراً ، حالان من الضمير في تكتبوه ، وقدم الصغير اهتماماً بشأنه ، وهذا النهى عن السامة إنما جاء لتردد المدابنة عندهم ، خفيف عليهم أن يملوا الكتب ، ويقول أحدهم هذا قليل لا أحتاج إلى كتبه ، فأكد تعالى التحصين في القليل والكثير ، قال علماءنا : إلا ما كان من قيراط ونحوه لزارته وعدم تشوف النفس إليه إقراراً وإنكاراً (ص ٤٠١ ج ٣ قرطبي) .

وكلام القرطبي هذا يلائم قول القائلين بإيجاب التوثيق مطلقاً ، وخاصة قوله « وقدم الصغير اهتماماً به » ، وقوله « فأكد التحصين في القليل والكثير » .

ولكن اختيار القرطبي معروف مما سبق ، إذ نقلنا عنه تأييده للقول بنذب الاستيثاق على وجه العموم ، وقوله في صفحة ٣٨٣ ج ٣ : وهذا هو القول الصحيح .

فكان القول بالإيجاب في أى نوع من الديون لا يرقى عنده إلى درجة الصحة ، وعلى ذلك يكون كلامه هنا منزلاً على ما قرره آنفاً من نذب الاستيثاق ، وإن كان تحصينه مؤكداً في القليل والكثير ، ويكون النهى عن السامة من التوثيق محمولاً في اعتباره على نهى الكراهة ، ويكون استثناء علمائنا على ما حكاه للقيراط ونحوه مما لا تشوف النفس إليه استثناء من النذب . ورجوعاً إلى ما سبق لي ترجيحه من إيجاب التوثيق في الخطير من الديون وما يلتحق بها أرى ويرى القارئ معنى أن تسوية القرطبي بين الدين الكبير والدين الصغير في تأكيد التحصين مجرد متابعة لظاهر الصيغة ، وانسياق منه إلى تدعيم ما ذهبوا إليه من عموم النذب ، ولكن ذلك لا يسهل التسليم به على إطلاقه ، إذ الأظهر أن توثيق الصغير أمر مستحب ، وأن الله تعالى مع تخفيفه عنا بعدم إيجاب التوثيق فيه رغبتاً في تحصينه تأكيداً للاستحباب الذي لم يبلغ درجة الوجوب ، وكان من تأكيد الاستحباب فيه أن جمع الله بينه وبين الكبير في حيز النهى الدال على خطورة المخالفة ، غير أن النهى في جانب الكبير يدل على حرمة الترك بسبب السامة ، وفي جانب الصغير يدل على الكراهة فحسب ، وقد سوغ ذلك الجمع بينهما أن الحكمة من التوثيق ، تتحقق في الجانبين ، وهو ما صرح به في قوله سبحانه « ذلكم أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا » ، ولولا الحرج والمشقة وإرهاق الناس بما لا يطيقون لوجب التوثيق في الكل ، كما يقول آخرون

ولكن المصلحة في توثيق الصغير، مع وضوحها والتسليم بها، لا تبلغ مضرة التكليف به لكثرة واقضائه العنت والتعسير على الناس مما يخالف رفق الشريعة بالناس. ولعل في تعبير المولى سبحانه بقوله «ولا تسأموا» توجيهاً إلى ذلك، فإن السأم يعتري المرء من غير قصد ولا اختيار، وصرفه عن النفس مستطاع فيما لا يكثر ولا يتردد بين الناس في غالب أوقاتهم، فمقول أن يكلف الله عبده بعدم السأم فيما يمكنه أن يدفع السأم فيه، وموطن ذلك هو الأمور القليلة الوقوع بالنسبة إلى غيرها وهي الديون الخطيرة. أما ما يكثر سبب السأم فيه، وهو الديون اليسيرة الفاشية فدفع السأم فيه عسير، ونهينا عن السأم إنما يكون للتنزيه، ولا يحقل أن يكون للحظر ما دام غير مقدور لنا دائماً. وعلى هذا يكون النهي في الآلة للكرهه وللحظر جميعاً، فللكرهه في جانب توثيق الديون اليسيرة، وللحظر في جانب توثيق الديون الكبيرة.

وذلك كما يقال: لا تقطع مودة أصحابك، وذوى رحمك، فذلك نهى في أسلوب عربي مألوف، ولكن حكمه في الجانبين لا يستوى، فقطيعة الاصحاب لا تساوى في الحرج عند الله قطيعة الارحام، وهو استعمال سائغ على أى حال، سواء أكان استعمالاً للنهى في حقيقته ومجازه على رأى من يجيز ذلك، أم كان من قبيل عموم المجاز على رأى آخرين، أم كان حقيقة في المعنيين عند غير هؤلاء وهؤلاء.

الإباحة — سبق أن حكينا عن القرطبي ما نقله عن علمائنا من استثناء القيراط ونحوه مما يعد نزراً، ولا تتشوف النفس إليه، فذلك عندهم مطروح من مدلول لفظ «صغيراً»، ولا يتعلق به بتوثيقه ندب، وكأن شيوخنا أولئك اعتمدوا في تخصيصهم للصغير بشيء دون شيء على العرف الصحيح المستمد من العمومات «وما جعل عليكم في الدين من حرج»، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر»، فذلك العرف هو الذى وجه أفهامهم إلى استثناء القيراط ونحوه، وهذا ما نص ابن قدامة الحنبلى على قبح التوثيق فيه؛ لانه في اعتباره اشتغال بالتافه، وتعرض للبقاضة فيما تأباه المروءة.

ولكن اتجاه شيوخنا إلى عدم توثيق هذا التافه الذى لا تتشوف النفس إليه، لا يعتبر تحرماً ولا كراهة وإنما هو اختيار لا يمنع إباحة التوثيق فيه، ولا يكون

حراما ولا مكروها شرعا لو أن امرأ من الناس أو أناسا كثيرين جروا على الاستيثاق في القيراط ونحوه ما استثناه علماؤنا، وفي حاجة البقال والطار بما مثل به ابن قدامة، والأمر في ذلك منوط بالرضا وطيب النفس، إذ أن هدم تعلق الطلب به كما فهم شيوخوا إنما كان للتخفيف، فإذا لم يكن تبرم ولا غضاضة فلا حرج على من أراد أن يفعل.

وإذا سلم لي ما ذكرته هنا تبين أن في هذا الجزء من الآية «ولا تسأموا الخ» ما يعطى الإيجاب والندب نصا ويفيد الإباحة مفهوما، والأخذ بالمفهوم مقول به على رجحان، فالإيجاب في الخطير عرفا، والندب في الصغير الذي لم ينهض إلى مكانة الخطير، ولم ينزل إلى درجة التافه، والإباحة فيما كان هينا، كشمس الرطل من الصابون والاقة من الفاكهة، وما إلى ذلك مما هو في حدود القيراط الذي مثل به علماؤنا الأولون. وإذا كان للعرف وزن واعتبار عند أسياننا فيما فهموا ونقلناه عنهم في هذا الصدد، فنحن نرى في عرف الناس اليوم ما يشهد لما نقول، فالقبال والقصاب والغاكهي والكواء، وأمثال هؤلاء قد يتعاملون مع كثير من الناس بالاجل، وهم يقيدون بالكتابة ما يتناولوه الحرفاء (العملاء) مرة بعد مرة، وهو في كل مرة تافه؛ ولا يكون ذا خطر إلا بعد الاسترسال في الأخذ وضم بعضه إلى بعض.. ولا يقال إن ذلك يجري بلا استيثاق، فإن الغالب أن الحريف يوقع هو أو رسوله على دفتر معد بيد البائع، أو يأذن للبائع بتقييد مراته في دفتره، ثم يوقع الحريف من حين إلى حين على ذلك الدفتر، توثيقا للبائع فيما اجتمع له، وهذا بعينه توثيق في أثمان تافهة، وهو في جوهره توثيق شرعي وإن كانت صورته أحيانا على غير الضابط الشرعي، فهل يقال: إن ذلك مما تأباه المروءة كما يقول ابن قدامة؟ أظن لا. وقد وضع أن العرف هو الذي يوجه الناس إلى رسم المعاملات، وقد يرى حسنا عند قوم ما لم يكن حسنا عند آخرين، والمرجع في إجازة هذا وعدم إجازته إلى الضوابط العامة الشرعية، والضوابط لا تضرب حول الناس سورا من حديد.

وتدعيما لما ذهب إليه من تقسيم التوثيق إلى قسم ثالث هو المباح، سأعرض في ذلك لقول الله عز شأنه «إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم. الآية» ولعل في الاجل بقية.

رسالة الحياة وكيف تؤدي

لفضيلة الاستاذ الشيخ على رفاعي

مفتش الوعظ بالأزهر

أنشأ الله الكون على أبداع نظام، وأحكم صنع حير الأفهام، ودوخ العقول؛ فالأفهام تقف دونه حائرة، والعقول تخز بين يديه ساجدة. فالسما والارض وما بينهما، والشمس والقمر والنجوم كل يؤدي وظيفة في الحياة على نظام ثابت يوصل إلى غاية عظيمة.

هذه المخلوقات لها رسالة خلقها الله لها، فهي تؤديها على أتم وجه. دون توقف أو اصطدام. والشمس تجري لمستقر لها، ذلك تقدير العزيز العليم. والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم. لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون.

هذا الكون الذي خلقه الله على تلك الصورة وهذا النظام البديع، سخره للإنسان ووكّل إليه عمارته والعمل فيه؛ ليحيى حياة التعميم والسعادة. وقد حث الله على التفكير في الأرض والسما والماء والهواء؛ لاستنباط ما يسعد بني الإنسان ويرقي الإنسانية إلى مراقى الفلاح والكمال.

فرسالة الإنسان في الحياة رسالة عظيمة لا يدرك عظمتها إلا من يعرف مقدار النعمة التي أنعم الله بها عليه، فهو خلق عظيم ما استجاب لحالقه ولبي دعوة بارئه؛ فسار على نظام العبودية الحقة، وسبح في فلك الطاعة لا يريم عنه ولا يتحول، كما أن الشمس والقمر كل في فلك يسبحون. فيؤدي رسالته في الحياة في ظل هذه العبودية، فيقوم بما كلف به من عمل على وجه الإلتقان والكمال دون إفراط أو تفريط، فإن حاد

عن ذلك فهو مفرط في حق نفسه وحق أمته وحق الناس أجمعين . وهو بعدُ مسئول بين يدي الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

ثم هو مجازي بما يعمل ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

فالعالم — رجل الدين — رسالته في الحياة : تهذيب النفوس ، ومعالجة القلوب ، وبيان سبل الخير والترغيب في سلوكها ، وطرق الشر والتفكير من لوجها ، ونشر العلم ، وتيسير فهمه ، والرفق بالجاهل ، ولين الجانب للتعلم ، والجد في نشر الفضائل ، وبث النصائح ، مستغنيا الصعاب في سبيل ذلك لا يثنيه عن قول الحق ترغيب أو تهريب ، يفعل الخير قبل أن يوصى بفعله ، وينأى عن الفساد قبل أن ينهى عن فعله ، فهو قدوة في عمله وخلقه ، لا يتملق إلا موالاه ولا يذل إلا لخالقه ، يستمد عظمته من عظمة رسالته ، وغناه من قناعته ، وثقته برازقه : شعاره الذي يعتز به قول الإمام الشافعي رحمه الله في الزهد والقناعة والتعفف عما في أيدي الناس :

أنا إن عشت لست أعدم قوتا وإذا مت لست أعدم قبرا
همتي هممة الملوك ونفسي نفس حر ترى المذلة كفرا

والحاكم رسالته أن يعدل في الرعية ، ويقسم بالسوية ، لا يفرق بين قريب وبعيد ، ولا بين عدو وصديق ، ويرعى شؤون الناس بالقسطاس ، ويسهر على مصالحهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ويضرب البغاة والظلمة والمفسدين في الأرض ، ويشجع المحسنين العاملين لمصلحة الأمة ، ويؤلف بين المتخاصمين ، ويعمل على توحيد كلمة الأمة وجمع صفوفها ؛ حتى لا يكيد العدو للأمة وهي متفرقة ، فيذهب ريحها . ومن رسالة الحاكم إشاعة الأمن في البلاد ، ونشر التعليم ، والمحافظة على الصحة العامة ، ومحاربة الفاقة بإيجاد الأعمال للمتعطلين ، والإنفاق على العجزة ، ومن في حكمهم من الأطفال والأرامل .

والمحكوم رسالته في الحياة أن يكون للحاكم العادل عوناً على تأدية رسالته ،

فيطيع أوامره ، وينفذ القوانين ، ويعينه على إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، كما يعينه على اقتلاع جذور الفساد من المجتمع ، وتنمية سبل الخير .

أما من وكل إليه تربية النشء فرسالته في الحياة غرس الوطنية في قلوب تلاميذه ، وتهذيبهم وتغذية أرواحهم بالعلوم ، وتبصيرهم بشئون دينهم ودنياهم ، وتنشئتهم على العزة والكرامة وحب الخير والمروءة والإقدام ، والتخلق بما يكسبهم الثناء والمجد .

وكذلك كل عالم في فن من الفنون عليه أن يبذل جهده ، لينفع بفضله أمته ، فيحاول أن يفكر ويخترع ما يعود على الأمة بالخير في زراعتها وتجارها وصناعاتها ، كما يفكر في تقوية مركز أمته أمام الدول لتكون مسموعة الكلمة مرفوعة اللواء .

وكل من يستطيع نفع بلاده ولا يفعل فقد فرط في أداء رسالته . وكل من يستطيع معونة الناس الذين يحتاجون إلى المعونة ولا يفعل ، فقد فرط كذلك في أداء رسالته . فالأطباء تتصل رسالتهم بالإنسانية الكاملة ، والرحمة بالضعفاء ، فهم مسئولون عن تخفيف آلام المرضى والقيام على علاجهم ، ولا يصح أن يدخل في حسابهم غنى المريض وفقره ، فالطبيب إنسان جعل الله رسالته في الحياة تخفيف الآلام ، ومداواة الأسقام ، فإذا رأى ذلك ثم وقف جامدا حتى يأخذ المال ولو بمن لا يملكه ، فإنه حينئذ يحجم عن أداء رسالته السامية للإنسانية ، ويلصق بنفسه أنه تاجر ينتهز الفرصة ويستغل الحاجة ؛ بل إنه حينئذ إنسان نزعت من قلبه الرحمة ، وهي إنما تنزع من قلوب الأشقياء .

والغنى الذي يسمع بأذنه شكوى الجائع ، ويرى بعينه عرى العارى أو يعلم من أمر جيرانه ما هم فيه من حاجة ومتربة ، ثم لا تتحرك يده إلى جيبه ليطعم الجائع ، ويكسو العارى ، ويقضى حاجة المحتاج ، لهو كذلك في غفلة عن رسالته ، ومتسربل بالكفر بنعمة خالقه . وهكذا كل من الزارع والتاجر والصانع ، كل في عمله : رسالتهم أن يقوم كل واحد بعمله خير قيام ؛ فيتم الزارع بالغراس ويلتمس الوسائل الحديثة للاستنبات ، ويبذل جهوده في حقله ليبتج إنتاجا حسنا ؛ كما يهتم التاجر باستجلاب البضائع ، وتيسير الحوائج للناس ، متوخيا في ذلك

المصلحة العامة للناس دون أن يستغلهم أو يغشهم أو يدلس عليهم . وكذلك الصانع يتقن صنعه ، ويحاول أن يكون دائماً في تقدم مع حرصه على الصدق ، والأمانة والوفاء .

ولو أدى كل فرد رسالته على ما ينبغي ، وفكر أنه تحت عين الله ينظر إليه ويراه ، وأنه إن أحسن في عمله أحسن الله إليه وضاعف له ، وأن كل عمل سواء كان دينياً أو دنيوياً خاصاً أو عاماً متى أخلص المرء فيه النية وأتقنه ابتغاء وجه ربه فسيجد من توفيق الله له وتيسيره له في الدنيا وثوابه وكرامته في دار المقامة ، ما لا يقدر قدره إلا الله .

ولو أدى كل فرد رسالته في الحياة ، وقام بأداء الناحية التي هيأه الله لها أداء حسناً ، لتحققت السعادة للجميع ، وتلك هي الغاية التي يريدها الإسلام فيما أتى به من تشريع وأحكام . وهي رسالة القرآن الذي أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، فاستجاب له المسلمون الأولون ، فعزوا بعد ذل ، وسعدوا بعد شقاء ، وأصبحوا المثل الأعلى للآمم الحية الناهضة : لأن كل واحد منهم كان يشعر بالمسؤولية في أداء الرسالة التي كلف بها ، والواجب الذي عليه لله وللناس .

الجود

قال أكرم بن صيفي حكيم العرب : ذلّوا أخلاقكم للباطل ، وقودوها إلى المحامد ، وعلوها المسكارم ، ولا تقيموا على خالق تدمونه من غيركم ، وصلوا من رغب إليكم ، وتحلوا بالجود يلبسكم المحبة ، ولا تعقدوا البخل ، فتتجملوا الفقر .
أخذ هذا المعنى شاعر فقال :

أمن خوف فقر تعجلته وأخرت إنفاق ما تجمع
فصرت الفقير وأنت الغني وما كنت تعدو الذي تصنع
لا يريد الشاعر فيما يظهر أن ينفق الإنسان كل ما يجمعه فلا يدخر للنوائب
حصّة منه ، بل يريد أن يحود الإنسان منه ليبارك له فيه .

فَكَّنَا لِلَّهِ

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ ابراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

كذب من يزعم أن الحديث في إعجاز القرآن ينتهي إلى حد ، أو يصل إلى غاية ، أو ينضب له معين ، بل إن القارئ فيه ، المتأمل لمعانيه ، كلها أمعن النظر ، وأطال التأمل ، وأغرق في التفكير ، بدا له منه العجب ، وظهرت الغرائب ، وأيقن أنه يُعطى منه ما يُعطاه الواقف على شاطئ المحيط من الرذاذ حينما يقذفه بالحجر . . .

وهذه قضية فرغ الباحثون منها ، وانتهوا إلى تقرير الصواب فيها ، وكان الإعجاز هو الإعجاز حتى في تقريب هيكله ، وتصوير هيولاه ، ليظل الناس يكدون ويجدون ، ويعانون ويقاسون ، ويدأبون في التحصيل ، ويكدحون في الطلب ، إلى أن تقوم الساعة ، ويطوى الله الأرض ومن عليها . . . وهو يتحدى البشر في جميع النواحي معلناً بذلك أنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، لا يستطيعون أن يسبروا غوره ، ولا أن يدركوا كنهه ، ولا أن يعرفوا ما تضمنته من عبر ، أو احتواه من عظات ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، فلا أفصحهم بياناً ، وأقومهم لساناً ، وأعذبهم كلاً ، وأروعهم حكماً ، وأقدرهم على تأليف الحبيج ، وزخرفة الأدلة ، وترتيب المنطق ، يقف له في الطريق ، أو يعارضه فيما يقول ، اللهم إلا محاولات العاجز ، ومساوالات الضعيف ، وليست المسألة أكثر من أن يتفرغ له الذهن ، وينقطع له التفكير ، ويستجم الخاطر ، فإنه — حيثئذ — لا يشك في أنه أمام قدرة باهرة ظاهرة ، تسجد لها العقول الجبارة ، وتذعن لسلطان سطوتها الأفكار الكبيرة . . .

وقد جرت التقاليد أن العرب وهم دهاقين القول ، وجهابذة الكلام ، وصيارفة الحديث ، لا يُعرف الرجل منهم إلاّ بناحية من البلاغة يجيدها ، وأسلوب من الفصاحة يتقنه ، ولا يستجيدون واحداً منهم في كل الأغراض ، ولا في جميع الأحوال ، ولذلك كان المأثور عنهم أن يقولوا : « غفرة إذا ركب ، والأعشى إذا طرب » ، وقد اشتهر بعض الناس بأبواب خاصة من الشعر لا يحسنون إلا فيها ، ولا يجلون إلا في ميادينها . فهذا شاعر الرثاء ، وذاك شاعر الاعتذار ، وذلك شاعر الهجاء ، وهكذا دواليك لا يتوفر لواحد أن يجرى في كل مضمار ، أو يسبق في كل شوط .

ولكن القرآن كان من إعجازه التصرف في كل فن ، والإجادة في كل ناحية . والنبي صلى الله عليه وسلم كرمه ربه أحسن تكميم ، واحتفل به في مناسبات مختلفة من تلك المناسبات التي كانت تقتضى نزول جبريل عليه بالوحى ، لا يشك في ذلك مكابر ، ولا يمارى جاحد ، إلا أنى لم أطرب لذلك كما طربت حينما قرأت « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلووا تسلياً » ، وليس ذلك لسهولة الالفاظ ، وقوة التركيب وتناسق الجمل ، وخفة الحروف على اللسان ، وعدم كراهيتها فى السمع ، وغير ذلك مما يتعرض له علماء البلاغة ، ويهتم بالبحث عنه أمثال عبد القاهر الجرجاني وأبو هلال العسكري .

ولكننى نظرت إلى نوافذ أخرى شاهدت منها أشياء وأشياء تشع عنها الآية الكريمة ، هي فيما يرى الرائي ظلال وأطياف ، وألوان وصور ، وأرواح ومعان ، ولب اللب ، وخلاصة الخلاصات .

وما حاجة الناس الى أن يحملوا حملاً عتيقاً ليجعلوا الرسول منهم بهذه المثابة وتلك المكانة ، ويبدلوا له من الاحترام والتقديس ، والحفاوة والإعظام ، والمهابة والأدب ، ما هو أشبه بالتكاليف الواجبة ، أو الطاعات المفروضة ، وهو لا يعدو أن يكون مبلغاً لما أنزل الله عليه ، وناقلاً لما يوحى إليه ، وهم إنما يعبدون الله وحده ، لا يشركون به شيئاً .

إلا أنني أيقنت أن المعلم الذي تنعدم مهابته من النفوس ، وتذهب مكانته من القلوب ، ويفقد صلته بتلاميذه ، بحيث لا يكون هنالك ود متبادل وتقدير متوفر ؛ لا يرجى نفعه ، ولا يثمر ثمره ، ولا يؤدي عمله على الوجه الأكمل ، أو يفيد الفائدة المطلوبة ؛ ولهذا كان يؤثر عن بعض العلماء قوله : ذلك طالباً فعززت مطلوباً .

وقد كان جماعة من المنافقين ، يبالغون في إعنات النبي صلى الله عليه وسلم ، والكيد له متخذين لهذا شتى الصور ، وألوان النكيات ، من عدم خضوعهم للكتاب الذي نسخ الله به جميع الكتب ، وعدم اكتراثهم بالرسول الذي جعله سبحانه خاتم الرسل ، يرددون اسم التوراة والإنجيل وغير ذلك من الصحف التي ذهبت معالمها ، والأسفار التي تغيرت حقائقها ، يريدون أن يتحاكوا إليها في الخصومة ، ويستتيروا بها في حسم النزاع ، وهي أوهام وترهات ، ودعاوى كاذبات ، وخرافات ما بعدها خرافات ؛ لذلك جاءت : فلا وربك لا يؤمنون ، وهي تقصد إلى أن إيمانهم مشروط بتحكيمة فيما شجر بينهم ، وألا يكون في صدورهم حرج من ذلك ، ويسلموا تسليماً .

وقد كانت العرب مع بداوتها وبساطتها ، وجفوتها وغلظتها ، تقدس السيادة والسلطان ، وتعزّز بالهيل والهيلان ، ولم يكن هنالك ما يقضى على كبريائهم ، ويُخسّف من غلوائهم ، ويظامن من غطرستهم ، إلا أن يتحكم فيهم سواهم ، ويتولى الفصل فيما شجر بينهم غيرهم ، وهو إذا كان من هؤلاء الذين لم يشتهروا بالثراء والنعمة ، والغنى واليسار ، والعزة والجاه ، كان ذلك أدهى إلى النكاية بهم ، والازراء عليهم .

وربما كان سر الإعجاز ، وسحر البلاغة ، إلى جانب كون الآية تهدف إلى غرض اجتماعي نبيل ، ومقصد من مقاصد التربية شريف ، ونظام من نظم الحياة العمرانية ، يجب ألا يغفل توفره في القدوة من الاحترام والإجلال ، والتعظيم والحفاوة ؛ ليكون ذلك أدعى إلى الإذعان له ، والاستفادة من تعاليمه ، والقبول لما يبشر به من هداية ورحمة — أنها تضمنت معنى الدين كله ، وروح الشريعة جمعاء ، وليس في رسالة الرسل ، وتعاليم الأنبياء ، وراء تطبيق ما جاءوا به من

الوحى ، ونزل عليهم من الأحكام ، والتزام ما أمرنا به من التكليف ، وخضوع
هو اجسنا وأفكارنا ، وحركاتنا وسكوننا ، وأقوالنا وأعمالنا ، ورضانا وغضبنا ،
وفرحنا وسخطنا ، لسكل ذلك بحيث لا يكون فينا تملل وقلق ، واضطراب
واشمزاز ، نتمثل بالجوارح دون القلوب ، وننقاد فى الظاهر دون الباطن ،
كأولئك الذين وصفهم الآية ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس
ولا يذكرون الله إلا قليلا ، . . أو نجعل همنا فى الجدل والمناقشة ، والبحث
والمناظرة ، فما ظهرت حكمة مشروعيته قبلناه على العين والرأس ، وما لم تظهر
حكمته رفضناه . . فإن ذلك إلحاد ومروق ، وعصيان وفسوق ، يتنافى مع العبودية
التي تستوجب الإذعان والخضوع ، والامتثال والتسليم ، والانتقاد والتفويض ...
أما المفخذ الذى نصل منه إلى ذلك التكريم للنبي صلى الله عليه وسلم فتلك
الإضافات ، وإسناد الفعل إليه ، مع أنه واسطة العقد . . ولعل أبرز نواحي
الإعجاز هنا أن الكلمة على قصرها طوت تحتها معانى طويلة ، ولفت آدابا جمّة
وتلك الامثال نضربها للناس .

للشعر سلطان

قال الأديب الكبير صاحب العقد الفريد ابن عبد ربه : دخلت على أبي العباس
القائد فأشدهته :

الله جرد للندى والباس	سيفا فقـلده أبا العباس
ملك إذا استقبلت غرة وجهه	قبض الرجاى إليك روح الباس
وبه عليك من الحياء سكينه	وحبة تجرى من الأنفاس
وإذا أحب الله يوما عبده	ألقى عليه حبة للناس

ثم سأله حاجة فيها بعض الغلط فتلكأ على ، فأخذت مسحاة من بين يديه
فوقعت فيها على البديهة :

ما ضر عندك حاجتى ما مزها	عذرا إذا أعطيت نفسك قدرها
أنظر إلى عرض البلاد وطولها	أو لست أكرم أهلها وأبرها
حاشى لجودك أن يوعر حاجتى	ثقتى بجودك سهلت لى وعرها
لا يجتنى حلو المحامد ما جدد	حتى يذوق من المطالب مرها

أعلام الأندلس

الشيخ على الليثي

المتوفى سنة (١٣١٣ هـ - ١٨٩٦ م)

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد كامل الفقي
المدرس بكلية اللغة العربية

— ٢ —

شعره :

خلف الليثي ديوان شعر ضخماً لدى صهره الأستاذ « محمد سعودى أفندى »
الخير ، ولكنه أبى أن يطبعه لعلم أهله وخاصته بأن الشاعر لعن من يقدم
على طبعه . ولعل الليثي فعل ذلك تحرجاً من نشر ماعسى أن يكون قد تورط فيه ؛
كشأن أكثر الشعراء ، من دعاة أو غلو في مديح أو ذم أو نحو ذلك ، فلقد كان
في الرجل تقيّة وورع ، فهو يخشى حسابه على ما نظم ، ولو كانت هذه الثروة الشعرية
لشاعر غيره ممن يغريهم المظهر والشهرة ، لجاز أن يحرص على طبع شعره وتدوينه
والمفاخرة به .

ولو تهيأ لنا الاطلاع على هذا الديوان والفرس فيما حواه من شعر ،
وفما بين دفتيه من قصائد نظمها في أغراض مختلفة ، وألوان متنوعة ؛ لاستطعنا
أن ندرس شعره دراسة بحث وتقص ؛ ولكن احتجاب ديوانه ألقي على شعره
ستاراً كشيغا من الغموض والإبهام ، وجعل الحكم عليه مقروناً بالعناء والجهد ،
وذلك بما دفعنا دفعاً إلى مراجعة الصحف القديمة والمجلات المعاصرة له ، وتبع

الكتب الادبية المختلفة عما عساه أن يضم طرفاً من شعره ، وخبراً من خبره ، ونستطيع بعد أن تعبت أناملنا من التصفح والتقليب وبعد العثور على جمهرة من قصائده المتنوعة ؛ أن نحكم على شعره جملة بأنه في المنزلة الوسطى من منازل الشعراء ^(١) .

وكان القدر الأعظم من شعره في المدائح ؛ فلقد اصطفاها اسماعيل ، وأضنى عليه لقب شاعر الخديو ، ولازمه وناداه ، كما أدناه توفيق وأحله مكانة من نفسه ، وقد دعاه ذلك إلى أن ينظم فيهما مدائمه ملتصقاً لها شتى المناسبات ؛ آية على ولائه ، ودليلاً على وفائه ، كما مدح المصطفين لهذين الأميرين من ذى جاه أو شفاعة أو حظوة لديهما ، وكان الليثي حريصاً في هذه المدائح وخاصة ما لإسماعيل وتوفيق على أن يحودها ويكسوها حلة من الروعة وجمال الشعر ، ولكنه على كل يدور فيها جميعاً مع تباين أسبابها على معانٍ متقاربة ، وطريقة متشابهة ، فهو يبدأ بالغزل متأثراً في صوغه لينتقل منه إلى مدح الأمير حاشداً من معانيه وألوانه ما شاء له الأسلوب ، وما واثته القرينة ، واستتبع مدحه الأميرين الذى هو ثمرة لصلته بهما وحد بهما عليه أن يقول مهنثاً ، أو مواسياً أو معزياً ، فان وفاءه الباعث على الإطراء والمديح هو نفسه الدافع على قرص الشعر في كل ما جل أو هان من مختلف المناسبات .

ولقد جهدت فيما تتبعته من الشعر كي أعثر على المنادمة في شعره ، وأتبين أثر هذا الفن لأرى ما أبدع منه في نظمه ، فلم يواتنى منه شيء ، فلعلها كانت منادمة مجلس وسمير يصورها حديثاً يرويه ، وقصة يسوقها ، ونسكتة يرسلها ، ونادرة يفاكه بها ، وبديهة مواتية لا تستلزم الشعر أسلوباً ولا أداة .

نماذج من شعره

مما قاله في عيد جلوس الخديو عباس الثانى :

خل الحلام فقلبي ليس بالسالى	يا عاذلاً لج فى لوى لتضلالى
دعنى ووجدى وما ألقاه من وصب	أبيت أرعى الدياجى بأنس الحال

ظننت لومك يثنى قلب ذى شين
أنا الوفي وقلبي ليس يشغله
هيمات لومك لم يخطر على بالي
عما عليه انطوى تنمى عذال
أرح فؤادك واحذر ما أكابده
دمع يسيل وقلب ذاب من كمد
عدتك حالى لا ذقت الهوى أبداً
ولا رمتك اللواحى فيه بالقال

إلى أن قال :

قد قال لى القلب كم حملتني نصبا
هلا التفت وألزمت اليراع بما
من الغرام وقد ضاعفت أثقالى
يخف عني به وجدى وبلبالى
فقلت يا قلب صادفت المراد فذا
عباس مصر الذى ضامت بغرته
كالبدر يعطى اثناسا عند إهلال
وإن تعاظم فاسلك نهج إجمال
صفوا النفوس بتشريف النفوس بدا
فادخل بنا فى تهانیه بهوسمه
ثم قال :

هذا الابى الذى أمضت عزائم
زند الشيبه يورى رأى مكتمل
ما أوهن اللب من قول وأفعال
منه ويهدى لرشد عند تسأل
فيه لرائيه إيناس ومرحمة
وكم لراجيه منه نور آمال

فهذه أبيات تبتدىء بالغزل على عادة الشعراء ، ثم تنتقل إلى ذكر الممدوح بما
شاع المدح به ، وما ألف نظم الإطراء فيه ، وهى وإن كانت أقرب إلى التجويد ،
فى نظمها وصوغها ، لا تحمل من روعة الشعر ، والطابع الشخصى ما يسمو بصاحبها
إلى مصاف المجيدين :

ومما قاله فى ليلة عرس :

لله ليلات أنس عن سنى سفرت
وبالمراد إلى أسمى حى وصلت

كانها ليلة القدر التي نزلت
سرت بحسن صفاها مصر وازدهرت
فما رأى مثلها الرائي فقد شرفت
دار بسدتها الأجداد واردة
إن شئت قل جنة أو جنة وجنى
نعم سويداك أو سود العيون بما
وارع المثاني وراع الغنديل بها
إلى أن يقول :

ولا أصرح بالداعى ولى أمل
فاهناً فهذا القران السعد أرخه
يشيده من حلى أوصافه كملت
شمس البهاء بمحمود الصفا اقترنت
٤٠٠ ٣٩ ١٠٠ ٢٠٢ ١١٥١

فهذه مظاهر للحسن والسرور، والآنس والبهجة حشدها الشاعر حشداً،
ونظمها بصورة تقليدية لا أرى فيها روحاً للشعر العذب الرائع، على أنه غنى فيها
بالزخرف والطلاء، فأشار إلى الاقتباس في «ليلة القدر التي نزلت فيها الملائكة»،
وجنس بين «جنة» و«جنى»، و«الغياث»، و«الغيث»، و«سويداك»، و«سواد
العيون»، و«اراع»، و«دراع»، وبذل لذلك شيئاً من جهده وطلبه، ثم ختم أبيانه
 بالتاريخ الذى فتن به معاصروه والسابقون عليهم، وحرص عليه هو أيضاً. ومن
ولوعه بالمحسنات البديعية، وتكلفها وسعيه لها ما قاله للشيخ الإنابى بنى ماوشى
به إليه :

نبئت أنى قد ذكرت بحضرة
وعذلت أن لم أهد ساحة مجده
تسمو بكوكب عصره «الإنابى»،
غرر التهانى عذلت من أنبا بنى
عز المهابة وازدحام الباب
أسمى المعالى فى أعز جناب
ولقد نبا بنى عن سمو مقامه
فغدوت أدعو الله أن يرقى إلى

وتقرر عين الشافعي بمهاب	كيا يعز الدين منه بناصر
وتقوم حجته على المرتاب	فبمثله الإسلام يظهر نوره
بمهابة الإعزاز والإرهاب	لا زال شيخ المسلمين محجبا
بولى الأزهر شيخه ، الإنباي ،	حتى يقول العلم : سدت مؤرخا
٩٧ ٩١٥ ٢٤٤ ٤٨	سنة ١٣٠٤

فقد كلف بالتجنيس في قوله ، الإنباي ، فأدارها غير مرة ، بما (نبأها) ووضعها موضع القلق ، كما شد الجناس في قوله ، بمهابة ، و ، الإرهاب ، وختم بالتاريخ كدأبه .

ومن أبياته الرقيقة ما قاله حين زارته سائحة أمريكية وهو في ضيعته ، بالصف ،

غريبة دار تلتحي كل مورد	وزائرة زارت على غير موعد
ونحن على روض زها بالتورد	تبدى لنا وقت الظهيرة نورها
سوى رؤية الآثار في كل مشهد	من اللام لم يدخلن مصر لحاجة
، ببستان ، إذ تعزى لمسقط مولد	لها في ، أمركا ، انتساب ودارها
لنا فأذنوا نحظى بروضكم الندى	فحيت وقالت والمترجم بيننا :
على الرحب والإقبال مشكورة اليد	فقلنا ونور البشر أزهر بيننا :
فجاءت بدُر من حديث منعقد	ودارت أحاديث التساؤل بيننا
	إلى أن قال :

بصفو يصافينا فياطيب مورد	عن البحر حدث إذ وردنا وقد غدا
بما حل فيها من شمس وفرقد ^(١)	سقيفتنا تعلو على فلك السما
مع العفة العلياء في كل مقصد	هناك مراد العين والسمع والهوى
بما نابنا عند الوداع الممهد ^(٢)	فقمنا وودعنا القلوب فهل درت

(١) الفرقد : نجم قريب من القطب الشبلى .

(٢) الممهد : الميأ .

النبي والشعر

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد المسلول
المدرس في كلية اللغة العربية

قام محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى ربه في أمة شديدة العناد
قوية البأس ، عرفت بالصلافة وقوة الشكيمة ، وعنف الخصومة ، وشدة العارضة
والحرص على ما ألفت ، والبقاء على ما اعتادت ، والتأدي في الباطل ، والإصرار على
ما هم فيه من عمى القلوب وظلام العقول ، كلما دعاهم إلى فضيلة كذبوا وجمعدوا ،
وكابروا وعاندوا ، وقالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ،
لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ، أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل
منها ، وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً .

ولقد أنزل الله على رسوله القرآن المبين ، والعرب إذ ذاك أمراء البيان
وأعلام البلاغة ، واللسن المقاول ، الذين اكتملت فطرتهم ونضجت فصاحتهم ودق
إحساسهم الأدبي ، وامتاسكوا ناصية اللغة امتلاكاً عجيباً ، ولكنهم رأوا طرازا من
البيان شق عليهم أن يجاروه ، ونحووا من الكلام عز عليهم أن يعارضوه ، فذهبت
بهم الظنون كل مذهب ، وتشعبت منهم الآوهام في كل بيداء ، وأخذتهم الحيرة في
حقيقته ، واستغرقهم التأمّل في طبيعته ؛ قالوا : إنه سحر ساحر أو شعر شاعر أو كهانة
كاهن أو أساطير الأولين وذكريات الغابرين . ولكن الله أكذبهم في زعمهم
وخطأهم في ظنهم وسفهمهم في أوهامهم ، وسجل عليهم عجزهم عن إقامة حجة على
الرسول ، وقصورهم في التماس مطعن فيه ، بأنه أمي لا يقرأ الكتب ولا يخط باليمين .
وما كنت تنلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، إذا لارتاب المبطلون .
كذلك كان من تمام الحجة على قريش وكال البرهان وبالغ التأييد ، أن الله
تعالى صرف نبيه عن الشعر وقوله ، فلم يؤثر عنه من لدن طفولته ، ولم يعرف عنه

في شبابه أو نشأته أنه قال الشعر مستجيباً لخواج نفسه أو مناخاً عن قومه أو مشاركاً لشعرائهم فيما تهر به طبائعهم أو تفتضح به ملكاتهم ، مع سمو فطرته وصفاء موهبته ، ورسوخ هرقه في البلاغة .

وتلك حكمة جليلة ليس وراءها حكمة ، وتديبر جميل لا يهيمه إلا علام الغيوب ، فإن قريشاً قد اتهمته بالشعر ليوهنوا من حجته ويغضوا من دعوته ويقللوا لدى الناس من أهميته ، حتى ينسبوا ما في القرآن من جمال النظم وسامى البلاغة وروعة الأسلوب وإشراق البيان إلى روعة الشعر وخيال الشعراء ، أم يقولون شاعر تربص به ريب المنون .

والله جل شأنه إذ يقول عن الرسول صلى الله عليه وسلم : وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، إنما يدحض باطلهم ويسفه أحلامهم ويزرى بآرائهم فيما يظنون ، وينفى كذلك عن الرسول ما يتعاطاه الشعراء وما يأخذون فيه من قول يستفز النفس أو انسياق وراء الخيال أو خضوع لنزوات النفس ، مما يؤدي إلى كشف عرض أو هتك ستر أو استباحة حرمة ؛ وذلك كله مما ينافي النبوة ولا يلائم ما للرسالة من وقار وهيبة واتجاه صادق إلى إصلاح القلوب وتهذيب الألسنة .

ولهذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يقول : لما نشأت بغضت إلى الأوثان وبغض إلى الشعر ، ولم أهتم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمني الله ثم لم أعد .

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم لشدة حرصه على أن يبعد عن ميدان الشعر ومنافسات الشعراء ، ورغبته القوية أن ينأى بنفسه عن المعترك الذي يصلون فيه ، وبالغ تحصيله لطبيعته المتوثبة الشفافة ، لا ينشد الشعر ؛ فإذا تمثل أو استشهد فإنه لا يقيم وزن البيت . وقد تعرض له حاجة إلى الإنشاد فيأخذ في الإنشاد من البيت حتى إذا حاولت الطبيعة عنده أن تستقيم وتعتدل وتأخذ حظها من الرواية لوى بها عن قصدتها وصرفها عن وجهتها وقدم أو أّخر في البيت حتى يحطم هيكل الشعر ويصدع كبريائه أنشد بيت طرفه بن العبد هكذا :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك من لم تزود بالأخبار
وصحته ويأتيك بالأخبار من لم تزود .

وقال : «أصدق كلمة قالها لييد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل . ولم يتم البيت :

وأشدد بيت العباس بن مرداس هكذا : أنجعل نهى ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة . فقال الناس : بين عيينة والأقرع ، فأعادها النبي صلى الله عليه وسلم بين الأقرع وعيينة ، ولم يستقم له الوزن . وكثيرا ما كانت تذكره بعض الحادثات ببيت من الشعر ، فلا ينشده ، وإنما يذكر به أصحابه أو يشير إليه .

حدث أن أصاب الناس جدب وامتنع نزول المطر ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله أن يسقيهم ، فصلى صلاة الاستسقاء ، ودعا الله ، فلم ترد إليه يده حتى جادت السماء بماء منهمر . فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه وقال : يرحم الله أبا طالب ، لو كان حيا لسره من ينشدنا قوله . فأشددوه :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
ولما فتح الله على المسلمين مكة ، ورأى صلى الله عليه وسلم النساء يلطمن الخيل ويضربن وجوههن ، التفت إلى أبي بكر ، وقال : ماذا قال حسان ؟ فقال : يا رسول الله إنه قال :

تظل جيادنا منطرات تلطمن بالخير النساء
فهذا واضح صريح في أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، لم ينشد الشعر أو يقيم وزنه .

على أنهم اتفقوا على أن الرسول قد جرى على لسانه من الكلام ، ما عدا موافقا لبحر من بحور الشعر وهو الرجز منهوك ومشطوره .

فالمنهوك كقوله في رواية البراء أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم على بغلة بيضاء يوم أحد وهو يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

والمشطور كقوله صلى الله عليه وسلم في رواية جندب أنه دميت أصبعه فقال هل أنت ألا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

وهذا لا يقدح في عصمته من قول الشعر ومنعه منه ، إذ أن اللسان يجري عفوا بما يمكن أن يمد في حكم الموزون من غير قصد إلى الوزن ولا رغبة في إقامته أو اتجاه إلى سلكه في نظام الشعر .

وأما القرآن الكريم ، وقد نفى الله عنه الشعر وأكد لم أنه ليس بقول شاعر ، قد جاءت فيه آيات اتفق لها الوزن ، ولكنه لم يقصد فيها ولم تطلب إقامته .

فما جاء فيه متفقا مع الوزن قوله جل شأنه : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ، وقوله تعالى : « وجفان كالجواب وقدور راسيات ، فإنهما يوافقان الرمل . الآية الأولى من مجزوء المسبخ ، والثانية من مجزوء الصحيح . وقوله تعالى « من تزنى فإنما يتزكى لنفسه » من مجزوء الخفيف . وقوله « ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، من الوافر .

وذلك وزن يجيء عرضا في الكلام من غير ارتصاد له أو احتشاد لإقامته ، وهو يتفق لكل متكلم . ثم الرجز الذي جرى بعض كلامه صلى الله عليه وسلم موافقا له ليس في حقيقته شعرا ، وإنما هو سلم وتمهيد للشعر ، ولم يجعله العرب من الشعر إلا أنه كان الأصل في اهتدائهم إلى الشعر . ثم أخذ فيه الشعراء بعد ذلك وأجروه مجرى القصيد فجعلته العادة شعرا . أما الحقيقة فهو وزن كأوزان السجع ، يستطيعه كل متكلم من غير كد ذهن ولا إعانت فكر ولا إجهاد طبيعة ، وهو مع ذلك كله لم يتفق للرسول صلى الله عليه وسلم فيه أكثر من بيت واحد ، ولم يتمثل منه كذلك بأكثر من البيت الواحد كما إنشاده بيت أمية بن أبي الصلت :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك لا ألما

وإنما كان ذلك في الرجز خاصة دون جميع أوزان الشعر ، لما قدمنا ، ولأن الشطرين منه كالشطر الواحد في الوزن والقافية ، لا يبين أحدهما من الآخر وبخاصة في المشطور والمنهوك .

يقول الأستاذ الرافعي « والذي عندنا أنه صلى الله عليه وسلم لم يمنع إقامة وزن الشعر في إنشاده إلا لأنه منع من إنشائه ، فلو استقام له وزن بيت واحد لغلبت عليه فطرته القوية ، فر في الإنشاء وخرج بذلك للاحالة إلى القول والاتساع

وإلى أن يكون شاعرا، ولو كان شاعرا لذهب مذاهب العرب التي تبعت عليها طبيعة أرضهم، ولتكلف لها ونافس فيها، ثم لجاراهم في ذلك إلى غايته حتى لا يكون دونهم فيما تستوقد له الجنية، وما هو من طبع المنافسة والمغالبة. وهذا أمر يدفع بعضه إلى بعض، ثم لا يكون من جملة إلا أن ينصرف عن الدعوة وعما هو أزكى بالنبوة وأشبه بفصائل القرآن، ولذلك قال تعالى : وما علمناه الشعر وما ينبغي له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين .

على أننا نحب هنا أن نقرر أمراً لا بد من تقريره وإبائه حتى لا يلتبس علينا أمر بأمر، ولا يشتبه صبح بليل : ذلك أن امتناع النبي صلى الله عليه وسلم، أو منعه من الشعر، لم يكن تهجيناً لشأنه، ولا تحقيراً لأمره، ولا إضراراً برسالته، وإنما لما بينا سابقاً من الأسرار، وفيما عدا ذلك مدح النبي صلى الله عليه وسلم الشعر وقال : إن من الشعر لحكمة، وقد سمعته وأثاب عليه، ورخص في سماعه وروايته؛ بل كان له شعراء يناخون عن دعوته ويذودون عن حوضه ويحامون عن رسالته، وهو القائل للأنصار : ما يمنع القوم الذين نصرُوا رسول الله بسلاحهم أن ينهروه بالسنتهم. وكان يقول لحسان، وهو يهجو المشركين : دقل وروح القدس معك، فإن شعرك عليهم أشد من وقع الحسام في غبش الظلام .

ولقد جاءه كعب بن زهير بعد أن أساء واستعطفه بقصيدته « بانت سعاد، التي يقول فيها :

نبئت أن رسول الله أوعـدني والعفو عند رسول الله مأمول
فعفا عنه وخلع عليه برده .

وكان يستمع إلى الخنساء ويستزيدها من شعرها بقوله : هيه يا خناس !

وسمع شعر قتيلة أخت النضر بن الحارث الذي قتله ؛ سمع قولها :

ما كان ضرك لو مننت وربما منّ الفتى وهو المغيظ المحق
فالنضر أقرب من قتلت قرابة وأحقهم إن كان عتق يعتق

فقال : لو سمعت هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه . وهكذا كان صلى الله عليه وسلم يعرف للشعر حقه، ويقدر له ما يؤدي من رسالة كريمة، وما يتجه إليه من غاية شريفة .

الصنغ البديعي في مدرّسة السكاكي

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أحمد موسى
المدرس بكلية اللغة العربية

صلة البديع بالبلاغة عند السكاكي :

للسكاكي صنيع لم يسبق إليه في تاريخ التأليف من حيث إقامة الحواجز الفاصلة بين العلوم التي اشتمل عليها المفتاح ، فقد عرض للفروق بين هذه العلوم جميعاً في مقدمة كتابه ، قال بعد أن أشار إلى اشتغال السكتاب على ثلاثة أقسام : « والذي اقتضى عندي هذا هو أن الغرض الاقوم من علم الأدب لما كان هو الاحتراز عن الخطأ في كلام العرب ، وأردت أن أحصل هذا الغرض ، وأنت تعلم أن تحصيل الممكن لك لا يتأتى بدون معرفة جهات التحصيل واستعمالها ، لا جرم أنا حاولنا أن نتلو عليك في أربعة الأنواع مذيلة بأنواع أخرى مما لا بد من معرفته في غرضك لتقف عليه ، ثم الاستعمال بيدك ، وإنما أغنت هذه ؛ لأن مشارات الخطأ إذا تصفحتها ثلاثة : المفرد ، والتأليف ، وكون المركب مطابقاً لما يجب أن يتكلم له ، وهذه الأنواع بعد علم اللغة هي المرجوع إليها في كفاية ذلك ما لم يتخط إلى النظم . فعلمنا الصرف والنحو يرجع إليهما في المفرد والتأليف ، ويرجع إلى علمي المعاني والبيان في الأخير .

« ولما كان علم الصرف هو المرجوع إليه في المفرد أو فيما هو حكم المفرد والنحو بالعكس من ذلك كما ستقف عليه ، وأنت تعلم أن المفرد متقدم على أن يؤلف ، وطباق المؤلف للمعنى متأخر عن نفس التأليف ، لا جرم أنا قدمنا البعض على البعض على هذا الوجه وضعاً لنؤثر ترتيباً استحققه طبعاً ^(١) ، على هذا النحو من الضبط ، وعلى تلك الطريقة من التمييز والفصل ، مضى السكاكي في تأليفه ، فاستحلي مذاقها المتأخرون حتى كان ما كان مما أنت به خبير !

أما القسم الثالث الذى اشتمل على علمى المعانى والبيان ، فقد رتبته على مقدمة لبيان حدى العلين والغرض منهما وفصلين لضبط معادهما والكلام على مسائلهما . والسكاكى أول من أطلق اسم « علم المعانى » ، على المباحث الخاصة التى بحثها فيه ، ولا يخدش هذه الأولوية ما نرجحه من أنه اقتبس ذلك الاسم من تعريف النظم وشرح الغرض منه عند عبد القاهر ، وكذلك كان السكاكى أول من أطلق على مباحث : التشبيه ، والمجاز ، والكنائية ، اسم « علم البيان »^(١)

بل هو أول من فرق بين مباحث هذين العلين على هذا الوجه من الضبط والتحديد ، وأول من حكم على علم البيان بأنه متزل من علم المعانى منزلة المركب من المفرد ، فينبغى أن يتأخر علم البيان عن علم المعانى .

وقد عرف السكاكى البلاغة بقوله : « هى »^(٢) بلوغ المتكلم فى تأدية المعانى حداً له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها ، وإيراد أنواع التشبيه ، والمجاز ، والكنائية ، على وجهها ، ثم أشار إلى طرفيها الأعلى والأسفل ، وإلى ما بينهما من مراتب متفاوتة ، ثم نّوع الفصاحة إلى نوعين : نوع راجع إلى المعنى ونوع راجع إلى اللفظ ، ثم خلص من ذلك قال «^(٣) : « ولذا تقرر أن البلاغة بمرجعيها ، وأن الفصاحة بنوعيها ، مما يكسو الكلام حلة التزيين ، ويرقيه أعلى درجات التحسين ، فيها هنا وجوه مخصوصة كثيراً ما يصار إليها ، لقصد تحسين الكلام ، فلا علينا أن نشير إلى الأعراف منها ، وهى قسمان : قسم يرجع إلى المعنى ، وقسم يرجع إلى اللفظ ، ثم مضى فى سوق ما تيسر له سوقه من النوعين مما تجده قارا فى موطنه من كتابه ، وليس له فيها من جديد سوى إطلاق اسم « سوق المعلوم مساق غيره » ، على ما كان يعرف عند المتقدمين باسم « تجاهل العارف » ، وكأنه لم يجب أن يطلق عليه اسم تجاهل العارف لوروده فى القرآن الكريم ، ثم تراه بعد ذلك يسير سيرته من الإيجاز ، والاكتفاء بتحديد الألوان ، وإردافها بمثال واحد ، أو مثالين دون أن يشير كما أشار عبد القاهر أو أبو هلال مثلاً إلى أسرار الأساليب والكشف عن جمالها وروعها ، وكذلك تراه بعد أن فرغ من سرد القسم اللفظى يذيله بقوله :

(١) وهذا لا ينأى ما جاء فى مقدمة الكشاف للزمخشري المتوفى سنة ٥٢٨ هـ حيث صرح بما يفيد أن المعانى علم ، والبيان علم آخر . إذ أن ذلك كان على عرف المتقدمين الذين لم يقيموا بينهما مثل هذه الحواجر . كما فعل السكاكى . (٢) مفتاح العلوم - ١٧٥ (٣) مفتاح العلوم - ١٧٩

« وأصل الحسن في جميع ذلك أن تكون الألفاظ توابع للمعاني ، لا أن تكون المعاني لها توابع ، أعني ألا تكون متكلفة ، ثم قال : ويورد الأصحاب هاهنا أنواعا مثل كون الحروف منقوطة ، أو غير منقوطة ، أو البعض منقوطة ، أو البعض غير منقوطة بالسوية ، فلك أن تستخرج من هذا القليل ما شئت ، وتلقب كلا من ذلك بما أحببت . »

على هذا النحو الذي رأيت عرض السكاكي للبديع وقسم ألوانه إلى قسمين : معنوي ولفظي ، وهو مسبوق بهذا التقسيم وبذلك الألوان كما أسلفنا ، وليس له من جديد إلا ما حدثناك عنه مما ليس له كبير خطر في جوهر العلم ولبابه ، وقد نال البديع من طريقة السكاكي في القسم الثالث هذا السرد القائم على الاكتفاء بتعدد الألوان ، وتحديدتها وإزجائها بمثال أو مثالين بجانب طريق سلفه ممن جمعوا بين البحث العلمي ، وحسن العرض الأدبي في البديع .

إلا أننا نلاحظ هاهنا أن السكاكي - وقد فصل بين علمي المعاني والبيان وأطلق عليهما هذين الاسمين - لم يعرض لألوان البديع على أنها علم مستقل عن العلمين : بل على أنها تشارك مسائلهما في تزيين الكلام بأبهى الحلل ، والوصول به إلى أعلى درجات التحسين ، ولم يشر السكاكي إلى أن هناك فرقا بين هذه الألوان وبين غيرها من مباحث هذين العلمين ؛ بل تراه يذكر ضمن هذه المحسنات الالتفات ، والإيجاز ، والأطناب ، وينبه القارئ إلى أن هذه الألوان ، قد سلف الحديث عنها في علم المعاني . ونظرة إلى تحديد السكاكي لهذين العلمين تفقنا على مبلغ عذره في هذا الصنيع ، فقد عرف المعاني بقوله : « هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره ^(١) . »

ثم عرف البيان بقوله : « هو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه ، ^(٢) ثم حصر علم المعاني في مسائله التي عرض لها ، وكذلك علم البيان ، فهذا الحصر بعد ذاك التحديد للعلمين جعل هذه

المحسنات البديعية لا تندرج ضمن مسائل العلين ؛ ولما كان تعريفه البلاغة بقوله :
 « هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدًّا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب
 حقها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها ، شاملًا لهذه المحسنات
 جعلها متضافرة مع مسائل العلين في البلوغ بالكلام إلى أعلى درجات التحسين
 والتزين ، فكان السكاكي يشير بهذا الصنيع إلى أن من هذه المحسنات ما يمكن
 رجوعه إلى علم المعاني كالطباق ونحوه ، على أنه قسم آخر منه راجع إلى الجملة من
 حيث هي جملة ، وليس راجعًا إلى أجزائها كما هو الشأن في جمهور مباحث المعاني ،
 ومنها ما يمكن أن يسلك في عقد البيان كالمشاكلة ونحوها ، وإن كانت هناك
 فوارق يسيرة ليست في الصميم من السهل لإزالتها أو غرض النظر عنها .

ولقائل أن يقول : إن السكاكي بعد أن انتهى من على المعاني والبيان ،
 عرض لتعريف البلاغة والفصاحة ، وهاتان من قبيل المقدمات لهذين العلين ،
 ولا ينفي عنهما هذا الاسم تأخير السكاكي لهما ووضعهما في ذيلهما ، ثم ضم إليهما
 هذه المحسنات كما ترى ، وهذا الصنيع يشير إلى أن المحسنات البديعية من قبيل
 المقدمات التي لا بد منها لطالب على المعاني والبيان ، فملاً اعتبرتها كذلك ؟

وأنا أقول : إن هذا احتمال قريب الخطور ، سهل المأخذ من صنيع السكاكي ،
 ولا مانع عندي من جعلها من قبيل المقدمات التي لا بد منها في البلاغة ،
 أو توزيعها على مسائل العلين ، ذلك ما سنكشف عنه في القسم الثاني من هذا
 البحث بمشيئة الله تعالى .

هذا وقد لقي كتاب المفتاح - ولا سيما القسم الثالث منه - عناية لم يسبقه
 إليها كتاب من كتب البلاغة ؛ قال ابن خلدون في أثناء حديثه عن علم البيان :
 « ثم لم تزل^(١) مسائل الفن تكمل شيئاً فشيئاً إلى أن منحض السكاكي زبدته ، وهذب
 مسائله ، ورتب أبوابه على نحو ما ذكرناه آنفاً من الترتيب ، وألف كتابه المسمى
 بالمفتاح في النحو والتصريف والبيان^(٢) فجعل هذا الفن من بعض أجزائه وأخذ

[١] مقدمة ابن خلدون ٥٥٢ :

[٢] المراد به ما يشمل المعاني والبيان على بعض الاصطلاحات .

المتأخرون من كتابه ، ولخصوا منه أمهات هي المتداولة لهذا العهد ؛ كما فعله السكاكي في كتاب « التبيين » ، وابن مالك في كتاب « المصباح » ، وجلال الدين القزويني في كتاب « الإيضاح » ، والتلخيص ، وهو أصغر حجماً من الإيضاح ، والعناية به لهذا العهد عند أهل المشرق في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره .

وكما كان السكاكي أول الجناة المسرفين على علم البلاغة بإخضاعه للعلوم العقلية ، فأضاع بهجته ، وأخلق ديباجته ، كان أول الجناة عليه بإلجائه إلى مضايق الاختصار ، ووسمه بميسم التعمية والإلغاز ؛ ذلك أنه عمد إلى القسم الثالث فاختصره في كتاب دعاه « التبيان » ، ففتح بذلك باب الاختصار لمن بعده ؛ كما فتح باب التحشية كما أسلفنا في الكلمة السابقة ، حتى وصلت البلاغة إلى هذا الحد الذي يثير الضحك ، ويبعث على التندر . ومرد ذلك كله إلى من أوردتها تلك الموارد وهو السكاكي .

وإذا كان القسم الثالث قد استنفد هذه الجهود في الاختصار ، فقد استنفد أخرى في نظمه ، وأخرى في شرحه . وقد أحصى صاحب كشف الظنون عدداً وافراً من المؤلفات يمثل هذه الطوائف الثلاث .

وبد : فبالقسم الثالث من المفتاح تنقطع الصلة بين المتقدمين الذين غلبت عليهم الصبغة الأدبية ، وبين المتأخرين الذين غلبت عليهم الصبغة النظرية ، وتمضى البلاغة مثقلة بأعباء المنطق والفلسفة ، والكلام ، وفي ذيلها البديع في طريق الاختصار الخجل الذي لا يشبع نهمة ولا يبل أواماً ولا يربي ذوقاً ، أو في طريق الشرح السخيف ، أو التحشية الرديئة ، أو التقرير الممل ، وما إلى ذلك مما أبعدنا عن موارد الصفو ، وأوردها مواطن السكدر ، وبقي الأمر كذلك منذ أوائل القرن السابع الهجري إلى يومنا هذا ، حتى مرنت الأذهان على العجمة ، وأصبح من آية الخدق والتمهر احراز قصب السبق في تحصيل تلك الطرائق . فإن صاح صائح في رواد هذه الموارد العقيم : أن ارجعوا بالبلاغة إلى عهود الصفو والإشراق ، وجانبوا عهود السكدر والإظلام ؛ حتى تترى أذواقكم وتنضج سلائقكم ، رموه بالافن وحكموا عليه بالزيغ وسلكوه في نظام الملاحدة . نقول ذلك والشواهد على ما نقول ماثلة حاضرة .

موضوع علم الاخلاق

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ منصور رجب
المدرس بكلية أصول الدين

يقول د بارتلى سانهلير ، فى مقدمة كتاب الاخلاق لارسطو طاليس :
« ومن النادر أن يقع إجماع الآراء على طريقة بسط مذهب بعينه ، مهما أجيبت
ومهما بلغت من الحق ، ولكن من الأفعال ما هو مقرر عليه عند جميع الناس ،
وبين أن هذا الإقرار العام سببه أن هذه الأفعال تابعة لمبادئ مسلمة عند الجميع ،
وتقع على مقتضاها من حيث لا يشعر الفاعل لها فى أغلب الأحيان .

« فالبحت عن هذه المبادئ وترتيبها واستنباطها ، وتبين كل حقيقتها وكل
أهميتها العملية ، وبيان الواجبات التى توجبها على الإنسان بجميع النتائج التى
تترتب عليها . هذا هو موضوع علم الاخلاق ، انتهى كلامه .
فما هى هذه المبادئ العامة المسلمة عند جميع الناس ، والتى تقع أفعال
الإنسان على مقتضاها ، من حيث لا يشعر الفاعل لها فى غالب الأحيان ، والتى
يدور عليها علم الاخلاق ؟

أهى السنن الكونية الطبيعية : كسنن الجاذبية ، والنور ، والحرارة ؟
كلا ، فهذه السنن الطبيعية ، وإن كانت عامة ثابتة ، ومسلمة عند جميع الناس ،
إلا أنها خارجة عن إرادتنا ، فليس فى وسع إنسان أن يبدل الصيف بالشتاء ،
ولا أن يمنع الشمس من الشروق ، ولا الحديد من أن يتمدد بالحرارة ، ولا أن
يجعل التفاحة حين تنفصل من الشجرة ترتفع إلى أعلى بدل أن تسقط إلى أسفل ،
فما هى إذًا ؟

أهى هذه السنن الاجتماعية التى فرضتها على الدولة لمصلحة المواطنين ، تنظم بها
علاقات الناس المشتركة المتبادلة بينهم فى هذه الحياة ؟

كثلاً . فهذه السنن وإن تعلقت إرادتنا بها ، إلا أنها غير عامة ولا ثابتة ، بل هي تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وهي في بلاد غيرها في الأخرى ، وهي اليوم غيرها بالأمس .

إذاً ، فما هي هذه المبادئ العامة المسلمة عند جميع الناس ، والتي تقع أفعالنا على مقتضاها من حيث لا يشعر الفاعل لها في أغلب الأحيان ؟
هذه المبادئ التي يدور عليها علم الأخلاق هي شريعة الحق والواجب ، وهي شريعة عامة ثابتة صالحة لكل زمان ومكان . فالحق واحد لا يختلف فيه اثنان ، وإن حصل خلاف بين الناس ، فإنما هو خلاف في فهم الحق لا في الحق ذاته ، تبعاً لاختلاف الناس في العقلية والذكاء ، والظروف المحيطة بهم في هذه الحياة ، ومعنى كونها عامة ، أنها موجودة في كل الضمائر ، وإن اختلفت قوة وضعفاً .

ومعنى كونها ثابتة : أنها غير متغيرة ، بل هي صالحة لكل زمان ومكان .
وهذا المبدأ ، أو هذه الشريعة ، أو هذا القانون الأخلاقي ليس من وضعنا بل هو قانون يناجي عقولنا ولكنه ليس إيماناً . ونحن لا نستطيع أن نذكره ، ولا أن نلزمه الصمت ، ولكننا نستطيع أن نخالف نصائحه القوية الحققة ما دامت لنا إرادة حرة . ومن هنا نشأت مسؤولية الإنسان أمام التقدير الصانع لهذا القانون .
ولما كانت اللغة سابقة على علم النحو ، كذلك موضوع علم الأخلاق كان قبل أن يبحث فيه علم الأخلاق ، جاء هذا العلم فاجتهد في استنباط قواعد يهتدى بها الإنسان في أفعاله وأقواله . وأول من حاول ذلك هو سقراط ^(١) الذي يعتبره

[١] ولد سقراط في أثينا حول سنة ٤٧٠ ق م من أب يحترف صناعة الناييل وأم قابلة . احترف حرفة أبيه ، وليث يزاولها حيناً قصيراً قبل إنه صنع خلاله مجموعة ضئيلة من الناييل عرضت فيها بعد في «الأكروبوليس» ، بأثينا ثم ترك هذه المهنة وتخصص للفلسفة التي اعتبرها رسالته في الحياة وكان يعيش في أثينا ، وليث فيها ولم يفادها قط إلا حين اضطرته ظروف الحياة أن ينخرط في سلك الجيش ، وظل مشتغلاً بالفلسفة حتى أنهم في سن السبعين بانسكار آلهة اليونان والدعوة إلى آلهة جديدة وأنه يفسد عقول الشباب لحكم عليه بالإعدام فأعدم . وكان يعلن أنه لا يعرف شيئاً . وليس حكماً ولكنه فيلسوف يحب للحكمة ، وكثيراً ما كان يقول : «أنا أعرف شيئاً واحداً وهو أنني لا أعرف شيئاً» .

الجميع واضح علم الاخلاق ، فحاول أن يكشف لجيله ما حاول جميع الاخلاقيين من بعده أن يكشفوه لأجيالهم ، أعنى : المبادئ الخلقية العامة المسلم بصحتها .

فعلم الاخلاق إذاً يوضح لنا الحياة الاخلاقية التي تحياها الروح في عالمها . ولقد وصف أفلاطون حياة الروح في جهادها قال : « فلنتصور أن كل واحد منا هو ما كينة حية خارجة من يد الآلهة ، فالشهوات التي نحسها هي كأنها حبال أو خيوط يجذبنا كل إلى ناحيته ، وبتعاكس حركاتها تجذبنا الى أعمال متضادة .

وهذا هو ما يقرر الفرق بين الفضيلة والذيلة . ولكن الحس السليم يدلنا على أن واجبتنا ألا نطاول إلا أحد هذه الخيوط وتتبع اتجاهه ونقاوم شديدا كل ما عده من الخيوط الأخرى ، ذلك هو خيط الذهب المقدس : ضبط العقل الذى هو القانون العام للبالك وللأشخاص . ينبغى أن يكون الحكم للعقل مادام أنه هو محل الحكمة ، وأنه مكاف بأن يسهر على النفس بتمامها . ولا ينبغى البتة أن يصغى المرء فى نفسه إلا إلى صوت العقل ، لأن صوت العقل المستقيم إنما هو صوت الله يخاطب أنفسنا .

ولأن يعتقد المرء أن النفس تسمى بالمعارف ، أو بالثروة ، أو بالجاء والسلطان ذلك ليس إلا نقصا فيما يجب من تشريف ما فى نفسه من الجهة القدسية ، وتفريطا منه فى إكرام نفسه . فإن إكرامها الحقيقي ينحصر فى الدأب على تنمية الفضيلة فيها ، وحمايتها من الكبرياء واللذات ، ومن الترف الذى يجعلها تجن عن احتمال المشقات الضرورية ، ومن الجزع حتى عند لقاء الموت بل حمايتها أيضا من جواذب الجليل ؛ فإن الجليل لا ينبغى أن يؤثر على الخير ، بل يلزم أن يقال : إن كل ما على سطح الأرض وما فى باطنها من ذهب لا يستحق أن يوازن بالفضيلة ، وإن المرء إذا لم يقصر تشبثه على الخير وحده بكل قواه ، كان موردا نفسه ذلك الكائن القدسى موارد العار والاحتقار .

وحيث إن الحياة الاخلاقية تنحصر فى الدأب على تنمية الفضيلة ، وإن الانسان يستطيع أن يخالف أوامر العقل المستقيم ما دامت له إرادة حرة ، فموضوع علم الاخلاق إذاً هو أفعال الانسان الإرادية أو الأفعال التى لم تتعلق بإرادة الانسان بها ، ولكنها نشأت عن سوء التقدير كمن يحفر حفرة فى الطريق وينسى أن يضع عليها علامة تحذر الناس من الخطر ، فإنه مسئول عما ينجم عنها من أذى . يبحث

علم الأخلاق في هذه الأعمال وما يتصل ويرتب عليها من ثواب أو عقاب، فأعمال الإنسان كلها، عمومية كانت أو خصوصية تدخل في دائرة علم الأخلاق مادامت له إرادة حرة ولم يسمى التقدير في شيء؛ ولهذا لا يسأل الإنسان عن جماله أو بشاعته أو ذكائه أو غباوته؛ كما لا يسأل عن فعل ليس له فيه اختيار ومن هنا نفهم الحكمة في أن الشريعة الإسلامية لا تسأل الصبي غير المميز ولا المجنون لرفع التكليف عنهما « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » .

وإذا كان علم الأخلاق يتخذ لنفسه موضوعا هو أعمال الإنسان الإرادية وما يتصل بها، لا الأعمال التي لم تتعلق لإرادة الإنسان بها ولكنها نشأت من سوء التقدير، فهل يتخذ لنفسه أيضا من موضوعاته وساوس النفس على معنى أن الإنسان إذا وقع في نفسه شيء ولم تعمل به جوارحه فهل يحاسب عليه أو لا ؟

اتفق العلماء على أن الأمور التي تخطر بالبال مما يكرهها الإنسان ولا يمكنه إزالتها عن النفس لا يؤخذ بها، لأنها تجري مجرى تكليف ما لا يطاق . وأما الخواطر التي يوطن الإنسان نفسه عليها، ويعزم على إدخالها في الوجود فقد قيل : إنه يؤخذ بها لقوله تعالى : « ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم » ، وكما يؤاخذ باعتقاد الكفر والبدع وأنه من أفعال القلوب . وقيل : إن كل ما كان في القلب مما لا يدخل في العمل فإنه محل العفو ، لما روى أنه صلوات الله عليه قال بعد نزول قوله : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » : إن الله تجاوز لأمتي ما حدثوا به أنفسهم ما لم يعملوا أو يتكلموا .

نعم ظاهر قول الكتاب العزيز : « وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » ، ظاهره يدل على أن الإنسان يسأل عما يقع في نفسه ولم تعمل به جوارحه . ومن يرى هذا الظاهر يقول : بأن هذه الآية قد نسخت بقوله : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » ، ومن لا يراه يفسر الإبداء بإظهار العمل ، والإخفاء بعمله خفية ، وعلى ذلك فلا حاجة إلى القول بالنسخ .

« وبعد » ، فيرى بعض علماء الأخلاق أن سرعة أهل هذا العصر في هدم الأخلاق أكبر من سرعتهم في تحصيلها ، وإذا كان الأمر كذلك فأنجع دواء لذلك هو ضبط النفس ، فضبط النفس معناه ثبات الأخلاق وتمسكها .

هَيَّا لِسَالِمٍ فِي السَّوَالِحِ

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم أبو سعيد

عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها ما يدعوه إلى
نكاحها فليفعل . قال جابر : نخطبت جارية فكنت أنجباً لها ، حتى
رأيت منها ما دعاني إلى نكاحها فتزوجتها . رواه أحمد وأبو داود .

عم البلاد شر مستطير ، وداء خطير تفشى بيننا ، وملا السهل والحزن ، حتى
شمل الناس جميعاً إلا من عصم الله ، فلا تكاد تجد مكاناً بمنأى عن هذا الوباء ،
ولا بلداً بنجوة منه ؛ ذلك ما يدعونه ، بالخاطبة ، وهى امرأة اتخذت لها من
الترويح لمن يريد الزواج مهنة ، ومن الجمع بين الشبان والشابات باسم الخطبة حرفة ،
نظير أجر معين من الطرفين ، وما يغدقانه عليها من هدايا وتحف ، مع أنه كان
جديراً ألا يوثق بما تبسديه من خبر ، ولا بما تدعيه من معرفة ، وما تخترعه من
أوصاف ، وما تحميكه من أباطيل ، فإنها لا ترعى في ذلك مصلحة حققة ، ولا ترقب
ضميراً ، ولا يهمها غير ما تدره عليها هذه الحرفة من ربح ، أو ما تجنيه من
ورائها من أجر .

فكل فتاة عندها كريمة المحتد ، سليمة المنجد ، ربيبة الشرف ، عنها يؤخذ الخلق
الكريم ، والادب القويم ، وعندها تغض العيون ، وتخشع الابصار لإجلالها
وهيبة ، بل إن اللسان ليعجز عن أن يعبر عما حوته من جمال ، وما اشتملت عليه
من محاسن الشيم ، وجميل الصفات ؛ وكل فتى عندها إليه تنتهى المروءة والكرم ،
والشجاعة والعزة والرجولة والشهامة ، والإباءة والشعم ، وإنه ليحمل أخلاق

الملائكة ، وطهارة القديسين ، وإنه لصفوة الخاق ونادرة الفلك ، هذا حديثها لكل خاطب وخاطبة ، وما صدقت في الأولى ، ولقد كذبت في الثانية .

فإذا وقعت الواقعة ، وتكشف الأمر أو الخطب ، وبدت الحقيقة لذى عينين واضحة جليلة ، لا زيف عليها ولا غبار حولها من زخرف القول ونسج الخيال ، هنا يستبين كذب ما اختلقته من صفات ، وما اخترعته من نعوت وميزات ، وما وقر في الاسماع من الآمانى العذاب ، وما استقر في الافئدة والقلوب من حلول الآمال ومعسول الأحلام .

هذه الخاطبة التى لا خلاق يزجرها ، ولا دين يردعها ، إنما تغرر بشبابنا وتلحق أشد الضرر بفتياتنا ، وتمهد بذلك لبناء أسرة تموت في مهدها ، وتحفر بيدها قبرها ، وتبنى لحدوها ، مخلفة وراءها المشاكل والإحن والضغائن والاحقاد ، تاركة ثمرة هذا الزواج تعج بهم الشوارع والطرق حنفاة عراة ، يتداخلون كخراف القطيع إذا عصفت بها الريح أو قسى البرد .

وكثيرا ما تتخذ من بيتها مكان لقاء ، وعش غرام ووكر هيام ومهد فتنة ؛ حيث يلتقى الخطبان ، ويتردد المحبان ، وتتناجى ظامئة وعطشان : كريمة العنصر وابن المجد المؤئل ، وعندئذ كم تقع من مآسى وتحدث من فواجع تفضح الاسر ، وتهتك الاعراض ، وتمزق الحرمان .

إن الويل أشنع الويل لمن يسمح لمثل هذه المحترفة أن تدخل بيته ؛ فإنها هادمته لا محالة بما تشيعه فيه من فساد ، وما تجره عليه من أحداث ونكبات ، وها نحن أولاء نرى أنه ما من زواج تم على هذه الطريقة إلا وكانت نهايته المحتومة الطلاق أو الفراق ؛ ذلك أنه لم يقم على أسس سليمة ، ومعرفة تامة ووفاق ووئام ، وتسكافى بين الزوجين من الناحية الخلقية والاجتماعية والمادية والمعنوية .

وهكذا كل بناء يقوم على غير ما شرع الله ، فإن مآله الزوال السريع ، والبوار ولو بعد حين ، وإنما بهذا لا تمىء إلى الزوجين خصب ، وإنما تمىء إلى الالامة كافة وتهدم بناءها ، وتشر نظامها ، وتشر فيها أقبح الامراض الاجتماعية ،

وأشدها فتسكا ، وأمضها لإيلاها ؛ لأنها من غير شك ولا ريب لا تقترف جنابة ضد فرد أو امرأة ، وإنما تتمع جنابتها على الأمة والوطن ، وما كان أغنانا أن نفع فريسة لامثال هؤلاء المحترفات المضلات ؛ فإن الإسلام دين السماحة والحرية والمرونة ، قد بين السبيل القويم والطريق المستقيم ، وما فرط في شيء ، ولا أغفل أمرا ، فإنه إذ يحجز لك أن تبعث من تثق بخبرها ، ليستطلع ما هنالك بما لم تكن تعلمه ، وما قد تكون عليه المخطوبة من جمال أو دمامة أو نحو ذلك ؛ روى أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث أم سليم إلى امرأة فقال : أنظري إلى عرقوبها وشئ معافطها^(١) — وفي رواية — وشئ عوارضها — يبيح أن يرى الخاطب من ألقى الله في قلبه أن يخطبها ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه رجل فأخبره أنه تزوج امرأة من الانصار . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنظرت إليها ؟ قال : لا ، قال : فاذهب فانظر إليها فإن في عين الانصار شيئا^(٢) ؛ أخرجه مسلم في صحيحه .

وروى عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أنه خطب امرأة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أنظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما^(٣) . رواه الخمسة إلا أبا داود .

وروى عن موسى بن عبد الله عن أبي حميد أو حميدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا خطب أحدكم امرأة فلا جناح عليه أن ينظر منها ، إذا كان إنما ينظر إليها لخطبة ، وإن كانت لا تعلم .

فقد دلت هذه الآثار دلالة واضحة على أنه يندب تقديم النظر إلى من يريد الإنسان نكاحها وهو قول جماهير العلماء ، والمفهوم أن النظر إليها إنما يكون بحضور محرم منها ، وإلا فالخلوة بالأجنبية محظورة ومحرمه ، كما أن النظر إليها محظور كذلك إلا في مثل هذه الحالة ؛ لما ورد فيها مما ذكرناه من أحاديث .

(١) المعافط ناحيتا العنق ، والعوارض الأسنان التي في عرض القم وهي ما بين الثنايية والأضراس واحدها عارض والمراد اختبار رائحة التسكك .

(٢) قيل عشم وقيل صغر .

(٣) أي تحصل الموافقة والملازمة بينكما .

والقدر الذي ينظر إليه الوجه والكفان؛ لأنه برؤية الوجه يستدل على الجمال أو ضده ، وباليدين على خصوبة البدن أو عدمها . وقال الأوزاعي : ينظر إلى مواضع اللحم . والحديث مطلق فينظر إلى ما يحصل له المقصود بالنظر إليه ، ويدل على فهم الصحابة لذلك ما رواه عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور : أن عمر خطب إلى علي ابنته أم كلثوم فذكر له صغرها فقال : أبعث بها إليك فإن رضيت فهي امرأتك فأرسل بها إليه ، فكشف عن ساقها ، فقالت : « لولا إنك أمير المؤمنين لصككت عينك »^(١) .

ولا يشترط رضا المرأة بذلك النظر ، بل له أن يفعل ذلك على غفلة منها كما فعله جابر ، فكنت أتخبأ لها حتى رأيت منها ما دعاني إلى نكاحها فتزوجتها ، قال أصحاب الشافعي : ينبغي أن يكون نظره إليها قبل الخطبة حتى إن كرهها تركها من غير إيذاء بخلافه بعد الخطبة ، ويثبت مثل هذا الحكم للمرأة فإن لها أن تنظر إلى خاطبها ؛ فإنه يعجبها منه ما يعجبه منها .

هذا هو موقف الإسلام من هذه المسألة الشائكة ، وتلك تعاليم الرشيدة ، وسفنه الواضحة ترسم السبل الصحيحة لاختيار الزوجة التي تتناسب مع الزوج من شتى نواحيها ، ثم تمنح هذا الحق نفسه للزوجة حتى تقوم الحياة بينهما على أتم وفاق وأهدى سبيل لا إفراط ولا تفريط ؛ فهو يشخص الداء ويمنع الدواء ، أما ما نحن عليه اليوم ، أو ما عليه أغلب الناس من ترك الأمر في مثل هذه المسألة الخطيرة إلى رأى امرأة تاجرة ، أو لعلها فاجرة ، أو أن يترك الشاب والشابة يذهبان أنى يشاءان بحجة الخطبة والاختيار — فهو عبث واضطراب وإتباع لخطوات الشيطان وإغصاب لله وخروج على سنة رسول الله ، هذا هو الهدى ، وماذا بعد الهدى غير الضلال .

نير اورشليم *

للأستاذ تاذ عمر طلعت زهران
أستاذ في الآداب والصحافة

تعاني مدينة القدس الآن أزمة حادة ؛ إذ يحاول اليهود اغتصابها من العرب لتكون عاصمة لدولتهم الزائلة ، وسبق لهم أن سلطوا عليها مدافعهم ونيرانهم ، فأصلوها من عدوانهم ألواناً ، وليست هذه هي المرة الأولى في التاريخ ، فان القدس [أو اورشليم] طالما قاست من نير تعصبهم . وهذه صورة قديمة أهديها لجيشنا الباسل

نحن الآن في العام السادس والستين الميلادي ، وقد انقضى على رفع المسيح عيسى بن مريم — عليه السلام — حوالي ست وثلاثون عاماً ، قد تنقص قليلاً أو تزيد قليلاً ، ومسرح الحوادث هي أرض فلسطين ، تلك الأرض الدائمة التي شهدت منذ فجر التاريخ أروع الحوادث وأمرها ، وأملها دماً ، وأكثرها قسوة ، ومكاننا بالتحديد هو اورشليم أو بيت المقدس .

كان الرومان — إذ ذاك — هم سادة العالم ، وهم بالتالي سادة بلاد الشام وحكامها ، وكان سكان فلسطين من اليهود — وهم قوم متعصبون لا يقبلون نظاماً — قد ثاروا في اورشليم وأخرجوا منها حاميتها الرومانية المكونة من الفتيق العاشر ، ورجاله من مضايق صقلية ، امتازوا بالشجاعة وعرفوا بالجسارة . ورأى الإمبراطور أن يلحق هؤلاء الحقى درساً يرد إليهم عقولهم ، ويكون عبرة لغيرهم من المحكومين ، فجهاز جيشاً أُمّر عليه فسباشيان [ومعه ابنه طيطس] ، فأنحدر على فلسطين كالسيل العرم ، يقود جيشاً من أقوى الجيوش التي أعدها الرومان .

(٥) عن هـ . فـ ٠ مورتون : خطي المسيح : الطبعة الثالثة عشر — نيويورك ١٩٤٥ ؛ من ص ٢٤ — ٣٨ ، الفصل السادس من الباب الأول .

وكانت أول معركة خاضها عند «الجليل» ، التي تطل على بحيرة ساحرة المنظر ، فأحال مياهها الزرقاء الصافية ، حراء قانية من كثرة ما سكب فيها من دماء اليهود ، الذين ترددت صيحاتهم وأناتهم على سفوح التلال وهم يولون الأدبار ، أو يسقطون صرعى الحراب وقتلى السيوف ، على هذه السفوح التي طالما استمعت إلى خطب المسيح وأقواله . وأمر الرومان من اليهود ستة آلاف من خيرة شبابهم أرسلوهم عبيدا جثيا تحت أقدام قيصر .

وتطورت الحوادث — آتئذ — في روما نفسها ، فقتل الإمبراطور ريفرون ، واثنان غيره ، ثم نودى بقائدنا فسباشيان إمبراطورا في قيصرية ، فترك فلسطين متجها نحو روما ، تاركا وراءه ابنة طيطس ليضطلع بمهمة إخضاع اليهود وإذلالهم .

كان طيطس في الثلاثين من عمره حينما وقف - سنة سبعين ميلادية - أمام أسوار اورشليم على رأس جيش يتراوح عدده بين ستين وثمانين ألفا من الجنود الأشداء ، وبدأت المدينة تقاسى أهوال الحصار ، وتعانى في الوقت ذاته هولا أكبر ، هو هول الحرب الأهلية ؛ فقد احتل المتعصبون والمتطرفون ورجال العصابات من اليهود بعض أحياء المدينة ، وأخذوا يشنون هجمات وحشية على أحيائها الأخرى ، حتى جرت الدماء في الطرقات ، ولم يكن في المدينة غير اليهود ، فإن المسيحيين ، وقد علموا بنبوءة نبيهم قبل أربعين عاما هجروا اورشليم ، إلى إحدى ضواحي «الجليل» ، كانت تدعى «بيلا» ، وهي الآن «خربة الفحل» .

وصمد اليهود للحصار ، ورفضوا الإذعان ، تحت إرهاب المتعصبين منهم ، وسرت المجاعة فيهم سريان النار في الهشيم ، فقامسوا منها أهوالا ، وأخذوا يقذفون بالمئات ممن ماتوا جوعا من فوق أسوار المدينة حتى ملئوا ، فكسدوا الجثث في القاعات وداخل المنازل الكبيرة ، وتسمل كثيرون خلال الأسوار في ظلام الليل ، فكان الرومان يصلبونهم ، بمعدل خمسمائة شخص في اليوم حتى ندرت الأخشاب ، وبدأت التلال موحشة من منظر الصليبان الخشبية المحملة بالجثث .

وأنمر الجوع في القدس ، فكان اليهود يخرجون ، متسللين على أيديهم وأرجلهم كالأشباح الذابلة ، تسبقهم الشائعات بأنهم ابتلعوا ذهبهم في بطونهم —

وكانما ابتلعوا لعنة وعذابا — فكان الجنود يترهبون لهم ، ويتصيدونهم في الظلام يشقون بطونهم ابتغاء الذهب ، فقتلوا في ليلة واحدة ، بهذه الطريقة البشعة ألفين ، وهال الامر القائد - فقضى بالموت على كل من تثبت أدانته بمثل هذه الجريمة ، وعلى الرغم من ذلك ، ظل الجنود يمارسون هذه الهواية بحثاً عن الذهب في أحشاء اليهود .

وتغيرت معالم المكان وتبدلت ، حتى كتب « جوزيفوس » - المؤرخ اليهودي المعروف - وكان أسيرا لدى الرومان ، يقول « لم يكن أى أجنبي ممن - رأوا يهودية أو غيرها من ضواحي المدينة الجميلة الرائعة - لم يكن يستطيع إلا أن ينوح ويبكى حزنا لما أصابها من تغيير . فإن الحرب قد أزالته كل معالم الجمال وأحالتها صعيدا زلقا ، بل إن أى فرد رأى المكان من قبل ، لم يكن ليعرفه الآن بعد ما حل به من أمر . »

وبلغ الجوع بالسكان ذروته ، فصار الاب يختطف طعام أطفاله ، وسارت امرأة تملك مليوناً من الدينارات تلتقط حبات القمح المتناثرة في الطرق . وتخاصم الأصدقاء متقاتلين على ما قد يوجد من فئات ، وأخذ الناس يجمعون أى شيء - أى شيء يمدونه - فيمضغونه ، إسكاتا لصراخ لمعائهم .

ويروى « جوزيفوس » قصة مريضة عن أم ذبحت وليدها ثم جعلت من لحمه شواء أكلت نصفه ، وخبأت النصف الآخر ، ولما أتى الدهماء على رائحة الشواء ، علموا بحقيقة الامر ، خرجوا مسرعين ترتعد أطرافهم هلعاً وجزعاً من ذلك الهول الشديد .

واستنفذ طيطس جميع حيله ليحمل اليهود على التسليم ، فقد ركبوا رموسهم ، ولم يزددهم الجوع والحرمان والفوضى إلا عنادا ، أرسل اليهم رسله يطلبون إليهم الإذعان فأبوا ، فجمع القمح وأنواع الطعام ، ووضعها على مرأى منهم ، لمعانا في تعذيبهم النفسى ، ثم أجرى عرضا لجيشه ، وقد ارتدى الجنود أغتر الحلل وأزهى الثياب ، وحملوا على سواعدهم القوية خير أسلحتهم ، وارتقى اليهود أسوار المدينة يشاهدون العرض في خوف ورعب ، ولكنهم لم يذعنوا ، ولم ير طيطس بدا من أن يستأنف هجومه .

وشق الرومان بخيلهم ورجلهم الطريق فاحتلوا قلعة « أنطونيا » ، وكانت تقع بجانب القاعة التي سلم فيها « بيلاطس » المسيح إلى قضاته .

ثم تابع الرومان هجومهم ، ودار القتال حول المعبد ، وتساقط اليهود قتلى ، ولكنهم لم ينضوا السلاح إيماناً منهم بأن جيهوفا « الله » سيأتى لنجدتهم إنقاذاً لمعبده من الدمار . وتقدم الرومان خطوة بخطوة فوق جثث اليهود ، حتى دخلوا قدس الاقداس فى المعبد ، وحمل الغضب وحمسى القتال أحد الجنود الرومان فأخذ مشعلاً وقذف به لإحدى النوافذ المذهبة فى ذلك المعبد ، الذى كان آية فى الفن ، وأحد عجائب العالم ، فسرت النيران تندلع بقوة .

وحاول القائد أن يمنع ما حدث ، ولكن عنف المعركة ، وشهوة القتل التى تملككت الجنود — يدفعهم كرههم لليهود ، ويحدوهم جهم لنهب وسلب الأموال والكنوز — جعلتهم يندفعون ، فإذا ما أتى طيطس بأمر أو يحاول وقف مسرى النيران — وهو يقف ملتحاً متحسراً ، إذ يرى المعبد العجيب الصنع ، طعمة سائغة للنيران — لم يجد أذناً تسمع .

ووقع نصف المدينة فى أيدي الرومان ، بينما تصاعدت ألسنة اللهب وأعمدة الدخان من المعبد ، وتراجع المتعصبون من اليهود ييغون استئناف القتال ، فوقف القائد الرومانى يحاول ثنيهم ، واعدأ بمنحهم الحياة . واليهود هم اليهود ، وأوها فرصة سانحة للمساومة ، فساوموا ، حتى ضاق الصدر ونفذ الصبر ، فأصدر القائد أمره للجنود أن : احرقوا وانهبوا واقتلوا ، فأموال اليهود ودماؤهم وأعراضهم حلال لكم . وقذف المنجنيق بأحجاره ولهبه ، وتطايرت السهام تصيب الصدور ، وسددت الرماح إلى النحور وأعملت السيوف فى الرقاب .

وأمن الجنود فى القتل حتى ضاقت بالقتل نفوسهم ، وجمعوا من الغنائم ما بشمت به أطباعهم ، وامتلات أرض المدينة المقدسة بجثث القتلى وأشلأهم ، وتصاعد الدخان من كل مكان ، ودكت المدينة دكا ، حتى سويت بالأرض هدماً وتخريباً ، وتحققت نبوءة عيسى بن مريم حين قال : « ستلقى هذه الأرض بؤساً وعنتاً ، وسيعمل الغضب على أهلها ... سيسقطون صرعى على حدة السيوف ، ويسيرون عبيداً إلى كل مصر ، وستطأ أورشليم الاقدام » .

مذهب الصِّرفَةِ

لفضيلة الأستاذ الشيخ علي محمد حسن العماري
مبعوث الأزهر في السودان

هذا المذهب ينسب الى الشيخ ابراهيم بن سيار النظام العالم المعتزلى الكبير ، فلا نجد كتاباً من الكتب يذكر هذا المذهب وينسبه إلا نسبه للنظام ، على أنه أول من قال به ، وناضل دونه ، بل إن الخاطر لينصرف عند ذكر هذا المذهب الى النِّظام ، بل كلما ذكر النظام ورد عليه مذهب الصرفة ، فيكاد يكون رأى النظام وحده ، بل يكاد يكون أظهر آراء النظام .

ولكن هل كان ابراهيم أول من قال بهذا المذهب ؟ إن المذهب على ما فهمه العلماء ، وهو أنه يتضمن أن العرب قادرون على الإتيان بثبوت القرآن فصاحة وبلاغة ونظماً ، ليس من ابتداع النظام ، ولا هو أبو عذره ، وإنما جرى الكلام بهذا على ألسنة قوم قبله ، ومن أشهرهم عيسى بن صبيح المزدار ، الذى يرجع إليه الفضل فى انتشار الاعتزال ببغداد بشخصيته الزاهدة ، وبقوة لسانه ، وفصاحته ، وقدرته على الوعظ ، وحسن القصص ، وبلهونه (راهب المعتزلة) فهو يقول هذه المقالة (١) ويبعد أن يكون نفي الإعجاز عن القرآن ، كما يقول الكاتب الكبير المرحوم صادق الرافعى ، وإنما المستساغ ، والذى يقبله العقل ، وتميل إليه النفس ما يقوله الأستاذ أحمد أمين (٢) ولعله كان يرى كبعض المعتزلة أن الإعجاز أتى من ناحية معانيه الدينية ، وإخباره بالمخبيات) .

ومن الظلم البالغ أن ننسب إلى واحد من هؤلاء المتكلمين المخلصين فى الدفاع عن القرآن ، أنه لا يقول بإعجازه ، ولو أنه قال ما دخل فى حسابنا ، ولا حساب أحد ممن عاصروه ، خصوصاً أنه لم ينقل أحد عن المزدار أنه كان نفي الإعجاز عن

القرآن ، أما ما يقوله الشهرستاني عن زاهد المعتزلة وراهمهم من أنه كان كثير التكفير للناس ، ويوافقه عليه الاستاذان الرافعي وأمين . فأظن المبالغة فيه واضحة ، بل إنها مبالغة أقرب إلى الفكاهة منها بالجد الصراح ، وحسبنا هذه القصة التي ذكرها الشهرستاني من أنه كان يمعن في تكفير الناس (حتى سأله إبراهيم بن السند مرة عن أهل الأرض جميعاً فأكفرهم ، فقال له إبراهيم : الجنة التي عرضها السموات والأرض لا يدخلها إلا أنت وثلاثة من أصحابك) .

وما أشك في أن هذه الحكاية من تشنيعات خصوم المعتزلة عليهم ، وكلم لهم من تشنيعات — كما سنذكره قريباً — . ومن قال بأن الناس قادرون على مثل القرآن (الجعد بن درهم) مؤدب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، بل قال إنهم قادرون على أحسن منه ، وهذا رجل ساقط من الحساب ، فليس النظام — إذن — أول قائل بهذا الرأي فلم يختص به ؟ يقول الرافعي : غير أن النظام هو الذي بالغ في القول بالصرفة حتى عرفت به ، .

وهو تعليل مقبول لو كان له ما يدعمه ، فأما لم نقرأ للنظام دفاعاً عن هذا المذهب ، بل نقل المذهب غامضاً ، مما حمل بعض علماء القرن السابع الهجري (هو على ابن حمزة صاحب كتاب الطراز) أن يقول : إن المذهب يحتمل أكثر من تفسير لما فيه من الإجمال والغموض .

ولما كانت الكتب التي طالعناها لا تكفي في الجزم بخلو مطبوعاتنا من رأى النظام مفصلاً ، فقد رجعت إلى كتاب (إبراهيم بين سيار النظام) للدكتور عبد الهادي أبو ريذة ، وفتشت فيه لعل أجده أطلع على شيء يتعلق بهذا المذهب أكثر مما رأيته فيما بين يدي من كتب مشهورة ، فلم أجده ظفر بشيء ، بل صرح بأن آراء النظام ، بل وآراء المعتزلة جملة أخذت من كتب خصومهم ، ولا يوجد للمعتزلة كتب فيها تدرين مذاهبهم ، والاحتجاج لها ، فرجعت مؤمناً بأن احتجاج النظام لهذا المذهب لم ينقل منه شيء ، بل ذهب كل قول له فيه كما ذهب كثير من آراء المعتزلة واحتجاجاتهم ، ولولا أني رأيت الجاحظ يعرض لهذا المذهب في كتاب الحيوان لكان لي مندوحة في الشك والتردد الكثير في نسبة المذهب للنظام . وهنا مسائل لا بد من الحديث عنها :

(أولاً) أن النظام كان باتفاق القدامى والمحدثين ، الأصدقاء والأعداء . قوى الحجّة ، فصيح اللسان ، ناصع البيان ، واسع الثقافة ، يقول الجاحظ : « يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظير له ، فإن كان ذلك صحيحاً فهو أبو إسحق النظام » . ويقول : « لولا مكان المتكلمين لهلك العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلك العوام من جميع النحل ، فإن لم أقل وأصحاب إبراهيم وإبراهيم لهلك العوام من المعتزلة فيأني أقول إنه قد أنهج لهم سبلاً ، وفق لهم أموراً ، واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة ، وشملتهم بها النعمة » ، ويقول أبو الحسين الخياط عن دين النظام ودفاعه عن الدين : « إن إبراهيم وأشباهه حاطوا التوحيد ونصروه ، وذبوا عنه ، وشغلوا أنفسهم بجوابات الملحدّين ، ووضع السكتب عليهم ، إذ شغل أهل الدنيا بلذاتها ، وجمع حطامها » .

ويحكى عن النظام أنه قال عند احتضاره ، ما يصرح بأنه يتبرأ من كل دين غير دين التوحيد ، وأنه ما اعتقد مذهباً إلا بعد ما اعتقد أن فيه رضا الله ، ثم يعقب الخياط على القصة بقوله « وهذه هي سبيل أهل الخوف لله ، والمعرفة به ، والله تعالى شاكر لهم ذلك » .

وقد يقال إن كلام الجاحظ من قبيل امتداح التليذ لاستاذه ، وكلام الخياط من باب حب المعتزلى للمعتزلى ، وهو حب كان يضرب به المثل قديماً ، ومع أننا نربأ بالجاحظ أن يحمله الاحترام لاستاذه على هذه الشهادة - وأمثالها كثير في كتبه - وبالخياط أن يعميه التعصب المذهبي إلى هذا الحد ، تنقل شهادات أخرى لا سبيل إلى الطعن فيها . فالرافعي الذي ذهب في تنقص مذهب الصرفة مذهباً جعله يقول إنه يشبه قول العرب في القرآن ، إنه سحر ، يقول عن النظام : « حتى جاء رأيه في مذهب الصرفة دون قدره ، بل دون علمه ، بل دون لسانه » .

والاستاذ الكبير أحمد بك أمين ، وهو رجل بعيد عن فتنة الكلام ، وعصية المذهب يقول « كان النظام آية في النبوغ ، حدة ذهن ، وصفاء قريحة ، واستقلال في التفكير ، وسعة اطلاع ، وغوص على المعاني الدقيقة ، وصياغة لها في أحسن لفظ ، وأجمل بيان ، ويقول الدكتور أبو ريدة بعد ما تتبع النظام في كل نواحيه ، ودرسه دراسة وافية عميقة « ولا مرأى في أن النظام كان صاحب الفضل الأكبر

في التغلب على المحنة التي تعرض لها الإسلام في عصره ، حين بدأت الثقافات الأجنبية والمذاهب الدينية ، والفلسفة المخالفة تغزو عقول المسلمين ، وحين بدأت نزعة الموالى الداخلين في الإسلام تلتهمظ في نفوسهم ، فنهض للذب عن الدين ، وكان أحذق من تكلم في عصره ، وأحرز أعظم النجاح فيما نهض له .

وبجانب هذه الأقوال نجد أقوالاً كثيرة أخرى تشهد بكفره وزندقته . وسوء سلوكه ، ومن أجمعها قول ابن حجر : ما في القدرية أجمع منه لأنواع الكفر ، ومع زيفه وضلاله كان أفسق خاق الله ، وهو داء قديم ! .

(ثانيها) أن المعتزلة نكبوا أعظم نكبة حين ضاعت كل مؤلفاتهم ، ومنذ أن دالت دولتهم في القرن الثالث الهجري لم تقم لهم قائمة حتى الآن ، وظلت آراؤهم طوال هذه العصور تلوكها ألسنة خصومهم ، وتتناولها بالتحريف والتبديل والتغيير ، ولا منكر عليهم ، ولا معارض لهم ، ولا مدافع عن نظريات المعتزلة ووجهة أنظارهم ، حتى في عصرنا الحاضر — وإن تحرر فيه الفكر — لا تدرس آراء المعتزلة إلا في كتب ألفها أصحابها للرد على نظرياتهم ، مع الاعتقاد سلفاً بأنها باطلة ؛ والناشئة يدرسونها على هذا الأساس ، ولا تعرف في هذا التاريخ الطويل أحداً استطاع أن يجهر بمذهب الاعتزال إلا ناله الأذى والضرر ، فطبعي أن تتأثر آراء المعتزلة ، وأن تتأثر النقول عنهم بهذه النظرة .

على أن النظام كان نصيبه من هذا أوفى نصيب ، فقد رمى بأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ورُمي بالفسق والزيغ والإلحاد ، ويذكر الخطيب البغدادي في كتابه أصول الدين : أن النظام أعجب بقول البراهمة في إبطال النبوات ، ولكنه خاف السيف فلم يجسر على إظهار ذلك ، فأنكر إعجاز القرآن في نظمه ، وأنكر معجزات النبي من نحو انشقاق القمر ليتوصل بذلك إلى إنكار النبوة .

(ثالثها) أن المعتزلة ابتلوا برجل يقول عنه عبد الرحيم العباسي في كتابه (معاهد التنصيص) نقلاً عن الطبري : إنه كان لا يثبت على مذهب ، ولا يستقر على حال ، حتى إنه صنف لليهود كتاب البصيرة ، رداً على الإسلام ، لأربعمائة درهم أخذها فيما بلغنى من يهود سامرا . فلما قبض المال ، رام نقضها ، حتى أعطوه مائة درهم أخرى ، فأمسك عن النقض . قلت : وما أشبه بهلول مجنون الكوفة ،

فقد كان يغنى بغيراط ويسكت بدائق ، ويقول العباسى أيضاً نقلاً عن البلخى فى كتابه (محاسن خراسان) : لانه كان فى أول أمره حسن السيرة ، حميد المذهب ، كثير الحياء . ثم انسلخ من ذلك كله لأسباب عرضت له ، وكان عليه أكثر من عقله .

ويقول عنه الرافعى : « لانه كان رجلاً غلبت عليه شقوة الكلام فبسط لسانه فى مناقضة الشريعة ، وذهب يزعم ويفترى ، وقد أمعن فى سخفه ، فلا تدرى أجعل إلهه هواه ، أم جعل إلهه فى فيه . » هذا رجل يتاجر بدينه وعقله ، وكان واسع الأفق فى الكذب والاختراع ، وحكاية الخرافات عن أصحاب الفرق ، وهو أبو الحسين أحمد بن يحيى المشهور بابن الراوندى ، وقد رمى المعتزلة منه بداهية دهيام ، فقد كان على مذهبهم ، ثم جفوه وطردوه من مجالسهم ، وقسوا عليه ، فألف كتاباً سماه (فضيحة المعتزلة) وقد انبرى للرد عليه عالم من علمائهم هو أبو الحسين الخياط فألف كتابه (الانتصار) وإنما عنيت هنا بالحديث عن ابن الراوندى لأنه الذى نقل عن النظام قوله بالصرقة ، حكى صاحب الانتصار د وزعم صاحب الكتاب — يريد ابن الراوندى — أن النظام يقول بالصرقة فى إعجاز القرآن ، والذى نفهمه من العبارة أن الخياط ينكر أن يكون النظام قائلًا بهذا المذهب ، فهو يسنده بلفظ (الزعم) ولكن الذى يلفت النظر أن الخياط مر على المسألة مرأً سريعاً ، فلم ينقها ولم يثبتها ويحتج لها ، فبقى فى النفس منها شيء ، وقد حكى الشهرستانى أن ابن الراوندى ينسب للجاحظ قوله فى القرآن : إنه جسم يجوز أن يقلب مرة رجلاً ومرة أثنى .

والرجل وإن كان يبدو فى حكاياته الكذب واخترافاً جلياً ، لكن من يسمع يخل ، وقد صادف كتابه هوغى فى نفوس خصوم المعتزلة فقالوا : رجل منهم يحكى عنهم فهو أهرق الناس بهم ، فلا شك أنه يحكى حقاً ، ويقول صدقاً .

وأعود فأقول إنه لولا ما ذكره الجاحظ من حديث عن هذا المذهب لكان يمكن للباحث أن يؤكد أنه مذهب نسب للنظام ولكن فى كتب خصومه ، على أن الجاحظ ذكره ولم ينسبه لاستاذه ، ولا ذكر له فيه قولاً ، وسننظر فيما كتبه الجاحظ ، وسنعرف منه حقيقة هذا المذهب على ما يراه هو ، ونعرف احتجاجة له فى حديثنا التالى إن شاء الله .

فَعَلِ الْمُؤَلَّفَاتُ الْجَدِيدُ

خلاصة الكلام في أركان الاسلام

هذا الكتاب لحضرة المفضل الاستاذ (على فكرى بك) ، وهو كما يدل عليه اسمه يشتمل على شرح ما أجمل في الحديث الكريم وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، وقد أهداه إلى حضرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهو يقع في ثلاثمائة وست وثمانين صفحة بالقطع الكبير ، مطبوع طبعاً متقناً على ورق صقيل جيد . وقد سلك حضرة المؤلف في شرحه طريقته المحببة ، وهى إيراد كل ركن من الأركان الخمسة وسرد ما ورد فيه من الآيات والأحاديث ، وشرحها شرحاً مستوعباً جميع تفصيلاتها بحيث لا يحتاج القارئ لغيره في تفهمها .

ومما حلّى الكتاب وأجزل فوائده إتيانه بخطب منبرية في المناسبات لكبار الخطباء ، وبيان واف شامل للسفر إلى الحج من أول خروج الحاج من منزله إلى أن يعود إليه ، لم يدع صغيرة ولا كبيرة مما يلزمه من الضرورات ، وما يقتضيه السفر إليه ، من الألب والحاجات ، وما يجب أن يعرفه من الأماكن التى ينزل إليها ، والدعوات التى يدعو بها فى زيارة آثارها مما لا يوجد فى كتاب سواه ، فالخاصل على هذا الكتاب لا يحتاج إلى شئ ؛ مما يلزم الحاج إلى البيت الحرام ، وقبر النبي عليه الصلاة والسلام .

وقد صدرت منه الطبعة الأولى وجدير به أن تصدر منه عشرات الطبعات .

قواعد الإملاء، تجديد وتوضيح

فضيلة الاستاذ الفاضل الشيخ أحمد محمد سلمو المدرس بمعهد دمياط من محبي التجديد، والتجديد أساس التقدم، والباعث على بلوغ الغايات البعيدة في العلوم والصناعات، وما بلغ آباؤنا الأولون ما بلغوه من التقدم السريع، حتى أدهشوا العالم واعتبروا بحق واضعي الاصول الراضخة للبدنية الحاضرة إلا بتحليلهم بروح التجديد، فلم يقفوا منه عند حد. وما انحط مستوى وجودنا المدني إلا لما غلبت علينا روح الوقوف والتعصب لكل قديم. وقد أرسل أستاذنا الشاب بعدة مقترحات إلى مجمع فؤاد الأول للغة العربية وفيها أساليب لتيسير القراءة مشاركة منه في المباراة التي أعلنها المجمع في هذا الشأن. وقد توصل بأسلوبه إلى اختصار مئات القوالب في الطباعة العربية إلى عشرات فقط حتى مع شكل جميع الحروف. مع تجنب الاختلاط والاشتباه في رسم الحروف، وإيضاحها وبيانها بأقرب الطرق وأوجزها.

وقد وفق أيضاً إلى عمل شكل جديد صالح لوضعه فوق الحروف ولوضعه بينها في صلب الكلمة.

ووفق أيضاً إلى طريقة تلغى تعقيد القواعد الإملائية. كل هذا، كما يقول، مع إحكام الصلة إحصائياً تماماً بين القديم والجديد مع الاحتفاظ بميزة الاختصار في الكتابة العربية.

قال الاستاذ المؤلف في آخر رسالته:

« وقد وصلت في بحثي إلى النتائج الآتية: (١) زيادة نوع جديد من الشعر. (٢) تيسير معرفة تصريفات الأبحر في النوع الأول. (٣) قرب الصلة بين الإسم ومسماه. (٤) أبحر النوع الأول أحد عشر لا ستة عشر. (٥) سر الجمال في النظم العربي هو قوانين السكون العامة. »

فنحن ننتظر أن يعلن المجمع اللغوي عن نتيجة المسابقة لنطلع على ما وفق إليه المؤلف وعلى سائر مآذكره بصدد ذلك. وانا لنشجعه على إنماء ملكته التجديدية بنشر كل ما وفق إليه من ذلك، فلان يكون الأزهر مصدر التجديدات فذلك مما يزيد رفعة في نظر المسلمين، ويجعل لرجالهم مكانة ممتازة في قلوب جميع الناطقين بالصاد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِحَادِثُ الْأَسْتَاذِ الْأَكْبَرِ

استقبل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر
والهرفون كوال ، سفير النمسا السابق في الدول الشرقية بمناسبة عودته إلى النمسا
بعد إقامته في الشرق مدة الحرب الأخيرة ، والهرفون كوال من المهتمين بالدراسات
الإسلامية والتاريخية ، وله مؤلفات عن تركيا والشرق ، وهو معروف فوق ذلك
بميوه الشرقية ، وصادق عواطفه نحو الشعوب الإسلامية ؛ عرف وعاشر كثيرا
من رجالها ؛ بل إن له في مصر صهرا ونسبا .

وقد دار بينه وبين الأستاذ الأكبر حديث طويل ، شمل بعض ذكرياته
القديمة أثناء عمله السياسي في بلاده وفي البلاد الشرقية التي مثل فيها حكومته ،
وقد سأل الأستاذ الأكبر سعادة السفير عن حال المسلمين في النمسا ، ومركزهم
الاجتماعي وعلاقتهم بالحكومة والمواطنين . فقال : إن مركز المسلمين في النمسا مركز
ممتاز ، وهم موضع احترام الحكومة والشعب ، وهم متمتعون بحرياتهم في جميع نواحي
الحياة ، ويتولون كل مناصب الحكومة بلا تفرق بينهم وبين المواطنين ، وإنه قد
بذل جهودا كثيرة لمساعدتهم إبان عمله في النمسا ؛ فحصل من حكومته على وعد
ببناء مسجد ، وكادت الفكرة تتحقق لولا أن حالت دونها ظروف الحرب .

فرجا الأستاذ الأكبر سعادة الوزير أن يعمل على إحياء هذه الفكرة حين
عودته . وسأله عن نظام الجامعات في النمسا ؛ فأنبأه الوزير أن من بين الكليات
واحدة لأصول الدين ، وأنه يتمنى أن تنصلح الأمور فتحل الدراسات الإسلامية
مكانها بين هذه الكليات . وأوضح الوزير رغبته الصادقة في أن يكون لشيخ
الإسلام ولجامعته العظيمة أكبر الأثر في درء الخطر الشيوعي عن شعوب

الإسلام . فأجابه الأستاذ الأكبر : إن تعاليم الإسلام تجعل شعوبه أبعد ما تكون عن ذلك الخطر الهدام ، فبإدعى الإسلام أقوى درع لأصحابه من ذلك الشر ؛ إذ أن نظام الزكاة في الإسلام قد ضمن التكافل الاجتماعي للمسلمين ، بما فرضه للفقراء والمحتاجين من نصيب في أموال الأغنياء . وأكد الأستاذ الأكبر أن علماء المسلمين يعملون دائبين على غرس المبادئ الإسلامية في قلوب الشعوب الإسلامية ، ويقومون على رعايتها وتنفيذها ؛ وبذلك يحمون البلاد الإسلامية والعربية عن ذلك الخطر الهدام .

وألمح الوزير إلى - وادئ فلسطين التي يرى بين طياتها خطر البلاشفة وسماسرتهم من اليهود ، وأنه يتمنى أن يبق الله الشرق العربي كله عواقب هذه الفتنة . فطمأنه فضيلة الأستاذ الأكبر بما وعد الله عباده من تعذيب اليهود ، وتشريدكم في أنحاء الأرض . وأنه يحمد الله الكريم الذي جعل زمام مصر زعيمة الشرق ومركز الثقافة الإسلامية إلى ملك مؤمن بعدالة قضية الإسلام والشرق ، حريص على توجيه الشعب إلى أهداف خيره وخير الإنسانية جميعاً ، ومن كمال إنسانية الفاروق وبره اهتمامه العظيم بتعليم الطلاب ، من جميع شعوب الإسلام في الجامعة الأزهرية ، يتفق عليهم من ماله الخاص ، ويرعاهم بعنايته السامية .

فقال سعادة الوزير : إنه يرغب مصر وبقية الشعوب الإسلامية على حظها في رعاية الفاروق العظيم بقضاياها ، ويتمنى للعرب النجاح والتوفيق في جهادهم ضد الصهيونية .

فشكر له الأستاذ الأكبر هذه التمنيات قائلاً : إن الله معنا ، وقد وعدنا في كتابه العزيز بالنصر ؛ إذ قال تعالى في وصف اليهود : « كلها أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله ، ويسعون في الأرض فساداً ، والله لا يحب المفسدين » .

واستأذن السفير من الأستاذ الأكبر في زيارة الجامع الأزهر والمكتبة ، فأذن له وودعه شاكرًا . وكان مع سعادة السفير الأستاذ الدكتور أحمد بدوي ، أستاذ الآثار القديمة بكلية الآداب ، وتولى مهمة الترجمة عن الألمانية التي كان يتكلم بها سعادة السفير .

زيارة جلالة ملك الأفغان للأزهر

في الساعة العاشرة والنصف من صباح يوم الأحد ١٢ مارس سنة ١٩٥٠ ،
تفضل حضرة صاحب الجلالة ملك الأفغان ، محمد ظاهر شاه ، بزيارة الأزهر ،
وكان في استقباله حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون
الشناوى ، شيخ الجامع الأزهر ، يحف به أجلاء العلماء وكبار الموظفين ، وبعد أن
حياهم مصافحة ، صعد إلى الطابق الأعلى حيث مكتب الأستاذ الأكبر ،
وأمضى فيه برهة مع فضيلته وكبار مستقبليه ، كان فيها محل الإجلال والتعظيم ،
ثم نهض لزيارة كلية الشريعة ، فاستقبله فيها حضرات المدرسين ، يتقدمهم فضيلة
الأستاذ الكبير الشيخ عيسى منون شيخها الجليل ، فاستمع جلالاته فيها لاربعة
دروس ، وهناك حياه شيخها بكلمة بليغة بيّن فيها المهمة الخطيرة التي تقوم بها
هذه الكلية ، ثم قصد من هناك إلى مسجد الإمام أبي عبد الله الحسين ، ولبت
فيه نحو ربع ساعة .

ثم انتقل منه إلى الجامع الأزهر حيث أدى فريضة الظهر ، وزار مكتبته
العامية ، فاستقبله فيها حضرة صاحب الفضيلة الشيخ أبو الوفا المراغى مديرها
وحضرات معاونيه ، واستعرض فيها المصاحف الأثرية وبعض المؤلفات النادرة .

ومن هناك استقل جلالاته السيارة الملكية تتبعها سيارات الحاشية ، وتحيط
بها وتقدمها موتوسيكلات الحرس المصرى ، قاصداً سراى الزعفران حيث يقيم
فيها ضيفاً لحضرة صاحب الجلالة وليكننا المحبوب .

وهذا نص الكلمة القيمة التي ألقاها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير
الشيخ عيسى منون شيخ كلية الشريعة بين يدى حضرة صاحب الجلالة
ملك الأفغان :

بسم الله الرحمن الرحيم

يا صاحب الجلالة :

إن الجامع الأزهر في شخص كلية الشريعة ، يحیی أساتذته وطلابه جلالتهم تحية طيبة مباركة ، تليق بمقامكم السامي ، وجلال ملككم العظيم ، ومكانة شعبكم الوفي المعروف بالشجاعة والإقدام والتسك بتعاليم الإسلام . ويرحبون كل الترحيب بتشريف جلالتهم لكلية الشريعة ، التي امتازت بدراسة علوم الشريعة الغراء أصولها وفروعها ، وبالنفوذ بالاستماع الى دروس أساتذتها . ويغضبون الاعتبار كله بهذا التفضل العظيم ، ويعلمون سرورهم وابتهاجهم بهذه الزيارة الكريمة المباركة ، التي تتجلى فيها آيات وحدة المسلمين وأخوتهم ، ويستطع منها نور تعاطفهم وتراحيمهم ؛ كما أنها تحمل في ثناياها ما اشتهر عن جلالتهم من قوة في الدين ، ومتانة في الخلق ، ومحبة للعلم وإكرام لاهله .

وإني يا صاحب الجلالة وجميع أسانذة الكلية وموظفيها وطلابها ، لنعد هذه اللفتة الملكية والتوجيه السامي إلى تخصيص كلية الشريعة بهذه الزيارة الميمونة ، مفخرة عظيمة ومنحة ملكية سامية نعتز بها ، ونذكر يومها دائماً إن شاء الله تعالى ذكر الأيام السعيدة ، والأعياد المباركة ، وستكون حافزة للجميع على القيام بواجبهم ، كما أننا نعتبرها تكريماً للشريعة الغراء وللقائمين بتدريسها في أشخاصنا .

فباسمى واسم جميع أسانذة الكلية وطلابها أرفع لمقام جلالتهم بيد الإجلال والتكريم ، والاحترام والتعظيم أسمى آيات الشكر على تفضل جلالتهم بتشريف كلية الشريعة وزيارتها ، وأسأل الله تعالى أن يحفظ ذاتكم الكريمة ، وأن يديم التوفيق لجلالتهم ، والسرور والاعتباط لشعبكم الكريم بعدلكم الشامل ، وإحسانكم العميم ، ورعايتكم السامية لجميع أفراداه .

يا صاحب الجلالة :

إن الجامع الأزهر قائم منذ ألف عام على حفظ الشريعة الغراء ، وما تحتاج اليه من علوم ، ونشرها بين المسلمين في جميع الاقطار ، ولقد كان محل عناية الملوك والسلاطين بالديار المصرية ، وفي القرن الاخير زادت العناية به بفضل الاسرة العلوية المالكة . وقد تضاعفت العناية به والرعاية له ، والاهتمام بشئونه مادياً وأديباً في عهد المعفور له الملك فؤاد الاول - طيب الله ثراه - وأعلى درجته في عليين ، وقد ترسم خطاه نجله حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الاول - أيده الله بنصر من عنده ، وأعز ملكه وأدام توفيقه - فأعيد بتوجيههما السامى ، وأمرهما الكريم تنظيم الأزهر تنظيمًا شاملاً كاملاً ، وأنشئت فيه ثلاث كليات : كلية الشريعة التي تتشرف اليوم بزيارة جلالتهنكم ، وكلية أصول الدين ، وكلية اللغة العربية . وفي عهدهما وبأمرهما الكريم تضاعف لإنشاء المعاهد الدينية التابعة للأزهر في الأقاليم ؛ حتى كادت تعم جميع مديريات المملكة المصرية .

وأشئ فيه قسم للوعظ والإرشاد ينتظم عددا كبيرا من أساتذته المتخصصين يجوبون البلاد للدعوة والإرشاد . وأرسلت البعثات من أساتذته لسكثير من البلاد الإسلامية يعلمون في مدارسها ويعظون أهلها . وزادت مخصصاته حتى أربت على المليون من الجنيهات ، وأنشئت مدينة الجامعة التي منها هذه الدار المخصصة لكلية الشريعة ، والقاعة الكبرى المخصصة للحاضرات ، والعمائر الكبرى المخصصة لسكنى الطلاب ، وسيتبعها غيرها من مباني تلك المدينة .

والجامع الأزهر الآن مكلماته ومجاهده يضم أكثر من ألف ومائتين من المدرسين ، وأكثر من عشرين ألفا من الطلاب : من أبناء مصر ومن البعثات التي وفدت إليه من سائر الاقطار الإسلامية ؛ يتلقون العلوم الشرعية والعلوم العربية والعلوم العقلية وغيرها ، والجميع في موضع الرعاية والعناية من حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم ورجال حكومته السنية . وبخاصة طلاب البعثات الإسلامية ، فقد هيئت لهم بأمر جلالته مولانا الملك المعظم المساكن اللائقة بهم ، وأغدق عليهم جلالته من بره ، فخصصت لهم المرتبات التي تكفي لنفقاتهم .

وقد تخرج كثير من طلبة البعوث الإسلامية من هذه الكلية ، ورجعوا إلى بلادهم وشغلوا مناصب هليا نذكر منهم السيد النبيل ، محمد هاشم المجددى ، نجل التقي الصالح الغيور على الدين معالى الوزير السيد ، محمد صادق المجددى ، الذى أحب المصريين وأحبوه . ولا تزال الكلية ترحب بالوافدين من بلاد الافغان وغيرها من البلاد الإسلامية .

هذا وإنى أبتهل إلى الله العلى القدير أن يلم شمل المسلمين ، ويعلى كلمتهم ويقوى شوكتهم ، ويوفقهم جميعا إلى الاعتصام بحبله المتين فى ظل أصحاب الجلالة والفخامة ملوكهم ورؤسائهم . . آمين .

والسلام على جلالتم ورحمة الله .

عناصر المدنية في الديانة الإسلامية

المدنية كلمة مشتقة من « مدّن المدائن » أى بناها ومصرها ، و « تمدّن » أى تخلق بأخلاق أهل المدن وخرج من حالة البداوة .

ولكن للمدنية في عرف العلماء الاجتماعيين معنى أوسع مما مر ، فهى تعنى عندهم الحالة الراقية التى توجد عليها الأمم تحت تأثير العلوم والفنون والصنائع ، وبهذا فقد اكتسبت المدنية معنى أرفع من معناها اللغوى ، إذ اعتبرت مثلاً أعلى للحياة البشرية تتدرج إليه الأمم تحت تأثير رقيها العلمى والعقلى والنفسى والاجتماعى . وجاء الفلاسفة فقررُوا أن الإنسان مدنى بطبعه ، أى أنه مفطور على الارتقاء ، وعلى بلوغ غايات بعيدة من السمو العلمى والأدبى والصناعى ، وهم بهذا القول ما فعلوا شيئاً غير حكاية الواقع المحسوس ، فإن الإنسان خلق مجرداً من جميع ما يلزمه من ضروريات العيش ، وفروع العلم ، وضروريات الفنون والوسائل ، ولم يصل بعد إلى غاية مداه ! بلغ كل هذا بدوافع ذاتية ، وحوافز نفسانية ، وقوى مودعة فيه ، لآتى تدفعه إلى الاستزادة مما هو فيه حتى قدّر بعض الحكماء أنه سيمصل إلى مستوى من الترقى لا يحول بخيال لإنسان .

لسنا بصدد الكلام عن قابليات الإنسان ومواهبه النفسية ، ولكننا بسبيل بيان ما فى الدين الإسلامى من عناصر المدنية ، تبرئة له من التهمة التى يشيعها الماديون من أن الأديان عدوة طبيعية للحضارة الإنسانية ، ما أخذ بها قوم إلا أصبحوا أعداء لكل ارتقاء مادى ، وهبطوا إلى حضيض الشعوب البدائية .

للمدنية كمثل الشؤون الاجتماعية عناصر يتألف منه كيانه ، تؤثر فى الجماعات البشرية فتؤديها إلى شكل من الوجود يتناسب والبيئة المحيطة بها . وللديانات تعاليم خاصة بها ، تارة يتفق بعضها وتلك العناصر فترتقى الأمم الآخذة بها ، وتصل إلى مدى بعيد من التحضر ؛ وتارة لا يتفق بعضها الآخر وتلك العناصر ،

فتدهور عن مستواها الأول ، ولا تزال تمنع في التدهور حتى تصل إلى الحضيض ، فتغنى في جثان أمم أخرى .

وبعد ، فقد جاء الإسلام إلى العرب وهم لم يصلوا بعد إلى درجة أمة ، وذلك بسبب قحولة بلادهم ، وحرمان أرضهم من الأنهار ، وما درجوا عليه وألفوه من الحياة القبلية آمادا طويلة ، فوقفوا بسبب تلك الحالة عن الترقى الأدبي والمادى أجيالا طويلة ؛ وما وصل إلى شيء من ذلك من قبائلهم لم يلبث إلا قليلا حتى تلاشى ، وعاد إلى مثل ما كانوا عليه من البداوة والجاهلية حتى ظهر الإسلام ، وما إن دخلوا فيه ، وجروا على تعاليمه ، حتى تطوروا إلى درجة أمة موثقة الأواصر ، موحد المبادئ ؛ ولم يمض عليهم غير جيلين حتى رأيناهم قد أصبحوا للبشرية قادة في العلم والفلسفة والصناعة ؛ وامتد ملكهم إلى نحو ربع الكرة الأرضية ، وهو ملك لم ينبغ لامة قبلهم ولا بعدهم إلى يومنا هذا ، حكموه بعدل وإنصاف يضرب بهما المثل إلى عهدنا الراهن ، فكيف يتفق للعرب أن يظفروا إلى هذه المنزلة من التمدن العالى ، إن لم يكن في الدين الذى دخلوا فيه ، وهو الإسلام عناصر لتلك الحالة الرفيعة التى تأدوا إليها ؟

هذا أمر لا ممدى عنه ، فما هى هذه العناصر ؟

(أولاها) إحكام أواصر الاجتماع ، وتوثيق عرى الوحدة ، إلى الحد الذى تلاشى فيه الفوارق الشخصية ، فيصبح معه المجتمع كالفرد الواحد تحركه إرادة عامة ، وتدبره روح واحدة ، وتدفعه إلى غاية مشتركة هى السعادة الكلية التى يحظى بالمتاع بها ، والعيش فى كنفها ، جميع الأفراد على حد سواء ، على مثال أعضاء الجسم الواحد يستمتع كل عضو بنصيبه من سلامته دون أن ينقص منها شيء ؛ وقد وصل المسلمون الأولون إلى هذه الدرجة الممتازة من الاجتماع بفضل المبادئ الإسلامية ، وبتأثير الروح المحمدية ، فكان أثرهما فى أمة لا عهد لها باجتماع من أغرب الظواهر العمرانية ، وأدعاهما إلى الدهش والحيرة . أصبح المجتمع الإسلامى جسداً واحداً تحركه روح واحدة على وجه لم يعهد له مثل فى مجتمع آخر ؛ حتى روى أن صحابياً منهم حمل قدحاً من الماء ليروى صدى بعض الجرحى فى موقعة ، وكان منهم كثيرون بجواره يجودون بأرواحهم ، فلما اقترب منه

أشار إليه أن يقدم القدر للذي يليه ، فلما قدمه إليه أشار له هذا ليعطيها لواحد آخر ، فلما انتهى إليه أثر هلى نفسه جريحا آخر بالقرب منه ، وهكذا صار حامل القدر يتردد به بين الجرحى ، وكل منهم يؤثر على نفسه غيره حتى ماتوا جميعاً عطاشاً ولم يصب واحد منهم قطرة . وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم حالة أصحابه من الناحية الاجتماعية فقال : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، وقال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ، وقال : « ليس منا من بات شبعان وجاره جائع » وقال ابن عباس : « لقد أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجار حتى خشينا أنه سيورثه » .

هذا التماسك الاجتماعى من أوليات عناصر المدنية ، لأن الأفراد إذا تكاثفوا على حفظ كيان الاجتماع ، ووثقوا بأن وجوده غير مهدد بالتفكك ، لم يحصروا همهم كله فى وجودهم الشخصى وضرورياته من مأكل وملبس ، بل يحل محله كيانهم العام ، ويشغلهم ما هو بحاجة إليه من استصلاح بيئته ، وتوفير مقوماتها ، ومن ترقية جماعته وتمهيد سبل حياتها ، وتنمية عددها ، واكتشاف وسائل تقويتها ، فتمشغل على هذا الوجه عمول أذكيائها ، وأولى العلم منها بالأمور الفنية ، والاكتشافات الصناعية ، والتطوع لأجل الأغراض العمومية . وقد تشدد هذه العاطفة الاجتماعية حتى تصل إلى الاستهانة بالحياة الشخصية ، فى سبيل كشف جغرافى ، أو تركيب كيمائى ، أو تحقيق طبى ، ولو أردنا أن نسرّد أسماء من لقوا حتوفهم جرياً وراء هذه المقاصد العامة لاضطررنا إلى الإطالة .

والحياة القبلية لا تتوافر فيها البواعث النفسية الدافعة للترقى الأدبى والمادى ، لأنها لقلة عدد أفرادها ، وعدم طمأنينتها على وجودها ، بسبب الإغارات المتوالية عليها من جيرانها ، تطغى لديها عاطفة الدفاع عن النفس والأهل والولد على كل عاطفة ذات آثار عامة ، فلا يشتغل بالرجالها بغير التسليح والوقوف موقف المتربص لكل مفاجأة عدوانية تقع فى ليل أو نهار ؛ وجماعة هذه حالتها من توقع المباغثات ، وتخوف الغارات ، لا يدور بخلد أحادها غيرهم واحد ، وهو الدفاع عن النفس ،

فلهذا السبب لا تصادف في القبائل واحدة تخطت دور الحياة البدائية ولو مكثت على حالتها ألف سنة .

وما حى المسلمين من شر التفرق بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم غير ما هنى به الإسلام من توثيق أواصر الاجتماع ، وإحكام عرى الوحدة العامة . وقد جرت العادة وخاصة في الجماعات القريبة العهد بالوجود ، أنها عقب موت موجدتها تتداعى إلى الانحلال ، انصياعا لتسويلات أركان حربها من القواد السكبار ، فتقع بينهم الشحنة ، وتشب نيران الحروب آمادا طويلة لا تجنى الشعوب والأفراد من ورائها غير القلاقل والفتن ؛ فتتلاشى طيبتها ، وينتشر فيها البؤس واليأس ، ثم تنتهى إلى ما قدر لها من مغبة غير محدودة . كما حدث بعد وفاة الاسكندر المقدوني ، فقد اتفق له فتح ممالك برمتها عقب حروب موفقة ، فلما وافته أجله اقتسم قواده ملكه بينهم والسيوف مصلته في أيديهم ، ووقعت الشعوب بسبب ذلك في فتن كقطع الليل المظلم ، ثم انتهى الامر بتلاشى ذلك الملك العظيم .

ولكن المسلمين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ولوا عليهم واحدا منهم ، ولم يؤد ذلك في أمة كانت بالأمس مؤلفة من قبائل شتى إلى انقسام يفضى إلى فتنة ، غير جماعات ارتدت عن الإسلام لم تلبث أن عادت إلى حظيرته كما كانت . ولما توفي خليفته طلب المسلمون اليه أن يختار لخلافته أولا هم بها ، فكان ما أرادوا وسمعوا له وأطاعوا ، وفتحوا سورية ومصر وبلاد الفرس على عهده . وتوالى الخلفاء وتوالى الفتوح حتى أصبح ملك المسلمين تساوى مساحته ربع الكرة الأرضية ، في مدى نحو قرن واحد . وفي أثناء ذلك نشطت العقول لإيتاء ثمراتها ، وتحركت الهمم للتبريز في ميدانها ؛ ولم يمض غير قرن آخر حتى بلغ المسلمون من المدنية إلى المستوى الرفيع الذى بيناه في مقالنا السابق . وفيما يلي من المقالات نأتى على بقية عناصر المدنية ومكانتها من الأصول الإسلامية ، وآثارها على المسلمين حتى بلغوا بها الأوج الذى أدهش العالم تحت هداية القرآن والتربية المحمدية .

محمد فريد وهبى

السنة التشريعية :

مِنْ خِصَالِ الْفِطْرَةِ

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ فكري ياسين

روى الجماعة عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : خمس من الفطرة : الاستحداد ، والختان ، وقص الشارب ، وتنف الإبط ، وتقليم الأظفار .

عرض هذا الحديث لبيان حكم الشريعة في بعض خصال الفطرة ، وأوضح أن هذه الخصال إذا فعلت ، اتصف فاعلها بالفطرة ، التي فطر الله العباد عليها ، ورغبتهم فيها ، واستحبها لهم ، ليسكونوا على أكمل صفة ، وأشرف صورة .

وقد ثبت في أحاديث أخرى صحيحة أن هذه الخصال تزيد على الخمس المذكورة في الحديث الذي معنا ، وقد بلغ بها ابن العربي ثلاثين خصلة ، وقال غيره : إنها تزيد على ذلك كثيرا ، وذكرها منها غير الخمس المتقدمة : الوضوء ، والاستنشاق ، والاستنثار ، والاستنجاء والسواك ، وغسل الجمعة ، وإعفاء اللحية ، والفرق ، وغسل البراجم ، والانتضاح ، والتعطير ، والنكاح ، والحجامة ، والحيام ، والحلم ، وغير ذلك ، والظاهر أن الاختلاف بين الأحاديث الواردة بهذا الشأن إنما هو بحسب المقامات ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر من هذه الخصال في كل مقام ما يليق بالمخاطبين .

الفطرة : من الفطر ، وهو الشق طولا ، ويطلق على الوهي ، وعلى الاختراع ، وعلى الإيجاد ، وتطلق الفطرة على الحلقة المبتدأة ، وعلى الجبلة ، وعلى الدين . وفطرة الله : هي مراكز في الإنسان من قوته على معرفة الإيمان ، وإلى هذا المعنى

يشير قوله تعالى : « فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ، ، أى أن كل أحد لو ترك في وقت ولادته وما يؤديه إليه نظره لأداه إلى الدين الحق ، وهو التوحيد . ويؤيده أيضا قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله ، وإليه يشير في بقية الحديث ، حيث عقبه بقوله : « فأبواه يهودانه أو ينصرانه ، .

وذهب أكثر العلماء إلى أن المراد بالفطرة في الحديث : السنة القديمة التي اختارها الأنبياء ، واتفقت عليها الشرائع ، وكأنها أمر جبلى فطروا عليه ، وقالت طائفة : المراد بها الدين .

والاستحداد : هو استعمال الحديدية في حلق الشعر من مكان مخصوص من الجسد ، وفي التعبير بهذه اللفظة كناية طريفة عما يستحيا من ذكره إذا حصل بها الإفهام ، وأغنت عن التصريح . وقال النووى وغيره : السنة في إزالة شعر العانة الحلق بالموسى في حق الرجل والمرأة معا ، ولكن الحق أن أصل السنة يتأدى بالإزالة بكل مزبل من حلق وقص وشف وشف وغيرها ، وإنما ذكر الحلق ، لكونه الأغلب ، والاستحداد سنة بالاتفاق .

والختان : مصدر ختن بمعنى قطع ، والختن : قطع بعض مخصوص من عضو مخصوص ، والختان ما ينتهي إليه القطع من الصبي والجارية وهو اسم لفعل الختان أيضا . وختان الصبي : قطع الجلد التي تغطي الحشفة ، وختان البنت : قطع جلدة تكون في أعلى عضوها فوق المدخل كالنواة ، أو كعرف الديك ، ويسمى ختان الغلام إعدارا ، وختان الفتاة خفضا ، وقال بعضهم : كلام أهل اللغة يقتضى تسمية الكل إعدارا ، والخفص يختص بالأنثى ، وأفاد ابن الحاج في المدخل أنه اختلف في النساء ، هل يخفصن عموما ، أو يفرق بين نساء المشرق فيخفصن ، ونساء المغرب فلا يخفصن ، لعدم الفصلة المشروع قطعها منهن ، بخلاف نساء المشرق ؟ كما أفاد أن السنة لإظهار ختان الذكر ، وإخفاء ختان الأنثى ، واختلف في حكم الختان ، فعن العترة والشافعى وكثير من العلماء أنه واجب في حق الرجال والنساء ، وعن مالك وبنى حنيفة وغيرهما أنه سنة فيهما . وللختان وقتان : وقت وجوب ، ووقت استحباب ، فوقت الوجوب البلوغ ، ووقت الاستحباب قبله ، والاختيار أنه في اليوم السابع من بعد الولادة ، وقيل : من يوم الولادة ، فإن

أخّر ، ففي الأربعين يوماً ، فإن أخر ، ففي السنة السابعة ، فإن بلغ وكان نضوا نحيفاً يُعلم من حاله أنه إذا ختن تلف ، سقط الوجوب ، ويستحب ألا يؤخر عن وقت الاستحباب إلا لعذر . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم ختن الحسن والحسين لسبعة أيام ، ونقل مشروعية الدعوة إلى ختان الغلام .

وقص الشارب : أصل القص تتبع الأثر ، ويطلق على إيراد الخبر تاماً على من لم يحضره ، وعلى قطع شيء من شيء بآلة مخصوصة ، والمراد به هنا : قطع الشعر النابت على الشفة العليا من غير استئصال ، وهو المسمى بالشارب ، ولفظ القص هو المذكور في أكثر الأحاديث كما هنا ، وجاء في بعضها لفظ الحلق والتقصير والجَزّ والإحفاء . قال بعض الفقهاء : وكل هذه ألفاظ تدل على أن المطلوب هو المبالغة في الإزالة . وقال الطحاوي : ذهب قوم من أهل المدينة إلى أن قص الشارب هو المختار على الإحفاء ، وخالفهم في ذلك آخرون فقالوا : بل يستحب إحفاء الشوارب ، ونراه أفضل من قصها .

وقد شرع ذلك مخالفة للهجوس ، ومنعاً من التشويش على الآكل ، واتقاء لزهومة المأكول التي تعلق بالشارب ، واستئتماً لمعنى الجمال والنظافة . وحكى عن بعضهم : أنه لا يرى بأساً في إبقاء الشوارب في الحرب إرهاباً للعدو . ويستحب في قص الشارب أن يبدأ باليمين ، ويختار بين أن يقص ذلك بنفسه ، أو يوليه غيره لحصول المقصود بفعله ، ومن لا يحسن الأخذ من الشارب بنفسه ، يباح له أن يستعين بغيره بقدر الحاجة ، ويلتحق به من لا يجد مرآة ينظر فيها وجهه عند أخذ شاربه . وهو سنة بالاتفاق ، ويتأدى أصلها بقص الشارب بالمقص وبغيره ، ونقل عن ابن حزم القول بوجوب قص الشارب .

وتنف الإبط : إزالة ما نبت في باطن المنكب من الشعر بهذا الوجه ، والإبط يذكر وقد يؤنث ، وتأبط الشيء : وضعه تحت إبطه ، وهو سنة بالاتفاق . والسنة تأدى بالخلق أيضاً ، ولكن لما كان هذا المكان محلاً للرائحة الكريهة التي تنشأ من الوسخ الذي يجتمع فيه بالعرق ، فيتلبد ويهيج ، استحب التنف الذي يضعفه ، فتخف الرائحة بذلك ، بخلاف الحلق : فإنه يقوى أصل الشعر ، ويغلظ جرمه ، ولهذا يصف الأطباء تكرار حلق الشعر في المواضع التي يراد قوته فيها ، والإبط إذا قوى فيه الشعر وغلظ جرمه ، كان أفوح للرائحة الكريهة لمن يقاربها ، فناسب أن يمس فيه التنف المضعف لأصله ، المقلل للرائحة الكريهة .

وتقليم الأظفار : إزالة ما طال منها عن اللحم بمقص أو سكين أو غيرها من الآلات ، ويكره ذلك بالأسنان ، والتقليم من القلم ، وهو القطع ، والأظفار جمع ظفر ، وإنما جمع ووجد السابق ؛ لأن الأظفار متعددة في اليدين والرجلين ، والمعنى فيه أن الوسخ يجتمع تحتها فيستقذر ، وقد ينتهي إلى حد يمنع من وصول الماء إلى ما يجب غسله في الطهارة ، والمستحب الاستقصاء في الإزالة إلى حد لا يدخل منه ضرر على الإصبع وهو سنة بالاتفاق ، ولم يثبت في ترتيب الأصابع عند القص شيء من الأحاديث ، ولكن ذكر النووي في شرح مسلم أنه يستحب البداء بمسبحة اليمنى ، ثم بالوسطى ، ثم البنصر ، ثم الخنصر ، ثم الإبهام ، وفي اليسرى بإبهامها إلى الخنصر ، ولم يذكر النووي مستنداً لهذا الاستحباب ، وتقليم الأظفار لا يتوقت بوقت ، والضابط فيه الاحتياج إليه ، فأى وقت يحتاج إليه الإنسان يفعله ، وقد استحب بعضهم دفن ما يقص من الشعر والظفر ، لكونها أجزاء من الآدمي .

* * *

قد يبدو لبعض الناس أن هذه الخصال ليست جوهرية ، وأنها ليست بمكان من الأهمية ، ولكن الواقع أنه يتعلق بها كثير من المصالح الدينية والدنيوية الجديرة بكل اعتبار وتقدير ، وهذه المصالح تدرك بالتبوع ، وتعرف بالتجربة ، فمنها تحسين الهيئة ، وتنظيف البدن جملة وتفصيلاً ، والاحتياط للطهارتين ، والإحسان إلى المخالط والمقارن بكف ما يتأذى به من رائحة كريهة ، ومخالفة شعار الكفار من الجوس واليهود والنصارى وعباد الأوثان ، وامتنال أمر الشارع ، والمحافظة على ما أشار إليه قوله تعالى : « وصوركم فأحسن صوركم » لما في المحافظة على هذه الخصال من مناسبة ذلك ، إذ كأنه قيل : قد حسنت صوركم ، فلا تشوهوها بما يقبحها ، أو حافظوا على ما يستمر به حسنهما ، وفي المحافظة عليها محافظة على المروءة ، وعلى التألف المطلوب ، لأن الإنسان إذا بدا في هيئة جميلة ، كان ذلك أدعى لانبساط النفس إليه ، وسرورها بمرآه ، فينظر إليه نظرة إكبار وإجلال ، ويقبل قوله ، ويحمد رأيه ، وإذا بدا في هيئة مشوشة مشوهة أثار ذلك في النفوس الاشتزاز منه ، والازورار عنه ، والاحتقار له ، ولا يسمع له قول ، ولا يقام له وزن ، ولا تقدر له رغبة ، ولا ترعى له كرامة ، بسبب إهماله وتهاونه فيما ينبغي أن يكون عليه من نظافة الجسم ، وحسن السمات ، وجمال الهندام .

حِكْمَةُ التَّفَاوُتِ بَيْنَ النَّاسِ

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني

المفتش بالأزهر

سأل سائل عن معنى قوله تعالى : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، مع ثبوت التفاوت في هذا الخلق على صور شتى ، بيان ذلك : أننا نرى الأرض الواحدة تنبت نوعاً من الثمر بذره واحد ، وغذاؤه واحد ، ويسقى بماء واحد ، ومع ذلك نرى تفاوتاً في خلقه ، فهذه الثمرة حلوة ناضرة قوية في تكوينها ، كأنما أدركتها عناية خاصة من بين أخواتها ، وتلك الثمرة ضعيفة ضئيلة حائلة اللون ، فاسدة الطعم ، متغيرة الرائحة ، حتى يكاد الناظر إليها يحسبها جنساً آخر غير الأولى وهي في الحقيقة منها ولعلها أختها في غصنها ، وبين هاتين ثمرات أخرى متفاوتات يقرب بعضها من الأولى وبعضها من الأخرى ، وقد جعل الله تعالى هذا التفاوت آية من آيات قدرته ، ونبه العقول إليه حيث يقول : « وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

وكذلك نرى بعض البلاد يفضل بعضاً بما له من موقع حسن ، ومناخ حسن ، وبعضها يمتاز بجودة أرضه ، وملاحية تربته للإنبات والزرع وإخراج الطيبات ، أو بما تنطوى عليه هذه الأرض من منابع الغنى ، وكنوز الثروة ، وإلى هذا يشير الله عز وجل بقوله « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذي خبث لا يخرج إلا نكدا ، فقوله « بإذن ربه » معناه بخلقه وتقديره وما فضله به على غيره ، فهذا نوع آخر من التفاوت .

والناس أكثر المخلوقات تفاوتاً، فمنهم الجليل ومنهم الدميم ، ومنهم الذكى ومنهم الغبي ، ومنهم الضعيف ومنهم القوى ، ومنهم الشجاع ومنهم الجبان ، ومنهم الفقير ومنهم الغنى ، ومنهم الرضى فى أخلاقه ، المحمود فى أفعاله ، ومنهم الجسافى الغليظ الذى لا يطاق .

ولمنا لنجد الاسرة الواحدة من رجل وامرأة يشمران أبناء وبنات يصل أمرهم فى التفاوت الخلقى والخلقى الى مدى بعيد ، يُظن معه أن لا صلة بينهم .
 وإلى هذا الاختلاف يشير القرآن الكريم فى كثير من آياته ، إذ يقول :
 « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ،
 « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم » .
 وإذا كان الامر كذلك فكيف نرى الله التفاوت بقوله : « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، ؟

والجواب : أن التفاوت المنفى فى الآية غير التفاوت المثبت فى الآيات الأخرى ، وذلك أن الأشياء كلها متساوية غير متفاوتة من حيث إنها جميعا مصنوعة بالحكمة مقدرة على سننها معطاة خالقها ، وما تصلح به وعليه فى نفسها ، وفى غيرها ، كما أنها مختلفة غير متساوية من حيث إنها أنواع يختص كل نوع بفائدة ، وأفراد يمتاز كل فرد بميزة ، والحكمة تقتضى هذا التفاوت ولا سيما فى الإنسان ؛ فلو أن الناس جميعا كانوا على شاكله واحدة لبطل التعاون ، واختل نظام الحياة ، ذلك بأن الإنسان - كما يقولون - مدنى بطبعه يحتاج إلى من يعاونه ويقوم عنه ببعض شئونه ، فإنا لو تصورنا إنسانا منفردا ليس معه غيره لتصورناه مستوحشا كئيبا ناقص التصرف ، معطل المواهب ، مغلوبا على أمره ، لا يستطيع أن يصل إلى ما يصلح به أمره كإنسان . ولو أن الناس كانوا جميعا على غرار واحد فى الخلق والعلم والقوى والملكات والرزق والحظ ، لبطل التعاون أيضا ، واختل نظام الحياة ، فإن كل واحد يرى أنه كغيره ، ولا يعترف بفضل عليه لمن سواه ، فتبطل الآمال ، وتتعطل الأعمال ، وتموت الرغبات ، ولا تبقى الحياة ميدانا للتزاحم والتسابق ؛ لأن كل امرئ فيها آمن على نفسه وماله

ورزقه ، متمتع فيها بحظه ، لا تفاوت بينه وبين غيره ، وليس هناك ما يدعوه إلى نشدان الكمال ، أو التطلع إلى منزلة لم يبلغها ، وهو يرنو ببصره إليها ، وبهذا يصبح كل واحد في الناس كأنه فرد برأسه ، لم يخلق أحد سواء ، لأنه وإن كان مجتمعاً فيها ترى العين ، يعيش بين أفراد من جنسه ، وروح ويغدو معهم ، ولكنه منقطع عنهم بآماله ورغباته ، معتزل حياتهم ، متجنب معتك النشاط والسعى والعمل .

لهذا كان من مقتضى الحكمة ، أن يكون الناس في سائر أحوالهم متفاوتين غير متساوين ، وأن يحسن هذا من الأعمال والصنائع ما لا يحسنه ذاك ، وأن يمنح هذا من المواهب والقوى ما لا يمنحه ذاك ، ليظل كل منهم معلقاً بمن سواء مشاركاً له في القيام ببعض أعبائه ، متعاوناً معه في عمارة الأرض ، وتحقيق الخلافة فيها ، مقبلاً على ذلك برغبة فيه وميل إليه ، وطمع فيها وراه ؛ وقد يشير إلى هذا المعنى قوله تعالى : « فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون » . وقوله عز وجل : « قل كل يعمل على شاكلته » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « كل ميسر لما خلق له » . فإننا نرى كل ذى صنعة متمسكاً بها ، حريصاً عليها ، وإن كابد فيها المتاعب ، ولا لبس المشاق ، ونرى كل صنف من الناس راضياً بنوعه ، فلا الذكر يتمنى أن يكون أنثى ولا الأنثى تمنى أن تكون ذكراً . وكل امرئ حريص على أن يصل إلى أحسن الحالات فيما يسر له ، وفطر عليه . وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى المصلحة المترتبة على تفاوت الناس ، واختلاف همهم ومطالبهم وقواهم وتباين طبقاتهم بقوله فيما يروى عنه : « لا يزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساووا هلكوا » .

هذا المعنى الواضح البين من شأنه أن يفتح عيون الناس على حقيقة يجب التسليم بها ، والرضوخ لحكمها ، هي أن كل نظام يبنى على ما يخالف تلك السنة ، ويحاول الناس فيه التسوية بين الأفراد ، وقسمة الحظوظ بينهم على سواء ، هو نظام فاسد عليل ، لا يمكن أن يبقى ولو أيدته القوة ، وطمعت به الدعاوات والخطب والكتب .

فليعلم ذلك أحلاس « الشيوعية » ومروجو فتنها ، والمرجعون على الناس بها ، وليسمعوا قول الله عز وجل في كتابه الكريم : « ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

نظرات في توثيق المعاملات

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبكي
المفتش بالأزهر

أسلفنا لك أن التوثيق كما يكون واجبا أو مندوبا يكون مباحا، ويشهد لي بذلك في حديث اليوم قوله تعالى : « إلا أن تكون تجارة حاضرة تدورونها بينكم » . قال القرطبي في تفسير هذا : « إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة » ، أو « إلا أن تكون المبايعة تجارة حاضرة الخ... ولما علم الله تعالى مشقة الكتاب عليهم نص على ترك ذلك ورفع الجناح فيه في كل مبايعة بنقد... » هـ .

فالتجارة الحاضرة معناها عند القرطبي ما كان البيع فيها منجزا بنقد ، وكلامه هذا متفق مع ظاهر الاستثناء ، إذ كان النهي عن سآمة الكتابة للدين ، فإذا جرى بعده بالتجارة الحاضرة مستثناء من ذلك النهي كان الاستثناء منقطعا كما قالوا ، وكان حكمها غير حكم الدين ، كما هو مقتضى الاستثناء .

وإذا لم يكن التوثيق في التجارة المنجزة مطلوباً لا إيجاباً ولا ندباً ، ولم يكن منهيًا عنه لا تحريماً ولا كراهة ، فلم يبق إلا أن يكون مباحاً .

ومدلول الاستثناء قد تأكد صراحة بقوله تعالى : « فليس عليكم جناح ألا تكتبوها » . فنفي الجناح لإبقاء الحال على أصله من الإباحة ، ولا يمنع ذلك أن يكون توثيقها مستحسناً في ذاته لاعتبارات أخرى كضمان عهدة المبيع أو ثمنه ، وهو ما يعرف بضمان الدرك .

فن شاء في التجارة الحاضرة المدارة بين الأيدي فليوثق وليستوثق بالكتابة أو ما يقوم مقامها ، ومن لا فلا ، وذلك ما قصدت إثباته فيما قصدت أن أواجه به من قال بالوجوب مطلقاً ، ومن قال بالنذب مطلقاً .

ومع أن القرطبي كما سبق ذهب إلى أن التجارة الحاضرة المستثناة من طلب

التوثيق ، هي ما كان البيع فيه بنقد ، فقد عقب على كلامه في ذلك بتفصيل يتضمن أن المستثنى من التوثيق ، إنما يكون في قليل ، كالمطعوم ونحوه ، وفيما كان ناجزا حصل فيه التقابض وانفصل كل من المتبايعين عن صاحبه .

أما ما يكون ذا شأن ، كالرباع والأرض والحيوان ، مما لا يقبل البيئونة ، ولا يغاب عليه فيحسن السكتب فيه ويلحق بالدين في ذلك ، فكلام القرطبي يقتضى أن هذا النوع الأخير ، وإن كان تجارة حاضرة فلا يتناوله الاستثناء ويحسن فيه السكتب حيث لم يحصل فيه تقابض ، وبين كلامه أولا وأخيرا مغايرة في تفسير التجارة الحاضرة المستثناة ، فهي مرة البيع الناجز ، ومرة القليل ، كالمطعوم ونحوه . والذي أستظهره وأميل إليه : أن التجارة الحاضرة المستثناة تشمل ما كان منجزا بالفعل ، وما لم يكن منجزا بالفعل مما يديره التجار بينهم أخذا وعطاء ، ولم يكن مؤجلا إلى أجل مسمى وإن بلغ من القدر ما بلغ . ومثال ذلك : أن تذهب إلى الصائغ مثلا لابتياح حلوى منه فإذا لم يجده عنده استمده من جاره وباع لك وقبض منك ، وبعد وقت ما يعطى جاره ثمن ما أخذ منه على حسب اصطلاحهم الجارى بينهم ، وذلك يجرى في كثير من أنواع التجارات المنقولة ؛ فهذه الصورة وأمثالها تسمى تجارة حاضرة يديرها التجار بينهم وليست منجزة بالفعل ؛ إذ لم تقترن بالتقابض وليست مؤجلة إلى أجل مسمى ، ومع أن فيها شبا بالدين فاعتبارها منجزة أقرب ؛ حيث لم تؤجل ولم يطلب فيها التوثيق شرعا ، وتلك هي التى يتناولها الاستثناء تناولا أوليا ، ونظرا إلى ما فيها من شبه بالدين يكون الاستثناء متصلا ؛ إذ المستثنى منه دين مطلوب توثيقه ، والمستثنى تجارة تشبه الدين ، عفى عن الناس في طلب توثيقها تخفيفاً ، وتيسيراً مراعاة لأن التجارة مبنية على سرعة الإنجاز ، وعدم التريث ، أو إغفال إدارتها للاشتغال بالتوثيق في أمر لا تشتد الحاجة إلى توثيقه ، لأنه معتبر كالناجز حيث لا تأجيل فيه . ذلك الفرع أولى بالاستثناء من المنجز الذى ذهب إليه القرطبي ، إذ لا يعتبر ديناً ولا شبه دين ، ولا معنى لإقحام المنجز في مقام الاستثناء من الدين ، وللمنجز كلام يخصه في الإشهاد على البيع ، فكيف نعرض له هنا وتكلف استثناءه من حكم الدين وهو أجنبي عنه ؟

ذلك النوع أولى بالاستثناء ، بل هو المقصود بالذات فيما أرجح ، وإلا فلا إرفاق

بالناس في حالاتهم التي صورتها بالمثل إذالم تسكن التجارة الحاضرة التي تدار في البين كما فسرتها ، وذلك أمر فاش في الأسواق والمتاجر كما يرى من خالط وتعرف .

والمصلحة التي اقتضت التوثيق في الديون هي التي اقتضت التسامح في هذه الحال من أحوال التجار والتجارة . والذي ننهي إليه من هذا السياق هو أن الله تعالى أوجب التوثيق وأكد الطلب في صيغ كثيرة ، وذلك يوحى أنه لافرق بين التجارة الحاضرة وغيرها ، ولما كانت التجارة الحاضرة بحاجة إلى شيء من الهدوء لا تنهاز الفرص فيها ، نص الله تعالى على إخراجها من طلب التوثيق فيها بالكتابة وجعل الناس في خيار من ذلك تشجيعا لهم على التعاون وتدارك الأرباح .

ووصف التجارة المستتاة بالحاضرة ليس حتما أن تكون القليلة أو المنجزة التي انفصل فيها المتبايعان كما يقول القرطبي ، وقد وضع ما جئحت إليه في تحديدها . وخرج بوصف الحاضرة التجارة الغائبة عن محل العقد ، كما إذا وقع البيع في بضاعة غائبة ريثما تنتقل وتصل من جهة إلى جهة على نحو ما يقع بين التجار ، فتلك لاحقة بالسلم أو غيره من المدائنات ، فحكمها على الأصل وليست من المستثنى . وخرج بوصف « تديرونها بينكم » التجارة التي لا تدار في البين ، كالتى يجرى فيها التبادل بين تاجر في جهة وتاجر آخر في جهة نائية بواسطة البريد أو الجرك يقوم عنهما في التسليم والتسلم ، وكذلك التي تجرى بين تاجر وغير تاجر من سواد الناس ، فكل النوعين ليس من المستثنى لخلوهما من الوصفين ؛ ولأن الشأن فيهما ليس على التعجل وانتهاز الفرصة كالتى ذكرنا .

وقد بان أن الاستثناء أولا ونفى الجناح في عدم الكتب ثانيا إيدان بالإباحة يكاد يكون في قوة المنصوص عليه بشأن إباحة التوثيق فيها .

والإباحة هي القسم الكاشف الذي سلف لى أن صرحت بقصدى إلى إثباته ؛ وفي ذلك اطمئنان وكفى .

هذا وقد استوعبت كلام جمهرة من المفسرين الذين تبسعلوا في القول ، وأفسحوا مجال الفهم للآيات واستنبط ما فيها من الأحكام ، فلم أر لواحد منهم كلاما جديدا يبعد عن كلام القرطبي وابن جرير ، ولم أر لواحد منهم حظرا يمنع أن يفهم فاهم ما ذهبت إليه من أن القول بإيجاب التوثيق لا يطرد في كل شيء ، وأن القول بالنذب لا يطرد في كل شيء . وأن للعرف دخلا في توجيه النصوص الكريمة لآية الدين وتطبيقها ، وتويع التوثيق إلى واجب ومندوب ومباح ، وضبط المعاملة على ما ينبغى من ذلك .

الصِّلاح الاجتماعي

بين النزعتين : المادية والروحية

لفضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ محمد محمد الفحام
الأستاذ بكلية اللغة العربية

— ٢ —

عنى الإسلام بالأسرة ؛ لأن الأمة مجموعة من الأسرة ، والأسرة صورة مصغرة من الأمة ؛ فإذا تألفت الأمة من أسر قوية كانت قوية ، وإن تألفت من أسر ضعيفة كانت ضعيفة . وإن لم تسكن هناك أسرة فليست هناك أمة ؛ لذلك عنى الإسلام بتوطيد دعائم الأسرة ؛ فسن لها نظاما قويا ، يحفظ كيائها ، ويشد عضدها ، ويقوى أواصرها ، ويضمن لها حياة سعيدة حميدة موفقة . ربط الزوجين برباط من السماء ، وجعل لكل منهما على الآخر حقوقا قررهما الشارع وبينها ، كما جعل للوالدين على أولادهم حقوقا ، وللأولاد على والديهم حقوقا ، وسن لهم نظام الميراث ، ليؤكد الصلة بينهم ، ويقوى الرابطة فيهم ، وأمر الآباء بالعدل بين أبنائهم حتى في القبل كي لا تتولد في قلوبهم الضغينة من الصغر ، ولينشأوا على الشعور بالحب المتبادل بينهم منذ الطفولة . أى شئ ترمى إليه الشريعة الإسلامية من وراء هذا كله سوى خير البشر وإسعاده ، وحياطة المجتمع الإنساني ، وتثبيت دعائمه حتى لا ينهار . ومن الأمور التي قررهما الدين الإسلامى حفظ المال بشئى الوسائل ، فشرع قطع يد السارق ، وأجاز دفع الصائل حتى الموت . عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « يا رسول الله أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالى ؟ » قال : « فلا تعطه ماله » فقال : « أرأيت إن قاتلتى ؟ » قال : « قاتله » قال : « أرأيت إن قتلتى ؟ » قال : « فأنت شهيد » قال : « أرأيت إن قتلته ؟ » قال : « هو فى النار » رواه مسلم وأحمد .

وعن عبد الله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من قتل دون ماله فهو شهيد ، متفق عليه . وفى لفظ « من أريد ماله بغير حق ، فقاتل فقتل ، فهو شهيد » .

من هذه الأحاديث الصحيحة نعلم أن الدين الإسلامي يحترم الملكية ولا يهدرها ، ويجعل لصاحب المال الحق كل الحق في الذود عن ماله ولو أدى ذلك إلى قتل المعتدى وسفك دمه .

نعم اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون الناس متفاوتين في الثروة : « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » ، « واقع فضل بعضكم على بعض في الرزق » ، « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ؛ ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً » .

والمعنى أنه سبحانه وتعالى لم يفوض قسمة أسباب معيشة الخلق إليهم لعلهم يعجزون عن تدبيرها ، فقسم الأرزاق قسمة تقتضيها مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات متفاوتة في الرزق وسائر مبادئ المعاش ، فمن ضعيف وقوى ، وفقير وغنى ، وخادم ومخدوم ، وحاكم ومحكوم . « ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً » ، أى يصرّف بعضهم بعضاً في مصالحهم ، ويستخدمهم في مهامهم ويتسخروهم في أشغالهم حتى يتعاشوا ويتأفدوا ويصلوا إلى مرافقهم ، لا لسكّال في الموسع ، ولا لنقص في المقتر ، ولو فوض ذلك إلى تدبيرهم لضاعوا وهلكوا ؛ إذ لو كانوا في مستوى واحد من المعيشة لاختل التوازن ، وتعطل دولاب الحياة . على أن الدين الإسلامى لم يترك للغنى ماله من غير أن يجعل للفقراء والمساكين نصيباً فيه ، يسد منه عوزهم ، ويطعم جائعهم ، يكسى عاريهم ، قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم ، وتزكّهم بها » ، وقال تعالى : « وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » . وقال تعالى : « كوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده » .

في هذه الآيات ، وفي الأحاديث الصحيحة الكثيرة الدليل القاطع على أن هناك حقاً مقررًا ، وفريضه مفروضة ، تجب على كل مالك بلغ ماله النصاب . وقد فصلت الشريعة الإسلامية ذلك كله مسهباً في باب الزكاة .

فرض الله على الأغنياء نصيباً في أموالهم ، يؤدى للفقراء والمساكين وغيرهم ، وهو نصيب لا يتحيف مال الغنى ، ولا يقصر عن الوفاء بحاجة الفقير ، فلو أن الغنى شعر بواجبه ، وحسنت نيته ، ورقت عاطفته ، وحاسب نفسه ، فأدى إلى

الفقير حقه في ماله ، ما رأينا فقيرا يتلوى من الجوع . ولو أن أولى الأمر قاموا باستخلاص هذا الحق من وجب عليهم ، وأوصلوه إلى ذويه لما كان بيننا عارٍ ولا جائع ولا محروم .

لقد كانت هذه سبيل حكومات المسلمين في صدر الإسلام ، فقاتل أبو بكر وعمر مانعي الزكاة ، واستخلصوها من أيديهم لبيت المال ، واستمر الأمر على ذلك قرونا عديدة ، فما سمعنا بشيء من حرب الطبقات طيلة هذه القرون الزاهية بالحضارة والعمران من الخليج الفارسي إلى شواطئ المحيط الأطلسي . وما كان ذلك كله إلا بفضل التشريع السماوي إذ ذاك ؛ شرع الله الذي خلق الداء وقدر له الدواء . ومن أجل المبادئ التي عني بها الإسلام فكرة الإخوة الإنسانية ، فقد نبه القرآن الكريم إلى وحدة الأيوين ، الداعية إلى التعاون والتعارف والتناصر والتحاب بين بني الإنسان ، ونهى عن التفاخر بالأنساب ، ووضع مقياس التفاضل بين الناس ، فجعله التقوى لا الجنس ، ولا المال ولا القوة .

قال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وقال عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع : « يا أيها الناس كلصم من آدم وآدم من تراب ، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى » .

ومن مبادئ الإسلام السامية إحسان معاشرمة المسلمين لغيرهم من أهل الأديان والمذاهب إلا في حالة العدوان ، وفي القرآن الكريم : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم ، وتقسطوا إليهم ؛ إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » . وقد عمل رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - وخلفاؤه من بعده ، على وفق هذه المبادئ السامية حتى أبيع الإصهار إلى أهل الكتاب ، مع ترك الحرية للزوجة ، وعدم منعها من إقامة شعائر دينها .

ومن أسمي مبادئه إقامة العدل بين الناس حتى غير المسلمين منهم ؛ قال تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء

والمنكر والبغى ، يعظكم لعلمكم تذكرون ، وقال تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ؛ اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

لقد عرف الشرق بروحيته ، وأنه مهبط الوحي ، ومنبع الديانات ، ومبعث النبوات ، وموطن الفضائل ، فيه غرس ، وفيه نمت وترعرعت .

عرف الشرق بهذا ، بينما عرف الغرب بمادته ، وأنه مشرق العلوم ، ومهد الاختراعات ، ومنبع الاكتشافات . وهذا ما حمل بعض الناس على أن يجعل تقدم الغرب نتيجة لمادته وتأخر الشرق نتيجة لروحيته ، فأخذ ينظر إلى الغرب نظرة إعظام وإكبار ، وإلى الشرق نظرة ازدراء واحتقار . وإن نظرة واحدة إلى الشرق : إلى الجزء الممتد منه بين المحيط الاطلسي غرباً ، وحدود الصين شرقاً ، ترينا كيف استفادت الإنسانية من الروحية ، وكيف أثرت الروحية في الاجناس المختلفة ، فأزالت ما بينها من فوارق جنسية ، وقطعت ما بينها من حواجز طبيعية .

فهذه مراکش ، والجزائر ، وتونس ، وطرابلس ، ومصر ، والسودان ، وفلسطين ، وسوريا ، ولبنان ، وتركيا ، وشرق الأردن ، وجزيرة العرب ، والعراق ، وفارس ، والهند ، وأفغانستان ، وأندونيسيا ، وتركستان ؛ أمم متعددة ، وألسنة مختلفة ، وألوان متغايرة ، وطبائع متباينة .

ومع هذا قد أصبحت هذه الامم كلها أمة واحدة بفضل الروحية التي أذابت هذه الاختلافات ، فحولتها إلى أمر جامع يدفع الكل بقوة واحدة لا تختلف .

جعلت ساكن مراکش يحس بإحساس ساكن أندونيسيا : يألم لألمه ، ويفرح لفرحه ، ويحزن لحزنه ، كأنما الجميع أسرة واحدة ، بل أعضاء جسم واحد ، إذا شكاً منه عضو تداعى له سائر البدن بالحي والسهر ، يسود الجميع شعور واحد : هو أن الإنسانية وحدة موزعة على أقطار الأرض ؛ فليس لامة أن تعتدى على أرض أمة أخرى ، أو تحاول تسخيرها أو استغلالها أو التسلط عليها ؛ بل يجب أن يعيش الجميع القليل كالجميع الكثير ، والضعيف كالقوى ، في تحرز من الخوف والعوز والعدوان .

ولهذا نجد بين أمم الشرق من التعاب والتواد ورغبة كل منها في خير الأخرى ما تقرّ به عين الإنسان .

أما الغرب الغالى فى ماديته ، فإنه يحنى المر من ثمارها ، فقد قطعت أوصاله ، وجعلته شيعاً متنافرة ، وأحلت بينها العداوة والبغضاء والحسد ، يترى بعض الدوائر ، ويحاول أن يبنى مجده على أنقاض غيره . وليس هذا بين الأمم التى تباعدت أصولها لحسب ؛ بل بين الأمم التى يجمعها أصل واحد .

فهذه الدول التى تنتهى إلى الأصل اللاتينى فى أوروبا ، كالتى تنتهى إلى الأصل الجرمانى ، نرى بينهما من النزاع والصراع ، ما قضى على وحدة الأصل ، وجعل من الأخوين عدوين ، يتمنى كل منهما لآخر الهلاك والدمار .

إذا حكمنا على الغرب هذا الحكم ، فإن ذلك ليس على سبيل التعميم ، فأنا لا أعتقد أن الأمم الغربية كلها مادية ؛ لأن الإنسان بطبيعته لا يمكنه أن يكون مادياً صرفاً ، فهناك ما يزال المثل الأعلى للنشاط الإنسانى روحياً ؛ فالأوربي ينفق عمره فى فهم المعارف ، وخدمة الوطن والإنسانية . والمادى مهما غلا فى ماديته لا يمكن أن ينكر أو يتجاهل ما يترتب على عمله من خدمة البشرية .

وقد لاحظت — وأنا فى فرنسا — فى أوساط كثيرة اتجاهها روحياً يزداد على مر الأيام ، ويتسع نطاقه ، وشاهدت كثيراً من المتدينين يصعدون فى أعمالهم عن روح دينية عميقة ، بل شاهدت فى غير المتدينين استعداداً عظيماً لفهم الروحية والاعتراف بفضلها ، والاختذ بها ، ويمتد السكثرون منهم أن ما أصاب الإنسانية من الويلات إنما هو نتيجة ترك الدين ، ولهذا أخذ الميل إلى الدين يتجدد ويقوى ، والشعور الدينى يزداد ويعظم فى النفوس إلى حد أن تألفت أحزاب سياسية أطلقت عليها أسماء دينية .

وإننا ليسرنا أن نرى الشرق ينهض عاملاً على مجازاة الغرب أخذاً بأسباب مدينته بما فيها من مادية لا بد منها ، كما يسرنا أن نُسجل للغرب سريان الروحية فى حضارته المادية .

يسرنا أن نرى هذا التوفيق الجديد بين الدين والعلم ، بين الروح والمادة . وهذا يبشر بخير عظيم تحنيه الإنسانية من وراء هذا التوفيق .

التقليد وفطره

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

الأستاذ بكلية أصول الدين

١ — التقليد ظاهرة اجتماعية .

ب — يكون في الخير والشر ، ولا بد منه للطفل .

ج — يكون من الفرد والجماعة .

من الظواهر الاجتماعية التي نراها في كل عصر وبيئة من زمان ومكان ، ظاهرة التقليد . وإذا كان لكل ظاهرة سبب أو أسباب تظهر بظهورها وتذهب بذهابها ، فإن السبب الأول للتقليد هو الاجتماع .

لأنه إذا اجتمع بضعة أفراد في فصل من فصول المدرسة ، أو عمل من الأعمال مهما كان ذلك العمل ، وجدنا بعضهم يتبع في بعض ما يعمل البعض الآخر ، ويكون هذا بدافع المحاكاة التي لا يلتفت أول الأمر لتعاليها ، أو بسبب ما يحس به المقلد من ضعف في نفسه ، ومن قوة فيمن اتخذه قدوة له في بعض ما يأتي أو يذر من أموره .

وقد يجتمع في فرد واحد ، وفي وقت واحد ، هذه الظاهرة وضدها . نعى أنه قد يكون الشخص الواحد مقلدا في بعض ما يفعل آبائه وأسلافه وللعلية من قومه المعاصرين له ، وإن اعتقد أنه من المستقلين في الفكر والرأى ، ومن المحافظين على هذا الاستقلال والمعتزين به ، وهذا ، كما هو واضح ، من الغرابة بمكان .

ولنضرب لذلك بعض الأمثال من تاريخنا المعروف في القديم والحديث :
جاء الرسول الكريم محمد بن عبد الله بدين جديد يريد أن يقيم عليه عالماً
جديداً ، غير الأديان التي ألفتها أمم ذلك العصر القديم . وكان هذا الدين يتطلب
من يريد اتباعه هجر ضلالات الدين الغابر التي كان عليها أسلافه الماضون ، وآبائهم
ولداته المعاصرون .

وكان أن وازنت فئة قليلة أول الأمر ، بين ما كانوا عليه من وثنية ترين
على الصدر وتلغى العقل ، وبين ما يدعو إليه الدين الجديد من عبادة إله واحد
تقوم الأدلة على وجوده ويصل إليه العقل بتفكيره . وخرجت هذه الفئة من
الموازنة نازدة الماضى وتقليده ، مؤمنة بالرسالة الجديدة .

لكن الأكثرين رأوا أول الأمر أيضاً ، أن في الدخول في الإسلام
تسفيهاً لأحلام أسلافهم ، وتخطئة لتفكيرهم ، واتباعاً لفق رقيق الحال ضعيف
الجانب من فتيانهم ، وإن كان من أشرفهم قبيلة وأوسطهم نسباً . ومن ذلك
جمدوا على ما ورثوه من عقيدة ودين ، مع وضوح ما في ذلك من باطل حتى
ليقول بعضهم :

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية ديناً
ويقول أيضاً :

فوالله لولا أن نجيء بِسُبَّةٍ تُجَرُّ على أسيافنا في المحافل
لكُنَّا اتبعناه على كل حالة من القول جدا غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل

وكانوا مع هذا ، يحسبون أنهم يحسنون صنماً ؛ إذ نأوا بأنفسهم عن ذل
التقليد وصغار الاتباع .

هكذا ، كانوا يعتقدون ، مع أنهم في واقع الأمر ، إذا حللنا موقفهم إلى
أسبابه الأولى ، ليسوا إلا مقلدين للأباء فيما ورثوا من دين ، وليسوا إلا بعيدين
عن الاستقلال في التفكير والرأى ؛ هذا الاستقلال في الرأى والفكر الذي كان
السبب في سبق من سبق للإسلام ونبت ما كان عليه من دين الأسلاف .

ومن هذا كانوا يقولون كما حكى عنهم القرآن : « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » ؛ فيرد عليهم الرسول بقوله : « قال أولو جئتمكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، »

إذاً هذه الحالة وأمثالها ، وإن ظُنَّ فيها الاستقلال في الرأي ، هي مما اختلط فيه الجانبان ، بل هي أدنى إلى التقليد ، ومن ثم كان نعي القرآن على من تأخر عن الإسلام استمساكا بدين الآباء ، بل إننا لنرى أن إسلام كثير من هؤلاء عام الفتح - وقد كثرت المسلمون وقوى الإسلام وأخذ سبيله إلى الانتشار - كان تقليداً أيضاً واتباعاً للرأي الغالب .

على أنه لا عيب في التقليد في الحق من الرأي والخير من العمل . ذلك بأن التقليد يكون في الخير كما يكون في الشر ، ومن ثم كان أثر القدسي الصالحة الطيبة ؛ والقدسي الطالحة الخبيثة في تنشئة الطفل وتربيته .

يقلد الطفل والناشيء في فجر حياته أبويه وإخوته الكبار فيما يعملون ، وفي بعض ذلك خير كما في بعضه شر . ثم يقلد لداته ورفقاه في كثير مما يرى منهم . ثم يقلد أخيراً معلميه ويتخذ من بعضهم مثله العليا .

هذا النوع من التقليد : تقليد الصغير في المنزل ، والمتعلم في المدرسة ، والشاب في المصنع ، أمر لا بد منه ولا حيلة فيه . إنه ضروري حقاً ليصل الصغير إلى معرفة كثير من الأمور . ثم لينفذ من ذلك إلى تكميل نفسه فيما بعد . وهذا بمعرفة أن له شخصية يجب أن تتكوّن ، وأن تكون مستقلة بمقدار ما يمكن أن يكون هذا الاستقلال ، وبمعرفة أن له عقلاً يجب أن يفكر ليذكر أن هذا العمل شر في نفسه ، وإن أجمع عليه أبواه ومعلوه والناس جميعاً ، وأن ذاك العمل الآخر خير في نفسه ، وإن كان قليل الأنصار .

والنتيجة لهذا وذاك : أن ينأى عن التقليد وأن يأخذ في الاستقلال في الرأي والتفكير والعمل ، مع الحذر أن يقع في الإغراب فيما يرى ؛ لأنه إغراب ، لا لأنه حق وخير .

ومن الواضح بعد هذا ، أن التقليد في هذه المرحلة بصفة خاصة سنة من سنن الطبيعة لا بد أن نزل على حكمها ، ثم علينا متى تقدمت بنا السن والعقل أن نحد منها ، وبمقدار ما نحد منها تتكون الشخصية ويظهر الاستقلال .

والتقليد ، كما تراه في المرحلة أو المراحل الأولى من حياة الفرد الذي لا يزال في دور تكوين الشخصية ، تراه كذلك في حياة الجماعات في أول أمرها ، وفي حياة الهيئات التي تحس من نفسها الضعف ، ويعوزها الابتكار والاصالة في التفكير والعمل ، وفي حياة الأمة التي ترى نفسها دون غيرها حضارة ورقيا . وهو في هذا كله قد يكون في الخير ، كما قد يكون في غير الخير ، والمثل لذلك جد معروفة .

ولكن لعل من الطريف أن نشير الى تقليد كلية دار العلوم لكلية الآداب في الكثير من أمورها ، ثم تقليد كلية اللغة عندنا في الأزهر لدار العلوم ، ثم تقليد كلية أصول الدين لكلية اللغة ، والدور الآن دور كلية الشريعة .

ومثال آخر من تقليد الهيئات والجماعات : كان الأزهر كما نعرف جميعا إلى مفتتح هذا القرن العشرين طليقا في دراساته وامتحاناته ، يتلقى الطالب العلم الذي يجب على من يحب من الشيوخ ، ثم يتقدم الى الامتحان متى احس من نفسه القدرة والكفاءة .

ثم أرادت الحكومة وشيوخه إصلاحه كما زعموا ، فأدخل عليه كثير من القيود حتى أصبحنا هذه الأيام ، وإذا به يقلد وزارة المعارف في كل شيء تقريبا ، وبهذا فقد الكثير من أصالته !

أما تقليد الأمة كلها في كثير من أمورنا العامة ، فأوضح من أن 'يحتاج لأن يُدل عليه . ومع هذا فإنني أشير لإشارات عابرة إلى أثر ذلك في التعليم والدستور والقوانين ونظم القضاء . وليس ببعيد منا ما كان من فرض قانون مدني جديد ، قدمه واضعه بعد أن صاغه من مزق مختلفة من قوانين الغرب ، متناسيا أن ما به تصلح أمة في الغرب ، قد لا تصلح به أمة في الشرق لاختلاف ظروف الزمان والمكان والدين أيضا . [للبحث بقية]

بين يديكم والليث

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد الله المراغي
مدير المساجد

— ٢ —

الإمام الليث بن سعد يعتبر مفخرة مصر في أواخر القرن الأول للهجرة ؛ إذ كان إماما حجة ثبتا في الفقه والحديث ، كما كان من سادات أهل زمانه حفظاً وفضلاً وكرماً ، كما اشتهر برفعة القدر وعلو المكانة ، فقد أدرك نيافاً وخمسين رجلاً من التابعين ونهل من علمهم وفضلهم السكثير ، ولم يترك وسيلة في سبيل العلم إلا أخذ بها ، فقد شد رحاله إلى الحجاز ليغتترف من بحار علمائه ، كما طوف بأرض العراق باحثاً منقياً عن العلم والعلماء ؛ ليضم من علومهم إلى علمه الفياض . وهو لذلك كان نهما في العلم لا يشيع ، وظامئاً إلى ورده لا يروى ، وهو في ذلك كله يبحث عن الكمال في العلم ، والقصد إلى بلوغ الغاية في علوم الدين ، فتم له ما أراد إذ كان أفضل أهل زمانه فقها وحديثاً وحفظاً وفضلاً كما أسلفنا ؛ حتى أصبح إمام مصر وفقهها غير منازع .

مولده ونشأته : ولد رضى الله عنه ببلدة قلقيشندة (إحدى قرى مديرية القليوبية) سنة أربع وتسعين للهجرة . ثم حفظ القرآن الكريم وتفقه على شيوخ مصر وأخذ عنهم ، وإليهم يرجع الفضل في تثقيفه ثم نبوغه في الفقه والحديث ، فقد كان يقوم عليه علماء المدينة وعلماء الشام وهو شاب فيناظرهم جميعاً ثم يحوز قصب السبق ، مما جعلهم يعترفون بفضله وغزارة علمه ، ويدعونه إماماً إرهاساً منهم بما سيأتي به المستقبل .

شهادة الأئمة بسعة علمه : شهد له الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه بأنه أفقه من مالك بن أنس . كما شهد له الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه بأنه ليس في المصريين من هو أثبت من الليث بن سعد ، وأنه كثير العلم صحيح الحديث . كما شهد له يحيى بن بكير بذلك ولكن كانت الحظوة لمالك ، وهو فوق ذلك من شيوخ الإمام البخاري راوي الحديث ، وأساتذته . كل ذلك يدل على سعة علمه وعظم فضله ، وعلو كعبه في علوم الذين . ومن رسالته التي سنشرها بعد تؤخذ طريقته التي كان يؤثرها في البحث العلمي .

مكانته عند الخلفاء والولاة : ولسعة علمه ورجاحة عقله وبعد نظره وسديد رأيه كان الامراء بمصر لا يقطعون أمراً دونة ، كما كان يوصى الخلفاء بالآخذ عنه ليقينهم أن ليس في زمانه أعلم منه ، كما أن الحادثة التي وقعت بينه وبين أمير المؤمنين هارون الرشيد تدل على رسوخه في العلم وعلو قدره في الإفتاء ؛ فقد جرى بين هارون الرشيد وبنت عمه زبيدة بنت جعفر كلام فقال هارون : أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة ، ثم ندم لجمع الفقهاء فاختلفوا ، ثم كتب إلى البلدان فاستحضروا علماءها إليه ، فلما اجتمعوا جلس لهم فسألهم ، فاختلفوا وبقي شيخ لم يتكلم ، وكان في آخر المجلس وهو الليث بن سعد ، فسأله قال : إذا أخلى أمير المؤمنين مجلسه كلبته . فصرههم ، فقال : يدنيني أمير المؤمنين فأدناه ، فقال : أتكلم على الأمان ؟ قال : نعم . فأمر بإحضار مصحف فأحضر ، فقال : تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها . ففعل فلما انتهى إلى قوله تعالى : « ولئن خاف مقام ربه جنتان » قال أمسك يا أمير المؤمنين . فأمسك . فقال : قل : إني أخاف مقام ربي ، فقال ذلك . فقال : يا أمير المؤمنين فهى جنتان وليست بجنة واحدة . عند ذلك سمح التصفيق والفرخ من وراء الستر ، فقال له الرشيد : أحسنت . وأمر له بالجوائز والخلع وأمر له باقطاع الجيزة ولا يتصرف أحد بمصر إلا بأمره ، وصره مكرماً . وأية مكانة لإمام أعظم من هذه المسكنة ، وأى قدر أعلى من هذا القدر وأكرم إلا أن يكون صاحبهما الإمام الليث بعلمه وفقهه وبصره النافذ لبواطن الأمور ؟

كرمه وسخاؤه : ولهذه المسكاة العظمى التى بلغها فى العلم أغدق عليه الخلفاء والولاة العطايا : فاكتملت بها داره وامتلات بها رحابه ، حتى أصبح من ذوى الثراء الواسع والمسال الوافر ، فقد بلغ دخله السنوى مائة ألف دينار ، إلا أنه لم يكنزها ويوصد دونها الأبواب ، بل أخذ يوزعها على الفقراء والمساكين حتى لم تجب عليه الزكاة ، لأنها لم تمض عليها سنة كاملة وهى فى حوزته ، بل كان ينفقها فى كرم واسع وسخاء منقطع النظير .

أرسل له الامام مالك رضى الله عنه يطلب قليلا من العصفر لصبغ ثياب تلاميذه ، فأرسل اليه مقدارا من العصفر يقول الامام مالك فى وصفه : إنه صبغ منه ثياب تلاميذه وثيابه وثياب جيرانه ومابقى يبيع بألف دينار ، كما أهدى اليه الإمام مالك طبقا من تمر المدينة فأعاده اليه مملوما بالذهب ، كما كان يهب للإمام مالك كل ستة ألف دينار ، وذلك سخاء دونه كل سخاء ، كما كان مضرب المثل فى الكرم والإحسان ، حتى إنه كان ينفق على سبعين بيتا من بيوت الأرامل ، فيحيل عسرها وكآبتها يسرا وسرورا ، وقد جاءت امرأة تطلب رطلا من العسل لمرض زوجها فأمر الخادم بإعطائها قنطارا ، فقال له يا إمام : إنها طلبت رطلا . فقال : هى سألت بقدرها ونحن نعطيها بقدرنا .

كل هذا يدلنا على أنه كان مطبوعا على الكرم ، مجبولا على السخاء والجود ، وأنه كان يمضى فى ذلك بحب خالط نفسه واستولى على قلبه ووجدانه جعله يحسن حبا فى الإحسان ، ماضيا فى ذلك على سنة النبى الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم .

ورعه وزهده : ومع أنه كان ينافس الريح كرما وسخاء ، كان لا ينال من موائده إلا الفتات ، وهذا منتهى الزهد ، إذ لا يتمتع عن اللذائذ وأنواع الترف ثم يقدمها هدية للناس إلا من بلغ من الزهد غايته ومن التقشف نهايته ؛ ذلك إلى صلاحه الذى يحدثننا هو عنه حيث يقول : « والذى نفسى بيده إني لأعرف رجلا لم يفعل محرما قط ، يعنى نفسه . على أن قول الشافعى فى رثائه « لقد حزت أربع خصال لم يكملن لعالم قبلك : العلم والعمل والزهد والكرم ، يدل على ما طبعت عليه نفسه من التفانى فى الله والعزوف عن مفاتن الحياة .

وفاته رضى الله عنه : عمر الإمام الليث حياة طويلة مديدة قضاها في نشر العلم والصلاح والتقوى ، فقد توفي سنة خمس وسبعين ومائة للهجرة ، وعمره إحدى وثمانين سنة . رحمه الله رحمة واسعة ، وجزاء عن الإسلام والمسلمين والعلم وأهله خير الجزاء .

ورسالة الإمام الليث بن سعد المصرى إلى الإمام مالك بن أنس المدنى آية من آيات النبل ، وسمو الأدب في البحث والمناظرة ، على ما فيها من قرع الحجسة بالحجة والدليل بالدليل ، ولست تشعر حين تقرأ هذه الرسالة بشيء يمس الكرامة أو تلمح ما يؤذى الشعور .
قال الليث رحمه الله :

« سلام عليك فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو . أما بعد - عافانا الله ، وإياك وأحسن لنا العاقبة فى الدنيا والآخرة - ، قد بلغنى كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذى يسرنى ، فأدام الله ذلك لکم وأتمه بالعون على شكره والزيادة من إحسانه ، وذكرت نظرك فى الكتب التى بعثت بها إليك ، وإقامتك إياها وختمك عليها بخاتمك ، وقد أتقنا فجزاك الله عما قدمت منها خيرا ، فإنها كتب انتهت إلينا عنك فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها ، وذكرت أنه قد أنشطك ما كتبت إليك فيه من تقويم ما أتانى عنك إلى ابتدأى بالنصيحة ، ورجوت أن يكون لها عندى موضع ، وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فيها جميلا إلا أنى لم أذكرك مثل هذا ، وأنه بلغك أنى أفتى بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم ، وأنى يحق على الخوف على نفسى لاعتماد من قبل على ما أفتيتهم به ، وأن الناس تبع لأهل المدينة التى إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن ، وقد أصبت بالذى كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى ووقع منى بالموقع الذى تحب ، وما أجد أحدا ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ لفتياهم فيهم فيما اتفقوا عليه منى ؛ والحمد لله رب العالمين الذى لا شريك له .

وأما ما ذكرت من مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، ونزول القرآن بها عليه بين ظهري أصحابه وما علمهم الله منه ، وأن الناس صاروا تبعاً لهم فيه

فكما ذكرت وأما ما ذكرت من قول الله تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ، فإن كثيراً من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ، فجددوا الأجناد واجتمع إليهم الناس فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه ، ولم يكتموا شيئاً علموه ، وكان في كل جند منهم طائفة يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ، ويجهدون برأيهم فيما لم يفسره القرآن والسنة وتقدمهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم ، ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم ؛ بل كانوا يكتبون في الأمر اليسير لإقامة الدين والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه ، فلم يتركوا أمراً فسر القرآن أو عمل به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أو اتهموا فيه بعده إلا علموه ، فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر والشام والعراق على عهد أبي بكر وعمر وعثمان ، ولم يزالوا عليه حتى قبضوا لم يأمرهم بغيره ، فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمراً لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم ، مع أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اختلفوا بعد في الفتيا في أشياء كثيرة ، ولولا أنى قد عرفت أن قد علمتها كتبت بها إليك ، ثم اختلف التابعون في أشياء بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم قال وقد عرفت أيضاً عيب إنكارى إياه أن يجمع أحد من أجناد المسلمين بين الصلاتين ليلة المطر ، ومطر الشام أكثر من مطر المدينة بما لا يعلمه إلا الله ، لم يجمع منهم إمام قط في ليلة مطروفيهم أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومعاذ بن جبل ، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أعلسكم بالخلال والحرام معاذ بن جبل ويأتى معاذ يوم القيامة بين يدي العلماء برثوة خطوة ، وشر حبييل بن حسنة وأبو الدرداء وبلال بن رباح .

وكان أبو ذر بمصر والزيبر بن العوام وسعد بن أبي وقاص — وبحمص سبعون من أهل بدر وبأجناد المسلمين كلها — وبالعراق ابن مسعود وحذيفة

ابن اليان وعمران بن حصين ، ونزلها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه سنين وكان معه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجمعوا بين المغرب والعشاء قط . ومن ذلك القضاء بشهادة شاهد ويمين صاحب الحق وقد عرفت أنه لم يزل يقضى بالمدينة به ، ولم يقض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشام وبحمص ولا بمصر ولا بالعراق ، ولم يكتب به إليهم الخلفاء الراشدون : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، ثم ولي عمر بن عبد العزيز وكان كما قد علمت في إحياء السنن والجد في إقامة الدين والإصابة في الرأي والعلم بما قد مضى من أمر الناس ، فكتب إليه زريق بن الحكم : إنك كنت تقضى بالمدينة بشهادة الواحد ويمين صاحب الحق فكتب إليه : إنا كنا نقضى بذلك بالمدينة فوجدنا أهل الشام على غير ذلك فلا تقض إلا بشهادة رجلين عدلين أو رجل وامرأتين . ولم يجمع بين المغرب والعشاء قط ليلة المطر ، والمطر يسكب عليه في منزله الذي كان فيه بخناصرة ساكننا .

ومن ذلك أن أهل المدينة يقضون في صدقات النساء أنها متى شامت أن تتكلم في مؤخر صداقها تكلمت ، فدفع إليها ، وقد وافق أهل العراق أهل المدينة على ذلك ، وأهل الشام وأهل مصر ، ولم يقض أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من بعدهم لإمرأة بصداقها المؤخر إلا أن يفرق بينهما موت أو طلاق فتقوم على حقها ، ومن ذلك قولهم في الإيلاء : إنه لا يكون عليه طلاق حتى يوقف وأن مرت الأربعة الأشهر وقد حدثني نافع عن عبد الله بن عمر وهو الذي كان يروى ذلك التوقيف بعد الأشهر أن الإيلاء الذي ذكره الله في كتابه لا يحل للمولى إذا بلغ الأجل إلا أن ينيء كما أمر الله أو يعزم الطلاق ، وأنتم تقولون أن لبث بعد الأربعة الأشهر التي سن الله في كتابه ولم يوقف لم يكن عليه طلاق ، وقد بلغنا أن عثمان بن عفان وزيد بن ثابت وقبيصة بن ذؤيب وأبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قالوا في الإيلاء : إذا مضت الأربعة الأشهر فهي تطليقة بآنية . وقال سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وابن شهاب : إذا مضت الأربعة الأشهر

فهي تطلقه وله الرجعة في العدة — ومن ذلك أن زيد بن ثابت كان يقول : إذا ملك الرجل امرأته فاخترت زوجها فهي تطلقه ، وإن طلق نفسها ثلاثا فهي تطلقه . وقضى بذلك عبد الملك بن مروان . وكان ربيعة بن عبد الرحمن يقول . وقد كاد الناس يجتمعون على أنها إن اختارت زوجها لم يكن فيه طلاق وإن اختارت نفسها واحدة أو اثنتين كانت له عليها الرجعة ، وإن طلق نفسها ثلاثا بانت منه ، ولم تحل له حتى تنكح زوجا غيره فيدخل بها ثم يموت أو يطلقها ، إلا أن يرد عليها في مجلسه فيقول : إنما ملكتك واحدة فيستخلف ويخلى بينه وبين امرأته — ومن ذلك أن عبد الله بن مسعود كان يقول : أيا رجل تزوج أمة ثم اشتراها زوجها فاشترأوه إياها ثلاث تطلقيات . وكان ربيعة يقول ذلك . وإن تزوجت المرأة الحرة عبدا فاشترته فمثل ذلك — وقد بلغنا عنكم شيئا من الفتيا مستكرها وقد كنت كتبت إليك في بعضها فلم تجبني في كتابي فتخوفت أن تكون استغفلت ذلك فتركت إليك في شيء مما أنكره .

وفما أوردت فيه على رأيك وذلك أنه بلغني أنك أمرت زفر بن عاصم الهلالي حين أراد أن يستسقى أن يقدم الصلاة قبل الخطبة فأعظمت ذلك : لأن الخطبة في الاستسقاء كهية يوم الجمعة إلا أن الإمام إذا دنا من فراغه من الخطبة فدعا حول رداءه ثم نزل فصلى . وقد استسقى عمر بن عبد العزيز وأبو بكر محمد بن عمرو ابن حزم وغيرهما ، فكأنهم يقدم الخطبة والدعاء قبل الصلاة ، فاستهتر الناس كلهم فعل زفر بن عاصم من ذلك واستنكروه .

ومن ذلك أنه بلغني أنك تقول في الخليطين في المال أنه لا تجب عليهما الصدقة ، حتى يكون لكل واحد منهما ما تجب فيه الصدقة . وفي كتاب عمر بن الخطاب أنه يجب عليهما الصدقة ويترادان بالسوية ، وقد كان ذلك يعمل به في ولاية عمر ابن عبد العزيز قبلكم وغيره ، والذي حدثنا به يحيى بن سعيد ولم يكن بدورن أفاضل العلماء في زمانه فرحمه الله وغفر له وجعل الجنة مصيره .

ومن ذلك أنه بلغني أنك تقول : إذا أفلس الرجل وقد باعه رجل سلعة فتقاضى طائفة من ثمنها ، أو أنفق المشتري طائفة منها أنه يأخذ ما وجد من متاعه ، وكان

الناس على أن البائع إذا تقاضى من ثمنها شيئاً ، أو أنفق المشتري منها شيئاً فليست بعينها .

ومن ذلك أنك تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعط الزبير بن العوام إلا لفرس واحد ، والناس كلهم يحدثون أنه أعطاه أربعة أسهم لفرسين ومنعه الفرس الثالث ، والامة كلها على هذا الحديث : أهل الشام وأهل مصر وأهل العراق وأهل أفريقيا لا يختلف فيه اثنان ، فلم يكن ينبغي لك وإن كنت سمعته من رجل مرضى أن تخالفه الامة أجمعين .

وقد تركت أشياء كثيرة من أشباه هذا ، وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة ، وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك مع استئناسي بمكانك ، وإن نأت الدار فهذه منزلتك عندي ، ورأيي فيك فاستقيمه ، ولا تترك الكتابة إلى بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك وحاجة إن كانت لك أو لأحد يوصل لك فإني أسر بذلك . كتبت إليك ونحن صالحون معافون والحمد لله .

نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا ، وتمام ما أنعم به علينا والسلام عليكم ورحمة الله .

الجود

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اصطناع المعروف يقي مصارع السوء » . وقال : « إن الله يحب الجود ومكارم الأخلاق ويبغض سفسافها » أي رديها .

قال الحسن والحسين رضي الله عنهما لعبد الله بن جعفر : إنك قد أسرفت في بذل المال . قال بأبي وأمي أنتما ، إن الله قد عودني أن يتفضل علي ، وعودته أن أتفضل على عباده ، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني .

وقال المأمون لمحمد بن عبد الله المهلبى : أنت متلاف . قال : منع الجود سوء الظن بالمعبود ، يقول الله عز وجل : « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه » ، وهو خير الرازقين .

الغزل

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار
الاستاذ بكلية اللغة العربية

الاذنين الايسر، والاذنين الايمن

يذكر هذان التعبيران في تشریح القلب . وهما ترجمتان لتعبيرين أفرنجيين . فالاذنين الايمن ترجمة Oreillette droite ، والاذنين الايسر ترجمة Oreillette gauche في الفرنسية . والذي يعنينا في هذا الموطن التنبيه على أن صيغة الاذنين بالتذكير لا تصح في العربية ، وأن الواجب فيها الاذنية . وذلك أنه يراد تصغير الاذن ، والاذن مؤنث البتة ، فلا بد من اختتام مصغرها بالنساء ، كما يقال في تصغير عين : عينية وسن سنيّة . فالوجه أن يقال : الاذنية النبی ، والاذنية اليسرى ، ومن أعلام العرب أذينة ، وهو تصغير أذن سمي به مصغرا ، ولو سميت رجلا بأذن ثم صغرت قلت : أذن إذ إنك إنما صغرت مذكرا ، كما لو سميت رجلا بعين ، تقول في تصغيره : عيسين ، قال سيبويه في الكتاب : « وإذا سميت رجلا بعين أو أذن فتحقيقه بغيرها ، وتدع الهاء هنا ويونس يدخل الهاء ويحتج بأذينة وإنما سمي بمحقر ، وأذينة من ملوك العماليق . وعروة بن أذينة شاعر غزل رقيق أموي ، وكان مع هذا من العلماء والمحدثين في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي يقول في الغزل :

إن التي زعمت فؤادك ملتها	خلقت هواك ، كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها	بلباقة فأدقها وأجلها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبي	ما كان أكثرها لنا وأقلها

وهذه الايات من غزل حماسة أبي تمام .

لفته إلى الواجب عليه

يرى القراء هذا الاستعمال كثيراً في المقالات والأخبار ، وفيه قرن اللفظ ومشتقاته بالحرف إلى ، ويراد توجيه الشيء نحو أمر معين . وفي اصطلاح الدواوين عبارة « لفت نظر الموظف » ، ويراد به تنبيهه على هفوة فرطت منه ، وإنذاره ألا يعود إليها .

ويرى بعض المعنيين بالعربية إنكار هذا إذ لم يرد في المأثور عن العرب ، ولا ذكره أصحاب المعاجم . وإنما الوارد قرن هذه المادة بالحرف عن ، ويراد حينئذ الصَّرف والتَّسْنِي والْتَنِي . فيقال لفته عن السفر أى لواه عنه وصرفه . وفي الكتاب العزيز في سورة يونس : « قالوا أجمعتنا لثقتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لنا الكبرياء في الأرض وما نحن لك بمؤمنين » .

ويبدو أن معنى الصرف عن الشيء في هذه المادة جاء من قبل الحرف عَن ، ولا موجب للزوم هذا الحرف ، وإن وردت المادة به ، فإذا قرنت المادة بالحرف إلى كان معناها التوجيه والتسديد : وذلك أن اللفظ في الأصل الصرف والى ، يقول في المصباح : « لفته لفتاً — من باب ضرب — : صرفه إلى ذات اليمين والشمال ، وأنت إذا صرفت إنساناً نحو شيء فقد وجهته إليه . وكما أن الصرف يقرن بعن وإلى فكذلك اللفظ الذي هو بمعناه . وما يؤيد ذلك ورود التفت نحوه ، والتفت إليه ، والتفت مطاوع لفت ، وورود المطاوع فرع أصله ، فهو دليل عليه . وفي اللغة أفعال يختلف معناها بالحرف ، من ذلك رغب . يقال : رغب فيه ورغب عنه ، وعدل ، وتولى ، يقال : تولى الكافر عن الإيمان ، وفي الكتاب العزيز ثم تولى إلى الظل .

وما يستأنس به في هذا المقام قول أبي العلاء المعرى :

أقر السلام على عبد السلام فلى جيد إلى نحوه ما زال ملفوتا

فتراه استعمل ملفوتا مع إلى ، وملفوت وصف من لفت . وأبو العلاء من هو في البصر بالعربية والبيح بها وإحسان تأثيرها واحتذاءها .

تفضلتم سعادتكم بمنحى كذا ، تفضلوا سعادتكم بقبول التحية

يجرى هذا الأسلوب في مقامات الخطاب إظهارا لمرتبة المخاطب وتكريمه ،
ودرجته في الشرف والمجد في هذا العصر .

فيقال لمن كان من ذوى المكانة الدينية : أمرتم فضيلتكم ، ولعصاحب المقام الرفيع :
أمرتم رفعتكم ، ولمن كان من الوزراء : أمرتم معاليكم ، ويقال : أمرتم عزتكم
أو سعادتكم لمن يتمتع برتب خاصة في سُلَّم الرقي والسمو في الحياة الاجتماعية .
وقد مضت السُّنة في العربية أن يخاطب العظيم بالحديث منه كآنة غائب ولا
يواجه بالخطاب . فكان يقال : يأمر أمير المؤمنين لى بكذا ، أو يبذل لى الأمير
كذا ، كأنما العظيم أرفع أن يناله المتحدث بخطابه ، فهو فى منزلة سامية لا يسمو
إليها أحد ، فإنما قصّره أن يتحدث عنه كأنه غائب . ويعدّ البلاغيون هذا
المقام من مواطن إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر . ولو جرى الأمر
على هذه السنة العتيقة ل قيل : تفضّلتم سعادتكم أو أمرت فضيلتكم أو رأّت
معاليكم ، أو تفضل عزتكم بقبول التحية وهكذا . ولإسناد الأحداث إلى السعادة
والحضرة والمعالى مجاز عقلى معروف أمره وقد احتذى هذا الأستاذ أحمد
السكندرى عليه رحمة الله ورضوانه ، فهو يقول فى الاحتفال بافتتاح الدور الثانى
للمجمع اللغوى : (١) « تعرف حضراتكم أنه لا يتسنى لآلية جماعة أن تعمل عملا
متواليا بدون طريقة توحد عمل أفرادها ، وهذه الطريقة يمكن التخرج عليها مع
الفعل المضارع نحو تفضلون حضراتكم ، بإجراء الكلام على لغة يتعاقبون فيكم ملائكة
بالليل وملائكة بالنهار فحضراتكم فاعل والواو علامة الجمع نحو تفضلوا سعادتكم .
وقد استحکم الأسلوب الذى صدرت به المنال فى أقلام الكتّاب ، ويكاد
يكون من العسير ثنيهم عما اعتادوا ، وصرفهم عما درجوا عليه ، فلا مناص من
تخريبه وبحته من ناحية العربية .

وهنا يعرض للباحث مسائل فى هذا المثال — تفضلوا سعادتكم — فهل
سعادتكم مرفوع أو منصوب ؟ وإذا كان مرفوعا فما رافعه ، وإذا كان منصوبا
فما ناصبه ؟

ويبدو أنه يجوز الوجهان : الرفع والنصب .

فالرفع على أن « سعادتكم » بدل اشتغال من الضمير . ومن المقرر في النحو أن إبدال الظاهر من ضميرى الحاضر — ضميرى المتكلم والمحاطب — يجوز في بدل الاشتغال ، كقول الشاعر (١) :

ذرينى إن أمرك لن يطاعا وما ألفتنى حلمى مضاعا

فقوله حلمى بدل اشتغال من الياء فى ألفتنى وهى ضمير المتكلم . ومن هذا قول النابغة الجعدي :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا ولما لئرجو فوق ذلك مظهرا

فقوله : مجدنا بدل اشتغال من الضمير « نا » ، وهو ضمير المتكلم . ومن أمثلة ابن مالك فى الالفية : إنك ابتهاجك استملا ، ولا يعترض على هذا التخريج بأن الفعل فى تفضلوا أمر وهو لا يرفع الظاهر لأنه يغتفر فى الثوانى مالا يغتفر فى الاوائل ، أو أن العامل محذوف مدلول عليه بما قبله أى ليتفضل كما قيل فى قوله تعالى « اسكن أنت وزوجك الجنة » ، والوجه الاول أجدر بالاتباع ، قرب شئ يصح تبعاً ولا يصح استقلالاً .

ولا يصح أن يخرج سعادتكم على أنه عطف بيان . وذلك أن عطف البيان لا يكون ضميراً ولا تابعاً للضمير ، لأن عطف البيان فى الجوامد نظير النعت فى المشتقات فكما لا ينعت الضمير لا يعطف عليه عطف بيان فهذا توجيه الرفع .

وأما النصب فإنه يكون على الاختصاص . فسعادتكم نصب بفعل محذوف وجوبا تقديره أخص . والمخصوص هنا مضاف على حد قوله صلى الله عليه وسلم : نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة .

(١) نسبه سيويه فى الكتاب إلى رجل من بجيله أو خثعم ، وتبعه ابن المراح . وعزاء القراء والزجاج إلى عدى بن زيد . قال صاحب الخزائن : وهو الصحيح . وانظر الكتاب ص ٧٨ ج ٢ والخزانة ٢/٣٦٨ .

ميناء الإسكندرية ميناء جميلة

قد يرى القارئ استعمال الميناء مؤنثاً . وفي كتاب المطالعة للبدارس الابتدائية - وهو عمل جليل من الأساندة - في الحديث عن السويس ولها ميناء تسمى " بور توفيق " والمعروف في الميناء أنه مذكر . قال في اللسان في ونى : " والميناء : مرفأ السفن ، يمد ويقصر ، والمد أكثر . سمي بذلك لأن السفن تنى فيه أى تفر عن جريها ، فتراه أعاد الضمير عليه مذكراً . وما يقطع بتذكيره قول كثير عزة - أورده في اللسان في المادة - :

فلما استقلت مليناخ جمالها . وأشرفن بالاحمال قلت : سفين
تأطرن بالميناء ، ثم جزعنه وقد لج من أحمالهن شحون
فقوله مليناخ أى من المناخ . وقوله : تأطرن أى تثنين وتعطفن ، وجزعنه :
قطعته ، ولج ، هكذا في بعض التراجم في اللسان وفي بعضها لج بالحاء المهملة أى ضاق
وازدحم ، وشحون قال ابن سيده : يجوز أن يكون مصدر شحن ، وأن يكون
جمع شحنة نادراً ، وشحنة السفينة ملئها ، والبيت الثانى من وصف سفين كما ترى ،
يشبه الجبال عليها الرجال ، وهى تسير في الصحراء في سهولة ويسر بسفين مشحونة
بالمئات تثبت بالميناء . ثم قطعنه . فترى كيف رجع الضمير على الميناء مذكراً في قوله :
ثم جزعنه .

كثرة اللثام

قال النبي صلى الله عليه وسلم : " الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة " .
وقالت الحكماء : الكرام في اللثام كالغرة في الفرس .

وقد بالغ ابن حازم فقال :

وقالوا لو مدحت فقى كريماً	فقلت وكيف لى بفقى كريم
بلوت ومر بي خمسون حولاً	وحسبك بالمجرب من عالم
فلا أحد يعد ليوم هـول	ولا أحد يعود على هـديم

على هامش الأدب

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغي
مدير المكتبة الأزهرية

دعا داع أن ارتاض في رياض الأدب العربي القديم ، والأدب العربي فينان
الغياض بهي الرياض ، طرائفه تطرب الأذن ، وتمتع العين وتخفف لوعة الملل ،
وتجلوهم الحزين وتملا صدره ببرد العزاء والصبر . على أن فيه الحكمة الحكيمة
السائرة في البوادي والأمصار ، الدائرة مع الأهرار والأجيال ، يتمثل بها
الحاضر والبادي ، ويطرب لها ربّ الفلسفة والشادي ، فهي حكمة الفطرة وثمرة
الامتحانات والتجربة .

وقد انتهى بي المطاف إلى ركن من أركانها تضوع شذاه وطاب نشره ؛ فأغرى
الطرف به والتلى من محاسنه ، فأطلت الوقوف عنده التماسا للمتعة الأدبية ، واقتناصا
للفائدة العلمية ، ثم أحسست بالرغبة في الحديث عنه : ذلك هو ركن الطغرائي في
رياض الأدب العربي ؛ والطغرائي كما يعلم الأدباء ، شاعر له مكانه في تاريخ الأدب ،
فهو شاعر مشرق الديباجة رصين اللفظ قوى المعنى واضح الغرض موفور الحكمة ،
شاعت حكمته في شعره وبخاصة في قصيدته المعروفة بلامية العجم ، وما أخذ
الطغرائي مكانه بين الشعراء ، ولا شاع ذكره وعلا قدره إلا بها .

والطغرائي هو الذي يقول :

وأكثر الناس من تشقى بصحبته	ومصطفى النار لا يخلو من الشرر
تشابهوا في طباع الشر بينهم	على اختلاف من الأهواء والصور
فلا تروض لإنصافا وقد شهدت	مخالب الليث أن الظلم في الفطر

والعيش كالماء قد يصفو لشاربه حينما ويشرب أحيانا على السكر
حننا عليه فلما طاب موردنا أقامنا الخوف بين الورد والصدر

* * *

وليس من قصدى في هذه الكلمة أن أترجم للطغرائي . وأعدد أغراضه التي طرقها في شعره وسجلها في ديوانه ، فذلك لون من الحديث صار مكررا مملولا ، وإنما القصد من حديثي إلى تسجيل بعض الخواطر التي عرضت لي أثناء قراعتي شرح الصفدي على لامية الطغرائي ، وقد لا يعلم كثير من الناس أن هذه اللامية قد حظيت بعناية العلماء والادباء قديما وحديثا ، ولست أعنى بهؤلاء علماء العربية وأدباها خصب ، ولكنني أعنى بهم مع ذلك علماء الإفرنج وأدباهم فقد ترجمت إلى اللغة اللاتينية مرارا ، وتناولها علماء العربية بالتعليق والشرح ؛ فصار لها كثير من الشروح في عصور مختلفة ومن أشهرها « الغيث المسجم في شرح لامية العجم » للصفدي .

ولا شك أن لامية العجم قطعة أدبية خالدة بحكمتها ، رائعة بمعناها وفنها الأدبي لا يكاد يخطئك في كل بيت منها تشبيه رقيق أو مجاز دقيق ، أو استعارة موفقة أو كناية معجبة ، ولا يفوتك في جملتها نوع من أنواع البديع المعروفة ، ولستكنك تعجب إذ ترى الصفدي يصمت عنها ويطول صمته حتى نهاية شرحه ، فلا يشير إلى شيء منها ، وعهدنا بشراح الأدب أن يجعلوا من شروحهم فرصة للتنافس ، ومجالا للتطبيق العلمي والدلالة على المقدرة الفنية ، وصنيعه في الناحية اللغوية صنيعه في الناحية البلاغية ، وسلوكه فيها سلوك الخائف الحذر المتوقع لهجوم العلماء ولوم النقاد ، وطريقته اللغوية في شرحه أشبه شيء بطريقة أصحاب المعاجم ، فهو يشرح اللفظ بلفظ مثله لا يكاد يتجاوزه .

وليس كذلك طريق اللغويين الادباء كالمبرد والقالى ومن على مذهبهم ، فهم يقرنون النظر بنظيره توضيحا له وإبانة عنه ، وما يلاحظ على الصفدي في شرحه إيجازه في عباراته من معاني الآيات ، وتناوله إياه تناول ضعفة المترجمين الذين يستبدلون اللفظ بلفظ آخر ، غافلين عن حسن الصياغة وانسجام العبارة ، والفق

الأدبي للآليات ، وقد حاول أن يسد ذلك للنقص فاستعان في بيان المعاني بما يشابهها في شعر الشعراء ونثر الكتاب ، فاستطرد واستطرد وكأنه في ذلك يحاول أن يقنعنا بمكانه من الأدب والأدباء فأخطأه التقدير .

* * *

قصور الصفدى في هذه النواحي في شرحه للامية وهي العناصر الضرورية في شرح الأدب ، ومقياس الأدب في الأدب ، يسوغ لنا الحكم عليه بالتخلف عن صفوف الأدباء ، فإذا أضيف إلى ذلك ما شغل به نفسه من الفضول والاستطراد إلى ذكر فصول من علوم قد يتصل بعضها بالأدب ، فيمكن الاعتذار منه كالتحو والصرف ولا يتصل بعضها الآخر بالأدب كالفلسفه والفلك والطب ، فيضعف وجه العذر منه صح حكمنا عليه بما ذكرنا .

وثمة أشياء نأخذها على الصفدى ، ويشترك في مؤاخذته ببعضها جمهور الناس ، ويحس الأدباء خاصة ببعضها الآخر ، فيما يشترك العامة في استهجانهم لمجافاته الذوق وصلته بالأدب العامة تعرضه للأدب المكشوف وتكلفه له رواية وإنشاد .

وليس بنا حاجة إلى ذكر شيء منه هنا ، وما يحسه الأدباء ويضيقون به تكلفه السجع وحرصه عليه ، حتى جاء أكثره مستكرهاً مرذولاً ، يدفع بعضه بعضاً ، وينكر أواخره أوائله ، وجملة ما ذكره من شعر الشعراء استطراد خفيف في ميزان الأدب ورابطته به رابطة ضعيفة ، وما أبعد الأدب عن الاستعارات المستخلقة والسكنايات البعيدة ، وعن أنواع البديع تقسر على مواطنها قسراً ، وتمتكره على أماكنها استكرهاً ، ليظفر قائلها بلقب الشاعر أو الكاتب ظلماً وزوراً .

هذه خواطر بدت لي أثناء قراءة شرح الصفدى على اللامية ، وهي تبين مكان الشرح من كتب الأدب ، كما تبين مقدار دقة صاحب كشف الظنون في صحة حكمه عليه إذ يقول : وشرحها دلامية العجم ، الصفدى بشرح سماء الغيث الذى انسجم فى شرح لامية العجم ، بشرح ذكر فيه شيئاً كثيراً على طريق الاستطراد فصار شرحاً مشحوناً بغرائب الجد والهزل وأحسن المجاميع .

فلا نعدو الحقيقة إذا قلنا عن هذا الشرح : إنه ليس شرحاً أدبياً كما يفهم الأدباء من شروح الأدب ، وإنما هو مجموعة من طرائف الأدب ، جده وهزله وفصول من علوم شتى أكثرها من علم النحو ، أضاف بعضها إلى بعض لأدنى مناسبة كما يقول النحويون ، وهى بعمل الاخبار من الحفاظ أشبه منها بعمل الأديب ، وهى مناسبة كل المناسبة لتكوين الصفدى واستعداده الشخصى ، فالصفدى مؤرخ أخبارى حافظ مكانه بين المؤرخين والحفاظ ، لا بين الأدباء ، فقد ألف فى التاريخ كثيراً ، وجمع فى غيره من الفنون ، إلا أن ناحيته التاريخية ، أظهر وهوبها أشد .

وقد توفى الطغرائى سنة ٥١٣ هـ . وتوفى الصفدى سنة ٧٦٤ هـ رحمهما الله ورحم أسلافنا خدمة العلم ، وأسبغ عليهم من رضوانه ، وأستغفره من خطئى وسوء تقديرى .

البخل

قال زياد : كفى بالبخل عاراً أنه اسم لم يقع فى حمد قط ، وكفى بالجود مجداً أنه اسم لم يقع فى ذم قط .

وقال شاعر :

ألا ترانى وقد قطعنى عدلاً ماذا من الفضل بين البخل والجود ؟
 إن لم يكن ورق يوماً أراح به للخابطين فإنى لين العود
 لا يعدم السائلون الخير أفعله إما نوالاً وإما حسن مردود
 يريد بالورق المسال والاختباط ضرب الشجر ليسقط الورق لتأكله السائبة
 أى الحيوانات التى تسبب لا تؤكل ولا تتركب وفاء لنذر ، فجعل الشاعر طالب
 الرزق مثل خابط الشجر لإسقاط ورقه .

في مشا كل المجتمع :

طَالِبُ الْعِلْمِ

بَيْنَ مَاضِيهِ وَحَاضِرِهِ

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمود النواوى
وكيل معهد أسيوط

طالب العلم الدينى فى ماضيه من اتجه الى المعارف الإسلامية برمته ، وأقبل عليها إقبالا تاما لا يصرفه عن ذلك محاولة دنيا يصيدها ، أو امرأة يتعرض لها ، أو فتنة تلهيه عنها ، قد اتخذ من مسكنه معهدا لا يفتقر فيه عن التحصيل . ومن مراحمه ومغذاه إلى العلم السبيل ، ومن خلق الإسلام والتصوف عدة وعونا ، ومن الحرص والجد وصحبة الشيوخ والتسبح بهم منجاة ومسلكا ، قد ذل طالبا فعز مطلوباً . واستغنى بالله والعلم فأسمى محبوباً .

ويظل يصغى للحديث بأذنه وبقلبه ولعله أدرى به وهكذا كان أبناء الأزهر نخرج بهم رجالا من الذين سعدوا وسعد بهم تاريخه ، كانوا من خبايا الدهر فأصبحوا يحكمون على الدهر ، كانت أسر الكثرة منهم فقيرة مغمورة فصاروا لها مجدا .

وكم أب قد علا بابن ذرا شرف كما علا برسول الله عدنان
فليت شعري ما الذى رفع هؤلاء ، ووصل بهم إلى ذلك المجد الشاخص ؟ إنه العلم والتحصيل والدرس الطويل ، والاحتياال لصيد العلم وجمعه فى نهم مقبول .

أولئك الذين كانت تقتحمهم الأبصار ، وتنبو عنهم الأنظار ، هم الذين سعدت بهم الملوك فلم يحل عيشهم إلا في رضاهم ، ولم يستروحوا روح الجنة إلا في معشرهم ، ولم ينفصوا غبار الألم من الدنيا وتغلباتها إلا في خلس العيش معهم ، وهم القوم لا يشقى بهم جليس .

لقد طالما وفد على الازهر الكريم قوم شرح الله صدورهم للإسلام ، فخطبهم بلطفه وصنعهم على عينه ولفتهم إلى وجهه ، فنظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها ، وعشقوا العلم عشقاً أنحل أبدانهم وقرح أجفانهم ، وجافى عن المضاجع جنوبهم في تنافس حميد وتعاون مجيد ، ثبت على الحق أقدامهم وحبس على البحث والتنقيب أنظارهم ، مجالسهم خلق العلم حول شيوخهم يتلقطون فيها الدرر ، ويمخضون فيها الفكر ويباركون فيها الإنسانية ويدرحون بها البهيمية ثم يقومون وقد ملأوا الأوعية معارف ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويميزهم به هلى كثير من عباده المؤمنين ؛ فإذا آبوا إلى مشاوبهم فما أسعد الأوبة ، إنهم يتعجلون بما يقيم أصلاهم ؛ ليعودوا إلى ما به تعلقت قلوبهم ، فيجددون خلق العلم بعضهم مع شيوخ يتطوعون بترشيحهم فيما هم بسبيله ، وبعضهم مع بعضهم ليرشحوا أنفسهم لدروس الغد ، حتى يستطيعوا أن يعوا عن الشيوخ ما يقولون ، ليرسخ في أذهانهم ، ويحتل مكان الخلود في عقولهم ، والعلم صعب يعوزه الأخذ والرد والمد والشد ، وهم بعد تلك الخلق في جهاد أنفسهم يستعيدون ما جمعوا ، ويستزيدون مما أخذوا ، والعلم بحر لا ساحل له لا يحل إعطاءك حتى تحل سؤاله .

فصل أولئك الذين كانوا يربطون أنفسهم في سوارى المسجد خشية أن يقصدهم النعاس ، وسل أولئك الذين كانوا يتناوبون النوم حتى لا يستغرقوا في الغفلات ، وسل أولئك الذين كانوا يهبون في ساعات الصفو بالأسحار ، يتعرضون لنفحات الله ، ويجلون قلوبهم بالتماس رضاه ، حتى تنطبع فيها الحقائق ، أو سل عنهم لتعلم مبلغ جهادهم وأنهم ما وصلوا حتى بذلوا ، وما نالوا إلا بعد أن جالوا وصالوا ، ومن يخطب الحسنة يصبر على البذل ، على أنهم قد أخلصوا لاساندة كرام قد محضوهم النصيحة ، ونقحوهم لباب الشريعة ، ووفروا أنفسهم للاستزادة من العلم والمعرفة شرابا مختلفا ألوانه ، يياكروهم بالغذاء العقلى ، ويبادلونهم ذلك الحب

السماء ، فحبب الاساتذة لابنائهم توفرت أسباب التمحيص ، واجتمعت وسائل الإفادة المثمرة ، وعبدت سبل العلم وعذبت مناولة ، وبحب الابداء أساتذتهم خضعت نفوسهم وخشعت قلوبهم ، وتقبلت عقولهم ، فأفادوا معارف مباركة ميمونة ، لقد أسهلوا قيادهم لأولئك الشيوخ ، واستسهلوا منهم كل صعب ، واستحلوا منهم كل مرير ، حتى كانوا يرضون منهم ما يرضى العبد من سيده ، وحتى كانوا يتسابقون إلى أخذتهم يحملونها ، ويرون في ذلك الفتوح والسعادة لأن الدل في هذا السبيل هو العز كل العز .

كان لطلاب الازهر كما يقول الأستاذ الزيات كلف به لا ينتهى ، وثقة برجاله لاتحد ، وانقطاع إلى جواره لا يبعثون من ورأه غير فقه الدين وتحصيل المعرفة ، وتجديد حبب الدعوة ، فهم عاكفون على معاناة الدرس ، قاعدون بميسور العيش ، لا ينصرفون من حلقات التعليم بالقاهرة ؛ إلا إلى حلقات التعليم في الريف . وطلاب الازهر القديم اليوم لا يزالون يذكرون ما لشييوخهم من الحب والتجلة ، كانوا يتحلقون حول حلق الشيخ من غير نظام ولا ضابط فيكون لهم على السبق إلى الامام عراك وصخب ، حتى إذا ما أقبل الشيخ خشعت الاصوات وسكنت الحركات ، حتى كأن شيئاً علق بالأنفاس فلا تنسم ، وعقد الشفاه فلا تنبس ، وربما نزا اللجاج على لسان أحدهم أثناء المناقشة فيغضب الشيخ فلا يكون أنسكى في عقابه من الإشارة إليه بالخروج من الدرس ، أو الدعاء عليه بالقطيعة من الازهر (١) .

لقد كان الطلاب يتنافسون في العلم ، ويكاثرون بالعلم ، ويفرحون بالعلم وينتصر بعضهم على بعض بالعلم . ويتناقلون فيه ما يقول بعض واصفيه .

سهرى لتقيس العلوم ألدلى من وصل غانية وطول عناق
وتمايلي طربا لحل عويصة خير من الدوكات والعشاق
كان الجامع الازهر في جميع أوقاته كعبة لا ينقطع وافدها ، ولا الدوى بالعلم في جميع أرجائها ولا تخلو من قارئ وناظر ، ومكب على الدفاتر ، وراكع وساجد . فجزاهم الله بما صبروا أن بدل ذلهم عزا وفقرهم غنى ، وضعفهم قوة ، وجعل كلمتهم العليا ، وأخضع لهم الدنيا فليسان حالهم .

ترى الناس ماسرنا يسرون خلفنا وإن نحن أو مانا إلى الناس وقفوا
وقد أدركنا من ذلك العهد الكريم جانباً ، واتصلنا ببقية صالحة من كانت
أسماؤهم تجلجل ، وذكرهم تدوى حتى ملأت سمع الأرض ، ولقد كنت ممن
يحرصون على التمسح بهم ، والتزاحم على دروسهم ، قبل دروسهم وأنا أتمثل .
تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

وكان من أولئك حضرات الأئمة الاعلام طيب الله ثراهم : الشيخ محمد بن حنيت
المطيعي ، والشيخ محمد حسنين العدوي ، والشيخ يوسف الدجوي ، والشيخ
السماطلي ، والشيخ سيد المرصفي رضي الله عن الجميع وأحسن جزاءهم ، فسكنت
أوفر من صفوة حياتي زمناً أسمع فيه منهم وأخذ عنهم ، وكان يجتمع مع شيوخه
التلذة لهم ، وانتهاز الفرصة في بقائهم ، تقديرأ لما حملوا من علم غزير ، وإيماناً بما
وصلوا إليه من معارف قد تعز بفقدهم .

وكان والدي رحمه الله ينهج نهج أولئك الأئمة ، فيدأب على خدمة العلم
في المسجد وفي المنزل ، وفي المدينة والقرية ، ويحملني على صحبتة والاختذ عنه ،
وحضور دروسه التي كان يعقدها في أشهر الاجازات في الفقه والمنطق والبلاغة
وغيرها ، وغرس ذلك في نفسي معاني لا أزال أبكي على فقدها في أبنائنا اليوم ،
أولئك الذين صرفتهم شواغل المجتمع الصاخب حتى صغرت وطاهم ، وخلت
عقولهم ؛ وصدأت قلوبهم ، فاستنقلوا العلم وجافوه وصاروا يشكون في غير
شكوى ، وينفرون في غير نفرة ، ويحاولون أن يحملوا أنفسهم على المجتمع حملاً
- أصلح الله بالهم ، ورد إليهم رشادهم - إنهم يشكون أحياناً من مناهج الدراسة .
وصعوبة الكتب لأنهم لا يوفونها حقها من التفرغ والإقبال . وقد كنا نحضر
لأول عهدنا بالعلم أوجه إعراب البسملة على جميع وجوهها ، مما تعي به أفهامنا ،
وتضيق عنه مداركنا ، ولكننا نحمل أنفسنا عليه ونحفظ ما أعني فهمه ؛ حتى يحين
وقته ، ما يحول ذلك دون الصبر والرضا والإيمان بعظم المطلوب .

فالذنب إذاً يا طلاب العلم ، ليس ذنب المناهج ، ولا طرق التعليم ، وإنما هو
ذنب التشاغل والتكاسل ، والقذف بأنفسكم في ذلك المجتمع الصاخب ، هو ذنب
الغرور والطيش من أبنائنا الذين يزعمون أنهم يملكون قيادة الامور ، ويدبرون

دفة الشئون ، والتحكم فى مصائر الرجال والحكومات بإسقاط أو لإنهاض ، وإلا فن للدرس والتحصيل ، ومن للتهدب والتكامل ؟ وإن كتب الأزهر بالذات كتب مركزة ، وثقافات عالية مركبة ، وبمجموعة يدخل بعضها على بعض . ويحتاج بعضها إلى بعض ؛ فن قصر فى شيء منها بدا ضعفه وظهر عجزه .

أما نحن فما كنا نفكر فى تلك المناهج ؛ بل كنا نحاول أن نطلب المزيد وتنافس فى ذلك ، لنصل من قلوب الأساتذة إلى موضع الحب كل بقدر طاقته ، وكان لنا أستاذ بجاثة فى مادة الأصول ، وكان يعلم مقدار حرصى على القراءة والاستزادة ، فربما جاء قبل البدء فى الدرس ، فسألنى عن رأى فى مسألة ، وعما قرأت فيها من المواد لعلّه يجد عندى مزيداً يزيد هدى ، فإن العلم بحث وتنقيب ، ولقد كان لذلك أثره فى تربية ملكة الاستقلال وفى تكوين الشجاعة المهذبة الحميدة ، وفى إطالة النفس فى المناقشة البريئة .

كان لنا أستاذ يشار إليه ويعول فى علوم الشريعة وفى مادة الأصول عليه — شفاه الله — وكان يقرأ لنا كتاب الأحكام فى الأصول ، فرأى يوماً أن فى الكتاب خطأ مطبعياً بزيادة كلمة « لا » أو نقصها — لا أذكر بالتحديد — وكنت قد فهمت الكتاب على وضعه ولم أشعر فيه بخلل . فناقشت شيخى وكنت قليل المناقشة جداً ما لم يلح الداعى إليها ، وطال أمد المناقشة حتى ردعنى شيخى ، فسلمت فى أدب وحياء وأنا مقتنع بفهمى ، فلما كان اليوم الثانى جاء الشيخ ، وكان أول ما بدأ به أن سأل عنى ، فلبيت دعوته الكريمة ، فبسم لى وتهلل فى وجهى ، ودعا لى بخير ، ثم قال : الحق ما قلت فتضاعف خجلى ، وزاد تقديرى لشيخى ، على أنها كانت وسام شرف ، وشارة فخار أنزلتنى من نفوس إخوانى أكرم منزل .

ولئن ذهبت أسرد لك أيها القارئ الكريم كثيراً من مظاهر الحرص والدأب فى عهدنا ، وهو عهد قريب لرأيت العجب ولرثيت لما صارت إليه الحال اليوم من إعراض وصدود ، ومن جرأة واستهانة بالواجب .

ياطلبة العلم ! لعل كثيراً منكم قد قرأ ما وصف به الهمزانى العلم ، وهو وصف يعجبنى كثيراً إذ يقول : « وجدته بعيد المرام ، لا يصاد بالسهام ، ولا يقسم بالأزلام ، ولا يرى فى المنام ، ولا يضبط باللجام ولا يورث عن الأعمام : فتوسلت إليه بافتراش

المدر واستاد الحجر، ورد الضجر، وركوب الحظر، وإذمان السهر، واصطحاب السفر، وكثرة النظر، وإعمال الفكر، ورأيته لا يصلح إلا للغرس، ولا يغرس إلا في النفس، وطائر لا يخذعه إلا قنص اللفظ، ولا يعلقه إلا شرك الحفظ، فخرته بالدرس، ثم استرحت من النظر إلى التحقيق، ومن التحقيق إلى التعليق، واستعنت على ذلك بالتوفيق .

ياطلبة العلم ! نحن الآن في زمن نراكم فيه كما قال الأول :

فلسنا كعهد الدار يأثم مالك ولسكن أحاطت بالرقاب السلاسل

ولأنه ليحز في نفسى ويبكىنى لكم ، أن أحاطت برقابكم السلاسل ، من تلك الشواغل فتوليت في الامة الشئون ، وشغلتم أنفسكم بما كان وما يكون ، حتى ضاع العمر سدى ، ومضت فترة الشباب بددا ، لقد غرکم أن تسمعوا الثناء ممن لا يعنيه أمرکم ولا يرجو مستقبلکم ، فهل يرضى أحببکم من أهل وعشيرة أن تنفقوا العمر في ذلك الفضول ، وأن تنحرف بكم عن الجادة خابطات الميول ؟ لا لعمر الله !

ياطلبة العلم ! رحم الله امرأ عرف قدر نفسه فزكاها وكلمها ، جددوا خلايا العلم في عقولكم قبل أن تأكلها الجهالة ، وأزيلوا الران عن قلوبكم لا تفتك بها الضلالة ! لا تعملوا للنجاح في الامتحان ، فإن علم الامتحان كالسراب ليس بشيء مستقر ؛ ولكن اعملوا للنجاح في الحياة كما كان أساتذتكم الذين أنبأتمكم بعض أنبائهم .

يا ليت شعري متى تزول هذه الاسداد التي صدت أنبامنا عن سبل العلم الصحيح ، والتربية الصالحة المشرقة ، ويا ليت شعري متى تدركنا عناية الله سبحانه فنعود بالطالب إلى تلك النفس الزكية ، وتلك الشخصية العامرة بالدين ، المعترزة بالله رب العالمين ، المثرية من معارف الإسلام والادب ، الحافلة بمختلف علوم العرب ؛ فيطلب العلم للعلم ، ويأخذه عن الأشياخ الذين سلكوا سبيله فعرفوا أصيله ودخيله ، وأخضعوه بكثرة الرد ، واستحوذوا عليه بعد طول مد وشد ؛ حتى يقرؤا عين الزمن ، ويشدوا بحق أزر الدين والوطن .

اللهم لطفًا بعيالك طلاب الأزهر معقل الدين وعلوم العرب ؛ فبصرهم بالحق ، واهدهم إلى الرشd ولا تحق عليهم كلية الجهل يوم تقبض العلم بموت العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فاستلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا .

اللهم أقشع عنا هذه الغيابات . وتدارك بالطفافك الخفيات . يا أرحم الراحمين متى أرى الصبح قد لاحت مخايله والليل قد مزقت عنه السراويل ؟

غلبة عالم سنّي على المأمون

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعیدی
الاستاذ بكلية اللغة العربية

قد عاد للفلسفة تقديرها في الأزهر وكنياته ، وصارت تدرس فيه دراسة جديدة تخضع للنقد الحديث ، ولا تتأثر بشيء من التعصب الذي كانت تلقاه الفلسفة قديما ، فعرف للفلسفة فضلها في النهوض بالأمم ، وعرف للفلاسفة فضلهم في الاجتهاد في النهوض بالعلم ، ونظر إلى أخطائهم في الفلسفة كما ينظر إلى كل خطأ من البشر ، فكل من ينظر ويفكر يصيب ويخطئ . ، ولا يصح أن يمنعنا خطؤه من الانتفاع بصوابه ، ولا أن نحملنا على مجافاة العلوم التي وقع فيها ، إذا كانت نافعة لنا ، ولا يمكننا الاستغناء عنها .

وكان المأمون بن الرشيد يعرف هذا الفضل للفلسفة ، فأقبل على طلب علومها من مواضعها ، واستخرجها من معادنها ، وأتحف في سبيلها ملوك الروم بالهدايا الخطيرة ، وطلب ما عندهم من كتب الفلاسفة ، فأرسلوا إليه ما عندهم من كتب أفلاطون وأرسطو وغيرهما ، فاختر لها مبرة المترجمين ، وكلفهم بنقلها إلى العربية ، ثم حض الناس على قراءتها ، ورغبهم في تعلمها ، فنفتحت سوق الفلسفة في زمانه ، وتنافس في علومها أولو النباهة في عصره ، لما كانوا يرونه من تقديمه لأصحابها ، واختصاصه بأهلها ، فكان يخلو بهم ، ويأنس بمنظرتهم ، ويلتذ بهذا كرتهم ، فينالون عنده المنازل الرفيعة ، والمراتب السنية ، وفي عهده كان نقل فرع الإلهيات من الفلسفة إلى العربية ، وكان النقل قبله مقصورا على الطبيعيات والرياضيات ، فتكاملت بهذا أقسام الفلسفة ، وقد كان الفيلسوف قديما لا ينال هذا اللقب إلا إذا أحاط بها كلها .

وقد كان المسلمون في ذلك الزمن منقسمين إلى أهل سنة ومعتزلة ، وكان مذهب الاعتزال مذهب بعض الخاصة في الدولة ، أما مذهب أهل السنة فكان مذهب كثير من الخاصة ، كما كان مذهب جمهور العامة ، فوضع المعتزلة أيديهم في يد المأمون ، ولم يزوا فيما يقوم به من ذلك خطرا على الدين ، أما أهل السنة فأروا في هذا خلاف ما يراه المعتزلة ، وتحافوا من أجله المأمون ودولته ، وأخذوا ينفرون العامة منه ، ويؤايدونهم عليه ، حتى اشتد العداء بينه وبينهم ، ووصل إلى نهايته في مسألة القول بخلق القرآن ، فقد اتخذها المأمون فرصة للتشكيل بأهل السنة ، وكان في الحقيقة يشفي غليله من مناوأتهم له في موقفه من علوم الفلسفة .

وهنا يبدو غريبا أن يكون لواحد من أهل السنة أكبر سلطان في دولة المأمون ، فيخرج هذا السني على إجماع أهل مذهبه طائما مختارا ، ويرضى المأمون أن يكون له في دولته ذلك السلطان ، مع أنه كان يميل في دينه إلى مذهب المعتزلة والشيعة ، وهذا إلى إثارة مذاهب الفلسفة وشغفه بها ، وكانت في ذلك الوقت من أشد ما يمتقه أهل السنة .

ولكن هذا الذي يبدو غريبا هو الذي كان ، وإذا كان يبدو غريبا في ذلك الزمن فإنه هو الذي كان يجب أن يكون فيما نرى الآن ، وقد كان ذلك العالم السني هو الإمام العظيم أبو محمد يحيى بن أكثم بن محمد بن قحطان بن سمان بن مشنج التيمي الأسدي المروزي ، من ولد أكثم بن صيفي التيمي حكيم العرب في الجاهلية ، وكان الإمام يحيى يمثل من هذه الناحية في الإسلام ، وعنه ورث ذلك الفضل والنبل ، وتلك البراعة والكياسة .

وقد ترجم له ابن خلكان فقال : كان فقيها عالما بالفقه ، بصيرا بالأحكام ، ذكره الدارقطني في أصحاب الشافعي رضى الله عنه . وقال الخطيب في تاريخ بغداد : كان يحيى بن أكثم سليما من البدعة ، ينتحل مذهب أهل السنة ، سمع عبداقه بن المبارك وسفيان بن عيينة ، وغيرهما ، وروى عنه أبو عيسى الترمذي وغيره ، وقال طلحة بن محمد بن جعفر في حقه : يحيى بن أكثم أحد أعلام الدنيا ، وقد اشتهر أمره ، وعرف خبره ، ولم يستتر عن الكبير والصغير من الناس

فضله وعلمه ورياسته وسياسته لأمره وأمر أهل زمانه من الخلفاء والملوك ، واسع العلم بالفقه ، كثير الأدب ، حسن المعارضة ، قائم بكل معضلة .

ثم ذكر ابن خلكان مبدأ اتصاله بالمأمون فقال : أراد المأمون أن يولي رجلاً على القضاء ، فوصف له يحيى بن أكثم ، فاستحضره ، فلما حضر دخل عليه ، وكان دميم الخلق ، فاستحقره المأمون لذلك ، فعلم ذلك يحيى ، فقال : يا أمير المؤمنين ، سئني إن كان القصد علي لا خلقي . فسأله عن المسألة المعروفة في الميراث بالمأمونية ، وهي أبوان وأبنتان ، لم تقسم التركة حتى ماتت إحدى البنتين وخلفت من في المسألة ، فلما سأله عنها قال له : يا أمير المؤمنين ، ألميت رجل أم امرأة ؟ فعرف المأمون أنه قد عرف المسألة ؛ فقلده القضاء . وهذه المسألة إن كان الميت الأول رجلاً تصح المسألتان من أربعة وخمسين ، وإن كانت امرأة لم يرث الجسد في المسألة الثانية شيئاً ، لأنه أبو أم . فتصح المسألتان من ثمانية عشر سهماً .

فلما اتصل يحيى بن أكثم بالمأمون غلب عليه ، حتى لم يتقدمه أحد عنده من الناس جميعاً ، لأنه عرف بما برع فيه من العلوم من فضل يحيى وما هو عليه من العلم والفضل ما أخذ بمجامع قلبه ، فلم يقتصر على تقليده قضاء القضاة ، بل قلده تدبير أهل مملكته ، فكانت الوزراء لا تعمل في تدبير الملك شيئاً إلا بعد مطالعة يحيى بن أكثم ، حتى قيل : إنه لا يعلم أحد غلب على سلطانه في زمانه إلا يحيى بن أكثم ، وأحمد بن أبي دواد ، وكان يحيى من أهل السنة كما سبق ، وكان أحمد من زعماء المعتزلة ، وهذا من حسن سياسة المأمون ، إذ كان يقصد من هذا أن يرضى بسياسته الحزبين الكبيرين في دولته ، فاختر من ذينك السياسيين العظميين ، وقد سئل بعض البلغاء عنهما أيهما أنبل ، فقال : كان أحمد يحدّث مع جاريته وابنته ، ويحيى يهزل مع خصمه وعدوه .

وقد كان ليحيى بن أكثم مع المأمون مواقف نبيلة دافع فيها عن مذهب أهل السنة ، وفهم فيها بحسن سياسته وكياسته ، وأهمها هذان الموقفان :

١ — حدث محمد بن منصور قال : كننا مع المأمون في طريق الشام ، فأمر فنودي بتحليل المتعة ، فقال يحيى بن أكثم لى ولأبي العيناء : بكرا غداً إليه ، فإن

رأيتما للقول وجها فقولا ، وإلا فاشكنا إلى أن أدخل ، قال : فدخلنا عليه وهو يستاك ، ويقول وهو مقتاظ : متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلى عهد أبي بكر رضى الله عنه ، وأنا أنهى عنهما ! ومن أنت يا جعل — يعنى عمر — حتى تنهى عما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر رضى الله عنه ! . قال : فأوما أبو العيناء إلى وقال : رجل يقول فى عمر ابن الخطاب ما يقول نسكاهم نحن ! فأمسكنا حتى جاء يحيى بن أكثم ، فجلس فجلسنا .

فقال المسأمون ليحيى : مالى أراك متغيرا ؟ فقال : هو غم يا أمير المؤمنين لما حدث فى الإسلام . قال : وما حدث فيه ؟ قال : النداء بتحليل الزنا . قال : الزنا ؟ قال : نعم ، المتعة زنا . قال : ومن أين قلت هذا ؟ قال : من كتاب الله عز وجل ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : « قد أفلح المؤمنون » إلى قوله « والذين هم لفروجهم حافظون » ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، يا أمير المؤمنين ، زوجة المتعة ملك يمين ؟ قال : لا . قال : فهى الزوجة التى عند الله ترث وتورث وتلحق الولد ، ولها شرائطها ؟ قال : لا . قال : فقد صار متجاوز هذين من العادين ، وهذا الزهرى يا أمير المؤمنين ، روى عن عبد الله والحسن ابني محمد بن الحنفية عن أبيهما عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، قال : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادى بالنهى عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها . فالتفت إلينا المسأمون فقال : أحفظ هذا من حديث الزهرى ؟ فقلنا : نعم يا أمير المؤمنين ، رواه جماعة ، منهم مالك رضى الله عنه . فقال : أستغفر الله ، نادوا بتحريم المتعة . فنادوا بها ، وكان ليحيى بهذا يوم فى الإسلام لم يكن لاحد مثله .

٢ — كان ثمامة بن أفرس وغيره من زعماء المعتزلة قد زينوا للمسأمون أن يكتب بلعن معاوية رضى الله عنه ، فهم أن يكتب بذلك كتاباً يقرأ على الناس ، فجفل العمامة من ذلك ، ولم يثنه عنه إلا يحيى بن أكثم ، فإنه دخل عليه فقال :

يا أمير المؤمنين ، إن العامة لا تحتمل هذا ، ولا سبياً أهل خراسان ولا تأمن أن تكون لهم نفرة ، وإن كانت لم تدر ما عاقبتها ؟ والرأى أن تدع الناس هلى ما هم عليه ، ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق ، فإن ذلك أصلح فى السياسة ، وأحرى فى التدبير . فركن المأمون إلى رأيه ، وأعرض عن لن معاوية ، ولم يستمع لثأمة وغيره من المعتزلة .

فيا ليت علماء أهل السنة كلهم وقفوا من المأمون هذا الموقف الذى آثره يحيى بن أكثم ، فلو أنهم وقفوا ذلك الموقف منه ، لاجتمعوا على خطة نافعة للمسلمين فيما آثره من علوم الفلسفة ، ولسارت هذه العلوم بخلوص النية من الفريقين فى طريق قاصد لا إفراط فيه ولا تفريط ، فاستقامت بها أمور المسلمين وسبقوا بها أوربا بنحو خمسة قرون ، فكنا نحن السابقين الآن بهذه القرون وكانت هى اللاحقة ، ولم تكن هى السابقة الآن ونحن اللاحقون ! .

ولسكن جمهور أهل السنة آثروا أن يقفوا من علوم الفلسفة موقف العداء ، ولم يحاولوا أن يجتمعوا فيها على رأى وسط هم والمأمون ، إلى أن أتى المتوكل بن المعتصم بن الرشيد ، قال إلى مذهبهم فيها ، ونهى الناس عن النظر والجدال ، وأمرهم بالتسليم والتقليد ، ومنعهم من الاشتغال بالفلسفة ، فانتقل الحال فيها من الإفراط إلى التفريط ، وحرّم المسلمون فى أمرها من الطريق الوسط الذى كان فيه خيرهم ، وكانت فيه مصلحتهم فى دنياهم وأخراهم .

حكم منشورة

قال حكيم : إذا قدرت على عدوك ، فاجعل العفو شكراً للقدرة عليه .

قيمة كل امرىء ما يحسنه . وقال الحسن محمد بن لنكك البصرى :

عديا فى زماننا عن حديث المكارم

من كفى الناس شره فهو فى جود حاتم

وقال أبو الطيب المتنبى :

إننا لنى زمن ترك القبيح به من أكثر الناس لإحسان وإجمال

عمر بن الخطاب

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ ابراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

لا أقصد بهذا العنوان الحديث عن «عمر بن الخطاب»، من الناحية التاريخية، فأعنى بتسجيل أعماله، وسرد وقائعه، وتعداد أياديه على العمران والحضارة والنظام والإدارة، والسياسة والملك، فإن ذلك كله مبسوط على أكمل وجه من البسط والبيان، والشرح والإيضاح، لا يعوزه أن أزيد فيه حرفاً، أو أضيف إليه كلمة، ولا سيما مع شهرة صاحبه في الخالدين، ونباهة شأنه في العالمين.

وإذا كان لأصحاب الفنون غرام خاص ببعض الصور يستهوى فنهم ويثير إلهامهم ويوقظ عبقريتهم؛ ليجعلوا منها ظلالاً، ويضموا إليها ألواناً، ويقفوا منها موقفاً يبعث على الدهش والعجب، والغرابة والتأمل، فإن المتأدبين الذين يخلقون من «الحبة قبة»، يمدون في هذا الرجل مجالات فسيحة ومعاني رائعة وتواحي بارزة توحى بالكتابة الخصبة، وتعطى أمثلة من خير ما تكون الأمثال جمالاً وحسناً. وليس ذلك في عدله النادر وذكائه اللامع، فربما كان في المعاصرين له أو المتأخرين عنه من كان يدانيه إن كان لا يساويه أو يجرى في مضماره ويترسم لآثاره وغريزة «التقليد والمحاكاة»، تحمل على أن يحى الحافر على الحافر، والقدم في موضع القدم، ولهذا يقول الرسول صلوات الله عليه: «لتبعن سنن من قبلكم شبرا شبراً وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا حبر ضب خرب لدخلتموه».

ولا غضاضة على الشخصية الشامخة أن يكون لها قدوة تأخذ بيدها إلى حيث تسمو إلى الغاية المرموقة، وتصعد إلى القمة العالية، ويخلق في أفق من العظمة بعيد...

وحديث المتحدثين عنه يبتدىء من حيث ينتهى ، وينتهى من حيث يبتدىء ،
أشبه بكتاب ضخيم ، وسفر عظيم ، تروءك صحائفه أينما قلبتها ، وتأخذك سطورتها
كلما قرأتها ...

لذلك فلا تكون الكتابة فيه إلا د على الهامش ، لا تصيب كبد الحقيقة
بمقدار ما تحوم حولها ، وتدور في محيطها ، ثم لا يعدم القارئ أن يرى منها
أطيانا من تلك الصورة التي أبدعها الخالق البارئ ، وأجاد صنعها اللطيف الخبير .
وأول ما يحملك على تقديس عمر واحترامه ذلك المعنى الذى لا يتأتى في
الكثير ولا في القليل لأبطال الفتح ، وعظماء الإصلاح ، وهو الثقة المتناهية
بنفسه إلى درجة أن يعرضها على مشرحة ، النقد العام ، إذ يقول في خطبة من
خطبه : « إن رأيتم في أعوجاجا فقرواوه ، كأنما يتحدث المعاندين ، ويقطع الحجة
على الجاحدين ، وهى منزلة من الإيمان لا يصل إليها إلا من زكت نفوسهم ،
وطهرت أرواحهم ، وخلعت سرائرهم ، وعمرت قلوبهم بالله سبحانه ، وحتى بلغ
المسلم هذا الحد سخر من الحياة ومظاهرها الخلافة ، وزخرفها الكاذب ، ومتاعها
الخادع ، وسرابها المغرى .

وهكذا كان يفعل حين يبعث بالعامل أو القائد ويوصيه بالتقوى والعدل ،
ويقهمه أنه لم يرسل به إلى أحد ليظلم أو ليقسو أو ليكون جباراً في الأرض ..
ولعل من سيرته أصدق شاهد للقيام بالنسب المطلوب في الآية « ولو على
أنفسكم أو الوالدين والأقربين » فإنه كان قاسياً على ولديه — عبد الله وعبيد الله —
حينما علم أن أبا موسى الأشعري اختصهما بمال من خراج العراق يتجران فيه
على أن يدفعوا الأصل ويأخذوا الربح ، وأمرهما أن يردا الأصل والربح ، حتى
لا تحوم الشبهة حوله ولا حول أحد من أهله .

والناس يتحدثون في هذه الأيام عن قانون « من أين لك هذا » ، ويذكرون
أنه رضى الله عنه أول حاكم حاسب عماله وكبار المسئولين في دولته عن ثرواتهم
من أى طريق اكتسبوها ، فإن اطمأن إلى أنها من غير جاههم المجلوب ،
وسلطانهم المكسوب ، أقرم على الملكية ، وترك لهم سبيل الاستحقاق ،
وإلا جعلها غنيمة للشعب في بيت المال .

وهناك جانب من جوانب حياته ينبيء عن الثورة المتوثبة ، والطموح المتطلع ، وددت لو تيقظ له الكتابون في تاريخ الأفراد والجماعات ، ليعرفوا منه إلى أى مدى كان هذا الخليفة صلباً صلابته لا تجعله إمامة من الإمامات ، ولانكراة من النكرات ، ينقاد من غير تبصر ، ويقلد دون تفكير ، فما كان يفعل الفعل ، ولا يقدم على الأمر ، إلا وقد تجملت له خوافيه ، ووضحت أعجازه وهواديه . وفي قصة إسلامه وكيف كانت عصبية للشرك ، ورسوخ قدميه في الكفر ، ثم تحول ذلك كله إلى غيرة على الإسلام ، وتمسك بالقرآن وحماسة للنبي وإعلاء لكلمة الله وإشاعة للذعر والخوف والجبن والضعف والبأس والرهبة في قریش التي كانت تصد عن الدعوة ، وتأكيد للمؤمنين ما يدل على أن القلب الكبير ، والنفس العالية ، والبيئة الصالحة ، إذا ما نمت فيها الخراس ، وأينع الثمر ، وأورق الشجر كانت جنة تجري من تحتها الأنهار ، وهو يذكرنا ببعض أحاديثه صلى الله عليه وسلم حين يصور ما بعثه الله به من الهدى والعلم بالغيث الكثير الذي أصاب تربة تقيّة ، قبلت الماء فأنبئت الكلاً والعشب ، . والله عبد الله بن مسعود إذ يقول فيه : كان إسلامه فتحاً ، وهجرته نصراً ، وإمارته رحمة . . . والإيمان الذي ملأ نفسه حتى فاض من جوانبها ، هو الذي حمله أن يقف من على بن أبي طالب هذا الموقف العنيف الشديد لما تلاكماً عن مبايعة أبي بكر ، غير ناظر إلى قرابته القرية من النبي وزواجه بابنته ، وهو — كذلك — الذي جعله يقمع الفتنة ، ويقضى على جرائم الشر ، فيمد يده إلى ابن أبي قحافة ليقبض الناس على أثره مبايعين ، ثم يظل كالجندي المجهول في معاونته ، مكتفياً بقوله له ، كلما بدا سداد رأيه ، وحسن مشورته ، وصواب وجهته ، ورشاد أمره ، لقد كنت أولى بها مني يا عمر .

وأحب ألا يغفل العصريون من أنصار حرية الرأي أو التجديد هذا الرجل كإمام من أئمة هذه المذاهب ، ولكنّه في حدود معقولة ، لا تنكرها الفلسفة ، ولا يأبأها المنطق ، أو يتجافاها العلم الصحيح ، فإنه مع نزول الوحي ، ووجود النبي يهيم على التشريع ، ويصرف شؤون المسلمين ، ويقضى فيما يحد لهم من نزاع ،

ويحدث من خلاف ، ويطرأ من مسائل ، يأبى إلا أن يناقش النصوص ، ويعترض على الأحكام ، ويرى الرأي ، ويقترح في الدين الاقتراحات ، ويحيى جبريل موافقاً له ، فيشير ذلك إعجاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلا يسعه إلا أن يقول : لو كان في هذه الأمة محدثون لكان عمر .

وإذا كان التجديد من المتأخر لا من المتقدم ، فقد كان غريباً أن يكون وابنه عبد الله على طرفي نقيض ، يتمسك الوالد بالرأى إذا انقذح في ذهنه وامتلأ به يقينه وربما عطل النص معه وتنامى الآية في سبيله ؛ كما حدث في عام المجاعة ويقف الولد عند النص لا يحيد عنه ولا يجاوزه إلى سواء ، ويبالغ في ذلك حتى يستظل بشجرة الرضوان لأن عندها كانت المبايعة المعروفة باسمها ويكرن قطع أبيه لها إيلاماً له وشديداً عليه .

الدنيا

ذم رجل الدنيا بحضرة على رضى الله عنه فقال له :

« الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار نجاة لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها ، مهبط وحى الله ومصلى ملائكته ، ومسجد أنبيائه ومتجر أوليائه ، ربحوا فيها الرحمة واكتسبوا الجنة ، فمن ذا يذمها وقد آذنت بنبيها ، ونادت بفراقها ، وذكرت بسرورها السرور ، وببلائها البلاء ، ترغيباً وترهيباً ؟ فيا أيها الزام لها المعلل نفسه بغرورها ، متى خدعتك الدنيا ، أم بماذا استندمت إليك ؟ أبصرع آباءك في البلى ، أم بمضجع أمهاتك في الثرى ؟ كم مرضت بكفئك ، وكم عللت بيدك ، تطلب له الشفاء ، وتستوصف الاطباء ، غداة لا ينفعه بكأوك ، ولا يغنى عنه دواؤك ! »

أعلام الأزهر

الشيخ حسين المرصفي

المتوفى سنة (١٣٠٧ هـ - ١٨٨٩ م)

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد كامل الفقي
المدرس بكلية اللغة العربية

هو الشيخ حسين المرصفي نسبة إلى مُرصفا ، بلدة بالقلاوية أنجبت بجمهرة من أعلام الفقه واللغة والأدب ، وكان والده الشيخ أحمد حسين المرصفي ، من أئمة العلم في عصره .

ولد المترجم له في مصر ونشأ بها ، وبعد أن أتم حفظ القرآن التحق بالجامع الأزهر ، فتلقى العلم على كبار شيوخه ، وما زال يَلدُ ويبحث حتى صار من العلماء للفحول ، وتصدر للتدريس فقرأ بالأزهر أمهات الكتب في العلوم العربية كغنى اللبيب في النحو لابن هشام .

وكان رحمه الله مكفوف البصر ، وقد عرف منذ صغره بحدة ذهن ، وتوقد الذكاء ، وإذا صح ما قيل من أن والده حفظ القرآن في ستة أشهر فإن ذكاه موروث عن أبيه ، وكان إلى جانب ذلك جاداً مثابراً شديد التوافر على كتب الأدب يرتوى من محاسنها ، ويستظهر من روائعها ، لم يسترح إلى الأدب الشائع في عصره ، ولم يرقه نهجه ، بل كان من أوائل من تفتنوا في هذه البلاد إلى قدر الأدب القديم ، ^(١) .

وكان من حبه للأدب العربي القديم ، وقدرته على تفهم أسرار ، وتذوق بلاغته ، يقرأ كثيراً في كتب البلاغة العربية ، ودواوين الشعراء الفحول . ويذل جهده في استظهار ما يهتزله ، ويحيل قلبه على غرار ما بهره من هذه الآداب حتى استقام له بيانه الرصين .

وكان إلى جانب هواه بالأدب شديد الميل إلى العلوم العربية ، دائم البحث في أسرارها وتفهم دقائقها واكتناه خفاياها حتى صار في العلم بها حجة ثبثا .

وقد قرأ الخط العربي والعربي والفرنسي في أقرب زمن مع انكشاف بصره وهو حروف اصطلاح عليها اصطلاحاً جديداً تدرك بالجلس باليد ،^(١) .

وتولى تدريس الأدب وعلوم العربية بمدرسة دار العلوم وتخرج على يديه طليعة الناهضين من أبنائها الشعراء والأدباء .

أثره في النهضة الأدبية :

د الشيخ حسين المرصفي ، شيخ الأدباء في ذلك العصر ، وأستاذ الطبقة الأولى من دار العلوم ؛ فقد تخرج عليه طلائع النابهين في هذه المدرسة من أمثال حفني بك ناصف وأترابه .

وكان قبلة الشعراء والأدباء ينهلون من علمه وأدبه ، وينتفعون بتوجيه وإرشاده ، صاحبه ولازمه أعيان البيان العربي فعرضوا عليه منظومهم ومشورهم ؛ فنقح ما شاء له ذوقه وعلمه ، وهذب كثيراً من بيانهم ، وراضهم على ما تهدي إليه من الأدب العربي القديم الرصين .

انتفع بتوجيه عبد الله فكري باشا ، فكان أحد تلامذته الذين أفادوا منه . بل إن البارودي ، نفسه وهو زعيم النهضة الشعرية ورافع لوائها في العصر الحاضر كان أحد تلامذته الذين صاحبوه ولازموه ، علم المرصفي زعيم الشعراء اللغة العربية الفصيحة ، وهدهد إلى الأساليب المجودة الفحلة ، وعرض عليه شعره فهذبته قريحته التي صقلها الأدب العربي وطبعها بطابعه الجميل ، وإن لصلة

(١) الخطط التوفيقية ١٤٠ ص ٤٠ .

البارودى به لحديثاً طريفاً تمر به سراً ولكننا أفضنا فيه حيث تسكنا عن شعر الأزهر وكيف أن الأزهرين كانوا أساتذة زعماء الشر في العصر الحاضر .

وكان من أثره في الأدب فصوله الممتعة التي كان ينشرها في صحيفة « روضة المدارس » ، فقد رسم بها للأدب أمثل الطرق في ممارسة البيان العربي الجزل ، وكان قدوة السكاكين بطريقته العذبة التي تجمع بين الجزالة والسهولة .

أما أسلوبه فطلى رصين ، واضح فصيح ، لا يلم بالسجع إلا لماساً ، ولا تستويه الصيغة التي يكلف بها أصحاب الأدب الفراع فيسترون بزخرفها فقص أدبهم وفراغهم ، وهو في سلاسته وترتيبه المنطقي أقرب ما يكون شهاً « بآبن خلدون » في مقدمته ، فهو بحق « من أولئك الأفاضل الإعلام الذين ردوا على اللغة في العصر الحديث ما كان لها من البهاء القديم في العصر القديم » (١) .

ومن حديث المرحوم « الشيخ عبد العزيز البشري » ، عنه قوله « ويقوم ذلك السكاك الأديب المجدد حقاً فيلفت جمهرة الأدباء هن ذلك الأدب الضامر ، ويوجه أذهانهم وأذواقهم جميعاً إلى الخالص المختل من أدب العرب في جاهليتهم وفي إسلامهم ، ويبعث لهم شعر أبي نواس وأبي تمام والبحرئ وغيرهم من فحول الشعراء ، كما يدل على بيان ابن المقفع والجاحظ والصولى وأحمد بن يوسف وأضرابهم من متقدمى السكاك ، فسرعان ما يصفو البيان ويحلو ، وسرعان ما يجزل القول ويعلو ، وسرعان ما تنفجر آفاق الكلام ، وتنسبط أسلات الأقلام في كل مقام ؛ وناهيك بغرس يخرج من ثماره إبراهيم المويلحى في السكاك ومحمود سامى البارودى في الشعراء » (٢) .

آثاره ومؤلفاته :

ألف كتاب « الوسيلة الأدبية للعلوم العربية » ، وهو كتاب جليل القدر لا يستغنى عنه أديب ، وقد شاع الانتفاع بما فيه من الآداب والعلوم ، ولا يزال منتجع الأدباء إلى يومنا هذا ، والسكاك جزآن يقع الثانى منهما في صفحات تربى على ثلاثة أمثال الجزء الأول .

(١) المنتخب من أدب العرب - ٢ ص ٥٨٢ هامش .

(٢) المختار - ١ ص ٤١ .

« والوسيلة الأدبية ، مجموعة من الآداب والعلوم المختلفة من نحو وصرف و فقه لغة و بيان ومعان و بديع و تاريخ ، ساقها المؤلف لتعليم الكتابة الإنشائية و ترويض الملكات البنيانية على غرارها و نهجها العربي الصحيح .

و هو يتبع في هذه الكتابة طريقة الشرح والإفاضة والتتابع والاستطراد ، فإذا ألم يبحث على وفقى جوانبه ، وبسط في آفاقه ، ولم يدع فيه ما يحتاج إليه الباحث المتعقب ، وإذا أورد قصيدة أو رسالة أو خطبة شرح معانيها اللغوية شرحا دقيقا متمكنا ، ثم بين مراد الأديب بما قاله ، وتعرض له بشيء من أخباره وآثاره ، وقد يستطرد فيقرن المعنى بمشابه له أو مقارب منه أو مضاد له ، يفيض في كل ذلك بأسلوب رصين واضح فصيح .

وقد عمد فيما اختاره من آثار أدبية إلى روائع الأدب : من شعر ونثر وخطب ورسائل ، فهو حسن الذوق في كل ما يهتدى إليه ، غزير المادة بما يفيض فيه ، قريب الشبه في مسلكه بالكتب التي هي أصول للأدب من أمثال « الأمل » ، و « الكامل » ، و « العقد » ، إلا أنه لم تغلب عليه ناحية خاصة تستأثر به ، وتدعه ضعيفا في غيرها مما يقوم عليه بحثه وشرحه ، ونقده وتعليقه ، وإنما هو في هذه النواحي جميعا المتمكن الذي يعدل بينها .

والوسيلة بجزئها تتضمن تمهيدا وأربعة مقاصد ، يشتمل كل منها على فصول ومقالات ، فالتمهيد في بيان فضل العلم وتقسيم العلوم وتعريفات لعلوم العربية والأدب مع إفاضة بذكر الأمثلة ، والمقصد الأول في العقل وشرح أنواع المعقول ، والمقصد الثاني في تعريف اللغة وبيان الداعي لوضع علوم العربية ونهايته نهاية الجزء الأول ، والمقصد الثالث وهو أول الجزء الثاني يحتوي فنون البلاغة بإسهاب وشرح وإفاضة مع دقة وتحليل ، والمقصد الرابع وهو أوسع المقاصد وأكثرها بسطا : يتضمن الكتابة والتربية الأدبية والأدعية التي جرى السلف على استعمالها في مكاتباتهم ، وفي مكاتبات النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ، ومكاتبة الملوك والأمراء والأدباء وفي الأمثال العربية وغير ذلك من البحوث الأدبية الممتعة ، وقد ختم الجزء الثاني بكلمة ضافيه عن المرحوم عبد الله فكري باشا . ومن أهم ما حواه الجزء الثاني حديثه عن البارودي الشاعر العظيم .

والكتاب مطبوع بمطبعة المدارس الملكية بمصر من سنة ١٢٨٩ - ١٢٩٢ هـ .

وله كتاب «الكلم الثمان» : وهو رسالة شرح فيها كلمات جرت على ألسنة الناس في عهده ، وكثر ترديد لها ، ولهجوا بذكرها بما دعاه إلى بسطها وتبينها كلفظ «الامة والوطن والحكومة والعدل والظلم والسياسة والحرية والتربية والإنسان والمربي» ، وكيف يجب أن يكون وما به تكون التربية ، كتبها بأسلوبه الرصين الرشيق ، وهي مطبوعة بالمطبعة الشرقية بمصر سنة ١٢٩٨ .

وله أيضا كتاب «دليل المسترشد في الإنشاء» : وهو كتاب وضعه لتعليم طرق الإنشاء وأساليبها ، وكيفية افتتاح المراسلات والمكاتبات والموضوعات الإنشائية المختلفة ، وأورد فيه طائفة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ومكاتبات النبي صلى الله عليه وسلم ، وكتب خلفائه الراشدين إلى القياصرة والأكاسرة والعرب خاصتهم وعامتهم ، وجمهرة من القصائد والمقاطيع لمشهورى الشعراء من الطبقات الأولى الثلاث .

والكتاب يتضمن مقدمة تحتوى ما يحتاج إليه المنشئ من معرفة مبادئ العلوم وتمييز بعضها عن بعض ، ثم يحتوى بحثاً قيمة في تعريف الكتابة وبيان طرق التعليم والأغراض التى يحاول المنشئ أن تحسن بها صناعته ويجود بها لإنشاؤه ، والكتاب مخطوط لم يطبع .

نماذج من إنشائه : كتب في التخلق ببعض الأخلاق فقال :

« غير خاف أن التخلق بالكبر والخيلاء والعجب ، والتعظيم على الناس بما أفضّل الله به على الإنسان ، من علم وجاه ومال أمر غير حسن ، لما جبلت عليه النفوس من الإباء والنفرة عن تعظيم غيرها ، فأكثّر ما يُبدّل حسن الود والتآلف ، بأشنع العداوة والتنافر ، لكن لذلك موضع يكون فيه حسناً .

وبيانه : أن من المشاهد كون النوع الإنسانى محتاجاً في حسن تعيشه ، وتحصيل أغراضه إلى ألفة ومودة وإنصاف ، بأن يحب المرء لآخر ما يحب لنفسه ، فإذا خرج بعض الناس عن الجمعية ، وسمى فى الأرض بالفساد ، وجب على الناس تأديبه بما يعيده إلى الصلاح ، وربما كان التكبر والزهو عليه أنكى له وأرجى لمثاب فكره ، وانحيازاه إلى حيز الاستقامة ، كما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فارساً من أصحابه يمشى بين الصنفين محتالاً ، يميل يميناً وشمالاً . فقال « هذه مشية يكرهها الله تعالى إلا فى هذا الموضع ، فقد علمنا أن للتكبر موضعاً يكون فيه حسناً » .

معرفة الغيب

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد محمود المسلوت
المدرس في كلية اللغة العربية

الإيمان الحق حين تخالط بشاشته القلوب ، وتمازج طهارته الافئدة ، وتسطع أشعته على البصائر فتملؤها نوراً وحكمة .

هذا الإيمان يهدي الناس في حياتهم إلى النهج الواضح ، ويدلهم على السبيل اللائح ، ويفرس في أعماقهم الثقة برب العالمين ، والاطمئنان إلى عدالة أحكم الحاكمين ، ويخلصهم من الزيغ والضلالات ، ويعطهم نفوسهم من الاوهام والخرافات ، ويحذرها من البدع والآفات .

ومحال أن يصح إيمان في نفس مؤمن ثم يلتوى قصده ، ويضطرب نهجه ، وتختل حياته .

أما حين يضعف الإيمان في النفوس ، ويهن سلطانه على القلوب ، وتقل ثقة الناس بخالقهم ، وتختل حياتهم فترات صدود عن الأعمال ، وانصراف عن الواجبات ، فإن الاوهام تجد فيهم حينئذ مرتعاً خصبياً ، وتصادف لديهم مجالا رحيباً .

والدارس لطباع الناس وعاداتهم ، والناظر فيما يشيع بينهم من المعتقدات والتقاليد ، يرى أن البدعة لا تقوى إلا عند ضعف الإيمان ، وأن الخرافة لا تتأصل جذورها إلا عند قليل الثقة بسنة الله في الكون .

من الاوهام الضالة الخبيثة التي توارثها الناس جيلا بعد جيل ، وخضعوا لها قبلا إثر قبيل ، والتي أثرت أسوأ تأثير في حياتهم وأعمالهم ، وجعلت أمورهم

تعتل ، وأوضاعهم تختل ، وأفسدت عليهم عقائدهم وتفكيرهم . اعتقاد كثير من الناس أن في بني آدم من يستطيعون استشفاف الغيب ، واستكناه المجهول ، واستطلاع ما وراء الحجب ، مما يستعجلون معرفته ، ويشتهون الوقوف عليه ، بل إن فيمن لم يهذبهم العلم الصحيح ، والمعرفة الناضجة ، من يعتقد أن في بعض الأناس من يقدر أن هلل التحكم في مجرى القدر ، واتجاه القضاء ، فيحولونه من نحس إلى سعد ، ومن شؤم إلى ين ، ومن سوء حظ إلى حسن طالع ، وأن فيهم من يستخدم الجن في قضاء المصالح ، وتدير الأمور ، وشفاء المرضى ، وإسقام الصحيح ، وتوثيق الصلة بين اثنين ، أو فصل عرى المودة ، وبتر أسباب اللفة بين المتحابين . وأنهم يستطيعون أن يسهلوا للناس ما هسر من أمرهم ، ويسروا عليهم ما شق من أمور الدنيا ومظاهر العيش ، وهكذا مما لا يقبله منطق ويسخره عقل ، ولا يقره إدراك صحيح وتفكير مستقيم .

وأول ما يبده الإنسان في هذه المشكلة التي أختبت الناس إليها ، أن من أضفوا عليهم هذه الألوهية أناس يحفونهم حسن السمات ، وجمال المظهر ، وعلائم الاستقرار والاستغناء . فهم من شظف العيش وقلب الفقر ، وقذارة المظهر ، وشقاء الحياة على جانب كبير . فهل من المعقول أن يُسعد هؤلاء الناس وهم أشقياء ؟ يجلبون لهم أسباب النفع أو يدفعون مظاهر الضر ، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ؟ أما كان الأجدر بهؤلاء الدجالين المضلين أن يستغلوا عليهم في رفاة أنفسهم ونعيمها وكفايتها ، بدل أن يعيشوا على هذا الاتجار الرخيص والارتزاق الدنيء .

في كل ناحية من نواحي الحياة نجد لهذه المعابث والضلالات أثراً قبيحاً ، نجد رضى بها ، واستسلاماً لها ، أفسد على الناس أمرهم ، وكدر صفوهم وأخروهم أشنع تأخير .

في الأمراض ، في المنازعات والقضايا ، في الحب والبغض ، في الحمل والولادة ، في إطالة الأعمار ، في الأرزاق ، في كل شيء يحرص عليه المرء نجد الخرافة الشاذة قد تسربت إليه وعدت عليه ، ونجد الناس قد لجؤا إلى من يلتقط لهم غيب

السماء ويستشف لهم علم ما في اللغد ؛ بل ويجعل طيرهم يحرى يمينا ونحوهم تحول إلى سعود .

إن الشاعر الجاهلي الذي لم يدرك ديننا ، ولم يصطح عليه الإسلام بنوره كان يقول :

وأعلم لهم اليوم والامس قبله ولكنني عن علم ما في غد عسى
واقه تعالى يقول : عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ، ويقول جل شأنه :
« قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله » .

ولو أدرك هؤلاء البسطاء ما يصيبهم من شر ، وما يدخل على حياتهم من اضطراب وخلل من جراء هذه الأوهام الضارة وهذا الصغار الممقوت لاشفقوا على أنفسهم من هذا الضلال المبين .

ولسكن الجاهل حين يعمى القلوب ويظلم الضيائر ، يسبب للحياة الفساد ، ويضني عليها العذاب والشقوة ؛ وبدلاً من أن يطلب الإنسان غذاه ويهتدى إلى حاجته من الطريق الصوي الذي شرعه الله وهو الجهاد والعمل ، يهمل السعى ويتردى في هوة الكسل ، لأن رجلاً من الدجالين الذين مرضت قلوبهم ، وخربت ضمائرهم وران الجاهل والظلام على نفوسهم ، يستخدم له الجن في فتح أبواب الرزق وتيسير سبيل الغنى ، وهكذا يظل تائهاً في ضلاله ، معنفاً في خداعه حتى يتمكن منه الفقر ويقتله اضطراب الحياة .

وقد يركب بعضهم سبيل الظلم ، ويعمد إلى الإضرار بالناس ، والتمادي في خصوماته ، لأن نصيباً من هؤلاء وعده باستخدام الجن في التأثير على القضاء ، ويمرض المريض فلا يظهر من الرغبة في استدعاء الطبيب بمقدار ما يتهاقت في استفتاء هؤلاء المشعوذين .

ولقد يسرق بعض المتاع من بيت ، فلا تكون هناك حيلة ولا توجد وسيلة ، إلا أن يلجأ أصحابها إلى دجال يكشف لهم عن الغيب ، فربما أشار بجمله إلى جار أو دل بسوء ظنه على قريب ، فإذا بالعداوات تشب والخصومات تعنف والصلات تتمزق والروابط تنفك ، ويعيش هؤلاء في الويل والهلاك ، لم تكفهم مصيبتهم

فما سرق؛ بل زادوا عليها مصيبة أخرى هي خالق المشكلات واشتجار الخصومات .
ليت شعري أى علم هذا الذى اختص به من دون الناس جميعا هذا الصنف
من الخلق ؟ ومن أى كتاب أخذوه وفى أى مدرسة أو أى جامعة تعلموه ؟
ولماذا لا تسخر الجن والشياطين إلا لهؤلاء الدجالين الذين تلازمهم القذارة ،
ويستبد بهم الجهل ويستولى عليهم شظف العيش ، وتحوجهم الحياة إلى الارتزاق
من هذا السيل .

إن الله تعالى يقول : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر
والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب
ولا يابس إلا فى كتاب مبين ، ويعصى هؤلاء الجهلة ربهم ، يأخذهم الفرور
وخداع الناس فيقولون بل نحن نعلم الغيب . وكذبوا فإن خاتم الأنبياء وأفضل
الرسل قد أمره الله أن يقول للناس : « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء
الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير
وبشير لقوم يؤمنون » .

وهؤلاء يدعون أنهم يعلمون ما فى الأرحام ، ويطلقون الأعمار ويكتبون
للناس السلامة من الآفات والأمراض ، ويعلمون متى يموت الإنسان ، وإذا شاءوا
أخروا هذا الميعاد بعض التأخير مع أن المولى جل شأنه يقول : « إن الله عنده
علم الساعة وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا
وما تدرى نفس بأى أرض تموت . إن الله عليم خبير » .

لقد قيل : إن ملكا أراد الغزو فأعد له عدته ، واتخذ أهبته ، وقبل أن يشخص
إلى عدوه بيوم ، جاءه أحد المنتجمين وطلب إليه ألا يغزو هذا العام ؛ لأن جيوشه
ستنهزم إذا غزا ؛ فصدق الجند وآمن الناس ، ووقع الملك فى حيرة وارتيباك ، إن
خالف هذا الدجال ، ثار الجند وحملوا لواء التردد والعصيان ، وإن سكنت عن الغزو
استضعفه الأعداء ونالوا من هيئته ؛ فلم يجد بدا من السكوت على ألم ومضض ،
ثم أرسل عند الفجر إلى الدجال من قتله وأراحه منه ، فلما أصبح الناس وجدوه
مقتولا . فقال لهم الملك : لو علم هذا الرجل الغيب لعرف مصيره ، وأدرك فى أى
يوم منيته . ثم خرج بجيشه فغزا عدوه وانتصر عليه نصرًا مبينًا .

إن رسل الله قد حرصوا على أن يفهم الناس عنهم مبلغون ومبشرون ومنذرون ، لا يعلمون الغيب ولا يدخلون في علم الله ، وإذا كان رسل الله لا يعلمون غيبه فهل يعلمه صعلوك من صعاليك الناس ؟ وهذا كلام الله على لسان نوح يتبرأ من هذا الادعاء : « ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لى ملك ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ، ويقول أيضاً : « من أتى كاهنا فسأله حجبته عنه التوبة أربعين ليلة ، فإن صدقه بما قال كفر ، .

فهل بعد تلك الآيات الدامغة والبراهين الساطعة ، يدعى أفاك أنه يعلم الغيب بنفسه أو باستخدام الجن : ذلك جهل مطبق بدين الله ، وجهل مطبق بعالم الجن وماله من خصائص ومميزات .

إن الجن عالم آخر وخلق من خلق الله لا صلة لنا به ولا تأثير لنا عليه ، نحن لا نفهم لغته ولا ندرى كنهه ولا قدرة لنا على الاتصال به : لأن الحاجز التى جعلها الله بيننا وبينه يستحيل أن تزول بحيلة أو براعة أو قدرة على كتابة الطالسم والمعميات أو إقامة الزارات .

ولنفرض المستحيل من أنه يمكن لبعض الناس أن يتصلوا بالجن ويستخدموهم . فن أين للجن معرفة الغيب وعلم ما لم يقع . والله تعالى يقول : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ، .

إن الإنسان لعجيب فى أطواره وأحواله ، عجيب فى تفكيره وتصوره ، يحجب الله عن علمه الغيب الحكمة الجميلة وسر بديع ، فيحتال على المولى بالجن ويستعين بالشياطين والعفاريت ؛ لإظهار ما أخفاه الله وكشف ماستره . يابلأه العقول وبلادة الإدراك !

أن أهظم دليل يسوقه القرآن على جهل الجن بالغيب ما حكاه المولى عن نبيه سليمان ومعجزة تسخير الجن له : فإنها لم تعمل إلا الصناعات التى يعرفها بنو آدم من محاريب وتمائيل وجفان كالجواب ، وللسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم

عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب ، وقدور راسيات ، اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور ، فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خرت تنفت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ، فإلجنا جملوا موت سليمان وهو أمامهم يمرون عليه في الصباح وفي المساء . أبعد هذا دليل قاطع وبرهان ساطع ؟ .

يجب أن يعرف الناس العقائد السليمة ، ويرجعوا إلى الدين الصحيح ، ويدركوا أن سنن الله في السكون والوضحة لا لبس فيها ولا غموض ، وسبيله في عباده سوتى لا عوج فيه ولا التواء .

وبذلك يعيشون في أمان واطمئنان يعمهم دائماً الخير ، وتظلمهم أسى ألوان السعادة .

قوة معاوية وحله

مرض معاوية بن أبي سفيان مرضاً شديداً فأرجف مصقلة بن هبيرة وساعده قوم على ذلك ، ثم تمايل وهم في إرجافهم . فحمل زياد مصقلة إلى معاوية وكتب إليه أنه يرجف به ويسلط أقواما على أن يحذو حذوه ، وذلك ليرى رأيه فيه . فلما دخل مصقلة على معاوية قال له ادن مني . فلما دنا منه أخذ بيده فجذبه فسقط مصقلة على الأرض . فقال معاوية :

أبقى الحوادث من خلية لك مثل جندلة المراجع
صلبا إذا خار الرجا ل أبل ممتنع الشكائم
قد رامنى الأعداء قب لك فامتنعت من المظالم

فقال له مصقلة : يا أمير المؤمنين قد أبقى الله منك ما هو أعظم من ذلك حلما وكلاً ومرعى لأولياك ، وسما ناقعا لأعدائك . كانت الجاهلية فكان أبوك سيد المشركين ، وأصبح الناس مسلمين ، وأنت أمير المؤمنين .

ثم نهض مصقلة ، فوصله معاوية (أى أعطاه صلة) وأذن له في الانصراف إلى الكوفة . فقيل له كيف تركت معاوية ؟ فقال زعتم أنه لما به ، والله لقد غمزنى غمرة كاد يحطمنى ، وجذبني جذبة كاد يكسر عضوا مني .

المعاهدة الإسلامية

بين الأغنياء والفقراء

لفضيلة الأستاذ الشيخ المنشاوي عبود الخولي
المدرس بمعهد القاهرة

اقتضت حكمته تعالى ألا يكون الناس أمة واحدة في الغنى والثروة، ففضل بعضهم على بعض في الرزق، وبسط العطاء لفريق وقدر على آخر؛ وذلك خاضع لسنن الكونية في عبادته حيث أوجدكم في الحياة الدنيا ليلوهم أيهم أحسن عملا، وجعل لهذا الابتلاء ألوانا متعددة وصورا متنوعة، فقد يكون بما وهب من نعمة أو بما قضى من نقمة « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون »، هذا، وإن تفاوت الأشخاص في العطاء الإلهي يجعلهم أيضا فيما بينهم مظمرا من مظاهر ذلك الابتلاء « وجعلنا بعضهم لبعض فتنة، أتصبرون، وكان ربك بصيرا ».

فأراد تعالى أن يختبر الغنى بالمسال؛ ليعلم هل يعتز بربه فحسب ويقدره حق قدره؛ فيبذل المال في مرضاته ويسخره في طاعته، ويجعل منه موردا عذبا للسائل والمحروم؟ أم أنه يأخذه الصلف بماله ويدفعه الحرص الأثيم إلى أن يجعل يده مغلولة إلى عنقه، ويرتدى في هاوية من الضلال البعيد، فيكفر بنعمة ربه ويقول في عتو واستكبار « إنما أوتيته على علم عندي ».

وكما اختبر جلت حكمته الغنى بالمسال اختبر الفقير بالحرمان منه، ليميز الراسخ في إيمانه الصابر على ابتلاء ربه، الواثق بعمونه وإمداده، من هذا المناقق الخلو الذي « يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابه فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ». ولما كانت الصلة بين الغنى والفقير

هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع والدعامة القويمة التي يرتكز عليها بناؤه ، وتشيد صروحه ، عني الإسلام بتلك الصلة عناية فائقة ، وأحاطها بكل أنواع التقديس والرعاية . وما كان له وهو البلمس الشافي لأمراض القلوب ، أن يهمل تلك العلاقة ويجعلها نهبية لنزعات الشر وعواصف الفساد ، وتستطيع أن تجزم - من غير إسراف - أن تلك الرابطة لم تغفر في تشريع ما بمثل ما ظفرت به في الإسلام ، وليس ذلك بدعا فهو دين الإنسانية الخالد ، وحررها الآمن ، وحصلها المسكين الذي يحفظها من المذاهب الهدامة ، ويدفع عنها أعاصير الفتن ومعاول الهدم والدمار . وإنك لو استقصيت الآيات والأحاديث التي وردت في رعاية تلك الصلة ، لحسبت أنها وحدها المقصود من رسالة الإسلام .

حسبك أن تذكر أن آيات الزكاة والصدقة تربي على الخسنيين ، وأنتك قلما تجد سورة ليس فيها ذكر الفقير والمسكين وإثارة العاطفة للحبب عليهما ، وما ل ركن من أركان الإسلام مثل هذه العناية والاهتمام ، وما ذلك كله إلا لأن إغفال تلك الصلة ينجم عنه خطر داهم ، وشر مستطير ، انظر إلى قوله عليه السلام : « واتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم : حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم » .

ليكن الإسلام قد حل هذه المشكلة حلا فطريا عادلا ، وشرع لها علاجا حاسما اجتث به جذور الشر ، وصرع الفتر في مهده ، وأحكم أوامر المودة بين الأغنياء والفقراء ، فأصبحوا بنعم الله إخوانا ، يتنافسون في رعاية تلك المعاهدة القدسية ؛ لأن كل واجب والتزام يتبعه حق وامتياز ، فقد أوجب على الفقير أن يحترم ملك الغنى ، فلا يدفعه عن ماله ، ولا يحذر من إرادته . ولا يتقصه حرية التصرف ، ولا يحول بينه وبين العمل المشروع لزيادة المال وتنمية الثروة .

كل ذلك في نظير أن يستمتع الفقير بزكاة مفروضة على الغنى في ماله : هي ركن من أركان الإسلام التي يقوم عليها بناؤه ؛ وبالنهاون في أدائها يصير ذلك البناء عرضة للزوال والانهار .

ليست الزكاة فرعا ولا نافلة ، والنسب الواجبة فيها تسعف الفقير ، وترفه عنه ولا تجحف بالغنى ؛ لأنها ليست شيئا مذكورا بجانب ما يقذف به الأغنياء في الترف الماخن واللهو الآثيم .

لقد بالغ الإسلام في الوصية بهذه المعاهدة ، فحُض على رعايتها بكل عبارة ناجعة وأسلوب أخاذ ، وألُهب جذوة الحماس لتنفيذها والوفاء بحقها ، وحذر عاقبة التفريط في شرط من شروطها ، فقال تعالى مبيّنا حرمة مال الغير : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » ، وبذلك منع الفقير من الاهتداء على مال الغنى ، وأبلغ من ذلك أن الله تعالى لم يطالبه بالكف عن العدوان فقط ، بل طلب منه أن يحافظ عليه لمحافظة على ماله تماماً ؛ لأن المسلمين كنفس واحدة قال البعض مال للكل ، لأن المال عصب الدولة التي يتغيا السكل ظلالها ، ويقطف ثمراتها ، فكان لزاماً على الجميع أن يتسكاتفوا لصيانتة والمحافظة عليه « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً » ، ومما يملأ النفس روعة وجلالاً ، أن الوصية لم تقتصر على كف العدوان وتسخير الخواس في المحافظة على مال الغنى ؛ بل طلب أيضاً من الفقير أن يظهر قلبه من حسده والحقد عليه ، ولم يسمح له أن يصغى إلى خاطر الشر وأمنية السوء « ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » .

أى تشريع يرعى المال لصاحبه بمثل هذه الصيانة والإحكام ؟

تلك هى وصية الإسلام لأحد الطرفين ، أما الطرف الآخر فقد سلك معه مسلكاً حكيماً ، يزن أوتار القلوب فيجعلها توافقة للبذل والعطاء مستبشرة بالإحسان والمواساة . ونجمل ذلك فيما يأتى .

(١) آذنه أن ماله ملك لله ، وأنه فقط نائب عنه فى الإشراف عليه ؛ فلا يحمل به أن يعصى المسالك فى ملكه « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » .

(٢) قضى على ما يتردد فى نفسه من أن الإنفاق مذهب للمال ، فبين له أن ذلك هو المعراج لكسب رضوان الله ومضاعفة المال ، الشيطان يعدكم الفقر ، ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً ، والله واسع عليم .

(٣) سمى الإحسان قرضاً له تعالى يأخذه ليرده بربح وفير « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة » . وما قيمة امرئ يخل يقرض بعض المال لواهبه الذى سيرده حتماً أضعافاً مضاعفة ؟

(٤) أعلمه أن بقاء الزكاة في المال من غير إخراج وسيلة لتلفه وزواله؛ يقول عليه السلام : « ما خالطت الصدقة مالا إلا أهلكته » .

(٥) أخبره أن الصدقة تحفظ المال وصاحبه من جميع الآفات؛ قال عليه السلام « الصدقة تدفع البلاء » .

(٦) حذره من البخل وصور له ما ينجم عنه من العواقب الوخيمة، التي تسلب صاحبها لذة الأمن والطمأنينة، وتجعله عرضاً لفتنة جاحدة وبلاء شامل يقول عليه السلام : « ويل للأغنياء من الفقراء » .

(٧) جعله مهتداً بالفناء والاستئصال إن هو قبض يده عن الإنفاق في أبواب البر « ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله، فمنكم من يبخل، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه، والله الغني وأنتم الفقراء، وإن تنولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم، إلى غير ذلك من التعاليم والوصايا .

من هذا يتبين أن النظام الإسلامي يجعل بين الغنى والفقير نسباً موصولاً، وإخاء قوياً وتجاوفاً روحياً، يتبادلان المودة والوفاء والانس والصفاء، فيحس الفقير أن ما نقصه من المال قد عوض له بإحسان الغنى، ويستمتع الغنى بما بقي من ماله مغتبطاً بلذة الأمن مبتهجاً بإخلاص الفقير الذي أمره بالإحسان، فصار هاتئنا بملك المال والرجال .

لم يقتصر الإسلام في رعاية تلك الصلة عند هذا الحد؛ بل جعل للفقير مورداً دائماً في مال الغنى؛ كما ترى ذلك ماثلاً في كفارة الحنث في الدين، وكفارة العود في الظهار، وكفارة القتل الخطأ، وكفارة الفطر في رمضان، وكفارة المحظورات في الإحرام للحج، وزكاة الفطر ولحوم الضحايا، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تحض على الجود في كل مناسبة كريمة، ترفع من شأن الأمة وتنهض بها إلى أوج العزة والكمال .

أيها المسلمون : إن هذه التعاليم القدسية لا تؤتى أكلها بمجرد بحثها ودراستها، بل لا بد أن تكون جزءاً من النسيج العقلي، تغزو القلوب متحركة فيها، والضمائر مهيمنة عليها، فلا يتصرف الشخص إلا بباعث منها، ولا يصدر إلا عن وحيها .

ويجب أن يجتمع الحكام والمحكومون على احترامها وتقديسها ، وأخذ النفوس بقانونها ، وتصبح تشريعا عمليا ترهب بسلطانها من لم يعمر قلبه جلالها ، وتحذره نفسه بخيانتها .

عندئذ حدث عن هذه الآثار القيمة ما شئت أن تحدث ، ففيها تحقيق لفكرة الثأمين الاجتماعي التي هي هدف كل حكومة رشيدة ، وفيها قضاء على المذاهب المتطرفة التي تهدد كيان الدول ، وتحاول أن تأتي عليه من التواعد ، وتجعله هشيا تذروه الرياح . ولعلاج ذلك تلاقى الحكومات من صنوف العنت ما يجعل أممها في تخفيف الولايات شاق الحصول عزيز المنال .

في هذه الآثار الطيبة هزيمة قاهرة لأعداء الإنسانية الثلاثة « الفقر والمرض والجهل » ، إذ تتوفر لدينا المال الذي هو الدعامه في قضاء الحاجات وطب الأجسام وتثقيف العقول .

وفيها أيضا إقامة لآخرة شاملة جامعة طالما تاق إليها الفلاسفة والمصلحون . والله أسأل أن يوفق قادة الأمة إلى العمل بشرع الله الحكيم ، والاستمسك بهديه الرشيد ونصرة دينه القويم « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » .

شذرات من كلام الامام

قال على رضى الله عنه : رأى الشيخ أحب إلى من شهد الغلام — الناس أعداء ما جملوا — ببقية عمر المؤمن لا ثمن لها ، يدرك بها ما أفات ، ويحيى ما أمات — الدنيا بالأموال ، والآخرة بالأعمال — لا تخافن إلا ذنبك ، ولا ترجون إلا ربك — وجهوا آمالكم إلى من تحبه قلوبكم — الناس من خوف الذل في الذل — من أيقن بالخلف جاد بالعطية — ببقية السيف أبقى عددا ، وأنجب ولدا .

الدِّينُ وَالسِّيَاسَةُ

لفضيلة الاستاذ الشيخ عبد المنعم على أبو سعيد

كان العرب قبل الإسلام يعيشون في ظلام الفوضى والاضطراب والفساد ، لا رابطة تربطهم ، ولا نظام يجمعهم ، ولا دين ينير لهم سبل الحياة ، ولا قانون يهذب عندهم ما اضطرب من أمر الدنيا ، وما انتثر من نظام الاجتماع ، لا يعرفون معروفاً ، ولا ينكرون منكرأ ، ولا يردون الحقوق إلى أربابها ، ولا يعيدون الودائع إلى أصحابها ، وليس فيهم تقديس لدماء الناس وأموالهم ، ولا احترام لحرهم وأعراضهم ؛ فالأموال تنهب ، والمحارم تستباح ، والعمود تنقض ، والذمار يخفر ، ويُعتدى على الأمن في وضح النهار ، دون رهبة لسلطان قانون ، ولا خشية من صولة حاكم .

فلما أرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ، دعاهم إلى خير الدنيا والآخرة ، وسعادة الحياة والممات ؛ فهدب أوضاعهم ، وعدل نظامهم ، وجمع شتاتهم ، وجعلهم أمة واحدة مترابطة متآلفة ، قوية الدعائم ، راسخة البنيان ثابتة الأركان بما سن لهم من الشرائع ، وما أشاع فيهم من الآداب ، وما أوجب عليهم أن يتبعوه من القوانين ، ويخضعوا له من الأنظمة .

أصلح الإسلام قلوبهم ، وهذب أخلاقهم ، وصقل آدابهم ، وخلق من هذه الأمة الشامسة العصية ، المتناكرة المتنافرة التي تتأبى على النظام ، وتتمرد على قواعد الاجتماع ، أمة كريمة عفيفة مهذبة لا تعرف الجفوة ، ولا تحب الغلظة ، ولا تبغى على أحد ، ولا تظلم مخلوقاً . وكان شعارهم في ذلك قول الله جل شأنه : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » ، كذلك شرع الإسلام للناس ما ينفعهم في حياتهم ،

ويحفظهم من الفساد والفوضى في دنياهم . فلم يدع ناحية إلا أضفى عليها النور ، وبسط عليها النظام ، وجعل السيادة فيها للقانون .

وإن نظرة واحدة إلى ما شرعه القرآن من أنظمة ، وما دعا إليه من آداب كريمة ، وسنن قويمه تجعل المرء يؤمن من أعماق قلبه أن الإسلام جعل هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس ، تقودهم إلى الخير ، وتوجههم إلى الغايات المثلى ، وتدلم على السعادة الحقة ، كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . .

ولسنا الآن بصدد أن نفصل ما سنه الإسلام من شرائع ؛ لإصلاح نظام الحياة ، وتهذيب كل ناحية من نواحيها ، وتأمين الناس حتى لا يبغي بعضهم على بعض ، ولا يأكل أحد مال أحد أو يبلغ في عرضه أو يكشف ستره ، أو يهتك حرمة ، فذلك أمر يطول الحديث فيه ؛ ولكنني أقتطف زهرة فواحة من بعض النواحي ، وفيها غنية لكل عاقل يلزمه النظر الصحيح والإدراك السليم ، ودلالة أبلغ الدلالة على أن الإسلام دين ودولة ، أدب وسياسة ، عبادة ومعاملة ، نظام يربط العبد بربه ، ويصل الإنسان بأخيه الإنسان صلة كريمة لا يبغي فيها ولا عدوان ، وليس الإسلام كما يصفه بعض المفتونين ، ضعاف العقول قصار النظر يمتن راجت عندهم شبه الباطل ، ونفقت لديهم وساوس المضللين من أن الإسلام لا شأن له بالدنيا ، ولا ينبغي له أن يدخل في نظام الاجتماع .

لو أتيت هؤلاء حظ من التعقل والإنصاف ، ولو تجردوا ساعة من شهواتهم وأهوائهم ؛ لأدركوا أن الإسلام في أجمل صورته ، وأقدس مظاهره ليس له من هدف إلا أن يكون العبد قوى الإيمان بربه ، عظيم الثقة في خالقه ، وأن يكون مع ذلك في هذه الأمة عضوا من جسم واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحي ؛ فلينظر هؤلاء إلى ما سنه القرآن من أحكام تصلح كل مظهر من مظاهر الحياة .

في المعاملات التي تقوم بين الناس ، يشرع لنا رب العالمين أحكم القوانين وأبدع النظم التي تجنبنا الفوضى ، وتقينا شر الفساد ؛ يأبى الذين آمنوا إذا تداينتم

بدين إلى أجل مسمى فاكْتَبُوهُ ، وفي الزواج يقول تعالى : « فأنكحوا ما طاب
لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، ويضع لنا
دستورا فيمن حرم علينا من النساء فيقول : « حرمت عليكم أمهاتكم ، الآيات ،
وفي المواريث يقول : ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، الآيات .

ويدعو إلى المحافظة على الأموال فيقول جل شأنه : « ولا تأكلوا أموالكم
بينكم بالباطل ، وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم
تعملون ، ويحرص أشد الحرص على صيانة الدماء فيقول : « ولا تقتلوا النفس
التي حرم الله إلا بالحق » . « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ،
وغضب الله عليه ، ولعنه ، وأعد له عذاباً عظيماً » .

ويضع القصاص فيقول : « كتب عليكم القصاص في القتلى ، ويشرع الحدود
فيقول : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما
رافة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة
من المؤمنين » .

ويدعو إلى الوفاء بالعقود واحترام العهود حتى مع المعاهدين ومن دخلوا
في ذمة المسلمين « إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا
عليكم أحداً ، فأتوا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين » ، « وإن أحد من
المشركين استجارك فأجره ، حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم
قوم لا يعلمون » .

وهكذا في كل ناحية : تشريع محكم ، ونظام دقيق ، وحكم هادئ رقيق ،
لا هف فيه ولا قسوة ولا ظلم ولا إجحاف ، ولا يشعر أحد بما يشق عليه
أو يعسر ما دام يؤدي واجبه ويقوم بتبعاته .

فهل بعد هذا نظام يحفظ كيان المجتمع من التهدم ، ويصونه من الانحلال
والتهدهور ؟ وهل بعد هذا القانون المذهب السميع قانون يمكن أن يؤخذ به
الناس ، وتسير عليه الجماعات ويصلح به شأن الدنيا ؟ .

هل بعد هذا النظام الدقيق الشامل الذى أصلىح ظاهر الناس وباطنهم وعلايتهم وسرهم ، يطمع طامع أن يُوجدَ قانون آخر يهذب الجماعة ، ويلم شعها ويجمع شتاتها ؟ .

لقد خلق الإسلام من العرب دولة قوية شائخة ، وأمة فتية ناهضة ، نشرت العدل والنظام ، ورفعت لواء الحق والأمن ، وحملت نبراس الفضائل ، فتطامنت الأمم لسلطانها ودانت لعظمتها ، ودخل الناس فى نظامها طائعين مختارين . وفى ذلك عبرة لمن تحذتهم نفوسهم أن الإسلام دين ليس له شأن بالدولة ، وعبادة لا تتصل بالسياسة . ادعاء مريض ، وتفكير سقيم ونظر كليل ، لا يعرف الحقائق الدامغة ، ولا يبصر ما تحفل به صحائف التاريخ من مجد أثيل وجاه عريض .

لقد كان الإسلام ديناً ودولة ، يقدس الناس قوائمه ، ويحترمون نظامه ؛ ويرهبون القائم عليه ، يأخذون أنفسهم بطاعته ولو كان عبداً حبشياً ؛ فأمن فى ظله الخائف ، وشبع الجائع ، واكتسب العارى ، وأنصف المظلوم ، وجبر المهيض ؛ فامتدت رقعته الى أبعد الآفاق والحدود ، لأن الناس لم يكونوا يعرفون هذه الكلمات الجوفاء ، التى يرددها البعض دون أن يدركوا مدى ما تبعته من فرقة ، ولا ما تحدثه من انقسام ، وما تجره من ضعف خلقى وتحاذل اجتماعى .

الإسلام نظام للدين والدنيا ، وشرعية تهذب أمور الناس فى حياتهم ، وتهديهم الى الفوز والنجاة فى آخرتهم .

وما الدين إلا نظام للحياة إذا سار الانام على منواله سعدوا

ولقد تهدد المولى جل شأنه من يحيد عن سنته وينأى عن شريعته بالعذاب الاليم ، والشر الدائم المقيم ، تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه .

فهل بعد هذه الآيات البينات ، وتلك الحجج الواضحات الدامغات ، يقول ضال أو يتشدد مفتون ، ما للإسلام والدولة ؟ وماله وسياسة الأمة ؟ فليشعر الناس قلوبهم ، وليشربوا نفوسهم آداب الإسلام وسماحته ، وستكون لهم حينذاك المكانة التى لا تدانيها مكانة ، والمنزلة التى لا تسمو إليها منزلة .

من طبائع الشعر الجاهلي

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حامد عوف
المدرس بكلية اللغة العربية

إن وعوثة الصحراء ، وخشونة العيش ، وحرية الفكر ، وطبيعة الجو ، وسداجة البدو - كل أولئك طبع الشعر الجاهلي بطابع خاص ، ومازه بسمه ظاهرة .
لهذا كانت له مزايا لم توجد في سواه ، وقد يكون أبرز هذه المزايا ، وأولها بالحديث ، الصدق في تصوير العاطفة ، وتمثيل الطبيعة ؛ فقلما تجد فيه كلفا بالزخرف أو تكلفا في الأداء ، ولذلك كثر فيه الإيجاز وقل المجاز وندرت المبالغة ، فلا يقولون من الكلام إلا ما يخطر لهم ، ولا يصورونه إلا كما يتمثل تخيلاتهم ، والقاعدة في النظم عندهم بيت شاعرهم وحكيمهم زهير بن أبي سلمى وهو قوله :

وإن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا
فإذا تيم أحدهم الحب مثلا وأراد التعبير عن شوقه وهيامه ، وصف ما يشعر به كما هو ، فلا يغالى مثلا في وصفه بالضعف ، فيزعم أنه استحال إلى خيال أو طيف كما يفعل المتنبي إذ يقول :

كفى بجسمى نحو لا أنتى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترى
أو يزعم أن الشوق أضناه وأفناه ، حتى لم يبق فيه غير خواطر تجول ؛ كما يقول الجوهري :

فلم يبق منى الشوق غير تفكرى فلو شئت أن أبكى بكيت تفكرا
أو يبلغ في بكائه وزفيره ، فيدعى أنه غرق في بحر دمه ، أو احترق بنار زفيره ، وإنما يقول كما قال ابن الدمينية :

فديتك أعدائي كثير وشقتي بعيد وأشياعي إليك قليل
وكننت إذا ما جئت جئت بعله فأفانيت علاقي فإذا أقول ؟
فما كل يوم لي بأرضك حاجة ولا كل يوم لي إليك وصول
فلا يسمع محب هذه الآيات وأمثالها إلا رأى الشاعر يعبر عن شعور
صادق ، وإذا رثى أحدهم ميتا لا يوم السامع أن السماء طبقت على الأرض ،
وأن الشمس كسفت ، والدنيا لبست الحداد ، وإنما يقول كما قالت الخنساء ترثي
أخاها صخرا :

ألا يا صخر إن أبكيت عيني فقد أضحكيتني دهرا طويلا
يكيتك في نساء معولات وكننت أحق من أبدى العويلا
دفعت بك الجليل وأنت حي فمن ذا يدفع الخطب الجليلا ؟
إذا قبج البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسن الجميلا
وإذا أراد أن يهجو توخى الحقيقة ولم يعد الواقع في الهجاء كما يقول يزيد
ابن قنافة يهجو حاتما :

لعمري وما عمري على بهين لبئس الفتى المدعو بالليل حاتم
غداة أتى كالثور أخرج فاتق بمجهته أقتاله وهو قائم
كأن بصعراء المُرَيط نعامة تبادرها جنح الظلام نعائم
أعارتك رجلها وهاف لها وقد جردت بيض المتون صوارم
وهذا على غير ما صار إليه الشعر بعدُ من البذاء والفحش ، وحسبك
مقذعات أبي نواس وبشار بن برد ومن على شاكلتهما دليلا على التوقع فيه
إلى حد الإفراط .

على أن أشد الهجاء عندهم ما كان إغفه وأصدق ، ومن لطيف تجافهم
عن الهجاء ما قاله صخر بن عمرو المسلمي يرثي أخاه معاوية وقد قيل له : اهج
فكتلته ، فتعفف وقال :

وقالوا ألا تهجو فارس هاشم ومالى وإهداء الخنا ثم ماليا
أبى الهجو أنى قد أصابوا كريمتى وأن ليس إهداء الخنا من شماليا

فقد عبر عن الهجو بإهداء الخنا، وهو تعبير جميل يدل على مدى تحرجهم
عن الهجاء .

فإذا اضطر العربى إلى ذكر ما يعد ذكره بذاء وقبحا، فعل ذلك لا تهتكاً،
بل وصفا للحقيقة، وبيانا للواقع ولا يعد وهما .

قيل لأعرابى : مالك لا تطيل الهجاء ؟ قال : يكفيك من القلادة ما أحاط
بالعنق، فصار مثلاً .

كذلك إذا تحمس أحدهم أو تفاخر فلا يجعل نفسه أو قومه فى عداد الآلهة،
وإذا مدح فلا يغلو فى مدحه غلو القائل :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النظف التى لم تخلق

وإذا وصف حادثة، أو وصف حيواناً أو امرأة، تحرى على الجملة تصوير
الطبيعة كما هى، ومثلها بلا مغالاة فى المجاز أو السكناية كما يفعل المتأخرون .

وهكذا فشاعروهم مندفع فى كل ذلك بدافع الطبيعة، لا يفكر فى غير ملبوس
بين يديه، ومنظور أمام عينيه، وعاطفة بين جنبيه، وشعيرة تختلج فى صدره،
وصورة مطبوعة فى مخيلته منعكسة عن طرق معيشته وفطرته؛ ولا يتطلع إلى
ما وراءها، ولا يتخطى إلى غير مشهوده ومعقوله؛ لذلك جاء الشعر العربى مثلاً
صادقاً لبدائيتهم وحضارتهم .

ذلك أن العرب فى جاهليتهم فطروا على السذاجة، والبعد عن التعامل
والتصنع فى كل شىء حتى فى مواطنهم، فكانوا لا يتوطنون صقعا خاصا يأوون
إليه؛ بل كانوا يجعلون منازلهم على متونهم؛ لا يحملون ضياء، ولا يقيمون على
خسف؛ قال شاعرهم :

أنا ابن أباة الضيم من آل مالك وإن مالك كانت كرام المعان

فتمسكنت الحرية من طباعهم ، وكانت الشجاعة الادبية من أبين صفاتهم ، وأوضح سماتهم حتى ظهرت في أقوالهم وأفكارهم وأشعارهم .

يدل ذلك على ذلك ما ظهر من حريتهم في أقوالهم منذ صدر الإسلام ، يوم كان أحدهم يخاطب الخليفة كما يخاطب سائر الناس ، وإذا رأى فيه اعوجاجاً أو انحرافاً انتقده في وجهه ، والخليفة يومئذ لا ينكر عليه انتقاده ، ولا يرى فيه غرابة . وبما يلي تعلم مبلغ تمكن تلك الحرية والجرأة من طباعهم .

تزوج صحابي بابتة خالة له في خلافة عمر بن الخطاب ، وأمرها عشرة آلاف درهم ، فلما علم ذلك إلى عمر ، فقام وخطب الناس يوم الجمعة فقال رضى الله عنه :

أيها الناس ليس فيسكم من هو أكرم على الله من ابن عم الرسول ، وليست فيكم من هي أكرم على الله من زوجه البتول ، حتى يدفع أحدهم عشرة آلاف درهم مهرأ ، وهو يعلم أن فراش البتول إهاب كبش ، ووسادتها حشوليف . فقاطعته عجوز في الجماعة بحميمة وجرأة قائلة : تبالك يا عمر ! وكررتها ثلاثاً بكل ماتملك من قوة صوت . فارتعدت فرائص عمر ، ثم قالت : أين أنت يا حامي لواء الإسلام من قوله تعالى : « وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، الآية فتقاطرت عيناه بالدموع حتى بللت موقفه على المنبر ، وأجاب من فوره : أصابت امرأة وأخطأ عمر — ردها ثلاثاً . ثم قال تقدمتك الناس علماً ورشداً حتى العجائز ! ثم نزل منكس الرأس .

فانظر إلى أي حد وصلت هذه الجرأة ، حتى على من كان تقنو له الأقيال والأكاسرة ، ولكن هكذا أبت الطبيعة العربية إلا أن تظهر في ثوبها الحقيقي .

فليس يبدع أن يكون الشعر الجاهلي أفضل أنواع الشعر القديم — لأنه — على سذاجته — يمثل لنا طبيعة الإنسان وعواطفه كما مر ، ويهيج فينا عاطفة الشعم والرغبة في فضائل الرجولة ، وأنه لا ينبغي أن تقف في سبيلها رغبة أو رهبة ، كما ينبغي أن يتطامن سلطان الحكم لنصيحة الحق حيثما كان .

ألوانٌ أهملتُ ..!

لفضيلة الأستاذ كامل محمد عجلان

المدرس بالأزهر

كانت التعابير المأثورة من مقول القبيلة أو ثائرها، ثم من الخليفة أو قائده، تحمل خصائص الإيجاز المشافه والافتقار الخطابي المؤثر، مما يدخل إلى الأسماع سريعاً ويتدفق على اللسان في المحتربات السياسية والاشتباكات المتشاجنة في الرأي، وكأنها المثل أو الحكمة، أو السائر من بيت في قصيدة، أو عين في مقطوعة.

فلما استقرت حضارة الامبراطوريات الإسلامية، وجعلت القرائح حقلها الصحف ترسل في مجاريها الرسالة الإخوانية أو الرسالة السياسية أو الفكرة الاجتماعية أو ولاية عهد أو منشور سياسة في التأييد أو الاثارة، وجد فن التنويع البياني والإبداع الإنشائي عند كتاب المقامة كالبديع والحريرى.

وتمكن القلم الذى ينقد المجتمع، ويحلل النفوس ويبسط مرايا المحاسن والمساوى وارتقى هذا اللون على يد الجاحظ، الصنع.

وبدأت المكتبة العربية تذخر من مخلفات عباقرة الإسلام آثاراً قلبية لا تزال ولا تزال في دثارها، تتكشف عن ملاح خالدة تربط فيما عاجته بين الماضى والحاضر، وتصدق إن نحن تلمسنا مصداقها في حياتنا الحاضرة، لأن النفس الانسانية في كل عصر لا تختلف في الخصائص الاصلية، واختلافها في مقتضيات البيئة وتطور الزمان، وكل ذلك عارض تمطره متبدلات الحضارات، وأما الأعماق من حب وبغض، ومن سمو وضعه، ومن مهاوى الغرائز ومثالب، فكل أولئك تجسد فيه ملتقيات تتشكل في زى المعاصرة، والمعادن عند ما تصهر تختلف بقايا

تتكاد تنجد ، وهنا يستعيد المفتنُ فوات الماضى ويظفر منه بما يبني عليه المستقبل ، وهذا مكان التأسى ومهد التعلق بالماضى ، ومراد القلم المتبصر المنصرف الذى لا ينسكرك قديمه ولا يحزن بجديده .

ومن بدع القسداى تحلية المنشور من فن القلم بفرائد من الشعر تنساق فى مسارب الفكرة ، وتمضى بين الرسالة أو الخطبة أو المقامة أو المقالة فى التماعة الإشرافة ، وانطلاق الابتسامة ، مُحَلِّية ، مُحَلِّية ، مُحَلِّية ، متمكنة فى نتاج العبقرين كالجاحظ والبديع والصائب ، مزينة كالحلال على خد الحسناء فى أقلام المصنعين كالقاضى الفاضل ومن لف لفه من كتاب مدرسته .

ويبدو لى أن كتاب الاندلس فى حاجة إلى التفرد بإشادة ، لأنهم بالغوا فى اللجوء إلى الشعر والإكثار من حصائده المتنقلة المتخيرة ، لأن كتاب الاندلس كانوا من الرقة ومن الشاعرية على حظ موفور ، بل ربما كان السكاتب فى هزات قلبه يتمتع من مسایل الشاعرية ، ويرسل الألفاظ فى تخايل الأثواب الشاعرة المقدودة من اللحمة العاطفية . وفى رسالتى ابن زيدون ما يقنع الشاك ويرضى المتصدى للاستدلال .

وساعد الاندلسيين على هذا النهج : جمال الطبيعة فى بلادهم ، ومفان الجمال الصامت والناطق فى فردوسهم الضائع وجنتهم الدانية القطوف .

وفى عصرنا الحديث عرف الأدب العربى أقلّ ما منها المغفور لهم ، محمد السباعى ، و د حافظ ابرهيم ، فى النثر ، والمويلحى فى حديث (عيسى بن هشام) . ولا حاجة بنا إلى الاستشهاد ، وإنما الذى يهمنا هو انصراف الأقلام عن تلك الشئشئة وهذه السنة .

وأستطيع أن أعزو ذلك لقلة التحصيل عند حملة الأقلام ، أو تطور الدوافع والدواعى عند من يكتبون .

وربما قال المعتذر إن انسلاك الشعر فى منشور القول كان للتطور فى أسلوب الكاتبين ، ولأننا أضخينا فى زمن يخضع الأدب فيه الى مطالب د الآلة ، وأكثر الكتاب يعيشون على حقول د الصحافة ، ، والصحافة لا تريد غير الأسلوب

التقريرى والبيان ، الخبرى ، . وتلك هى الطامة التى ستجنى على فتية الأسلوب ، وإن روجت له وكثرت منه وأشاعته وقربته من عوام القراء ، وأشباه المثقفين .
والمهم عندى أننا فقدنا لونا من الأساليب التى جمعت دقة الفكرة وجمال التعبير وشاعرية الأداء ، وكففت فى طواياها بدائع من الشعر وطرائف من النظم مقبوسة من الحكمة أو مقطوفة من رأى أو مقطوعة من الغزل .

وظنى أننا سنعود فى عهد قريب ، بعد أن نجد الجفاف يسيطر على ما يخلفه القلم النائر بسبب مجافاة التشبيه المطرب ، والكناية المخدرة ، والاستعارة اللماحة ، ومعاداة التخلية بيت من الشعر أو بمقطوعة من النظم ؛

نعم سنعود الى بدائع الجمال التعبيرى ، والافتنان فى إخراج الفكرة وتظليل أثوابها ، بعد أن عريناها فخرجت وجمالها يقتضى عليه ما يعد كالجدرى ، فى وجه الحسناء ، أو كالصدأ حف بالمعدن النفيس .

ونصيحى إلى الشادين فى الأدب : أن يعكفوا على زاد الأدب العربى من منشور ، ومنظوم ، وأن يرعوا حقه يوم تدمم ثقافتهم من موائد الغرب ، فاذا استطاعوا أن يحفظوا حق ماضيهم إذا أضافوا من الجديد الغربى ، كان لهم مقام صدق ، وكان لهم القدح الممل ، واستطاعت صناعتهم أو استطاع أثرهم أن يباهى ويتقدم بخطاه الى سدة الخلود ، فإن ارتد عن هذه السدة فلا أقل من أن يجد مدرجه فى الحياة الشرقية التى تقرأ ما تجل بالشعار الشرقى وتسربل بالذثار العربى .

حماسة

نسبت إلى على بن أبى طالب عليه السلام هذه الايات :

لمن راية سوداء يحقق ظلها	إذا قيل قدمها حصين تقدما
فيوردها فى الصف حتى تردها	حياض المنايا تقطر الموت والدماء
جزى الله قوما قاتلوا فى لقاءهم	لدى الروح قوما ما أعز وأكرم
وأطيب أخبار وأفضل شيمة	إذا كان أصوات الرجال تغمغما

قلت : نسب هذا إلى الإمام وفيه تشكيك ؛ لأنه كان كثيرا ما ينسب إليه ما لم يقله بسبب إكبار الناس لأقواله .

انحيال الشعرى

للشيخ أحمد محمد صقر

الطالب بكلية اللغة العربية

يمتاز الشعر من الفنون الأخرى بحاجته إلى الخيال ، وبفرد عن أنواع الأدب بأن الخيال لازم له دونها جميعاً . . . فالكاتب يستطيع أن يجد طريقه إلى النفوس بوسيلة غير الخيال ، والقاص يستطيع أن ينسج من الواقع ثوباً جذاباً لقصته ؛ بل ربما كان القصص الواقعي أقرب إلى النفوس مما عداه .

ولكن الشعر لا يروج إلا حيث يكون الخيال موفوراً ، ولا يلذ للناس إلا إذا طاف بهم على صور تنزعها الخيلة من شيء غامض ، يدق مأخذه ، ويبعد لأول نظرة اقترانه بالحس . وإذا كنا نسمعهم يصفون الشعر ، بأن أعذبه أكذب ، فما ذاك إلا لأن الخيال عمدته ، وما أوقى الشاعر حظاً كبيراً من التخيّل ، فإنه بالغ ما أراد من التأثير ؛ فإذا فقد هذا العنصر ، برد الشعر ومال إلى الغثاثة ، بل أصبح بالنظم أشبه ! وروعة الخيال تأتي الشعر من طرفيه ، فإما أن يبلغ الذروة في الرقي فيهنز النفس ويتغلغل فيها ، وإما أن يبلغ الغاية في الهزل فيهنزها أيضاً ؛ فإن وقع وسطاً بين الغايتين ، خرج عن الشعرية وانضاف إلى الاعتدال ، فلم يرقص الجوانح ولم يبعث الوجدان . ذلك أن الشعر لا يخاطب العقل ، وإنما يخاطب الشعور ، ولا يجرى مع المنطق ، بل يجرى مع العاطفة ، ولا يسير القواعد والأصول ، بل ينطلق إلى ما وراء القواعد والأصول ؛ فلا يخضع للقيود لأن الأحاسيس لا قيود لها ؛ فليس من الشعر في شيء تلك الحكم والمواظ والفلسفة والنظريات ، وقد أحسن نقاد الشعر حينما نفوا عن المتنبي والمعري وأمثالهما أن يسموا شعراء ، ورأوا أحقية البحري بهذه التسمية . وبعيد

ما بين إنسان يستوحى المنطق ويخلق في أجواء أرسطو وأفلاطون؛ وبين آخر يسبح في تأثير الروض ويطوف بالنفوس والعواطف يستلهمها، وليس هذا إغماضاً لشأن العلوم فليست الغاية مقارنة بين شعر وعلم، فكل همننا أن نتحدث عن الخيال وقيمته في الشعر.. وسواء أكان هذا الخيال مخترعاً أم محسباً مفترعاً.. فقد يسبق الشاعر بالابتكار، ولكن المتأخر يولد ويزيد ويقلب وينزع، ويلج على المعنى، حتى يضيف إليه شيئاً جديداً، فيعد ذلك له فضلاً لا يقل عن فضل المبتكر.

وقد ابتلى المتأخرون من الشعراء بتأخر زمانهم وجُدَّ القدماء بتقدم عهدهم؛ فاقتطفوا أزهار المعاني وتركوا أشواكها للمتأخرين، ونهلوا من مناهلها وهي صفو لم تسكن مطروقة ولا مرنقة، فجاء من بعدهم يقلدونهم حيناً فيظهر فيهم أثر التقليد، وتعلوهم علامات الانقطاع والبحر. ويجددون أحياناً أخرى فيأتون بالعجاب الذي تنقطع أعناق القدماء دونه، فيتخذ المتعصبون من النقدة جديدهم دليلاً على الإفلاس، وتقليدهم دليلاً على عظمة القدماء، ثم يصير الأمر إلى عرض قضية الخيال الشعري على محكمة الهوى؛ فيحكمون على الخيال حكماً يفيض تجنيا وظلماً، فيقولون: «إن العقل البشري سائر نحو الارتقاء إلا من حيث الخيال الشعري فإنه لا يزال في مكانه، هذا هو ميروس لا يزال نابعة الشعراء وقد مر عليه نحو ثلاثة آلاف من السنين، والناس يتقدمون في كل شيء؛ وامرؤ القيس والنابعة الذيباني وزهير بن أبي سلمى، وغيرهم من الجاهليين لا يزالون من نوابع الشعراء إلى الآن..» ونحن ننكر أن يكون الخيال الشعري صورة للعقل البشري، إذ أن العقل شيء والخيال شيء آخر؛ فإن الخيال إذا خضع للعقل ضاق ولحقه المسخ والتشويه، فهو تابع للإحساس معتمد على القلب والعواطف والوجدان؛ وننكر كذلك أن يكون الخيال الشعري واقفاً حيث تركه امرؤ القيس وأهل عصره!

ولكنهم يحكمون على الخيال الشعري بالارتكاس بناء على شيئين:

أولهما: اعتراف المتأخرين بفضل السابقين، وتقليدهم إياهم مع ظهور عجزهم في هذا التقليد وتلك المحاكاة، واعتبار القدماء فوق مراتب الطعن والتجريح.

ثانيهما : أن الزمن كلما تأخر بالناس ضاقت مخيلاتهم ، واتجهوا إلى المادية وغلبت عليهم تلك النزعة .

ودفع هذين الدليلين ليس من الصعوبة بمكان ، وما علينا إلا أن نتخذ الشعر العربي مجالاً للتطبيق والبحث ، فإنه لا يضير المتأخرين تقديمهم للجاهليين ؛ لأنهم إنما يحترمون السليقة ويعظمون الفطرة ، ويعترفون للمسكة بالفضل ؛ فهذا الاعتراف على ؛ لأننا ما زلنا إلى اليوم نعتبر القدماء مثابة للفصاحة ، ونحتج بمأثوراتهم لصحة الكلام واستنباط القواعد . وجاء الأمويون فرفعوا من قدر الجاهليين ، وأشعلوا نار العصية العربية ، وأحيوا عادات الجاهلية ، وحرصوا على رواية أخبارها ، فانساق شعراء عصرهم وراء هذا التيار . فلما جاء العباسيون وحدثت تلك الثورة الأدبية الكبرى ، على أثر ذلك الانقلاب الاجتماعي بالانتقال من البداوة إلى الحضارة ، جدد الشعراء وطافوا بأخيلتهم حول كل بعيد المنال ؛ فحققوا للشعر ما لم يحلم به ، وجعلوه مادة أساسية في الحياة اليومية ، وارتقى خيالهم الشعري ارتقاء يحسُّه كل منصف ، ويعترف به كل باحث مدقق .

وما ظنك بالإنسانية حين ترتقى في كل مرافقها ، ويطلع الناس على صور لم يشهدها من قبل ، وتفتح أعينهم على مشاهد تفجر بحور الشعر في الضلوع ، وتشق الأكام عن زهر المعاني ، وتبعث الخيال غصنا نضيرا .. ؟ أهو الشاعر يخلق البيئة أم البيئة هي التي تخلقه ؟ إن البيئة كانت في العصر العباسي خلاقة تبعث الهزيل فتياً .. وتجبر الخيال الشعري على الارتقاء عما كان عليه قبل ذلك . فما بضاعة الجاهلي التي يستمددها خياله .. ؟ إنها الناقة والكلب .. والرمال والجبال والسماء ، بعثته على الخيال والتصور ؛ أف يكون من الإنصاف في شيء أن نحكم بضيق الخيال بعد ذلك ؛ لأن البيئة اتسعت ودواعي التصور ازدادت ؟ ثم هذا التلافيح بين العرب والأجانب والخلاط بين البدو والحضر ، الذي من شأنه تنمية الحس وتلطيف الذوق ، وخصب المعاني .. أ يكون كذلك مبعث جمود ، وسبيل موت ؟ في الحق إن الخيال ارتقى والشعر تلون بألوان الحياة ، فلا سبيل إلى الإنكار ، أما صيرورة الناس إلى المادية ، وتلك تضعف الخيال وتهبط به

من سمائه إلى حضيضها ، ففى كان الناس كلهم ماديين ؟ ومتى كان الشعراء يذهبون هذا المذهب فشعرهم ليس شعرا وإنما هو شيء آخر ؛ لأن الروحية مدد للخيال الشعري ، وإذا بردت برد الشعر وتضاءلت قيمته الشعرية الفنية ، ولم يكن كل الناس على شاكلة واحدة فى يوم من الأيام .

فلا تزال للشعر حصونه المنيعه من نفوس الشعراء ، يرتفع فيها عن وهدة المادية ، ويستعلى بها على طبيعة الجمود ، ولا يقف عند الحدود والسدود ؛ وعصرنا الحاضر عصر آلى حقا ، ولكنه مع ذلك ملء بالاتجاهات الشعرية ، والخيالات البديعة ؛ إذ الفرد الواحد يستطيع أن يكون أمة كاملة ، لامتزاج العالم بامتزاج الثقافات وتلاقح الافكار ، وفى ذلك كله للخيال الشعري مدد يزيده ارتقاء ، ويعوضه من استهلاك المعاني جدة ونضارة . وإذا كان الشعراء فى هذه الحقبة لا يؤمنون بالأساطير التى آمن بها هواميروس ، ولا يعجبون بالخرافات التى أعجب بها الجاهليون ، فإن ذلك لا يضيرهم ولا يحد من خيالهم ، ولا يزالون يرتقون بهذا الخيال ، فالشاعر الحق يسبق الزمن بتصوره ، ويرتفع عن معشره بوجدانه .

الرجال قليلون

قال ابراهيم بن السندى : قلت لرجل من أهل الكوفة من وجوه أهلها ، كان لا يحف لبده ، ولا يستريح قلبه ، ولا تسكن حركته فى طلب حوائج الرجال ، وإدخال المرافق على الضعفاء ، فقلت له : أخبرنى عن الحالة التى خفت عليك النصب ، وهونت عليك التعب فى القيام بحوائج الناس ما هى ؟ قال : والله سمعت تغريد الطير بالأسحار فى فروع الأشجار ، وسمعت خفق أوتار العيدان ، وترجيع أصوات القيان ، فما طربت من صوت قط طربى من ثناء حسن ، بلسان حسن ، على رجل قد أحسن ، ومن شكر حر لمنعم حر ، ومن شفاعته محتسب لطالب شاكر .

قال ابراهيم : فقلت له لله أبوك فقد حشيت كرما .

فَقَصُّ الشَّيْخِ

طرف من حياته الداخلية

لحضرة الاستاذ الشيخ حسن خطاب الوكيل

من أشهر الحوادث في تاريخ العباسيين مقتل الوزير جعفر البرمكي . فلقد كان أثيراً عند هرون الرشيد ، محبباً إليه ومقرباً منه ، وقد اتخذه وزيراً بعد أبيه ، وأطلق يده في كبريات الأمور وصغرياتها ، ثم فوجيء الناس بخبر مقتله ، فدهشوا ولم يقدروا من ذلك الأمر على سبب .

ولكن المقربين من الخليفة كانوا يلاحظون منه أحياناً ما ينبههم إلى برمه به ، واستتقاله له كأنه وقف منه على دخيلة سوء . من ذلك ما تدل عليه القصة التالية :

بينما الرشيد في مجلسه ، إذ دخل عليه أحد قواده . فقال له الخليفة : ما وراءك ؟ فأجابه القائد : لقد ظفرنا الليلة ببحي بن عبد الله ! فالتفت الرشيد إلى جعفر البرمكي وقال له : خذ هذا عندك ، واحتفظ به في محبس ، ثم سله عن طلبه للخلافة ، وحذره مغبة الخروج علينا ، وتول ذلك بنفسك .

فقام جعفر بما عهد له إليه أمير المؤمنين ، وسأله عما نسب إليه . فقال له يحيى : اتق الله يا جعفر في أمري ، ولا تنعرض أن يكون خصمك غداً محمد صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما أحدثت حدثاً ، ولا آويت محدثاً ! فصدقه جعفر وقال له : اذهب حيث شئت من بلاد الله ، فقد صدقتك . فأجابه يحيى : وكيف أذهب ولا آمن أن أؤخذ بعد قليل فأرد إليك أو لغيرك ؟ فقال له جعفر : إني مرسل معك من يبلغك مأمنك . فاطمأن يحيى ومضى حيث غاب عن أعين الرقباء ...

وانقضى وقت من الزمان ، ولذا بأحد الجواسيس يسأذن على الرشيد . فلم يأذن له لأنه مشغول عنه ، فأرسل الجاسوس رقعة فيها : يا أمير المؤمنين نصيحة فادع بي إليك ، فأرسل إليه الرشيد بهرثمة أحد قواده ليسأله عن نصيحته ، فأبى الجاسوس أن يبوح له بشيء ، وقال له : إن الذي عندى لسر من أسرار الخليفة . فقال الرشيد : لا يبرح الرجل حتى أفرغ له . ثم قال بعد قليل : لى بالرجل . فلما مثل بين يديه رأى بعض أبناء الخليفة ، وبعض حراسه . فقال أخفى يا أمير المؤمنين على أن تؤمننى . فقال الرشيد : انصرفوا يا فتيان ، وإلى مبلغك مأمنك ، ومحسن إليك . فتقدم الجاسوس وقال : كنت بحلوان فى خان من خاناتها فإذا أنا ببيحي بن عبد الله ابن حسن فى دراعة من صوف غليظة وكساء صوف أخضر غليظ ، ومعه جماعة ينزلون إذا نزل ويرحلون إذا رحل ، يوهمون من رأيهم أنهم لا يعرفون بيحي ، وهم من أعوانه ، ومع كل واحد منهم منشور يأمن به إن تعرض له أحد .

فأراد الرشيد أن يتعرف حقيقة الأمر ، فسأله : أو تعرف بيحي بن عبد الله ؟ فأجابه الجاسوس : أعرفه قديماً ؛ وذلك الذى حقق معرفتى به بالأمس . فقال له الرشيد : صفه لى . فأجاب : إنه مربوع أسمر رقيق السمرة حسن العينين عظيم البطن . فقال الرشيد : صدقت هو ذاك فما سمعته يقول ؟ فأجاب الجاسوس : ما سمعته يقول شيئاً غير أنى رأيت يصى ، ورأيت غلاماً من غلمانه أعرفه قديماً جالسا على باب الحان ، فلما فرغ من صلاته أتى بثوب غسيل فألقاه فى عنقه ، ونزع عنه جبة الصوف . فلما كان بعد الزوال صلى صلاة ظننتها العصر وأنا أرمقه ، أطال فى الأوليين ، وخفف فى الأخيرتين ، فأعجب الرشيد بوصف الرجل وقال له : لله أبوك نعم تلك صلاة العصر وذاك وقتها عند القوم ، أحسن الله جزاءك ، وشكر سعيك ! فن أنت ؟ فأجاب الجاسوس : أنا رجل من أعقاب أبناء هذه الدولة ، وأصلى من مرو ، ومولدى بمدينة السلام .

فسأله الرشيد : كيف احتمالك لمكروه تمتحن به فى طاعنى ؟ فأجاب : أبلغ من ذلك حيث أحب أمير المؤمنين ، فقال له الرشيد : كن بمكانك حتى أرجع إليك ، ثم عاد وبيده كيس قد ملئ بالدنانير ، وأعطاه له وقال له : دعنى وما أدبر فيك . ثم فكر ملياً ونادى يا غلام ، فدخل اثنان من حراسه ، فقال لهما : اصفعا ابن اللخاء

وأخرجاه إلى من بالدار وعمامته فى عنقه ، وقولا : هذا جزاء من يسمى ببطانة أمير المؤمنين .

ولما كان ما حدث هو من الأهمية بمكان ، وفيه سلامة الدولة ، أراد الرشيد أن يخطو خطوة خطيرة ويتثبت من حقيقة ما وصل إليه بنفسه ، فدعا وزيره جعفر ليتغدى معه ، وليستدرجه فى الأمر . فلما أحضر فإذا به يحمل معه البريد والتوقيعات . فسأله الرشيد : ماذا قلت بصدد مذنب عفونا عنه . فأجابه جعفر قلت يا مولاي العدل أوقعه ، والعفو أطلقه .

ثم قال له : وماذا قلت للوالى الذى شكك منه الناس كثيرا ؟ . فأجاب جعفر كتبت إليه : قد كثر شاكوك ، وقل شاكروك ، فلما عدلت ، وإما عزلت . فسأله الرشيد : وماذا قلت لأصحاب الشكوى منه ؟ هلا ذكرت لهم عين الخليفة تسكاؤكم ، ونظره بعمكم .

هذا وما زال الرشيد يستدرجه تارة بمدح بعض أصناف الطعام ، وتارة بظرف الحديث ، إلى أن فاجأه مفاجأة خطيرة بقوله : ما فعل يحيى بن عبد الله ؟ ، فأجاب جعفر : هو بحاله يا أمير المؤمنين فى الحبس الضيق والأكبال . فاسترسل الرشيد فى سؤاله بأن قال له بحياى ! فارتبك جعفر ، وعرف أن الرشيد قد علم بأنه أطلق سراخ يحيى . فأجاب قائلا : لا وحياتك يا سيدي ، ولكنى علمت أن لا مكروه من إطلاقه فأطلقته . فقال له الرشيد مغالطا : إنك ما عدوت ما كان فى نفسى . ولما هم جعفر بالانصراف أتبعه الرشيد نظره حتى كاد يتوارى عن بصره ، وقال متمتا : قتلى الله إن لم أقتلك ! . أما الوزير جعفر فتوجس خيفة من الرشيد ؛ فأراد أن يتعرف ذلك بغيره لا بنفسه فقال لصديق له يدعى زيد بن على : يا زيد إني استربت بأمر هذا الرجل ، وإنى أردت أن أعتبر ذلك بغيرى ، فكنت أنت فارمق ذلك من يومك هذا ، وأعلمنى بما ترى منه . فقال له صاحبه وهو يحاوره : أفعل ذلك . ثم توجه إلى قصر الرشيد حيث السمر والغناء ، فلما نهض الرشيد من مجلسه خرج زيد بن على مسرعا حتى سار إلى شجر فى طريق جعفر ، واختفى فيه ومر جعفر ومن معه فى الندماء حتى إذا

قرب من مكان صديقه ، قال : اخرج يا فلان وأخبرني بما عندك : فدهش صديقه وقال : حتى تخبرني أنت كيف علمت أني هاهنا . فأجابه جعفر عرفت عنايتك بما أعنى به ، وأنت لم تكن لتصرف حتى تعلمني بما رأيت منه ، وعلمت أنك تكره أن ترى واقفاً هنا في مثل هذا الوقت ، وليس في طريقك موضع أستر من هذا الموضع ، فقضيت بأنك فيه فهات ما عندك . فقال زيد : رأيت الخليفة يهزل إذا جددت ، ويجدد إذا هزلت ليسكيدك بذلك ، فأعجب جعفر بذلك صاحبه وقوة فراسته وقال له : هو كذلك عندي .

لفت نظر

قرظنا كتابين لحضرة الاستاذ النابه على فسكرى بك أحدهما في عدد صفر وعنوانه : البيان الفاصل بين الحق والباطل ، ذكرنا فيه أن نسخته التي بين أيدينا من طبعته الثانية ، والحقيقة أنها من طبعته الاولى ولم يطبع للمرة الثانية بعد .

وقرظنا في عدد جمادى الاولى كتابه الذي عنوانه : خلاصة الكلام في أركان الإسلام ، وقلنا : وقد صدرت منه طبعته الاولى ، نعى التي بين أيدينا ، والحقيقة أنها طبعته الثانية . فرأينا أن نصحح هذا الخطأ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عناصر المدنية في الديانة الإسلامية

الرابطه المادية والرابطه الادبيه

قلنا في العدد الذى سلف : إن أول عناصر المدنية لإحكام أو أواصر الاجتماع في الجماعة ، واليوم نقول : إن كل اجتماع لا بد له من رابطتين ، إحداهما ذات أغراض مادية ، والآخرى ذات غايات أدبية ؛ فالرابطه الاولى تقتضيها الحاجات الجسديه ، إذ لا بد للمجتمعين أن يكون لهم محاولات لتحصيل ما يوفى بضرورياتهم الاجتماعيه ، وهذه المحاولات لصعوبتها تستدعى التضافر على إيجادها ، ولا تغنى فيها الجهود الفرديه ، فهى رابطه حيويه قوية ؛ إذ لا تقوم الحياه الجماعية إلا بها ، وهى ضرورية تعنى بها الجماعة عنايتها بحياتها ، وتيسع في سبيل صيانتها وجودها الدنيوى رخيصاً ، وهى تتولد تولداً آلياً في نفسية الجماعات دون أن تحتاج لدعوة .

والرابطه الادبيه هى من ضروريات الحياه البشرية أيضاً ، ولم تصادف جماعة مجردة منها في مدى الأدوار التاريخيه كلها ، وهى تتألف من أصول ومبادئ يوحى إليها بما محصولها العلى مناسبةً لمداركها العقلية ومواهبها النفسية ؛ فهى تحكم على الوجود وقواه وأحداثه وانقلاباته ، وعلى الإنسان وحياته وتطوراته ومُثله العليا ومصيره ، تحت ضوء ما ورثته عن أسلافها من دين ، وما طرأ عليها من عادات وتقاليد .

والرابطه المادية كما تتولد آلياً ، تتطور الادبيه آلياً كذلك ، دون أن تحدث في الجماعة أى اضطراب ، لأن المحاولات المادية من شأنها أن تشعب تحت ضغط

الحوائل والحاجات ، فتقبل الجماعات تطوراتها كوسائل إنقاذ من العنت والرهق ؛ وعلى خلاف ذلك الرابطة الأدبية ، فإنها لئلقها بالعقائد الدينية ، والعادات القومية ، والتقاليد الاجتماعية ، تستعصى على التطور ، وتتألب على دفعه . فإن دفع العلم والنهذب العقلى فريقا إلى قبوله ، أدى ذلك إلى انقسام الجماعة شطرين فى الميول والمُشَلِّ العليا ؛ وقد يتفاقم أمره فيؤدى إلى الثورات المسلحة ، فيقتل بعض الجماعة بعضا غير آبهين بما يصيب أمتهن من الوهن ، وبما يعرض وجودها للخطر .

وقد تكون مظاهر هذه الثورات اجتماعية باحة ، ولكنها ترجع بالتحليل إلى عوامل أدبية ، كشعور الطبقة العاملة بحيف واقع عليها من ناحية الطبقة القابضة على زمام الثروة العمومية ، وعدم معاملتها بروح العدالة التى تقتضيها الأخوة القومية . فالعوامل الأدبية فى الجماعات هى الأسس التى يقوم عليها بناء المجتمع ، فإذا لم تكن مرنة مسايرة لحركات التطور الشعورى والأدبى للنفوس البشرية ، فلا يعقل أن يستقر فظام أو تزدهر مدنية .

ومن يتأمل فى كثير من أحوال الجماعات الأوروبية ، التى بلغت مدى بعيدا فى المدنية ، يأخذ العجب مما آلت إليه من اضطراب شئونها ، واختلاف ميول شعوبها ؛ حتى لم يوفق بعضها لإقامة حكمه تثبت أمام هذه الأعاصير من القلاقل بضعة أشهر . والسبب فى ذلك تحول طراً على مبادئها الأدبية تحت تأثير خطباء من ذوى اللسن والخلابة الكلامية ، حشوا عقولهم ، إن حقاً وإن باطلاً ، بأن العدل يقتضى أن يكون نصيبهم من ربح الأعمال التى يقومون بها ، يكفهم ويكفى من يعولونهم الحاجة . وما لم يعطوا أجورهم على هذا الوجه ، فلا يفتأون يعتصبون ويضطربون ، بل يشورون حتى تحباب مطالبهم . فانظر كيف أثر هذا التحول فى المبدأ على الجماعات ، حتى جعلها فى أمر مريب لا تخلص منه إلا حدوث إصلاح عام للبداً نفسه ، تتق به هذه الزعازع . وكيف يمكن أن يتم إصلاح تستقر الامور عليه على طريقة الارتجال ، وهو إذا أرضى فريقا أسخط فريقا آخر لا يقل عن

الأول إثارة للقلق والارتباك ؟ فانظر إلى أى حد يضطرب نظام الجماعات تحت تأثير المبادئ والأصول ؟ ثم انظر إلى أى حال من الدقة والاتزان يجب أن تكون تلك المبادئ والأصول ، لتعيش في ظلها الأمة أجيالا متوالية قرونا كثيرة ، لتصل إلى مدنية تمتفيد منها البشرية انتقالات مادية وأدبية ؟ .

فلنرجع الآن بعد بسط هذه المقدمة إلى موضوعنا الاصلى وهو : عناصر المدنية في الديانة الإسلامية ، فنقول : العنصر الثانى بعد توثيق أواصر الاجتماع هو :

فرض رابطة أدبية ، على الجماعة تضمن حقوق الافراد ، وتعين واجباتهم ، وتحدد دوائر نشاطهم ، وتكون من المرونة وقبول التطور بحيث لا تصطدم في أدوار وجودهم ، بما يتأدون إليه من ترقيات مادية وأدبية ، بل تسيرهم في تلك الأدوار ، وتماشيمهم في طريقهم إلى المُشَلِّ العليا من جميع محاولاتهم ، بما يناسب جميع طبقاتها ، ويوائم حوافز نفسياتها ، فتعيش وهي مركبة من طوائف شتى ، في نطاق هذه الرابطة ، كأعضاء الكائن الحى ، تتكافل جميعها على إبلاغه الغاية القصوى مما قُدِّر له من ارتقاء وبقاء .

لا يعرف في تاريخ العالم الإنسانى بأن رابطة اجتماعية قامت على هذا النحو غير الرابطة الإسلامية ، فقد جاءت في كل هذه الشؤون البشرية بالنهايات التى ليس وراءها مرمى ، تاركة فهم مكائنها من السمو للأجيال المقبلة : « سريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » . ولذلك أوصلت الأمة التى تولتها إلى أرفع المسكنات الاجتماعية ، دون أن يحتاج أهلها إلى تعديل عوج فى أصولها ، أو تبديل نص من نصوصها . خلافا لجميع الأمم التى وصلت إلى غايات بعيدة فى مدنياتها ، فإن روابطها بدأت ساذجة جائرة ، ليس للضعفاء فيها حق يحترم ، ولا للمساواة فيها مبدأ يلتزم ، بل كان السلطان كله للقوة والغلب ، فكانت فى كل مرحلة من مراحل وجودها تجد نفسها فى معمعان ثورة بين الأقوياء والضعفاء ، تنتهى عادة بخيال من حقوق يناها هؤلاء بعد جهاد هيف ، ولا يزالون ينشدون هذه المساواة ، ولم ينالوها كاملة إلى يومنا هذا .

ألا تعجب أن أكبر العقول البشرية عجزت عن قبول مبدأ المساواة في الحقوق الوطنية، فقرر أفلاطون شيخ الفلسفة، وتلميذه أرسطو أميرها، أن العمال وأرباب الصنائع يجب أن يكونوا مجردين من الحقوق الوطنية. أما السود من العبيد ومن على شاكلتهم، فلا يجوز أن يعتقد أن لهم أرواحاً إنسانية خالدة كأرواح البيض، فهم بعد موتهم يستحيلون إلى تراب كما تستحيل إليه أجساد الحيوانات العجم؟

ولما خلفت هذه المدنية اليونانية المدنية الرومانية، جرت على شاكلتها في معاملة سواد الأمم، فاعتبرتهم مسخرين للكبراء وأصحاب الثروات، ومضت في ذلك قدماً حتى ضج العامة من فداحة ما عوملوا به من الامتهان والظلم، وفضلوا أن يهيموا على وجوههم في القفار على أن يصبروا على إذلال لا تطيقه الطبيعة البشرية. فاضطر الخاصة أن يرضخوا لهم ببعض مطالبهم، فعادوا مغلوبين على أمرهم، ينتهزون كل فرصة للشغب والخروج عن الطاعة، وما زالوا على ما كانوا عليه من سوء الحال حتى تألبت القبائل الهابجة المجاورة للإمبراطورية الرومانية في إيطاليا على إبادة فبادت في سنة (٣٩٥) م وتلتها في الزوال الإمبراطورية الرومانية الغربية حين فتح الأتراك القسطنطينية هاجمتها في سنة (١٤٥٣) م بعد أن كانوا جردوها من جميع ممتلكاتها الأوروبية.

أما الرابطة الإسلامية فقد خلصت من جميع العلل الاجتماعية، فلم تنطو على أصل يناقض العقل أو يدابر العدل، أو يؤدي إلى اصطدام الطبقات والأجناس في دور من أدوار الاجتماع، أو يقف حائلاً بين الجماعة والترقي في مرحلة من مراحل حياتها الطويلة، أو يمكن تأويله لمصلحة فريق دون فريق، وهذا الأمر الجلل من الآيات الخالدة، يدل على أنه وحى من مدبر الوجود والكائنات، لا أنه ثمرة تفكير فلسفي، أو تدبير علمي؛ فقد سبق زمان وحيه بما لا يقدر من الأجيال، وجاوز حدود الطاقة العلمية والفلسفية لعهد تشريعه بما لا يتخيله إنسان.

ألا تعجب أنه بينما كانت أرقى فلسفة في العالم، تقرر أن الصنائع والعمال لا يستأهلون أن يعترف لهم بالحقوق الوطنية، وأن الأرقاء مثلهم كمثل الحيوانات

العُجْم لا أرواح لهم تبقى بعد موتهم ، كان الإسلام يسوى بين جميع الطبقات فى الحقوق الوطنية ، ومنهم العبيد السود ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لبيض على أسود ، إلا بتقوى الله وعمل صالح ، ! » وجرى العمل على ذلك من ذاك العهد ، فعين رسول الله بلالا ، وكان عبداً حبشياً ، والياً على المدينة وفيها أبو بكر وعمر ، وجمهور كبير من كبراء الصحابة ، وولى غيره قائداً لجيش كان من جنوده الصديق والفاروق وغيرهما من أجلاء المسلمين ! هذا عجيب حقاً ، وهذه المساواة فى الحقوق ، كانت إحدى الأسباب التى صانت وحدة المسلمين من التفكك ، وحمته من الاضطرابات الثورية ، فى مدى قرون متوالية . فهى بهذا الاعتبار ، كما كانت من أوثق حوافظ الترابط الاجتماعى ، كانت كذلك من أقوى عناصر المدنية ، ومن أشدها شجذاً للهمم فى الذهاب بها إلى أقصى حد يمكن أن تصل إليه ؛ لأن المدنية تستمد إبداعها المادى من الصناعات اليدوية ، فإذا كان رجال هذه الصناعات يجدون أنفسهم محرومين من الحقوق الوطنية ، فلا يجدون من البواعث على الإبتقان والابتكار ما يجدونه المتمتعون بجميع الحقوق الاجتماعية : لذلك لم يكذب يخلف المسلمون الأولون من سبقهم من الأمم فى الخلافة العالمية ؛ حتى نهضت الصناعات اليدوية نهضة فجائية بزوا بها جميع الأمم التى تقدمتهم فى الوجود ، وصارت بلادهم مثابة لطلاب العلم والحكمة والصنائع ، يقتبسون منها ما يسدون به حاجتهم الاجتماعية . واستمر الحال على هذا المنوال مئات من السنين . فإذا كانت الشعوب الإسلامية قد تدهورت إلى ما هى عليه الآن من الناحية الإبداعية والفنية ، فإنما كان ذلك لأسباب انحراف المسلمين عن الصراط السوى الذى قام عليه أسلافهم ؛ أما وقد أدركوا ذلك الآن ، وبدأوا يستقيمون على الطريق السوى الذى كان يسلكه أوتائلهم فى الدين والدنيا ، فسيصلون إن شاء الله إلى مثل ما كانوا عليه من السبق إلى كل غاية كريمة .

نأتى إن شاء الله فى مقالاتنا المقبلة على بقية عناصر المدنية .

السنة التشريعية :

الرجبية

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ فكري ياسين

أخرج أحمد والنسائي، والبيهقي والحاكم وصحاحه من حديث الحارث بن عمرو أنه لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ، فقال رجل : يا رسول الله ، العتائر والفرائع ، قال : من شاء عتّر ، ومن شاء لم يعتّر ، ومن شاء ففرّع ، ومن شاء لم يفرّع .

* * *

كان من عادات العرب في الجاهلية أنهم يذبحون في العشر الاول من شهر رجب ذبيحة ، يتقربون بها لاصنامهم ، يسمونها العتيرة ، وكانوا يسمونها الرجبية ، أيضا ، كما وقع ذلك في حديث مخنف بن محمد بن سليم ، ولفظه : هل تدرون ما العتيرة ؟ هي التي تسمونها الرجبية ، وسميت عتيرة - بوزن عظيمة - اخذا مما كان يفعل من الذبح ، وهو العتّر ، فهي فعيلة بمعنى مفعولة ، وسميت رجبية لحصول ذلك في شهر رجب . قال النووي : واتفق العلماء على تفسير العتيرة بهذا المعنى المتقدم ، ولكن قيل : العتيرة نذر كان ينذره من بلغ ماله كذا أن يذبح من كل عشرة منها رأساً في رجب . وقيل : هي أن الرجل كان يقول في الجاهلية : إن بلغت إبلى مائة عتّر منها عتيرة .

وكذلك كان من عاداتهم أنهم يذبحون أول النّتاج لطواغيتهم ، ويسمونه الفّرّع ، ، ويقال فيه الفّرعة ، أيضاً بالهاء ، واختلفوا في تفسيره ، فأكثر أهل اللغة وجماعة من أهل العلم على أنه أول نتاج الهيمة ، كانوا يذبحونه ، ولا يأكلونه رجاء البركة في الام ، وكثرة نسلها ، وهؤلاء نظروا في تفسيرهم هذا إلى اعتبار أول نتاج الدابة على انفرادها . فأما من نظروا إلى اعتبار نتاج الجميع ففسروه بأنه أول النتاج للإبل ، وبهذا فسره البخاري ومسلم ، وغيرهما من أصحاب

السنن . وقيل : هو أول التناج لمن بلغت إبله مائة . قال أبو مالك : كان الرجل إذا بلغت إبله مائة ، قدّم بكراً ، فبحره لصنمه ، ويسمونه قَرَعا . وقد أطلق الفرع أيضاً على الطعام الذى يصنع لتناج الإبل ، كالخرس ، للولادة .

* * *

اختلفت الأحاديث الواردة فى حكم العتيرة والفرع ، فمنها ما يدل على عدم مشروعيتها فى الإسلام ، كحديث أبي هريرة المتفق عليه ، وهو أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لا فرع ولا عتيرة » ، وكرواية أحمد والنسائي : أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الفرع والعتيرة .

ومنها ما يدل على مشروعيتها ، ولكنها ظاهرة فى عدم الوجوب ، وخالية من الدلالة على ما ينفى الاستحباب أو يثبت ، كالحديث الذى معنا .

ومنها ما يدل على المشروعية أيضاً ، ولكن فى صورة الوجوب ، كحديث مخنف : « على كل أهل بيت فى كل عام أضحية وعتيرة » ، وحديث نبيمة : « قال رجل : يا رسول الله ، إنا كنا نعتز عتيرة فى الجاهلية فى رجب ، فما تأمرنا ؟ قال : اذبحوا لله فى أى شهر كان ، قال : إنا كنا نفرع فى الجاهلية ، قال : فى كل سائمة فرع ، تغذوه ماشيتك ، حتى إذا استحمل ذبحته ، فتصدق بلحمه ، فإن ذلك خير ، وحديث عائشة : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفرعة من كل خمسين واحدة » ، وحديث عمرو بن شعيب : « سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الفرع ، فقال : الفرع حق ، وأن تتركوه حتى يكون بكراً ، أو ابن مخاض ، أو ابن لبون فتحطيه أرملة ، أو تحمل عليه فى سبيل الله خير من أن تذبحه فيلزق لحمه بوبره ، وتسكفاً لإنامك ، وتوله ناقتك » (١) .

وإزاء هذا التعارض الواضح بين ظاهر الأحاديث ، تعددت أقوال العلماء فى هذا الشأن ، فذهب جماعة منهم إلى أن الأحاديث المانعة من مشروعية العتيرة

(١) يعنى بذلك أن ذبحه فى هذه الحالة يذهب لبن الناقة ويفجها ، وذلك أنهم كانوا يذبحونه حين يولد ، ولا شج فيه ، فيلزق لحمه بوبره ، ويكون صاحبه كأنما أكفأ إنامه ، وأراق لبنه ، فيبغى أن يترك حتى يكبر ، ليطيب لحمه ، ويستمتع بابن أمه ، ولا يشق عليها مفارقتها ، لأنه يكون قد استمتع عنها .

والفرع ناسخة للأحاديث المثبتة لها . وذكر القاضي عياض : أن جماهير العلماء على النسخ ، وبه جزم الحازمي ، ولكنه تعقب بأن النسخ لا يتم ، ولا يجوز الجزم به إلا إذا ثبت تأخر تاريخ ما قيل إنه ناسخ عما قيل إنه منسوخ ، ولم يثبت ذلك .

وذهب جماعة آخرون إلى أن أعدل الأقوال هو الجمع بين هذه الأحاديث المتعارضة في الظاهر ، وذلك بأن تحمل الأحاديث القاضية بالمنع من العتيرة والفرع على نفي الوجوب ، وتحمل الأحاديث الأخرى المفيدة للوجوب على الاستحباب فيكون معنى حديث : « لا فرع ، ولا عتيرة » - لا فرع واجب ، ولا عتيرة واجبة . أو يُحمل معناه على نفي ما كانوا يذبحون لأصنامهم في رجب ، أو على أن الفرع والعتيرة ، ليسا كالأضحية في تأكيد الاستحباب ، أو في ثواب إراقة الدم ، لأن تفرقة اللحم على المساكين برّ وصدقه . فالحديث على هذا لم يُفقد إلا نفي الوجوب ، أو أنه لم يبطل الفرع والعتيرة من أصلهما ، وإنما أبطل صفة من كل منهما ، فأبطل من العتيرة خصوص الذبح في شهر رجب ، وأبطل من الفرع كونه يذبح أول ما يولد ، كما أشير إلى ذلك في حديث : « الفرع حق ، فإنهم لما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن حكم ما كانوا يصنعونه في الجاهلية خوفاً من أن يكره في الإسلام ، أعلمهم أنه لا كراهه عليهم فيه ، وأمرهم استحباباً أن يغذوه ويتركوه حتى يحمل عليه في سبيل الله . وأما قوله : « حق » ، فعناه أنه ليس بباطل ، وهو كلام عربي خرج على جواب السائل .

وأما الحديث الذي معنا ، فهو وإن كان صريحاً في عدم الوجوب ، ومسكوتاً فيه عن نفي الاستحباب أو إثباته ، إلا أنه يمكن أخذ الاستحباب من دلائل أخرى كحديث أبي داود : أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن العتيرة فحسبها ، وحديث أحمد والنسائي عن أبي رزين العميلي قال : « يا رسول الله ، إنا كنا نذبح ذبائح في رجب ، فنأكل منها ، ونطعم من جاءنا ، فقال له : « لا بأس بذلك » .

ونقل الطحاوي عن ابن عون أنه كان يفعله ، ومال ابن المنذر إلى هذا ، وقال : كانت العرب تفعلهما ، وفعلهما بعض أهل الإسلام بالإذن ، ثم نهى عنهما ، والنهي لا يكون إلا عن شيء كان يفعل ، وما قال أحد إنه نهى عنهما ، ثم أذن في فعلهما ، ثم نقل عن العلماء تركهما إلا ابن سيرين .

ويرى بعض أهل العلم أنه يصح في حديث تحسين العتيرة، وحديث أبي رزين العقيلي أن يعتبراً كالقرينة الصارفة للأحاديث المقتضية للوجوب عنه إلى الاستحباب .

وأما ما جاء في رواية لأحمد والنسائي من أنه صلى الله عليه وسلم ، نهى عن الفرع والعتيرة ، وأن معنى النهى الحقيقي هو التحريم ، فإن هذا لا يؤثر في الجمع بين الأحاديث السابقة بالطريقة التي ذكرناها ، لأن النهى يبقى على معناه الحقيقي إذ لم توجد قرينه تصرفه عنه ، ومتى وجدت هذه القرينه أخرجته عن هذا المعنى ، وقد سبقت الإشارة إلى بعض الأحاديث التي يصح أن تكون قرينة على ذلك . على أنه يمكن أن يحمل النهى على معنى آخر ، وهو أن يجعل موجهها إلى ما كانوا يذبحونه في الجاهلية لأصنامهم ، وحينئذ يكون النهى باقياً على معناه الحقيقي ، ويكون غير متناول لما ذبح من الفرع والعتيرة ، ولغير ذلك مما فيه وجه قرينة . وما يكون الذبح فيه ابتغاء مرضاة الله تعالى برأ بالفقراء ، وسداً لحاجاتهم . ومن هذا استدل الشافعي بقوله عليه الصلاة والسلام : « اذبحوا لله في أي شهر كان ، على مشروعية الذبح في كل شهر إن أمكن ، وقال في سنن حرمله : إنما إن تيسرت في كل شهر كان حسناً ، لما يعود على الفقراء من البر والمنفعة .

أدب جعفر

كان جعفر بن محمد من آل البيت ، يقول : إني لأملى أحياناً ، فأناجر الله فربحني . وقال رضى الله عنه : « من تخلق بالخلق الجميل ، وله خلق سوء أصيل ، فمخلقه لا محالة زائل ، وهو إلى خلقه الأول آيل ، كطلى الذهب على النحاس ، ينسحق وتظهر صفوته للناس .

وهذا كقول العرجي :

يا أيها المتجلي غير شيمته ومن خلائقه الاقصار والملق
ارجع إلى خلقك المعروف وأرض به إن التخلق يأتى دون خلق
وكان يقول : ما توسل إلى أحد بوسيلة هي أقرب إلى من يد سلفت مني
إليه ، أتبعها أختها لتحسن ربه وحفظها ، لأن منع الأواخر ، يقطع لسان الأوائل .

نَاحِيَةٌ مِنْ سُلُوبِ الْفَرَازِ فِي الْفَصَصِ

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد محمد بن محمد

المفتش بالأزهر

اختلف الناس في ذى القرنين ، المذكور في قوله تعالى : « ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا » : من هو ؟ فقال بعض العلماء : إنه هو الإسكندر الأكبر اليوناني ، ملك مقدونيا المشهور في التاريخ ، ومن هؤلاء الإمام الرازي ، فقد أطال في الاحتجاج لذلك مستدلا بوجوه منها : أن مُلْكاً كهذا الملك الواسع ، الذي بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال ، لا شك أنه على خلاف العادات ، وما كان كذلك وجب أن يبقى ذكره مخلداً على وجه الدهر ، وألا يبقى مخفياً معتبراً ، والملك الذي اشتهر في كتب التاريخ ، أنه بلغ ملكه إلى هذا الحد ، ليس إلا الاسكندر ، ثم انتهى الرازي إلى ما يشبه الجزم بهذا الرأي حيث يقول : « فوجب أن يكون المراد بذى القرنين هو هو ، - يريد الاسكندر الأكبر - لكنه أورد بعد هذا إشكالا لم يحله ، هو أنه كان تلميذاً لأرسطو الحكيم ، وكان على مذهبه ، وتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطو حق وصدق ، وذلك مالا سبيل إليه .

وقد حاول النيسابوري الرد على هذا بأن مذهب الفلاسفة ليس بباطل كله ، فربما كان الإسكندر على الحق الذي فيه دون الباطل .

وبعض المفسرين يرى غير ذلك ، ومنهم من يرى أنه كان نبياً ، يوحى إليه بدليل قوله تعالى : « قلنا ياذا القرنين ، ، وقد رد ذلك بأن القول في القرآن كثيراً ما يراد به غير الخطاب اللفظي كالوحي ، ومن ذلك قوله تعالى : « فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين » ، وقوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل » . فمعنى قوله تعالى « قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا » : ألهمناه ذلك .

والذى أميل إليه أن ذا القرنين المذكور في القرآن هو الاسكندر الأكبر ، كما ذكر الرازى واليسابورى وغيرهما للأدلة التى استدلوأ بها ، أما الإشكال الذى ذكره الإمام الرازى ، فإنه لا يقوم عقبة فى طريق هذا الرأى ، لأن الله سبحانه وتعالى لم يصرح عن ذى القرنين بأكثر من أنه قد مكن له فى الأرض ، وآتاه من كل شىء سبباً ، وهذا قدر لا يدل على أنه كان رجلاً مثالياً فى دينه وعقيدته .

وكل ما يمكن التمسك به فى تعزيز أنه كان متصفاً بصفات أهل الإيمان ، هو ما جاء فى قوله تعالى « قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا ، قال أما من ظلم فسوف نعذبه ، ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً ، وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسراً ، .

وفى رأى أن هذه المحاوره وما فيها من الأقوال ، ليست على ظاهرها المفيد صدور ذلك من ذى القرنين لفظاً ونطقاً ، وإنما هى تصوير الحديث نفسه وإلهام الله إياه بما يفعل ، ولا شك أن الملوك حين يفتحون بلداً أو إقليماً ، تدور فى خواطرهم أحاديث نفسية عما يفعلون بالمغلوبين ، وقد علمنا من تاريخ الاسكندر أنه كان حكيماً ، أو أنه كان واسع العقل متصلاً بالفلسفة ، فمن الطبيعى وهذا شأنه أن الله قذف فى روعه هذه المعانى التى تحدثت عنها الآية ، ويسرها إلى نفسه ، فكان له مرحلتان فى التأمل ، أولاهما : أنه بحكم الفتح والغلب قادر على أن يعذب هؤلاء القوم أو يعفو عنهم ؛ الثانية : أنه يحسن به أن يفرق بين من ظلم فيعذبه ، ومن لم يظلم فيعفو عنه .

فالآية تفسر هذا الحديث النفسى ، ولكن بأسلوب القرآن الذى يعبر عن خلجات النفوس ، وخواطر الأشخاص تعبيراً فيه مزج بين ما يكون من الناس ، وما يكون من الله ، يراد منه الإشعار بأن الأمر كله لله ، وأن هذا تيسير الله وفعله وتوجيهه ، فهو يجرى قول الله الذى هو بمنحى سنته وتيسيره ، وتهيئته على لسان من يقص عنه ، لأنه أدار هذا المعنى فى نفسه ، أو لأنه سخره لتحقيقه ، وما كان القول المنسوب إلى ذى القرنين إلا قولاً لله فى الحقيقة ، فهو الذى يقرر بسنته وتيسيره وتوجيهه لعباده ، أن الظالم يقع فى الدنيا تحت سلطان من يعذبه

وينتقم منه ، وفي الآخرة يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً ، وأن المؤمن الذي يعمل الصالحات ، له في الآخرة جزاء الحسن ، وله في الدنيا التيسير ، وأن يحيا حياة طيبة ، ومنقول له من أمرنا يسرا ، أى سنجعل أمره يسيراً هادئاً لا صعوبة فيه . وشبه بهذا قوله تعالى : فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ، ولا أجد فرقاً بين قوله تعالى : فسنقول له من أمرنا يسرا ، وقوله جل جلاله : فسنيسره لليسرى ، وعلى هذا يكون الكلام كله في الآية ، منسوباً إلى ذى القرنين ، لأنه حديث تحدث به نفسه على الإجمال ، وهو من حيث المعنى والتعبير هذه الصورة المركزة المكتملة ، التى فيها الحديث عن جزاء الدنيا وجزاء الآخرة ، وعن التيسير لليسر قول من الله أضافه إلى من صدر عنه الفعل ، وكان مظهراً لتحقيق مضمونه .

وهذا الأسلوب فى القرآن الكريم كثير ، وأمره يختلط على من لا يلتفت ، وما يوضحه قوله تعالى فى آخر هذه القصة : قال هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكاً ، وكان وعد ربى حقاً ، وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ، ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً ، وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً ، فقد مزج فى هذه الآيات بين ما يمكن أن يكون صادراً من ذى القرنين وهو : هذا رحمة من ربى ، إلى : وكان وعد ربى حقاً ، وبين ما هو صادر من الله جل جلاله ، وهو قوله : وتركنا بعضهم ، الخ ، فالقرآن يسوق ذلك كله ، ولا يعبأ بتحقيق إسناد الأقوال إلى مصادرها ، لأنه لا يريد إلا أن يفهم الناس معنى القول فى ذاته ، سواء أفهموا أنه صادر منه تعالى ابتداء ، أو حكاية عن مصدر آخر لم يكن إلا مظهراً لتحقيق قول الله وسنة الله والله قائل بلسانه .

ولعل مما يقرب هذا المعنى ما جاء فى قصة الهدد وسليمان إذ يقول الله تعالى حكاية عن الهدد : إني وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم ، وجدها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتمدون ، ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم .

فع الاعتراف بأن السلام المروى على السنة الطير أو الحيوان ، قد يأخذ في معنى نسبته حكما غير الكلام الذي يروى عن الناس ، فإنى أكاد أجزم بأن الامر في الحالتين واحد ، من حيث عناية القرآن بإبراز المعنى في ذاته وتتميمه ، دون أن يعبا بتحديد مصدر القول : أهو المتحدث عنه في القصة أم الله جل جلاله ، وهنا نجد السلام منساقا على ظاهر يحمل من يقف عند حرفيته على أن ذلك كله من كلام الهدد ، مع أنه من حيث المعنى يشتمل على أصول دينية ، كثيرا ما يتكلم فيها القرآن صادرة من الله جل جلاله ، وليتأمل القارئ قوله تعالى : « يسجدون للشمس من دون الله ، الخ .

وعما يقرب ذلك أيضا قوله تعالى فيما حكاه عن الجن : « وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ، وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا . لنفتنهم فيه ، ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ، وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا ، .

فلست أقول : إنه لم يصدر قول من الجن والكلام على التصوير والتثيل - لست أقول ذلك وإلا لكنت حاكما بخلاف الظاهر في أمر غيبي أخبرنا الله تعالى به ، وإنما أقول : إن الجن صدر منهم كلام كما قال الله ، ولكن السياق قد يبدو منه أن هذا الكلام كله من قول الجن ، لأنها جملة متعاطفة تتصل بمعنى واحد ، بينما نجد في بعض هذا الكلام قرينة لفظية على أنه من كلام الله لا من كلامهم ، هي قوله « لاسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه ، الخ فهذا يؤيد المعنى الذي أردت تقريره ، ويدل على أن القرآن يسترسل في تعميم المعاني ، وهو بصدد الحكاية عن يقص عنهم ، وقد وجدت في هذه الآية قرينة لفظية ، وفي آيات أخرى قد لا توجد مثل هذه القرينة اللفظية .

هكذا فهم أقرره ولست محتذيا فيه أحدا قبلى ، وأرجو أن يفتح الله لى فيه أبوابا من التمثيل غير ما قدمت ، ويوفقنى إلى تتبعه وترسيخه .

وأحسب أن هذا التخريج أولى ما يحل به إشكال الإمام الرازى رحمه الله .

مِنْ تَوَجِّهَاتِ الْفَرَانِ

١. قد أفلح من تزكى
٢. فلا تزكوا أنفسكم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبكي
المفتش بالأزهر

١ - مقدمة : شيء من الفطنة ينبه قارئ القرآن الكريم إلى ما بين آياته
من توجيهات أكيدة إلى تربية الخلق ، وتكوين الشخصية المعنوية في الفرد
وفي الجماعة .

والقرآن حينما يعرض للخلق لا يكون حديثه عن أمر ثانوى ، أو فى غرض
تبعى ، وإنما يكون معنياً بالغاية الفضلى التى بها يرتبط نظام المجتمع ، والتى لاجلها
كانت رسالة الانبياء ولجلها كان التشريع . وإنما بعثت لاتتم مكارم الاخلاق ،
تلك الغاية هى : إصلاح الخلق والاعتماد على الاخلاق فى تكوين الشخصية المعنوية
للفرد وللجماعة ، تكويناً تمثل فيه الإنسانية الرفيعة ، وتستقيم إلى جانبه الحياة فى
أوضاعها الصحيحة .

قيام النظم على سلامة الاخلاق ، وإصلاح الحياة بإصلاحها ؛ مبدأ فطرى ليس
من عمل لإنسان ولا من مصطلحات الجماعة ، ولم تجر سنة الله يوماً فى خلقه
أن يستقيم شأنهم على فساد الخلق ، أو يطيب لهم هيش وتروق لهم الحياة على
مرج وعبت .

هذا مبدأ ماير الزمن ونهضت تحوم حوله العقول من تاريخ قديم ، وما عملت للفلسفة الاخلاقية في أطوارها المختلفة ، ومناهجها المتعاقبة سوى التحليق حول الخلق ، وتجميع قواها لبحث الخلق وتبسيطه ، وتقسيمه وتحديدده جملة وتفصيلا ، والإبانة عن أثره في حياة الناس إيجابا أو سلبا .

فإن يكن الخلق منبعاً من منابع الفلسفة ، وإليه الورد وعنه الصدر لعقول ناضجة وأفكار ناهية - وإن يكن لفلسفة الاخلاق جهود مضنية في استقصاء الخلق والإمام به ، أو تكن لهم جهود مشكورة في توجيهه الناس إلى حسن الخلق ومحاولة أخذهم به ، فكل ذلك استجابة للقطرة فيما دعت إليه ، من إقامة النظم على أساس الخلق ، والاعتصام به من ربكة الهمجية ومتاعب القوضى .

وانظرة إلى الفلسفة الأخلاقية في أوسع حدودها — وأن لم أكن من دارسها — وإلى جهود الفلاسفة في أروع صوت لها ، تريك أن شيئاً من هذا على فرض صوابه كله لا يزيد ولا يبعد عما جاء في القرآن الكريم ، . وإنما ترفق القرآن فعمد إلى الجوهر وذكر ما ذكر من أنواع الأخلاق بأسمائها في بساطة وإيضاح ، وترك للعلم تفصيل ما هنالك مما تجيء به الفلسفة الرزينة .

وترفق القرآن فيسرودعا إلى التيسير في توجيه الناس نحو الخلق ، وترك للعقول الخفيفة اختيار ما تقضى به الضرورات المصلحية من وسائل أخرى .

وما ترك القرآن في محتوياته شيئاً من مقومات الحياة الكريمة ، إلا اشتمله إن لم يكن تفصيلاً فإجمالاً ، والقرآن حين يحمل يعتمد على السنة وبيان الرسول ، ثم على أولى العلم من أهل الذكر في مختلف الأزمان ، وقد فرض الله علينا أن نرجع إلى رسوله ليعين لنا ما نزل إلينا ، وفرض على رسوله أن يبلغ ويبين ، وفرض الله علينا وعلى أهل الذكر من بعد أن نتفام ونتعرف .

فإذا لم يصادفنا إزاء هذا الكلام جدل ومكابرة ، أمكن أن ندرك حقاً قول الله سبحانه ، ما فرطنا في الكتاب من شيء .

٢ - ونحن الآن فيما نهيأنا للحديث عنه أمام آيتين من كتاب الله يختلف أسلوبهما ويتحد مرماههما .

(١) فأولاهما : وعد من الله بالفلاح لمن تزكى ، ووعد الله في غنى عن التأكيد ، ولكنه مع ذلك جاء في آيتنا مؤكداً بلفظ قد ، ليكون من وراء التأكيد اطمئنان ، وليكون بدل الشك يقين ، ويكون الاقتناع حاسماً انزعة الجدل في الإنسان ، وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ، فمننا دعوة إلى التزكية ، والمتزكى مفلح على التأكيد .

(ب) وفي الآية الثانية : نهى عن التزكية ، والنهى على أصله يقتضى تحريم الفعل المنهى عنه ، فتزكية النفس محظورة ، والمتزكى لنفسه آثم خاسر ، وهذا في ظاهره إشكال ، ومثله مألوف في الدراسة الأزهرية فيما ترى ! ما التزكية التي تطلب إلينا مرة ونهى عنها أخرى ؟

التزكية من الزكاة ، وهو في لغة العرب النماء والزيادة ، وكما يكون النماء أو الزيادة في الأمور الحية تكون في المعنويات ؛ وهنا يرادفها الطهر من الأدناس ، والسمو عن النقائص ، ووضع النفس حيث يطيب موضعها ، ويرتفع قدرها لتأخذ بين الناس نصيبها من الكرامة ، وعند الله حظها من رضوان ؛ ذلك هو معنى التزكية ، وهو معنى لا يرغب عنه ، فكيف تنهى عنه بعد أن دعينا إليه ؟

وجوابنا : أن الوصف الخلقى له قيمته حسبما يسلك إليه المرء سبيله ، فيكون أخذاً به دائماً عليه حتى ليرقى به - أو يكاد - من تطبع إلى طبع ، ومن تصنع إلى عقيدة وديدن .

وحينما يبلغ المرء هذا المبلغ في جانب الخير والعمل المحمود ، يكون أوفى على الغاية ، واستقر في وضع كريم ، وفي حكمه من يحاول توجيه نفسه ويتحاشى الفعل البغيض ، ويجاهد ما استطاع في مناصرة عقله على هواه ، ومغالبة الخير على سواه ، ولو لم يصل إلى أن يكون طبعاً أصيلاً فيه . فكل هذين مصداق من تزكى قريباً بنفسه عما يشين قدره ، ويجرح سمعته أو ينقص دينه . وتلك هي التزكية التي دعينا إليها ، وحثنا القرآن عليها ، ووعد بالفلاح من أخذ بها ، ولم ينحرف عنها .

وهناك أناس ، قعدت بهم المهمة عن تكميل أنفسهم ، وصدم السكسل عن المحاولة ، وطاب لهم أن يعيشوا على نقص في خلقهم ، ولكن الانانية تدفعهم إلى الخداع ، فيخلعون على أنفسهم مدائح ليست فيهم ، ويتحلون مكارم لم تعرف عنهم ، ويزجون بأشخاصهم في عداد أهل الخير ، وليسوا من أهل الخير في أسبقية ، بل ولا في شيء .

فهذه تزكية للنفس ولسكنها مكذوبة ، وهي خدعة يراد منها الدخول إلى قلوب الناس ، حتى يمنحهم الثناء ، ويضفوا عليهم شيئاً من الإجلال .

هذه التزكية اللسانية الباطلة هي التي نهى الله عنها ، وحظرها علينا ، لأن من ورائها خطراً يمس صاحبها ويتعداه إلى سواه .

صاحب هذه الخدعة مصروف عن التفكير في تكميل مابه من نقص ، وعلاج ما فيه من مرض خلقي ؛ فهو سادر في غفلة ، وسار في ظلمة ليل .

وصاحب هذه الخدعة يستدرج الناس إلى تمجيده ، وقد يغتر بذلك من لم يعرف شأنه على الحقيقة فيقع في أحبولة من شره ، ويكتوى بشواظ من ناره . واحد من هؤلاء الأدعياء يكفي للتغيب على جماعة ، بل لإفساد الحياة بين قوم وجماعة من أولئك المخادعين كفيلة بالغض من شأن أمة كريمة ، والهبوط بسمعتها ، واستفزاز الخصوم وغير الخصوم إلى سوء العقالة فيها .

لهذا الخطر الذي قد يستهين به أناس ، ندد القرآن بالأدعياء ، ونهى عن تزكية النفس بالقول ؛ حتى عمم في النهي وتناول به الاختيار من أهل الخير ؛ فهم كذلك منهيون عن تزكية النفس على هذا النحو المرذول ، مخافة أن يمسهم غرور أو يملق بهم رياء .

وانظر إلى النهي وإلى ما اقترن به ؛ فإله تعالى يقول : فلا تزكوا أنفسكم ، ثم يقول : هو أعلم بمن اتقى ، يعني أريحوا واستريحوا من ثنائكم على أنفسكم ، فثوب الرياء يشف عما تحته ، وشهادتكم لا ترفع من شأنكم ، وكل منكم مجزى بعمله .

وقد تظاهرت آيات أخرى من كتاب الله مع الآيتين هنا فيما تضمنته من توجيه إلى العمل الجدى، والتنبه عن زخرف القول وباطل الدهوة، مما يعتبر فى ميزان العقل هزلا وضعة وسفها، فمن قبيل الآية الأولى قوله عز شأنه : قد أفلح من زكاها، وبأبى الله تعالى إلا أن يقر هذا الوعد بوعيد لمن كانوا من الفريق الآخر إذ يقول : وقد غاب من دساها، يعنى دنسها وهبط بها . ومن قبيل الآية الأولى كذلك : ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه .

ومما يظاهر الآية الثمانية قوله تبارك شأنه : لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب، ولهم عذاب أليم، فذلك شأن من يعمل القبيح ويود أن يذكر بالخير .

ونحن فيما نشهد نرى اللص والمحتال والعرييد وأرباب النقائص، يحب كل منهم أن يوصف بغير ما فيه : مما يعرف بمركب النقص دون أن يحاولوا التنزه عن تلك الممانات التى يتحمل المجتمع غرمها ويعانى ألمها .

لذلك حرص الإسلام على استئصال الرذيلة من أصولها، ودرء المفاسد بسد أبوابها : لئلا تتأصل وتصبح داء عياء، وهو غير بعيد منا اليوم .

ومما يصور لنا هذا التوجيه أصدق تصوير قول النبى عليه السلام : عليكم بالصدق فإن الصدق يهذى إلى البر، وإن البر يهذى إلى الجنة، ولا يزال الرجل أو العبد - يصدق ويتحرى الصدق : حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهذى إلى الفجور، وإن الفجور يهذى إلى النار، ولا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا، يعنى يصدق العبد فى أول أمره أو يكذب : فإذا تمالى ودأب أصبح طبعاً أصيلاً فيه، وعلى مقتضاه يسير؛ فيجزى عليه بالخير عند الله أو يؤخذ، وهكذا، وهذا باب واسع المدخل فسيح الأرجاء، وسنعود إليه مرة أخرى إن شاء الله وكان فى الاجل بقية .

السِّيرافي

لفضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ محمد محمد بن الفحام
الأستاذ بكلية اللغة العربية

اسمه وكنيته ونسبه :

أجمعت المصادر التي بين أيدينا على بيان اسمه وكنيته ونسبه :
أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي . من أصل فارسي .
وكان أبوه مجوسيا ، يسمى جهزاد ، فأسلم بعد ابنه ، فسماه ابنه هذا
« عبد الله » .

تاريخ ومكان ولادته:

أجمع المؤرخون على أنه ولد بسيراف ، فرضة على الخليج الفارسي ، إليها
نسب ، وبها اشتهر . أما تاريخ ميلاده فلم يعلم بالضبط ، فابن النديم وياقوت
اقتصرا على قولهما : إنه ولد قبل سنة ٢٩٠ هجرية . ثم ذكر ياقوت نقلا عن علي
ابن عيسى أن السيرافي ولد سنة ٢٨٠ هجرية . ويؤخذ من كلام ابن خلكان أنه
ولد في سنة ٢٨٤ هـ ؛ لأنه قال : إنه مات سنة ٣٦٨ هـ عن أربعة وثمانين عاما ،
ومعنى هذا أنه ولد سنة ٢٨٤ هجرية . ونستطيع أن نؤكد أن ماجاء بكتاب
السيوطي « بغية الوعاة » من أنه ولد قبل سنة ٢٧٠ هجرية ، خطأ من الناسخ
أو من الطابع ، حيث كتب ٧٠ بدلا من ٩٠ .

نشأته العلمية:

بدأ السيرافي دراسته بمسقط رأسه « سيراف » ، حفظ القرآن ، وتعلم « بادي
الفقه واللغة » ، ثم ترك سيراف ولما يبلغ العشرين من عمره ، وعبر البحر إلى عمان ،

حيث تفرغ فيها لدراسة الفقه الحنفي ، ثم عاد إلى سيرا ف ، ومنها إلى عسكر مُكرّم — مدينة من مدن الأهواز — حيث درس علم الكلام على أبي محمد بن عمر الصيمري . ثم سافر إلى بغداد حيث أتم دراسته ، وقضى بها بقية عمره ، مفتياً وقاضياً ومدرساً .

أشياخه

درس السيرا في علم الكلام على أبي محمد بن عمر الصيمري ، واللغة على أبي بكر بن دريد ، والنحو على أبي بكر بن السراج ، والقرآن على أبي بكر بن مجاهد ، والتفسير على أبي بكر بن زياد النيسابوري ، وعلى أبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى .

مكانته العلمية:

كان السيرا في مبرزا في علوم اللغة والنحو والفقه والتفسير والحديث ، والقراءات والعروض والقوافي والحساب . وقد تصدر لتدريسها جميعها في بغداد ، وأخذ عنه بعض أشياخه ، فقد قرأ عليه للنحو أبو بكر بن مجاهد وابن دريد ، وأخذ عنه القرآن والحساب ابن السراج ومبرمان . وكانت له شهرة خاصة بشرح كتاب سيبويه ، فكان العلماء يسافرون إلى بغداد من جميع البلدان الإسلامية حتى من الأندلس ، ليشهدوا بحالسه ، ويغترفوا من مناهل علمه .

وكان متبحراً في فقه الحنفية ، فظل مفتياً بمسجد الرصافة ببغداد مدة أربعين سنة على رأى بعض المؤرخين ، أو خمسين على رأى بعض آخر ، فما وجد له خطأ ، ولا هثر على ذلة . وكان يجتهد أحيانا ، فيفتى بما لا يتفق ومذهب الحنفية .

وكان ينوب في القضاء عن أبي محمد بن معروف ، في الجانب الشرق ببغداد ، ثم في بغداد جميعها ، ثم في الجانب الشرق فقط . وكان حسن الحظ ؛ طلب للعمل بديوان الإنشاء فأبى .

صلاحه وتقواه :

كان السيرافي — رحمه الله — مثلاً عالياً للعالم العامل ، جمع بين شرف العلم وحلية العمل ، كان تقياً نقياً يكثّر من قراءة القرآن ، ومن الصلاة بالليل ، والصيام بالنهار ، وقد قيل إنه صام أربعين سنة ، وما قرىء عليه شيء فيه ذكر الموت والبعث إلا بكى . وكان زاهداً في الدنيا ، لا يقبل هدايا العظماء ؛ بل لم يأخذ أجراً على فتوى أفتاها ، ولا على درس علمه ، ولا على قضاء قضاءه .

وكان — رحمه الله — ورعاً ، لا يأكل إلا من كسب يده ، فكان لا يذهب إلى الحكم ، أو إلى القضاء درس قبل أن ينسخ عشر ورقات من مخطوط يبيعها بما ينفعه على نفسه .

وقد طارت شهرته في جميع البلدان الإسلامية ، فكانت الرسائل تأتيه من ملوكها ووزرائها وعظمائها ، يستفتونه في مسائل علمية ، ويخاطبونه بعبارات التبجيل ، ويلقبونه بالإمام ، وبشيخ الإسلام ، وبشيخ الشيوخ ، وبالشيوخ الجليل .

غير أنه كان كسلاً عظيماً نابغة ، له خصوم ومنافسون ، وحساد يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله . وقد ذكر لنا المؤرخون اثنين من منافسيه : أحدهما أبو علي الفارسي النحوي المشهور المتوفى سنة ٣٧٧ ، فقد حنق على أبي سعيد لما شرح كتاب سيدييه ، وجعل الفارسي وأصحابه يبحثون عن نسخة من شرح الكتاب لاتقاده ، وإظهار عيوب وأخطاء يكون في إشهارها تشهير بالسيرافي وخط من قدره ، ولكنهم لم يوفقوا إلى العثور على المخطوط إلا في السنة التي مات فيها السيرافي ، عثروا عليه بألفي درهم ، وقد جددوا في البحث عن عيوب وأخطاء الكتاب ، فما كانوا من المهتدين .

والثاني هو أبو الفرج الأصهباني صاحب كتاب الأغاني ، المتوفى سنة ٣٥٦ هـ

فقد هجما السيرافي بهذين البيتين :

لست صدرا ولا قرأت على صد ر ولا عليك البكي بشاف
لعم الله كل نحو وشعر وعروض يجيء من سيراف

مؤلفاته :

ينسب مؤرخو السيراني إليه الكتب الآتية .

(١) شرح كتاب سيديويه . ومنه نسخ خطية بالمكتبة الملكية المصرية ، لإحداها بخط عبد اللطيف البغدادي الرحالة الشهير . وقد انتفع بهذا الشرح المستشرق الألماني « جن » ، في ترجمة كتابه سيديويه إلى اللغة الألمانية ، الترجمة المطبوعة ببرلين سنة ١٨٩٤ م . وقد حل كتاب سيديويه بنيد من هذا الشرح في طبعة المطبعة الأميرية بيولاقي سنة ١٣١٦ هـ .

(٢) شرح مقصورة ابن دريد .

(٣) ألفات الوصل والقطع .

(٤) شرح شواهد كتاب سيديويه .

(٥) المدخل لكتاب سيديويه .

(٦) الإقناع ، في النحو ، كتاب لم يسمه السيراني ؛ لكن أتمه ابنه يوسف من بعده .

(٧) كتاب الوقف والابتدا . كتاب يتعلق بقراءة القرآن .

(٨) صنعة الشعر والبلاغة .

(٩) أخبار النحاة البصريين . طبع في بيروت سنة ١٩٣٦ م مع تعليقات المستشرق . ف . كرنكو . وقد صرح السيوطي في مقدمة كتابه « بغية الرعا » في طبقات اللغويين والنحاة ، أنه اطلع على هذا الكتاب واستعان به في مؤلفه .

(١٠) كتاب جزيرة العرب ، كتاب اعتمد عليه ياقوت في تأليف كتابه « معجم البلدان » .

التقليد وفطره

لفضيلة الاستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
الاستاذ بكلية أصول الدين

(تتم)

- * التقليد في الامور العامة
- * التقليد في العلم والدرس
- * النتيجة العامة للبحث

من البلاء المبين أن يتعدى التقليد من الفرد للجماعات المختلفة ، وإلى هذه الامة
مثلة في الاداة التي تدبر أمورها العامة ، وهى ما تعارفنا على تسميته بالحكومة .
وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته أن المغلوب مُولع دائماً بتقليد الغالب ؛
إذ يعتقد فيه الفسوق في التقاليد والعوائد ومذاهب الحياة ، وأن هذا هو السبب
في ظهوره عليه . وهذا مع صحته في الماضى والحاضر ، لا يمنع من القول بأن
الإفراط في تقليد أوربا في عامة شئوننا ، لا يجعل منا أمة لها شخصيتها التي يجب أن
تقوم على ما تحرص عليه من دين ولغة وتاريخ وتقاليد خاصة بنا .

إن من البلاء المبين أن تقليدنا للغرب لم يقف على الافراد ، أو على ما هو
ضرورى من الامور كالصناعات والنواحي الفنية ؛ ولكن تعدى هذا وذاك
إلى العادات والتقاليد التي ترجع في أسسها إلى الدين ، كما سبق أن تعدى إلى
الشرائع والقانون .

وفي الناحية العلمية ، تدور في الازهر في حلقة مفرغة من التقليد ، لا تدرى
آخرها من أولها . نجد هذا الكتاب في هذا العلم أو ذاك لا يختلف عن الآخر
إلا بشيء من التغيير في الوضع والترتيب . أما الافكار والآراء فهي هي ، قد

وجدنا عليها فلا نبغي بها بديلا ، بل صرنا من التقليد إلى أننا لا نستطيع الوصول إلى هذا البديل لو أردناه !

وكان من هذا أن ندر بيننا الكتاب الممتازون والعقهاء المشرعون ، مع كثرة من يحدق فينا علوم اللغة والفقه ! وأن صار لنا كثير من العلماء بالمنطق والتوحيد ، وليس لنا من حاول إصلاح المنطق القديم كما حصل في أوروبا ؛ ولا من حاول أن يجعل علم الكلام علما يتناسب وعقليات العصر ويهتدى به الضال ! وكان من هذا أيضا أننا نجتمع على أن الإسلام دين الله الحق الصالح لكل زمان ومكان ، ومع هذا لم نحاول حتى الآن عرضه كما يجب : عقيدة وتشريعا وأخلاقا واجتماعا واقتصادا . أقول : واقتصادا ، عامدا ، لأن الإسلام ، وهو دين شامل عام ، وفي هذه الناحية حقها ، هذه الناحية التي تفرق العالم اليوم معسكرين متعاديين ، وله طرقه الحكيمة الناجعة في معالجة مشكلة الطبقات ، وما تجره من مشاكل الفقر والجهل والمرض . وعلينا نحن استخراج مذهبه في هذه الناحية لنقى العالم — على الأقل الشرق والإسلامى — خطر الشيوعية والانحلال وحرب الطبقات ، ولسكننا نكتفى في هذا السبيل بدعاوى عريضة نرسلها وقرارات نصدرها .

يا قوم ! إن الأمر خطير ، ولا يحل هذه المشاكل قرارات تصدرها لجنة الفتوى أو الأزهر كله بهيئاته المختلفة .

علينا ألا نكتفى بالدعاوى ، وبالركون إلى الموجود من المؤلفات في الإسلام ، نقلها بين أيدينا كأننا نقلب جسا ، لاحتياة فيه تنفع في هذا الزمن ، علينا أن نكتب كتبنا جديدة ، نعرض فيها الإسلام من تلك النواحي ، ونبين فيها كيف يجب أن نعمل لتحقيق العدالة الاجتماعية ؛ فإنه لا تزول هذه الفوضى ، ولا يمكن أن تنقى الشيوعية إلا بالقضاء على سبيلها الوحيد وهو الظلم الاجتماعى ، فذلك سنة الله التى لا تبديل لها .

بذلك نكون قد أدينا واجبا كبيرا للأمة وللإنسانية كلها ، وبذلك نستطيع أن نكون صالحين للتعاون مع ممثلى المسيحية ؛ لتكوين جبهة لمحاربة الإلحاد والمبادئ الهدامة . أما بالعكوف على القديم وحده ، وبالتقليد فى كل شىء حتى

في التفكير ومناهج الدرس ، فلن نستطيع أن نصل إلى خير ، ونكون جناة على أمتنا وأبنائنا جنابة يثقل علينا حملها ووزرها .

إنها جنابة أن نحمد على ما ورثناه عن أسلافنا من تراث ، فلا نتناوله بالتعديل والتغيير ، مستهدين بتقدم العلم وحاجات العصر ، ولو لمنى أجدادنا العظام بما مئنا به منذ قرون من جمود وتقليد ، لما كان لنا اليوم إلا مذهب واحد في الفقه والتشريع ، وعلوم الكلام واللغة والتفسير مثلاً .

إن من الواجب أن نرفع الصوت بأن كل من تقدمنا في الحياة ، ما عدا الأنبياء والمرسلين فيما أرسلوا من أجله ، يصيبون ويخطئون ، فلا معنى إذاً للتقليد في كل شيء ، ولعل بعضنا يكون أفهم للأمر ، وأقرب للحق وأهدى للصواب من كثير من هؤلاء السابقين . ومن أجل هذا ، يكون واجباً على كل منا أن يستعمل عقله فيما هو به من أجله ، وأن يطلب لنفسه الاستقلال في الرأي الذي يتبعه الاستقلال في الشخصية ، وإلا كان مقصراً في طلب الكمال الذي جعل الله له وسائله .

هذا ، وإذا كان لكل حديث نهاية ، ولكل بحث غاية يهدف إليها ، فإنى أحب أن أجل هذه الغاية أو النتيجة في كلمات :

١ — لو لم يكن من غرائز الإنسان أو من طبيعته التقليد ، لكان عسيراً كل العسر ، إن لم نقل متعذراً في كثير من الأحيان ، أن يصل الإنسان إلى كثير من المعارف وإتقان كثير من الأعمال . ولولا هذه الظاهرة الطبيعية ، لعز على المربي أن يبلغ بطفله أو تلميذه إلى ما يريد له من كمال .

٢ — ولكن ينبغي أن نحذر في الإفادة من هذه الغريزة ، فلا نسرف في التقليد ، وبخاصة فيما لا نعلم علم اليقين أنه خير ، فذلك إثم أكبر من نفعه ، وحسبنا أنه ينتهى بمحو شخصية المقلد ، وصيرورته تابعاً لغيره في تفكيره وطرائق حياته الاجتماعية على الأقل .

وما ينبغي لأحد منا أن يتعلل بما يذكره بعض رجال المذاهب الأخلاقية ، من أن سعادة المرء في أن يحسن التكيف بما تكون عليه يئته ، أى في القدرة

هل هذا التكيف وإحسانه في غير عنت أو مشقة . ما ينبغي لنا ذلك ، لأنه فرق كبير بين رعاية البيئة أو الوسط الاجتماعي فيما هو خير ، وبين الانطباع بهذا الوسط خيره وشره ، كما هو ملحوظ في حالات كثيرة في هذه الأيام . إن منا من يغير رأيه في هذه المسألة أو تلك ، بعدد ما يغير من مجالسه أو جلساته مع غيره .

٣ — من الواجب ، ونحن في نهضة اجتماعية ، ألا يكون الواحد منا مادة تنفعل بغيره ، وبما يكون من ذلك الغير من أحداث ؛ بل يجب أن يكون المرء في نفسه قوة تفعل ، قوة لها أثرها الطيب هنا وهناك .

* * *

إن عامة الغربيين يرون فينا ، معشر الشرقيين ، جماعات لم يَعد لها كيان مستقل ولا شخصية خاصة ، مادام الكل يرى في الغرب مثله الأعلى يقلده في أكثر طرائق الحياة ؛ أما الخاصة من رجال الغرب ، أعني العلماء الذين لهم بصر يتجاوز ظواهر الأمور إلى خفائقها ، فيرون أن هذا الاتباع من الشرق للغرب اتباع ظاهري ، وأن للشرق وراء هذا روحه الخاصة به ، هذه الروح التي لا تلبث أن تظهر من جديد ناصعة ، قوية يفيد منها الشرق والغرب معاً ، بعد أن صار هذا الأخير - وقد أنهكت قواه الفلسفة المسادية - بحاجة إلى بعث جديد يقوم على روح جديد ، يلتصقونها لدى الشرق والإسلام .

فلنبين إذاً لعامة الغربيين خطأ ما يعتقدون من أن الشرق أضاع روحه وشخصيته في تقليد الغرب ، ولنحقق للخاصة منهم ، وهم العلماء الذين لهم بصر نافذ ، ما يعملون على التماسه لدينا من خصائص في الطابع والشخصية والروح ، لا قوام للشرق بدونها ، ولا غنى للغرب عن الاستفادة منها .

بهذا يعود من الممكن لنا أن نحفظ بما لنا من كيان خاص ، ونساعد العالم على اجتياز المحنة التي تطعنه طحناً هذه الأيام ، ونكون قد ساهمنا في تقدم العالم وسعادته ، والله ولي التوفيق .

مَكَارِمُ الْإِخْلَاقِ

بين الفلسفة والأدب

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو بكر ذكرى
الأستاذ بكلية أصول الدين

الفصل الثاني

وفضيلة العدالة صفة إنسانية تتفاضل وتتفاوت تبعاً لأسبابها ومقوماتها في النفس الإنسانية .

وهذه الأسباب والمقومات ، إما أن تكون أموراً كسبية إرادية ، كالتعليم والتدريب في شتى ضروبه وأشكاله ، وإما أن تكون أموراً جبائية وهبات لا دخل للكسب فيها ، كركة الطباع ، ودمائة الخلق التي تظهر أحياناً مبكرة في الطفولة الإنسانية ، إما بعامل الوراثة ، أو بعوامل أخرى عليها عند مبدعها وخالقها تعالى . ولا بد لكمال فضيلة العدالة من تضافر هذه الأسباب والمقومات جميعاً ، لإخراج شخصية إنسانية ، كاملة العلم ، موفورة الذكاء والانتباه ، مهذبة الغرائز ، تدرك تمام الإدراك ، الغاية التي خلقت لها والطريق الموصل إليها ، وتثق كل الثقة في المثل العليا ومراميها السامية ، وتفرق بين مطالب الانانية الفردية ، ومبادئ الواجبات الاجتماعية بحدود واضحة المعالم ، وترتبط مع مجتمعها برابط وثيق من الشعور المتبادل ، أو ما يسميه علماء النفس وعلماء الاجتماع : « المشاركة الوجدانية » ، عالمة تمام العلم بما لها على المجتمع ، وما للمجتمع عليها من حقوق وواجبات ، وتشعر شعوراً واضحاً مطرداً بما للإنسانية من قيم ذاتية .

أما عندما تنعدم تلك الأسباب والمقومات كلها أو بعضها ، فإن صفة العدالة تنعدم كذلك من الشخصية الإنسانية ، فتنزل من درك إلى درك ، حتى تنحط إلى مستوى البهيمة والوحشية ، شأن الهمج الطغاة ، الذين لا يعيشون على أديم الأرض ، إلا ليمثلوا تنازع البقاء بأخس الوسائل وأقبح المظاهر . وهذه الحال

هى ما يسميها بعض الكتاب : « شريعة الغاب » . وعندى أن شريعة الغاب
تظلم ، إذ يشبه بها ذلك النوع البشع من السلوك الإنسانى . إن حيوان الغاب
لا يعدو غالباً إلا بدافع الحاجة الملحة ، والجوع المستعرج ؛ هل حين أن الظالمين
من بنى البشر يندفعون إلى ذلك بعامل بطر الغنى وأثر القوة ، إن الإنسان
ليطغى ، أن رآه استغنى .

وإن الذين تستويهم شياطين الجهل والغرور والإدلال بالقوة والجساء
والوصول ليحسبون أنفسهم دائماً ، خلقاً آخر لا يمتون إلى العالم المحيط بهم
بصلة ولا يربطهم به سبب ولا نسب . ولو رجع أولئك الاغرار إلى طبيعتهم
العاقلة وأجادوا التبصر والفهم ، لأدركوا تماماً أنهم مرضى الجهل والهوس
والكبرياء وحب الظهور والتعالى الكاذب ، الذى يخيل إليهم أن الإنسانية كلها
تحت مواطئ أقدامهم ، وعلى أشلائها يجب أن تحنك هاماتهم بنجوم السماء ؛
شأن فرعون إذ قال : « يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الاسباب أسباب السموات ؛
فأطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه كاذبا . وكذلك زين لفرعون سوء عمله . . . »

ولو أحسنوا التبصر أكثر فأكثر ، لعلوا أن هذا الشذوذ الخلقى الغبى الوخيم
الاعبى ليس إلا مرضاً لا يخفى على ذوى البصائر من مخالطهم ومواطنهم ، وإن
من بين الانظار المصرية إليهم أنظار ساخرين وضاحكين ومستهزئين ، بينما يظن
البلهاء أنها جميعاً أنظار مكبرين ومعجبين .

ولو أمعنوا فى التأمل لعلوا أنهم لو اقتطعوا وأفردوا أفراد البعير المبعد
عن أولئك الذين يحتقرونهم ، ويعبدون على قدسية حقوقهم من إخوانهم
ومواطنهم ؛ لما تهازأوا وكانوا أحقر من قلامة ظفر . . . نعم . لو أمعنوا
فى التأمل وأدركوا ذلك لهانت عليهم أنفسهم وقدروها حق قدرها ، ووقر
فى نفوسهم أنهم كبقية الخلق ، من طين وماء ، وأن عليهم للناس حقوقاً بقدر
ما لهم من واجبات ، وأن العدالة خير ميزان ينصفهم من الناس وينصف الناس
منهم ؛ فيعيشوا سعداء ويعيش بهم مجتمهم سعيداً قرير العين ، تسعهم جميعاً رحمة الله
وتفيض عليهم نعمه ظاهرة وباطنة .

وليست فضيلة العدالة - لسوء حظ الإنسانية - بالفضيلة التى يسهل الحصول
عليها ، ويتأتى الوصول إليها بأيسر الاسباب وأهون الكلف . إنها ، على الضد

من ذلك ، وعرة المرتقى عالية الذروة . هي فضيلة الحكاء الحقيقيين ، وصفة الامراء النابهين ، وتاج الملوك الموفقين ، وحلية الرؤساء البارزين ، وسلاح الساسة الناجحين . ولا بد للحصول عليها من منبت شريف ونسب زكى ووراثه نقيه من الشوائب ، وهمة نزاعة الى المعالى . أما الظلم فما أيسره وأكثره . إنه كأشواك أودية العوسج ، يكاد يسد على الإنسانية مسالكها ، وينغص عيشها ويقض مضجعا .

أما أثر العدالة فى الجمعيات الإنسانية ؛ فإن التاريخ يرينا بملء أعيننا أنها أم العمران ، ودعامة النجاح وسبيل التقدم فى مدارج الحضارة ، وأوثق وسيلة لبلوغ الأمم أوج العظمة والمجد الباذخ ؛ كما أن الظلم كان ولا يزال سبب الفشل والخراب والانحطاط والضعف والتدهور إلى حضيض الهون .

ولقد ضرب الله سبحانه لنا فى كتابه الكريم ، أمثال أمم بادت وانقرضت بعامل الظلم والعدوان وتناسى فضيلة العدالة السامية ؛ لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية : جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا ، فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خبط وأثل وشئ من مصدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلا الكفور ، وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقرنا فيها السير ؛ سيروا فيها ليلالى وأياما آمنين ؛ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا ، وظلموا أنفسهم ، فجعلناهم أحاديث ، ومزقناهم كل ممزق ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور .

كذلك أدال الله من دول بلغت أوج المجد ، ثم فسدت طوية أهلها فتظالموا وتقاطعوا وتقاسموا على أنفسهم كالقياصرة والآكاسرة الذين يحا الله ملكهم ، وخلص العالم من طغيانهم ؛ إذ أرسل عليهم جنود عدله حملة لواء الإسلام ، فأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وكانت عدالة الإسلام خير وسيلة لفض جمعهم وفتح حصونهم ، وخير ملجأ ينضوى إليه المظلومون من عامتهم وخاصتهم ، والظلم مرتعه وبيل وخيم لا يبقى ولا يذر .

كانت العدالة أساس التعاليم المحمدية السامية ، ورباط مجتمعا الوثيق ، يقوم فيه الرسول الكريم بأعظم وأسمى قدوة عرفت لمعلم أخلاق على مر القرون . كان يعدل بين الأسود والأبيض والأحمر والأصفر ، لا فضل لعربى على عجمى

إلا بالتقوى ، . رسالة تضمن الحق لكل من تثبت له صفة الإنسانية . لا تفاخر ولا تعاول ولا تعاظم إلا بالعمل الصالح المتواضع والخلق السامى الركين ، سماحة وصبر وعفو وميامرة وهدى وإرشاد لا ظلم ولا انتقام ولا طغيان .
وكان خليفته الأول أبو بكر رضى الله عنه الناسج على منواله ، والسائر على هديه ، والذى يرى القوى ضعيفاً حتى يأخذ الحق منه ، والضعيف قوياً حتى يأخذ الحق له ، والذى يرى نفسه مسئولاً حتى عن عدوان ذئب على شاة لأحد الرعية ، ولو كان بأقصى مملكة الإسلام الواسعة . وهل بعد هذا دقة فى الشمور بالمسؤولية واستشعار العدالة ؟

أما عمر بن الخطاب عليه رضوان ربه ، فكان أبعد الخلفاء فى ذلك غوراً وأخلفهم سيرة . إن صحائف تاريخه الناصع تروى لنا أنه ما كان يسمح لنفسه يوماً أن تستشعر لها ميزة على أحد من رعاياه . كان يسمع اللوم والتفريع من كل من ينقده نقداً عادلاً لا فرق بين رجل وامرأة ولا بين حر وعبد ، ولا بين كبير وصغير . وحسبنا عدالة بحاكم كان يسهر الليل جواب آفاق ، والناس نيام ، ليستوضح أحوال الرعية ، ويلبس بنفسه من وراء الحوائط آلام البائسين ، ويقف على خللات المعوزين ، غير منتظر منهم ولا من أعوانه إيصالها إليه فى مجلس عدله . لأن من الناس من يقنح بؤسه ، ويستر جرحه الزاف تصوناً وضناً بالكرامة ؛ ومن الأعوان ، مهما أخلصوا من لا يشعر بمثل ما يشعر هو به من عظم الوزر وجلال المسؤولية ، فن ذا الذى يستطاع أن يميظ له اللثام عن كل شاردة وواردة من آلام رعيته ، إلا أن تكون نفسه الحساسة بمواضع الآلام ؟ ولرب بؤس فى الحياة مقنح أربى على بؤس بغير قناع . . وبهذا كان أكثر من أب حذب على أبناء يعدون بالملايين .

ومن أبدع ما يروى عن عدله الدقيق : أن بعض رعاياه ، كانوا ينزلون بداره ضيوفاً ؛ فيصيبون من طعامه الذى يقدم له ما يجعلهم يأسفون على حظهم ، لفوات ما كانوا يقدرون أنهم سينالونه على مائدة خليفة واسع السلطان من الطيبات . ولكنهم لو علموا أن رجل العدالة رجل قلب لا رجل بطن ، وأن له من لذة الإيمان بالعدل ما تنفه معه أطايب المطاعم والمشارب ، وجميع لذات الدنيا ؛ لما عجبوا ولا دهشوا .

ولقد كان أقرب خطم الرهبة من يده القوية خطام أهله وعشيرته الأدينين ؛
يتخذ منهم هدفاً لمضى العدالة ، يراه الناس ، فيأتسون ويؤمنون ويعملون ويخلصون .
وأية ثقة بعد الثقة بحاكم يقدم هند الشدائد نفسه وأهله ، ويقدم عند المغانم سواهم .
ليقيم حجة العدالة ناصعة سافرة كالشمس الطلقة رآد الضحى ؟ ومن يُرد عجائب
عدله فليرجع الى صفحات التاريخ فإنها عجب الدهر .

ومن بديع مآثور التاريخ في هذا المعنى ما روى من أن عمر بن عبد العزيز
الخليفة الأموى العادل ، كان يقرر على نفسه حتى لا يمس درهما من مال الدولة
بغير حقه . وراق له يوماً أن يستنبر خادمه بعض ما لا يعلم من أحوال الرهبة
فقال له : « ماذا يقول الناس فينا بعد أن صار هذا الأمر إلينا ؟ » فأجابه الخادم
في حدة وغيظ : « وماذا يقولون ؟ » واهقه لقد كننا قبل هذه الخلافة أسعد حالاً منا
بعدها . . وهنا بدا للخليفة الصالح أن خادمه يكابد من العيش ما لا قبل له بمثله ،
فأحسن اليه وسرحه سراحاً جميلاً ، وقال له : « أنت حر مطلق وسأبقى أنا فيها
حتى يكتب لى الله عنها مصرفاً . » وقد بقى فيها ما شاء الله أن يبقى دون أن يحيد
عن سبيله القويم ؛ حتى وافاه أجله ، رضى الله عنه وأرضاه .

ومن الطرائف في تحرى العدل ما روى : أن المأمون الخليفة العباسى كان يوماً
يماشى قاضيه على طريق في بستانه ، وكان القاضى يستره من الشمس بظلة ، فلما أراد
الرجوع ، حاول القاضى أن يظل ناحية الشمس ليبقى ستاراً له ، فأبى المأمون
إلا أن يكون ستاراً للقاضى واحدة بواحدة . فقال له القاضى : « يا أمير المؤمنين
لو استطعت أن أفيك بنفسى من حر النار لفعلت ، فقال المأمون رحمه الله : « نعم ؛
ولكن ليس ذلك من كرم الصحبة . »

وبعد ، فهل يحسن بعقل يحترم نفسه وإنسانيته أن يحمل قيمة العدالة ، وما لها
من آثار صالحة في سعادة الأفراد والمجتمعات ؟

العدالة فضيلة أساسية تقتضيها جميع المعاملات الاجتماعية ؛ تقتضيها علاقة
المرء بأهله ، وعلاقة الجار بجاره ، والقريب بذوى قرابته ، والرئيس بمرؤسيه ،
والحاكم بمحكومييه ، وكل مواطن مع مواطنيه ، حتى يكون السبيل أهدى والطريق
أقوم . نسأله تعالى الهداية .

الطفولة الضائعة

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغي

مدير المكتبة الازهرية

لا أتوجه بكلمتي هذه إلى الحكومة ؛ فأنبها إلى ضرورة العناية بهؤلاء الاطفال، الذين قدر لهم لاسباب كثيرة أن يشردوا في حياتهم ، ويهيموا على وجوههم في مسالك الارض حيارى محرومين من نعمة الرعاية والتوجيه ؛ ولا أتوجه إلى وزارة الشؤون فألفت نظرها إلى وجوب جمع هؤلاء الاطفال، والاضطلاع بتربيتهم وتعليمهم في مدارس خاصة ؛ ليكونوا بعد ذلك أعضاء نافعين في جسم الوطن، بدل أن يكونوا أداة إجرام وإفساد تهدد أمنه وتشوه جماله ؛ ولا أتوجه إلى مصلحة السياحة ، فأدله على مواطن الخطر على سمعة الوطن إذا وقعت أنظار السائحين عليهم، يستجدونهم ويتعبون أنظارهم وأنفسهم بمنظرهم وهيئاتهم؛ لا أتوجه إلى هذه الجهات فهي جد علمية بمشكلاتهم، دائمة البحث عن علاجها؛ وإنما أتوجه بكلمتي هذه إلى أصحاب الشأن الاول، والمسؤولين بالاصالة عنهم، وأعني بهم أولياء أمور هؤلاء الاطفال، الذين خلقوا هذه المشكلة بدافع من مشغولهم الوقتية، غافلين عن مسئولية الآباء نحو أبنائهم دينا ومروءة؛ أتوجه اليهم لاحدثهم باسم الدين لا باسم القانون، والدين أنجح وأبعد تأثيرا في نفوسهم من القانون .

أحدثهم باسم الدين، فأقول لهم : إن الدين أوجب عليكم العناية بأطفالكم، والجهاد في سبيل معاشهم وتعليمهم، وأوجب عليكم أن تؤثروهم على أنفسكم، ووعدكم على هذا الجهاد المعونة في الدنيا والجزاء في الآخرة .

إنما نعلم أن كثيراً من أولياء أمور هؤلاء الاطفال، يؤثر نفسه على أبنائه

بما قدر له من رزق ! وليته يؤثرها عليهم فيما يورثه خيرا في صحته أو عقله أو خلقه ! لكنه يؤثرها في شهوراته الوضيعة ، وفي لذات تورثه ضيق اليد ومرض الجسم ، وذل الحاجة . كثير من أولياء أمورهم يكذبون يومه ثم يذهب بما جمعه لا إلى منزله وأولاده ، ينجز لهم ضروراتهم المعاشية ، بل يذهب إلى أوكار المخدرات أو مواطن الفجور ، يتمتع نفسه ويرضى مزاجه : كما يقولون ، ثم يخرج كفافا وعليه آثام كثيرة في حق نفسه وحق أولاده وحق أمته ، ويدفع بأبنائه إلى طرق الذل والمهانة ، يسرقون ويستجدون ويحرمون ، ويدفع بزوجه كذلك إلى الامتهان بالخدمة ومسالك الريبة .

إلى هؤلاء نقول : إن الدين جعل عليكم مسئولية العناية بأبنائكم في معاشهم ومعادهم ، وإلنه سيحاسبكم عليهم ويماقبكم على التفريط فيهم ، وإهمال شئونهم ، ويجزل جزاءكم على الجهاد في تربيتهم والإنفاق عليهم ، وإعدادهم للمستقبل الكريم .

وبشر الذين يجاهدون في معاش أطفالهم وتربيتهم تربية صالحة ، بأقرب المنازل عند الله : فمن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال » ، وقال : « من حسنت صلاته ، وكثر عياله ، وقل ماله ، ولم يغترب المسلمين كان معي في الجنة كهاتين - يعني أصبعيه - » ، وقال : « من كان له ثلاث بنات ، فأنفق عليهن ، وأحسن إليهن حتى يغنين الله عنه ، أوجب الله له الجنة ، البسطة البسطة إلا أن يعمل عملا لا يغفر له » ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها ، فأطعمتها ثلاث تمرات ، فأعطت كل واحدة منهما تمرة ، ورفعت إلى فيها تمرة لنا كلها ، فاستطعمتها ابنتاها ، فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما ، فأعجبني شأنها ، فذكرت الذي صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن الله قد أوجب لها به الجنة ، أو أهتمها به من النار » .

وقال ابن المبارك وهو مع إخوانه في الغزو : تعلمون عملا هو أفضل مما نحن فيه ؟ قالوا ما نعلم ذلك . قال أنا أعلم . قالوا فما هو ؟ قال : رجل متعفف ذو عائلة قام من الليل ، فنظر إلى صبيانه فيأما متكشفين ، فسترهم وغطاهم بثوبه ، فعمله أفضل مما نحن فيه .

وأُنذر الذين يهملون أطفالهم ويضيعونهم بالعقاب على ذلك الإثم ، فعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء إثماً أن يحبس عن يملك قوته » . ونقول لهم باسم الدين : إن الدين لم يجعل شأن الزواج رهناً بهوى النفس ، وسلطان العاطفة ؛ فيتزوج الرجل متى شاء بمن شاء ؛ بل قيده بقيود كثيرة من أهمها القدرة على المهر والإِنفاق ، ومطالب الميث . وطلب إلى الفقير الذى لا يجد ما ينفقه على زوجته وعياله ، أن ينتظر إلى الميسرة ، حتى لا يضطره ضيق اليد إلى الكسب الحرام والوقوع فى الحرج والإِغاثات ، فقال تعالى : « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

وقد أباح بعض العلماء منع الحمل بسبب الخوف من كثرة الحرج ، بسبب كثرة الأولاد ، والاحتراز من الحاجة إلى التعب فى الكسب ، ودخول مداخيل السوء ، فإن قلة الحرج معين على الدين .

يمثل هذه الآيات والأحاديث وأقوال العلماء تتحدث إلى أولياء أمور الأطفال ، لتوقظ فى نفوسهم العاطفة الدينية نحو آبائهم ، حتى يستشعروا المسؤولية التى ألقها الشريعة على كواهلهم فى سبيل تربيتهم ، وإعدادهم لحياة كريمة ، يرضاها الإسلام لأهله .

هذا وإن إخواننا الوعاظ أقدر منا على الحديث ، وأبعد أثراً ، فنرجو أن يتحدثوا إليهم فى الأحياء المناسبة ، والأوقات المناسبة ، كما نرجو أن يستجيب هؤلاء لدعوة الدين بعد أن استمعوا على دعوة القانون .

الدنيا

قال أبو نواس :

وما نحن إلا هالك وابن هالك وذو نسب فى الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لييب تسكفت له عن عدو فى ثياب صديق
فكان المأمون يقول : « لو قيل للدنيا صنى نفسك ما عدت هذا البيت ،

صِنَائِعُ الْمَعْرُوفِ

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد عبد التواب

مفتش الوعظ

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صنائع المعروف تقي مصارع السوء ،
والصدقة خفياء تطفيء غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد في العمر ،
وكل معروف صدقة ، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ،
وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة ، وأول من يدخل الجنة
أهل المعروف . »

رسول الله ، وإمام هذه الأمة ، سيدنا المصطفى المختار ، يحيط هذه الأمة
بسياج من الفضل ، ويوثق بين أفرادها يرباط من المحبة ، ويجمعها على ألفة
لاتفصم ، يفيض عليهم من نور النبوة ، ويلبسهم من نسيج الحكمة ، وينثر عليهم
من عذوبة ألفاظه ، وسحر بيانه ، وجوامع كلمه ، ألوانا فيها متعة السمع والنفس
والفؤاد ، وفيها عزة الدنيا وسعادة الآخرة .

صنائع المعروف تقي مصارع السوء .

ومن من الناس لا يستجيب لهذا التوجيه الحازم ؟ فإن في الحياة مزالق
وعثرات ، وإن في الحياة أحداثا تفرع على المظمن بابها ، ثم تثب ، فتدفع في عنف
وتصرع دون إشفاق ، والذي يقف هذه القوارع ، ويدفع تلك المصارع ، إنما
هي صنائع المعروف ، فهي الوقاية من لفحات هذه المهلكات ، وهي العصمة من
تلك السكبوات القاصيات .

فإذا كانت هناك يد تمتد بالعطاء في الخفاء ، ليست بذات مَنْ ولا رياء ،
وإذا صدق البر بالأقارب ، وتنابت صلة الأرحام ، وإذا أغيث الملهوفون ،
وفرج المكروبون وانتصف المظلومين ، وأخذ على أيدي الظالمين ، كانت تلك
صدقات ، وكانت هذه صنائع ، تقيل المتعثر من عناءه ، وتسكف النجاة من هذه
الأحداث .

وصدق رسول الله ﷺ كل معروف صدقة ، فليست الصدقة قاصرة على بذل
المال ، بل الصدقة مال وجاه ، والصدقة حب وعطف ، والصدقة تزاور وتآلف ،
والصدقة عدل ونصفة ، والصدقة كف عن الأذى ، ورد عن الشر .

روى البخارى ومسلم عن أبي موسى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال :

« على كل مسلم صدقة ، قيل أرأيت إن لم يجد ، قال يعمل بيديه فينفع نفسه
ويتصدق ، قال : أرأيت إن لم يستطع ، قال : يعين ذا الحاجة الملهوف . قال :
قيل له أرأيت إن لم يستطع قال : يأمر بالمعروف أو الخير ، قال : أرأيت
إن لم يفعل ، قال يمسك عن الشر فإنها صدقة . »

فها هو ذا : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد اعتبر كلا من هذه
الأعمال صدقة .

وما دام كل معروف صدقة ، فالمتصدقون هم أهل المعروف ، هم الذين
استجابوا للدعوة الحق ، واستطابوا بحبة الخلق ، عرفهم الناس في الدنيا أبرارا
أخيارا ، يصلون فلا يقطعون ، ويذلون فلا يمسكون ، ويواسون فلا يتبرمون ،
وهؤلاء هم أهل المعروف في الآخرة ، يشهدهم المخلوقون وهم في رحمة من الله
ورضوان ، جزاء ما عملوا ، وكفارة ما بذلوا « وما تفعلوا من خير فلن
تكفروه ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ،
ولنجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

أما أهل المنكر في الدنيا ، أما الذين أظلمت نفوسهم ، وقست قلوبهم ، وعبست أساريرهم ، وساءت أفعالهم وأقوالهم ، فبدلوا من الوصلة قطيعة ، ومن البر فجورا ، وأحالوا الوفاء نقضا ، والولاء بغضا ؛

أما هؤلاء الذين ولغوا في الأموال ، فلم يشبعهم حرام ولا حلال ، والذين ذهبوا في الأعراض ، فلم تقدمهم فضيحة ولا نكال ، أما الذين أنكرتهم الدنيا ، لأنهم تنكروا لأهلها بالبغى والعدوان ، والطمع والجشع ، فهم أهل المنكر في الآخرة ، لا يجحدون من المال إلا حرمانا ، ولا من القوة إلا هوانا ، ولا من الأمن إلا ذعرا ، ولا من الأمل إلا خسرا ، ونحشره يوم القيامة أعشى ، قال رب لم حشرتني أعشى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى . .

* * *

ثم يحتتم الرسول الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، قوله بأعظم بشرى يتلقاها الناس ، بأن أول من يدخل الجنة أهل المعروف ، يتمتعون فيها بذلك النعيم الدائم الذي لا ينقضى ، وبهذه الألوان من التكريم ، الذي يلقونه بين يدي ربهم ، في جنة عرضها السموات والأرض ، يحلون فيها من أساور من ذهب ، ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق ، متكئين فيها على الآرائك نعم الثواب وحسنت مرتقا . .

وبعد :

فهذه صفات أهل البر ، لمن شاء أن يحتذيا ، وتلك ثمار الخير لمن رغب أن يحتذيا ؛ فإنها جمال الدنيا وعزة الآخرة .
وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . .

إذا أعجبتك خصال امرئ فكفه يكن منك ما يعجبك
فليس على الفضل والمكرمات إذا رُميتا حاجب يحجبك

الأدب الديني

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ ابراهيم أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

خطر بذهني هذا العنوان ووددت أن أكتب فيه كله ، وقد ترددت بادىء
ذى بدء ؛ لأن الادب هو الادب في كل شرعة ومنهاج ، وأسلوب وتفكير ، ولون
وتصوير ، فلا يمتاز الدين بطابع من المكتابة على غيره من أنواع السلوك
أو الاخلاق .

ولا يعدو الادب أن يكون ديباجة طلية ، وبيانا سرييا ، وألفاظا مختارة ، وجملا
متناسكة ، وليس لمتعشق للقراءة ، راغب في الاستفادة ، متعطش إلى الفهم والتحصيل ،
أن يقول هذا شعر يعالج عقيدة ، أو ينتصر لمذهب ، أو يدعو إلى غاية .
وإذا كان هجاء ابن الرومي وحماد وبشار والمنتبي لم يمنع القارئ أن يتناقله ،
ويقف على أطلال حسنه ، ورسوم جماله ؛ فإن المتأدب يجب عليه أن ينشد الادب
في كل دين وملة ، وعلم وفن ، وكتاب وكاتب ، وزمان ومكان ، وجيل وقبيل .
وهكذا قضية المنطق ، ودعوى الحقيقة ، وديدن أصحاب ما يجب أن يكون ،
وقد عرف عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يحب هذا النوع من الادب ،
ويرغب فيه ، ويثيب أصحابه عليه ، وإذا لم يكن الشعر يبحث على فضيلة من
الفضائل ، ويُغْنِض في رذيلة من الرذائل ، نفر منه ، ولوى أذنيه عنه ، وكان
يطارد المهجّاتين ويتوعدّهم ، ويذرهم بالويل والثبور ، إذا لم يكونوا سلبا وسلاما
على الناس ، وربما كان النبي صلى الله عليه وسلم — كذلك — من أصحاب هذا
المذهب فيما كان يستنشد عاتشة رضى الله عنها ، وفي قوله : إن أصدق كلمة قالها
شاعر ، كلمة ليبد : « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » .

إلا أن القوم دأبوا على أن ينفروا من « الادب الدينى » ، كما ينفرون من الدين نفسه ، كأنه رجعية وجود ، وتأخر وانحطاط ، ولا يعنى بهذا الطابع من الادب إلا الذين يرتزقون من التثواشيخ ، يغتنون بها فى الأذكار ، أو البردة والهمزية يتبركون بهما عقب الصلوات ، وفى ساعات التجلى ، حيث تعطىب الخلوة ، ويحسّن الانفراد ، ويلذ للسكود الوحدة والانقطاع ، وعلى ذلك فإنه يجب اطراح قصائد السكيت بن زيد الاسدى فى آل البيت ، ونبد ما كان يسميه بعض أسلافنا الأزهرين « فن المديح » ، من تلك الروائع النبوية التى كانت ذوباً من العاطفة ، وصوباً من الإحساس ، وفيضاً من الشعور ، ونوراً من الإيمان ، والتى بلغ من العناية بدراستها ، والاحتفال بشرحها أن كانوا يعتقدون لها الخلق ، ويتخيرون لها الاوقات ، ويهشون للاجتماع لها ، ويفرحون بالاستاذ الذى يجلجل صوته ببيانها والكشف عن غامضها .

وكانت هى البقية الباقية من الادب فى الأزهر ؛ بل كانت هى المشرق الذى منه تطلع الشمس ، والافق الذى عنه ينبجلى الضياء ، استطاعت أن ترينا خولاً فى البلاغة ، وأساطين فى الشعر ، وجهاذة فى صياغة الالفاظ ، وتميق الجمل .

والتراجم التى بين أيدينا لأعلام النهضة الفكرية فى العصر الاخير بعد اعتداء التتار ، وسقوط الخلافة ، للذين نهلوا من هذا المعين ، وساروا على هذا الدرب ، ولو ظلت العناية بهذه القصائد كما كانت ، والاهتمام بها على هذا الوجه ، يضيفها الطلاب إلى « مجموع المتن » ، على غرار أسلافهم ، وطريقه أشياخهم ؛ لظلوا حلة اللواء ، ولكن فلسفة الجمل ، وخطرة التخبط ، وعماية الضلال ، وحى التجديد ، حينما سرت عدواها إلى صفوفهم ، وتغلغلت جرائمها فى دماهم ، بغضت إليهم كل قديم ، وشوهت فى نظرهم كل عتيق ؛ فتمردوا على التاريخ ، وتناولوا على الماضى ، وتجاؤا ما يصلهم بالجدود ، وينسبهم إلى الأسلاف ، حتى الادب مادام من هذا الطراز ، وعلى هذه الوتيرة ، ولا أعلم فيما أعلم سبباً لهذا البغض ؛ ودافعا لهذه الكراهية ، يتجاوز تلك المعانى ، مع أن أصدق مثال لهذا الادب الذى

يتنصلون منه ، ويقطعون أسبابهم عنه ، ويباعدون ما بينهم وبينه ، القرآن ، وهو الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ؛ سبحانه له العرب بعد ما تحدوه فعمجزوا ، وعارضوه فلم يستطيعوا ، وجروا في مضماره فكبوا ، وهم سادة البلاغة ، وملوك اللسان ، ودهاقين المنطق ، وصيارفة القول .

وشوقى وهو إمام المعاصرين ، وسيد المجددين ، لم يسجل اسمه في الخالدين ، ويعلى شأنه في السابقين ، أكثر من تلك الناحية في شعره التى ينتصر فيها للعقيدة ، ويدافع عن الحق ، ويؤيد الواجب .

ولإذا صح ما يقوله بعض الناس ، من أن الأدب هو التصوير الجميل للمعاني الرائعة ، فإن في الدين خللا كريما ، وسجايا فاضلة ، ومزايا حميدة ، وسلوكا نبيلًا ، وتشريعا حكيما ، كثيرا ما نجد في دقة تصويرها ، وحسن التعبير عنها ما يسمو بالأدب إلى أبعد آفاقه ، وأوسع حدوده ، وأجل معانيه . . . ولقد كنت منذ حين أبالغ في إعجابى بقول النابغة يعتمر للنعمان : « فإنك كالليل الذى هو مدركى ، حتى تذوقت قول الله جل جلاله « وأحاطت به خطيئته ، فأيقنت أن ذلك هو السحر البابلي ، والديباج الخسروانى ، وأن ما عداه فضول ، وقول مفضول ؛ على أن الأجانب الذين يتقلون عنهم ، ويترسمون خطاهم ، يعجدون « أدب الكنيسة » ويحولونه من نفوسهم فى مكان الإلهزاز والاحترام ، والقداسة والتعظيم ، ويعتقدون أنه غنى بالخيال ، خصب بالتفكير ، يتدارسونه ويتناقلونه ، ويؤدّبون به أبناءهم وبناتهم ، كأنه وحى من السماء يلتفون حوله ، ويجمعون على مائدته ، فهل يصيخ الناشئون إلى هذا الرجاء ، فيعودوا إلى الامتناع من ذلك النعج الصافى ، والمورد العذب ، تاركين وراء ظهورهم ما يقول الملاحدة من أن الأدب الدينى ، أدب يدهو إلى الجلود ، ويحمل على الرجعية ، ويسوق إلى حصر الجمال فى أضيق صوره ، وأحقر ألوانه ، خصوصا هؤلاء الذين يعدون أنفسهم للذود عن الدين ، والدفاع عن حوزته ، فإنهم أمس به ، وأجوج إليه ، وأولى من غيرهم أن يحملوا رسالته .

أعلام الأزهر

المنفلوطي

١٨٧٦ - ١٩٢٤ م

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد كامل الفقي
المدرس بكلية اللغة العربية

نشأته وحياته :

« السيد مصطفى لطفى ، بن « محمد المنفلوطى ، ولد فى سنة (١٨٧٦ م) بمدينة « منفلوط ، وإليها ينسب ، وقد انحدر من أسرة عريضة ، عرفت بالوجاهة والحسب ، وتوارثت القضاء الشرعى وتقابة الصوفية زهاء مائتى عام ، أما أبوه فعربى واضح النسب يمتد إلى « الحسين بن على ، رضى الله عنهما ، وأما أمه فهى وثيقة القرابة بأسرة « الحوربجى ، التركية الصاربية فى الشرف والمجد .

حفظ القرآن بالمسكتب ، ثم اتجه إلى الأزهر فلتقى علومه به ، وكان معروفا بين أقرانه بحدة الذكاء ، وسلامة الذوق ، وصفاء الفكر ، وقد نزح إلى طريقة ارتضاها لنفسه غير الطريقة التى درج عليها أبناء الأزهر ، فكان يعطى الدروس على طريقة يخلص منها إلى تحرير الفسكرة ، وتحديد الجوهر ، غير مبال بما يعترضه من جدل ونزاع لفظى ، وأكب فى صباه على كتب الأدب يغذى هواه ، ويروى فطرته ، فقد نشأ شغوفاً بالأدب مقطورا على التقليب فى آثاره ، والتروى من روائعه ومحاسنه ، ودرس فيما درس طائفة من كتب الطبيعة والحكمة والأخلاق ، وأقبل على الأشعار يحفظها والشوارد يتصيداها ، ونظم الشعر ، وحرر الرسائل . وذاع صيته بين الناس ، وبين الأزهرين خاصة ، فقربه الإمام المرحوم « الشيخ محمد عبده ، ووجد فى ظلاله التوجيه النافع ، والهدى الموفق ، وما لبث « المنفلوطى ، أن اتسع له صدر الإمام فلازمه وصاحبه ، وتردد على درسه وغشى منزله ،

ودامت هذه الصلة الوثيقة عشر سنين ، كانت « المنفلوطى » غذاء لروحه ، وتوجيها لفكره ، وتعبيداً لطريق حياته ، وأثمرت صلته بالإمام معرفته بالمرحوم « سعد زغلول باشا » فمش له ، وقدر مواهبه ، وتفطن لما شب عليه من صفاء القريحة ، وسلاسة الأسلوب ، فقر به ورعاه .

وقد بلغ من حب « المنفلوطى » للإمام وتعلقه به أنه انتبذ مكاناً قصياً إلى أهله « بمنفلوط » حين استأثر الله بالإمام وأظلمت الدنيا في محياه ، وابتأس حين أوحشت حياته من لقائه .

ثم بدد عزلته النائية التى بكى فيها أستاذه وموجه « الشيخ محمد عبده » فراسل « المؤيد » برسائله الممتعة التى طالما أتلع الناس إليها أعناقهم ، واستشرفوا للقائها ، وتزاحوا على ورودها .

وقد كانت ترد إليه رسائل من أقاصى البلدان تسأله أن يعالج موضوعاً ، أو يحلّ حادثاً ، أو يعلق على أمر ذى بال ، والناس لمطعمها مشوقون .

وقد تأثر « المنفلوطى » بالشيخ « محمد عبده » فطبع بطلابه ، ونهل من شعوره ، وانصرف منصرفه فى معالجة الشؤون وتناول الإصلاح الوطنى والخلقى والاجتماعى .

« ويتجلى تأثيره به فى الحملة التى شن غارتها على المفاسد التى دخلت على الإسلام ، وفى دعوته إلى الإصلاح ، تلك الدعوة التى اصطبغت بالصبغة التى نجدها فى كثير من كتابات الشيخ محمد عبده ^(١) .

وقد نسب إليه فى أثناء طلبه العلم بالأزهر أنه هجما الخديو السابق بقصيدة نشرتها إحدى الصحف الأسبوعية لحكم عليه بالسجن ، وقضى به مدة عقوبته ، ثم شفع له بعض المقربين لدى الخديو فعفا عنه ، ويرى بعض الأدباء أن القصيدة من عمل غيره ونسبت له .

ولما ولى « سعد باشا » نظارة المعارف عينه محرراً عربياً لها ، فأصلح من أسلوب الكتابة بها ، وأشرف على لغة الكتبة وتعمدهم بالرعاية والإرشاد ، حتى إذا

ما حول د سعد ، إلى نظارة الحقانية استصعبه معه لمثل هذا العمل ، فكان له فضل عظيم في ترقية الكتابة وتقديم لغتها ، وتخلصها من الركة والعجمة والضعف بقدر ما وسعته الجهود ، وبعد عامين فصل من هذا العمل .

ولما انعقد البرلمان ، عين د كاتم سره ، ، وكان القدر قد أراد أن تنطفيء شعلته ، فضى إلى ربه في العقد الخامس من عمره عام ١٩٢٤ م

وكان رحمه الله على النفس ، عزيزاً متوفراً ، يحافى صفائر الأمور ، ولا يتعلق إلا بجلال الأعمال ، نزاعاً إلى الحرية ، هيوفاً عن كل ما يبدنس صفحته ، كريم الخلق ، طيب السريرة ، في تواضع جم ، وكرم نفاح .
وقد عاش طول حياته لم يلوث يده بأجر على ما كان يكتبه ، على جلالة شأنه ، ونباهة ذكره ، وما يهيئه من الرفعة وعلو المكانة لمن يحظى بقلبه مؤيداً ومعايذاً .

وقد اجتمعت عليه عداوات ، وأرثت أحقاد ، من طول ما لقيه من الشهرة بأدبه ، وبعد الصيت بقلبه وتألّبت عليه الأقلام تنوشه وتنهشه حقداً وموجدة ، وهو ثابت كالطود ، موفور الحلم والأناة ، واسع العفو والإغضاء ، فكان كما قال :

إذا ما سفيه نالني منه نائل من الذم لم يخرج بموقفه صدرى
أعود إلى نفسي فإن كان صادقاً عتبت على نفسي وأصلحت من أمرى
وإلا فما ذنبي إلى الناس أن طغى هواها فما ترضى بخير ولا شر
وقد صور المرحوم د أحمد شوقي بك ، أمير الشعراء خصومة حساده ، وكلفهم بتبعية ، وألصف حلله وسعة صدره وعفوه عن خصومه اللد ، فقال في رثائه له :

سكن الأحبة والعدا ، وفرغت من حقد الخصوم ومن هوى الأشيع
كم غارة شتوا عليك دفعتها تصل الجهود فتكن خير دفاع
والجهد مؤت في الحياة ثماره والجهد بعد الموت غير مضاع
فاذا مضى الجليل المراض صدوره وأتى السليم جوانب الأضلاع
فانزع إلى الزمن الحكيم فعنده نقد تنزه عن هوى ونزاع

أدب المنفلوطى :

لقد كان الأدب بالمنفلوطى ، حياة جديدة ، وتهيأت له بقلبه جدة وروعة ، فأبغى وانتعش ، كان رشيق القلم ، عذب البيان ، فصيح التعبير ، مشرق الديباجة ، محكم الرصف ، متين النسيج ، وكان مرهف الحس ، دقيق التفتن لمواطن البلاغة ، طروباً للتعبير الفخم ، والتركيب المنسجم ، يحتفل بأسلوبه ، ويجود فى صياغته ، وإذا هبطت عليه سبعة فذاك ، وإلا لم يتكلف طلبها ولم يتعمل ،^(١) .

وإذا جاز أن يكون الأدب العربى المعاصر قبل المنفلوطى ، دائراً على اللفظ ، يغفل الفكرة فلا يتوضاها ، ويغضى عن المعنى فلا ينفذ إلى روائعه ، فإن المنفلوطى ، كان أحد أولئك الأدباء القلائل ، الذين أدخلوا المعنى والقصد فى الإنشاء العربى ، بعد أن ذهب منه كل معنى ، وضل به الكتاتيون عن كل قصد ،^(٢) وقد حدث عنه المستعرب د أغناطيوس ، فيما قاله عن الأدب العربى الحديث ورجاله ، فقال : « امتاز مصطفى لطفى المنفلوطى ، وهو أصغر تلاميذ الشيخ عبده سناً ، بما بذله من الجهود الموفقة ، لابتكار أسلوب جديد شائق ، ويمكننا أن نقول : إنه نجح نجاحاً كبيراً عن جدارة واستحقاق ،^(٣) .

وكان المنفلوطى ، صاحب طريقة فى الأدب ، وذا مكان ملحوظ فيه ، ولقد بهر الناس أدبه ، وفتنتهم روعته وجذبهم طريقته السهلة المشرقة المندفئة ، حتى كان محفوظ التلاميذ ، مرقوب المتأدبين ، وكان بحيث لو لم يذكر المنفلوطى ، مع ما يكتبه ، لنمَّ أسلوبه عنه ، وهدى إشرافه إليه .

ومن أهم ما يأسر له هذه المكانة ، بعد روائع أسلوبه الذاتية ، بروز شخصيته فيما يكتب ويصور ، حتى قال له المرحوم د سعد زغلول باشا : « إني لأرى لك فى كتابتك شخصية أتمنى أن أجدها كثيراً فى أفلام الكتاتين » .

وكان رفيع الأدب فى كل ما يكتب ، فلم يسف فى مقال ، ولم يتدل فى موضوع ، بل كان د الكتاتب الفريد الذى يحافظ على أسلوبه فى جميع حالاته وشؤونه ، سواء فى ذلك المعانى المطروقة لكتاب العربية الأولى ، أو التى لم

(١) الفصل ١ ص ٣٨٨ (٢) مراجعات العقاد ص ٢٧٠

(٣) ترجم الأستاذ أمين حسونة النواوى هذا البحث فى مجلة الرسالة ص ٨٦ ، ٢ ، السنة الرابعة

يكتبوا عنها شيئاً ، ولم يسموا لها أسلوباً ، مما يدل على أن السليقة العربية ملكة من ملكاته : لا عارية من عواريه ، (١) .

ولم يكن مفتوناً بالصنعة ، متهاثراً على تجويد الأسلوب ، بل كان طبعه يغلب صناعته ، ولم تكن الصنعة لتخلق أديباً كالمنفلوطى ، فى نباهة شأنه ، وروعة أدبه ، ولو رجحت الصنعة فى أدبه لضل فى ثناياها الغرض ، وغمرت الفكرة ، وعزّ عليك أن تجد له هذه الأفكار الحية ، وتلك الموضوعات الاجتماعية التى يتهم فيها وينجد ، والتى عبر فيها عن خلجات النفوس ، وخفقات القلوب ، ومسارح الفكر والشعور ، وصور بها الآلام والأحزان صورة يرتسم فيها الأسى ، حتى كان من أشد الأدباء تأثيراً بالأدب الغربى ، واصطبأنا بصبغته .

وأول ما بهر الناس من أدبه ، وفنهم من جمال أسلوبه ، مانشره من نظرائه ، فى صحيفة المؤيد ، سنة (١٩٠٨ م) فقد اهتزت لها القلوب والاسماع ، ورأى القراء الأدباء فى هذا الفن الجديد ما لم يروا فى فقرات الجاحظ وبيجمات البديع ، ومالا يزول فى غثاثة الصحافة وركاكة الترجمة ، فأقبلوا عليها لإقبال الهم على المورد الوحيد العذب (٢) .

هذه النظرات ، التى كان الأدباء يتشوفون إليها ، ويعدون لها أيام الأسبوع يوماً بعد يوم ، ويترقبون لرؤيتها ما يترقب الضال فى ظلمة الليل البهيم من الفجر الطالع ؛ والظامى فى المهمم القفر ، من الغيث الهامع (٣) .

امتازت هذه المقالات بطابعها الانيق ، ومعالجتها شئناً مختلفاً بأسلوب رشيق ، جمع بين الأدب العالى وإرضاء الذوق ، لأنها كتبت بلغة موسيقية صافية ، فكانت بمثابة الوحي يهبط على جمهور تعود قراءة أدب الكلفة والتصنع ، وقد انتشرت انتشاراً واسعاً بين قراء العربية من بغداد إلى مراکش وهذا مما يدل على أنهم ألفوا فيها شيئاً قيماً ، كما كانت تمثل الشعور الذى تردد صداه فى العالم الإسلامى أبلغ تمثيل (٤) .

(١) أشهر مشاهير أدباء الشرق للسندوبى ج ٢ ص ١٨٦

(٢) أحمد حسن الزيات : من مقال له فى « الرسالة » السنة الخامسة العدد ٢١٠

(٣) أشهر مشاهير أدباء الشرق للسندوبى ج ٢ ص ١٨١

(٤) من مقال لمستعرب انجليزى فى مجلة « إسلاميك كلتشر »

كان « المنفلوطى » رحمه الله رحيم الفؤاد ، رقيق العاطفة ، يهتز لكل مأساة ، ويبتأس لكل كارثة ، وتسيل عبراته على ما تقع عليه العين من شقوة أو بأساء ، ومن ثم كتب في البؤس والمأساة فبلغ ما لم يبلغه أحد ، وصور ما يعتلج في الأفئدة من هموم وأحزان ، بقلم باك ، وبراعة دامية وقال فيه عارفوه ومن صاحبه : إنه لم يكتب إلا هن فيض شعوره وحسه ، وإن كتاباته صورة حقيقية لنفسه .

المنفلوطى القصصى :

ثم إن « المنفلوطى » تناول القصة فهد لها في الأدب العربى طريقا ، وفسح لها في فنونه مكانا ، وبلغ بها منزلة سامقة ، وذلك لأنه « كان يستعين بإخوانه ممن يعرف لغة أجنبية فيستوحيه معانى القصة فإذا ما استعرت في نفسه صاغها بعبارة الساحرة ، وزانها بقالبه الجميل (١) » .

ولم يكن يتقيد إذ ذاك بعبارات المؤلف ومعانيه .

ولهذه الطريقة حسنات أهمها أنها تمكن الناقل من إظهار ما لديه من شخصية ومقدرة وعبقرية ؛ ولسكنها من الجهة الأخرى « تخطئ الغرض الأصيل إذا كان الغرض نقل الأثر الغربى الى اللغة العربية » (٢) فالقصص التى ينقلها المنفلوطى بهذه المثابة قد تبعد عن الأصل في ترجمتها ، أما إذا اعتبرت من وضعه على أنه استعان بواضعها الغربى فهمى من جهده الذى يفاخر به .

وأيا ما كان فقد كانت القصص والروايات التى تناولها « المنفلوطى » مرآة تنطبع عليها العيوب والمآسى الخلقية والاجتماعية بأسلوب مؤثر وعبارة فصيحة ، وإذا كنا لا نستطيع أن نقول : إن « المنفلوطى » فى عصره كان أبرع القصاص وأنبغ الروائيين ، فإنه لا ريب من خير من عبر هذه الطريق ، ومن طلائع الذين أودعوا خيال الغرب ، وذلك لا يعفيه من ضعف الاداة والتحريف فى التعبير أحيانا .

[يتبع]

(١) مذكرة المرحوم الأستاذ محمود مصطفى فى الأدب الأندلسى والمعاصر وما بينهما ص ٤٤٩ .

(٢) مجلة الهلال العدد الصادر فى ١٢ من شبان سنة ١٣٢٨ هـ أول مايو سنة ١٩٧٠ م .

اللسان

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد المسلول
المدرس بكلية اللغة العربية

لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه
ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه
حديث شريف

وسيلة الحكم على إنسان وتعرف ما ينطوى عليه من خير أو شر ، وما يحوى من صلاح أو فساد إنما تتأتى من منطقته وتنهياً من لسانه .

فقوة القلب أو ضعفه ، وسداد الرأى أو خطئه ، وعمق التفكير أو ضوئته ، ووثوق العزم أو تفككه ، وصدق الإيمان أو كذبه ؛ كل ذلك مخبوء وراء أحجية لا يهنكها إلا اللسان ، ولا يكشف سرها ويذيع خبرها سوى المنطق والبيان . فاللسان أداة التعبير عن النفس ، وترجمان خيرها وشرها وتقواها وفجورها ، وهداها وضلالها ، وصلاحها وفسادها ؛ لذلك كان حسن اللسان عنوان قوة الإيمان وطهارة الجنان ، ورقة الوجدان ، وكان اعتدال المنطق وصدقه وإخلاصه دليل صفاء القلب ، وتقاء الضمير وحسن التفكير .

ولا يتعقد المنطق إلا من تعقد النفس وظلمة القلب وفساد النية وخبيث الطوية ، ولا يسوء اللسان إلا من سوء الخاق واعتلال الطبع وطغيان الفساد الداخلى على ظاهر الأعضاء .

عناية الإسلام بتقويم اللسان وتهذيبه : هى عنايته بحفظ كيان الإنسان وإسعاده وإصلاح دنياه وآخرته ؛ فالمرء بأصغرية قلبه ولسانه ؛ إذا صلح القلب صلح الجسم كله ، وإذا استقام اللسان استقامت أمور الحياة جميعاً . ولا يمكن أن تحسن علاقة المرء بأخيه ، ولا أن يعظم ارتباطه بالناس إلا حين يكفهم شر قوله ، وسوء خلقه وزلات لسانه ، ولا تتولد الاحقاد والأضغان بين

الناس ، ولا تشب العداوات وتأصل الخصومات بينهم إلا حين يفقدون السيطرة على ألسنتهم ، والقدرة على أعصابهم ، ولا يملكون ضبط ما يصدر عنهم من قول ، أو يتحدر منهم من حديث ، ولقد صدق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم حين قال : « وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم » .

فالكلمة ينطق بها الإنسان من غير وعى ولا تدبر ؛ ربما أكسبته شقاء وأورثته تعباً وعناء ، وجرت عليه الأحقاد والأضغان ، وخلقت له في نفوس الناس صورة مجللة بالبغض والكراهة ، وقد بما قالوا : إن البلاء موكل بالمنطق . وهل يثير الفتن ، ويهيج العدوات بين الناس إلا حصائد اللسان وزلاته ، وسوء المنطق وآفاته ، فكلم من كلمة بدت من المرء هفواً ، فإذا بها تولد العدوات الفاجرة ، والخصومات الغادرة ، والأحقاد النائرة ، وتشب المهارات وتثير المنازعات . ولو خلصت من جفوة الخطاب وسلمت من خشونة القول ؛ لما أثارت هذه الفتن الغاشمة ، وبعثت تلك الثورات الطاغية الظالمة .

ومن هنا نظر الإسلام إلى الذي ساء لسانه نظرة مزرية مهيبة ، وعده من أهل النار ، وإن صلى وصام وتعب وتهدى ، وقام قائماً بالعشى والأسحار ، قيل : يا رسول الله إن فلانة تقوم الليل ، وتصوم النهار ولكنها سيئة الخلق ، تؤذى جيرانها بلسانها . فقال صلى الله عليه وسلم : لا خير فيها ، هي من أهل النار .

أيفهم هؤلاء الذين لا يزنون منطقاً يصدر عنهم يميزان الحكمة والعقل ، ولا يحملون حديثاً يصدر منهم بحلية الأدب وجمال الصدق ، أن منطق الدين يمتقنهم أشد المقت ، وأوضاع الحياة ، ومجامع الناس وهمساب القلوب ، وخلجات النفوس تزدريهم أقبح ازدراء . والرجل الذي يخف عليه لسانه ويفلت من يده زمامه ؛ فيخوض في كل عرض ، ويلغ في كل حرمة ، وينشر على الملأ ما خفي من أمور الناس ، وما استكن من أحوالهم ، لا بد أن ينضب ما عنده من حياء ، وينفذ ما فيه من إنسانية ، ويفقد ما لديه من كرامة ، ويتولد في نفسه استخفاف بالخلق واستهتار بالمجتمع ، وثورة على الأخلاق والآداب ؛ فلا يتقيد بوعده ، ولا يتمسك بعهده ، ولا يحفل بما يقذفه لسانه من كلام ، يقول ويؤكد ، ويعزم ويصمم ، ويعلم بلسانه حتى يظن الناس أن هذا القول الموثق لا ينقض ، وذلك الكلام الجازم لا يحل ؛ حتى إذا حان وقت الجسد وأن أوان العمل ، رأينا كيف تستحيل النار المشتعلة

إلى رماد ، وينقلب الحماس المندفع إلى فتور وتراجع ، ويتغير الالفادام السريع إلى إدبار شنيع ونكوص ذريع ، وذهبنا نتحسس قوله الجازم ونرى أين مكانه ؛ فإذا هو أصوات جوفاء ذهبت مع الريح في كل مذهب ، ولم يبق لها حتى في نفسه مكان ولا أثر .

كل ذلك من ضعف الإيمان ، وتحلل الاخلاق وهوان الدين على النفوس ، ونزول قيم الرجولة نزولا خسيسا .

والله تعالى مقت هذه الخلة ونعى على أصحابها ، وأزرى بعصبيهم فقال جل شأنه : يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ، وما شوه جمال الحياة ، وكدر صفو العلائق ، ومزق الروابط وهتك أواصر المودة ، وقطع وشائج الالفة والاخاء ، إلهؤلاء الذين تتملكهم شهواتهم ، وتستبد بهم نزواتهم ، وتطغى عليهم فلتات ألسنتهم وشور منطقتهم ؛ فبرى قولهم دائما يسبق تفكيرهم ، وخطوهم يتقدم تقديرهم ، وهذرهم أكثر من جدتهم ، وخطأهم أضعاف إصابتهم ، ومع ذلك فهم سادرون في غيهم ، متبادون في عمايتهم لا يدعون أديما إلا مزقوه ، ولا عرضا إلا شوهوه ، ولا حرمة إلا هتكوها دون تخرج ولا رقابة لضمير ! ولو أصاب هؤلاء حظا من الإدراك ونصيبا من التعقل ؛ لعلوا أنهم أبعد الناس عن رحمة رب العالمين ، وأنآهم عن محبة خاتم النبيين الذى يقول صلى الله عليه وسلم : إالا أخبركم بأبغضكم إلى ، وأبعدكم منى مجلسا يوم القيامة : الأثرارون المتفقهون ،

وهذا عقبه بن عامر يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النجاة ؛ فيجيبه بكلمة تبدل ظلام الحياة نورا وحكمة ؛ إذ يقول : دامسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وأبك على خطيئتك ، وفى الحديث الشريف : إن لسان المؤمن وراء قلبه ، فإذا أراد أن يتكلم بشىء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه ، وإن لسان المنافق أمام قلبه ؛ فإذا هم بشىء أمضاه بلسانه ، ولم يتدبره بقلبه . هناك أنماط أخرى من الناس مرونا على نوع من المنطق معسول ، وتعودوا على لون من الكلام خادع ، وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم ، حديثهم جذاب ، وكلامهم سائح خلاب ، وظاهرهم لا مع براق ، ووراء ذلك قلوب قاسية لا تعرف الحشية ،

ولا المراقبة، ونفوس عاتية لا تداخلها الرحمة ونيات خبيثة، ضربت عليها الغلظة، وصاحبها المسكر والخداع والختل، ومازجها التعقد والالتواء، ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا، ويشهد الله على ما في قلبه، وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد .

وما أفسد الأوضاع وبدل النظام فوضى، والعدل جوراً، وأحل الخصام محل السلام، وقتل الكفاية إلا ما تعتاده بعض الألسنة من ألوان الملق، وأنواع الرياء، وقدرتها على إضمار البغض وإظهار الحب، ونسج حيل الثناء بما يخترعه الوهم ويزينه الخيال، ويعتري ضعاف العقول بما يسمعون، فيظنون به الصدق، ويتوهمون فيه الإخلاص؛ حتى تكشف لهم الأيام وتسفر الأحداث عما كان يستقر في أطواء النفوس من خداع، ويمكن في أعماق القلوب من نفاق ورياء .

ومن الناس من صغرت هممتهم، وضعفت عزيمتهم، وقعدت بهم الأسباب، وتخلفت عنهم القدرة؛ فتعلقوا بجمال رئيس، أو حطوا رحالهم على جاه عظيم، ثم حاولوا بعد ذلك أن يتعلقوا رغبته ويسايروا هواه، فترام دائماً أسرع إلى إشارته وأقرب إلى نظراته، وأشد تطوعاً بالوقعة، وأكثر تبرعاً بالدسيعة، يزينون القبيح ويحسنون السكريه، ويقبحون كل نافع، ويحقرون كل عظيم، ويصفرون كل جليل . لا يقدمهم خلق ولا يزعمهم دين، ولا يكفهم عن هذا العبث والصغار ضمير، وكم كابد الناس من هذه المسآسى، وقاسوا من تلك الخمازي، وشربوا من مرها ما آلم النفوس وأدعى القلوب؛ مع أنه لا يحمل إنسان هذا الخلق، ولا يتسم أحد بهذه الخلائق إلا شانه الله، وأظهر شأنه وفضحه بين الناس، وجعله بينهم هبة ومثله، وإن طال الامد بغشه وخداعه .

ألا ليت شعري هل يفهم هؤلاء الخادعون الغاشون أنهم يسيئون إلى أنفسهم، وإلى الناس جميعاً أشنع الإساءة؟ ألا يعلمون أن اللسان إذا اعتاد السوء، وألف المنكر، وصرن على الإباحة والتحلل؛ اندفع في كل تيار وجري في كل مجال، وألف أشد الألفة أن يستغل كل سر مكنون، ويفسر كل خبر مدفون؛ بل أصبح فضيحة متقلبة، يكشف العورات ويذيع السوءات، ويبتكر عن الناس من المساوىء ما يجعله مادة للحديث، وأداة للبهو والتسليه من غير إبقاء على دين ولا احترام لخلق، ورحم

الله أبا بكر الصديق ورضى عنه ؛ فإنه مع شدة يقينه وقوة إيمانه الذى لو وزن بإيمان الأمة لرجحه ، كان يمسك بلسانه ويقول : هذا أوردنى الموارد . وكان الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم : معلم الأمة ونبي الرحمة يقول : لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، وكان يقول : إن أكثر خطايا ابن آدم فى لسانه .

إن المؤمن سمح النفس ، صادق الحديث ، مهذب الكلام ، عذب اللسان ليس بفحاش ولا نمام ؛ يقول بعد أن يفكر وينطق بعد أن يتدبر ، لا يشارك فى مالا يعنيه ، ولا يدخل فى مالا يهيمه ؛ فإذا حسن إيمان العبد حسن لسانه ، وتهذب خلقه ، ولان منطقته ، وطالع الناس بما يحبه له الإسلام من صدق القول ، وعفة المنطق ولين الكلام . نسأل الله العصمة من أغلاط اللسان والسلامة من آفات الكلام .

قريش

قريش هى القبيلة العربية الماجدة التى اختار الله أن يجعل منها خاتم رسله محمدأ صلى الله عليه وسلم ، قال الجاحظ إمام البلاغة يصفها :

قد علم الناس كيف كان كرم قريش وسخاؤها ، وكيف عقولها ودهاؤها ، وكيف رأيها وذكاؤها ، وكيف سياستها وتدبيرها ، وكيف إنجازها وتحبيرها ؛ وكيف رجاحة أحلامها إذا خف الحليم ، وحدة أذهانها إذا كل الحديد ، وكيف صبرها عند اللقاء ، وثباتها فى اللأواء ، وكيف وفاؤها إذا استحسنت الغدر ، وكيف جودها إذا أحب المال ، وكيف ذكرها لأحاديث غد ، وقلة صدورها عن جهة القصد ، وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه ، وكيف وصفها له ودعاؤها إليه ، وكيف سماحة أخلاقها وصونها لأعراقها ، وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم ، وطريفهم بتليدهم ، وكيف أشبه علانيتهم سرهم ، وقولهم فعلهم ، وهل سلامة صدر أحدهم إلا على قدرة بعد غدرة ، وهل غفلته إلا فى وزن صدق ظنه ، وهل ظنه إلا كيقين غيره ؟

أطراف من الأندلس :

الطبيعة في شعر ابن زيدون

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ حسن جاد
المدرس بكلية اللغة العربية

لا شك في أن الشعراء الأندلسيين كانوا أفصح اللسان التي هتفت بالطبيعة ، وأعذب الأوتار التي رجعت عن شدوها ، وأشجى البلابل التي شدت بمقاتها ومجالها ، وتغنت على رباهها ومغانها . ولا بدع فالأندلس عروس البلاد ، وفتنة الوجود ، وأغنية الزمان . د طبيعة ترسل النسمات أنفاساً موسيقية تؤخذ شعراً ، وتلفظ ألحاناً . د طبيعة ، هي الشعر فلو لم تجد من تلمهه النطق بها لكانت أفصح من الشعراء . ففي رباهها المشرفة ، ووديانها المنبسطة ، وأنهارها الدافقة ، ومغانها الباسمة ، وخمائلها الجميلة ، وأدواحيها الظليلة ، وفي رفيف المروج كالأمجاد على عيونها العذاب ، والتفاف أنهارها كالأساور على معاصم المضارب ، في كل ذلك ، وفي بعض ذلك ما يفتح مغالق النفس ، ويوقظ غوافي الحس ، ويلهم الشعر ، ويخلق بالخيال .

يبد أن شعراء الطبيعة في الأندلس وغيرها يختلفون في إحساسهم بها ، ويتباينون في تصوّرهم لها ، وتصويرهم لمساهجها ومغانها ، وليس كل شاعر بالطبيعة خائفاً أن يعد من شعرائها ، ومن ثم قلّ في الشعراء من هو جدير بلقب د شاعر الطبيعة ، على كثرة الشعراء الذين تغنوا بها . فنحن نقرأ قول ابن سهل الإسرائيلي :

أنظر إلى لون الأصيل كأنه لا شك، لون مودع لفراق
وقوله :

الأرض قد لبست رداء أخضرا والطل ينثر في رباهها جوهرها
هاجت ، نفلت الزهر كافورا بها وحسبت فيها التبر مسكا أذفرا
والنهر ما بين الرياض تخاله سيفا تعاق في نجاد أخضرا
ونقرأ قول ابن عمار :

والروض كالحسنا كساه زهره وشيا ، وقلده نداه جوهرها
وقول ابن خفاجة :

وأراكة ضربت سماء فوقنا تندى وأفلاك الكؤوس تدار
وكانها وكان جدول مائها حسناء شد بخصرها زنار

فنجد كلا منهم قد فتن بمظاهر الطبيعة ، وأخذ بأحمرها وأبيضها وأصفرها
وأخضرها ، وهو لا يعدو أن يصف من الألوان والزرا كش ما قد يجد مثله
في ألوان الحلي ، ونقوش الطنافس والجدران ؛ وكأنه ينظر إلى دمية فاتنة يروقه
وجها المشرق وحسنا المفاض ، ولا يفتش عما وراء ذلك من طوية وإحساس ،
ونحن نريد أن نتجاوز هذا الجمال الحسي ، وأن نفتش عن سر آخر في الطبيعة
وراء ألوانها الخرس وتموشها الصم ، نريد أن نتجاوز تشبيه اللون باللون ، والطعم
بالطعم ، والرائحة بالرائحة ، وأن نخلق في الطبيعة الحياة ، ونمنحها الحس والشعور
حتى تخاطبنا كما نخاطبها ، وتشعر بنا كما نشعر بها ، وتعطف علينا كما نعطف عليها .
ولقد نجد من بين الشعراء من يمنحها هذه الحياة وذلك الشعور ، كما يقول
ابن سهل :

والشمس تنظر نحوه مصفرة قد شمرت ذيل الوداع لتنهضا
فيعطى الشمس حياة الإنسان ، حتى إنها لتنظر وتشعر بالوداع ، فتشمر
ذيلها للنهوض ، كما يقول ابن خفاجة في زهرة :

ومائسة تزهي وقد خلع الحيا عليها حلى حمرا وأردية خضرا

أو كما يقول :

والفجر ينظر من وراء غمامة عن مقلة كحلت بها زرقاء
والليل مشمط الذوائب كبرة خرف^١ يدب على عصا الجوزاء .

ولكن هذه الحياة وإن كانت خطوة في سبيل السمو الذى نبتغيه ، ليست كل شئ . جميل أن نعد تشبيه حمرة الورد بالخد ، والزهر بالكافور ، والنهر المتعطف بالسوار الجامد ، إلى هذه الحياة التى تدب فى الشمس والفجر والليل ، ولكن لماذا لا تشعر الطبيعة بنا وقد رزقت هذه الحياة كما شعرنا نحن بها ؟ هذه هى الخطوة الأخيرة التى نهدف إليها .

إن ابن خفاجة ، وإن كان قد تخصص فى الطبيعة ، ووقف عليها نفسه من دون شعراء عصره ، لم يخط هذه الخطوة ، فقد كانت نظراته تقود عقله إلى مظاهر الطبيعة كما يقولون ، وكانت هذه المظاهر تروح وتغدو بين نظره وعقله لا تتجاوزهما ، فكل معلوماته وآرائه من طريق النظر والتأمل فى جمال الألوان ، وتناسق الأشياء . أما نفسه فما كانت تنفعل بشئ من هذه المناظر أو تتفاعل معه ، وليس أدل على هذا من أنه كان ينظر إلى الطبيعة من جانب واحد ، هو جانب البهجة والسرور ، فجاء شعره كله ضاحكاً مغرقاً فى الضحك ، مرحاً موهلاً فى المرح .

ولم يد يدق أن صورة لحياته النفسية المملوءة بالهدوء والسرور والإعجاب بالجمال ، فنقول : هل سلمت حياته النفسية على الدوام مما يعلق بالنفوس عادة من الحب والبغض والحزن والألم ؟ ثم يبقى بعد هذا أنه لم يتفاعل مع الطبيعة على الصورة التى نريدها ، فهى لم تفرح لفرحه ، ولم تساجله البهجة والإعجاب .

أما الطبيعة التى تُسَجِّب وتُسَاجِي ، ويتم التعاطف بين الشاعر وبينها ، بما فيها من حياة وإحساس ، ونفس تخف إلى نفس ، تساجلها العطف ، وتجاذبها المودة ، فهى الطبيعة عند ابن زيدون ، ذلك الشاعر الاندلسى الذى امتزج بها كل الامتزاج ، بعد أن نفث فيها الحياة والشعور ، فأجابته وأجابها ، وأخذ منها وأخذت منه ، وعطف عليها وعظفت عليه ، حتى كانت مظاهرها مسخرة لهواه وحبه :

الهوى في طلوع تلك النجوم والمنى في هبوب ذاك النسيم
ومفسرة لآلامه ومشاعره :

يا سارى البرق غاد القصر فاسق به من كان صرف الهوى والود يسقينا
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا من لو على البعد حيا كان يحينا .
ويشتد امتزاجهما حتى يهبر عنها وتعبر عنه ، ويلبسا وتلبسه ، وتستقر
معانيها في نفسه كما تستقر معانيه في نفسها ، فيقول :

أما غرسٌ في ثرى العلياء لو أبطأت سقياك عنه لذبل
جفاءً هو الليل ادلهم ظلامه فلا كوكب للعدى في أفقه يسرى
حماهم شكوى صببتك هو ادلاء تناديك من أفنان آداب الهدل

فتجاوبه هى الأخرى وتستعير منه ، فيكون اعتلال النسيم رقة لحاله ، ويجول
روراق الندى في أعين الزهر رثاء له :

إني ذكرك بالزهرام مشتاقا والافق طلق ووجه الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله كأنما رق لى فاهتل إشفاقا
نلهو بما يستميل العين من زهر جال الندى فيه حتى مال أعتاقا
كأن أعينه إذ عاينت أرقى بكت لما بى ، فجال الدمع روراقا .

وكان كل شيء في الطبيعة يذكره بليلاء : البرق بشاياهها ، والقمر بهجياها ،
وشدو الحائم برنين عقدها :

وإني ليستهوينى البرق صبوة إلى برق ثغر، إن بدا كاد يخطف
وتذكرنى العقد المرن جمانه مرئيات وُرق في ذراياك تهتف .

وهذه صورة رائعة ترىنا الحياة في الطبيعة كما نراها في الإنسان :

بدت في لدات كزهر النجوم حسان التحلى ملاح المعطل
مشين يهادين زهر الربا يسانع زهر الصبا المقتبل
فمن قضب تتنى بريح ومن قضب تتنى بدل
ومن زهرات تندى بمسك ومن زهرات تندى بهطل .

ولولا هذا النسب الوثيق وذلك التجاوب في الاحساس بينها وبينه ، مراح
يعتب عليها في سكوتها على محنته ، وينعى عليها لأنها لم ترث حظه وتندب جاهه ومنصبه :
ألم يأن أن يبكي الغمام على مثلي ويطلب ثأرى البرق منصلت النصل
وهلا أقامت أنجم الليل مأتما لتندب في الآفاق ما ضاع من نثلي
ولو أنصفتني وهى أشكال همتي لالقت بأيدي الذل لما رأت ذلي .

وكان يرى فيمن يحب ما يراه في الطبيعة من أفانين الوشى والزهر :

باروضةً طالما أجنحت لوحظنا وردا جللاه الصبا غصناً ونسرنا
ويا حياة تملينا بزهرتها مُنى ضروباً ولذات أفانينا
ويمثل الطبيعة يجعلها الحب كما يقول في ورقة آس :

ورامشة يشقى العليل نسيمها مضمخة الانفاس طيبة النشر
أشار بها نحوى بنات منعم لاغيد مكحول المدامع بالسحر
سرت نضرة من عهدها في غصونها وعُلَّت بِمِصْرَافٍ من شمائله الزهر .
ويمثل الحب تجعله الطبيعة وترعاه :

أين أيامنا وأين ليال كرياض لبسن أفواف زهر
حين نغمدو إلى جداول زرق يتغلغلان في حدائق خضر
في هضاب مجلوة الحسن حمر وبواد مصقولة النبات عُفْر .
وقد ظفرت قرطبة من هذا التمثيل بأوفى نصيب ، حيث صور جناتها
ومعاهدها وتربها ورياحها تصويراً تمثله بالعين والنفس معا :

نهارك وضاح وليلك ضحيان وتربك مصبوح وغصنك نشوان
وأرضك تكسى حين جوك عريان ورياك روح للنفوس وريحان
وحسب الأمانى ظلك المتقياً

وكم مشهد عند العقيق وجسره قعدنا على حمر النبات وصفره
وظبي يسقينا سلافة خمسه حكى جسدى في السقم رقة خصره .

وما كان في هذا الوصف وأمثاله مفتوناً فقط بالألوان ، يؤلف بينها وبين
أشتات الحسن دون أن يكون لذلك صلة بحسه ونفسه ، وإنما تناولها على أنها

مظاهر لجمال الحب في ظلال الطبيعة ، أو لجمال الطبيعة في ظلال الحب ، ولذلك لا يذكر هذه المظاهر الحسية بألوانها وزراكتها ، إلا في معرض الذكرى والحنين لعهد مضى وزمان تقدم ؛ فبين هذه المظاهر ونفسه عهد وثيق ، وسبب ممكن ، وهذه البقطة الحسية ، تصاحبها بقطة في الشعور الباطن ، تسرى به في كل مسرى .

ولأنك لتحس هذه الصلة بين نفسه والطبيعة ، في أنه يتمثل ربيعها في نفسه ، وإن لم تقع عليه عينه ، فليس الربيع ما تبصره العين وإن بدا ، ولكن ما تحسه النفس وإن ولى ؛ وليس الربيع عنده فترة من الزمن ، أو ظواهر من الوشى والألوان ، وإنما ينفذ إلى صميمه ولبابه ، الذى لا يقاس بالأيام والفصول ، والذى تستشعره النفس ، وتفتح له بأزاهير المنى والنشوة :

أدراها فقد حسن المجلس وقد آن أن تترع الأكؤس
ولا بأس إن كان ولى الربيع إذا لم تجد فقده النفس .

وهكذا فتنت الطبيعة ابن زيدون واستولت على حسه ، واستبدت بكل نفثة من نفثاته ، وغاطر من خواطره ، حتى اصطبغ بها كل فن من فنون شعره ، كما يقول في المدح :

أغر إذا شئنا سحاب جوده تهلل وجهه واستهلت أامل
لديه رياض للسجايا أنيقة تغلغل فيها للمعطيا جداول

وكا يقول في الرثاء :

وعاهد ذاك القبر عهد غمامة إذا استعبرت في تربة ابتسم الزهر .

وكانه في هذا وأمثاله لتوثق الصلة بينه وبين الطبيعة يريد أن يعقد هذه الصلة دائماً بينها وبين الناس كما عقدها بينها وبين نفسه .

هذا هو ابن زيدون في الطبيعة وهذه هى الطبيعة في نفس ابن زيدون . ألا تشعر بأنها منجته أكثر مما منحت غيره ، وأنها كشفت له عن سرائرها وأسرارها حتى تجلت له على حقيقتها ؟

إنه كذلك وإنه لخليق من أجل هذا بقلب شاعر الطبيعة ، ؟

الإِسْلَامُ فِي وَحْدِيَّةِ وَقَعَالِيْمِهِ

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمود أحمد جميلة
المدرس بكلية اللغة العربية

الإسلام الحق عقيدة وعمل ، والعقيدة إذعان وقبول ، والعمل مظهر ظاهرى ترسم فيه العقيدة ويتحقق به الامتثال ، وهما متلازمان روح وجسم ، لا ينفك أحدهما عن الآخر ما دامت ترجى حياته ويطلب بقاؤه . والنظر فى السكون أول مبادئ الوصول متى صح النظر ، وتابعته الفكر والعبر . قل أنظروا ماذا فى السموات والارض ، أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء .

ونفسك التى بين جنبيك من أعقد ما يرنو إليه بصرك ؛ تخفيها مجهول وظاهرها مستور ، وكلما أمعنت فيها ببصرك ، وتأملت بها ببصيرتك وقفت منها على سر خفى ، ينتقل بك إلى نور جلى ، حتى تصل إلى ربك العلى . وفى أنفسكم أفلا تبصرون ،

ومن نظر عرف ، ومن عرف تيقن ، ومن تيقن آمن ، ومن آمن اهتدى ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه . ومن سلك سبيل الهداية فاض الخير على جوانبه ، فيتشكل ظاهره بمظاهر الحق ، وتتميد جوارحه بتكاليف رب العالمين . لاعصيان ولا اختراع ولا مخالفة ولا ابتداع ، فأمر الحلال والحرام بين ، وإذا ما اشتبه شيء رجعنا فيه إلى الله فى كتابه ، وإلى رسوله فى سنته ؛ ذلك خير وأحسن تأويلا .

ومن يمعن النظر فى الوجود ، ويتأمل به بقلب بصير ، يرى فى الإسلام ديناً يحلّى الظلمات ، ويقطع الثمرات ويدفع الشبهات ، وينشر الحق ويهتدى إلى سواء السبيل ، لا إفراط ولا تفريط ولا ظاهر منقطعاً عن باطن ، ولا باطن منفرداً عن ظاهر ،

ولأنما هو دين واحد لرب واحد ، نزل على نبي واحد ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المؤمنين بلسان عربي مبين .

فدعوة الإسلام ناصعة بيّنة ، وتعاليمه واضحة خالدة ، فهو نور الله القوي بعث به رسوله الأمين ، ليبدد غياهب الجهل ، ويكشف عن سوءات الظلم ، ويمحو آثام الشرك ، ويحقق للإنسان ما هو جدير به من كمال ، فيحرر رقبته من ربة العبودية الزائفة ، ويظهر كرامته بإخلاص الدين لمن خلقه وفضله على كثير من خلق تفضيلا .

لعمد نزلت بالإنسان وسأوسه وأوهامه إلى الدرك الأسفل ؛ فتتردى في الهاوية واتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ، فأصممه عن سماع الحق وأعمى بصره عن رؤية آياته ، فنحت الحجر بيده وعبدته ، وأوقد النار وقصدها بدعائه ، وبنى بيده ما يطوف به . ويقم فيه يترقب قضاء الحوائج ، وانفراج الصعاب أو يضلل به خلق الله ؛ فيبتز أموالهم بغير حق ملغيا عقله مذلا لإنسانيته ، مهذرا فطرته متجاوزا حدوده ، لم يتأدب مع مبدعه وخالقه ، أفن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون .

فهذا الدين الذي جاء به محمد بن عبد الله ، أو هذا النور الذي حمل مشعله النبي العربي الذي حاول ويحاول كثير من صارحوه العداء وهم أهون عليه ، أو ممن شايعوه نهارا وكفروا به ليلا وهم أشد قسوة وأكبر خطرا — أن يغضوا من شأنه ويقللوا من قيمته بما ينوعون من أساليب ، ويفيضون من أحاديث ، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

بلغ الرسول دعوته كما تلقاها عن ربه لا مبتدعا ولا مختلعا ، ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين .

بلغنا الصادق الحق عن الحق بلاغا عاما لا انتقار فيه ولا اختصاص ، يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ، فدهوته عامة ، ورسالته عامة ، وكل مكلف بلغته عليه أن يتعرفها من مظانها متى استطاع السبيل إلى ذلك ، لأنه مدعو بها وماخوذ فيها ومحاسب عليها .

ففاطمة بنت محمد سيد خلق الله ، وأفضل خلق الله على جلة قدرها ، وقوة إيمانها ومنزلتها . يقول لها أبوها : « لا أغنى عنك من الله شيئا » ، ويقول في جموع حاشدة من البدو والحضر والاحرار والعبيد ، والرؤساء والمرءوسين والانصار المهاجرين ، - والعصية الجائعة لازالت حرارتها في قلوب القوم - : « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » ، كلفة هدت من كبرياتهم فبددت الظنون ، وقضت على الاوهام وقطعت الشكوك ، ووحدت الامر وأجهزت على الباطيل والخرافات ، وردت أمر العباد إلى بارئها . فله الدين الخالص وفي كتابه دستور الأمة ، وفي سنة نبهه بيان لمراميه وشرح لمعانيه . إنا نحن نزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم .

فالإسلام المنجى من عذاب الله ، توحيد لا يشوبه شرك لا في مظهره ولا في مخبره ، وإيمان بما أنزل الله من كتاب وأرسل من رسول ، وتصديق بالملائكة والبعث ، وبما وراء ذلك من اتباع للأمر واجتناب للنهى .

وقد وحد الإسلام في خطابة بين المكلفين ، فلا سيد ولا مسود ، ولا تابع ولا متبوع ، وليس لسكائن من كان أن يدعى لنفسه منزلة دينية من ربه ، تمكنه من التصرف في عباد الله بغير ما أنزل الله ، فيحل لهم أو يحرم ، أو يجلب النفع أو يدفع أو ينزل السوء أو يكشف « ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا » .

وايس في الإسلام أسرار ثورتها الآباء للأبناء ، والشيوخ للأتباع ، وإنما سر الإسلام يواتيك متى تابعت نبيك ، وأخلصت قصدك ، وطهرت قلبك ، وراقبت ربك ، فيتجلى عليك ويتولاك ، وهو يتولى الصالحين . فالدين كله لله ومبلغه خاتم رسل الله ، والناس أمام الدعوة سواسية ، لا قريب ولا بعيد ، ولا عالم ولا جاهل ، والتفاوت إنما هو في فهم ما اشتبه من الأمور ، وأشكل من الحوادث وهذه وظيفة العلماء من هذه الأمة ، أما يعلم ضرورة من الدين : كتوحيد الخالق وتصديق الرسل ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت ، وتحريم الربا والزنا والقمار والغيبة ، وقطع الرحم وايداء الجار إلى غير ذلك مما يتساوى المسلمون

في معرفته — فهم مخاطبون بالدعوة إليه ومطالبون بالمحافظة عليه ، كستم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر .

فالدعوة لهذه الأمور عامة من الناس وإلى الناس ، فلا يعرف الإسلام جماعة تحتكر تعاليمه أو تحتبس قوانينه ، أو تتحكم في أصوله ، فتبدل وتغير طبقاً لاهوائها وشهواتها ، وإنما يعرف الإسلام ، وما آتاكم الرسول ثباته ، وما نهاكم عنه فانتهوا .

هذه تعاليم الإسلام نقية طاهرة بعيدة عن المذنسات والمخطئات ، كل ما فيها بر وإصلاح ، واستقامة وإنصاف ، قد حفظ بما شرع من أصول تثبت دعائم الحق ، وتزلزل أقدام الباطل للفرد كيانه وللجموع وجوده .

وها هو ذا الإسلام يجمعنا تحت لواء واحد ، ويدعونا إلى مقصد واحد ، لا يعترف بفروق جنسية أو حدود أقليمية ، وإنما جعل أرض المسلمين وطناً للمسلمين ، يذبون عنها كل مغتصب ، ويصدون عنها كل طامع .

وها هو ذا الإسلام يناهض من أعداء عديدين ، يقفون له بالمرصاد ، ويختلفون فيما بينهم على كل شيء ، ويتفقون على السكيد له ، يودون بمجدع الأنف أن تمحي رقعة من الوجود ، وأن تطمس خريطته من العالم ، وليس للمسلمين خلاص إلا بتوحيد جهادهم وجهودهم ، وتمسكهم بعروة دينهم ؛ فلا يتخذوا من خصوم الله وخصومهم أولياء يلقون إليهم بالمودة ، ولا يمكنوا للدخلاء مهما جودوا الطلاء وأحسنوا العرض ، فإن ما وصلنا إليه من مهانة ولحقنا من بوار ، كان بتفريطنا في صلاتنا ، وتساهلنا في روابطنا ومقوماتنا ، ولا أبخس في الحياة من ضيع دينه ودنياه ، فلم يصب بهرج المترفين ولا نعيم المتقين .

الإيلاء

مثل من احترام الإيلاء للمرأة

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ منصور رجب
المدرس بكلية أصول الدين

الشرعة الإسلامية تحترم المرأة ، وتحميها من ظلم الرجل ، ومن مظاهر ذلك أن أزالته أو أمرت بإزالة عادة مذمومة ركبتها العرب ، ومشوا عليها حتى جاء الإسلام ؛ ذلك أن بعض العرب كان يتزوج المرأة ، ثم هو لا يحب أن تبقى له زوجة ، ولا هو يحب أن يتزوجها غيره . فساذا يصنع ؟ يحلف ألا يقربها ، ويبقيها عنده في الضرر ، ويتركها على ذلك . فلما جاء الإسلام أمهل من يحلف على زوجته ألا يقربها ، أمهله أربعة أشهر يتروى فيها ، ويتأمل ، فإن رأى المصلحة في ترك هذه المضارة يرجع إلى زوجته وهي امرأته ، وإن رأى المصلحة في مفارقتها ، يفارقها لتتزوج غيره إن شاءت ؛ ولذلك يقول الكتاب العزيز : « الذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ، فأن فاموا فإن الله غفور رحيم ، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم » .

ومدلول الإيلاء في اللغة : الحلف . يقال : آلى يؤلى إيلاء ، وهو والقسم ، واليمين ، والحلف كلها بمعنى ، والتربص : الانتظار يقال : تربص بفلان انتظر به خيراً أو شراً يحل به ، والغيثم : الرجوع . يقال : فاء المولى من امرأته : كفر عن يمينه ورجع إليها . وعزم الطلاق . فسرّه ابن عباس : بانقضاء الأربعة الأشهر .

والإيلاء في عرف الشرع هو الحلف على الامتناع من وطء الزوجة مطلقاً ، أو مدة تزيد على أربعة أشهر . وكان الإيلاء طلاقاً في الجاهلية فغير الشرع حكمه . ولكن هل كان طلاقاً في الجاهلية يبيح للمرأة أن تتزوج ؟ يقول سعيد بن المسيب : « كان الرجل الذي لا يريد المرأة ، ولا يحب أن يتزوجها غيره ؛ يحلف ألا يقربها ، وكان يتركها بذلك لا أيماً ولا ذات بعل ، وهذا القول صريح في أن المولى منها

كانت ترك كالمعلقة . هذه عادة من عادات العرب ، كان الغرض منها مضارة المرأة ، ومكثت المرأة ثن من هذه العادة الممقوتة ؛ حتى جاء الإسلام بإزائنته فأنصفها ، ورفع عنها الظلم الذي كانت تلقاه من عنيت الرجل وقسوته . وها هنا أبحاث :

أولا : إذا حنث الرجل في يمينه ورجع إلى امرأته هل عليه كفارة أولا ؟

يرى بعض الفقهاء أن هذا اليمين وأمثاله لا كفارة له ؛ بل كفارته نفس الحنث فيه . والقاعدة عندهم : « أن كل حانث في يمين في المقام عليها ضرر لا كفارة عليه في حنثه فيها ، بل كفارته نفس الحنث فيها » وهؤلاء يفسرون غفران الله في الآية بغفران الكفارة . ويسندون هذا الرأي للحسن رضى الله عنه فإنه كان يقول : إذا فاه فلا كفارة عليه .

ويقول آخرون : إذا فاه المولى فعليته الكفارة . ويروون عن ابن عباس قوله : للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر هو الرجل يحلف لامرأته بالله لا ينكحها ، فيتربص أربعة أشهر ، فإن هونكحها كفر يمينه بإطعام عشرة مساكين ، أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام . ويروى أيضا أن سعيد ابن المسيب كان يرى هذا الرأي . وهؤلاء يقولون غفران الله بأسقاط العقوبة في العاجل والآجل .

ثانيا : هل يقع الطلاق بنفسه بمضى الأجل الذى ضرب به الإسلام وهو انقضاء الأربعة الأشهر ؟ أو انقضاؤها يعطى المرأة فقط حق أن تطالب زوجها بالقيمة ، أو الطلاق ؛ فإن امتنع الزوج منهما طلق عليه القاضى ؟

بالأول قال أبو حنيفة . والذين يرون أن الطلاق يقع بنفسه يقولون : إن قول الله تعالى « فإن فاموا فإن الله غفور رحيم » هو تفصيل للحكم المتقدم كما تقول : أنا نزيلكم هذا الشهر ، فإن حمدتكم أقمت عندكم إلى آخره ، وإلا لم أقم ولم أتحول . وأيضا يقولون : إن الإيلاء طلاق في نفسه . فالطلاق إشارة إليه . وأيضا الغالب أن العازم للطلاق ، والضرار ، وترك القيمة لا يخلو من حديث نفس ، وذلك هو الذى يسمعه الله كما يسمع وسوسة الشيطان « فإن الله سميع عليم » .

وبالثانى — وهو أن الطلاق لا يقع بنفسه — قال الشافعى ، والذين يرون

هذا الرأي يقولون : إن الفاء في قوله : « فإن فاءوا » تقتضى كون ما بعدها من حكمي الفیئة والطلاق مشروعاً متراحياً عن انقضاء الأربعة الأشهر ، وأيضاً قول الله تعالى : « وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم » صريح في أن وقوع الطلاق إنما يكون بإيقاع الزوج ، وفي أن الزوج لا بد أن يصدر عنه شيء يكون مسموعاً ، وما ذاك إلا إيقاع الطلاق .

ثالثاً : هل الطلاق الذي يلحق المرأة بمضى هذا الأجل هو تطليقة واحدة بائنة تملك المرأة به نفسها ؟ أو هو طلاق رجعي يملك الزوج فيها الرجعة ؟ وهل لها على كلا الرأيين عدة ؟

أما العدة فحل اتفاق ، وأما نوع الطلاق فحل خلاف . يرى قوم أنه طلاق بائن تملك المرأة به نفسها ، ويستند هؤلاء إلى ما يروى عن عبد الله بن أنيس « أراد من أهله ما يريد الرجل من أهله فأبى ، فحلف ألا يقربها ، فطراً على الناس بعث من الغد فخرج فغاب ستة أشهر ، ثم قدم فأتى أهله ما يرى أن عليه بأساً ، فخرج إلى القوم فحدثهم بسخطه على أهله حيث خرج ، وبرضاه عنهم حين قدم . فقال القوم : فإنها قد حرمت عليك . فأتى ابن مسعود فسأله عن ذلك : فقال ابن مسعود : أما علمت أنها حرمت عليك ؟ قال : لا . قال : فانطلق فاستأذن عليها ، فإنها ستسكر ذلك ، ثم أخبرها أن يمينك التي كنت حلفت عليها صارت طلاقاً ، وأخبرها أنها واحدة ، وأنها أملك بنفسها . فإن شامت خطبتها ، فكانت عندك على ثنتين . وإلا فهي أملك بنفسها .

ويروى عن ابن عباس أيضاً مثل هذا الرأي ، وقبيصة بن ذؤيب أيضاً كان يقول : هي تطليقة واحدة بائنة ، وتأنتف العدة وهي أملك بأمرها .

وإذا كان ابن عباس ، وابن مسعود ، وقبيصة بن ذؤيب ممن يرون هذا الرأي ؛ فيروى عن أبي يونس السقوى أن سعيد بن المسيب قال له : ممن أنت ؟ قال : من أهل العراق . قال : لعلك ممن يقول : إذا مضت أربعة أشهر فقد بان ؟ لا ، ولو مضت أربع سنين ، ويروى أيضاً عن غيره أنه كان يقول : إذا مضت الأربعة الأشهر فهي تطليقة ، وتستقبل عدتها وزوجها أحق برجعتهما .

رابعا : هل يشترط في الإيلاء أن يقع في حال غضب أو لا ؟

يشترط بعض الفقهاء في الإيلاء أن يقع في حال غضب ، وسندهم في ذلك ما يروى عن رجل توفي أخوه وترك ابنا له صغيرا ، فقال لامراته : أرضعيه ، فقالت : إني أخشى أن تغيلهما - الغسيل : اللبن ترضعه المرأة ولدها وهي قوتى ، أو وهي حامل . وفي الحديث لقد هممت أن أنهى عن الغيلة - خلف ألا يقربها حتى تطفمهما ، ففعل حتى طفمتهما ، فخرج ابن أخى عطية إلى المجلس فقالوا : لحسن ماغذى أبو عطية ابن أخيه . قال : كلا زعمت أم عطية أنى أغيلهما ، خلفت ألا أقربها حتى تطفمهما ، فقالوا له : قد حرمت عليك امرأتك . فذكرت ذلك لعلى رضى الله عنه . فقال على : إنما أردت الخير وإنما الإيلاء في الغضب . وفي رواية أخرى يقول على رضى الله عنه : الإيلاء ما أريد به الإيلاء . ويروون عن ابن عباس قوله : لا إيلا إلا بغضب .

ويقول آخرون : كل يمين حلف بها الرجل في مساواة امرأته فهي إيلاء منها على الجماع ، حلف أو غيره في رضا حلف أو سخط . وحجتهم عموم الآية ، وأن الله تعالى ذكره لم يخص من قوله : « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر » بعضا دون بعض ؛ بل عم به كل مول ومقسم .

وعلى كل فالإسلام نصير المرأة ، اعتبرها كأننا بشريا لاشيئا من الاشياء ، كما كانت تعتبرها الشرائع الأخرى . كانت تقتل خشية الإملاق ، وكانت لا ترث ؛ بل كانت تورث هي كما يورث المتاع ، فأعطاها حق الحياة وحق الملك ، وعاملها على أنها كائن عاقل رشيد . وإذا كنا نرى اليوم من يضار المرأة ويتفنن في إيذائها ، ويخرجه غضبه عن طوره ، فيهجر امرأته مدة قد تطول أو تقصر ، فقد رأينا حكم الشريعة الإسلامية في أن ضربت لذلك أجلا إذا تخطيناها وقعنا في الحرج والإثم ، وإذا كان الإيلاء مثلا من احترام الإسلام للمرأة ، فغيره في شرعة الإسلام كثير وكثير .

العقيدة الإسلامية

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ بدر المتولى عبد الباسط
المدرس بكلية الشريعة

قال رسول الله عليه وسلم: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه». الثندين فطرة فطر الله الناس عليها، فابن الغابة وابن المدينة وابن البادية وابن الحاضرة، كل أولئك ينشأون على اعتقاد أن هناك قدرة قوية تدير هذا العالم، وتدبر أموره، وتنظم شئونه، قوى يلتصقها الإنسان فيما حوله من الكائنات، فأما قصار النظر فوقفوا عند المحسوس، أو اطمأنوا إلى ما عليه الآباء والجدود، وأما أولئك الذين أنار الله بصائرهم فلم يقفوا عند حدود المراتب، بل تغلغلوا بعقولهم إلى ما وراء ذلك حتى وصلوا إلى الحق، وقد صور الله سبحانه حيرة الإنسان في طريق وصوله إلى الحق، بما ذكره في قصة إبراهيم عليه السلام، حينما كان يحاور قومه ليرشدهم إلى الإله الحق على طريقة الاستقراء المعروفة عند المربين، قال سبحانه: «فلما جن عليه الليل رأى كوكبا، قال هذا ربي، فلما أفل قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي، فلما أفل قال لئن لم يهدينى ربى لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت، قال يا قوم إني برىء مما تشركون، إني وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين».

ولما كان أكثر الناس لا يؤمنون إلا بالمحسوس، ويكفرون بما وراءه، وجدنا منهم من عبّد الجباد والحجر، وقدّس الحيوان والشجر، وسجد للشمس والقمر، بل إن بعضا من الناس ألغى عقله، فصنع الحجر بيده ثم خر له ساجدا، وقرب إليه القرابين، وتزلف إليه بجميع أنواع الزلنى، وما ذلك إلا لافتنانه بالمحسوس أو انقياده إلى التقليد الاعشى.

لهذا لم يدع الله الناس إلى عقولهم فحسب ، لأنه كثيراً ما تغطي عليها الأهواء وتعميها ظروف البيئة ؛ بل أرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين لكي لا يكون للناس على الله حجة ، وكانت المهمة الأولى للأنبياء والمرسلين ومن على طريقهم من العلماء والمرشدين : هي إصلاح مافى عقائد الناس من خطأ ، وإرشاد العقول إلى طريق الحق والصواب ، وإرجاع الناس إلى فطرتهم السليمة التي أفسدتها البيئة ، وطلعت عليها الأهواء . شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، ، إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، فحمد صلى الله عليه وسلم أرسله الله على حين فتره من الرسل ، طمست فيها الشرائع ، وبدلت فيها العقائد ، واحتكر الدين قوم أغلقوا على أنفسهم الصوامع والبيع ، وباعدوا بينهم وبين الناس ، فجاء محمد صلى الله عليه وسلم ، فجدد ما اندرس من هذه الشرائع ، وأرشد الناس إلى العقيدة الصحيحة ، وجعل العلم حقاً مشاعاً للجميع ، فرض تعالى على كل مسلم ومسلمة ، وأطلق العقول من قيودها ، وأيقظ الأفكار من سباتها ، وهياً الإنسانية لحياة حرة كريمة .

وليس الدين الذي جاء به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم كلمة تقال ، أو حركات ورسوم ، وإنما هو عقيدة صحيحة متغلغلة في سويداء القلوب ، متسلطة على الجوارح والأعضاء ، فدينه عقيدة تؤيدها الأقوال والأفعال .

والعقيدة هي الأساس لهذا الدين فهما اتصف الإنسان بكريم الخلال ، أو قدم من صالح الأعمال من غير أن يكون صحيح العقيدة ثابت اليقين ، يكن كن يبنى على شفا جرف هار ، فانهار به في نار جهنم .

« مثل الذين كفروا أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، لا يقدرُونَ مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد ، .

« والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ، يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب ، أو كظلمات في

بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ؛ حتى إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

إذا كان هذا هو شأن العقيدة فى الدين ، فلا عجب أن كان تصحيح العقائد أول مهام الأنبياء والمرسلين ، وخلفائهم من العلماء العاملين . ولا عذر لأحد فى الجهل بأصول دينه مع توفر أسباب العلم ، وكثرة وسائله ؛ فواجبك الأول أيها المسلم والمسلمة أن تنظر فى عقيدتك ، وترى أهى صحيحة أم فاسدة . والعقيدة الإسلامية لا التواء فيها ولا غموض ، ولا لبس فيها ولا تعقيد ، بل هى فطرتك التى فطر الله الناس عليها ، ليس فيها تعاليم سرية ، لا تلقن إلا من وراء الحجب والاستتار ؛ بل هى واضحة المعالم نيرة الطرق ، متفقة مع العقول السليمة والبصائر النيرة .

وأساس هذه العقيدة هو الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر ، ومعنى إيمانك بالله تعالى أن يعتقد قلبك اعتقاداً جازماً لا شك فيه ، أن لهذا العالم إلهاً ليس كمثل شئ ، واحداً فى ذاته وصفاته وأفعاله ، قادراً مريداً سميعاً بصيراً متصفاً بكل صفات الكمال ، منزها عن كل صفات النقصان ، وأن كل من سواه مفتقر إليه فى كل أموره وأنه غنى عن كل ما هداه ... والإيمان بالله على هذا الوجه هو النور الذى يهدى الناس إلى سبيل السعادة فى الدنيا والآخرة ، وهو رأس كل خير وأساس كل فضل ، وعصمة للإنسان عند الرخاء ، وعدة له عند البلاء ، ومن حرم الإيمان بالله تعالى ، فهو فى ظلمات بعضها فوق بعض : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ، كأنما يصعد فى السماء ؛ كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » .

وإذا كان هذا هو شأن الإيمان بالله تعالى بالنسبة إلى الأفراد ، فهو للآمم حماية لها من الأفكار الهدامة والنزعات المتطرفة ، وسياس لها من فساد الأخلاق ، فكل أمة فشا فيها الإلحاد والكفر بالله ، تحللت أخلاقها ، وتفرقت كلمتها بتفرق أهوائها ، فكل آرائها تكون صادرة عن الهوى والغرض ، وما أكثر الأهواء والأغراض !! لهذا كان الإيمان بالله تعالى رأس الأديان السماوية كلها .

ولقد أقام الله البراهين القطعية على وجوده ووحدانيته ، واتصافه بكل كمال وتنزهه عن كل نقص ، ولا أقول لك التمس هذه الأدلة من كتب الفلاسفة والمتكلمين ، ولكن أقول لك التمسها من كتاب هذا الكون البديع . فكل ما تراه عينك ، أو تسمعه أذنك أو تلمسه يدك ، أو يذوقه فمك أو يشمه أنفك دليل على الإله القادر الحكيم .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وليبدأ الإنسان بالنظر إلى نفسه ، وما أودع فيه من قوى ظاهرة وباطنة ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ، ، ثم لينظر نظرة أخرى إلى ما حوله من كائنات علوية وسفلية ، فإنه مع تباين أجناسها ، وتعدد أنواعها ، واختلاف أشكالها وألوانها ، وخصائصها وميزاتها ، تجدها كلها مرتبطة بأوثق رباط ، وأحكم الصلات ، فتجد الأرض مرتبطة بالسماء ، والسماء مرتبطة بالأرض ، والهواء مرتبطاً بالماء ، والماء مرتبطاً بالهواء ، والحيوان مرتبطاً بالنبات ، والنبات مرتبطاً بالحيوان ، والكل مسخر للإنسان : « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شيء . . . فهل يكون كل ذلك عن طريق المصادفة البحتة ، مع هذا الإتقان والإحكام ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم ! ثم إن كان كل شيء قد وجد بطبيعته ، فمن الذى ربطه بين أنواع الموجودات ؟ ومن الذى خالف بين أفراد النوع الواحد مع اتحاد الأسباب والمؤثرات ؟ هل تقذف الطبيعة إلى الوجود إلا شكلاً واحداً للنوع الواحد ، كآلة لا تقذف إلا نموذجاً واحداً ، لما تخرجه من المصنوعات ، أفلا يدل ذلك كله على الصانع الحكيم ، الذى يدبر شئون هذا العالم وينظم أموره : « ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ، « وفي الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان ، وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل : إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، .

فهذا الكون ما هو إلا سفر كله آيات على صحة عقيدتك أيها المسلم والمسلمة فى الله تعالى فلا تلتبس فى سواء دليلاً .

وكلما تقدم العلم وتيسرت وسائله ، تسكفت لنا أدلة جديدة تؤيد هذه العقيدة .
 سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، فهذه هي الذرة
 قد انكشفت لنا شيء من سرها . من الذي أودع فيها تلك القوة الجبارة ، وجعل
 كل ذرة مع صغر حجمها وتفاهة شأنها ، مثل مجموعة شمسية في كواكبها وأفلاكها ؟
 فليتقدم العلم ما شاء له الإنسان أن يتقدم ، فلن يكون إلا حجة للدين ، وبرهاناً على
 وجود رب العالمين .

لعل أحداً من المسلمين الآن لا يشك في وجود الله تعالى ، اللهم إلا أن تكون
 طبيعته قد فسدت وبصيرته قد عميت ، وهؤلاء قد خلعوا ربقة الإسلام من أعناقهم ،
 وليس إنكارهم عن حجة أو شبه حجة ؛ ولكن عن مرض في نفوسهم .

وقد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم
 وأمثال هؤلاء قد وجدوا في كل أمة ، وفي كل زمان كمكروبات الأمراض
 المختلفة متى وجدت البيئة التي تناسبها ، فتسكت بالناس فتسكنها الذريع ؛ لكنها
 لا تؤثر في من عنده مناعة في بنيه . فلنحرم عقولنا وعقول أبنائنا من سموم هذه
 لمكروبات البشرية .

وإذا كان مما يُسر له أن أكثر المسلمين صحيحوا العقيدة في الله تعالى ،
 إلا أنه مما يؤسف له أن أكثرهم لا تظهر عليهم آثار هذه العقيدة ، فبينما
 نراهم يعتقدون بأن الله وحده هو الرزاق ذو القوة المتين ، إذا بك ترى كثيراً
 منهم يلتمسون الرزق من غيره ويطلبونه من سواه . وبينما يعتقدون أنه وحده
 هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، إذا بهم يضربون في الشدة
 إلى غيره ، ويلتمسون كشف الضر من سواه ، وبينما يعتقدون بأنه سبحانه حكيم
 في أفعاله وأحكامه نراهم إذا نزلت بهم نازلة سخطوا وجزعوا ، وإذا نهاهم عن منكر
 أو أمرهم بمعروف لم يمتثلوا ؛ بل منهم من يرى الحكمة في غير ما حكم الله ، وهؤلاء
 لاحظ لهم من الإسلام إلا أن يتسموا بأسماء المسلمين ، ويدفون في قبور المسلمين ،
 والعقيدة مالم يكن لها سلطان في القلوب كانت فكرة مجردة ، وشتان بين العقيدة
 والفكرة . ونعوذ بالله من فكر بلا عمل ، كما نعوذ به من عمل على جهل .

أدب الجوار

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم أبو سعيد

جعل الله الحياة متشابكة المصالح متعددة المنافع ، متشعبة النواحي ، لا يستطيع النهوض بها فرد ، ولا القيام بأعبائها لإنسان ، مهما أوتي من قوة العزم ، وشجاعة الجسم ، وسعة الحيلة ونفاذ البصيرة . وهل يستطيع شخص أن يقوم بشئون حياته وحده ، ونحن نشاهد ، ونبصر بعيوننا تعدد مشاكلها ، وقسوة مطالبها ، وشدة متاعها ، وكلما انتهى المرء من علاج أمر فيها ، راعه وأزعجه أمر آخر ، لا قبل له به ، ولا طاقة له عليه ، ولا حيلة إلا أن يقف عاجزا حائرا مضطربا .

هذه الحياة المعقدة المتشابكة ، لا يسهل على الإنسان شدتها ، ولا يلين له قسوتها إلا تعاونه مع غيره تعاوناً يسوده الإخلاص ، وتزينه مراقبة الله عز وجل ، واتفاقه مع سواء من بنى جنسه ، اتفاقاً أساسه شرف النفس ، ورقة الحس ، وخلوص القلب ، ونقاء الضمير ، وصفاء السريرة ، والبعد عما حرم الله .

ألا وإن أعظم مظاهر التعاون والتساند ، ما يكون بين الجار وجاره من حسن التألف ، وصدق الترابط ، وتوثق الإخاء ، وإحكام روابط الالفة ، ووشائج المودة .

جارك أقرب الناس إليك ، وأسمعهم لصيحتك ، وأسعفهم لنصرتك ، يسعفك وقت الشدة ، ويخف إليك حين النازلة ، يحاول أن يخفف عنك من الكرب ، ويسر عليك ما نزل من النوب ، بما يئذل من مساعدة سريعة ومعونة عاجلة ، يحتاجه المرء في أشد ساعات الليل ظلاماً وأكثرها حلكة ؛ فلا يعز عليه طلبه ، ولا يعسر عليه حضوره ، فالحاجة إليه شديدة ملحة ، وعشرته طويلة مستديمة .

من هنا جاء الإسلام بآداب وتعاليم تؤكد الروابط ، وتحكم الصلات ،

وتقوى الآلفة، والمحبة بين الجار وجاره، أمر الدين بحسن الجوار، وحث عليه حثاً قوياً مؤكداً؛ ليقوم النفع والانتفاع، والتعاون بين الجيرة على أساس متين من الحب، وصدق المودة، ودعا دعوة جازمة صريحة إلى بذل الخير للجار، وكف الأذى عنه، قال تعالى: «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وبالوالدين إحساناً، وبذي القربى واليتامى والمساكين، والجار ذي القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب وابن السبيل، وما ملكت أيمانكم، إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً».

وكان الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم شديد العناية بالجار، كثير العطف عليه والوصية به، يبذل لجاره من خالص ماله، ومن إخلاص قلبه، وسماحة نفسه ومن عاطفته وحبه، ما يطاق الآلسنة بالدعاء والشكر، ويفعم الأفئدة بالثناء والحمد، ويغرس في أطواء القلوب أعماق الحب، وأصدق المودة، وكان صلى الله عليه وسلم لا يفتأ يقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار؛ حتى ظننت أنه سيورثه»، والمعنى يلحقه بالعقوبة القريبة التي يؤول إليها مال الإنسان وما يملكه بعد حياته.

فهل بعد هذا احترام لصلات الجوار، وتمديد لروابطه؟ وهل بعد هذا حث على أن تقوم العلاقات، وتنض الصلات بين الجيران على أقوى دعائم الآلفة والمودة؟ ليشعر الجار أنه حين يخدم جاره، ويبذل له عونه ونصرته إنما يخدم نفسه، ويمسح إلى شخصه، وأنه يدخر لنفسه عند الله ثواباً وفيراً، وأجرًا كبيراً.

إن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «جار له حق واحد، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق. فالجار الذي له ثلاثة حقوق. الجار المسلم ذوالرحم، فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم، وأما الجار الذي له حقان، فالجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام، والذي له حق واحد الجار المشرك».

فالإسلام بأسمى تعاليمه، وأروع آدابه، يحترم الجار ولو كان مشركاً؛ فإن له حق الجوار، وهو الإحسان في المعاملة، وكف الأذى عنه، وتقديم الخير له.

أليس مما يوجب أشد الأسف ، وأمض الحزن ، وأحر اللوعة ، ما نراه شائعاً الآن بين الجيرة من تدابر ، وما نلحظه في صفوفهم من تنافر ، وما ينشأ بينهم من خصومات ومنازعات ، لا تقف عند حد ، ولا تنتهي إلى نهاية ، وبدلاً من أن يدعوا الجوار إلى الاتحاد والوئام ، كان سبب التحاسد والخصام ، ومدعاة المنافسات الحاقدة ، والمكائد الآثمة ، والاعتداءات الظالمة .

أول ما يجرب الإنسان شروره يجربها بين جيرانه ، وأول شرارة تنبعث من آثامه إنما تنقض عليهم ، فهو ينتهز فرصة الجوار ؛ ليتنكح الحرمان ، وينشأ الأعراض ، ويسلب الحقوق ، ويكشف العورات ؛ كما تفعل أشد الحيوانات شراسة ، وأقبحها وحشية ، يعتمد عليه إن كان قوياً عنه ، ويستعبد ويستبدله إن كان ضعيفاً لا يستطيع الثبات أمامه ، وما دام يستطيع الإفلات من يد القانون ، والحرب من وجه العدالة ، فليكثر الإيذاء ، ولتتعدد الشرور إلى حد لا يقره شرف ، ولا يرضاه دين ، ولا تستسيغه رجولة .

فهل عند هؤلاء ذرة من الإيمان الصحيح ؟ وهل هندهم لحظة من مراقبة جبار الأرض والسموات ؟ .

هذا هو منطق الإسلام ، صريح لا غموض فيه ، مستقيم لا هوج فيه ولا التواء ، وقد دفعهم بقارعتة ، وسلبهم الإيمان الذي يملأ القلب نوراً ، والنفوس رحمة .

يقول صلى الله عليه وسلم : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ! قيل من يا رسول الله ؟ قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه . قالوا : وما بوائقه ؟ قال : شره وظلمه . » .

فهل بعد هذا صراحة في سلب الإيمان عن شخص لا يكف شروره ، ولا يمنع ظلمه عن جيرانه .

ولكن لا يعتبر بهذا ، ولا ينصت إليه هؤلاء الذين تسلطت عليهم شرورهم ، وامتلكتهم شياطينهم ؛ فأخذوا يمتطرون جيرانهم وأبلا من عدوانهم وإساءتهم .

ألا ما أروع أدب الاسلام، وما ألمع حكمة النبوة الخالدة، وأجل تصوير الرسول صلى الله عليه وسلم لحق الجار، وشدة عنايته بحمايته! لقد قال صلى الله عليه وسلم يوماً لأصحابه: «ما تقولون في الزنا؟ قالوا: حرام حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة. فقال صلى الله عليه وسلم: لأن يزني الرجل بعشر نساء أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره! فما تقولون في السرقة؟ قالوا: حرام حرمها الله ورسوله فهي حرام. قال صلى الله عليه وسلم: لأن يسرق الرجل من عشر أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره!»،

فهل يتدبر هذا من يتغافلون عن هذه الآداب، ويغمضون عيونهم عن تلك التعاليم؟ وهل يتعقل أولئك الذين يدعون نفوسهم تستجيب لأهوائها، وتخضع لنزواتها، وتضعف أمام أحقادها؛ فيشتد التناكر بينهم وبين جيرانهم، من أجل ذلك تفسد الروابط، وتنفصم العلاقات، انفصاماً تاماً لا ارتباط بعده! يقترب الواحد منهم من أخيه وجاره، ويسمع صوته بل همسه، ويشاهد من أحواله ما لا يطلع عليه إلا أقرب الناس إليه، وأمسهم به رحماً؛ فإذا تقابلت الوجوه، تبادرت القطيعة، وتنافرت الالفة، وغابت المودة، ولوى كل وجهه؛ فلا سلام ولا تحية، ولا تعارف ولا اتصال، ولا زيارة في صحة، ولا عيادة في مرض.

أليس كل عاقل يدرك أن هذا ضعف في الخلق، ونقص في الرجولة، وجهل بآداب الدين والاجتماع، لقد انعكست الأوضاع، وانقلبت الأمور، فأصبح الجوار وسيلة إلى الإيذاء، وسبيلاً إلى الشر، ومدعاة إلى العدوان والظلم، وهاهى دور المحاكم والقضاء شاهدة على ظلم الإنسان لجاره الإنسان، مع أن نبي الإنسانية صلى الله عليه وسلم كان يقول: «يا أبا ذر لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق، وإذا اشتريت لحماً، أو طبخت قدراً؛ فأكثر مرقة واغرف لجارك منه».

ويجعل النبي الكريم شهادة الجار في جاره مقياساً لما هو عليه من خير أو شر وصلاح أو فساد؛ سأل رجل فقال: يا رسول الله كيف لى أن أعلم إذا

أنا أحسنت أو أسأت ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « إذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت ، وإذا سمعهم يقولون قد أسأت فقد أسأت » .

وهل فى أى شرع من الشرائع ، أو أى دستور من الدساتير ، دعوة إلى تقديس الجار وحمايته ، واحترامه والإحسان إليه ، مثل هذه الدعوة الكريمة التى جاء بها الإسلام على لسان رسوله العظيم ؟

يقول صلوات الله عليه : « أتدرون ما حق الجار ؟ إن استعان بك أهنته ، وإن استنصرك نصرته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن افتقر عدت عليه ، وإن مرض عدته ، وإن مات تبعته جنازته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيتة ، ولا تستظل عليه بالبناء ؛ فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، وإذا اشتريت فاكهة فأهد له ، فإن لم تفعل فادخلها سرا ، ولا يخرج بها ولدك ؛ ليغيظ بها ولده » .

هذا هو الدين الحق ، والأدب الكريم ، والخلق المستقيم ، والمعاملة الطيبة ، فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد .

الاستبانة والتبيين

قال على بن الحسين رضى الله عنهما :

« لو كان الناس يعرفون جملة الحال فى فضل الاستبانة ، وجملة الحال فى فضل التبيين ، لأعربوا عن كل ما يتلجلج فى صدورهم ، ولوجدوا من برد اليقين ما يغنيهم عن المنازعة الى كل حال سوى حالهم ، وعلى أن درك ذلك كان لا يعدمهم فى الأيام القليلة العدة ، والفكرة القصيرة المدة ، ولكنهم من بين مغمور بالجهل ، ومفتون بالمعجب ، ومعدول بالهوى عن باب الثبوت ، ومصرف بسوء العادة عن فضل التعلم » .

نقول لقد كشف الإمام عن أشد أدواء القلوب ، وعن أشنى علاج لها ، وهو أن الجاهل لا يستبين ما لا يعلمه ممن يعلمه ، فيبقى طوال حياته غريقا فى جهالته مصروفا عن علاج علته .

عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ وَتَقَدَّمَ الْعُلُومُ*

للأستاذ عمر طلعت زهران
أستاذ في الآداب

حمل العلماء المسلمون العبء الأكبر في البحث والإنتاج من منتصف القرن الثامن إلى منتصف القرن الثاني عشر الميلادي ، وكانت اللغة العربية هي لغة العلم والمعرفة — قبل عصر النهضة — كما كانت لغة الثقافة عامة ، لا للمسلمين فحسب ، وإنما لجميع الأمم والمجتمعات التي أخذت المدنية الإسلامية ؛ كالمسيحيين ، واليهود ، والفرس ، وأهل الشام ، والبربر ، والأتراك .

والنشاط العقلي ، فيما يدلنا التاريخ ، ليس حقاً وراثياً لأي جنس أو مجتمع ، وإنما هو نتيجة استقرار الحياة ، وخلوها من كوارث الطبيعة أو الحروب أو الطغیان . والحياة جادت بالعاقرة حيث وجد السلام والرخاء ، في كل عصر ، وفي كل جنس ودين . وكلما ساد السلام ، وعمت الطمأنينة والرخاء ، في مجتمع ، كلما استطاع أن يحقق قدراً أكبر من الإنتاج العلمي .

ومن المأثور عن الحكم الإسلامي — فيما يروى التاريخ — تشجيعه للزراعة والتجارة ، ورعايته للعلوم والفنون ، فكان من نتائج هذا أن ساهم المسلمون ومواليهم بقدر كبير في تقدم العلوم .

وترك لنا المؤرخون ، وكتاب السير والعلماء ثروة ضخمة ، أضعاف الكثير منها المغول في الشرق ، ومحاكم التفتيش في إسبانيا في الغرب ؛ وما بقي ظل في أيدي بعض الجهال من المسلمين ، فاحتفظوا به ، بوصفه من آثار السلف ، أو باعوه ، فذهب إلى المكتبات الأجنبية .

(٥) من مجلة Islamic Review أغسطس سنة ١٩٤٩ : نصيب علماء المسلمين في تقدم العلم ، للأستاذ محمد عبد الرحمن خان مدير أكاديمية حيدر آباد .

ومن هنا كنا مدينين للمستشرقين من الغربيين ، حين نشرحوا وشرحوا بعض كتبنا التي طال عليها النسيان ، نخدموا المدنية عامة ، والثقافة الإسلامية خاصة . بدأ المسلمون بعصر الترجمة عن اللغات الإغريقية والفارسية ، وما لبثوا حتى بدت شخصيتهم واضحة جلية ، فبحثوا وألفوا ، وما إن حل القرن التاسع الميلادي ، حتى تميز بأنه « عصر إسلامي » . فقد كان العلماء المسلمون فيه يحملون لواء العلم ، كما كانوا هداة المدنية ورعاة الحضارة . وذهب صيت الكندي والخوارزمي والفرغاني وغيرهم ، يدوي في أرجاء العالم العقلي : في الرياضيات والفلك والفلسفة والموسيقى وغيرها من الفنون . وظلت أبحاث الفرغاني الفلكية حجة علماء هذا الفن ، حتى القرن الخامس عشر ، وترجمت إلى اللاتينية والعبرية ، فقد قاس محيط الكرة الأرضية ، وعرف كثيراً عن المسافات بين الكواكب ، وقدر أحجام ومحيطات بعضها .

أما أبو مشعر ، ويعرفه الغرب باسم Albumasar ، فقد شرح تأثر المد والجزر بالقمر .

وفي النصف الثاني من نفس هذا القرن ، عرف العالم الغربي مسائل أرخميدس وكتابات أبولونيوس ^(١) ومينالوس عن طريق المهنى ، وهلال الحمصي ، وأحمد ابن يوسف ، كما أتم الخوارزمي مسائل هندسية دقيقة . وصنف البطني ، ويعرفه الغرب باسم Albatelgnius ، قائمة تضم ٨٨٠ نجماً ، كما عرف المجموعة الشمسية ، واكتشف اكتشافات فلكية هامة حققها العلم الحديث أخيراً . وكان أبو كامل ابن أسلم ، وإبراهيم بن سنان - والاول من علماء الجبر ، والثاني من علماء الهندسة - أشهر رياضيين ، زانا عصر المسعودي أعظم المؤرخين قاطبة .

ونجد الفلاسفة المسلمين على علم واسع غزير ، ألموا بنواصي العلوم ، وتمكنوا من دقائق الفنون ، فلم يكن أبو زكريا الرازي ، وهو Rhazes الذي شاد بذكره الغربيون ، طبيباً متمكناً فحسب ، وإنما كان عالماً تجريبياً في الطبيعة والكيمياء أيضاً ، وترك أبحاثاً رائعة خالدة في الطب ، وسبق لافوازييه ^(٢) في أبحاثه عن طبيعة العناصر الكيميائية .

(١) أبولونيوس دورجا ، عالم هندي إغريقي عاش في الاسكندرية في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد

(٢) عالم فرنسي كيميائي شهير من مؤسسي علم الكيمياء الحديثة ، له نظريات كثيرة : ولد

وإن أى عصر ليفخر بأمثال عبد الرحمن الصوفى ، وابن يونس ، وابن الهيثم ، والبيرونى ، وابن سينا ، وعمر الخيام ، وابن رشد . كان الاول راصداً فلكياً ممتازاً ، لا يزال كتابه « صور الكواكب » . منبعاً لدراسة الظواهر السماوية . ووضع ثانيهم جداول فى القاهرة أدت إلى استكشافات فلكية هامة . أما الثالث فهو إمام الرعيل الاول من علماء الطبيعة ، وكتابه فى علم الابصار صحح أخطاء نظريات كثيرة عن طبيعة الابصار .

وأبحاث البيرونى تضعه فى الصف الاول من صفوف علماء الفلك ، كما كان باحثاً منهجياً فى الظواهر الطبيعية ، كما يظهر من وصفه لضوء الشفق ، وارتفاع المياه فى الجداول ، وتاريخ وادى نهر السند . وما زال قانون ابن سينا فى الطب لإنجيل القرون الطبي ، وقد اكتشف أن بعض الامراض تنتقل عدواها عن طريق الماء ؛ وإن شهرة « عمر الخيام ، كعالم رياضى لتفوق شهرته الواسعة كشاعر بهر العالم برقة شعره ومعانيه .

ولم يكن ابن رشد ندا لأرسطو — مثله مثل الفارابى — فحسب ، وإنما تميز باكتشافات عدة منها معرفته البقع الشمسية ، وابتكاره آلة قياسية دقيقة .

وكانت تراجم محمد الاصفهانى لخمسة كتب من سبعة ألفها أبولونيوس ، هى المصدر الوحيد الذى عرفها به العالم . وكان « نصير الدين الطوسى ، أول علماء هولاندا ، وكتب كتابه الذائع الشهرة : « المتوسطات وشكل القطع » ، وناقش نظريات إقليدس مناقشة أخذها عنه « سيرولانوسا كيرى ، وبنى عليها أساس الهندسة غير الإقليدية . وشرح أحد تلامذته تكوين قوس قزح فسبق ديكارت ^(١) بثلاثة قرون .

وكم من دقائق اقتصادية وجغرافية وجنسية نجدها فى رحلات ابن الحوقل وابن جبير ، وابن بطوطة ، وما زالت أهمية كتب ياقوت والإدريسى قائمة توثق ثمارها .

وكان الزهروى أكبر علماء عصره فى التشريح ، وذكر فى كتابه « التصريف ،

(١) فيلسوف وطبيب وعالم هندسى فرنسى ، كتب : « مقال عن المنهج وتأملات ميتافيزيقية ، ومات فى استكهولم وهو يعالج ملكتها سنة ١٦٥٠ .

حقائق كثيرة ، وطبع منه الجزء الخاص بالجراحة في جامعات البندقية وبال وأكسفورد .

وكتب ابن النفيس في الحديث وأمراض العين والتغذية ، وبين في كتابه شرح تشریح ابن سینا ، وظيفة القلب في توزيع الدم . وكان الأطباء المسلمون حجة في أمراض العيون ، فكان كتاب د نور العيون ، لصالح الدين بن يونس مرجع الأطباء لقرون بعد وفاته .

ونظراً لخص المنتجات اليدوية - في القرون الوسطى ، ورخص حيوانات النقل ، وقلة الحاجة الى الكياليات ، فإن العناية لم تتجه الى الابتكارات الميكانيكية . ومع ذلك نرى العرب عرفوا الساعة المائية ، وبحثوا في قوة الماء والنافورات ، وعرفوا البارود ، واستخدموا البوصلة المغناطيسية في الملاحة . وقاد ابن مجيد سفينة فاسكودا جاما ^(١) الى الهند .

وعرف العرب الاعشاب الطبية ، وطوفوا في أنحاء العالم بحثاً عنها . ولسنا نبالغ إذ نقول : إن العرب بدأوا الزراعة في أسبانيا على أسس علمية ، ومنها انتشرت إلى أوروبا . ولم يقتصر اهتمامهم بالنبات ، وإنما تعداه إلى عالم الحيوان ، فاهتموا بالناقة والجراد خاصة ، وعرفوا نظرية التطور ، عرفها النظام د المتوفى سنة ٨٤٥ م ، ، وما د حتى بن يقظان ، لابن طفيل إلا قصة علمية سطحية عن التطور .

وبجانب شهرة جابر بن حيان في علم الجبر ، فإنه كان أكبر باحث - في عصر ما قبل النهضة - في الكيمياء .

وإن هذه المعلومات وأمثالها ، إنما نستقيها ، من دوائر معارف إسلامية لأنثال ابن النديم الوراق ، وابن أبي أصيبعة ، وياقوت وابن خلكان وغيرهم . ولسنا ننسى أخيراً أبحاث ابن خلدون في علم الاجتماع التي سبق بها أوجست كونت ^(٢) الذي يقولون - زوراً - إنه مبتكر هذا العلم .

(١) ملاح برتنالى اكتشف سنة ١٤٩٨ م طريق رأس الرجاء الصالح حول أفريقية ، إلى الهند .

(٢) العالم الرياضى والفيلسوف لفرنسى المعروف ، وصاحب المذهب الوضعى عاش بين

إعجاز القرآن:

مَنْهُ الصَّرْفَةُ

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد حسن العماري
مبعوث الأزهر بالسودان

— ٣ —

إذن فليس أمامنا — مما يمكن أن نطمئن إليه اطمئنانا كاملا — إلا هذا النص الذي وقع لنا في كتاب الحيوان للجاحظ ، ولكي نفهم هذا النص فهما أقرب إلى الصواب ، نحب أن نقدم بين يديه ما يسد رأينا في فهمه ، وما يلقي لنا ضوءا على المقصود منه .

يكاد يكون من الأمور المشتهرة عن الجاحظ أنه يرى في إعجاز القرآن ، رأى أهل العربية . ذكر صاحب المواقف في كتاب النبوات ذلك فقال : « وقيل - أى في إعجاز القرآن - كونه في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها ، وعليه الجاحظ ، . وفي كتب الجاحظ ما يؤيد ذلك ، وهو تارة يقول : إن القرآن معجز من ناحية أسلوبه ، وتارة يقول من ناحية نظمه ، والمطالع لكتبه يجد تحذات بذلك في مواضع كثيرة ، ومن قوله في ذلك بعد ما ذكر ما كان من شأن النبي مع قومه : « وهو في ذلك يحتاج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباحا ومساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذبا بسورة واحدة أو بآيات يسيرة ، فكلما ازداد تحديا لهم بها ، وتقريعا لعجزهم عنها ، تكشف من نقصهم ما كان مستورا ، وظهر منه ما كان خفيا ، ويقول في موضع آخر : « وفي كتابنا المنزل الذي يدل على أنه صدق ،

فظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد... الخ، بل إن الجاحظ يرى أن العرب لا يستطيعون أن يساموا النبي صلى الله عليه وسلم في فصاحته، وأن يحاروه في بلاغته، ويشيع هذا المعنى في كتابه البيان والتبيين، ومن ذلك قوله: «فإذا رأت مكانه - يريد النبي - الشعراء، وفهمته الخطباء، ومن تعبد للبعث، وتعود نظمها، وتنضيدها وتأليفها وتنسيقها واستخراجها من مدافنها، وإثارتها من أماكنها؛ علموا أنهم لا يبلغون بجمع ما معهم مما قد استفرغهم واستغرق مجهودهم، وبكثير ما قد خولوه قليلا مما يكون معه على البدهة والفجاءة من غير تقدم في طلبه، واختلاف إلى أهله».

على أن النظام نفسه له رأى في إعجاز القرآن غير القول بالصرقة، فإن كل الذين نقلوا عنه من غير أصحابه يضمون إلى القول بالصرقة قوله: «إن القرآن معجز لما فيه من الإخبار بالأمور الماضية والآتية، ومعنى هذا أنه يرى أن العرب غير قادرين على الإتيان بمثل القرآن؛ لما فيه من الإخبار بالمغيبات، وقد قرأت كلمة لبعض الكتاتين في مجلة الأزهر^(١) يقول: «فذهب النظام إلى القول بالإعجاز البياني كما يقول أهل العربية، فإن كان لهذا القول مصدر فهو مما يؤيدنا فيما نذهب إليه».

ثم نسوق نص الجاحظ^(٢): «تكلم في تفسير قوله تعالى «وتفقد الطير فقال: مالي لا أرى الهدد أم كان من الغائبين؛ لأعذبه عذابا شديدا، أو لاذبجته أو ليأتيني بسلطان مبين»، ثم أورد اعتراضا محصلا أن الله تعالى أعطى سليمان ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، فلذلك على الجن فضلا عن الإنس، وعليه منطق الطير وسخر له الريح، فكيف لا يعرف ملكة سبأ مع قرب دارها، واتصال بلادها، ثم يحجب: إن الدنيا إذا خلاها الله وتدير أهلها ومجاري أمورها وعاداتها؛ كان لعمري كما تقولون، ولكن الله تدير أتعجز عن فهمه العقول، ثم ساق أمثلة على ذلك: أن يعقوب كان أبه أهل زمانه، وكان يوسف وزير ملك مصر ومن النباهة بالموضع الذي لا يدفع، وله البرد وإليه يرجع جواب الأخبار، ثم

(١) هو الشيخ يوسف البيوي في العدد الخامس من السنة ١٣٦٢ ص ٢٦١.

(٢) الحيوان ج ٤ ص ٣٠ وما بعدها طبعة سامي.

لم يعرف يعقوب مكان يوسف ولا يوسف مكان يعقوب عليهما السلام دهرًا من الدهور . ثم قال : « وكذلك القول في موسى بن عمران ومن كان معه في التيه ، فقد كانوا أمة من الأمم يكسعون أربعين عاما في مقدار فراسخ يسيرة ، ولا يهتدون إلى المخرج ، وما كانت بلاد التيه إلا من ملاحهم ومتزهاتهم ، ولا يعدم مثل العسكر الأدلاء والجمالين والمكاريين والفيوح والرسل والتجار ، ولكن الله صرف أوهامهم ، ورفع ذلك القصد من صدورهم ، وبعد أن ساق أمثلة أخرى قال : « ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب ، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن تحداهم الرسول بنظمه ، ولذلك لم نجد أحدا طمع فيه ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلف بعضهم ذلك لجاء بأمر فيه أدنى شبهة ، لعظمت القصة على الأعراب ، وأشبه الأعراب ، والنساء وأشبه النساء ، ولالقي ذلك للمسلمين عملا ، واطلبوا المحاكاة والتراضى ببعض العرب ، ولكثر القيل والقال ، فقد رأيت أصحاب مسيلة وأصحاب بنى النواحة إنما تعلقوا بما ألف لهم مسيلة من ذلك الكلام ، الذي يعلم كل من سمعه أنه إنما عدا على القرآن ، فسلبه وأخذ بمعضه ، وتعاطى أن يقارنه ، فكان لله ذلك التدبير الذي لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا له ، .

ولا يفوت الرافعى — رحمه الله — هذا النص ، وأنه يناقض المشهور عن الجاحظ . فيقول : « وقد يكون استرسل بهذه العبارة لما في نفسه من أثر أستاذه ، وهو شيء ينزل على حكم الملازمة ، ويعتري أكثر الناس إلا من تنبه له أو نبه عليه ، أو قد يكون ناقلا ولا ندرى ، ولكنتنا لو فرغنا أذهانتنا مما قاله الأقدمون في معنى الصرفة ، ونظرنا إلى هذا النص على ضوء ما قدمنا لوجدنا أنه ليس غريباً على الجاحظ ، بل ولا على الرافعى نفسه ، فليس الصرف هنا عن الإتيان بكلام يكون في مرتبة القرآن ، ولكنته عن الإتيان بكلام يمكن أن يجادل عنه ، ويناضل دونه ، ويقال فيه كما قال الجاحظ نفسه في موضع آخر « فلم يرم ذلك — يريد المعارضة — خطيب ، ولا طمع فيه شاعر ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من يستجيده ، ويحامى عليه ، ويكابر فيه ، ويژهم أنه قد عارض وقابل وناقض ، وبهذا النص نبعد كلام

الرافعي في أن ما قاله الجاحظ من أمر الصرف ، إنما جاء استطراداً ، على أننا نلاحظ أن الجاحظ لم يرد في نصه هذا شيء عن الإعجاز ، ولا ذكر لفظه ، فمن أين جاءهم أن المراد بالصرف ، الصرف عن الإتيان بمثل القرآن ، فيكون هو وجه الإعجاز .

والمسألة صريحة واضحة لا لبس فيها ولا التواء ، : العرب لا يستطيعون أن يجيئوا بمثل القرآن لأنه فوق مستوهم ومحال — أكرمك الله — أن يرى الجاحظ أن بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم فوق مستوى العرب ، ولا يرى بلاغة القرآن ، ولكي تبعد كل شبهة عن القرآن ، رفع الله من أوهام العرب — ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر ، والخطب الطوال البليغة ، والقصص الموحدة ، والكلام سيد عملهم — رفع من أوهامهم أن يحاولوا أن يجيئوا بشيء في معارضة القرآن ، أعنى شيئاً من مثل كلامهم البليغ بعنوان المعارضة ، وهذا يفسر لنا خلو السكتب من شيء صدر عن العرب ذي بال في معارضة القرآن ، وهذا المعنى عبر عنه ابن حزم فقال : فما منهم — يريد البلغاء — أحد يتكلف معارضته إلا افتضح وسقط ، وصار مهزأة ومعيرة يتاجن به ، وبما أتى به ويتطايب عليه ، منهم مسيلة ابن حبيب الحنفي ، لما رام ذلك لم ينطق لسانه إلا بما يضحك الثكلى ، وقد تعاطى بعضهم ذلك يوماً في كلام جرى بيني وبينه فقلت له : أتق الله على نفسك ، فإن الله تعالى قد منحك من البيان والبلاغة نعمة سبقت بها ، والله لئن تعرضت لهذا الباب بإشارة ليسلبك الله هذه النعمة ، وليجعلك فضيحة وشهرة ومسخرة وضحكة ، كما فعل بمن رام هذا من قبلك ، فقال لي : صدقت والله وأظهر الندم والإقرار بقبحه ، وكلام ابن حزم هذا إنما نسوقه على مقدار ما يؤدي لنا من غرض في هذا الذي نحن بصدده ، أما تفسيره للصرفة فله منا موقف آخر ، قلت : والرافعي يسترسل — على حسب تعبيره — إلى هذا المعنى فيقول عن المتنبي ومعارضته : « ولم يكن المتنبي كاتباً ولا بصيراً بأساليب الكتابة وصناعاتها ووجوهها ، ولا هو عربي قح من فصحاء البادية ، وإن كان في حفظ اللغة ما هو ، فليس يمنع سقوط ذلك الكلام الذي نسب إليه من أن تكون نسبته إليه صحيحة : لأنه لو أراد في معارضة القرآن ما جاء بأبلغ منه ، .

بقي هنا شيء وهو أنه ربما قال قائل : إن المعارضة للقرآن قد وجدت ، وإن الجاحظ أثبتنا هنا ، وذكرها هناك في الكلام على الضفدع ، فكيف تقولون إن معنى الصرفة أن الله صرف العرب عن أن يعارضوا ؟ والجواب : أن معنى المعارضة هو ما ذكره صاحب الطراز ؛ بل المقصود من التحدى إنما هو الإتيان بما يظن كونه مثلاً أو قريباً من المثل ، وإمارة ذلك وقوع الاختلاف بين الناس في كونه مثلاً أو غير مثل ، والجاحظ نفسه يسخر من كلام مسيلة ، ويجعله بما لا يشك السامع في نزوله عن درجة الاعتبار ، ونحن نقول : إن العرب ما كانوا يستطيعوا أن يقولوا شيئاً في مرتبة القرآن ، وإنما كان في مقدورهم أن يقولوا كلاماً يشبه فيه الأمر على الأعراب وأشباه الأعراب ، وأنهم عجزوا عن الأولى لأنها فوق طاقتهم ، وصرفوا عن الثانية لئلا يكون القرآن موضع جدل ومحاكمة وتراض ، وعلى هذا نفهم رأى النظام والجاحظ في الصرفة ، ونجملها أن يقولوا إن بلاغة القرآن في تناول العرب ، ولا نلزم بهذا الفهم ، ولا تدعى أنه الحق وحده ، بل نتقبل من كل من يرى أننا تعسفنا الطريق ، أو تنكبنا الجادة أن يرشدنا ويهدينا . أما الذين يصرحون من المتأخرين بمعنى الصرفة على ما فهمه العلماء فلنا معهم حديث آخر ، وتعالى الله وكلامه .

معاوية

وصف الوليد بن عتبة معاوية بن أبي سفيان فقال : د إنه لبعيد الخور ، ساكن الفور ، وإن العود من لحائه ، والولد من آبائه ، والله إنه لنبات أصل لا يخلف ، ونجل خل لا يقرف .

(اللحاء) قشر العود والمراد أنه مؤصل . (قَرَفَه) أى اتهمه وعابه من كلامه : أفضل ما أعطى الرجل العقل والحلم ، فإذا ذُكِّرَ ذَكَرَ ، وإذا أساء استغفر ، وإذا وعد أنجز .

الإسلامُ لتبني

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي

المدرس بمعهد القاهرة

أخذ كثير من المسلمين أخيراً يتبنون أطفالاً من أبناء الملاجيء ، أو من اللقطاء ، ويعطون هؤلاء الأطفال أسماءهم وألقابهم ، ويعتبرونهم كأبنائهم الشرعيين الحقيقيين في كل شيء ، فهم يعاشرونهم ويخالطونهم ويورثونهم ، ويتخذون من الإجراءات الرسمية والفعالية ما يؤيد هذا الادعاء ، دون أن يقدروا أن الإسلام لا يرضى عن هذا الافتعال الأثيم والتصرف الذميم ، ويعتبره كبيرة من الكبائر المحرمة ؛ حتى قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « كفر من تبرأ من نسب وإن دق ، أو ادهى نسباً لا يُعرف ! »

لقد كان التبني أسلوباً من أساليب الجاهلية التي دفعت إليها الهمججية والاضطراب في الحياة ، والاختلال في نظام المجتمع ، فقد كان الواحد منهم يختار من الأولاد المجاهيل من يشاء وينسبه إلى نفسه ، ويجرى عليه جميع الحقوق التي يتمتع بها الأبناء ؛ فلما طلع فجر الإسلام بنوره الوضاء على ظلام الغبراء ، أراح اللاغبين الحائرين من هذا التزوير في الأنساب والأرحام والقربات ، وهداهم إلى صراط الحقيقة والواقع ، فحرم عليهم تبني من ليسوا بأولاد حقيقيين لهم ، فقال القرآن المجيد : « وما جعل أديعائكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، أدعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباهم فأخوانكم في الدين ومواليكم . » وبذلك حرّم الإسلام ذلك التلاعب الخطير ، وأوجب أن ينسب الولد إلى أبيه إن كان معروفاً ، وإن لم يعرف له أب ، بأن كان لقيطاً أو مجهول النسب ، جعلناه أخاً لنا في الدين ، ومولى من موالينا في الملة ، يعامل بشريعة العدالة والإحسان ، وليس وراء ذلك إصلاح أو تنظيم ..!

وقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يقضى على هذا المنكر الجاهلي في معرض مشهور وموقف ملحوظ ، فاختار لخدمه في سبيل القضاء عليه أحب الخلق إليه رسوله محمداً صلوات الله عليه ، فقد كان للرسول عبد مملوك اسمه زيد بن حارثة ، وكان قد أسر وبيع كما يباع الرقيق ، وانتهى به الأمر إلى عشرة الرسول ، فرأى من مكارم النبوة ما فضل معه حياة العبودية على حياة الحرية ، وكان العرب حسب عادتهم يسمونه « زيد بن محمد » ، على طريقتهم في التبنى ، وعلم أهل زيد بوجوده عند الرسول ، فأرادوا اقتداه وتخليصه من الرق ، فأقبل أبوه وعمه وأخوه إلى رسول الله يعرضون عليه الفداء ، ولاقوا في الطريق زيدا فسألوه : كيف صنع مولاك إليك ؟ فأجاب : إنه يؤثرني ويفضلني على أهله وولده . . . فذهب والده حارثة إلى الرسول وخاطبه قائلاً : يا محمد ! أنتم أهل حرم الله تعالى وجيرانه وعند بيته ، تفسكون العاني وتطعمون الأسير ، وابن زيد عندك ، فأمن علينا ، وأحسن إلينا في فدائه فإنك ابن سيد قومه ، ولنا سرفع لك في الفداء ما أحبيت فأجاب الرسول الكريم النبيل : بل أعطيكم خيراً من ذلك ، فاستشيره ، فإن اختاركم فخذوه بغير فداء ، وإن اختارني فلكفوا عنه . . . فاثنوا عليه وفرحوا فدعاه الرسول قائلاً : أتعرف هؤلاء يا زيد ؟ قال : نعم . هذا أبي وعمي وأخي فقال الرسول : هم من قد عرفتهم . فإن اخترتهم فاذهب معهم ، وإن اخترتني فأنا من تعلم ؛ قال زيد : لست بمختار هليك أحدا أبدا أنت مني بمسكان الوالد والعم ! . وهير زيداً أهله بالعبودية ليفضل عليها الحرية فأبى زيد فراق الرسول ، فرجعوا يائسين ، ثم أعتقه وجعله بمنزلة ابنه ، واشتهر ذلك بين الناس ؛ فأنزل الله تحريم ذلك كما سبق ، فأطاع الرسول أمر ربه ، وخضع لتوجيه السماء ، وأوجب أن لا يتأديه أحد إلا باسمه زيد بن حارثة ! .

ثم أراد الله أن يستأصل شأفة هذا النظام الفاسد باستئصال أهم نتائجه ، وهي تحريم زوجة الولد المتبني على الرجل المتبني ، فاختار رسوله مرة أخرى لهدم ذلك بنفسه ، فقد كان زيد هذا متزوجاً من زينب بنت جحش ، وهي قرشية رفيعة ، فكانت تتعالى عليه ، فشكاها زيد إلى رسول الله وعزم على طلاقها ،

ففسحه الرسول أولاً ، بأن يمسك عليه زوجته ، فأصر زيد على الطلاق ، وكان الله قد أراد لئليه أن يتزوجها ، بعد أن قضى زيد منها وطراً ، حتى يهدم بذلك عمائد العرب الوهمية السخيفة ، فوجد الرسول من تنفيذ ذلك الأمر شيئاً في نفسه أول الأمر ، وأخفى عواطف كانت تضطرم في فؤاده خوفاً من قالة الناس واقتراثهم ، ولكن الله غالب على أمره ، فأمر رسوله بتنفيذ ما أراد ، فتزوجها رسول الله بعد طلاقها من زيد ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ؛ وإلى ذلك أشار القرآن الكريم حيث يقول : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ، وإذا تقول للذي أنعم الله عليه ، وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفي في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولاً . »

وقد يعترض متفلسف فيقول : ولماذا يحرم الإسلام « التبني » مع أنه من وسائل العطف والحنان ، والعناية بطائفة من البائسين والمحرومين ؟ . فنقول : « إن ميادين البر والإحسان في الإسلام كثيرة عديدة ، وقد فتح الله أمام الناس ما فتح من مسالك الصدقة والهبة ، والعطية والمعاونة ، والخدمة الاجتماعية ، والمساعدة الإنسانية ، والرحمة البشرية ، ولكن حرم « التبني » ، لأنه ينطوي على كثير من الأخطاء والآثام التي تضر بالصالح العام ، فهو أولاً قائم على الافتراء والكذب ، ومحاولة صبغ هذا الافتراء بصبغة واقعية دائمة ، مع أن المجتمع الإسلامي قائم على الحق والصدق حتى في أقل الأمور ، فلو كذب الرجل على الطفل الصغير بلا ضرورة لكان مسؤولاً ؛ ولذلك وصف القرآن الكريم التبني بأنه ادعاء وقول بالافواه ، لا نصيب له من الواقع ، والله يقول الحق الثابت ، الواقع في نفس الأمر ، وهو سبحانه يهدي إلى السبيل القوي . . . والافتراء الموجود في التبني يؤدي اليوم أو غداً إلى اختلاط الانساب ، واضطراب القرابات ، والروابط العائلية الأصلية ، مع أن حفظ الانساب أصل من أصول

الإسلام ، وقد كان أحد الأسباب التي حرم الله من أجلها الزنا ، والاشتراك بين أكثر من رجل واحد في امرأة ؛ فالتبني إذن افتراء تتبعه أخطاء ! .

ومن أخطار التبني إيقاع العداوة غالبا بين الأولاد الشرعيين ، أو الأقارب الحقيقيين وبين الولد المتبني بسبب النفقات أو الميراث ، وكثيرا ما يختل تصرف الرجل في التبني ، فيؤثر الدهى اللقيط بخيره وبره ، ويقدمه على أولاد صلبه ، وقد يحرمهم بسببه من الميراث ، وقد حدثت فعلا حوادث كثيرة في هذا الباب ، أدت إلى جرائم قتل ، ونشبت عنها قضايا كثيرة معقدة ، ضاعت فيها جهود وأموال ، وتقطعت بسببها أواصر قرى ، وروابط محبة ، وعلائق أسر .

ومن أخطار التبني سوء الاستغلال ، فقد يقبى الرجل بنتا يبالغ في إكرامها أولا ، ولكن عاطفة البنوة الحقيقية لا توجد ، فقد يسيء معاملتها على أخطاء لها مسرفا في ذلك ، أو تشذ نفسيته فيتصل بها اتصالا غير شريف ، أو سوى ذلك من مواقف التحول عن جادة الطريق إلى التقصير أو الفجور ؛ ومن الممكن الميسور لمن يريد أن يكون حنوناً عطوفاً أن يفيض أنهار بره ، وأن يسبغ أثواب خيره على من يشاء ، جهرا وسرا ، دون لجوء الى هذا التبني الذي يحرمه الإسلام لما فيه من آثام .

وحسب التبني شناعة أنه تشبه بالكافرين ، وتغيير لما صنعه يداؤه ، وتحريف لما نظمه الخالق الكريم ، ولذلك قال الرسول : « من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام » . وقال : « من ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله تعالى منه صرفا ولا عدلا (أو توبة ولا فدية) » .

إن ميادين المساعدة كثيرة عديدة ، ومن أراد الخير والبر فلن يعدم - والله - لها طرقا وسبلا ، فما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، وإياكم ومحدثات الأمور ؛ فإنها مدرجة الهاوية ، واهقه يعلم وأنتم لا تعلمون ، وما وضعته يد الحكيم الرحمن لا تنقضه أبدا يد الإنسان ! ..

دُوحَةُ النُّورِ

لسماحة الاديب الكبير الاستاذ السيد ،

شجرة صناعية مورقة ، أقيمت فيها ثريات النور ، مقام الثمر والنور ، وقد
جُمِلَ عند أصلها طائر جميل الصنع ، هذه الكلمة في وصف تلك الشجرة :

لقد أبدع الحسن حتى استلب وخف له القلب حتى وثب !

ومنها في وصف الشجرة الصناعية :

نفل دجى الليل عن دوحة	جرى النور في زهرها فانسكب
لقد أورك الغصن حتى زها	وشف به الزهر حتى التهب
لمن فن يحمل المبدعات	كما يحمل العود حلوى الطرب ؟
سرى من الحسن في مترف	من الغصن يزهى بنور عجب
عن السلك أومض نواره	فهل مس قلبي حتى وجب
يحوم على حسنه للقلوب	فراش إلى زهره يجتذب
جميل التوقد بدع الخنور	كما لاح ثم تهاوى الحب !
أزاهير تصدق وعد الضياء	وما صدق الفجر حتى كذب

* * *

ومزهرة من بنات الرياض كما حليت غادة بالذهب !
من الدوح نزلة بالقصور كأن بها طفلة تغتصب !

سما تاللق بالنيرات	فنجم أضاء ونجم غرب !
ثريات نور كهر الجوى	يفض الجوانح لاعن لب !
تحلى بها الجنج حتى انجلى	وخف بها الليل حتى ذهب
تجلت حلى وانثنت فجأة	كما بودرت قبلة تنهب
ضياء فكف كغمز الجفون	ووجه تهلل ثم اكتاب
سنا صدعت به الداجيات	مراحا كما شق ثوب الطرب
كأن الدجى نهبة للجمال	فكحول منه والمختضب
مضى العلم يلعب فى دوحة	وكم نزل الجدد بين اللعب
فلو أعطيت حسننا المثمرات	لأثمرن سلب النها كالغنب
كست ظلها طائرا لو يفوه	لأنشد فى حسننا بل نسب
زهته الملاحة حتى بدا	وأطعمه الزهر حتى ارتقب

* * *

طريف الحياه وأين الطريف	لا فى الجمال ولا فى النشب ؟
غنيت فساملت أين الثراء	وزهدت فى الحسن حين اقترب !
حسان العشيات أين الجمال	أحين بدا أم غداة احتجب ؟
سئمت المعاد وأن الحياة	كأنفاس أبنائها تستلب
حياة توقد بالفاجعات	فقطعمها نحن جزل الخطب
كأن المنى قبيلات البريد	بنفسى لو غازلت من كشب
فوا كبدى هل يدوم الحديث	وأين بفتانه المنتخب
فتنا وكم نعبد الزائفات	بزيف الجمال وزيف الادب
فتى لقبوه أمير البيان	فأقبل يرزح تحت اللقب
هو الحق مطلبه فى الوفاق	ضلال فسائل به من شغب !

فِعَالُ الْمُؤَلِّفَاتِ الْجَدِيدَةِ

اجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم

منى الناس منذ القدم بالخلط بين الخصائص النبوية وبين الصفات الإلهية ، وقد تبادت كثير من الأمم في هذا الشطط حتى ألتهاوا رسلهم ، وهذا ضلال بعيد تردى في حماته أكثرهم مبالغة في تعظيمهم ؛ لذلك مُشرع آخر الأديان وهو الإسلام بالعلاج الحاسم لهذا الشر المستطير ؛ فكثُر في كتابه المنزل ما يدفع هذا الوهم عن العقول البشرية ، حتى لم يدع لونا من ألوان البيان إلا أتى به حماية للنفوس من أن تلتثث بهذه العقيدة الباطلة . وقد حمى الله المسلمين من شر هذا الكفر الصراح ، بحيث لا يخشى معه أن تروج لهذه البدعة دعوة مهما أوتى الداعى إليها من سحر البيان ، وخطابة اللسان ، ومهما تستر بالتقوية ، وترس بالتأويل ، فإن النصوص التي وردت في هذه المسألة لا تحتل التفضيل بأى وجه من الوجوه .

نعم إن رجالا من المضللين ظهروا في عصور مختلفة روجوا بدعا من هذا القبيل ونشروها في فئام من صغار العقول ، إما مبالغة منهم في تقديس الرسول ، وإكبار شأنه ، وإما محاولة منهم إفساد عقائد العامة لتزيق وحدة المسلمين ، فلم يوفقهم الله لبلوغ أربهم ، وبقيت العقيدة الإسلامية على نقائها الأول عند جمهور المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وبقيت بقايا من هذه الفرق تعاني الانحلال تحت تأثير النهوض الأدبي للمسلمين في كل بقعة من بقاع الأرض .

ومن أفعال ما يعين هداة هذه الشراذم على نجاح حركتهم التطهيرية كتاب جليل الشأن ألفه وطبعه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ المصالح الشيخ عبد الجليل هيسى أبو النصر شيخ كلية اللغة العربية أسماء (اجتهاد الرسول) ، جمع فيه كل

ما قاله أئمة المسلمين في التفرقة بين الخصائص النبوية وبين الصفات الإلهية ، فجاء أجمع كتاب في هذا الباب . وقد أجاد تبويبه وترتيب مباحثه حتى إن القارئ لا يسكاد يتم فصلا منه حتى يشفق لقراءة تاليه .

ويحسن بنا أن ننقل كلمة للأستاذ لتكون نبراسا لكل مسلم وهي :

« فالمسلمون الذين يؤمنون بأن علم اللوح والقلم من علم الرسول الكريم ، ويرون أن الدنيا والآخرة من فضل جوده صلى الله عليه وسلم ، أو يعتقدون أنه كان يعلم كل ما كان وما يكون ، يعكسون آية رسالته ، ويضعونه فوق الرسول ويشبهونه بالله ، أو يجعلونه شريكا له . وليس ذلك مما دعا إليه الرسول صلى الله عليه وسلم في تحديد منزلته كما أمره ربه ، وليس ذلك يستقيم مع مثل هذه الآية الكريمة : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي اليّ إنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » .

هذا هو الاسلام

هذا كتاب حافل بالبحوث الدينية ، والمناقشات الفلسفية المتصلة بالاسلام وحكمته الاجتماعية ، وضعه الاستاذ النابه محمد عبد القادر العماري للدفاع عن الدين من حيث هو دين ، وعن الإسلام من حيث هو خاتم الأديان السماوية . سلك فيه سبيل التحليل الفلسفي للتيارات الفكرية التي كان لها أكبر الآثار على تطورات العقلية البشرية وإجماعها على مخاصمة الدين ، وبدأ بثورة أوروبا على الكنيسة ، التي كان طابعها الاعتماد على العقل وحده في النظر إلى الأشياء والناس والكائنات على طريقه الفلسفة اليونانية ، حتى انتهى الأمر إلى عهد فولتير الفيلسوف الفرنسي الذي أبلغ العقل إلى منزلة من التقديس لم يكن يحلم بها .

ثم عرج على الثورة الروسية التي جرت على تعاليم (كارل ماركس) وهي أشد عداء للدين من سابقتها ، ومر بثورة تركيا وأثبت من تعاليم أقطابها أنها هي الأخرى منابذة للدين ، ومنتهمه إياه بأنه العامل الرئيسي في دهورة الشعوب وتضليلها . وفاته التنويه بالثورة الفكرية في مصر التي اختمرت في عقول عدد

لا يستهان به من المتعلمين ، وأصبحت تهدد بالانتشار والذيع كغيرها بين الطبقات المتعلمة في العالم كله .

بعد هذه المقدمة شرع يبحث عن علة تأدى الحالة النفسية للشعوب ، إلى ما آلت إليه من الالحاد . فقال : « إن الذى يتحمل المسؤولية وتنصب عليه كل التبعات فى الانقلاب على الدين ، ومحاولة محوه من الوجود ، ووصه بكل هذه الصفات كما رأيت ، إنما هم رجال الدين أنفسهم ، لأنهم لم يحاولوا أن يفسروا الدين بعقلية حرة تجديدية ، وعلى ضوء نظام التطور والارتقاء الخ ،

وأما هنا أخالف المؤلف كل المخالفة ، لا لأبرئ رجال الدين ، ولكن لأثبت أنهم لو كانوا قبلوا هذه الثورة على العقائد بكل ما يمكن أن يؤتوه من إحاطة بالعلوم ، ومن لسن ماض وبيان فياض ، لما استطاعوا أن يقفوا هذا السيل الجارف من التيار الإلحادى ، الذى يشكو منه المؤلف ، لأنه قائم على أصول فلسفية ومقررات علمية ليس فى وسع أحد زعزعتها إلا بالوسائل التى تماثلها أو تتفوق عليها تأثيراً فى النفوس ، وإقناعاً للعقول .

ذلك أن العلم قرر ، بعد أن بلغ أشده ، فى دستوره الرسمى ، أن كل قول لا يستند إلى دليل محسوس لا يجوز الأخذ به ولا اعتباره علماً ؛ فإن كان يحل بعض الاشكالات العلمية ، ولا يتعارض مع بعض المقررات السابقة ، يمكن اعتباره رأياً علمياً ويضم إلى أمثاله من الآراء العلمية ، حتى يثبت له دليل محسوس أو يلفظ نهائياً للحلول رأى آخر محله .

ولا يجمل أحد أن الدين يقوم على عقيدة ثابتة بوجود خالق للسكون دبر عوالمه بقدرته ، وأرسل للناس رسلاً ليهديهم إلى الصراط السوى من الأخلاق والمعاملات ، وأنه يعيدهم بعد الموت ويحاسبهم على ما فعلوا من خير وشر . والعلم الذى له السلطان اليوم على العقول يقرر أن كل هذه المقررات دعاوى أوجدتها الأهواء الإنسانية ، ودانت لها بدافع حبها للبقاء وإنها بقية من وسوس أهل القرون الحالية ، أوجدتها الجهالة ، وارتختها السذاجة الفكرية .

فكان لانتشار العلم في هذه العصور المتأخرة ، وفيما تم على يديه من الفتوحات العظيمة في عالم المادة ، أثر كبير في خضوع العقول والقلوب لسلطانها ، وفي تلقف أحكامه وفلسفته الإلحادية بالقبول البالغ درجة التقديس .

فما دام العلم الذي يدرس في جامعات العالم كله يقف من العقائد هذا الموقف ، فلا أمل في إعادة سلطان الدين على العقول مهما بلغ نشاط دعاته ، إلا إذا غير العلم موقفه وخضع لسلطان الأدلة العملية القاطعة التي أثبتت أخيراً وجود العالم الروحاني ، وخلود الإنسان بعد الموت ، وقرر صحة النتائج التي وصل إليها العلماء الذين اشتغلوا بهذا البحث في أوروبا وأمريكا ووصلوا منها إلى وجدان الأدلة الحاسمة الحاصلة على جميع الشرائط العلمية في إثبات هذه الحقائق . وأى مانع يحول بين المسلمين وبينها وقد دخلت الجامعات الكبرى في إنجلترا وأمريكا ، وقال بها الوف من رجال العلم في العالم كله ؟

هذه هي السبيل إلى إثبات صحة المقررات الدينية في هذا العصر ، وهذه هي الوسيلة الوحيدة للحد من شطط بعض شذاذ العلماء الذين لا يزالون ينشرون الفلسفة المادية في أرجاء الأرض . وكل وسيلة غيرها لن تجدى نفعا ولو تذرع صاحبها بجميع المغريات الكلامية .

هذه الحقيقة يشعر بها على وجهها الصحيح كل من يشتغل بالعلم في هذا العصر طالبا كان أو أستاذا .

هذا رأينا والكتاب الذي نحن بصددده وإن كان قد أغفل الإمام بهذا الحائل الشديد أمام كل دعوة دينية مهما كانت بالغة ، إلا إنه جدير بالقراءة لأنه ألم بكثير من الشؤون العقائدية والاجتماعية ، ونظر إليها نظرات صائبة ، وحكمها بحكمات عادلة ، وهو حافل بآراء كثير من الذين سبقوه بالكتابة في هذا الموضوع وقد ناقشها مناقشات قيمة دلت على منطقته السليم ، وعقليته الخصبية . فنحن لذلك نوصي بالاطلاع على هذا الكتاب فقد يفيد المتكلمين في الدين فوائد قيمة .

تحقيق كلمة الاخلاص

هذه رسالة قيمة للحافظ زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن المعروف بابن رجب الحنبلي المتوفى سنة ٧٩٥ ، حققها وضبطها وعلق عليها صاحب الفضيلة للشيخ محمود خليفة المدرس بكلية الشريعة ، والشيخ أحمد الشرباصي المدرس بالازهر جاء في مقدمتها قولها :

« وبعد ، فإن كتاب (تحقيق كلمة الاخلاص للإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي من نوادر المكتب ، فهو على صغر حجمه جليل الأثر ، حميد الثمر ، من حقه أن يكون تحفة دينية يتهاداها أبناء الإسلام ويحبلون فيها أبصارهم ، ويعملون في معانيها بصائرهم ، ولا غرو فقد بسط فيه ابن رجب ما انطوت عليه كلمة الاخلاص وهي : « لا إله إلا الله محمد رسول الله ، من أبكار المعاني والأسرار الأفكار ، .

وقد وفاه حضرتا ناشريه الفاضلين حقه من تحقيقه وضبطه ، والتعليق عليه ، والترجمة لرجاله ، وشرح ما يحتاج إلى شرح من ألفاظه وعباراته . فجاء حافلا بهذه التحقيقات والشروح حتى زادت على مادة الأصل نفسه ، وكلها مما يحتاج إليه تاليه ، من معاني الألفاظ ، ومؤديات العبارات ، وتراجم الرجال ، على ورق جيد ، وطباعة متقنة ، فجاء كما قالوا تحفة يتهاداها أبناء الإسلام ، فنشكر لها ما بذلاه من جهد في نشرها ، وما عنيا به من إتقان في طبعها .

تصحيح خطأ

حدث خطأ في المقال الافتتاحي صفحة (٥٧٨) فسقط بمد كلمة (الحاجة) في السطر العشرين منها هذه العبارة وهي (على وجه لم يرضه أصحاب رموس الاموال) فنرجو القارئ أن يضعها بالقلم بين السطرين ليستقيم المعنى .

مصائب الدخان

هذه رسالة تقع في مائة وعشرين صفحة أتى فيها مؤلفها حضرة الاستاذ محمد عبد الغفار الافغانستاني في تعداد مضار التبغ ، على فصول كثيرة في التنديد به وبمدخنيه . وبما ذكره نقلا عن حضرة الدكتور صلاح الدين عبد النبي الإخصائي في الامراض العصبية هذه الفذلسكة وهى :

« كانت عادة التدخين منتشرة في أمريكا حينما اكتشفها (كريستوف كولومب) إذ كان أهلها يضعون بعض الأعشاب في مواقد النار ثم يستنشقون الدخان المتصاعد منها ويخرجونه من أفواههم وأنوفهم . ثم نقلت بعد ذلك شجيرات التبغ إلى أوروبا وعرفت باسم (نيكوتينا) نسبة إلى نيكوتين سفير البرتغال في جنوب أمريكا ، وذاعت منذ ذلك الحين عادة التدخين حتى سيطرت على جميع شعوب العالم . »

ثم نقل عن حضرة الدكتور المذكور قوله : « إذا أصبح الإنسان أسير عادة الدخان فانها تؤثر تأثيراً سيئاً في صحته من غير شك وبخاصة في القلب إذ تضطرب دقاته والدورة الدموية ، ويشعر الإنسان بالدوار من آن لآخر نتيجة تقلص شرايين الدماغ ، وقد يتعرض مع تقدم السن لضعف الدم المرتفع والذبحة الصدرية ، كما ان جهازه الهضمي والتنفسي يتأثران بالتدخين فيفقد المدخن شهية الاكل وينتابه السعال المعروف بسعال التدخين . وإذا تأثر الجهاز العصبي يشعر المدخن بتنمل وخدر في الأطراف وبآلام في الأعصاب . »

وقال جوزيف برن مدير دار التجميل الامريكى : « ان وجوه السيدات المدخنات تغدو ظمآنة عجفاء هزيلة ضامرة وضعيفة ومخروطة ما دام قد تمسكنت منهن عادة التدخين . وتجتمع العضون حول زوايا أفواههن ، وتمتد شفتن السفلى إلى الامام ، وتبرز تحت الشفة العليا ، وتحماق عيونهن ، وتسترخى جفونهن . »

وقال الدكتور تسارلس باير من مدينة شيكا الامريكية : « إن طفل المرأة المدخنة يولد ضعيفاً منهوك القوى فهو متسهم الجسم ، وقد يموت في غضون الأسبوعين الأولين من ميلاده حيث تبين من الوصفات التشريحية أن أسباب الموت في أطفال المدخنات كانت ترجع إلى تلف الكبد والقلب وغيرهما من الأعضاء الرئيسية ، وكتاب الاستاذ الافغانستاني يحتوى على كثير من الفوائد الملية بمكافحة آفة التدخين فنشكره على همته في وضعه ونرجو له التوفيق . »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في عيد ميلاد الملك

احتفال البعوث الإسلامية للأزهر

احتفلت البعوث الإسلامية بعيد جلوس حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول في يوم السبت السادس من شهر مايو سنة ١٩٥٠ في فناء كلية اللغة العربية، فأمه عدد كبير من العظماء، وأصحاب الفضيلة العلماء، وكبار الموظفين ومئات من طلاب العلم تحت رئاسة حضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الأزهر، وشرف ذلك الاحتفال مندوب حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم، حضرة صاحب العزة أحمد حسن بك السكرتير الخاص المساعد لجلالته. وقد بدأت هذه الحفلة وختمت بتلاوة آيات من القرآن العظيم، ثم نهض حضرة صاحب الفضيلة، فافتتح الحفلة بكلمة بليغة ذكر ما يخامر قلوب أفراد البعوث الإسلامية من الشعور بالاعتناء الملكية، التي تحوّلهم بالعطف والرعاية، وتمكنهم من طلب العلم والعيش في ظلاله، بما رتبت لهم من المخصصات الشهرية والهبات السخية.

ثم عقبه حضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد الحميد طاهر مراقب تلك البعوث؛ فألقى كلمة بين فيها ما لحضره صاحب الجلالة الملك المعظم من الأيادي البيضاء على هذه البعوث، بما يمدّم به من عطفه السامي، وما يخصهم به من الرعاية العظيمة خدمة للدين، وعناية بهؤلاء الطلبة الأنجاء الذي هاجروا بلادهم، وفارقوا أهلهم طلباً للتحقق في الدين، ورغبة في نشره بين أقوامهم إذا رجعوا إليهم، فقوبلت هذه الخطبة بالإعجاب والتقدير.

وبعد ذلك توالى على منبر الخطابة نحو ستة وثلاثين خطيباً من نجباء طلاب البعوث الإسلامية فألقى كل منهم كلمة ، شكر الله تعالى فيها على ما حباهم من عناية جلالة الملك المعظم ، فأمكنهم بفضل رعايته أن يبلغوا أربهم من تلقى العلم ، ويسر لهم وسائل التوفّر عليه ، بما جادت به مكارمه عليهم من المرتبات الشهرية ، فكان اجتماعهم في صعيد واحد ، وإجماعهم على ما يجدونه من جود جلالته وعنايته بهم ، من المشاهد التي تثير الإعجاب ، وتوجب الإكبار .

كلمة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر^(١)

شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد مأمون الشناوى

أبنائى طلاب البعوث الإسلامية :

السلام عليكم ورحمة الله .

وبعد : فلقد سرفى وأثّج صدرى أنكم فى هذا اليوم السعيد المبارك ، قد جمعتمكم بحجة مولانا الفاروق العظيم ، فجئتم على قلب رجل واحد ، تحتفلون بعيد جلوسه السعيد الذى فاض على البلاد بمقدمه الخير العميم ، وعم بمطلعه النين والبركات ، وامتدت هوارفه فشملت البلاد الإسلامية جميعها ؛ فأصبحت كلها تستظل بظله الوارف ، وتعم بعطفه السابغ ، وتستضيء بنوره الهادى .

والى إذ أقدر فيكم شعورك بالوفاء لولى النعم ، مولانا الفاروق المعظم الذى جمع شمل أبناء المسلمين من شتى بقاع الأرض فى صعيد واحد ، ليربطهم جميعا برباط الاخوة الإسلامية ، ويقوى بينهم أواصر المحبة والالفة والتعاون ، وليلأ قلوبهم بحجة الله ، وعقولهم بالعلم والحكمة ، وينير بصائرهم ، ويرشدهم فى دين الله ليكونوا خير هداة لشعوبهم وأممهم إذا رجعوا إليهم ، وأصلح دعاة ومرشدين تتحقق بهم أمنية الملك الصالح العظيم ، من رفع لواء الإسلام فى الخافقين ،

[١] طبعت خطب البعوث الإسلامية ووزعت على الموجودين بعد الحفلة ، وقد قدمها فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد مأمون الشناوى بهذه الكلمة القيمة .

والنهضة بالشعوب الإسلامية ، نهضة تعيد لها سالف مجدها ، وتضمن لها مكاناً رفيعاً ، تنصهر به أمم الأرض في توطيد المحبة والسلام .

أرجو أن تعكفوا على العلم ، وأن تستزيدوا من المعرفة ، وأن تحرصوا على كتاب الله وسنة رسوله وفضائل دينه الخفيف ، وأن تفيّدوا من هذه الفرصة الذهبية التي طوعتكم لكم أريحية الملك العظيم ، بما لم يعرفه التاريخ من قبل . فقدد رعاكم مولانا العظيم - رعى الله عرشه وأيد ملكه - ويسر لكم سبل الحياة ، وأفاض عليكم النعم ، وهياً لكم كل ما يوفر لكم الانصراف إلى العلم هادئين مطمئنين . . . فاعملوا يا أبنائي جادين لترضوا الله ورسوله ، وتحققوا أمل الفاروق العظيم فيكم ، فإن الأمة الإسلامية كلها تعقد على شباب الإسلام في ظل الفاروق المحبوب أكبر الآمال .

وإني لاتوجه في هذه المناسبة الكريمة باسمكم واسم الشعوب الإسلامية جمعاء ، والأزهر الشريف علمائه وطلابه ، بالتهنئة الصادقة ، إلى مولانا المعظم الملك فاروق الأول - أعزه الله - بهذا العيد السعيد ، رافعاً أكف الضراعة إلى الله أن يصون ملكه ، ويحفظ عرشه ، ويحقق للإسلام والمسلمين على يديه المجد والعظمة ، وأن يحيمه حياة طيبة مباركة يعم نفعها البلاد والعباد . والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الأزهر

حضرة صاحب العزة مندوب حضرة صاحب الجلالة الملك

سادق ، أبنائي :

نحتفل اليوم بعيد حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الاول أعزه الله ، وقد طلب أبنائنا طلاب البعوث الإسلامية بالأزهر أن يكون لهم شرف الاحتفال بهذا العيد الميمون ، للإعراب عما تكنه نفوسهم من الحب والولاء والإخلاص لصاحب العرش المفدى .

ولما رفعت إلى مسامع جلالاته هذه الأمنية تفضل حفظه الله ، فشمّل هذا الحفل برعايته السامية ، وأرسل سمادة المندوب ليكون للحفل مظهر الشرف والتكريم ، وأمر بأن تهدي صورته الكريمّة للطلاب رمز حبه لهم وعطفه عليهم . وفي الحق أن تنظيم أمور البعوث الإسلامية بالأزهر لم يكن إلا جانباً من جوانب الإصلاح العامة ، التي تمت في الأزهر بإرشادات حضرة صاحب الجلالة الملك .

فند سنة ١٩٤٤ تقرر بقانون ، لإنشاء قسم للبعوث الإسلامية بالأزهر وأصدر المجلس الأعلى لائحة بتنظيم هذا القسم . وبهذا التنظيم أصبح من الممكن للطلاب الذي يحضر من بلاده لتلقي العلم بالأزهر أن يدخل السكليات أو المعاهد إذا أراد أن يتعلم على النظام الحديث ، أو أن ينتظم في هذا القسم الجديد إذا أراد أن يتعلم على طريقة الأزهر الأولى .

ومع هذا فقد أعدت دراسات خاصة للطلاب الذين لا يعرفون اللغة العربية تؤهلهم للدخول في السكليات أو المعاهد أو للسير في هذا القسم .

وبإرشاد جلالة الملك وتوجيهاته السامية ، أعدت للبعوث مساكن مؤقتة ، ومضادة بالكهرباء يجدون فيها راحتهم وطمانينتهم ، كما رتب لهم إعانات شهرية تنفعهم في معيشتهم وتعينهم على طلب العلم .

وجلالته يتعهدهم دائماً بالسؤال عن أحوالهم ، وما هم عليه من راحة وهناءة .
ولما بلغ إلى مسامع جلالته أن ميزانيتهم أصبحت لا تكفي أمر - حفظه الله -
بصرف مبلغ عشرة آلاف جنيه مرة ، وفي هذه الايام القريبة أمر بصرف
خمسة وعشرين ألفا حتى تصدر ميزانية الازهر العامة .

لحقيق بهم وهم ينعمون بهذه المزايا العظيمة ، والعطف السابغ ويعيشون
تحت وارف ظله ، أن يذيعوا هلى الملأ ما يملأ قلوبهم من صادق الولاء وخالص
الحب لذاته السكريمة . وأنى أكتفى بهذا وأترك لهم الفرصة لينالوا أكبر قسط
من الوقت فى إذاعة كلماتهم التى أعدوها .

حفظ الله الملك ، وجعله ذخرا للإسلام والمسلمين ، ومنارا للعلماء والطلاب ،
والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة

مراقب البعوث الإسلامية

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ عبد الحميد طاهر

حضرة صاحب العزة مندوب حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم .

في مثل هذا اليوم منذ أربعة عشر عاماً ، جلس على عرش أجداده الأجداد ،
عرش الأسرة العلوية المجيدة ، ملك إسلامي عظيم ، وملك شرقي جليل ، هو
حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم ، الملك فاروق الأول ، حفظه
الله وأبقاه .

حقاً إنه ملك إسلامي بعيد المدى عظيم الأثر ؛ إذ ما كاد يتولى الملك وهو
في إبانته ونضرة شبابه ؛ حتى أخذ في خدمة الإسلام والمسلمين ، وفي رفع شأنهم
ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . وكَم من المشاكل الكبيرة والكثيرة التي وقعت في
هذه السنين الأخيرة ؛ والفضل في حلها وتبسيطها وتذليلها ، عائد إلى جلالة الملك
فاروق ، بما أعطاه الله من جاه ونفوذ وشجاعة ، وسداد رأي ومحبة وإيمان .

ولأنها لمزايا خص الله بها جلالة الفاروق ، حتى جعل عرشه ملاذاً للمسلمين
في أمور دينهم ودنياهم ، كما جعل شخص جلالته رمزاً لآمانهم ومعقداً لرجائهم
وقبلة لأفئدتهم ؛ وحتى صارت محبة الفاروق جزءاً من حياتهم . وإنك مهما تمش
في مناكب الأرض ، فلن تجد مسلماً يجهل الفاروق ، بل إنك لتجد المسلمين في
مشارك الأرض ومغاريها ينطقون باسم الفاروق ، ويتعلقون بشخصه المحبوب
ويعقدون الآمال عليه ، ويزينون بيوتهم بصورته ، ويباركون أبناءهم باسمه ،
ويعثون إليه بتحتياتهم ، ويدعون له في صلواتهم .

وليس عجيباً أن يعتقد إجماع المسلمين والشرقيين على حب الفاروق ، هذا
الحب النادر الفريد ، فقد مرت بالناس ظروف من الشدائد والمحن ، وثورات

في النفوس ، دينية واجتماعية ، كادت تهدد كيان الاسرة الإسلامية الكبرى ، وتقلب الأوضاع الاجتماعية ، والاسس الدينية ، لولا نجدة الفاروق ومبادرة جلالته بإحياء القوة المعنوية ، والأخذ بالشعائر الإسلامية والتقاليد الشرقية ، وإبرازها في أجل مظاهرها ، واخث عليها ، والدعوة لها ، والعمل بها ، فكانت بذلك حركة الإنقاذ الحاسمة ، وما ذلك إلا بفضل عناية جلالته ، ودقة توجيهاته وسرعة إرشاداته العالية الغالية النفاذة .

حقاً : حقاً لقد أنقذ الإسلام والشرق من تلك الأباطيل المادية ، والمبادئ الهدامة ، ورفع من معنويات المسلمين والشرقيين ، فشعروا بالقوة الكامنة فيهم ، كما شعروا بقيادة الفاروق وبعد نظره .

ولقد كتب جلاله الفاروق منذ اليوم الأول أنصع صفحة في التاريخ ، وسيتيق على الاجيال المتعاقبة أعظم مثل لشباب الملوك في وثباتهم ورزانتهم وتجاربهم . وإنى وقد جمعت إلى هذه الصفات النادرة في الملوك ، فلن يفوتني أن أذكر بالتمجيد والتعظيم ملك مصر الراحل العظيم فؤاداً الأول ، أسكنه الله فسيح جناته ، وما كان له من الأيادي البيضاء التي تذكر فثشكر : هو مؤسس النهضة الفكرية والاستقلالية ، وواضع الحجر الاساسي للنشاط الثقافي والاجتماعي ، وموطد الحركة الدينية والتعليمية ، وهكذا : هذا الشبل من ذاك الاسد .

سادق :

هذه هي جماعات البعوث الإسلامية الناضرة بالازهر ، وفدت من جميع أنحاء العالم ؛ تلك الشبيبة التي هي عدة الإسلام في المستقبل ، هم سفراء أممهم إلينا كما هم سفراءنا إلى أممهم ، هم رسل الإخاء الإسلامي ، وهم رسل التوحيد الإسلامي .

هذه الشبيبة الفتية إنما هي بعوث الأمم الإسلامية ، جاءوا في هذا اليوم السعيد ، يحتفلون بعيد جلوس حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق ، ملك لا يرتبط ملكه بعرش دون عرش ؛ فهو ملك لكل واحد منهم ، إذ قد تملك على الأفتدة بما أعقد عليها من نفحاته وما منحهم من تعطفاته ، حتى أكمل لهم دواعي راحتهم في معيشتهم ودراساتهم . ولا غرو إذا كانوا السنة تلمج بفضل الفاروق والإشادة بعظمته وعنايته ، إخلاصاً وولاء ومحبة إلى يوم يبعثون .

وقد تجلّت نتائج هذا الاهتمام الملوكى السامى ، فتنوعت البعوث وازداد
عديدها ، وازدهرت فبلغت أقصى ما بلغت إليه ، إذ وصل عددهم اليوم ألفاً وستمائة
طالب نجيب ؛ فى حين أنه لم يبلغ فيما مضى أكثر من نصف هذا العدد ، مع زيادة
العناية بتنظيم حياتهم الاجتماعية والتعليمية والمعيشية .
سادنى :

إنى أتشرف بأن أرفع إلى المقام الملوكى السامى فروض الشكر على تفضل
جلالته برعاية هذا الحفل ، وإيفاد مندوبه السامى تكريماً لهذه البعوث ؛ كما أدعو
الله تعالى أن يحفظ جلالته ، ويديم ملكه ، ويقيه ذخراً للإسلام والشرق .

ذكرى وفاة الملك العظيم فؤاد الأول

في يوم الجمعة الموافق ٢٨ من مارس سنة ١٩٥٠ اجتمع عدد كبير من كبار رجال الحكومة والعلماء والوجهاء وطلاب الجامعة الأزهرية ، للاحتفال بذكرى المغفور له الملك العظيم فؤاد الأول ، في فناء كلية اللغة تحت رئاسة حضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الأزهر ، وقد شرف هذا الاحتفال سعادة أحمد حسن بك وكيل ديوان صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول .

بدأ الاحتفال بتلاوة آيات من السكتاب الكريم ، ثم نهض حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الأزهر وألقى كلمته القيمة في مناقب الملك فؤاد ، وما تم على يديه من اصلاحات مادية وأدبية للأمة وللبلاذ ، فكان لها وقع حسن في الأسماع والقلوب . ثم أعقبه ثلاثة خطباء من الطلبة المنتهين ، وألقى كل منهم كلمة في تعداد مآثر المغفور له الملك الكبير على الأزهر والأزهريين .

وبعد أن تم إلقاء الخطب نهض سعادة وكيل الديوان الملكي فوزع على الأوائل المتقدمين جوائز من نقود وصور ، وتم الاحتفال بقراءة آيات من القرآن العظيم والدعاء لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق بطول البقاء .

كلمة حضرة صاحب الفضيلة وكيل الأزهر

حضرة صاحب العزة مندوب حضرة صاحب الجلالة الملك .

أيها السادة :

في مثل هذا اليوم من سنة ١٩٣٦ لحق بالرفيق الأعلى عاهل مصر ساكن الجنان ، المغفور له الملك فؤاد الأول ، بعد أن أدى لشعبه الوفي خير ما يؤديه ملك عظيم لأمته ووطنه .

كانت الحماية البريطانية على مصر شغله الشاغل ، كما كانت كذلك بالنسبة للأمة ، فعمل بما وهبه الله من الجلد ، والصبر وحسن التدبير لاستخلاص مصر من هذه الحماية ، وكان لعمله أثر عظيم في تقوية روح الأمة في جهادها وثباتها في هذا السبيل ؛ حتى كانت منه ومن الأمة قوة عظمى ، حفزت الحكومة البريطانية على إعلان رفع الحماية واستقلال مصر ، ثم أعلن هو للملأ أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، وأنه اتخذ لنفسه لقب صاحب الجلالة ملك مصر ، وأصدر الدستور على أحدث النظم الدستورية ، وافتتح البرلمان في ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ .

كانت هذه الفترة من حياة الملك فؤاد منذ تولى عرش مصر من أشد الأيام وأشقها ، ولكن كان له من قوة نفسه ، وحسن سياسته وتقديره للأمور ما جعله ينهض بالعبء ، ويناصر الأمة في جهادها ، ويخطو بمصر إلى الامام حتى صارت دولة مستقلة دستورية ، تبوأ مكانتها بين أمم العالم المستقلة .

وكان للملك فؤاد أعظم الله مثواه ، شغف عظيم بالإصلاح في شتى مرافق الأمة ، فسارت الحكومة مسترشدة بأرائه وحسن تدبيره في الإصلاح بخطى محمودة موفقة ، حتى عم الإصلاح النواحي المختلفة من الصحة والرى والزراعة والصناعة والتشريع والتعليم وغير ذلك .

وكان للإصلاح التعاونى في عهده الزاهر أثر ملحوظ في سريان الروح التعاونية بين طبقات الشعب ، وإقدام الجماعات على إنشاء الجمعيات التعاونية على اختلاف أنواعها مما أفاد الأمة إفادة عظيمة ، خصوصاً في الأوقات الحرجة التي مرت بها .

والتعليم ، وإن كان قد خطى في عهده الميمون خطوات طيبة ، حيث ارتفعت فيه نسبة المتعلمين من ستة إلى ١٨ ٪ ، وفى الذكور إلى ٢٦ ٪ إلا أن هناك أضرار جديران بالتنويه والإشادة بما أثره فيهما وهما : الجامعة المصرية والأزهر .

أما الجامعة المصرية التي تعد مفخرة من مفاخر مصر ، بل هي بحق مفخرة فؤاد العظيم ، فقد أشرف على تأسيسها منذ كان أميراً وعمل على إنجازها ، ومع ما صادفه وأعضاء اللجنة من الصعوبات ، أمكن افتتاحها في سنة ١٩٠٨ ، ثم أخذ

يرعاها ويتمهدها ويقومها بكل ماله من نفوذ وجاه إلى أن صارت جامعة فؤاد الأول ، ووضع يده حجر الأساس لبنائها الفخم القائم الآن ، واستمرت في رعايته إلى آخر حياته .

أما الأزهر فكان رحمه الله شديد الاهتمام بشأنه ، وكان من أعز أمانيه أن تصلح أموره على الأسس الصالحة التي تمكنه من القيام برسالته على وجه يحقق الفائدة المرجوة منه ، وذلك بنشر تعاليم الإسلام بين الناس في مصر وغير مصر ، وتعريفهم جميعا ما فيها من خير وهدى ونور .

زار جلالة الأزهر عقب توليه عرش مصر بأيام ، ووهب طلابه مبلغاً عظيماً من المال ، ولم يلبث أن أصدر أمره الكريم بترتيب جائزة سنوية للمتفوقين في شهادة العالمية ، وهي الجائزة التي توزع اليوم على الطالبين الأولين من كل كلية من الكليات الثلاث .

كان لهذه الرعاية الكريمة أثر بالغ في نفوس الأزهريين ، لما فيه من مظهر التكريم لهم وللمعهد العظيم من الجالس على عرش مصر ، وقد أصدر عدة قوانين ومراسيم إصلاحية ، كان من أهمها القانون رقم ٣٣ لسنة ١٩٢٣ ، وهو القانون الذي نظم أقسام التخصص في الأزهر ، فكان له أثر عظيم في تعويد العلماء على البحث العلمي المستقل والتأليف . وفي الأزهر الآن مئات المؤلفات من الكتب والرسائل التي ألقت في عهده الزاهر . وما الحركة الوعظية المباركة التي انتشرت في أنحاء البلاد ، فكان لها الأثر المحمود في إصلاح النفوس وتوجيهها إلى الخير ، إلا من آثار هذا الإصلاح في عهده .

وبعد هذه الخطوات المباركة ، كان الإصلاح الشامل الذي قصد به أن ينهض الأزهر نهضة قوية يسير فيها النهضة العامة في العصر الحاضر ، مع المحافظة على آثار الفكر الإسلامي وما فيه من علم ومعرفة ، فأصدر القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ الذي نظم الأزهر تنظيمًا جامعيًا ، وأدخلت في تعليمه اللغات الأجنبية والشرقية ، وأمر طيب الله ثراه بإعداد المباني الفخمة ، التي تناسب هذا النظام ، فكان ما أراد ، ورصدت الحكومة مئات الألوف من الجنيهات لهذا الغرض .

وما هو ذا الفاروق العظيم — أعزه الله — يتم ما بدأه والده العظيم من هذه المنشآت، وقريبا تتم إن شاء الله .

كان من أثر هذه النهضة الإصلاحية المباركة ، التي رباها فؤاد العظيم ، وأحاطها بعنايته وحسن رعايته ، أن اتصل الأزهر بأوربا وغيرها ، فأرسل عدة بعوث من العلماء إلى جامعات أوربا للتزود من العلم ، وأرسل بعوثا أخرى إلى بعض البلاد لنشر الدين والثقافة الإسلامية ، وتعريف الناس ما في الإسلام من خير وصلاح للمجتمع .

وفي الحق أن لذلك فؤاد مآثر عظيمة على الأزهر والأزهريين ، ولو ذهبنا نعدد مآثره من إنشاء المعاهد والأبنية الفخمة ، ورفع ميزانية الأزهر إلى أضعاف ما كانت عليه ، وغير ذلك من الشئون ، لما وسعنا هذا المقام .

رحم الله فؤاداً العظيم ، وجعله في أعلى عليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

عناصر المدنية في الديانة الإسلامية

بيننا في مقالنا السابق ، ما للرابطة الادبية من تأثير على حياة الاجتماع ، وانتظام وجوده ، واطراد ترقيه ، فإذا تأثرت بأقل عارض اضطرب له جثمان المجتمع ، وتزلزلت أركانه ، وأذنت بالتصدع والانحيار ، إذا لم يبادر حفظه تلك الرابطة إلى إزالة ذلك العارض . وما الثورات التي يشب أوارها في المجتمعات ، فتندلع ألسنته في جميع نواحيها ، وتأتي على الأخضر واليابس منها ، إلا نتيجة كما قلنا ، لتأثر تلك الرابطة . وهي تتألف من ركنين عظيمين : دين الأمة وعاداتها المألوفة ، وتقاليدها الموروثة .

ولما كان من المحال أن تقيم الأمم على حالة واحدة من الحياة والعادات والتقاليد ، ما دام ناموس الترقى عاملاً رئيسياً في حياة الأمم ، فلا مندوحة من طرود تأثيرات متوالية من ناحيته عليها ، فلا تنقطع مادة الثورات والانقلابات الاجتماعية في أدوار متقاربة أو متباعدة من حياتها .

نعم ، قد يظهر أن ناموس الترقى عديم التأثير في بعض الجماعات البدائية ، فإن منها من مضى عليها عشرات من القرون ، وهي ملازمة لحالة واحدة لا تزيح عنها ، ولكن لذلك أسباباً طبيعية ، وهي أنها تقيم بعيدة عن العمران ، وتعيش في بيئات مجربة لا تحصل فيها على مقومات حياتها إلا كدداً ، فلا تجد أي حافز يدفعها ، لأن تتقدم خطوة واحدة في مجال الحياة . فإن طرأت انقلابات اقتضت أن تقرب منها جماعة أخرى أرقى منها ، وحدث اتصال بينهما ، كان ذلك فاتحة انتقال لها من حال إلى حال أخرى أرفع منها ، بما تقتبسه من وسائل جارتها ، وما تستفيدة من تجاربها ، ووجد ناموس الترقى بجباله في بعضها من رقادها . على أنه قد شوهد أن من الجماعات من جمدت على ما هي عليه ، فأصبحت تستعصى على الترقى ولا تقبله مهما كان جذاباً ، كهنود أمريكا الشمالية والجنوبية

فقد احتلتها الدول الأوروبية منذ قرون ، ففضل أهلها الأولون البعد عن المتعدين والعيش على أسلوبهم متوحشين ، على أن يحسنوا من شأنهم باقتباس ما هم في حاجة إليه من نظم الاجتماع ، وما هم مجرومون منه من وسائل العيش الرغيد ، ولا يزالون يعيشون على طريقتهم القديمة بعيدين عن العمران ، وتحث تأثير عوامل الانقراض والفناء .

فناموس الارتقاء هو الحافز الأول في بث روح الثورة في الجماعات ، وهي وإن كانت تسبب كثيرا من المتاعب لها ، إلا أنها بما تستتبعه من الانتقالات الاديبة والمادية تعتبر من الضروريات للجماعات . على أنها من العوامل الخطرة ، وخاصة إذا كانت تشب في طائفة تجاوز أخرى مزاحمة لها في البقاء ، فإنها بما تحدثه من التفكك في رُبُطها ، وما تستدعيه من الفوضى في نُظُمها ، تسهل لجاراتها الإجهاد عليها .

وإذا تأملنا في بواعث الخلاف الذي يؤدي إلى تناحر الآحاد في الجماعة الواحدة ، تحت تأثير عوامل الارتقاء ، وجدناه يرجع إلى أسباب دينية وعادية . فالاديان بما تشاب به من الخرافات ، والعادات بما تلتك به من الجود ، قد تصبح عوامل معطلة للارتقاء ، وقد يدرك هذه الحقيقة جمهور من النباه ويعملون على التجديد ، فيخيل للجامدين أنهم أصبحوا خوارج على تراث الآباء من عادات ومعتقدات ، فيحقدون عليهم ، ويتداعون إلى الإيقاع بهم ، فتشب نار الثورة بين الإخوان ، ثم تخمد بغلبة أحد الفريقين ، فإن كان الفائزون هم المحافظون ، ازدادت الجماعة تقهقرا في مجال الحياة ، وإن دارت الدائرة عليهم استطاع المجددون أن يخطوا بجمعهم خطوة أو خطوات في سبيل الارتقاء . وهذا التدافع الاجتماعي لا مناص منه حتى في أدوار الرسائل السماوية . ألم تصادف رسالة الإسلام ، وهو الدين العام ، من هذا التدافع ، مع نصوص أدلها ، وتجلي حكمها ، ووضوح الحاجة إليها ، ومن التألب على أبطالها ، ما يعتبر من أغرب أطوار الحالات النفسية والعقلية للجماعات البشرية ؟

كل هذا مسَّلم به ، ولكن تأمل فيما حدث بعد أن تكونت أول جماعة للمسلمين : تألفت هذه الجماعة من شتى القبائل العربية ، ولكل منها عقائد موروثة ،

وتقاليد مألوفة ، وعادات امتزجت بنفوسهم ، كسكل جماعة بدائية لم يهذبها علم ، ولم تقوّمها حكمة ، فهي وإن كانت قبلت الدعوة المحمدية ، فلم تتجرد من شخصيتها البدوية ، فكان المعقول أن تفهم ما يلقى إليها من التعاليم على أسلوبها ، فتحوّله إلى ما درجت عليه من سيرتها ، وتحمده عليه كما جمدت على موروثاتها قروناً طويلة ، وتقع من جديد تحت سلطان ناموس الترقى ، فتسكبد من جمودها وعوامله ، ما تمكّبه كل جماعة في مثل عقليتها . ولكن الأمر لم يجر على هذه السنة الطبيعية ، بل جاءت سيرتها خارقة للعادة ، تعتبر بحق أكبر معجزة وقعت في هذا العالم . ذلك أن هذه الجماعة أخذت تزداد كل يوم عدداً ، وما مضى عليها سنوات معدودة حتى انقلبت إلى أمة فاتحة ، ذات نعمة إصلاحية مدوّية ، وما هي إلا ثمانون سنة حتى أصبح لها أمبرطورية لم تنبُغ لامة قبلها ولا بعدها ، وما بلغت سنّها مائة وخمسين سنة حتى آلت إليها خلافة الله في الأرض ، فصارت جامعاتها العلمية محجاً لطلاب العلم من جميع بقاع المعمورة ، ودورها الصناعية مورداً هداً لطلاب الفنون الجميلة ، ومكتباتها الفخمة ملتقى لعشاق المعرفة ، وفلاسفتها وأطبائها وفلسكيوها وكمياويوها ومشرهوها أئمة لكل راغب في الغايات القصية .

حدث كل هذا دون أن يحدث شيء من التدافع بين طوائفها ، إلا ما لا بد منه عند ميلاد كل رأى جديد ، أما الثورات المسلحة ، وأما الدماء المهرقة ، وأما التهاطحن الماحق لطيبات الأمم ، بسبب التنافس بين أنصار القديم ، وأصحاب الجديد ، فلم يكن له أثر في تلك الملايين الكثيرة من المسلمين في تلك العصور البعيدة . فأين ما ذكرناه من أفاعيل ناموس الترقى في الجماعات البشرية ، وقد بدأ المسلمون جماعة أمية لا عهد لها بكتاب ولا علم ، وما زالت تتطور بسرعة لم تعهد في تاريخ أمم العالم أجمع ، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من سعة في الملك ، وكثرة في العدد ، حتى صارت أكبر دولة في الأرض ؟ فأين التدافع الاجتماعي الذي يصيب الجماعات عند كل مرحلة من مراحل التطورات المدنية ؟ بل أين الانقلابات المدوّية التي تصاحب كل حضارة في أدوار الانتقالات التجديدية ؟

عجب لا يشبهه عجب ! لقد اتبعت هذه الامة من سنة التطور ما يكابده الطفل من يوم ولادته حتى يبلغ أشده ، دون أن يصيبه مرض يقفه عن النمو ، ولم

تؤثر عليها الفواعل المحيطة بها ، بما يحول بينها وبين بلوغ غاية نموها ، هل كثرة العوامل العالمية التي كانت تحتوشها من كل جانب ، حتى صدق عليها قوله تعالى :
 « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليجعلن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

نعم إن الذين يؤمنون بالتأييد الإلهي ، والتوجيه السماوي للأمم ، هم وحدهم الذين يفهمون في هذا الموطن معنى هذا التأييد الإلهي ؛ أما الذين لا يؤمنون به ، ويرون أن العالم يجري على السنن الطبيعية ، دون أى تأييد فوق الطبيعة ، فلا يستطيعون أن يفهموا سر تطور المسلمين من أول مراحل الاجتماع ، حتى يصلوا إلى خلافة الله في الأرض ، بعد سنين معدودة لا تكفي لنقل جماعة سوام درجة واحدة من درجات الرقي ، دون أن يمتنوا بانقلابات تنزلزل لها الأرض التي تحت أقدامهم ، وتضيق لها المنادح التي أمام أعينهم !

نعم إن هذا الأمر المعجز أثر ناطق للتأييد الإلهي المباشر ، وللتوجيه السماوي المحكم ، ليكون لاهل القرون المتأخرة آية تحر لها العقول ساجدة ، وتوحيدها العلوم جاهدة ، فتغلب على الشبه والشكوك التي يثيرها الملحدون حول أمثال هذه المعجزات الخالدة . ولكن أنسى لهم إنكارها ، وقد ملا الخائفين لآلائها ، وعم العالمين سلطانها ، وبقيت إلى اليوم آثارها ، فلا يتسنى لأحد إنكارها ؟

قلنا إن الروابط الأدبية للأمم تتألف من ركنين : أديانها وعوائدها ، فإذا كانت الأمة الإسلامية قد مثلت معجزة اجتماعية تعتبر غاية الغايات في الجلالة ، فإنما يرجع ذلك إلى ديانتها دون عوائدها ، لأنها أعلنت بإسلامها أنها قاطعت جميع عوائدها ، اكتفاء بما تمدها به ديانتها من آدابها ، وبذلك ينحصر سر نهضتها بتلك السرعة والثبات المحيرين للعقل ، في ديانتها ، فرأينا أن نبدأ في دراستها من الناحية التي نحن بصدها من العدد المقبل إن شاء الله .

ولا يستمر للمرأة

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ فكري ياسين

أخرج البخارى وأحمد وغيرهما عن أبي بكرة نفيح بن الحارث ، قال :
لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى ،
قال : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » .

يتصل بهذا الحديث واقعتان هامتان توضحان معناه ، وترشدان إلى الغرض
المقصود منه ، وتفيدان إلى حد كبير في بيان موقف بعض من كانت لهم في
الماضى ولاية أو قيادة ، ومعرفة مدى نجاحهم أو فشلهم في ذلك ، وإحدى
هاتين الواقعتين تتعلق بسبب ورود الحديث ، والآخرى تتعلق براويه .

فأما الاولى : فهي أن النبي صلى الله عليه وسلم ، كتب إلى كسرى كتاباً
يقول فيه : « سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله
إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الإسلام ،
فإني رسول الله إلى الناس كافة ، لينذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين ،
أسلم تسلم ، فإن أبيت ، فعليك إثم الجوس » ، ثم دفع بهذا الكتاب إلى عبد الله
ابن حذافة السهمي القرشي ، وأمره أن يدفعه إلى المنذر بن ساوى العبدى عظيم
البحرين ، ونائب كسرى عليها ، فذهب إليه ، وأعطاه الكتاب ، فدفعه هذا
بدوره إلى كسرى ، فلما قرأه مزقه ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعا
عليه بقوله : « اللهم مزق ملكه » ، فاستجاب الله دعاه ، وسلط على كسرى ابنه
فقتله ، ثم قتل إخوته ، وأفضى الأمر بهم إلى تأمير المرأة ، فجر ذلك إلى ذهاب

ملكهم ، وتمزيق شملهم ، وإدبار الدنيا عنهم ، وانقراض أمرهم في خلافة عمر رضى الله عنه . ذكر أصحاب المغازى أن كسرى هذا ، لما علم بأن ابنه شيرويه يعمل على قتله ، احتال هو أيضاً على قتل ابنه بعد موته ، فوضع في بعض خزائنه المختصة به حُقماً مسموماً ، وكتب عليه : « حَقَّ الجَماع » — من تناول منه كذا ، جامع كذا — فلما عثر عليه شيرويه ، وقرأ ما كتب فوقه ، تناول منه كمية كبيرة ، فكان فيها هلاكه ، فلم يعيش بعد أبيه سوى ستة أشهر ، ولم يخلف أخاً ، لأنه كان قد قتل إخوته حرصاً على الملك ، ولم يعقب ذكراً ، وكرهوا أن يخرج الملك عن هذا البيت ، فلكوا أخته ، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » .

وأما الواقعة الثانية المتعلقة براوى الحديث ، فهي أنه لما قتل عثمان ، وبويع على بالخلافة ، خرج طلحة والزبير إلى مكة ، فوجدوا عائشة — وكانت هناك للحج — فاتفق رأيهم على التوجه إلى البصرة ، يستنفرون الناس للمطالبة بدم عثمان ، فبلغ ذلك علياً ؛ فخرج إليهم ، فكانت الواقعة المشهورة المنسوبة إلى الجمل الذى كانت عائشة قد ركبت ، وهى فى هودجها تدعو الناس إلى الإصلاح .

ولما قيل لآبى بكر — راوى الحديث — : ما منعك أن تقاوم مع أهل البصرة يوم الجمل ؟ — ذكر كلاماً سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم فى هذا الشأن — ، ثم قال : لقد نفعنى الله أيام الجمل بكلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما كدت ألحق بأصحاب الجمل فأقاتل معهم ، ثم ساق الحديث الذى معنا ، وزادت بعض الروايات فى آخره أنه قال : فعرفت أن أصحاب الجمل لن يفلحوا ، وفى رواية عن الحسن أن عائشة أرسلت إلى أبى بكر ، فقالت : إنك لأم ، وإن حقك لعظيم ، ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن يفلح قوم تملسكم لمرأة » .

فهاتان الواقعتان مع اختلافهما فى الزمان والمكان ؛ والبيئة والوسط ، والعقلية والتفكير ، تدلان بصفه عامه على صواب نظر الحديث وصحة وجهته ، وتشيران إلى أن كل قوم يجعلون قيادتهم فى يد امرأة ، ويرسلون لها الجبل على الغارب ، ويعطونها مطلق الحرية ، ويتركون لها سلطة التصرف

فتستبد بالامر دون الرجال ، تفعل ما تشاء ، وتدع ما تريد بلا رقيب ولا حسيب ، ولا ناصح ولا مشير ، ولا مدبر ولا مفكر ، فلا بد أن طبيعة المرأة ستؤدى حتما بهؤلاء القوم إلى الوقوع فى الفشل والإخفاق .

نعم قد وجدت فى العصور الحديثة بعض الدول الكبرى التى كان يحمل تاج الملك فيها بعض النساء ، وقد بلغت هذه الدول فى عهدهن من الرقى والتقدم والفلاح والنجاح شأوا بعيدا ، ولكن الواقع أن تلك الدول لم تكن محكومة للمرأة حكما مطلقا ، بل كانت دولا ديمقراطية ، تعتبر المرأة فيها رمزا للتاج فقط ، وتمارس شئون الملك بواسطة رجال الهيئات المختلفة الممثلين فى السلطات : التنفيذية والتشريعية والقضائية ، وفى المجالس العليا فى الجيش والسياسة والتعليم وغيرها ، وبواسطة التقاليد المرعية ، والأنظمة الدبلوماسية ، والأحكام الدستورية الكفيلة بوضع الأمور فى مواضعها ، فالحاكم فى الحقيقة هو الرجل لا المرأة .

على أن المرأة — حتى فى مثل هذه الحالة أيضا — لا يمكن لها أن تنفى طبيعتها ، ولا أن تتخلى عن سميتها ، فلا بد من أن يفرط منها ما قد يدعو إلى إثارة المشاكل والصعاب ، ويؤدى إلى تفويت ما يراه المصلحون والمفكرون من خير وفائدة ، فإبعادها عن معترك الولايات العامة أنفع وأجدى على البلاد والعباد .

* * *

يدعونا التحقيق العلمى ، والإنصاف التاريخى إلى هذا إلى التعقيب على الواقعة الثانية بما يجلو الغامض ، ويزيل الشبهة ، فقد فهم البعض من كلام أبى بكر أن فيه شيئا من التضعيف لموقف عائشة ، والملاحظة على رأيها ، والنقد لتصرفها ، فراح يدفع ذلك ، ويوضحه ويبين وجهته فيه ، فقال : إن ظاهر حديث أبى بكر يوم توهين رأى عائشة ، فيما فعلت ، وليس كذلك ، لأن المعروف من مذهب أبى بكر ، أنه كان على رأى عائشة فى طلب الإصلاح بين الناس ، ولم يكن قصدهم القتال ، ولكن لما انتشبت الحرب ، لم يكن لمن معها بد من المقاتلة ، ولم يرجع أبو بكر عن رأى عائشة ، وإنما تفرس بأنهم يغلبون ، لما رأى الذين

مع عائشة تحت أمرها لما سمع في أمر فارس ، ويدل لذلك أن أحداً لم ينقل أن عائشة ومن معها نازعوا علياً في الخلافة ، ولادعوا إلى أحد منهم ، ليولوه الخلافة ، وإنما أنكرت هي ومن معها على عليّ منعه من قتل قتلة عثمان ، وتركه الاقتصاص منهم ، وكان علي يفتظر من أولياء عثمان أن يتحاكموا إليه ، فإذا ثبت على أحد بعينه أنه ممن قتل عثمان ، أقتص منه ، فاختلفوا بحسب ذلك ، وخشى من نسب إليهم القتل أن يصطلحوا على قتلهم ، فأنشئوا الحرب بينهم إلى أن كان ما كان ، فلما انتصر على عليهم ، حمد أبو بكره رأيه في ترك القتال معهم ، وإن كان رأيه موافقاً لرأى عائشة في الطلب بدم عثمان .

ولكن المعتمد من مذهب أبي بكره غير هذا ، فإنه كان يرى السكف عن القتال في الفتنة ، فليس هو على رأى عائشة ، ولا على رأى عليّ في جواز القتال بين المسلمين أصلاً ، وإنما كان رأيه ترك القتال وفاقاً لسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة ، وغيرهم ، ولهذا لم يشهد صفين مع عائشة ، ولا مع علي ، ولما لقي الأحنف بن قيس خارجاً بسلحاه لنصرة عليّ ، نهاه عن القتال ، فهو إذن ليس متحاملاً على عائشة ، ولا متعصباً لعليّ ، وما ذكره في الحديث من انتفاعه بكلمة الرسول ، وعدم خروجه مع أصحاب الجبل ، إنما هو تأكيد لرأيه في وجوب اعتزال القتال بين المسلمين ، وترك الدخول في الفتنة ، وإن كان هذا الرأي يخالف ما ذهب إليه جمهور الصحابة والتابعين من وجوب نصر الحق ، وقتال الباغين ؛ قال الطبري : لو كان الواجب في كل اختلاف يقع بين المسلمين الحرب منه بلزوم المنازل ، وكسر السيوف ، لما أقيم حق ، ولا أبطل باطل ، ولو وجد أهل الفسوق سبيلاً إلى ارتكاب المحرمات من أخذ الأموال ، وسفك الدماء ، وسبي الحرير ، بأن يحاربوهم ، ويكف المسلمون عنهم أيديهم بأن يقولوا : هذه فتنة ، وقد نهينا عن القتال فيها ، وهذا مخالف للأمر بالآخذ على أيدي السفهاء .

ولشيوع هذا الرأي بين جمهور المسلمين في ذلك الوقت ، كان عدد الذين توقعوا عن القتال في واقعتي الجبل وصفين أقل كثيراً عن عدد الذين قاتلوا ، والكل متأول مأجور إن شاء الله تعالى ، فقد اتفق أهل السنة على وجوب منع

الظعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك ، ولو عرف المحق منهم ،
لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد ، وقد عفا الله عن المخطيء
في الاجتهاد ، بل ثبت أنه يؤجر أجراً واحداً ، وأن المصيب يؤجر أجرين ،
وقد حملوا أحاديث الوعيد الواردة في ذلك على من قاتل بغير تأويل سائغ ، بل
لمجرد طلب الدنيا والمملك .

* * *

أهل فارس : هم أمة الفرس المعروفة في التاريخ ، وفارس تطلق على الفرس ،
وعلى بلادهم ، فعلى الأول يصرف إلا أن يراد القبيلة ، وعلى الثاني يجوز الأمران
كسائر البلاد ، وقد جوّز بعض أهل اللغة صرف الاسماء كلها .

وملكوا عليهم : جعلوها ملكة عليهم ، والمملك : هو المتصرف بالأمر والنهي
في الجمهور ، وذلك يختص بسياسة الناطقين ، ولهذا يقال : ملك الناس ، ولا يقال :
ملك الأشياء ، والمملك : ضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم . والمملك ضربان :
ملك هو التملك والتولى ، وملك هو القدرة على ذلك تول أو لم يتول ، والمملك
كالجنس للملك ، فكل ملك ملك ، وليس كل ملك ملسكا ، والمملكوت : يختص
بملك الله تعالى ، والمملكية : سلطان الملك وبقائه التي يتملكها ، وأما المملك :
فالنحويون جعلوه من لفظ الملائكة ، وجعلت الميم فيه زائدة ، وقال بعض
المحققين : هو من المملك ، والمتولى من الملائكة شياً من السياسات يقال له :
ملك بالفتح ، ومن البشر ، يقال له : ملك بالكسر .

وبنت كسرى : هي بوران بنت شيرون بن كسرى بن برويز ، وكسرى
بفتح الكاف ويكسرهما ، وقال ابن الجواليقي : الكسر أفصح ، وهو فارسي معرب
خسرو ، ومعناه بالعربية المظفرى ، وقال الجوهري : جمعه أكاسرة على غير قياس ،
لأن قياسه كسروان بفتح الراء ، وهو لقب لكل من ملك الفرس ، كما أن قيصر
لقب لكل من ملك الروم .

استنبط العلماء من هذا الحديث أن المرأة ليست من أهل الولايات، وأنه لا يحل لقوم أن يولوها شيئاً من الأحكام العامة بين المسلمين، لأن تجنب الأمر الموجب لعدم الفلاح واجب.

والجمهور على أنها لا تلى القضاء، لأنه يحتاج إلى كمال رأى، ورأى المرأة ناقص، ولا سيما في محافل الرجال.

وأطلق ابن جرير الجواز في توليتها القضاء، ونقل ذلك عن بعض المالكية. وذهب الحنفية إلى جواز توليتها القضاء فيما عدا الأحكام التي لا تقبل فيها شهادة النساء، كما في الحدود والقصاص.

ومن العلماء من أخذ من هذا الحديث أنه لا يجوز للمرأة أن تزوج نفسها، ولا أن تلى العقد على غيرها، مستندا في ذلك إلى العموم الموجود في قوله: «ولوا أمرهم»، فإن المراد به كل أمر، والأمر في اللغة هو الشأن، وهو لفظ عام للأفعال والأقوال كلها، ولكن الظاهر أن الحديث وارد في الشؤون العامة لا الخاصة، كما يشعر به سبب ورود، وكما تلائمته حكمة التشريع، ولأننا لو حملنا العموم على إطلاقه، لتعطلت وظيفة المرأة في المجتمع؛ ولتعارض ذلك مع ما أثبتته الشارع لها من أنها راعية في بيت زوجها، وفي شئون عيالها.

سحر البيان

عن عبد الله بن عباس قال: وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبرقان ابن بدر وعمرو بن الهمم. فقال الزبرقان: يا رسول الله أنا سيد تميم، والمطاع فيهم، والمجباب منهم، آخذ لهم بحقوقهم وأمنعهم عن الظلم، وهذا يعلم ذلك مني.

فقال عمرو: أجل يا رسول الله إنه مانع لحوزته، مطاع في عشيرته، شديد المعارضة فيهم. فقال الزبرقان: أما والله يا رسول الله قد علم أكثر مما قال ولكنه حسدني شرفي. فقال عمرو: أما لئن قال ما قال، فوالله ما علمته إلا ضيق العطن، زمن المروءة، أحق الأب، لثيم الخال، حديث الغنى. فرأى الكراهة في وجه رسول الله لما اختلف قوله: فقال: يا رسول الله رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت، وما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الثانية. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكمة.

نَاحِيَةُ مِنْ سُلُوبِ الْقُرْآنِ فِي الْقَصَصِ

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني

المفتش بالازهر

كما يتصل ببيان الاسلوب القرآني في القصص ، ما جاء في قصة موسى والعبد الصالح في سورة الكهف ، حيث اختلف النسق فيما أجاب به العبد الصالح عن اعتراضات موسى ؛ ففي أمر السفينة قال : « فأردت أن أعيها » ، فأسند الإرادة والتعيب إلى نفسه ، وفي أمر الغلام قال : « نخشنا أن يرهقهما طغيانا وكفرا » ، فأردنا أن يبدلها ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً . فأسند الخشية والإرادة إلى ضمير المتكلم المعظم نفسه ، أو معه غيره مع إسناد الإبدال إلى الرب جل جلاله ، وفي أمر الجدار قال : « فأراد ربك » ، فأسند الإرادة إلى الله جل شأنه .

وقد ذكرت أوجه كثيرة في تخريج ذلك ، والذي أراه بعد التأمل ومراجعة ما قيل في هذا الشأن - وقد يتلاقى في بعض جزئياته مع آراء الآخرين - أن يقال :

١ - في أمر السفينة ، علم العبد الصالح ، أن ملكاً غاصباً سيقدم على هذا الموضع ، وأنه يجمع السفن الصالحة ، ولما كانت هذه السفينة لمساكين ليس لهم غنى عنها ، اجتهد في وسيلة يدرأ بها ذلك عنهم ، فأداه ذلك إلى أن يعيها عيباً يمكن إصلاحه فيما بعد ، حتى إذا رآها الملك ، ظنها غير صالحة ، فتركها فيصلحها أصحابها وتسلم لهم .

وهذا التصرف يمكن أن يلجأ إليه الناس عادة ، فهو من فعله ، ومن جهة أخرى كان اعتراض موسى على خرقه السفينة بأسلوب قد يدل على أنه موجه إلى النية والقصد من هذا الفعل ، لا إلى الفعل نفسه ، وذلك أن موسى عليه السلام قال للعبد الصالح لما رآه خرق السفينة في موضع يؤدي إلى غرقها : « أخرقتها لتغرق أهلها » ، فكان موسى يشير أن هذا قصد اعتدائي ، ونية سيئة ، فأجابه العبد

الصالح بكلام يفهم منه أنه فعل ما فعل قاصداً به أمراً حسناً ، بناء على ما تبين له من أمر الملك الغاصب ، ومن حال المساكين ، فإسناده الفعل إلى نفسه طبعي ، لأنه تحديث عن الواقع ؛ إذ كان هذا هو ما لجأ إليه تحايلاً على تحقيق مصلحة رأها . ووصفه لهذا القول الذي هو « فأردت أن أعيها ، بين ما سبقه من أنها « لمساكين يعملون في البحر ، وما لحقه من أنه « كان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ، فيه إيحاء بأن إرادة تعييبها تصرف قد اكتشفه سببان حملا عليه ، وأنه لم يكن عن نية فاسدة ، وقصد اعتدائي .

بقي أن يقال : إن قوله في آخر القصة « وما فعلته عن أمري ، يدل على أن ذلك بأمر الله لا برأيه وتصرفه هو ، والجواب أن اجتهاد المجتهد لتحقيق مصلحة من المصالح في دائرة ما علمه الله هو استلزام الأمر الله ، وتطلب لحكم الله .

٢ — أما في أمر الغلام فقد كان العبد الصالح يعلم عن أبويه وعنه ما لا يعلمه موسى ، فأبواه مؤمنان . والغلام - فيما يظهر - كانت تظهر عليه علائم الفساد منذ الصغر ، ولعله كان معروفاً في البيئة التي كان فيها بذلك ، ولعل هذه البيئة كانت تخشى منه ضرراً على أبويه إذا كبر ، وكانت تتوقع أن يرهمهما طغياناً وكفراً إذا عاش ، وكانت تتطلع إلى موته ؛ رفقا بحال هذين الأبوين ، فلذلك فعل العبد الصالح ما فعل ، ولعل ذلك بقوله « نخشينا أن يرهمهما طغياناً وكفراً ؛ فأردنا أن يبدلها ربهما ، فالحشية ليست منه فقط ، والإرادة ليست منه فقط ، وإنما كان ذلك هو إحساس من يعرف الغلام وأبوى الغلام ، وكانت هذه هي إرادتهم - أي رجاءهم وتطلعهم - فالإرادة هنا بمعنى الرجاء ، وما يكون من حديث النفس في مثل هذا الشأن ، حيث يلتبس من الله أن يريخ مثل هذين الأبوين المؤمنين ، من مثل هذا الغلام الشرير ، ويرزقهما بدله مولوداً أبر بهما وأرحم ، أما إبدالها خيراً منه ، فقد أسنده إلى الله وهو يتضمن معنيين : معنى اهلاك الغلام ومعنى تعويضهما خيراً منه ، وكلاهما لا يكون إلا بأمر الله ، وقد أمر الله العبد الصالح بقتل الغلام تحقيقاً للشطر الأول ، بدليل قوله في آخر القصة : « وما فعلته عن أمري ، ولم يحدثنا عن تعويضه إياهما من هذا الغلام المقتول ، كما هي سنة القرآن في عدم استقصائه من الحوادث إلا ما تدعو إليه العبرة ، وتتطلبه الحال .

فالحاصل أن قوله « نخشينا » وقوله « فأردنا » الضمير فيهما للعبد الصالح ومعه غيره من عباد آخرين يلمح الله لهم ؛ ولا يصرح بذكرهم ، وليس في الكلام ما يدل على أن العبد الصالح كان منفردا بهذا العلم عن غير موسى .

٣ — أما في قصة الجدار فالامر ظاهر ، حيث أسندت الإرادة إلى الله في قوله « فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك » ولا شك أن إرادة بلوغهما أشدهما لا تكون إلا الله ، لأنهما بمحض قدرته ، وأن إرادة استخراجهما كنزهما كذلك ؛ لأنهما حكم بما يكون في الغيب المستقبل الذي لا يعلمه إلا الله ، فأمر الله العبد الصالح ببناء هذا الجدار وإقامته ، ليكون ذلك وسيلة عادية في حفظ الكنز على صاحبيه ، وتنبيهها على أن الله في رحمته ولطفه قد يكرم الأبناء إكراما لأبائهم الصالحين ، ولا يأخذهم بما فشا في مجتمعهم من فساد واعوجاج .

النبوغ

لما استخلف عمر بن عبد العزيز ، قدم عليه وفود أهل كل بلد ، فتقدم إليه وفد أهل الحجاز ، فأشرب منهم غلام للسلام .

فقال عمر : يا غلام ! ليتكلم من هو أسن منك .

فقال الغلام : يا أمير المؤمنين ! إنما المرء بأصغريه : قلبه ، ولسانه ، فإذا منح الله عبده لسانا لا فظا ، وقلبا حافظا ، فقد أجاد له الاختيار : لو أن الأمور بالنسب لكان ههنا من هو أحق بمجلسك منك .

فقال عمر : صدقت ، فهذا هو السجر الحلال .

فقال الغلام : يا أمير المؤمنين نحن وفد التهنئة ، لا وفد التزئمة ، ولم يقدمنا إليك رغبة ولا رهبة ، لأننا قد أمنا في أيامك ما خفنا ، وأدركنا ما طلبنا .

وكان محمد بن كعب القرظي حاضرا ، فنظر إلى وجه عمر بن عبد العزيز قد تهلل عند ثناء الغلام عليه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لا يغتابن جمل القوم بك معرفتك بنفسك ، فإن قوما خدعهم الثناء وغرهم الشكر ، فزلت أقدامهم فهووا في النار ، أعاذك الله أن تكون منهم ، وألحقك بسالف هذه الأمة .

فبكى عمر بن عبد العزيز حتى خيف عليه ، وقال : اللهم لا تخلنا من واعظ .

مَنْ تَوَجَّهَتْكَ الْفَارَاتُ

في تربية الخلق

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبكي
المفتش بالازهر

١ — « إن المتقين في جنات ونهر ،

ب — « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ،

قف معي أمام هاتين الآيتين ، واستشعر بوجدانك بُعد ما بين الفريقين ، ثم صاحبي في الموازنة بين المقامين ، علما نهتدى من وراء ذلك إلى ما هنا من توجيه نحو أخلاق هي ذات الشأن في التفريق بين فريق وفريق .

شعار هذا المقال ينم عن وعظ ، ويوحى بأنه للترغيب والترهيب ، ولئن كان ذلك المعنى شاخصا فيما أكتب ، فأن القصد الذي عينته بالذات ، وأردت القارئ على أن يؤازرنى فيه هو أن نواصل ما بدأنا من تتبع ما هنا من توجهات خلقية سيقمت إلينا في تأكيد من القول ، ولكننا على جفوة منها أو تجاهل ، حتى كأنها لم تكن لنا وبنا ، أو كأننا في حل منها عملا والتزاما .

١ — ينساق إلى بعض الأذهان أن القرآن حينما يتحدث عن المتقين ، إنما يقصد خصوص القائلين برسوم الإسلام من صلاة وزكاة ونحوهما ، وإن وهن فيهم جانب الأخلاق ، وأنه حينما يتحدث عن نقائص المنافقين لا يعنى بهم سوى المنافقين في الإسلام ، على عهد الرسول عليه السلام ، وإن توفرت كثرتهم بيننا في هذه الأزمان .

ولو صح ذلك لكانت الفضيلة أرخص ما يدعيه الادعياء ، ولوجدتَ جمهرة الاشرار يزحون خيار الناس في مناقبهم ، ويحتلون من الشرف منازلهم .

ولكن القرآن وضع للفضيلة حدوداً ومعالماً ، وماز الخبيث من الطيب ، بما ذكر من خصائص النفوس ، واختلاف النزعات ، فإذا توارت عن بعض العقول حدود الفضيلة ، أو تعامت عن معالماً بصائر ، أو تطاول نفر من الحق فزعموا لأنفسهم أكثر مما لها ، فلن يكون ذلك طامساً لما رسم القرآن ، ولن يخلط الاوضاع التي تأتي أن تبدل ، والتي مستظل في حماية الدين ، وفي رعاية العلم ، وستظل كذلك ما دام عقل يزن ، وضمير يحكم .

ليس الامر كما فهم أولئك الذين زعموا أن دعوة القرآن إلى الخير ، تقف عند فرائض قد يؤديها من لا يحسنها ، وقد يباهى بها من يسير في حياته على مناهضتها ، ولا يستشعر بشيء مما توحى به في رسمها ، وفي معناها وأهدافها ، وإنما القرآن أوسع رحاباً مما تخيلوا وأسمى مأرباً مما فهموا .

فهو ينظر في الإنسان إلى عقيدته وعمله ، ويعتبر الخلق جانباً من العمل ، ناظراً إلى أثره في الوجود ، وما ينجم عنه من خير أو شر ، فهو لا يحكم على الخلق ، ولا يرتب عليه جزاء إلا بقدر ما يتحقق من ورائه ، إن خيراً أو شراً ، وإن شراً فشر .

ثم يرى القرآن فيما علمنا أن الخلق - العمل - من متعلقات العقيدة وفيه تتمثل قوتها ، أو يبدو ضعفها ، وعلى ذلك ترى القرآن حينما يذكر المتقين ليشيد بهم ، وحينما يبشرهم بما أعد لهم في أخراهم ، إنما يقصد بهم أولئك الذين صحت عقيدتهم ، وسلمت من شوائب الدخل طويتهم ، فكان مظهرها خالصاً وصادقاً فيما يبدو من خلق كريم ، وما يبدو من عمل حميد .

وما من شك في أن العقيدة مصدر الإلهام للجوارح ، وصاحبة السلطان في التوجيه ، فتدفع إلى الخير وتحببه إلى النفس ، أو تذود عنه وترغب عن سواء . . . وإلى هنا يتضح أن العقيدة وحدها ، أو عملاً طيباً لا تكون العقيدة مبعثه ، أو لا يكون مشفوعاً بخلق حسن ، شيء من ذلك وحده لا يكفي لانتظام صاحبه في المتقين ، ولا ينهض شأنه أن يأبه القرآن لذكره ، والإشادة به ، واستنهاض العزائم ، وإيقاظ النفوس لأن ترسم آثاره ، وتأسى بصنيعه .

وقد تقرر عند أولى العلم أن الإيمان عقيدة ، وقول ، وعمل ؛ فإذا ما عتور
النقص واحداً من هذه الثلاث امتنع أن يوصف بالتقوى ؛ إذ التقوى هى
كال الإيمان .

نعم تكون تقوى نسبية فى مقابلة من يكون أقل من ذلك منزلة ، ولكن
ليست التقوى التى يردد القرآن امتدادها ، ويقام لها الوزن الراجع فى اصطلاح
علم الاخلاق .

ولدينا المثل لتطبيق هذا ، فإن خيار الناس الذين امتلأت الدنيا بذكرهم ،
وجرت على لسان الزمن سيرتهم ، كان امتيازهم بعد العقيدة بادياً من ناحية الخلق .
وكانت أخلاقهم نماذج للإنسانية السكاملة ، ومعالم وضاعة لهداية الناس ، لافى
جانب دون جانب ، بل فى جوانب الحياة عامة ، وفى كل شأن يتصل به شئون
الجماعات ، وقد رأينا القرآن حينما يعرض الثناء على المتقين ، يذكر أول ما يذكر
ناحية الخلق : فهو يمتدح فيهم كظم الغيظ ، والعفو عن الناس ، والإعراض
عن اللغو ، وعفة اللسان ، ويذكر لهم الأيثار ، والقناعة ، والإخلاص وحب
الخير للناس والوفاء ونقاء السريرة ، وقوة العاطفة ، والصبر ، والرضا ، ويذكر
كل ما يعتبره الدين من كمال الدين وكل ما يراه علم الاخلاق من محاسن الاخلاق .
ونرى القرآن حينما يختص النبى محمدأ صلوات الله عليه بذكر مناقبه ، يمتدح
فيه الرحمة ولين الجانب وسعة الحلم ، وجميل الصفح ، ويحمل ذلك وما إليه من
شماله الكريم فى قوله : « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ،
وفى ذلك توجيه لنا إلى أن المسالمة ، ورقة الطبع ، ولطف المعشر أقرب
الوسائل إلى امتلاك القلوب ، وتأليف الجماعات .

ثم فى مقام آخر يعمد القرآن الى الإحاطة بكل ما يتأتى أن يمدح به النبى ،
ويطوى ذلك فى أيسر عبارة تجرى على اللسان فيقول : « وإنك لملئ خلق عظيم ،
فهذا نمط القرآن حين يتحدث عن التقوى والمتقين ؛ إذ يذكر أعمالهم
وخصالهم ، ولا يقف عند ذلك التحديد الضيق الذى يقف عنده الذهن السكليل .
ومع أن القرآن ينثر أوصاف المتقين فى مواضع كثيرة من آياته ، ويبث

مدائحهم في ألوان عدة من الثناء ، فقد نراه يوجز كل ذلك في وعد كريم يشف عما لهم عند الله من قدر ، كفاء ما تجملوا به من خلق . أفرايت قولاً أحفل بالرضا ، وأدل على سمو المنزلة من قوله ، فقال : « إن المتقين في جنات وعيون ، » « إن المتقين في جنات ونعيم ، » « إن المتقين في جنات ونهر ، » بل هناك من حسن التقدير ، وبالغ الوصف ما هو أحفل وأعجب ، وحسبك قوله عز شأنه : « لهم ما يشاءون عند ربهم — الآية » فكأنهم غير مجزيين بقدر أعمالهم فحسب ، بل لهم الآمال الفسيحة ، والمطامع الممتدة ، والرغبات المستجابة — ذلك جزاء المحسنين .

فليقتبه إلى ذلك من كان يظن أن التلون بلون الدين في عبادة جافة ، أو في زهادة لا يؤازرها خلق ، أو في تزمت وغرور ، أو في تكاسل مع الإسراف في حسن الظن بعفو الله ، من كان يظن أن شيئاً من ذلك يرقى به إلى مكان يروقه من الايمان ، أو ينهض به إلى منزلة أعدت لمن عرفوا الدين ديناً وخلقا ، فهو دون الفهم الصحيح ، والنظر الصائب ببون شاسع وأمد بعيد .

ب — ذلك هو المقام الكريم من مقامين ، فأين منه مقام آخرين على طرف مضاد ؟ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ؟

وضح في كلمة سبقت لنا : أن القرآن في دعوته إلى تزكية النفس ، يستحثنا على الصدق فيما نفتحل من قول وعمل ، وينأى بنا عن مساوىء الدعوى المصطنعة ، والتقنع بالكمال المدخول ، مع الركون إلى سفاسف الخلق ، والاحتيال في جلب الثناء من غير طريقه .

يرى القرآن فيما يتجه إلينا به أن هذا اللون الزائف من الخلق المموه ، شر ما يطمس معالم الإنسانية وقد كرمها الله ، وأقبح ما ينتاب المجتمع من تحلل النفسيات ، والتبجح في قلب الأوضاع ، والطغيان على المبادئ القويمة التي هي موازين الكرامات والتي تعتبر من مباحج الحياة .

وما كانت أقدار الناس متمايزة في قياس العقل ، ولا كانت القيم الأدبية على تفاوت بين أنسان وأنسان ، بل بين الإنسان والحيوان الأعجم إلا لأن هناك

مدارك وحساسية توفرت في جانب دون جانب ، وبرزت آثارها في فرد أو جماعة أكثر مما توفرت وبرزت في آخرين .

فهذا انسان أينع فيه الخلق الفاضل ، حتى ارتقى في مكانته لدى من يقدره ، واقترب في إنسانيته أن يكون ملائكيا ، وذلك آخر هبطت فيه المدارك ، والحساسية ، وذبلت نفسيته حتى ارتكس إلى سفل ، وكان محسوبا على الإنسانية وهو ثقل على عاتقها ، ومخزاة في وجهها ، أو كانت حياته شقوة تلحق بمجتمعها ، وتكدر العيش على من يبتغون العيش مطمئنا في ظلال رفية من حسن الأخلاق . يسوقنا ذلك ، أو يسوقنا إلى ذلك ما صنع القرآن في حديثه عن النفاق وأهله ، فقد انتهج مع المنافقين أقصى مما انتهج مع أهل الكفر الصراح .

ليس لأن الكافرين بدعوة القرآن أحب إليه من نافقوا ، ولكن لأن الكفر الصراح يعتبر من الوجهة الاجتماعية عنادا سافرا وعداء مكشوبا ، أما النفاق فعداء ملفوف ، وضغن كامن ، فيه ما في الكفر الصراح من قبح ، وفيه فوق ذلك مكر يبيتونه ، وشباك ينصبونها وراء ذلك الود البراق .

وكثيرا ما يقع المسلم المطمئن في حبال النفاق ، إذا استنام إلى ظاهره ، ولم يظن إلى خباياه أنه من الهين على المرء أن يتحاشى عدوا سافرا أكثر مما يتحاشى عدوا كامنا .

لذلك كان النفاق مهيئا غاية المهانة ، وكان بغیضا نهاية البغض ، فليس فيه شيء يخفف من سوء ما به ، ولا يجتمع مع النفاق اعتزاز بشخصية ، ولا احتفاظ بكرامة ، ولا خشية من معرفة .

ذكر القرآن من أوصاف المنافق ما كشف عن شخصية متأرجحة ، لا تماسكها هقيدة ، ولم يثبتها إيمان ، فهي بين وسوسة وقتية ، ورعدة لازمة ، ويظل المنافق بين وسوسته وخوفه منكك الشخصية ، مائع الخلق ، غير متماسك الرأي ، وهو إزاء اضطرابه ذلك يحاول أن يستند إلى غيره ؛ كمن يلعب برأسه دوار ، أو كمن خارت قواه عن الوقوف ؛ فلم يتالك أن ينهض على قدميه ، فديده إلى جانب ، والآخرى إلى جانب ، ثم ترهل في حركته ليقف كما يقف الأقوياء ، وليس هو من الأقوياء .

يحرص المنافق على أن يمالئ هذا وذاك ، ويلتمس الرضا هنا وهناك ، فهو مع كل زامر يرقص ، ومع كل منشد يطرب ، وأنى يكون إنسانا من كان كذلك ، أو على شيء من ذلك ؟

وليس أصدق من قول الله فيمن ينافق « مذبذب بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » ، ولا يحسن حاسب أن النفاق جملة نقائص تتجمع في شخص ، بل النفاق خصال وضیعة ، فمن تجمعت لديه فهو ممن في نفاقه ، ومن ابتلى منها بشيء فهو منافق إلى حد ما . والنفاق شر كله وإن كان هينا على من اقترفه أو اقترف منه طرفا يسيرا .

ذكر القرآن أوصاف النفاق في مناسبات من آياته ؛ فأنت تراه يقول عن المنافقين « يحلفون على الكذب وهم يعلمون » ، ويقول : « في قلوبهم مرض » ، « قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر » ، « يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم » ، « ينفقون أموالهم رياء الناس » ، « فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » ، « يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا » ، « فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه » ، « يخادعون الله وهو خادعهم » .

وهكذا من الآيات التي تشهد على المنافق بالضعفة ، وتعطيك من صورته أنه ، مراء وكذاب ، ونفعي ومتصنع ومريض القلب ، وما إلى ذلك مما يعافه السمع الكريم ، وتتأوه من هول الجماعات ، فهل بعد هاته الدنيا يعرض للمنافق شأن أو يقام له حساب ؟ .

من كان كذلك فهو دون الغير في الاعتبار ، بل هو دون الغير حتى في الهوان ، فقد يكون خصم له قدر ، وقد يكون خصم تتخطاه الأنظار ، ويتجاوزه الحديث حتى في عداد الخصوم لو كانوا شرفاء ، فإذا رأيت القرآن يؤكد لك أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار فقد سلك بهم مسلكهم ، ووضعهم في آخراهم حيث وضعوا أنفسهم في دنياهم ، وجعل قرارهم في الدرك الأسفل ، بعد أن جعل مثوى المتقين في مقام أمين ، ولم يكن هناك بين هؤلاء وأولاء سوى كرامة وأخلاق . واليوم يابعد ما بين مقام ومقام ! .

لغويات

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد علي العجبار
الاستاذ بكلية اللغة العربية

مستشزرات

يورد علماء البلاغة بيت امرئ القيس في وصف شعّر من يتغزل بها :
غداً ره مستشزرات إلى العلا تضل العتاص في مثني ومرسل
وهم يعنون كلمة مستشزرات ، يجعلونها مثلاً للكلمة في تأليفها تنافر وثقل
يخلّ بالفصاحة ، ويبدو أن ذلك من قبل تقارب الأصوات لأحرف هذه
الكلمة ، فالسين والشين صفيّان والشين قريبة من الزاي ، وقد تقرّر ثقل
التأليف من الحروف المتقاربة .

والذي يعينني في هذا المقام بيان معنى مستشزرات في اللغة . والمستقرّ - إخال -
في أذهان الدارسين ما كتبه شراح البلاغة . وأذكر من هذا قول السعد
التفتازاني في شرحه للتخليص : « مستشزرات أي مرتفعات إن روى البيت
بالكسر على لفظ اسم الفاعل ، أو مرفوعات إن روى بالفتح . استشزره : رفعه .
واستشزر أي ارتفع ، يتعدّى ولا يتعدّى ، والقاريء لهذا يقترّ في نفسه
لا محالة أن الاستشزار هو الرفع والارتفاع ، وأنه في سعة من أن يقول :
استشزرت الكتاب أي رفعته ، واستشزر البيت : ارتفع ، وهو يرى أنه جار
على سنن أهل اللغة والبيان . وقد ارتبت في هذا ولم استسغه أن يقال في معروف
الكلام ، وكان على بالي من هذه المادة « النظر الشزّر ، أي النظر بمؤخر العين
أو جانبها ، وهذا المعنى لا يتفق مع هذا الذي ذكرته للاستشزار ، فكان أن
بحثت هذا الذي أسطره في هذا الموطن . ورجعت إلى معاهد التنهيص — وهو
شرح لشواهد التلخيص — عسى أن أجد فيه تعقيباً على كلام السعد فإذا فيه :

« الاستشزار : الرفع والارتفاع جميعا ، والفعل منه لازم إن كسرت زايه ، ومتعّد إن فتحت ، وترى أنه يقرأ لسعد على تفسيره ويؤيده في قوله .

وقد تبين أن مصدر هذا كلام الزوزنى الحسين بن أحمد المتوفى سنة ٤٨٦ في شرح المعلقات ، إذ يقول : « الاستشزار : الرفع والارتفاع ، فيكون الفعل منه تارة لازما ، وتارة متعديا . » ورأيت أن أقف على كلام الكاتين على المعلقات غير الزوزنى ، فوجدت النحاس يقول : « المستشزرات : المفتولة شزرا ، أى على غير جهته لكثرتها . » وروى ابن الأعرابي مستشزرات بكسر الزاي ، أى مرتفعات ، وقد تبعه في هذا أبو بكر عاصم بن أيوب في شرحه للمعلقة ، إذ يقول : « مستشزرات - بفتح الزاي - : مفتولات على غير جهة القتل ، وذلك لكثرتها ، وبكسرهما : مرتفعات ، وترى هذا بعينه في العيني ^(١) في شرحه للشواهد .

ويرى القارىء في هذا النهج الذى سنه أبو جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ تفريقاً بين استشزره واستشزر . فاستشزره : قتله على غير جهة القتل ، واستشزر : ارتفع . والمعروف أن اللازم في مثل هذا ، يكون مطاوعاً للمتعدي ، فلا يخرج عن معناه ، بل يظل بسبب من المتعدي وعلى سمته وأمه ، كما يقال : جبر الله السكير فجبر هو . قال العجاج : قد جبر الدين الإله فجبر . فإذا كان استشزره : قتله ، فإن استشزر يجب أن يكون : انقتل . تقول على هذا : استشزرت الحبل ، أى قتلت على غير جهة القتل فاستشزر الحبل . وهذا ما يؤخذ من كتب اللغة . فشزّر الحبل - وما جرى مجراه كالشعر - واستشزاره : قتله إلى جهة اليسار أو إلى فوق على خلاف دور المغزل الذى يكون إلى تحت . ومادة الشز فيها الانصراف عن سنن القصد ؛ تقول : قتله شزراً : قتله على غير استقامة ، بل قتله إلى جهة اليسار . وفي اللسان : « الشز من القتل : ما كان عن اليسار ، وقدشزره ، واستشزر الحبل واستشزره فأنله ، » وروى بيت امرئ القيس بالوجهين جميعاً :
غداًره مستشزرات إلى العلا تظلُّ المدارى في مثنيٍّ ومرسل

ويروى مستشزرات والششز من القتل ما كان إلى فوق خلاف

(١) هامش الخزانة ٥٨٧/٤ .

دورة المغزل ، يقال : حبل مشزور وغدائر مستشزرات ، فترى أن الاستشزار لا يخرج عن القتل ، فاستشزار الغدائر أى ذوائب الشعر ففعلها ، وإذا قيل : استشزرت المرأة الشعر فمعنى ذلك فتلته إلى جهة اليسار ، ويرى بعضهم أن السين والتاء فى استشزرت اللّازم كأنهما للطلب كأن الحبل مثلاً سأل ذلك من الغافل .

ويتجلى من هذا البحث أن تفسير الاستشزار بالرفع والارتفاع ليس على ما ينبغي ، وإنما الاستشزار القتل ، وكان الذى أوقع الزوزنى ومن تابعه فى ذلك قول الشاعر : مستشزرات إلى العلا ففقرن الكلمة بالعلا أوقع فى الوهم أن الاستشزار الارتفاع والرفع . والله أعلم .

الوقائع والاحوال :

تذكر الوقائع فى جمع الواقعة للحادثة تقع وتنزل . فيقال : جرت اليوم واقعة من الوقائع الحسنة تذكرنا بالوقائع القديمة . وصحيفة الوقائع المصرية ، صحيفة قديمة كان من الكتّابين فيها الشيخ حسن العطار صاحب المؤلفات فى شتى الفنون ، وقد أنشئت ليدون فيها ما يحدّث من الحوادث ويُسَنّ من القوانين فى نظام الدولة ، وما زالت تضطلع بهذه المهمة إلى اليوم . وقد جرى كلام فى جمع الواقعة على الوقائع ؛ فقياس جمع الواقعة الاواقع وأصلها الواقع ، ويقضى قانون الإبدال بقلب الواو الأولى همزة ؛ كما يقال فى جمع واقية أواقٍ وواصله أواصل ، وقد جاء الاواقع فى قول الشاعر :

فإنك والتأبين عروة بعد ما دعاك وأيدينا إليه شوارع
لكالرجل الحادى وقد تلح الضحى وطير المنايا فوقهن أواقع

وعلى هذا فالأوفق بقواعد العربية أن يقال « الاواقع المصرية » غير أن الناس استمروا على هذا ، وأصبح من العسير تغييره .

والوقائع ترد فى اللغة جماعاً للوقعة ، وهذا قياس جمعها . والوقعة ترد فى اللغة لثلاثة معان : فالوقعة الحسنة وأن قال امرأ بما يشينه ويثلم عرضه ، والوقعة القتال والحرب ، والوقعة مُنْقَسرة فى الجبل تمسك الماء . ومن سمجات الأساس : فى فم الوقائع الوقعة ، أعذب من ماء الوقعة . فالوقعة الأولى الشتم والعيب ، والوقعة الثانية منقح الماء .

وقد يشهد لصحة استعمال الوقائع في النوازل والحوادث ما ورد في الأساس : « نزلت به وقعة من وقعت الدهر ووقائعه ، وظاهر هذا أن واحد الوقائع وقعة ، وهذا جمع على غير قياس ، كما جمعوا الضرة على الضرائر والسكنة على السكتائن ، وأيا ما كان الامر ففيه استعمال الوقائع في الحوادث ، وهو ما جرى به العرف والاستعمال .

مهما أسأت إلى فلن أصدف عن ودك

يجرى هذا في الاستعمال ، وترى فيه مهما مستعملة في عموم الاحوال ، فالمعنى لن أصدف عن ودك لإساءتك إلى أبدا . ويقضى النظر الإعرابي بأن تعرب مهما ظرف زمان ، وكأنه قيل : أى وقت أسأت إلى فيه فلن أصدف عن ودك . وإنكار مثل هذا قديم ، فإن المعروف استعمال مهما في عموم الأفراد ، وعلى ذلك يجرى بيانها ببعض الأشياء ، كما في قوله تعالى : وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فسنحن لك بمؤمنين ، فقوله من آية بيان لمهما ، وقال زهير : ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس لم تعلم

فترى أن مهما بيئت في البيت بخليقة ، ولكن بعض الناظرين في العربية رأى استعمالها في الاحوال فلقي نكيرا شديدا من العلماء ، ويقول الزحشرى في التنديد بهذا رأى عند قوله تعالى : وقالوا مهما تأتنا به من آية : « وهذه الكلمة — يريد مهما — في عداد الكلمات التي يحرفها من لا يد له في علم العربية فيضعها غير موضعها ، ويحسب مهما بمعنى ممتا^(١) ما ويقول : مهما جئتنى أعطيتك . وهذا من وضعه وليس من كلام واضح العربية في شيء ، وقد أخذ بهذا الاستعمال المنكر المناطق فجعلوا مهما سورا للكلية الموجبة من الشرطية المتصلة : ككلمنا نحو مهما جئتنى أكرمك فهي في معنى كلما جئتنى أكرمك ، ويعترف علماء المنطق بالنقل والتعريف لوضع العربية فيقول السعد في شرح الشمسية : « ولفظ مهما — بحسب اللغة — إنما هو لعموم الأفراد حتى يصلح سورا للكلية الخلية . وهم قد نقلوها إلى عموم الاوضاع وجعلوها سورا للمتصلة الكلية ،

على أن ابن مالك - وعلمه بالعربية لا ينكره أحد ، وحسبك بمن يقول

(١) يرى ابن درستويه كتابة متى بالالف إذا اتصلت بها لتوسطها . راجع شرح القاموس .

للزخشرى إنه نحوى صغير - يرى مجيء مهما ظرفا ، ويسند ذلك إلى العرب . فهو يقول فى شرحه للكافية الشافية إن جميع النحويين يجعلون مهما مثل من فى التجرد عن الظرفية مع أن استعمالها ظرفية ثابت فى أشعار الفصحاء من العرب . وأورد من ذلك قول طُفَيْل الغنَوى :

نبئت أن أبا شَتِّيم يدعى مهما تعش تسمع بما لم تسمع
وقول حاتم الطائي :

وإنك مهما تعط بطنك سؤله وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا
ومن طريف ما يذكر هنا أن ابنه بدر الدين أنكر عليه ، وقال : إنه لا حاجة فيما أورده على أن مهما ظرف ، فقد يجوز أن تكون مهما مفعولا مطلقاً ، فى قوله مهما تعط بطنك سؤله ، المعنى أى إعطاء تعط بطنك وهذا أمر لا يعنينا فى مقامنا هذا ، وإنما يعنينا ورود هذا الأسلوب ، وهو يوافق ما يجرى على ألسنة الناس ، وينسكه الزخشرى ومن شايعه .

ومما جاء فيه مهما فى غير الأفراد ، كما يرى ابن مالك قول ساعدة بن جُؤَيَّة فى وصف الصوار - وهو القطيع من بقر الوحش ، المذكور فى بيت سابق - :

قد أُرِيت كل ماء فى صاوية مهما تصب أفقاً من بارق تشم
أو بيت (١) : مُنِعت ، وصاوية : يابسة من العطش ، يقول : إن الصوار مُحميت الماء فأصبحت قاحلة من العطش ، وهى متحرقة للباء متشوقة له ، فإذا أحست برقاً فى أفق وناحية شامته ، ونظرت إليه ترجو أن يعقبه المطر فتروى منه ، وقوله تصب أفقاً من بارق ، على القلب أى تصب بارقاً - وهو السحاب يبرق - من أفق أى ناحية .

وكان بعض الفضلاء لدهر مضى ، زعم أن من هذا الاستعمال قول المتنخل الهذلى يرثى أباه عويمراً :

إذا سُدَّتْهُ سُدَّتْ مطواعة ومهما وَكَلَّتْ إليه كفاه

يقول (٢) : إذا سُدَّتْهُ وكنت فوقه أطاعك ولم يحسدك . والامر فى هذا ليس على ما ظن ، فهما مفعول به مقدم لوكلت ، والمعنى : أى شئ وكنت إليه كفاه .

(١) أنظر شعر الهذليين ١٩٨ / ١ طبع دار الكتب . وقوله صاوية بالصاد المهملة ، وجاء فى المعنى ومواده ضاوية بالصاد المعجمة ، وهو تحريف (٢) أنظر شعر الهذليين ٣٠ / ٢ طبع دار الكتب .

مَفْرَدَاتُ فِلْسَفِيَّة

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
الأستاذ بكلية أصول الدين

كنّا اعتزمنا أن تكون مفردات هذا المقال هي كلمات : الواقعية ، الاسمية ، التصورية ، أو المفهومية ، ونحوها مما يتصل بنظرية المعرفة والكليات أو المفاهيم العامة . لكن مسألة هذه الكليات كان لها شأن كبير لدى فلاسفة اليونان ، وبخاصة أفلاطون ، ثم صارت في العصور الوسطى محور التفلسف والفلسفة . وعرفها أيضاً المفكرون الإسلاميون ، وأخذت قسطاً كبيراً من تفكيرهم ؛ لذلك رأينا من الخير ، بل من الضروري أن تقدم بين يدي هذه المفردات كلمة عن هذه المشكلة الاسمية ، نعى مشكلة الكليات ،

* * *

كان يراد في العصور الوسطى باسم الكليات : المعاني أو المفاهيم العامة التي تعتبر أنواعاً أو أجناساً للكائنات الفردية الجزئية ؛ وذلك مثل الإنسانية ، أى الحيوانية الناطقة ، التي هي ماهية كل فرد من أفراد الإنسان ؛ والحيوانية التي هي الماهية العامة لكل حيوان ، أى الكائن الناحى الحساس المتوالد .

وهذه الكليات هي الامور المساعدة التي لا بد منها للفكر والعلم ، وفائدتها - لهذا - ليست موضع شك أو تساؤل ، لأنه بالتصنيف والتعميم للوجودات ، أى جعلها أنواعاً وأجناساً ، يمكن أن تصل إلى مبدأ من المبادئ أو قانون من القوانين العامة .

ولكن يجب أن نعلم ما إذا كان لهذه المعاني العامة ، التى لا نستغنى عنها فى أحاديثنا ، وجود حقيقى خارج عنا ، أو ما إذا كانت ليست إلا اختراعات ذهنية وأعطيناها أسماء ، لىكون من السهل علينا ترتيب معارفنا .

مثلا ، ماهية الإنسان التى نطلقها على جميع أفرادها ، وهى الحيوان الناطق ، هل لها وجود فى العالم الطبيعى ؟ أى هل لها حقيقة خارج أفرادها ؟ أو إنها لا توجد إلا فى الفكر أو الذهن بفضل الاسم الذى أعطيناها لها ؟ هذه هى المشكلة التى نشأت عنها هذه المذاهب : الواقعى ، والاسمى ، والتصورى .

ومن الهام جدا أن نلاحظ أن اختيار جانب من تلك الجوانب ليس عملا يسيرا من أعمال العقل ، بل هو على الضد ، قرار خطير يتخذه العقل ، وذو نتائج كبيرة ضخمة ؛ ذلك بأنه يجز مباشرةً انحيازنا إلى هذا التصور أو ذاك من التصورات الخاصة بالسكون والعالم ، وإلى طريقة خاصة للمعالجة أو حل أى مشكلة من المشاكل .

فإذا كنا حقيقيين أو واقعيين ، كان العالم المعقول الذى ن فكر فيه موضوعا أو شيئا Objet حقيقيا موجودا ، شيئا هو نتاج الخلق الخارج عنا ، ويكون وجوده لا يتعلق بنا ولا يتوقف علينا لأنه يبق هو هو ، رغم المظاهر الخادعة غالبا التى تخلعها عليه حواسنا .

إن هذا الوجود الواقعى الذى يفرض نفسه علينا كيقين لا شك فيه ، يجب إذًا - ما دما من أنصار المذهب الواقعى - أن يكون الأساس القوى المتين لتفكيرنا وضروب استدلالنا ، ونقطة الارتكاز ، التى بفضلها نصل بالاستنتاج إلى الأشياء والظواهر الجزئية التى تعطينا حواسنا صورها .

وعلى الضد من هذا كله لو كنا إسميين : إن الكائنات الفردية والأشياء المحسة التى ندركها نحن ، مثل هذا الإنسان وهذا الحصان الذى أراه الآن ، تكون هى وحدها الموجودات الواقعية الحقيقية ؛ وكل ما عدا هذه الموجودات المحسة لا يكون إلا خيالا لا حقيقة له ، ولا تكون المهابا العامة ، مثل نوع الإنسان ونوع الحصان و جنس الحيوان ، إلا عملا من أعمال العقل لا حقيقة له ، أى لا تكون إلا مجرد أسماء .

ومن ثمّ ، يرتقى الاسميون ، بالسير من ملاحظة الحوادث الفردية الجزئية ، وبالطريقة التجريدية الاستقرائية ، من الإدراك الحسى إلى معرفة المبادئ والقوانين بواسطة التجربة والمقارنة والتجريد .

٢ — وهذه المشكلة والحلول التى تحلّ بها ، أهمية كبيرة فى الحياة العامة فى العصور الماضية وفى هذا العصر الذى نعيش فيه ، ويكفى فى هذا أن نذكر أنها تحصر بين طرفيها الواقعية والاسمية ، كل النزعات التى يتذبذب بينها التفكير الإنسانى ؛ وذلك حسب اعتباره أن الموجود الحق هو الخاص أو العام ، الفرد أو الكلى ، الذاتى أو الموضوعى ، النسبى أو المطلق ، العرضى أو الدائم ، الممكن أو الضرورى ؛ ثم حسب تفضيله ، فى سبيل الوصول إلى المعرفة ، التجربة أو المبادئ الموضوعية ، الملاحظة أو الحدس ، التحليل أو التركيب ، الاستنتاج أو الاستقراء ، الأمر المدلل عليه أو الموضوع وضعاً ، المحسوس أو المعقول ، المشخص أو المجرد ، الصيرورة أو الكائن الموجود الدائم .

وقد بين بوضوح أكبر أهمية هذه المشكلة وحلولها فى الحياة العملية ، أن نشير إلى السوفسطائيين اليونان - على أن لكل عصر نصيبه من السفسطة والسوفسطائيين ، ولعصرنا الحالى حظ من ذلك موفور ١ - وسقراط . فقد كان السوفسطائيون لا يرون وراء مدركات الحواس المختلفة ، باختلاف الشخص والزمان والمكان ، حقائق عامة ثابتة ، ومن ثمّ كان مذهبهم فى الأخلاق مذهباً هداماً . بينما كان سقراط يعترف بالحقائق أو المبادئ العامة الثابتة للأشياء ، هذه المبادئ السلكية التى يستخلصها العقل من مدركات الحواس ، وذلك بالملاحظة والمقارنة والتصنيف للمدركات الجزئية .

٣ — وهذه المشكلة تصعد من الناحية التاريخية ، كما رأينا إلى أيام اليونان ، بل إلى أول عهد الناس بالتفلسف والفلسفة ، ولكنها لم تأخذ أهميتها الحقّة البالغة إلا فى العصور الوسطى ، إذ أمكن للمفكرين استخلاصها من ترجمة نص من الأفلاطونية الحديثة ، نعى به إيساغوجى أو المدخل لفورفورىوس الصورى الذى كان يعيش فى القرن الثالث للمسيح عليه السلام ، وهذا النص يثبت قبل

كل شيء أن هذه المشكلة التي ليست إلا مشكلة موضوعية أو ذاتية معارفنا ، شغلت الأذهان قبل العصور الوسطى بزمان طويل .

حقيقة ، إننا نجد هذه المسألة في مذهب أفلاطون وأرسطو ، لأن الأول بنظريته الشهيرة عن المثل ، يقدم أكمل نموذج للحل الحقيقي أو الواقعي ؛ بينما الثاني ، بطريقته التجريبية ، فتح الطريق للمذهب التجريبي المعتدل ، الذي نجده لدى كثير من مفكرى العصر الوسيط الواقعيين .

ولذا أردنا أن نرجع في التاريخ الى ما قبل أفلاطون وأرسطو ، نجد من اليسير استخلاص النزعة الواقعية من مدرسة فيثاغوراس ، التي كانت ترى أن للحقائق الرياضية وجودا واقعيا خاصا غير وجودها في الأشياء المحسوسة المخصصة . كما نجد من اليسير أيضا أن نرى في مفكرى المدرسة الإيونية أو الذرية ، الماسدين نمطين للنزعة الاسمية .

هذا ، وما هو ذا نص فورفوروس الذي أشرنا اليه :

« سوف لا أبحث عما إذا كانت الاجناس والانواع توجد بنفسها ، أو أنها ليست إلا مفاهيم وتصورات مجردة ؛ ولا في حال ما إذا كانت حقائق واقعية ، عما إذا كانت جسمية أو لا ، أو عما إذا كانت توجد مفارقة للأشياء المحسوسة أو مختلطة بها . هذا البحث عسير كل العسر ، ويتطلب مناقشات طويلة ليس هذا موضوعها » .

من هذا النص نجد أن هذه هي القضايا الثلاثة ، التي تعرض حتما لمن يتصدى للبحث في الكليات : وجود هذه الكليات ، هل هو حقيقى أو متوهم ؟ جسمى أو غير جسمى ؟ مفارق أو غير مفارق ؟ وأخيراً ليس من كهمتنا في هذه الكلمة التمهيدية ، أن نبحث فيما ثار من جدل ، وفيما كان من حلول لهذه المسائل ، طوال العصور الوسطى ، ولا في أثر هذه المذاهب في السياسة والاجتماع . وحسبنا أن ذلك كان تمهيداً لا بد منه ، لفهم ما ستعرض له من مفردات فلسفية خاصة بهذه المشكلة ، وبما يتصل بها .

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفُتَاوَى

جاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

لى أخ مدرس بكلية الزراعة ومنتدب لمهمة علمية فى أمريكا أرسل إلى
يستفتى فيما يلى :

ورد فى القرآن الكريم آيات تحرم الأكل فى مختلف السور (١٧٣ البقرة
٩٣ آل عمران ٣ المائدة ١١٩ الانعام ١١٥ النحل) . كما أحل طعام أهل الكتاب
فى قوله تعالى : « اليوم أحل لكم الطيبات المائدة » .

١ — إن السائل يقيم فى دار غربة وهى بلاد بعض أهل الكتاب ، ولا يدرى
نوع ما يُقدم إليه من لحم حلال هو أم حرام . فهل يجوز له أن يأكل ما يقدم
إليه ولو كان لحم خنزير وهو لا يعلم حقيقة ، أو من ذبيحة لا يعرف طريقة ذبحها
٢ — وهل يكون السائل حيث يقيم فى حكم المضطر ، غير باغ ولا عاد
فلا إثم عليه . .

٣ — ورد فى حديث الدارقطني عن عائشة ومالك رضى الله عنهما : أن
أناساً سألو رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : « يا رسول الله إن قوماً يأتوننا
باللحم لا ندرى أذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقال رسول الله : سموا عليه وكلوا ،
فهل يسرى هذا النص على أكل أهل الكتاب « الذبيح الذى لا يعرف نوعه
ولا طريقة ذبحه ، وهل ذكر اسم الله عليه عند الذبح أم لا ؟ » ، وهل يجوز أكله
أم لا ؟ نرجو الإفادة .

محمد عمر الخطاب
مصلحة المجارى الرئيسية

الجواب :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى
آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فقد أطلعت اللجنة على هذا السؤال وتفيد بما يلي :

قال الله تعالى : حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم ، وما ذبح على النصب .

وقال تعالى : «اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم، فقد حرم الله بالآية الاولى تناول شيء مما ذكر فيها إلا ما أدرك قبل زهوق روحه، وذبح من المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع . فإن هذه إذا أدركت وفيها حياة أية حياة، وذبحت وسال الدم الأحمر منها فإنها تكون حلالا .

وما حرم الله مما ذكر في هذه الآية على نوعين .

الاول : ما كانت علة تحريمه لإرادة حفظ العقيدة وحمايتها من الشرك وعبادة غير الله تعالى ، ويشمل هذا ما أهل به لغير الله وما ذبح على النصب .

والثاني : ما كان تحريمه لمعنى في الحيوان نفسه ، ويشمل بقية المحرمات المذكورة في الآية من الميتة والدم ولحم الخنزير والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع .

وتحريم جميع ما اندرج في هذين النوعين عام يشمل ما يكون للمسلم ولغيره . فكلما يحرم على المسلم تناول شيء من حيوان قتله بالخنق أو بالوقد مثلا يحرم عليه تناول ذلك كله إذا حصل شيء منه عند غير المسلم أو بفعله ؛ فموقوذة غير المسلم كموقوذة المسلم كلتا محرمات على المسلم .

وهذا هو الحكم في أخوات الموقوذة مما ذكر في الآية الكريمة .

أما قوله تعالى : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، فالغرض منه رفع الحرج عن المسلمين في تناولهم ما يصنعه أهل الكتاب ، من طعام وما يذبحونه من حيوان ، فقد كان المسلمون قبل نزول الآية يتحرجون من طعامهم وذبائحهم لمخالفتهم إياهم في العقيدة ؛ فبين الله تعالى أن ذلك حلال لهم كجميع الطيبات من

الماكل والمشارب ، وأراهم أن اختلاف العقيدة لا يمنع تبادل أسباب المعيشة ، فيطعم المسلم من طعام الكتابي كما يطعم الكتابي من طعام المسلم .
وبهذا يتبين أن الآية الثانية واردة في غير ما وردت له الآية الاولى ، وأن طعام أهل الكتاب الذى أحله الله للمسلمين لا يصح أن يتناول ما وردت بتحريمه الآية الاولى من الميتة والخنزير والموقوذة والمنخنقة وما إليها .

فالطعام الذى يصنعه أهل الكتاب من الحيوان الذى يحل أكله ، لو ذبحه المسلم كالبقرة والغنم حلال ، ما لم يعلم أن هذا الحيوان من الميتة وأخواتها . فإذا علم أن الحيوان مذبوح ولو بعد ضربة قاتلة ببلطة أو نحوها ، وأنه ذبح ذبحاً مخرجاً للدم الآخر ، وكان وقت الذبح حياً أية حياة ولو غير مستقرة حل أكله . وكذلك يحل أكله إذا جهل أنه ذبح بعد الضرب أو لم يذبح متى كان غالب الأمر عندهم هو الذبح ، ولو بعد الضرب على نحو ما قدمنا . فإذا لم يعلم المسلم ما هو الغالب عندهم ، ولم يعلم كذلك حال ما يقدم له فى أحد مطاعمهم أهو من الحلال أم من الحرام حل له التناول أيضاً .

أما إذا علم أنهم لا يذبحون ، أو كان الشأن عندهم عدم الذبح ؛ بل يضربون الحيوان حتى ترهق روحه ، فإنه لا يحل فى هذه الحالة لأنه يكون إذا من الموقوذة المحرمة .

هذا وما لم يعلم أنهم سموا عليه غير اسم الله تعالى فهو حلال ، وهذا يتناول ما إذا علم أنهم يذكرون عليه اسم الله ، وما علم أنهم يتركون فيه التسمية أصلاً ، وما جهل فيه الحال .

وخلاصة ما تقدم جميعه أنه إذا كان المسلم فى بلد من بلاد أهل الكتاب اليهود أو النصارى ، وكان لا يعرف حال ما يأكلون أو يبيعون من لحوم الحيوان أهو من الحلال كالبقرة والغنم المذبوحة على نحو ما تقدم . أم مما حرمه الله من الخنزير والحيوان غير المذبوح ؛ فإنه يحل له أن يأكل ما يقدم له فى أى مطعم من مطاعمهم ؛ إذا لم يعلم أن ما قدم له هو من المحرم ، أو يعلم أن الغالب عندهم هو المحرم ، لأن الأصل فى طعام أهل الكتاب هو الحل ، والأحكام تنبنى على الأصل ما لم يعلم خلافه .

هذا هو المأخوذ من قواعد العلامة ابن رجب الحنبلي ، كما يعلم بالرجوع إلى صفحة ٢٣٨ و ٣٤٤ من هذا الكتاب .

ويؤيد هذا أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا بعد نزول قوله تعالى : واطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، يتناولون من أطعمته أهل الكتاب ولم ينقل أنهم كانوا يتحرجون من أكلها أو يسألون عنها حينئذ .

هذا . وإذا أراد المسلم أن يدفع عن نفسه ما يجده من ريبة وشك ، فليسأل من يثق به ، ولا يتهمه بالكذب ، وليعمل بخبره ولو كان غير مسلم ، دفعاً لما يجده في نفسه من الريبة والشك .

هذا والمضطر الذي تناول الميتة ونحوها هو الذي يخشى على نفسه أو تلف عضو من أعضائه لو لم يتناول الميتة ونحوها ما لا يجد من الطعام الحلال ما يدفع هذه الخشية .

هذا ما اختارته اللجنة من أقوال الفقهاء ، لأنه هو المتفق مع ما جاءت به الشريعة الإسلامية من التيسير ودفع الحرج والمشقة .
وبهذا علم الجواب عن السؤال . والله أعلم .

الجمع بين التعزية والتهنئة

أول من فتح الباب في الجمع بين التعزية والتهنئة : عبد الله بن همام فوله الناس جيلاً بعد جيل إلى يومنا هذا .

ومن جيد ما قبل في ذلك قصيدة لأبي تمام الطائي يمدح الواثق بالله ويرثي المعتصم من خلفاء بني العباس ، يقول فيها :

إن أصبحت هضبات قدس أزالها	قدر فما زالت هضاب شمام
أو يفتقد ذو النون في الهيجان فقد	دفع الإله لنا عن الصمصام
أو كئنت منا غارباً غدوا فقد	رحنا باسمي غارب وسنام
تلك الرزية لا رزية مثلها	والقسم ليس كسائر الأقسام

الحكماء السبعة

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعيدي

الاستاذ بكلية اللغة العربية

نشرت مجلة الأزهر في جزءه ربيع الأول سنة ١٣٦٩ هـ من المجلد الحادى والعشرين مقالا للدكتور الفاضل أحمد فؤاد الأهوانى تحت عنوان - الحكماء السبعة - قال فيه : ولست أدري أعرفهم العرب فى الإسلام أم لا ؟ فعنى أسماء الحكماء السبعة وصفاتهم وأقوالهم ، وأنهم يمثلون أول ظهور الحكمة أو الفلسفة ، وقد ذكر القفطى فى أخبار الحكماء ^(١) أساطين الحكمة ، تكلم عنهم عند ما تعرض لاباذقليس ، فقال : إنه د حكيمة كبير من حكماء اليونان ، وهو أول الحكماء الخمسة المعروفين بأساطين الحكمة ، وأقدمهم زماناً ، والخمسة هم : أبىذقليس هذا ، ثم فيثاغورس ، ثم سقراط ، ثم أفلاطون ، ثم أرسطاطاليس ، ولم تقع على نص آخر فى الفهرست ، أو طبقات الاطباقاء أو كتب فلاسفة العرب يدل على أنهم عرفوا الحكماء السبعة ، نقول وليس فيثاغورس حكيماً ، بل هو متأخر عن الحكماء السبعة ، وإليه يعزى القول : لست حكيماً ولكنى مؤثر للحكمة ، والمؤثر للحكمة هو الفيلسوف ، كأن الفلسفة فى اليونان نشأت فى أحضان الحكمة العملية التى جرت على لسان الحكماء السبعة ^(٢) .

ولو أن الدكتور الفاضل بحث فى كتاب كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون لوجد فيه نصاً عن أولئك الحكماء السبعة ، ولعرف منه أن العرب عرفوا أيضاً هؤلاء السبعة من الحكماء القدماء ، كما عرفوا الخمسة الذين أتوا بعدهم ، وكانوا يسمون أساطين الحكمة .

(١) يعنى كتابه أخبار العلماء بأخبار الحكماء .

(٢) ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ من المجلد الحادى والعشرين من مجلة الأزهر .

وهذا النص يوجد في ص ٤٤٧ من الجزء الثاني من كتاب كشف الظنون^(١) وهذا عند الكلام على علم الحكمة ، فقد عرفها أولاً ، ثم قسمها إلى حكمة عملية وحكمة نظرية ، وذكر في ذلك كلاماً كثيراً ، ثم تكلم على تاريخ الحكمة عند الأمم القديمة من السكندان والقبط والسرمان واليونان والروم والفرس ، إلى أن قال : وأول من تكلم في الفلسفة على زعم فرفوروس الصوري في تاريخه السرياني سبعة : أولهم ثاليس - طاليس - وقال آخرون : فوتاغورس ، وهو أول من سمي الفيلسوف بهذا الاسم ، وله رسائل تعرف بالذهبيات ، لأن جالينوس كان يكتبها بالذهب ، ثم تكلم على الفلسفة سقراط من مدينة آتة - أثينا - بلد الحكمة ، ومن أصحاب سقراط أفلاطون ، كان من أشرف يونان ، وكان في قديم أمره يميل إلى الشعر ، فأخذ منه بحظ عظيم ، ثم حضر مجلس سقراط ، فرآه يشلب الشعراء فتركه ، ثم انتقل إلى قول فيثاغورس في الأشياء المعقولة ، وعنه أخذ أرسطاطاليس ، وألف كتباً ، وترتيب كتبه هكذا : المنطقيات ، الطبيعية ، الإلهيات ، الخلقيات ، وقد مضى بعد هذا في الكلام على كتب أرسطاطاليس ومن ترجمها في الإسلام الخ .

والمهم في هذا النص هو القول الأول الذي يجعل - طاليس - لافوتاغورس هو أول الحكماء السبعة ، لأن هذا يوافق كل الموافقة ما نقله الدكتور الفاضل من الأقوال في هؤلاء الحكماء ، لأن الأقوال التي نقلها متفقة في جعل - طاليس - على رأسهم ، كما تتفق في ثلاثة آخرين ، وهم بياس وبتاقوس وسولون ، وإنه ليسكني ذلك في معرفة العرب هؤلاء الحكماء ، وإن كان صاحب كشف الظنون قد اقتضب النص الذي نقله عن فرفوروس ، ولم يذكر من هؤلاء الحكماء إلا حكماً واحداً ، وهو - طاليس - لأنه يذكر في أولهم ، ومن المرجح أن هناك نصواً أخرى غير هذا النص الموجود في كشف الظنون في المکتب العربية التي تعنى بالكلام على الفلسفة ، ومن المرجح أيضاً أن هذه النصوص قد توسعت في الكلام على هؤلاء الحكماء ، وذكرت أسماءهم كلهم ، كما ذكرت الأقوال المختلفة في تعيين أسمائهم ، على نحو ما ذكر الدكتور الفاضل ، وكان هذا سبباً في اقتصار

صاحب كشف الظنون على ذكر - طاليس - وحده ، اكتفاء به عن ذكر غيره ، لأن كتابه لا يعنى إلا بذكر المسامات صغيرة من كل علم ، على أنه مع هذا ينقل عن كتاب لفروريوس ذكرت فيه أسماء هؤلاء الحكماء ، ولم يقتصر فيه على - طاليس - وحده ، فلا بد أن يكون صاحب كشف الظنون قد اطلع عليهم في هذا الكتاب ، ولا بد أن يكون غيره من فلاسفة العرب قد اطلع عليهم قبله ، لأن فروريوس كان معروفا لهم ، وكذلك كانت كتبه معروفة لهم لترجمتها إلى العربية .

وقد كان فروريوس الصوري من فلاسفة القرن الثالث الميلادي (٢٣٣ - ٣٠٥ م) ولد في صور ، وأخذ على أفلوطين ، وقد شرح محاورات أفلاطون الكبرى ، وشرح من كتب أرسطاطاليس المقولات والأخلاق والطبيعة والإلهيات ، ووضع كتاب إيساغوجي ، وهو كتاب المدخل إلى مقولات أرسطاطاليس ، وقد نقله إلى العربية أبو عثمان الدمشقي ، وله أيضا كتاب أخبار الفلاسفة ، وقد ذكر القفطي في كتابه - أخبار العلماء بأخبار الحكماء - أنه وجد منه المقالة الرابعة بالسرياني ، والظاهر أنه هو الكتاب الذي نقل عنه النص السابق صاحب كشف الظنون .

ومن هذا يتبين أن الحكماء السبعة عند العرب غير الحكماء المعروفين عندهم بأساطين الحكمة ؛ لأن هؤلاء الحكماء خمسة متفق عليهم عندهم ، أولهم ابيدقليس ، وقد قيل إنه كان في زمن داود عليه السلام ، وآخرهم أرسطاطاليس ، وقد كان موجودا في القرن الرابع قبل الميلاد (٣٨٤ - ٣٢٢ ق م) .

وأما الحكماء السبعة فأولهم طاليس ، وقد كان موجودا في القرن السادس والسابع قبل الميلاد . (٦٢٤ - ٥٤٦ ق م) وما نقله العرب من ذلك يوافق ما نقله فلاسفة أوروبا بعدهم ، وإنى أرى أن معرفة الحكماء السبعة ليست من الدقة بحيث تخفى على فلاسفة العرب ، وقد عرفوا كثيرا من دقائق الفلسفة ، فأهون بهذه المسألة أن يعرفوها أيضا .

على نزيل طالك

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود النواوى

وكيل معهد أسيوط

لو أن لى نبعا من ينبوع بلاغتك ، أو قبسا من نور هدايتك ، أو رشفا من ديم مزايك . أو مرقى إلى مستوى عليك ، لملكك تصويرك للقراء الكرام ؛ وإنما يُحسن التصوير ولا سيما لمثلك بليغ منطق ، وإنما يقدم حكما عليا مثلك حكيم عالم ، ولكننى محب معجب ، أراد أن يوفى بعض الحق لإمام من أئمة الإسلام ، هو فى الحق مجمع لعدة إمامات ، وشمس سطعت على الكائنات ، فيحق أقول : إنه عالم ربانى أوتى من ظاهر العلم وباطنه ما استعصى على غيره بعد النبيين ، ومتكلم حكيم تطرق إلى أبواب لا يحسنها سواه من الناطقين فى عذوبة خلاصة ، وأسلوب بديع .

أيها الإمام المظلوم : مثلك من غبن حقه فى هذه الدنيا فلم تصف له ، ومثلك من جمد على الحق غير مبال أن ينفذ من حوله ، ومثلك من عرف قيمة هذه الحياة فشجع ولم يبال بالموت ! يا إمام الاتقياء ومن أوتى الحكمة ؛ فكان أخطب خطباء هذه الأمة بعد السيد الرسول صلوات الله عليه . هل درى الناس بم نلت هذه المزايا ؟ وكيف اكتسبت تلك المواهب والعطايا ؟ أحاول أن تكون عليا فكنته ؟ أم ذلك محض فضل من الله نلته ؟ وما من شك فى أن الكل من الله ، ولكنه حين يريد يؤتى الأسباب ، ويسر الطلاب .

أيها القارئ الكريم : هذا هو على بن أبى طالب بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصهره الذى حاول معاوية بن أبى سفيان أن يفتخر عليه فقال لغلامه أكتب إليه :

محمد النبي أخى وصهرى وحمة سيد الشهداء عمى
وجعفر الذى يسمى ويضحى يطير مع الملائكة ابن أمى
وبنت محمد سكنتى وعرسى منوط لخمها بدى ولحى
وسبطا أحمد ابناى منها فأيكُم له سهم كسهمى
سبقتكمو إلى الإسلام طرا غلاما ما بلغت أوان حللى

ولد والرسول صلى الله عليه وسلم رجل يرشحه الله سبحانه للنبوّة فى الثانية والثلاثين من عمره، ونشأ فى بيت محمد بن عبد الله لفقراً أبى طالب إذ ذاك، وما ظنك بناشئ فى بيته محمد، تربيته على العلم، والأدب والحكمة، والسكّال والجد والرجولة، لهذا كرم الله وجهه فاسجد لوثن قط، وما عرف طريقاً لم يسلكه الرسول قط، لهذا أحبه وآثره وآخاه، فقال: أنت منى بمنزلة هرون من موسى، غير أنه لا نبى بعدى. وهذا حق - وأبيك - فهى أخوة نسب، وأخوة صداقة، وأخوة اتفاق فى المزايا والصفات، إلا ما خص الله به عبده محمداً، وهو ذو الفضل العظيم، لقد أفاد على بهذه الصلة الخاصة السكرية ما لم يجتمع لسواه، وهو من أبوين طيبين من عنصر بنى هاشم وهم صفوة الله من عباده، أبوه أبو طالب المعروف، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم جد هذا البيت الكريم. فلا غرو إذا أفاد من ذلك القرآن وتلك الصحبة.

لقد أحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان إذا غضب لم يخاطبه أحد سواه، ولقد بذل له من النصيح والإخلاص فى التعليم والتربية ما صار به عالماً ربانياً، لا يتسامى إلى منزلته غيره. أخرج ابن سعد عن على أنه سئل بم كنت أكثر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً؟ فقال: دإنى كنت إذا سألته أنبأنى، وإذا سكّت ابتدأنى،، لقد أثمر ذلك الحب الخالص بين على وبين ابن عمه، ذلك العلم القلبى النافع، لا العلم اللسانى الضار، فكان على يؤثر غيره بالدنيا على نفسه، ويطعم الطعام على حبه، مسكيناً ويتيماً وأسيراً حتى قيل: لانه طوى ثلاثة أيام، وفى الثالث جاءه رزق فأزاه ضيف وهو على مائدة الإفطار مع زوجته وابنيه الحسن والحسين؛ فرفع الطعام من فوق المائدة وآثر به السائل، ولم يطعموا ليلتهم على ما بهم من مسغبة ومجاعة، فضرب المثل السكريم لاهل الإيثار، وعلم الناس كيف

يروضون النفوس ويملكونها ، ومن ملك نفسه وشهوته فهميات أن يذل أو يسفل يوما ، كان على يصوم حتى يقال لا يفطر ، ويقوم حتى يقال لا ينام ، يضرع إلى الله ربه ويبيكى من ذنبه ، ويحاسب نفسه على كل ما يصدر منه ، ولهذا كانت نفسه مرآة صافية ، وواضحة خالصة لا يغش ولا يكذب ولا يظلم ، صريحا لا يعرف المواربة وواضحا لا يقبل المخادعة ، وقويماً لا يرضى المداورة . إذا سمع خطبة لا يؤمن بها قال : لا بلاء فيه ، يدور مع الحق أنى كان ، ومع من كان ، لا يطلب الخلافه لانها ملك ودينائصبها ، ولكن ليضع الحق في نصابه ، خليا من كل خطر نفسى ، ومأرب ذنى . والذى فلق الحبة ، وبرأ الذسمة ، لولا ما أخذ الله على العلماء ألا يقاربوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم ؛ لالتقيت حبلمها على غاربها ، ولالتقيتم دنياكم هذه أزهدها عندي من عطفه عز ، بل اندمجت هلى مكنون علم لو بحث لكم به لاضطربتم اضطراب الارسبة فى الطوى البعيدة ، لقد أفاد من تلك الصلة الكريمة مع ذلك الاستعداد الخصب : فكان جريئاً فى الحق ولو على نفسه ، أو من هو فى احتياج ملح إلى نصره ، والاعتزاز به فبشر قاتل خصمه ، والمؤلب عليه وتبرأ منه ، لأن ذلك الخصم من خيرة أصحاب محمد ومن كانوا موضع تقديره : اغتال عمرو بن جرموز المجاشعى الزبير بن العوام وهو نائم ، وأقبل برأسه على ابن أبى طالب فما كان من على إلا أن قال : أبشر بالنار . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بشروا قاتل الزبير بالنار » . فخرج عمرو وهو يقول :

أتيت عليك برأس الزبير وكنت أحسبها زلفه
فبشر بالنار قبل العيان فبئست بشارة ذى التحفة

ثم أتى بسيفه فنظر إليه مايا وقال : رحمه الله الزبير لطالما فرج به الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رحمك الله يا على لقد كنت موثلاً للشرعية الإسلامية ، تأرز إليك كما يأرز الضب إلى حجره ، ولقد كنت مصدراً أميناً من مصادر التشريع ، اتخذك الشيخان أبا بكر وعمر مستشاراً لهما ، لا يفصلان فى معضله إلا بعد فصلك ، ولا تختلف واحد منها عليك فى رأى ، إلا رجع إلى قولك ، حتى ضرب الناس المثل بك فى معضلات الأمور ومشكلاتها ، فقالوا : قضية

ولا أبا حسن لها - وكان ذلك مصداق ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم
«أنا مدينة العلم وعلى بابها»^(١).

ولقد كنت تقول فصلا وتحكم عدلا ، حتى قل أن يترك لك قول الحق
صديقا ، ولو كان ابن عباس حبر هذه الأمة ، وابن عمك المخلص الأمين إن صح
ما يقول المؤرخون .

وقد أفاد من ذلك خصمك معاوية ، ورزأك بتسامحه ولينه في خلصائك
ونصحائك، حتى في أخيك عقيل الذي طلب منك فقلت : أصبر حتى يخرج عطاؤك
مع المسلمين ، فلما ألح بك ، قلت لبعض القوم : خذ بيده وانطلق به إلى حوانيت
أهل السوق ، فليدق الأقفال وليأخذ ما في الحوانيت ، فقال لك : تريد أن تتخذني
سارقا فقلت له : كما أردت أن تتخذني سارقا آخذ أموال المسلمين ، فاعطيكها
دونهم ، ولما ذهب إلى معاوية أعطاه مائة ألف ثم قال له : اصعد على المنبر
فاذكر ما أولاك به على وما أوليتك ، ولكن الفتى الهاشمي المطمئن عقيل لم يبع
كرامته من معاوية ، ولم يقبل خطة الضيم في أخيه ؛ فصعد المنبر فحمد الله وأثنى
عليه ثم قال : أيها الناس إني أخبركم أني أردت عليا على دينه فاخترت دينه ، وأردت
معاوية على دينه فاخترتني على دينه . وفعه أنتم يا بني هاشم .

إن على بن أبي طالب لو قيل أن يستبق معاوية على إمرة الشام ، ويفضى على
بعض أمره ، لقد كان ذلك جديرا أن يخفف ضائقة العداة القائم ، وربما غير
ذلك وجه السياسة ووجه الدفة وجهة على ، ولكن رفض كل الرفض من جميع
الساسمة والعظماء الذين أخلصوا له ، لأنه لا يؤمن إلا بوحى ضميره ، ولأنه على بينة
من ربه ، فلم يرض أن يقره ولا أحدا من عمال عثمان ، حتى يستتب الأمر وما ظنك
بالاستهداف لخصومة الرؤساء . ولكنه الذي لا يبالي ، والذي يقول حين يناقش :
«ما شككت في الحق منذ أريته من وقعه بماء لم يظما» .

وقد اتصل بهذا التمسك العجيب والتماسك الطليب ، ورع وزهادة ونيل
ومجادة ، وتعفف أعجب العدو والصديق ، وكذلك من رأى الحق رأى العين ، وكان

(١) اختلف المحدثون في الحديث فن قائل بوضعه كابن الجوزي ، وقائل بصحته كالحاكم
والأقرب أنه حسن .

مع الله والله . قال المؤرخون : إنه نهى أصحابه يوماً عن انتهاب الأموال بعد أن اتخنوا في أعدائهم الجراح ، فجعلوا يبرون بالذهب والفضة ، فلا يعرض له أحد إلا السلاح الذي قاتلوا به ، والدواب التي حاربوا عليها فسدبوا من يناقشه لعله يرحم أطباعهم ويبل ريقهم : يا أمير المؤمنين : كيف حل لنا قتالهم ، ولم يحل لنا سبيهم وأموالهم . ويقول على : ليس على الموحدين سبي ، ولا يغنم من أموالهم إلا ما قاتلوا به وعليه ، فدعوا ما لا تعرفون وألزموا ما تؤمرون ، رحمك الله يا باب العلم والأمانة ، إنني أعلم أن أحكام الخارجين من المسلمين ومعاملتهم وما في ذلك من غوامض أنه مصدره ومرجعه في الفقه الإسلامي بما شرعت للناس من أحكام لم تعرف من قبلك .

فأما شجاعة علي واستبساله فقد تواتر حتى دخل في حد الأوليات ، وأول موقف عجيب له كان ليلة هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، حين مكرت قریش بالنبي صلى الله عليه وسلم ليقتلوه أو يخرجوه أو يثنوه ، وجاءوا يتربصون خروجه لصلاة الفجر ، وأقام علياً في مكانه ، يستهدف لخطرم ، ويفدى النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه من مكرم . وكان نوماً هادئاً جميلاً لا أرق فيه ولا تفكير ، لأنه نوم الذي يصف نفسه : ما أبالي أسقطت على الموت أو سقط الموت على ، والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الصبي يثدي أمه ، ويخرج علي إلى الصلاة فلا يجدون سواه ... ،

ولقد بارز في كل غزوة بما تنبئك كتب السير بعجائبه ، وخوارقة التي لولا ما يصح بالرواية منها لدخل في حد الحرافات .

وهو إلى ذلك مهذب مؤدب ، متواضع ينزل عن بعض صفاته لخيرة أحابيه ، ويقوم على ذلك بحجته . أخرج البزار في مسنده عن علي أنه قال : أخبروني من أشجع الناس ؟ قالوا : أنت : قال أما إنني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه ولكن من أشجع الناس ؟ قالوا لا نعلم فن ؟ قال : أبو بكر إنه لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريشاً ، فقلنا من يكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا يهوى إليه أحد ؟ فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يهوى إليه أحد إلا أهوى إليه . فهذا أشجع

الناس . رحمتك اقد يا على لقد فتن الناس بمواهبك لما كان يظهر من عبقريتك ، فعلبك كهيئة المكنون وشجاعتك تحار فيها الظنون ، وفصاحتك لم يتطلع إليها المتطلعون ، وزهدك أعجب به الراهبون ، وقد كان يلد لخصمك معاوية أن يسمع من أصحابك عنك ، وهو من أعلم الناس بك ، ويلج في الطلب وما أبدع وأوجز ما وصفك به عدى بن حاتم في كلبته الطويلة التي يقول فيها عنك : « يقول فصلا ويحكم عدلا ، تنفجر الحكمة من جوانبه والعلم من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ، وكان والله عزير الدمة طويل الفكرة ، يحاسب نفسه إذا خلا ويحاسب نفسه على ما مضى ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن العيش ما خشن ، وكان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ، يعظم أهل الدين ، ويتجنب إلى المساكين ، لا يخاف القوى ظلمه ، ولا يياس الضعيف من عدله ، فاقسم لقد رأيته ليلة وقد مثل في محرابه ، وأرخى الليل سدوله ، وهو يتململ تملل السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، فكأنني الآن أسمعه وهو يقول : يا دنيا غرى غرى إلى تعرضت ؟ أم إلى تشوفت ؟ هيات عزى غرى ! طالق يا دنيا ، طالق ثلاثاً لا رجعته بعدها ، وقد كان معاوية يبكي حين يسمع وصف على ويترحم عليه ، وبعد فلعل لى رجعته إلى التنويه بالإمام بوصف فصاحته ، وما خلف من أدب هو الذخيرة لمن أراد الثراء الادبي النفيس .

من كلام الامام

من كلام على عليه السلام قوله : رأى الشيخ خير من مشهد الغلام . الناس أهداء ما جهلوا . بقية عمر المؤمن لا ثمن لها ، يدرك ما فات ، ويحبي بها ما ألمات . أخذ معنى هذه الفقرة الاخيرة أبو الفتح على بن محمد البستي من مجيى شعراء القرن الرابع الهجرى المتوفى سنة (٤٠٠ هـ) فقال :

بقية العمر عندى ما لها ثمن وإن غدا وهو محبوب من الثمن
يستدرك المرء فيها ما أفات ويح ي ما ألمات ويمحو السوء بالحسن

مع الشعراء

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ إبراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

الحديث عن الشعر فيه من الطرافة والحسن ، والجمال والروعة ، والنزوع
والرغبة ، والحنين والشوق ، ما يثير الإحساس المرهف ، والوجدان المتيقظ
والقلب اللامح ، والفكر المتوثب ، وأما من هؤلاء الذين يهيمون له من الفراغ ،
ويعدون له من البال ، وينظمون له من الدراسة ، بمقدار ما يجعله منهم كالدم
الملح ، والعلقة التي يستعصى علاجها ، ويتعسر التطيب لها ، وربما اعثرت
بالببت والابيات فوددت لو تكلمت من بوق عظيم لأنغمه للناس ، أسمعهم
لمن في الارض جميعا ، وأعتقد أنه إذا كان للأشياء من مسمياتها نصيب ، فإنه
سمى بهذا الاسم ؛ لأنه يمتاز عن غيره من أساليب الكلام بكونه يخاطب
الشعور ويلهب العواطف ، ويحرك أوتار الحس ، ولولا هذا لما قالت
قريش حينما دهشت للقرآن الذي ملك عليها أقطار البلاغة ، وقطع دونها طريق
المعارضة : « إنه شعر » .

والحق أنه ، إذا تكاملت لصاحبه الملائكة ، وتوفرت له الدواعي ، وأسعفته
الالفاظ ، يبلغ في سفارته للعقول ، وفعله بالافتدة ، ولعبه بالاهواء ، وسلطانه
على الضمائر ، مالا تبلغه التعاويذ والرقى ، والسحر والحيلة .

ولهذا جعلته الامم فنا من فنون الجمال ، يحتفلون به ، وتهزم العناية له
والانكباب عليه ، ويباهي الرجل أو المرأة بما يربطهم به من نسب ، ويصلهم به
من وشائج ، وإذا كان لأحدهم تذوق له ، وفهم فيه ، طاول بعنقه ، ولوى عطفه

واشمخر بأنفه، وزها زهو الملوك الفاتحين ، والقواد الظافرين ، وسجل التاريخ أن الشعر لعب دوراً هاماً في نهوض الجماعات والشعوب ، وتقدم الافراد والامم وأن البيت الواحد كان يقيم دولة ، ويخفت صولة ، ويوجه رأياً ، ويناصر مذهباً ، ويقضى على سياسة ، ويناهض فكرة .

ومن أجل ذلك أُثِرَ عن العرب أنها ما كانت تغتبط لشيء مثل اغتباطها بشاعر يولد ، أو خرسٌ مُنتَجج ، وكانوا يقيمون له الاسواق ، كما تقيم الدول المتمدينة المعارض الدولية ؛ لتبرز فيها أحسن ما صنعته أيدي الصنّاع فيها من كل ما يدل على تقدمها ونبوغها ، وصلاحياتها لأن تجارى ركب الحضارة والتقدم ، والسياسة والعمران ، وكثيراً ما تتجلى لنا القضايا العلمية ، والمسائل العقلية ، في لباس الوزن الموسيقي ، والجرس التوقيعي ، والتفاهيل الخليلية ، فتناقلها معجبين ، وتندارسها فرحين ، ثم لا تلبث أن تدوى في الحافقين ، وتطير من غير جناحين ، وإذا الالسنه ترددها ، والآذان تصغى إليها ، ولأمر ما كان الخلفاء يحتفلون بالشعراء يترضونهم ، ويخطبون مودتهم ، ويغدقون عليهم من العطاء ، ما يطلق ألسنتهم بالتثناء ، وقد عرفنا من بلغ به الترف والنعمة ، والسرور والسعة ما جعله أشبه بأصحاب الجاه والملك ، في مأكله ومسكنه ، وسمته ومظهره ، وحديث المتنبي مع سيف الدولة ، وافتراضه أوامره عليه ، وتحكمه فيه ، ليسكون له قصر مثل قصره ، فيه من العبيد والخدم ، والجواري والإماء ، والهارق والبسط ، ما يخيل للرائي أنه لا فرق بين الرجلين ، ولا خلاف في مظهر الشخصين ، يؤيد هذه النظرية إلى أبعد حدود التأييد ، وإذا كان بعض الناس يهتمون الشعر بأنه من لهُو الحياة وفضولها ، وعيث التفكير ومجونه ، وأنه لا يشتغل به ، ولا يلتجئ إليه ، إلا أولئك الذين صرفهم الله عن الواجب ، ولوى عنانهم عن الجادة الصحيحة ، والمهيع المستقيم ، لأنهم يفرقون في الخيال ، ويبعدون في الوهم ، ويعيشون في أضغاث الاحلام ، فإنهم يسرفون ولا ينصفون ، ويتحاملون ولا يتجاملون ، ويخطبون خبط العشواء في الليلة الظلماء .

وقه عبد القاهر الجرجاني حين سئل في ذلك ، فقال : هو من الكلام جيده جيده ، ورديته رديته ، ونقل حافظ إبراهيم عن المرحوم الاستاذ الإمام في مقدمة ديوانه هذه الجملة : « لو أنهم سألوا الحقيقة أن تختار لها بيتاً تشرف منه على الوجود لما اختارت غير بيت من الشعر » .

ومن الغريب أن الذين يعيبون الشعر وينكرونه على الناس ، لا يلبثون إذا أعيتهم مسالك التعبير ، وضائق بهم دروب المنطق ، وأعجزتهم أساليب البيان ، أن يطلبوا منه الشواهد ، ويستعينوا به على الإفهام ، معتقدين أنه « جبهة » التي قطعت قول كل خطيب ، وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : خير ما يقدمه الرجل بين يدي حاجته الايات من الشعر يهزبها الكريم ، ويستنزل بها اللئيم ، وكلنا يعرف أن التراث العلمى الذى وصل إلينا من الأندلسيين كان خاليا من الجفوة ، بعيداً عن الغلظة ، سالماً من غرابة التأليف ، وتعتيد التراكيب ؛ لأن أهله غلب عليهم الطابع الادبى ، والاسلوب الشعرى .

وإذا صح ما يقول القائلون من أن أصحاب المواهب والملكات ، والعقول والافكار ، لهم رسالة فى الحياة ، لا شك فى أنه يجب عليهم أن يؤدوها على أكمل وجه ، وأحسن مثال ، فإن رسالة الشعراء أنبل وأشرف ، وأثمن وأغلى ، وأخلد على الزمن ، وأبقى على الأيام والليالى ، لا لأنهم أقدر على التعبير ، وأملك لعنان القول ، وأعرف بمواطن الشعور ، ومسارب الاحاسيس ؛ بل لأنهم — مع ذلك — أشد الناس معرفة بمعنى الحياة ، وأكثرهم فهماً لما لا بد أن يهدف إليه الاحياء ؛ ليؤدوا ضريبة وجودهم فى هذا الكون الفسيح ، ونحن نرجو أن ينفخوا فى روع المعاصرين ، ويأخذوا بأيدي المدلجين ، لتستقيم بنا السبيل ، وتعتدل المحجة ، فليس الشعر آهة تلهب ، وأنفاساً تحترق ، وليلاً يطول ، وحالاً تحول ، ومعانى تحمل على الضعف ، وتغرى بالفسوق والعصيان ، وليكنه الاتجاه إلى أنبل الاهداف ، وأسمى المقاصد ، وأحسن الغايات .

أعلام الأثر

المنفلوطى

١٨٧٦ - ١٩٢٤ م

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد كامل الفقى
المدرس بكلية اللغة العربية

— ٢ —

المنفلوطى الناقد :

« والمنفلوطى ، إذ نقد الأحوال السياسية أو الشئون الاجتماعية أو الأدبية ، أو تناول نقداً شخصياً بينه وبين مضاوول كان بارع النقد ، لماسح الفكر ، يعالج الموضوع فى تحليل مستوعب ، وإلمام شامل ، ولا يجمع قلبه فيما ينقد ، أو يتجاوز العفة والنزاهة وتوخى الحق فيما يرى ، وقد أثر عنه كرم القلم ، وترفع الأسلوب ، ونزاهة الرأى ، على رغم ما ارتصد له من عقارب تنفت سمومها على الصحف وفى المجتمعات ، ولمكنه كان يعتصم دائماً بقوله : « إن الله وحده هو الذى يستطيع أن يغير طبيعة الإنسان » .

ومهما يكن من شئ « فالمنفلوطى ، فى الأدب أمة وحده ، نهج فيه نهجاً رفيعاً مبتكراً ، وخلد بهذا الفن الرائع ذكره ، واستحق أن تصفه صحيفة « الهلال » بأنه « أمير النشر العصرى » ، وأن يقول فيه الأستاذ أحمد الزيات : « فإذا قدر الله لأدب المنفلوطى أن يفقد سحره وخطره فى أطوار المستقبل ، فإن تاريخ الأدب الحديث سيقصر عليه فصلاً من فصوله ، يجعله فى النشر بمنزلة البارودى فى الشعر » (١) .

شعره :

« المنفلوطي » شعر جمع بين الجزالة والمهولة ، رصين القافية ، نغم التعبير ، وله قصائد رائعة ، متينة السبك ، محكمة النسيج ، لطيفة المعنى ، بارعة الوصف ، وله في الوجديات غرر ، وفي الحكم بدائع ، غير أنه مقل ، لم يتجه إلى الشعر اتجاهاه إلى النثر الذي ملك عليه نفسه ، واستأثر بقلبه ، ولو أنه ولع بالنثر ترقق به وخلي بينه وبين الشعر أحيانا أخرى ، ليكون من أبرع الشعراء وأنبه الفحول .

آثاره الأدبية :

النظرات : وهي مقالاته الفذة الرائعة الأسلوب ، التي كان يفشرها في « المؤيد » ، تباعا ، ويعالج فيها شؤون المجتمع ، وقد كانت مشار شهرته ، وبعد صيته ، وهي مطبوعة طباعات متعددة .

العبرات : مجموعة روايات موجزة ، وضع فريقا منها ، وترجم فريقا آخر ، وقد ساقها عظة وتذكرة ، وهي اليتيم ، والشهداء ، والحجاب ، والذكرى ، والهاوية ، والجزاء ، والعقاب ، والضحية ، ومذكرات « مرغريت » ، وهي مطبوعة تكرر طبعا .

الشاعر أو « سيرانودي برجراك » : رواية أدبية تهذيبية ، غرامية تمثيلية ، استخلصها من روايات « آدمون أوستان » ، تكرر طبعا أيضا .

ماجدولين : أو تحت ظلال الزيفون . ألفها الكاتب الفرنسي (الغونسكار) ونقلها عن الفرنسية إلى العربية « المنفلوطي » في قالب قصة خيالية تخيل وقائعها في ألمانيا ، وأملى عليه ترجمتها الحرفية صديقة الأستاذ « محمد فؤاد كمال بك » ، ثم تصرف فيها « المنفلوطي » بأسلوبه وهذبه بحذف ما يجافي الذوق العربي منها مع حفاظه لطابع الرواية ومغزاها ^(١) .

وقد كتب الأستاذ « خير الدين الزركلي » خلاصة شعرية لهذه الرواية ، وهي نسخة في مجلد واحد تكرر طبعا .

(١) إذا قلنا نقل هذه الرواية من الفرنسية إلى العربية المنفلوطي فاعلمنا نعى أنه كلف من نقلها لجهل الفرنسية .

الانتقام : رواية أدبية اجتماعية أخلاقية ، تصور حكاية المسيو « كابرني » وكيف قضى شطراً طويلاً من حياته سعيداً بزوجته وثروته ، حتى عصف الدهر بهما ، مع تصوير ما وقع لابنته مع زوج أبيها من بؤس وتعس إلى غير ذلك من مشاهداتها طبعته المكتبة التجارية سنة ١٩٢٣ م وغيرها .

في سبيل التاج : ألف هذه الرواية الشاعر الفرنسي الشهير « المسيو فرانسو كوييه » ، ثم نقلها « المنفلوطي » ، إلى العربية ، وقد وقعت أحداث هذه الرواية في القرن الرابع عشر بين العثمانيين وشعوب البلقان ، وأراد مؤلفها أن يجارى بها « كورفي » و « راسين » عميدى الشعر التمثيلي في القرن السابع عشر ، طبعته بالمطبعة الرحمانية بالقاهرة سنة ١٩٢٠ م ثم توالى طبعها .

الفضيلة : رواية ألفها الكاتب الفرنسي الشهير المسيو « برناردين دى سان بيير » ، ثم نقلها « المنفلوطي » ، إلى العربية بملخص وتهذيب ، وهى من الروايات الأدبية الأخلاقية الاجتماعية التى تؤرخ لحوادث غريبة ، كتبت عن جزيرة « موريس » إحدى جزر إفريقيا الواقعة فى المحيط الهندى قريباً من « مدغشقر » وقد وصفت طبيعة هذه الجهة ، وصورت الاستعمار الأوروبى بها ، وتحدثت عن أشخاص عاشوا بهذه الأصقاع ، وبآخرها قصيدة فى العظة والعبرة خاطب بها « بول » و « فرجينى » سنة ١٩٢٣ م ثم أعيد طبعها .

مختارات المنفلوطي : هى روائع من النظم والنثر مما استجداه واهتز له فؤاده ، ووقف عنده معجباً بأسلوبه وتصويره ، وقع عليها من كثرة ما يحيل النظر فى الكتب العربية وآدابها ، وهى دالة على حسن ذوقه ، وروعة اختياره .

نماذج من نثره

الحرية : نبذة مما كتبه بهذا العنوان .

« إن كثيراً من أسرى الاستبداد من بنى الإنسان لا يشعرون بما تشعر به هذه الهرة المحبوسة فى الغرفة ، والوحش المعتقل فى القفص ، والطير المقصص الجناح من ألم الأسر وشقائه ، بل ربما كان بينهم من لا يفكر فى وجه الخلاص ،

أو يلتمس السبيل إلى النجاة بما هو فيه ؛ بل ربما كان بينهم من يتمنى البقاء في هذا السجن ويأنس به ، ويتلذذ بآلامه وأسقامه .

من أصعب المسائل التي يحار العقل البشرى في حلها : يكون الحيوان الأعجم أوسع في الحرية مبدئاً من الحيوان الناطق ، فهل كان نطقه شؤماً عليه وعلى سعادته ؟ ، وهل يجعل به أن يتمنى الخرس والبله ليكون سعيداً بحريته ، كما كان قبل أن يصبح ذكياً ناطقاً ؟

..... ليست جناية المستبد على أسيره أنه سلبه حريته ، بل جنايته الكبرى عليه ، أنه أفسد عليه وجدانه ، فأصبح لا يحزن لفقد تلك الحرية ، ولا يذرف دموعاً واحدة عليها .

لو عرف الإنسان قيمة الحرية المسلوبة منه ، وأدرك حقيقة ما يحيط بجسمه وعقله من السلاسل والقيود ، لانتحر كما ينتحر البلبل إذا حبسه الصياد في القفص ، وكان ذلك خيراً له من حياة لا يرى فيها شعاعاً من أشعة الحرية ، ولا تخلص إليه نعمة من نعماتها .

ولاسئيل إلى السعادة في هذه الحياة إلا إذا عاش الإنسان فيها حراً ، لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ، ووجدانه وفكره إلا أدب النفس .

نماذج من شعره

قال في الوجديات ، وشعره فيها أشبه بشعر البدو :

سقاها وحيا تربها وابل القطر	وإن أصبحت قفراء في مهمه قفر
طواها البلى طى الشحيح ردامه	وليس لما يطوى الجديدان من نشر
مرابض آساد ومأوى أراقم	تجاور في قيعانها الفيل بالجحر
يكاد يضل النجم في عرصاتها	ويزور عن ظلماتها البدر من دعر
لقد فعلت أيدي السوافي بنؤيها	وأحجارها ما يفعل الدهر بالحسر
وقفت بها في وحشة الليل وقفة	أثار شجهاها كامن الوجد في صدرى
ذكرت بها العهد القديم الذى مضى	ولم يبق منه غير بال من الذكر
وعيشا حسبتها من الحسن روضة	كساها الحيا منه أفانين من زهر

فأنشأت أبكى والامسى يتبع الالسى
وما حيلة المحزون إلا لواعج
إلى أن رأيت الصخر يبكى إلى الصخر
تفيض بها الاحشاء أو عبرة تجرى

إلى أن قال :

وفي القصر بين الظل والماء غادة
تريك عيوننا ناطقات صوامتا
لهوت بها حتى قضى الليل نخبه
لعمرك ما راحت بلبى صباية
ولا هاجنى وجد ولا رسم منزل
ومن كان ذا نفس كنفسى قريحة
كأنى ولم أسلخ ثلاثين حجة
أخو مائة يمشى الهوى كأنه
إذا شاب قلب المرء شاب رجاؤه
حييت بآمالى فلما كذبقتى
وأصبحت لا أبغى سوى الجرعة التى
تميس بلا سكر وتأنى بلا كبر
فما شئت من خمر وما شئت من سحر
وأدرجه المقدار فى كفن الفجر
ولا نازعتنى مهجتي سورة الخمر
عفاء ولكن هكذا سنة الشعر
من الهم لا يعنى بوصل ولا هجر
ولم يجر يوما خاطر الشيب فى شعري
إذا ما مشى فى السهل فى جبل وعر
وشاب هواه وهو فى ضخوة العمر
قنعت فلم أحفل بقل ولا كثر
أذوق إذا ما ذقتها راحة القبر

كفأك شره

من كلام الإمام على أمير المؤمنين :

يحير المال ما أغناك ، وخير منه ما كفأك ، ومحير إخوانك من واساك ، وخير
منه من كفأك شره

أخذ هذه الحكمة أبو الحسن محمد بن لنسكك البصرى وهو من أديباء القرن
الرابع الهجرى فقال وأجاد :

عديا فى زماننا عن حديث المكارم
من كنى الناس شره فهو فى جود حاتم

المروءة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ على رفاهى
مفتش الوعظ بالأزهر

المروءة كلمة لفظها كمعناها حلو جميل ، إن قرعت السمع فعظمة وجلال ، وإن نفذت إلى القلب فنبيل وسمو وشعور بالكرامة والكمال ، ولست أعدو الحق إن قلت : إن المروءة هى جماع الفضائل ، ورأس المكارم ، وعنوان الشرف ، بها يسمو المرء ، ويرتفع ذكره ، وبفقدائها يفقد كل مكرمة ومحمدة وفضل ؛ فهى ميزان الرجال ، وأصل الجمال ، فالمروءة تجمل النفس بما يزينها ، وتحصنها مما يعيبها ويزرى بها ، بحيث تكون للحجامة أهلاً ، وعن النقائص بمنأى ومبعد ، ولا يكون ذلك إلا لمن راض نفسه على التخلق بالحسن من الصفات ، والتجمل بأحسن العادات ، حتى يصبح التطبع جبلة ، والتعود غريزة ، وليس يستطيع ذلك إلا من جاهد نفسه ، ونازع هواه ، رغبة فى حسن الاحدوثة ، والذكرى الجميلة ، وحذراً من شين يزرى بسمو النفس وينقص من كمالها ، ولذا قيل من شرائط المروءة : أن يتعفف عن الحرام ، ويتصلف عن الآثام ، وينصف فى الحكم ، ويكف عن الظلم ، ولا يطمع فيما لا يستحق ، ولا يستطيل على من لا يسترق ، ولا يعين قوياً على ضعيف ، ولا يؤثر كذباً على شريف ، ولا يُيسر ما يعقبه الوزر والإثم ، ولا يفعل ما يقبح الذكر والاسم .

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه فى صالح الاعمال نفسك فاجعل

وتكاد لا تجد ذا مروءة إلا إذا كانت نفسه شريفة ، وهمة عالية ؛ إذ شرف النفس يدعو إلى إعزازها وإكرامها ، بالبعد عما يحط من شأنها ، وينقص من قدرها . فشريف النفس لا يقبل الهوان ، ولا يتحمل المذلة من أى إنسان ، متمثلاً قول الأول :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هو أنا بها ، كانت على الناس أهونا
فنفسك أكرمها وإن ضاق مسكن عليك لها ، فاطلب لنفسك مسكناً
وإياك والسكنى بمنزل ذلة يعد مسيئاً فيه من كان محسناً

وعلو الهمة يحمل المتحلي به على الترفع عن الدنيا من ظلم الناس والكذب عليهم ، وخلف مواعيدهم . وكيف يكون على الهمة من يجور على غيره ، ويفترى الكذب في حديثه ، ولا يفي بما يعد ، إن هذا إلا وصف اللئام ، وحلية الأذنياء من أشباه الرجال ؛ ولذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها ، ويكره دنياها وسفاسفها » . وفي حديث آخر يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، فهو بمن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ووجبت أخوته » .
ولاصحاب المروءات علامات تدل عليهم ، وأمارات ترشد إليهم كما قال الأول :

ومعشر صيد ذوى تجلة ترى عليهم للنسدى أدلة

فهم لأرحامهم واصلون ، ولأموالهم في إغاثة المحتاج باذلون ، وبتقوى الله عاملون يتعففون عن المحارم ؛ كما يترفعون عن المآثم ، لا يقربون الفحشاء ولا يخوضون فيما لا يعنيه ، شغلهم كرم نفوسهم عن الناس إلا فيما يعود على العباد بالخير والنفع . يروى أن معاوية بن أبي سفيان سأل عمرا عن المروءة فقال : هي تقوى الله تعالى وصلة الرحم ؛ وسأل المغيرة فقال : هي العفة عما حرم الله تعالى ، والحرفة فيما أحل الله تعالى ؛ وسأل يزيد . فقال : هي الصبر على البلوى ، والشكر على النعمى ، والعفو عند القدرة ، فقال له : أنت مني حقاً .

وقال حكيم لابنه : السكامل المروءة من حصن دينه ، ووصل رحمه وأكرم إخوانه . ولعمر الحق ، ما المروءة إلا في التمسك بأهداب الفضائل ، والعمل بأوامر الدين ، فالدين يأمر بالإحسان ويرغب فيه ، ويحث على إغاثة الملهوف ، وإغاثة المحتاج ، بعبارات تستدر عطف البخيل ، كما تراه يأمر بصلة الأرحام ، وضبط الفرج والبطن عن الحرام ، فالمرءة هي الدين ، والدين هو المروءة ، وليست المروءة أن تعين إنساناً بمالك أو جاهك فحسب ، وليكن أن تكون تقوى الله

أساس عملك والعمل على مرضاته أول همك ، فلا تعمل عملا في السر تستحي منه في العلانية ، فإن ذلك برهان خبث النفس ، ودليل لؤم الطبع وعلى مارسمنا من حد المروءة وشرائطها ، صح لذلك الذى رأى ما عليه الناس من النقص ، وفقد المروءة أن يقول :

مررت على المروءة وهى تبكى فقلت علام تنتحب الفتاة ؟
فقلت كيف لا أبكى وأهلى جميعا ، دون خاق الله ماتوا

واعلم - هديت الرشاد - أن صيانة النفس عن الابتذال ، وذل السؤال بالجد والكفاح فى الحياة لتحصيل ما يصلحك ، ويقوم بأود من تعول ، هو لب المروءة وسنامها ، وإن يضير ذوى المروءة أن يعملوا لكسب العيش ، وإصلاح الحال من أى طريق ما دام سبيلا مشروعا ؛ بل هذا هو الذى حث عليه الدين ورغب فيه سيد المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه ، حفظا للكرامة ، وصيانة للنفس من الهوان الذى يلحقها بذل السؤال وذهاب ماء الحياء بالتطلع إلى ما فى أيدى الناس ؛ ولذا نرى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجروا - عرض عليهم الانصار أن يقاسمهم أموالهم وضياعهم ، أبت عليهم عزة نفوسهم قبول ذلك ، وقالوا لإخوانهم الانصار : دلونا على السوق ، نبيع ونبتاع ، ونأكل من عمل أيدينا ؛ تلك وربى هى العزة ، وقه العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ، فبالعمل يتمكن المرء من إصلاح شأنه وبر إخوانه ، والعطف على جيرانه ، ونيل عظيم الثواب بصلة أرحامه ، ومن تمام المروءة إيثار الغير على النفس .

ومما يروى من عجائب المتقدمين فى الإيثار ، ما حدث به أبو عبد الله محمد بن عمر الوافدى ، قال : كان لى صديقان أحدهما هاشمى وكنا كنفس واحدة ، فالتنى ضائقة شديدة وحضر العيد ، فقالت امرأتى : أما نحن فنصبر على البؤس والشدة ! وأما صبيانا هؤلاء فقد قطعوا قلبى رحمة لهم ؛ لأنهم يرون صبيان الجيران قد تزينوا فى عيدهم ، وأصلحوا ثيابهم وهم على هذه الحال من الثياب الرثة ؛ فلو احتلت فى شئ فصرفته فى كسوتهم . قال : فسكتبت إلى صديق الهاشمى أسأله التوسعة على بما حضر . فوجه الى كيسا محتوما ذكر أن فيه ألف درهم - فما استقر قرارى حتى كتب إلى الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوت إلى صاحبي الهاشمى ؛ فوجهت إليه

السكيس بختمه ، وخرجت إلى المسجد فأقمت فيه ليلتي مستحيا من امرأتى ، فلما دخلت عليها استحسننت ما كان منى ولم تعنفنى عليه ؛ فبينما أنا كذلك إذ وافى صديق الهاشمى ومعه السكيس كهيئته . وقال لى : أصدقنى عما فعلته فيما وجهت به إليك . فعرفته الخبر على وجهه فقال لى : وجهت لى وما أملك على وجه الأرض إلا ما بعثت به إليك ، وكتبت لى صديقنا أسأله المواساة ، فوجه لى كيسى بخاتمى . قال الوافدى : فتواسينا ألف درهم ، وأين من يفعل ذلك أينما ؟ أولئك قوم شروا الثناء فى الدنيا والنعيم فى الآخرة بعرض زائل ، فرجوا به عن إخوانهم السكرات ، فمالوا الحسنيين وفازوا بالسعادتين .

يبقى الثناء وتذهب الاموال ولكل دهر دولة ورجال
مانال محمدا الرجال وشكرهم إلا الجواد بماله المفضل
لا ترض من رجل حلاوة قوله حتى يصدق مايقول فعال
ولو ذهبت أحصى لك أخبار أهل المروءة ، ومواساتهم لمن يعرفون ومن لا يعرفون ، لما اتسع لى ولك المجال . ولكن ينبغى أن تعرف :

إن المروءة ليس يدركها امرؤ ورث المكارم عن أب فأضاعها
أمرته نفس بالدناءة والحناءة ونهته عن سبل العلاء فأطاعها
فإذا أصاب من المكارم خلة يبني الكريم بها المكارم باها
ومروءة الرجل ذخيرة لأولاده من بعده ، ينالون بها جميل للعطف ، ويدفع بها عنهم كثيرا من حوادث الدهر ونوائبه . حكى أن الإمام على كرم الله وجهه قال : لما أتينا بسبايا طيء ، كان فى الناس جارية حسناء تقدمت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : يا محمد هلك الوالد وغاب الوافد ، فإن رأيت ألا تخلى عنى ، فلا تشمعت بى أحياء العرب : فأنى بنت سيد قومى ، كان أبى يفك العانى ، ويحمى الزمار ، ويقوى للضعيف ، ويشيع الجائع ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ويفشى السلام ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا بنت حاتم طيء . فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم : د يا جارية هذه صفة المؤمن ، خلوا عنها ، فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق .

العقيدة الإسلامية

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ بدر المتولى عبد الباسط
المدرس بكلية الشريعة

الإيمان بالملائكة :

الإيمان بالملائكة المقربين أصل من أصول الدين ، فقد قرن الله الإيمان به بالإيمان بهم ، آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، . وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره » .

وجميع الكتب السماوية تثبت وجودهم ، وتوجب الإيمان بهم ، فهم الصلة بين عالم السماء وعالم الأرض وعالم الغيب وعالم الشهادة ، ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا ، ملكا ، فيوحى بإذنه ما يشاء ، . الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ، .

بل إن المشركين أنفسهم كانوا يعتقدون وجودهم ويزنونهم أحق بمقام الرسالة إلى البشر من الأنبياء والمرسلين ، وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، بل إن الأمم العريقة في القدم والمدنية ، كانت تؤمن بهم وتراهم مضرب المثل في الكمال والجمال ، قال تعالى حكاية عن صواحب يوسف : « وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا مملوك كريم » .

ولا عجب أن يؤمن الناس من قديم الزمن بوجود الملائكة ، فإن الملائكة - وإن كانوا غير مرئيين لنا - لا ينفي العقل وجودهم . فالفطر السليمة والعقول الصحيحة لا تدعى أن الإنسان قد أحاط بكل شيء علما ، ففي كل يوم يكشف لنا العلم

عن كائنات حية لم تكن نعلمها من قبل . فهل كانت قبل اكتشافها عندما تم وجدت يوم اكتشافها الإنسان ؟ .

إنه لا ينبغي للإنسان أن يبلغ به الغرور مبلغا يفكر معه وجود ما لم يره . فما يعلم جنود ربك إلا هو ، وإذا كان العقل لا ينفي وجود الملائكة وقد أخبرنا الصادق المعصوم بوجودهم ، وجعل الإيمان بهم قرين الإيمان بالله تعالى وجب أن نؤمن بهم ، فإن الكفر بهم كفر بجميع الشرائع السماوية التي فيها هداية البشر إلى خيري الدنيا والآخرة .

وإن أولئك الذين ينكرون وجودهم لو رأوا الملائكة يمشون بينهم مطمئنين . قالوا إنما سكّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ، ؛ وأمثال هؤلاء مهملات حاولت إقناعهم فلن يزدادوا إلا جحوداً لأنهم لا يطلبون الإقناع والافتناع ، فإن كانوا لا يؤمنون بالله فكيف تطلب منهم الإيمان بما لا يعرف إلا من الله . وإن كانوا يؤمنون به فكيف يكذبونه ؟ .

ولما كان لا مبرر إلى معرفة الملائكة إلا عن طريق الوحي السماوي ، وجب أن يكون أيماننا بهم على الصورة التي جاء بها القرآن الكريم لا تزيد ولا تنقص . فإن الزيادة عما ورد فتحت لباب الخيال الكاذب ، وتهمجم على عالم الغيب من غير حجة أو دليل ، والانتقاص عما ورد تكذيب لله ورسوله .

والمتتبع لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، يعلم أن الملائكة مخلوقات عاقلة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، والله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ، والذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ، .

والقول بأنهم قوة مجردة ملهمة للخير لا مخلوقات عاقلة ، ومحاولة تأويل الآيات التي وردت في الملائكة تأويلاً يبطل معناها قول يناقض نص الكتاب العزيز ، والحنة النبوية المطهرة ، فإننا إذا تتبعنا الآيات الكريمة التي ورد عنها ذكر الملائكة

المقربين يتبين لنا بوضوح أنهم مخلوقات ناطقة مفكرة خيرة . وهانحن نسوق إليك بعضاً من هذه الآيات : لترى أيمكن تأويلها بأنهم قوى مجردة كقوة الكهرباء والمغناطيسية ، ولعلك تخرج معي بعد سرد هذه الآيات بأن مثل هذا القول إنكار مقنع لوجود الملائكة ، ولا أدري ما الذى يحمل هؤلاء القوم على ركوب متن الشطط في التأويل مع أنه لم يقم برهان ولا شبه برهان على استحالة وجودهم ، والتأويل لا يكون إلا إذا كان ظاهر النص قد عورض بدليل أقوى منه . وماذا هم قائلون في مثل قوله تعالى : « ولما قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك ، وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ، فأية قوة هي التي قالت لمريم هذا ، وفي مثل قوله تعالى : « الحمد لله فاطر السماوات والأرض ، جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة » . وهل القوة المجردة تكون ذات أجنحة ؟ وفي مثل قوله تعالى : « وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ، وتقديس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ، » .

وهل كان هذا الحوار بين الله سبحانه ، وبين قوى مجردة غير عاقلة ، وهل تطمع في عمران الأرض بدل الإنسان قوى مجردة ؟ ولو ذهبنا نعدد أمثال هذه الآيات لطال المقام ..

وإذا كان القرآن الكريم قد حدثنا عن المادة التي خلق منها الإنس والجن فقال تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ، والجان خلقناه من قبيل من نار السموم ، فإنه لم يحدثنا عن المادة التي خلق منها الملائكة فليس لنا أن نقول إنهم خلقوا من نور أو من غيره من العناصر ، وإلا كان ذلك جرأة على عالم الغيب من غير سند أو برهان .

ويشير القرآن الكريم إلى أن الإنسان العاды لا يستطيع رؤيتهم على الصورة التي خلقوا عليها ، وأن فيهم استعداداً لئن يتشكوا بغير صورهم قال تعالى جواباً على تمنى أولئك الذين طلبوا أن يكون الرسول ملكاً : « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ، وللبسنا عليهم ما يلبسون ، » وقد تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم

من طرق مختلفة أن جبريل عليه السلام ، كان يأتيه في بعض الأحيان بصورة رجل ؛ فيسأل النبي صلى الله عليه وسلم ويحييه ، ليعلم الناس الدين على طريقة السؤال والجواب . والله سبحانه يعطى من شاء من خلقه ما شاء من الخصائص والمميزات ، فكم لبعض النباتات والحيوانات من مزايا قد تصل إلى درجة المعجزات .

وليس لنا أن نبحث عن حقيقتهم أو نظام حياتهم ، أو كيفية تكاثرهم فإن الله سبحانه قد زجر قوماً قالوا فيهم قولاً عن خيال سقيم كاذب ، فوصفوه بالأنوثة فقال : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن أناثا ، أشهدوا خلقهم سكتيب شهداتهم ويسألون » ، وهذا أدب من الله سبحانه لعباده أن لا يقولوا في الأمور الغيبية بما توحى إليهم عقولهم ، أو تصوره لهم أخيلتهم ، فما كان العقل ليستقل بدرك ما هو مغيب عنه إلا عن طريق الإخبار بمن يقطع بصدقه .

وقد سمي لنا القرآن أسماء بعضهم كجبريل وميكائيل ، قل من كان عدوا لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكال فإن الله هددو للكافرين ، كما سمي منهم مالك خازن النيران قال تعالى : « ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك ، قال إنكم ماكثون » . وحدثنا كذلك إن للوت ملكاً : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم » ، وإن منهم كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ، كما أن منهم حملة عرشه ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا » .

كما حدثنا أن منهم خزنة للجنة وآخرين للنار ، وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة ، « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها سلام عليكم طيبتم فادخلوها خالدين » ،

وبعد فإذا كان الخير وسطاً بين شرين ، فإن المسلم الحق لا يجوز له أن ينكر وجود الملائكة إنكاراً صريحاً أو مقنعاً ؛ كما لا يجوز له أن يخلع عليهم من الصفات ما لم ينزل به الله سلطاناً ، بل يقف عند حد ما ورد ويقول كما قال المؤمنون الصادقون : « ربنا آمنا بما أنزلت وأتبعنا الرسول فاكثبنا مع الشاهدين » .

الصنغ البديعي في مدرّ السكاكي

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أحمد موسى
المدرس بكلية اللغة العربية

حكومة الخطيب على البديع :

وزّع أبو يعقوب السكاكي البلاغة على عشرين اثنين : المعاني والبيان ، وجعل البديع — وإن لم يسمّه بذلك الاسم — متضافراً مع مباحث العليين في الوصول بالكلام إلى أعلى مراتب التحسين ، وكان صنيعه هذا في بادية النظر مؤذناً باستقلال مباحث البديع عن علمي البلاغة ؛ فكان بذلك المصنف الأول لمن يؤلفون في البلاغة من بعده ، أن يجعلوا البديع فناً مستقلاً عن أخويه ، وإن كان لم يعمد إلى ذلك ، ولا إليه قصد كما أسلفنا ذلك في تبيان منهجه ؛ وقد سنّ للناس سنة الاختصار ، حيث اختصر القسم الثالث من كتابه في كتاب دعاه التبيان ، كما أفت أذهانهم إلى وضع الحواشي والتقريرات ، بعزمه على إملاء حاشية تكشف عن قصده بعد الفراغ من تأليف كتابه ؛ ولا إغالك قد نسيت ما جره على البلاغة من عقم وتعميد بأخصاعها لقوانين المنطق والفلسفة ، وما أصاب البديع على يديه من وضعه في ذيل العليين الآخرين وضعا سهلاً على من خلفوه على كتابه أن يجعلوه ذنباً لهذين العليين ، ومن جعله مساوياً للفرقات اللغوية في الاختصار على التعريف ، وسوق مثال واحد لا يصور ذلك اللون ، ولا يكشف عن جماله ولا يركزه في الأذهان ، فهما أستعين على مصطلحات البديع بالرد والتكرار فألها إلى التفات والزوال ؛ ذلك إلماع خاطف إلى موقف السكاكي من البديع والبلاغة ، فهو وإن كان برزخاً بين المتقدمين والمتأخرين في العرض والتصوير ، لا يستطيع باحث أن يعفيه من تحمّل التبعة في عقم البلاغة وجودها ، وإلجائها إلى مضائق التدهور والانحطاط ، وجعلها ضحية المختصرات والحواشي والتقريرات .

وقد أحصى صاحب كشف الظنون^(١) عددا وافرا ممن توفروا على القسم الثالث من المفتاح باختصار ، أو النظم ، أو الشرح ، إلا أن يمن الطالع ، وسعادة الحظ ، وتمام التوفيق ، لم تكتسب لغير متن التلخيص الذى صنعه قاضى قضاة الاقليمين^(٢) : جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد ، الذى ينتهى نسبه إلى أبى دلف العجلى القزوينى ، ثم الدمشقى الشافعى ، والذى شهر بالخطيب القزوينى ، وكان مولده بالموصل سنة ٦٦٦ هـ وتفقّه على أبيه ، وأخذ الاصلين^(٣) عن الاربلى ، وسكن الروم مع أبيه واشتغل فى أنواع العلوم ، وسمع من أبى العباس الفاروقى وغيره ، وولى الخطابة بدمشق ، ثم القضاء بها ، ثم بالديار المصرية ، ثم نقل إلى قضاء الشام ، وبقي كذلك حتى قضى سنة ٧٣٩ هـ^(٤) .

وقد نال تلخيص المفتاح للقزوينى قسطا وافرا من الشهرة والرواج ، حتى غطى على أصله منذ ظهوره إلى يومنا هذا ، وقد استبدت بجهود يتضاد أمامها ما بذل فى القسم الثالث من المفتاح ، قال صاحب كشف الظنون^(٥) : ولما كان هذا المتن مما يتلقى بحسن التلقى والقبول ، أقبل عليه معشر الأفاضل والفحول ، وأكب على درسه وحفظه أولو المعقول والمنقول ؛ فصار كأصله محط رحال تحريرات الرجال ، ومهبط أنوار الأفكار ، ومزدهم آراء البال ، فكتبوا له شروحا . . ، ثم مضى يعدد هذه الشروح ، فساق جملة وافرة منها ، تنبى عن عناية فائقة ، واهتمام معدوم النظير ، ولست آتيا بجديد إذا سردتها هنا ، وما عليها من حواش وتقريرات ، فهى - والحمد لله - متعالة مشهورة ، حافلت جمهور قراء هذا البحث منذ سلكوا طريق التعليم إلى يومنا هذا .

وقد كان الباعث على تأليف هذا المختصر ، ما يحدثنا به الخطيب بقول : لما كان علم البلاغة وتوابعها من أجل العلوم قدرا ، وأدقها سرا ؛ إذ به تعرف دقائق العربية وأسرارها ، وتكشف عن وجوه الإعجاز فى نظم القرآن أستاذنا ،

(١) ٢ ص ٤٨٠ (٢) الشام ومصر (٣) أصول الفقه والتوحيد

(٤) وله ترجمة وافية قارة فى موطنها من كتاب شذرات الذهب فى أخبار من ذهب

(٥) ١ ص ٢٢٢ .

وكان القسم الثالث من مفتاح العلوم الذى صنفه الفاضل العلامة : أبو يعقوب يوسف السكاكى ، أعظم ما صنف فيه من الكتب المشهورة نفعاً ، لكونه أحسنها ترتيباً ، وأتمها تحريراً ، وأكثرها للأصول جمعاً ، ولكن كان غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد ، قابلاً للاختصار ، ومفتقراً إلى الإيضاح والتجريد ، ألف مختصراً يتضمن ما فيه من القواعد ، ويشتمل على ما يحتاج إليه من الأمثلة والشواهد ، ولم آل جهداً فى تحقيقه وتهذيبه ، ورتبته ترتيباً أقرب تناولاً من ترتيبه ، ولم أبالغ فى اختصار لفظه تقريباً لتعاطيه ، وطلباً لتسهيل فهمه على طالبه ، وأضفت إلى ذلك فوائد عثرت فى بعض كتب القوم عليها ، وزوائد لم أظفر فى كلام أحد بالتصريح بها ، ولا الإشارة إليها ، وسميته « تلخيص المفتاح » .

وإن المتصفح لهذا السكتيب والقسم الثالث من المفتاح ، ليدرك مبلغ التساهل فى تسميته تلخيص المفتاح ، وقد أحس ذلك القزوينى نفسه فنبه عليه كما رأيت فى مقدمته ، ولو أن مثل هذا البحث يتسع لغير هذا المسلك الذى وضعناه لأنفسنا ؛ لرجعنا كل مسألة من مسائله إلى منبعها الذى منه نبعت ، ولكن حسبنا أن نقول : إن الخطيب القزوينى قد تأثر فوق تأثره بالقسم الثالث من المفتاح بأبرز الكتب التى سبقته ، وأخصها سر الفصاحة للخفاجى ؛ ولا سيما فى المقدمة ، وأسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز للجرجانى ، والمثل السائر لابن الأثير ، والعمدة لابن رشيقي ، والصناعتين لابى هلال العسكري ، والبديع لابن أبى الاصبع ، وبغير أولئك مما أعان القزوينى على إبراز هذا الكتاب ، الذى جمع فيه مسائل البلاغة نقلاً أو استنباطاً ، ورتبها أحسن ترتيب ، وبوبها أدق تبويب ، ولولا متابعتة السكاكى بأخصاؤه البلاغة للحد والتقنين ، وخطاها بالمنطق والفلسفة ؛ وإحاطها من الشواهد الأدبية الغزيرة التى تعين على تربية السلاقي ، وتكوين الملسكات لعاد صنيعه هذا على البلاغة بأحد النتائج ، وأطيب الثمرات ، ولكن التقليد غلب عليه ، فكان ثانياً اثنين أسهما بأوفر قسط فى تجريد البلاغة من حلى الأدب والبيان ، وساسكاها فى سلك العلوم النظرية التى لا تربي ذوقاً ولا تعود بياناً .

أما محتويات هذا المختصر فحسبنا أن نقول : إنه رتبة هي مقدمة ، وثلاثة فنون ، وخاتمة ، فالمقدمة في شرح معنى الفصاحة والبلاغة ، والفن الأول في علم المعاني ، والثاني في علم البيان ، والثالث في علم البديع ، والخاتمة في السرقات الشعرية وما يتصل بها .

ونظرة إلى هذا الصنيع تفقنا على مبلغ تجديد الخطيب بالنسبة إلى البديع ، فقد جعله علما مستقلا عن أخويه اللذين طالما خالطهما جميعا ، أو جمهور مسائلهما منذ عهد التأليف فيه إلى عصر الخطيب ، فكان بهذا العمل أول الجانين على أصباغ البديع من ألفوا في البلاغة بوضعها هذا الوضع الشائن البغيض ، وانظر إلى تعريف علم البديع بقوله : هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة ، كيف قضى على ألوانه بأن تكون حلي مزينة ، تنكسو الكلام بهجة بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة ، وأنها عرضية ليست بالذاتية ، ولعل الخطيب نظر نظرة غير ممتنة إلى صنيع السكاكي ، فذبح به وحكم عليها هذا الحكم الجائر الذي قلل من شأنها ، وهون من خطرهما في نظر من لغوا لف الخطيب تأليفاً وتعليماً ؛ ولم يلتفت إلى مغزى كلمة السكاكي في العلاقة بين هذه الألوان ، وبين ما تقدمها من مسائل على المعاني والبيان .

وقد ألمعنا إلى عذر السكاكي في هذا الصنيع في كلمة سابقة ؛ ونمسك الآن عن تهجين خبطة القزويني التي قصت على هذه الألوان ، بجعلها أذناناً وذيو لا لبلاغة ، وهي منها في الصميم ، بل في أكرم موضع ، وأعز مكان ، إلى موطنه من هذا البحث ، ثم نمضي في الكشف عن الجديد في البديع على يد الخطيب فنقول : إن السكاكي قسم ألوان البديع إلى قسمين : معنوي ، ولفظي ، وساق من المعنوي عشرين لونا من بينها : الاهتراض والالتفات ؛ والإيجاز ، والأطاب ، وجعل الطباق والمقابلة نوعين يستقل كل واحد منهما عن صاحبه ، فتابعه الخطيب في تقسيم المحسنات إلى القسمين المذكورين ، سوى أنه عدّ من المعنوي ثلاثين لونا في التلخيص ، وواحدًا وثلاثين في الأيضاح ليس من بينها : الالتفات

والاعتراض، والإيجاز. والإطناب، واكتفى بعدها ضمن مباحث علم المعاني، وجعل الطبايق مشتقاً على المقابلة، متأثراً بطريقة ابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة حيث اختار إطلاق الطبايق على جميع أنواعه: من السلب والإيجاب، والمقابلة، وغيرهما، كما أنه ضم الأشباه بعضها إلى بعض، وحدد الألوان، وقسمها، تحديداً وتقسيماً أدنى إلى الضبط العلمي مما صنع السكاكي، مع الإشارة إلى عدة الأسماء التي تكون للنوع الواحد، وقد أربى على السكاكي في المحسنات المعنوية: بالإرصاد، والعكس، والرجوع، والاستخدام، والتجديد، والمبالغة، والمذهب الكلاسي، وحسن التعليل، والتفريع وتأكيد الهم بـ ما يشبه المدح، والإدماج، والهزل الذي يراد به الجد، والقول بالموجب، والاطراد، والاستطراد؛ وكذلك فعل في المحسنات اللفظية فزاد: الموازنة، والتشريع، ولزوم ما لا يلزم؛ وهو في كل أولئك مسبوق، وليس بالمبتدع المبكر كما يرى من سائر هذا البحث من مظهره إلى الآن؛ غير أن الذي يهمننا التنبه عليه هو: أن نظرة إلى ما صنعه الخطيب في تلخيصه بالنسبة للبديع تقفنا على مبلغ تأثيره بغير القسم الثالث من المفتاح، وترشدنا إلى حسن استخدامه لجمهور الكتب التي سبقته مع إحكام الترتيب، ودقة التبويب، وضبط الأقسام، ومهارة الاستنباط؛ وقد أحس الخطيب بالغموض يشيع في عبارات تلخيصه، فعمد إلى شرحه في كتاب دعاء الإيضاح، أوضح فيه غامضه، وشرح مبهمه، وأربى عليه بكثرة الأمثلة والشواهد، وبعث في كثير من أنحاء الحياة والقوة بما نقله عن عبد القاهر، وأودعه ثورته على السكاكي، واعتراضه عليه في كثير مما يكتب، ولم يزد فيه شيئاً من ألوان البديع على ما ذكره في التلخيص سوى الاستطراد، وقد استحوذ هذان السكتان على حظ وافر من الشهرة والرواج، فلقيا كل أعجاب ملك على الناس حواسمهم، وسيطر على مشاعرهم واستنفذ منهم موفور جهودهم، ولا يزالان موضع القداسة والتقدير إلى يومنا هذا.

أما أثر التأليف في حياة البديع الأدبية، وكيف انتهت به هذه الحياة إلى البديعيات فذلك ما سنعالجه في كلمة تأتي إن شاء الله.

الفضيلة عند أرسطو

لحاضرة الأستاذ سعيد زايد

تتلذذ أرسطو على أفلاطون في الأكاديمية حقبة من الزمن ، خرج بعدها وفي جمعبته منهج منظم للتفكير في مجالى الكون ، كان من نتيجة استخدامه مذهب فلسفى متماسك الأطراف متشعب النواحي متسق الجوانب ، فهذا رأى فى الطبيعة يفسر لنا ما غمض من أسرارها ، وهذا وضع لعلم المنطق ينظم ما تواضع عليه الناس فى نقاشهم وحججهم ، ويصوغه فى قضايا مبوبة وفصول منمقة يبدو للناس أنه اختراع ، وما هو فى الحقيقة إلا تأمل نفذ إلى الصميم ، واستنباط عما يلزم العلماء والعامه على السواء فى خطابهم وجدالهم ، إلى غير ذلك من الآراء التى يطول شرحها وتخرجنا عن الموضوع الذى نحن بصدده .

ولئن كان المعلم الأول ، كاد يتمسكه اليأس - شأن كثير من العلماء الذى يكتبون بعمق - من عدم إقبال أهل زمانه على ما يكتب ، إلا أن الناحية الإنسانية التى تبدت فى كوامن نفسه ، دفعتة إلى أن يعالج علما يهدف به إلى خير الذى يعيش فيه ، والمجتمع الإنسانى بوجه عام إن لم يتحقق خيره فى زمانه ، فلا بد أن الأجيال القادمة ستنفع به ، ذلك هو علم الاخلاق .

ويطول بنا المقام إذا حاولنا أن نعرض لعلم أرسطو الاخلاقى وأسبابه ونتائجه ، ولكننا سنكتفى بناحية واحدة منه هى كلامه عن الفضيلة ، وحتى هذه سنقتصر كلامنا على الجانب العملى منها ، مشيدين بوجه خاص بفضيلة أطلال فيها القول ألا وهى فضيلة العدالة .

يشترط المعلم الأول ، لفهم الفضيلة ، أن يدرك المرء ما هى السعادة ، وهذه لا تدرك إلا بدراسة النفس دراسة تحليلية ومعرفة نوازعها ، والنفس فى رأيه ، تسكون من جزئين متميزين ، بصرف النظر عن المملكات الأخرى ؛ الجزء الأول العقل ، والثانى هو الذى فطيع به العقل ، وبالتالى تصبح الفضائل قسمين : القسم الأول الفضائل العقلية كالتبصر مثلاً ، والثانى الفضائل الاخلاقية كالشجاعة .

والتبصر وإن بدا أنه هو والعقل شيء واحد، إلا أنه لا يزيد على كونه جهة من جهاته، أما الشجاعة فلا يمكن أن تقوم بذاتها وهي لا تصبح كذلك بدون العقل الذي يهذبها ويهديها، وإلا تجاوزت الطور وضلت وأصبحت تهورا، ومن هذا نرى أن المعلم الأول سار على هدى أستاذه أفلاطون، حين قرر أن في الإنسان، إلى جانب القوة الشهوية أو الغضبية قوة عاقلة، هي التي توجه تصرفاته وتقربها نحو السكال، وليكن أرسطو لم يتعمق تعمقا كافيا في تقسيمه للفضائل إلى نوعين، وبدا وكأنه ضحى بنظريته في الفضائل العقلية لنظريته في الفضائل الخلقية، مع اعترافنا بأن تقسيمه هذا جدير بكل تقدير؛ والرد على بعض من نقدوه بقولهم: إن خواص العقل هي بذاتها خواص القلب ولا فرق بينهما؛ مع وضوح التمييز بينهما في مجالى العلم والحياة.

والتعليم والتجربة، في رأى أرسطو، واجبان لنمو الفضائل العقلية، أما نمو الفضائل الأخلاقية فبالعادة التي هي طبيعة ثانية على حد تعبيره، فالفضيلة والرذيلة إذن لا تولدان مع الإنسان، وليكنهما مكتسبتان، فالفطرة أو الطبع خير في ذاته، والمرء يمكنه تنميته، وبذلك يسير مع الفضيلة أو يتسكب الطريق، ويكون قد سار وفق الرذيلة، وهنا يقرر المعلم الأول مبدأ الاختيار، فالإنسان عنده قادر على تغيير عاداته إلى ما شاء؛ لأنه ليس خاضعا للقوانين الثابتة، والتي لا تصدق عنده إلا على المادة، ولذا كانت التربية عاملا مهما في بناء الفضيلة لأنها توجه إلى طبع الطفل منذ البداية، وقول أرسطو: إن القوانين الثابتة لا تصدق إلا على المادة، وإن الإنسان خير بطبعه، يخالفه في الأولى زعيم علم الاجتماع الحديث العلامة «دوركهايم» الذي يقرر أن الظواهر الاجتماعية تسير وفق قوانين عامة ثابتة لا تقبل التخلف، وفي الثانية العلامة الإيطالى «لامبروزو» في نظريته الشهيرة في الجريمة التي تقول: إن الشخص يولد ولديه استعداد عام لنوع من الجرائم، وباستئصال جزء خاص في المخ، تزول منه الدوافع نحو ارتكابها.

والفعل الفاضل عند المعلم الأول لا بد لتحقيقه من ثلاثة شروط: هي علم الفاعل بما يفعل، واختياره لفعله دون توقع منفعة، وتصميمه تصميما جازما على عدم وقوع الفعل على غير ما يقصد، والشرط الأول نجده بوضوح في فلسفة

شيخ فلاسفة الإغريق سقراط وتلميذه أفلاطون ، مما يظهر أنهما اهتمتا به وجعلاه نصب أعينهما ، وكان الأجدر - ونحن في ميدان الاخلاق - أن يهتموا بالآخرين إذ أن الفعل هو الأساس .

هذه هي نظرية أرسطو في الفضيلة بوجه عام ، من المستحسن أن نعرف مدى تغلغل نظرية الإرادة فيها قبل أن نتوسع في الكلام عن الفضائل . لقد كان أرسطو أول من فصل في القول في الحرية ، وجعلها نظرية من النظريات الواجب دراستها ، فقد ميز بين الفعل الإرادى والفعل اللاإرادى ، وجعل شاهده في هذا وجدان الإنسان ، الذى هو في رأيه العلة فيما يصدره من الأفعال في كثير من الأحوال ، وأيضاً الذوق العام الذى يمجّد بعض الأفعال ويذم بعضها الآخر ، وسنة الشارحين التى تقرّر العفو والعقاب لم ترتكب الفعل حسبما يترامى لها من نية حسنة أو سيئة . وهذا التفصيل لنظرية الإرادة ، أتى بعد أن فقد أرسطو نظرية أستاذه أفلاطون ، التى تقول بأن الاثم غير إرادى ، فلم يرهذا رأى ؛ بل الإنسان عنده حر التصرف لا بد أن يحاسب على أعماله . ومن أسف لم يسر المعلم الأول في نظريته إلى نهاية الشوط ، ولم يخطر بباله أن هذا الامتياز الذى منحه الإنسان لا بد له من كنه ، وأن حريته في أفعاله تجر إلى المسئولية بعد الموت أيضاً ، فلم يكلف نفسه عناء البحث عن علة الحرية ولا غايتها ، بل وقف عند هذه الظاهرة بما يتسق مع مذهبه فيما وراء الطبيعة .

والفضيلة بعد ، هي ضرب من الوسط بين افراطين ، فالشجاعة مثلاً هي اقتحام بعض الاخطار واتقاء البعض الآخر ، لكن تحشم جميع الاخطار بلا تمييز أو ترو يعد تهوراً ، كما أن خشية جميع الاخطار كيفما كانت يعد جبناً . ويجب ألا يفهم من الوسط الذى ذكره أرسطو الوسط الحسابى بالمعنى الدقيق ، فإن المعلم الأول لم يقصد البتة أن كل فضيلة واقعة على مسافة متساوية من رذيلتين متضادتين . فإنه لو أراد ذلك لما أسعفته اللغة ، ولكنه يقرر أن الضابط الحق للفضيلة هو أنها وسط يعينه العقل .

بقى علينا أن نعرض لإحدى الفضائل التى تناولها أرسطو ، وهو كما قلنا في صدر المقال يميز بين نوعين من الفضائل ، فضائل نظرية وفضائل عملية ، وسننتكلم هنا عن إحدى الفضائل العملية ، التى أولاها المعلم الأول عنايته وفصل فيها القول ،

بعكس جميع الفضائل ، اللهم إلا فضيلة التبصر وهي إحدى الفضائل النظرية ، ولعل السياسة التي عاش فيها ، وخبرها هي التي أوحى إليه بهذا ، فأراد أن يرسم صورة مثلى لما تكون عليه العدالة في معاملة الفرد والمجتمع .

والعدالة في رأى أرسطو حد وسط بين الظلم والانظلام ، ولقد ميز تمييزاً واضحاً بين جبهتيها ، أى بين العدالة السياسية والعدالة القانونية ، ومهمة الأولى الإشراف على توزيع الحقوق والأموال ، والسعادات بين أفراد المجتمع ؛ ومهمة الثانية تعويض الفرد عما يلحقه من ضرر نتيجة فعل فرد آخر ، وأحسب أن هذا التمييز أو هذا التقسيم هو الذى سارت عليه الأمم فيما بعد ، ويظهر بوضوح في الدساتير الحديثة . والعدالة السياسية تشمل الأشخاص والأشياء جميعاً ، وهي في ذاتها مساواة تناسبية . فلأجل أن تتحقق يجب أن تقرر بين الناس بالتساوى ، ولكن هذا التقرير أو هذا التوزيع ، مع ما فيه من ضبط ، لا يتيسر عملياً ، وإن تيسر لا تستقيم معه الأمور ، ولقد كان الأجدر بالمعلم الأول ، أن يكتفى بالقول بتكافؤ الفرص ، ويترك بعد ذلك للملكات والمواهب أن تبرز وتعمل وتفيد ، لكي تستقيم أمور المجتمع . أما أن توزع المناصب على النابهين والخاملين على السواء فما أحسب المجتمع يسير بهذا نحو الكمال .

ولئن كان المعلم الأول قد فاته ذلك الذى نأخذه عليه فإنه قد بلغ أوج عظمته في كلامه عن العدالة القانونية ، فالكل - عنده - سواء أمام القانون ، لا فرق بين كبير وصغير ، لأن القانون لا يهدف إلى عقاب الأشخاص ، بل إن هدفه الأول ، القضاء على الجريمة ، ولما كان القانون لا يستطيع أن يحيط بكل الجرائم المتوقعة ، فإن عدالة القاضى وذكاءه تساعدان على الفصل في القضايا ، أى أنه يجب أن يكون القاضى كفواً ، واسع الحيلة ، حاد الذكاء ، وهذا يبرر نقدنا له فيما سبق أن قررته عند الكلام عن العدالة السياسية ، من أنها يجب أن تشمل الأشخاص والأشياء جميعاً . وقول أرسطو إن الهدف هو القضاء على الجريمة ، هو المبدأ الذى سارت عليه المدرسة الاجتماعية الفرنسية والعلامة دور كهم ، في جميع أبحاثها في باب الاجتماع القضائى . وبعد فهذا عرض سريع لنظرية الفضيلة عند أرسطو ، تظهر فيه مقدار أصالة المعلم الأول ، ونظراته الصائبة .

الدين والسياسة

لفضيلة الاستاذ الشيخ عبد المنعم على أبو سعيد

— ٢ —

إنما تحيا الجماعات الإنسانية حياة كريمة مهيبة ، وتستشعر في أعماقها جلال النظام ، وقدر الأخوة ، وسمو المحبة ، وشدة العطف والحدب ، وتوقير الكبير ، ورحمة الصغير ، واحترام القانون والطاعة لأحكامه ، والامثال لأوامره حين يبسط الدين سلطانه على النفوس ، ويتغلغل بنوره إلى أغوار القلوب .

وكل قانون لا تسنده رقابة الخالق ، ولا تحيطه الرهبة والخوف من رب العالمين ؛ لا يمكن أن يجنى الناس من ورائه سعادة ، أو يحصلوا على أمن واطمئنان !

والجماعة التي تماس بالدين ، وتحكم في مشاكلها وأحوالها تشريع أحكم الحاكمين ؛ لا يمكن أن يصيبها الضعف ، أو يدخل إليها الوهن ، أو يستذلها عدو ، أو يستبد بها دخیل . وحين يستعرض المرء مظاهر التشريع ، ويتأمل فيما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم من سياسة وأدب ، يرى أن الإسلام وضع الدواء الناجع لكل داء ، والبلسم الشافي لكل جراح ، وعالج كل مشكلة ، يمكن أن تصيب الجماعة بالتصدع ، والانحيار ، ففي الأمور النافذة البسيطة لا يغفل الإسلام علاجها ، ولا يهمل وضع قوانينها ، ولنستمع إلى الرسول الكريم يقول : « ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : من أكل وحده ، ومنع رفقده ، وضرب عبده . ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟ من لا يقبل عثرة ، ولا يقبل معذرة ، ولا يغفر ذنباً . ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟ من يبغض الناس ويبغضونه . »

وفي الأمور التي يخشى على بناء المجتمع من سطوتها ، وطغيانها يقول الله عز وجل : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » ، فهذه دعوة صريحة مؤكدة إلى حماية الجماعة من نهب الأموال ، واستلاب حقوق الناس .

ولعلنا ألمعنا إماما عابرا بهذه النواحي في مقالنا الأول ، على أننا نحب هنا أن نؤكد تأكيداً قاطعاً أن الإسلام لم يضع هذه النظم ، ولم يشرع تلك الأحكام والقوانين للعبث ؛ إنما شرعها ليأخذ الناس بها ، ويحملهم عليها ، ويجعل راعى المسلمين مسئولاً عن تنفيذها ، وسياسة الناس بها .

والمطلع على تاريخ الإسلام ، والمتتبع لسيرة المسلمين منذ أشرق هذا الفجر على الدنيا يجد أن سيرة النبي والخلفاء ، وسيرة السلف الصالح كانت تهدف إلى أخذ المسلمين بهذه السياسة ، وإقامة دعائم حياتهم على أسس متينة من شرائع الحكمة وآداب السامية ، ولقد ظلت دولتهم قوية البنيان متينة الأركان ، لا يتسرب إليها ضعف ، ولا يداخلها وهن ما قامت فيها تعاليم الإسلام ، وسار حكام المسلمين على هدى الدين وتعاليم الشريعة .

فلما انحرفوا عن الجادة ، وتهاونوا في تنفيذ ما أمر الله أن ينفذ ، ولما تراخوا في إقامة الحدود الإسلامية والضرب على أيدي العابثين الآثمين ، ضعف شأنهم ، وتفرقت وحدتهم ، وقلت هيبتهم ، ووهنت عزيمتهم ونال منهم أعداؤهم كل نزال . ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما لم تحكم أئمتهم بما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم » .

فليتعرف المسلمون إلى تاريخهم ، وإلى ماضيهم ؛ ليدركوا أن دينهم يحمل في ثناياه أروع الأنظمة ، وأحكم السياسات ، وأجمل القوانين لدولة عادلة مهيبة نابضة بالقوة والسمو والعظمة ؛ وإن رغبت أنوف ، وكابر في ذلك جاحدون .

هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقود الجيش في الحروب ، ويشن الغارات على أعدائه ، ويقسم الفء ، ويوزع الغنائم ويسن للمحاربين من أتباعه وأوليائه أبلغ سنن الحرب ، وأقوم قوانين القتال وأسرى آداب الخصام .

فإذا وضعت الحرب أوزاها ، فرغ إلى أمته يأخذ من غنيهم لفقيهم ، ويدل من قويمهم لضعيفهم ، ويعاقب المقصر على قصوره ، ويثيب المحسن على إحسانه ، ويقم حدود الله من قارف خطيئة أو لابس جريمة ، أو أقام على عصيان .

أليس ذلك سياسة لهذه الأمة الإسلامية على وفق ما شرع الله من أحكام ، وبمقتضى ما وضع من حدود وآداب ؟

أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصر نفسه على العظة والتذكير ، دون أن يأخذ الناس بسياسة الإسلام ، ويحملهم حملاً على التزام حدود الله ؟

إن بعض الواهمين المفتونين ، يتعلقون ولاهامهم ببعض ما لم يفهموا من كلام رب العالمين . مثل قوله جل شأنه لرسوله صلى الله عليه وسلم : « إن عليك إلا البلاغ » ، « إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » ، وفاتهم أن أمثال هذه الآيات لا ارتباط لها بسياسة الأمة ، ولا صلة لها بما كان يأخذ به الرسول صلى الله عليه وسلم أمته من حملهم على الجادة ، وتسميدهم على النهج القويم ، والصراط المستقيم ، إنما أراد بها المولى أن يسلي نبيه ورسوله عن إعراض قومه ، وتأبيهم عن الهداية واستكبارهم عن الطاعة ؛ إذ أن ذلك يشق عليه ، ويؤلم نفسه ، ويحزن قلبه ؛ فأنزل عليه المولى أمثال هذه الآيات ؛ ليعلمه أنه ليس عليه هدايم ، ولكن الله يهدي من يشاء ، وأنه وإن بزع نفسه ليس في طوقه أن يحولهم من كفرات إلى هداية سمحة ، ومن طغيان أثيم إلى عدل كريم : « وإن كان كبر عليك إعراضهم ؛ فإن استطعت أن تبغى نفقاً في الأرض أو سلباً في السماء ؛ فأتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين ، فلما دخل الناس في الدين ، وأصبحت للمسلمين جماعة كونت دولة ، رعى محمد صلى الله عليه وسلم هذه الدولة ، وأخذها بأدب الإسلام ، وأمضى فيها شريعته كما أوحى إليه ربه ، وأمره مولاه .

ولما قبض الرسول صلى الله عليه وسلم راعى هذه الأمة ، والمدير لشئوننا ، والمنظم لأمورها ؛ قام بالأمر من بعده خليفته أبو بكر ، ولكنه لم يسكد ينهض بالعبء وينوء بالمهمة ؛ حتى وجد أن الشيطان قد نزغ في العرب نزغاته ، ونفت فيهم سمومه ، فإذا بالبعض منهم يرتد عن الإسلام ، والبعض يمنع الزكاة ، ويضن بالبر على من يستحق البر ، ويبتخل بالمعروف على من يستأهل المعروف ، ويشير بعض المشيرين على أبي بكر أن يلزم بيته ، ويعتكف في مسجده ، وأن يدع الناس فيأثم فيه ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقاتل العرب بالوحي والملائكة . ولكن أبا بكر وهو رئيس هذه الأمة ، والمستول عن سياستها يستخر منهم أبلغ السخرية ، ويقول لهم في ثبات وقوة إيمان : « أو كلكم رأيه هذا ؟ والله لأن آخر من السماء فتخطفني الطير أحب إلى من أن يكون رأيي هذا !

والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لحاربهم عليه حتى ينصروني الله أو أهلك دونه ، أليس هذا كلام رجل يؤمن أعبق الإيمان أنه مسئول عن سياسة الامة ، وأخذ الناس بتعاليم الإسلام ، وحملهم حملا على التزام الحدود والسير على الطريق المرسوم .

وهذا عمر بن الخطاب يقول بملء فيه : « والله لو أن جملا هلك ضياعا بشط الفرات لخشيت أن يسأل عنه آل الخطاب » .

فهل يصح هذا القول إلا من رجل يدرك أنه في مقام الرياسة ، وأنه مسئول عن أمن الناس وراحتهم ، وإقامة العدل ، وإشاعة النظام بينهم .

خبروني أيها الناعبون الداعون إلى فرقة الامة ، وتشتيت شملها ، وتمزيق وحدتها ، واختلال صفوفها ماذا تريدون بالسياسة ؟ وإذا تحدثت معاني الألفاظ سهل علينا الوصول إلى مقطع الحق ، والاهتداء إلى مفصل الصواب ؟

الستم تريدون من كلمة السياسة ، أخذ الامة بأحسن الانظمة ، وأروع الاساليب في حكمها وإصلاح نواحي الحياة فيها بما يكفل لها الرخاء والامن ، ويضمن لها السعادة والراحة والاطمئنان ؟

الستم تريدون بسياسة الامة أن تطبق فيها القوانين التي تجعل الفرد عضوا عاملا نافعا في الجماعة ، يأمن على نفسه وعرضه وماله ، ويجد القوة التي تحميه من عدوان العادين ، وظلم الظالمين ؟

ذلك كله مما أمر به ديننا الخنيف ، ودعت إلينا شريعتنا السمحة .

إن الدين في كل تعاليمه وجميع أحكامه يهدف إلى تنظيم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان ، ويضع لذلك أحسن الأسس ، وأروع النظم ، وهو لا يدع ناحية من نواحي الحياة إلا أفاض عليها من بهائه ونوره ما يبدد ظلامها ، وينفض غبارها ، ويقم العدل فيها مقام الظلم ، والنور مكان الظلام .

وشتان بين نظام يضعه الرحمن ، وأنظمة يلفقها الإنسان !

فليعد الناس إلى نظام رب العالمين ، وشريعة الإنسانية الفاضلة ، والمدنية الممهدة ، وهم لا شك واجدون فيها السعادة الدائمة ، والنعيم المقيم .

الإسلام والصين

لحضرة الأستاذ عمر طلعت زهران
أستاذ في الآداب

[الصين بلاد عظيمة الاتساع ، تزيد مساحتها قليلا عن ٤ مليون ميلا مربعا ، وسكانها حوالى ٤٥٠ مليون نسمة ، كانت مسرحا لمدينة من أعظم مدنيات العالم ، كما كانت وحدة ثقافية رفيعة . وتشمل الآن أربعة أقاليم هي : الصين ، منغوليا ، سنكيانج ثم التبت ، وقد تناوبتها في العصور الاخيرة أمور جسام ، فإن أوربا حاولت أن تفتح أبواب الصين وخزائنها ، فانشبت بينهما حروب ، كانت نتيجتها منع الاجانب امتيازات جائرة بحقوق الوطنيين ، ثم غزتها اليابان ، فكان أن نشبت فيها ثورة انتهى بها حكم أسرة مانشو ، وأعلنت الجمهورية سنة ١٩١٢ . وتطورت الحوادث ؛ حتى كانت الحرب الاخيرة والصين بجانب المنتصرين ، نخرجت منها اليابان ، ولكن دخلها الخطر الشيوعي ، الذي استنسر بها ، فأصبح للشيوعية فيها دولة]

الصين بلاد لها وضعها الخاص ، في سائر الأمور ، وفي الدين خاصة ، فإننا نجد فيها أديانا مختلفة ، ونجد النظم الاخلاقية فيها تتخذ سمة الدين . ومع ذلك فلسنا نستطيع أن نصف الفرد الصينى العادى بالتدين ، على الرغم من أنه قد يمارس طقوس عدة أديان معا . وإن انطبق هذا الوصف على الصينيين بمختلف أديانهم ، فإننا نستثنى من بينهم المسلمين ، وإن كانوا أقل من مسلمى البلدان الاخرى تقى

وتمسكا بالدين . ومهما يكن من أمر فإننا إن وصفنا أى فئمة فى الصين بالدين ، لا ننصرف الذهن تولا إلى مسلميها .

ونجد بجانب الإسلام ، فى الصين أربعة أديان أخرى ، على الأقل : التاوية ، والبوذية ، وعبادة السلف ، والكونفشيوسية ؛ كما عرفت الصين الدين المسيحى ، وإن لم ينتشر بها ، رغم أن الكثيرين خارج الصين يظنونهم ذاتها هنالك . وقد تأتى هذا الظن الخاطيء من أن المتعلمين فى الصين يسمون أنفسهم بأسماء مسيحية أوربية ، وإن كان لا شأن للاسم عندهم بالدين ، فلمست بمسطيع تمييز دين فرد بمعرفة اسمه .

* * *

أنشأ التاوية ، فى القرن السادس ق . م د كنج فو — تزو ، من معاصرى كونفشيوس ، ويعرف أيضاً باسم د لاو - تزو ، ومعنى كلمة د تاو ، : طريق ؛ والتاوية تمثل الطبيعة غير المجسمة التى نعبدها فى كل مكان ، والتى ترجع إليها جميع الأشياء ، وهى طريقة صوفية تسكر وترفض الحاجات الدنيوية ، وقد خرجت التاوية اليوم عن صورتها الاصلية ، فلا يمارسها كما كانت إلا نفر قليل ، ولها معابد تنتشر فى الصين جميعاً ، تمتلئ بتماثيل وصور متباينة ، ويقوم كهنتها بطرد الاشباح والجن ، ويحضرون الارواح ، يسألونها ألا تصيب الناس بعض . والتاوية مختلطة بأوهام وخرافات بدائية ، مثلها مثل الهندوكية فى الهند ، حافلة مثلها بالاساطير ، متطلعة إلى الخيال أكثر منها إلى الشعور الدينى .

أما البوذية : فقد دخلت الصين منذ نحو عشرين قرناً ، وازدهرت منذ ذلك الحين ، خاصة وأنها لا تعارض مع التاوية . وللبوذية مدارس لا عداد لها ، على عكس التاوية التى يسودها الغموض . وكلتا الديانتين تعترفان بالاشباح والجن ، ويمارس العوام الديانتين معاً فى معابد كل منهما . وجوهر البوذية هو تنقية الروح بالتغلب على شهوات الجسد ، والتخلى عن لذات الحياة ، والرغبة فى التقرب من الله ، وتعاليمها كثيرة تتضمن الاعمال الطيبة ، والرأفة بالكائنات جميعاً . وعلى الرغم من أن الصينى يحب الحيوان والطير ، إلا أنه قد يقسو على أخيه الإنسان ؛ فما زال الرق قائماً يلقى أسوأ معاملة ، والبوذية تحرم القتل ،

ولكن الصينيين يقتلون الإنسان والحيوان ، وقطاع الطرق عندهم ، قدت قلوبهم من حجر صلد ، تضرب بقوسيتهم ووحشيتهم الامثال .

وليست الكنفوشوسية في حقيقة الامر ديناً ، على الرغم من وجود معابد لها ، كان الناس يتعبدون فيها في سالف الايام ، وما هي إلا نظام أخلاقي وسلوك إجتماعي ، تتميز بصيغتها الفلسفية ، وتلتزم حدود التقاليد ، والولاء الأبوي ، بما فيه من احترام وطاعة للأكبر سناً ، وللعرش ، وللسلطة . وتبين طبيعتها من قول كنفشيوس حين سئل عن السماء : « إنا لا نعرف الأرض ، فلم نعتنى أنفسنا بأمر السماء » . ومن ثم فإن كنا لا نعرف شيئاً عن الحياة الدنيا ، فليس ثمة ضرورة للبحث في الحياة الآخرة . وتبنى مبادئ كنفشيوس على عبادة السلف أكثر منها على المبادئ الدينية .

وعبادة السلف أقدم صور الأديان في الصين ، ترجع إلى العصور البدائية حين كان الناس يظنون أن الآباء هم ما نحو الحياة . وما زال هذا الاعتقاد يسود الصين على شكل ما ، فتخصص في كل منزل حجرة توضع فيها صور ومخلفات الموتى ، ويتعبد فيها أهل الدار بين وقت ووقت . وكانوا — قديماً — يدفنون زوجات الملوك وخدمهم وحاشيتهم مع الملك المتوفى ، ويضعون معهم النيسد والطعام وغير ذلك ؛ بل كانت الارملة تنتحر مفضلة الموت ، على حياتها بعد وفاة الزوج ، ولكن كنفشيوس منع هذه العادات ، واستبدلت فيما بعد بدفن تماثيل مختلفة مع الميت ، وإن لم يمكن منع الزوجات الراغبات في تضحية أنفسهن بعد وفاة أزواجهن ، ويحتفل الصينيون بموتاهم احتفالات رائعة بمجنازات فخمة ، ومدافن جميلة .

ونرى أن المسلمين عامة يشاركون في احترام الموتى ، وأبلغ مظاهر هذا الاحترام ، هو قراءة فاتحة القرآن على أرواح الموتى ، ولكن الامر بالنسبة للصين جد مختلف ، فإن احترام الموتى مبدأ ديني .

وبجانب عبادة السلف ، نجد نوعاً آخر بدائي من الدين هو عبادة السماء ، وهي عبادة مبنية على مبدأ اتحاد السماء بالأرض ؛ فقبل مولد المسيح بآلاف من السنين ، رأى أحد البابطرة تليتنا يخرج من الماء ، يحمل على ظهره نقوشاً خاصة ،

وتكررت رؤية الأباطرة للتين حتى صارت حقيقة واقعة، وصار من حق
الامبراطور أن يصلى للسماء نيابة عن الشعب بأجمعه، وهو حق الامبراطور، ليس
لسواه أن يقوم به. وبقيت هذه العبادة قائمة - تمارس في معبد في بكين - حتى سنة
١٩١١م ولهذا السبب كان أباطرة الصين يسمون أنفسهم «تين - تزو» : ابن السماء.

هذه هي الصورة التي وجد الإسلام الصين عليها، في القرن السابع الميلادي،
أو الأول الهجري، حينما جاء العرب عن طريق البحر إلى كانتون وهانجشو،
وجاءها المسلمون عن طريق إيران وتركستان. والعلاقات التجارية بين العرب
والصين، علاقات قديمة، ترجع إلى عصور لا يذكرها التاريخ. يقول د. ا. م. ويرى: «
كان للعرب مصالح تجارية قبل ظهور محمد صلى الله عليه وسلم بعصور، في الهند
وجزر الهند الشرقية والصين: كانوا يحملون الاحجار الكريمة والذهب والفضة
والتوابل والحرير، يحملونها بحرا إلى الخليج الفارسي والاسكندرية، ومنها تنقل
إلى أوروبا».

وتقول المصادر الصينية الإسلامية: إن الإسلام دخل الصين في بدء الدعوة
الإسلامية، وإن كان الأكثر احتمالا أنه دخلها بعد ذلك بزمان، وتروى المصادر
أن «تاي تسونج» (٦٢٧-٦٥٠م) استقبل مندوبين عن الفرس والروم، ينبئانه
بهزيمة الدولتين أمام العرب، وأرسل الامبراطور الصيني حوالى عام ٥٦٠ م
مبعوثا عنه إلى الخليفة الإسلامى، عثمان بن عفان.

وما انقضى قرن، حتى عرف الصينيون قوة العرب، فقد أرسل امبراطورهم
جيشا من ٢٠.٠٠٠ رجل هزمه قتيبة بن مسلم، وما لبث قتيبة حتى أرسل
للإمبراطور يسأله الدخول في الإسلام أو دفع الجزية. ولولا موت يزيد
ابن عبد الملك، واغتيال قتيبة، لكانت الصين الآن من البلاد الإسلامية.

كانت نتيجة هذا كله، أن اعتنق بعض الصينيين الإسلام، ومن بين هؤلاء
قبيلة «هوى تشى»، فأطلق اسمها على المسلمين، وظل الامر كذلك حتى عصر
المغول، فعرف المسلمون باسم «هوى هوى»، ويعرفون الآن باسم «تشنج جن»،
كما يعرف الإسلام باسم «تشنج جن جياو». ومن ذلك الوقت تفتحت أبواب
الصين للإسلام، فاعتنقه منها عدد جم غفير.

وثار أحد الأمراء ضد أمباطوره الصينى ، فاستغاث هذا بالخليفة العباسى ، فأرسل إليه ، أبو جعفر المنصور ، جيشا من عشرة آلاف جندى تام العدة ، أقر النظام وأعاد الهدوء ، ولم يرجع الجنود إلى خراسان ؛ بل أقاموا بالصين ، وتزوجوا بها فكانوا نواة مسلمى الصين الحاليين .

وجاء الصين مسلمون آخرون عن طريق البحر إلى كانتون ، وهانجشو ونشروا الإسلام فى الجنوب ، كما نشره الأولون فى الشمال والشمال الغربى . ومن بين هؤلاء سعد بن أبى وقاص ، الذى لا يزال مسجده قائما فى كانتون ، وتوالت بعثات المسلمين إلى الصين ، وقد لاقوا فيها معاملة حسنة ، انتشر خبرها بين مسلمى التركستان والبلدان المجاورة ، فنزح منهم عدد كبير إلى الصين ، شغلوا وظائف هامة ولقوا من ملوكها عظفاً وحدا .

ونزح إلى الصين - فى عهد المغول - عدد عظيم من المسلمين ، كان من بينهم كثير من العلماء : فلاسكيين وأطباء وفقهاء ، وزارها ابن بطوطة وتحدث عنها فى رحلته المعروفة ، وظهر أثر المسلمين فى حياة الصين واضحاً ، فاقبض الصينيون الفن والنقوش العربية ، وما زالت باقية فى آثارهم .

ولم تستمر الصين أرض سلام للمسلمين دائماً ، فقد لقوا فيها عنتاً واضطهاداً ، وقاسوا عسفاً وظلماً تحت حكم أسرة مانشو ، منذ سنة ١٦٤٤ م .

ولكن المسلمين عموماً ، تميزوا بالنشاط ، وشغلوا مناصب هامة عسكرية ومدنية ، وأقاموا شعائر دينهم فى حرية ، وعملوا على الاتصال بالمسلمين فى جميع أنحاء العالم .

ولعل أبهر مظاهر هذا الاتصال ، كان اتصالهم بمصر التى أوفد أزهرها بعثة تعليمية ، واستقبل بعثة منها ، تلت علومها به ثم رجعت إلى بلادها تنشر الهدى والعرفان .

وأجمل ثمرات هذا الاتصال ، كانت المكتبة التى أهداها المغفور له الملك فؤاد إلى الصين ، وهى باقية تحمل اسمه فى بكين يؤمها طلاب العلم ، فيذكرون مليكتنا الراحل وينذكرون أرض النيل .

السُّوفِطَاءُ بُونٌ فِي نِظَرِ الْعَرَبِ

نقد حملة جائرة

لفضيلة الاستاذ الشيخ أحمد شاهين

كما تنال أستاذى الدكتور د غلاب ، مذهب المتكلمين فى المفاهيم الذهنية ، وفى الصفات الإلهية بالنقد الجائر والمناقشة الفاسية على النحو الذى عرضناه ، ثم عارضناه فى مقالنا السابق ، فقد تناول كذلك رأى العرب فى السوفسطائية بالطريقة نفسها ، فخطأهم فى إطلاق السفسطة بمعنى المنطق الفاسد القضايا ، الباطل الجزئيات . ورماهم بالتخبط لاعتبارهم أتباع بروتاجوراس ، وأصحاب جورجياس : مدرستين منفصلتين أو مذهبين مختلفين ، وغلطهم فى عدم ، اللأ أدرية ، أتباع بيرون من السوفسطائية ، وإليك بعض ما قاله فى ذلك ص ١٥٢ ج أول من كتابه الفلسفة الاغريقية . د تحولت كلمة د سوفسيم ، إلى د سوفيستيك ، وأصبحت مرادفة لكلمتى التضليل والتهريج تمام المرادفة ، وما زالت كذلك حتى ترجمت الفلسفة الاغريقية إلى اللغة العربية ، فلم يلحظ ترجمة العرب المعنى القديم للكلمة فأصبحت السفسطة عندهم : عبارة عن المنطق الفاسد القضايا الباطل الجزئيات ، وهذا حق من بعض الوجوه ، ولكنهم تخبطوا فى تقسيم رجال هذه المدرسة تخبطاً لافتاً للنظر ؛ فزعموا أنها تنقسم إلى ثلاث فرق : العندية والعنادية واللأ أدرية . فالعندية ترى أن حقائق الأشياء تابعة لعقائد المؤمنين بها ؛ لأنهم هم أقيسة الحقائق . والعنادية تجزم بأن لا حقائق فى الكون لا فى ذاتها ولا بالقياس إلى المؤمن بها . وأما اللأ أدرية فهى التى تتوقف عن الحكم فى كل شىء فهى لا تجزم بوجود ولا بعدم .

ثم علل الدكتور هذا الخطأ من العرب فقال : وهذا خطأ أوقعهم فيه اختلاف لفظى جاء فى جملتين شهيرتين ، لزعمى هذه المدرسة ، بروتاجوراس وجورجياس حيث قال الاول : كل شىء حق . فرد عليه الثانى قائلا : لا شىء بحق .

وهذان التعبيران ، وإن ظهرا مختلفين إلا أنهما متفقان تمام الاتفاق ، لأن جملة بروتاجوراس « كل شيء حق ، أى فى نظر من يعتقده ، ومعنى جملة جورجياس « لا شيء بحق ، أى فى ذاته ، وكل منهما يؤمن تمام الإيمان بمذهب صاحبه ، ومن ظن من فلاسفة العرب ومن نهجوا منهجهم من المحدثين ، أنهما مذهبان مختلفان فهو واهم . أما ما يسميه العرب بفرقة اللا أدريه فى هذه المدرسة ، فهو خلط منهم . هل السبب فيه هو التباس إنكار الحكم العام الذى قال به السوفسطائيون بالتوقف عن أى حكم كان ، وهو الذى قالت به المدرسة اللا أدريه التى ظهرت بعد هصر أرسطو . انتهى كلام الدكتور بحروفه ، وقبل أن نبدى رأينا فى هاته الحلقة الشعواء على العرب ، نحب أن نذكر للدكتور غلاب أنه فى الوقت الذى كنا نستمع إليه فيه يقرر هذا عن العرب ، كنا نختلف إلى زميل له من أساتذة الفلسفة بكلية أصول الدين ، فتلقى عنه فى هذه المسألة عكس ما ذهب إليه أما هذا الزميل فهو صاحب الفضيلة الدكتور « محمد يوسف موسى » ، وقد تعرض لهذه المسألة فى كتابه « تاريخ الأخلاق » ، عند الحديث عن الأخلاق فى نظر السوفسطائية ، فقال : وهؤلاء الناس « السوفسطائيون » ، لنا بهم إلف لكثرة ما يرد من ذكرهم فى كتب علم الكلام ؛ لذلك نرى من الخير أن نبسط الحديث قليلا فى بيان مذهبهم وطوائفهم ، وبعد أن ساق الدكتور نصين أحدهما للطوسى ، وثانيهما للمستشرق « ساتلانا » ، الحجة فى الفلسفة الإغريقية ، وعلاقتها بالمذاهب الكلامية الإسلامية كما يقول .

قال فى ص ٢٤ من كتابه « تاريخ الأخلاق » ، ما نصه : ويرى بعض المعاصرين أن من الخطأ التفرقة بين هذين المذهبين بتسمية أحدهما بالعندية ، والآخر بالعنادية ؛ لأن ممثلهما على ما يرى وهما بروتاجوراس وغورغياس . كل منهما يؤمن تمام الإيمان برأى صاحبه ، ونعتقد أن هذا بعيد عن الصواب ، فإن بروتاجوراس قال فى كتابه « الحقيقة » : والإنسان مقياس الأشياء جميعا هو مقياس وجود ما يوجد منها ، ومقياس لا وجود ما لا يوجد ، وإن أفلاطون شرح هذه القولة فى محاورته « تيتياس » ، بأن الأشياء هى بالنسبة لى على ما تبدو لى وهى بالنسبة لك على ما تبدو لك ، وأنت إنسان وأنا إنسان ، فلا شك بعد هذا فى صحة تسمية

مذهبه بالعندية ما دام الحسك على الاشياء مرجعه إلى ما يظهر عند كل إنسان ، من صفاتها وخواصها وأهوالها ، كذلك زميله « غورغياس » وضع كتابا في اللا وجود لخص فيه آراءه في هذه القضايا الثلاث : لا يوجد شيء . وإذا كان هناك شيء فالإنسان قاصر عن إدراكه . وأخيرا إذا فرضنا أن إنسانا أدركه فلن يستطيع أن يبلغه لغيره من الناس ؛ وإمعان النظر في هذه القضايا يجعل المرء مطمئنا إلى أن المتكلمين أصابوا الحزن في تسمية مذهبهم بالعنادية هـ .

والآن يظهر الصواب في جانب العرب إذا اعتبروا العندية والعنادية مذهبين منفصلين شهادة « سانتلانا » الذي تابعه الدكتور غلاب في ترجيح مذهب أفلاطون في السكليات على مذهب أرسطو ، وإذا فلا عبرة بهذا التوفيق الذي حاول به الدكتور غلاب نحو الفارق بين كلمتي « بروتاجوراس » و « جورجياس » ، فإن التأويل اللفظي لا يصح في منطق العلم دليلا ولا يغني فتिला . بقى على العرب أنهم عدوا أصحاب « بيرون » ، اللا أدريّة فريقا من السوفسطائية وهو ما أنكره منهم « سانتلانا » ، ووافقهم الأستاذان يوسف موسى ، وغلاب ؛ وربما هم الأخير في هذا بالخلط والتباس الحق ، وعندى أن الحق في ذلك مع العرب أيضا ، وباطل ما فهمه أولئك النقاد من النصوص العربية التي توهموا منها ، أن العرب يجعلون أصحاب « بيرون » ، فريقا من سوفسطائية اليونان في القرن الخامس بمعنى أنهم عاصروهم ، وشاركوهم في الزمان والمكان ، وهو غير لازم لتلك النصوص العربية .

ولنما يعتبر العرب أصحاب بيرون من السوفسطائية ، بمعنى أنهم يشاركونهم في منهج التضليل والمكابرة في المناظرة ، وإذا قد عرف الدكتور غلاب السوفسطائية في اصطلاح العرب بأنها ترادف المنطق الفاسد القضايا الباطل الجزئيات ، ونقل الدكتور موسى عن الطوسي أن كل غالط في مذهبهم سوفسطائي ، فإننا نسائل الأستاذين . هل هذا التعريف كما يصدق على أتباع بروتاجوراس وجورجياس ونحوهما من السوفسطائية في القرن الخامس ق م ؛ كذلك يصدق على أصحاب بيرون أم إنه لا ينطبق في معجم الفلاسفة إلا على الأولين فحسب ؟ فإن اختاروا الأول . قلنا وهذا هو السبب الذي سوغ للعرب عد اللا أدريّة من السوفسطائية ، وبطل ما ذهب إليه الدكتور غلاب من أنه قد التبس عليهم إنكار الحسك العام بالتوقف

عن الحكم . وكيف ننسب إليهم هذا الالتباس في فهم تلك المذاهب ، بعد أن حددوها لنا بهذه التعريفات الدقيقة التي وضحت ماهياتها وميزتها بعضها عن بعض ؟ وإن اختارا الثاني فلا نسلم لهما ، لأن التشابه بين البيرونية وبين الهندية والعنادية تام ، فكلمة قائمة على الشك في البديهيّات ومكابرة الحقائق الثابتة والمغالطة في الجدل والإقناع ، والدكتور غلاب قد ذهب في كتابه الفلسفة الشرقية إلى أن هذا اللون من التفكير المغالط غير خاص باليونان ، فكيف يجعله هنا خاصاً بأتباع جورجياس وبروتاجوراس فقط ؟ وهو في محاضرته عن البيرونية يعترف بالتقارب بينها وبين الهندية ، ومن يعن النظر فيما قاله في شرح بعض المأثور عن بيرون يجد توافقاً تاماً بين البيرونية والهندية . . .

ولو سلمنا جدلاً أن اسم السوفسطائية لا ينطق في لسان الفلسفة إلا على الهندية والعنادية لا غير . . . لكان الدكتور غلاب نفسه قد تورط فيما أنكره على العرب ؛ حيث أطلق هذا الاسم والسوفسطائية ، على إحدى مدارس الفلسفة الهندية التي ناهضت البرهمانية في ص ١١٢ من كتابه الفلسفة الشرقية ، مستنداً إلى مثل الإعتبارات التي من أجلها جعل العرب اللاأدرية فريقاً من السوفسطائية الإغريقية ، وما زالت السفسطة تظهر في عالم الفلسفة من حين إلى حين ، حتى في الفلسفة العصرية فقد انبعثت السفسطة على يد « داوود هيوم » وأصحاب مذهب الذرائع ، ويخطئ من اختصها بالقرن الخامس ق م أو يحصرها في الفكر الاغريقي وحده .

من حكم الأحنف

الأحنف بن قيس سيد بني حنيفة الذي قيل فيه : إذا غضب الأحنف غضب له مائة ألف سيف ، له حكم قيمة منها قوله :

من لم يصبر على كلمة ، سمع كلمات . وقيل له من السيد ؟ فقال : هو الذي إذا أقبل هابوه ، وإذا أدبر عابوه .

ومن أقواله : من تسمع إلى الناس بما يكرهون ، قالوا فيه ما لا يعلمون .
ومن أقواله أيضاً : الكامل من عدت هفواته .

أصداء الذكرى

في محراب إقبال

لفضيلة الاستاذ الشيخ كامل محمد مجلان
المدرس بالازهر

في كل عام تحتفل الباكستان بذكرى وفاة شاعرها
، محمد إقبال ، . وعلينا أن نشارك إخواننا في الذكريات
الخالدة .

ولهذا أبعث إلى الروح الطيب ، بتلك التحية ، تذكرة
للشرق ، وتخليداً لذكرى شاعر مسلم ، يعد نفراً للعبقرية .

في محراب إقبال بين رحاب الخلد ، أقف خاشعاً ، يحدوني التشوف ،
وتهزني التأملات .

في محراب إقبال ، أصبح وأسبّح بأناشيد أرسلها غريد الشرق وصداح
الإسلام ، فسرت نوراً يستضاء به في دياجي الشجون .

في محراب إقبال ، يكاد سنا الاشراف يخطف بصرى ، فأجد لروحي ملاذاً
عند هادي الحيارى ، ومواسي المسكومين ، ومسعد المؤمنين .

في محراب إقبال ، أجد على النور هدى تؤمنني تلك المثل العليا ، التي
فسجت بردها دعوة الإسلام ، لترفع القيم الإنسانية ، وتقضي على العبودية ،
وتأق على عروش الاستعمار ، وتجتث من النفوس جذور الطمع الآثم ، وتطهر
الروح البشرية من أوسار الذلة ، ومسوح الضعف ، وغلائل الاوهام .

في محراب إقبال تأخذني نشوة سكرها مشنف من دين الفطرة ، وكأسها في قرارتها عدالة المبدأ ، وحسبها هدى النبوة ، ونداماها أصفاء الرسالة الحميدة ، وشميمها هبات من روائح الجنة ، عرفناها برأيها التنزيل .

في محراب إقبال تقدح الشرارات التي تندلع نارا تأكل العصف الخامد ، أو ترسل نورا يضئ الشرق وما حوله ... ولند مزج الأشرار بين الموجتين ، ووصل ما بين المحيطين .

في محراب إقبال هتاف المعالم الإسلامية ، وبث المعزة للوطن الإسلامي ، وتوحيد الكلمة بين الموحدين لله تحت راية القرآن .

في محراب إقبال تدفقت جداول الأدب لا تشاب بزيف من الضعة ، ولا تفرق فيها عبرات اليأس والخنول ، ولا ترفق بكسدر من الملق والرياء .

للعاشق في جداوله سلوة وللحائر على شطآنها اهتداء ، وللمتأمل في موجاتها أمان ، وكل من اغترف منها لا يمسه نصب الشك ولا ظمأ الإلحاد ولا دوار التردد ، ولا غول التميع .

في محراب إقبال مذكيات الشعور ومرهفات الأحاسيس وموقظات الأمم وباعثات الهمم ، وما أدراك ما قارعات الشاعر وفارعات الحرب ، ومقنعات الخطيب ، ومحكمات الحكيم ، ولمعات الفيلسوف ، وما ينطق إلا عن أمل الشرق ووحى الإسلام ، مما علمه ذو القوة المتين ، وتعالى الله ملهم الإنسان وواهبه عبقرية التعق والخلق والإيمان .

في محراب إقبال وعلى مائدته ما تشتهي من ألوان الخير ، وما تتوق إليه من طرائف فيها للعقول متاع ، وللنفوس غذاء ، وللأرواح شفاء ، تسامى فن لم يبق في زاده القلبي إلا الحب والإخاء والسلام والوفاء ، ولم ينشد من الحياة والأحياء إلا أن تحسم الشرور ، وتنجلي الآثام حتى يخلو وجه الفضيلة وضاحا للإنسان .

على مائدة إقبال يمتاز الخبيث من الطيب ، ويسفر ضوء الحق كأنه فلق الصبح ، فلا تنساب الأفاعي القاتلات من زيف الحضارة وبهرجها الكاذب الخداع .

في محراب إقبال تغنى النفس بما وسعها أن تغنى من شبع ورى ، فتستعصم
على الآراء الهدامة والنزعات المعوجة ، تلك التي تمحو آية الشرق في إجماده
الموروثة ، وتقاليده التي أقامت عمود التاريخ ، ووجهت ركب الإنسانية في طريق
سوى ، فشاعت ظلا ، وراقت ماء ، وطابت جنى .

* * *

على مائدة إقبال تؤمن النفس بأنها ينبوع الحياة ، وتطمئن بأن الفلاح لمن
زكاها ، والخسارة لمن دساها ، فتكبح جماح فجورها ، وتفسح السبيل لتقواها .

* * *

يا شاعر الشرق الإسلامى ! . سلام عليك في الخالدين وتحيات اليك مع
الأبرار الطاهرين .

ويا أيها الشرق : هذه مائدة إقبال فاتخذ منها زاد الأجيال وعتاد الآمال ،
واحفظ لشاكرك ذكراه في الخالدين ، وسلام عليه في عليمين ، ونعم أجر
العاملين النابغين .

آداب الاكابر

ساير يوما عبد الله بن الحسن أبا العباس السفاح أمير المؤمنين العباسي بظهر
مدينة الأنبار ، وهو ينظر إلى بناء قد بناه أبو العباس ، ويدور به ، فأشمد عبد الله :

ألم ترجو مسنا لما تبني بناء نفعه لبني بقبيلة
يؤمل أن يعمر عمر نوح وأمر الله يحدث كل ليلة

وكان أبو العباس له مكرما ، ولحقه معظما ، فتبسم مغضبا ، وقال : لو عملنا
لاشترطنا حق المسيرة . فقال عبد الله : هذه من بوارد الخواطر ، وإغفال المسامح
واقه ما قلتها عن روية ، ولا عارضني فيها ذكر ، وأنت أجل من أقال ، وأولى
من صفح . فقال له العباس : صدقت ، نخذ في غير هذا .

فِعَالُ الْمُؤَلِّفَاتِ الْجَدِيدَةِ

أحسن القصص :

لقد وفق الاستاذ الكبير على بك فكري إلى تقريب ما كان بعيدا عن الناس ومقصورا على المختصين منهم ، من البحوث الدينية ، والمسائل الشرعية ، لجمع ما يهم الجمهور القارئ ، من تلك البحوث والمسائل ، وأحسن تبويبها وترتيبها ، من الموضوعات التي تهتمهم ، ويكثر تساؤلهم عنها ، ووضعها على الترتيب والتبويب الذي ألفه متبعوهم ، فكان منه لهم تقريب لما كان بعيدا عنهم ، ووضعها باللغة التي ألفوها فانتشر العلم بها بينهم ، بعد أن كان يذنها حجاب لا يستطيعون اقتحامه ، وهذه خدمة لا يقدرها قدرها إلا الذين يعلمون أن في تعميم العلم بهذه البحوث والمسائل تعميما للعلم بالدين ، ونشرا لفضائله بين من كانوا يجهلون من أهل الجيل الجديد ، وسيكون فيما نرجى سبيلا لرتقي هلى كبير ، وفاتحة لخير أدبي كثير . وقد قرظنا عددا يذكر من هذه المؤلفات .

واليوم ترانا إزاء الطبعة الثالثة لكتاب من خير كتبه ، وهو أحسن القصص في تاريخ الأنبياء وهو يقع في جزئين أولهما تاريخ الأنبياء غدا أولى العزم منهم ، والثاني في تاريخ أولى العزم منهم ، ولا يخفى أن مقتحم هذا الموضوع يخوض بحرا لا ساحل له ، ويصادف فيه من أوهام المؤلفين ، وأهواء المبالغين ما يقف بالكتاب المثبت موقف الحيرة ، ويستدعى غاية الجهد في التحصيل والتدقيق ، وهو عمل شاق ، ذو تبعه لا يقدرها قدرها إلا العارفون . والذي تبين لنا من الاطلاع على ما قام به مؤلفنا النشاط أنه سلك سبيلا من التحصيل تضع الأمور في نصابها ، ولا تتجافى الثابت من الأقوال في جملتها ، فجاء عمله شاقا مضنياً وجهاده عنيفا مجدداً . وقد ظهر في هذا المؤلف للطبعة الثالثة فذشكر له عمله الحسن ، وخدمته القيمة ، ونرجو له التوفيق .

تاريخ الاحتفال بالمولد النبوى

يحتفل المسلمون وخاصة في القرون المتأخرة بالمولد النبوى في جميع البلاد الإسلامية ويتساءل الكثيرون هل لهذا الاحتفال من أصل في عاداتنا الدينية ، وكان قدامونا يحتفلون به ، وإلى حد زدنا فيه أو نقصنا منه ؟ وقد أورد حضرة الأستاذ الجليل الشيخ حسن السندوبى رئيس مكتبة وزارة الاوقاف بقية الغورى مؤلف الكتاب الذى نحن بصدده مثل هذا التساؤل عن بعض إخوانه ، وانتهى حوارهم فيه إلى رجائه بوضع تاريخ له ، فأجاب دعوتهم ووضع هذا الكتاب الثمين . وكان عما قاله في هذا الموضوع :

« ولا أريد أن أشرح ما لاقيت — في تحقيق هذه الفكرة وإبرازها على أفضل ما رأيت من الوجوه الصالحة — من العنت والارهاق ، لأن أبواب هذا الموضوع موصدة في وجه مستفتحها ، ومغاليقه محكمة أمام طارقها ، وذلك لأن جمهور المؤرخين وكتاب الاخبار لم يعطوا هذا الامر شيئاً مما يستحقه من العناية والاهتمام . »

وليس يعلم ما يعانى به الكاتب المحقق في سبيل تحرير الصواب فيما يعرض له من بحوث ، وما يضجى به في تقويم أخطاء المؤلفين من قدماء ومحدثين ، وما يبذل من دم القلب ، ونور البصر وضياح الزمن ، إلا من دفع في أمثال هذه المسآزق .
« وهذا كتاب يجد فيه العالم بغيته ، والباحث منيته ، والأديب لذته ، ومحِب الاطلاع طلبته ، فهو للعارف مسلاه ، وللشادى معارف ومعلومات . »

وأنا أشهد أنه كذلك . وهو فوق ذلك أثر قيم ، لأديب سجلت له الكتب والمجلات من هيون البحوث ، وروائع الطرف ما أضاف اسمه الى أسماء الخالدين .

وقد جعل كتابه مرتباً على الدول من عهد الخلفاء الراشدين إلى يومنا هذا وهذا عمل يجمع إلى المنفعة الادبية ، الثقة التاريخية ، ولست أذكر للقراء ما حمل أديبنا الكبير هذه البحوث التاريخية من بيان الساهر ، وأدبه الرائع ، وطرائفه اليافة ، مما جعل كتابه روضة أدب وعلم وتاريخ ، فله منا الشكر الكثير .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عناصر المدنية في الديانة الإسلامية

قلنا في المقال السابق : إن الأمم في انتقالاتها الاجتماعية ، خلال الأدوار المتتابعة التي تتوالى عليها ، إنما تتأثر بعاملين قويين : عاداتها الموروثة ، ودياناتها ؛ وإن كثيراً ما جرها التدافع بين هذين العاملين إلى شروب التناحر بين آحادها . وكثيراً ما قضى عليها هذا التناحر بالانحلال والتلاشي . إلا الأمة الإسلامية ، فقد كان أمرها عجيباً ؛ بل كان آية خالدة لم يرو لنا تاريخ البشرية ما يشبهها ولا ما يقرب منها ؛ فأقرب الأديان إلينا وأشهرها اليهودية والنصرانية ، فالأولى كانت خاصة بني إسرائيل ، دعا إليها موسى صلى الله عليه وسلم ، فاختلف عليه قومه حتى هربوا بالتيه ، ولم تقيم لهم دولة إلا بعد أدوار شتى . وأما النصرانية فكانت أبداً خطي من سابقتها حتى أنه لم تتأسس باسمها دولة إلا في سنة (٣١٣) على عهد الإمبراطور (كونستانتين) الروماني . أما الإسلام فلم يطل عهد الدهوة إليه أكثر من عشر سنين في مكة . فلما هاجر منها محمد صلى الله عليه وسلم إلى يثرب ، كان ذلك بداية للدولة الإسلامية ، وهي الديانة العالمية التي أرسل خاتم المرسلين لإعلانها للناس كافة ؛ فأرسل رسولها لعيالها الأمم التي كان يمكن الاتصال بها في ذلك العهد ، وهي الدولة الرومانية ، والدولة الفارسية ، والدولة الحبشية ، وغيرها ، كتباً يحيطهم علماً بقيامها ، ويدعوهم للدخول فيها ، وينذرهم بالمشكلات إن هم تنكبوا عنها . حدثت جملته لم يعهد له مثيل في تاريخ البشر ، ولم يقيم به محمد صلى الله عليه وسلم إلا بوحى من ربه ، وكيف كان يقدم على ذلك من تلقاء نفسه ، وهو على رأس قلة من الرجال لم يأمّنوا على وجودهم بعد ، وكانوا إذا قاموا للصلاة تقدمت طائفة وحرسهم أخرى ، خشية أن يكبسهم أعداؤهم وهم مجردون من أسلحتهم فلا تقوم لهم بعدها قائمة ؟ ولكن الحق جل وعز وعدهم - وهم في تلك القلة يخشون أن يتخطفهم الناس - بأنه سيمنحهم خلافته في الأرض ، وأنه سيؤيدهم وينصرهم على أعدائهم ماداموا موفين بعهدهم الذي عاهدوه

عليه ، وهو قوله : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الخاسرون » .

هذه آية اجتماعية لم يتم لها نظير في العالم كله ، وهي أن تتألف جماعة من طوائف شتى ، فتزداد عدداً بسرعة لم تقم في أي دور من أدوار البشرية ، ثم تنساح في الأرض بعد نحو خمسة عشر سنة من تألفها ، فتنتشر فيه ديناً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وتؤسس ملكاً قوى الدعائم ، ركين الأركان ، لا تغرب عنه الشمس ، يبلغ أهله في مائة وخمسين سنة من العلم والصنائع والمسدنية ما يفوقون به العريقين فيها أنفسهم ، ويستمررون حاملين لواءها قروناً متوالية ينشرونها حيث حلت أقدامهم من بقاع الأرض .

نعم هذه كبرى الآيات الإلهية في تاريخ الإنسانية ، يرجع الفضل فيها إلى تعاليم الإسلام وإلى الروح التي يبثها في القلوب ، والأسلوب الذي يسيطر به على العقول والميول . فالأمة الإسلامية التي نالت خلافة الله في الأرض ، وتولت زعامة العالم نحو ألف سنة ، وإن يكن أصابها من الفتور ما يصيب الجماعات البشرية ، تحت تأثير عوامل شتى ، إلا أنها لا تزال تذكر ما ضيها الماجد ، وتحن إلى استرجاعه ؛ ولا نشك في أنها ستستعيد كمالها غير منقوص متى أتم مصلحوها مهمتهم من استخلاص دينها مما شابها من البدع ، وما ألحق به مما ليس منه في شيء . نرجع بعد هذا الاستطراد الذي كان لابد منه ، إلى تجلية ما كنا بصدد من بيان خصائص الإسلام في بناء الأمم ، وفي كفايته لتوفيقه بحاجاتها من عوامل النهوض ، وتداركه لما يساور هذا النهوض من فواعل التثبيط ، وعلاجه لما يعتور تدرجها فيه من دواعي الانحراف ، دون أن تحتاج الأمة إلى ما جرت به سنن الاجتماع من الخلاف والتناحر الحزبي الذي يجر إليه ، ويدفع بمجموعها إلى التفتت الموجب لتفقرها أو لتلكؤها في أداء رسالتها آماداً طويلة ، هذه خاصة في الديانة الإسلامية ميزها الحق بها دون الأمم كافة .

ذلك لأن الديانة الإسلامية أوحيت بحالية من جميع بواعث الشقاق بين العقل والعقيدة ، وبين جميع أطوار الترقى العلى وأصولها الأولية ؛ فن أية جهة يتدس

الخلاف لدى ذويها بين المنقول والمعقول ، أو يتطرق التناقض في نظرهم بين أصولها ومقتضيات الظروف ؟ هذه ناحية تحتاج لتفصيل فإليك :

قرر الإسلام أن الدين فطرة فطر الله الناس عليها ، وأن أساسه الاعتقاد بخالق الكون ، وأنه واحد لا شريك له ، وأنه تعالى عن الأبصار فلا تراه عين ، وعن العقول أيضاً ، فلا يدرك كنهه عقل ، فكلمنا خطر ببالك ، فهو بخلاف ذلك . وأنه متصف بجميع صفات الكمال ، فهما بالغ المتكلمون ، وأطنب المؤمنون ، فأنه لا يحيط بكلمه وصف ، ولا يبلغ إلى مدى نعته بيان .

فهذه العقيدة لا تقبل أى جدل ، ولا تحتل أى خلاف ، ولا تتسع لأية منازعة ، وبها أمن أهله كل ما بليت به الجماعات ، من شرور الظنون والأوهام ، ومن الإغراق في التلاحى والخصام ، فإذا كان كل ما خطر ببالك فأنه بخلاف ذلك ، فمن العبث إضاعة الوقت في التحديدات والتقييدات ، وفي كل ما يجر إليه محاولة التسكلم في هذا الموضوع من المباحكات .

بهذا الطراز من العقيدة سد الإسلام باب الخلاف سدا محكما لا يجرؤ على محاولة فتحه إلا متعسف أو متزندق ؛ وبسد هذا الباب سلمت جماعة المسلمين من شر مستطير ، هو الانقسام في أصل العقيدة ، وتفرق كلمتها تبعاً لها ، ووقوع الاضطرابات المهددة لسيانها .

فعم لم يسلم المجتمع الإسلامى من متطفلين ومتزندق ، فحاول بعضهم فتح هذا الباب على مصراعيه ، واسكنها كانت محاولات فاشلة ، لمناقضتها لنص العقيدة مناقضة صريحة ، فلم تصل واحدة منها إلى مستوى تستطيع معه أن تدفع بجماعة المسلمين إلى الفرقة ، فاعتبرت كلها خوارج على الدين ، ثم آل أمرها إلى التلاشى والزوال ، وبقيت العقيدة الإسلامية إلى يومنا هذا نقية قوية ، وجاء العلم فأيدها ، فأصبحت الوحيدة التي لا يحيد عنها ، وتابع المسلمون حركتهم الاجتماعية والمدنية لم تحل بينهم وبين بلوغ غاياتهم البعيدة أية عقبة .

يأتى بعد العقيدة في الله ، العقيدة في الرسل وفي الأديان ، وهى أيضاً كانت مثاراً لمنازعات بين الجماعات لا تقف عند حد ، والإسلام في هذه الناحية يقرر بأن النوع البشرى من يوم وجد كان في حاجة إلى رسل يهدونه الطريق القويم ، ويلقونه مابه نجاحه في هذه الحياة ، ونجاته في الدار الآخرة ؛ وأمر أتباعه بالإيمان بهم أجمعين ، دون أن يفرقوا بين أحد منهم ، ودون أن يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض .

فإن وُجد في مجتمعهم طوائف من أديان سابقة لا تؤمن بالإسلام ولا بخاتم المرسلين ، امر المسلمون أن لا يتعرضوا لهم بسوء ، وأن لا يفرقوا في المعاملات بينهم وبين المسلمين ، وأن يدعوهم أحراراً في عقائدهم وعباداتهم ويَسعهم وكنائسهم ، وأن يحموهم حمايتهم لأنفسهم ، وأن يذودوا عنهم ذياتهم عن إخوانهم في الدين .

هذا الوضع الحكيم يحسم من أسباب المنازعات والخلافات ما لا يحصيه عد بين أبناء المجتمع الواحد ، فسادام المسلمون مأمورين أن يؤمنوا بجميع الرسل وأن لا يفرقوا بينهم ، وأن لا يتعرضوا لعقائد من تخلف من أهل الملل عن الدخول في دينهم ، وأن لا يفرقوا في المعاملات بينهم وبين أهل ملتهم ، فأى فتنة يُعقل أن تنشأ في مجتمع هذا شأن تحفظاته في هذه الناحية الحساسة ؟ وليس في القراء من ليس يدري أن هذه الأمور كانت ولا تزال مشارق قلاقل اجتماعية في جميع الأمم ، حتى في الجماعات الأوروبية ، فإن في تاريخها حوادث من الاضطهاد أدت إلى مذابح بين البروتستانت والكاثوليك ، وبين هؤلاء جميعاً وبين اليهود كانت مثالا للوحشية البالغة ، والجاهلية المتطرفة ، ولا ينسى أحد ما حدث في فرنسا من قتل نحو خمسة وعشرين ألفاً من البروتستانت في ليلة واحدة ، ومن هجرة خمسمائة ألف منهم من فرنسا سنة (١٦٨٥) هرباً من الاضطهاد ، حارمين وطنهم من صنائعهم ومعارفهم ، وحاملين إلى البلاد التي أووا إليها ، فكان في ذلك خسارة هلى فرنسا لا تقدر .

وإذا كان هذا في فرنسا وكانت في مقدمة الأمم ثقافة وذكاء ، فإذا أنت ظان فيما حدث في سواها من الأمم الأخرى ؟ وليس في قرائنا من يجمل ما كان يحدث لليهود قبل الحرب العالمية الأولى من العسف والاضطهاد والتشريد في جميع الممالك الأوروبية حتى اضطروا لإنشاء وطن قومي لهم ، وضحت جميع الأمم عليهم بقطعة من الأرض ولو في مجاهل إفريقيا ، وأخيراً تفضلوا عليهم بها ولكن على حساب المسلمين في فلسطين .

هذا من ناحية سمو التعاليم الإسلامية ، وقطعها لذرائع الاضطرابات الطائفية في جماعاتها من ناحية الخلافات الدينية . بقي علينا دراسة هذا الموضوع من الناحية الاجتماعية لتجلية عناصر المدنية فيها ؟

محمد فريد وجدي

من ذخائر السنة :

في أنهار الجنة

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ فكري ياسين

جاء في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « سيحان ، وجيحان ، والنيل ، والفرات ، من أنهار الجنة » .

أورد القدامى من أصحاب الروايات والأخبار ، آثاراً كثيرة في مؤلفاتهم ، تدلّ بحسب ظاهرها على أن نهر النيل وبعض الأنهار الأخرى من الجنة ، وقد أكثر الشيخ جلال الدين السيوطي في كتابه « حسن المحاضرة » عند الكلام على النيل ومزايده وخصوصياته من ذكر هذه الآثار ، وأتى فيها بالعجب العجيب .

وليس يعنيني في الواقع من كل هذه الآثار ، إلا ما جاءت به المصادر الصحيحة ، وأخرجته المراجع المعتمدة ، فهذه في الحقيقة ، هي الجديرة بالنظر والتفكير والخليفة بالعناية والتقدير ، أما ما عداها مما ورد في مدونات أخرى ، فالخطب فيها سهل ، والأمر في قبولها أو ردها لا يحتاج إلى جهد أو كبير عناء .

اتفق البخاري ومسلم في أحاديث الإسماء والمعراج ، على أن النبي صلى الله عليه وسلم عند ما بلغ سدرة المنتهى رأى أربعة أنهار ، نهران باطنان ، ونهران ظاهران ، فقال : يا جبريل ما هذه الأنهار ؟ ، فقال : أما الباطنان ، فنهران في الجنة ، وأما الظاهران ، فالنيل والفرات .

وانفرد مسلم عن البخارى بإخراج الحديث الذى أثبتناه فى صدر هذا الكلام ، وانظروا : دسيحان ، وجيحان ، والنيل ، والفرات من أنهار الجنة ، .
 وإزاء هذين الاثرين القويين الواردين فى مصدرين عظيمين ، اتفق علماء المسلمين فى المشرق والمغرب على أنه ليس بعد كتاب الله تعالى أصحّ منهما ، قد يقف المثقف العادى مترددا حائرا متسائلا عن قيمة ما ورد فى هذين الاثرين ، وعن معناه ومرماه ، وعن مدى اتصالها بالحقيقة ، ومبلغ اتفاقهما مع ما تحكم به المشاهدة : من مواقع هذه الانهار ومنابعها ومجاريها ومصباتها ، بل وقد يقف منهما بعض أصحاب العقلية الحديثة موقف الاستبعاد والإنكار .

ولو تمهل أولئك المتسائلون ، وترتّب هؤلاء المنكرون ، وكلفوا أنفسهم هناء الرجوع إلى آراء العلماء ، وجشموها مؤونة البحث عما قالوه فى تفسير ذينك الاثرين ، وشرح معناه ، وبيان المراد منهما ؛ لظهر لهم وجه الصواب ، وانبلج أمامهم نور الحقيقة ، ولوفروا على أنفسهم ما يحلبه التساؤل والإنكار من نتائج ومؤاخذات .

قال النووى فى شرح مسلم : إن مياه هذه الانهار أصلها من الجنة ، وإنها تخرج من أصل سدرة المنتهى ، ثم تسير حيث أراد الله ، ثم تنزل إلى الارض ، فتستقر فيها ، ثم تخرج منها ، وهذا لا يمنعه عقل ولا شرع ، وهو ظاهر الحديث ، فوجب المصير إليه .

وذكر القاضى عياض فى كون هذه الانهار من ماء الجنة تأويلين :
 أحدهما : أن الإيمان عمّ بلادها ، وأن الاجسام المتغذية بمائها صائرة إلى الجنة .

والثانى : أن لها مادة من الجنة . ولكن يخيّل إلينا أن أصحاب العقلية الحديثة ، سوف لا يعجبهم هذا الكلام ، وسوف لا يرضيهم رأى النووى ، ولا يروقه تأويل القاضى ، وأنهم سيمزّون أكتافهم ، ويثنون أعطافهم ، ثم يمضون سراعا سادرين عابئين .

وإذا كان الامر لديهم كذلك ، فليسمعوا رأيا آخر فى تفسير الحديث ، علّه يشفى غلتهم ، ويروى ظمأهم ، ويذهب بما فى نفوسهم من ريب وشكوك ،

وهذا الرأي هو ما حكاه القرطبي عندما تناول هذا الموضوع بالشرح والبيان ، قال :

ولمّا أطلق على هذه الأنهار أنها من الجنة تشبيها لها بأنهار الجنة ، لما فيها من شدة العذوبة والحسن والبركة .

ونظن أن فيما حكاه القرطبي ما تهممه العقلية الحديثة وتمتعيه ، وما يكفي لإرضاء غلوائها ، وإقناع تفكيرها الخاص بها .

* * *

أشير في أثر البخارى ومسلم إلى وجود نهرين باطنين في الجنة ؛ وقد وردت الآثار أيضاً بأن في الجنة عيناً تجري يقال لها : السلسيل ، وأنه ينشق منها نهران ، أحدهما : السكوثر ، والآخر يقال له : نهر الرحمة ، فيمكن أن يفسر بهما النهران الباطنان المذكوران ، وقال مقاتل : النهران الباطنان هما السلسيل والسكوثر .

فأما النيل ، فهو نهر مصر ، وقد ذكروا له مزايا كثيرة ، منها أن مائه من أصح المياه وأخفها وأعذبها وأحلاها ، وأرواها وأمرأها ، وأعمها نفعا ، وأن أرضه من أخصب الاراضي ، وأغناها زروعاً وثماراً ، وأكثرها غلة وإنتاجاً وأعظمها خراجاً ، ومنها أنه يأتي أرض مصر في أوان اشتداد القيظ والحر ، ويبس الهواء ، وجفاف الأرض ، فيبيل التربة ، ويرطب الهواء ، ويلطف الجو ، وينعش النفس ، ويعتدل الفصل ، وتزدهر الحياة ، ومنها أنه يأتي من الجنوب إلى الشمال ، فيكون فعل الشمس فيه دائماً ، وأثرها في تنقيته وإصلاحه متصلاً ملازماً .

وأما الفرات ، فهو نهر بغداد ، وقد خطأ النووي من قال : إنه بالعراق ، وقال : هو فاصل بين الشام والجزيرة ، وكذلك خطأ من يقولونه « الفراء » ، بالثاء المربوطة ، وقال : إنه الفرات بالثاء المفتوحة في الخط في حالتي الوصل والوقف ، والفرات في اللغة : الماء العذب جداً يقال للواحد والجمع ، ومنه قوله تعالى :

« وأسقيناكم ماء فراتا » ، ولعل في تسميته النهر المخصوص بذلك الاسم إشارة إلى ما يدل عليه هذا المعنى اللغوى .

وأما سيحان وجيحان ، فهذان عظيمان جدا ، وهما يقعان في بلاد الارض ، وسيحان نهر أذنة ، وجيحان نهر المصيصة ، وهو أكبرهما ، قال صاحب النهاية في غريب الحديث : سيحان وجيحان نهران بالعواصم عند المصيصة وطرطوس ، وهما غير سيحون وجيحون ، لأنهم اتفقوا كلهم على أن جيحون نهر وراء خراسان عند بلخ ، واتفقوا على أنه غير جيحان ، وكذلك سيحون غير سيحان ، ولم يذكر هذان النهران في حديث الإسراء ، لكونهما ليسا أصلا برأسهما ، والاحتمال أن يكونا متفرعين عن غيرهما .

وبعد ، فذلك هو آراء العلماء في بيان معنى كون هذه الأنهار من الجنة ، فمن استطاعت عقليته أن تهضم مثل رأى النووى ، أو تأويل القاضى ، فليأخذ بهما ، أو بأيهما شاء ، ومن لم تستطع عقليته أن تقبل شيئا من ذلك ، فليأخذ بما حكاه القرطبى ، فإن التشبيه لا حجر فيه ، ولا مضادة فيه بين العقل والمنطق والرأى السليم ، والمقاييس العلمية الصحيحة ، ولم يمنع أحد مطلقا ، لا من أصحاب العقليات القديمة ، ولا من أصحاب العقليات الحديثة ، بل لقد بلغ من أمره أنه كلما كان أقرب إلى الغرابة ، وأدنى إلى المغالاة ، وأشبه بالخيال ، كان بذلك أدخل في باب الحسن والجمال والبلاغة ، ولأنه لا يشك شك في أن مياه هذه الأنهار عذبة حلوة ، سائغة للشاربين ، مستلذة للمتذوقين ، راوية للظامئين ، وأنها حسنة في المنظر ، جميلة في المرأى ، ممتازة في الموقع ، بدیعة في انسكابها وانعطافها ، بهیجة في وداعتها وهديرها ، وأنها تعود على البلاد التى تجرى فيها بالخصب والثمار ، واليسر والرخاء ، والخير والبركة ، وهذه المعانى كلها مشتركة بينها وبين أنهار الجنة ، فيكون حمل الحديث على التشبيه أسلم وأحكم ، وأبعد به عن الاندفاع في تيار الجدل ، وأنأى عن مجال التجريح والتضعيف ، وأرضى للعقليات التى تميل الى الأخذ بالواقع المدروس .

مِنْ فِقْهِ عُمَرَؓ

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني
المفتش بالأزهر

نما يؤثر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه منع المؤلفه قلوبهم من نصيبهم المفروض لهم في الزكاة بقوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين ، وفي سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله والله عليم حكيم » ، وعمر بن الخطاب كان ذا بصير بالفقه مع ورع وتقوى في الدين ، فكيف سوغ لنفسه أن يخالف آية صريحة كهذه الآية ، وكيف وقّت حكمها بقوله : « ذلك حين كان الإسلام ضعيفاً ، أما وقد أعزه الله فالسيف بيننا وبين من خرج عليه » .

وقد تمسك بعض الناس بصنيع عمر هذا ، وزعموا أن المصلحة حاکمة على ما سواها من الأدلة ، ولو كان نصاً في كتاب أو سنة ، وأيدوا هذا أيضاً بتصرف آخر لعمر في مسألة الطلاق الثلاث ؛ وذلك أن الطلاق الثلاث على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى عهد أبى بكر رضى الله عنه ، وفي أول خلافة عمر ، كان يقع طليقة واحدة ، ثم رأى عمر أن يلزم الناس بوقوعه ثلاثاً لمصلحة رجحها ، هي أن الناس تتابعوا على ذلك وأكثروا من الحلف به ، واستعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة ، فكانت المصلحة في أن يمضيه عليهم ، وقد وافقه على ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والأئمة من بعدهم ، وأصبح ذلك هو الحكم المفتى به ، المعول عليه في المذاهب الأربعة المعروفة .

قالوا : إن الشارع قد جعل قول الرجل لامرأته : أنت طالق ثلاثاً سبباً في وقوع طليقة واحدة ، فهذا حكم وضعى ليس لأحد إلا للشارع (١) ، فكيف

(١) الحكم الوضعى هو جعل الشيء سبباً أو شرطاً . . الخ والذي يحكم بهذا الجعل هو الشارع ، وذلك كجعل ذلك الشمس سبباً في وجوب الظهر مثلاً ، ومنه ما معنا هنا من جعله لفظ الطلاق بالثلاث سبباً في وقوع واحدة ، فليس لأحد أن يجعله سبباً في أكثر .

ساخ لعمر أن يجعل اللفظ سبباً لوقوع ثلاث طلاقات وهو ، يعلم أن سببية الشيء لشيء إنما تكون بحكم الشارع ، فهو الذي يجعل صيغة ما سبباً لثبوت حكم ما . وإذن فلا بد أن يكون عمر قد سلك في الأمر مسلكاً آخر ، هو تغليب مصلحة الناس على العمل بهذا الحكم الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونما ذكره في ذلك أيضاً ما رواه أبو يعلى الموصلى في مسنده أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر ينادى : من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، فوجده عمر فرده وقال : : إذن يتكلموا ، وكذلك رد عمر أبا هريرة عن فعل ذلك في حديث صحيح ، وهو معارضة لنص الشرع بالمصلحة .

وقد خرج بعض العلماء صنيع عمر في هذه المسائل الثلاث ، ونحوها بتخريج الخصة فيما يأتي :

١ — قالوا في مسألة المؤلفات قلوبهم : إن عمر رضى الله عنه لم يبطل النص ، ولم يحكم عليه بالمصلحة ، وحاشاه أن يفعل ذلك ، فإن النص خالد ، والمصلحة مارة الشارع ، وإنما فهم عمر أن الله سبحانه وتعالى جعل نصيباً للمؤلفات قلوبهم ؛ حيث كان الإسلام في حاجة إلى تأليفهم واصطناعهم ، لأنهم كانوا أهل جاه ورياسة في أقوامهم ، فلو أسلموا أسلم من وراءهم من الاتباع فعز بهم الإسلام وكثر سواده ، أما وقد أصبح الإسلام عزيزاً ، وأصبح أهله كثرة تخشى وترجى ، فلم يعد به حاجة إلى تأليف أحد ، فهو يرى بهذا أن النص على إعطائهم مقيد بهذه المصلحة ، دأب معها وجوداً وعدماً ، فإذا وجدت مصلحة في التأليف بالمال في أى عصر من العصور ، جاز للإمام على هذا أن يدفع نصيباً لمن يرى تأليف قلوبهم ، والانتفاع بجاههم وما يفيدون الإسلام والمسلمين ، وإذا لم يظهر في ذلك مصلحة فلا يجب دفع هذا النصيب ، وكأن النص مصرح فيه بهذا القيد ، وأرى أن عمر قد لمح هذا المعنى من العبارة عنهم بلفظ « المؤلفات قلوبهم » ، فهو يفيد أن هناك تأليفاً لقوم ، والتأليف لا يكون إلا حيث يرى أن المصلحة قاضية به ، وإلا كان صرفاً للبال في وجه آخر قد يسمى إحساناً مثلاً ، أو إعطاء أو نحو ذلك ، فحيث سماه « تأليفاً » فقد دل بذلك على أنه يريد معنى تقريرهم للإسلام ليفيدوه ، فالعبرة إذن بالفائدة .

ومن هذا يتبين أن عمر رضى الله عنه لم ينسخ النص أو يزعم أنه نسخ ، ولكن النص باق ؛ لأنه لم يكن فى أى وقت نصاً مطلقاً ، وإنما هو من أول أمره مقيد وقد ظل كما هو وسيظل إلى يوم القيامة .

٢ — وقالوا فى مسألة الطلاق الثلاث : إن عمر رضى الله عنه لم يشرع سببية لفظ لغير ما شرعه الشارع ، وإنما نظر عمر نظرة أخرى ؛ ذلك أنه إذا طلق الإنسان امرأته طلاقاً ثلاثاً فى لفظ واحد ، ووقع بذلك طليقة واحدة كما كان العمل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعهد أبى بكر وأوائل عهد عمر ، فعنى ذلك أن للزوج حقاً فى مراجعة زوجته بعد هذا اللفظ ، والمراجعة أمر مباح كسائر ما يباح للناس من طعام أو شراب أو تزوج أو نحو ذلك ، غير أن عمر رأى استخفاف الناس بمخالفة السنن قد استشرى دأؤه ، فرأى أن يحرم الناس من هذا الحق الذى كان لهم ، كما لو رأى حاكم لمصلحة ما أن يمنع الناس من إيقاد الأضواء بعد ساعة معينة خوف إغارة الأعداء مثلاً ، كما كان يحدث فى زمن الحرب ، فحرمان أصحاب الحق المباح من استعمال حقهم لمصلحة قاضية به لا يعد حكماً بسببية صيغة فى شيء لم يجعلها الشارع سبباً له .

وبهذا يتبين أن عمر لم يشرع حكماً وضعياً ، وإنما قيد استعمال المطلقين لحقهم فى الرجعة .

٣ — أما المسألة الثالثة فظاهر أن عمر لم يرد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكيف وهو خبر من الرسول الكريم عن الله رب العالمين ، ولكنه لم يجد فى الناس استعداداً حينئذ لتلقى هذا الخبر ، وخاف عليهم أن يتكلموا ، وأن يضعف جهادهم ونصرهم وتضحياتهم فى سبيل الله .

وقد يقول قائل : أليس قد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتداء فى الناس بهذا ؟ فما بال عمر يرد هذا الأمر فأقول : لم يكن رد عمر رداً للمعنى الذى قرره الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنه رأى رآه فى مناسبة ذلك لمصلحة الناس ، أو عدم مناسبتها فى خصوص هذا الوقت ، وكفى لعمر من مراجعات مع الرسول الكريم كان يتلقاها بالتبول ، وشتان بين النظر فى تأجيل الإخبار بحكم أو التخصيص به ، وبين نقضه ورد معناه .

سيبويه

لفضيلة الأستاذ الجليل الدكتور محمد محمد بن الفحام
الأستاذ بكلية اللغة العربية

كنيته ، اسمه ، نسبه :

أبو بشر ، عمرو بن عثمان بن قنبر مولى بنى الحرث بن كعب . وقيل مولى
آل الربيع بن زياد الحارثي من أصل فارسي ، وقد جاء اسمه واسم أبيه واسم جده
في شعر اللخخشي :

الأصلي الإله صلاة صدق على عمرو بن عثمان بن قنبر
فإن كتابه لم يغن عنه بنو قلم ولا أصحاب منبر
وسيبويه لقب له ، تغلب على اسمه وكنيته فاشتهر به ، وهو لفظ فارسي
مركب ، ترجمته العربية « رائحة التفاح » .

وقد اختلف في توجيه تلقيبه بهذا الاسم ، فقيل : لأن أمه كانت ترقصه
بذلك في صغره ، وقيل : كان من يلقاه يشم منه رائحة الطيب ، وقيل : كان يعتاد
شم التفاح ، وقيل : لقب بذلك لللطافة . وقال إبراهيم الحربي : سمي سيبويه ؛
لأن وجنتيه كانتا كأنهما تفاحتان ، وكان في غاية الجمال .

وأهل العربية يضبطون هذا الاسم ونحوه - مثل نفطويه ، وخالويه - بفتح
الواو وسكون الياء . والعجم يقولون : سيبويه ونفطويه ، بإسكان الواو وضم
ما قبلها وفتح الياء .

وقد جاء هذا الضبط في شعر لابن بسام ، يذم فيه نفطويه :

رأيت في النوم أبي آدم صلي عليه الله ذو الفضل
فقال : أبلغ ولدي كلم من كان في حزن وفي سهل
بأن حوا أمهم طالق إن كان نفطويه من نسلي

وما ذكرناه من أن ترجمة « سيبويه » هي « رائحة التفاح » هو المشهور في كتب النحاة والمؤرخين العرب ، واستظهر بعض المستشرقين : « ف. كرنكور » أن الترجمة الصحيحة هي « تفاحة صغيرة » لا « رائحة التفاح » .

تاريخ ومكان ولادته :

لم يعرف بالضبط تاريخ ميلاده . أما مكان ولادته فقريبة من قرى شيراز تسمى البيضاء ، بلدة الحسين الحلاج المتصوف المشهور ، والقاضي البيضاوي المفسر الشهير .

نشأته العلمية :

ترك سيبويه البيضاء ، مسقط رأسه وهو صغير ؛ وذهب إلى البصرة يدرس الفقه والحديث على إمام الحديث ، وشيخ أهل البصرة في العربية إذ ذاك ، حماد ابن سلمة بن دينار (المتوفى سنة ١٦٧ هـ) وكان سيبويه يستملى عليه يوما . فقال حماد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أحد من أصحابي إلا وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء » فظن سيبويه أن حماداً لحن في الحديث ، فاستعمل المنصوب مكان المرفوع ، فرد على حماد قائلاً : « ليس أبو الدرداء » فقال حماد : « لحنت يا سيبويه » فقال سيبويه : « لا جرم » ، لا طالبين علماً لا تلحنني فيه أبداً .

ثم لزم الخليل وافتتح لدراسة النحو ، حتى بلغ فيه الغاية ، وصار أعلم أهل عصره ، واستحق بجدارة لقب « إمام البصريين » .

وقد خلد اسمه ، وأبقى ذكره في الناس كتابه العظيم ، الذي لم يسبقه إلى مثله أحد من المتقدمين ، ولم يجاره في تأليفه أحد من المتأخرين ، فكلمهم عيال عليه .

شيوخه :

أشهر شيوخ سيبويه الذين اتصل بهم ، وأفاد منهم خمسة :

١ — عيسى بن عمر النخعي (المتوفى سنة ١٩٤ هـ) وكان قد ألف كتابين في النحو : « الإكمال والجامع » ، ولم يوقف لهما على أثر . وفيهما يقول تلميذه الخليل .

بطل الحشو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقر

٢ — الخليل بن أحمد ، صاحب كتاب العين ، وواضع علم العروض
(المتوفى سنة ١٧٥ هـ) حكى سيبويه في كتابه الكثير من المسائل عن الخليل ،
وكما قال في كتابه : « وسألته ، أو قال : قال ، من غير أن يذكر الفاعل وإنما
يعنى الخليل . فإذا حكى قولاً عن الخليل ثم أردفه بقوله : « وقال غيره ، وإنما
يعنى بذلك نفسه « سيبويه » ، وهذا مظهر من مظاهر أدب سيبويه مع استاذه ،
وكان الخليل يحله ويكرمه . قال ابن النطاح : كنت عند الخليل يوماً ، فأقبل
سيبويه ، فقال الخليل : « مرحباً بزائر لا يمل » .
قال أبو عمرو الخزومي — وكان كثير المجالسة للخليل — « وما سمعت الخليل
يقولها لأحد إلا لسيبويه » .

٣ — يونس بن حبيب (المتوفى ١٨٢) ، وكانت له بالبصرة حلقة يختلف
إليها الأدباء وفصحاء العرب ، وأهل البادية ، روى عنه سيبويه كثيراً وسمع منه
الكسائي والفراء ، وقال أبو زيد الأنصاري : جلست إلى يونس بن حبيب عشر
سنين ، وجلس إليه قبل خلف الأحمر عشرين سنة . عاش يونس نحو تسعين سنة
لم يتزوج فيها ، ولم يتسرَّ .

٤ — الأخفش الأكبر ، عبد الحميد بن عبد المجيد المتوفى سنة (١٧٧) هـ
أول من فسر الشعر تحت كل بيت ، وما كان الناس يعرفون ذلك قبله ، وإنما كانوا
إذا فرغوا من القصيدة فسروها ، ونقل عنه سيبويه كثيراً في كتابه فقال :
وسألت أبا الخطاب .

٥ — أبو زيد الأنصاري المتوفى سنة (٢١٥) هـ . صاحب كتاب النوادر .
وكان عالماً بالنحو واللغة ثقة .

قال أبو زيد هذا : « كان سيبويه غلاماً يأتي مجلسي ، وله ذؤابتان . فإذا
سمعته يقول : « حدثني من أئق بهريته » وإنما يعنيني .

تاريخ ومكان وفاته :

اختلف في تاريخ وفاته : فقيل مات في سنة إحدى وستين ومائة (١٦١) ؛

وقيل سنة سبع وسبعين ومائة (١٧٧) ؛ وقيل سنة ثمانين ومائة (١٨٠) ، وقيل سنة ثمان وثمانين ومائة (١٨٨) ؛ وقيل سنة أربع وتسعين ومائة (١٩٤) ، وعمره اثنتان وثلاثون سنة وقيل نيف وأربعون . واختلف أيضا في المكان الذي مات فيه . فقيل : مات بالقرية التي ولد فيها « البيضاء » . وقال ابن قانع : مات بالبصرة . وقال ابن الجوزي : توفي بمدينة ساوة .

وذكر الخطيب في تاريخ بغداد عن ابن دريد أن سيبويه مات بشيراز وقبره بها ، ورجح هذا القول ؛ لأن ابن دريد خبير بأخبار البصريين ، ثقة فيها . قال أبو سعيد الطوال : رأيت على قبر سيبويه هذه الأبيات مكتوبة : - وهي لـسليمان بن يزيد العدوي - .

ذهب الاحبة بعد طول تزاور ونأى المزار ، فأسلموك وأقشعوا
تركوك أوحش ما تكون بقفرة لم يؤنسوك ، وكربة لم يدفعوا
وقضى القضاء وصرت صاحب حفرة هنك الاحبة أعرضوا وتصدعوا
وكان سيبويه — رحمة الله — كثيرا ما ينشد هذا البيت .

إذا بل من داء به ظن أنه نجما وبه الداء الذي هو قاتله
كتاب سيبويه :

لم يؤلف سيبويه إلا كتابا واحداً ، عرف عند أهل العربية بإسم « الكتاب » ، وهو أقدم كتاب وصل إلينا ، مؤلف في علم النحو . ولم يصدره مؤلفه بمقدمة كمعادة المؤلفين ، ولكنه بدأ بقوله : بسم الله الرحمن الرحيم . وبه نستعين .

هذا باب علم ما السكلم من العربية . الخ .

والكتاب شاهد بفضل مؤلفه ، وسعة إطلاعه ، وغزارة علمه ، فلم يترك من مسائل النحو صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ونسب فيه إلى كل من شيوخته أقواله . وكان ثقة في كل ما قال .

روى عن أبي عبيدة أنه قال : دقيل ليونس بعد موت سيبويه : إن سيبويه صنف كتابا في ألف ورقة من علم الخليل ؛ فقال ليونس : ومتى سمع سيبويه هذا

كله من الخليل ؟ جيئوني بكتابه ، فلما رآه يونس قال : يجب أن يكون قد صدق فيما حكاه عن الخليل كما صدق فيما -كاه عنى .
وقال الجاحظ : « لم يكتب الناس فى النحو كتابا مثل كتاب سيديويه ،
وجميع كتب الناس عليه عيال » .

شرح الكتاب .

تناول كثير من العلماء كتاب سيديويه بالشرح والتعليق . فمن شراحه :
السيرافى ، وابن السراج ، وابن خالوية ، ومبرمان ، وابن الباذش ، والشلوپين ،
وابن خروف ، والبطلاني-ومسى ، والرماني ، وابن الضائع .
ومن شرح شواهد : السيرافى ، وابنه يوسف ، والزخشرى ، والشنهرى ،
ويحيى بن عبد المعطى صاحب الالفية المشهورة .

ومن تعقب سيديويه أبو بكر الزبيدى الاندلسى المتوفى بأشبيلية سنة ٣٧٩
فقد ألف كتابا سماه « الاستدراك على كتاب سيديويه » . وقد نشر هذا الكتاب
بعناية المستشرق الإيطالى . « جويدي » ، وطبعه بمدينة رومه سنة ١٨٩٩ وصدره
بمقدمة باللغة الإيطالية .

طبقات الكتاب .

طبع كتاب سيديويه ثلاث مرات :
الاولى بالمطبعة الاهلية بباريس سنة ١٨٨٣ بعناية المستشرق دِرَ نُبُورَج
والثانية بكلكتا سنة ١٨٨٧ . والثالثة بمطبعة بولاق الاميرية سنة ١٨٩٦ .
وتتمتاز طبعة باريس بأنها مصدرة بمقدمة طويلة باللغة الفرنسية بينت
مسودات الكتاب ، وأمكنه وجودها ، ونبذة من تاريخ سيديويه ، وطائفة من
النحاة الذين اشتغلوا بكتابه .

وتتمتاز طبعة بولاق بأنها مزينة بنيف من شرح السيرافى ، وشرح شواهد
الاعلم الشننهرى المسمى « كتاب تحصيل عين الذهب من معدن جوهر
الادب فى علم مجازات العرب » .

وقد ترجم كتاب سيديويه إلى اللغة الالمانية ترجمة المستشرق الالماني Jahn جهن ،
وطبعت ترجمته الالمانية ببرلين سنة ١٨٩٤ م ولا نعرف أنه ترجم إلى لغة أخرى .

مفردات فلسفية

لفضيلة الدكتور محمد يوسف موسى

الأستاذ بكلية أصول الدين

تحدثنا في الكلمة السابقة عن مسألة الكلليات أو الماهيا العامة ، ونشأتها في التاريخ ، وكيف صارت مشكلة لها خطرها وبخاصة في العصور الوسطى ، وأشرنا إلى أن وجه الإشكال فيها ، من ناحية المعرفة والوجود ، هو معرفة ما إذا كان هناك وجود حقيقى لهذه الماهيا خارج الأشياء التى توجد فيها وجودا حسيا ؛ أو أنه ليس لها وجود إلا فى هذه الأشياء فقط ؛ أو أنها ليست إلا أسماء لا حقائق لها ولا تدل على أى ضرب من ضروب الوجود . ثم أشرنا إلى أن الخلاف فى هذا كله كان منه هذه المذاهب :

- | | |
|--------------------|----------------|
| ١ — المذهب الواقعى | Réalisme |
| ٢ — المذهب الاسمى | Nominalisme |
| ٣ — المذهب التصورى | Copceptualisme |

واليوم نتناول بالبحث هذه المذاهب الثلاثة

* * *

المذهب الواقعى :

يذكر الأستاذ د لالاند - A. Lalande ، لهذا المذهب معان ودلالات مختلفة حسب العصور وحسب نواحي المعرفة المتعددة ، ومن هذه المعانى نذكر ما يلى :

- ١ — مذهب أفلاطونى يرى أن الكلليات (كالحوانية والإنسانية) أدخل فى الحقيقة والوجود من الكائنات الفردية المتشخصة (مثل هذا الحيوان

وهذا الإنسان اللذين أراهما أمامي (التي تتمثل فيها هذه الحقائق ، والتي ليست إلا ظلالا وصورا لهذه الكليات أو المعاني العامة "les idées" .

ب - وفي العصر الوسيط صار هذا المصطلح يدل على المذهب الذي يعتبر أن هذه الكليات العامة لها وجود مستقل عن الأشياء التي تظهر فيها . فالإنسانية لها وجود خارجي مستقل عن هذا الإنسان ؛ وكذلك الجمال والعدالة مثلا ، لكل منهما - كاهية أو فكرة عامة - وجود مستقل عن الشيء الجميل والعمل العادل . وبهذا المعنى ، يكون مقابلا للمذهب الاسمي والمذهب التصوري ، ولكن من وجهتي نظر مختلفتين على ما سنعرف .

ج - ويراد به عند الرياضيين المعاصرين الفكرة التي تقول بأن الاشكال والحقائق الهندسية ، أو الرياضية بصفة عامة ، ليست من اختراع العارف العالم بها ، بل إنها موجودة قبله ، وعمله ليس إلا كاشفا لها ، أي - كما نقول في الأزهر - عمله ليس إلا مظهرها ، لا مثبتها لها .

د - وفي علم الجمال قد يراد بهذا المذهب أن الفن ليس له أن يبحث في أن يمثل لنا وجودا أعلى مما هو موجود في الطبيعة ، أي أنه ليس له إلا أن يبرز لنا الخصائص الحقيقية الأساسية لما هو موجود فعلا .

هذا ما نختاره مما ذكره الأستاذ أندريه لالاند ، ومنه نعرف أن أصحاب هذا المذهب يرون بصفة عامة أن المفاهيم العامة موضوعية ، وأن لها وجودا أقرب للحقيقة من وجود الكائنات المحسوسة . ومن هؤلاء الذين ذهبوا هذا المذهب قبل أفلاطون ومن أخذ أخذه ، من غلو إلى درجة تقرير أن هذه الكليات لها وجود ومتحقق خارج الذهن سابق على وجودها في الأشياء التي تتمثل فيها .

* * *

المذهب الاسمي :

يقابل هذا المذهب المذهب الواقعي ، إذ كل منهما في طرف مقابل للطرف الآخر . ذلك بأن المذهب الاسمي ، هو مذهب الذين ينكرون حقيقة وجود المعاني أو المفاهيم الكلية ، فلا يرون فيها إلا كلمات وأسماء اصطلاح عليها للدلالة على ما تشير إليه من معان ومدركات .

وعلى هذا المذهب ، لا تكون ماهية الإنسان ، أى الحيوان الناطق ، لها وجود خاص ، وحقيقة مجردة يسبق وجودها وجود الاناس نفسها كما يقول أفلاطون . بل لا تكون هذه الماهية إلا « اسماً » يدل على هذا الإنسان ، وذاك الإنسان الآخر ، دون أن تكون حقيقة قائمة وحدها بنفسها .

والخلاف بين هذين المذهبين ، فيما يختص بمسألة المعرفة خلاف خطير ، فشتات عنه معارك عنيفة فى العصر الوسيط . ونعتقد أنه لا يزال لهذا الخلاف أثره حتى اليوم ، ما دام لا يزال لكل من المذهبين ممثلون فى هذه الأيام ، كما نعتقد أن فى كل من هذين مغالاة ، وأن الحق قد يكون فى الاعتدال والتوسط بينهما .

* * *

المذهب التصورى :

لهذا المصطلح ، كأغلب سائر المصطلحات الفلسفية ، دلالات مختلفة ، نختار بعضها هنا :

١ — إنه مذهب من يرى أن الكليات لا توجد فى نفسها ، لا قبل الأشياء ولا فى الذوات التى تكون هذه الأشياء . ولكنها ليست إلا من عمل العقل وخلقها ، هذا العقل الذى ينتزع الماهية العامة للشيء من الخصائص الثابتة فى أفرادها جميعاً . وإذا ، فلا تكون الكليات ، حسب هذا المذهب ، موجودة وجوداً مستقلاً كما يقول الواقعيون ، ولا مجرد أسماء كما يرى الاسميون ، بل لها وجود ، ولكن فى العقل فقط ، وهذا الوجود ينتزع عن الأفراد كما قلنا .

٢ — ويذكر الأب « إيلي بلان Elie Blanc » فى قاموسه الفلسفى ، أن هذا هو مذهب « أبيلارد - Abélard » الفيلسوف الفرنسى المعروف . وهو كأنه مذهب وسط ، بين المذهب الحقيقى والمذهب الاسمى ، إذ بحسبه تكون المفاهيم العامة تصورات للعقل .

ومثل هذا نجد فى قاموس : « لاروس الجديد » . ثم يزيد أن المفهوم العام إن فصل من الأشياء التى يتمثل فيها ، لا يكون حقيقة فى نفسه كما يقول الحقيقيون ، ولا مجرد لفظ أو اسم كما يرى الاسميون ، ولكنه يكون تصوراً للعقل يجمع الخصائص الثابتة العامة لأفراد هذا الجنس ، أو الفصل جميعاً .

هذا، وأخيراً نذكر أن الناظر لشرح المواقف للإريحي وحاشية السيالكوتي، قد يسمى هذا المذهب بالمذهب الصوري، لا بالمذهب التصوري. فقد جاء بالجزء ٢: ص ١٧٠ من طبعة مطبعة السعادة سنة ١٩٠٧ م، عند الكلام على الكلام على المقصد الرابع في الوجود الذهني، بأن «الأشياء في الخارج أعيان، وفي الذهن صور». كما جاء أيضاً «ج ٢: ص ١٦٩»، بأن «الوجود الخارجي أو العيني، هو وجود للشيء في نفسه، بخلاف الذهني فإنه وجود لصورته». ولكننا، مع هذا، آثرنا تسمية هذا المذهب بالمذهب التصوري، إذ أخذت هذه التسمية حظاً من الذبوع والقبول هذه الأيام.

الشعر الفحل

من أعلى طبقات الشعر ما قاله أبو عبادة البحري في الوزير الفتح بن خاقان
يصف مقابلته له ويمدحه :

ولما حضرنا سدة الاذن أخرت رجال على الباب الذي أنا داخله
فأفضيت من قرب إلى ذى مهابة أقابل بدر النم حين أقابله
إلى أن قال :

فسلمت فاعتاقت جناني هيبة تنازعني القول الذي أنا قائله
إلى مسرف في الجود لو أن حائما لديه لأضحي حاتم وهو عاذله
فلما تأملت الطلاقة وأنثى إلى ببشر آتستى مخايله
دنوت فقبلت الندى من يد أمرى جميل يحياه سباط أنامله
صفت مثل ما تصفو المدام خلاله ورقت كما رق النسيم شمائله

لغويات

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار
الأستاذ بكلية اللغة العربية

صفار اللون

يتردد هذا في السنة العامة . ويظن كثير أن هذا لا يجافى العربية ، فالصفار كالسواد والبياض وعلى وزنهما ، وهذا يدخل على الوهم صحة استعمال الصفار . ولقد غر هذا الأستاذ اللغوي القدير عبد القادر المغربي ، فذكر في كتابه « عثرات اللسان » ، الذي نشره في هذه الأيام كلمة « الصفار » ، فيما تخطىء العامة في شكله وضبطه وأقر الصيغة ، وإنما الخطأ عنده في فتح الصاد وهي في العربية مضمومة . على أنه يرى أن هذا الخطأ في الشكل إنما هو على حسب ما في المعاجم ، وهو يرى أن لا بأس بتصويب ما ينطق الناس بالفتح قياساً على السواد والبياض . وهندي أن الصيغة والزنة خطأ في اللغة ، وإنما هي العُصفرة ، وما رأينا أحد ذكر الصفار في موضع الصفرة . وإني أسوق كلامه في كتابه ثم أعقب عليه : « صفار اللون صفرتة . وصوابه ضم الصاد وهم يفتحونها ، ويقولون : صفار البيض ، ورجع فلان بصفار الوجه . أقول : لكنني لم أجد كلمة صفار إلا في اللسان . وهذه عبارته : والصفار صفرة تعلو اللون والبشرة ، وصاحبه مصفور ، وضبط الصفار بضمة فوق الصاد . وتبعه صاحب أقرب الموارد فقال : الصفار - بالضم - صفرة تعلو اللون والبشرة ، وانظر لماذا لم تكن صفار بفتح أولها كأخواتها : سواد وبياض وخضار ، . وأقول : إن الوارد في اللسان هو الصفار على أنه دام يصفر منه اللون والبشرة ، ولما كان دام جاء على صيغة الأدواء « فُعَال » ، ولم يحج على صيغة اللون ، وانظر قوله : « وصاحبه مصفور » ، أي مصاب بداء الصفار ، وما عهد في وصف اللون مفعول ، وإنما الوصف من الاصفرار أصفر

كما هو معروف . والصفراداء في البطن ويقول فيه صاحب القاموس ، إنه الماء الأصفر يجتمع في البطن ، ويقول ابن القوطية في أفعاله : دُصِفِرَ صُفْراً . أصابه الصفار : داء في البطن ، فترى أن ليس حديث اللسان في صفار اللون كما فهم الأستاذ المغربي . وترى الأستاذ يثبت الخضار لونا للخضرة ، ولم أر هذا ، والخضار - كما في القاموس - : اللبن يُمدق بالماء ويُخلط . فالخضار والصفار لا سند لهما في العربية . و صفار البيض لا يقال ، وإنما هو صفرة البيض ، أو نُحَّ الببيض أو محته أو صفراؤه . ولا يقال : صفار الورق بالفتح ولا بالضم .

على حسن الخُلُق ، وَهُوَ محبوب

وفي كتاب د عثرات اللسان ، أيضا تخطئة العامة في تسكين هاء هو إذا دخل عليها واو العطف كما في هذا المثال ، وهو يقول : د (وهو) ضمير هو بضم الهاء ، فإذا أدخلت عليه واو العطف قلت : وهو ، أى بإبقاء الهاء مضمومة . لكننا نسمعهم يقولون : وهو ، بتسكين الهاء ، ألا يكون هذا خطأ من قولهم ا بلى ، ولكنّه في علم العروض جائز ، يريد أنه جائز في ضرورة الشعر لا في النثر والاختيار . وتسكين هاء هو بعد واو العطف جائز في الشعر والنثر ، وقرئ به في القراءات المتواترة ، ولهذا حرصت على التنبيه عليه في هذا الموطن خشية أن ينسكروا على بعض القراءات الصحيحة ، ويقول الرضى ^(١) في شرحه للكافية : د وتسكين هاء هو وهى بعد الواو والفاء ولام الابتداء جائز ، وفي تفسير ^(٢) النيسابورى على هامش الطبرى : د وهو وبابه يسكون الهاء أبو جعفر ونافع غير ورش وعلى وأبو عمرو ، . وفي تفسير الخطيب الشربيني عند قوله تعالى في سورة البقرة : وهو بكل شئ عليم : د وقرأ قالون وأبو عمرو والسكسائي : وهو يسكون الهاء ، والباقون بضمها ، .

لم يسافر محمد بعد ، ما قدم على بعد

يجرى على ألسنة الناس هذا الأسلوب . تقول : هل سافر فلان ؟ فيقول المسئول : لم يسافر بعد . والمفهوم من خوى هذا الأسلوب نفي الحدث في الماضي

وتوقعه في المستقبل ، فإذا قلت : لم يسافر بعد فكأنك قلت : لمّا يسافر . وقد وقع السؤال عما يضاف إليه بعد هنا ، ففي هذا المثال لم يسافر بعد ماذا ؟ وقد عي كثير بالجواب فلم يهتدوا إلى الوجه فيه ، وفي الحق أن الأمر فيه غامض غير بيّن . وقد توقف بعض الباحثين فيه ولم يحزم بأنه عربي ، فكان من الواجب تقديمه تجلية أمره من هذه الجهة . فهل أثر عن العرب منه شيء ، أم هو أسلوب مولد جاء به الناس بعد عصر الاحتجاج . وقد وقفت على هذا الأسلوب في خبر رواه ابن هشام في سيرته^(١) وهو : « أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بينما هو جالس في الناس إذ أقبل رجل من العرب داخلا المسجد يريد عمر ابن الخطاب . فلما نظر إليه عمر قال : إن هذا الرجل لعلي شركه ما فارقه بعد ، وقال^(٢) قيس بن ذريح :

وفي عروة العذرى إن مت أسوة وعمر بن عجلان الذي قتلت هند

وبى مثل ما ماتا به ، غير أننى إلى أجل لم يأتنى وقته بعد

وبعد اليقين بعربية هذا الأسلوب يتوجه البحث في تخريجه . ويبدو لي أن الأصل : لم يسافر بعد مداناة السفر وكَيْدِه ، أى بعد أن كاد يسافر ، وبعد هنا في معنى مع ، كما تقول : على عالم ، وهو بعد هذا رضى الخُلُق . وهكذا يقدر المضاف إليه في سائر الأمثلة على هذا النهج . ففي قول عمر : إن هذا الرجل لعلي شركه ما فارقه بعد أى بعد إضلال الإسلام له وغلبته ، ومقاربة إسلامه لقوة دلائل الإسلام وعظم سلطانه . وقول قيس : لم يأتنى وقته بعد أى بعد أن أشرفت عليه وكاد يدركنى من هول الحب وفرط العشق .

ويبدو لي وجه آخر وهو أن الأصل في قولك : لم يسافر على بعد جملتان : لم يسافر ، سيسافر بعد أى بعد زمن الحال إذ كان هذا يفيد نفي الماضى وتوقع المستقبل كما أسلفت ، واختزل الكلام وميل به إلى الإيجاز ، فحذف فعل الإنبات ، وأصبح الباقي أسلوبا مفهوم الغرض بين المراد .

(١) ص ١٣٩ ج ١ على هامش الروض .

(٢) من أمالى القالى ص ٢١٩ ج ٢ طبعة دار الكتب .

وقد عرض العلماء لاسلوبيين فيهما بعد لا يبدو فيهما ما في أسلوبنا من إشكال وهو أن يقال لك : أسافرت ؟ فتقول : أسافر بعد أى بعد ما مضى ، وإذا قلت : لا أسافر بعد فالمعنى بعد ما نحن فيه . فص عليه أبو البقاء في كليانه ^(١) ، وكان ذلك لأن المضارع في الأول للحال فهو بعد الماضي ، وفي الثاني للاستقبال فالبعدية فيه منسوبة للحال ، وذلك أن ^(٢) لا تخلص المضارع للاستقبال كما يراه سيبويه ومن تبعه ، وإن خالف في ذلك ابن مالك .

أعطيت لفلان كتابا - أعطيت الجائزة لفلان

يفشو هذا الاستعمال في ألسنة الناس ، ولا يحس كثير منهم فيه حرجا . وهو بعد مخالف للعربية ؛ فإن فعل الإعطاء يتعدى إلى مفعولين بنفسه ، والشواهد على هذا من الكثرة بحيث تستغنى عن الإيراد والإطالة . على أنه قد جاء في شعر الليلى الأخيلىة تمدح فيه الحجاج قولها :

أحجّاج لا تعط العصاة مناهم ولا الله يعطى للعصاة مناهم

ويجعل النحويون اللام في هذا البيت زائدة . ومثل ذلك زيادتها في قوله تعالى في سورة النحل : قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون ؛ فردف في معنى تبع يتعدى بنفسه إلى المفعول ، ولكن زيدت اللام لنا كيد وصول الفعل إلى المفعول ، كما زيدت الباء في قوله تعالى : ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة . ولا يرضى بعض العلماء القول بزيادة اللام في الآية ويميل إلى تضمين ردف معنى دنا أو أزف أو قرب . وقد جعل من زيادة اللام في المفعول قوله تعالى في سورة الحج : وإذا بوأنا لإبراهيم مكان البيت ، فإنما هو : بوأنا لإبراهيم مكان البيت أى أقنأه في هذا المكان وجعلناه له مباءة ومرجعا . وقد ورد تعدية بوأ إلى مفعوليه بنفسه في قوله تعالى : وإذا غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال ، وقوله تعالى : لنبوئهم من الجنة غرفا . ويرى بعضهم في آية الحج أن المفعول الأول محذوف أى بوأنا الناس مكان البيت واللام في لإبراهيم للتعليل ، وهذا رأى بعيد .

وزيادة اللام ترد باطراد وقياس عند جميع النحويين إذا كان العامل فعلا مؤخرا ، أو كان وصفا ، وذلك كقوله تعالى : إن كنتم للرؤيا تعبرون ، وقوله : هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ، وقوله تعالى : فعال لما يريد ، وقوله مصدقا لما معهم . ويرى ابن مالك تخصيص ذلك بالفعل المتعدى لواحد ، ولا يرضى ابن هشام هذا التخصيص . فأما إذا كان العامل فعلا مقدما كما في المثالين اللذين صدرت بهما البحث فجمهرة النحويين على منع الزيادة للام باطراد ، ويقصرون ذلك على السماع ، ومما يوردونه من ذلك قول ابن ميسادة في عبدالواحد بن سليمان أمير المدينة :

وملكت ما بين العراق ويثرب مُملكا أجار لمسلم ومعاهد
قالوا : التقدير أجار مسلما ومعاهدا . ولكننا نرى بعد هذا البيت قوله :
مالهما ودميهما من بعدما غشى الضعيف شعاع سيف المارد
ويبدو لي أن مفعول أجار هو دمالهما ودميهما ، فاللام في دلمسلم ، ليست بزائدة .

ويرى المبرّد أن لا بأس بزيادة اللام في قولك : قرأ محمد للكتاب تريد قرأ الكتاب . وإن أسوق هنا كلامه في كامله ^(١) ، قال : والذي يستعمل في صلة الفعل اللام ؛ لأنها لام الإضافة . تقول : لزيد ضربت ولعمرو أكرمت ، والمعنى : عمرا أكرمت ؛ فإنما تقديره : أكرمت لعمرو ، وضربني لزيد ، فأجرى الفعل بجرى المصدر . وأحسن ما يكون ذلك إذا تقدم المفعول ؛ لأن الفعل إنما يجيء وقد عملت اللام ؛ كما قال الله - جل وعز - : إن كنتم للرؤيا تعبرون . وإن أخر المفعول فعربي حسن ، والقرآن محيط بكل اللغات الفصيحة ؛ قال الله - جل وعز - وأمرت لأن أكون أول المسلمين . والنحويون يقولون في قوله - جل ثناؤه - قل عسى أن يكون ردف لكم ؛ إنما هو ردفكم . وقال كثير :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثّل لي ليلى بكل سبيل
فانظر قوله : د وإن أخر المفعول فعربي حسن ، فهو يجيز أن يقال :

أعطيت لمحمد كتابا ، وهو يرى أن الفعل يذهب به مذهب الحدث والمصدر ،
ولذلك ساغ بحىء اللام فى المفعول . وهذا التخرىج لا يعنينا فى هذا الوطن ،
ولنما يعنينا تصحيح الأسلوب .

نخرج لنا من هذا البحث أن قولنا : أعطيت لمحمد الكتاب يحظره جمهرة
التحويين ولا يجوزونه ، والمبرد يحيزه فى سعة الكلام .

ولا بأس باتباع المبرد فى هذا ، فهو إمام فيه للثوئسى أسوة ، وناهيك به
من نحوى ثقة بصير .

ومع هذا فيحسن بالكتاب ترك زيادة اللام فى فعل الإعطاء فهو المنهج
البين الذى لا لبس فيه ولا اختلاف .

ومما يذكر هنا أن المثال الثانى : أعطيت الجائزة لفلان ، فيه إنابة المفعول
انى عن الفاعل ، وهو جائز لفهم المراد كما قال ابن مالك :

وباتفاق قد ينوب الثانى من باب كسا فيما التباسه أمن
والله المسئول أن يوفق للسداد .

الوعد والمطل

قال سعيد بن مسلم : وعد أبى الشاعر بشارا أن يصله على قصيدة مدحه بها .
فاستعجل بشار الجائزة ولم ينتظر غير يوم وكتب إليه :

ما زال ما منيتنى من همى الوعد غم فاسترح من غمى
لأن لم ترد مدحى فراقب دعى

فقال له أبى : هلا استنجزت الحاجة بغير الوعد ، فإذا لم تفعل فتربص ثلاثا
وثلاثا . فأنى والله ما رضيت بالوعد حتى سمعت الأبرش المكابى يقول لهشام :
يا أمير المؤمنين لا تصنع إلى معروف حتى تعدنى ، فإنه لم يأتنى منك سبب على غير
وعد إلا هان على قدره وقل منى شكره .

مَكْتَبُ رَمْلِ الْأَخْلَاقِ

بين الفلسفة والأدب

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ أبو بكر ذكرى
الاستاذ بكلية أصول الدين

الفصل الثالث :

والآن وقد عرضنا تلك الفضيلة « فضيلة العدالة » عرضاً فلسفياً تاريخياً على قدر ما سمح لنا به الزمان والمكان ، نستعينه تعالى في معالجة الناحية العممية لهذه الفضيلة ؛ لأن معالجة النواحي النظرية والتاريخية المحضة لا تنقضي من الثرات كل ما يطمح إليه المصلح الأخلاقي .

وإن عناصر هذا البحث لتستدعي ، بدياً ، إيضاح الأسباب والعوامل النفسية ، والطبيعية ، والاجتماعية ، التي تنحرف بالافراد والجماعات عن سنن العدل ، وتحملهم على مركب الجور والبني ، وتلبسهم من رذيلة الظلم لبوساً ما كان أحراهم بأن يلبسوا بدلاً منه لبوس العفة والعدالة ، لتظهر إنسانيتهم في أبهى مجالها وأسمى معانيها . كما أنها تستدعي ، بعد ذلك متابعة البحث عن أفضل طرق العلاج الأخلاقي ، وعن أنجع الادوية والمطهرات النفسية التي يرجى منها برء النفوس الإنسانية من أدران تلك الرذيلة الخبيثة القاتلة .

ونعني هنا بالأسباب والعوامل النفسية تلك الظواهر الفطرية ، التي يدلنا البحث الدقيق على أنها بعض طبيعة الإنسان منذ سوى إنسانا ، ومن قبل أن تلجئه طبيعة البيئة أو عدوى المجتمع إلى مقارفة الظلم والعدوان ، كما نعني بالأسباب الطبيعية تلك الضرورات المادية التي يلجأ بسببها السكان الإنساني إلى

العدوان دفاعا عن النفس ، مضطرا إلى ظلم سواه في سبيل العيش أو قتل نفسه جوعا وحرمانا إذا كف عن ذلك العدوان . أما الأسباب والعوامل الاجتماعية فنغنى بها تلك النزوات التي تدفع الإنسان إلى العدوان ، متأثرا بروح الجماعة التي يعيش فيها ، ولأجل تحقيق مطامع لا تقتضيها ضرورة الحياة ، وإنما هي ضرب من الأثر والبطر والتجنى وحب الغلب والسيادة والظهور بمظاهر البطولة ، يقلد الصغير فيها الكبير ، ويتبع اللاحق فيها السابق .

وبالرجوع إلى مظاهر التطور الإنساني في التاريخ ؛ نجد أن النوع الأول وهو العوامل النفسية هو أقدم الأسباب والعوامل جميعا في الطبيعة الإنسانية ؛ بل لقد ذهبت بعض الديانات ، واشتط معها بعض الفلاسفة المتشائمين ، إلى أن العدوان والبغى هو الطبيعة الإنسانية كلها ؛ ولذا أوجبت البرهمية أن تكون نهاية هذا البدن المذنس أن يحرق بالنار بعد الموت تطهيرا له ، إذ لا سبيل إلى تطهيره مادام ينبض فيه بالحياة عرق . ويقول بعض الفلاسفة المتشائمين :

خسست يا أمنا الدنيا فأف لنا بنو الحسيسة أوباش أخساء
ويقول :

إذا بكر جنى فتوق عمرا فإن كليهما لآب وأم
أما الحكيم الشاعر المتنبي فيقول :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذاعفة فلعلة لا يظلم
ولعل هذه الحكمة ، على ما يتوثر فيها من ثورة نفسية ، لم تبعد عن الحقيقة كثيرا .

إن الظلم بلا مرأ ، هو بعض شيم النفس الإنسانية . وكما فيها من عجائب وغرائب ! كم فيها من خير وكما فيها من شر ، وإنما الموضع في حكمة المتنبي أنه يضع الظلم في الكفة الراجحة ، لأن أية فضيلة تقابله لن تستطيع الرجحان إلا ومعها علة تتيح في الطبيعة الإنسانية مغمزا . وعندي أنه مهما يكن في تلك الفضائل التي تقابل الظلم من مغامز ، ومهما تكن علمها تعد خيرا إذا ما قورنت برذيلة الظلم نفسها على بشاعتها وقبحها .

وهذه العوامل النفسية التي تمتد رذيلة الظلم في الطبيعة الإنسانية تنوع وتشكل ؛ فبعضها يرجع إلى الغرائز نفسها حين تتحرك في الإنسان ؛ كما تتحرك في الذئب والفرد والنمر ثم لا نجد بأزائها من الحصانة العقلية والحكمة ما يرد على ميولها السافلة ، ويكسر من شرتها ويلطف من حدتها . والنتيجة العملية لتلك الميول إما أن تكون على النفس أو على العرض أو على المال أو على السمعة التي يمتاز بها ذوو المواهب والفضائل ، أو على مواهبهم نفسها .

ولسنا نبالغ إذا ما قلنا إن جميع الناس ، خلا المعصومين منهم ، عرضة لمقارفة هذه الرذيلة ، خطأ نادراً في الاختيار ، وطبعاً وعادة في الأشرار .

وبهذه الدوافع النفسية كانت أول مأساة من الظلم إذ أزهق فيها قابيل نفس أخيه هابيل ؛ غيرة وحسداً دون ذنب أو جريرة تستأهل ذلك العدوان ، واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا ، فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، قال لاقتلك قال إنما يتقبل الله من المتقين ، لأن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لاقتلك إني أخاف الله رب العالمين . . . ، الآيات السكرية من سورة المائدة .

وقد يكون من تلك العوامل النفسية حالات مرضية طاغية ، يزيد بها غرور المنصب والسلطة هوساً إلى هوس . ومن ذلك ما يروى عن الظالم الشهير الامبراطور نيرون الحاكم الروماني في النصف الثاني من القرن الاول الميلادي : أنه أضرم النار في مدينة روما ثم جلس على مرتفع يطل منه على المدينة منتشياً بمنظر اللهب ، يدمر كل شيء تدميراً على حين كانت أنغام الموسيقى تصدح في مجلسه لتزيده جنونا على جنون . وسواء أصححت الرواية في هذا أم كانت مبالغاً في تهويل ظلم ذلك الطاغية ، فإنها صورة من صور الطغيان جذيرة بأن تضرب مثلاً لذلك النوع المرضى الجنوني من الظلم . على أنها مع ما فيها من بشاعة ليست أمراً مستحيلاً ولا مستبعداً . وقد أسلفنا في مقال قبل هذا ما كان من أمر فرعون موسى إذ قال : يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذب . . . ، وفي هذا ما يمكن أن يضرب مثلاً للهوس وجنون القوة .

أما عن أسباب هذا المرض النفسى نفسها فأمر يجدر بنا أن نترك التعمق فى تحليله لأساطين علم النفس . ومع ذلك فإن الملاحظة التاريخية تشعرنا بأن منها ما هو خلل فى الفطرة نفسها ، كما مر مثاله فى نيرون وفرعون . ومنها ما هو من قبيل « مركب النقص » الذى تبدو أعراضه على كثيرين من الذين يمتنون إلى بيئات وضيفة ثم يصلون من طريق الوصولية ، أو سواها ، إلى الرياسة والنفوذ . ولسنا نبالغ إذا قلنا : إن أكثر الصوالين بالظلم هم نبت هذه البيئات ، ولسنا نغنى هنا البيئات الفقيرة ، كما قد يظن ، فكم يذبت منها أحيانا من عظام وفضلاء حقيقيين ؛ إنما نغنى تلك البيئات المنحلة المسرفة التى لا تعرف قانوناً للحياة يلتزم ، ولا دستوراً للأدب يحتذى ، والتى تتردى دائماً بعيائتها فى مهاوى الهون . إن نبات هاتيك الأسر لن يكون ، فى غالب الأحيان إلا حسكا وزقوما وعويجا شائكا كذلك الذى يقول فيه الشاعر .

عذرنا النخل فى إبداء شوك يردبه الأنامل عن جناه
فما للعوسج الملعون أبدى لنا شوكا بلا ثمـر نراه

والحق أن الشوك والشوكة سلاح مشروع فى سبيل الدفاع عن العدالة والصالح العام ، أما شوكة الظالمين وأشواكهم فليست أكثر من أذى للإنسانية ليس وراده من ثمـر .

وإذ قد بان لنا أن الظلم فى صورته النفسية ، يرجع فى الأكثر إلى سببين : هما الخلل فى الفطرة ، وسوء المنبت الذى يظهر أثره فى صورة « مركب النقص » يحسن بنا أن نشير الى أن « مركب النقص » قد يكون مرده أحيانا إلى عيب خلقى « بكسر الخاء » كأن يشعر الحاكم الظالم أنه منقوص الحظر من هذه الناحية ، لأنه ضئيل نحيل أو ذو عاهة منفرة ، أو بشع الصورة أو ما إلى ذلك من أسباب يساعدها جهله أن هذه العيوب الجسدية غير جذيرة بأن يؤبه لها فيصور له خياله النقيم أن لا مفر له من تمويض هذا النقص ، باظهار التجبر والعسف ، لينال الاحترام قسرا بعد أن فاته طواعيته . ولو كان له من العلم ما يشعره ، أن فضيلة العدالة هى أسمى من كل جمال جسمانى فى هذه الدنيا ، لاختار لبوسها وتزين بها ، فكان من الموثقين .

وتدلنا التجارب على أن « الخلل في الفطرة ، دام عسير العلاج لانه الحماقة التي تعي من يداويها . أما « مركب النقص ، فلا علاج له إلا أن يتنبه الرؤساء إلى ملاحظة مرموسيتهم ، ويتتبعوا سلوكهم وسيرتهم في الناس ، ويرشدوهم إلى ما هو الاقوم من السلوك مع أبناء مجتمعتهم ، وأن يعلموهم بالقدوة في أنفسهم محاسبة الناس ، واحترام إنسانيتهم وأن الناس ليسوا خدمهم ولا عبيدهم ، وإنما هم مواطنوهم وسبب نعمتهم ، وأنهم بدون أبناء مجتمعتهم لن يكونوا شيئاً مذكوراً . ومن يرجع إلى تاريخ الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يتعلم من فضيلة العدالة ما يغنى عن دراسته أسفار كاملة . وحبذا العمل الفليب لو تنبه وعاظنا إلى هذا السبيل ، وشغلوا أنفسهم به ، ودلفوا إلى كل من ينحرف عن جادة العدالة من عمال الدولة ، وأخذوه بالنصائح المملطة ومدح التواضع ، وشرح مزية العدل وفوائده للحاكم والمحكوم على السواء ، وقديما أيام العصور المظلمة كان الوعاظ يتحايلون لوعظ الظالمين بوضع حكايات تعنيهم ، على السنة الحيوان ، لتقرع أسماعهم في لطف وتلج الى قلوبهم في رفق . فهل يعز على وعاظ زماننا ، وهو عصر النور ، والحرية ، والصراحة أن يشنوا حربا سلمية حكيمة على هذه الرذيلة الشنعاء ؛ ليغسلوا من أوضارها قلوب مرضاها ؟

أما الاسباب والعوامل الطبيعية ، والاجتماعية لرذيلة الظلم ، فنوعان يتداخلان ويتشابكان لأن قسوة البيئة وإجداها مؤثرات مادية تدفع بطبيعتها الإنسان إلى العدوان ، دفاعا عن الحياة ، كما شوهد ذلك في الجاهلية العربية ، وشعوب الجرمان قديما ، والجزائر البريطانية قبل أن تغزو وتفتح وتستخدم أساطيلها في السيطرة على الاقطار والامم المختلفة .

بدأت تلك الامم وأمثالها الحياة في بيئات فقيرة ، تدفع أبناءها إلى العدوان؛ فقتلوا وسلبوا ونهبوا حتى تعودوا القتل والسلب والنهب ، ولكن بعض هاتيك الامم تقدمت في مدارج الحضارة وال عمران خطوات ، بل مسافات شاسعة ، وأصبح مكانها مرموقا بالإعظام ، لما هي عليه من العلم والحضارة والنظام . بيد أن عوامل أخرى للظلم والعدوان ، قد نشأت بنشأة تطورها الاجتماعي وترقت معه كما ترقى . فأصبحت تلك الامم تنظم ذلك العدوان على الامم ، وتلبسه

اسماء مخترعة فقسّميه « ترقية الأمم المتأخرة » ، « حرية الأقليات » ، أو « مواقع استراتيجية » . إلى غير ذلك مما عرفه العالم ، حتى أصبح نغمته بمجوعة وحديثا معادا ، وما هو في الحقيقة إلا أن هذه الأمم مع ترقيا تعودت مستوى اجتماعيا من الحياة يقتضيها السيطرة على كل موارد العالم لو استطاعت إلى ذلك سبيلا .

ودعوى القوى كدهوى السباع من الظفر والنا بـرهانها

ولو ذهبنا نحصى تلك الدعاوى وتلك البراهين لدخلنا في طريق لا ينتهى . وحسبنا هنا أن ندعو تلك الأمم بدعوة الإنسانية لكي تنوب الى رشدّها وتؤثر العدالة ، وتبذل جهودها في مساعدة الأمم الأخرى حقّا وصدقا ، وإلا فإنها ستظل عادية معديا عليها ، قاتلة مقتولة ، لا تنتهى من حرب إلا لتدخل أخرى ، ولا تظفر بنصر إلا وقد اشترته بأعلى من ثمنه أضعافا مضاعفة . وعسى أن تفيق الإنسانية من سكرتها ، وتحل العدل محل العدوان ، فإن في ذلك أول دعامة من دعائم السلام والأمن والسعادة . وإن في تعاليم الإسلام السمحاء لدعوة حارة لهذه العدالة البيضاء . كما أن من دواعي الفخر بحمدّه تعالى أن موقف أمتنا المصرية من هذا المعترك العالمى يعد بحق من مفاخر الإنسانية .

وقفنا الله إلى درك الغاية الإنسانية الكبرى في ظل جلالة مولانا الملك العادل الفاروق الاول أعز الله نصره ، وخلد للعدل ملكه . هو حسبنا ونعم الوكيل .

من كلام على بن الحسين

قال على بن الإمام الحسين رضى الله عنهما : « المرء يفسد الصداقة القديمة ، ويحل العقدة الوثيقة ، وأقل ما فيه أن تكون المغالبة ، والمغالبة من أمتين أسباب القطيعة .

ومن دعائه رضى الله عنه :

اللهم ارزقنى خوف الوعيد ، وسرور رجاء الموعد ، حتى لا أرجو إلا ما رُجيت ، ولا أخاف إلا خوفا .

المؤمنون الصادقون

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد عبد التواب

مفتش الوعظ بالازهر

قال الله تعالى في محكم كتابه وهو أصدق القائلين : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » .

في هذه الآية الكريمة يصف رب المؤمنين عباده المؤمنين بأوصاف ثلاثة تحققت فيهم ، فأظهرتهم بقوة إيمانهم ، وصدق يقينهم ، وجملتهم بثمار تقواهم ، ونجح مسعاهم ، وقصرت عليهم أجد تكريم ، وأعز تأييد ، بأنهم وحدهم هم الصادقون عقيدة ، والصادقون استجابة ، والصادقون عملا .

وصفهم ربهم بأنهم آمنوا بالله ورسوله ، ووصفهم بأنهم لم يرتابوا ولم يجد الشك سبيلا إلى قلوبهم ، ووصفهم بأنهم جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله . فالإيمان بالله تصديق بوحدةانيته وقدرته ، ونفاذ إرادته ، واطمئنان لعدله وبالغ حكمته ، والإيمان بالرسول استجابة للأوامر والنواهي التي يبلغها من الله ، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، فإنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، .

فإذا تركز هذا الإيمان بالله ورسوله في القلب ، وشع بنوره في جوانب المؤمن ، قويت العقيدة ، وصدق اليقين ، واستبصرت النفس في إشراق هذا الهدى معالم السكينة والاطمئنان ، فلا يخالجهما شك ، ولا يساورها ارتياب .

وكيف يرتاب من اطمأن إلى حكمة مولاه فيما يقدره ، وإلى عدله فيما يقضيه ؟

وهو عز شأنه إنما يصرف الدنيا بما وسعه عليه وفاضت به رحمته ، وقام عليه نظام هذا الكون في عوالمه ومعامله .

فالشَّاكُّون من أحداث القدر شاكُّون في عدل المقدر ، والسَّاخِطون من حكم القضاء جاهلون بحكمة المدبر ، ولا والله ليس لله في تدبيره ولا تقديره إلا أن تكون معدلة يقيمها ، أو محسدة يزكيها ، وإلا أن يسكون فضل يسبغه ليجزى به فضلا ، أو قهر يسلطه ليحطم به ظلماً ، أو ما وراء ذلك من اختبار بألوان مما يتبلى به المؤمنون في شدة ، أو ضيق ، أو مرض ، أو نقص في الأموال والآنفس والثروات ، لتمحيص المؤمنين وتربيتهم ، وإعدادهم لما يريد لهم مولايم ، قال جل جلاله : ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين .

والمؤمنون بعد هذا الابتلاء والتمحيص ظافرون بالثبوتة والأجر ، ظافرون بتقدير نعمة الله ، ظافرون بقيامهم بحمیل الشكر ، لأن من قدر النعمة قام بواجب الشكر ، ظافرون قبل ذلك كله ، وبعد ذلك كله بأن جعلوا من إيمانهم وتصدقهم سياجا يحيط بأفئدتهم ، فلا يتفد إليها تظنن ولا ارتياب ، فهم راضون ، مطمئنون شاكرون .

ثم يأتي بعد ذلك وصف الله لهؤلاء المؤمنين ببذل للأنفس والمال في سبيل الله ، وتنطق الآية الكريمة في التعبير عن هذا البذل بأنه جهاد ، ولا عجب فإن أعز شيء يحافظ عليه المرء هو نفسه ، وأن أحب شيء ينافس من أجله في الحياة هو ماله . فبذلها في سبيل الله ، والجود بهما في طاعة الله جهاد ، وأى جهاد .

وجاء هذا الوصف بالبذل كنتيجة لقوة الإيمان بالله ورسوله ، وأطراح الريبة والتشكك وراء النفس المؤمنة المطمئنة . المحبة لله ورسوله .

وإذن : فالأنفس والمال بعد هذا اليقين ، وبعد هذا الحب ، لا يعدلان في شيء ما انطوى عليه قلب المؤمن من حب الله ورسوله ، فليبق في القلب حب

الله ورسوله ، وليهن في سبيله ما عز من نفس أو مال ، وفي ذلك وأيم الحق متعة القلب ، يتذوق فيها حلاوة الإيمان وجمال الأذعان .

ويقول في ذلك سيد هذه الأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاث من كن وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار ، .

ولقد تضمن وصف الجهاد بالنفس والمال في سبيل الله ألوانا من العبادات والطاعات في العمل بها والاستجابة لها ، عزة الدنيا وسعادة الآخرة ، فغزو العدو المحارب ليسلم الدين والوطن جهاد في سبيل الله .

وكبج جماع الهوى الآثم جهاد في سبيل الله ، والارتفاع بالنفس عن مظان التهمة جهاد في سبيل الله ، وتحمل المشاق في أداء العبادة جهاد في سبيل الله ، وبذل المال في الزكاة المفروضة أو الصدقة المبرورة جهاد في سبيل الله .

وكل عمل إيجابى ، أو سلبي ، يعتز به الدين ، وتسمو به النفس ، ويسعد به الوطن ، وتتوثق به روابط الأهل والعشيرة جهاد في سبيل الله .
فيأياها المجاهدون بالنفس والمال هنيئاً لكم ما قدمتم وما أخرتم ، وهنيئاً لكم ما أسررتم وما أعلنتم ، وهنيئاً لكم في الذروة الرفيعة من الشأن والتكريم ، وصف الله لكم بأنكم صادقون .

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون ، .

ولله درأبي العتاهية إذ يقول :

تمتع بمالك قبل الممات	وإلا فلا مال أن أنت متا
شقيت به ثم خلقتـه	لغيرك بُعداً وسحقاً ومقتا
فجادوا عليك بزور البكاء	وجدت عليهم بما قد ملكنا
وأرهنهم كل ما في يديك	وخلوك رهنا بما قد كسبنا

منهج الإسلام في تربية الأولاد

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغي

مدير المكتبة الأزهرية

أتمهى ثمرات الحياة الى الإنسان الأولاد ، يعرف ذلك من ذاق حلاوتهم ومن ابتلى منهم بالحرمان . وبشدة مرارة الحرمان يعرف قدر نعمة الله بهم على الإنسان ، وعلى الأولاد عمارة الأرض وهي مقصود خاق الله للأكوان . قال تعالى : « المسال والبنون زينة الحياة الدنيا ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « الولد ثمرة القلب ، ولما بشر عليؑ بفاطمة قال : « ريحانة أشمها ورزقها على الله ، وحب الولد من طبيعة الإنسان لهذا تمنى الولد جميع الناس حتى الأنبياء ، وقد تضرع إبراهيم إلى ربه أن يهبه الذرية فقال : « رب هب لي من الصالحين ؛ فبشرناه بغلام حلیم ، وتضرع زكريا عليه السلام فقال : « هب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا .

ولقد صور كثير من الأدباء والشعراء أحاسيسهم بحب الأولاد ، وهذه الصور على تنوعها وتلونها تصدر عن عاطفة واحدة وطبيعة واحدة ، هي طبيعة الحب الخالص والود الصادق . قال الأحنف لمعاوية : وقد غضب على ابنه يزيد فبهجه : يا أمير المؤمنين أولادنا ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ، ونحن لهم سماء ظليلة ، وأرض ذليلة ، وبهم نصول عند كل جليلة ، إن غضبوا فأرضهم ، وإن سألوك فأعطهم ، وإن لم يسألوك فابتدئهم بمنحوك ودهم ، ويحبوك دهرهم ، ولا تنظر إليهم شزرا ، ولا تكن عليهم ثقيلًا ؛ فيتمنئوا وفاتك ويكرهوا قربك ، ويملوا حياتك . وقال أبو تمام :

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض
لوهبت الريح على بعضهم لامتعت عيني عن الغمض

والولد ليس ملكاً لوالديه فقط ، بل هو ملك للأمة ، ويسعد والداه ، وتسعد الأمة بمقدار توفيقهم في حسن تربيته ، وإعداد له لرسالته في الحياة إعداداً جسمى وخلقياً ، وعقلياً ، وتربية الولد واجب مشترك ، بين الوالدين وبين الدولة ، في المنزل والمدرسة ، إلا أن الواجب الأول ، والعبء الأول ، يقع على كاهل الوالدين ، وعلى الوالدة بخاصة في حال الطفولة والصغر ، لأن تأثر الولد بوالديه في هذه الحالة يكون قوياً .

وقد قدر الإسلام خطورة هذا التأثير ، فنهى أن يتزوج المسلم المشركة ، خوفاً أن يفتن الأولاد في دينهم باتباعها ، وكذلك قدر علماء النفس والاجتماع فقالوا :

« إنه على ما يتلقاه الطفل في المنزل من الوالدين ، يتوقف إلى حد كبير ، تكوينه وإعداد له للحياة » . وقال الإمام الغزالي : « والصبي أمانة عند والديه ، وقلبه الظاهر جوهر نفيسة ساذجة ، خالية من كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما ينقش عليه ، وقابل إلى كل ما يمال به إليه ، فإن عود الخير عليه وعلمه ، ونشأ عليه ، وسعد في الدنيا والآخرة ، وشاركه في ثوابه أبواه ، وكل معلم له ومؤدب ، وإن عود الشر ، وأهمل إهمال البهائم ، شقى وهلك ، وكان الوزر في رقبة القيم عليه ، الوالى له ، وقد قال الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا قو أنفسكم وأهليكم نارا » .

وقد أرشد الإسلام إلى قواعد عامة لتربية الطفل جسمياً وعلمياً وخلقياً ؛ فأرشد إلى ما يقوى جسمه ، ويشد عوده ، بممارسة أنواع من الرياضة كالمسابقة والمصارعة ، والرماية ، والسباحة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم القدوة العملية في ذلك فعن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : مر النبي عليه السلام على نفر من أسلمة ينتضلون فقال : ارموا بنى اسماعيل فإن أباكم كان رامياً ارموا وأنا مع بنى فلان قال : فأمسك أحد الفريقين بأيديهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما لكم لا ترمون ؟ قالوا : كيف نرمي وأنت معهم ؟ قال النبي : ارموا فأنا معكم كلكم .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : بينا الحبشة يلعبون عند النبي صلى الله عليه وسلم بحراهم دخل عمر فأهوى إلى الحصى فحصبهم بها فقال : « دعهم يا عمر ، وصارع النبي صلى الله عليه وسلم ركاة فصرعه .

وعن عمر رضى الله عنه : علموا أولادكم السباحة ومروهم يثبوا على الخيل وثبا . ودعا الإسلام إلى تعليم الأولاد في تأكيد فقال : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، ولم يقصرهم على لون منه دون لون الا أنه يرى أن أولى العلوم بالتعليم هو العلم الدينى ، لأنه الوسيلة الى السعادة فى الدنيا والآخرة ، وبتعاليم الدين تستقر النفوس وتطئن القلوب ، وتسعى فى شئونها راضية لا يبطرها نجاح ولا يزلها فشل ، لأنها تكل مصائر الامور الى الله ، وجعل التعليم من حق الولد على والده وعن النبي صلى الله عليه وسلم : حق الولد على والده أن يحسن اسمه وأن يحسن موضعه ، أى يختار والدته من أصل طيب وأن يحسن أدبه ، وفرض الإسلام العلم على كل مسلم ومسلمة ، ولم يقصرهما على لون منه دون لون فلكل منهما أن يأخذ منه ما يلائمه ويعينه على رسالته ووظيفته ، فللمرأة أن تأخذ منه ما يعدها أن تكون زوجا صالحة تسر زوجها ، وتحسن القيام على شئون منزلها ، وأما صالحة تحسن تربية أطفالها ، وتوجهها الى حياة فاضلة سعيدة ، وللرجل أن يأخذ منه ما يعده للرسالة التى يختارها لنفسه ، ويعينه على تحصيل رزقه .

وأرشد الإسلام إلى قواعد عامة فى الفضائل وآداب الاجتماع هى أسمى ما تصل اليه الآداب فى أرقى المجتمعات ، تتمثل فى آيات القرآن الكريم وعمل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعمل أصحابه ، ودعا الآباء الى أن يأخذوا أبناءهم بها لينشئوهم جيلا صالحا يتحلى بالآداب والفضائل ؛ لتسعد بهم الأسرة وتسعد بهم الأمة ، وتكون كما أرادها الله خير أمة أخرجت للناس قال تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تقطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ، يابى إنها ان تك مثقال حبة من خردل فتسكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ،

إن الله لطيف خبير ، يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف ، وأنه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ، ولا تصغر خدك للناس ، ولا تمتش في الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير .

وقال تعالى : يا أيها الذين آمنوا ليسناؤكنم الذين ملكت أيمانكم ، والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضهم على بعض ، كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ، وإذا أبلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ، كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم .

في هذه الآية يرشد الله الآباء إلى أن يعودوا أطفالهم الاستئذان للدخول عليهم في أوقات ثلاث هي مظان الراحة ، وعدم التقيد بلباسه أو جلوسه ، ومظان أن ترفع الكلفة فيها بين الرجل وأهله ، حتى لا يطلع الطفل على ما لا ينبغي أن يطلع عليه في هذه الاوقات وهي : قبل صلاة الفجر ، وعند الراحة في الظهر ، ومن بعد صلاة العشاء ، وعن عمر بن سلمة أنه كان غلاما صغيرا في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت يده تطيش في الصفحة إذا أكل - أي تحرك في الطبق دون انتظام - فقال رسول الله : يا غلام سم الله وكل بيمينك ، وكل مما يليك . إلى آداب كثيرة استفاضت بها السنة وثبتت بالنقل الصحيح عن الصحابة .

وأرشد الإسلام الى التلطف بالابناء في التربية والتوجيه ، حتى لا ينفروا منها ولا يتبرموا بها ولتتغرس في نفوسهم في فيض من العطف الأبوي الخالص : وعن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه كان اذا رأى فاطمة رضى الله عنها مقبلة قام لها عن مجلسه وأخذ يدها فقبلها . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم ، وقد جاءه أعرابي فقال : أتقبلون الصبيان فما نقبلهم ؟ فقال له : « أو أم لك أن نزع الله من قلبك الرحمة . » .

وعن أم خالد بنت خالد بن سعيد رضى الله عنهما قالت : « أتيت رسول مع أبي ، وعلى قميص أخضر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . سنه سنه وهي

بالحبشية . حسنة قالت : فذهبت ألعب بخاتم النبوة فزجرني أبى . فقال رسول : دعها ثم قال : أبلى وأخاقي ثم أبلى وأخلقى .

ونذب الإسلام الى وجوب العدل بين الأولاد فى العطاء ، حتى ينشأوا متحابين متعاونين ، وانكر أنه يميز بين البنين والبنات ، حتى لا يحملهم التمايز على عقوق الآباء وجفوتهم ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم : أن ساووا بين أولادكم فى العطية فلو كنت مفضلاً أحداً لفضلت النساء ، وعنه أن الله تعالى يحب أن تعدلوا بين أولادكم حتى فى القبل .

وينبغى أن يأكل الوالد مع أولاده تأنيساً لهم وقياماً على توجيهم ورعايتهم وعن سفيان رضى الله عنه : بلغنا أن الله وملائكته يصلون على أهل بيت يأكلون جماعة .

بهذه التعاليم يدعو الإسلام الآباء أن يأخذوا أبناءهم ، ليسعدوا وتسعد بهم الأمة وهذه السعادة غاية ما يهدف إليه الإسلام .

أجر تسليمة

أرسل دُعبل من شعراء القرن الثالث لظاهر بن الحسين هذه الأبيات .

أيابذا اليميين والدعوتين	ومن عنده العرف والنائل
أترضى لمثلى فتى أن يقيم	بيابك مطرح خامل
رضيت من الود والعائدات	من كل ما أمل الآمل
بتسليمة بين خمس وست	إذا ضمك المجلس الحافل ؟
وما كنت أرضى بذا من سواك	أبرضى رجلاً عاقل
وإن ناب شغل فى دون ما	تدبره شغل شاغل
عليك السلام فإنى امرؤ	إذا ضاق بى بلد راحل

ولا ندرى بعد ذلك أسمح له بهذه التسليمة أم لا ؟

أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ إبراهيم أبو الحشب
المدرس بكلية الشريعة

لعل من الطريف الذي لا يُمَلِّ ذكروه ، والرائع الذي لا يعتريه السَّخَفُ ،
مهما تناولته الإعادة ، وأصابه التكرار ، الحديث عن بيت النبوة الميمون ،
وأهله السَّكرام البررة . وإذا كان الكلام فيما يتصل بالنبي صلى الله عليه وسلم ،
شفاء للقلوب من الصدأ ، وجلاء للقرائح من الجهالة ، وذهاباً لما في الصدور من
ضيق وحرَج ... فإن ذكرى من وصلتهم به الأسباب ، وربطتهم وإياه الوشائج ،
ترطب اللسنة ، وتير البصائر ، وتعمر القلوب ، وتذهب وساوس الشياطين .

وأول ما يخطر من هؤلاء في النفس ، وتحرك له أوتار الحس ، تلك التي
أعطاهما من قلبه من الفراغ ، ومن فكره من العناية ، ومن هواجسه من النزوع ،
ومن وجدانه من الحب ، ما جعله يخشى أن يحجور ، وهو الذي يدعو إلى
الصراط المستقيم ، أو يظلم وهو الذي يحارب الظلم والظغيان : اللهم هذا
قسمي فيما أملك ، فلا تؤاخذني فيما لا أملك وتملك .

والأخبار الواردة في حبه لعائشة رضي الله عنها من الاستفاضة والشهرة
بحيث لا يختلف فيها أحد ، وما كان من الحرج على فضل الله أن تنساب عاطفة
رجل لزوجته إلى هذا الحد ، أو تتمكن منزلتها من نفسه إلى درجة أن تشغل من
حديثه عنها ، وحنينه إليها هذا المقدار الملحوظ ، فلا يسعها إلا أن تستطيل على
ضرائرها ، وتثير في قلوبهن الغيرة منها ، والحققد عليها ، والقاق والاضطراب
الذي كان منه ما كان من تنغيص زلزلت له أقدام النبي صلى الله عليه وسلم ،
وغارت عزيمته ، وضعف احتماله ، وهم أن يطلق وهو الذي يُعلم الناس أن الطلاق
أبغض الحلال إلى الله سبحانه .

وهي مع ذلك أمثلة واضحة لناحية خفية من نواحي الإعجاز في تلك الشخصية النادرة : إذ استطاعت مع قيام المتاعب ، ووجود المضاعف ، أن تواجه صنوفاً من الآلام ، وألواناً من الأذى ، ثم لم يكن شيء من ذلك كله صارفاً عن الرسالة ، أو لاوياً عنائه عن السنن السوى ، وليعلم من لم يكن يعلم أن المرأة التي دل التاريخ وبرهنت الحوادث ، على أنها الثغرة التي يجوز منها الضعف ، ويتطرق الوهن ، ويهدم بناء الأبطال والعظماء ، لم يطمئن بها خاطره — هدايا الله بهديه — إلا بمقدار لا يساعده على الاستقرار ، أو يعينه على الراحة ، أو يثلج صدره بالهدوء ، والصورة الاستعراضية التي تمر بذهن المتأمل لحياته الزوجية كلها سلسلة متلاحقة الحلقات ، مترابطة الأوصال ، من هذا الطراز وتلك الشاكلة ، وكأنتها كانت تربية إلهية أراد له ربه بها أن ينصهر انصهار الجواهر الكريم ، ليصمد للخطوب حين تمتحنه ، وللحوادث إذا أرادت أن تسكده .

وهكذا كانت حياة الأنبياء والمرسلين ، على أن الذي يلفت النظر في حياة أم المؤمنين عائشة ، أنها مع ما وهبها الله من نصارة وغضارة ، وجمال وروعة ، وسحر وبهاء ، كانت تبادله صلى الله عليه وسلم حباً بحب ، وإخلاصاً بإخلاص ؛ بل كانت تذهب إلى أكثر من ذلك فترى أن ارتباطها به ، واجتماعها معه ، عناية من الله صادفتها ، ورضى أصابها ، ورحمة شاملة أضفى عليها ردامها ، فهي من ذلك كله في جنة تجري من تحتها الأنهار ، ولما نزل قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين أمتكئن وأسرحكن سراحاً جميلاً ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فإن الله أعد للحسنات منكن أجراً عظيماً ، كانت هي أول من خطر بباله ، خيرها فقالت : أختار الله ورسوله . وفي الحديث : « إن فضل عائشة على النساء ، كفضل الثريد على سائر أنواع الطعام ،

ولعله صلى الله عليه وسلم لم يعترف بهذا الفضل استجابة لعاطفة ، أو نزولاً على إرادة الحب الذي كان يحس به ، ولكنه كان بعد تلك الشهادة من رب الأرباب بطهارتها التي لا يتطرق إليها الشك : « لولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ، .

وقد امتازت رضى الله عنها على زوجاته كلهن بالفقه في الدين ، حتى كأنها كانت تتلقى من الوحي ، أو تراحم النبي على جبريل ، وكان في الصحابة مكثرون عرفوا بأنهم توفروا على الرواية ، وانقطعوا للتلقى ، كانت هي أكثرهم ضبطا ، وأبعدهم عن مواطن الظن والاشتباه ، ولذلك كان من الأئمة من يقدمها على قول المحدثين من الحفاظ والرواة .

ولست مبالغتها في الحذب على رسول الله والحب له ، راجعة إلى ما كان بين أبيها وبينه من مودة عريقة ووفاء صميم ، فإن عمر كذلك كان في هذا الحب لا يقل عن أبي بكر ، وله من المواقف والمشاهد ما حلى جيد الزمن ، واسترعى عين الدهر ، وكانت ابنته حفصة تساهم مع غيرها من الزوجات في الكيد ، حتى لقد ذهب أبوها إلى بيتها يعنفها على ما اقترفت ، ويلومها أشد اللوم جزاء ما أثمت .

على أن عائشة مع كل هذا لم تكن — وحدها — صاحبة الحسن الرائع ، فقد كانت زينب بنت جحش لا تقل عنها وسامة وحسنا . وجمالا وروعة . وكان غيرها يزاحمها في هذا الوصف ، ويشاركها في تلك الميزة ، فتحتم علينا بعد أن نفهم أنها رضى الله عنها لم تبادل بالحب حبا ، والوفاء بالوفاء ، إلا حين وجدت من صاحب الخلق العظيم ما حملها على أن ترد الجليل بمثله ، والمعروف بما يضاهيه ، وكذلك صنع الله سبحانه على عينه هذه الصورة للحياة الزوجية الصحيحة بين زوج طاهر ، وزوجة كريمة ، ليقول لخلقه من أبناء آدم ، وبنات حواء : « تلك الامثال نضربها للناس » .

عذر جميل

استبظاً الشاعر المشهور أبو تمام الطائي بمدوحه عبد الله بن مالك الخزاعي فكتب إليه أبياتا يستعجله بها ، فبعث إليه بألف درهم وكتب إليه :

أعجلتنا فأناك عاجل برنا فلا ولو أخرته لم يقلل

نخذ القليل وكن كمن لم يسأل ونكون نحن كأننا لم نفعل

نقول هذا من أبدع الاعتذرات وهو يدل كرم وسمو نفس ، وأبو تمام جدير بأن يعتذر إليه بمثل هذا لعلو كعبه في الشعر ، وبعد أثره فيه .

وَجْهٌ لِلدِّينِ وَالْجَاهِدِ

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أحمد جميلة
المدرس بكلية اللغة العربية

والجهاد مدافعة ومغالبة ، وانتصار للحق ، وتسكب عن الضلال والبهتان ،
وبعد عن الضعف والخور ، ومجافة للجبين والذلة ، وهو في الذروة من صرح
الإسلام ، وفي السويداء من قلب الإيمان ، وفي القمة من أعمال الأركان ،
والمجاهدون أعلى منازل في الجنة ، وأسمى منازل في الدنيا ، فهم الأعلون في الدنيا
والآخرة ، لا ينال درجاتهم إلا من سعى سعيهم ، وسلك سبيلهم ، جاهدوا في الله
حق جهاده بالقلب واللسان ، والدعوة والبيان ، والسيف والسنان .

والمجاهدون أرفع الناس ذكراً ، وأعظمهم قدراً ، فهم قوم قد شمروا عن
ساعد جدهم ، وأمسكوا بأعنة أفراسهم ، مستجيبين للدعوة مصدقين للوعد ، مؤثرين
للجنة على ما سواها من نفس ومال ، فتوجهوا للجهاد ، وحبسوا أنفسهم عليه غير
مبالين بما يصيبهم من نصب ، وما يحل بهم من عوج ، حتى يتم النصر ، وتحقق
لهم الحسنى .

وهل الإنسان في الدنيا إلا في منازعات دائمة ، وحروب قائمة ، تكتشفه من
كل مكان وتحيط به من كل جانب ، وتدخل إليه من كل باب لا تغيب إلا لتظهر ،
ولا تحتجب إلا لتسفر ، ولا تدبر إلا لتقبل .

فالحياة جهاد متصل الحلقات ، مختلف الألوان ، متعدد الصور ، ترى في
ميدانه نفسك التي بين جنيتك تنازعك وتحالفك ، أو شيطانك الملح في خصوصتك
يرجف بك ويسول لك ، أو حاجديك ومنكريك ، يردون دعوتك ، ويكفرون
حقك ، ويريدونك على الباطل ، ويحبونك نوالا يرفهون به وينعمون .

وهل هناك خلاص من الجهاد ، وفي الأرض حق وباطل ، وظلم وعدل ، وفضيلة ورذيلة ، وإيمان وكفر ، وتوحيد وشرك ، واستقلال واحتلال .

وليس في استطاعة الإنسان أن يتخلص من ظلم البعداء ، إلا إذا تخلص من ظلم ذوى القرابة والاتصال ، فنفسك الأمانة بالسوء ، التي تسكن بين جوانحك ، وتشملها ذاتك ، تحتاج لمباراة ومنازلة ، ومصارعة ومقاتلة ، حتى تطمئن وترجع إلى الحق راضية مرضية .

وقتل النفوس عنيف ، لأن النفوس عنيفة بما تزودت به من عُدَدٍ دونها الذريّات في بطشها وفتسكها ، وما الرغبة في استيفاء الحظوظ . وتعلق الإنسان باللذات والشهوات ، إلا مخالب تتزع النفوس من سلامة الفطر إلى عتامة الغير . والمجاهد من جاهد نفسه ، فحملها على امتثال الأمر ، واجتناب النهي ، حتى يسلس قيادها ويؤمن عدوانها ، فيتفرغ منها إلى أعدائه العديدين وخصومه الملحين .

وكيف يتمكن من خارج عنه وبداخله عدو شديد المراس ، قوى الحيلة ، قاهر متسلط ، فلا بد من التخلص منه بإخضاع النفس لأحكام الله ، وتخويفها عذابه ، والتعرض لخطئه ، وتحجيرها فيما عنده ، وترغيبها فيما أعده للمتقين .

وهل قولة الحق عند أصحاب السطوة ، وكنية الإنصاف أمام أهل البغي والعدوان ، إلا من أكمل طرق الجهاد وأشدّها ، فهو مقوّة للحظوظ العاجلة ، ومعرضة أصحابها لظلم ذوى السلطان ، وبأس ذوى الجبروت .

وإذا ما استقامت النفس بعد المجالدة ، وأخلصت الدين لله ، فاستمعت الأذان للدعوة ، وتفتحت القلوب للاستجابة ، وتهيأ للرسول أن تبادى وأن تسمع ، وأن تصدع بما تؤمر - أمكنها أن تدفع أعداء عكروا صفو الحياة ، ودنسوا صفاء الوجود ، وأفسدوا في الأرض ، وتطاولوا على من رفع السماء فأشركوا به ، وكفروا بنعمته ، وجعلوا له أنداداً ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون .

وجهاد الكفار صريح سافر ، لا لبس فيه ولا تضليل ، فهو خفيف المؤنة ، سهل المعالجة . أما جهاد المنافق فهو أشق وأعقد ، إذ المنافق يخفى شخصه وراء التواءاته ، ويستر أمره بما يرى أنه من الجميع ، وما هو من الجميع ، إن هو إلا مخادع كذاب ، لا يلبث أن يفضح أمره ، ويهتك ستره ، ويكشف سره بما يبذله خواص الأمة في ميسه ، وإظهار زيفه .

أما الشيطان فهو عدو ممن في عداوته ، كره الناس للناس وأحبهم لنفسه أعوانا وخلائنا . وماله بسجابة لا تمطره ، ورحمة لا تشمله ، وجنة لا تقبله ، فهو لا يزال بالإنسان يدور حول حلقته ، ويطوف حول محيطه يأتيه من بين يديه ومن خلفه ومن عن يمينه ، ومن عن شماله ، يثبته عن جهاد نفسه ، وجهاد أعدائه في الله ، ويرجف به ولا يزال يخيل له ما في جهادهما من المشاق ، وترك الحظوظ ، وفوت اللذات والمشتريات ، حتى يترك نفسه من غير زمام ، ويكون نهية لأعداء الله في الأرض ، وطعمة لعذاب الله في الآخرة .

فالشيطان يجب أن يحارب بخيل تصد خيله ، وعدد يرد عدده ، فهو عدو أمرنا بعداوته ، وناصر أمرنا باتهامه ومخالفته ، وليس هناك ما يرد كيده ويحبط عمله إلا التمسك بأوامر الحق والتعلق بأهداب الدين .

والجهاد في الله حق جهاده ، كتقوى الله حق تقاته ، وكما أن حق تقاته أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر ، فحق جهاده أن يجاهد نفسه فيذن قلبه ، ويصدق لسانه وجوارحه ، فيكون كله لله وبالله ، لا لنفسه ولا بنفسه .

ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده ، ومعصيته أمره ، ومخالفة نصحه ، فإنه بعد الفقر ويأمر بالفحشاء ، ويمتنع بالكذب ، وينهى عن التقي ، والهدى والصبر إلى غير ذلك من أخلاق الإيمان ، ومتى تم للمرء ذلك أمكنه أن يجاهد أعداء الله بقلبه ولسانه ، ويده وماله ، لتكون كلمة الله هي العليا .

وحق الجهاد هو استفراغ الطاقة فيه ، وألا يخاف في الله لومة لائم ، فيعبد الله حق عبادته ، ويجاهد نفسه وهواه ، واهداه في الله على قدر ما تحمل طبيعته ، ولا يحصل به جرح في الدين .

وجهاد النفس يحتاج إلى علم بالهدى وعمل بالعلم ، ودعوة إلى المعرفة ، وصبر على مشاق التحمل ، والتعرض حتى يصير العبد ربّانيا .

وجهاد الهوى يكون بجمود امرته ، ومخالفة دعوته ، وإنكار ألوهيته ، وجهاد الشيطان يكون بدفع شكوكه وشبهه ، ورد ما يلقي من إرادات وشهوات حتى يوجد الصبر واليقين ، وهما الدعامة في إمامة الدين .

وجهاد الكفار بالنفس والمال والعدد والعُدَد، والقوة والإقدام والإخلاص والصبر ، حتى يكون النصر ، أو يقع أجر الله .

وجهاد المنافقين بالكشف والبيان ، والبلاء والتمييز ، فلا تقبل عملاتهم ، ولا تسمع اعتذاراتهم .

وجهاد المبتدعين ، وأرباب المنكورات ، باليد واللسان ، فإن عجزا فالقلب والجنان ، وهو أضعف الإيمان .

والجهاد من شيم النفوس الحرة ، والقلوب المؤمنة التي تريد أن تعيش في ظل الفضيلة والحق في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة ، ولا يمكن لاية أمة ذات رأى في الإصلاح ، أو غرض في النفع والإفادة ، أن تنأى لحظة عن الجهاد وإلا كانت هدفا للأطماع وعرضة للضياع .

فالجهاد هو الحراسة القوية للبادئ الصحيحة ، والعقائد السليمة ، رغبنا الله فيه بشتى الأساليب ، ودعانا إليه بمختلف الطرق والوسائل ، حتى يصاب دستور العدل والفضيلة والأخلاق ، ويبقى للأمة طابعها وتقاليدها ، وعقيدتها ودينها ، وقد أجزل الله عطاء المجاهدين جزاء وفاقا ، لما بذلوه من نفس ونفيس مختارين طائعين ، فأبدلهم الله من الموت حياة ينعمون فيها بما يرزقون ، ويفرحون بها ويستبشرون ، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

الأدب والأديب

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد محمود المسلول
المدرس بكلية اللغة العربية

يدفعني دفعاً قوياً إلى الكتابة في موضوع « الأدب والأديب » وإطالة
الوقوف عنده ما أراه شائعاً في البيئات الأدبية من تناقض واضطراب ، ومن تيه
وضلال وما يسيطر على نفوس الشدة والمتعشقين للأدب من خطل الرأي ، وفساد
المذهب ، وظلام السبيل وعقم الدراسة .

فالذين يحبون الأدب أعرق الحب ، ويكلفون بصوره ومذاهبه أشد الكلف ،
ويحاولون أن يأخذوا أنفسهم بدراسته وتعمقه - هؤلاء يعيشون في حياتهم
الأدبية ، وفي أفكارهم وآرائهم تحت رحمة القدر - لا يجدون لهم قدوة يسرون
على هداه ، يأخذون أنفسهم بطريقته ، ولا يعززون على موجه يرشدهم
إلى الطريق اللاحب والنهج الواضح ؛ إذا ضلوا الصوى وأخطأوا السبيل .

قد يتاح لهم أن يدرسوا ، ويفهموا ويتجروا ويصيروا ما ييغون من هدف ،
وما يؤملون من مقصد ، وأن يبلغوا من الجاه والشهرة وذبوع الصيت مبلغاً
كريماً ، وقد تقوم أمامهم الصعاب وترسخ العقبات ؛ فتثني همهم وتنبط عزائمهم ،
وتصرفهم صرفاً عنيفاً عما يتطلعون إليه من مجد أدبي وجاه ثقافي ؛ ذلك لأن أولئك
وهؤلاء ليس لهم في حياتهم الأدبية ، ودراساتهم الفنية مناهج محدودة معلومة ،
ولا مذاهب واضحة مرسومة ، ولا سبيل معبد يجنبهم العقبات ، ويقهم مغبة
السقوط والعتار .

ليس هؤلاء كما قلت قدوة يحتذون حذوها ، ويسرون على هديها ونهجها ،
ولا يجدون في معترك الحياة ، وزحمة الأفكار بصيصاً من نور ، يضيء لهم الطريق
وينير أمامهم السبيل ، ويفتح المغاليق .

فكل فارس في حلبة الأدب ليس له من هم إلا أن يمضى في سبيله منظوياً على سره ، محتفظاً في أعماقه بما رآه موصلًا لغايته مسدداً لوجهته محققاً لأهدافه . وأنا أتحدى أدباءنا الكبار ، وأسائذة هذا الفن الذين يشار إليهم بالبنان ؛ أن يكونوا قد طالعوا الناشئين بنصح ، أو وجهوهم إلى هدف ، أو أخذوا بأيديهم إلى غاية ، وتلك فيما أرى خيانة للأدب ، وخذلان للفكر ، واحتكار رخيص للفن يوشك أن يودى به ويرديه في أعماق هوة .

ولقد أخذت على نفسى في دراسى الأدبية أن أكشف ما يترامى أمامى من نقص ، وما أبصره من عيب ، وأن أجلى للدارسين والمتأدبين ، ما أعتقد أنه نافع لدراستهم مسدد لوجهتهم ؛ حتى يتذوقوا جمال أدبنا ويستمرئوا حلاوته ، ويأخذوا صورته بالرغبة التى تحصن ببناءه وتجلو رواءه ، وتجعله فى نفوسهم عذب المورد سائغ المذاق .

ولكن قبل كل شئ ما هو الأدب الذى يعنينا ، ومن هو الاديب الذى نعنيه ؟ .

لقد أخذ الناس من قديم يبدئون ويعيدون فى تحديد معنى الأدب ، وتوضيح مدلول هذا اللفظ ، ورسم شخصية الاديب ، وبيان السمات والخصائص التى تفرض على الناس الإيمان به ، وتحتم عليهم أن ينجذبوا لبيانها ، ويتطامنوا لسلطانها ، ويعينوا لفنه . وأصبح من المؤلف لدى دارس الأدب فى كل مدرسة ومعهد ، أن يفتتح دراسته بتعريف الأدب ، ودرس تاريخ هذه الكلمة ، وكيف تطورت فى استعمالات شتى إلى أن أصبحت ذات دلالة خاصة على ما يؤثر من بارع القول ، ورائع البيان وبلغ الكلام .

بيد أننا فى هذه الكلمة لسنا بسبيل الإمام بتلك الاطوار ، والحديث عن هذه الألوان ، التى صارت أقرب شبهاً باصطلاحات العلماء ، وتعريفات المؤلفين ، إنما نريد أن نتحدث عن الأدب الذى يمس الحياة ، ويتصل بها أوثق اتصال ، ويلونها بما هى خليفة به من ألوان ، ويصور ما تحفل به من مظاهر الخير والشر والنعم ، والبؤس والسعادة والشقاء . نريد أن نتحدث عن الأدب كما ينبغى أن يعرفه الناس ، ويفهمه الأدباء والمثقفون ؛ حتى تنضح روعته وتلتهم بهجته التى لا يكدرها تعقيد المناهج وآصار القوانين .

إن الأدب فوق أنه فن نتعشقه ونهواه ونحبه، وتنشأه وتؤثره الطبائع الشفافة، وترتاح له النفوس الصافية — له غايات وأهداف يسير إليها ويعمل لها — أردنا أم لم نرد، طاعنا أم تأبينا — تلك هي تسجيل صور الحياة وإصلاح مظاهرها، وتخفيف أعبائها والاحتيايل على تهوين آلامها، ورسم غلائل براءة خادعة تلبسها المحن، وتتشح بها الأحداث الجاهدة، والمظاهر الشاقة العنيفة، لينخدع بها الحس، ويهون وقعها لدى النفس، وتحتمل صدماتها اللافدة. وذلك عمل الأديب الناضج الذى استوى فنه، واستحصدت مواهبه يقول المرحوم الرافعى: «فى عمل الأديب تخرج الحقيقة مضافا إليها الفن، ويجى التعبير مزيدا فيه الجمال، وتمثل الطبيعة الجامدة خارجة من نفس حية، ويظهر الكلام وفيه رقة حياة القلب، وحرارتها وشعورها ورنها الموسيقى، وتلبس الشهوات الإنسانية شكلها المذهب؛ لتكون بسبب من تقرير المثل الأعلى الذى هو السر فى ثورة الخالد من الإنسان على القانى، والذى هو الغاية الأخيرة من الأدب والفن معا؛ وبذا يهب لك الأدب تلك القوة الغامضة، التى تتسع بك حتى تشعر بالذات وأحداثها مارة من خلال نفسك، وتحس الأشياء كأنها انتقلت إلى ذاتك من ذواتها — وذلك سر الأديب العبقري؛ فإنه لا يرى الرأى بالاعتقاب^(١) والاجتهاد؛ كما يراه الناس وإنما يحس به فلا يقع له رأيه بالفكر بل يلهمه إلهاما. وليس يواتيه الإلهام إلا من كون الأشياء تمر فيه بمعانيها، تعبره كما تعبر السفن النهر فيحس أثرها؛ فيلهم ما يلهم، ويحسبه الناس نافذا بفكره من خلال الكون على حين أن حقائق الكون هى النافذة من خلاله.

إذن فالأدب هو فن الإبانة عما فى النفس من أحاسيس وانفعالات، وما يجيش فى الفؤاد من صور الكون ومظاهر الحياة، وما يمر على المرء من أحداث تهيج شجونه، وتثير لوعته أو توقظ إعجابه وتبعث نشوته.

وحين أقول فن الإبانة إنما أقصد قصدا كلية الفن بكل ما تحمله من معنى؛ حتى تقبل النفوس هذه الإبانة، وتتفتح لها بكل ما فيها من حس وشعور وعاطفة؛ إذ أن كل إنسان يستطيع أن يبين عن حاجته، ويعرب عن رغبته.

(١) إطالة النظر وكد الذهن.

فالأخرس لا تعوزه الإشارات ، ولا تستعصى عليه الحركات ، والعبي الحصر يستطيع بعد أن يكده لسانه بالتمتمة ، ويجهد الآذان في التسمع أن يصل إلى ما يريد ، ولكنها إبانة لا تنفصل لها النفس ولا يتأثر بها الحس ، ولا يهش لها الفؤاد ، وأنها لأقرب شها إلى إبانة الحيوان الأعجم عما يساوره من جوع ، أو يفتابه من عطش .

ومثل ذلك إبانة بعض الاناسى عن معان تنطوى عليها نفوسهم ، وتحاول أن تصوغها ألسنتهم ؛ فإذا هي لا تطاوعها إلا الألفاظ الخشنة المتعثرة ، والأساليب العاجزة الملتوية التي لم تستطع أن تجمع شمل المعاني ، ولا أن تنظم شتات الأفكار في سمط ،

أيمكن أن تؤثر هذه الإبانة في نفس ، أو تثير إعجابا أو تستدر عاطفة ؟ كلا . لقد يرى الإنسان طفلا ربما صاحبتة خفة الروح ، ولطف الشكل ، وجاذبية القسمات ، وحلاوة السمات ، ولكنه يتشع بثياب قدرة غير مهيبة ولا مرتبة ؛ فتعافه نفسه ويجفوه لأول وهلة ذوقه ؛ فإذا ما أخذ سمنا جميلا لا يجفوه الأناقة ، ووضعها مهنبا لا يذبو به الذوق يلقاه المرء لقاء مرحا تهش له النفس ، ويرتاح الفؤاد ؛ كذلك شأن البيان كلما ألبسه المرء حلة من الجمال قضى عليه حسن الرونق ، وخلابة البريق ، وكلما سوى من خلقه وأبدع في نظمته ، وصقل من حواشيه ، وهذب من أطرافه ، كان أدعى إلى القبول وأحرى بالاستجابة ، وأخلق بأن تفتح له منافذ النفس ، فتلقاه مؤنسة به مبهجة له أشد ابتهاج .

يقول الأستاذ أحمد أمين بك وهو يفرق بين العلم والادب : « أكبر ظاهرة في التفريق بين العلم والادب أن الادب يخاطب العاطفة ، والعلم يخاطب العقل ؛ فالكلام إذا لم يثر عاطفة لم يكن أدبا ، وإذا أمعن في إثارة العاطفة كان أمعن في الادب . »

من هذا ترى أن صور الادب البارعة . وأخيلته اللامعة ، وطرائفه الفريدة خليفة أن تصفى على النفس روحانية وصفواً ، جديرة أن تخلق فيها شق الاحساس ، وتثير له بها ألوانا من الانفعالات ، وتجملها تجيش بالمعاني وتحفل بالصور الحية البارعة .

صحابي ممن أدركهم أبو حنيفة

أنس بن مالك

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ منصور رجب
المدرس بكلية أصول الدين

يقول ابن خلكان : وأدرك أبو حنيفة أربعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . وهم :

(١) أنس بن مالك (٢) عبد الله بن أبي أوفى (٣) سهل بن سعد الساعدي (٤) أبو الطفيل عامر بن وائلة :

ولم يلق أحدا منهم ولا أخذ عنه ، وأصحابه يقولون : لقي جماعة من الصحابة وروى عنهم ولم يثبت عند أهل النقل ، وذكر الخطيب في تاريخ بغداد أنه رأى أنس بن مالك رضي الله عنه ،

وأنس بن مالك من الصحابة اثنان : أنس بن مالك أبو أمية ، وأنس بن مالك أبو حنيفة الأنصاري خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تعين المصادر التي رجعنا إليها « أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير » ، « والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني » ، « والاستيعاب لابن عبد البر القرطبي » ، سنة وفاة أبي أمية حتى نعرف هل يمكن أن يكون قد أدركه أو لا ؟ .

وابن الجوزي في كتابه « المدهش » يسمي من تأخر موته من الصحابة يقول : آخر من مات من أهل العقبة : جابر بن عبد الله بن عمر ، ومن أهل بدر : أبو اليسر ، ومن المهاجرين سعد بن أبي وقاص ، وهو آخر العشرة موتا ، وآخر من مات بمكة من الصحابة : ابن عمر ، وبالمدينة : سهل بن سعد بن معاذ ، وبالكوفة : عبد الله بن أبي أوفى ، وبالبصرة : أنس بن مالك ، وبمصر : عبد الله بن الحارث

ابن جزء ، وبالشام عبد الله بن يسر ، وبخراسان : بريدة ؛ وآخر الناظرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم موتا : أبو الطفيل عامر بن واثلة .

وإذا قلنا إنه توفي سنة تسعين — قيل إحدى وتسعين ، وقيل اثنتين وتسعين وقيل ثلاث وتسعين على ما رواه ابن الأثير في أسد الغابة وعرفنا أن أبا حنيفة ولد سنة ثمانين من هجرة سيد المرسلين يكون قد أدركه وهو ابن عشر سنين .

وروى الزهري عنه قال : قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وأنا ابن عشر سنين وتوفي وأنا ابن عشرين سنة ، ويحدثنا أيضاً عن نفسه يقول : أخذت أمي أم سليم بنت ملحان بن خالد الأنصارية الخزرجية بيدي ، فأتت بي رسول الله فقالت : يا رسول الله هذا ابني وهو غلام كاتب . قال : تقدمته تسع سنين فما قال لي شيء قط صنعته : أسأت أو بئس ما صنعت .

وأم سليم هذه روى عنها ابنها وروت عنه ، وكانت من عقلاء النساء . ومن اللاتي لهن أثر يذكر في تاريخ التشريع الإسلامي ، وفي الغزوات . فكانت تغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهي التي جعلت الإسلام صداقاً تمهر به الزوجة ، فلما توفي عنها مالك بن النضر والد أنس هذا تقدم إلى خطبتها أبو طلحة الأنصاري وكان مشركاً فقالت له : أما إني فيك لراغبة ، وما مثلك يرد ولكنك كافر ، وأنا امرأة مسلمة ، فإن تسلم فلك مهري ، ولا أسألك غيره ، فأسلم فقالت : يا أنس زوج طلحة فتزوجها .

وكان ابنها أنس غلاماً مذاباً أي له ذوابه فأراد أن يحجزها فنهته أمه وقالت : كان النبي يمدّها ويأخذ بها . وداعبه النبي فقال له : يا ذا الأذنين . وروى عن قتادة : يحدث عن أنس عن أمه أم سليم قالت : يا رسول أنس خادمك ادع الله له فقال : اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة . ويقول هو عن نفسه : قد رأيت اثنتين وأنا أرجو الثالثة . فقد كان له بستان يحمل الفاكهة في السنة مرتين ، وكان فيه ريحان يجيء منه ريح المسك ، وقصر بالطف ، ومات وله من ولده وولد ولده مائة وعشرون ولداً ؛ وقيل مائة . ويروى ابن الجوزي من العجائب أربعة أنفس رزق كل واحد منهم مائة ولد : أنس بن مالك ، وعبد الله بن عمر الليثي ، وخليفة السعدي ، وجعفر بن سليمان الهاشمي ، وكان يحب التجميل فقد كان نقش خاتمه صورة أسد رابض ، وكان يشد أسنانه بالذهب ، ويلبس الخز ويتعمم به .

وكان من أبطال الرياضة البدنية، حبيت إليه لعبة الرمي، فكان فيها أحد الرماة المصبيين، وكان يحبها إلى أولاد فتارة يرمون بين يديه، وتارة ينزل معهم في اللعب، فيغلبهم بكثرة إصابته. ولعبة الرمي هذه من الألعاب التي كان النبي يشجعها ويشترك فيها، فيروى البخاري أن رسول الله مر على نفر من بني أسلم ينتضلون - أي يترامون - بالقسي للسبق والنضال - فأقبل عليهم قائلاً: أرموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً، أرموا وأنا مع بني فلان، فأمسك الفريق الآخر عن الرمي فقال لهم مالكم لا ترمون؟ فقالوا: كيف نرمي وأنت معهم يا رسول الله؟ فقال أرموا أنا معكم كلكم.

وبهذه المناسبة أقول: إن رسول الله كان يحب الرياضة البدنية، ويشجع عليها فيروى البخاري أيضاً أنه كان يسابق بين الخيل بل بلغ من عنايته بهذا النوع من الرياضة أن وضع له نظاماً، فجعل له أمداً معلوماً. وأن تكون الخيل فيه متساوية الاحوال فأرسل الخيل المضمرة - أي المجموعة - أرسلها من الحفيا إلى ثنبيه الوداع على مسافة ستة أميال تقريباً، وأرسل التي لم تضر من ثنبيه الوداع إلى مسجد بني زريق وأمدها ميل أو نحوه.

وإذا كان يشقه في أنس بن مالك من الصحابة اثنان فيشتبه في اسم أنس وحده كثيرون. ومثل هذه الأسماء المشتبهة إذا لم يصرح في الحديث ببيانها لم يفرق بينها إلا الناقد الثبت، وفي الفرق بينها فائدة عظيمة، وهي أن بعض الرواة ثقة ومشبهه في الإسم يكون ضعيفاً فيطلب الفرق لذلك.

فمثلاً رويت أحاديث عن أنس ولم يبين الراوي في روايته من أنس هذا؟ من ذلك حديث رواه ابن الجوزي مثلاً في كتابه - المدهش - قال: روى أبو قلابة عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم: أن الله تعالى وضع عن المسافر شطر الصلاة وعن الحامل والمرضع الصيام، ثم قال أنس هذا هو ابن مالك القشيري - اختلف في نسبة أنس بن مالك أبو أمية هل هو قشيري أو كعب - وكنية أنس بن مالك خادم رسول الله أبو حمزة والنبي هو الذي كناه بقله يجتنبها - الحمزة الأسد وقله - وسمى على اسم عمه أنس بن النضر بن ضمضم وعمه هذا قتل يوم أحد شهيداً. يروى عن أنس قال: غاب عني عن قتال بدر فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين، ووالله لئن أشهدني

الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع ، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال : اللهم إني أعتذر إليك بما صنع هؤلاء يعنى المشركين ، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ . فقال : أى سعد هذه الجنة ورب أنس أجد ريحها دون أحد . قال سعد بن معاذ : فما استطعت ما صنع فقاتل . قال أنس : فوجدنا به بضعا وثمانين ما بين ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم . ووجدناه قد قتل ومثل به المشركون فما عرفته أخته الرُّبِيع إلا بيناته . وقال أنس : كنا نرى أو نظن أن هذه الآية — رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه — نزلت فيه وفي أشباهه من المؤمنين .

وإذا كان أنس قد سمي بإسم عمه فأخته الربيع قد سميت أيضاً على إسم عمتها . وهذه العمه هى التى كسرت ثنية جارية من الانصار ، فذهب قومها إلى رسول الله يطلبون القصاص ، فأمر النبي به فقام أخوها أنس بن النضر فقال : لا . والله لا تكسر ثنيتها يا رسول الله ، فقال النبي : كتاب الله القصاص ، فرضى القوم وقبلوا الارش . فقال النبي : إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره .

وأنس بن مالك هذا لما استخلف أبو بكر رضى الله عنه بعث إليه ليوجهه إلى البحرين على السعاية ، فدخل عليه عمر فاستشاره فقال عمر : ابعثه فإنه لبيب كاتب ، فبعثه ، وسئل أنس . أشهدت بدرأ مع رسول الله ؟ فقال للسائل : لا أم لك وأين غبت عن بدر ؟ ويقول العسقلاني فى الإصابة ولم يذكر فى البدرين لأنه لم يكن فى سن من يقاتل ، وكانت إقامته بعد النبي بالمدينة ثم شهد الفتوح ، ثم قطن البصرة ومات بها فى قصره بالطف وكان آخر الصحابة موتاً بالبصرة ودفن على بعد فرسخين منها ، ويروى أنه كان عنده عصبه لرسول الله فلما مات أمر أن تدفن معه فدفنت معه بين جنبيه وقيصه .

ذلك هو أنس بن مالك أبو حمزة الانصارى ، خادم رسول الله صلوات الله عليه مد الله فى عمره حتى أدركه أبو حنيفة النعمان رضى الله عنهما ، أرأيت صحبته لرسول الله وخدمته وامثاله لأمر أمه حتى تولى تزويجها هو لأبى طلحة بعد موت أبيه ؟ إنه مثل أعلى فى تفانيه لخدمة الحق كان مؤمناً مخلصاً ، وغنياً متجعلاً . وبطلاً رياضياً عظيماً . وبهذا السلوك الحكيم ساد المسلمون .

موازنات أدبية :

شاعران بيتاوان البخائرة

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسن جاد
المدرس بكلية اللغة العربية

أما الاول : فشاعر بدوى أكسبته بلاد الشام الجميلة التى تجلو مناظرها العين،
وتشحن الذهن ، وتفسح الخيال ، رقة فى اللفظ وإشراقا فى الديباجة ، وسموا فى
الخيال ، هو البحرى الشاعر الشرقى .

وأما الثانى : فصادح الاندلس وغريد أيكها الرطيب ، هو ابن زيدون
شاعر المغرب ، وبين الشعارين نسب يعرفه الادباء من قديم ، فقد قالوا : إن
ابن زيدون بحترى المغرب ، ولعلمهم يرجعون هذه الوشيجة إلى ما لوحظ من
اتفاقهما فى الصنعة الشعرية ، من حيث إشراق الديباجة ووضوح المعنى ،
فكلاهما رائع النظم ساحر الاداء ، وكلاهما شاعر فى قبل أن يكون حكيماً
أو فيلسوفاً ، أو غواصاً على المعانى ، فلفظهما كثير الماء والرواق ، تشيع فيه
الموسيقى والصنعة المستملحة ، ويتهيا له كل ما يمكن من وسائل فن الصوت ؛
ويتفق الشاعران كذلك فى كثرة الغزل وتخير أوزانه ، ووضوح فكرة الحب
بلا فلسفة أو تعمق ، كما يتفقان كذلك فى كثير من المعانى والصور الشعرية .

وإذا كان البحرى قد اتصل بأبى تمام وعرف منه المناهج الجديدة ، فإنه
لم يستطع أن يجاريه فيها لغرابتها على حسه وطبعه ، فوقف تأثره به عند الجوانب
الظاهرة التى لا يجللها غموض ، ولا يكتنفها تعقيد .

ومهما يكن من أمر هذه التسمية التى خلعتها الادباء على ابن زيدون ، وسواء
أكان سببها تأثره بالبحرئى وتقليده له ، أم تجاوب فنه مع فن البحرئى ، وتوافق

طبيعتيهما ، فليس يعيننا الآن أن نحقق ذلك أو نبين إلى أى مدى يمكن أن تصدق هذه التسمية ، وخلاصة القول فى ذلك أنها صادقة إلى حد ما ، وأن لكل من الشاعرين شخصيته وخصائصه وسماته بالرغم من هذا الشبه القوى .

إنما نريد أن نعرض صورتين من هذه الصور التى اشترك فيها الشاعران ، مميزين ملاحظهما ، موضحين وجوه الشبه بينهما ، موازنين بين كل منهما .

فالصورة الأولى تهتمة بالعيد تقدم بهما كل منهما إلى عمدوحه ، وصوّر فيها عزّ الملك ، وقوة الجيش ، وبسطة السلطان ، وجلال الملك فى مصلى العيد . قال البحرى :

فأنعم بيوم الفطر عينا إنه	يوم أغر من الزمان مشهّر
أظهرت عزّ الملك فيه بحفل	لجب يحاط الدين فيه ويُنصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت	عدداً يسير بها العديد إلا كثر
فالخيل تسهل والفوارس تدعى	والبيض تلمع والاسنة تزهر
والأرض خاشعة تميد بثقلها	والجو معتكر الجوانب أغبر
حتى طلعت بنور وجهك فأنجملت	تلك الدجى وانجاب ذاك العثير
وافتن فيك الناظرين فأصبح	يومى إليك بها وعين تنظر
حتى انتهيت إلى المصلى لأبسا	نور الهدى يبدو عليك ويظهر

وقال ابن زيدون :

وبشراك عيد بالسرور مظلل	وبالحظ فى نيل المنى متكنّف
تجرد فيه سيف دولتك الذى	دماء العدا دأباً بغريه تُظلف ^(١)
غدا بخميس يقسم الغيم أنه	لاحفل منها مكفهر وأكثف
هو الغيم من رزق الاسنة برقه	وللطيل رعد فى نواحيه يقصف
وعدنا إلى القصر الذى هو كعبة	يغاديه منا ناظر أو مطرّف ^(٢)
فإذ نحن طالعناه والافق لابس	عجاجته والأرض بالخيّل ترجف
رأيتك فى أعلى المصلى كأنما	تطلع من محراب داود يوسف

البيت الأول عند ابن زيدون أحفل بالتهنئة وأجمع لبشريات العيد ، ذلك العيد الذى يطالع الممدوح بالحظ الوافى والأمانى المرموقة ، وهو دون ذلك عند البحترى . وكذلك وصف الجيش تجد فيه عند ابن زيدون روعة لا تجدها عند البحترى ، روعة شعرية تهز قلبك وتزلزل جوانب نفسك ، حتى لتمسك جنديك حذارا وفرقا من عجاجة الأفق بغيم الجيش ، ورجفة الأرض بخيل الفرسان ، وخطف الأبصار ببرق الاسنة ، وصم الآذان برعد الطبول . وأين قول البحترى : « والأرض خاشعة تميد بثقلها . . . » من قول ابن زيدون « والأفق لا يس عجاجته والأرض بالخيال ترجف ، ؟ وأين قوله : « حتى انتهيت إلى المصلى . . . » من قول ابن زيدون :

رأيتك فى أعلى المصلى كأنما تطلع من محراب داود يوسف
إنها لروعة أخاذة ليس إلى وصفها من سبيل ؛ وهكذا يتفوق ابن زيدون فى هذه الصورة ويفوز على صاحبه .

أما الصورة الثانية فوقف من مواقف الهيبة ، هيبة الملوك ، ومشهد من مشاهد الجلال الذى يعتاق جنان الشعراء فى حضرتهم . قال البحترى :

ولما حضر ناسدة الأذن أتخرت	رجال عن الباب الذى أنا داخله
فأفضيت من قرب إلى ذى مهابة	أقابل بدر التم حين أقابله
وسلمت فاعتاقت جنائى هيبة	تنازعنى القول الذى أنا قائله
فلما تأملنا الطلاقة وانثنى	إلى ببشر آتستنى مخايله
دنوت فقبلت الندى فى يد امرئ	كريم يحياه سباط أنامله

وقال ابن زيدون :

ولما حضرنا الإذن والدهر خادم	تشير فيمضى والقضاء مصرف
وصلنا فقبلنا الندى منك فى يد	بها يتلف المال الجسم ويخلف

أى الشاعرين وفق فى تصوير الهيبة وبرع فى وصف الموقف ؟ أما أنا فأشهد للبحترى بالسبق ، واعترف له ببراعة التصوير ودقة الوصف . فى قوله : « ولما حضرنا سدة الأذن ، من الروعة الشعرية ما ليس فى قول ابن زيدون : « ولما

حضرنا الإذن ، وسر الجمال والروعة في كلمة « سدة » ، وفي قوله : « أخرجت رجال عن الباب الذى أنا داخله » ، لفظة ببحرية لازدحام باب الممدوح بالرجال ، ومحافظة الحجاب على النظام ، فلا يدخلون أحدا بغير إذن . وقوله : « فأفضيت من قرب . . . » ، أروع في تصوير الهيبة من قول ابن زيدون : « وصلنا ، فالبحتري في غمرة الجلال والهيبة يفضى إلى ذى المهابة ، ولا يدرى كيف وصل إليه . وابن زيدون يصور لك قوة الممدوح وعظمته ونفاذ أوامره ، وبسطة سلطانه ، حتى كأن الدهر خادم والقضاء يصرف ما يشير به ، وهو تصوير رائع . ولكن أروع منه هذا التصوير الذى صوره البحتري للهيبة ، فجعلنا نحسها ونستشعرها ونلمسها لمساً ، تلك هي الهيبة التى تعشق جنان شاعر كبير كالبحتري وتنازعه القول ، وتفحم لسانه ، وتنسيه ما يريد أن يقول ، فهو مأخوذ مبهور ، لا يزيد على السلام ثم ينعقد لسانه ، فلا يسعفه إلا طلاقة الممدوح وبشاشته ، وتهلل أساريره ونضارة جبينه ، وإشراق محياه . وحينئذ يدنو منه فيقبل الندى في يمينه ، يمين هذا الرجل الكريم المحيا ، السبط الأنامل .

أست ترى أن البحتري قد صور الهيبة بأروع صورها ، وجمع لها كل ما يمكن من عناصر الفن والجمال ، وجمها بكل ما يمكن من الألوان والظلال ؟ وأخيراً فالندى كل الندى في يد ممدوحه ، وليس هو بالندى الخاص الذى في يد ممدوح ابن زيدون ، فقوله « فقبلنا الندى فى يد امرئ » ، أبلغ وأروع من قول ابن زيدون « فقبلنا الندى منك فى يد » ، حيث يبينه بمن البيانية . وهكذا يسترد البحتري الجائزة من ابن زيدون ويفوز بها مضاعفة ، ويألفها من جائزة ترفع البحتري إلى ذروة الفن ، وتنتهى به إلى أمد الخصل ، فى هذا الوصف الرائع الجميل .

الرأى والظن

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : « إنك لا تنتفع بعقل الرجل حتى تنتفع بظنه » . وقد هرب عن هذا المعنى أوس بن حجر فقال :

الأمعى الذى يظن بك الظن كأن قدرأى وقد سمعا
وقال بلعام بن قيس .

وأبغى صواب الرأى أعلم أنه إذا طاش ظن المرء طاشت مقاديره

الشرط في لفقه الإسلامى

بالنسبة للالتزامات

لحضرة الاستاذ صالح بكير

الاستاذ بكلية أصول الدين

الشرط هو تعليق الالتزام على أمر محتمل الوقوع فى المستقبل ، وهو لا ينشئ الالتزام فوراً وإنما يؤخره إلى وقت تحقق الشرط ؛ فتن تحقق الشرط نشأ الالتزام ووجد أو سقط أو زال إن كان الالتزام قائماً معلقاً زواله على تحقق شرط . ومثل ذلك أن يقول شخص لآخر إن ثبت دينك على فلان فإنى كفيل به فإنه إذا ثبت الدين ثبت التزام الكفالة .

وكأن يقول شخص لآخر إن جاء فلان من الحج سالماً فقد أبرأتك بمالى عليك . فجاء فلان هذا من الحج سالماً ، فإن الدين يسقط . وإذن فالشرط نوعان توفيقى كما فى المثال الاول وفاسخ كما فى الثانى .

والشريعة الإسلامية لا تضيق حمايتها على جميع الشروط التى تلحق الالتزام فتنها ما تمنعه ومنها ما تجيزه ، ويترتب على المنع إمّا بطلان أو فساد الالتزام ، وإما اعتبار الشرط لاغياً وكأنه لم يكن ، وهذا يطابق ما فى القوانين الوضعية من عدم وجوب مخالفة الشرط للقانون أو الأخلاق الفاضلة أو النظام العام .

والمتنبع لأقوال الفقهاء يتبين له أنهم قد اختلفوا فى ضابط الشرط السائغة وغير السائغة . وفى ذلك ثلاثة مذاهب :

١ — المذهب الاول : يقرر أن كل شرط يخالف الشرع أو يزيد على مقتضى العقد أو الالتزام ولم يرد به أثر من الشرع فهو لا تقره الشريعة الإسلامية ، وهذا هو مذهب أكثر فقهاء الحنفية والشافعية والمالكية ؛ وذلك كما إذا اشترطت

المرأة في عقد زواجها بأن لا يتزوج الزوج عليها بأخرى ، فإن مثل هذا الشرط لا يقتضيه عقد الزواج ؛ بل هو زائد عليه وإذن فلا يكون له محل اعتبار . وهذا هو معنى المخالفة للنظام العام ؛ إذ من النظام العام في الإسلام عدم تحريم ومنع ما أحله الشرع .

٢ — المذهب الثاني : يقدر أن كل شرط لم يقم من الشرع دليل على النهي عنه ، أو على عدم اعتباره يكون ملزماً يجب الوفاء به ، وهذا المذهب يوافق أصول كثير من الحنابلة ، فأجازوا الشرط السابق في المثال السابق .

٣ — المذهب الثالث : لا يعتبر الشرط جائزاً إلا إذا ورد نص بإثباته ؛ وقام الدليل على وجوب الوفاء به وهذا مذهب الظاهرية .

ويتضح إذن من هذا أن مذهبي الحنابلة والظاهرية على طرفي تقيض ، إذ الأول قد أفسح المجال لجميع الشروط التي لم يرد نص شرعي بالنهي عنها ، أو التي لا تخالف القواعد الشرعية ، بينما أن الثاني لا يجيز الشرط مطلقاً إلا إذا ورد به نص شرعي .

ويتضح أيضاً أن مذهب جمهور فقهاء الحنفية والشافعية والمالكية وسط بين المذهبين السابقين ؛ فإنهم يقسمون الشروط مع مشروطاتها إلى ثلاثة أقسام .

١ — إن كان الشرط مكملًا لحكمة المشروط كاشتراط الإمساك بالمعروف ، أو التسريح بإحسان في النكاح ، فهذا الشرط صحيح شرعاً ؛ إذ أنه مكمل لحكمة النكاح وملائم لمقصوده .

٢ — وإن كان الشرط غير ملائم لمقصود العقد كاشتراط عدم الإنفاق في النكاح فهذا الشرط باطل لعدم ملائمته للعقد .

٣ — أن لا تظهر في الشرط منافاة أو عدم ملائمة وفي هذا تجب التفرقة بين العبادات والمعاملات لاعتبار الشرط صحيحاً أو باطلاً .

فما كان من العبادات لا يكتفي فيها بعدم المنافاة لاعتبار الشرط ، بل تجب أيضاً الملائمة ، وما كان من المعاملات أو العاديات فيكتفي فيها بعدم المنافاة لاعتبار الشرط .

وهذه أصول عامة وإن اختلف الاحناف والشافعية والمالكية في التفاصيل .
فيرى الاحناف تقسيم الشروط إلى صحيحة وباطلة وفاسدة . وهذا التقسيم
يستند إلى الأسس الآتية :

- (أ) كون الشرط موافقاً لمقتضى العقد .
- (ب) كونه مندرجاً تحت العمومات الشرعية .
- (ح) ورود نص به أو عدم وروده .
- (د) إقرار العرف أو عدم إقراره في حالة زيادته على مقتضى العقد .
- (هـ) تأثيره في العقد بتحقيق فائدة لأحد أو عدم ذلك .

وعلى هذا فالشرط الصحيح هو الذى يكون موافقاً لمقتضى العقد ، كتسليم
الثلث قبل تسليم المبيع ، أو يكون مؤكداً لمقتضاه كاشتراط تقديم كفيل معين
بالثلث المؤجل ، أو أن يكون قد ورد به نص من الشارع كاشتراطه خيار الشرط
لمدة معلومة ، فإن هذا الشرط غير موافق لمقتضى العقد ، وغير مؤكد لمقتضاه
أيضاً وإنما ورد به أثر من الشارع . وكذلك يعتبر الشرط إذا جرى به عرف
لكن بشرط عدم مخالفته لنص أو أثر شرعى .

الشرط الفاسد : هو ما كان غير موافق لمقتضى العقد ولا مؤكداً له ، ولم
يرد به أثر من الشارع ، ولا جرى به عرف وفيه منفعة لشخص ، فإن اقتران مثل
هذا الشرط بعقود المعاوضات يفسدها ، أو أنه يعتبر لاغياً ولا يبقى العقد صحيحاً .

الشرط الباطل : هو ما ليس موافقاً لمقتضى العقد ولا مؤكداً ، ولم يرد به
أثر ولم يجر به عرف ، وليس فيه نفع لأحد العاقلين ولا لغيرهما من هو من
أهل الانتفاع ، كمن يبيع سيارة بشرط أن لا يستعملها إلا في أحوال خاصة ،
فهذا الشرط باطل ، ولا يؤثر في العقد بطلان أو فساد ، فيلغو الشرط ويصح
العقد ، سواء أكان العقد عقد معاوضة أو كان غير معاوضة .

هذا تقسيم الاحناف ، وأما المالكية : فإنهم يرون أن كل شرط لا يتفق
مع ما يشترطونه لصحة العقد الذى اقترن به يكون مفسداً للعقد ؛ لأن العقد

لم يستوف حينئذ شروط صحته ، فلم تثبت حقيقته الشرعية ، كما أن كل شرط يؤدي إلى الغرر أو الجهالة يكون مفسداً للعقد إذا تمسك به صاحبه ، فإن لم يتمسك به لغى الشرط وصح العقد . وأما الشافعية : فيتلاقون في التقسيم مع الاحناف ، إذ الشرط الذى يقتضيه مطلق العقد يكون صحيحاً ، والذى لا يقتضيه العقد وفيه مصلحة للعقد نفسه ، كشرط الرهن بالثمن المؤجل فهو صحيح أيضاً ، يجب الوفاء به . وأما الشرط الذى ليس فيه مصلحة للعقد ويورث غرراً يؤدي إلى التنازع ، كشرط قرض مع بيع ، فمثل هذا الشرط يفسد العقد ، والشرط الذى ليس فيه نفع لأحد يعتبر شرطاً لاغياً والعقد يكون صحيحاً غير فاسد .

وأما مذهب الحنابلة : فهو أوسع المذاهب وأيسرها ، لأن أكثرهم يوجبون الوفاء بالشرط طالما لم يقيم دليل شرعى على عدم صحته .

آثار الشروط :

العقد المقترب بالشرط الصحيح لا ينشئ ولا ينتج آثاره إلا إذا تحقق الشرط ، لأن العقد المعلق لا ينعقد سبباً لأحكامه إلا بعد وجود الأمر الذى رُتبَ وجوده عليه ، فهو سبب أسمى لأحكامه وليس سبباً فعلياً ، لأن تأثيره في إثبات الأحكام لا يكون إلا بعد وجود الشرط المعلق عليه . وهذا هو مذهب المالكية والحنفية . وأما الشافعية فعندهم أن العقد ينعقد سبباً في الحال كالعقد المضاف .

ويلاحظ أن العقود من حيث تعليقها تنقسم إلى ثلاثة أقسام .

- ١ — عقود لا تقبل التعليق مطلقاً ، وهى العقود التى تفيد التملك سواء كانت عقود معاوضة أو عقود تبرع ، وبلا فرق بين تملك المنفعة أو تملك الرقبة .
- ٢ — عقود تقبل التعاق بالشرط الملائم كعقود الحوالة والكفالة ، والإطلاقات
- ٣ — عقود يصح تعليقها بكل شرط ملائم أو غير ملائم ، متعارف أو غير متعارف كعقود الوصية والإيصاء والوكالة .

هذه هى الأقسام الثلاثة لأنواع العقود من حيث تعليقها بالشرط ، ويتضح منها أن الفكرة العامة في الشرع والقانون ، هى أن الشرط لا يلحق العقد إلا إذا كان موافقاً للشرع أو القانون ، وأن العقد أو الإلزام لا ينشأ إلا من وقت تحقق الشرط .

الانغضب

حديث شريف

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ صادق خطاب
المدرس بكلية اللغة العربية

في الإنسان دوافع خير تصارعها نوازع شر، وعوامل صلاح تجاذبها بواعث فساد، فيه قوة تدفعه إلى الخير من طريق صعب المسلك، كثير المشاق جم العقبات ولكنه مأمون العاقبة، وفيه نزوة تغريه بالإثم وتزين له سوء من سبيل خلاب جذاب، خادع المنظر فتان المظهر، حافل بالمشتبهات والمغريات، ولكنه أليم في نهايته مهلك في آخرته — فإذا غلبت فيه دعوة الحق على صيحة الباطل، وعلت صولة الخير على نزوة الشر، وسطع في فؤاده نور الهداية فمحا ظلمة الفساد، فقد تهيأت له قوة الإيمان وصدق اليقين ومكارم الاخلاق وسباحة الدين، وإذا ضعفت مقاومته للشهوات ولانت ممانعته للآثام والمنكرات، وتمكنت من نفسه وساوس الشيطان، وأسباب الخسران، كان سبة لدينه وعارا لوطنه، وعضوا فاسدا في جسم الأمة التي يعيش فيها .

من أقبح العيوب وأبشع المنكرات التي تحكمت في نفوس الناس، وتمكنت من مجتمعاتهم، وكان لها أسوأ الأثر في حياتهم، وتشويه علائقهم وتمزيق روابطهم، وإشاعة فرقهم وتوهين كلمتهم، طغيان الغضب وتحكمه في أخلاق الإنسان ومعاملته، فليست هناك علاقة بين صديقين ولا مودة بين أخوين، ولا تعاون على عمل من الأعمال، ولا اشتراك في مظهر من المظاهر إلا وقد دخل فيه الغضب بأسوأ أوزاره وأقبح آثاره .

غريزة من الغرائز الطبيعية، ركبها الله في نفس الإنسان، ليصون بها عرضه ويحمي بها نفسه، ويحفظ حرمة ويدود عن حماه فتتكب بها طريقها، وحاد بها عن صراطها واستعملها في هوى النفس، وسخرها لطغيان العاطفة؛ لذلك عد الإسلام

بجاهدتها وامتلاك النفس عندها من أمارات البطولة ، وعلامات الشجاعة فقال الرسول الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم : « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » ، وكان الإمام الغزالي رحمه الله يقول : « إن الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين ، فمن استغزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال : « خلقتني من نار وخلقته من طين » فالغضب دائماً يخرج صاحبه عن حده ويبعده عن وقاره ، وينسيه إنسانيته ويقربه من الوحوش الكاسرة ، ويجعله يستحل كل حرمة ويستبيح كل سلاح . فهو حرب كل مودة ونذير الفرقة لكل صلة . يقول ابن عمر : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم مرني بعمل وأقلل ، لعل أعقله فقال : لا تغضب . وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماذا ينقذني من غضب الله قال : لا تغضب . ويشير الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن الغضب يدفع صاحبه إلى الهاوية ويرديه في الشقاء بقوله : « ما غضب أحد إلا أشقى على جهنم » ، وقال له رجل : يا رسول الله أى شيء أشد ؟ قال : غضب الله قال : فما يبعدني من غضب الله ؟ قال : لا تغضب . فهذه كلها آثار ناطقة ، ودلائل قاطعة وبراهين مجمعة على خطر الغضب وقبح شأنه وأنه يجر الإنسان إلى الهاوية ، ويدفعه دفعاً قوياً إلى الهلاك ، إذ يطغى على عقله ويظلم فكره ويذهب لينه ووداعته وبشاشته .

إن نظرة واحدة إلى ما يعانيه المجتمع من آفات ، وما يشيع في أجوائه من عيوب ، وما يكاد يقضى على بهجته ورونقه من أمراض خلقية تجعل الإنسان يؤمن من أعماقه أن أقصى هذه الآفات ، وأعتى تلك المنكرات الغضب . فنحن نغضب فلا نتذكر خالقاً ولا تعترف فضيلة ولا نقف عند حد ولا نخشى عاقبة . لأقل حادث وأهون سبب ننظر فإذا الغضب يهيج في النفوس ، وإذا الشر يلعب ، بالرموس وإذا الوقار قد خف ، والحلم قد ضاعت آثاره ، وإذا ما كان يتجلى به المرء من سكينه وادعة قد زال ولم يبق من مظاهره شيء .

نحب فنفرط في المحبة حتى نحيل السيئات كلها إلى حسنات ، وتوهم العورات ، فضائل وميزات ، فإذا غضبنا أصبحت المحاسن مخازي وفضائح ، وانقلب التسيحيات إلى لعنات ، ولم ندع أديماً إلا مزقناه ، ولا عرضاً إلا هتكناه ، ولا لحماً

بشريا الا أكلناه منتناً متعفنأ ؛ تلك ليست صفات المؤمنين . إنما هي سمات المنافقين إذ أن من علامات المنافق أنه إذا خاصم فجر ، ورسولنا الكريم يعلمنا آداب الاجتماع ، وشروط الصحبة بتوله : « أحب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما ، وابغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما ، أما الاستسلام لشيطان الغضب ، والاندفاع وراء النفس الامارة بالسوء فلا يكسب صاحبه إلا لعنة الله وغضب المجتمع ولقد صدق من قال : « إني والله مارأيت شيئا أذهب للدين ، ولا أقتص للبرمة ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة » .

هذه آداب الاسلام ، وسياسة رسول الإسلام ، لا نليس فيها إلا كل ما يبعث السعادة ويثير الانشراح والسرور ، ويذهب الاحقاد والاضغان من الصدور ، ويجعل الانسان يعيش في دنياه مريح النفس هادئ البال مطمئن الضمير . روى أبو هريرة : أن أبا بكر كان مع الرسول صلى الله عليه وسلم في مجلس ، فجاء رجل فوقع في أبي بكر وهو ساكت ، والرسول صلى الله عليه وسلم يبتسم ، ثم رد عليه أبو بكر بعض الذى قال ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم ثم قام من المجلس ، فاحقه أبو بكر فقال : يا رسول الله شتمنى وأنت تبتسم ، ثم رددت عليه بعض الذى قال فغضبت وقت . فقال صلى الله عليه وسلم : حين كنت ساكتا كان ملك يرد عليه ، فلما تكلمت وقع الشيطان ولم أكن لأجلس في مجلس فيه الشيطان . ثم قال : يا أبا بكر ثلاثة حق إنه ليس عبد يظلم بمظلمة فيعفو عنها إلا أعزه الله ونصره ، وليس عبد يفتح باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله قلة ، وليس عبد يفتح باب عطية أو صلة إلا زاده الله بها كثرة .

ليتنا نعتبر بهذا حين نخطئ فنخاصم ! . بل ليتنا عند الخصومة لا نفجر في مظاهرها ، ولا نعنف في أسبابها بل نتعفف عن ذكر الأهراس ونبتش المدفون من الاسرار ، والمجابهة بأشنع التهم وأبشع النعوت والتقاذف بما تفر منه الإنسانية ويمافه الدين ولا تقبله المروءة .

لو فكر العاقل في دنياه لايقن أنها أضيق من أن تحتل عداوة أو تتسع لخصومة ، ولقد قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بني اتخذ لك ألف صديق والآلف

قليل ، ولا تتخذ عدوا واحدا والواحد كثير . وقال سليمان عليه السلام : يا بني إياك وكثرة الغضب ! فإن كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحكيم . وقال بعض الحكماء : لا تغضب فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب ؛ فرُد الغضب بالكظم ، وسكنه بالتؤدة . وإياك والعجلة فإنك إذا عجلت أخطأت حظك ، وكن سهلا ليناً للتريب والبعيد ، ولا تكن جباراً عنيداً .

هذه لمحة من آثار الإسلام في معالجة غريزة الغضب ، فليحذر الناس أن يستسلموا لطغيانه أو يخضعوا لسلطانه ، وليحذروا مخالفة رب العالمين ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتته أو يصيبهم عذاب أليم .

من أخبار آل البيت

حج هشام بن عبد الملك الخليفة الاموى فلما أراد أن يستلم الحجر لم يستطع ، فبينما هو ينتظر ، إذ أقبل على بن الحسين فتنحى له الناس هيبة وإجلالا ، فقال رجل ممن كانوا مع هشام : من هذا ؟ فأجابه هشام ، لا أعرف ، وكان الفرزدق الشاعر المشهور حاضرا فقال قصيدة طويلة منها قوله :

هذا ابن خير عباد الله كلمهم	هذا التقى النقى الطاهر العلم
هذا الذى تعرف البطحاء وطأته	والبيت يعرفه والحل والحرم
إذا رآته قریش قال قائلها	إلى مكارم هذا ينتهى الكرم

ومنها يمدحه .

يغضى حياء ويغضى من مهايته
فما يكلم الا حين يتسم

ومنها :

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله
بجده أنبياء الله قد ختموا

وختمها بقوله :

وليس قولك من هذا بضائره
العرب تعرف من أنكرت والعجم

إبراهيم والتوحيد

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد المنعم خفاجي
المدرس بكلية اللغة العربية

١ — كان إبراهيم عليه السلام رجلاً ، وكان بطلاً ، وكان صديقاً نبياً ، وكان أمة وحده ، وكان مثلاً أعلى في قوة العقيدة ، وعظمة اليقين ، وجلال التضحية ، وطول الجهاد في سبيل الله والتوحيد والدين الحق ، دين الهدى والنور ، وشرعة السماء البارة بالارض وبالإسانية جميعها ؛ وليس هناك أروع من وصف الذكر الحكيم له : « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً ولم يك من المشركين ، شاكراً لأنعمه ، اجتباها وهداه إلى صراط مستقيم ، وآتيناه في الدنيا حسنة ، وإنه في الآخرة لمن الصالحين » ، ويؤكد الذكر الحكيم مكانته عند الله فيقول : « ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمتُ لبَّ العالمين ، » ، ويصفه الله جل جلاله في آية أخرى فيقول : « إنه من عبادنا المؤمنين ، وفي آية أخرى يقول الله عز وجل : « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » .

وهذا أعظم ما يصل إليه بشر ، ويتطلع إليه إنسان ، ويسمو إليه بإيمانه وأعماله مؤمنٌ كريم ، سلام على إبراهيم ، لقد وقف في ظلمات الحياة وضلال البشرية ، وانحرف الناس عن كلمة التوحيد والحق ، يعبدُ للارض صلتها بالسماء ، ويبعث في النفوس معاني السمو بالنفس والترفع عن عبادة الاوثان والتحرر من قيود الشرك والاهواء ، ويوقظ روح الإنسانية الوستى التي تاهت في مجاهل الحياة ويبداء الاهوام ، فنطق بكلمة الحق والناس غافلون ، ونادى بدعوة الخير وهم لاهون ، ورفع منارة التوحيد عالية بعد أن جاهد جهاد الابطال .

٢ — كان إبراهيم من سلالة الأنبياء المطهرين ، من ذرية آدم ونوح ، وكان يرث هذا النور الأبدي الخالد ، نور السماء الذى أشرق على الأرض أحياناً ثم انطفأ ؛ ونشأ تعلو وجهه سمات الشخصية الفذة والبطل المرجى والنبي المرتقب . وعاش فى الحياة ملكاً كريماً بأخلاقه وآدابه وشممه وإبائه وطموحه ، وحبه للخير وعمله له ما استطاع .

ولسكنه كان فى شقاء بعيد بقومه وبالناس جميعاً ، يتلفت فلا يرى إلا ضلالاً وشركاً وآثاماً ، وأهواء مجابة وأوثاناً معبودة ، وانحرافاتاً عما عندهوة الحق وتراث النبیین من قبل : آدم ونوح .

كان يحب أن يرى الإنسانية تسير بل تطير إلى غاياتها المنشودة فى الحياة الفاضلة الكريمة ، وفى ظلال العقيدة الكاملة المثلى : عقيدة التوحيد والإيمان بالله ؛ ولسكنه لم ير إلا الإثم والوثنية والشر والشرك ، وكلية الشيطان المستجابة المحبوبة من دون كلمة الله ، فشقى بحياة الناس وبأهوائهم وضلالاتهم ، وجنح هو إلى التفكير الطويل فى الدين والقوة العظيمة المسيرة للحياة ، وفى مصير الإنسانية وحاضرها الدليل ، ومستقبلها المرموق .

٣ — رأى والده دآزر ، عاكفاً هو وقومه على عبادة الأصنام فلامه وضلّله ، وإذا قال إبراهيم لآبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ، إني أراك وقومك فى ضلال مبين ، ، لأنه كان يؤمن إيماناً ثابتاً أن لا إله إلا الله ، وأنه لا يستحق العبادة من دونه شيء .

ولا عجب فقد رباه الله على العقيدة الصحيحة ، ونشأه على الإيمان الحق ، وغرس فى نفسه كلمة التوحيد المطلق ، وفطره الفطرة الكاملة ، التى فطر الله الناس عليها .

وكان إبراهيم يفكر تفكيراً طويلاً فى الدين بعقله ، وكان عقله دائماً يرشده إلى هذه الحقيقة الثابتة الخالدة ، حقيقة الإيمان بالله وحده ؛ بل كان يرجع من تفكيره أكثر إيماناً و يقيناً بالله .

رأى الكواكب فى السماء ، والقمر يملأ بنوره الفضى الجميل الكون فى الليل

البهم ، ورأى الشمس بازغة تمنح الحياة النور وكل مقومات الحياة ؛ فقال لعقله : ولم لا تكون هذه المظاهر الكونية العظيمة هي آلهة الكون وربة الحياة ؟ لكنه رأى الكواكب تغيب ، والقمر يأفل ، والشمس تحتجب عن العيون وقت الغروب ؛ ومن ثم أرشده عقله ، إلى أنها لا يصح أن تكون آلهة معبودة ؛ فنفق إبراهيم بهذه الكلمة الرائعة : « إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيئا وما أنا من المشركين » .

وآمن إبراهيم بنظرية إحياء الموتى إيمانا صادقا حقا ، ولكنه أراد أن يرى هذه الحقيقة بعيني رأسه ليطمئن قلبه ، فدعا ربه « ربى أرني كيف تحيي الموتى ، قال : أولم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي ، قال : خذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعييا واعلم أن الله عزيز حكيم ،

٤ - وبلغ إبراهيم مبلغ الرجولة الكاملة ، والإنسانية العظيمة المصطفاة ، فأرسله الله جل جلاله رسولا إلى قومه ليهديهم إلى الله وإلى الحق وإلى طريق مستقيم .

« قال لأبيه : يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا ، يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا ، ؛ ولكن والده لج في ضلاله واستمر على غوايته ، وقال لابنه إبراهيم « لئن لم تنته لأرجنك ، وأهجرني مليا ، .

ثم دعا قومه طويلا إلى الله وإلى الحق وإلى شريعة الأنبياء ، وكلمة السماء ، ولكنهم لجوا وضلوا وغووا وأصروا واستكبروا استكبارا .

قال لهم : « اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، إنما تعبدون من دون الله آوثانا وتخلقون إفكا ، ، وقال لهم . « إني براء بما تعبدون ، .

وجادلهم في أصنامهم طويلا حتى إذا يئس منها ومنهم ، قال لهم في حرارة العقيدة وعظمة النفس المؤمنة بالله : « أفرأيت ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ، الذي خلقني فهو يهدين ،

والذى هو يطعمنى ويسقئنى ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يمتنئى ثم يحين ،
والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين .

وأرشدهم إلى إلههم الحق وأنه رب السموات والارض الذى فطرهن .

حتى إذا يئس من أن يستجيب قومه لكلمة الحق ؛ ذهب إلى بيت الآلهة
الذى نصبت فيه هذه التماثيل والأوثان فحطمها وكسرها ، وجعلهم جذاذا
إلا كبيراً لهم لعلمهم إليه يرجعون .

وأصبح القوم ، وشاهدوا مصرع الآلهة ، فأيقنوا أن إبراهيم هو الذى
حطمها وفعل بها هذه الفعله النكراء ، ومن غير إبراهيم يجرؤ على الآلهة
هذا الاجتراء العظيم ؟ فاعتقلوه وحاكوه ، وقرروا أن يعدموه حرقاً بالنار ،
ولكن الله أوحى إلى النار أن لا تحرق هذا الجسم الطهور ، قلنا يا نار كونى
بردا وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الآخسرين .

نجاه الله شفرج من أرض قومه مهاجراً إلى الارض التى باركنا فيها للعالمين .

أقام بالشام يدعو الناس إلى الله ، ويهديهم إلى الحق والإيمان والعقيدة
المثلئ ، وطفق يبلغ الرسالة ويؤدى الأمانة فى قوة ويقين وجهاد فى سبيل الله .

ه — ووجهه الله إسحاق ، وذرية صالحة كريمة ، ثم منحه إسماعيل ، فسعى به
استجابة لداعى الله إلى الحجاز ، وأقام إسماعيل مع بعض القبائل العربية حول
مكة ، وتفجرت له عين كريمة من الماء هى عين زمزم ، وأخذ قلب إبراهيم الكبير
يرفرف بعطفه على ولده إسماعيل ؛ فابتهل الى الله أن يجعل موضع إسماعيل كعبة
للناس ، ربنا إنى أسكنت من ذرى بواذ غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا
ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات ؛
لعلمهم يشكرون .

وأخذ إبراهيم وإسماعيل يحددان بناء البيت الحرام ، ويطهرانه للطائفين
والعاكفين والركع السجود ، وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ، كما أخذ يؤذن في الناس بالحج إلى هذا المكان الطاهر الكريم « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .

٦ — واسماعيل وهو الابن البار ، والشاب المحبوب ، وفلذة كبد أبيه ، صم إبراهيم أن يضحى به وهو صغير استجابة لكلمة رآها في المنام .

قال له إبراهيم : « يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين » .

استجاب الابن والاب لداعي الله « فلما أسلما وتلأ للجبين ، وناديا أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا هو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم » .

أي عقيدة بلغت من القوة والسمو واليقين هذا المبلغ العظيم ، الذي بلغته العقيدة في نفس إبراهيم .

وهكذا عاش إبراهيم ما عاش مؤمنا قوى الإيمان ، مجاهدا في سبيل إيمانه بربه ، مشردا عن وطنه ، داعيا إلى التوحيد المطلق ودين الإنسانية الممهدة ، وكلمة السماء الهادية للأرض ومن فيها .

٧ — وبعد فلقد وسع قلب إبراهيم الكبير كل معاني الخير والرحمة ، والبر والحنان والإنسانية الكريمة ؛ كما وسع كلمة الحق والصدق والعقيدة والإيمان .

أشفق على أبيه أن تمسه النار ؛ فدعاه وحذره فأبى واستكبر فأخذ يدعو الله له أن ينقذه من عذاب الجحيم ، قال له : « سأستغفر لك ربى إنه كان بي حفيا » ، ولكنه حنان الآباء ووفائهم للآباء « لاستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء » ، ثم أخذ يضرع إلى ربه : « واغفر لابي إنه كان من الضالين » ، « رب اغفرلى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » ؛ ولكن الله لا يرحم مشركا « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم » .

ممن أسكن إبنه في الصحراء فأخذ يبتهل إلى الله أن يجعل مكان إقامته بلدا آمنا وأن يرزقه وأهله من الثرات .

وأشفق على قومه فنصحهم نصيح المشفق الأمين ، ثم أراد أن يعطمن على مستقبل الإنسانية ، وعلى أن كلبة الحق والدين ستبقى ، وأن شعلة الإيمان لن تنطفئ فدعا الله أن يجعل من ذريته أمة مسلمة ، وأن يبعث فيها رسولا منها يطهرها ويزكيها ويصلها بالله .

وبعد فدين إبراهيم دين الحنفية البيضاء وشريعته هي الشريعة المطهرة ، التي دعا إليها الأنبياء بعده ، ولقد عاش إبراهيم عظيما ، ومات كريما وترك ذرية طيبة تعبد الله في الأرض ، وكان من نسله الكثير من الأنبياء والمرسلين ، حتى لقب « بأبي الأنبياء » ، ولقد تلقى إبراهيم عن ربه كلمات الدين والتوحيد فأتمهن ، وبلغها للناس تامات ووفى بعهده ربه ، ونشر كلمة الإيمان في الآفاق ، وذهب راضيا مرضيا ، وتركنا عليه في الآخرين : سلام على إبراهيم ، كذلك نجزي المحسنين .

اتقاء الذم

روى عن الحسين بن علي رضي الله عنهما أن شاعرا مدحه فأجزل ثوابه ، فلامه بعض أصحابه على ذلك . فقال :

« أتراني خفت أن يقول : لست ابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ، ولا ابن علي بن أبي طالب ؟ ولكنني خفت أن يقول : لست كرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا كعلي رضي الله عنه ، فيصدق ويحمل عنه ، ويبقى مخلدا في الكتب ، محفوظا على السنة الرواة » .

فقال الشاعر : أنت والله يا ابن رسول الله أعلم بالمدح والذم مني .

وقد أثر عن أخيه الحسن مثل ذلك فقد روى أنه أعطى مالا كثيرا ، فقيل له : أعطى شاعرا يعصى الرحمن ويقول الهتان ؟ فقال : أن خير ما بذلت من مالك ما وقيت به عرضك ، وإن من ابتغاء الخير اتقاء الشر .

الصَّوْمُ تَأْدِيبٌ وَتَهْذِيبٌ

لفضيلة الاستاذ الشيخ عبد المنعم هلى أبو سعيد

النفس الإنسانية كثيرة المطالب ، متنوعة الحاجات والرغائب ، لا ينتهى طمعها ، ولا يفتر جشعها ، ولا تقف عند حد أهواؤها ونوازعها : إذا منعت من شئ غضبت وسخطت ، وأرغت وأزبدت ، وإذا أعطيت طمعت واستقلت ، بل بطرت وأنكرت نعمة الله ، وإحسان الخالق وحاجة المخلوق !

لذلك كان تشريع العبادات ، وفرض التكاليف الإلهية لتهدئتها وترقيق مشاعرها ، وإرهاف حمسها ، وتوجيهها إلى الحق ، ولقنها إلى ما يجب لها من قناعة وإسماح ، وما ينبغى من سكينة ورضى ، وحسن إيمان ، وتذكيرها أن الله جل شأنه هو الذى يعطى ويمنع ، ويهب ويسلب ، ويثيب ويعاقب ، عطاؤه لمرء ، ومنعه لحكمة ، ولا يدرك ذلك ، ولا يرضى به إلا المؤمنون الصادقون .

فكل ما شرعه المولى من عبادات ، ودعا إليه من تكاليف وطاعات ؛ إنما يرمى إلى تربية الفضائل فى النفس ، وتنمية روح الاجتماع فى الإنسان ، وإعدادة إعدادا صحيحا لمواجهة الحياة الكريمة الفاضلة ، وإن فى الإسلام لآدابا وفضائل نحن أحوج الى تدبرها ، والاتقاع بما فيها من سمو العبرة ، وجلال العظة !

والصيام عبادة من أجل العبادات ، وطاعة من أروع الطاعات ، شرعها المولى جل شأنه لغرس الرحمة فى القلوب ، وتطهير النفس من الشرور وتعويدها على الرضى بتصاريف القدر ، والصبر حين يفاجئها المنع ويستبد بها الحرمان . فهو

فضيلة من أعظم الفضائل ، ومدرسة حازمة لتربية الإرادة القوية ، والعزيمة النافذة ، والطاعة الحكيمة ، وهو كذلك جُنة من الشهوات ووقاية من ملابسة الخطيئات ، وحسن يحتسى به المؤمن إذا ساوره الهوى ، ونازعتة غواية الشيطان .

يقول الله جل شأنه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ، كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِمَعَكُمْ نَتَقُونَ ، فَعَايَةَ الصِّيَامِ غَرَسَ التَّقْوَى فِي الْقُلُوبِ ، وَبَعَثَ الْخُشْيَةَ فِي النُّفُوسِ ، وَتَذَكِيرَهَا بِمَا يَحْسِبُهُ الْفَقِيرُ مِنْ أَلَمِ الْحَاجَةِ وَذِلِّ الْحَرَمَانِ ، وَمَرَارَةِ الْجُوعِ وَقَسْوَتِهِ ، وَإِرَاحَتِهَا مِنْ بَعْضِ أَطْعَامِهَا ، وَاشْتِجَارِ أَهْوَائِهَا . وَنَحْنُ نَقْضِي أَحَدَ عَشَرَ شَهْرًا مِنَ الْعَامِ بَيْنَ لَهْوٍ وَلَعِبٍ ، وَأَكْلِ وَشَرَبٍ ، نَأْكُلُ مِنْ غَيْرِ نِظَامٍ وَلَا مِيعَادٍ ، وَلَا نَقِيدُ بِصَبَاحٍ أَوْ مَسَاءٍ ، ثُمَّ نَسْتَقْبِلُ شَهْرَ رَمَضَانَ ، نَسْتَقْبِلُ شَهْرًا نَعُودُ فِيهِ حَكْمُ هَذِهِ النَّفْسِ الَّتِي أَسْرَفَتْ وَجَازَفَتْ ، وَالَّتِي أَكَلَتْ حَتَّى مَلَّتْ وَتَعَبَتْ ، وَشَبَعَتْ حَتَّى أَنْخَمَتْ ؛ وَبِذَلِكَ يَكُونُ الصِّيَامُ وَسِيلَةً إِلَى حَكْمِ النَّفْسِ وَإِخْضَاعِهَا ، وَسَبِيلًا إِلَى زَجْرِهَا وَتَخْوِيفِهَا ، وَالنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَةِ لِقَسْوَتِهَا وَتَمْرِدِهَا لَا يُخَفِّفُهَا شَيْءٌ ، وَلَا يُرْهِبُهَا سِلَاحٌ بِقَدَرِ مَا يُخَفِّفُهَا الْجُوعُ ، وَيرْهِبُهَا الْحَرَمَانُ ! نَسْتَطِيعُ أَنْ نَصْبِرَ عَلَى كُلِّ حَادِثٍ ، وَنَحْمِلَ كُلَّ أَلَمٍ إِلَّا أَلَمَ الْجُوعِ وَذَلِكَ وَشَدَتِهِ ؛ لِذَلِكَ كَانَ هَذَا السِّلَاحُ مِنْ أَسْلِحَةِ إِرْهَابِهَا وَتَخْوِيفِهَا ، وَتَوْجِيهِهَا إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ، يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ بِجَرَى الدَّمِ فَضَيِّقُوا بِجَارِيهِ بِالْجُوعِ ، » .

لوفهم الناس الصيام على حقيقته ، وأرادوه على طبيعته ؛ لكان حرب كل مفسدة ، وعدو كل شر وطغيان ، ومدعاة إلى التراحم والتعاطف ؛ لكن الناس ألقوه على غير وضعه ، وتعودوه على غير طبعه ، وفهموه جوعاً تمل منه النفس ، وعطشاً يتأذى منه الإنسان دون حكمه ولا غاية .

انقلبت العبادة فيه إلى عادة يواجهها الإنسان بما يخفف وطأتها ، ويسهل شدتها ، ويمين عليها من مأكل ومشرب ، وهل هناك أسوأ أثراً ، وأقبح خطراً ،

وأشأم عاقبة من أن تنقلب العبادة العظيمة إلى عادة ، تتبدد عندها المشاعر ، وتستغلق دونها الحواس ، ويتمايلها الناس بتألم واستكراه ؟ .

إن العبادة إن لم يكن لها أثر فعال في تهذيب مشاعر الإنسان ، وإدخال الرحمة على قلبه ، وتذكيره بخالقه ، وإثارة دوافع الخير ، وحوافز المعروف في نفسه ، فلا فائدة منها ولا أثر لإتعاب الإنسان بها ، ولذا كان صلى الله عليه وسلم يقول : « كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش ! ، لقد فهم الناس الصوم لونا من الحرمان يضجر الإنسان منه ، ويصطنع الحيل للتغلب عليه ، وليس غريبا على هؤلاء الغافلين أن يستعينوا على الصيام ، وقضاء رمضان بأكل يرهق المعدة ، وطعام يثقل البطن ، ونوم يستغرق اليوم كله ؛ فالأعمال فيه معطلة ، والحياة جامدة راكدة والوجوه عابسة قائمة ، لا تلوها بشاشة ، ولا يداعبها سرور ، والنفقات قد بلغت من السرف والتزيد حداً لا تتحملة طاقة ، ولا تنهض به قدرة !

أ تلك هي الحكمة من تشريع الصيام ؟ جنون في الإنفاق ، وإهدار للزمن ، وقعود عن السعي واستنامة عن العمل ، واستعانة على قتل الوقت بالنوم المستغرق العميق ؟

تعالت حكمة الله عن ذلك هلواً كبيراً ! لقد فرض علينا الجوع والحرمان ؛ لنعرف كم من النفوس الإنسانية الحساسة تكابد هذا المنع ، وتقاسى ذلك الحرمان ، وما دام هذا الجوع في سبيل الله ، وما دام ذلك الإجهاد والتعب في سبيل التهذيب الخلقى ، والكمال الإنسانى ، فكل مشقة فيه محبة ، والتعب راحة ولذة ، وقرب من الله ، والسكريه المرذول سائغ ومقبول ، ومن هنا كان صلى الله عليه وسلم يقول : « تحلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » .

ظن كثير من الناس أن الصوم إمساك عن الشراب والطعام ، وليس إمساكا عن الفواحش والآثام ، فتركوا ألسنتهم — وهم صائمون — تجول في أهراض الناس ، وتخوض في العورات وتفشر السوءات ، وتخترع من مساوىء

الناس مادة للحديث ، وأداة للهو والتسلية ، يفظمون أنفسهم عن الأكل والشرب ، ويغذونها بأسوأ ما يتناول به إنسان من الفضائح والعيوب .

وما جدوى الصيام إذا لم تهذب به اللسان ، وتنظف به النفوس ، وتعود من الأدب الكريم ، والخلق القويم والطبع المستقيم ؟

وما فائدة الحرمان إذا لم تكن من ورائه عفة القول ، وسماحة الكلام ولين الحديث .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقول : « من لم يدع قول الزور ، والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » .

فهل يتدبر هذا أولئك الذين جعلوا الصيام إثارة للأعصاب ، وتهيجاً للشور ، وإضعافاً لقوة التحمل ، وأكلًا للحوم الناس ، وولوغاً في أعراضهم ، لا يكاد الإنسان يتحدث إلى أحدهم حتى تنور ثائرته ، وتشتعل حفيظته ، ويشتد غضبه وصخبه ، ويقذف لسانه بفحش القول وهجر الكلام ! ...

ويقول الناس : معذور إنه صائم .. ! كلا والله ما هو بصائم ، ولو كان صائماً لكان مهذب الخلق ، رقيق العاطفة ، حلو اللسان ، يملك نفسه ، ويمسك على أعصابه ، ويذكر دائماً أنه صائم وأنه قائم في عبادة ربه ، فلا يليق به أن يفحش ، ولا يجمل به أن يسلم نفسه للشيطان ، ويلطخها بالآثام والعصيان .

يقول صلى الله عليه وسلم : « الصيام جنة فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقللني صائماً » ،

إن الصيام رحمة فيجب أن فتراحم ، والصيام محبة فيجب أن تتحاب ، والصيام رفع لدرجة الإنسانية إلى مرتبة الملائكة ، فيجب أن تكون فوق الحيوانية ، وفوق الغرائز الجشعة ، والشهوات الثائرة .

قيل للأحنف بن قيس : إنك شيخ كبير ، وإن الصيام يضعفك . فقال : « إني أعده لسفر طويل ، والصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذابه » .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته » .

مقارنة وتحليل

مَنْ طَرَفَ الْفَارِزِ الْحَكِيمُ

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الغنى عوض الراجحي

تستطيع أن تلاحظ معي بسهولة ان قصة موسى على طولها وكثرة دورانها في القرآن الكريم، تلخص في أربع مراحل هي كل حياة هذا الرسول القوي الأمين .

المرحلة الاولى : وتبدأ بميلاده وتنتهى بفراره من الملائ حين اتعمروا به إلى بلاد الشام .

المرحلة الثانية : وتبدأ بوروده ماء مدين ونزوله على شعيب ، وتنتهى بعودته بأهله إلى مصر رسولا إلى فرعون .

المرحلة الثالثة : وتبدأ برسالته إلى فرعون وصراعه معه ، وتنتهى بفراره من فرعون وجنوده إلى بلاد الشام .

المرحلة الرابعة : وتبدأ بنزوله وقومه بلاد الشام وتنتهى بانتهاء حياته .

كانت كل مرحلة من هذه المراحل غاصة بالحوادث الجسام ، ولقد أخذ القرآن على عادته في قص القصص ، يذكر المرحلة الواحدة والمعنى الواحد في أكثر من موضع بأساليب تختلف إيجازا وإطنابا وتقديما وتأخيرا ، وإبدال لفظ بآخر ونحو ذلك .

لنعد الآن إلى المرحلة الاولى ، ولننقب عما عسى أن يكون فيها من المعاني الواحدة التي حكيت في موضع بأسلوب وفي موضع آخر بأسلوب آخر ، ولنحاول الكشف عن سر ذلك تفصيلا ، ملتزمين المأخذ الذي أخذناه على أنفسنا في سالف هذه المباحث .

هذه المرحلة الاولى بما في طيها من حوادث ميلاده وألفائه في اليم .

والتقاط آل فرعون له ، وردّه إلى أمه ، ثم قتله القبطى وفراره بنفسه إلى الشام لم تذكر إلا فى موضعين فى سورة طه من الآية ٢٨ إلى الآية ٤٠ وفى سورة القصص من الآية ٧ إلى الآية ٢٢ .

والقدر الذى يتفق ويفترق ^(١) فى آيات هذه المرحلة ، ويمكن عقد المفارقات فيه قليل بحيث لا تزيد المفارقات على أربع ، يجرنا البحث فى اثنتين منها إلى التعرض لآيات وإن لم تكن من قصة موسى إلا أنها تشابه معها وتدخل فى نطاق بحثنا .

المفارقة الاولى : سورة طه : إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقدفيه فى التابوت سورة القصص : وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه ، فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين .

الذى قاله الله لام موسى بشأن تهريبه من فرعون حيث يتتبع المواليده ، يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم كان شيئاً واحداً ، فكيف اختلفت حكايته فى سورة طه أنه قال لها : فاقدفيه فى اليم وفى سورة القصص أنه قال لها : فألقيه فى اليم ؟ والجواب عن ذلك أن المآل واحد فى الإلقاء والقذف ، وإذا كانت الحكاية للمعنى لا للألفاظ ضرورة أنها كانت بغير العربية ، وهذا لسان عربى مبين ، وكان هذا التخالف بين اللفظين تفسيراً بُنى على أحسن المناسبات ، ورعاية المقتضيات ، كان ذلك الصنيع أولى أن يعترض بعدمه من أن يعترض بوجوده ، فالإلقاء والقذف وإن كانا فى نهاية المعنى شيئاً واحداً ، إلا أن الاول فيه معنى الوضع والخط والثانى فيه معنى الرمى والنبد والطرح ، فى الاول من العناية واللطف والإحكام ما ليس فى الثانى ^(٢) وعلى ذلك فقد وقع الاول جواباً لقوله تعالى فإذا خفت عليه ؛ لأن ما يخاف عليه ، ويشفق يوضع بإحكام ولا يرمى به ، ولما لم يذكر الخوف فى الموضع الثانى لم يكن بأس من التعبير بالقذف .

وباعتبار آخر . حيث ذكر الخوف عليه فى سورة القصص من إدراك فرعون له ، وكان هذا الخوف مدعاة تعجل فى رميه فى اليم دون عناية وإحكام

(١) يتفق معنى ويفترق الفاظاً أو يتفق فى بعض الألفاظ ويفترق فى البعض الآخر .

(٢) فى مفردات الراغب القذف الرمى البعيد ، وفى المصباح ألقى المتاع على العادة وضعت .

أشير إلى وجوب تحاشي ذلك ، بوقوع الجواب من مادة الإلقاء ، دون القذف وحيث لم يذكر الخوف عليه في سورة طه ، وقع التعبير بالقذف ، سيما وقد كان بجوار القذف ما هو أدخل في باب نجاته ، وإحكام وضعه ، وهو التابوت حيث قيل : « فاقذفه في التابوت فاقذفه في اليم » .

فإن قيل ولم ذكر الخوف معلقا عليه في موضع دون آخر ؟ ، قلت أيّاماً كان الأمر من تعدد الوحي إليها في المحسكى أو عدم تعدده ، فإن التعليق بما فيه من الخوف قد ذكر في سورة القصص ، دون سورة طه ، لما أن الأولى قصد فيها قصداً أولياً إلى اقتصاص هذه المعاني وتفصيلها ، على حين أن الثانية ذكرت فيها هذه المعاني على سبيل الاعتراض بها تذكيراً لموسى بنعمة قديمة عليه ، حين سأل ربه « هرون أخى أشدد به أزرى ، وأشركه في أمرى » ، فأجابه الرب « أوتيت سؤلك يا موسى ، ولقد منّا عليك مرة أخرى ؛ إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفه في التابوت فاقذفه في اليم » (١) .

وعلى أن الوحي إلى أم موسى قد تعدد — كما اختاره وأميل إليه — بأن كان الأول معلقاً صدر لها قبل ميلاده أو بعد ميلاده ، وقبل إحداق الخطر به ، وكان الثاني ناجزاً عند إحداق الخطر به ، فقد ظهرت حكمة أخرى للتعبير بالإلقاء في الأول ، والقذف في الثاني من حيث أن القذف أدل من الإلقاء على الإسراع مخافة إدراك العدو له حين هجومه . ألا يرى إلى حروف الفاء المتتابعة المشعرة بهذا المعنى « اقذفه في التابوت فاقذفه في اليم فليلقه اليم بالساحل » ، وإلى الإصرار على التعبير بالقذف مرتين متجاورتين . اقذفه في التابوت فاقذفه في اليم ؟ .

« المفارقة الثانية » ، سورة طه « إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن » ، سورة القصص « فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق » .

المفارقة ذات وجهين . الوجه الأول : حكاية قول أخت موسى في سورة طه

بطريقة « هل أدلكم هلى من يكفله ، وفى القصص بطريقة « هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ، فاسم الموصول فى العبارة الاولى وهو « من ، يقابله فى العبارة الثانية المضافان « أهل بيت ، و « يكفله ، فى العبارة الاولى ذات ضمير واحد يقابلها فى العبارة الثانية « يكفلونه لكم ، هكذا بثلاثة ضمائر ، وقد كان من الجائز أن يكون كل منهما مكان الآخر جملة وتفصيلا ، والجواب بعد ما هو مفروغ منه من التفنن وحكاية المعانى لا الالفاظ ، أن المقام فى سورة القصص مقام بسط واقتصاص معمود إليه مفتتح بقوله تعالى « نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، .. الآيات : أما المقام فى سورة طه فمقام إيجاز واعتراض بهذه المرحلة من قصة موسى على ما سبق بيانه ، ألا يرى إلى زيادة قوله « وهم له ناصحون ، فى المقام الاول دون الثانى ؟ .

« الوجه الثانى ، قوله تعالى فى سورة طه « فرجعناك إلى أمك ، وفى سورة القصص « فرددناه إلى أمه ، ؟ أما ضمير الخطاب فى الاول ، والغيبة فى الثانى فلأنه مقتضى المقام فى كل .. أما وقوع التعبير عن معنى واحد بلفظين مختلفين ، حيث قيل فى الاول « رجعنا ، وفى الثانى « رددنا ، فأحسبه بعد ما فيه من تلوين وتنويع ، قد وقع الرد حيث هو واقع ، لأنه سبق فى الموضع نفسه باللفظ نفسه ، حيث قيل قبله بقبيل فى وعد الله لام موسى « إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ، فكانت حكاية نفاذ الوعد من لفظ حكاية الوعد ذاته ، فإن قيل ولم كان هذا السابق فى الوعد بلفظ الرد ؟

قلت : إنه من تمكين المعنى بحس اللفظ وهيئته ^(١) فلا شك أن رجوع موسى إلى أمه ، إنما كان بحيلة تحريم الله المراضع عليه ، الأمر الذى اقتضى رده إلى أمه وهم لا يشعرون ، والحيلة بالنسبة للعباد ، فيها تعمل وتكلف يشبه ويناسب الثقل ، والتعمل فى الإدغام الواقع فى قوله تعالى : « إنا رادوه إليك ، هذا مع ما بينه وبين قرينه فى قوله تعالى : « وجاعلوه ، من المشاكلة فى الحركة والمعنى ، ففى كليهما خروج بالشئ من حال إلى حال .

كما أنه كان سبق هذا الوعد فى سورة القصص هو السبب فى اختصاص

(١) سبقت الإفاضة فى بيان هذه الظاهرة فى القرآن الكريم فى مقالات سابقة .

الوضع نفسه بزيادة قوله تعالى : « ولتعلم أن وعد الله حق ، دون شيء من ذلك كله في سورة طه (١) » .

المفارقة الثالثة : في قوله تعالى في سورة القصص في شأن موسى : « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما ، وكذلك نجزي المحسنين ، مع قوله تعالى في شأن يوسف في سورة يوسف : « ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ، وكذلك نجزي المحسنين » ، فقد اختصت قصة موسى بزيادة قوله تعالى : « واستوى ، عقب قوله تعالى : « ولما بلغ أشده ، والجواب عن ذلك يقتضى أن نقول : لأنه قد وقع خلاف كبير في بيان الأشد والاستواء ، وهل هما شيء واحد أو شيان ؟ فقيل في الأشد : إنه سن البلوغ ، وقيل الواحد والعشرين ، وقيل الثلاثين ، وقيل الثلاث والثلاثين ، وقيل الأربعين . وقيل في الاستواء : إنه سن الأربعين ، وقيل قبل الأربعين ، وقيل بعده ، وقيل هما — الأشد والاستواء — بمعنى استكمال القوة واعتدال المزاج والبنية ، وكذلك حصل خلاف في المراد بالعلم والحكم . فقيل هما الرسالة ، وقيل النبوة ، وقيل الكمال النفساني من الحكمة العملية والنظرية ، ومهما يكن من هذه الأقوال أو غيرها ، فإن الآية الأولى دلت على أن الله أعطى موسى الحكم والعلم حين بلوغه الأشد والاستواء ، والثانية دلت على أن الله أعطاهما ليوسف حين بلوغه الأشد ، فهاتين في جانب موسى زيادة الاستواء ، وهى زيادة دالة على زيادة في معنى بلوغه الأشد والاستواء . أما على أن الاستواء قدر زائد عن الأشد ، فظاهر ، وأما على أنه غير مبين له ، فإنه لا محالة دال على زيادة في هذه المعاني ، ومحال أن يكون لغوا . وعلى ذلك فجائز أن تكون هذه الزيادة من قبيل السن ، على معنى أن إيتاء العلم والحكم ، كان ليوسف قبل أن يكون لموسى بحسب عمر كل منهما ، ويؤيده ما هو ملاحظ في قصة يوسف قد أوحى إليه وهو في الحب ، كما قال تعالى : « وأوحينا

(١) لنستمع إلى الشيخ زكريا الأنصارى في كتيبه : « فتح الرحمن فيما يلتبس من آي القرآن » حيث يقول في هذه المفارقة : « وجعناك لتقاوم ثقل الرجح خفة فتح الكاف والرد ليقاوم خفة الرد ثقل ضمة الهاء وليوانق قوله إنا رادوه ، اه .

إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ، وقد رأى الرؤيا فجاءت مثل فلق الصبح حين قال لآييه : « يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا ، والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » ، وأما موسى فلم تظهر عليه علامته الحكم والعلم مبكرة ، فإنه ظل دون وحى إلى قتله القبطى وفراره إلى الشام ، وقضائه أجل الاجارة وعودته بأهله من لدن شعيب ، فجاءه الحق ، وجاءته الرسالة . وكأن المعنى فى ذلك : أن يوسف من بيت علم ونبوة ، فظهرت عليه مخايل ذلك فى صغره ، ولا كذلك موسى ، فإنه لم يعاجل بذلك بل استؤنى به .

وجائز أن تكون هذه الزيادة لا من قبيل السن بخصوصه ، ولكن من قبيل ما فى الجسم وبنية الشخص ، والمعنى : أن الله أعطى ليوسف الحكم والعلم حين بلوغه الاشد ، وأعطاهما موسى حين بلوغه الاشد والاستواء ، فكان موسى حين هذا الإيتام يزيد الاستواء على يوسف ، فكان أقوى جسما وأصلب عودا فيؤول المعنى إلى إثبات زيادة القوة البدنية فى موسى عنها فى يوسف ، فلئن كان يوسف قد أوتى شطر الحسن ، فقد أوتى موسى شطر القوة والفتوة ، وقد حدثنا القرآن أنه وكز رجلا فقضى عليه ، وحدثنا الحديث الصحيح : أنه صك ملك الموت ففقا عينه ، وقد قالت ابنة شعيب : « يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الامين » ، ووصفه النبي فى حديث المعراج : بأنه يشبه رجال أزدشنوءة الاشداء الاقوياء ، وكأنما كانت هذه القوة فيه من إعداد الله له ليقوى على ملاقاته ما عاناه من الشدائد فى حياته ، من مقارعة فرعون الجبار وتمرد بنى إسرائيل عليه مرة بعد أخرى ، وهجرته إلى الشام من مصر مرة بعد أخرى .

المفارقة الرابعة : فى قوله تعالى فى سورة القصص « وجاء رجلا من أقصى المدينة يسمى قال يا موسى إن المسلا يأترون بك . . » مع قوله تعالى فى سورة يس « وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين . . » ، الاصل فى الفاعل أن يلى فعله لا يمدل من هذا الاصل إلا للموجب ، فإذا كان ما فى سورة القصص على الاصل من إيلاء الفاعل لفعله ، فما هو الموجب الذى دعا إلى مخالفة هذا الاصل فى سورة يس ؛ حيث فصل بين فاعل المجيء وفعله بالجاء والمجرور ؟ الجواب أنه تقدم فى نفس السورة قوله تعالى « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية

إذ جاءها المرسلون . . ، فذكر الله القصة ، وبين أن أهل القرية استكبروا وأصروا على الكفر بالرسول وتكذيبهم رغم تعزيز الله لهم ، وتوكيد أقوالهم بكثير من أدوات التوكيد^(١) فلما أراد الله أن يذكر بعد تصوير هذا النزاع أن رجلا جاء فصدق الرسل ، ونصح قومه باتباعهم وكانت نفس السامع للقصة قد عرفت إصرار القوم الحاضرين ، وأصبحت مستشرفة لأن يكون هذا المصدق إنما أتى من مكان بعيد ، جاء النظم القرآني مسعفاً للنفس بما تشوفت إليه وذلك بتأخير الفاعل ، وتقديم المكان الذي جاء فيه فإنه أهم وأولى .

وكم كان ذلك كله على طرف التمام من المناسبة بسابق القصة في السورة نفسها ، فإنه تحدث عن إصرار أهل مكة على الكفر والتكذيب بخاتم النبيين ، فسواء أُنذر أم لم ينذر فهم لا يؤمنون ، فكانت قصة أصحاب القرية هذه بما فيها من هذا الصنيع الذي نعلل له ، كالبشارة لخاتم النبيين ، فإنه إن أصر على الكفر به من عينة وباشره فعسى الله أن يقيض له من المؤمنين به من نأت بهم الدار ، وشط المزار من أهل يثرب وهكذا قد كان .

قد يقال بعد ذلك ما بال هذه المدينة سميت قرية في نفس السورة في قوله تعالى « واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون » ؟ وجوابه أن المدلول واحد فالمدينة والقرية والبلدة والمصر ، قد يجوز إطلاقها على مدلول واحد لكن لعل المدينة لما يراعى فيه الكبر والاتساع ، والقرية لما يراعى فيه الصغر والضيق فلما تعلق بديان كبرها غرض حين بيان أن الرجل الذي جاء مصدقا كان من أقصاها البعيد ، وقع التعبير بالمدينة لإبعاد التهمة بأنه ربما كان له سابق تواطؤ مع الرسل دون شيء من ذلك في مطلع القصة الذي وقع التعبير فيه بالقرية ، أما المدينة في سورة القصص فهي هي في جميع مواضعها « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها . . » « فأصبح في المدينة خائفاً يترقب . . » « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى » فلا سؤال في ذلك . والله أعلم .

(١) راجع ما يشير إليه من المقامات والسور فهذا الذي تذكره هاهنا ليس أكثر من مفاتيح للبحث توضع بين يديك .

الوحدة في تعاليم الإسلام

لفضيلة الاستاذ الشيخ المنشاوى عبود الخولى

المدرس بمعهد القاهرة

من مظاهر التكريم الذى أسبغهُ الله على الإنسان ، أن أودع فيه حباً ذاتياً لبنى نوعه ، فجعله يحس بالحاجة الملحة إلى الإقامة فى كنفهم ، وتبادل العون معهم . والاعتصام بحبل مودتهم ، والإذعان بأن وجوده مرتبط بوجودهم ، فلن يدور بخلافه أن ينأى عنهم ، ويحيا بعيداً عن محيطهم ، لأنه يعتقد أنهم عوامل بقائه . والعناصر المتممة لوجوده « فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، وبوحى الفطرة يدرك أنه لبنة فى بناء المجتمع الذى يستظل بلوائه ، ويبنى ثمراته ، وأن هذا المجتمع لا تقوى دعائمه ، ويحكم بناؤه إلا بتضافر القوى وتأزر الأفراد وتماسكهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، لئلا يفسد جوهرها ، ويضعف سلطانها ، فجاء الإسلام للفطرة حامياً ونصيراً ، وعضداً وظهيراً ، ولقت الأذهان الى تلك المعانى القيمة المركوزة فيها ، وأوصى بضرورة الاسترشاد بهديها ، والاقتباس من نورها ، وأخذ النفس بقانونها ، وأعلن فى صراحة ووضوح ، أن الاتحاد دعامة الأمة التى تركز عليها قواعدها ، وتشيد صروح عزها وباذخ مجدها ، وعصبتها الحساس الذى يشد أزرها ويجعلها رفيعة العباد مرهوبة السلطان ، وروحها القوى الجبار الذى يبعث الحياة الماجدة فى عروقها ، وينشر النهضة المباركة فى جميع آفاقها ، ودرعها الحصين الذى تعتصم به عند الخطوب فتفيض الثقة والامان فى ربوعها والخور والهلل فى أعدائها .

فلا عجب إذن أن تعنى الدولة بضم صفوف أبنائها أكثر من عنايتها بسلاحها ومعداتها الحربية ، لأن السلاح لا يغنى قليلاً إذا كانت تحمله نفوس متاحة

متخاذلة ، عندئذ لا يرهب العدو لها بأسا ولا يخاف بطشا ، ويهون عليه أمرها .
والامة إذا هان أمرها على أعدائها كانت عرضة للزوال والانهيار . أنظر
إلى تصوير القرآن الكريم لحال قوم وقفوا من المسلمين موقف المحاربة ،
وقد أفسدوا ذات بينهم ، ومزقت الفرقة وأصر مودتهم : « لا يقاتلونكم جميعا
إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر » ثم علل ذلك بقوله : « بأسهم بينهم شديدا
تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون .

لهذا كله عنى الإسلام بالوحدة عناية فائقة فما ترك عاملا من عوامل الفرقة
والإنقسام إلا قضى عليه ، ولا بابا من أبواب جمع الكلمة وتأليف القلوب
إلا دعا إليه . ونوجز ذلك فيما يأتي .

(١) عمد إلى بدعة التفاخر بالأنساب والمباهاة بالاجناس فهتك حجابها ،
وبدد ظلامها وصراعها في مهدها ، وذكر في نداء صريح جامع أن البشر جميعا
أبناء أب واحد وأم واحدة ، والكل إخوة متساوون في الانتساب إليهما ، فليس
لامه أن يداخلها الزهو بأصلها ، أو تزعم أنها شعب الله المختار بعد أن يرن في
آذانها هذا الخطاب الرائع الوارد في قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من
ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، فاعلمهم شعوبا وأما إنا هو
وسيلة لتعارفهم وتوحيد أهدافهم لخير الإنسانية وهنامتها .

يامن تشدون السلام هذا هو الإسلام يحقق ضالتكم ويعطيكم ملة أيديكم
من السلام ، فهو يدعو إلى إخوة شاملة جامعة ، لا تعرف التفرقة بين شعب
وشعب ، ولا بين أمة وأمة ويجعل تبادل الإحسان فيما بينهم وفاء بحق القرابة
وصلة للأرحام ، تغذوا عنه ولا تولوا وجوهكم شطر مدينيات الغرب فدولهم تستر
بالدعوة إلى السلام ، وتخفي وراء ذلك روغان الثعالب وغدر الذئاب .

أرأيت أبلغ في الرد على فريتهم من فقد السلام بينهم وهم دعائه ؟

ولقد عجزت إحدى تلك الدول عن التسوية في الحقوق والامتيازات بين
رعاياها ، ففرقت بين لون ولون ، أين هذا مما يدهو إليه الإسلام من المساواة ،
وأعلمه نبي الإسلام من فوق منبر دولي عام في حجة الوداع فقال عليه الصلاة
والسلام : « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

ثم يفتح الإسلام ميدان التسابق في الفضائل ، والتزود من المحامد التي منها توثيق أواصر المودة والتآخي بين الشعوب جميعاً فيقول تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، ويقول عليه الصلاة والسلام : « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » ،

(٢) أعلنه في صراحة وإيضاح أن الأديان كلها تنبع من معين واحد ، وتلتقي في غاية واحدة وهي توحيد الله تعالى والإخلاص في عبادته ، والإحسان في معاملته خلقه ، شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، فلا يليق بعقل بعد هذا أن يعكس القصد من الدين ، ويجعله مادة للشقاق والنزاع الذي يزرع الاحقاد ويقطع الأرحام ، إنه إن اقترف ذلك فقد مزق رداء الإسلام ، وتقلص عنه ظله وفارقه برد اليقين ، إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء .

(٣) ترفق بخصومه من أهل الأديان ودعاهم إلى التفاهم في جو مفعم بصفاء المودة ، والإخلاص للحقيقة فطلب من الرسول الأكرم أن يدعو أهل الكتاب إلى كفة معترف بها من الجميع ، ليست خاصة بفريق ولا تنسب إلى دين دون غيره . فإذا أثبر في نفوسهم المتفق عليه لم يشق عليهم بعد ذلك الإذعان بالمختلف فيه . قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كفة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله .

وإنك لو صوبت النظر إلى أي حكم من أحكام الإسلام لوجدت الاتحاد ثمرة وغايته .

ففي العبادات شرع الله الصلاة وحث على الحرص في أدائها بالجماعة ، ليقف الكل على قدم المساواة ، يقتدون بإمام واحد في صلاة واحدة متجهين إلى قبلة واحدة ، مخلصين العبادة لإله واحد ، عندئذ تجتمع القلوب في مناجاته والضرعة إليه والثقة به والتوكل عليه .

ولتحقيق الوحدة في صورة باهرة دعا الإسلام إلى اجتماع أسبوعي في صلاة الجمعة ، حيث يتضاعف العدد وتقوى أسباب الوئام .

وزيادة في تمكين الرابطة الإسلامية وإكسابها متانة وصلابة ، شرع الدين اجتماعين حاشدين كل عام في صلاة العيدين .

لكن هذه الاجتماعات كلها قد تكون قاصرة على أهل البلد الواحد ، فعقد الإسلام بشرعه للحج مؤتمراً عاماً شاملاً يجتمع فيه المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها ، وقد تجاوب شعورهم وتوحدت أهدافهم ، يؤدون عبادة واحدة ، ويطوفون حول بيت واحد ، ويجأرون بالتلبية لآله واحد مغتبطين بالاجتماع على طاعته ، والاعتصام بحبل مودته ، متسابقين في الشكر على جزيل فضله وعظيم توفيقه إذ أصبحوا بنعمته إخواناً :

وناهيك بمشروع الزكاة الذي هو خير نظام اجتماعي ، يوثق أواصر المودة بين الأغنياء والفقراء ، ويجعل منهما أعواناً متناصرين بل إخوة متحابين ، يكونون جهة منيعة تسعى جاهدة في بناء مجد الأمة ، وتصد عنها تيار النزعات الهدامة والمذاهب الجاحدة .

ونظام العقود في الإسلام يحقق الوحدة في أروع صورها ، لأنه قائم على التزام النصح والأمانة ومجانبة الكذب والتدليس والخيانة ، حتى لقد حكم الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، بإخراج الفاسق من حظيرة الإسلام فقال : « من غشنا فليس منا » .

وأما العقوبات فقد شرعت زجراً للغاوين وردعاً للمفسدين وقضاء على فكرة السوء التي تطوف بأذهان المفتونين ، فتدفعهم إلى الاعتداء على الآمنين ، والعدوان أقوى هادم لبناء الوحدة ومثير للبغيضاء الخالقة للدين . فرهبة العقوبة تمنع من التوجه إلى اقتراف أسبابها ، وبذلك يصاب جوهر الوحدة ويتبادل الجميع الأمن والاحترام والمودة والوئام ، وجعل الكل أمام قانون العقوبات سواء ، لتجتمع كافة الناس على تقديسه وخشيته سلطانه ، لا فرق في ذلك بين شريف ووضيع وغني وفقير ، ورئيس ومرءوس وسيد ومسود ، كان ابن الإيهم أميراً على الشام وفي أثناء طوافه حول الكعبة داس أعرابي على طرف رداءه فلطمه جبلة ، فشكاه الأعرابي إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فحكم عمر بالقصاص وقال للجبلة لا بد أن تخضع للطمة مثلها من الأعرابي ، فقال له : أتسبون بين الملوك والسوقة ؟ فقال له عمر : « الإسلام قد سوى بينكما » . هل سمع الناس بمثل هذا التشريع في سمره وعدالته الخالدة التي تنتصف من الأمير لأحد رعيته ؟

وهل أتاكم نبأ ذلك الدين القيم الذى يجعل شعار الخليفة الإسلامى ، من رأى منكم فى أعوجاجاً فليقومه ، يعلن هذا أحد الخلفاء فيرد عليه أحد الخاضعين لحكمه قائلاً : والله لو رأينا فيك أعوجاجاً لقومناه بسيوفنا . فيحمد الله تعالى أن جعل فى الرعية من يقوم أعوجاج الخليفة بسيفه .

وهل علموا أروع من أن الإسلام يميز لأحد أتباعه أن يقاضى الخليفة أمام قاض من قضاة المسلمين ، فلا يبالى القاضى أن يحكم على من ولاه القضاء ؛ إذا كان الحق فى جانب خصمه ، ولا يتميب أن يرد شهادته إذا لم تتوفر لديه أسباب الأخذ بها ، ذلك لأن نصرته للحق أحب لديه من صلاته بالخليفة ، فنصرته للحق اعتصام بربه ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم .

هذا هو الاتحاد الذى فهمه الرعيل الأول من المسلمين ، وفتحوا له قلوبهم وسكنت جوارحهم ، واتخذوه منهاجاً عملياً ، فى كل شؤونهم ، فظفروا بعون الله وإمداده وعزه وإسعاده . ونصرهم بالرعب ، وشرفهم بالخلافة عنه ، ومكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وجعلهم للعالم أئمة مهتدين ، وقادة موفقين ، فثابروا الوجود حكمة ورشداً ، وعدلاً وفضلاً ، وتمت كلمة ربك الحسنى عليهم بما أصلحوا فسدعوا بتحقيق وعده الكريم الوارد فى قوله تعالى : ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون .

لكن المسلمين فى هذه الأيام قد فرقت بينهم المطامع والأهواء ، وسدت مسامعهم الشهوات وحجبت عنهم منافذ الهداية ، فقطعوا صلحتهم بأسلافهم الأجداد ، وصاروا شيعاً متنافرة ، وأحزاباً متناحرة ، فصاروا كثرة لا غناء فيها ، وغناء كغناء السيل ، فنزع الله هيبتهم من قلوب أعدائهم ، وسلطهم عليهم فسلبوهم لذة الأمن ، وساموهم الخسف والتمكال ، ووضعوا يدهم على موارد الثروة فى بلادهم ، وتقضى أمورهم فى غيبتهم ، ولا يستأذنون وهم شهود .

ولقد بلغ من انحلال المسلمين أن اتخذ الأعداء من بعضهم مطية ذلولا ، يركبونها لتنفيذ أطماعهم الجامحة ، وأغراضهم الآثمة ، وهذا الصنف من الخونة المجرمين شر ما تبلى به الأمم ، لأنهم أشد فتسكا بأممتهم ، وأسرع فى القضاء عليها

من هدوها السافر ، فهم بالنسبة لها كالنار في الوقود ، لا تدعه حتى يجعله هشيما
تذروه الرياح .

أيها المسلمون : إذا كان الاسبى قد أذاب نفوسكم حسرة وكدأ لهوان أمركم
على أعدائكم ، وهاجمكم الشوق إلى أن تنعموا بما نعم به أسلافكم من هزة الملوك
وطهارة الملائكة ، فاعلموا أن محاولاتكم لإرجاع حقوقكم المغصوبة ، مع تمزيق
وحدتكم صيحة في واد ، ونفخة في رماد ، لا يرفع العدو رأساً ، ولا يقيم وزناً .
صوت الشعوب من الزئير مجتمعاً فإذا تفرق كان بعض نباح

ولا عاصم اليوم من هذه الذلة والصغار إلا أن تجمعوا شملكم ، وترأبوا
صدعكم ، وتقفوا أمام عدوكم جبهة متماسكة ، لا تذهب الالهواء ريحها ، ولا تلين
قناتها . وليس هذا الدواء بعيداً عن أيديكم ، بل هو مائل في دينكم الذي يظلمكم
لواؤه ، فأصالحوا ذات بينكم ، وضموا صفوفكم ، وضاعفوا جهودكم . ولا تيأسوا
من روح الله ، فإنه قادر على إحياء الارض بعد موتها ، والقادر على ذلك قادر
على أقالة الامم من عثرتها ، وإعزازها بعد ذلها ، وإمدادها بعد التخلي عنها ،
وإعطائها بعد سلبها ، فأشعلوا جذوة الإيمان ، وألهبوا الحماس لسعى مجيد ، وعمل
رشيد ، والله معكم ولن يتركم أعمالكم .

طرائف الشعر

قال محمد بن علي لرجل : إنك لتروى طرائف الشعر فكيف قال الانصارى
لاخيه ؟ فأنشده :

لعمرك ما إن أبو مالك	بوان ولا بضعيف قواه
ولا بألد له نازع	يعادى أخاه إذا ما نهاء
ولكنه غير مخالفة	كريم الطبايع حلو نهاء
وإن سده سد مطواء	ومهما وكلت إليه كفاه

فقال محمد لاختيه زيد وكان حاضراً : هذه صفتك يا أخى وأعيذك بالله أن
تكون قتيل أهل العراق .

العدل في الإسلام

عدالة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب

لفضيلة الاستاذ الشيخ أحمد علي منصور

لما قتل عثمان بن عفان أمير المؤمنين في فتنة قامت ضده ،
هرع الناس إلى علي بن أبي طالب ، وطلبوا أن يبايعوه
على الخلافة ، فأبى عليهم ، فما زالوا به حتى أقنعوه
بضرورة قبولها ، حسماً للمنازعات ، وإطفاء لنيران
الفتن ، فقبل رجاءهم كارها .

شيء من أعماله :

تمت بيعة علي بالأغلبية ، فقام وخطب الناس ، ودعاهم إلى الخير وما فيه
سعادتهم وفلاحهم ، وحذرهم الشر وما فيه شقاؤهم وهلاكهم . ونقل العاصمة
إلى الكوفة ، وبدأ بتغيير عمال الأنصار ؛ لأنهم داعية الفرقة ، وسبب الشقاق ،
ومن نجم من بينهم الاختلاف ؛ واستقبل أمير المؤمنين عهداً مملوءاً بالقتال
والفتن ، والثورات والحروب ؛ وحكم خمس سنين لم يصف له فيها يوم ؛ وقتل
في النهاية بضربة من سيف مسموم بيد المجرم الأثيم عبد الرحمن بن ملجم الخارجي ،
والمقدر واقع لا محالة ، والآخرة خير وأبقى لأمير المؤمنين !

نماذج من عدالته وإنصافه :

١ - جلس كرم الله وجهه ذات يوم مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؛
فدخل عليهما رجل من اليهود ، وطلب من عمر أن يحكم بينه وبين علي ؛ فنظر
إلى الخطاب إلى علي وقال له : قم فقف بجانب خصمك يا أبا الحسن ؛ فقام علي
ووقف بجانب خصمه والغضب باد على وجهه ؛ فقال له عمر : أنغضب لأنني
أمرتك بالوقوف بجانب خصمك ؟ فقال : لا يا أمير المؤمنين ، إنني غضبت لأنك

لم تسو بيني وبين خصمي ؛ فقد كنتوتى^(١) وسميت خصمى ؛ وفي التكنية تعظيم فأسف عمر ، وقضى بينهما بمنتهى العدالة والقسطاس . !

فهل رأيت أيها القارىء بعد هذا عدلا وإنصافاً ؟ يأمر عمر بن الخطاب على بن أبى طالب ، ابن عم رسول الله أن يقف بجانب خصمه ؛ وهو رجل من آحاد اليهود ؛ فيسارع على بالوقوف إلى جانب اليهودى ؛ ويرى الغضب في وجهه ويعاتب عمر لا لأنه أمره بالوقوف إلى جانب خصمه ، بل لأنه قال له قم يا أبا الحسن ، فكناه وفي ذلك ما يشعر بالتعظيم ، على حين أنه سمي خصمه باسمه المجرد . !

وليس هذا بغريب من عمر وعلى ، رضى الله عنهما ، وهما من أكابر أصحاب رسول الله ، وحاملى لواء الاسلام من بعده ، وقد أثربا في قلوبهما تعاليم الشريعة الغراء ، واهتديا بهدى الرسول الاعظم ، وقد شاهداه يوم بدر وهو يطعن سواد بن غزية بقدح^(٢) في بطنه وهو مكشوف ليستوى في الصف ؛ فقال : قد أوجعتنى يا رسول الله فأقدنى ، فكشف له عن بطنه . ! ! فقبل مكان الطعنة ونزل عن حقه .

وأنجب من هذا أن رأياه - صلوات الله وسلامه عليه - وهو في مرضه الذى لحق فيه بالرفيق الاعلى ، وهو يعلن للناس : أن من له حق عنده فليأخذه ، ومن له مال فليطلبه ، ومن جلده أو ضربه فليقتص منه . وأذن لرجل أن يضربه حين ادعى أنه ضربه ذات يوم ؛ فقال يا رسول الله : إننى كنت عارى الكتف أو الظهر ؛ فأتى الرداء عن عاتقه الشريف . !

وشأن الرجلين أن يتمسحا بالنبي العربى الكريم ، ويتوصلا لهذا الشرف العظيم ، فهل عرف الناس أجمع عدلا يوازى هذا العدل ؟ وهل سمعوا بإنصاف يساوى هذا الإنصاف ؟ وهل يصدر مثل هذا إلا من رسول صادق أمين ، أعدته القدرة الإلهية ليكون المثل الاعلى فى العدل ، والغاية القصوى فى الإنصاف ؟

(١) الكنية : ما صدرت بأب أو أم . وكنتوتى : يعنى قلت لى يا أبا الحسن .

(٢) القدح : السهم الذى لا نصل له .

ومن صاحبين جليلين ، نسجا على منواله ، وترسما خطاه ؛ وكان لهما فيه الاسوة الحسنة ، والقدوة الطيبة ؟ ١

٢ — لما تمت البيعة لأمير المؤمنين على بالغلبة ، وجه عنايته لبیت المال ، ونظم دخله وخرجه - ولقد حدث ذات يوم أن حضر إليه أخوه ، وطلب منه شيئاً من بیت المال ، ولم يكن له فيه حق ؛ فرفض على طلبه ، ولم يعطه شيئاً ؛ فتركه أخوه وانضم إلى أعدائه . فأية أمانة ، وأى حرص على مال المسلمين ، مثل هذا الحرص ، وتلك الأمانة ؟ تدفع الحاجة أخاه إلى أن يطلب منه شيئاً من بیت المال يستعين به ، فيرفض على طلبه ، لأن أخاه لا حق له فيه ؛ وبأبي أمير المؤمنين ألا يأخذ من بیت المال إلا من له فيه حق معلوم ، وإن أدى الأمر إلى غضب أخيه وانضمامه إلى أعدائه ؛ وفي هذا العدل المجسم ، والإنصاف العظيم . ١

٤ — سار على في الطريق يوماً يتفقد أحوال الرعية ، فوجد فئتين يقتتلان ففرق بينهما ؛ ثم مضى بعد ذلك فسمع صوت مستغيث . فخرج يجرى وهو يقول : أذاك الغوث ، أذاك الغوث ؛ فرأى رجلاً ممسكاً بآخر ، فسأله عن حاله ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، بعث هذا ثوباً بتسعة دراهم ، فأعطى دراهم على غير الشرط ؛ فطلب منه استعاضة غيرها بها ، فأبى ولطمني ؛ فقال له على : أبدلها له ، فأبدلها . ثم التفت أمير المؤمنين إلى المضروب وقال له : أين بنيتك على اللطمة ؟ فأحضرها . فأقعد الضارب وقال للمضروب اقتص منه — فقال : إني عفوت عنه يا أمير المؤمنين ؛ فضرب على الرجل تسع درات ، وقال : هذا حق السلطان .

فانظر أيها القارئ كيف أقعد أمير المؤمنين الضارب وأمر المضروب بأن يأخذ حقه منه بالتقصاص ؟ وتأمل بُعد نظره وسداد رأيه في معاقبة الظالم بعد أن عفا عنه المظلوم كما تفعل النيابة الآن ؛ وإني موقن بأنك ستلصق في هذه الحادثة شدة يقظة على رعيتيه ، واستعداده لاجابة نداء المستغيث منهم ؛ مما يدل على منتهى الشجاعة والجرأة ، والشهامة والمروءة ، والعدالة والإنصاف .

٥ — كان في بيت المال عقد نفيس من اللؤلؤ ، فأرسلت ابنة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى الخازن تطلب منه أن يعيرها هذا العقد لتتجمل به يوم عيد الأضحى على أن ترده إليه بعد ثلاثة أيام .

فأرسل الخادم إليها العقد ؛ ولما وضعته في جيبها ، رآه والدها عرفه ؛ فسألها في ذلك ، فقالت : استعرت من خازن بيت المال لاتزين به في العيد ثم أردته إليه .

فبعث أمير المؤمنين في الحال إلى الخازن ، ووبخه على تصرفه في مال المسلمين ؛ ثم أمر برد العقد إلى بيت المال على وجه السرعة — فقالت له ابنته : يا أمير المؤمنين ، أنا ابنتك ، وبضعة منك ، فمن أحق بلبسه مني ؟ فقال لها : أكل نساء المهاجرين والانصار يتزين في العيد بمثل هذا ؟ ثم قال : ويل لابنتي ، لو لم تأخذ العقد على أنه عارية مردودة ، لكانت أول هاشمية قطع يدها في سرقة . !

فأى عدل أعظم من هذا ؟ وأى إنصاف فوق هذا الإنصاف ؟ يا أبي أمير المؤمنين أن تزين ابنته بعقد اللؤلؤ الذي استعارته من بيت المال ، وبرسل توأ إلى الخازن فيؤنبه ، ويوجه إليه قارص اللوم على هذا التصرف . ولا يكتفى بهذا بل يأمر برد العقد إلى بيت المال في نفس اليوم .

ولا يفوت ابنته أن تستعطفه ، حتى يسمح لها أن تزين به في العيد فيسكتها بجواب في منتهى الإقناع — وفوق هذا يقر في نفسها أنها لو لم تأخذ العقد بصفة عارية ترد بعد ثلاثة أيام لكانت أول هاشمية يأمر بقطع يدها في سرقة !

فهل وصلت المدنية الحاضرة إلى هذا ؟ وهل يوجد الآن على ظهر البسيطة أناس يشعرون بالمسؤولية ، مثل هذا الشعور العظيم ؛ فيخلد التاريخ لهم ذلك على صفحاته بكل إجلال وإكبار ؟

إننا لنبتهل إلى الله العليّ القدير ، الذي خلق أبا الحسن وسواه ، وصوره في أحسن تقويم ، أن يرضى عنه ، وأن يجعل فيه للحكام والرؤساء الأسوة والقدوة ؛ فلقد كان — فوق أخلاقه وسجايا الطيبة — عادلاً ، منصفاً للناس من نفسه ومن خاصة أهله ؛ مبغضاً الاستئثار بما للجميع فيه سواسية ؛ موقناً بأن الله سبحانه للظالمين بالمصاد .

مِنْ خُبَارِ الْعَبَّاسِيِّينَ

للأستاذ الشيخ حسن خطاب الوكيل

بينما الخيزران أم أمير المؤمنين الهادي والرشيدي دارها المعروفة بأساس ، على عهد زوجها أمير المؤمنين المهدي ، وعندها أمهات أولاد الخلفاء ، وغيرهن من بنات بني هاشم ، وهي على بساط أرمني ، وهن على نمارق أرمنية . وزينب بنت سليمان بن علي أعلاهن مرتبة : فيناهي كذلك إذ دخل خادم لها فقال : بالباب امرأة ذات حسن وجمال في أطمار رثة ، تأتي أن تخبر ما اسمها ، تروم الدخول عليكن . فقالت الخيزران للخادم : إنذن لها فدخلت امرأة ذات بهاء وجمال ولكنها في أطمار رثة . فتكلمت فأوضحت عن بيان رائع .

فقلن لها : من أنت ؟ قالت : أنا مزينة امرأة مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين ، وقد أصراني الدهر إلى ما ترين ، والله ما الاطمار الرثة التي على إلا عارية ، وإنكم لما غلبتمونا على هذا الأمر ، وصار لكم دوننا ، لم نأمن مخالطة العامة على ما نحن فيه من الضرر ، على بادرة إلينا تزيل موضع الشرف ، فقصدناكم لتسكنوا في حجابكم على أية حالة كانت حتى تأتي دعوة من له الدعوة . ! فاغرو رقت عينا الخيزران ، ورقت لحالها ؛ تخافت زينب بنت سليمان أن تقوم الخيزران بإجابة مزينة لمطلبها ، فنظرت إلى مزينة مغضبة وقالت لها : لا تخف الله عنك يا مزينة ، أتذكرين وقد دخلت إليك بحران وأنت على هذا البساط بعينه ، فكلمتك في جثة إبراهيم الإمام فاتهريني وأمرت بإخراجي ، وقلت ما للنساء والدخول على الرجال في آرائهم ، فوالله لقد كان مروان أرحم للحق منك ، ولقد دخلت إليه خلف أنه ما قتله وهو كاذب وخيرني بين أن يدفنه أو يدفع إلى جثته . وعرض عليّ ما لا فلم أقبله .

فلما سمعت مزينة تأنيبها لها قالت : والله ما أظن هذه الحالة أدتني إلى ما ترينه إلا بالفعل الذي كان مني ، وكأنك استحسنيتي فتعرضين الخيزران على فعل مثله . ولكن كان يجب عليك أن تحضيتها على فعل الخير وترك المتابعة بالشر ، لتستبقي

بذلك نعمتها ، وتصور بها دينها . قالت لزَيْنَب : يا بنت عم كيف ترين صنيع الله بنا في العقوق فتجيبين التأمي بنا فيه ؟ ثم ولت باكية ١ .

هنالك أشارت الخيزران إلى بعض جواربها أن تعدل بها إلى بعض المقاصير ، وأن لا تمسكنها من الخروج من القصر كاسفة البال ، وأمرتها بتغيير حالها والتلطف بها . وبينما الحال على ما وصفنا وإذا بأمر المؤمنين المهدي . فلما استقر به المكان انصرفت زَيْنَب بنت سليمان إلى مقصودتها ، وتقدمت الخيزران وقصت عليه ما حدث . فقال : على الجارية التي خرجت وراها وردتها إلى بعض المقاصير ، فلما حضرت سألتها : لما ذهبت مزينة إلى المقصورة ما الذي سمعتها تقول ؟ فأجابت الجارية لحقتها في أحد الممرات وهي تبكي تالية قوله تعالى : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » ، فالتفت المهدي إلى الخيزران أم الرشيد ، وقال لها : والله لو لم تفعل بها ما فعلت ما كلمتك أبدا . وبكى وقال : اللهم إني أعوذ بك من زوال النعمة .

ثم قال إني أنكر ما فعلته زَيْنَب بنت سليمان معها ، ولولا أنها أكبر نساءنا لحلفت أن لا أكلها ، ثم أرسل إحدى الجوارى إلى مقصورة مزينة وقال لها إقرئي عليها السلام ، وقولي لها : يا بنت عم إن إخوانك قد اجتمعن عندي ، ولولا أني ابن عمك لجئتاك . فجاءت إليه مزينة شاكرة وهي ترفل في أثوابها فأمرها بالجلوس ، ورحب بها ، ورفع منزلتها فوق منزلة زَيْنَب بنت سليمان ، ثم أفاضوا في أخبار أسلافهم وأيام الناس والدولة ، وتقبلها فما تركت لأحد في المجلس كلاما .

فقال لها المهدي : يا بنت عم والله لولا أني أخشى أن أنقص على من أكرمتك لتزوجتك ، ولكن لا شيء أصون لك من حجابي ، وكونك مع إخوانك في قصرى ، لك مالهن وعليك ما عليهن ، إلى أن يأتيك أمر من له الأمر فيا حكم به على الخلق ، ثم اقطعها مثل مالهن من الإقطاع ، وأعد لها من الخدم من يقوم بحاجاتها ، وأجازها . فأقامت مزينة في قصر المهدي إلى أن قضى نحبها ، وأيام الهادي ، وصدرها من أيام الرشيد ، وماتت في خلافته ؛ وكان لا يفرق بينها وبين نساء بني هاشم . فلما قبضت جزع عليها الرشيد جزعا شديدا ، وأضحت كأن لم تغن بالأمس .

« قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

درس ديني بقصر رأس التين

سن حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم الاستماع إلى دروس دينية تلقى بعد صلاة العشاء، يشرف جلالتة حلقات بعضها بذاته الكريمة . وقد ألقى الدرس الأول هذه السنة حضرة صاحب الفضيلة الشيخ علام نصار مفتي الديار المصرية ، وألقى ثانيهما حضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الأزهر بالسراى الملكية فى مساء يوم الإثنين ١١ رمضان سنة ١٣٦٩ . وهو كما يرى القراء حافل بالتفصيلات عن فريضه الصوم وآدابه ورخصه وشروط صحته وفضائله ، فجاء درساً جامعاً يجب أن يلم به كل مسلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ، فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينَ ، فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ، إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .

شهرُ رمضانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُم ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

الصيام في اللغة : الإمساك والكف عن الشيء ، ومن ذلك قوله تعالى :
 « إني نذرت للرحمن صوماً ، أى صمتاً وكفاً عن الكلام . وفي الشرع :
 الإمساك عن الأكل والشرب وغشيان النساء ، من الفجر إلى المغرب ، ابتغاء
 مرضاة الله .

وقد فرض الله الصوم على المؤمنين كما فرضه على الأمم السابقة ، فكان
 ركناً من أركان كل دين ، لأنه من أقوى العبادات ، وأفضل وسائل التهذيب ،
 وتهيئة النفوس لفعل الخير .

وفي إعلامه تعالى لنا أنه فرضه علينا كما فرضه على الأمم السابقة لإشعار بأن
 جميع الديانات التي أنزلها الله تعالى على رسله واحدة في أصولها ومقاصدها وإن
 اختلفت كيفيتها وأزميتها وأمكنيتها .

ثم بين تعالى بقوله « لعلكم تتقون » ، أنه إنما فرض الصيام علينا لمصلحتنا
 وسعادتنا ؛ فإنه يعد النفوس ويهيئها لقبول الطاعات والبعد عن المعاصي .

والصائم إذا ترك شهوانه التي تعرض له أثناء الصوم امثالاً لأمر الله تعالى ،
 وراض نفسه على الصبر كلما أغرتها الطيبات والشهوات ، شعوراً منه بأن الله
 تعالى يراقبه وأنه مطلع على سر نفسه ، وتكرر ذلك منه أيام صيامه - فإنه تربي
 في نفسه ملكة خشية الله وتعظيمه ، ومراقبته ، وتزكو نفسه ، وتكون مستعدة
 لتقوى الله .

ومراقبة الصائم ربه في صيامه هي في الحقيقة رُوح الصيام الذي أَرادَه الله
 من المؤمنين ، ليسعدوا بالتقوى ، وهو الصيام الذي يربي الإرادة ، ويكبح
 الشهوات ، وينشئ عاطفة الرحمة والإحسان .

أما مجرد الإمساك عن الطعام والشراب مع عدم مراقبه الله تعالى ، مما
 يسهل عليه ارتكاب الآثام ، فليس هو الصيام الذي فرضه الله على المؤمنين .
 وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لم يدع قول الزور والعمل به
 فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » .

فصوموا أيها المؤمنون كما أمر الله ، تظفروا بعظيم الجزاء عند الله : قال

رسول الله صلى عليه وسلم ، من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه .

* * *

بين الله الصيام الذي كتبه على المؤمنين بأنه في أيام معدودات . والمحققون من المفسرين كالحسن وابن جرير وأبي مسلم على أن الله جل ثناؤه عني بقوله : « أياماً معدودات ، أيام شهر رمضان .

وقال بعضهم : الأيام المعدودات صوم ثلاثة أيام من كل شهر ، وكان ذلك فرضاً على الناس قبل أن يفرض عليهم شهر رمضان ، ولكن هذا القول لا دليل عليه . وقال ابن جرير المفسر : إنه لم يأت خبر تقوم به حجة بأن صوماً فرض على أهل الإسلام غير صوم رمضان ثم نسخ بصوم شهر رمضان ؛ بل بين الله في سياق الآية أن الصيام الذي كتبه على المؤمنين هو شهر رمضان دون غيره من الأوقات .

ولما كانت فرض الصوم عاماً ، استثنى منه الذين يشق عليهم الصوم ، أو الذين هم بمظنة أن يشق عليهم ، فقال تعالى : « فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » .

فالمريض والمسافر بمظنة أن يشق عليهم الصيام ، ولهذا رخص لهما في الفطر . ولكن ليس كل مرض يبيح الفطر ، لأن من الأمراض ما يعالج بالصيام ، ومنها اليسير الذي لا يضر ، وإنما المرض المبيح للفطر هو الذي يؤلم المريض ويؤذيه ، أو يخاف تماده أو تزيده بالصوم . وهو قول جمهور من العلماء ، ومذهب حذاق أصحاب الإمام مالك .

وإذا صام المريض أو المسافر أجزاء الصوم عن فرضه . وإذا أفطر برخصة الله فعليه صوم عدة أيام آخر مكان الأيام التي أفطرها في مرضه أو سفره . وذلك معنى قوله تعالى : « فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ » .

والآية في إطلاق الرخصة في الفطر للمريض والمسافر شاملة للمريض الذي يصيبه المرض أثناء النهار فيفطر ، وللمسافر الذي يسافر أثناء النهار فيفطر .

وكذلك قوله : « فعدة من أيام أخر ، عام في قضاء الأيام التي أفطرها المريض أو المسافر متتابعة أو متفرقة .

وقوله تعالى : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، اختلف في تفسيره أهل التأويل . قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن الآية خاصة بالشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان الصوم ، أو لا يستطيعانه إلا بجهد ، فيفطران ويطعمان مكان كل يوم مسكيناً . وفسر قوله : « يطيقونه ، بمعنى يعاينونه ، أى يتكفونونه . والوجه في هذا التفسير أن الإطاعة أدنى درجات الممكنة والقدرة على الشيء ، فلا تقول العرب : أطاق الشيء ، إلا إذا كانت قدرته عليه في نهاية الضعف بحيث لا يقدر عليه إلا مع الشدة والمشقة ، وهذا بخلاف الوسع الذى يدل على اليسر والسهولة .

وجعل ابن عباس المريض الذى لازمه السقم ، والحلبى والمرضع إذا خافنا على الجنين والظفل في حكم الشيخ والشيخة .

وعلى قياس قوله يرخص أيضاً بالإفطار والإطعام للعالم الذين جعل الله معاشهم الدائم بالأشغال في المناجم ، وللسجونين الذين يقضون حياة سجنهم في الأعمال الشاقة ، كقطع الاحجار وحمل الانقال .

وقال كثير من المفسرين : إن الله تعالى فرض شهر رمضان ، وأنزل قوله « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، فمكان من شاء صامه ، ومن شاء أفطار وأطعم عن كل يوم مسكيناً .

ثم أنزل قوله : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، — إلى آخر الآية : فنسخ به عموم قوله : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، وثبتت الآية في الشيخ والشيخة اللذين لا يسدران على الصيام ، وصار معنى الآية : الصيام واجب على الصحيح المقيم ، والفطر والقضاء رخصة للمريض والمسافر ، والفطر وإطعام مسكين عن كل يوم رخصة للشيخ والشيخة اللذين لا يستطيعان الصوم .

وقال الاصم : إن الآية راجعة إلى المريض والمسافر في الآية السابقة ، وذلك لأن المريض والمسافر قد يكون منهما من لا يُطيق الصوم ، ومنهما من يطيق . فالذي لا يطيق بين حكمه بقوله : « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » ، والذي يطيق بين حكمه بقوله : « وعلى الذين يُطيقونه فدية طعام مسكين » .

وقول الاصم لا يتفق مع ما ورد في السنة من أن الفطر للرَضَى والمسافرين رخصة من الله ، من شاء منهم صام ومن شاء أفطر وقضى من أيام أخر . وقول الأكثرين وإن كان يتفق في النهاية مع قول ابن عباس إلا في بعض التفريعات ، ولكن تفسير ابن عباس أفضل ، لأنه لا ضرورة للقول بالنسخ في قوله : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » .

وقوله تعالى « فمن تطوع خيراً فهو خير له » ، عام في التطوع بالخير مع الفدية بأن يجمع بين الصوم والفدية ، أو يطعم عن اليوم الواحد أكثر من مسكين ، أو يزيد في طعام المسكين أكثر من الواجب ؛ كل ذلك من الخير الذي يشملها عموم الآية .

« وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون » ، خطاب عام لأهل الرخص من المرضى والمسافرين وغيرهم ، والمعنى إنكم إذا علمتم وتدبرتم ما في الصوم من الخير وأنه يورث تقوى الله ، علمتم أن الصيام خير لكم ؛ وهذا إذا لم يضركم الصوم ، لأن الضرر لا خير فيه .

وقوله تعالى « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » ، بيان من الله تعالى بأن الأيام المعدودات هي شهر رمضان ، وأنه إنما فرض صيامه على الناس لأنه شهر كله خير وبركة ، فقد أنزل فيه القرآن في ليلة باركها الله وجعلها خيراً من ألف شهر ؛ والقرآن هو الهداية العامة والنور الساطع ، لحير البشر وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، وأنه في هدايته آيات بينات من الهدى ، ومنهج واضح للفصل بين الحق والباطل .

وإذا كان القرآن نعمة عظمى تجلى الله بها على عباده في هذا الشهر ، فإنه

يكون أنسب أن يجعل هذا الشهر شهر تبتل ورجوع إلى الله بعبادة الصوم التي تزيك النفوس ، وتطهر القلوب عما ألم بها ، شكر الله تعالى على هذه النعمة .

ولما بين الله ما اختص به هذا الشهر من المنزلة عنده ، قال : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » ، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، أى يجب على من شهد منكم أى كان حاضراً وقت حلوله - أن يصومه إن كان صحيحاً مقياً ، وإن كان مريضاً أو مسافراً وقت حلوله ، أو طرأ عليه ذلك أثناء الشهر ، حل له أن يفطر ، رخصة من الله ، ويقضى ما أفطر من أيام أخر .

وهذا التفسير أولى مما قاله بعض المفسرين : إن معنى الآية أن من حل عليه رمضان وهو صحيح مقيم وجب عليه صيام الشهر كله ولو سافر في أثنائه ، ومن حل عليه وهو مريض أو مسافر قضى عدة ما أفطر من أيام أخر ؛ لأن تفسير هذا البضع لا يتفق مع عمل النبي صلى الله عليه وسلم ، حيث كان يصوم بعض أيام الشهر ثم يسافر فيفطر .

وقوله « ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » تأكيد للرخصة للمريض والمسافر ، لئلا يظن السامع بعد أن بين الله المزايا العظيمة التي في شهر رمضان ، وبعد أن أمر بصيامه بقوله : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » - لئلا يظن أن صيام الشهر كله أمر حتم .

وهنا يعرض للناظر في قوله « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » ، أن الآية لا تشمل سكان بلاد الشمال الذين يطول ليلهم ونهارهم ، وقد يصل في بعض الجهات القريبة من القطبين إلى شهور . ومع أن القرآن راعى في تشريع الحكم الأعم الأغلب من بلاد الله ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يترك ذلك ، بل وضع له أساساً يتبع في الحكم للمسلمين الذين يصلون إلى هذه الجهات . ففي صحيح مسلم عند ذكر أحداث الدجال ، وأن من أيامه يوما كسنة ويوما كشهر ويوما كجمعة - سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل يكنى في يومه

الذى كسنة صلاة يوم واحد ؟ قال : لا ، اقدروا له قدره ، أى اجعلوا لكل وقت من أوقات الصلاة قدرا من هذا اليوم تؤدونها فيه .

وهذا أصل في التشريع لكل أنواع العبادات الموقوتة ، ومنها الصيام .
والأظهر أن يكون التقدير حسب الاوقات في أقرب البلاد المعتدلة .

* * *

أشارت الآيات السابقة إلى ما كان من فضل الله علينا ، وسعة رحمته بنا في فرض الصيام حيث جعله سبيلا إلى التقوى ، وأزاح عنا المشقة وسهل لنا صيامه فجعله في أيام معدودات ، لا أبداً ولا في أكثر الاوقات ، ورخص في تأخيرهِ للرضى والمسافرين ، كما رخص لمن يجهدهم الصيام ويشق عليهم في الإفطار والغدية ، وجعله في أخطر الشهور شأنا وهو شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هداية للبشر — فناسب أن يُخْتَمَ ذلك كله بالنبية هلى الحكمة فى هذه الالطاف المقرونة بهذا التكليف ، فقال تعالى يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتُكْمَلُوا العدة ، ولتُكْسَبُوا الله على ما هداكم ، ولعلكم تشكرون . .

وبيان ذلك أن الله بنى تشريعهُ على اليسر والرفق ، وما جعل علينا فى الدين من حرج ، ولذلك جعل الصيام يسراً لا عسراً فيه حيث فرضه فى أيام معدودات . ورخص لأصحاب الأعذار من المرضى والمسافرين فى تأخيرهِ . كما رخص لمن يشق عليهم الصوم فى الإفطار والغدية ، ورخص لنا فى إكمال هدة الشهر بقضاء ما فاتنا ، ليكمل لنا الاجر وحسن مثوبة الصوم . وهى من تدعونا إلى تكبير الله وتعظيم شأنه على ما هدانا إليه من الخير ، وإلى شكره على هذا الفضل العظيم .

عناصر المدنية في الديانة الإسلامية

بينما في الجزء الماضي أن عقائد الإسلام الرئيسية تمنع تولد الشقاق بين الجماعات ، فلا تشتغل الجماعات بنفسها عن توحيد قواها للوصول إلى غاياتها في ثمة وطمأنينة لابد منها لبناء الأصول الراسخة ، وإقامة المباني الشاخنة ؛ واليوم نسرده رؤس الأصول الاجتماعية في الإسلام ، ونبين أنها مستودع آياته الباهرة ، ومعجزاته الخالدة ، فنقول :

لكل مجتمع أصول تقوم عليها أركانه ، كما لكل مبنى وطائد يقوم عليها بنيانه ، وبقدر ما تكون تلك الأصول قوية ومستقرة على قرار مكين ، يحى البناء متيناً راسياً لا يتداعى للسقوط ، ولا يحتاج للترميم . وقد جرت السنة الاجتماعية على أن هذه الأصول تكون بدائية في المجتمعات الحديثة الوجود ، ثم تأخذ في التهدب والارتقاء رويداً رويداً تحت تأثير دوافع قاهرة ، وعوامل مؤثرة ، تظهر أولاً على صورة مصادمات جدلية ، ثم تتطور إلى ثورات دموية ؛ وعقب كل انقلاب من هذه الانقلابات ترتقي الروابط الاجتماعية درجة في تطورها إلى الديمقراطية المثالية ، التي تقطع معها الفوارق الطائفية في الأمة الواحدة . من هنا لا تفتأ الجماعات تهب فيها الثورات من حين إلى آخر ، مدفوعة إليها بعوامل ناموس الارتقاء ، لا بعوامل شر كما يتوهم ذلك من لا بصيرة لهم بعلم الاجتماع .

قلنا : إن الجماعة الإسلامية مضى عليها بعد أن تألفت على حالة ضعيفة ساذجة ، ووصلت إلى درجة ممتازة من النظام الاجتماعي ، والرقى العلوى والعملى ، مما استحققت به خلافة الله في الأرض - قرون كثيرة ، لم تشب فيها ثورة واحدة أثارها ما يثير غيرها من طلب المساواة في الحقوق والواجبات الاجتماعية ، وهى الأسباب التى ولدت في جميع العصور شر الثورات ، وأشدّها كلباً ، حتى كانت سبباً في حل جماعات ، وضياع استقلال أخرى ، وجرت وراءها نكبات لا حصر لها لتلك المجتمعات وما جاورها ، ولا يزال الناس يعيدون ذكرى الثورات الرومانية والانجليزية والفرنسية والروسية وغيرها مما لا يمكن حصره .

ولما يردد الناس ذكرى هذه الثورات لأنها إنما شئت لتوليد الحقوق الإنسانية الطبيعية ، وتسجيل نشوئها في العالم كأصول أولية لكل نهضة اجتماعية ذات أغراض مدنية أو أدبية .

إذا صح هذا وهو صحيح ، بل هو طبيعي محسوس ، فلماذا لم تحدث مثل هذه الثورات في الأمة الإسلامية ، فيستدعي نواضها الاجتماعي والمدني قروناً كثيرة كما حدث لغيرها ؛ بل تألفت ولم يعض على تألفها قرنان حتى أصبحت أعظم أمبرطورية في الأرض ، وأسست مدنية فاقت جميع ما تقدمها ، وحفظت للعالم تراثه العلمي وزادت عليه من جهودها مكتشفات جديدة ، ومعلومات ثمينة ، أتمت كل هذا في قرنين لم يتخللها أقل اعتراك على الحقوق الاجتماعية ، الأمر الذي احتكر جميع الثورات البشرية ، واستوعب تاريخها كله ؟

السبب في هذا هو ما قدمناه من أن الاسلام جاء مشتملاً على جميع حقوق الأفراد بعضهم حيال بعض ، وعلى كل ضروب المساواة التي تتطلبها الحياة المدنية ، ولا تظهر الحاجة إليها في الشعوب إلا رويداً رويداً ، ففي كل مرحلة من المراحل الاجتماعية يزداد وعي الجماعة بنفسها ، فتطالب الطوائف المحرومة من حقوقها بتلك الحقوق ، ويصر المتمتعون بها على حرمانهم منها ، فيحاول الضعفاء أخذها غلاباً ، فتقع بين الفريقين ثورة قد يتغلب فيها المعتصبون ، فتهدأ الثورات أمداً محدوداً ، ثم تهب من جديد ؛ ولا تزال تتبع هذا الأسلوب إزاء حصولها على حقوقها الاجتماعية ، حتى تحصل عليها كاملة أو تخيب في منازعة خصومها فتلحق بالمتخلفين .

أرسل الله خاتم رسله بالاسلام ، والامم في غيبة من الجهل بحقوقها ، يسوقها رعاتها إلى التناحر ، فتتقاد لهم انقياد الخراف لرعاتها ، فيدفعون بها إلى أى الأغراض شاموا ؛ فأعلن صلى الله عليه وسلم الأفراد بحقوقهم وواجباتهم وطالبهم بالاعتدال بها والحرص عليها ، وأنهم يحيون حياة طيبة ، ويخدمون أنفسهم والإنسانية أجمع ما داموا عاملين بها ، ومرتسمين خطواتها ، فإن انحرفوا عنها انحرفت بهم الأحوال ، فإن لم يتيقظوا أدركتهم أدواء الأمم وهلكوا ولا كرامة .

أول تلك الأصول : المساواة بين الناس كافة في جميع الحقوق الإنسانية لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا تركي على زنجي ولا لغني على فقير ، ولا لوجيه

على صعلوك ، فالجميع متساوون في الحرق والواجبات ، قال الله تعالى : « يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح ، كلكم لآدم وآدم من تراب » .

بهذا الأصل الاصيل سقطت في العالم الاسلامي فتنة اعتبار الفقراء والعامّة محرومين ، أو كإشباه المحرومين من الحقوق الوطنية ، والميزات الاجتماعية ، فكل مسلم وإن كان معدما وذا ماض بعيد في الفاقة وخمول الذكر ، من الحقوق الوطنية ما لا تثرى الاثرياء ، الممثل لارفع البيوتات ، وأنبيل الطبقات .

فكما فتح الإسلام أمامه باب الارتزاق ، ولم يضع له حدا في طلب الخلال ، مهد له سبيل الخدم الاجتماعية ، فلم يوصد في وجهه بابا يمكن أن يبلغ منه للوصول إلى أرفع الدرجات في المجتمع ، ولم يضع أمامه من العراقيل ما يصرفه عنه إلى غيره . وقد بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنفيذ هذا النظام فولى بلالا - وكان مملوكا حبشيا لواحد من الناس - على المدينة ، ليدير أمورها في غيبته ، وكان فيها أبو بكر وعمر وعدد كبير من عظماء الصحابة ، وكبار أصحاب البيوتات .

فهذه ديمقراطية لم يرها العالم المتتمدن إلى اليوم ، ولم ينس الناس ما لقي ويلقى السود والهنود وغيرهم من سوء معاملة بعض الأمم المتقدمة إلى عهدنا هذا .

وكما رفع الإسلام عن الضعفاء هذا الاصر ، أفركهم في جميع مجالات الحياة مع الكبراء ، وجلة الاثرياء . وساوى بين الجميع في المعاملات ، بينما كانت الأمم في حين إبحاء الإسلام إلى أواخر القرن الثامن عشر أي إلى عهد الثورة الفرنسية في سنة (١٧٩٨) ، لا تزال تضع فروقا عظيمة بين الاثرياء والفقراء . جاء في موسوعة لاروس قوله : « في سنة (١٧٩٨) كان يوجد عدم مساواة شائك في توزيع المناصب العمومية ، وعدم الرقابة عليها ، فبذل وزراء لويز السادس عشر جهدهم لإجراء الاصلاحات التي تتطلبها الأمة ؛ فلم ينجحوا ضد المقاومة العنيفة لرجال الدين والتبلاء ، فرأت الأمة أنه لا يجدى في هذا الامر غير ثورة تضع مكان جماعة قائمة على اعتبار الامتيازات ، جماعة أخرى يسودها قانون المساواة بين

الجميع ، اهـ . وليس بخاف على القراء ما أحدثته الثورة الفرنسية من الانقلابات ، وما قررته من الإصلاحات ، وكانت سببا في إيقاظ شعوب أوروبا جميعا من سباتهم ، فلم يلبثوا حتى ثاروا جميعا ضد حكوماتهم طالبين الناسى بحكومة الفرنسيين ، فسكان لهم ما أرادوا ، فانظر كيف تأخر الاوربيون عن المسلمين نحو اثني عشر قرنا في التمتع بالحرية ، وبالأصول المستندة الى الديمقراطية الصحيحة التي أساسها المساواة المطلقة بين جميع أفراد الشعب . والله إنه لأمر جلل !

هذا تأويل عدم ثورة المسلمين على قادتهم طوال عهد ارتقائهم ، فقد كان ذلك لعدم وجود ما يقتضيه من منع حقوق الضعفاء ، وحصر الشؤن العظيمة للطبقات القوية من الاثرياء ، وأصحاب العصبية . وعدم وجود مثل هذه الثورات في الاجتماع الإسلامي في مدى قرون متوالية ، هو الذي مكنتهم من تحقيق مدنية راقية في مدى قرنين اثنين . أليس من المعجزات الباهرة أن تتألف أمة لا عهد لها بوحدة ، ولا بحكومة ، ولا بقانون ، ولا بمثل أعلى ، فتصل في قرنين إلى أبعد ما وصل إليه غيرها في عشرة قرون ؟

نعم إن هذا الأمر من المعجزات الباهرة ، وأي إعجاز أعظم من إيجاد أمة من العدم ، وتزويدها باصول اجتماعية تضمن قيامها على أكمل نظام ، وبإحدى خلقه تجعل منها أمة مثالية على أرقى حال ؟ ومن العجيب أن هذه الأمة مرت بجميع الأدوار المكونة للاجتماع ، كما يمر الطفل بجميع أدوار الطفولة حتى يصل إلى سن الرجولة . وعند وصولها إلى دور الرجولة تنقلب في أدوارها دون أن يصاب وجودها بأذى ، إلا بما لا مناص منه من لوازم الحروب والمصاومات ، ولكنها لم يتزعزع لها أساس ، ولم يه لها ركن ، فتحملت جميع عواقب تصرفاتها الحيوية دون أن تصاب في صميمها بأي عرض .

وقد انتهى بها الأمر في أدوار الاجتماع الى أن بلغت هذه المرحلة الأخيرة التي تغلب فيها الأجانب على كثير من أقطارها ، ولكنها مع كل هذا شديدة التعلق بدينها ، والحنين إليه ، عازية جميع ما أصابها الى حبيدها عن صراطه ، ومدبرتها لمبادئ وأصوله ، غير يائسة من العود إليها لاسترداد مجدها الاثيل ، وعزها التليد .

اصلاح الاخلاق وعالية الآداب

[نص الكتاب الذى توجه به جماعة كبار العلماء إلى
حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا لمناسبة
الحالة الدينية والحلقية فى البلاد ، فتقبله رفعتة قبولاً طيباً]

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس مجلس الوزراء
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد :

فإن الله جل شأنه أخذ ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيئنه للناس ولا يكتمونه ،
وأمر المؤمنين بأن تكون منهم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف
وينهون عن المنكر ، وحذر عباده فى كتابه العزيز ، وعلى لسان رسوله الكريم
عواقب الفساد والفتن ، التى لا تصيب الذين ظلموا خاصة ، وضرب لنا الأمثال
بمن كان قبلنا من أمم ، استشرى فيها الفساد وفشا فيها المنكر ، فسكت خاصتها على
عامتها حتى أخذوا جميعاً بعذاب الله ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا
لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ، ، فلو لا كان من القرون
من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم ، واتبع
الذين ظلموا ما اترفوا فيه ، وكانوا مجرمين ، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم
وأهلها مصلحون ، .

وكأ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب على البلاغ والبيان ، أخذ ميثاق
أهل الحكم والسلطان أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وأن يحكموا بين الناس
بالعدل ، وقيموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، ويكونوا فى شعوبهم قوام كل
مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، يرتادون لهم الطيبات ، ويدودونهم
عن مواقع الهلكة ويحمونهم كل شر ، ويقودونهم إلى كل خير .

وإن الناظر فى حال أمتنا العزيزة وما آل إليه أمر الدين والخلق فيها ، ليهوله
ما يرى ، ويأخذه كثير من الحزن على حاضرها الذى صارت إليه ، ويخالجه كثير
من الإشفاق على مستقبلها الذى هى مقبلة عليه ، فقد استهان الناس بأوامر الدين

ونواهيه ، وجنحوا إلى ما يخالف تقاليد الإسلام ، ودخل على كثير منهم ما لم يكن يمهّد من أخلاق الإباحية والتحلل ؛ جريا وراء المدنية الزائفة ، واعتاررا ببريقها الخادع ، وكثرت عوامل الإفساد والإغراء في البلاد ، ولا سيما أمام ناشئتها وفتيانها المرجوين للهوض بها ، والّاخذ بيدها في حاضرهما ومستقبلها ؛ فن حفلات ماجنة خليعة يختلط فيها النساء بالرجال على صورة متهتكة جريئة تشرب فيها الخمر ، ويرتكب فيها ما ينافي المروءة والخلق الكريم ، إلى أندية يباح فيها القمار ويسكب على موائدها الذهب النضار ، وتبتر فيها الأموال ، وتزلزل بسببها البيوت والكرامات إلى ملاعب للسباق والمراهنات ، تطوى على ألوان من الفساد وإضاعة المال ، إلى مسابقات للجمال ، إنما هي ممرض للفسوق والإثم ، يرتكب فيها ما يندى له جبين الدين والخلق والمروءة ، ويباح فيها من المحرمات أكبرها وأخطرها ، إلى شواطئ في الصيف يخلع فيها العذار ، ويطنى فيها الأشرار ، إلى أخبار ذلك تذكر وتُنشر ، وتوصف وتصور ، وتستثار بها كوامن الشهوات والغرائز في غير تورع ولا حياء إلى كثير من ألوان المنكرات وفنون الموبقات . كل هذا يحدث في البلاد ، ويعمل عمله المتواصل في أخلاقنا وتقاليدنا ، حتى اشتد الخطب ، وجل الأمر ، وأصبح في حاجة إلى علاج سريع .

يا صاحب المقام الرفيع :

لقد أورتنا المدنية الأوروبية وما وفد علينا من وافدات الرذيلة والاباحية ، وما غزينا به في أخلاقنا وتقاليدنا الكريمة - أورتنا كل ذلك - عرفا فاسدا ، وذوقا مريضا ، ومجتمعاً صار ينظر الى هذه المفاصد نظرتة إلى شيء مألوف ، فلا يكاد ينكرها فضلا عن أن يغيرها ؛ بل أصبح يراها - إلا قليلا من عصم الله - آية من آيات التقدم ، وعلامة على الهوض والرقى ، ورضيت بها القوانين بل حتمها ونظمتها ، وجبت من كسبها الحرام الضرائب والرسوم ؛ كما تجبها من الأعمال المشروعة والمكاسب الشريفة .

ألا وإن أكبر الفساد بعد الوقوع في الفساد ، أن يرى الغنى فيه إرشادا ، والضلال هدى ، فإنه حينئذ دليل على تأصل جرائمه ، وتمكنها من القلوب ، وصيرورة الأمة الى الزمان الذى يرى فيه المعروف منكرا ، والمنكر معروفا . والقيبح حسنا والحسن قبيحا .

وإن لنا في بعض الأمم الحاضرة لعبرة إذ أفسدها الترف ، وفَت في عضدها الإنحلال ؛ نسقطت يوم الجهاد أمام أعدائها ، ولم تطلق صبرا على ما أصابها من بأسهم وقوة شكيمنتهم ، وقد نادى بذلك قادتها وولاة أمرها ، ولكن بعد فوات الأوان ! وتلاوموا عليه ولكن بعد إن فاتتهم الفرصة ، فأصبحوا على ما فعلوا نادمين !

وقد جعلكم الله - يا صاحب المقام الرفيع - على رأس حكومة الشعب الحريصة على تقويم أمره ، وبث دعائم الإصلاح فيه ، وفي تاريخكم الحافل مواقف مشهودة ، تدل على ما فطركم الله عليه من حب الدين والفضيلة ، والجالس على عرش مصر ملك عظيم ، يحمل بين جنبيه نفسا كريمة ، ويؤمن بالله وكلماته ، ويعمل على إنشاء أمته نشأة صالحة قوية ، عمادها الخلق وقوامها الصلاح والاستقامة ، ويرجو لها من صميم قلبه منزلة من العزة والسمو تعود بها إلى سالف مجدها ، وقد منح الله مصر بين شقيقتيها الإسلامية والعربية - بفضل توجيهه السامي - مركز القدوة والقيادة ، فهي تنظر إليها وترقب أعمالها وتستن بسنتها ، وتهتدى بهدى علمائها وزعمائها ، وفيها الأزهر الشريف ، حصن الدين ، ومثابه العلم ، ومشرق شمس الفضيلة والأخلاق السكرية .

كل ذلك - يا صاحب المقام الرفيع - يجعلنا أقوى ما نكون في الإصلاح رجاء ، وأقرب ما نكون إلى النجاح سبيلا ، ويجعلنا على أن نناشدكم أمانة الله أن تقوموا لله قومة تقر بها عين الدين ، ويذل بها شيطان الفساد والمنكر ، ويحفظها التاريخ لكم صفحة بيضاء ، تنشر يوم القيامة في صحائفكم ، وتوزن في ميزان أعمالكم .

احفظوا ما ضيَّعه التهاون والتفريط ، وأشعروا أهل الفساد بوازع السلطان ؛ إذ لم يرتدعوا بوازع القرآن ، وأعلنوها حربا حامية الوطيس على كل منكر وفسوق ، وانتشلوا شباب الأمة من مهاوى العبث ، وهواطن الميوعة وأوكار الفجور ، وخدوا على يد كل من تحدته نفسه بالاعتداء على الفضيلة أو الترويج للرذيلة ، أو غرس بذور المجون والخلاعة في الأمة ، لأنكم إن فعلتم ذلك رضى الله عنكم ورسوله ، ورضى عنكم عقلاء الأمة وكرام العشيرة ، وإن ذلك هو الفوز العظيم .

وفقمكم الله إلى نصر الفضيلة ، ودحر الرذيلة ، وأعز بالفاروق دينه وأمه ، وأطال في طاعة الله حياته ، وبارك فيها للإسلام والمسلمين . آمين .

المتساؤل ولا يخلف

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكري ياسين

جاء في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « دعوني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء ، فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه » .

لهذا الحديث سبب ، وهو أنه لما نزل قوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » - قام النبي صلى الله عليه وسلم ، فخطب الناس ، فقال : « أيها الناس : قد فرض الله عليكم الحج فحجوا » ، فقام إليه الأقرع ابن حابس ، فقال : أكل عام يارسول الله ؟ فسكت حتى كررها مراراً ، ثم قال : « لو قلت نعم ، لوجبت ، ولما استطعتم » ، وذكر بقية الحديث ، ثم نزل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » الآية .

وجاء من غير وجه أن آية : « لا تسألوا » ، إنما نزلت لما أكثروا السؤال له صلى الله عليه وسلم عن أشياء كرهها ، وأن منها ما كان يسوء السائل جوابه ، مثل : هل أبوه في الجنة أو في النار ؟ وهل أبوه من نسب إليه أو غيره ؟ ومنها ما كان على وجه التعنت والعبث والاستهزاء ، كما كان يفعل المنافقون والمشركون وأهل الكتاب وغيرهم ، كقول بعضهم : أين ضللت ناقتي ، وكسؤالهم الآيات والاقتراحات ، وسؤالهم عما أخفاه الله عن عباده ، ولم يطلعهم عليه ، كالسؤال عن وقت الساعة ، وعن أمر الروح ، وسؤالهم عن كثير من

الحلال والحرام مما يخشى ان يكون السؤال سبباً لنزول التشديد فيه ، كالسؤال عن الحج ، وهل يجب كل عام ؟

ومن ثم غضب النبي صلى الله عليه وسلم غضباً شديداً ، وصعد المنبر وهو غضبان ، وقال للناس : سلوني ، فجعلوا يسألونه وهو يجيب ، فلما رأى عمر بن الخطاب ما بوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغضب ، جثا على ركبتيه وقال : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ، لا تفضضنا بسرائرنا واعف عنا ، عفا الله عنك ، فسرى عنه صلى الله عليه وسلم ، ثم التفت إلى الحائط فقال : لم أر كالיום في الخير والشر ، أريت الجنة والنار وراء هذا الحائط .

أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يبين للناس فائدة ترك السؤال عن أشياء لم تقع ، وضرر كثرة السؤال ، لما فيه غالباً من التعنت ، وخشية أن ينزل بسببها وجوب المسؤل عنه أو تحريره ، أو أن تقع الإجابة بأمر يستثقل قد يؤدي إلى ترك الامتثال ، فتقع المخالفة ، فأفهمهم أنه يحمل بهم أن يتركوه بغير سؤال مدة تركه لهم بغير أمر بشيء ، ولا نهى عن شيء ، وألا يكثرُوا من الاستفصال عن مواضع لا تفيدهم ، ولا من التنقيب عما يفضي بهم إلى الوقوع فيما وقع فيه غيرهم ، ثم ذكر لهم سببين جوهرين من أسباب هلاك الأمم السابقة عسى أن يحذروهما ، ويتقوا آثارهما الضارة .

فأما السبب الأول ، فهو كثرة السؤال عما يعينهم من غير ضرورة ، وقد اختلف في المراد بالذين كانوا قبلهم ، فقيل : هم قوم عيسى ، سألوه إنزال المائدة ، ثم كفروا بها ، وقيل : هم قوم صالح ، سألوه الناقة ، ثم عقروها وكفروا بها ، وقيل : هم قوم موسى ، سألوه أن يريهم الله جهرة ، وأن يبين لهم البقرة التي أمروا بذبحها ، فتمعتوا ، ولم يبادروا إلى مقتضى اللفظ من ذبح أى بقرة كانت ، بل شددوا على أنفسهم بكثرة السؤال عن حال البقرة وصفتها ، فشدد الله عليهم بزيادة الأوصاف حتى لم يجدوا متصفاً بها إلا بقرة

واحدة فاشتروها بثمن باهظ ، وقيل : هم بنو إسرائيل مطلقاً ، كانوا يسألون أنبياءهم عن أشياء ، فإذا أخبروهم كذبوهم ، وقيل : هم قريش ، كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم أن يحول لهم الصفا ذهباً ، وأن يبين لهم أنسابهم ، فإذا أخبرهم لم يصدقوه وقالوا : ليس الأمر كذلك .

وأكثر العلماء على أن كثرة السؤال المنهى عنها في الآية ، هي السؤال عن النوازل والاعلوطات ^(١) والتوليدات ، فقد نهى الشارع عنها ، وورد أنه سيكون من الامة أناس يغالطون فقهائهم ، بعضل المسائل ، وأنهم شرار الامة . وقال الاوزاعي : إن الله تعالى إذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم ألقي على لسانه المغاليط ، فلقد رأيتهم أقل الناس علماً .

وقيل : المراد كثرة السؤال عن الأشياء كالبجيرة والوصيلة ، والسائبة والحام ، وعن الآيات ، كسؤال قريش أن يجعل الصفا لهم ذهباً ، وسؤال اليهود أن ينزل عليهم كتاباً من السماء ، ونحو ذلك .

وأما ما ثبت في الأحاديث المتعددة وقوع السؤال عنه من الصحابة ، فيحتمل أن يكون قبل نزول آية ، لا تسألوا ، ، ويحتمل أن النهي في الآية لا يتناول ما يحتاج إليه مما تقرر حكمه أو ما لهم بمعرفته حاجة راهنة ، كالسؤال عن الذبح بالنصب ، والسؤال عن وجوب طاعة الأمراء إذا أمروا بغير الطاعة ، والسؤال عن أحوال يوم القيامة ، وما فيها من الملاحم والفتن ، والأسئلة التي في القرآن ، كسؤالهم عن السكالة والخمر والميسر ، والقتال في الشهر الحرام واليتامى والمحيض والنساء والصيد ، وغير ذلك .

وقال البغوي في شرح السنة : المسائل على وجهين . أحدهما ما كان على وجه التعليم لما يحتاج إليه من أمر الدين ، فهو جائز ، بل مأمور به ، لقوله تعالى ، فاسألوا أهل الذكر ، الآية ، وعلى ذلك تنزل أسئلة الصحابة عن الانفال

(١) صواب المسائل وشذوها .

والسكالة وغيرهما، وثانيهما ما كان على وجه التعنت والتكلف ، وهو المراد في هذا الحديث .

وقد حرر بعض الأئمة هذا الموضوع ، فقال ما خلاصته : والتحقيق أن البحث عما لا يوجد فيه نص على قسمين : أحدهما أن يبحث عن دخوله في دلالة النص على اختلاف وجوها ، فهذا مطلوب ولا مكروه ، بل ربما كان فرضا على من تعين عليه من المجتهدين .

والثاني أن يدقق النظر في وجوه الفروق ، فيفرق بين متماثلين بفرق ليس له أثر في الشرع مع وجود وصف الجمع ، أو بالعكس ، بأن يجمع بين متفرقين بوصف طردى مثلا ، فهذا الذي ذمه السلف ، وعليه ينطبق حديث ابن مسعود : « هلك المنتطعون » ، فأروا أن فيه تضييع الزمان بما لا طائل تحته ، ومثله الإجماع من التفريع على مسألة لا أصل لها في الكتاب ، ولا في السنة ، ولا في الإجماع ، وهي نادرة الوقوع جداً ، فيصرف فيها زمانا كان صرفه في غيرها أولى ، ولا سيما إن لزم من ذلك لإغفال التوسع فيما يكثُر وقوعه ، وأشد من ذلك البحث عن أمور مغيبة ، ورد الشرع بالإيمان بها مع ترك كيفيةها ، ومنها ما لا يكون له شاهد في عالم الحس ، كالسؤال عن وقت الساعة ، وعن الروح ، وعن مدة هذه الأمة ، إلى أمثال ذلك مما لا يُعرف إلا بالنقل الصرف ، والكثير منه لم يثبت فيه شيء ، فيجب الإيمان به من غير بحث ، وأشد من ذلك ، ما توقع كثرة البحث عنه في الشك والخيرة ، كحديث أبي هريرة : « لا يزال الناس يتساءلون ، حتى يقال : هذا الله خلق الخلق ، فمن خالق الله ؟ » .

وقد انقسم العلماء لإزاء كثرة السؤال إلى أقسام ثلاثة : فمنهم من سد باب التساؤل ، وأحكم إيصاده ، حتى قل فهمه وعلمه لحدود ما أنزل الله على رسوله ، وصار حامل فقه غير فقيه .

ومنهم من فتح الباب على مصراعيه ، وتوسع في توليد المسائل ، وتفرع الفروع ، وأسرف في ذلك ، واشتغل بتكلف الجواب عنها ، وكثرة النقاش فيها ،

والجدال عليها ، حتى نشأ عن ذلك افتراق القلوب ، واستقرار الأهواء والشحناء والعداوة والبغضاء فيها .

ومنهم من جعل همّه موجهاً إلى البحث عن معاني كتاب الله ، وما يفسره من السنن الصحيحة ، وكلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وعن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعرفة صحيحها وسقيمها ، والتفقه فيها وفهمها ، والوقوف على معانيها ، ثم معرفة كلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان في أنواع العلوم من التفسير والحديث ، ومسائل الحلال والحرام ، وأصول السنة والزهد والرفائق وغير ذلك ، وهذا هو طريق السلف من فقهاء الأمصار من التابعين فمن بعدهم ، حتى حدثت الطائفة الثانية ، فعارضتها الطائفة الأولى ، فكثرت بينهم المراء والجدال ، وتولدت البغضاء ، وتسموا خصوماً ، وهم أهل دين واحد ، والتوسط والاعتدال هو الخير في كل شيء .

وأما السبب الثاني من أسباب هلاك الأمم الماضية ، فهو اختلافهم على أنبيائهم ، ومعارضتهم لهم ، وتسكينهم لشرائعهم ، وخروجهم على وصاياهم ، وانحرافهم عن مبادئهم ، وإهمالهم العمل بتعاليمهم ، والمراد به — على الجملة — كل اختلاف مذموم يؤدي إلى كفر أو بدعة ، ويكون سبباً في تفرق القلوب ، وتباين الأهواء ، وتعدد الجماعات ، ووجود الانقسامات ، وتوهين عرى الدين ، وإضعاف شوكة الإسلام ، كما وقع بين الخوارج قديماً ، فإنهم كانوا يقطع بعضهم في بعض ، ويتبرأ بعضهم من بعض .

وأما الاختلاف في استنباط فروع الدين ، ومناظرة أهل العلم على سبيل تحقيق الفائدة ، وإظهار الحق ، وإعلاء كلمة الله ، فغير منهي عنه ، بل مأمور به ، وفضيلته ظاهرة ، وقد جرى العمل عليه من عهد الصحابة إلى الآن .

* * *

بعد أن أجمل النبي صلى الله عليه وسلم هذين السببين المؤثرين في كيان الأمم ووجودها ، أراد أن ينبه الناس على أن الأولى بهم ، والأجدى عليهم أن يتركوا التساؤل عما لا يفيدهم ، وأن يشتغلوا بالأم الذي يحتاجون إليه عاجلاً ،

وأن ينصرفوا عن كل ما يعوقهم عن ذلك ، وهذا لا يكون إلا بالاعتصار على فعل ما يطيقونه بما يأمرهم به ، واجتناب كل ما ينهاهم عنه ، وقد أوضح لهم ذلك في عبارتين شاملتين ، وجمتين جامعتين : الجملة الأولى قوله صلى الله عليه وسلم : « فإذا أمرتكم بشيء ، فأتوا منه ما استطعتم ، فإنها - كما قال النووي - من قواعد الإسلام المهمة ومن جوامع الحكم التي أعطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويدخل فيها ما لا يحصى من الأحكام ، كالصلاة بأنواعها ، فإذا عجز عن بعض أركانها ، أو بعض شروطها أتى بالباقي ، وإذا عجز عن بعض أعضاء الوضوء أو الغسل ، غسل الممكن ، وإذا وجد بعض ما يكفيه من الماء لعطارته ، أو لغسل النجاسة ، فعل الممكن ، وإذا وجبت إزالة منكرات ، أو فطرة جماعة من تلزمه نفقتهم ، أو نحو ذلك ، وأمكنه البعض ، فعل الممكن ، وإذا وجد ما يستر بعض عورته ، أو حفظ بعض الفاتحة ، أتى بالممكن ، وأشبه ذلك كثيرة غير منحصرة ، وهي مشهورة في كتب الفقه .

والجملة الثانية قوله صلى الله عليه وسلم : « وإذا نهيتكم عن شيء فدهوه ، » ، وهي على إطلاقها في إفادة اجتناب كل منهي عنه ، فإن وجد عذر يبيحه كأكل الميتة عند الضرورة ، وشرب الخمر والتلفظ بكلمة الكفر عند الإكراه ، أو نحو ذلك ، فهذا ليس منهيًا عنه في هذه الحال ، كما تدل أيضا على أن انتهاء الشرع بالمنهيات فوق اعتنائه بالمأمورات ، لأنه أطلق الاجتناب في المنهيات ولو مع المشقة في الترك ، وقيد في المأمورات بقدر الطاقة .

وصفة ما يقال في هاتين الجملتين : إن من أمثل ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ، وانتهى عما نهى عنه ، وكان مشغولا بذلك عن غيره ، حصلت له النجاة في الدنيا والآخرة ، ومن خالف ذلك ، واشتغل بخواطره وما يستحسنه وقع فيما حذر منه الرسول من حال أهل الكتاب الذين هلكوا بكثرة مسائلهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، وهدم أقيادهم ، وطأهم لرسلهم .

بمناسبة الحكم في قضية كتاب « الفرقان » :

علموهم ليكونوا الحكم

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني

المفتش بالازهر

في الشهر الماضي أصدرت محكمة القضاء الإداري ، بمجلس الدولة حكمها في قضية كتاب « الفرقان » ، الذي ألفه محمد عبد اللطيف افندي ، وكانت الحكومة قد صادرتة بناء على طلب مشيخة الجامع الأزهر ؛ لما تضمنه من مطاعن في القرآن الكريم رسماً وتلاوة ، وفي السنة المطهرة متناً وسنداً ، فطلب مؤلفه من المحكمة أن تلغى هذه المصادرة ، وأن تحكم له بتعويض كبير قدره بما أصابه من ضرر أدبي ومادى نتيجة لهذه المصادرة .

وقد كان لكاتب هذه السطور وزميلين كريمين له جهد في فحص هذا الكتاب ، ورفع تقرير عنه ، ثم في الاتصال بالقضية ومتابعة أطوارها ، ويهمني أن أبادر بتسجيل شكرى باسم الدين والعلم والأزهر لحضرات أعضاء هذه المحكمة العادلة ، ولا سيما رئيسها الجليل سامى مازن بك ، فقد لمست عنايتها الفائقة بالموضوع ، وحرصها الشديد على تتبع كل ما يتصل به ليتجلى لها الحق ، ويسفر أمامها الرأى واضحاً في هذا الموضوع الخطير ، حتى لقد علمت أن حضراتهم قرأوا في موضوع الرسم والقراءات عشرات من الكتب المؤلفة قديماً وحديثاً ، ووقفوا عند كل موضوع من الموضوعات المتصلة بالقضية موقف الناقد البصير ، والفاحص الخبير ، وإن سعادة الرئيس لم يكن يكتفى بهذا ، ولكنه كان يتناقش شفويًا مع العلماء في كل نقطة يرى وجوب استجلائها قبل الحكم ، وقد زار الجامع الأزهر واتصل ببعض علمائه باحثاً منقياً حتى اطمأن قلبه .

وكذلك فعل حضرة الاستاذ الكبير هبـد الحلـيم بك الجندى المحامى عن الحكومة والأزهر فى هذه القضية ، بل المحامى عن القرآن الكريم ، فقد كان مثال المؤمن بالله وكتباته ، الغيور على كتابه ، الحريص على تجلية الحق ، والظفر له بحكم يسجله التاريخ ، ولست أنسى ما حييت موقفه يوم الدفاع عن كتاب الله ، وقد أخذته مُحميًّا للإيمان ، وهزت مشاعره الحماسة الدينية ، فتدفق بيانا بالبراهين الدامغة ، وصدع صوتا بالحق فى إخلاص عميق مؤثر ، حتى لكان نبراته يومئذ نداء من السماء أن خذوا على يد هذا المسىء ، وعلوه أن كتاب الله لا تنال منه الترهات ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

فاللهم أشكرهم على ما سَعَوْا ، وأجزهم بالخير على ما رَعَوْا ، وأكثر فى المسلمين أمثالهم من يغارون على الحق ، وينصفون فى الحكم .

* * *

كتبت هذا الكلام اعترافاً بفضل أصحاب الفضل ، وتسجيلاً له ، وأقول بعد هذا :

لقد كثرت فى هذا العصر التطاول على الدين ، والتجرؤ على حقائقه وأصوله المسلمة ، وأصبحنا نرى كثيراً ممن يريدون الشهرة ، ويلتمسون الرواج ، يجعلون صبيـلهم إلى ذلك ما يحاولونه من التشكيك فى الدين ، أو فى قدرة أحكامه ، وتشريعه على النهوض بحاجات الناس ، وكفالاته لسعادتهم ، وما هكذا تلتصق الشهرة ، ولا يمثل هذا يكون الظهور . فقد كان سلفنا يقضون أعمارهم فى البحث والتعمق والنظر الصائب ، ويصبرون على متاعب العلم ، ومصاعب التفكير ، ويجعلون لأنفسهم حدوداً لا يتعدونها ، فهم فى فلك الكتاب والسنة يدورون ، وعلى أساس من العقل السليم ، وأصول الشريعة يحكمون ، لذلك كانت تأليفهم

موفقة ، نافعة ، راشدة ، وكانت أخطاؤهم إن أخطأوا مغفورة ، لأنها أخطاء المخلصين الذين لا يبتغون إلا الحق والمعرفة ، فإن أصابوا أجروا ، وإن أخطأوا أجروا ، بخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويقولون سيغفر لنا ، وإن يأنهم عرض مثله يأخذوه . ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه ، والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ، والذين همسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المحسنين .

ومن الخير أن نتعرف العوامل التي دعت إلى أن يكثر فينا هذا الصنف من المؤلفين ذوى الدعاوى العريضة ، والأقلام الطائشة .

وأحسب أن الأزهر إذا اكتفى بأن يصادر كتاباً أو كتابين في كل عام ، فإنه غير مستطيع وقف هذا التيار الذى إن بدا اليوم هادئاً بعض الهدوء ، فسيكون غداً جارفاً مكتسحاً .

وفي اعتقادى أن الناس لم يجدوا غذاء دينياً صالحاً يقدم لهم ، فأقبلوا على مثل هذا الغذاء الذى تضوى به العقول ، وهذه سنة الله فى كل مجتمع ، فإن أى تقصير فى بث الافكار الصالحة فيه ، يستتبع بقدرة إقبالاً على الافكار الفاسدة ، أو المخطئة ، فلو أن الأزهر أخذ بوسائل العصر الحاضر فى تنوير العقول ، وتجلية الحقائق أمامها ، ومدّها بزاد طيب لا خبث فيه ولا نكر ، لكانت الأمة كلها كأهل الأزهر ، ولكان بعض أفرادها دعاة ذوى غيرة ، ولو وجد المجتمع الحفيظ بعضه على بعض من الزلل والضلال .

وقد علمتنا تجارب الأمم فى العصور الاخيرة ، أن الشعوب تصاغ ، وأن العقول تحشد وتجنّد ، وأن زعيماً مخلصاً لفكرة ، مؤمناً بعميقة ، يستطيع أن يقنع بها جيلاً بأسره ، أو أجيالاً ، إذا أحسن الدفاع عنها ، وتوجيه العقول إليها .

ونحن فى أيدينا أقوم المبادئ ، وأثمن الشرائع ، وليس فيما عرفته البشرية من الأديان ، ما يقف أمام ديننا موقف المنافسة أو المنازعة ، وبين ظهرانينا

كتاب الله وسنة رسوله ، وفي مكتباتنا خيراً ما أنتجته العقول ، وجادت به القرائح وقد أوتينا قسطاً عظيماً من السلطان في الأمة ، والقدرة على توجيهها بما في أيدينا من مناصبها وأموالها ، وبما لنا من نفوذ روحي ديني لا يتمتع به حزب . ولا تنافسنا فيه جماعة ، ولكن ينقصنا حسن الانتفاع بهذه المزايا ، وأتانا قد شغلنا عن رسالتنا بأشخاصنا ، وتفرغنا للمنازعات والمخاصمات ، من سرية وعلنية ، فأرهمقنا بذلك أعصابنا وعقولنا ، وصار الكلال والتخاذل والتراخي من أبرز الصفات في محيطنا .

يجب أن نعمل ، بل أن نشقى ونحرق في العمل ، حتى نستطيع أن نربي ناشئة منا على فهم الدين والعلم فهما صحيحا ، وعلى عشقهما العشق الذي يجعلنا نفنى فيهما ، وتلذذ بما يصيبنا من نصب في سبيل تحصيلهما وترويجهما في الناس .

يجب علينا أن نغير العقول بما عندنا من العلم ، فقد جربت بنفسى أن كثيراً من المثقفين ثقافة مدنية يتقابلون بعض أفكارنا مقابلة فيها جفوة وتنكر ، بل فيها أحيانا سخرية وتهكم ، ثم لا يلبثون إذا شرحت لهم شرحاً دقيقاً ، أن يتبينوا الحق ، ويفيئوا إليه ، ويكونوا من دعاة .

وليس هذا على المجتمعات بغريب ، فإنه لسنة الله فيها منذ القدم ، وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يؤمنوا أساطين الشرك ، وأسانيد الكفر ، فاستطاع فرد واحد ، ثم أفراد معه أن يغزوا بهم العالم ، ويغيروا وجه التاريخ .

إننا لشكوا من انصراف الأمة عنا ، ونغضب حين نرى رجال الحكم فيها يغضون عن مطالبنا ، ولا وسيلة إلى مداواة هذا وذاك إلا بأن نعمل ونعمل ونعمل ، يومئذ يأتي إلينا الدهر معتذرا ، ويطرق أبوابنا الذين نطرق اليوم أبوابهم فلا يجيبون .

مِنْ تَوْجِهَاتِ الْفِرَاقِ

في تربية الخلق

أ — وإن تمفؤ أقرب للتقوى
ب — فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبكي
المفتش بالأزهر

أ — هنا : دعوة إلى العفو عن المساءة ، والعفو من صفات الرحمن عز شأنه ، وما يبلغ طرفاً من صفات الله إلا من سلمت إنسانيته من ضراوة الوحشية ، وتسامت به نزعات الخير حتى تهيم له أن يتخلق بأخلاق الرحمن ، ويرقى إلى شيء من أسباب ذلك الكمال المطلق .

ومعذرة إلى القارىء إذا استطردت معه قليلاً ، لا بين أن القرآن الكريم حينما يهتف بالإنسان إلى ناحية من نواحي الكمال ، تراه يخاطب فيه مرة إنسانية واعية ، ويعتمد فيه على عقلية تفقه ، فيترقى في خطابه ، إذ يكون الرفق أشبه بمقام الإنسان ، وبه يكون الخطاب أوقع في السمع ، وأسلس في القياد ، وأيقظ لغريزة الاعتداد بالنفس .

ولك شاهد على هذا أن تقرأ - مثلاً - قوله تعالى : « فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » ، « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً » ، « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ، « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم » ، « ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » .

فأنت إذ تقرأ هذه الآيات ونحوها يجيش في نفسك الأمل أن لك عند الله كرامة ، وبهزك الطرب أنك على مقربة من مرضاته ، وتنزع بك الرغبة إلى

الاستزادة من وسائل الزلفى إليه ، أو ليس يحفزك على الاقدام نحو السكال أن شملك بالخطاب في قوله يا عبادى ، وأن أكذلك الوعد أنك لا تصادف عنده ظلماً ولا هضمًا ؟ وأنك إذا ركنت إلى جانبه ولم تقنط من رحمته فستغفر لك الذنوب جميعاً ؟

تحس بكل ذلك حينما ترى القرآن يناجيك من ناحية إنسانيتك ، ويفترض فيك الصلاحية للخير ، ويفتح أمامك منافذ الأمل ، ويوحى إليك إذ أنزلت هذه المنزلة ، أنك فوق ما عداك من كائنات أخرى .

غير أنك ترى القرآن في سياق آخر حينما يتجه إلينا بالبيان ، يلحظ في الإنسان غرائز جاحمة ، ونوازع شاذة ، فيصدف عن الترفق ، ويشتمد في القول ، إذ يكون الإنسان في هذا الوضع ليس ذلك المخلوق الكريم الذى ترضاه باللين ، وإنما هو العاجز المتعافى ، والحقير المتكبر ، والضعيف المتعجب ، وحينئذ تكون الصرامة أجدى في إصلاحه ، وأنجع في تقويمه ، وأوفق لجوهره ، فإن لم تصلح من شأنه ففيها تصوير لهوانه ، ونزول به إلى مهبط وضيع ، ورجوع به إلى مكانة ذليلة تبين ما افترض لنفسه ، وتصده عن غلوائه ، وتكشف له عن إمعانه فى الباطل .

وشاهدك على هذا أيضاً أن تقرأ - مثلاً - قوله تعالى « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون » ، « ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين » ، « أولاً يذكر الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين » ، « إن ربك لبر لمصاد » ، « ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ، « وإن للطاغين لشر مئاب » الخ .

فأنت إذ تقرأ هذه الآيات ونحوها مما فيه تبيكيت للإنسان ، وغض من كبريائه ، وتديد بضيقه ، وإبراز لما خفى عليه من شأنه ، وقبح ما تخير لنفسه ، حين تقرأ ذلك لا تحس بشيء مما استشعرته فى الآيات الأولى ، فهناك مثله هدى ، ونصح فى رفق وتكريم ؛ وهنا مثله لوم وتعنيف ، يسمع المرء فيه تهديدا يذيب الحشا ، ويحس أن سيكون فى ردهة الحكم أمام قاض جبار ، ولن يكون فى ساحة العفو بين يدي غفور رحيم .

ذلك استطراد أجملته بين يديك ، لأريك به أن القرآن الكريم ، يقف من الإنسان موقف التكريم في الخطاب مرة حينما يقدر له إنسانيته ؛ وموقف الزرابة به مرة أخرى حينما يهمل ذلك الجانب ، ويقصد إلى ما في الإنسان من جموح .

ومن القليل الأول صنيع القرآن في توجيهنا إلى التجميل بخاق العفو ، فهو يترفق في الطلب ، ويبين في إيجاز يسير أن العفو أقرب للتقوى ، تاركاً لمداركنا أن تميز الخبيث من الطيب ، ومعتمداً على عقولنا أن تفقه وتستجيب .

على أنه فيما ساق من آيات أخرى ، ركز في عقولنا أن العفو خاق يرجح كثيراً سواء من أخلاق الفضيلة ؛ فهو وسيلة هامة في الحفاظ على حسن العلائق ، وحسم الشر ، وصيانة الجماعة من عوادي الخلق الذي تشيع من ورائه ظنون سوء ، وينحدر في ظلماتها الشيطان يعمل عمله في إفساد القلوب ، وتفريق الجماعات .

وكان القرآن — فيما أحسب — أذ يعتبر للعفو هذا الشأن . يراعى إلى جانب ذلك — في تقديره للإنسان — أن العفو محتاج إليه حينما يحتاج النفس عدوان يمسها ، أو تحيف يصيبها ، فيكون المرء مدفوعاً بالغريزة إلى المقاومة ، ومن حقه ذلك ، فليسكن طلب العفو منه ، والتغاضي عما ألم به ، طلباً هيناً ، لا يشعره باغتصاب حقه ، وكبت إرادته ، والانحياز به إلى الخنوع .

ولينبه في تلطف إلى أن العفو أقرب للتقوى ؛ إذ فيه عزوف عن الشقاق ، وكف للغضب ، ومجانبة لما يخشى من الإفراط في الجزاء فتتسع الهوة ، ويندلع الشر ؛ إذ لا يملك نفسه عند ثورتها ، ويطامن من شموخها إلا من نهضت مداركه ، فاعتدل فيه الرأي ، واستقام له التقدير ، واطمأن إلى أن العفو جانب من الرفق ، وما كان الرفق في شيء إلا زانه كما علمنا الرسول عليه السلام .. وقليل من يفتن إلى ذلك ، والمتبع لآي الكتاب في صدد العفو يجدها على هذا النحو سلاسة ، ومرونة وترغيباً ، لا تشعرك بضغط ، ولا تتم عن إكراه ، وهي لذلك في سياق العرض أدخل إلى النفس ، وأملك للفؤاد .

وإليك ذكر العفو فيما ذكر الله من أسباب مغفرته ، ووسائل رضوانه ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ، وليعفوا ، وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، وكذلك أمر نبيه في غير موضع بالعفو حتى مع أعدائه ، فاصفح الصفح الجميل ، فاعف عنهم واصفح ، وخذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين .

وجملة القول فيما وصلنا إليه : أن العفو من صفات الله ، ومن شمائل الرسول ومن خصال الأخيار ، وأن في الدعوة إليه على هذا النحو كثرة الشواهد ، ولطف التعبير توجيها إليه ، وإلى اختيار الأسلوب في الدعوة إلى كل غرض كريم ، حتى تكون الوسيلة ملائمة للغاية ، وبذلك تظل التعاليم الصالحة في نمط الدعوة إليها كمعدن نفيس في حرز كريم ، لك دائماً من حرزة رواء المنظر ، وفيه صدق المخبر ، وصدق الله فيما رسم ، ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة .

ب - ومع ما أسلفنا من القول في شأن العفو ديناً ، ودنيا فلدينا الآية الثانية تأمر بالانتقام ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، فكيف يلتقي هذا مع ذاك ؟

الأصل ألا تهدر الحقوق ، وأن تكون العدالة مائلة بين الناس ، بادية في كل شأن عظيم أو هان ، وسبيل ذلك أن يلقى المسمى جزاءه ، وأن يُدْرَأ الشر بالشر حتى يستقر الأمر في مجراه ، ويستقيم العدل في نصابه ، وعلى ذلك يكون الاقتصاد مشروعا ، واستيفاءه حقاً وأن كان في غير خطير .

ولكن بين الناس وشائج تدعو إلى التعاطف ، وتقضى بالتراحم ، وتأتي المشاققة والتنازع ، وبين الناس اعتبارات معيشية أحوج ما تكون إلى التسامح ؛ فالأمر بحاجة إلى المسالمة ، ومجانبة الغلظة والجفاء .

فكان من تمام النعمة أن يكون للتراحم بين الناس إلى جانب العدل شأن في تدبير الله ، وكان من مظاهر الحكمة أن تكون الرحمة أوفر حظاً في تقدير الله ،

وكان في تقديم العفو على المجازاة ، وترجيح الرحمة على العدل أخذ بسنة الله فيما اختار لنفسه مع خلقه ، وفيما رضى لنفسه من صفات السكال .

فنحن إذ نرى أنفسنا في حل من مجازاة المسمى بما فعل ، ونرى ذلك عدلا تنقرر به الحقوق ، وتضمن به الكرامات ، نرى دواعي أخرى إلى العفو ، لكبح الضغينة ، وتركيز المحبة ، وتأصيل المودة .

ولعل من وراء ذلك ظفرا بما كان يرجى من العدل والجزاء ؛ مع البعد عما قد يتركه العدل من وحشة وغضاضة ؛ لقيامه على غير المجاملة ، ولتعرضه أحيانا للمبالغة في التنكيل وتجاوز الحد المشروع .

وأنت إذا تمتعت آيتنا هذه تبينت فيها تحديداً دقيقاً لتشريع المجازاة بما يوحى إليك ، كأن العفو أصل والجزاء استثناء . فهي - أولاً - مبدوءة بقوله تعالى « فن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه ، وهذا قيد سيق أول الكلام للتنبيه على أن المجازاة على العدوان لا تكون إلا بعد حصوله فعلاً ، أو بعد الشروع الذي يؤذن حتماً بوقوعه على ما هو مبين في الفقه ، وهي - ثانياً - تسمى الجزاء اعتداءً فاعتدوا عليه ، لا مجرد المشاكلة اللفظية كما يقال ؛ بل لأن الاساءة في حقيقتها عدوان ، وإنما اغتفرت في مقام الجزاء ، وهذه إباحة عارضة لا تغير من حقيقتها أو اسمها . فالخمر خمر وإن صلحت دواء في حال من الأحوال . وهي - ثالثاً - تنميد إباحة الجزاء بأن يكون مثل العدوان لا أزيد منه . وهي - رابعاً - مقرونة بالأمر بالقوى « واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » تحذيراً من المبالغة في الجزاء فلا يكون علاجاً للشر ، وإنما يكون استرسالاً في الشر .

وكذلك ترى كل آية تؤذن بالقصاص مخفوفة بقيود تضيق من دائرته ، وتحذر من الإسراف فيه ، بلى وتصرف عن الأخذ به . اقرأ مثلاً قوله تعالى : « وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » .

وقوله تعالى : « ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ، ثم بغى عليه لينصرنه الله إن الله لعفو شكور » .

وقوله : « وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصح فأجره على الله ، ففي كل واحدة منها ترغيب عن المجازاة ؛ غير ما رأيت في كل آية من آيات العفو : من الترغيب فيه والثناء عليه . وإلى جانب هذه التوجيهات ترى آيات القصاص لا تبلغ من الكثرة في القرآن ما بلغته آيات العفو ، ولا ترى فيها إلزاما بالقصاص كما ترى في بعض آيات العفو ، بل جاءت هذه في أسلوب البيان لحسب ، ولذلك اتسع سياقها لأن يذكر معها الصبر ، أو العفو أو التقوى وما إلى هذا .

ورب قائل : أيكون العفو في كل شيء مجديا ، وفي كل حال مطلوباً ، وتكون الدهوة إليه مطردة ؟

والجواب أن كلا الأمرين — العفو ، والقصاص — منوط بأغراض تعلقت به ، وغايات قصدت منه ، فليس العفو مستحصنا مع من يستمرته ويكرر عدوانه ، بل ذلك من وضع الندي في موضع السيف ، وهو مضر بالعلل كما قال الشاعر ،

وليس من متعلقات العفو ما يعتبر من الأمور العامة ، مما له اتصال بحياة الناس ، ونظام المجتمع ، كالسرقات ، وانتهاك الحرمات والأعراض ، وقطع الطرقات ، ونحو ذلك مما له خطر على الأمن العام ، أو سياسة الحكم ؛ فأنها أمور لا تستقيم على الهوادة والتساح ، بل يعوزها الصرامة والاختد بالعنف لترجع النفوس الجالحة عن غيها .

ولذلك ترى القرآن يشتد في الأمر بقطع السارق ، والسارقة و جزاء بما كسبا نكالا من الله ، ويشدد في جلد الزانية والزاني و ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله الآية ، كما تراه يقسو على قطاع الطريق ، وكما تراه يشتد في تهديد الشاهد إذا زور ، والحاكم إذا جار ، والقاضي إذا انحرف : كل ذلك مما يأبى التساح لئلا تختل نظم الحياة ، وليظل الأمن موفوراً ، ولينعم الناس في دنياهم ، وليرى الله آثار نعمته عليهم فيما يحسنون من عمل ، وفيما يشكرون الله من نعمائه .

لغويات

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار
الأستاذ بكلية اللغة العربية

افعلوا الخير ، ذلك خير لكم وأبقى

يرى في هذا المقال أفراد الكاف اللاحقة لاسم الإشارة في حين أن المخاطب جمع ، وكان مقتضى هذا أن يقال : ذلكم . وقد جرى في بعض المجالس حديث في هذا الشأن . وذكر بعض من في المجالس - وهو ذو خطر ومكانة - أنه في حال طلبه العلم وتلقيه على الشيوخ أورد على شيخه بيتا فيه مثل هذا وهو :

قالوا : كلامك هذا وهي مصغية يشفيك . قلت : صحيح ذاك ، لو كانا

فقال له : كيف قال الشاعر : صحيح ذاك ، وهو يخاطب جمعا . ألا ترى إلى قوله : قالوا . ؟ ويقول محدثنا : إن الشيخ أجاب بأن الشاعر نزل الجمع منزلة الواحد لما كانوا متفقين في الإخبار ، وكانوا ألبا عليه في القول ، ونازعين في ذلك عن قوس واحدة . وهو منزع لعمرى حسن . وقد قيل بمثل ذلك في قوله تعالى : وإن أظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ، فقد جاء ظهير وهو مفرد خبرا عن جبريل وما عطف عليه لما كانوا في المظاهرة يدا واحدة على من يعاديه .

ولكن يؤخذ على هذا الجيب أنه سلم بما يتضمنه السؤال : أن هذا الأسلوب خارج عن العربية يحتاج إلى تخريج وجواب عنه والتماس وجه له . وهو يرى كاف الإشارة ككاف الضمير يلاحظ فيها دائما حال المخاطبين ، فتكلف هذا الجواب وتجشم مؤونة التأويل . وقد بحث ابن هشام في قول الشاعر :

ولست بمائل جارات يتي أغنياب رجالك أم شهود ؟

وموضع البحث قوله : رجالك ، فإن الواجب أن يقول : رجالكن ، فما باله قال : رجالك بالإفراد ؟ . ويقول ابن هشام في الخروج من هذا : إنه حين يسأل جارات بيته لا يسألن دفعة واحدة بل يسأل كل واحدة : أغائب رجلك أم شاهد ؟ فهذا وجه الإفراد . ويقول التبريزي إن يحمل ذلك الضرورة الشعرية لم تمنع للشاعر أن يقول : رجالكن فقال ما تيسر له . وأعود لما نحن فيه فأقول : إن الكاف اللاحقة لاسم الإشارة ليست ككاف الضمير ، فالكاف اللاحقة لاسم الإشارة الكثير فيها والغالب أن يلحق بها ما يبين حال المخاطبين ، فيقال ذلكم وذلكن وذلكما وهكذا . وقد يقال للجمع ذلك بكاف واحدة ، وعلى ذلك جاء البيت الذي كان موضع السؤال . ومما جاء من ذلك قوله تعالى في الآية ٨٥ من البقرة : « ثم أتم هؤلاء يقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من دياركم ، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى فتادوهم ، وهو محرم عليكم إخراجهم ، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون » ، فترى قوله فما جزاء من يفعل ذلك منكم فيه إفراد الكاف والمخاطب جمع ، ومثل ذلك قوله تعالى في سورة النساء : « ذلك لمن خشي العنت منكم » ، وورد في الآية ٢٣٣ من البقرة : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ، ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلكم أزكى لكم وأطهر ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » ، وترى أن المخاطبين في الآية جمع وقد جاء اسم الإشارة ذلك ثم جاء ذلكم والخطاب لم يتغير ، وقد أبعد بعضهم فقال : إن الخطاب الأول للنبي صلى الله عليه وسلم . وفي سورة المجادلة جاء قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا فاجتُم الرسول فقدموا بين نجواكم صدقة ، ذلك خير لكم وأطهر ، فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم » ؛ فترى كيف أتى بذلك والخطاب للذين آمنوا . وذلك أن السكاف قصد بها إلى أن تؤدي معنى الخطاب فقط ، ولا ينظر فيها إلى بيان حال المخاطبين . ويقول النحاة في هذا الموضع : إن الكاف فيها ثلاث لغات :

اللغة الأولى : أن تتصرف المكاف فيلحق بها ما يبين عن حال المخاطبين .

واللغة الثانية : أن تكون المكاف المفتوحة للمذكر بأنواعه ، والمكسورة للمؤنث بأنواعه .

واللغة الثالثة : أن تكون المكاف المفتوحة للجميع مذكراً ومؤنثاً . وعندى أن هذا ليس لغات مختلفة ، وإنما هي أوجه في اللغة الواحدة ، ولا يرجع إلى اختلاف القبائل واللغات . وذلك أن الشاعر الواحد قد يأتي في كلامه الوجهان .
ففي شعر طرفة :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر
حين قال الناس في مجلسهم أقتار ذاك أم ربح 'قطر'
ومن شعره أيضاً :

أخبرت أن الحى فترق بينهم نوى غربة ضرارة لى كذلك

إردب ، أرادب

الإردب في مصر معروف من قديم . ويقول الأخطل يهجو :

والخبز كالعبر الهندي عندهم والقمح سيمون إردبا بدينار

ويجمع الإردب على الارادب . والجارى على الألسنة تشديد الباء في الجمع كما هي مشددة في المفرد . وقد جاء التشديد في اللسان بضبط القلم ؛ ففيه : وجمع الإردب أرادب ، وتراه في هذا الضبط ممنوع الصرف . ويرى الشيخ عوض في تقريره على شرح الخطب الشربيني لأبى شجاع في فقه الشافعية صرفه . ويعمل ذلك بتعليل غريب ، وذلك أنه يرى أن سكون الباء عارض ، وهو من باب طراعية وكراهية وملائكة . وهذا غير سائغ ولا مقبول ؛ فإن أصل الجمع على هذا أراديب وما عهدنا جمعاً على هذه الزنة . هذا إلى أن وزن إردب لإفعل واللام سكونها أصلى فليس أصله إردب وإلا وجب البيان والإظهار ، ولم يحز الإدغام لأن هذه زيادة للإلحاق كما في قرَدَد ، وإذا كان سكون المفرد أصلياً

كان سكون الجمع كذلك . وهاك كلام الشيخ عوض : د (قوله ستة أَرادب) بصرفه ، لأنه بعد ألف تكسيده ثلاثة أحرف وسطها ليس ساكننا أصالة بل هرّضا للإدغام ، فهو كملائكة وطواعية .

وقواعد الجمع اللاحقة في العربية تأتي تشديد باء أَرادب وتنفيه البتة . وذلك أن هذا الجمع لا يكون بعد ألف تكسيده ثلاثة أحرف إلا إذا كان أوّسطها حرف لين كقناديل وعصافير ، فأما في غير ذلك فلا يكون بعد ألف التكسير إلا حرفان ، فتقول في جمع سفرجل سفارج فتحذف اللام ولا تقول سفارجل لأن هذا لا يستقيم في العربية ، ويقول الخضرى في كتابته هلى ابن عقيل في آخر مبحث جمع التكسير د لا يقع بعد ألف التكسير ثلاثة أحرف إلا وأوسطها ساكن معتل كمصابيح ، وإذا كان مثل سفرجل يحذف منه اللام في الجمع ، وهى حرف أصلى فيقال سفارج ، فأولى بذلك الحذف في إردب وأحد الباءين زائد . ويقول صاحب القاموس في جمع قرشَب د وهو المسن والسيء الحال ، قرأشب بتخفيف الباء ، وقد جاء هذا الجمع في كتاب سيبويه ص ٣٣٧ ج ٢ . وما هو من قبيل الإردب الأُسْطُومَة د وأسطمة البحر يجتمع ووسطه ، وفي اللسان أن جمعها الأساطم ، وفيه أن تيمنا تقول في الجمع الأساتم ، تعاقب بين الطاء والتاء فيه . فترى أنه لم يقل القراشب بتشديد الباء ولا الأساطم بتشديد الميم ، مع تشديد الحرف في المفرد ، وذلك لأنه لا يستقيم في هذا الجمع أن يكون بعد ألف التكسير ثلاثة أخرى أوّسطها ليس حرف لين . وقد بحث النحاة جمع مصور فقالوا إن الجمع مصاور ، وذلك أن الواو هنا لما كانت مشددة كانت في قوة المتحركة فلم تكن حرف لين كما في كنهوَر وُغُرْنِيق فيتمال كناهير وُغُرَانِيق .

وبعد هذا يتجلى تمام الجلاء خطأ الناس في تشديد الباء في أَرادب ، وخطأ الضبط في اللسان ، وأنه من فعل النساخ أو أثر الطبع . واهه الموفق للصواب .

الماسورة ، والمواسير

الماسورة تجرى في ألفاظ العامة ، ويجمعونها على المواسير ، وهي تقال للأنوبة أو للمنة المجوفة . وقد كنت لا آبه لهذه اللفظة ؛ إذ كانت من الكلمات الكثيرة التي أصبحت عماد اللغة العامية التي أصبح من العسير تعرف مآناها ، وتلصق مناشئها . غير أنى وجدت هذه الكلمة في حاشية البجيرمي على شرح المنهج في فقه الشافعية في باب الحيض في كلام نقله عن الشيخ على الشبرايملى ، فاسترعت نظري وحدتني على البحث فيها . ويبدو لي أن أصلها المصير وهو المعنى ويجمع على المصيران كما يجمع الكتيب على الكتيبان والرغيف على الرغفان . والمصير أجوف فهو يشبه القصبه الجوفاء ، غير أنه كدن غير مُصَلَّب . فأطلق المصير على الهنة المجوفة ، وجرى فيه من التحريف ما أصاره إلى الماسورة .

العينه

تطلق العينة على ما يكون نموذجاً للشيء ، فهي قطعة من الثوب ، أو حفنة من الحب ، وما جرى هذا المجرى ، وقد بحثت في منشئها فبدأ لي أن أصلها العينة والعينة للشيء خياره ، والتاجر يقدم في العادة النموذج لما عنده كخير بضاعته وأجودها ، وفي اللسان : وعينة المال : خياره . وهذا ثوب عينة إذا كان حسناً في مرآة العين . واعتان فلان الشيء إذا أخذ عينه وخياره . وجمع العينة عَيْن . وقال الشاعر :

فاعتان منها عينة فاختارها حتى اشترى بعينه خيارها

البلاغة

قال امرأبي : البلاغة التقرب من البعيد ، والتباعد من الكلفة ، والدلالة بتقليل على كثير .

وقال عبد الحميد الكاتب المشهور : البلاغة تقرير المعنى في الافهام ، من أقرب أقرب وجوه الكلام .

وقال ابن المعتز : البلاغة البلوغ إلى المعنى ولم يطل سفر الكلام .

وقال إبراهيم الإمام : يكفى من البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء أفهام الناطق ، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع .

مفردات فلسفية

خلق - أخلاق

الفضيلة الدكتور محمد يوسف موسى

الأستاذ بكلية أصول الدين

أحببت أن أختم باب « مفردات فلسفية » ، هذا العام من أعوام المجلة بالكلام عن خلق وأخلاق ، ذلك ما يتطلبه الوقت ، وبخاصة وقد رأت جماعة كبار العلماء ، في الأزهر أخيراً أن تلقت التفاتة جادة لسوء الحالة الدينية والخلقية في البلد ، فرفع في ذلك كتاب إلى مقام مولانا الملك حفظه الله ، وآخر إلى رفعة رئيس الوزراء .

أحببت إذاً أن أعرض لتحديد كلمة « خلق » ، وبيان مفهومها وما صدقها ، لأنني ألتج خلافاً في هذا بين بعض من يتكلمون في إصلاح الأخلاق عندنا وبين الفلاسفة والمصلحين الاجتماعيين بحق ، لهذا يكون من الخير أن نحدد مفهوم هذه الكلمة ، وأن نبين ما صدقها ، حتى إذا ألحنا في طلب إصلاح الأخلاق نكون على يذنة من أمرنا وبما نريد .

* * *

١ — يذكر الجرجاني في كتاب « التعريفات » ، أن الخلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة سميت خلقاً حسناً ، وإن كانت بحيث تصدر عنها الأفعال القبيحة سميت خلقاً سيئاً .

٢ — ويذكر التهانوي في « كشف اصطلاحات الفنون » ، أن الخلق في اللغة : العادة والطبيعة والدين والمرومة ، والجمع الأخلاق ، وفي عرف العلماء ملكة تصدر بها عن النفس الأفعال بسهولة من غير تقدم فكر وروية وتكلف .

ثم الخلق ينقسم إلى فضيلة هي مبدأ لما هو كمال ، ورذيلة هي مبدأ لما هو نقصان ، وغيرهما وهو ما يكون مبدأ لما ليس شيئاً منهما .

٣ — ويذكر التهانوى أيضاً بعد هذا ، أن « الخلق العظيم » عند السالكين هو الإعراض عن الكونين والإقبال على الله تعالى بالكلية ، وأن « الخلق العظيم » المشار في قوله تعالى مخاطباً الرسول صلى الله عليه وسلم : « وإنك لعلى خلق عظيم » ، هو القرآن على ما قالت عائشة رضى الله عنها . تعنى أن القرآن كان جبلة للرسول ، صلى الله عليه وسلم ، من غير تكلف .

هذا ما يذكره الجرجاني والتهانوى ، وهو لا يختلف عما يذكره غيرهما من أصحاب المعاجم والتأليف الفلسفية . وإذا ، فلا حاجة للإطالة بذكر نقول أخرى .

٤ — وأخيراً ، تطلق كلمة « خلق » ، ويراد بها أمر آخر غير الهيئة أو الملكة التى تصدر عنها الأفعال الطيبة أو الخبيثة ، وذلك الأمر الآخر هو الأفعال نفسها مثل العدل والظلم ، والكرم والبخل ، والصدق والكذب ، والبر والفجور . وهذا الإطلاق ، كما نرى ، تجوز فى التعبير .

* * *

من أجل ذلك ، يجب ، إذا أردنا أن نكون منطقيين وعمليين فى طلب إصلاح الاخلاق ، أن نعلم الى الشر نبتته من جذوره ، وللأمر فصلحه من أساسه ، يجب أن نعلم الى إصلاح النفوس وسجايها وملكاتنا التى تصدر عنها ما نضيق به ذرعاً من الأفعال ، أى الأفعال السيئة الخبيثة ، ومتى صلحت هذه النفوس ، امتنع أن يصدر عنها هذا الضرب من الأفعال ، وصارت بحيث لا يصدر عنها إلا الأفعال الطيبة والاخلاق الحسنة ، وذلك لأنها اكتسبت ملكات جديدة طيبة تنأى بها عن الشر وتبعثها الى الخير .

ونكون مخطئين إذا ، فيما أعتقد ، إن لم نفعل — حين نرى الفساد الخلقى استشرى بين طبقات الامم المختلفة — شيئاً آخر غير أن نرفع الصوت عالياً لإصلاح هذا الحال ؛ ذلك بأن هذا الفساد ، الذى يتمثل فيما تنشره الصحف من أعمال تدل على التحلل من التقاليد الطيبة والآداب الدينية ، ليس إلا أماراة على شذوذ فى النفس يجب أن نطّـب له .

الشذوذ في النفس كالشذوذ في الجسم ، له سببه الأول وعلته الأصلية ، ومن الواجب على طبيب الجسم أن يلتمس أولا هلة الداء ، فإذا عرفه واستأصله زالت أعراضه ومظاهره بطبيعة الحال . كذلك على طبيب النفس أن يبحث عن علة ما يصيب النفس أحيانا من شذوذ هذه العلة التي يكون عنها ما تعده فسادا وتحللا من الدين والأخلاق ، وسبيل هذا ، فيما يرى المصلحون جميعا ، التربية الطبية للنفوس ، والقدى الصالحة في الرؤساء وأولياء الأمور في هذا البلد ، هذا البلد المنكود بكثير ممن يتصدون للإصلاح الخلقى فيه .

علينا إذ أن نتعاون في سبيل تربية جيل جديد ، تربية قوامها الدين والخلق ، تربية تجعل النفس خيرة تنبعث للخير من ذاتها ، وترى الشر في القول والعمل امتنانا لها ولكرامتها وأمرأ قبيحا تنفر منه بطبيعتها .

* * *

ذلك ، وهناك ناحية أخرى يجب أن نلتفت لها : إن الأخلاق السيئة التي لا بد من التعاون في سبيل مكافئتها ، بهذه الطريقة أو تلك ، ليست فقط الخلافة والتهتك وما إلى هذا السبيل . إنها أيضا ، مع هذا سوء فهم العلاقة التي ينبغي أن تكون بين الحاكم والمحكوم ، والغنى والفقير ، هذه العلاقة التي تقوم في غير قليل من الحالات على أسس لا تتفق في شيء والدين وروح العدالة ؛ هي مع هذا ، سوء استغلال الموظفين الكبير لمركزه الذي جعل فيه ليقدم الأمة ؛ هي مع هذا أن يشقى صاحب الحق ، فلا يكاد يناله إلا بتضحيات من الكرامة والمال أحيانا يدفعها لمن بيده الأمر !

كل هذا نحسه جميعا ، وكل هذا نخجل له ونألم منه بالغ الألم . وإذا كل هذا ونحوه يجب أن يدخل في الحساب حين نفكر في الثورة للأخلاق ، وحين نأخذ في التعاون لإصلاح الأخلاق ؛ لأنه ليس من الدين ولا من الخلق في شيء أن يحسن الرجل أداء الصلاة وغيرها من شعائر الدين ، ثم لا يؤدي بعض ما يجب عليه من عمل بحكم منصبه إلا إذا قدم له صاحب الحق أو العمل بين يدي نجواه هدية ... !

لني لأعرف كثيرين يحال بينهم وبين حقوق لهم ، ثم لا يجدون لهم معينا أو شفيعا لدى السادة الرؤساء أصحاب الدواوين ، ويكاد هذا الحال يقتل

في نفوسهم الثقة بالله وعدالته ، بالإيمان بالإنسانية ووجود « إنسانيين » ، يعملون للخير وللمقاربة المثل العليا .

هذه الحقائق : وهذا الظلم الاجتماعى : وهذا الفهم الخاطيء من صاحب المنصب لمنصبه ، ومن النائب لرسالته : وهذه الضمائر التى ماتت أو فى طريقها للموت : وهذه النفوس التى فسدت طبيعتها فصارت ترى العرف نكراً ، والنكر عرفاً - كل هذا وما إليه ، هو ما يجب أن يكون همُّ المطالبين بإصلاح الأخلاق ، المشفقين على مجتمعتنا وأمتنا .

يجب أن نكون منطقيين وعلميين ، وذلك يقتضينا - نحن رجال الأزهر - أن نعمل على تكوين جيل جديد تصاغ نفوسه على حب الخير فتنبعث إليه ، وعلى كراهة الشر فتتأذى عنه من ذاتها . وأن نكون صرحاء شجعاناً ؛ فطالب أيضاً بتصحيح الأوضاع الاجتماعية بمعملها تجرى على سنن الدين والعدل ، حتى يؤدى كل واجبه دون حاجة لزلزلى أو قربة من القربات .

يجب أن يتعاون رجال التعليم فى الأزهر والوزارة والجامعة على جعل الغرض من التعليم تحصيل العلم الحق ، وتكوين الخلق الطيب ، وتحقيق الرجولة الناضجة ، وعلى أن تكون دور التعليم باعثة على هذا كله ، بالجسو الذى يسود فيها ، والقدى الطبية والمثل العليا التى تتجسم فى القائمين عليها ، لا فرق بين أستاذ وأستاذ ، لا فرق بين مدرس الدين أو مدرس الآداب أو مدرس العلوم ؛ بذلك تنشرب روح التلميذ ما نريد له من تربية ، وما نحب أن ينشأ عليه من طباع ؛ بحيث يشب وقد اتخذت نفسه هيئة طيبة هى ما نسميها خلقاً حسناً ، وعن هذه الهيئة تكون الأفعال الطيبة الحسنة بسهولة ويسر .

وحق يكون لنا هذا الجيل الجديد ، لا نجد بداً من أن نطالب من يبدع السلطان أن يطبوا لهذا الفساد الخلق الذى يكاد يعم الأمة ، وذلك بالتشريع والحزم فى تطبيق القانون . كما لا نرى بداً من أن نختم هذه الكلمة بالحديث المشهور الذى يقول : « صنفان من أمتى إذا صلحا صلح الناس ، وإذا فسادا فسد الناس : العلماء والأمراء ، .

والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل .

عمار بن ياسر

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ عبد الله المراغي
مدير المساجد

للسحابة فضل عظيم ومقام جليل ، وفيهم القدوة الحسنة والمثل الصالحة للسير
على منهاجهم ، وهم يتفاوتون في الفضل وفي السبق إلى الإسلام ؛ كما يتفاوتون
في التفقه والإلمام بالأحاديث النبوية ، والعلم والحدق في فهم كتاب الله تعالى
وسنة رسوله .

ولقد كان عمار بن ياسر من هؤلاء الذين علت أقدارهم ، وسمت مداركهم
واستناروا وامتازوا بسبق إسلامهم ، ورضى رسول الله عنهم ووصفهم بالأوصاف
الكريمة ، فقد روى على رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « جاء عمار
يستأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أئذنوا له مرحبا بالطيب المطيب ،
وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أبشر عمار
تقتلك الفئة الباغية » ، ولتمت تحققت تلك النبوة - وسترى كيف تحققت هذه
النبوة الصادقة . وروت عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« ما خير عمار بين أمرين إلا اختار أَرشدهما ، وعمار هذا هو ابن ياسر ويسكنني
بأبي اليعقظان وجده عامر السكناني المذحجي العنسي وأمه سمية .

ولقد كانت أسرة عمار من الأسر المستضعفة في بدء الإسلام ، حين كانت
للمشركين صولة ، وللطاغين دولة ، وللباطل سلطان وللشرك صولجان ، فقد ماتت
سمية والدة عمار في العذاب على يد أبي جهل ، فكانت أول شهداء الإسلام .
ولقد مر النبي صلى الله عليه وسلم على أسرة عمار وهم يعذبون في الله من أجل إيمانهم
فقال : « صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة » .

ولقد امتاز عمار بنشاط ملحوظ مادي ومعنوي ، فلقد كان جريئاً في إسلامه شجاعاً في الدفاع عن عقيدته ، مضحياً من أجلها بروحه ودمه ، فقد حدث عن إسلامه فقال : لقيت « صهيب بن سنان على باب دار الأرقم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيها فقلت ما تريد ؟ قال : وما تريد أنت ، قلت أريد أن أدخل فأسمع كلام محمد فقال : وأنا أريد ذلك ، فدخلنا عليه فعرض علينا الإسلام فأسلمنا ، وكذلك أسلم والده وأمه وأخيه عبد الله بن ياسر .

ولما سطع نور الإسلام بالمدينة وأصبحت هي القلعة المنيعه ، والحصن المكين للإسلام ، عزم عمار على المساهمة في اعلام كبة الإسلام ، وتمكين دعائه بيثرب ؛ فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة إلى المدينة فأذن له . وكان عمار أول من بنى مسجداً في الإسلام بناه في المدينة وسماه قباء .

ولم يكن عمار من الخاملين أو الكسالى الذين يهابون الحرب ، ويرهبون الوغى فقد شهد بدرًا وأحداً والخندق وبيعة الرضوان ، وبجانب هذه الشجاعة والروح الحربية ، والقوة المعنوية التي امتاز بها عمار كان معروفًا بسداد الرأي ، وسعة الحيلة ، والخبرة بالشئون العامة ، فقد ولاه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، أمر الكوفة فكتب بذلك إلى أهلها يقول : « أما بعد فقد بعثت إليكم عماراً أميراً ، وابن مسعود معلماً ووزيراً ، وهما من نجباء أصحاب محمد فاقصدوا بهما » .

فهذه شهادة من عمر الذي كان يعرف أقدار الرجال ، ويعرف كيف ينتخب ولاته وكيف ينتقب عن صفات الرجال الذين يصلحون لتدبير الأعمال ، ويمتازون بالخبرة والنزاهة في سيرتهم ويؤدون للرعية مالها .

ولقد كان عمار يعرف منزلة الكرامة ومكانتها في دين الرجل ، فما كان يرضى الدنية ولا يقبل الضيم ولا يرضى الذلة ، فقد خاصمه خالد بن الوليد يوماً فأغلظ له فانطلق عمار إلى الرسول يشكو ، فجاء خالد وعمار يشكو فجعل يغلظ له أيضاً ، والنبي صلى الله عليه وسلم ساكت فقال : عمار يا رسول الله ألا تراه كيف يفعل ؟ فرفع رسول الله رأسه وقال : « من عادى عماراً عاداه الله ، ومن أبغض عماراً

أبغضه الله . قال خالد : فخرجت فما كان أحب إلى بعد من رضا عمار فلقيته فاسترضيته فرضى .

والناحية الهامة في التشريع التي امتاز بها عمار أنه كان مفتيا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد كان خبيراً بالأحكام وعلماً ، غواصاً على المعاني والبواعث والحكم والتي شرعت من أجلها الأحكام ، فقد كان يسهل عليه الجواب حين يفاجأ بالسؤال فكان الاستفتاء لا يذم له ولا يدهشه ، كما يحدث لمن قصرت مداركهم فلا يحسنون الانتفاع بما يحفظون ، ولا يستطيعون استنباطاً طامعاً يروون . ولقد جمع إلى هذا الفكر المستنير والرأى الصائب والفهم الحاذق إحاطة لعدد وفير من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فقد روى له في الصحيحين اثنان وستون حديثاً .

وقد كان ثبناً ثقة في خلقه ودينه ، وأخذه عن الرسول صلى الله عليه وسلم فقد روى عنه علي بن أبي طالب ، وابن عباس ، وأبو موسى الأشعري ، وجابر ابن عبد الله ، وعدد وفير من الصحابة ، كما روى عنه من التابعين ابنه محمد وسعيد ابن المسيب ومحمد بن الحنفية وغيرهم .

ولقد تحققت عند موته نبوءة الرسول صلى الله عليه وسلم التي سبق أن أشرنا إليها ، فقد كان عمار في جيش علي ، فقتله أصحاب معاوية في واقعة صفين التي حدثت بينهم وبين أصحاب علي رضي الله عنه سنة سبع وثلاثين من الهجرة ، وعمره أربع وتسعون سنة ، ولما بلغ مقتله عمرو بن العاص قال : والله لوددت أن أكون ميت قبل هذا اليوم بعشرين سنة ، ودفنه علي بن أبي طالب ولم يكفنه ، ولم يغسله ، لأنه شهيد .

فرحم الله عماراً فقد كان سباقاً إلى الإسلام ، سباقاً إلى الجهاد ، سباقاً إلى الحق ، مضحياً في سبيل عقيدته ومبدئه بروحه ودمه ، وجعل الله لنا فيه القدوة الحسنة .

صَفَايَا الرُّؤَسَاءِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ

أفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعيدي
الأستاذ بكلية اللغة العربية

كان للرؤساء في الجاهلية صفايا جمعها عبد الله بن غنم الضبي في قوله يخاطب
بسطام بن قيس من رؤساء القبائل :

لك المربعُ منها والصفايا وحكمك والنشيطه والفضول

فكان كل رئيس إذا حارب هو وقومه يختص لنفسه من الغنيمة بهذه
الأمور ، ينفقها على نفسه ، ويحبس بعضها لما قد يطرأ على القبيلة ، أو يتحمل من
النفقات ، والمربع ربع الغنيمة ، وقد قيل في ذلك مربع كما قيل في العشر
معشار ولم يسمع في غيرهما ، والصفايا جمع صفيّ أو صفية ، وهو ما كان يختاره
الرئيس من المغنم لنفسه قبل القسمة من فرس أو سيف أو غيرهما ، والنشيطه
ما يغنمه المحاربون في الطريق قبل الموضع الذي قصدوه بالغزو ، وقيل : هو
ما انتشط من الغنائم ولم يوجفوا عليه بخيل ولا ركاب ، والفضول : هو ما يبقى
من الغنائم بعد القسمة مما لا يصح قسمته على عدد المحاربين ، وقيل هو ما أعجز
أن يقسم لقلته ، وكان الرئيس يملك كل ما يأخذه من هذا ملكا خالصا ، فينفق
منه على نفسه كيف شاء ، ويورث عنه بعد موته كما يورث سائر الملك .

فلما جاء الإسلام أبطل من ذلك ثلاثة وأبقى واحدا ، فأبطل المربع
والنشيطه والفضول ، وأبقى الصفايا ، وبما جاء في إبطال المربع قول النبي
صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم قبل إسلامه : « إنك لتأكل المربع ، وهو لا يملك
لك في دينك ، . وكان عدى يدين بالنصرانية ، والمربع من عوائد الجاهلية ، وإنما
أبطل الإسلام المربع والنشيطه والفضول ؛ لأنها كانت حقا مقررأ يأخذه الرئيس
من كل ما يغنم ، ويمتاز به على قومه دائما ، لأنه حق لا يتنازع فيه ، وليس

موكولا إلى اختياره ، أما الصفايا فكانت حقا اختياريا ، إن شاء الرئيس أخذه لنفسه ، وإن شاء تركه لقومه ، والإسلام أعدل من أن يجعل من هذه العادات الظالمة حقا مقررًا للرؤساء ، يأخذونه من كل مغنم ، ويختصون به لنفوسهم دائما ، وهو حق كثير جدا عليهم ، ولا يصح أن يستأثروا به دون قومهم .

ولما كانت الصفايا ليست حقا مقررًا فقد أبقاها الإسلام ، لأنه يمكن إخضاعها لحكم الظروف والأحوال ، وكثيرا ما توجد ظروف وأحوال تقضى بإيثار الرئيس بشيء من المغنم ، ولا يكون لإيثاره به خروجاً على ما يقضى به العدل ، لأنه يكون حسبا لخلاف بين المحاربين على شيء من الغنيمة ، لنفاسته أولئحو ذلك مما يكون سببا في إثارة المطاعم وتطلع العيون ، فإذا أخذه الرئيس لنفسه حصل الرضا ، وقضى على سبب الخلاف ، وقد اصطفى النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر سيف منبه بن الحجاج ، وفي يوم المريسيع جويرة بنت الحارث سيد بنى المصطلق ثم أعتقها وتزوجها ، فقال المسلمون : أصهار رسول الله لا يصح أسرهم ، فنوا عليهم بالعق ، وكان هذا سببا في إسلامهم ، فكانت جويرة أئمن امرأة على قومها ، وكذلك اصطفى لنفسه صفية بنت حيي سيد بنى النضير من اليهود في غزوة خيبر ، وكان دحية بن خليفة الكلبي قد طلب منه أن يعطيه جارية من السبي ، فقال له : اذهب فخذ جارية . فذهب فأخذ صفية .

فجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : يا رسول الله ، أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قريظة والنضير — وكانت أمها من بنى قريظة — ما تصلح إلا لك . وهنا وجد النبي صلى الله عليه وسلم أن دحية لم يأخذ جارية من حشو السبي ، بل اختار أشرف نسائه نسبا ، وكانت صفية إلى هذا ذات جمال عظيم ، فإنها كانت من أبهى ما يكون من النساء ، فلا ترضى نفسها بدحية ، وقد استكثرها عليه ذلك الرجل وغيره ، ومثل هذا يؤدي إلى خلاف بينهم ، ولو أنه أخذها منه وأعطاهما غيره من كبار الصحابة ، لكان هذا له أثر شديد في نفسه ، فلم ير إلا أن يأخذها صلى الله عليه وسلم زوجاً له ، فأعتقها وتزوجها ، وقال لدحية : خذ جارية من السبي غيرها . لأنه إنما أذن له في جارية من حشو السبي لا من أفضلهن ، فلما رآه أخذ أنفسهن نسباً وشرفاً ، وجمالا استرجعها ، لئلا يتميز بها على سائر الجيش

مع أن فيهم من هو أفضل منه ، وهذا إلى ما فيه من انتهاكها ، مع علو قدرها ، وربما ترتب عليه شقاق بينهما ، ففسده عشرين ، ولا يكون فيها ما يجب في عشرة الزوجين من مودة وإخلاص ، ولو تتبعنا غير هذا من صفايا النبي صلى الله عليه وسلم لوجدناه يقوم على مثل تلك المصالح العامة ، ولا يدخل فيه شيء من مصالحه الخاصة ، كما كان شأن صفايا الرؤساء في الجاهلية .

وقد مات النبي صلى الله عليه وسلم وليس له إلا صفايا ثلاث : بنو النضير ، وخيبر ، وفدك . فأما بنو النضير فهي صدقته بالمدينة ، وكانت نخلا لبنى النضير أفاها الله عليه من غير خيل ولا ركاب ، وأعطى أكثرها للمهاجرين ، بدلا من أموالهم التي أخذها منهم أهل مكة حين هاجروا منها إلى المدينة ، وما بقي منها حبسه لنوائبه ، ولم تكن نوائبه إلا نوائب المسلمين في حربهم وسلمهم ، وغير هذا من نوائبهم .

وأما خيبر فإنه كان قد قسمها قسمين : نصفها للمسلمين ، ونصفها لنوائبه وحاجته ، فكان يأخذ منه نفقة أهله ، وما فضل ينفقه على فقراء المسلمين ، وفي مشترى السلاح والكرراع ، وكان ما يأخذه لنفقة أهله يتمدر بسنة ، فإذا أخذه لا يأخذ شيئا بعده ، وكان لا يكفيه إلى آخر السنة ، فكان يقترض ما يسد به حاجة أهله ، ولهذا مات ودرعه مرهونة عند يهودى .

وأما فدك - وهي قرية على ثلاث مراحل من المدينة - فكانت للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب كبنى النضير ، فكان ينفق منها ويأكل على قدر حاجته ، وقد سبق أن ما كان يأخذه لا يفي بها إلى آخر السنة ، وكان يعود منها أيضاً على فقراء بني هاشم ، ويزوج أيتهم ، وينفق على أبناء السبيل ونحوهم .

وقد اختلف أبو بكر وفاطمة رضى الله عنهما في أمر هذه الصفايا ، فروى أن فاطمة أتته فقالت له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل لى فدك ، فأعطى إياها . فطلب منها البينة على هذا ، فشهد لها زوجها على رضى الله عنه ، فساد لها شاهداً آخر ، فشهدت لها أم أيمن ، فقال لها : قد علمت يا بنت رسول الله أنه لا يجوز إلا شهادة رجلين أو رجل وامرأتين ، ولم يحكم لها بما طلبت .

وروى أيضا أنها جاءت فقالت له : أعطني فـدك ، فقد جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم لى . فسألها البينة ، فجاءت بأمر أمين ورباح مولى النبي صلى الله عليه وسلم ، فشهدا لها بذلك ، فقال لها : إن هذا الأمر لا تجوز فيه إلا شهادة رجل وامرأتين .

وروى أيضا أن فاطمة أتت النبي صلى الله عليه وسلم تسأله فـدك ، فقال لها : ما كان لك أن تسأليني ، وما كان لى أن أعطيك . وهذه الرواية تناقض الروايتين السابقتين .

وهناك روايات أخرى فى ذلك تفيد أن فاطمة طلبت ذلك من أبى بكر لانه إرثها من النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يطالبها أبو بكر بشهود عليه ، لأن حق الإرث لا يحتاج إلى شهود ، وإنما نازعها فى ذلك الإرث ، فقالت له : من يرثك إذا مت ؟ فقال : ولدى وأهلى . فقالت : فما بالك ورثت رسول الله صلى الله عليه وسلم دوننا ؟ فقال : والله يا بنت رسول الله ما ورثت أباك ذهابا ولا فـضة ، ولا كذا ولا كذا . فقالت : سهمنا بخير ، وصدقتنا فدك . فقال : يا بنت رسول الله ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنما هى طعمة أطعمتها الله حياتى ، فإذا مت فهى بين المسلمين .

وقيل إن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من النبي صلى الله عليه وسلم فى فـدك وخير ، فقال لها : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا نورث ، ما تركناه صدقة ، وإنما يأكل آل محمد من هذا المال . ثم قال : والله لا أدع أمرا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنعه فيه إلا صنعته .

وقيل إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أرسلن عثمان بن عفان إلى أبى بكر يسألنه مواريثهن من سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير وفـدك ، فقالت لهن عائشة : أما تتقين الله ، أما سمعن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا نورث ، ما تركناه صدقة ، إنما هذا المال لآل محمد ، لنابتهم وضيغهم ، فإذا مت فهو لى والى الأمر بعدى .

وقد جاء بعد هذا فقهاء أهل السنة والشيعة فاختلفوا فى إرث النبي مطلقا ، فذهب أهل السنة إلى أنه لا يورث . وذهب الشيعة إلى أنه يورث ، ولم يقيدوا

الخلاف بأمر هذه الصفايا التي قام الخلاف فيها بين أبي بكر وفاطمة ؛ ومن يطالع هذه الروايات السابقة يجد فيها ما يفيد قصر الخلاف في إرث النبي صلى الله عليه وسلم هي هذه الصفايا ، وأن أبا بكر كان يرى أنها لم تدخل في ملك النبي صلى الله عليه وسلم حتى تورث عنه ، وإنما كان له حق النفقة منها في حياته على الوجه السابق ، ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له ما يملكه غير هذه الصفايا من منقول ونحوه وإن كان قليلا ، وهذا لم يرد فيه نزاع بين أبي بكر وفاطمة ، لأنه لا يصح النزاع في إرثه ، والحق أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن له على هذه الصفايا إلا حق الولاية ، فتسكون ولايتها لمن يلي أمر المسلمين بعده .

قلة الكرام

قالت الحكماء : الكرام في اللثام كالغرة في الفرس . قال السموءل :

تعيّرنا أنا قليل عديدنا	فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا	عزيز وجار الأكثرين ذليل

وقال أبو تمام :

ولقد يكون ولا كريم تناله
حتى تفحوض إليه ألف لثيم

وقال ابن أبي حازم :

وقالوا مدحت فتى كريما	فقلت وكيف لي بفتى كريم
بلوت ومر بي خمسون حولا	وحسبك بالمجرب من حلیم
فلا أحد يمد ليوم طول	ولا أحد يعود على هديم

وقال دحبل :

ما أكره الناس لا بل ما أقلهم	والله يعلم أني لم أقل فسادا
إني لاغلق هيني ثم أفتحها	على كثير ولستكن ما أرى أحدا

عَلَى بَنَاتِي طَالِبٌ

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمود النواوى
وكيل معهد أسيوط

بلاغته :

قال الاستاذ الأديب محمد المرصفي شارح نهج البلاغة ، وهو يتحدث عن اللغة العربية في مقدمة شرحه : « وبين هذه وتلك منزلة هي عليا منازل الكلام فيما نعلم ، وأشرفها مكانا وأجلها خطراً ، أقام فيها صدر الإسلام وشطرا من خلافة بنى أمية ، جمعوا فيها بين جمال الحضارة الجديدة وجلال البداوة القديمة ، وبشاشة القرآن الكريم . بهذه الخصال الثلاث امتاز الخلفاء الراشدون ومن تأثرهم ، كزياد والحجاج وقطربى بن الفجاءة . وقد كان المجلى في هذه الحلبة على صلوات الله عليه . وما أحسبني أحتاج في إثبات هذا إلى دليل أكثر من نهج البلاغة ، ذلك الكتاب الذى أقامه الله حجة واضحة على أن عليا قد كان أحسن مثال حتى لنور القرآن وحكمته ، وعلمه وهدايته ، وإعجازه وفصاحته .

اجتمع على في هذا الكتاب ما لم يجتمع لكبار الحكماء وأفذاذ الفلاسفة ونوابغ الربانيين : من آيات الحكمة السامية ، وقواعد السياسة المستقيمة ومن كل موعظة باهرة وحجة بالغة تشهد له بالفضل وحسن الأثر .

خاض على في هذا الكتاب لجة العلم والسياسة والدين ، فكان في كل هذه المسائل نابغة مبرزا . ولئن سألت عن مكان كتابه من الأدب بعد أن عرفت مكانه من العلم ، فليس في وسع الكاتب المترسل ، والخطيب المصقع ، والشاعر المفلق أن يبلغ الغاية من وصفه ، أو النهاية من تقييده .

وحسبنا أن نقول : إنه الملتقى الفذ الذى التقى فيه جمال الحضارة وجزالة البداوة ، والمنزل المفرد الذى اختارته الحقيقة لنفسها منزلا تطمئن فيه ، وتأوى إليه بعد أن زلت بها المنازل في كل لغة ، وسأحاول أن أحلل بعض عوامل هذه

العبقرية العلوية في بعض نواحيها بما يشوق إلى مطلبها ، حتى لانهمل تلك السكنوز الثمينة التي عرفها رواد الأدب الرفيع وطلاب الأسلوب السامي .

ولا غرو ، فقد كان على في الصميم من هاشم من ملكوا زمام الفصاحة في العرب ، واستبدوا بمزايا الأدب .

وقد نشأ على في بيت النبوة حيث تتلى آيات الله والحكمة ، فيحظى بالنصيب الأوفى من فيوضات الإسلام ، التي هي المادة الخصية لكل أديب ، ثم سعد بعد ذلك بغصن النبوة فاطمة الزهراء تزيده أدبا إلى أدبه ، وتمده ببعض ما أخذت عن أبيها من دونه ، وقد حفظ على القرآن كله وقل أن يجتمع ذلك لغيره ، فوقف على أسرارهِ واختلط به لحمه ودمه . والقارى يرى ذلك في نهج البلاغة ويلبس فيه مقدار استفادة على من بيانه وحكمته . وناهيك بالقرآن مؤدبا ومهذبا ، يستنطق البكى الأبكم فيفتق لسانه بالبيان الساحر والفصاحة الغالية ، فكيف إذا كان مثل على في خصوبته وعبقريته ، واستعداده بمن صفت نفوسهم وأعرضوا عن الدنيا وأخلصوا للدين ، تجرت ينابيع الحكمة من قلوبهم على ألسنتهم متدفقة كالحيطات ، تجري بالسلس العذب من الكلمات ؟

وهل كان الحسن البصرى في زواجر وعظه ، وبالع منطقته إلا أثرا من على وقطرة عن محيط أدبه ، ففتن الناس بعبارته وخبأ ألبابهم بحمله ، فكيف يكون الأستاذ العليم والإمام الحكيم على بن أبي طالب ؟

لقد كان الإمام على في خطبه المتدفقة يمثل بحراً خضيا من العلماء الربانيين ، وأسلوباً جديداً لم يكن إلا لسيد المرسلين ، وطرق بحوثاً من التوحيد لم تكن تخضع في الخطابة إلا لمثله ، فهي فلسفة سامية لم يعرفها الناس قبله ، فدانت لبيانه وسلمت في منطقته وأدبه .

وخاض في أسرار الكون وطبائع الناس وتشریح النفوس ، وبيان خصائصها وأصنافها ، وعرض لمداخل الشيطان ومخارجه وفتن الدنيا وآفاتِها ، وتكلم في الموت وأحواله ، وفي بدء الخلق ووصف الأرض وفي شأن السماء وما يعرج فيها من أملاك وما يحف بها من أفلاك ؛ كما عرض لملك الموت ووصفه وأطال في وصفه .

وخطب على في السياسة وفي شئون البيعة والعهد والوفاء واختيار اللاحق ، وما أحاط بذلك من ظروف وصروف كتحكيم صفين ، وما تبعه من آثار سيئة وتفريق في الكلمة .

ولم يفته أن ينوه في خطبه بأنصار الحق وأعوان الخير ، والدعوة إلى الجهاد ، وفيها حاجة للخوارج ونصح لهم ولأمثالهم باتباع الحق ، وغير ذلك مما يكفي فيه ضرب المثل ولفت النظر .

غير أن ناحية عجيبة غريبة امتاز بها الإمام ، هي مما اختص به القديسون من الانبياء ، ومن على شاكلتهم كانت تظهر في بعض تجلياته ، وأشار إليها في بعض مقاماته ولم يسلك فيها سواه إلا أن يكون رسول الله .

فقد ذكر كثيراً من مستقبل الآمة ، وأورد ما يكون لبعض أحزابها كالحوارج وغيرهم ، ومن ذلك وصفه لصاحب الزنج وذكر الكثير من أحواله . وذلك من غير شك لون من الكرامات ، وقد قال له بعض أصحابه إذ ذاك : لقد أوتيت يا أمير المؤمنين علم الغيب . فضحك وقال للرجل وكان كليباً :

« يا أخا كلب ، ليس هو بعلم غيب ، وإنما هو تعلم من ذى علم ، إنما علم الغيب علم الساعة وما عدّد الله بقوله « ان الله عنده علم الساعة ... الآية » ، فعلم الله سبحانه وتعالى ما في الأرحام من ذكر أو أنثى ، وقبيح أو جميل وسخى أو بخيل وشقى أو سعيد ومن يكون في النار خطباً ، أو في الجنان للنيين مرافقاً ، فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه أحد إلا الله ، وما سوى ذلك فعلم علمه الله نبيه فعلمه ، ودعا لي بأن يعيه صدرى وتضطم عليه جوانحي » .

هذا إلى أنه طرق نواحي من القول ، كانت من خواص الشعر إذ ذاك ، ولكنه ضمنها خطبة ؛ فوصف الطب وعرض للخفاش وما فيه من عجائب ، والطاووس وما يحويه من أسرار ، وما في الإنسان من عجائب الخلق وآيات المبدع الحق ، وأحيلك في ذلك كله على نهج البلاغة ، ولكني أتعجل لك جملاً من قوله في الخفاش وهو يذكر بالله سبحانه « من لطائف صفته وعجائب حكمته ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش ، التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء ، ويبسطها الظلام القابض لكل حي ، وكيف عشت أعينها عن أن تستمد من

الشمس المضيئة نوراً تهتدى به في مذاهبها ؟ وتصل بعلائية برهان الشمس إلى معارفها ، ردعها تلالؤ ضيائها عن المضي في سبجات إشراقها ، وأكنها في مكانها عن الذهاب في بلج اتلاقها ، فهي مسدلة الجفون بالنهار على أحداقها ، وجاعلة الليل سراجاً تستدل به في التماس أرزاقها ، فسبحان من جعل لها الليل نهاراً ومعاشاً والنهار مسكناً وقراراً .

ووصف الطائوس وهو يتحدث عن الطير . فقال :

« ومن أعجبها خلقاً الطائوس الذي أقامه الله في أحكم تعديل ، ونضد أصنافه في أحسن تضيد : بجناح أشرع قصبه ، وذنب أطال مسجبه وإذا درج إلى الأثى نشره من طيه وسما به مطلاً على رأسه . إلى أن يقول : يقضى كإفضاء الديكة ، أو يؤر بملاقحه أرّ الفحول المغتلبه في الضراب ؛ فإن شبهته بما أنبتت الأرض قلت « جنى جنى من زهره كل ربيع ، وأن ضاهيته بالملابس فهو كموشى الحلى ، أو مرئق عصب الين ، وأن شاكلته بالحلى فهو كفصوص ذات ألوان قد نطقت باللجين المسكل ... »

وهكذا تجد في أدب على الدين والسياسة والأدب ، والحكمة والوصف العجب ، والبيان الزاخر .

هذا كتاب إلى شريح القاضى يعظه ، وقد اشترى داراً ويحذره أن تكون من مال المسلمين في معان عجيبة وأسلوب خلاب ،

وهذا إلى معاوية يجادله في الأحق بالخلافة ، وقتله عثمان في معان لا يحسنها سواء ، وتلك كتب إلى العاملين على الصدقات ، يعلمهم فيها واجباتهم في جميع ملابساتهم .

وذلك عهده إلى محمد بن أبي بكر حين قلده مصر ، وتلك وصيته إلى الحسن عند منصرفه من صفين ، لم يدع فيها معنى تتطلبه الحياة لمشله إلا وجهه فيه أسمى توجيه ، في فلسفة خصيية ، وحكم رائعة مفيدة ، وكل تلك النواحي والأغراض في معان سامية مبسطة ، يعلو بها العلم الرباني الغزير ، والروح السامية الرفيعة وتدنو بها تلك القوة الجبارة على امتلاك أزمة القول ، كأنما نشر كسائنه بين يديه فوضع لكل معنى لفظه في أدق استعمال .

ولعلك لم تنس ما قدمت لك من وصف الخفافش وتفصيل أجزاء الطاووس .
فاسمع هذه أيضاً ولم أتعمد في نقلها اليك اختياراً ولا تعمقاً : قام إليه رجل
من أصحابه فقال : نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فما ندرى أى الأمرين أرشد ؟
فصفق إحدى يديه على الأخرى ثم قال : « هذا جزاء من ترك العقدة ،
أما والله لو أنى حين أمرتكم بما أمرتكم به ، حملتكم على المسكروه الذى يجعل الله فيه
خيراً ، فإن استقمتم هديتكم وإن اعوججتم قومتمكم ، وإن أبيتم تداركتكم لكانت
الوثقى . ولكن بمن وإلى من ؟ أريد أن أداوى بكم وأنتم دائى كمنافس الشوكة
بالشوكة وهو يعلم أن ضلعها معها . اللهم قد ملت أطباء هذا الداء الدوى ، وكلت
اللزعة بأشطان الركى . أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه ، وقرءوا القرآن
فأحكموه ، وهيجوا إلى اللقاء فوهوا وله اللقاح إلى أولادها ، وسلبوا السيوف
أغنادها ، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً ، وصفاصفاً بعضه هلك وبعضه نجا ،
لا يبشرون بالاحياء ولا يعززون عن الموتى ، قرح العيون من البكاء ، خصم البطون
من الصيام ، ذبل الشفاء من الدعاء ، صفر الألوان من السهر ، على وجوههم عبرة
الحاشعين ، أولئك أصحابي الذاهبون . فانظر إلى قوة الحججة والإلجاء إلى الحججة ،
وغرابة التشابه وروعة الاستعارات ، وسعاع التصوير وانسجام المعاني وتأخذها .
ولقد يضيق بى القول فأقف حائراً عاجزاً عن شرح ما يحول بنفسى من تقدير تلك
المعاني السامية ، فيسعدنى تصوير الاستاذ الإمام له وهو يقدم نهج البلاغة حين يقول :
فيكان يخيل إلى فى كل مقام أن حروباً شبت ، وغارات شدت وإن للبلاغة
دولة : وللصاحبة صولة ، وإن للأوهام عرامة ، وللرب دعارة ، وإن جحافل
الخطابة وكتائب الذرابة فى عتود النظام ، وصفوف الانتظام ، تنافع بالصفيح
الاباج ، والقويم الاماج ، وتمتلك المهيج بروائع الحجج ، فتقل من دعارة الوسوس
وتصيب مقاتل الخوافس ، فما أما إلا والحق منتصر والباطل منكسر ، ومرج
الشك فى جمود ، وهرج الريب فى ركود ، وإن مدبر تلك الدولة ، وباسل تلك
الصولة ، هو أمير المؤمنين الغالب على بن أبى طالب . . .
أما الاسلوب فيتجلى لك ما يأتى .

(١) الثروة من الالفاظ العربية فى مفرداتها وجمعها ، ومذكرها ومؤنثها
وحقيقتهما ومجازها .

(٢) المجازات والكنايات في معرض أنيق وقالب بديع .
(٣) الإيجاز الدقيق مع الاطناب في مقامه ، ويظهر ذلك في فقره وسجعته الفريدة التي يحمل بكل أديب أن يحفظ الكثير منها ليكون بيانه التكوين العربي السليم .

(٤) المحسنات البديعية في نمط ممتاز من جناس إلى طباق وترصيع وإلى قلب وعكس ، تزدان بجمالها البلاغة ويكمل بها حسن الموقع .

(٥) الجرس والموسيقى وجمال الإيقاع مما يدركه أهل الذوق الفنى .
ويحسن قبل الختام أن أشير إلى ما نوه به صاحب الطراز الإمام يحيى الحماني ، فقد تكرر ذلك في عدة مناسبات ، وأولها تمثيلة للبلاغة في أول كتابه قال وهو في ذلك الصدد : فن معنى كلامه ارتوى كل مصقع خطيب ، وعلى منواله نسج كل واعظ بليغ ؛ إذ كان عليه السلام مشرع الفصاحة وموردها ، ومحط البلاغة ومولدها ، وهيدب منزلها الساكب ومتفجر ودقها الهاطل . وعن هذا قال أمير المؤمنين في بعض كلامه : « نحن أمراء الكلام وفينا تشبثت عروقه ، وعلينا تهذلت أغصانه ، ثم أورد مثالا من أول خطبة في نهج البلاغة وقال : العجب من علماء البيان والجاهل من حذاق المعاني ، كيف أعرضوا عن كلامه مع علمهم بأنه الغاية التي لا مرتبة فوقها ، ومنتهى كل مطلب ، وغاية كل مقصد في جميع ما يطلبونه من المجازات والتشليل والكناية ، وقد أثر عن فارس البلاغة وأمير البيان الجاحظ أنه قال : ما قرع سمعي كلام بعد كلام الله وكلام رسوله إلا عارضته إلا كلمات لأمير المؤمنين كرم الله وجهه ، فاقدرت على معارضته وهي مثل قوله : « ما هلك امرؤ عرف قدره ، ، استغن عن شئت تسكن نظيره ، وأحسن إلى من شئت تسكن أميره ، واحتج إلى من شئت تسكن أسيره . »

وبعد فقد خرج هذا الأدب السامي العلوي ، والبيان العبقري المطلي نوايف هذه الأمة في القديم والحديث ، من أمثال ابن عباس والحسن البصري ، ثم زياد والحجاج وقطري ثم عبد الحميد الكاتب وابن المقفع .

ثم الاستاذ الإمام محمد عبده ، والزعيم سعد زغلول والهاباوى ، وغيرهم من قادة الفكر والهداة في كل عصر ، فهل من يسلك نهجهم في التهافت على ذلك التراث الثمين والسكنز الدفين ؛ إن يكن الخير للغة فعسى أن يكون ذلك قريبا .

جَزَاءٌ وَجَزَاءٌ

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد عبد التواب
مفتش الوعظ بالازهر

يقول الله عز جلاله في كتابه الحكيم :

« والله ما في السموات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ، الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ، إن ربك واسع المغفرة ، هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ، فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ، .

تنطق هذه الآية السكرية بوصفين ، وترتب جزاين ، تنطق بوصف قوم بأنهم أساءوا ، وترتب على الاساءة جزاءها ، وتنطق بوصف قوم بأنهم أحسنوا ، وترتب على الإحسان جزاءه .

والمحسنون ، والمسيئون مملوكون لله خالقهم والله مالكمهم ، والله مالك ما في السموات وما في الأرض جميعا ، ومن حقه عز شأنه ، بعد أن منح الناس نعمة الوجود ، وجملهم بأحسن تقويم وأبدع تصوير ، وألبسهم من سابغ فضله ، وحباهم بكريم عطفه ، من حقه أن يطلب إليهم شكر نعمته ، والتزام طاعته ، وجمال تقواه ، لا لحاجته - سبحانه - فهو الواحد الصمد ، العزيز بسلطانه ، العظيم بجلاله وقدرته ، الغنى بملكه ، ولكن الناس هم المفتقرون ، في طاعتهم غناهم ، وفي شكرهم عزهم ، وفي استجابتهم سعادتهم ... ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين ، .

فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا ، وأما من تجاوز حدود الله واستكبر على طاعة الله ، وشمخ بأنفه صلفاً وعتوا ، وأما من عاث في الأرض الفساد ، وضيع حقوق العباد ، واستلم وحى الشيطان ، فأنتم سعيه وساء عمله ، فإن جزاء هؤلاء جميعاً ، ذلة تدك من عتوهم ، وغضب يزلزل من مقامهم ، وظلمة تحيط بهم في دنياهم ، وتعتثر يكمبو بهم في مسعاهم ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ، قال تعالى : « والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم ، كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . »

ألا هل يبلغ أصحاب الأموال ، الذين أساءوا في حبس زكاتها عن الفقراء ، وأساءوا في حبس استثمارها لصالح الوطن ، وأساءوا في منع النفقة المشروعة حتى عن الأهل والعشيرة ، أن جزاءهم حبس رحمة الله عنهم ، وأن جزاءهم لعنة الوطن الذين أعزهم فأذلوه ، وأسعدهم فأشقوه ، وأن جزاءهم بغض الأهل والعشيرة ، الذين تنكروا لهم ، وتبرموا بهم ، ثم بعد ذلك كله حبس الله في نار جهنم حتى تتمحى كدورتهم ويزول خبثهم « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتسكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تسكنزون . »

ألا هل من يبلغ أصحاب الجاه والمناصب ، الذين تصلقت أعناقهم ، وتجهمت أساريرهم ، ولوحوا بالشر ، ونكصوا عن الخير ، أنهم أساءوا إلى نعمة الله حين أشاحوا بجاههم عن حاجات المحتاجين ، ورغبات المستضعفين ، وحين استمروا في مناصبهم لذة الأمر والنهي لا لمصلحة ، ولا في محمدة ، هل يعلم هؤلاء أنهم أساءوا إلى جاههم ، وأساءوا إلى مناصبهم ، وأساءوا إلى نفوسهم ؟ .

ثم أساءوا إلى هذه الآمال المرجوة العادلة فكتبوها وضيعوها ، ورزأوا أصحابها ، ألا وإن جزاء هؤلاء وأولئك كراهية الله والناس ، وفي كراهية الله العذاب ، وفي كراهية الناس المقت والازدراء . . .

أما أن يمجى الله المحسنين بالحسنى ، ويواتيهم بالخير والمثوبة ، فى الأولى والآخرة ، فذلك جمال الإحسان فى الإحسان ، وذلك وعد الله الذى لا يتخلف وبره الذى يشمل الأبرار الأخيار ، يتمتعهم فى الدنيا بنعمه الرضا ، والقناعة . والاطمئنان ، وحب الله ، وحب الناس ، ولا والله لا يطاول شئ فى الدنيا هذه المتعة ، ولا يهفو قلب الى أبعد من هذه الغاية .

أما فى الآخرة فروضة المحبين ، وجنة المتقين وسعادة الخالدين ، وصدق الله العظيم « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

وليس شئ أدل على فضل الله من رحمته ومغفرته لأولئك الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وهى الذنوب التى خشت وخبثت ، إذا ألم هؤلاء بشئ من صفائر الذنوب فإن ربك يتجاوز عنها فضلا ورحمة « إن ربك واسع المغفرة » ، هو أهل بكم من يوم أنشأكم بنشأة أبيكم آدم من الارض ، وهو أعلم بكم فى الخفاء المستور وأنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ، فلا تزكوا أنفسكم إدعاء ولا رياء ؛ بل زكوها طهارة وكرامة وصفاء ؛ فإنه سبحانه أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمعتقين .

كتب رجل إلى أبى العتاهيه رحمه الله يقول :

يا أبا إسحاق إني واثق منك بكدك
فأعني بأبي أنت على عبي برشدك

فاجابه أبو العتاهيه بقوله :

أطع الله بجهدك راغباً أو دون جهدك
أعط مولاك الذى تطلب من طاعة عبدك

سؤال الناس

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ ابراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلمة الشريعة

يعنى الدين الإسلامى فى تربيته للأفراد والجماعات عناية تامة بتقوية روح العزة والكرامة ، والإباء والشعم ، والتعالى والسمو ، بحيث يتحقق فيهم ذلك المعنى الذى تقصد اليه الآية ، ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً .

وإذا كانت التكاليف التى تعبدنا سبحانه وتعالى بها ، تذهب بالإنسان إلى أن يكون عبداً لله وحده لا شريك له ، يخلصه بالخضوع والتواضع ، والانكسار والذلة ، والابتهاال والزلى ، والرجاء والخوف ، وعلى قدر ما يكون الإخلاص فى ذلك كله تقوى أسرته بربه ، وتزيد علاقته بمولاه ، حتى لكانه سمعه الذى به يسمع ، وبصره الذى به يبصر ، وإذا سألك عبادى عنى فأنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ، فإنها - كذلك - توجه الفرد إلى أن يبذل للأسرة الآدمية بره ومعروفه ، ومعونته وإحسانه ، وأن يكون فى سبيل ذلك أشبه بالجندى المجهول الذى يفسى نفسه من أجل المصلحة العامة ، ويقدمها رخيصة للنهوض بالجمتمع الذى يعيش فيه ، وليس معنى هذا أن يتواكل غيره فى مقابلة جده ، ويتكاسل سواه لأن هنالك من يكفيه مؤونة العمل ، بل إن فيه من صريح النصوص ما يستغنى فى الحياة هلى حساب الناس ، وتحت رحمة المخلوقات ، ويرى أن السعى فى طلب الرزق ، والسكد لتحصيل القوت ، من أفضل أنواع العبادة ، وخير أبواب الطاعة ...

وقد صح أن جماعة سألوا الصادق المصدوق في رجل تبطل لله ، واعتكف في المسجد ، وانقطع عن أعمال الدنيا يريدون أن يعرفوا قيمة صنيعة ، وجزاء عبادته ، ومقدار ما وصل إليه من الرضا والقبول .

فقال : ومن يصلح له أمره ، ويكفيه ما يهيمه ؟ فقالوا : كلنا يا رسول الله ! فقال : كلكم خير منه ، وبهذا الفهم درج السلف الصالح من هذه الأمة منذ فجر الإسلام ، فلم يكن فيهم مدسول ، ولم يظهر من بينهم مستجد ، ولم ينبئنا التاريخ أنهم كانوا عالة على الناس .

والقرآن الكريم يمدح المتعففين ، ويشيد بمنزلة الزاهدين ، ويغالي في الثناء على الذين يعتزون برب الأرباب ، يعولون عليه ، ولا تتحول وجوههم إلا إليه . يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، لأنهم بهذا الخلق يطرحون بآمالهم بين يديه وكفى ، والله العزة لرسوله وللمؤمنين .

ومن النظريات المسلم بها في طبائع الفطر ما يقول جل جلاله : « وأحصرت الانفس الشج ، ولذلك دأب أصحاب المال ألا يجودوا به إلا للبلحف المالح ، والراجي الذي يصمر خده ، ورأينا الشمرء يستدرون الندى بما يصل بهؤلاء إلى درجة الألوهية ، ويسمو بهم عن مستوى الإنسانية ، وهو كفر يستوجب اللعنة والغضب ، والنقمة والسخط .

وكان من أدبه صلى الله عليه وسلم « وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . ولعل ذلك مما يتعلق بنظام العمران أكثر من تعلقه بالدين والأخلاق ، والإباء والكرامة ، فإننا نعلم أن التكافؤ الاقتصادي ، والمساواة الأدبية ، من أسباب الروابط ، ودوام الوشائج ، والام في ذلك كالأفراد ، ولا يحى الاستعمار ، وتسيقظ مطامع الاحتلال ، إلا من ناحيه الضعف والحاجة : والسُّعْمار القائم الآن على وجه الأرض ، لا يعدو أن يكون صراعا بين طرفين ، لا يتلاقيان عند قوة واحدة من الغنى والفقير .

ولا يظن ظان أن السؤال في الحديث بمعناه المتعارف ، إذ يرفع المسلم يده

بالدعاء ، ويوجه قلبه بالرجاء ، وإلا كان بمن عنانهم عمر بن الخطاب بكلمته ، لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ، وهو يقول اللهم ارزقني ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، بل هو عام في كل ما كان أخذاً في الأسباب ، وطرقاً للأبواب . ولعل من النبوءات الحكيمة ، والفلسفة البعيدة المدى ، قول النبي العظيم : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على القصاع ، قالوا أمن قلة نحن يا رسول الله ؟ - حينئذ - قال : « لا ولكنكم كثرة كغشاء السيل » .

وربما كانت هي هذه السكرة الفاشلة ، والسواد الذي تزيد به الأمة في الحكم لا في السكيف ، حيث تسود البطالة ، ويفشو التواكل ، وتخور العزائم ، وتضعف الثقة ، ويسأل الإنسان الإنسان ، ويعبد المخلوق غير الخالق ، ويتفنن في الملق ، ويتأنق في الرياء ، ويبالغ في النفاق ، ومن هذه يستشرى خراب الضمائر ، وفساد الذمم .

فن للمسلمين أن يتأدبوا بهذا الأدب ، وينهلوا من ذلك المعين ، ويسيروا على هداية نبيهم ، وصراط رسولهم ، قل هذه سبيلي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْنِي ، لأن أسلافهم الذين تقدموا ، وأجدادهم الذين مضوا ، ساروا على هذا الدرب ، وخفقوا على ذاك الأثر ، فتطامن لهم جيد الزمن ، وتلفت إليهم عنق الأيام ، ودانت لهم الأرض ، وصاغت لهم تيجان الملوك ، وسجلت الحوادث حياتهم بمداد من النور ، وما هي ذى لا تزال في الأفواه حلالة ، وفي الأسماع نغما ، وفي الأبصار متعة ، يتمثل بهم المتمثل ، ويتطلع إلى غايتهم المجد ، ثم يرجع خائر الحس ، واهى النفس ، كما يرى السارى القمر دون أن يناله ، وينظر الظمآن إلى الماء في الزجاجة ولا يصيب منه بُلالة .

ولله تلك الأمثال يضربها الله للناس فلا يتصورونها إلا من السحر ، ولا يتخيلونها إلا من الشعر :

يمشون تُغْضَى الأرض منهم هيبة ولهم حيال نعيمها إغضاء
حتى إذا دانت لهم أطرافها لم يطعمهم ترف ولا نغماء

أعلام الأزهريين

الشيخ عبد الكريم سليمان

المتوفى سنة (١٣٣٦ هـ) (١٩١٨ م)

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد كامل الفقي

المدرس في كلية اللغة العربية

نشأته وحياته :

ولد رحمه الله في القاهرة يوم الخميس غرة شعبان سنة ١٢٦٥ هـ من أبوين ألباني الأصل ، فقد وفد إلى مصر من ألبانيا ، جده لأبيه المرحوم د سليمان افندي أغا في عهد محمد علي باشا ، ووظف بجندة ، وكان ابنه د حسين افندي ، قد اتصل بأسرة من جنسه بقرية د جنباوى ، من أعمال مركز د إيتاى البارود ، بمديرية د البحيرة ، فأصهر إليها ، ولبت بهذه القرية على هوى منه ، وزهد في وظيفته بما اشتراه من عقار في هذه الجهة ، وقد رزق عدة بنين كان المرحوم د الشيخ عبد الكريم ، ثانيهم سناً ، وقد أصيب د الشيخ عبد الكريم ، بالجدرى وهو طفل فكاد يذهب ببصره ، لولا أن القدر هياً له أخاه في الطفولة ، فبينما كانا يلعبان على سطح الدار إذا بأخيه يقذف به فيهبط من حائق وتشجع جبهته وحاجبه ، ويتدفق منها دم غزير انكشفت به غشاوة عن إحدى عينيه ، فأبصر بها .

وقد حال ضعف بصره دون إلحاقه بالمدارس ، فالتحق بكتاب القرية ، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة وأتم القرآن بها ، ثم أشرب حب الازهر وتمسكه هواه فتسلل خفية إليه ، وقد اتقى في طريقه إلى الازهر برجل من قريته ، فسأله الرجل عن مقصده فعسى جوابه ، وإذ ذاك عاد به الرجل إلى القرية وأسلمه لوالده ، ولم يشأ والده أن يصرفه عن حبه الازهر ، فأوفده إليه في سنة ١٢٨٨ هـ فانكب على العلم وطالعه برغبة وشوق ، وكان معروفاً بالذكاء والتفوق على الاقران ،

وجمعته صداقة الصبا بجمهرة من نابغى الأزهر كالطلاب «سعد زغلول» و«محمد عبده» و«إبراهيم الهلباوى» وغيرهم .

وفى أواخر دراسته بالأزهر وفد إلى مصر «السيد جمال الدين الأفغانى» ، فوصل بينهما «الشيخ محمد عبده» ، وأكد ودّهما ، فتلقى «الشيخ عبد الكريم» عن الأفغانى ما كان ينشره بمصر من العلوم ، ودرب فيمن دربهم على الكتابة ومعالجة الشئون ، ومنذ ذلك الحين شرع يكتب فى الصحف ، ويتناول النواحي الوطنية والحقائق والاجتماعية ، وذاع اسمه بين الكتاب النابهين ، وكان قلبه يدر عليه اليسر والرغد ، ونال شهادة العالمية من الدرجة الأولى فى سنة ١٣١٥ هـ .

أعماله :

اتجهت رغبة المرحوم «رياض باشا» ، وكان ناظر النظار إلى إصلاح جريدة «الوقائع المصرية» ، فقلب بصره باحثاً عن نخبائير الكتاب وجهابذتهم ، فاختره فيمن اختارهم لتحريرها «كسعد زغلول» و«سيد وفا» وغيرهما تحت رئاسة «الشيخ محمد عبده» ، سنة ١٨٨٠ م . وكان «رياض باشا» قد اهتدى إليه بمقال كتبه قبل ذلك تناول فيه بالنقد بعض أعمال الحكومة ؛ فدعاه على أثر ذلك وخيره بين الكف عن الكتابة والتزام قريته ، فأثر الثانية ، ثم دعاه منها لهذا العمل ، فكان أحد الذين سموا ببلغة الوقائع ونهضوا بتحريرها ، وخلصوها مما كانت ترسف فى أغلاله من السجع المرذول والصناعة المستكرهة .

ولما حوكم «الشيخ محمد عبده» عقب الثورة العرابية ، وقضى بنفيه إلى الشام حل «الشيخ عبد الكريم» ، محله فى رئاسة الوقائع ، وظل بها إلى أواخر سنة ١٨٩٧ وهى السنة الى ألغى فيها القسم الأدبى من الوقائع ، فعادت إلى ما كانت عليه صحيفة أوامر وقوانين .

ثم عين فى أول يناير سنة ١٨٩٨ م عضواً بالمحكمة الشرعية العليا ، وكان قد حصل على شهادة العالمية فى فقه الاحناف لأنه نشأ شافعى المذهب ، ولا يتقلد قضاء مصر إلا الحنفية ، وقد أبدى ذكاءً غريباً فى دراسة فقهه الجديد ، فإنه تفضل فيه واستمكن ، فى وجيز من الزمن .

وفي أول أبريل من سنة ١٩١٠ م عين مفتشاً عاماً بالمحاكم الشرعية ، وطاف بمحاكم البلاد جميعها ، وكتب تقريراً مبدعاً بين فيه ما شاهده من علل ونقص ، وأشار بكثير من ضروب العلاج والإصلاح الإداري والفقهى ، ثم لقي عنتاً أثر به الاستقالة في نوفمبر سنة ١٩١٢ م .

صلته « بالشيخ محمد عبده » :

وقد نشأ ملازماً للشيخ محمد عبده متأخياً معه ، لا يغادر أحدهما الآخر منذ صباه ، ولقد ضرب الشيخ محمد عبده في أثناء دروسه مثلاً يصور به تلازمهما فقال : كأن يسأل السائل هل رأيت الشيخ « محمد عبده » ؟ فتقول : ولا ، الشيخ عبد الكريم سلمان ، ، وكان بينهما تقارب في الرأي وتناسب في الفكر ، وتشابه في الشعور ، وكأنهما أرادا أن تدمر صلتهما في الآخرة كما دامت في الأولى ؛ فابتنيا قبراً واحداً ضم رفاتهما ، فما أبلغ ذلك وفاء .

لازم « الشيخ عبد الكريم » ، صديقه الإمام أكثر من عشر سنين بذلاً فيها معاً جهوداً موفقة في خدمة الأزهر وإصلاح شؤنه ، وكثيراً ما عاون الشيخ « عبد الكريم » ، زميله الإمام في مشروعاته المثمرة وعاضده في إنجازها ، على رغم ما يدبر له من كيد أعدائه وأعداء الإصلاح ، حتى أنجز في ظلها ورعايتهما للأزهر إصلاح واسع الأفق فصله « الشيخ عبد الكريم » ، في كتابه الذي سماه « أعمال مجلس إدارة الأزهر » ، وقد طبعه المرحوم « السيد رشيد رضا » ، مجرداً من اسم صاحبه لما حواه من حقائق تتصل بالخدوي إزاء ذلك ، ولما قدم الإمام استقالته من مجلس إدارة الأزهر قدم هو الآخر استقالته في الأسبوع نفسه ^(١) . وما قال الإمام في تقديره « وأكننته كنى فأدينه منى ، وجعلته في مكان النحو من ابن جنى » .

وما زال كذلك حركة دائبة في الإصلاح ، وآية فذة في العلم والأدب حتى

(١) تاريخ الإمام ج ٣ ص ١٦٥ وقد تبعهما بالاستقالة عضو آخر هو الشيخ سيد أحمد الحنبلي ، كانا هذه الاستقالات استقالة الشيخ على البيلاوى شيخ الأزهر لمعهده . وسبب ذلك معارضة الخديوى لمحمد عبده في إصلاحات الأزهر لأنه كان يريد أن يتخذ منه أداة لتقوية نفوذه السيامى وكان محمد عبده يقف في سبيل ذلك . [تاريخ الإمام ج ١ ص (٥٦٢ - ٥٦٦)]

قبض رحمه الله في يوم الجمعة السابع عشر من مايو سنة ١٩١٨ ، على أثر نوبة قلبية لم تمهله ، وقد نقل جثمانه من « الرحمانية » إلى القاهرة في حفل رهيب ، وسعى إليه سعد زغلول وعلماء الأمة وعظماؤها وأدباؤها وكبراؤها .

أخلاقه :

هذا وقد كان رحمه الله أبليغ الأمثال في الإباء والاعتزاز بالكرامة ، رحيم يرثى للمتكربين ، ويغدق خفية على الموزين ، ويسعى لقضاء مصالح الناس فلا ترد له كلمة ولا تنكس له شفاعة ، يؤثر غيره على نفسه ، ولو كان به خصاصة ، ويقدم سواه فيما هو أهل له ، رجا صديقيه الإمام وسعدا يوما مافي تعيين بعض الأصدقاء ، وقد توسط به في منصب كبير فقال له الإمام : لأنى و د سعدا ، ندخر هذا المنصب لك وأنت أجدر الناس به ، فقال : لا . لن أقبله ، إنما هو لصاحبي فقد أعطيته كلمة .

وبلغ من الرثاء للمحتاجين البائسين أنه كان يجمع من كثير من الأغنياء صدقة يوزعها عليهم ترفها عنهم .

كتابه :

اشتغل رحمه الله بالكتابة والتحرير في الصحف وهو يطلب العلم في الأزهر ، وبكثـر صيته بالكتابة الأدبية القيمة التي نشرها في « الوقائع المصرية » ، « والمقطم » ، « الجريدة » ، « الآداب » ، « المؤيد » ، وغيرها من الصحف . وما يذكر له بالفضل ما بذله من صادق المجهود في تخلص الكتابة من ربة السجع والمحسنات والزخرف ، وكان أشد الناس بغضا للتهويل والمبالغة ، مبالا إلى القصد والاعتدال في الكتابة ، واضح الغرض ، سهل العبارة ، فصيح التعبير ، مسلسل الفكرة ، قوى الحججة ، سليم المنطق .

ولنا لنجد في بعض كتابته طرفا من السجع ولكنه قليل ضئيل ، بالنسبة لما كتبه مما استرسل فيه وأتى به طلقا مشرق الدياجة ، أبلج الغرض ، مسائرا سجيته وطبيعته التي لا تميل إلى السجع إلا إن وافاها عفوا دون طلب .

نماذج من كتابته

كتب إلى كريمته «السيدة رابعة» ، وقد انتقلت إلى منزل زوجها في بلد آخر ، وكان يحبها حباً لم يطلق معه توديعها .
«عزيزتي رابعة ، سلام عليك وعلى من تحبين .

وبعد

فيعلم الله يا عزيزتي أنني ما سافرت لمنفعة أستجلبها ، ولا لمضرة أتسكبها ، ولكنني أشققت أن أراك وأنت ترحلين يتي إلى بيتك الجديد ، وهذا لا يستغرب مع شيخوختي وضعف عزمي ، هن مقاومة التأثيرات ، ولقد أحسست اليوم عند خروجي بما عراك ، ثم رأيته بعيني عندما قبلتك قبلة التوديع ، ووجدت من نفسي هزيمة كبيرة أمام هذه الحالة ، ولكنني عدت فأمنت بأن هذه سنة الدهر ، وأدركت أن هذه الفرقة إنما هي فرقة الجسم ، أما الصلة القلبية ، والمودة الابوية ، والشفقة والحنان ، فكل هذا دائم لا يزول .

ولقد أخفيت أمر سفرى وجعلته لسببي ، والحقيقة ما كاشفك به وهو خشية ذلك الموقف الخطير ، والصدق يا عزيزتي هو أفضل الفضائل ، وأنت تعلمين محافظتي عليه ، ولذلك لم أستطع بقائي مصرأ على ذلك السكتان ، فأعلمتك بأمرى ، وانزاع صبرى ، وعلى الله أجرى والسلام .

وكتبت في صفحة أخرى من الخطاب إلى صهره :

إننى وضعت أمانتى بين يديك ، ورضيتك لها حافظاً أميناً ، فعليك بقوى الله فى العناية بها ، والاهتمام بشأنها ، وما أريدك إلا أخذاً بحقوقك فإنما يوجبك ، ولم أوصها بمثل هذه الوصية لأنها منك بمنزلة الأمانة ، وليس للوديعه فى يد المودع إلا الحفظ ، وما عليها وهى فى يده إلا أن تكون حيث يضعها من أمكنة الحفظ والصيانة .

وقد سهل على أمر فراقكما أن هذه سنة الله فى خلقه ، واحترام كل منكما صاحبه كامل الاحترام ، أدام الله لكما هذا التوفيق السار ، المخفف لآلام البعد ، وصعوبة الافتراق .

وأهدى كتاباً إلى صديق له وكتب إليه :

« الإنسان الكامل ، والمولى الفاضل ، دام كاله ، وزاد إقباله .

كتباني إلى الأستاذ والهدايا تزايد في التواد ، وتوسع في قوة الارتباط ، إن كانت لغير من حظرها عليه الشرع القويم ، والشيخ من بمنزلة الأخ من أخيه ، وأنا منه بمثابة الولد من أبيه ، ولا داعية لي إليه سوى الصلة به ، ولا أريد منه غير الوداد ، قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ، وقد اخترت لك من كتب الأدب العربي القديم كتاباً حديث العهد بالوجود ، بعثته إلى حضرتك مترفاً بأنه نموذج فضلك ، ومعنى أدبك ، يعترف لك مهديه ، بأنه لاحظ المناسبات ونظراً إلى الرغبات ، وقبل أن تشغل بالبحث فيه عن اسمه والوصاف ، أعلمك بأنه كتاب المنسوب والمضاف ، فمنيئاً له بالشيخ يقدره حق قدره ، ومنيئاً للشيخ به يزيد في أمره ، وإن قبول الأستاذ لهديتي مكفول بحق أخلاقه ، وطهارة أعراقه ، وبلمه بأن النفع بها وهي عنده أهم وأوفى ، فله الحمد على ما قبل ، والشكر على ما أولى .

لا يفوته

لم يقل أحد في معنى عدم إمكان الإفلات منه أحسن من قول النابغة الذبياني
الشاعر المشهور من قصيدة للنعمان بن المنذر ملك العرب :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتأى عنك واسع

وهذا البيت ضمن أبيات أخرى هي :

أناي أبيت اللعن إنك لم تني ونلك التي تصطك منها المسامع

فبت كأي مساورتي ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع

كلفتني ذنب امرئ وتركته كدى العر تكوى عره وهورائع ،

والعر هو الجرب .

الأديب والاديب

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد محمود المسلوت
المدرس بكلية اللغة العربية

يتساءل الباحث ويجهد نفسه في بحثه وتساؤه : من هو الاديب الذي يستطيع أن يقوم برسالة الادب وينهض بأعبائه ؟ وكيف يكون الاديب المبين الذي يخلق من القبح حسنا ، ومن الدمامة جمالا ، ويجعل الحياة المظلمة العابسة المتجممة أمام أعيننا ضاحكة مشرقة تنبعث منها البهجة والمتعة ؟

ما هي الحدود والفواصل التي تفرق بين الادباء والادعياء ، بين الفن الحر والفن الزائف ، بين من يمدون أعناقهم إلى منازل الادب الرفيع وأعينهم كلية وقلوبهم هواء ؟

إن مما يدعو إلى الأسف ويشير للوعة والمضاضة أننا لا نرى ميدانا أوسع فوضى ، وأشد اضطرابا ، وأكثر ادعاء ، وأحفل بالمزاعم الكاذبة من ميدان الادب ! فكل من يحمل قلما يزعم أنه أديب له في دولة الادب صولة ، بل صولات وفي أرياضه ومروجه جولة بل جولات ، وكل من يستطيع تحرير خطاب تأخذه العزة به ، ويدخله الغرور ، ويستولى عليه الزهو ، ويظن في نفسه أنه يستطيع أن يكون من كبار الكتّاب وأعلام المؤلفين :

فكل يدعى وصلا لليلي وليلى لا تقصر لهم بذاكا

ولكن ما دامت المعالم غير واضحة ولا معروفة ، والحدود غير مستبينة ، ولا مرسومة ، فليدع من شاء ما شاء ، فلعل بعض الادعاءات أن تصيب لها من بعض الغافلين سميعا .

إن الاديب الذي نشده ونعنيه هو الذي يستطيع أن يستكشف صور الحياة ، ويكتنه أسرار السكون ، ويصوغ من كل ما يحيط به ويتصل بحمه ويثير نواذعه

وهو واجسه صوراً نابضة بالحياة ، مشرقة بالعبرة مضيئة بجلال العظمة ، نافذة إلى القلب حتى يسكن إليها ، محكمة الاواصر بأغوار النفس حتى تطمئن لها وتنفعل بها .
الاديب هو الذى يفتح عيونه لكل ما يمر به من مناظر وصور ، يحاول أن ينتفع بخيرها ويأخذ العبرة من شرها ، ويأق ببيانه الساحر وتصويره البارع لونا برقا ، يجعل الصعب من الامور سهلا والعسير يسيراً والمرحوا ؛ لتخف أعباء الحياة . والاديب البارع هو الذى ينتزع صوره ويبدع فنه مما يحيط به من المظاهر ، وما يستشفه من خلجات الافئدة ونزعات النفوس وهمسات القلوب ، وما يسيطر على بيئته من تشاؤم وظلمة ، أو يغمرها من تفاؤل ونور .

ثم هو يحيل خياله ويعمل فنه فى سوق هذه الاحاسيس والانفعالات ، وعرض تلك الصور والرسوم ؛ لتحرك فى القلوب ألوان الرضا والابتهاج ، أو تثير فى النفوس أسباب الاشفاق والرثاء .

لكننا نعود إلى تساؤلنا من جديد ما السبيل إلى تكوين الاديب على هذا الوضع ؟ وما الطريقة التى نستطيع بها تنمية فنه ، وصقل مواهبه ؟ هل السبيل إلى ذلك العكوف على الكتاب والإقبال على الدرس فحسب ؟ هنا يكون الخطأ فى الرأى ، والضلال فى الفكرة ، وهنا سر ما نلحه من تهافت واضطراب فى أدب بعض الادباء ، وتفكير بعض المفكرين ؛ إذ يعيشون فى بيئة ويفكرون بتفكير بيئات أخرى عني عليها الزمن وطوتها صحائف التاريخ .

إنما السبيل إلى تكوين الاديب تكويننا صحيحاً ترتجى ثمرته ، وترتقب فائدته ، الإحساس الحق بالحياة التى نحياها ، والإيمان العميق بالبيئة التى تعيش فيها ، والشعور بما تشعر به ، والتفكير فيما تفكر فيه . فالذى يعيش فى بلد أداة الرحلة فيه القطار والسيارة والطيارة ، لا ينبغى له أن يتخيل أنه قطع المفاوز وجاب القفار على متن :

مكر مفر مقبل مدبر معاً	كجلبود صخر حطه السيل من عل
.....	منجرد قيد الاوابد هيكل
.....	أو عوجاء من قال تروح وتغتدى

فليست هذه الاوصاف ولا تلك النعوت ولا هاتيك الموصوفات مما يتصل بحياته بسبب أو يمت إليها بنسب .

ولا يظن أحد أننى أدعو إلى أن نسقط من حسابنا هذه الأوصاف ، ونغضى عن تلك النعوت التى صاغها الفكر المبدع ، والذهن الصافى ، والخيال الوثاب ، ونغضى على تلك الثروة الأدبية الفاخرة التى تعتنى بها لغتنا ، ويشرق أدبنا ، ويحتفظ بها التاريخ فى سجل المجد والفخار ، ولكننى أدعو جاهداً مخلصاً لتصح أدواتنا ، وتستقيم وجهتنا وتخلص غايتنا ؛ أدعو إلى الصدق فى التصوير ، أدعو الأديب الذى رحل فى طائرة ، أن يصف الطائرة أو ركب متن دابة ، أن يصف الدابة ، أو قطع البحر فى باخرة ، أن يصف هذه الباخرة ، وسيجد فى كل منها منبعاً فياضاً لا يفيض معينه ، ولا تنفذ ذخيرته ، لأنه يتصل بنفسه وإحساسه ، وما لقيته من سرور وبهجة ، أو كابته من إجهاد وإرهاق ؛ وإن الذى يصف واقعاً أو يتحدث عن عيان ومشاهدة جدير ألا يقع فى اضطراب ، وألا يصيب فكرته أو أسلوبه ضعف أو خلل .

يأتى بعد ذلك — بعد تصحيح الفكرة واستيفاء المعنى — دور الصياغة وطريقة الأداء وبها تأخذ الفكرة سمت القبول والرضا والاستساغة ، أو تقابل بالتجهم والسخط والامتناع .

إن الفكرة تصبح أخرى بالرضا وأدعى إلى القبول واكتساب الانصار ، إذا لبست ثوباً قشيباً وسمتاً أنيقاً من اللفظ العذب الجميل ، والحبك المستوى والأداء المستقيم والأسلوب الرائع الذى ينفذ إلى القلب ، ويمازج النفس ويثير المشاعر الغافية ، ويوقظ الأحاسيس المراجعة ، وكلما كان السمت الذى تلبسه الفكرة موفيقاً مشرقاً متلائم المسج متلاحم الصلة ، لا تساوره جفوه اللفظ ولا تدخله وعورة المنزع ولا غرابة التخيل ولا يمد المأخذ ، كانت الفكرة أمس اتصالاً بالنفس والطف مدخلا إلى القلب وأدعى إلى إثارة الإعجاب والتقدير .

والسبيل إلى ذلك دائماً ، هو القراءة والارتياض بفنون القول ، وطول الصعوبة لأساليب الناس ، والوقوف طويلاً عند صورهم الباردة ، التى اجتمع فيها سمو البيان ، وجمال الفن ، وجودة الصياغة .

وأذكر أن أحد كبار الأدباء كان يختار القطعة الفريدة النادرة من كلام الجاحظ أو غيره ، ثم يأخذ فى عرض ألوان جمالها ، وحسن شيائها ، والميزات

التي أفاضت عليها البهاء ، والرونق من استعارة جميلة ، ومجاز بديع ، وخيال محلق طريف ، وأسلوب سلس ، ولفظ جذاب ، ثم يقف طويلاً عند منزع الفكرة ، ومعرضها يتملى ويستعمل ، ويقبس شيئاً بشيء ، ويقرن معنى إلى معنى ، ويولد خاطرة من خاطرة ، ويقبس فكرة من فكرة ، ويحاول بعد ذلك أن يخلق صورة تشبه هذه الصورة ، وينمق قطعة تطول هذه القطعة ، أو تفرعها ، حتى يصيب الخير الكثير من وراء هذه المحاكاة وتلك المسابقة .

يقول المرحوم الرافعى (١) :

« فسر النبوغ في الادب هو التوليد ، وسر التوليد في نضج الذهن الميأ بأدواته العصبية المتجهة إلى المجهول ومعانيه ، كما تنجم كل آلات المرصد الفلكي إلى السماء وأجرامها .

وبذلك العنصر الذهني يزيد النابغة على غيره ، كما يزيد الماس على الزجاج ، والجوهر على الحجر ، والفلولاذ على الحديد ، والذهب على النحاس ، فمذه كلها نبغت نبوغها بالتوليد في سر تركيبها ، ويتفاوت النوابع أنفسهم في قوة هذه الملكة ، فبعضهم فيها أكمل من بعض ، وتمدد لهم في الخلاف أحوال أزمانهم ومعايشهم ونحوها ، وبهذه المبانيه تجتمع لكل منهم شخصية ، وتنسق له طريقة ، وبذلك تنوع الاساليب ويعاد الكلام غير ما كان في نفسه ، وتجدد الدنيا بمعانيها في ذهن كل أديب يفهم الدنيا ، وتتخذ الاشياء الجارية في العادة غرابة ليست في العادة ، ويرجع التحقيق أكثر من حقيقته .

نخلص من ذلك كله إلى أن الاديب الخالد لا يتهياً له الخلود ، ولا يستوفى لديه السمو والابداع إلا حين تتاح له الفكرة النافذة ، والمعنى السديد والرأى الناضج ، ثم يتهياً له الاسلوب المشرق ، والعبارة التي تزينها خلاصة البيان وروعة المنطق وسمو الخيال .

وسبيل ذلك كله الاندماج في الحياة وتمحيص ظواهرها ، وإرهاق الحس لكل ما يضطرم فيها من خواج وما يمر بها من صور .

وسيله كذلك إدمان القراءة ومواصلة الاطلاع ، ومحاولة الخلق والإنتاج والإبداع ، ومتابعة نتائج الفكر حتى يقف المرء على كل جديد .

ولقد رسم القدماء هذه الطريقة المثلى لتكوين الأديب ، واستمعوا إلى ما يقوله الجرجاني في الوساطة ص ٢١ : « أنا أقول أيديك الله : إن الشعر علم من علوم العرب ، يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه ، فن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان ، ولست أفضل في هذه القضية ابن القديم والمحدث والجاهلي والمخضرم والأعرابي والمولد ، إلا أنني أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمس ، وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر ، .

أما ما ينبغي أن يسلكه الأديب من سبل تزيد ثقافته ، وتنمي معرفته ، وينضح فنه ، فلنا إليه عودة .

جوهرتان

أنشد علي بن الجهم جعفر المتوكل شعره الذي أوله : هي النفس ما حملتها تتحمل ، وكان في يد أمير المؤمنين جوهرتان ، فأعطاه التي في يمينه جائزة له على ما أنشده من مدح : فأطرق ابن الجهم متفكراً في شيء يقوله ليأخذ التي في يساره فقال له الخليفة مالك مفكراً ، إنما تفكر فيما تأخذ به الأخرى . خذها لا بورك لك فيها . فأنشأ ابن الجهم يقول :

بسرّ من رأى امام عدل	تغرف من بحره البحار
يرجى ويخشى لكل أمر	كانه (جنة) ونار
الملك فيه وفي بنيه	ما اختلف الليل والنهار
يداه في الجود ضرّتان	عليه كلتاهما تغار
لم تأت منه اليمين شيئاً	إلا أتت مثله اليسار

الرُّضْرُصْ فِي الْعَمَلِ

لفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ صادق خطاب

المدرس بكلية اللغة العربية

كل إنسان له في الحياة رسالة يجب أن يقوم بها ، ومهمة ينبغي أن ينهض بأعبائها دون إهمال أو تكاسل ، ومهما كانت قيمة العمل الذي يؤديه المرء ، ومهما صغر وضعه وقل شأنه ؛ فهو عمل تلتزم به الحياة وتستقيم الأمور ، وتسير الامة به في سبيل الرقي والكمال ، فالمعلم والصانع والتاجر والزارع كل منهم يضع لبنه في بناء أمته ، ويقيم حجراً في صرح وطنه . إن أقامه بإخلاص ووضع بحكمة وأمانة ، استقام للامة أمرها وصالح حالها ، واتجهت بطبعها ووضعها إلى طريق الكمال وسبيل السعادة ، وما دام كل إنسان يقوم بدوره وينهض بواجبه ؛ فبحال أن تقف دورة الامة أو يحول بينها وبين العظمة والسيادة حائل .

أما إذا أهمل كل إنسان في عمله ، وتراخى في مهمته وتغافل عن وظيفته ، فلا بد أن تختل الأوضاع وتفسد الطباع ، وتبطل الاحاسيس والمشاعر ، ويعتري الامة حالات من الفتور والإعياء والضعف الاجتماعي الذي يسلبها قوتها ، ويمتص حيويتها ويقضى على ما فيها من عزة ونخوة ، نحن نشاهد أن هناك دولة قوية ناهضة وأخرى ضعيفة متخاذلة ، نشاهد أن هناك دولة تبسط سلطانها وسيادتها ، وتفرض على الامم احترامها وإجلالها ، وقد تخطو خطوة أخرى فتستعمر وتحكم ، وبجانب ذلك دولة أخرى خاضعة نائمة غافية مستسلمة لا تحس هضمها ولا تنكر ظلمها ولا تظهر ألسنها ؛ لأن كل ما فيها من حس وشعور قد تبدل وخمد ؛ بل استحال إلى عبودية راضية قانعة . هناك دولة تهمس بكلمة فتهتز الدنيا وترتجف ، ودولة تملأ الآفاق صراخاً وعويلاً فلا يحس لها أحد صوتاً ، ولا يرى أثراً ، فما هو

السر في ذلك؟ ما هو السر الذي لم نفهمه؟ والعامل الذي لم نعلمه؟ بل ما هي الحكمة التي لم نأخذ بأسبابها، ولم ننفذ إلى مسالكها وأبوابها؟

ليس للقوة أسباب ولا أسرار، وليس للسيادة عوامل ولا دوافع، إلا الإخلاص في العمل وحسن انتظامه وصدق القيام بالواجب، وعكوف كل إنسان على شأنه وإقباله على عمله يؤديه في دأب، وينهض بأعبائه في صبر وتعبه لنفسه يقمع شهواتها، ويحد من مطاعمها وأهوائها ونزواتها.

وليس للضعف والهزال بواعث إلا الاستهانة بالواجب، والتواني في أداء الأعمال، وعدم الإخلاص في الرسالة التي يكلف بها الإنسان في الحياة؛ وبهذا تتأخر الأمم وتنتكس، وتضعف وتموت.

يجب أن يدرك الإنسان أنه حين يكسل عن عمله ويفرط في واجبه إنما يضر نفسه، ويؤذي معيشتة وفضلا عن ذلك يضر أمته ويؤخر عوامل التقدم والارتقاء فيها.. قد يستهين بعمله لأنه صغير ضئيل ويزدرجه لأنه فيما يرى ليس بذى قيمة نذكر، ولكن هذا العمل على ضآلته وحقارته وعلى قلة جدواه وهزال ثمراته، هو من متممات الحياة للأمة بل من عناصر البقاء فيها، فإذا لم يؤد هذا العمل الصغير، تعطل ركن من أركان الحياة وجانب من جوانب البقاء فيها.

في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعملوا فكل ميسر لما خلق له»، وفي كلام رب العزة جل شأنه: «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون»، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون».

يقرأ الإنسان هذه العظات البالغات، ويفهمها حق الفهم ويرى عواقب الكسل وآثار الإهمال، ضعة وتأخرا وضعف شخصية وانحلال ذاتية، ومع ذلك ومع هذه العبر التي تلاحقه في كل مظهر، وتأخذ عليه سبيله في كل ناحية فتحكم فيه نوازع الإهمال، ويتمكن منه إثارة للراحة وإخلاده للدعة، فإذا به يتهاون في مهمته فلا يؤديها بصدق رغبة وحرارة إخلاص، وقد ينأى عن أدائها كما ينأى عن عاقبة التفريط فلا يحسها، ولا يشعر بحرارتها إلا بعد أن تصدمه صدمة مرهقة، وتظهره عاطلا متبطلا خائر النفس متخافا القوة.

وهكذا تكون آثار الإهمال وجنابات الإهمال على الأمة ؛ نبت يصوح وهو في شباب حياته وريبع نمائه ، وزهور تذبل وهي في إبان النضوج والفتح ، وغرس يتشم ويتحطم عوده قبل أن يؤتي ثمره ! ألا نشعر جميعا بالآلم والخيبة وبالمرارة وشدة الفجعة حين ترى جموعا حاشدة تزحف في الشوارع كالجيوش الجارية الزاخرة تلتمس المسألة ، وتبني التكفف ولا تحاول أن تجرب العمل !؟ تذلل ما أعزه الله ، وتهين ما أكرمه ، وتريق ماء صانه وعظمه ! ولو سئلت أن تعمل لتأبت ! ولو طلب منها أن تشتغل لادعت العجز واصطنعت الضعف والإعياء !

إن ميادين العمل التي تتطلبها الحياة كثيرة متنوعة ، لا ترد طالباً ولا تغلق دون راغب ، ولكن الشيطان أعمام ، ودافع الجشع أضلهم وأغواهم ، فلم يعرفوا إلا السؤال وذلة وامتهانه ، لأنه سهل مريح لا عناء فيه ولا كلفة ، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم » .

نرى بجانب هؤلاء السائلين المتكسفين نوعاً آخر من الناس مردوا على التسكع وألفوا البطالة ، وأخلدوا للدعة والراحة ، هم صناع ، صناعاتهم في أيديهم ، لكنهم لا يعرفون العمل إلا حين يقتلهم الجوع ويجهدهم العرى ؛ إذا نهياً القرش لهم ، وأخذ سبيله إلى أيديهم أنساهم ربهم وواجبهم ، وألهاهم هن كل طاعة وكل هداية ، وبجانب أولئك هؤلاء شباب ناضر قوى ، يفيض صحة وقوة ، ويقطر حيوية وفتوة واكتئال شباب ، ولكن ليس لهم عمل إلا التسكع في الطرقات ، والتمرغ في القهوات ليلاً ونهاراً كأنما ليس لهم بيوت تحتاج إلى كدهم وعملهم ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة المسكنى الفارغ » (أى العاطل الذي يكفيه غيره طعامه وشرابه) ، فما أجدر المسلمين وهم يرون الأمم تستبِق في ميادين الرقي والتقدم ، بالقضاء على هذه الآفات والتغلب على تلك العورات والزلات ؛ لتقوى نفوسهم ، وتعز أمتهم وتسعد أوطانهم .

المج

« وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى
كل ضامر يأتين من كل فج عميق ،
قرآن كريم

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم على أبو سعيد

ما من عبادة شرعت في الإسلام ، وما من طاعة دعا إليها القرآن ، إلا كان لها أبلغ الأثر في تطهير النفوس ، وتهذيب الأخلاق ودعوة الناس إلى السعادة الدائمة ، والعزة السكريمة .

دعا الإسلام إلى الصلاة وجعل ثوابها في جماعة أفضل من ثوابها على انفراد بسبع وعشرين درجة ؛ ليكون اجتماع المسلم بأخيه ، ووقوفه بين يدي الله إلى جانبه ، داعيا إلى التآلف والتآزر ، موجبا للتعاون والتناصر ، باعثا على المحبة وصدق المودة ، قاضيا على ما في النفوس من حقد أو ضغينة أو نفرة .

كذلك أمر الله بإجتماع أكبر يعقد كل أسبوع ، يتذاكر فيه المسلمون في كل بلد عيوبيهم ، ومحاسنهم ، ويعالجون عالمهم وأمراضهم ، ثم ينفض الاجتماع وقد اطمأن كل إلى حال أخيه وزوده بالعظة النافعة ، أو اكتسب منه النصيحة الخالصة .

نلتبس هذه المعاني السكريمة بما فيها من سمو وجمال وجلال وقداسة في الجمعة والعديد ، وتقوى هذه المعاني ، وتعظم العبرة فيها ، وتشرق المنافع منها في الاجتماع الأعظم ، والموقف الأكبر عند بيت الله ، الذي جعله مثابة للناس

وأما ، وألف حوله القلوب ، وجمع إليه النفوس ، وحجب فيه أفئدة الناس ، وجعلهم ينسلون إليه من كل صوب ، ويفدون نحوه من كل فج عميق ؛ ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام .

ودائماً لا يلتقي المؤمن الصادق بأخيه إلا استفاد منه حكمة نافعة ، أو كلمة طيبة أو رأياً ناصحاً ، أو تجربة في الدنيا ، أو تبصرة في الدين .

وفي الحج يجتمع المسلمون من كل أطراف الدنيا ، ويلتقي المؤمنون من جميع بقاع الأرض ، وليس في القلوب إلا الطاه الخالصة ، والرغبة الصادقة في عفو الله ورحمته ، فهو اجتماع ليس فيه تنافس على دنيا ، ولا تراحم على باطل ، ولا اندفاع إلى هوى ، ولا انقياد لشهوة ، وهو اجتماع نزول فيه الفوارق بين الكبير والصغير ، والغنى والفقر ، وتمون فيه قيمة الدنيا ، ويصغر ما فيها من جاه ومتاع .

هنالك يشعر المسلم بالفروق الأرضية وقد زالت ، والحواجز الجنسية وقد انمحت ؛ فليس هناك إلا رابطة الإسلام ، تسيطر على النفوس ، وراية الدين ترفرف فوق الرؤوس ، وغرض واحد يألف حوله جميع الناس ، غايتهم الطاعة ، وهدفهم العبادة ، قلوبهم خاشعة ، وففوسهم ضارعة ، يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ، ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور .

الحج مؤتمر إسلامي لم يدع إليه صاحب هوى ، أو ذو غرض من الناس ، يلتبس من ورائه جاها ، أو يبتغي شهرة ، إنما دعا إليه رب العالمين — وهو الغنى عنهم — ؛ ليتعرف المسلمون إلى ماضيهم وحاضرهم ، ويستعرضوا حالهم ، وما تتطلبه من إصلاح ، وتستدعيه من نهوض .

وقد جعله الله تعالى ركن الإسلام وتمام الإيمان فقال : « والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ثم قال : « ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » ، تنبيها للناس إلى أن عدم الحج مع القدرة عليه كفر أو بمنزلة الكفر .

فإنه جل شأنه يقول : « وآتوا الحج والعمرة لله ، والرسول الكريم يقول : بنى الإسلام على خمس : شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ، .

فالإسلام ليسره وسماحته ، ورحمته بالعباد ، ورفقه بالناس بنى جميع تكاليفه على السهولة واللين ؛ فلم يكلف أحداً بما يشق احتماله ، أو يعسر أداؤه ، أو يتعذر فعله . ما جعل الله عليكم في الدين من حرج ، ، « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، فن استطاع الحج فقد لزمه الفرض ، وتعلق به الواجب ، ومن لم يستطع فليس عليه إلا العزم الطيب ، والاتجاه الصادق ، والله يهيء له الأسباب ، ويمد له الوسائل ويسدد الخطوات .

وتيسيراً على الناس ورفقاً بهم لم يكلفهم ربهم بالحج إلا مرة واحدة في الحياة مع القدرة والاستطاعة . خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أيها الناس : قد فرض الله عليكم الحج فحجوا . فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً . فقال صلى الله عليه وسلم : لو قلت نعم لوجبت ، ولما استطعتم . ثم قال : زروني ما تركتكم ؛ فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه . »

إن بعض ضعفاء الإيمان يظنون أن الحج أمر ثانوى لا عقوبة في تركه ؛ لأنه عسير الأداء كبير المشقة ، وفاتهم أن وجوبه كوجوب الصوم والصلاة ، وأن من تركه دون عذر قاهر ، لا يستطيع دفعه ؛ فعقابه صارم وذنبه عند الله عظيم .

وبعضهم يزعم أنه لا يستطيع الحج ويفسر الاستطاعة على حسب هواه ، ووفق ميوله : يكون في سعة من الرزق وبسطة من العيش والغنى ، ويظن أنه عاجز عن نفقات الحج . وفي الوقت نفسه يمنع نفسه ما تشتهى من المناعم واللذات ، وما تطمح إليه من الأهواء والشهوات ، عجز عن طاعة الله ، ولمسراع وخفة إلى إرضاء الشيطان .

وبجانب هذا رجل لا يستطيع الحج ولا يقدر على أدائه ، ولكنه يندفع إليه رياء وتفاخراً ، والنمسا لحسن السمعة ، وجرياً وراء اللقب : يفترض بالربا ويجمع من حرام ليحج وهو يعلم أن الحرام لا يوصل إلى ثواب ، ولا ينجي إلا أموا العواقب .

إن الحج واجب على القادر الذى ليس فى ماله شائبة من حرام ، فمن قدر عليه ثم نام عنه فإيمانه ناقص ، وعمله أتر ، وإذا مات لقي الله وهو عليه غضبان ! يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً » .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : « لقد هممت أن أكتب فى الأمصار بفرض الجزية على من لم يحج ممن يستطيع إليه سبيلاً » .

هذا مع أن الجزية لا تفرض إلا على تمتنع عن الدخول فى الإسلام .

وكان بعض التابعين يقول : لو علمنا رجلاً غنياً ، وجب عليه الحج ثم مات ولم يحج ما صلينا عليه !

وبعض العلماء الصالحين كان له جار من الأغنياء مات ولم يحج فلم يصل عليه !

قال ابن عباس رضى الله عنه : « من مات ولم يرك ولم يحج سأل الرجعة إلى الدنيا » ، وقوله تعالى : « حتى إذا جاء أحدم الموت ، قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت . كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » .

رزقنا الله فهم ديناً والفقهاء فيه إنه سميع مجيب .

الجود

الجود صفة من أعلى الصفات رتبة ، وقد خصها الناس بالإجلال والإكبار فى كل زمان ومكان ، لأنها أدل شئ على سمو النفس . ألا ترى أن قيس بن عاصم المقبرى المشهور بالجود ، لما وفد على النبي صلى الله عليه وسلم بسط له رداءه وقال هذا سيد الوبر . ولما توفى قيس قال فيه الشاعر .

عليك سلام الله قيس بن عاصم	ورحمته ما شاء أن يترحمها
تحية من ألبسته منك زمة	إذا زار عن شحط بلادك سلماً
وما كان قيس هلكك هلك واحد	ولسكنه بنيان قوم تهدما

من دول الاسلام :

الباكستان (☆)

لحضرة الأستاذ عمر طلعت زهران
أستاذ في الآداب

[في اليوم الأخير من عام ١٦٠٠ م تكونت في إنجلترا شركة الهند الشرقية ، لتقوم بأعمال تجارية ، انتهت باحتلال إنجلترا للهند ، بعد صراع عنيف مع البرتغاليين والفرنسيين والهنود . وفي الخامس عشر من شهر أغسطس سنة ١٩٤٧ صفت إنجلترا أمبراطوريتها ، وخرجت من الهند ، التي انقسمت بدورها الى دولتين : الهندوستان ، والباكستان]

تبلغ مساحة الباكستان ما يقرب من ٣٥٨ ألفا من الاميال المربعة ، وهي مساحة تعادل مساحة فرنسا وإيطاليا وبلجيكا وهولندا معا . أما سكانها فيبلغون حوالي ٧٦ مليوناً من الأنفس .

وتتكون الباكستان من إقليمين : الباكستان الشرقية والباكستان الغربية ، تقعان في الشمال الشرق والشمال الغربي من شبه جزيرة الهند . تحتضن الباكستان الغربية وادي نهر السند وفروعه وروافده ، بينما تغطي أرض الباكستان الشرقية ، أدنى وادي نهر براهما بوترا . ويفصل الإقليمين عن بعضهما نحو ألف ميل من الأراضي الهندوكية ، كما توجد مقاطعة هندوكية^(١) غرب الباكستان الشرقية . وأغلبية السكان العظمى في الإقليمين من المسلمين ، وللإقليمين مصالح اقتصادية متكاملة ، وترابطهما ، فوق ذلك ، روابط متينة من الدين والثقافة والعادات .

(٥) أخذت بيانات هذا المقال من « هذه هي الباكستان » ، Introducing Pakistan

نشرها المعهد الباكستاني للشؤون الخارجية - كراتشي سنة ١٩٤٨ م .

(١) هي مقاطعة أسام ، تحدها التبت وبورما والبنغال وعاصمتها شيلونغ ، وبها كثير من المسلمين .

الباكستان الغربية : تقرب مساحتها من ٣٠٤ ألفاً من الأميال المربعة ،
ويبلغ سكانها حوالى ٣٢ مليوناً ، وتتكون من مقاطعات البنجاب الغربية ،
والسند ، وبالوخستان ، ومقاطعة الحدود الشمالية الغربية ، وعدد من الولايات
والمناطق القبلية على حدود أفغانستان . وتعتبر ولايتا كشمير وجامو من الباكستان
جغرافياً وثقافياً ودينياً ، ولكنهما اضطرتا إلى الانضمام إلى الهند على غير رغبة
السكان فيهما .

والباكستان الغربية موطن عريق للمدنية ، دلت الحفريات فى بعض مدن السند
وغرب البنجاب على قيام حضارة ، ازدهرت منذ خمسة آلاف عام ، عاصرت
حضارات وادى النيل والدجلة والفرات . وبدأ اتصال هذا الاقليم بالغرب
حينما غزاها « كسرى » ملك فارس (٥٥٨ - ٥٣٠ ق . م) وضم إلى بلاده الاراضى
الواقعة حول بيشاور . ثم أرسل « دارا » حملة بحرية إلى السند ، واستولى
« اجزر كسيس » على بعض الإمارات ، وظل الحال كذلك حتى القرن الرابع .

وعرفت أوروبا هذه المناطق حينما غزاها الإسكندر الأكبر ، فأخذت
مكانها فى أدب الإغريق وتاريخهم ، اخترق الإسكندر جبال هندكوش ثم نهر
السند ، واستولى على الأرض التى تعرف الآن باسم غرب البنجاب ، ونزل جنوباً
فى نهر السند حتى بحر العرب ، مبحراً إلى بابل .

وأعظم الحوادث أثراً فى تاريخ وادى السند هو غزو العرب لها سنة ٧١٢ م .
إذ نزل محمد بن القاسم أمير البحار العربى فى دلتا السند ، ليقضى على القراصنة
الذين كانوا يهددون تجارة العرب البحرية . ومنذ ذلك الحين بدأ الإسلام يسود
جزيرة الهند ، وهى سيادة ظلت أكثر من ألف عام ، حتى جاء الإنجليز ، وظلت
الباكستان الغربية طيلة هذا الزمن تحت الحكم الإسلامى ، عدا فترة وجيزة ،
حكم السيخ فيها أرض البنجاب . وسادت الثقافة والعادات الإسلامية هذه المناطق
وما زالت قائمة عزيزة الجانب .

واعتنق الكثيرون من الوثنيين الإسلام ، وتزايد عددهم ، وانضم إليهم
المسلمون الذين جاءوا عبر الحدود فى جماعات كبيرة ، كان يدفعهم إلى الهجرة ،

عدم الاستقرار في أواسط آسيا ، بسبب غارات المغول ، كما كان يحى . مع كل غاز مسلم : جنوده ومرافقو جيشه ، وكلهم مسلمون ، أقاموا جميعاً في هذه الارض الطيبة ، كما وفد على هذا الاقليم الكثير من العلماء : والعرب إذ ذاك هم قادة العالم وهداته : فناً وعلماً ومدنية ، ومن هنا صارت أغلبية السكان العظمى من المسلمين حتى بلغوا حوالى ٧٦,٥٪ من عدد السكان سنة ١٩٤٧ ، وإن كانت هذه النسبة قد ارتفعت نتيجة لهجرة الهندوس منها ، وهجرة المسلمين إليها .

وأرض هذا الاقليم خصبة ، من أغنى الأراضى الزراعية ، يسكنها قوم أقوياء البنية ، ملاح الوجوه ، كرام النفوس ، فلاحون ممتازون ، وجنود لا يضارعون . وأهم مدن الباكستان الغربية هى : كراتشى ، عاصمة إقليم السند والباكستان جميعاً ، من أهم موانئ آسيا يسكنها حوالى المليون ، وتربها عدة خطوط جوية حيوية ، وفيها جامعة كبيرة بها كليات للآداب والعلوم والهندسة والطب والزراعة ، وتتلوها فى الأهمية : لاهور ، عاصمة مقاطعة غرب البنجاب : ثم « بيشاور » ، وفى كليتهما جامعة كبيرة .



الباكستان الشرقية : تشمل مقاطعتى البنغال الشرقية وسيليت ، وتزيد مساحتها قليلاً عن ٥٤ ألف ميل مربع ، وسكانها ٤٤ مليوناً ، ٧١٪ منهم من المسلمين . خضع هذا الاقليم لمؤثرات عدة على مر التاريخ ، بدأت بالمدينة الصينية ، ثم أقام فيه الهندوس والبوذيون قبيل العصر الإسلامى ، وانتشر الإسلام فيه لنفس العوامل التى أدت إلى انتشاره فى الباكستان الغربية . وظهر أثر الإسلام قوياً واضحاً ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادى حين غزاها قائد من قواد قطب الدين أيلك أول ملك مسلم لامبراطورية دلهى ، وظلت تحت الحكم الإسلامى - منذ ذلك الحين حتى جاءها الانجليز سنة ١٧٥٧ م - ، سواء كمملكة مستقلة ، أو مقاطعة فى امبراطورية دلهى .

والباكستان الشرقية على الرغم من التلال التى تسكتفها شمالاً وشرقاً ، أرض سهلية ترويه مياه براهما بوترا وفروع نهر الكنج ، وتسقط عليها أمطار غزيرة ،

تسكو أرضها الخضرة طول العام فتكسبها منظراً بديعاً فاتناً ، وتمخر أنهارها السفن ، ويمش الادلون في قراهم على الزراعة وصيد الاسماك . وأهم المدن في هذا الاقليم هي « داکا » ، ثم « شيتاجونج » ، في خليج البنغال .

الإسلام دين توحيد ، لا يعرف النظام الكهنسي ، وليست به هيئة كهنسية ، من أهم تعاليمه الإخاء ، فلا يعرف نظام المنبوذين ، ويتميز بما فيه من تسامح ديني عظيم . تجلى هذا التسامح في أيام الرسول عليه السلام ، وتميز به المسلمون بعده ، في كل مكان ، وحببتنا ما تلقاه الأقليات المسيحية في البلدان الإسلامية من معاملة ، يساؤون فيها مع المسلمين في الحقوق والواجبات .

طبقت الباكستان هذا المبدأ الديني أروع تطبيق ، حينما وقف رئيسها الراحل « محمد علي جناح » ، أكرم الله مثواه ، يعلن أنه لن يفرق بين الناس بسبب الدين أو الطبقة أو اللون ، وأنه سيكون للباكستانيين جميعاً نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات .

الجود

ما أطلق ألسنة الشعراء ، وألهمهم روائع المعاني مثل الجود . قال القاسم ابن عيسى في أبي دلف العجلي من أهل القرن الثالث الهجري :

تسكاد عطاياهم يحن جنونها إذا لم يعوذها بنعمة طاب
تسكاد مغانيه تهش عراسها فتركب من شوق إلى كل راكب
وقال أبو الطيب المتنبي في بدر بن عمار :

طربت مراكبنا نخلنا أنها لولا حياء عاقها رقصت بنا
لو تعقل الشجر التي قابلتها مدت محبة إليك الأغصنا

وقال البحتري :

لو أن مشتاقا تكلف فوق ما في وسعه لمشي إليك المنبر

كنز الألف باطمي

لحضرة الاستاذ محمد حسن الاعظمي

عميد كلية اللغة العربية بالباكستان

تقوم دار الكتب الملكية الآن بطبع ديوان الامير تميم ابن المعز لدين الله الفاطمي باقى القاهرة ومشيد الازهر ، وهذا الديوان كنز من كنوز الادب الغالية ، استطعت أن استخرجه أولا من مكتبة الفاطميين المحفوظة فى الهند لدى خلفائهم وورثتهم ، وهم أحفاد أولئك الذين حملوا تراثا وفيرا من العلم والادب إلى هذه الاقطار يعد انهيار الدولة الفاطمية فى مصر ، وتغلب الدولة الايوبية على البقية الباقية منها . وقد عاش هذا التراث بين جبال اليمن عدة قرون ، ثم رأى هؤلاء الحافظون لتركه الفاطميين أن يغتربوا بها فى أرض لا يعرف أهلها العربية ؛ وذلك لى يبق هذا الكنز بعيدا عن متناول الايدى ، بمحول القيمة والقدر حتى لا يفتن اليه أحد ، فيصيبه ما أصاب غيره من السكثور التى تبددت بين تلاعب الايدى وعبت الرواة وتحريف الناقلين ، وقد دفعنى شغفى بالبحث وحى للاطلاع إلى أن أجوب معاهد الهند ومكاتبها الموزعة بين طوائفها المختلفة ، ولم يكن يعيننى من ذلك كله سوى محاولة العثور على وثائق تاريخية أو أدبية يفيد منها المعنيون بالدراسات الاسلامية ، وكانت مملوكة الفاطميين الصغيرة فى الهند احدى المناطق التى زرتها واختلعت اليها ، وأمكننى أن استنسخ منها عددا من المخطوطات الهامة ، والكتب العلمية الاثرية مما صنفت ملوك الفاطميين ووزراء الدعاية فى دولتهم ، فمن منشورها محاضرات المؤيد الشيرازى الثمانمائة التى ألقاها بالازهر منذ ألف عام ، وهى نماذج رائعة فى الادب الكلامى وبلاغة النثر العربى ، والحوار المنطقى والفلسفى ، ومن منظومها ديوان هذا الامير الذى يتسكنى باسمه

المعز لدين الله إذ يقال له أبو تميم ، وكان لهذا العاهل الفاطمي الأول في مصر أبنان أكبرهما تسنم دولة الشعر ، وكان أصغرهما ولي عهد أبيه وهو العزيز بالله . وقد أتيج لي أن أراجع ديوان تميم هذا على سبع نسخ مخطوطة أخرى ، ثم كان لزاما علي أن أقوم بشرح وتعليق لبعض المصطلحات والألفاظ الغريبة ، وأن أضع للكتاب مقدمة مسببة تكشف النقاب عن تسلسل هذه الدولة الفاطمية إلى أن شكلت حكومتها في القاهرة .

أما الديوان نفسه فهو قبل كل شيء صورة من الادب المصري ، فيه الخصائص المصرية بقدر ما فيه من الخصائص العربية ، فهو شاعر مصري صميم . وإن لم يكن مصري المولد والنشأة والتربية .

يرى المتتبع هذا الديوان أسما لمواطن وأوصافا لجهات معروفة بالقاهرة وضواحيها حتى اليوم ؛ كما يكشف هذا الكتاب عن الحالة الادبية في العصر الفاطمي ، وكذلك المذاهب الإسلامية والحوار المذهبي في ذلك العهد ، والاحتفاظ بهذا الديوان ضروري للتاريخ والادب المصريين ، ولا سيما إذا عرفنا أن العصر الفاطمي قد ذهبت آثاره ، وانعوى سجل التاريخ على خلفاته ، فلم يفتح إلا على القليل منها . فقد تقرأ في المصادر التاريخية أن مائة من الشعراء هنا أو ورثوا أو مدحوا أحد الخلفاء الفاطميين ، ثم لا تجد هؤلاء الشعراء ولا أشعارهم فقد أحرقت مكتبات وضاع بعضها بين تموج الحوادث وأعاصير الانقلاب السياسي ، فكل ورقة تعثر عليها الآن تعد ذات قيمة غالية بالنسبة لموضوع الادب المصري بالذات ، وهذا هو الذي دفعني لتقديم الكتاب الى الحكومة المصرية ، بمناسبة العيد الالفي للقاهرة والأزهر .

وقد عينت الحكومة منذ اثني عشر عاما لجنة من أعلام الادب في مصر لمراجعة هذا الديوان ، ثم انتهى الأمر باقرار طبعه ونشره ، وتولت دار الكتب القيام بذلك ، ولم يحل دون اتمام الطبع ، وإنجازه سوى أزمة الورق أثناء الحرب الاخيرة ، وكانت تلك اللجنة الموقرة مشكلة من الدكتور عبد الوهاب عزام بك ، والدكتور طه حسين بك والاستاذ أحمد بك .

ولما عدت إلى القاهرة لتشكيل فرع لمؤتمر العالم الإسلامي الدائم ، رأيت

أن أضيف إلى عملي لخدمة الإسلام جهداً أدبياً آخر، وهو أن أذكر إدارة المكتب بمعاودة العمل على نشر ديوان تميم، وقد أبدت دار المكتب نشاطاً ملحوظاً في استئناف طبع الديوان، وقطعت في ذلك شوطاً كبيراً، ولعل في هذا ما يبعث الطمأنينة إلى من ينتظرون صدور هذا الكتاب سواء أكانوا من الحريصين على ترقب كل جديد من الأدب المصري، أم كانوا من طلبة كلية الآداب باعتباره مادة من موضوع الآداب المصري ومثالا من انتاج القومية المصرية؟ فإني أول من يرى في هذا الديوان ظاهرة جديرة بالنظر، وهي أن تميم مع كونه نشأ في بلاد المغرب وتلقى ثقافته الأولى في عهد آبائه وأجداده نراه ما يكاد يحل بمصر حتى تصبح وطنه وأنشودة آماله وأغنية أحلامه وقبلة تفكيره، فكأنه قد نسى كل شيء في وجوده ليندكر شيئاً واحداً هو أنه في مصر التي يعيش بها، ويترجم عن حبه لها وشعوره بحمال الحياة فيها.

وإلى أن يجد القارئ هذا الديوان منشوراً، فإني أضع بين يديه هذه النماذج دون تعليق أو شرح استكمالاً لهذه العجالة القصيرة التي قدمتها للتعريف بتميم.

قال الأمير يصف القرافة ويتضرع إلى الله :

إذا كنت مصطفياً مربعاً	نخص القرافة (١) بالاصطفاء
منازل معمورة بالعفاف	ومخصوصة بالنقى والبهاء
كأن العبير لها تربة	تضوع في صبحها والمساء
ولا خيرة في حياة امرئ	إذا لم يخف فصل يوم القضاء
رجس وتك يا رب ألا أنى	أطعتك طوع أولى الانتهاء
ولكنى مؤمن موقن	بأنك رب الورى والسماء
وما لى يا رب من شافع	إليك سوى خاتم الانبياء

(١) القرافة في الأصل بطن من المعافر بن يعفر بن الحارث بن مرة . وطاعة المعافر بمصر، ولهم حطة تعرف بالقرافة وهي على إمام أميم (شرح القاموس مادة قرف) . وجاء في ابن خلدون : ومن بنى غافق بطن يعرفون بالقرافة سكنوا أسطح المقطم أيام الفتح العربي ، ثم تركوا أماكنهم وتفرقوا في البلاد المصرية ، وصار مكانهم مقبرة للسلدين . فسميت المقبرة في مصر نسبة لهؤلاء القوم .

وقال أيضاً :

حارب الناس قبلنا الاعداء حين كانوا أعزة أكفاء
أترانا أذلة ومن اللؤم م بنا أن تنازل الجبناء
هل تروم الثعالب الليث أم هل تطمع الأرض أن تطول السماء
لا ومن صير الائمة من نسل وصى النبي لي آباء
وقال يمدح العزيز بالله أخاه :

لكل ملك من الورى شبه وما أرى للعزيز أشباها
أقول يا مالك المملوك ولا أقول في مدحه شهنشاهها
سعى وطال النجوم مبتدئا بهمة يستقل مسعاها
نفس كأن السماء مسكنها وهمة كالزمان أذناها
دانت الأرض والعباد معاً والوحش في وعرها وصحراها
فهو لسان التقى ومقلته وهو يمين العلاء ويسراها
صور من جوهر النبوة إذ كان الورى طينة وأمواها

وقال يمدح الخليفة المعز لدين الله في وقت تمام عمل الشمسية لبيت
الله الحرام :

إليك مدت رقابها العرب والملك ماء عليك منسكب
وأنت من دوحة النبوة لا تألف إلا عذاتك الريب
وحبذا الشمسية التي نصبت يقصر عنها المديح والخطب
كأنما درها وجوهرها نجوم ليل سماؤها ذهب
كأنما رصعت مناقبك الغـ ر عليها وأفرغ الحسب
في كبد المسجد الحرام لها شوق ولبيت نحوها طرب

كلمة الحق

لفضيلة الأستاذ الشيخ على حسن العماري
المدرس بالمعهد العلمي بأم درمان

لا أجد شيئاً في هذه الحياة طيب الذكر ، حسن السيرة ، طاهر الذيل ، كثير النفع قليل الضرر ، جميل الوجه ، سامى النفس ، وهو مع ذلك يلاقى من ظلم الناس وشرهم ، وبغضهم له ، وكراهيتهم لوجهه الجميل ، ونفورهم من روحه السامية ككلمة الحق ؛ كل يدعى وصلها ويزعم أنه متيم في هواها ، يحبها ويؤثرها ويمجدها ويقدها ، فإذا وقفت في سبيل أغراضه ، أو اعترضت طريق مطامعه وأهوائه كرهها أشد الكراهية ، ومقتها أشد المقت ، ولا ينسى في هذا الوقت نفسه أن يشيد بحبه للحق ، وخضوعه له وإيمانه به .

والناس — إلا أقلامهم — يعيشون بعيداً عن هذا الوجه الجميل ، وهذا العبير الحبيب ، لأن أكثر أغراضهم وميولهم وأهوائهم — وعليها يعيشون — لا تتفق والحق ، ولا يجمعها معه طريق وهم يخوضون الباطل إلى أغراضهم خوضاً ، لا يبالون أين وقعوا .

والمحجوب عندهم الأثير لديهم هو الذى لا تجرى كلمة الحق على لسانه ، ولا يخطر معناها الجميل في قلبه ، فهو إذا قدس أعمالهم ، وآمن بمواهبهم ، واخترع لهم المحامد والمساكم وتكذب وافترى ، وزين كل عمل يعملونه ، وحارب كل رأى يحاربونه ، إذا كان كذلك فهو الظريف اللطيف المذهب ، أما إذا كان يسير على نهج قويم ؛ ويجرى في قوله وفعله على خط مستقيم فلا يصف الليل في السرار بأنه يسطع بدره ، ويشع نوره ؛ ولا يشكر على شمس الصيف ناراها ونورها ولا يقول في الشيء إلا ما فيه ، ولا يعطيه من الثناء أكثر مما يستحق ؛ إذا كان كذلك فهو ثقیل الظل ، سى الخلق ، ضعيف التربية فاسد الذوق ، يجب أن يطرح قوله ، وأن تجتنب معاشرته ، وأن يكادله عند من يملكون أن يبطشوا به ؛ حتى يستقيم على الجادة ، ويعرف كيف يحترم الناس ، ويحسن الادب معهم .

وإذا كنت ممن يحبون الإنصاف ، ويؤثرون العدل ، ويؤمنون بالأخلاق الفاضلة ، فجعلت تنافح عن هذا الرجل ، وتجادل دونه ، وتبرر عمله ، وتشد أزره ، رموك بالهوى والغرض ، والمساعدة على إفساد الأخلاق ، ثم قالوا لك : الناس كلهم كذلك فلماذا يشذ هو ؟ أهو — وحده — الذى يغار على الحق ويعرف قدر العدالة ، وما دام الزمن يسير على رأسه ، فلماذا يحاول هو أن يسيره على رجليه ؟ وإذا كان الناس يعبدون عجلا فلماذا لا يقدم له الطعام مع المتقدمين ؟ ولا ينسون أن يقولوا لك : يد الله مع الجماعة وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية ... وهكذا .

وقد تجد رجلا عيبة جهل ، ومستنفع فساد وإفساد ، قد اتخذ الادعاء والتدجيل طريقا للشهرة ، يدعو الناس فيؤمن به كثير منهم ؛ ويسخرهم فى أغراضه ، فيلبون بإيمان عجيب . فإذا جمعك وإياه مجلس لا يبالي بك مهما كنت خبيرا بشئون الحياة ، عارفا بأغراض النفوس ، مسلحا بأنواع العلوم والمعارف ويبدأ يدجل ويشعوذ ، ويزعم لنفسه الفضائل ؛ ويحيطها بهالة من النور والقداسة ، فإذا ضاق صدرك ونفذ صبرك ، وقلت له : يا هذا . نحن فى عصر النور والمعرفة ومثل هذا الأسلوب إن جاز على بسطاء العقول فلا يجوز أمام المثقفين العارفين ، إذا قلت ذلك لا تشعر إلا وأنت مرفوع على الأيدي ، ملقى على قارعة الطريق ! ومن عجب أن بعض الذين حصلوا قدراً من العلم ، لا يزال يجهل الطريق الصحيح الذى يؤدى إلى احترام الناس ، وإكبارهم .

ترى الواحد من هؤلاء لا يكاد يعترف بغير ما يقوله هو ، فإذا ناقشته فى مسألة علمية ، أو جادلته فى ظاهرة اجتماعية فالقول قوله ، والحق ما ينطق به لسانه ، ومهما برهنت له على خطئه ، ومهما سقت من الحجج على وجهة نظرك فإنك لست بمزحرجه عن موقفه ، وكيف يخضع لرأيك ، أو يعترف بأن الحق معك وهو عند نفسه أعلم الأولين والآخرين .

وربما أدهشك وأنت تسمعه يجادل أن ينحرف عن الحق ، والحق كغفلق الصباح ، وأن يتمسك بالباطل ، والباطل يصيح به أنه الباطل ، وترجع إلى نفسك وتسائلها ، كيف يقف هذا الرجل مع علمه وفضله ، مثل هذا الموقف الخجل ، ولكنك تذكر لساعتك قصة ذلك الرجل الذى كان يسير مع أحد أصحابه فرأيا

حيوانا بعيداً عنهما ، فقال صاحبه : هذه إوزة ، وقال الرجل : بل هي عنزة . وتجادلا طويلا ، وكل منهما يصصر على قوله ، حتى وصلا إلى الحيوان فهاجه الصاحب فطارت الإوزة ، فالتفت إلى الرجل قائلاً : أصدقت أنها إوزة ؟ وظن أنه بذلك ألزمه الحجة ، وأوقفه على الدليل ، ولكن الرجل قال في برود ظاهر : عنزة ولو طارت !

وهكذا شأن هذا الصنف من الناس لا تطمع فيهم أن يرجعوا إلى الحق ، ولو جهدت جهودك ، وحملت نفسك مالا تطيق في سبيل إقناعهم .

على أن هذا التمسك بالباطل لا يعود عليهم بفائدة ، بل بالعكس يجلب عليهم احتقار المنصفين وسخريتهم ، ولعل أعجب ما في الأمر أنهم يتمسكون بالباطل ، وهم على يقين من أن مجادهم يدرك كل الإدراك أنهم يتمسكون بباطل ، ولا يخالجه أدنى شك في أنهم يخضعون لشهوة المراء ، وحب الغلب ، ولو في الظاهر .

ويظهر أن هذا الصنف من الناس قديم الميلاد ، وجد في كل عصر ، عاش فيه علماء لم يطلبوا العلم لله ، ولم يؤمنوا بأن فوق كل ذي علم عليم ، وأن الحق أحق أن يتبع ، ولذلك نجد الإمام الجليل أبا حامد الغزالي ، رحمه الله تعالى يحدثنا عن هذا الصنف ، وهو يتحدث عن شروط المناظرة النافعة المفيدة التي هي من شأن العلماء العاملين فيقول : « أن يكون - يريد المناظر - في طاب الحق ، كمناشد ضالة ، لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه ، ويرى رفيقه معيناً لا خصماً ، ويشكره إذا عرفه الخطأ ، وأظهر له الحق ، ومناظر زماننا يسود وجه أحدهم إذا اتضح الحق على لسان خصمه ، ويخجل ، ويجهل في مجادته بأقصى قدرته ويذم من أظلمه طول عمره ، .

أليس هذا الصنف جديراً بأن تسكره ، وأن تحقره ، وتسخر منه ما وسعتك الكراهة والاحتقار والسخرية ، ثم أليست هذه الكراهة تزداد إذا علمت أن هذا المناهض للحق هو من يفخرون بنصرة الحق والذب عنه ؟

لقد قال حكيم العرب أكرم بن صبي : إن قول الحق لم يترك لي صديقاً . ومن قبله قال فيلسوف اليونان لصاحبه : أنت صديقي ، والحق صديقي ، ولكن الحق أحب إلى منك .

لمحة في التشريع المقارن

لحضرة الأستاذ نضر الدين الصاحب
خريج الأزهر وجامعة باريس

١ — نظرية الحق المكتسب في الاحكام الجزائية في الوقت الحاضر .

لقد ازدهرت في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في أوروبا مدرستان هما المدرسة التقليدية ، والتقليدية الحديثة ، ووقفنا بجانب الفرد ضد المجموع ، ووقفنا من جهة أخرى المدرسة الوضعية تخالفها الرأي في ذلك ، وذهبت إلى تفضيل حق المجموع على حق الفرد ، وإن الذين غالوا بهذه الفردية توصلوا في مغالاتهم إلى النظرية المسماة بنظرية الحق المكتسب (Teorie de droit acquis) (١) التي تحتم احترام الاحكام الجنائية حتى ولو كانت مبنية على الخطأ إذا كان ذلك في صالح المتهم وفقاً لنظرية القضية المحكمة (Respect de la chose jugée) وقد اعتبروا أن للتهمة من هذا الحكم حقاً مكتسباً ، ولم يقبلوا إلا النقص لمصلحة القانون ، وقد أخذ التشريع السوري المعمول به الآن بهذه النظرية في المادة (٣١٥) من أصول المحاكمات الجزائية التي تنص على أنه : « عند براءة المتهم يسوغ أن يطلب المدعى العمومي نقض الإعلام المتضمن الحكم بذلك ، ونقض ما حواه من المعاملات والتحقيقات بوجه التمييز ، وذلك لمجرد إحسان مجرى القانون على شرط أن لا يطرأ خلل على حكم البراءة .

وكذلك المادة (٣٤٧) والمادة (٣٤٨) من نفس القانون ، والمادة (٤٤٢) من أصول المحاكمات الجزائية الفرنسية أخذت بنفس النظرية ، فقد جاء في شرح المادة (٣٤٧) لسليم باز ما يأتي (٢) : « إن نقص الإعلام بالاستناد إلى هذه المادة لا يمكن أن يؤثر فيما اكتسبه المحكوم عليه ، وصار حقاً مقررأ له بمضى المدة القانونية ، ولكنه يؤثر فيما سوى ذلك وبالحصوص فيما كان عائداً على المتهم بالضرر

(١) قانون الجزاء للعلامه جارو (R. Garraud) الجزء الخامس ص [٥٤٨] .

(٢) ص (٨٤٦) .

وعلى هذا لو نقض الإعلام لأن الجزاء المحكوم به أخف من الجزاء القانوني، أو لأن المحكمة برأت المظنون فيه أو حكمت بعدم مسؤوليته، فلا يمس الحكم بل يبقى على حاله لأن ما أولاه المحكوم عليه أصبح حقاً مقررأ له باكتساب الحكم الدرجة القطعية، فلا يجوز أن يسلب منه، أما لو كان نقض الحكم مقيداً للمحكوم عليه فيمكنه أن يستفيد منه، لأن من شأن القانون أن يتلافى الظلم ولو رضى به المظلوم.

٢ — نظرية الحق المكتسب في الأحكام الجزائية في الشريعة الإسلامية .

إذا ألقينا نظرة خاطفة على الأسباب الداعية لوضع هذه النظرية؛ لذهبنا إلى عدم صحتها وأجفافها بحق المجموع، ولقمنا بمخالفتها للمنطق والقياس، وقد ذهبت خطأ إلى القول إلى أن علماء الإسلام ورجال التشريع منهم لم يذهبوا إلى الأخذ بهذه النظرية^(١) إلا أنني قد توفقت الآن إلى نصوص تثبت عكس ذلك، وتشير صراحة إلى أن الشريعة الإسلامية، تدين بهذه النظرية بالفعل، فهي إذن تحترم الأحكام الجزائية حتى ولو كانت مبينة على الخطأ، إذا كان ذلك في صالح المتهم وفقاً لنظرية القضية المحكمة، وأنهى لتبيان ذلك أورد مادار في إحدى القضايا المشهورة في صدر الإسلام، والتي قضى فيها محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي الأمي . فقد أخرج البخاري وأبو داود والترمذي عن ابن عباس رضى الله عنهما، أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماه، فقال النبي : « البينة أوحد في ظهرك » . فقال يارسول الله : إذا رأى أحدهما على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة ؟ ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « البينة أوحد ظهرك » .

فقال الرجل — « والذي بعثك بالحق أنني لصادق، ولينزل الله تعالى ما يبرى ظهري من الحد، فنزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه « والذين يرمون أزواجهن ولم يكن لهن شهداء إلا أنفسهن، فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، والخامسة أن لعنة الله عليه أن كان من الكاذبين، ويدراً عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله أنه لمن الكاذبين، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، الآية .

(١) راجع ما كتبه في مجلة نقابة المحامين بدمشق أيلول سنة ١٩٤٧ ومجلة الأزهر سنة ١٩٤٨ .

فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل اليهما « وجلس للحكم ، — فجاء هلال بن أمية فشهد والنبي صلى الله عليه وسلم يقول « الله يعلم أن أحداً ، كاذب فهل منكنا تائب ، ... ثم قامت الزوجة فشهدت ، فلما كانت عند الخامسة أوقفوها وقالوا لها : إنها موجهة ، قال ابن عباس — « فتلكأت ونكصت وظننا أنها ترجع ثم قالت « والله لا أفصح قومي سائر اليوم ، ففضت فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أبصروها ، فإن جاءت به أ كحل العينين ، سابغ الإليتين خدج الساقين فهو لشريك ابن سحاء ، فجاءت به كذلك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم — « لولا ما مضى من كتاب الله تعالى لكان لي ولها شأن ، — اهـ .

ففي هذه القضية إشارة صريحة إلى أن المحكمة إذا فصلت دعوى جزائية وانتهى أمر النظر فيها ، لا يمكن رؤيتها مرة أخرى حتى ولو ثبت عدم صحة ما دار فيها من التحقيقات والافادات أثناء المحاكمة ، فقد جلس نبينا محمد بن عبد الله للحكم في هذه القضية ، وطبق قانون السماء الوارد في آية اللعان ، وكان أحد الطرفين في الدعوى عند رؤيتها وفصلها كاذباً لا محالة ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم — « الله يعلم أن أحداً كاذب فهل منكنا تائب ، — فالزوج يجب عليه حد القذف إن كان كاذباً بما رماها به من الزنا ، والزوجة يجب عليها حد الرجم إن كانت غير صادقة في إيمانها ، وقد تأيد كذب الزوجة بعد اكتساب الحكم الدرجة القطعية ، ومرور (٩) أشهر ونيف على انتهاء القضية حيث ثبت أن الزوجة هي الكاذبة . لأن الولد كان لشريك لا لهلال ابن أمية ، ومع ذلك لم يقبل النبي صلى الله عليه وسلم أن يعيد المحاكمة ، ويقيم عليها الحد ، بل ذهب إلى عكس ذلك ، واعتبرها قضية محكمة ، وقضية مقضية واحترم اكتسابها الدرجة القطعية ، رغماً عن ثبوت الكذب والخطأ بها ، وقال كلمته المأثورة : « لولا ما مضى من كتاب الله تعالى لكان لي ولها شأن ، الحديث .

وهكذا يكون الإسلام قد سبق علماء الغرب ومحاكمها في هذه النظرية ، وطبقها بالفعل قبل ألف سنة ونيف ، حين قال النبي صلى الله عليه وسلم « لولا ما مضى من كتاب الله تعالى لكان لي ولها شأن ، وأنتى سأطرق حكمه مشروعية هذه النظرية عند المسلمين في بحث مستقل والله أعلم .

الشعر والحياة

بقلم الشيخ سعد الدين موسى كله

بين الشعر والحياة صلة وثقى وعروة لا انفصام لها . . ولا أكون مبالغاً إذا قلت : إن الشعر ميزان الحياة ومفتاحها . . فما لم تشعر وتدرک وتفتح آفاق شخصيتك على معالم الكون وما فيه من روائع ومباهج ؛ فما أنت بحی وإن عددت في سجلات الأحياء ! . . ومن هنا كان الشعر مشتقاً من الشعور ، وهو منطقة الحساسية الدافقة الدقيقة في الإنسان ، ومن هنا كان الشاعر الفنان المجيد هو الشخص المثالي ، الذي تنف بحرمة عرائس الخواطر وزهور المعاني ؛ فتداعب خياله وتستنزل وحيه ؛ فيتدفق إحساسه ، ويتفتق ذهنه الولود عن الغواني الأبرار من الأغاريد والتصورات والأفكار ! . . ومن هنا أيضاً كانت رسالة الشعر هي تطهير الغرائز من أدرانها المادية ، وعلائقها الترابية ؛ حيث تسبح بالنفس في أجواء سامقة من الملائكية والأمثلة العليا ، ثم إبهاج الأفتدة الحزنية ، والكبود المحترقة على سفود الحادثات بما تطوى بين جوانحها من ترويض ، وانبساط ومتعة وعذوبة ، وتسلية وترفيه ، وسمو وإشراق ، ومرح وانطلاق . وأحسب أنه من الخطأ أن يقال إن الشعر بمعناه العام ، وهو الإدراك والإحساس ، أو التخيلات والخاطرات مقصور على فئة من البشر . . كلا . . فإن ينابيع الشعر كائنة في كل إنسان ، مودعة بوساطة يد الخلاق العليا في الصدر والجنان . .

ألا تنبسط أسرار الناس جميعاً إذا فوجئت بنبأ سار ، أو حديث مبهر ، أو فكاهة حلوة أو نكتة بديعة ؟ . ألا تنقبض الصدور وتكلمح الأوجه ، وتتجهم العيون إذا دهمتها نازلة من بنات الأيام أو مسها القضاء بقرح ؟ . . ولكن لما كان عامة الناس لا يستطيعون التعبير عما يحيش بنفوسهم من أفراح وأتراح بلغة ذات ألفاظ وأصوات ، وحروف ومعان يترجمونها عن خاطر

والوجدان . ، وكان تعبير العقل الساذج إذا ابتئس أو طرب هو الاكتئاب والبكاء ، أو الرقص والانتشاء . . كان من الضروري وجود طائفة أخرى أقوى شعوراً ، وأسمى إدراكاً ، حلمت في سماء الخيال ، وغاصت في مناجم الحقيقة ، وضربت بسهم في البلاغة والفصاحة ، واطلعت على معارف الحكماء ، وثمرات القرائح ورياض الادب ؛ فصقلت حواسيها وصفت مرآتها ، وترقرق بماء الجمال والبهاء أسلوبها ، وتنضر بنضرة النعيم بيانها ، حتى ذهب عنها ما كان يعروها من حُبسة واستغلاق ، وعى وحصر فأضحت ذات ملكة راسخة متغلغلة في الأعماق ، تنقبل من اللقاح الفكرى الخصب ما يشجذ قواها ، ويجمع قوتها ، ويحفظ عليها شبابها وجدتها . . هذه الملكة تفتتح بعدد عن براعمها وأكامها ، فتؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، وتجدد على الظالمين بحلو ربها ، وثمار غرسها ، كشجرة طيبة تؤدى رسالتها في صمت الفيلسوف الناطق ، ووقار الشيخ الناسك ! .

ولا تحسبن أنى أغرب عليك ، فإنها ملكة الشعراء رسل الخيال وأنبياء الجمال ، يجوبون مسرح الحياة فيحسون آلامنا : فيصورونها بهواظهم ، ويلونونها بريشتهم فتبكي العبي والمنطيق ، والجامدات من الكائنات ، ويشعرون بآلامنا فيسجلونها على أسطوانة مخيلاتهم ليهذبوا من أطرافها ، وبعدئذ يصوغونها في عبارات مشرقات كأنها الروحانيات العلوية أو التسابيح الفجرية ! .

وما الشعر إلا روح عنصره المسادة أو مادة عنصرها الروح ؛ إذ هو الوثبة السماوية الخاطفة ، أو اللعة البرقية السارية في حنايا الضلوع الإنسانية ، تصهرها في بوتقة الفسك ، ثم نضعها في قالبها اللغوى المصنوع لها لتخرج إلى الناس بشراً سوياً ، وتطلع عليهم كائنات حيا . . . ومن أجل ذلك كان الشعر الرفيع الحى هو هذا الكلام الطلى المشرق المحييا ، العطر الاردان ، الجميل المعطف الصافى البشرية ، سواء كان موزوناً مقفى ، كما اشترط الاولون أم كان منطلقاً حراً أيبا على القيود والسدود ، متمرداً على الوزن والتقفية . . . بيد أن الشعر لما علم أنه شقيق الموسيقى بما له من رنات وأصداه ، ونغم وتوقيع ولحن وتطريب وحسن أداء وجميل إلقاء ، كان من تمام هيكله ، وتحسين هيئته ، وبديع أمره أن يكون حبيس الاوزان والقوافى ، لا سيما شعر الهزج والإنشاد ، والمطارحة والشدو والغناء .

وبعد فالحياة هي الشعر ، والشعر هو الحياة ؛ فكن شاعرا لتحميا وتخلد في الخالدين ، واعلم أن الشعراء بيننا هم أول من يغبط ويستحق الحياة ، لذلك كانت مرتباتهم فوق أجواز الفلك ومناط الثريا ، وإن كانوا يبدوا يسعون على الأرض ، يأكلون الطعام ويشربون الماء ويمشون في الأسواق ١ .

وما قيمة الوجود في نظرة البصير إذا كان كله أشواك جوارح لازهور فيها ؟ والشاعر هنا هو الزهرة الغضة التي تنضج بالعطر الأنفيع ، والحسن الأسر ، والروض الباسم الغرد ، إذا صافح هزازه ، وتناول قيثاره ، وجمع حوله بلبله وأطياره ١ .

ولأمر ما نعى الله على جامدى العواطف ، من متحجرى الفكر ورا كدى الإحساس غفلتهم ، وإلغاهم عقولهم عن اجتلاء وحدانيته من وراء سطور الكون ، وهو كتابه العريض الأعظم ، وضلالهم وعميتهم عن آياته الشاهدات بقدرته النواطق بقوته ، فدعوا من دونه أحجاراً خرساً لا ينبغي للفكر الشاعر ، أو الحس المفكر أن يشعر حيالها برهبة أو سلطان ! . . نعى عليهم ذلك فقال لصفوة دعائه صلوات الله وتسليماته عليه : « إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين » ! وقال : « وما أنت بمسمع من فى القبور » ، وقال : « والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون » ، أموات غير أحياء وما يشعرون أيمان يبعثون ، فقد سماهم أمواتاً وجردهم من فضيلة الشعور !

وكل ما فى الطبيعة من ناطق وصامت ، لو أنعمت النظر فيه يوحى إليك بالتأملات والتصورات البهيجة والأكيلة البارة الجميلة ، كما يبعثك على التفكير واستنباط المبر . فكيف يقال إذن إن رجلاً ركب رأسه واتبع هواه ، فأوغل فى ظلمات الأرض ووثنياتها ، وحضل عن أبواب الروح وأنوار السماء ، غفلا قلبه من الأذواق المرفقة ، والمشاهير الحية ، واقفرت نفسه من الخواطر المؤمنة ، والأحاسيس المشرقة ، والوجدانيات الرقيقة ! كيف يقال إنه حى فى الأحياء ، [أوهانىء من السعداء ؟ هيئات هيئات .

حول الاذان المحمدي

للشيخ جاويد صونار

حملت إلينا الصحف نبأ القرار الصائب الذي اتخذته حكومة الجمهورية التركية بشأن قراءة الاذان المحمدي ، بلسانه الخاص ، أي بالعربية .
لا أقصد بكلمتي هذه التعليق على الموضوع من ناحية الترجمة بالذات ، وإمكان قراءة الاذان المحمدي بالتركية ، فإنني مع اعتقادي بأن أية ترجمة قد تؤدي أغراضها على الوجه الأكمل ، أترك الإدلاء بالرأى في ذلك إلى أهل الاختصاص في اللغات ؛ ليقروا ما إذا كان ممكناً أن تؤدي الترجمة من لغة لأخرى مهمتها تماماً من حيث المعاني — لأعرض للموضوع من ناحية أخرى جوهرية .

فإننا إذا استثنينا العلوم المادية أي المثبتة ، ولغتها الواضحة المبسطة الخاصة بها ، فهل في استطاعتنا أن نعبر تمام التعبير عن أفكارنا ، وخلصات نفوسنا بلغتنا الأصلية ، في ميادين العلوم المعنوية ؟ وبعبارة أخرى هل تستطيع المدلولات التي هي وسائل الفهم والتفاهم ، والكلمات التي هي قوالها المادية ، والسطور التي تتألف من تلك الكلمات ، هل تستطيع هذه الوسائل أن تعبر عن حياتنا المعنوية كل التعبير ، وأن تلم بها كل الإلمام ؟ ليس في وسعنا إلا أن نجيب بالنفي على مثل هذا السؤال ، لأن العلوم المعنوية ، تخاطب عقولنا وأرواحنا أكثر مما تخاطب حواسنا الخمس ، أي أنها متصلة بكياننا المعنوي ، لهذا كانت الرموز والأمثال ، في مثل هذه المعنويات هي وسيلة التفهيم والتفاهم ، ولهذا أيضاً كانت بحاجة إلى التفسير والتأويل .
وإذا نظرنا كذلك إلى علم الحقيقة أي الدين وهو أرق العلوم المعنوية شأنًا ، نجد ما للتفسير والتأويل من أهمية خاصة في إدراك معناه ، وبالأخص في الإلمام بحقيقة الأفعال والحركات الملازمة له . وإنه لفرض علينا أن نعمل بعلم الحقيقة في أفعالنا وحركاتنا التي تتجه بها إلى الحقيقة العظمى أي الدين ؛ وكما أن العلم بلا

عمل في حكم المفقود كذلك العمل بلا علم لا يفيد أى معنى ، من هذا يتضح جلياً وجوب معرفة اللسان الحقيقي لذلك العلم أى علم الحقيقة ، وهو الدين بالطريقة التى تؤدى الى الفهم بالرمز والمثال أكثر من لغة التخاطب .

مثال ذلك أننا نجد في قراءة الاذان بأداء مخصوص ، وكيفية مخصوصة من المعانى أكثر مما تدل عليه الالفاظ المجردة . فإن المؤذن عند ما يتجه إلى القبلة ويكرر جملة (الله أكبر) أربع دفعات ، يرمز إلى المراتب الالهية الخمس الموجودة في الفاتحة الشريفة التى هي أم القرآن ، كأنما يريد المؤذن أن يقول : الله أكبر من تلك المراتب التى تنتظم في سلك (الحمد لله — وهى مرتبة الالهية) و (رب العالمين — وهى مرتبة الربوبية) و (الرحمن — وهى مرتبة الرحمانية) و (الرحيم — وهى مرتبة الرحمة) و (مالك يوم الدين — وهى مرتبة المالكية) . ذلك لأن مرتبة الالهية أكثر عموماً وتشملها جميعاً .

ويرمز المؤذن في ندائه : (أشهد أن لا إله إلا الله) دفعتين إلى الجمع الظاهر والجمع الباطن ، كأنما يقول للبلا أشهد ألا إله غيره في الظاهر والباطن ، والظاهر هو مقام الشريعة أما الباطن فهو مقام الحقيقة ، ويرمز بقوله دفعتين : (أشهد أن محمداً رسول الله) إلى دعوة الانس في الأولى ودعوة الجن في الثانية إلى الإيمان برسالته . ويريد المؤذن بقوله : (حى على الصلاة) دفعتين وهو يلتفت إلى يمينه ، دعوة سعداء الانس ثم سعداء الجن وبقوله : (حى على الفلاح) دفعتين وهو يلتفت إلى اليسار دعوة أشقياء الانس وكذلك أشقياء الجن إلى الوحدة . أما جملة (الله أكبر) التى يكررها المؤذن وهو يتوجه الى القبلة فإنها إشارة إلى حضرة الغيب ، ثم إلى حضرة الشهادة وإلى أن الغيب أكبر من الشهود . أما جملة (لا إله إلا الله) التى يقولها أخيراً فإنها تفيد أحديته تعالى في ذاته .

هذه هي الفكرة في الاذان بأبسط صورها ومعانيها ، فكم يبلغ عدد المسلمين الذين يستمعون إلى الاذان ، وقد شملتهم هذه الفكرة المعنوية ، ثم يقومون بعدها إلى أداء فريضة الصلاة التى تحمل الشيء الكثير من المعانى السامية ، بنفس اللذة المعنوية التى استشعروها في نفوسهم عند الاستماع للأذان ؟

فهرس

المجلد الحادى والعشرون (لجنة ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م)

الموضوع	بقلم	صفحة
(١)		
ابراهيم والتوحيد	فضيلة الاستاذ محمد عبد المنعم خفاجى	٨٣٦
أبو تمام	سماعة د السيد	٦٥
أحاديث الاستاذ الأكبر		٤٨١-١٩٣
احتفال البعوث بعيد الجلوس الملىكى		٦٧٨-٦٧٣
الازهر بالعام الهجرى		٥
بعيد الميلاد الملىكى		٣٨٥
احتفال الازهر بذكرى المغفور له محمد على باشا الكبير		٩٧
الإخلاص فى العمل	فضيلة الاستاذ صادق خطاب	٩٣٥
الأدب والأديب	عبد الحميد المسلول	٩٣٥، ٨١٦
الأدب تحت راية القرآن	أحمد شاهين	١٨٧
أدب الحديث	كامل مجلان	٢٧٨
أدب الجوار	عبد المنعم أبو سعيد	٦٤٧
الأدب الدينى	ابراهيم أبو الخشب	٦١٤
الإسلام والتبني	أحمد الشرباصى	٦٦١
دين الامن والعمران	فضيلة د على رفاعى	١٦٨
فى سيراليون	حضرة د عمر طلعت زهران	٢٨١
والصين		٧٥٥
والمثل العليا	محمد عبد المنعم خفاجى	٨١

صفحة	بقلم	الموضوع
٦٣٤	فضيلة الاستاذ محمود أحمد جميلة	الإسلام فى وحدته وتعاليمه ...
٨٧٦	كتاب جماعة كبار العلماء إلى رفعة رئيس الوزراء	إصلاح الأخلاق ورعاية الآداب
٥٠١٠٤٠٣	الدكتور محمد الفحام	الإصلاح الاجتماعى ...
٤٤٧٠٣٤٥٠٣٣٠	محمد كامل الفقى	أعلام الأزهر ...
٧٢٩٠٦١٧٠٥٤٢	حضرة الاستاذ صالح بكير	الالتزامات المركبة ...
٩٢٤	فضيلة كامل عجلان	ألوان أهملت ...
١٦١	محمود الزاوى	الإمام البخارى ...
٥٦٦	ابراهيم أبو الحشب	أم المؤمنين عائشة ...
٤٥	منصور رجب	أنس بن مالك ...
٨٠٩	حضرة عبد المنعم الصانغ	أهداف الحرب فى الإسلام ...
٨٢٠	فضيلة فسكرى ياسين	أهداف الهجرة ...
٢٤١	منصور رجب	الإبلاء ...
١٨	حضرة عمر طلعت زهران	الإيمان ...
٦٣٨		(ب)
٨٩	لجنة الفتوى	باب الأسئلة والفتاوى ...
٧١٣	حضرة الاستاذ عمر طلعت زهران	الباكستان ...
٩٤٢	سماحة السيد	البيان لا المعجزة ...
٣٣٠	فضيلة عبد اللطيف السبكى	بين الشريعة والقانون ...
٢٤	عبد الله المراغى	بين مالك والليث ...
٥١٠٠٣١٥		(ت)
	فضيلة الاستاذ عبد الحميد المسلول	تأثر الشعر العربى برسالة الإسلام
٣٥٠	لجنة الفتوى	تنبى المسيحى للطفل المسلم ...
٦٣	حضرة الاستاذ عمر طلعت زهران	تدمير أورشليم ...
٤٧٠	فضيلة عبد المنعم أبو سعيد	تجاوب الشعور ...
٣٧٢	فسكرى ياسين	التساؤل والاختلاف ...
٩	حضرة صاحب العزة مدير المجلة	تقاريط ...
٨٧٦		
٧٦٧٠٤٧٩٦٩٥		

الموضوع	بقلم	صفحة
التقليد وخطره	الدكتور محمد يوسف موسى	٥٩٩، ٥٠٦
(ج)		
وجاهدوا فى الله حق جهاده	فضيلة الأستاذ محمود جميلة	٨١٢
جزاء وجزاء	محمد عبد التواب	٩١٨
جولة فى ملكوت الله	محمد جميلة	٢٤٩
(ح)		
الحب العفيف للزوج	لجنة الفتوى	٦١
الحج	فضيلة الأستاذ عبد المنعم أبو سعيد	٩٣٨
الحداد	فسكرى يس	٣٩٣
حرية الرأى	إبراهيم أبو الخشب	٥١
الحسين بن منصور الخلاج	محمود النواوى	١٣٤
حكم الشريعة فى استبدال النقد بالهدى	محمود شلتوت	١٣
الحكام السبعة	الدكتور أحمد فؤاد الأهواني	٢٤٥
الحكام السبعة عند العرب	فضيلة الأستاذ عبد المتعال الصعيدى	٧١٧
حكمة التفاوت بين الناس	محمد محمد المدنى	٤٩٥
حكومة الرسول بعد الهجرة	حضرة الأستاذ أحمد صلاح الدين عبد الرحمن	١٨٠
حول الأذان المحمدى	الشيخ جاويد صونار	٩٥٩
(خ)		
خضاب الشيب	فضيلة الأستاذ فسكرى يس	١٠٨
الخيال الشعرى	الشيخ أحمد محمد صقر	٥٦٩
(د)		
درس دينى بقصر رأس التين العامر	حضرة صاحب الفضيلة وكبل الأزمهر	٨٦٥
دعوة الى تعميم اللغة العربية	حضرة الأستاذ محمد حسن الأعظمى	١٧٢
الدنيا والدين	فضيلة محمد عبد التواب	٢٥٣
دوحة النور	سماحة د السيد	٦٦٥

الموضوع	بقسم	صفحة
الدين والاخلاق	الدكتور محمد يوسف موسى	٤٠٨
الدين والدنيا معاً	صاحب العزة مدير المجلة	٣٨٨
الدين والسياسة	فضيلة الاستاذ عبد المنعم أبو سعيد	٧٥١ ، ٥٥٨
(ذ)		
ذكرى ميلاد الرسول	د المنشاوى عبود الخولى	٢٧٤
ذكرى وفاة الملك فؤاد الاول	حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ وكيل الأزهر	٦٨١
الذوق فى القرآن	فضيلة الاستاذ إبراهيم أبو الخشب	٣٤٢
(ر)		
رسالة الحياة وكيف تؤدى	د على رفاهى	٤٣٩
الركن الشرعى للجريمة	الدكتور أحمد محمد إبراهيم	١٢٣ ، ٣٧
(ز)		
زيارة ملك الافغان للأزهر		٤٨٣
(س)		
سعيد بن المسيب	فضيلة الاستاذ محمود النواوى	٤٢٧ ، ٢٢٦
سؤال الناس	د إبراهيم أبو الخشب	٩٢١
السوفسطائيون فى نظر العرب	د أحمد شاهين	٧٦٠ ، ٧٤
سيبويه	د الدكتور محمد الفحام	٧٨٠
السيرافى	د د د د	٥٩٥
السيرة المحمدية	فضيلة الاستاذ إبراهيم أبو الخشب	١٤٠
(ش)		
شاعران يتناوبان الجائزة	فضيلة الاستاذ حسن جاد	٨٢٤
الشعر والحياة	الشيخ سعد الدين موسى كله	٩٥٦
الشرط فى الفقه الإسلامى	فضيلة الاستاذ صالح بكير	٨٢٨

صفحة	بقلم	الموضوع
٣٣٣	فضيلة الاستاذ أبو الوفا المراغى	الشريعة الاسلامية وقانون من أين لك هذا
١٦٤	د محمد حسين الفار	الشعر فى عصر إسماعيل
١٨٦	حضرة د محمد فؤاد عبد الباقي	الشيوعية والإسلام
(ص)		
٧٤٢٦٤٥٧٦١٥٥	فضيلة الاستاذ أحمد موسى	الصبيغ البديعى فى مدرسة السكاكى
٩٠٧	د عبد المتعال الصعيدى	صفايا الرؤساء
٢٠٢	د فكريس	صفة رسول الله فى التوراة
٦١١	د محمد عبد التواب	صنائع المعروف
٨٤٢	د عبد المنعم أبوسعيد	الصوم تأديب وتهذيب
(ط)		
٥٢٧	فضيلة الاستاذ محمود النواوى	طالب العلم بين ماضيه وحاضره ...
٣٥٥	الدكتور أحمد فؤاد الالهوانى	طاليس
٦٢٨	فضيلة الاستاذ حسن جاد	الطبيعة فى شعر ابن زيدون
٦٠٨	د أبو الوفا المراغى	الطفولة الضائعة
(ع)		
٢٠٨	د محمد محمد المدنى	عبدة الالهواء
٢٩	د الطيب النجار	عبرة وعظة
٤١٢	د محمد عبد التواب	العبرة فى ذكريات العظام
٨٥	د كامل عجلاى	عجالات فى الشوقيات
٨٥٩	د أحمد على منصور	العدالة فى الإسلام
٣٦١ ، ٣٣٦	د على حسن العمارى	العز بن عبد السلام
٧٣٨ ، ٦٤٢	د بدر المتولى عبد الباسط	العقيدة الإسلامية
٦٥٢	حضرة د عمر طلعت زهران	علماء المسلمين وتقدم العلوم
٨٨٥	فضيلة د محمد محمد المدنى	علمهم يكونوا لكم

الموضوع	بقلم	صفحة
على بن أبى طالب	فضيلة الأستاذ محمود النواوى	٩١٢، ٧٢٠
على هامش الادب	د د أبو الوفا المراغى	٥٢٣
عمار بن ياسر	د د عبد الله المراغى	٩٠٤
عمر بن الخطاب	د د إبراهيم أبو الخشب	٥٣٨
عناصر المدنية فى الديانة الإسلامية	صاحب العزة مدير المجلة	٦٨٥، ٥٧٧، ٤٨٧ ٨٧٢، ٧٦٩
(غ)		
غلبة عالم منى على دولة المأمون	فضيلة الأستاذ عبد المتعال الصعيدى	٥١٣
(ف)		
فاتحة السنة الحادية والعشرين	صاحب العزة مدير المجلة	٣
فتح القسطنطينية	حضرة الأستاذ أحمد صلاح الدين	٣٨٠
الفضيلة عند أرسطو	د د سعيد زايد	٧٤٧
فى أنهار الجنة	فضيلة د فكرى ياسين	٧٧٣
فى ذكرى المولد	د د محمود جميلة	٦٩
فى عالم المؤلفات		٦٦٧
فى العدل والجور	فضيلة الأستاذ محمود النواوى	٢١٢
فى علم الكلام ودراسه	د الدكتور محمد يوسف موسى	١٢٩
فى قصر الرشيد	د الأستاذ حسن خطاب	٥٧٣، ٢٨٦، ٩٢
فى كتاب الله	د د أبو الخشب	٤٤٣
فى محراب اقبال	د د كامل عجلان	٧٦٤
(ق)		
القتل غيلة فى الإسلام	فضيلة الأستاذ عبد المتعال الصعيدى	٣١١
قرآنية البسملة	د د الطيب النجار	١١٣
قصص القرآن	د د عبد الغنى الراجحى	٣٦٧
قوانين الفكر الضرورية	حضرة د سعيد زايد	٢٦١
(ك)		
كلية الحق	فضيلة الأستاذ على حسن العمارى	٩٥٠
كنز الادب الفاطمى	حضرة د محمد حسن الأعظمى	٩٤٦

الموضوع	بـقـم	صفحة
(ل)		
لا تياسوا من روح الله	فضيلة الاستاذ محمد محمد المدنى	٣٠٢
لا تعارض فى آيات الكتاب الكريم	» » الطيب النجار	٢١٨
لا تغضب	» » صادق خطاب	٨٣٢
لقويات	» » محمد على النجار	٢٢٤ ٥١٨ ٤٢٢ ٢٢٤ ٨٩٥ ٦٧٨ ٩٤٧ ٥٤٨
اللسان	» » عبد الحميد المسلول	٦٢٣
لمحات خالدة	» » كامل مجلان	٣٧٦
لمحة فى التشريع المقارن	حضرة » نجر الدين الصاحب	٩٥٣
(م)		
محاضرات فى الازهر الشريف	حضرة الاستاذ حسن الاعظمى	٢٦٧
محمد رسول الله	فضيلة » عبد العزيز موسى	٢٧٢
الحجة الخالصة	» » محمد عبد التواب	٧٨
المجتمع والسياسة	» » نور الدين شرية	١٧٥
مذهب الصرفة	» » هلى حسن العمازى	٤١٦ ٤٧٤ ٤٧٤ ٦٥٦
المسبحة من عظم الفيل	لجنه الفتوى	٦٢
مراقبة الدائن أموال مدينه	حضرة الاستاذ صالح بكير	٤١٨
المروءة	فضيلة » على رفاعى	٧٣٤
مع الشعراء	فضيلة الاستاذ ابراهيم أبو الخشب	٧٢٦
المعاهدة الإسلامية	» » المنشاوى هود الخولى	٥٥٣
معرفة الغيب	» » عبد الحميد المسلول	٥٤٧
مفردات فلسفية	الدكتور محمد يوسف موسى	٢٢٣ ٢٢٣ ٢٢٣ ٢٢٣ ٩٠٠ ٧٨٥ ٤٧٠ ٩٠٠
مكارم الاخلاق	فضيلة الاستاذ أبو بكر ذكرى	٤١٥ ٦٠٣ ٧٩٥ ٧٩٥
مكانة علم الاخلاق من الفلسفة	» » منصور رجب	١٤٧
من أخبار العباسيين	» » حسن خطاب	٨٦٣

الموضوع	بـ قـ لـ م	صفحة
من توجيهات القرآن	فضيلة الأستاذ عبد اللطيف السبكي	٨٨٩٠٦٩٨٠٥٩٠
من خصال الفطرة	د فسكرى يس	٤٩١
من طبائع الشعر الجاهلى	د حامد عوفى	٥٦٢
من طرائف القرآن	د عبد الغنى الراجعى	٨٤٦ ، ٥٥
من فقه عمر	د محمد محمد المدنى	٧٧٧
منهج الإسلام فى تربية الاولاد ...	د أبو الوفا المراغى	٨٠٤
موضوع علم الاخلاق	د منصور رجب	٤٦٢
المؤمنون الصادقون	د محمد عبد التواب	٨٠١
ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم ...	حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر	٢٨٩
ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم ...	فضيلة الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى	٢٥٦
(ن)		
ناحية من أسلوب القرآن فى القصص	فضيلة الأستاذ محمد محمد المدنى	٦٩٥٠٥٨٦
الناموس الادبى العام	حضرة صاحب العزة مدير المجلة	١٠٤٤٩
النبي والشعر	فضيلة الأستاذ عبد الحميد المسلول	٤٥٢
نذير من الغرب	د أبو الوفا المراغى	١٤٤
نظام الاسرة	د ابراهيم أبو الخشب	٢٢٧
نظرات فى توثيق المعاملات	د عبد اللطيف السبكي	٣٠٦٠١١٣ } ٤٩٨ ٤٣٤ }
(هـ)		
الهجرة النبوية — قصيدة	د حسن جاد	١٥٢
هدى الإسلام فى الزواج	د عبد المنعم أبو سعيد	٤٦٤
(و)		
الوحدة فى تعاليم الإسلام	د المنشاوى عبود الخولى	٨٥٣
ولاية المرأة	د فسكرى ياسين	٦٨٩
(ى)		
بأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل	د محمد محمد المدنى	٣٩٨

